Mugool.com

تاريخ الطبري

تاريخ الأمم والملوك

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
٢٢٤ - ٣١٠ هجرية

المجلد الثاني

من السنة الأولى للهجرة لغاية السنة ٣٥ للهجرة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمٰن الرحيم

ذكر الوقت الذي عمل فيه التأريخ

قال أبو جعفر : ولما قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة ، أمر بالتأريخ فيما قيل . حدّثني زكرياء بن يحيى بن أبي زائدة ، قال : حدّثنا أبو عاصم ، عن ابن جُرَيج ، عن أبي سلمة ، عن ابن شهاب ، أنّ النبيّ ﷺ لما قدم المدينة ـ وقدمها في شهر ربيع الأول ـ أمر بالتأريخ .

قال أبو جعفر : فذكر أنَّهم كانوا يؤرّخون بالشهْر والشهرين من مَقْدَمه إلى أن تمّت السنة ، وقد قيل إنّ أول مَنْ أمر بالتأريخ في الإسلام عمر بن الخطّاب ، رحمه الله .

ذكر الأخبار الواردة بذلك :

حدّثني محمد بن إسماعيل ، قال : حدّثنا أبو نعيم ، قال : حدّثنا حَبّان بن عليّ العَنَزيّ ، عن مُجالد ، عن الشعبيّ ، قال : كتب أبو موسى الأشعريّ إلى عمر : إنّه تأتينا منك كتب ليس لها تأريخ . قال : فجمع عمر النّاس للمشورة ، فقال بعضُهُم : أرّخْ لمبعثِ رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : لمهاجَرَ رسول الله ﷺ ، فقال عمر : لا بل نؤرّخ لمهاجَرَ رسولِ الله ﷺ ، فإنّ مهاجَرَه فرَق بين الحقّ والباطل .

حدّثني محمّد بن إسماعيل ، قال : حدّثنا قُتيبة بن سعيد ، قال : حدّثنا خالد بن حيّان أبو يزيد الخرّاز ، عن فُرات بن سَلْمان ، عن ميمون بن مهْران ، قال : رفِعَ إلى عمر صَكٌّ محلّه في شعبان ، فقال عمر : أيّ شعبان ؟ الذي هو آت ، أو الذي نحن فيه ؟ قال : ثم قال لأصحاب رسولِ الله ﷺ : ضعوا للنّاس شيئاً يعرفونه ، فقال بعضُهم : اكتُبوا على تأريخ الرّوم ، فقيل : إنهم يكتُبون من عَهْدِ ذي القرنين ؛ فهذا يطول . وقال بعضهم : اكتبوا على تأريخ الفرْس ؛ فقيل : إنّ الفرْس كلّما قام ملك طرح مَنْ كان قبله ؛ فاجتمع رأيُهُم على أن ينظروا : كَمْ أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ؟ فوجدوه عشر سنين ؛ فكتِب التأريخ من هجرة رسول الله ﷺ .

حدِّثت عن أميّة بن خالد وأبي داود الطّيالسيّ ، عن قرّة بن خالد السَّدوسيّ ، عن محمّد بن سيرين ، قال : قام رجلٌ إلى عمرَ بن الخطاب فقال : أرّخوا ، فقال عُمر : ما « أرّخوا » ؟ قال : شيء تفعله الأعاجم ، يكتبون في شَهر كذا من سنة كذا ، فقال عمر بن الخطّاب : حَسَنٌ ، فأرّخوا فقالوا : من أيّ السنين نبدأ ؟ قالوا : من مبعثِه ، وقالوا : من وفاتِه ؛ ثم أجمعوا على الهجرة ، ثم قالوا : فأيّ الشهور نبدأ ؟ فقالوا : رمضان ، ثم قالوا : المحرّم ، فهو منصَرَف الناس من حَجّهم ؛ وهو شهر حرام ، فأجمعوا على المحرَّم .

حدّثني محمّد بن إسماعيل ، قال : حدّثني سعيد بن أبي مريم . وحدّثني عبد الرّحمن بن عبد الله بن عبد الحكَم ، قال : حدّثنا أبي ، قالا جميعاً : حدّثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، قال : حدّثني أبو حازم ، عن سَهْل بن سعد ، قال : ما أصاب الناس العدَد ؛ ما عدُّوا من مبعث رسول الله ﷺ ، ولا من وفاته ، ولا عدُّوا إلّا من مقدَمه المدينة .

حدّثني محمد بن إسماعيل ، قال : حدّثنا سعيد بن أبي مريم ، قال : حدّثنا يعقوب بن إسحاق ، قال : حدّثني محمّد بن مسلم ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عبّاس ، قال : كان التأريخ في السّنة التي قدِم فيها رسول الله ﷺ المدينة ، وفيها وُلد عبدُ الله بن الزّبير .

حدّثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكَم ، قال : حدّثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي عبّاد ؛ قال : حدّثنا محمد بن مسلم الطائفيّ ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عبّاس ، قال : كان التأريخ في السنَةِ التي قَدِم رسولُ الله ﷺ فيها ، فذكر مثله .

حدّثني محمَّد بن إسماعيل ، قال : حدَّثنا قتيبة بن سعيد ، قال : حدّثنا نوح بن قيس الطَّاحيّ ، عن عثمان بن مِحْصن ، أنّ ابن عباس كان يقول في : ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾[1] ، قال : الفجر هو المحرّم ، فجْر السنة .

حدّثني محمد بن إسماعيل ، قال : حدّثنا أبو نُعَيْم الفضل بن دُكَين ، قال : حدّثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي إسحاق ؛ عن الأسود بن يزيد ، عن عُبيد بن عمير ، قال : إنَّ المحرّم شهرُ الله عزّ وجلّ ، وهو رأس السَّنة ، فيه يكسَى البيت ، ويؤرّخ التأريخ ، ويضرب فيه الورِق ، وفيه يوم كان تاب فيه قوم ، فتاب الله عزّ وجلّ عليهم .

حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ ، قال : حدّثنا أحمد ، قال : حدّثنا رَوْح بن عبادة ، قال : حدّثنا زكرياء بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار ، أنّ أوّل مَنْ أرّخ الكُتُب يعلى بن أميَّة ، وهو باليمن ، وأنّ النبي ﷺ قدِم المدينة في شهر ربيع الأول ، وأنّ النَّاس أرّخوا لأوّل السّنة ؛ وإنما أرّخ النَّاس لمقدَم النبيّ ﷺ .

وقال عليّ بن مجاهد ، عن محمَّد بن إسحاق ، عن الزهريّ . وعن محمَّد بن صالح ، عن الشعبيّ ، قالا : أرّخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم عليه السّلام إلى بنيان البيت ، حين بناه إبراهيم وإسماعيل ، ثم أرّخ بنو إسماعيل من بُنيان البيت ؛ حتّى تفرّقت ، فكان كلّما خرج قوم من تِهامة أرّخوا بمخرجهم ، ومَنْ بقي بتِهَامة من بني إسماعيل يؤرّخون من خروج سعد وَنَهْد وجُهَينة ، بني زيد ، من تِهامة ؛ حتى مات كعب بن لؤيّ ، فأرّخوا من موت كعب بن لؤيّ إلى الفيل ؛ فكان التأريخ من الفيل ، حتى أرّخ عمر بنُ الخطّاب من الهجرة ؛ وذلك سنة سبع عشرة أو ثمانيَ عشرة .

حدّثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكَم ، قال : حدّثنا نعيم بن حمّاد ، قال : حدّثنا الدراورديّ ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع ، قال : سمعتُ سعيد بن المسيّب ، يقول: جمع عمرُ بن الخطّاب النّاس ، فسألهم ، فقال : من أيّ يوم نكتب ؟ فقال عليّ عليه السّلام : من يوم هاجَر رسول الله

---

(١) سورة الفجر : ١ .

ﷺ ، وترك أرض الشِّرْك ، ففعله عمر رضي الله عنه .

قال أبو جعفر : وهذا الذي رَوَاه عليّ بن مجاهد ، عمّن رواه عنه في تأريخ بني إسماعيل غيرُ بعيد من الحق ؛ وذلك أنّهم لم يكونوا يؤرّخون على أمر معروف يعمل به عامّتهم ، وإنّما كان المؤرّخ منهم يؤرّخ بزمان قُحْمة كانت في ناحية من نواحي بلادهم ، ولَزْبَةٍ أصابتهم ؛ أو بالعامل كان يكون عليهم ، أو الأمر الحادث فيهم ينتشر خبره عندهم ؛ يدلّ على ذلك اختلافُ شعرائهم في تأريخاتهم ؛ ولو كان لهم تأريخ على أمرٍ معروف ، وأصلٍ معمول عليه ، لم يختلف ذلك منهم .

ومن ذلك قول الربيع بن ضَبُع الفَزَارِيّ :

هـأَنَـذَا آمُـلُ الْـخُـلُودَ وَقَـدْ ... أَدْرَكَ عَـقْـلِي وَمَـوْلَـدِي حُـجُـرَا
أَبـا امْرِىءِ الْقَيْسِ هَـلْ سَمِعْتَ بِـهِ ... هَيْهَـاتَ هَيْهَـاتَ طَـالَ ذَا عُـمُـرا!

فأرّخ عمْرَهُ بحجْر بن عمرو أبي امرىء القيس .

وقال نابغة بني جَعْدة :

فَـمَنْ يَـكُ سَـائِـلاً عَـنِّي فَــإِنّي ... مِـنَ الشُّـبَّـانِ أَزْمَـانَ الْـخُـنَـانِ

فجعل النّابغة تأريخَه ما أرّخ بزمان علّة كانت فيهم عامّة .

وقال آخر :

ومَـا هِـيَ إِلاَّ فِـي إِزارٍ وعِـلْقَـةٍ ... مَغَـارَ ابْنِ هَمَّـامٍ على حَيّ خُثْعَمَـا

فكلّ واحد من هؤلاء الذين ذكرت تأريخهم في هذه الأبيات ، أرّخ على قرْب زمان بعضهم من بعض ، وقرْب وقت ما أرّخ به من وقت الآخر ؛ بغير المعنى الذي أرّخ بِهِ الآخر ؛ ولو كان لهم تأريخ معروف كما للمسلمين اليوم ولسائر الأمم غيرها ، كانوا إن شاء الله لا يتعدَّوْنه ؛ ولكنّ الأمر في ذلك كان عندهم إنْ شاء الله على ما ذكرت ؛ فأمّا قريش من بين العرب ؛ فإنّ آخر ما حصلْتُ من تأريخها قبل هجرة النبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة على التأريخ بعام الفِيل ؛ وذلك عام وُلد رسولُ الله ﷺ ، وكان بين عام الفيل والفِجار عشرون سنة ، وبين الفِجار وبناء الكعبة خمس عشرة سنة ، وبين بناء الكعبة ومبعث النبيّ ﷺ خمس سنين .

قال أبو جعفر : وبُعث رسولُ الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة ، وقُرن بنبوّته ـ كما قال الشعبيُّ ـ ثلاث سنين : إسرافيلُ ؛ وذلك قبل أن يؤمر بالدعاء وإظهاره على ما قدّمنا الرواية والإخبار به ، ثم قُرن بنبوّته جبريلُ عليه السلام بعد السنين الثلاث ، وأمرَه بإظهار الدعوة إلى الله ، فأظهرها ، ودعا إلى الله مقيماً بمكّة عشر سنين ، ثم هاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأوّل من سنة أربع عشرة من حين استنبىء ، وكان خروجه من مكّة إليها يوم الاثنين ، وقدومه المدينة يوم الاثنين ؛ لمضيّ اثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول .

حدّثني إبراهيم بن سعيد الجوهري ، قال : حدّثنا موسى بن داود ، عن ابن لهيعة ، عن خالد بن أبي عمران ، عن حنش الصنعانيّ ، عن ابن عبّاس ، قال : ولِد النبيّ ﷺ يومَ الاثنين ، واستُنبىء يوم الاثنين ، ورفع الحَجَر يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكّة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبِض يوم الاثنين .

حدّثنا ابن حُمَيد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق ، عن الزّهريّ ، قال : قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة يوم الاثنين ، لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من شهر ربيع الأول .

قال أبو جعفر : فإذا كان الأمرُ في تأريخ المسلمين كالذي وصفت ، فإنّه وإن كان من الهجرة ، فإنّ ابتداءهم إياه قبل مقدَم النبيّ ﷺ المدينة بشهرين وأيام ؛ هي اثنا عشر ؛ وذلك أنّ أوّل السّنة المحرّم ، وكان قدومُ النبيّ ﷺ المدينة ، بعد مُضِيّ ما ذكرت من السنة ، ولم يؤرّخ التأريخ من وقت قدومه ؛ بل من أول تلك السنة .

ذكر ما كان
من الأمور المذكورة في أول سنة من الهجرة

قال أبو جعفر : قد مَضَى ذكرُنا وقْت مقدَم النبيّ ﷺ المدينة ، وموضعه الذي نزل فيه حين قدمها ، وعلى مَنْ كان نزوله، وقَدْر مُكْثه في الموضع الذي نزله ، وخبر ارتحاله عنه . ونذكر الآن ما لم نذكُر قبلُ ممّا كان من الأمور المذكورة في بقيَّة سنة قدومه ؛ وهي السَّنة الأول من الهجرة .

فمن ذلك تجميعُه ﷺ بأصحابه الجُمُعة ، في اليوم الذي ارتحل فيه من قُبَاء ؛ وذلك أنّ ارتحاله عنها كان يوم الجمعة عامداً المدينة ، فأدركتْه الصّلاة ، صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف ، ببطن واد لهم ـ قد اتُّخذ اليوم في ذلك الموضع مسجداً ـ فيما بلغني ـ وكانت هذه الجمعة ، أوّلَ جمعة جمّعها رسولُ الله ﷺ في الإسلام ، فخطب في هذه الجمعة ؛ وهي أول خطبة خطبها بالمدينة فيما قيل .

خطبة رسول الله ﷺ
في أوّل جمعة جَمَّعها بالمدينة

حدّثني يونس بن عبد الأعْلى ، قال : أخبرَنا ابنُ وهْب ، قال : حدّثني سعيد بن عبد الرحمن الجُمحيّ ، أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أوّلِ جمعة صلاّها بالمدينة في بني سالم بن عوف :

الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأؤمن به ولا أكفُره ، وأعادي مَنْ يكفره ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له ، وأنّ محمَّداً عبدُه ورسوله ؛ أرسله بالهُدى والنور والموعظة ، على فَتْرَة من الرسل ، وقلّةٍ من العلم ، وضلالةٍ من النَّاس ، وانقطاع من الزمان ، ودُنُوّ من الساعة ، وقُرْبٍ من الأجَل ؛ مَنْ يُطع الله وَرَسُولَه فَقَد رَشَد ، ومن يعْصهما فقد غوَى وفرّط ؛ وضَلّ ضَلالاً بَعيداً . وأوصيكُم بتقوى الله ، فإنه خيرُ ما أوصَى به المسلمُ المسلمَ ؛ أن يَحُضّه على الآخرة ، وأن يأمرَه بتقوى الله ، فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً ؛ وإنّ تقوى الله لمن عَمِلَ به على وَجلٍ ومخافة من ربّه ، عَوْنُ صدْق على ما تَبْغُون من أمر الآخرة . وَمَن يصلِح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية ، لا ينوي بذلك إلّا وَجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذُخْراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كانَ من سِوَى ذلك يَوَدُّ لَوْ أَنّ بيْنها وَبَينهُ أمَداً بعيداً ، ويحذّركم الله نفسَه ، والله رؤوف بالعباد . والذي صدّق قوله ، وأنجز وَعْدَه ، لا خُلفَ لذلك ، فإنّه يقول عزّ وجلّ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ

وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾(١) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السرّ والعلانية ، فإنّه مَنْ يتّقِ الله يُكفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاته ، ويُعْظم له أجْراً ، ومَنْ يتّق الله فقد فاز فَوْزاً عظيماً . وإنّ تقوى الله يُوَقّي مقته ، ويوقّي عقوبته ، ويوقّي سَخَطَه ، وإنّ تقوى الله يُبيِّض الوجوه ، ويُرْضي الربَّ ، ويرفع الدّرجة .

خذوا بحظّكم ، ولا تفرّطوا في جَنْب الله ؛ قد علَّمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيلَه ، ليعلَم الّذين صدقوا ويعلَم الكاذبين . فأحْسِنوا كما أحْسَن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين ، ليَهْلِكَ مَنْ هلَكَ عن بيِّنة ، ويحيا من حَيّ عنْ بيِّنة ، ولا قوّة إلّا بالله . فأكثِرُوا ذكْرَ الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فإنه مَنْ يصلح ما بينه وبين الله يَكْفِه الله ما بينه وبين النَّاس ، ذلك بأنّ الله يقضِي على النّاس ولا يقضُون عليه ، ويملِكُ من النّـاس ولا يملكون منه ؛ الله أكبرُ ، ولا قـوّةَ إلّا بالله العظيم ! .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمَة ، عن ابن إسحاق ، أنّ رسولَ الله ﷺ ركِب ناقتَه ، وأرخَى لها الزّمام ، فجعلَتَ لا تَمُـرُّ بدار من دُور الأنصـار إلّا دعاه أهلُهـا إلى النزول عنـدهم ، وقالـوا له : هَلمّ يـا رسولَ الله ! إلى العَدَد والعُدّة والمَنعة ؛ فيقول لهم ﷺ : خَلُّوا زِمامها فإنها مأمورة ؛ حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم ، فبرَكت على باب مسجده ؛ وهو يومئذ مِرْبَدٌ لغلامينْ يتيمين من بني النّجار في حِجْر مُعاذ بن عَفْراء ؛ يقال لأحدهما سهل وللآخر سهيل ، ابنا عمرو بن عباد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النَّجار . فلما بركَتْ لم ينزل عنها رسولُ الله ﷺ ، ثم وثَبَتْ فسارتْ غيرَ بعيد ، ورسولُ الله ﷺ واضعٌ لها زمامها لا يَثْنِيها به ؛ ثم التفتت خلْفها ، ثم رجعت إلى مَبْرَكِها أوّل مرة ، فبركت فيه ووضعت جِرَانَها ، ونزل عنها رسولُ الله ﷺ ، فاحتمل أبو أيوب رحله ، فوضعه في بيته ، فدعَتْه الأنصار إلى النزول عليهم ، فقال رسولُ الله ﷺ : المرءُ مع رحله . فنزل على أبي أيوب خالد بن زيد بن كليب ، في بني غَنْم بن النّجّار .

قال أبو جعفر : وسألَ رسولُ الله ﷺ عن المِرْبَد لمن هو؟ فأخبره مُعاذ بن عفراء ، وقال : هو ليتيمينْ لي ، سأرضيهما . فأمر به رسولُ الله ﷺ أن يُبْنى مسجداً ، ونزل على أبي أيّوب ، حتى بنى مسجدَه ومساكنه . وقيل : إنّ رسولَ الله ﷺ اشترى موضعَ مسجده ، ثم بناه .

والصحيح عندنا في ذلك ، ما حدّثنا مجاهد بن موسى ، قال : حدّثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا حمّاد بن سلَمة ، عن أبي التَّيّاح ، عن أنس بن مالك ، قال : كان موضع مسجدِ النبيّ ﷺ لبني النَّجار ، وكان فيه نخل وحَرْث وقبورٌ من قبور الجاهليّة ، فقال لهم رسولُ الله ﷺ : ثامنُوني به ، فقالوا : لا نبتغي به ثمناً إلّا ما عند الله . فأمَر رسولُ الله ﷺ بالنَّخْل فقطِع ، وبالحرْث فأفسد ، وبالقبور فنبشتْ ، وكان رسولُ الله ﷺ قبل ذلك يصلّي في مرابض الغنم ، وحيث أدركته الصلاة .

قال أبو جعفر : وتولّى بناء مسجِده ﷺ هو بنفسه وأصحابه من المهاجرين والأنصار .

وفي هذه السَّنة بُني مسجد قُباء .

وكان أوّلَ من تُوفّيَ بعد مقدمه المدينة من المسلمين ـ فيما ذكر ـ صاحب مَنْزِله كُلْثوم بن الهِدْم ، لم يلبَث

---

(١) سورة ق : ٢٩ .

بعد مقدَمه إلّا يسيراً حتى مات .

ثم توفّيَ بعده أسعدُ بن زُرارة في سَنَة مقدَمِه ، أبو أمامة . وكانت وفاته قبل أن يَفْرُغَ رسول الله ﷺ من بناء مسجده ، بالذّبْحَة والشَّهْقَة . فحدّثنا ابنُ حُمَيْد ، قال : حدّثنا سلَمَة ، قال : قال محمد بن إسحاق : حدّثني عبد الله بن أبي بكر ، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن ؛ أنّ رسول الله ﷺ قال : بئس المَيِّتُ أبو أمامة لِيَهودَ ومنافقي العرب ! يقولون : لو كان محمّد نبيًّا لم يَمُتْ صاحبُه ؛ ولا أمْلِكُ لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً .

وقد حدّثنا محمَّد بن عبد الأعلى ، قال : حدّثنا يزيد بن زُرَيع ، عن معمَر ، عن الزهري ، عن أنَس ، أنّ النبيّ ﷺ كَوَى أسعد بن زُرارة من الشَّوْكَةِ .

قال ابنُ حُميد : قال سلمَة ، عن ابن إسحاق ، قال : حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاريّ أنه لما مات أبو أمَامة أسعد بن زرارة ، اجتمعتّ بنو النَّجار إلى رسول الله ﷺ - وكان أبو أمامة نقيبَهم - فقالوا : يا رسولَ الله ؛ إنّ هذا الرّجل قد كان منّا حيث قد علمت ؛ فاجعلْ منّا رجلًا مكانه ، يقيم من أمرنا ما كان يقيمه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : أنتمْ أخوالِي وأنا منكم ، وأنا نقيبكم .

قال : وَكَرِه رسولُ الله ﷺ أن يَخُصَّ بها بعضَهم دون بعض ؛ فكان من فَضْل بني النجار الذي تَعدّ على قومهم ، أنّ رسولَ الله ﷺ كان نقيبَهم .

وفي هذه السنة مات أبو أحَيْحَةَ بماله بالطائف . ومات الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السَّهْميّ فيها بمكّة .

وفيها بَنى رسولُ الله ﷺ بعائشة بعد مقدَمِهِ المدينة بثمانيَة أشهر ؛ في ذي القَعدة في قول بعضهم ، وفي قول بعضٍ : بعد مقدَمِه المدينة بسبعة أشهر ، في شَوّال ، وكان تزوّجها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة خديجة وهي ابنة ستّ سنين ، وقد قيل : تزوّجها وهي ابنةُ سبع .

حدّثنا عبدُ الحميد بن بَيَان السكريّ ، قال : أخبرَنا محمَّد بن يزيد ، عن إسماعيل - يعني ابن أبي خالد - عن عبد الرحمن بن أبي الضّحاك ، عن رجل من قُرَيش ، عن عبد الرحمن بن محمَّد ، أنّ عبد الله بن صفوان وآخر معه أتيا عائشةُ ، فقالت عائشة : يا فلان ؛ أسمعتَ حديث حَفْصَة ؟ قال لها : نعم يا أمّ المؤمنين ، قال لها عبدُ الله بن صفوان : وما ذاك ؟ قالت : خِلَالٌ فِيَّ تسع لم تكن في أحَدٍ من النِّساء إلّا ما آتى الله مَرْيَمَ بنت عِمْران ؛ والله ما أقول هذا فخراً على أحد من صواحبي ، قال لها : وما هنّ ؟ قالت : نزل المَلَكُ بصورتي ، وتزوّجني رسولُ الله ﷺ لسبع سنين ، وأهدِيتُ إليه لتسع سنين ، وتزوّجَني بكراً لم يشركْهُ فيَّ أحَدٌ من الناس ، وكان يأتيه الوحي وأنا وهو في لحاف واحد ، وكنتُ مِنْ أحبِّ الناس إليه ، ونزل فيَّ آيةٌ من القرآن كادت الأمّةُ أن تهلك، ورأيت جبريل ولم يره أحَدٌ من نسائه غيري، وقُبض في بَيْتِي لم يلِهِ أحدٌ غير المَلَك وأنا .

قال أبو جعفر : وتزوّجها رسولُ الله ﷺ - فيما قيل - في شوّال ، وبَنَى بها حين بنى بها في شَوّال .

ذكر الرّواية بذلك :

حدّثنا ابنُ بشّار ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد ، قال : حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أميَّة ، عن عبد الله بن عُرْوة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : تزوّجني رسُولُ الله ﷺ في شوّال ، وبنَى بي في شوّال . وكانت عائشة تستحبُّ أن يُبْنى بالنساء في شوّال .

حدَّثنا ابنُ وكيع ، قال : حدّثنا أبي ، عن سفيان ، عن إسماعيل بن أمية ، عن عبد الله بنُ عُرْوة ، عن عُرْوة ، عن عائشة ، قالت : تزوَّجني رسولُ الله ﷺ في شوّال ، وبنى بي في شوّال ، فأيُّ نساء رسول الله كانت أحْظَى عنده منّي ! وكانت عائشة تستحبّ أن يُدْخَلَ بالنساء في شوّال .

قال أبو جعفر : وقيل : إنَّ رسولَ الله ﷺ بَنَى بها في شوَّال يوم الأربعاء ، في منزل أبي بكر السُّنْح .

وفي هذه السنة بعثَ النبيُّ ﷺ إلى بناتِهِ وزوجتِهِ سَوْدَة بنت زَمْعَة ، زيدَ بن حارثة وأبا رافع ، فحملاهنّ من مكّة إلى المدينة .

ولّما رجع ـ فيما ذكر ـ عبد الله بن أرَيْقِط إلى مكَّة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكان أبيه أبي بكر ، فَخَرَجَ عبدُ الله بعِيَال أبيه إليه ، وصَحِبَهم طَلْحَةَ بن عبيد الله ، معهم أمّ رُومان ، وهي أمّ عائشة ؛ وعبد الله بن أبي بكر حتى قدموا المدينة .

وفي هذه السنة زِيد في صلاة الحَضَر ـ فيما قيل ـ ركعتان ، وكانت صلاة الحَضَر والسفَرَ ركْعتين ؛ وذلك بعد مقدَم رسول الله ﷺ المدينةَ بشهر ، في ربيع الآخر ، لُمضيّ اثنتيْ عشرة ليلة منه ، زعم الواقديّ أنه لا خلاف بين أهل الحجاز فيه .

وفيها ـ في قول بعضهم ـ وُلِد عبد الله بن الزُّبير . وفي قول الواقديّ : وُلِدَ في السَّنَة الثانية من مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينة في شوال .

حدّثني الحارثُ ، قال : حدَّثنا ابنُ سعد ، قال : قال محمد بن عُمَر الواقديّ ، وُلِد ابنُ الزّبير بعد الهجرة بعشرين شهراً بالمدينة .

قال أبو جعفر : وكان أوّلَ مولودٍ ولد من المهاجرين في دار الهِجْرة ، فكبَّر ـ فيما ذُكر ـ أصحابُ رسول الله ﷺ حين وُلِد ؛ وذلك أنَّ المسلمين كانوا قد تحدَّثوا أنَّ اليهود يذكرون أنَّهم قد سَحَروهم فلا يُولَد لهم ؛ فكان تكبيرُهم ذلك سروراً منهم بتكذيب الله اليهود فيما قالوا من ذلك .

وقيل : إن أسماءَ بنت أبي بكر، هاجرتْ إلى المدينة وهي حامِلٌ به .

وقيل أيضاً : إنَّ النّعمان بن بَشِير وُلِد في هذه السنة ؛ وإنَّه أوّل مولود وُلِد للأنصار بعد هجْرة النبيّ ﷺ إليهم ، وأنكر ذلك الواقديّ أيضاً .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا الواقديّ ، قال : حدّثنا محمَّد بن يحيى بن سهل بن أبي حثْمَة ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كانَ أوَّل مولود من الأنصار النعمان بن بشير ؛ ولد بعد الهجْرَة بأربعة عشر شهراً ، فتوفّي رسولُ الله ﷺ وهو ابن ثماني سنين ، أوْ أكثر قليلاً .

قال : وولد النُعمان قبل بدْر بثلاثة أشهر أو أربعة .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابنُ سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حـدّثنا مُصْعَب بن ثابت ، عن أبي الأسود ، قال : ذُكِر النُّعمان بن بشير عند ابنِ الزبير ، فقال : هو أسنُّ منّي بستَّة أشهر .

قال أبو الأسود : ولد ابنُ الزُّبير على رأس عشرين شهراً من مهاجَر رسولِ الله ﷺ ، وولِد النعمان على رأس أربعة عشر شهراً في ربيع الآخر .

قال أبو جعفر : وقيل : إنَّ المُختارَ بن أبي عُبَيْد الثَّقفيّ وزياد بن سُمَيّة فيها وُلدا .

قال : وزعم الواقديّ أنّ رسولَ الله ﷺ عقد في هذه السَّنة في شهر رمضان ، على رأس سبعة أشهر من مهاجَره ، لحمزة بن عبد المطَّلب لواءً أبيض في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، ليعترض لِعَيرات قريش ، وأنّ حمزة لقيَ أبا جهل [بن هشام] في ثلاثمائة رجل ، فحجز بينهم مَجْدِيُّ بن عمْرو الجُهنيّ فافترقوا ، ولم يكن بينهم قتال . وكان الّذي يحمل لواءَ حمزة أبو مَرْثَد .

وأنّ رسول الله ﷺ عقد أيضاً في هذه السَّنة ، على رأس ثمانية أشهر من مهاجَرَه في شوّال ، لعُبَيْدة بن الحارث بن المطَّلب بن عبد مناف لواء أبيض ، وأمَرَه بـالمسير إلى بطْن رَابغ ، وأنّ لواءه كان مع مِسْطَح بن أُثاثة ، فبلغ ثنيَّة المَرَة ـ وهي بناحية الجُحْفة ـ في ستّين من المهاجرين ، ليس فيهم أنصاريّ ؛ وأنَّهم التقوْا هم والمشركون على ماء يقال له أحياء ؛ فكان بينهم الرّمْي دون المسايَفة .

قال : وقد اختلفوا في أمير السريَّة ؛ فقال بعضُهم : كان أبو سفيان بن حَرْب ، وقال بعضهم : كان مُكَرَز بن حفص .

قال الواقديّ : ورأيت الثَّبتَ على أبي سفيان بن حرب ، وكان في مائتين من المشركين .

قال : وفيها عَقَد رسولُ الله ﷺ لسعد بن أبي وقّاص إلى الخَرَّار لواءً أبيض يحمله المقداد بن عمرو في ذي القَعْدة . وقال : حدّثني أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، قال : خرجتُ في عشرين رجلاً على أقدامِنا ـ أو قال : واحد وعشرين رجلاً ـ فكُنّا نكمُنُ النَّهار ، ونسير الليل حتى صَبَّحْنا الخَرَّار صُبْحَ خامسةٍ ؛ وكان رسولُ الله ﷺ ، قد عهد إليَّ ألاّ أجاوز الخَرَّار ، وكانت العِيرُ قد سبقتْني قبل ذلك بيوم ، وكانوا ستين ، وكان مَنْ مع سعد كلّهم من المهاجرين .

قال أبو جعفر : وقال ابن إسحاق في أمر كلّ هذه السرايا التي ذكرتُ عن الواقديّ قولَه فيها غير ما قاله الواقديّ ، وأنّ ذلك كلَّه كان في السنة الثَّانية من وقت التاريخ .

حدّثنا ابنُ حُمَيد ، قال : حدَّثنا سلَمة بن الفضل ، قـال : حدَّثني محمّـد بن إسحاق ، قـال : قدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ في شهر ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة مضت منه ، فأقام بها ما بقِيَ من شهر ربيع الأوَّل وشهرَ ربيع الآخـر وَجُمادَيـيْن وَرَجَب وشعبان ورمضـان وشَوَّالاً وذَا القَعـدة وذا الحجّة ـ وولى تلك الحجَّـة المشركون ـ والمحرَّمَ . وخرج في صفَر غازياً على رأس اثني عشر شهراً من مقدَمَه المدينة ، لِثِنْتَيْ عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأوّل ؛ حتى بلغ وَدَّان ؛ يريد قريشاً وبني ضَمْرة بن بكْر بن عبد مناة بن كنانة ؛ وهي غزوة الأبْواء ، فوادعتْهُ فيها بنو ضَمْرة ؛ وكان الّذي وادَعه منهم عليهم سيّدهم كان في زمانه ذلك ، مَخشيّ بن عمرو ، رجل منهم .

قال : ثمّ رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة ، ولم يلقَ كَيْداً ، فأقام بها بقيَّة صَفَر وصدْراً من شهر ربيع الأوّل .

وبعث في مقامه ذلك عُبَيْدَةَ بن الحارث بن المطّلب في ثمانين أو ستين راكباً من المهاجرين ؛ ليس فيهم من الأنصار أحدٌ ، حتى بَلَغَ أحياء (ماء بالحجاز بأسفل ثنيَّة المَرة) ، فلقِيَ بها جَمْعاً عظيماً من قريش ؛ فلم يكن بينهم قتال ؛ إلّا أنّ سعد بن أبي وقّاص قد رَمَى يومئذ بسهم ؛ فكان أوّل سهم رُمِي به في الإسلام .

ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامِيَةٌ ، وَفرَّ مِنَ المشركين إلى المسلمين المِقْداد بن عمرو البَهْرانيّ حليف بني زُهْرة ،وعُتْبة بن غَزْوان بن جابر حليف بني نوْفل بن عبد مناف ـ وكانا مسلمين ؛ ولكنّهما خرجا يتوصّلان بالكُفَّار إلى المسلمين ـ وكان على ذلك الجمع عِكْرِمَة بن أبي جهل .

قال مُحَمّد : فكانت رايةُ عُبَيدة ـ فيما بلغني ـ أول راية عقدها رسولُ الله ﷺ في الإسلام لأحد من المسلمين .

وحدّثنا ابن حُمَيد ، قال : حدّثنا سَلمة ، قال : حدّثني محمّد بن إسحاق ، قال : وبعض العلماء يزعُم أن رسولَ الله ﷺ كان بعثه حين أقبل من غزوة الأبْواء قبل أن يصِلَ إلى المدينة . قال : وبعث حمزة بن عبد المُطّلب في مقامه ذلك إلى سيف البحر من ناحية العِيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ؛ وهي من أرض جُهَينة ليس فيهم من الأنصار أحدٌ ، فلقِيَ أبا جهل بن هشام بذلك السَّاحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكّة ، فحجز بينهم مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنيّ ، وكان مُوَادِعاً للفريقين جميعاً ، فانصرف القومُ بعضهم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .

قال : وبعضُ القوم يقول : كانت راية حمزةَ أول راية عَقَدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين ، وذلك أنّ بَعْثَه وَبَعْثَ عُبَيدة بن الحارث كانا معاً ، فشُبِّه ذلك على الناس .

قال : والَّذي سمِعْنا من أهل العلم عندنا أنّ راية عُبيدة بن الحارث كانت أوّلَ راية عُقدت في الإسلام .

قال : ثم غزا رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الآخر ، يريد قريشاً ، حتى إذا بلغ بُوَاط من ناحية رَضْوَي رجع ولم يَلْقَ كَيْداً ، فلبث بقيَّة شهر ربيع الآخر وبعضَ جُمادى الأولى .

ثم غزا يريد قريشاً ، فسلَك على نَقْب بني دينار بن النجّار ، ثم على فَيْفَاءَ الخَبَار ، فنزل تحت شجرة ببَطْحاء ابن أزْهَر ، يقال لها : ذات السَّاق ، فصلَّى عندها ، فثمّ مسجده . وصُنِعَ له عندها طعامٌ فأكل منه وأكل الناس معه ، فموضع أثافيّ البُرْمة معلوم هنالك . واستُقِيَ له من ماء به يقال له المُشَيْرِب . ثم ارتَحل فترك الخلائق بيَسار ، وسلك شعْبَة يقال لها شعبة عبد الله ـ وذلك اسمها اليوم ـ ثم صبّ لِيَسار ، حتى هبطَ يَلْيَل ، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضَّبُوعة ؛ واستُقِيَ له من بئر بالضَّبُوعة . ثم سلك الفَرْش ؛ فرش مَلَل ، حتى لقيَ الطريق بصخَيرات اليمام . ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العُشَيْرَة من بطن يَنْبُع ، فأقام بها بقيَّة جُمادىٰ الأولى وليالِيَ من جُمادى الآخرة ، ووادَع فيها بني مُدْلج وحلفاءهم من بني ضَمْرة . ثم رجع إلى المدينة ، ولم يَلْقَ كيداً .

وفي تلك الغزوة قال لعليّ بن أبي طالبِ عليه السلام ما قال .

قال : فلم يُقِمْ رسولُ الله ﷺ حين قَدِم من غَزْوة العُشَيْرة بالمدينة إلَّا ليالِيَ قلائل لا تَبْلغ العَشْر ، حتى أغار كُرْزُ بن جابر الفِهْريّ على سَرْح المدينة ، فخرج رسولُ الله ﷺ في طلَبه ، حتى بلغ وادياً يقال له سَفَوَان من ناحية بدْر ، وفَاتَه كرز فلم يدرِكه ؛ وهي غزو بدر الأولى ؛ ثم رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة ، فأقام بها بقيَّة جُمادى الآخرة ورجبَ وشعبان . وقد كان بعث فيها بين ذلك سَعْد بن أبي وَقَّاص في ثمانية رهط .

وزعم الواقديّ أنّ في هذه السنة ـ أعني السَّنة الأولى من الهجرة ـ جاء أبو قيس بن الأسْلَت رسولَ الله ﷺ ، فعرَضَ عليه رسولُ الله ﷺ الإسلام ، فقال : ما أحسَنَ ما تدعو إليه ! أنظُرُ في أمري ، ثم أعود إليك . فلقيَهُ عبدُ الله بن أبيّ ، فقال له : كرهتَ والله حرب الخزرج ! فقال أبو قيس : لا أسلِم سنة ؛ فمات في ذي القعدة .

ثم كانت السنة الثانية من الهجرة

فغزا رسولُ الله ﷺ - في قول جميع أهل السِّيَر - فيها ، في ربيع الأوّل بنفسه غَزْوَةَ الأبْواء - ويقال وَدَّان - وبينهما ستَّة أميال هي بحذائها ؛ واستخلَف رسولُ الله ﷺ على المدينة حين خرج إليها سعدَ بن عُبادة بن دُلَيْم . وكان صاحبَ لوائه في هذه الغَزاة حمزة بن عبد المُطَّلب ، وكان لواءه - فيما ذكر - أبيض .

وقال الواقديّ : كان مُقامه بها خمسَ عشرة ليلة ، ثم قَدِم المدينة .

قال الواقديّ : ثم غزا رسولُ الله ﷺ في مائتين من أصحابه ؛ حتى بلغ بُواط في شهر ربيع الأوّل ؛ يعترض لِعَيرات قريش ، وفيها أميَّة بن خلَف ومائة رجلٍ من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير . ثم رَجَع ولم يَلْقَ كيداً .

وكان يحملُ لواءه سعدُ بن أبي وقَّاص ، واستخلَف على المدينة سَعْد بن مُعاذ في غَزْوَتِه هذه .

قال : ثم غزا في ربيع الأوّل في طلب كُرْزين بن جابر الفِهْريّ في المهاجرين ، وكان قد أغار على سَرْح المدينة ، وكان يرعى بالجَمَّاءِ فاستاقه ، فطلبه رسولُ الله ﷺ حتى بلغ بَدْراً فلم يلحقه ؛ وكان يحمل لواءه عليُّ بن أبي طالب عليه السلام . واستخلف على المدينة زيدَ بن حارثة .

قال : وفيها خرجَ رسولُ الله ﷺ يعترض لِعَيرات قريش حين أبدأت إلى الشَّأم في المهاجرين - وهي غزوة ذات العُشَيرة - حتى بلغ يَنْبُع ؛ واستخلف على المدينة أبا سلَمة بن عبد الأسد ؛ وكان يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب . فحدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرّقيُّ ، قال : حدّثنا محمّد بن سلَمة ، عن محمّد بن إسحاق ، عن محمّد بن يزيد بن خُثَيم ؛ عن محمد بن كعب القرظيّ ؛ قال : حدّثنا أبوك يزيد بن خُثَيْم ، عن عمّار بن ياسر ، قال : كنت أنا وعليّ رفيقين مع رسول الله ﷺ في غزوة العُشَيْرَة ، فنزلنا منزلاً ، فرأينا رجالاً من بني مُدْلِج يعملون في نخْل لهم ، فقلت : لو انطلقنا ! فنظرنا إليهم كيف يعملون ، فانطلقنا فنظرنا إليهم ساعة ، ثم غَشِينا النُّعاسُ ، فعمَدنا إلى صَوْر من النخل ؛ فنمْنا تحته في دقْعاء من التراب ، فما أيقظنا إلاّ رسولُ الله ﷺ ، أتانا وقد تَتَرَّبْنَا في ذلك التراب ، فحرّك عليًّا برجله ، فقال : قم يا أبا تراب ، ألاَ أخبرُك بأشْقَى النَّاس ؟ أحمر ثمود عاقر النّاقة ، والذي يضرُبك يا عَليّ عَلَى هذا - يعني قَرْنَه - فيخضِب هذه منها ؛ وأخذ بلحيته .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمّد بن إسحاق ، قال : حدّثني يزيد بن

محمد بن خُثَيْم المحاربيّ ، عن محمد بن كعب القرظيّ ، عن محمد بن خُثَيْم ـ وهو أبو يزيد ـ عن عمّار بن ياسر ، قال : كنت أنا وعليّ رفيقيْن ، فذكر نحوه .

وقد قيل في ذلك غير هذا القول ؛ وذلك ما حدّثني به محمد بن عبيد المحاربيّ ، قال : حدّثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، قال : قيل لسهل بن سعد : إنّ بعضَ أمراء المدينة يريد أن يبعث إليك تَسُبُّ عليًّا عند المنبر ، قال : أقول ماذا ؟ قال : تقول : أبا تراب ، قال : والله ما سَمّاه بذلك إلّا رسولُ الله ﷺ ، قال : قلتُ : وكيف ذاك يا أبا العبّاس ؟ قال : دخل عليّ على فاطمة ، ثم خرج من عندها ، فاضطجع في فَيْءِ المسجد . قال : ثم دخلَ رسولُ الله ﷺ على فاطمة ، فقال لها : أين ابنُ عمِّك ؟ فقالت : هو ذاك مضطجع في المسجد ، قال : فجاءه رسولُ الله ﷺ ؛ فوجده قد سقط رداؤه عن ظهره ، وخلَص التراب إلى ظهره ؛ فجعل يمسح التّراب عن ظهره ، ويقول : اجلس أبا تراب . فوالله ما سَمّاه به إلّا رسولُ الله ﷺ ؛ ووالله ما كان له اسمٌ أحبّ إليه منه !

قال أبو جعفر : وفي هذه السَّنة في صفَر ، لليال بقِينَ منه ، تزوّج عليُّ بن أبي طالب عليه السلام فاطمةَ رضي الله عنها ؛ حُدّثتُ بذلك ، عن محمّد بن عمر ، قال : حدّثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فَرْوة ، عن أبي جعفر .

قال أبو جعفر الطبريّ : ولمّا رَجَع رسولُ الله ﷺ من طلب كُرْز بن جابر الفِهريّ إلى المدينة ، وذلك في جُمادى الآخرة ؛ بعث في رجب عبدَ الله بن جَحْش معه ثمانية رهْط من المهاجرين ؛ ليس فيهم من الأنصار أحدٌ ؛ فيما حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة قال : حدّثني محمّد بن إسحاق ، قال : حدّثني الزّهريُّ ويزيد بن رُومان ؛ عن عُرْوة بن الزبير ، بذلك .

وأما الواقديّ فإنه زعم أنّ رسولَ الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش سَرِيَّةً في اثني عشر رجلاً من المهاجرين .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق ، عن الزهريّ ويزيد بن رُومان ، عن عروة ، قال : وكتبَ رسولُ الله ﷺ له كتاباً ـ يعني لعبد الله بن جَحْش ـ وأمره ألّا ينظر فيه حتى يسير يومين ؛ ثم ينظر فيه فيُمضي له أمرَه به ، ولا يستكرِه أحداً من أصحابه ، فلمّا سار عبدُ الله بن جحش يومين ، فتح الكِتاب ، ونظر فيه ، فإذا فيه : « وإذا نظرتَ في كتابي هذا ؛ فسِرْ حتى تنزل نَخْلة بين مكّة والطائف ؛ فترصَّدْ بها قريشاً ، وتعلَّمْ لنا من أخبارهم » . فلمّا نظرَ عبدُ الله في الكتاب ، قال : سمعٌ وطاعةٌ ؛ ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسولُ الله ﷺ أن أمضيَ إلى نَخْلة ، فأرصد بها قريشاً حتى آتيَه منهم بخَبَر ، وقد نهاني أن استكرِهَ أحداً منكم ؛ فمن كان منكم يريد الشهادة ، ويرغب فيها فلينطلِقْ ، ومَنْ كره ذلك فلْيرجِع ؛ فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ .

فمضى ومضى معه أصحابُه ، فلم يتخلّف عنه منهم أحد ، وسلَك على الحجاز ؛ حتى إذا كان بمَعِدَن فوق الفُرْع يقال له بُحْران ، أضلّ سعد بن أبي وقاص وعُتْبة بن غَزْوان بعيراً لهما كانا يَعْتقبانه ، فتخلّفا عليه في طلبه . ومضى عبد الله بن جحش وبقيّة أصحابه حتى نزل بنخْلة ، فمرّت به عِيرٌ لقريش تحمل زَبيباً وأدَماً وتجارة من تجارة قريش فيها ، منهم عمرو بن الحضرميّ ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميّان ، والحكَم بن كَيْسان مولى هشام بن المغيرة . فلمّا رآهم القوم هابوهم ؛ وقد

نزلوا قريباً منهم ، فأشوف لهم عُكّاشة بن مِحْصَن ـ وقد كان حَلَق رأسه ـ فلما رأوْه أمِنوا ، وقالوا : عُمَّار لا بأس عليكم منهم . وتشاور القوم فيهم ؛ وذلك في آخر يوم من رجب ؛ فقال القوم : والله لئن تركتم القومَ هذه الليلة ليدخُلنّ الحَرَم ؛ فليمتنعُنَّ به منكم ؛ ولئن قتلتموهم لتقتُلنّهم في الشهر الحرام . فتردّد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ؛ ثم تشجَّعوا عليهم ، وأجمعوا على قتل مَنْ قَدَروا عليه منهم ، وأخْذِ ما معهم ؛ فرمى واقدُ بن عبد الله التميميّ عمرو بنَ الحضرميّ بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعِير والأسيرين ؛ حتى قَدِموا على رسول الله ﷺ بالمدينة .

قال : وقد ذكَرَ بعضُ آل عبد الله بن جحش ، أنّ عبدالله بن جَحْش ، قال لأصحابه : إنّ لرسول الله ﷺ ممَّا غنمتم الخمسَ ـ وذلك قبل أن يفرض الله من الغنائم الخمس ـ فعزل لرسولِ الله ﷺ خُمْس الغنيمة ، وقسّم سائرها بين أصحابه ؛ فَلَمَّا قدِمُوا على رسولِ الله ﷺ ، قال : ما أمرتُكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام . فوقَّف العير والأسيرين ؛ وأبَى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فلمَّا قال ذلك رسولُ الله ﷺ سُقِط في أيدي القوم ، وظنُّوا أنّهم قد هَلَكوا ، وعنَّفهم المسلمون فيما صنعوا . وقالوا لهم : صنعْتُمْ ما لم تُؤمَروا به ، وقاتلتم في الشَّهرِ الحرام ولم تؤمروا بقتال ! وقالت قريش : قد استحلَّ مُحَمَّدٌ وأصحابُهُ الشَّهرَ الحرام ، فسفكوا فيه الدّم وأخذوا فيه الأموال ، وأسَرُوا فيه الرِّجال . فقال مَنْ يردّ ذلك عليهم من المسلمين ممّن كان بمكّة : إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان . وقالت يهود ؛ تفاءلُ بذلك علىَ رسول الله ﷺ : عمرو بن الحضرميّ قتله واقد بن عبد الله : « عمرو » عمرت الحرب ، و« الحضرميّ » حضرت الحرب ، و« واقد بن عبد الله » وقدت الحرب ؛ فجعل الله عَزّ وجلّ ذلك عليهم لا لهم .

فلمّا أكثر الناس في ذلك أنزل الله عزّ وجلّ على رسولِهِ ﷺ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ . . . . ﴾[1] الآية . فلمّا نزل القرآن بهذا من الأمر وفرَّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق ، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين .

وبعثَت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكَم بن كيسان ، فقال رسولُ الله ﷺ : لا نُفْدِيكموهما ؛ حتى يَقدَم صاحبانا ـ يعني سعد بن أبي وقّاص وعتْبة بن غزوان ـ فإنّا نخشاكم عليهما ؛ فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم . فقدم سعد وعُتْبة ، ففاداهما رسول الله ﷺ منهم ؛ فأما الحكَم بن كَيْسان فأسلم فحسُن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتِل يوم بئر مَعُونة شهيداً .

قال أبو جعفر : وخالف في بعض هذه القصة محمّدَ بن إسحاق والواقديّ جميعاً السديّ ؛ حدّثني موسى بن هارون ، قال : حدّثنا عمرو بن حمّاد ، قال : حدّثنا أسْباط ، عن السّديّ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ؛ وذلك أنّ رسولَ الله ﷺ بَعَثَ سريَّة وكانوا سبعة نَفَرَ ؛ عليهم عبد الله بن جحش الأسديّ وفيهم عمَّار بن ياسر ، وأبو حُذَيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعُتْبة بن غزوان السُّلَميّ حليف لبني نَوْفل ، وسُهَيْل بن بيْضاء ، وعامر بن فُهَيْرة ، وواقد بن عبد الله اليربوعيّ ؛ حليف لعمر بن الخطّاب . وكتب مع ابن جحش كتاباً وأمره ألاّ يَقْرَأه حتى ينزل بطن

(١) سورة البقرة: ٢١٧ .

ملَل ؛ فلمَّا نزل بطنَ مَلَل فتح الكتاب ؛ فإذا فيه : أن سِرْ حتَّى تنزل بطن نخلة ؛ فقال لأصحابه : مَنْ كان يريد الموت فليَمْضِ وليُوصِ ؛ فإني مُوصٍ وماضٍ لأمر رسولِ الله ﷺ . فسار وتخلَّف عنه سعد بن أبي وقَّاص وعُتْبة بن غزوان ، أضَلاّ راحلة لهما ، فأتيا بُحْران يطلبانها ، وسار ابنُ جَحْش إلى بطْن نخلة ؛ فإذا هو بالحكَم بن كَيْسان ، وعبد الله بن المغيرة ، والمغيرة بن عثمان ، وعمرو بن الحضرميّ ؛ فاقتتلوا ، فأسَرُوا الحكَم بن كَيْسان وعبد الله بن المغيرة ، وانفلت المغيرة ، وقُتِل عمرو بن الحضرميّ ، قتله واقد بن عبد الله . فكانت أوّلَ غنيمةَ غَنِمها أصحابُ محمَّد ﷺ .

فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيريْن وما أصابوا من الأموال ؛ أراد أهل مكَّة أن يُفادوا الأسيريْن ، فقال النبيّ ﷺ : حتّى ننظرَ ما فعل صاحبانا . فلما رجع سعد وصاحبه فادَى بالأسيريْن ، ففجَر عليه المشركون ، وقالوا : محمّد يزعم أنَّه يتبع طاعة الله ، وهو أوّلُ مَن استحلّ الشهر الحرام ، وقتل صاحبنا في رَجَب ! فقال المسلمون : إنَّما قتلناه في جُمادى ـ وقيل في أوّل ليلة من رجَب وآخر ليلة من جُمادى ـ وغَمَدَ المسلمون سيوفَهم حين دخل رجب ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ يُعَيِّر أهل مكة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ . . . ﴾ الآية .

قال أبو جعفر : وقد قيل إنّ النبيّ ﷺ كان انتدَب لهذا المسير أبا عُبيدة بن الجرّاح ، ثم بدا له فيه ، فندَب له عبد الله بن جحش .

ذكر الخبر بذلك :

حدّثنا محمّد بن عبد الأعلى ؛ حدّثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، أنه حدّثه رجل عن أبي السَّوَّار ؛ يحدّثه عن جُنْدَب بن عبد الله ، عن رسول الله ﷺ أنَّه بعث رهطاً ، فبعث عليهم أبا عبيدة بن الجَرَّاح ؛ فلما أخذ لينطلق بكى صَبَابَةً إلَىٰ رسول الله ﷺ ، فبعث رجلاً مكانه يقال له عبد الله بن جحش ، وكتب له كتاباً وأمره ألاّ يقرأ الكتاب حتى يبلغ كذا وكذا : « ولا تُكرِهنَّ أحداً من أصحابك على السَّير معك » . فلمّا قرأ الكتاب استرجع ، ثم قال : سمعاً وطاعة لأمر الله ورسوله ! فخَبّرَهم بالخبر ؛ وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان ومضى بقيّتهم ، فلقوا ابن الحضرميّ فقتلوه ، ولم يدرُوا ذلك اليوم من رَجَب أو من جُمادى ! فقال المشركون للمسلمين : فعلتم كذا وكذا في الشَّهر الحرام ! فأتُوا النبيّ ﷺ ، فحدّثوه الحديث ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ، الفتنة هي الشِّرْك .

وقال بعض الذين ـ أظنُّه قال ـ : كانوا في السريَّة : والله ما قَتَله إلَّا واحدٌ ؛ فقال : إن يكنّ خيراً فقد وليتَ ، وإنْ يكن ذنباً فقد عمِلت .

ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من سني الهجرة

ومن ذلك ما كان من صرْف الله عزّ وجلّ قِبْلَةَ المسلمين من الشّأم إلى الكعبة ، وذلك في السنة الثانية من مقدَمَ النبيّ ﷺ المدينة في شعبان .

واختلف السَّلَف من العلماء في الوقت الذي صُرفت فيه من هذه السَّنة ؛ فقال بعضهم ـ وهم الجمهور الأعظم : صُرفت في النّصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدَم رسول الله ﷺ المدينة .

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا موسى بن هارون الهمْدَانيّ ، قال : حدّثنا عمرو بن حَمَّاد ، قال : حدّثنا أسْبَاط ، عن السُّدّيّ ـ في خبر ذكره ـ عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عَبَّاس ـ وعن مُرَّةَ الهمدانيّ ، عن ابن مسعود ـ وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ : كان النَّاس يصلّون قِبَل بيت المقدس ؛ فلما قَدِم النبيّ ﷺ المدينةَ على رأس ثمانية عشر شهراً من مُهَاجَره ، كان إذا صلَّى رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر ، وكان يصلّي قِبَل بيت المقدس ؛ فنسختْها الكعبة ، وكان النبيّ ﷺ يحب أن يصلِّيَ قِبَل الكعبة ، فأنزل الله عَزّ وجَلّ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ . . . ﴾[1] ، الآية .

حدّثنا ابنُ حُمَيد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق ، قال : صُرِفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدَم رسول الله ﷺ المدينة .

وحُدّثت عن ابن سعد ، عن الواقديّ مثل ذلك . وقال : صرِفت القبلة في الظّهْر يومَ الثلاثاء للنصف من شعبان .

قال أبو جعفر : وقال آخرون : إنّما صُرِفت القبلة إلى الكعبة لستَّة عشر شهراً مضت من سِني الهجرة .

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا المثنّى بن إبراهيم الآمُليّ ، قال : حدّثنا الحجّاج ، قال : حدّثنا همَّام بن يحيى ، قال : سمعتُ قَتادة ، قال : كانوا يصلُّون نحو بيتِ المقدِس ، ورسولُ الله ﷺ بمكَّةَ قبل الهجرة ، وبعدما هاجر رسولُ الله ﷺ نحو بيت المقدس ستَّة عشر شهراً ، ثم وُجِّه بعد ذلك نحو الكعبة البيت الحرام .

حدّثني يونسُ بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابنُ وهْب ، قال : سمعتُ ابنَ زيد يقول : استقبل النبيّ ﷺ بيتَ المقدِس ستَّةَ عشر شهراً ، فبلغه أن يهودَ تقول : والله مـا دَرَى محمَّدٌ وأصحـابه أين قبلتُهم حتى هديْناهم ! فكرِهَ ذلك النبيّ ﷺ ، ورفع وجهَه إلى السَّماء ، فقال الله عزّ وجلَّ : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء . . . ﴾[1] الآية .

قال أبو جعفر : وفي هذه السَّنة فُرِض ـ فيما ذُكر ـ صومُ رمضان . وقيل : إنَّه فرِض في شعبان منها . وكان النبيّ ﷺ حين قدِم المدينة ، رأى يهود تصوم يومَ عاشوراء ؛ فسألهم فأخبروه أنَّه اليوم الَّذي غَرّق الله فيه آلَ فرعون ، ونَجّى موسى ومن معه منهم ؛ فقال : نَحنُ أحقُّ بموسى منهم . فصامَ وأمر النَّاس بصومه ، فلمَّا فُرِض صوم شهر رمضان ، لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينهَهم عنه .

وفيها أمر الناس بإخراج زكاة الفطر . وقيل إنَّ النبيّ ﷺ خطب الناس قبل يوم الفطر بيوم أو يومين ، وأمرهم بذلك .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤ .

وفيها خَرَج إلى المُصلّى فصلّى بهم صلاةَ العيد ؛ وكان ذلك أوَّلَ خَرْجَةٍ خرجها بالنَّاس إلى المصلّى لصلاة العيد .

وفيها ـ فيما ذكر ـ حُمِلت العَنَزة له إلى المصلّى فصلّى إليها ، وكانت للزبير بن العوام ـ كان النجاشيّ وهبها له ـ فكانت تحمَلُ بين يديه في الأعياد ، وهي اليوم فيما بلغني عند المؤذّنين بالمدينة .

وفيها كانتْ وقعة بدْر الكبرَى بين رسول الله ﷺ والكفار من قُريش ؛ وذلك في شهر رمضان منها .

ثم اختلفوا في اليوم الّذي فيه كانت الحرب بينه وبينهم ، فقال بعضهم : كانت وقْعة بدر يوم تسعة عشر من شهر رمضان .

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا هارون بن المغيرة ، عن عنْبسة ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبيه ، عن ابن مسعود ، قال : التمِسُوا ليلَة القَدْرِ في تِسْع عشرة ليلةً من رمضان ؛ فإنها ليلةُ بَدْر .

حدّثنا محمد بن عُمارة الأسديّ ، قال : حدّثنا عُبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن حُجَيْر الثعلبيّ ، عن الأسود عن عبد الله ، قال : التمسوا ليلة القدر في تسعَ عشرة من رمضان ، فإنّ صبيحتَها كانت صبيحة بدر .

حدّثنا أبو كُريب ، قال : حدّثنا عُبيد بن محمد المحاربيّ ، قال : حدّثنا ابنُ أبي الزّناد ، عن أبيه ، عن خارجة بن زيد ، عن زيد ، أنه كان لا يُحْيي ليلةً من شهر رمضان كما يحيي ليلةَ تسع عشرة وثلاث وعشرين ، ويصبح وجهه مصفرًّا مِنْ أثَر السَّهَر ، فقيل له ، فقال : إنَّ الله عزّ وجلّ فرَق في صبيحتها بين الحقّ والباطل .

وقال آخرون : كانتْ يوم الجمعة صبيحةَ سبع عشرة من شهر رمضان .

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا ابنُ المثنّى ، قال : حدّثنا محمد بن جعفر ، قال : حدّثنا شُعبة ، قال : سمعتُ أبا إسحاق يُحدّث عن حُجَير ، عن الأسود وعلْقَمة ، أنّ عبد الله بن مسعود ، قال : التمِسُوها في سبع عَشْرة . وتلا هذه الآية : ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾[1] ، يوم بدر ، ثم قال : أو تسعَ عشرةَ ، أو إحدى وعشرين .

حدّثنا الحارث ، قال : حدّثنا ابنُ سعد ، قال : أخبرَنا محمد بن عمر ، قال : حدّثنا الثوريّ ، عن الزّبير بن عديّ ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله ، قال : كانتْ بدر صبيحة تسعَ عشرة من رمضان .

حدّثنا الحارث ، قال : حدّثنا ابنُ سعد ، قال : حدّثنا محمد بن عمر ، قال : حدّثنا الثوريّ ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود ، عن عبد الله مثله .

قال الحارث : قال ابنُ سعد ، قال الواقديّ : فذكرتُ ذلك لمحمّد بن صالح ، فقال : هذا أعجب

---

(١) سورة الأنفال : ٤١ .

الأشياء ؛ ما ظننتُ أنّ أحداً من أهل الدّنيا شَكَّ في هذا ؛ إنها صبيحة سبع عشرة من رمضان ، يوم الجمعة .

قال محمد بن صالح : وسمعتُ عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن رُومان ، يقولان ذلك . قال لي محمد بن صالح : يا بن أخي ، وما تحتاج إلى تسمية الرجال في هذا ! هذا أبينُ من ذلك ؛ ما يجهل هذا النساء في بيوتهنّ .

قال الواقديّ : فذكرتُه لعبد الرحمن بن أبي الزّناد ، فقال : أخبرني أبي ، عن خارجة بن زيد ، عن زيد بن ثابت ، أنه كان يُحْيي ليلةَ سبعَ عشرة من شهر رمضان ؛ وإن كان لَيُصبِح وعلى وجهه أثر السّهَرِ ، ويقول : فرَق الله في صَبِيحتها بين الحقّ والباطل ، وأعزّ في صُبْحها الإسلام ، وأنزل فيها القرآن ، وأذلّ فيها أئمّة الكفر .

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة . حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا يحيى بن واضح ، قال : حدّثني يحيى بن يعقوب أبو طالب ، عن أبي عَوْن محمد بن عبيد الله الثقفيّ ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ عبد الله بن حبيب ، قال : قال : قال الحسنُ بن عليّ بن أبي طالب : كانت ليلة الفُرْقان يوم التقَى الجمعان ، لسبع عشْرة من رمضان .

وكان الّذي هاجَ وقْعة بدر وسائر الحروب التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش ـ فيما قال عُرْوة بن الزُّبير ـ ما كان من قَتْل واقد بن عبد الله التميميّ عمرَو بن الحضرميّ .

ذكر وقعة بدر الكبرى

حدّثنا عليّ بن نصر بن عليّ ، وعبد الوارث بن عبد الصّمد بن عبد الوارث ـ قال عليّ : حدّثنا عبد الصّمد بن عبد الوارث ، وقال عبد الوارث : حدّثني أبي ـ قال : حدّثنا أبان العطار ، قال : حدّثنا هشام بن عُروة ، عن عُروة ، أنه كتب إلى عبدِ الملك بن مروان : أمّا بعد ، فإنك كتبتَ إليّ في أبي سفيان ومخرَجه ، تَسْألني كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه أنّ أبا سُفْيان بن حَرْب أقبل من الشأم في قريب من سبعين راكباً من قبائل قريش كلّها ، كانوا تجاراً بالشأم ، فأقبلوا جميعاً معهم أموالُهم وتجاراتهم ، فذكروا لرسول الله ﷺ وأصحابه ؛ وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، فقُتلت قتلى ، وقُتِل ابن الحضرميّ في ناس بنَخْلَة ، وأسِرَتْ أسارَى من قريش ؛ فيهم بعضُ بني المغيرة ، وفيهم ابن كَيْسان مولاهم ، أصابهم عبد الله بن جَحْش وواقد حليف بني عديّ بن كعب ، في ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ بعثهم مع عبد الله بن جحش ، وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، وأول ما أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب ، وذلك قبلَ مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشأم . ثم إنّ أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومَن معه من ركْبان قريش مقبلين من الشأم ، فسلَكوا طريق الساحل ، فلمّا سمع بهم رسولُ الله ﷺ نَدَبَ أصحابه وحدّثهم بما معهم من الأموال ، وبقلّة عَدَدِهم ، فخرجوا لا يريدون إلّا أبا سفيان والركْبَ معه ؛ لا يروْنها إلّا غنيمة لهم ؛ لا يظنّون أن يكون كبيرُ قتال إذا لقُوهم ، وهي التي أنزل الله عزّ وجلّ فيها : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾[1] .

(١) سورة الأنفال : ٧.

فلما سمعَ أبو سفيان أنّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ معترضون له ، بعث إلى قريش : إنّ محمداً وأصحابه معترضون لكم ، فأجيرُوا تجارَتكم . فلمّا أتى قريشاً الخبرُ ـ وفي عِيرِأبي سفيان ؛ من بُطون كعب بن لُؤيّ كلّها ـ نفَر لها أهلُ مكة ؛ وهي نَفْرة بني كعب بن لُؤيّ ، ليس فيها من بني عامر أحدٌ إلّا من كان من بني مالك بن حِسْل ؛ ولم يَسمع بنَفْرَة قريش رسولُ الله ﷺ ولا أصحابه ؛ حتى قدِم النبيّ ﷺ بدْراً ـ وكان طريق ركبانِ قريش ؛ مَنْ أخذ منهم طريق الساحل إلى الشأم ـ فخفض أبو سفيان عن بدْر، ولزِم طريقَ الساحل، وخاف الرَّصَد على بدْر، وسار النبيّ ﷺ، حتى عرّسَ قريباً من بدر، وبعث النبيّ ﷺ الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى ماء بدر ، وليسوا يحسِبُون أنّ قريشاً خرجت لهم ، فبينا النبيّ ﷺ قائم يصلّي ؛ إذ ورد بعض روايا قريش ماءَ بدر ، وفيمن ورد من الرّوايا غلام لبني الحجّاج أسودُ ؛ فأخذه النّفرُ الذين بعثهم رسولُ الله ﷺ مع الزبير إلى الماء ، وأفلت بعضُ أصحاب العبد نحو قريش ، فأقبلوا به حتى أتوْا به رسولَ الله ﷺ وهو في مُعَرّسه ، فسألوه عن أبي سفيان وأصحابه ؛ لا يحسبون إلّا أنه معهم ، فطفِق العبد يحدّثهم عن قريش ومن خرج منها ، وعن رؤوسهم ، ويصدّقهم الخبر ؛ وهم أكره شيء إليهم الخبر الذي يخبرهم ، وإنما يطلبون حينئذ بالركْب أبا سفيان وأصحابه ، والنبيّ ﷺ يصلّي ؛ يركع ويسجد يرى ويَسمع ما يُصنع بالعبد ، فطفِقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم ، ضربوه وكذّبوه ، وقالوا : إنما تكتمنا أبا سفيان وأصحابَه ؛ فجعل العبد إذا أذْلَقوه بالضرب وسألوه عن أبي سفيان وأصحابِه ـ وليس له بهم علم ؛ إنما هو من رَوَايا قريش ـ قال : نعم ، هذا أبو سفيان ، والركْب حينئذ أسفل منهم ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ـ حتى بلغ ـ ﴿ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾[1] ، فطفِقوا إذا قال لهم العبد : هذه قريش قد أتتكم ضربوه ، وإذا قال لهم : هذا أبو سفيان تركوه .

فلمّا رأى صنيعَهم النبيّ ﷺ انصرف من صلاته وقد سمع الذي أخبرهم ، فزعموا أنّ رسولَ الله ﷺ ، قال : والذي نفسي بيده ، إنكم لتضربونه إذا صَدَق ، وتتركونه إذا كذب ! قالوا : فإنه يحدّثنا أنّ قريشاً قد جاءت ، قال : فإنّه قد صدق ؛ قد خرجت قريش تجير رِكابها ، فدعا الغلام فسأله فأخبره بقريش ، وقال : لا عِلْمَ لي بأبي سفيان ، فسأله : كم القوم ؟ فقال : لا أدري ؛ والله هم كثير عددهم . فزعموا أن النبيّ ﷺ ، قال : مَنْ أطعمهم أوّل مِنْ أمس ؟ فسمّى رجلاً أطعمهم ، فقال : كم جزائر نَحر لهم ؟ قال : تسع جزائر ، قال : فمَنْ أطعمهم أمسِ ؟ فسمّى رجلاً ، فقال : كم نحر لهم ؟ قال : عشر جزائر ؛ فزعموا أنّ النبيّ ﷺ قال : القومُ ما بين التسعمائة إلى الألف . فكان نَفْرة قريش يومئذ خمسين وتسعمائة .

فانطلق النبيّ ﷺ فنزل الماء وملأ الحِياضَ ، وصفّ عليها أصحابه ، حتى قدِم عليه القوم . فلمّا ورد رسول الله ﷺ بدراً قال : هذه مصارعُهم ؛ فوجدوا النبيّ ﷺ قد سبقهم إليه ونزل عليه . فلمّا طلعوا عليه زعموا أنّ النبيّ ﷺ قال : هذه قريش قد جاءت بجلَبَتها وفخرها ؛ تحادُّك وتُكذّبُ رسولك ! اللهمّ إنّي أسألك ما وعدتني .

فلما أقبلوا استقبلهم ، فحثا في وجوههم التراب ؛ فهزمَهم الله . وكانوا قبل أن يلقاهم النبيّ ﷺ قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركب الذين معه : أن ارْجعوا ـ والركْب الذين يأمرون قريشاً بالرجْعَةِ

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢ .

بالجُحْفة ـ فقالوا : والله لا نرجع حتى ننزل بدراً ، فنقيم به ثلاثَ ليال ، ويرانا مَنْ غشَينا من أهل الحجاز ؛ فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمْعنا فيقاتلنا . وهم الذين قال الله عزّ وجلّ : ﴿ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾(١) ؛ فالتقوا هُمْ والنبيّ ﷺ ، ففتح الله على رسوله ، وأخزى أئمة الكُفْر وشفى صدورَ المسلمين منهم .

حدّثني هارون بن إسحاق ، قال : حدّثنا مصعب بن المِقْدام ، قال : حدّثنا إسرائيل ، قال : حدّثنا أبو إسحاق ، عن حارثة ، عن عليّ عليه السلام ، قال : لما قَدِمْنا المدينة أصبنا من ثمارها ، فاجتَوَيْناها ، وأصابنا بها وعْك ، وكان رسولُ الله ﷺ يتخبّر عن بدر ؛ فلما بلغنا أنّ المشركين قد أقبلُوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر ـ وبدر بئر ـ فسبَقْنا المشركين إليها ، فوجدنا فيها رجلَيْن ، منهم رجلٌ من قريش ، ومولىً لعُقْبة بن أبي مُعَيْط ؛ فأما القرشيّ فانفلت ، وأمّا مولى عُقْبة فأخذناه ، فجعَلنا نقول : كم القوم ؟ فيقول : هم والله كثير ، شديدٌ بأسهم ؛ فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربُوه ، حتى انتهوْا به إلى رسولِ الله ﷺ ، فقال لهم : كم القوم ؟ فقال : هم والله كثير ، شديد بأسهم ، فجهد النبيّ ﷺ أن يخبرَه كم هم ، فأبى . ثمّ إنّ رسولَ الله ﷺ سأله : كم ينحرون من الجُزُر ؟ فقال : عشراً كلّ يوم ، قال رسولُ الله ﷺ : القومُ ألف .

ثم إنه أصابنا من الليل طَشٌّ من المطر ، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظلُّ تحتها من المطر ، وبات رسولُ الله ﷺ يدعو ربّه : اللّهمّ إنْ تهلِكْ هذه العِصابة لا تُعبَد في الأرض . فلمّا أنْ طلع الفجر نادى : الصلاة عباد الله ! فجاء الناس من تحت الشجر والحَجف ، فصلى بنا رسولُ الله ﷺ ، وحَرَّض على القتال ، ثم قال : إنّ جَمْع قريش عند هذه الضِّلْعة من الجبل . فلما أن دنا القوم منّا وصافَفْناهم ؛ إذا رجلٌ من القوم على جَمَل أحمر يسير في القوم ، فقال رسولُ الله ﷺ : يا عليّ ، نادِ لي حمزة ـ وكان أقربهم إلى المشركين ـ : مَنْ صاحبُ الجمل الأحمر ؟ وماذا يقول لهم ؟ وقال رسولُ الله ﷺ : إن يكن في القوم مَنْ يأمر بالخير ؛ فعسى أن يكونَ صاحبَ الجمل الأحمر ، فجاء حمزة ، فقال : هو عتْبة بن ربيعة ؛ وهو ينهى عن القتال ، ويقول لهم : إنّي أرى قوماً مُسْتَميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير ؛ يا قوم اعصِبُوها اليومَ برأسي ، وقولوا : جَبُنَ عُتْبة بن ربيعة ؛ ولقد علمتم أنّي لستُ بأجبنِكم .

قال : فسمِعَ أبو جهل فقال : أنت تقول هذا ! والله لو غيرك يقول هذا لعضضتُه ! لقد ملئت رِئتُك وجوفك رُعباً ، فقال عتبة : إيّايَ تُعَيّر يا مصَفِّر استِه ! ستَعلم اليومَ أيّنا أجْبَن !

قال : فبرز عُتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، حميَّةً ، فقالوا : مَنْ يبارز ؟ فخرج فِتْيةٌ من الأنصار ستّة ، فقال عُتبة : لا نريدُ هؤلاء ؛ ولكن يبارزُنا من بني عَمّنا من بني عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : يا عليّ قُم ، يا حمزة قم ، يا عُبيدة بن الحارث قم ، فقتل الله عتبةَ بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، وجرح عُبيدة بن الحارث ؛ فقتلنا منهم سبعين ، وأسرْنا منهم سبعين .

قال : فجاء رجل من الأنصار قصير بالعبّاس بن عبد المطلب أسيراً ، فقال : يا رسولَ الله ؛ والله ما هذا أسَرني ، ولكن أسَرَني رجل أجْلَح من أحسن الناس وجهاً ، على فرس أبْلق ، ما أراه في القوم ، فقال الأنصاريّ ، أنا أسرته ، فقال رسولُ الله ﷺ : لقد آزرك الله بملَكٍ كريم . قال عليّ : فأسِر من بني عبد

(١) سورة الأنفال : ٤٧ .

المطّلب العباس وعَقِيل ونوفل بن الحارث .

حدّثني جعفر بن محمد البزُوريّ ، قال : حدّثنا عُبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن حارثة ، عن عليّ ، قال : لمّا أن كان يومُ بدر ، وحضر البأس اتّقينا برسول الله ، فكان من أشدّ الناس بأسا ، وماكان منّا أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه .

حدّثنا عمرو بن علي ، قال : حدّثنا عبد الرحمن بن مهديّ ، عن شُعبة ، عن أبي إسحاق ، عن حارثة بن مُضرّب ، عن عليّ ، قال : سمعتُه يقول : ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غير مِقْداد بن الأسود ؛ ولقد رأيتُنا وما فينا إلّا نائمٌ ، إلّا رسولُ الله ﷺ قائماً إلى شجرة يصلّي ، ويدعو حتى الصبح .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمَة ، قال : حدّثني محمّد بن إسحاق ، قال : إنّ رسولَ الله ﷺ سمِعَ بأبي سفيان بن حَرْب مقبلاً من الشأم في عِيرٍ لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم ؛ وفيها ثلاثون راكباً من قريش ـ أو أربعون ـ منهم مخرَمة بن نوفل بن أهَيْب بن عبد مناف بن زهرة ، وعمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سُعيْد بن سهم :

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : فحدّثني محمد بن مسلم الزهريّ وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان ؛ عن عُروة وغيرهم من علمائنا ، عن عبد الله بن عبّاس ، كلٌّ قد حدّثني بعض هذا الحديث ؛ فاجتمع حديثهم فيما سُقتُ من حديث بدر ، قالوا : لما سمع رسولُ الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشأم ، ندَبَ المسلمين إليهم ، وقال : هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرُجوا إليها ، لعلّ الله أن يُنَفِّلكموها ، فانتدب الناس فَخفّ بعضهم وثقل بعضهم ؛ وذلك أنهم لم يظنّوا أنّ رسولَ الله ﷺ يلقى حَرَباً ، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار ، ويسأل مَنْ لقيَ من الرُّكبان تخوُّفاً على أموال الناس ؛ حتى أصاب خبراً من بعض الركبان ؛ أنّ محمداً قد استنفَر أصحابه لك ولِعيرك . فحذِر عند ذلك ، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفاريّ ، فبعثه إلى مكّة ، وأمره أن يأتيَ قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أنّ محمداً قد عَرَض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال ابنُ إسحاق : وحدّثني مَن لا أتّهم ، عن عِكْرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ويزيد بن رُومان ، عن عُروة ، قال : وقد رأتْ عاتكةُ بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزَعتها ، فبعثتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له : يا أخي ، والله لقد رأيتُ الليلة رؤيا لقد أفظعتني ، وتخوّفت أن يدخلَ على قومك منها شرٌّ ومصيبة ، فاكتُمْ عليَّ ما أحدّثك [به] قال لها : وما رأيتِ ؟ قالت : رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ له حتى وقف بالأبطح . ثم صرخ بأعلى صوته : أن انفِروا يا آل غُدَر لمصارعكم في ثلاث ! فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ؛ فبينا هم حولَه مَثَلَ به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بأعلى صوته بمثلها : أن انفروا يا آل غُدر لمصارعكم في ثلاث ! ثمّ مثل به بعيرهُ على رأس أبي قُبَيْس ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذَ صخرة فأرسلها ، فأقبلتْ تهوِي حتى إذا كانت بأسفل الجبال ارفضّت فما بقيَ بيت من بيوت مكة ، ولا دارٌ من دورها إلّا دخلت منها فِلْقة .

قال العبّاس : واللّه إنّ هذه لرؤيا رأيتِ فاكتُميها ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس فلقيَ الوليد بن عتبة بن ربيعة ـ وكان له صديقاً ـ فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عُتْبة ، ففشا الحديث ؛ حتى تحدّثت به قريش [في أنديتها] .

قال العبّاس : فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهْط من قريش قُعودٌ يتحدّثون برؤيا عاتكة ؛ فلمّا رآني أبو جهل ، قال : يا أبا الفضْل ؛ إذا فرغتَ من طوافك فأقبل إلينا . قال : فلمّا فرغت أقبلتُ إليه حتى جلست معهم ، فقال لي أبو جهل : يا بني عبد المطّلب ؛ متى حَدَثَتْ فيكم هذه النبيّة ! قال : قلتُ : وما ذاك ؟ قال : الرؤيا التي رأت عاتكة ، قال : قلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطّلب ، أما رضيتُم أن تتنبّأ رجالُكم ، حتى تتنبّأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفرُوا في ثلاث ، فسنتربّص بكم هذه الثلاث ؛ فإن يكن ما قالت حقًّا فسيكون ، وإن تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ؛ نكتب عليكم كتاباً أنّكم أكذبُ أهل بيتٍ في العرب .

قال العباس : فوالله ما كان منّي إليه كبير إلاّ أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكونَ رأتْ شيئاً . قال : ثم تفرّقنا ؛ فلمّا أمسيتُ لم تبقَ امرأةٌ من بني عبد المطلب إلاّ أتتْني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ؛ ثم لم يكن عندك غَيْره لشيء مما سمعت ! قال : قلت : قد والله فعلتُ ؛ ما كان منّي إليه من كبيرٍ ، وايمُ الله لأتعرّضنّ له ؛ فإن عاد لأكفِينَكموه .

قال : فغدوتُ في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضَب ، أرى أن قد فاتني منه أمرٌ أحبّ أن أدركه منه .

قال : فدخلت المسجد فرأيته ؛ فوالله إني لأمشي نحوه أتعرّضه ليعود لبعض ما قال فأقع به ـ وكان رجلاً خفيفاً حديدَ الوجه ، حديدَ اللسان ، حديد النظر ـ إذْ خرج نحو باب المسجد يشتدّ . قال : قلتُ في نفسي : ما له لعنه الله ! أكلّ هذا فرَقاً من أن أشاتمه ! قال : وإذا هو قد سمع ما لم أسمع ؛ صوت ضمضم بن عمرو الغِفاريّ ، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره ، قد جدَّع بعيره ، وحوَّل رحلَه ، وشقّ قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطِيمة اللَّطِيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ؛ الغوث الغوث !

قال : فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر . فتجهّز الناس سراعاً ، وقالوا : أيظنّ محمد وأصحابه أن تكون كعِير ابن الحضرميّ ! كلاّ والله ليعلمُنّ غيرَ ذلك . فكانوا بين رجلين : إمّا خارج ، وإمّا باعث مكانه رجلاً ، وأوعَبَتْ قريش فلم يتخلّف من أشرافها أحدٌ ؛ إلاّ أنّ أبا لهب بن عبد المطلب تخلّف ، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ؛ وكان لاط له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفْلَس بها ، فاستأجره بها على أن يجزيَ عنه بعثه ، فخرج عنه وتخلّف أبو لهب .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : حدّثني عبد الله بن أبي نَجيح ، أنّ أمية بن خَلَف كان قد أجمع القعود ، وكان شيخاً جليلاً ثقيلاً ، فأتاه عقْبة بن أبي مُعَيط ، وهو جالس في المسجد بين ظهريْ قومه بمِجْمرة يحملها ، فيها نار ومجْمر ، حتى وضعها بين يديه ، ثم قال : يا أبا

عليّ ، استجمر ؛ فإنما أنت من النساء ، قال : قبحك الله وقبح ما جئت به ! قال : ثم تجهّز ، فخرج مع الناس ، فلمّا فرغوا من جهازهم ، وأجمعوا السَّيْر ؛ ذكروا ما بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب ، فقالوا : إنا نَخْشى أن يأتونا من خَلْفنا .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق ، وحدّثني يزيد بن رُومان ، عن عروة بن الزبير ، قال : لما أجمعت قريش المسيرَ ، ذكرت الذي بينها وبين بني بكْر ؛ فكاد ذلك أن يَثْنيهم ، فتبدّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن جُعْشُم المُدْلجيّ ـ وكان من أشراف كنانة ـ فقال : أنا جارٌ لكم من أن تأتيَكم كنانة بشيء تكرهونه . فخرجوا سراعاً .

قال أبو جعفر : وخرجَ رسولُ الله ﷺ ـ فيما بلغني عن غير ابن إسحاق ـ لثلاث ليال خَلَوْن من شهر رمضان في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً من أصحابه ؛ فاختلِف في مبلغ الزيادة على العشرة .

فقال بعضهم ، كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً .

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا أبو كريب ، قال : حدّثنا أبو بكر بن عياش ، قال : حدّثنا أبو إسحاق ، عن البَرَاء ، قال : كنّا نتحدّث أنّ أصحابَ بدر يوم بدر كعِدَّة أصحاب طالوت ، ثلاثمائة رجل وثلاثة عشر رجلاً ؛ الذين جاوَزُوا النهر ؛ فسكت .

حدّثني محمّد بن عُبيد المحاربيّ ، قال : حدّثنا أبو مالك الجَنْبيّ ، عن الحجاج ، عن الحَكم ، عن مِقْسَم ، عن ابن عباس ، قال : كان المهاجرون يومَ بدْر سبعة وسبعين رجلاً ؛ وكان الأنصار مائتين وستة وثلاثين رجلاً ، وكان صاحبُ رايةِ رسولِ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام ، وصاحبُ راية الأنصار سعدَ بن عُبَادة .

وقال آخرون : كانوا ثلاثمائة رجُل وأربعة عشر ، مَنْ شهد منهم ، ومن ضُرِب بسهمه وأجره ؛ حدّثنا بذلك ابنُ حُمَيد ، قال : حدّثنا سلَمَة ، عن ابن إسحاق .

وقال بعضهم : كانوا ثلاثمائة وثمانية عشر .

وقال آخرون : كانوا ثلاثمائة وسبعة .

وأمّا عامة السلف ؛ فإنهم قالوا : كانوا ثلاثمائة رجل وبضْعة عشرَ رجلاً .

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا هارون بن إسحاق ، قال : حدّثنا مُصعَب بن المِقْدام ، وحدّثني أحمد بن إسحاق الأهوازيّ ، قال : حدّثنا أبو أحمد الزُّبيريّ ، قالا : حدّثنا إسرائيل ، قال : حدّثنا أبو إسحاق ، عن البَرَاء ، قال : كنّا نتحدّث أنّ عدّة أصحاب بدر على عِدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ـ ولم يَجُزْ معه إلّا مؤمن ـ ثلاثمائة وبضعة عشر .

حدّثنا ابن بشار ، قال : حدّثنا أبو عامر ، قال : حدّثنا سُفيان ، عن أبي إسحاق ، عن البرَاء ،

قال : كنّا نتحدّث أن أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، على عدّة أصحاب طالوت ؛ مَنْ جاز معه النهر ؛ وما جاز معه إلّا مؤمنٌ .

حدّثنا ابنُ وكيع ، قال : حدّثنا أبي ؛ عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن البَرَاء ، بنحوه .

حدّثنا إسماعيل بن إسرائيل الرّمْليّ ، قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن المغيرة ، عن مِسْعر ، عن أبي إسحاق ، عن البَرَاء، قال : عِدّة أهل بدر عدّة أصحاب طالوت .

حدّثني أحمد بن إسحاق ، قال : حدّثنا أبو أحمد ، قال: حدّثنا مِسْعَر ، عن أبي إسحاق ، عن البَرَاء ، مثله .

حدّثنا بِشْر بن معاذ ، قال : حدّثنا يزيد ، قال : حدّثنا سعيد ، عن قَتادة ، قال : ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر : أنتم بعِدّة أصحاب طالوت يوم لقيَ جالوت ، وكان أصحابُ نبيّ الله ﷺ يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً .

حدّثني موسى بن هارون ، قال : حدّثنا عمرو بن حماد ، قال : حدّثنا أسباط ، عن السدّي ، قال : خَلَصَ طالوت في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ؛ عدّة أصحاب بدر .

حدّثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرَنا مَعْمَر ، عن قَتادة ، قال : كان مع النبيّ ﷺ يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . قال : وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صَعْصَعَةَ أخا بني مازن بن النّجّار ، في ليالٍ مضتْ من شهر رمضان ؛ فسار حتى إذا كان قريباً من الصفراء ، بعث بَسْبَسَ بن عمرو الجهنيّ ، حليف بني ساعدة وعدِيّ بن أبي الزّغْباء الجُهَنيّ حليف بني النّجار إلى بَدْر ، يتحسّسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وعِيره ؛ ثم ارتحل رسولُ الله ﷺ ؛ وقد قدّمها ؛ فلما استقبَلَ الصفْراء ـ وهي قرية بين جبلين ـ سأل عن جبليْها : ما أسماؤهما ؟ فقالوا لأحدهما : هذا مُسْلِح ؛ وقالوا للآخر : هذا مُخْرِىء ؛ وسأل عن أهلِها ، فقالوا : بنو النار وبنو حُراق (بطنان من بني غِفَار) ، فكرهها رسولُ الله ﷺ والمرورَ بينهما ، وتفاءل بأسمائهما وأسماء أهاليها ؛ فتركها والصَّفْراء بيَسار ، وسلك ذات اليمين على واد يقال له ذَفِران ؛ فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل .

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمْنَعُوا عِيرهم ، فاستشار النبيّ ﷺ الناسَ ، وأخبرهم عن قُريش ، فقامَ أبو بكر رضي الله عنه ، فقال فأحسن ، ثمّ قام عمر بن الخطّاب فقال فأحسن ، ثم قام المِقْداد بن عمرو ، فقال : يا رسولَ الله ، امضِ لما أمرك الله ، فنحنُ معك ؛ والله لا نقول كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُون ﴾[1] ؛ ولكن اذهب أنتَ وربّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذِي بعثَك بالحقّ لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغِماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدْنا معك مَن دونه حتى تبلغَه . فقال له رسولُ الله ﷺ خيراً ، ودَعا له بخير .

حدّثنا محمد بن عُبَيْد المحاربيّ ، قال : حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو يحيى ، قال : حدّثنا

(١) سورة المائدة : ٢٤ .

المخارق ، عن طارق ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لقد شهدتُ من المِقداد مشهداً لأنْ أكونَ أنا صاحبه أحبّ إليّ مما في الأرض من شيء ؛ كان رجلاً فارساً ، وكان رسول الله ﷺ إذا غضب احمارّتْ وجْنتاه ؛ فأتاه المقدادُ على تلك الحال ، فقال : أبشِرْ يا رسولَ الله ؛ فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُون ﴾ ، ولكن والذي بعثك بالحقّ لنكوننّ مِنْ بين يديك ومِنْ خلفك ، وعن يمينك وعن شمالك ، أو يفْتَح الله لك .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . ثم قال رسول الله ﷺ : أشيرُوا عليّ أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار ؛ وذلك أنهم كانوا عدد الناس ؛ وذلك أنّهم حين بايعوه بالعقَبة ، قالوا : يا رسولَ الله ؛ إنا برآء من ذِمامك حتى تصلَ إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينَا فأنت في ذمامنا ؛ نمنعك مما نمنع منه أبناءَنا ونساءَنا ؛ فكان رسولُ الله ﷺ يتخوّف ألّا تكون الأنصار ترى عليها نُصرته ؛ إلَّا ممن دَهِمَه بالمدينة من عدّوه ، وأن ليس عليهم أن يسيرَ بهم إلى عدوّ من بلادهم ـ فلمّا قال ذلك رسولُ الله ﷺ ، قال له سعد بن مُعاذ : والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله ! قال : أجَلْ ، قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عُهُودَنا ومواثيقنا ؛ على السمع والطاعة ، فامض يا رسولَ الله لَما أردْتَ ؛ فوالذي بعثك بالحقّ ، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضْتَه لخضْناه معك ؛ ما تخلّف منّا رجلٌ واحد ؛ وما نكره أن تَلقى بنا عدوّنا غداً! إنا لَصُبُرٌ عند الحرب، صُدْق عند اللقاء؛ لعلّ الله يريك منّا ما تَقَرُّ به عيْنُك ؛ فسرْ بنا على بَركة الله .

فَسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد ، ونشّطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله ، وأبْشروا ؛ فإنّ الله قد وَعَدَني إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنّي الآنَ أنظرُ إلى مصارع القوم .

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذَفِران ، فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر ، ثم انحطّ منها على بلد يقال لها الدَّبَّة ، وترك الحَنَّان بيمين ؛ ـ وهو كثيب عظيم كالجبل ـ ثم نزل قريباً من بَدْر ، فركب هو ورجلٌ من أصحابه ـ كما حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن محمد بن يحيى بن حَبّان ـ حتى وقف على شَيْخ من العرب ؛ فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني ممّن أنتما ! فقال له رسولُ الله ﷺ : إذا أخبرتَنا أخبرناك ؛ فقال : وذاك بذاك ! قال : نعم ، قال الشيخ : فإنّه بلغني أنّ محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صَدَقَني الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به رسولُ الله ﷺ ـ وبلغني أنّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ؛ فإن كان الذي حدّثني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به قريش ـ فلما فرغ من خبره ، قال : ممّن أنتما ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : نحن من ماء ؛ ثم انصرف عنه . قال : يقول الشيخ : « ما من ماءٍ » ، أمِنْ ماءِ العِرَاق !

ثم رجع رسولُ الله ﷺ إلى أصحابه ؛ فلمّا أمسى بعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نَفَرٍ من أصحابه إلى ماء بَدْر يلتمسون له الخبر عليه ـ كما حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلَمَة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق ، كما حدّثني يزيد بن رومان ، عن عُروة بن الزبير ـ فأصابوا راوية لريش فيها أسْلَم ؛ غلام بني الحَجّاج ، وَعَرِيض أبو يَسَار ، غلام بني العاص بن سعيد ؛ فأتَوْا بهما

رسولَ الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ قائم يصلّي ؛ فسألوهما ، فقالا : نحن سقاة قريش ؛ بعثونا لنسقيَهم من الماء ، فكره القوم خبرَهما ، ورَجَوْا أن يكونا لأبي سفيان ؛ فضربوهما ، فلما أذْلَقوهما قالا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما ، وركع رسولُ الله ﷺ ، وسجد سجدتين ، ثم سلّم ، فقال : إذًا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ! صَدَقَا والله ! إنّهما لقريش ، أخبِراني : أين قريش ؟ قالا : هم وراءَ هذا الكثيب الذي ترى بالعُدْوَة القُصْوَىٰ ـ والكثيب : العَقَنْقَل ـ فقال رسولُ الله ﷺ لهما : كم القوم ؟ قالا : كثيرٌ ، قال : ما عِدّتهم ؟ قالا : لا ندري ، قال : كم ينحرون كلّ يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، قال رسول الله ﷺ : القوم ما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما رسولُ الله ﷺ : فَمَنْ فيهم من أشراف قريش ؟ قال : عُتْبة بن ربيعة ، وشَيْبة بن ربيعة ، وأبو البختَريّ بن هشام ، وحكيم بن حِزَام ، ونوْفل بن خُوَيلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطُعَيْمَة بن عَدِيّ بن نوفل ، والنضْر بن الحارث بن كَلَدَة ، وَزَمْعَة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمَيَّة بن خَلَف ونُبَيه ، ومُنبِّه ابنا الحجاج ، وسُهَيْل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ . فأقبل رسولُ الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكّة قد ألْقَتْ إليكم أفْلاذَ كبدِها .

قالوا : وقد كان بَسْبَس بن عمرو وَعَديُّ بن أبي الزَّغْباء مَضَيا حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تَلّ قريب من الماء ، ثم أخذا شنًّا يستقيان فيه ـ ومجديّ بن عمرو الجهنيّ على الماء ـ فسمع عديّ وبسبس جاريتيْن من جواري الحاضر ؛ وهما تتلازمان على الماء ؛ والملزومة تقول لصاحبتها : إنّما تأتي العيرُ غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقْضِيكِ الذي لكِ . قال مَجْدِيّ : صدقت ، ثم خلّص بينهما ؛ وسمع ذلك عديّ وَبَسْبَس ، فجلسا على بعيرَيْهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسولَ الله ﷺ ، فأخبراه بما سمِعَا .

وأقبل أبو سفيان قد تقدّم العيرَ حَذِراً حتى ورد الماء ، فقال لمجديّ بن عمرو : هل أحْسَسْتَ أحداً ؟ قال : ما رأيتُ أحداً أنْكره ؛ إلّا أني رأيتُ راكبين أناخا إلى هذا التلّ ، ثم استقيا في شَنٍّ لهما ؛ ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيرَيْهما ففتّه ؛ فإذا فيه نَوىً . فقال : هذه والله علائف يثْرب ! فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجه عِيره عن الطريق ، فساحَلَ بها ، وترك بدراً يساراً ، ثم انطلق حتى أسرع .

وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجُحْفة رأى جُهَيْمُ بن الصَّلْت بن مَخْرَمَة بن المطّلب بن عبد مناف رؤيا ؛ فقال : إنّي رأيتُ فيما يرى النائم ، وإنّي لبينَ النائم واليقظان ، إذْ نظرتُ إلى رجل أقبل على فرسٍ حتى وقف ومعه بعيرٌ له ، ثم قال : قُتِلَ عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميّة بن خلف ، وفُلَان وفلان ؛ فعَدّدَ رجالاً ممن قتل يومئذ من أشراف قريش ؛ ورأيته ضرب في لَبَّة بعيره ، ثم أرسله في العسكر ، فما بقي خِبَاء من أخْبِيَةِ العسكر إلّا أصابه نَضْحٌ من دمه .

قال : فبلغتْ أبا جهل ، فقال : وهذا أيضاً نبيٌّ آخَرُ من بني المطّلب ؛ سَيَعلَم غداً مَن المقتول إن نحن التقينا !

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عِيرَه ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالَكم ؛ فقد نجّاها الله ، فارجعوا . فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بَدْراً ـ وكان بدرٌ

مَوْسِماً من مواسم العرب ، تجتمع لهم بها سُوقٌ كلَّ عام ـ فنقيم عليه ثلاثاً ، ونَنحَرُ الجُزُرَ ، ونُطْعِمُ الطعام ، ونسقي الخُمور ، وتَعْزِف علينا القِيَان ، وتسمع بنا العرب ؛ فلا يزالون يهابوننا أبداً ؛ فامضوا . فقال الأخْنَسُ بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثقفيّ ـ وكان حليفاً لبني زُهْرَةَ وهم بالجُحْفَة : يا بني زُهرة ؛ قد نجّى الله لكم أموالَكم ، وخلّص لكم صاحبَكم مَخْرَمَة بن نوفل ؛ وإنّما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بي جُبْنَها وارجعوا ، فإنه لا حاجةَ بكم في أن تخرجوا في غير ضَيْعَة ؛ لا ما يقول هذا ـ يعني أبا جهل ـ فرجعوا ؛ فلم يَشْهدْها زهريٌّ واحدٌ ؛ وكان فيهم مطاعاً . ولم يكن بقي من قريش بطن إلّا نَفَر منهم ناس ، إلّا بني عديّ بن كعب ، لم يخرج منهم رجلٌ واحدٌ ، فرجعت بنو زُهرة مع الأخنس بن شَرِيق ، فلم يشهد بدراً من هاتَيْن القبيلتَيْن أحدٌ . ومضى القوم .

قال : وقد كان بين طالب بن أبي طالب ـ وكان في القوم ـ وبين بعض قريش مُحَاورة ، فقالوا : والله لقد عَرَفْنا يا بني هاشم ـ وإنْ خرجتم معنا ـ أنّ هواكم مع محمد . فرجع طالب إلى مكة فيمن رجع .

قال أبو جعفر : وأمّا ابن الكلبي ؛ فإنه قال فيما حُدّثْتُ عنه : شَخَص طَالبُ بن أبي طالب إلى بدر مع المشركين ، أخرِج كرهاً . فلم يوجَدْ في الأسْرَى ولا في القتلى ، ولم يرجع إلى أهله ، وكان شاعراً ؛ وهو الذي يقول :

يَا رَبِّ إمَّا يَغْزُوَنَّ طَالِبْ ... في مِقْنَبٍ من هٰذِهِ المَقَانِبْ
فَلْيَكُنِ الْمَسْلُوبَ غَيْرَ السَّالِبْ ... وَلْيَكُنِ المَغْلُوبَ غَيْرَ الغَالِبْ

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . قال : ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدْوَة القُصْوَىٰ من الوادي ؛ خَلف العَقَنْقَل ، وبطن الوادي وهو يَلْيَل ، بين بدر وبين العَقَنْقَل ؛ الكثيب الذي خلفه قريش ، والقُلُب ببدر في العُدْوة الدنيا من بطن يَلْيَل إلى المدينة ، وبعث الله السماء ، وكان الوادي دَهْساً ، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لَبَّدَ لهم الأرض ؛ ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ؛ فخرج رسولُ الله ﷺ يُبَادِروهم إلى الماء ؛ حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : فحدثني محمد بن إسحاق ، قال : حُدّثتُ عن رجال من بني سَلَمَة ؛ أنهم ذكروا أنّ الحُبَاب بن المُنْذر بن الجَمُوح ، قال : يا رسولَ الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمَنزِلٌ أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّره ، أم هو الرّأيُ والحرب والمكيدة ؟ قال : بَلْ هو الرأي والحرب والمكيدة ؛ فقال : يا رسولَ الله ، فإنّ هذا ليس لك بمنزل ، فانهَضْ بالناس حتى نأتيَ أدنى ماء من القوم فننزلَه، ثم نعوِّر ما سواه من القُلُب ، ثم نبني عليه حَوْضاً فتملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرتَ بالرأي . فنهض رسولُ الله ﷺ ومَنْ معه من الناس ، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم ؛ فنزل عليه . ثم أمر بالقُلب فَعُوِّرَتْ ، وبنى حوضاً على القلِيب الذي نزل عليه فمُلِىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية .

حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمَة ، قال : قال محمد بن إسحاق : فحدّثني عبد الله بن أبي بكر ، أنّ سعد بن معاذ قال : يا رسول الله ، نَبْني لَكَ عريشاً من جريد فتكون فيه ، ونُعدُّ عندك ركائبك ،

ثم نَلقى عَدُوّنا ؛ فإنْ أعزّنا الله وأظهرنا على عَدُوِّنا كان ذلك مما أحببْنا ، وإن كانت الأخْرَى جلستَ على ركائبك ، فلحقْت بمَنْ وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام يا نبيّ الله ، ما نحن بأشدّ حُبًّا لك منهم ؛ ولو ظنّوا أنك تلْقَىٰ حرباً ما تخلّفوا عنك . يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . فأثنى رسولُ الله ﷺ عليه خيراً ، ودعا له بخير.

ثم بُني لرسول الله ﷺ عريشٌ ، فكان فيه ؛ وقد ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلتْ ، فلمّا رآها رسولُ الله ﷺ تصوّب من العَقَنْقَل - وهو الكثيب الذي منه جاؤوا إلى الوادي قال: **اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تُحادُّك وتُكذّب رسولَك ؛ اللهُمَّ فنصرَك الذي وعدتَني ؛ اللهم فأحْنِهم الغَداة !**

وقد قال رسولُ الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة في القوم ، على جمل له أحمر : **إن يكنْ عندَ أحد من القوم خيرٌ ؛ فعند صاحب الجمل الأحمر ؛ إن يُطيعوه يَرشُدُوا** . وقد كان خُفاف بن إيماء بن رَحَضَة الغِفاريّ - أو أبوه إيماء بن رَحَضَة - بعث إلى قريش حين مَرّوا به ابناً له بجزائر أهداها لهم ، وقال : إن أحببتم أن أمِدّكم بسلاح ورجال فَعَلنا ؛ فأرسلوا إليه مع ابنه : أنْ وصلتْك الرّحم ! فقد قضيت الذي عليك ؛ فلَعَمري لئن كنّا إنما نقاتل الناس ؛ ما بنا ضعفٌ عنهم ؛ ولئن كنا نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة .

فلمّا نزل الناس ، أقبل نفر من قريش ؛ حتى وردوا حوضَ رسول الله ﷺ ، فيهم حَكِيم بن حِزام ، على فرس له ، فقال رسولُ الله ﷺ : **دعوهم** ؛ فما شرب منهم رجل إلاّ قُتل يومئذ ؛ إلّا ما كان من حَكِيم بن حزام ، فإنّه لم يُقتل ؛ نجا على فرس له يقال له الوجيه ، وأسلم بعد ذلك ، فحسن إسلامه ؛ فكان إذا اجتهد في يمينه قال : لا والذي نجّاني يوم بدر !

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمَة ، قال : قال محمّد بن إسحاق : وحدّثني إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم ، عن أشياخ من الأنصار ، قالوا : لما اطمأنّ القومُ ، بعثوا عُمَير بن وهب الجُمَحِيّ ، فقالوا : احزُرْ لنا أصحابَ محمد ، قال : فاستجال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون ؛ ولكن أمْهلوني حتى أنظر ؛ أللقوم كمين أم مَدَد ؟ قال : فضرب في الوادي ؛ حتى أبْعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال : ما رأيت شيئاً ، ولكني قد رأيتُ - يا معشرَ قريش - الوَلَايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ؛ قوم ليس لهم مَنعة ولا مَلْجأ إلّا سيوفُهم ؛ والله ما أرى [ان] يقتل رجل منهم حتى يُقتل رجل منكم ؛ فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك ! فَرَوْا رأيكم .

فلمّا سمع حَكِيم بن حزام ذلك ، مشى في الناس ، فأتى عتبةَ بن ربيعة ، فقال : يا أبا الوليد ؛ إنّك كبيرُ قريش الليلة وسيّدُها ، والمطاع فيها ؛ هل لك ألّا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر ! قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل دمَ حليفك عمرو بن الحضرميّ ! قال : قد فعلت ، أنتَ عليّ بذلك ؛ إنّما هو حليفي فعليّ عَقْله ، وما أصيب من ماله ؛ فأت ابنَ الحَنْظَلية ؛ فإنّي لا أخشى أن يشجُر أمرَ الناس غيرُه - يعني أبا جهل بن هشام .

حدّثنا الزُّبير بن بكار ، قال : حدّثنا عثامة بن عمرو السهميّ ، قال : حدّثني مُسوَّر بن عبد الملك اليَربوعيّ ، عن أبيه ، عن سعيد بن المسيّب ، قال : بينَا نحن عند مروان بن الحَكَم ؛ إذ دخل حاجبُه ، فقال : هذا أبو خالد حكيم بن حِزام ، قال : إئذنْ له ، فلمّا دخل حكيم بن حِزام ، قال : مرحباً بك يا أبا خالد ! ادْنُ ، فحال له مرْوان عن صدْر المجلس ؛ حتى كان بينه وبين الوِسادة ، ثمّ استقبله مرْوان ، فقال : حَدّثنا حديثَ بدْر ، قال : خرجنا حتى إذا نزلنا الجُحْفَة رجعت قبيلة من قبائل قريش بأسْرها ، فلم يشهد أحدٌ من مشركيهم بَدْراً . ثم خرجنا حتى نزلنا العُدْوة التي ذكرها الله عزّ وجلّ، فجئت عُتْبة بن ربيعة ، فقلت : يا أبا الوليد ، هل لك أن تذهب بشَرَفِ هذا اليوم ما بقيت ؟ قال : أفعل ماذا ؟ قلت : إنكم لا تطلبون من محمّد إلّا دَم ابن الحضرميّ ؛ وهو حليفك ، فتحمّل دِيَته وترجع بالناس . فقال : أنت وذاك ، وأنا أتحمّل بِدِيَتِه ، واذهبْ إلى ابن الحنظلِيّة ـ يعني أبا جهل ـ فقل له : هل لك أن ترجعَ اليوم بمَنْ معك عن ابن عمّك ؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه ، وإذا ابنُ الحضرميّ واقف على رأسه ؛ وهو يقول : قد فَسَخْتُ عقْدي من عبد شمس ، وعقْدي إلى بني مخزوم . فقلت له : يقول لك عُتْبة بن ربيعة : هل لك أن ترجعَ اليوم عن ابن عمك بمَنْ معك ؟ قال : أما وجدَ رسولاً غيرك ! قلت : لا ، ولم أكن لأكونَ رسولاً لغيره . قال حكيم : فخرجت مبادراً إلى عُتْبة ؛ لئلا يَفُوتَني من الخبر شيء ، وعتبة مُتَّكىء على إيماء بن رَحَضَة الغِفَاريّ ؛ وقد أهْدَىٰ إلى المشركين عشر جزائر ، فطلع أبو جهل والشرّ في وجهه ، فقال لعتبة : انتفخ سَحْرُك ! فقال له عتبة : ستعلم ! فَسَلّ أبو جهل سيفَه ، فضرب به متنَ فرسه، فقال إيماء بن رَحَضة : بئس الفأل هذا ! فعند ذلك قامت الحرب .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . ثم قام عُتْبة بن ربيعة خطيباً ، فقال : يا معشرَ قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تَلْقوا محمداً وأصحابه شيئاً ؛ والله لئن أصبتُموه لا يزال رجلٌ ينظر في وَجْهِ رجل يكره النَّظَر إليه ، قتل ابن عمّه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلُّوا بين محمّد وبين سائر العرب ؛ فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرَّضوا منه ما تريدون . قال حكيم : فانطلقتُ أؤمُّ أبا جهل ، فوجدته قد نَثَلَ دِرْعاً له من جرابها ، فهو يُهيِّئها . فقلت : يا أبا الحكم ، إنّ عُتْبة قد أرسلني إليك بكذا وكذا ـ للذي قال ـ فقال : انتفخ والله سَحْرُه حين رأى محمداً وأصحابه ؛ كلّا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمّد وأصحابه ، وما بعتْبه ما قال ؛ ولكنه قد رأى محمداً وأصحابه أكَلَةَ جَزور ؛ وفيهم ابنه فقد تخوّفكم عليه . ثم بعث إلى عامر بن الحضرميّ ، فقال له : هذا حَليفُك ، يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرَك بعينِك ، فقم فانشُد خُفْرتك ومقتَلَ أخيك . فقام عامر بن الحضرميّ فاكتشف ثم صرخ : وا عمراه ! وا عمراه ! فحميَت الحربُ ، وحَقِبَ أمر الناس ؛ واستوسقوا على ما هم عليه من الشرّ ، وأفسِد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عُتْبة بن ربيعة .

فلما بلغ عُتبَة بن ربيعة قولُ أبي جهل : « انتفخ سَحْره » ، قال : سيعلم المُصَفِّرُ اسْتَهُ من انتفخ سَحْره ، أنا أم هو ! ثم التمس بَيْضَة يُدْخِلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضة تَسَعُه من عِظم هامته، فلما رأى ذلك اعتَجَر على رأسه ببُرْد له .

وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزوميّ ـ وكان رجلاً شرساً سيّء الخُلُق ـ فقال : أعاهد الله لأشْربَنّ من حَوْضِهم ولأهْدِمنّه أو لأمُوتنّ دونه . فلما خرج خرج له حمزة بن عبد المطّلب ، فلمّا التقيا ضربه

حمزة ، فأطنّ قدمه بنصف ساقه ؛ وهو دُونَ الحوض ، فوقع على ظهره تَشْخُبُ رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حَبَا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد ـ زَعَمَ ـ أن يُبِرَّ يمينَه ، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عُتْبة بن ربيعة بين أخيه شَيْبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عُتْبة ؛ حتى إذا فَصَل من الصفّ دَعَا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتْية من الأنصار ثلاثة نفر منهم : عوف ومُعَوِّذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ ورجل آخر يقال له عبد الله بن رواحة ، فقال : مَنْ أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . فقالوا : ما لنا بكم حاجة ! ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخْرِجْ إلينا أكفاءَنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا حمزة بن عبد المطلب ، قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا عليّ بن أبي طالب ؛ فلما قاموا ودَنَوْا منهم ، قالوا : مَنْ أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال عليّ : عليّ ، قالوا : نعم أكفاءٌ كِرَام ! فبارز عُبيدة بن الحارث ـ وكان أسنّ القوم ـ عُتْبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شَيْبَةَ بن ربيعة ، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة ؛ فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما عليٌّ فلم يمهل الوليد أن قتله ؛ واختلف عُبيدة وعتبة بينهما بضربتيْن ، كلاهما أثبَت صاحبه ، وكرَّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عُتْبة ، فذفّفا عليه فقتلاه ، واحتملا صاحبهما عبيدة فجاءا به إلى أصحابه ؛ وقد قطعت رجله ؛ فمُخُّها يسيل ، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله ﷺ قال : ألستُ شهيداً يا رسول الله ! قال : بلى ، فقال عبيدة : لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أني أحقّ بما قال منه حيث يقول :

ونُسْلِمُـهُ حتـى نُـصَـرَّعَ حَـوْلَـه ... وَنَـذْهَـلَ عن أبنـائِنـا وَالحَـلَائِـلِ

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : وحَدّثني عاصم بن عمر بن قتادة ؛ أن عتبة بن ربيعة قال للفتية من الأنصار حين انتسبوا : أكفاءٌ كرامٌ ، إنما نريد قوْمَنا ، ثم تزاحف الناس ؛ ودنا بعضُهم من بعض ، وقد أمر رسولُ الله ﷺ أصحابَه ألّا يحملوا حتى يأمرهم ؛ وقال : إن اكتنفكُم القوم فانضحوهم عنكم بالنَّبْل ؛ ورسول الله ﷺ في العريش معه أبو بكر .

قال أبو جعفر : وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان ، كما حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق ؛ كما حدّثني أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين . وحدثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : وحدّثني حَبّان بن واسع بن حَبّان بن واسع ، عن أشياخ من قومه ، أنّ رسولَ الله ﷺ عدَّل صفوفَ أصحابه يوم بدر ، وفي يده قِدْحٌ يعدِّلُ به القوم ، فمرّ بسَوَاد بن غَزيّة ، حليف بني عديّ بن النجار ، وهو مُسْتنتِل من الصفّ ، فطعَن رسولُ الله ﷺ في بطنه بالقِدْح ، وقال : اسْتَوِ يا سواد بن غزيَّة ؛ قال : يا رسولَ الله أوجعْتَني وقد بعثك الله بالحقّ ، فأقِدْني . قال : فكشف رسولُ الله ﷺ عن بطنه ثم قال : استقِدْ ، قال : فاعتنقَه وقبَّل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سَوَاد ؟ فقال : يا رسولَ الله ، حضرَ ما ترى فلم آمن القَتْل . فأردتُ أن يكونَ آخرَ العهد بك أن يمسّ جلدي جلدَكَ . فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً .

ثم عدّل رسولُ الله ﷺ الصّفوفَ ، ورجع إلى العريش ، ودخلَه ، ومعه فيه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، ورسولُ الله ﷺ يناشد ربّه ما وعده من النّصر ، ويقول فيما يقول : اللهمّ إنك إن تَهْلِكْ هذه العِصابة اليوم ـ يعني المسلمين ـ لا تُعبَد بعد اليوم ، وأبو بكر يقول : يا نبيّ الله ، بعضَ مناشدتِك ربّك !

فإن الله عزّ وجلّ منجزٌ لك ما وعدك .

فحدّثني محمد بن عبيد المحاربيّ ، قال : حدّثنا عبدُ الله بن المبارك ، عن عكرمة بن عَمّار ، قال : حدّثني سماك الحنفيّ ، قال : سمعتُ ابنَ عباس يقول : حدّثني عمر بن الخطاب ، قال : لما كان يوم بدْر ، ونظر رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وعِدّتهم ، ونظر إلى أصحابه نيّفاً على ثلاثمائة، استقبل القبلة ، فجعل يدعو ، يقول : اللهمّ أنجزْ لي ما وعدتَني ، اللهمّ إن تَهْلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبَد في الأرض ؛ فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، فأخذ أبو بكر فوضع رداءه عليه ، ثمّ التزمه من ورائه ، ثم قال : كفاك يا نبيّ الله ، بأبي أنت وأمي ، مناشدتك ربّك ؛ فإنه سينجز لك ما وعدك ! فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مِمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(١) .

حدّثنا ابنُ وكيع ، قال : حدّثنا الثقفيُّ ـ يعني عبد الوهاب ـ عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنّ النبيّ ﷺ ، قال وهو في قبّته يومَ بدر : اللهمّ إني أسألُك عهدَك ووعدَك ؛ اللهمّ إن شئت لم تُعْبَدْ بَعْدَ اليوم !

قال : فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبُك يا نبي الله ، فقد ألححت على ربّك ـ وهو في الدّرع ـ فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾(١) .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . قال : وقد خَفَق رسولُ الله ﷺ خفقةً وهو في العريش ؛ ثم انتبه ، فقال : يا أبا بكر ، أتاك نصرُ الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النَّقع . قال : وقد رُمِيَ مِهْجَعٌ مولى عمر بن الخطاب بسهم فقُتل ؛ فكان أوّلَ قتيل من المسلمين ، ثم رُمِيَ حارثة بن سُراقة ، أحد بني عديّ بن النجار وهو يشرب من الحوْض فقتِل . ثم خرج رسول الله ﷺ إلى النّاس فحرَّضهم ، ونفّل كلّ امرىء منهم ما أصاب ، وقال : والّذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتَلُ صابراً محتسباً مُقْبلاً غير مُدْبِر ؛ إلّا أدخله الله الجنة . فقال عمَيرُ بن الحُمَام ، أخو بني سلَمة ، وفي يده تَمَراتٌ يأكُلهنّ : بَخ بَخ ، فما بيني وبين أن أدخلَ الجنة إلّا أن يقْتلَني هؤلاء ! ثم قذف التَّمرَاتِ من يده ، وأخذ سيفَه ، فقاتل القوم حتى قُتِل وهو يقول :

رَكْضاً إِلَىٰ اللّهِ بِغَيْرِ زادِ ... إلّا التُّقَىٰ وَعَمَلِ المَعَادِ
وَآلصَّبْرِ في آللّهِ على الجِهادِ ... وكلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرُ التُّقَى والبرّ وآلرَّشَادِ

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ؛ أنّ عوْف بن الحارث ـ وهو ابن عفراء ـ قال : يا رسول الله ، ما يُضْحِكُ الربَّ من عبده ؟ قال : غَمْسُهُ يدَه في العدوّ حاسِراً . فنزع درْعاً كانت عليه ، فقذفها ؛ ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتِل .

حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق . وحدّثني محمد بن مسلم الزهريّ ، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير العُذرِيّ ، حليف بني زُهرة ، قال : لما التقى النّاس ، ودنا

(١) سورة الأنفال: ٩.
(٢) سورة القمر: ٤٥ ـ ٤٦.

بعضُهم من بعض ، قال أبو جهل : اللهمّ أقْطَعَنا لِلرَّحم ، وآتانا بما لا يُعرف ؛ فأحِنْه الغداة ، فكان هو المستفتِح على نفسه .

ثم إنّ رسول الله ﷺ أخذ حَفْنة من الحَصْباء ، فاستقبل بها قريشاً ، ثم قال : شاهت الوُجوه ! ثم نَفحهم بها ، وقال لأصحابه : شُدُّوا ، فكانت الهزيمة ، فقتل الله مَنْ قتلَ من صناديد قريش ، وأسِر مَنْ أسِر منهم . فلما وضع القوم أيديَهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ في العريش ، وسعد بن مُعاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ ، متوَشحاً السيف ، في نفر من الأنصار يحرُسون رسول الله ﷺ ، يخافون عليه كَرَّةَ العدوّ ، ورأى رسول الله ﷺ ـ فيما ذكر لي ـ في وجه سعد بن معاذ الكَرَاهِيةَ لَما يصنع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : لكأنّك يا سعد تكره ما يصنع الناس ! قال : أجلْ والله يا رسول الله ! كانت أوّل وقعة أوقَعها الله بالمشركين ؛ فكان الإثخانُ في القتل أعجَبَ إليَّ من استبقاء الرجال .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمَة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني العباس بن عبد الله بنِ مَعْبَد ، عن بعض أهله ، عن ابن عباس ، أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومئذ : إنّي قد عرفت أنّ رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرِجُوا كرْهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمَنْ لقِيَ منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومَنْ لقِي أبا البختريّ بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومَنْ لقِيَ العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله فلا يقتله ؛ فإنه إنما أخرِج مستكرَهاً .

قال : فقال أبو حُذيفة بن عُتْبة بن ربيعة : أنقتلُ آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتَنا ، ونترك العبّاس ! والله لئن لقيتُه لألْحِمنّه السيف . فبلغتْ رسولَ الله ﷺ ، فجعل يقول لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ، أما تسمع إلى قول أبي حُذَيفة ، يقول : أضرب وجه عمّ رسول الله بالسيف ! فقال عمر : يا رسولَ الله ، دعْني فلأضربنّ عنقَه بالسيف ؛ فوالله لقد نافَقَ .

ـ قال عمر : والله إنه لأوَّلُ يوم كنّاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص ـ .

قال : فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمِنٍ من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلّا أن تكَفّرها عني الشهادة . فقُتِل يوم اليمامة شهيداً .

قال : وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البَختريّ ؛ لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكّة ، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ؛ وكان ممّن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطّلب ، فلقيَه المُجَذَّرُ بن ذياد البَلويّ ، حليف الأنصار من بني عديّ ، فقال المجذَّر بن ذياد لأبي البختريّ : إنَّ رسول الله ﷺ قد نهى عن قتلك ـ ومع أبي البختريّ زميلٌ له خرج معه من مكة ، وهو جُنادة بن مُلَيْحة بنت زُهَيْر بن الحارث بن أسَد ، وجُنادة رجل من بني لَيْث . واسم أبي البختريّ العاص بن هشام بن الحارث بن أسد ـ قال : وزميلي ؟ فقال : المجذّر : لا والله ما نحن بتاركي زميلَك ؛ ما أمرَنا رسولُ الله ﷺ إلّا بك وحدَك ، قال : لا والله إذاً ، لأمُوتَنّ أنا وهو جميعاً ؛ لاتحدّث عنّي نساء قريش من أهل مكّة أنِّي تركتُ زميلي حِرْصاً على الحياة . فقال أبو البختري حين نازله المجذّر ، وأبى إلّا القتال ، وهو يرتجز :

لَـنْ يُـسْـلِـمَ ابـنُ حُـرَّةٍ أَكِـيـلَهْ   حَـتَّـىٰ يـمـوتَ أوْ يـرى سَـبِـيـلَهْ

فاقتتلا ، فقتله المجذّر بن ذياد .

قال : ثم أتى المجذّر بن ذياد رسولَ الله ﷺ ، فقال : والّذي بعثَك بالحقّ ، لقد جهِدتُ عليه أن يستأسِرَ فآتيَك به ؛ فأبى إلّا القتال ، فقاتلته فقتلتُه .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : حدّثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزّبير ، عن أبيه ، قال : وحدّثني أيضاً عبد الله بن أبي بكر ، وغيرهما ، عن عبد الرّحمن بن عوْف ، قال : كان أميّة بن خَلَف لي صَدِيقاً بمكّة ـ وكان اسمي عبد عمْرو ، فسمِّيتُ حين أسلمتُ : « عبد الرحمن » ، ونحن بمكة ـ قال : فكان يلْقاني ونحن بمكّة ، فيقول : يا عبدَ عمرو ، أرغِبْت عن اسم سمَّاكَه أبوك ؟ فأقول : نعم ، فيقول : فإنّي لا أعرف « الرحمن » ؛ فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ؛ أما أنتَ فلا تجيبني باسمك الأوّل ، وأمّا أنا فلا أدعوك بما لا أعرف . قال : فكان إذا دعاني : « يا عبد عمرو » ، لم أجبه ، فقلت : اجعل بيني وبينك يا أبا عليّ ما شئت ، قال فأنت « عبد الإله » ، فقلت : نعم ، فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله ، فأجيبه ، فأتحدّث معه ؛ حتى إذا كان يومُ بدر ، مررت به وهو واقف مع ابنه عليّ بن أميَّة ، آخذاً بيده ، ومعي أدراعٌ قد استلبتُها ، فأنا أحملها . فلمّا رآني قال : يا عبد عمرو ! فلم أجبه ، فقال : يا عبد الإله ، قلت : نعم ، قال : هل لك فيّ ، فأنا خير لك من هذه الادراع التي معك ؟ قال : قلت : نعْم ، هلُمَّ إذاً . قال ؛ فطرحتُ الأدراع من يدي وأخذت بيده ويد ابنه عليّ ، وهو يقول : ما رأيتُ كاليوم قطّ ! أما لكم حاجة في اللّبن ! قال : ثم خرجت أمشي بهما .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمَة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني عبد الواحد بن أبي عوْن ،عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : قال لي أميّة بن خلف وأنا بينه وبين ابنه ، آخذٌ بأيديهما : يا عبدَ الإله ، مَن الرجل منكم ، المعْلِم بريشة نعامة في صدره ؟ قال : قلت : ذاك حمزة بن عبد المطّلب ، قال : ذاك الذي فَعل بنا الأفاعيل ! قال عبد الرحمن : فوالله إنّي لأقودهما إذْ رآه بلال معي ـ وكان هو الذي يعذّب بلالاً بمكّة على أن يترك الإسلام فيخرجُه إلى رَمْضاء مكة إذا حميَتْ ، فيضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضَع على صدره ، ثم يقول : لا تزالُ هكذا حتى تفارقَ دين محمد ، فيقول بلال : أحدٌ أحَدٌ ـ فقال بلال حين رآه : رأس الكفر أميّة بن خَلَف ، لا نجوتُ إن نَجَوْتَ ؛ قال : قلت : أيْ بلال ، أسيرَيّ ! قال : لا نجوتُ إن نجوا . قال : قلت : تسمّع يا بن السوداء ! قال : لا نجوتُ إن نَجَوَا ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصارَ الله ، رأس الكفر أميّة بن خَلَف ، لا نجوتُ إن نجا! قال : فأحاطوا بنا ، ثم جعلونا في مثل المَسَكَة وأنا أذُبُّ عنه ؛ قال : فضرب رجل ابنه فوقع . قال : وصاح أميّة صيحة ما سمعت بمثلها قطّ . قال : قلتُ : انجُ بنفسك ، ولا نَجاءَ ؛ فوالله ما أغنِي عنك شيئاً . قال : فهبُروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما .

قال : فكان عبد الرحمن يقول : رحم الله بلالاً ! ذهبت أدراعي وفجعني بأسيريَّ .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر ، أنّه حُدّث عن ابن عبَّاس ، أن ابن عباس ، قال : حدّثني رجلٌ من بني غِفار ، قال : أقبلتُ أنا وابنُ عمّ لي حتى أصعدنا في جبل يُشْرف بنا على بدْر ، ونحن مشرِكان ، ننتظر الوقْعة على مَنْ تكون الدَّبْرَة،

فَننتهب مع من ينتهب . قال : فبينا نحن في الجبل ؛ إذ دنت منّا سحابة ، فسمعنا فيها حَمْحَمة الخيل ، فسمعت قائلاً يقول : أقدِمْ حَيْزُوم . قال : فأمّا ابن عمّي فانكشف قِناعُ قلبه فمات مكانه ؛ وأمّا أنا فكدتُ أهلِك ، ثم تماسكت .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : وحدّثني أبي إسحاق بن يَسار ، عن رجال من بني مازن بن النَّجار ، عن أبي داود المازنيّ ـ وكان شهد بدراً ـ قال : إني لأتْبَعُ رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذْ وقع رأسه قبل أن يصِلَ إليه سيفي ، فعرفت أن قد قتله غيري .

حدّثني عبدُ الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصريّ ، قال : حدّثنا يحيى بن بُكير ، قال : حدّثنا محمد بن يحيى الإسكندرانيّ عن العَلاء بن كثير ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بنْ المِسْوَر بن مخرَمة ، عن أبي أمامة بن سَهْل بن حُنَيف ، قال : قال لي أبي : يا بُنيّ ، لقد رأيتُنا يوم بدر ؛ وإنّ أحدنا ليشيرُ بسيفه إلى المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يصلَ إليه السيف .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني الحسن بن عُمارة ، عن الحَكَم بن عتيبة ، عن مِقْسم مولى عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن عباس ، قال : كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمراً ، ولم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر . وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عُدَداً ومدَداً لا يضربون .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : قال محمد : وحدّثني ثور بن زيد مولى بني الدِّيل ، عن عِكْرمة مولى ابنِ عبَّاس ، عن ابن عبَّاس قال : وحدّثني عبد الله بن أبي بكر ، قالا : كان مُعاذ بن عمرو بن الجَمُوح أخو بني سَلمة يقول : لما فرغ رسول الله ﷺ من عدوّه ، أمرَ بأبي جهل أن يلتَمس في القتلى ، وقال : اللهمّ لا يعجزنّك ، قال : فكان أوّل مَنْ لقِيَ أبا جهل معاذ بن عمرو بن الجموح ، قال : سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحَرَجة وهم يقولون : أبو الحَكَمَ لا يُخْلَص إليه . فلما سمعتها جعلته من شأني ، فصَمدْت نحوه ، فلمّا أمكنني حملتُ عليه فضربته ضربة أطنَّت قدَمه بنصف ساقه ؛ فوالله ما شبَّهتُها حين طاحت إلَّا النّواة تَطيح من تحت مِرْضَخَةِ النّوى حين يُضرب بها . قال : وضربني ابنُه عِكْرمة على عاتقي ؛ فطرح يدي ، فتعلقت بجِلْدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ؛ فلقد قاتلت عامَّة يومي ، وإني لأسحبها خلْفِي ؛ فلما آذتني جعلت عليها رجلي ، ثم تَمطَّيت بها ، حتى طرحتُها .

قال : ثم عاش مُعاذ بعد ذلك ، حتى كان في زمن عثمان بن عفان . قال : ثم مرّ بأبي جهل ـ وهو عقير ـ مُعَوِّذ بن عفراء ، فضربه حتى أثْبَته ؛ فتركه وبه رمق ؛ وقاتل معوّذ حتى قتل ، فمرّ عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلى وقد قال لهم رسول الله ﷺ؛ فيما بلغني: انظروا إنْ خَفِيَ عليكم في القتلى إلى أثر جُرْح بركبتِه؛ فإني ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدُبة لعبدالله بن جُدعان؛ ونحن غلامان؛ وكنت أشفَّ منه بيسير؛ فدفعته، فوقع على ركبتيْه، فَجُحِشَ في إحداهما جَحْشاً لم يزل أثره فيه بعد. قال عبدالله بن مسعود: فوجدته بآخر رَمَق، فوضعت رجلي على عنقه. قال: وقد كان ضَبَثَ بي مرّة بمكة، فآذاني ولكَزَني. ثم قلت: هل أخزاكَ الله يا عدو الله! قال: وبماذا أخزاني؟ أعْمَدُ من رجل قَتلتموه! أخبرني لمن الدَّبْرَة اليوم؟ قال: قلت: لله ولرسوله.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال : حدّثنا سَلمة ، عن محمد بن إسحاق : وزعم رجال من بني مخزوم أنّ ابن مسعود ، كان يقول : قال لي أبو جهل : لقد ارتقيتَ يا رُوَيْعِيَ الغنم مرتقىً صعباً ! ثم احتززتُ رأسه ؛ ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت : يا رسولَ الله ، هذا رأس عدوّ الله أبي جهل ، قال : فقال رسولُ الله ﷺ : آللهِ الذي لا إله غيره ! ـ وكانت يمينَ رسول الله ﷺ ـ قال : قلتُ : نعم ؛ والله الذي لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يديْ رسول الله ﷺ . قال : فحمد الله .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمّد بن إسحاق ، قال : وحدّثني يزيد بن رُومان ، عن عُروة بن الزبير ، عن عائشة ، قالت : لما أمرَ رسولُ الله ﷺ بالقتلى أن يُطرَحوا في القَلِيب طُرحوا فيه ؛ إلّا ما كان من أميّة بن خَلَف ؛ فإنه انتفخ في دِرْعه حتى ملأها ، فذهبوا ليحرّكوه ، فتزايلَ فأقرّوه ؛ وألقوا عليه ما غيّبه من التراب والحجارة ، فلما ألقاهم في القَلِيب ، وقف رسولُ الله ﷺ ، فقال : يا أهلَ القَلِيب ، هل وجدتم ما وَعَدَكم ربكم حقًّا ! فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا . فقال له أصحابه : يا رسولَ الله ! أتكلّم قوماً موتى ! قال : لقد علموا أن ما وعدتُهم حقّ ، قالت عائشة : والناس يقولون : « لقد سمعوا ما قلت لهم » ، وإنّما قال رسول الله ﷺ : « لقد علموا » .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق . قال: وحدّثني حُميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، قال : سمع أصحابُ رسول الله ﷺ رسولَ الله ﷺ ، وهو يقول من جوف الليل : يا أهلَ القَلِيب ، يا عُتْبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أميّة بن خَلَف ، يا أبا جهل بن هشام ـ فعدَّدَ مَنْ كان معهم في القَلِيب : هل وجدتم ما وعدكُمْ ربّكم حقًّا ؛ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا ! قال المسلمون : يا رسولَ الله ؛ أتنادي قوماً قد جَيَّفوا ! فقال : ما أنتم بأسمَع لما أقول منهم ؛ ولكنَّهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : وحدّثني بعضُ أهلِ العلم ، أنّ رسولَ الله ﷺ يوم قال هذه المقالة : قال : يا أهلَ القَلِيب ، بئس عشيرة النبيّ كنتم لنبيّكم ! كذّبتموني وصدّقني الناس ، وأخرجتموني وآواني النّاس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . ثم قال : هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقًّا ؟ للمقالة التي قال . قال : ولما أمر بهم رسولُ الله ﷺ أن يُلْقَوْا في القَلِيب ، أخِذ عتبة بن ربيعة فسحِب إلى القَلِيب ، فنظر رسولُ الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ في وجه أبي حُذيفة بن عتبة ؛ فإذا هو كئيب قد تغيّر ، فقال : يا أبا حذيفة ؛ لعلّك دخلك مِنْ شأن أبيك شيء ! ـ أو كما قال ﷺ ـ فقال : لالا والله يا نبيّ الله ، ما شككتُ في أبي ولا في مصرعه ؛ ولكنّي كنتُ أعرِف من أبي رأياً وحِلْماً وفضلاً ؛ فكنت أرجو أن يهديَه ذلك إلى الإسلام ؛ فلما رأيتُ ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنتُ أرجو له ، حزَنَني ذلك ، قال : فدعا رسولُ الله ﷺ له بخير ، وقال له خيراً .

ثم إنّ رسولَ الله ﷺ أمر بما في العسكر ممَّا جَمع الناس فجُمع ؛ فاختلف المسلمون فيه ، فقال مَنْ جمعه : هو لنا ؛ قد كان رسول الله ﷺ نفّل كلّ امرىء ما أصاب ، فقال الذين كانوا يقاتلون العَدُوّ ويطلبونهم : لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلْنا القوم عنكم حتى أصبتم ما أصبتم . فقال الذين يَحرسون رسولَ الله ﷺ مخافة أن يخالِف إليه العدوّ : والله ما أنتم بأحَقّ به منّا ؛ لقد رأينا أن نقتلَ العدوّ إذْ

ولّانا الله ، ومنحنا أكتافهم ؛ ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه مَنْ يمنعه ؛ ولكن خِفْنا على رسول الله ﷺ كرّة العدوّ ؛ فقمنا دونه ؛ فما أنتم بأحقّ به منّا .

حدثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا ، عن سليمان بن موسى الأشدَق ، عن مكحول ، عَنْ أبي أمامة الباهليّ ، قال: سألت عبادة بن الصّامت عن الأنفال ، فقال : فينا معشَر أصحاب بدر نزلتْ ؛ حين اختلفنا في النَّفَل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسوله ، فقسّمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَوَاء ـ يقول على السَّوَاء ـ فكان في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وصلاح ذات البين .

قال : ثمّ بعث رسولُ الله ﷺ عند الفتح عبدَ الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة .

قال أسامة بن زيد : فأتانا الخبر حين سوّينا التّراب على رقيّة بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله ﷺ خَلَفني عليها مع عثمان .

قال : ثم قدم زيد بن حارثة فجئته وهو واقف بالمصلّى قَد غَشيهُ الناس وهو يقول : قُتِل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البَخْتَريّ بن هشام ، وأميّة بن خَلَف ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج . قال : قلت : يا أبهْ أحقٌّ هذا ! قال : نعم والله يا بُنيَّ . ثم أقبل رسولُ الله ﷺ قافلاً إلى المدينة ؛ فاحتمل معه النَّفَل الذي أصيب من المشركين ، وجعل على النَّفَل عبد الله بن كعب بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن مازن بن النَّجار . ثم أقبلَ رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضِيق الصَّفْراء ، نزل على كَثِيب بين المضِيق وبين النازية ـ يقال له سَيَر ـ إلى سَرْحة به ، فقسَّم هنالك النَّفَل الّذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السَّواء ، واستقى له من ماء به يقال له الأرواق .

ثم ارتحل رسولُ الله ﷺ حتى إذا كان بالرَّوْحاء ، لقيَهُ المسلمون يُهنّئونه بما فَتَح الله عليه ومَنْ معه من المسلمين ، فقال سلمة بن سلامة بن وقْش ـ كما حدّثنا ابن حميد ، فقال : حدّثنا سَلَمة ، قال : قال محمد بن إسحاق ، كما حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة ، ويزيد بن رومان : وما الذي تُهَنّئون به ! فوالله إن لقينا إلّا عجائز صُلعاً كالبُدْنِ المعَقّلة ، فنحرناها . فتبسَّمَ رسول الله ﷺ ، وقال : يا بنَ أخي ، أولئك الملأ . قال: ومع رسول الله ﷺ الأسارى من المشركين وكانوا أربعة وأربعين أسيراً ، وكان من القتلى مثل ذلك ـ وفي الأسارَى عُقْبة بن أبي مُعَيط ، والنَّضْر بن الحارث بن كَلَدَة ـ حتى إذا كان رسولُ الله ﷺ بالصَّفْراء ، قتِل النَّضْر بن الحارث ، قتَله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة قال : قال محمد بن إسحاق : كما حدّثني بعضُ أهل العلْم من أهل مكة ؛ قال : ثم خرج رسولُ الله ﷺ ؛ حتى إذا كان بعرْق الظّبْية ، قتل عُقْبة بن أبي مُعَيط ، فقال حين أمر به رسول الله ﷺ أن يُقتل : فمنْ للصبية يا محمد ! قال: النار ، قال : فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّ ، ثم أحد بني عمرو بن عوف .

قال : كما حدّثني أبو عبيدة بن محمد بن عمّار بن ياسر ، قال : ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى عِرْق

الظبية حين قتل عُقبة لَقيَه أبو هند مولى فَرْوة بن عمرو البَيَاضيّ بحَمِيت مملوء حَيْساً ، وكان قد تخلّف عن بدر ، ثم شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ ، وكان حجّام رسول الله ﷺ ، فقال رسولُ الله ﷺ : إنما أبو هند امرؤٌ من الأنصار ، فأنكحوه وأنكحوا إليه ، ففعلوا . ثم مَضَى رسولُ الله ﷺ حتى قدِم المدينة قبل الأسارى بيوم .

حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرَارة ، قال : قُدِم بالأسارى حين قُدم بهم وَسَوْدَة بنت زَمْعة زوج النبي ﷺ عند آل عَفْرَاء في مَنَاحتهم على عَوْف ومُعوّذ ابنَي عفراء - قال : وذلك قبل أن يُضْرَب عليهنّ الحجاب - قال : تقول سَوْدة : والله إني لَعندهم إذ أتينا ، فقيل : هؤلاء الأسارى قد أُتِيَ بهم ، قالت : فرحْت إلى بيتي ورسولُ الله ﷺ فيه ؛ وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحُجْرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبْل ، قالت : فوالله ما ملكتُ نفسي حين رأيتُ أبا يزيد كذلك أن قلت : يا أبا يزيد ، أعطيْتم بأيديكم ، ألاّ متّم كراماً ! فوالله ما أنْبهني إلاَّ قولُ رسول الله ﷺ من البيت : يا سودة ، أعَلى الله وعلى رسوله ! قالت : قلت : يا رسولَ الله ؛ والَّذِي بعثك بالحقِّ ما ملكتُ نفسي حين رأيت أبا يزيدَ مجموعةً يداه إلى عنقه بحبْل أن قلت ما قلت .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني نُبَيْه بن وهب ، أخو بني عبد الدّار ، أنّ رسولَ الله ﷺ حين أقبل بالأسارَى فرّقهم في أصحابه ، وقال : استوصُوا بالأسارى خيراً - قال : وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم ، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمّه في الأسارى - قال : فقال أبو عزيز : مَرّ بي أخي مصعب بن عمير ، ورجل من الأنصار يأسِرني ، فقال : شُدَّ يديك به ؛ فإن أمه ذاتُ متاع ، لعلّها أن تفتديَهُ منك . قال : وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدْر ؛ فكانوا إذا قدّموا غَدَاءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز ، وأكلوا التمر لوصيَّة رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلاَّ نَفَحني بها . قال : فأستحي ، فأردّها على أحدهم فيردّها عليّ ما يَمسُّها .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : وكان أوّل مَنْ قدم مكة بمُصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله بن إياس بن ضُبَيْعة بن مازن بن كعب بن عمرو الخزاعيّ - قال أبو جعفر : وقال الواقديّ : الحيسُمان بن حابس الخزاعي - قالوا : ما وراءك ؟ قال : قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البختريّ بن هشام ونُبَيه ومنبه ابنا الحجاج . قال : فلمّا جعل يعدّد أشراف قريش ، قال صَفْوان بن أمية وهو قاعد في الحِجْر : والله إنْ يعقل هذا فَسلُوه عني، قالوا : ما فعل صفوان بن أمية ؟ قال : هو ذاك جالساً في الحِجْر ، وقد والله رأيتُ أباه وأخاه حين قتلا .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : حدّثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، عن عكْرمة مولى ابن عبّاس ، قال : قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت غلاماً للعبّاس بن عبد المطّلب ، وكان الإسلام قد دخلنَا أهل البيت ، وأسلمتْ أمّ الفضل وأسلمتُ ، وكان

العبَّاس يهاب قومه ، ويكره أن يخالفَهم ، وكان يكتم إسلامَه ، وكان ذا مال كثير متفرّق في قومه ، وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلَّف عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكذلك صنعوا ، لم يتخلَّف رجل إلَّا بعثَ مكانه رجلًا ، فلمّا جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش ، كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوّة وعزًّا .

قال : وكنت رجلًا ضعيفاً ، وكنت أعمل القِداح ، أنحتُها في حِجْرة زمزم ، فوالله إني لجالس فيها أنحت القِداح ، وعندي أمّ الفضْل جالسة ، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبلَ الفاسق أبو لهب يجرّ رجليْه بشرّ ، حتى جلس على طُنُب الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري ؛ فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب قد قدِم . قال : فقال أبو لهب : هلمّ إليّ يا بنَ أخِي ؛ فعندك الخبر. قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: يابن أخي، أخبِرْني؛ كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء ؛ والله إن كان إلَّا أن لقِيناهم ، فمنحناهم أكتافنا ، يقتُلوننا ويأسرون كيف شاؤوا؛ وايمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس ؛ لقِينا رجالًا بِيضاً على خيل بُلْق بين السماء والأرض ؛ ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع : فرفعت طُنُب الحجْرة بيدي ، ثم قلت : تلك الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يدَه فضرب وجهي ضربة شديدة ، قال : فثاورتُه ، فاحتملني ، فضرب بي الأرضَ ثم بَرَك عليّ يضربني - وكنت رجلًا ضعيفاً - فقامت أمّ الفضل إلى عَمُود من عُمُد الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فشجّت في رأسه شجَّة منكرة ، وقالت : تستضعفه أنْ غاب عنه سيّده ! فقام مولِّياً ذليلًا ، فوالله ما عاش إلَّا سبع ليال حتى رماه الله عزّ وجلّ بالعَدَسَة فقتلته ، فلقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفنانه حتى أنتن في بيته - وكانت قريش تتّقي العَدَسة وعَدْوَتَها كما يتّقي الناس الطاعون - حتى قال لهما رجل من قريش : ويحكما ! ألَا تستحيان أنّ أباكما قد أنتن في بيته لا تغيِّبانه ! فقالا : إنا نخشى هذه القَرْحة ، قال : فانطلِقا فأنا معكما ، فما غسلوه إلَّا قذْفاً بالماء عليه من بعيد ، ما يمسُّونه ، ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكّة إلى جدار ، وقذفوا عليه الحجارة حتى واروْه .

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة بن الفضل، قال: قال محمد بن إسحاق: وحدّثني العبَّاس بن عَبدالله بن معبد، عن بعض أهله، عن عبدالله بن عبَّاس، قال: لَمَّا أمسى القوم من يوم بدْر، والأسارى محبوسون في الوَثاق، باتَ رسول الله ﷺ ساهراً أوّل ليلة، فقال له أصحابه: يا رسولَ الله، مالك لا تنام! فقال: سمعت تضوّرَ العبَّاس في وَثاقه، قال: فقاموا إلى العبَّاس فأطلقوه، فنام رسولُ الله ﷺ.

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمَة بن الفضل ، عن محمد بن إسحاق ، قال : فحدّثني الحسنُ بن عُمارة ، عن الحكم بن عتبية بنِ مِقْسَم ، عن ابن عبّاس ، قال : كان الذي أسر العبَّاس أبو اليَسَر كعب بن عمرو أخو بني سلمة ، وكان أبو اليَسَر رجلًا مجموعاً ، وكان العبَّاس رجلًا جسيماً ، فقال رسولُ الله ﷺ لأبي اليَسر : كيف أسرت العباس يا أبا اليَسَر ؟ فقال : يا رسولَ الله ؛ لقد أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبلَ ذلك ولا بعده ؛ هيئته كذا وكذا ، قال رسولُ الله ﷺ : لقد أعانك عليه مَلَك كريم .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمَة بن الفضل ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني يحيى بن

عبَّاد ، عن أبيه عبَّاد ، قال : ناحتْ قريش على قتلاهم ، ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلُغَ ذلك محمداً وأصحابَه ، فيشمَت بكم ، ولا تبعثوا في فداء أسراكم حتى تستأنوا بهم ؛ لا يتأرّب عليكم محمد وأصحابُهُ في الفداء .

قال : وكان الأسود بن عبد المطَّلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زَمْعة بن الأسود ؛ وعقيل بن الأسود ، والحارث بن الأسود ؛ وكان يحبّ أن يبكِيَ على بنيه ؛ فبينا هو كذلك ؛ إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أحِلَ النّحبُ ؟ هل بَكت قريش على قتلاها ؟ لعليّ أبكى على أبي حكيمة ـ يعني زَمْعة ـ فإنّ جَوْفي قد احترق ! قال : فلما رجع إليه الغلام ، قال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلّتْه . قال : فذلك حين يقول :

أَتَبْكي أنْ يَضِلَّ لها بَعيرٌ ... وَيَمْنَعُها مِنَ النَّوْمِ السُّهُودُ
فلا تَبْكي على بَكْرٍ ولٰكنْ ... على بَدْرٍ تَقَاصَرَتِ الجُدُودُ
على بَدْرٍ سَراةِ بَني هُصَيْصٍ ... وَمَخْزُومٍ وَرَهْطِ أبي الوَلِيدِ
وَبَكِّي إنْ بَكَيْتِ عَلَىٰ عَقِيلٍ ... وَبَكِّي حارِثاً أَسَدَ الأُسُودِ
وَبَكِّيهِمْ ولا تَسَمِي جَميعاً ... فما لأبي حَكِيمَةَ مِنْ نَدِيدِ
ألا قد ساد بَعْدَهُمُ رِجالٌ ... ولَوْلَا يَوْمُ بَدْرٍ لَمْ يَسُودُوا

قال : وكان في الأسارى أبو وداعة بن ضُبيْرة السَّهْميّ ، فقال رسولُ الله ﷺ : إن له ابناً تاجراً كيّساً ذا مال ؛ وكأنكم به قد جاءكم في فداء أبيه ! قال : فلمَّا قالت قريش : لا تعجلوا في فداء أسرائكم لا يتأرّب عليكم محمد وأصحابه ، قال المطّلب بن أبي وداعة ـ وهو الذي كان رسول الله ﷺ عَنَى ـ : صدقتم ، لا تعجلوا بفداء أسرائكم ـ . ثم انسلّ من الليل ، فقَدِم المدينة ، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ، ثم انطلق به ، ثم بعثت قريش في فداء الأسارَى ، فقدم مِكْرَزُ بن حفص بن الأخيْف في فداء سُهَيْل بن عمرو ، وكان الذي أسَرَه مالك بن الدُّخْشُم ، أخو بني سالم بن عوف ، وكان سهيل بن عمرو أعْلَمَ من شَفَته السّفْلَى .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : فحدّثني محمد بن عمرو بن عطاء بن عيّاش بن علقمة ، أخو بني عامر بن لؤيّ ، أنّ عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : يا رسولَ الله انتزع ثنيّتَيْ سُهَيْل بن عمرو . السّفْلِيَيْنِ يَدْلَعْ لسانه ، فلا يقوم عليك خَطيباً في موطنٍ أبداً ، فقال رسولُ الله ﷺ : لا أمثِّلُ به فيمثِّل الله بي ؛ وإن كنت نبيًّا .

قال : وقد بلغني أنّ رسولَ الله ﷺ قال لعمر في هذا الحديث : إنَّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمّه ؛ فلمّا قاولهم فيه مِكْرَز ، وانتهى إلى رضاهم ، قالوا : هات الذي لنا . قال : اجعلُوا رجلي مكان رِجْله ، وخلُّوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه . قال : فخلَّوْا سبيل سُهيل ، وحبسوا مِكرزاً مكانَه عنْدهم .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : قال محمّد بن إسحاق ، عن الكلبيّ ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال للعبّاس بن عبد المطلب حين انتهى به إلى المدينة : يا عبَّاس ، افدِ نفسَك وابنيْ أخيك عَقِيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، وحليفك عُتْبة بن عمرو بن

جَحْدم ، أخا بني الحارث بن فهر ؛ فإنك ذو مال . فقال : يا رسولَ الله ؛ إنّي كنتُ مسْلِماً ؛ ولكنّ القوم استكرهوني ، فقال : الله أعلم بإسلامك ؛ إن يكن ما تذكر حقًّا فالله يجزيك به ، فأمّا ظاهرُ أمرك فقد كان علينا ، فافْدِ نفسَك ـ وكان رسولُ الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقيَّة من ذهب ـ فقال العبَّاس : يا رسولَ الله ، احسبها لي في فدائي ، قال : لا ؛ ذاك شيء أعطاناه الله عزّ وجلّ منك ، قال : فإنَّه ليس لي مال . قال : فأين المال الذي وضعَته بمكة حيث خرجتَ من عند أم الفضل بنت الحارث ، ليس معكما أحد . ثم قلتَ لها : إن أصِبتُ في سفري هذا فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولِقُثَم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا ! . قال : والَّذِي بعثَك بالحقّ ما علِمَ هذا أحد غيري وغيرها ؛ وإني لأعلم أنك رسول الله ، ففدَىٰ العبَّاس نفسَه وابني أخيه وحليفَه .

حدّثنا ابنُ حميد ؛ قال : حدّثنا سلَمة بن الفضل ، عن محمد ، قال : وحدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال كان عمرو بن أبي سفيان بن حرب ـ وكان لابنة عُقْبة بن أبي مُعيط ـ أسيراً في يديْ رسول الله ﷺ من أسارى بدر ، فقيل لأبي سفيان : افْدِ عَمْراً ، قال : أيجمع عليّ دمي ومالي ! قتلوا حَنْظَلَة وأفدي عمراً ! دَعُوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم . قال: فبينا هو كذلك محبوسٌ عند رسولِ الله ﷺ ، خرج سعدُ بن النّعمان بن أكّال ، أخو بني عمرو بن عوف ، ثم أحد بني معاوية معتمراً ، ومعه مُرَيّة له ؛ وكان شيخاً كبيراً مسلماً في غنم له بالنقيع ؛ فخرج من هنالك معتمراً ؛ ولا يخشى الذي صُنع به ؛ لم يظن أنه يُحْبس بمكّة ؛ إنما جاء معتمراً ؛ وقد عَهِد قريشاً لا تعترض لأحد حاجًّا أو معتمراً إلَّا بخير ؛ فعدَا عليه أبو سفيان بن حرب ، فحبسه بمكّة بابنه عمرو بن أبي سفيان ، ثم قال أبو سفيان :

أَرَهْطَ ابْنِ أكّالٍ أجيبُوا دُعَاءَه ... تعاقدتمُ لا تُسْلِمُوا السَّيِّد الكَهلا
فإنَّ بَني عَمْرٍو لئامٌ أذِلّةٌ ... لئنْ لم يَفُكُّوا عن أسيرِهِم الكَبْلا

قال : فمشى بنُو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ ؛ فأخبروه خبره ، وسألوه أن يعطيَهم عمرو بن أبي سفيان فيفكُّوا شيخَهم ؛ ففعل رسولُ الله ﷺ ، فبعثوا به إلى أبي سفيان ، فخلَّى سبيل سعد .

قال : وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس خَتَنُ رسول الله ﷺ ، زوج ابنته زَيْنَب ، وكان أبو العاص من رجال مكّة المعدودين مالاً وأمانة وتجارةً ، وكان لهالَةَ بنت خُوَيْلِدٍ [وكانت] خديجة خالته ، فسألت خديجة رسولَ الله ﷺ أن يزوّجه ؛ وكان رسولُ الله ﷺ لا يخالفها ؛ وذلك قبل أن ينزَل عليه ؛ فزوّجه ؛ فكانت تعدّه بمنزلة ولدها ؛ فلما أكرمَ الله عزّ وجلّ رسولَه بنُبُوّته آمنت به خديجة وبناته ، فصدَّقنهُ وشَهِدْنَ أنّ ما جاء به هو الحقُّ ؛ ودِنّ بدينه ؛ وثبتَ أبو العاص على شِرْكه .

وكان رسولُ الله ﷺ قد زوّج عتبة بن أبي لهب إحدى ابنتيْه رُقيَّة أو أمّ كُلْثوم ؛ فلما بادى قريشاً بأمر الله عزّ وجلّ وباعدوه ، قالوا : إنكم قد فرّغتم محمّداً من همّه ؛ فردوا عليه بناته ، فاشغَلوه بهنّ ، فمشوْا إلى أبي العاص بن الربيع ، فقالوا له : فارقْ صاحبتَك ؛ ونحن نزوّجك أيّ امرأة شئت من قريش ، قال : لا ها اللهِ إذاً ؛ لا أفارق صاحبتِي وما أحبّ أنّ لي بامرأتي امرأة من قريش ؛ وكان رسولُ الله ﷺ يثني عليه في صهْره خيراً ـ فيما بلغني ـ .

قال : ثم مشوْا إلى الفاسق ابن الفاسق ، عُتبة بن أبي لهب ، فقالوا له : طلّق ابنةَ محمد ونحن

نزوّجك أيّ امرأة من قريش شئت ؛ فقال : إن زوّجتموني ابنَة أبان بن سعيد بن العاص ، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتُها . فزوّجوه ابنة سعيد بن العاص وفارقها ، ولم يكن عدوّ الله دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامة لها ، وهواناً له ؛ فخلفَ عليها عثمان بن عفّان بعده ؛ وكان رسولُ الله ﷺ لا يُحِلّ بمكّة ولا يحرم مغلوباً على أمره ، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب بنت رسولِ الله ﷺ حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع ؛ إلاّ أنّ رسولَ الله ﷺ كان لا يقدر على أن يفرّق بينهما ؛ فأقامت معه على إسلامهمْ وهو على شِرْكه ؛ حتى هاجر رسولُ الله ﷺ ؛ فلمّا سارت قريش إلى بدْر سار فيهم أبو العاص بن الرّبيع ؛ فأصيب في الأسارى يوم بدر ، وكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمَة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : فحدّثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عبّاد ، عن عائشة زوْج النبيّ ﷺ ، قالت : لما بعث أهل مكة في فِداء أُسَرائهم ، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتْها بها على أبي العاص حين بَنَى عليها .

قالت : فلمّا رآها رسولُ الله ﷺ رقّ لها رِقّةً شديدةً ، وقال : إن رأيتم أن تُطْلِقوا لها أسيرَها وتَرُدّوا عليها الذي لها فافعلوا ! فقالوا : نعم يا رسول الله ، فاطلَقُوه ورَدُّوا عليها الذي لها .

وكان رسولُ الله ﷺ قد أخذَ عليه ـ أو وَعَدَ رسول الله ﷺ ـ أن يخلّيَ سبيلَ زينب إليه ، أو كان فيما شَرَط عليه في إطلاقه ؛ ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ ، فيعلم ما هو ! إلاّ أنّه لما خرج أبو العاص إلى مكّة وخُلِّيَ سبيلُه ، بعث رسول الله ﷺ زيدَ بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه ، فقال : كونا ببطن يأجج ؛ حتى تمرَّ بكما زينب فتصحباها ، حتى تأتياني بها ، فخرجا مكانهما ؛ وذلك بعد بدر بشهر أو شَيْعه . فلما قدِم أبو العاص مكّة أمرها باللحوق بأبيها ؛ فخرجت تجهّز .

فحدّثنا ابنُ حُميد قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني عبدُ الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال : حُدّثت عن زينب أنّها قالت : بينا أنا أتجهَّزُ بمكّة للّحوق بأبي ، لقيَتْني هِنْد بنت عُتْبة ، فقالت : أي ابنة محمد ، ألم يَبْلغْني أنّك تريدين اللحوق بأبيك ! قالت : فقلت : ما أردتُ ذلك ، قالت : أي ابنةَ عمي ، لا تفعلي ؛ إن كانت لكِ حاجة بمتاع مما يرفُق بك في سفرك ، أو بمال تبلُغين به إلى أبيك ، فإنَّ عندي حاجَتك فلا تضطني منّي ؛ فإنّه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال . قالت : ووالله ما أراها قالت ذلك إلاّ لتفعل . قالت : ولكني خفْتُها ، فأنكرتُ أن أكون أريد ذلك ، وتجهّزْت .

فلمّا فرغت ابنةُ رسول الله ﷺ من جهازها قدّم لها حَمُوها كِنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبتْه ، وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بها ، وهي في هوْدج لها . وتحدّث بذلك رجال قريش ، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طَوىً ، فكان أوّل مَنْ سبق إليها هَبّار بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العُزّى ونافع بن عبد القيس ، والفهريّ . فروّعها هبّار بالرّمح وهي في هودجها ـ وكانت المرأة حاملاً ؛ ـ فيما يزعمون ـ فلمّا رجَعَت طرحَتْ ذا بطنها ، وبرك حَمُوها ، ونثر كنانته ثم قال : والله لا يدنُو مني رجُلٌ إلاّ وضعت فيه سهماً ، فتكركر النّاس عنه ، وأتاه أبو سفيان في جِلّة قريش ، فقال : أيّها الرجل ، كفّ عنا نَبْلَك حتى نكلّمك ، فكفّ . فأقبل أبو سفيان حتّى وقف عليه ، فقال : إنّك لم تُصِبْ ، خرجتَ بالمرأة على رؤوس

الرّجال علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبَتَنا وما دخل علينا من محمّد ، فيظنّ الناس إذا خُرج بابنته علانيةً من بين أظهُرنا أنّ ذلك عن ذلّ أصابنا عن مصيبتنا ، ونكبتنا التي كانت ، وأنّ ذلك منّا ضعفٌ ووَهَنٌ ؛ لَعَمْري ما لنا حاجة في حبسها عن أبيها ، وما لنا في ذلك من ثؤْرة ؛ ولكن أرجع المرأة ، فإذا هدأ الصوت ، وتحدّث النّاس أنا قد رددناها ، فسُلَّها سرًّا فألحِقْها بأبيها . ففعل حتى إذا هدأ الصوتُ خرج بها ليلاً ؛ حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحِبه ، فقدِما بها على رسول الله ﷺ .

قال : فأقام أبو العاص بمكّة ، وأقامت زينبُ عند رسول الله ﷺ بالمدينة ، قد فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبَيْل الفتح خرج تاجراً إلى الشأم ـ وكان رجلاً مأموناً بمال له ، وأموال رجال من قريش أبضعوها معه ـ فلما فرغ من تجارته ـ وأقبل قافلاً ؛ لَقِيتْه سريَّة لرسول الله ﷺ ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هرباً ، فلما قدِمت السريَّة بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل ؛ حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ ، فاستجار بها ، فأجارته في طلب ماله ، فلمّا خرج رسول الله ﷺ إلى الصبْح ـ فحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : كما حدّثني يزيد بن رومان ـ فكبَّر وكبَّر الناس معه ، صرخت زينب من صُفَّة النساء : أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلَّم رسولُ الله ﷺ من الصلاة ، أقبل على النّاس ، فقال : أيّها النَّاس ، هل سمعتم ما سمعت ! قالوا : نعم ، قال : أما والّذي نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء كان حتى سمعت منه ما سمعتم ؛ إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف رسولُ الله ﷺ ، فدخل على ابنته ، فقال : أي بنيّة أكرمي مثواه ولا يَخْلُصْ إليك ، فإنك لا تَحِلِّين له .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر ، أنّ رسولَ الله ﷺ بعث إلى السريَّة الذين أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : إنّ هذا الرّجل منّا حيث قد علمتم ، وقد أصَبْتم له مالاً ، فإن تُحسنوا تردّوا عليه الذي له ؛ فإنا نحبّ ذلك ؛ وإن أبيتم فهو فَيْءُ الله الذي أفاءه عليكم ؛ فأنتم أحقّ به . قالوا : يا رسولَ الله ، بل نرّده عليه !

قال : فردّوا عليه مالَه حتى إنّ الرجلَ ليأتي بالحبْل ، ويأتي الرجل بالشَّنَّة والإدَاوة ؛ حتى إنّ أحدهم ليأتي بالشِّظاظ ؛ حتى رَدُّوا عليه ماله بأسره ؛ لا يفقد منه شيئاً . ثم احتمَل إلى مكّة ؛ فأدّى إلى كلّ ذي مال من قريش ماله ممن كان أبْضَع معه، ثم قال : يا معشرَ قريش ؛ هل بَقِي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا فجزاك الله خيراً ؛ فقد وجدناك وفيًّا كريماً ، قال : فإنّي أشهدُ أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ؛ والله ما منعني من الإسلام عنده إلّا تخوُّفُ أن تظنوا إنما أردت أكلَ أموالكم ؛ فلما أدّاها الله إليكم ، وفرغت منها أسلمت . ثم خرج حتى قدِم على رسول الله ﷺ .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال: فحدّثني داود بن الحُصين ، عن عِكْرِمة مولى ابن عباس ، عن عبد الله بن عباس ، قال: ردّ عليه رسولُ الله ﷺ زينب بالنِّكاح الأول ، ولم يُحْدِثْ شيئاً بعد ستّ سنين .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة بن الفضل ، قال : قال محمّد بن إسحاق ، حدّثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُروة بن الزبير ، قال : جلس عُمَير بن وهب الجُمحيّ مع صفوان بن أميَّة بعد مصاب أهل بدْر من قريش بيسير في الحِجْر ـ وكان عُمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وكان ممن يؤذِي

رسولَ الله ﷺ وأصحابه ، ويلْقَوْن منه عناء وهم بمكّة ، وكان ابنُه وهب بن عمير في أسارَى بَدْر ـ فذكر أصحاب القَلِيب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إنْ في العيش خير بعدهم ، فقال عُمَيْر : صدقت والله ! أما والله لولا دَيْن عليّ ليس له عندي قضاء وعيالٌ أخْشىٰ عليهم الضَّيْعة بعدي ، لركبت إلى محمَّد حتى أقتله ، فإنّ لي قِبَلهم علَّةً ، ابني أسيرٌ في أيديهم .

فاغتنمها صفوان بن أمية ، فقال : عليّ دينُك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسِيهم ما بقُوا ، لا يَسعُني شيء ويعجز عنهم ، قال عمير : فاكتُم عليّ شأني وشأنك : قال : أفعل .

قال : ثمّ إنّ عميراً أمر بسيفه فشُحِذ له وسُمّ ، ثم انطلق حتى قدِم المدينة ، فبينا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين في المسجد يتحدّثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله عزّ وجلّ به ، وما أراهم في عَدُوّهم ؛ إذ نظر عمر إلى عُمير بن وهب حين أناخ بعيره على باب المسجد ، متوشّحاً السيف ، فقال : هذا الكلب عدُوّ الله عمير بن وهب ، ما جاء إلاّ لشرّ ! وهو الذي حرّش بيننا ، وَحَزَرَنا للقوم يوم بدر . ثمَّ دخل عمر على رسول الله ﷺ ، فقال : يا نبيّ الله ، هذا عدوُّ الله عُمير بن وهب قد جاء متوشّحاً سيفه ، قال : فأدْخِله عليَّ .

قال : فأقبل عُمَر حتى أخذ بحمالةِ سيفه في عنقه ، فلبّبه بها ، وقال لرجال ممَّن كان معه من الأنصار : ادخُلوا على رسولِ الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا هذا الخبيث عليه ، فإنه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله ﷺ .

فلمّا رآه رسولُ الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه ، قال : أرسلْه يا عمر ، ادْنُ يا عمير ، فدَنا ثم قال : أنعِمُوا صبَاحاً ـ وكانت تحيّة أهل الجاهليّة بينهم ـ فقال رسولُ الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحيَّة خير من تحيَّتك يا عمير ؛ بالسَّلام تحيَّة أهلِ الجنّة ، قال : أما والله يا محمد إن كنْت لحديث عَهد بها . قال : ما جاء بك يا عُمير؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه . قال : فما بالُ السَّيْف في عنقك ! قال : قَبَحها الله من سيوف ! وهل أغنت شيئاً ! قال : اصدُقْني بالذي جئتَ له ، قال : ما جئت إلاّ لذلك، فقال : بلى ، قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر ، فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريش ، ثم قلت : لولا دَيْن عليّ وعيالي لخرجتُ حتى أقتُلَ محمداً ، فتحمَّل لك صفوان بديْنِك وعيالك ، على أن تقتلني له . والله عزّ وجلّ حائلٌ بيني وبينك . فقال عمير : أشهدُ أنك رسول الله ؛ قد كنّا يا رسولَ الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ؛ وهذا أمرٌ لم يَحضره إلاّ أنا وصفوان ؛ فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلاّ الله ؛ فالحمد لله الَّذِي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق . ثم تشهّدَ شهادة الحقّ ؛ فقال رسول الله ﷺ ؛ فَقِّهُوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه وَعَلِّموه القرآن ، وأطلقوا له أسيرَه .

قال : فَفَعَلُوا ، ثم قال : يا رسول الله : إني كنت جَاهِداً في إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ؛ وإنّي أحبّ أن تأذن لي فأقدم مكّة فأدعُوهم إلى الله وإلى الإسلام ؛ لعلّ الله أن يهديَهم ! وإلاّ آذيتُهم في دينهم كما كنتُ أوذِي أصحابك في دينهم .

قال : فأذن له رسولُ الله ﷺ ، فلحق بمكّة ، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول لقريش : أبشروا بوقْعَةٍ تأتيكم الآن في أيام تنْسيكم وقْعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ؛ حتى قَدِم راكبٌ فأخبره بإسلامه ، فحلف ألاّ يكلّمه أبداً ولا ينفعه بنفعٍ أبداً . فلما قدم عُمير مكّة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذي

مَنْ خالفه أذىً شديداً فأسلم على يديه أناس كثير .

فلما انقضى أمرُ بدر ، أنزل الله عزّ وجلّ فيه من القرآن الأنفال بأسْرِها . حدّثنا أحمدُ بن منصور ، قال : حدّثنا عاصم بن عليّ ، قال : حدّثنا عِكْرِمة بن عمار ، قال : حدّثنا أبو زُمَيْل ، قال : حدّثني عبد الله بن عباس ؛ حدّثني عُمر بن الخطاب ، قال : لمّا كان يوم بدر التقوْا ، فهزم الله المشركين ، فقتِل منهم سبعون رجلاً ، وأسِرَ سبعون رجلاً ، فلمّا كان يومئذ شاوَرَ رسولُ الله ﷺ أبا بكر وعليًّا وعمر ، فقال أبو بكر : يا نَبيَّ الله ، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان ؛ فإني أَرَى أن تأخذ منهم الفِدْيَة ؛ فيكون ما أخذنا منهم قوّة ، وعسى الله أن يهديَهم ، فيكونوا لنا عَضُداً . فقال رسولُ الله ﷺ : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قال : قلتُ : لا والله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنّي من فلان فأضربَ عنقه ، وتمكِّن حمزة من أخ له فيضرب عنقه ، وتمكِّن عليًّا من عَقِيل فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هَوادَة للكفّار ؛ هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمّتهم .

قال : فهوى رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت أنا ، فأخذ منهم الفِداء ، فلمّا كان الغدُ قال عمر : غدوتُ إلى النبيّ ﷺ وهو قاعِدٌ وأبو بكر ، وإذا هما يبكيان ، قال : قلت : يا رسول الله أخْبِرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ ، وإن لم أجِدْ تباكيتُ لبُكائكما . فقال رسولُ الله ﷺ : للّذي عرض عليّ أصحابُكَ من الفداء . لقد عُرِض عليّ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ وأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] ؛ ثم أحلّ لهم الغنائم .

فلمّا كان من العام القابل في أُحُد عُوقِبُوا بما صنعوا ، قُتِل من أصحاب رسول الله ﷺ سبعون ، وأسر سبعون ، وكسرت رباعِيَتهُ وهُشِمَتِ البَيْضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، وفرَّ أصحابُ النبيّ ﷺ ، وصعدوا الجبل ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] ، ونزلت هذه الآية الأخرى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴾[3] .

حدّثني سلم بن جُنادة ، قال : حدّثنا أبو معاوية ، قال : حدّثنا الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله ، قال : لمّا كان يوم بدْر ، وجيء بالأسرى ، قال رسولُ الله ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسولَ الله ، قومُك وأهلُك ، استَبْقِهم واستَأنِهم ؛ لعلّ الله أن يتوبَ عليهم . وقال عُمَر : يا رسولَ الله كـذّبوك وأخـرجوك ، قـدِّمهم فضرِّبْ أعناقهم . وقال عبـدُ الله بن رَوَاحة : يـا رسول الله ، انظر وَادِياً كثير الحطب فأدْخِلْهم فيه ، ثم أضْرِمه عليهم ناراً . قال : فقال له العبّاس : قطعتْك رحِمك ! قال : فسكت رسولُ الله ﷺ فلم يُجبهُم ، ثم دخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رَواحة ، ثم خرج عليهم رسول الله ، فقال : إنّ الله

---

(١) سورة الأنفال : ٦٧ .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٥ .

(٣) سورة آل عمران : ١٥٣ ـ ١٥٤ .

عزّ وجلّ ليلينُ قلوبَ رجال فيه حتى تكون ألْيَنَ من اللّبن ؛ وإنّ الله ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشَدَّ من الحجارة ؛ وإنّ مثلك يا أبا بكر مثلُ إبراهيم ، قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) ، ومثلك يا أبا بكر ، مثل عيسى ، قال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٢) ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾(٣) ، ومثلك كمثل موسى ، قال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾(٤) . ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم اليوم عَالَةٌ فلا يفلتنّ منهم أحدٌ إلّا بفِداء أو ضرب عُنق ؛ قال عبد الله بن مسعود : إلّا سُهَيْل بن بَيْضاء ؛ فإني سمعته يذكر الإســلام . فسكتَ رسول الله ﷺ ، فما رأيتُني في يوم أخوف أن تقع عليَّ الحجارة من السماء منّي في ذلك اليوم ؛ حتى قال رسول الله ﷺ : « إلّا سهيل بن بيضاء » قال : فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ . . . ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : لما نزلت ـ يعني هذه الآية ـ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ ، قال رسولُ الله ﷺ : لو نزل عَذابٌ من السَّماء لم يَنْجُ منه إلّا سعد بن معاذ ، لقوله : يا نبيَّ الله ، كان الإثْخانُ في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال .

قال أبو جعفر : وكان جميعُ مَنْ شهد بدراً من المهاجرين ، ومن ضَرَب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجْره ثلاثةً وثمانين رجلًا في قول ابن إسحاق .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة، عنه : وجميع من شهد من الأوْس معه ومن ضَرَب له بسهمه واحدٌ وستون رجلًا . وجميع مَنْ شهِد معه من الخزرج مائة وسبعون رجلًا في قول ابن إسحاق ، وجميعُ مَن استشهد من المسلمين يومئذ أربعةَ عشر رجلًا ، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وكان المشركون ـ فيما زعم الواقدي ـ تسعمائة وخمسين مقاتلًا ؛ وكانت خيلهم مائة فرس .

وردَّ رسول الله ﷺ يومئذ جماعة استصغرهم ـ فيما زعم الواقدي ـ فمنهم فيما زعم عبدُ الله بن عمر ، ورافع بن خَدِيج ، والبَرَاءُ بن عازب ، وزيد بن ثابت ، وأسَيْد بن ظُهَيْر ، وَعُمَير بن أبي وقّاص ثم أجاز عميراً بعد أن ردّه فقتل يومئذ .

وكان رسولُ الله ﷺ قد بعث قبل أن يخرج من المدينة طَلْحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفَيل ، إلى طريق الشأم يتحسَّسان الأخبار عن العِير ، ثم رجعا إلى المدينة ، فَقَدِماها يوم وقْعَة بدر ، فاستقبلا رسولَ الله ﷺ بتُرْبَان ؛ وهو منحدرٌ من بدر يريد المدينة .

قال الواقديّ : كان خروج رسولِ الله ﷺ من المدينة في ثلاثمائة رجل وخمسة ، وكان المهاجرون أربعةً وسبعين رجلًا ، وسائرهم من الأنصار ، وضرب لثمانية بأجورهم وسُهمانهم : ثلاثة من المهاجرين ؛ أحدهم

(١) سورة إبراهيم : ٣٦ .

(٢) سورة المائدة : ١١٨ .

(٣) سورة نوح : ٢٦ .

(٤) سورة يونس : ٨٨ .

عثمان بن عفان كان تخلّف على ابنة رسول الله ﷺ حتى ماتت ، وطَلْحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ، كان بَعَثهما يتحسَّسان الخبر عن العِير ، وخمسة من الأنصار : أبو لُبابة بشير بن عبد المنذر ؛ خلَّفه على المدينة ، وعاصم بن عديّ بن العجلان ؛ خلَّفه على العالية ، والحارث بن حاطب ؛ ردّه من الرَّوْحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم ، والحارث بن الصِّمة ؛ كُسِرَ بالرّوْحاء ، وهو من بني مالك بن النَّجّار ، وخَوَّاتُ بن جُبَيْر ، كسر من بني عمرو بن عوف . قال : وكانت الإبل سبعين بعيراً ، والخيل فرسيْن : فرس للمِقْداد بن عمرو ، وفرس لمرثَد بن أبي مَرْثَد .

قال أبو جعفر : وروي عن ابن سعد ، عن محمّد بن عمر ، عن محمد بن هلال ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : ورئِيَ رسول الله ﷺ في أثر المشركين يوم بدر مُصْلِتاً السَّيْفَ ، يتلو هذه الآية : ﴿ سَيُهْـزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾(١) .

قال : وفي غزوة بدر انتفَل رسول الله ﷺ سيفَه ذا الفَقار ، وكان لُمنَبّه بن الحجّاج .

قال : وفيها غنم جَمَلَ أبي جَهْل ؛ وكان مَهْرِيًّا يغزو عليه ويضرب في لِقاحه .

قال أبو جعفر : ثم أقام رسولُ الله ﷺ بالمدينة ، مُنْصَرَفه من بدر ، وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودَها ؛ على أن لا يُعِينوا عليه أحداً ؛ وإنَّه إن دَهَمه بها عَدوٌّ نصروه . فلمَّا قَتَل رسولُ الله ﷺ مَنْ قتل ببدر من مشركي قريش ، أظهروا له الحسدَ والبغي ، وقالوا : لم يلق محمدٌ من يُحْسِنُ القتال ؛ ولو لقيَنا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد ؛ وأظْهَرُوا نَقْضَ العهد .

غزوة بني قَيْنُقاع

فحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمَة ، عن محمَّد بن إسحاق ، قال : كان من أمر بني قينُقاع ، أنّ رسولَ الله ﷺ جمعهم بسوق بني قَيْنُقَاع ، ثم قال : يا معشر اليهود ، احْذَرُوا من الله عزّ وجلّ مثل ما نزل بقريش من النِّقْمة ، وأسلموا ؛ فإنَّكم قد عرفتم أني نبيٌّ مُرْسَلٌ تجدون ذلك في كتابكم ؛ وفي عهد الله إليكم . قالوا : يا محمّد ؛ إنَّك ترى أنا كقومك ! لا يغرَّنَّك أنك لقيت قوماً لا علْم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ؛ إنا والله لئن حاربتنا تعلَمَنّ أنَّا نحن الناس .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمَّد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، أنّ بني قينُقاع كانوا أوّلَ يهود نقضوا ما بينهم وبين رسولِ الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحد .

فحدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد ، قال : حدّثنا محمد بن عمر : عن محمد بن عبد الله ، عن الزهريّ ، أنّ غزوة رسولِ الله ﷺ بني القينُقاع كانت في شوّال من السنة الثانية من الهجرة .

قال الزهريّ عن عروة : نزلَ جبريلُ على رسول الله صلى الله عليهما وسلم بهذه الآية : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾(٢) ، فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية ، قال رسولُ الله

(١) سورة القمر: ٤٥ .
(٢) سورة الأنفال: ٥٨ .

ﷺ : إني أخاف من بني قينُقاع ، قال عروة : فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية .

قال الواقديّ : وحدّثني محمّد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : حاصرهم رسول الله ﷺ خمسَ عشرةَ ليلة لا يطلُع منهم أحد . ثم نزلوا على حكْم رسول الله ﷺ ، فكُتِفوا وهو يريد قتلهم ، فكلّمه فيهم عبد الله بن أبيّ .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : فحاصرَهم رسولُ الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبيّ ابن سَلُول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمّد ، أحْسنْ في مواليّ - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه النبيّ ﷺ . قال : فأدخل يده في جَيْب رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : أرسلني ، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوْا في وجهِهِ ظلالاً - يعني تلوّناً - ثم قال : ويحك أرسِلني ! قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى مواليّ . أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأسود والأحمر ؛ تحصدهم في غداة واحدة ! وإني والله لا آمنُ وأخشى الدوائر . فقال رسول الله ﷺ : هُمْ لك .

قال أبو جعفر : وقال محمّد بن عمر في حديثه عن محمّد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، فقال النبيّ ﷺ : خلّوهم لعنهم الله ولعنه معهم ! فأرسلوهم . ثم أمر بإجلائهم ، وغنّمَ الله عزّ وجلّ رسوله والمسلمين ما كان لهم من مال - ولم تكن لهم أرضون ؛ إنّما كانوا صاغَةً - فأخذ رسول الله ﷺ لهم سلاحاً كثيراً وآلة صياغتهم ؛ وكان الذي وَلِيَ إخراجَهم من المدينة بذراريهم عُبادة بن الصامت ، فمضى بهم حتى بلغ بهم ذِباب ؛ وهو يقول : الشرف الأبعد ، الأقصى فالأقصى ! وكان رسول الله ﷺ استخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبد المنذر .

قال أبو جعفر : وفيها كان أوّل خُمسٍ خَمَسَهُ رسول الله ﷺ في الإسلام ؛ فأخذ رسول الله ﷺ صَفِيَّهُ والْخُمُسَ وسهمه ، وفَضَّ أربعة أخماس على أصحابه ، فكان أوّل خُمسٍ قَبَضه رسولُ الله ﷺ . وكان لِوَاء رسول الله ﷺ يوم بني قينُقاع لواءً أبيض ، مع حمزة بن عبد المطّلب . ولم تكن يومئذ رايات . ثم انصرف رسولُ الله ﷺ إلى المدينة ، وحضرت الأضحى ، فذُكِر أنّ رسولَ الله ﷺ ضحّىٰ وأهل اليُسْر من أصحابه ، يوم العاشر من ذي الحجة ، وخرج بالنّاس إلى المصلَّى فصلَّى بهم ، فذلك أوّل صلاة صلَّىٰ رسولُ الله ﷺ بالناس بالمدينة بالمصلَّى في عيد ، وذبح فيه بالمصلَّى بيده شاتيْن - وقيل ذبح شاة - .

قال الواقديّ : حدّثني محمد بن الفضل ، من ولد رافع بن خَدِيج ، عن أبي مُبشِّر ، قال : سمعتُ جابرَ بنَ عبد الله ، يقول : لما رجعْنا من بني قينُقاع ضحَّينا في ذي الحجَّة صَبِيحة عشر ، وكان أوّل أضحى رآه المسلمون ، وذبحنا في بني سلمة فَعُدَّتْ في بني سَلَمة سبع عشرة أضْحِية .

قال أبو جعفر : وأمّا ابن إسحاق فلم يُوَقِّتْ لغزوة رسول الله ﷺ التي غزَاها بني قَيْنُقاع وقتاً ، غير أنه قال : كان ذلك بين غزوة السَّويق وخروج النبيّ ﷺ من المدينة يريد غَزْوَ قريش ؛ حتى بلغ بني سُليم وبَحْرَانَ ، مَعْدِناً بالحجاز من ناحية الفُرُع .

وأما بعضُهم ، فإنه قال : كان بين غزوة رسول الله ﷺ بدراً الأولى وغزوة بني قينُقاع ثلاث غزوات وسريَّة أسْراها . وزعم أن النبيّ ﷺ إنّما غزاهم لتسع ليالٍ خَلَوْن من صَفر من سنة ثلاث من الهجرة ، وأنّ رسولَ الله ﷺ غزا بعدما انصرف من بدر ، وكان رجوعه إلى المدينة يوم الأربعاء لثمانيَ ليالٍ بقينَ من رمضان ،

وأنه أقام بها بقيَّة رمضان . ثم غزا قَرْقَرة الكُدْر حين بلغه اجتماع بني سُلَيْم وغطفان ؛ فخرج من المدينة يوم الجمعة بعدما ارتفعت الشمس ، غُرَّةَ شوّال من السنة الثانية من الهجرة إليها .

وأما ابنُ حميد ، فحدّثنا عن سَلَمة ، عن ابن إسحاق ، أنه قال : لما قدِم رسولُ الله ﷺ من بدر إلى المدينة ، وكان فراغه من بدر في عقب شهر رمضان ـ أو في أوّل شوّال ـ لم يقِمْ بالمدينة إلَّا سبع ليالٍ ؛ حتى غزا بنفسه يريد بني سُليم ، حتى بلغ ماء من مياههم ، يقال لها الكُدْر ، فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيْداً ، فأقام بها بقيَّة شوّال وذا القعدة ، وفدى في إقامته تلك جُلّ الأسارى من قريش .

وأما الواقديّ ، فزعم أنّ غزوة النبيّ ﷺ الكُدْر كانت في المحرّم من سنة ثلاث من الهجرة ، وأنّ لواءه كان يحمله فيها عليّ بن أبي طالب ؛ وانه استخلف فيها ابنَ أمّ مكتوم المِعيصيّ على المدينة .

وقال بعضهم : لَّما رجع النبيّ ﷺ من غزوة الكُدْر إلى المدينة ، وقد ساق النَّعم والرِّعاء ولم يلق كيداً . وكان قدومه منها ـ فيما زعم ـ لعشر خَلَوْن من شوّال ، بعث غالب بن عبد الله الليثيّ يوم الأحد لعشر ليال مضيْنَ من شوّال إلى بني سليم وغطفان في سَريَّة ، فقتلوا فيهم ، وأخذوا النَّعم ، وانصرفوا إلى المدينة بالغنيمة يوم السبت ، لأربع عشرة ليلة بقيتْ من شوّال ، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ، وإنّ رسول الله ﷺ أقام بالمدينة إلى ذي الحجَّة ، وإنّ رسولَ الله ﷺ غزا يوم الأحد لسبع ليال بقِينَ من ذي الحجَّة غزوة السَّويق .

غزوة السَّويــق

قال أبو جعفر : وأما ابنُ إسحاق ، فإنه قال في ذلك ما حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : لَّما رجع رسولُ الله ﷺ من غزوة الكُدْر إلى المدينة ، أقام بها بقيَّة شوّال من سنة اثنتين من الهجرة ، وذا القعدة . ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السَّويق في ذي الحجَّة . قال : وَوَلِيَ تلك الحجَّة المشركون من تلك السَّنة .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ويزيد بن رُومان ومَنْ لا أتّهم ، عن عبيد الله بن كعب بن مالك ـ وكان من أعلم الأنصار ـ قال : كان أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكّة ، ورجع فَلُّ قريش إلى مكّة من بدر ، نَذَرَ ألاّ يمسّ رأسه ماء من جَنابة حتى يغزُوَ محمداً . فخرج في مائتي راكب من قريش ، ليُبِرّ يمينه ، فسلك النَّجديَّة حتى نزل بصدور قَناة إلى جبل يقال له تَيْت ، من المدينة على بريد أو نحوه . ثم خرج من اللَّيل حتى أتى بني النَّضِير تحت اللَّيل ، فأتى حُيَـيَّ بن أخْطَب ، فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه ، فأبى فانصرف إلى سلاّم بن مِشْكم ـ وكان سيد النَّضِير في زمانه ذلك ، وصاحب كنزهم ـ فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه ، وَبَطَنَ له خبر الناس ، ثم خرج في عَقِب ليلته ؛ حتى جاء أصحابه ، فبعث رجالاً من قُريش إلى المدينة ، فأتوْا ناحية منها يقال لها العُرَيْض ، فحرّقوا في أصوار من نخل لها ، ووجدوا رجلاً من الأنصارر وحليفاً له في حَرْث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ؛ وَنَذِرَ بهم الناس ، فخرج رسولُ الله ﷺ في طلبهم ، حتى بلغ قرقرة الكُدْر ، ثم انصرف راجعاً ، وقد فاته أبو سفيان وأصحابُه ، وقد رأوا من مزاود القوم ما قد طرحوه في الحرث ؛ يتخفَّفون منه للنّجاة . فقال المسلمون حين رجع بهم رسولُ الله ﷺ : أنطمع أن تكون لنا غزوة ؟ قال : نعم .

وقد كان أبو سفيان قال وهو يتجهّز خارجاً من مكة إلى المدينة أبياتاً من شعر يُحَرِّضُ قُريشاً :

كُـرُّوا عـلى يَـثْـرِبٍ وجَـمْـعِـهِـمُ ... فـإنَّ مـا جـمَّـعـوا لـكُـمْ نَـفَـلُ
إنْ يـكُ يـومُ الـقَـلـيـبِ كـان لـهُـمْ ... فـإنَّ مـا بـعـده لـكُـم دُوَلُ
آلَـيْـتُ لا أقْـرَبُ الـنِّـسـاءَ ولا ... يَـمَـسُّ رأسـي وجِـلْـدِيَ الـغُـسـلُ
حتَّىٰ تُـبـيـرُوا قـبـائـلَ الأوس والْـ ... ـخَـزْرَج ، إنَّ الْـفُـؤادَ مُـشْـتَـعِـلُ

فأجابه كعب بن مالك :

تَـلْهَـفُ أُمُّ الـمُـسَـبِّـحِـيـنَ عـلى ... جيْش ابْن حـرْبٍ بـالْحَـرَّةِ الْفَشِـلِ
إذ يـطْرَحُـونَ آلـرِّجـالَ مَنْ سَئِمَ الـطَّـ ... ـيـر تَـرقَّـى لِـقُـنَّـة الْـجَـبَـلِ
جـاؤوا بجمْـعٍ لـو قـيس مبـرَكَـهُ ... مـا كـان إلَّا كـمـفْـحَص الـدُّئِـلِ
عـارٍ مـنَ الـنَّـصْـر والـثَّـراءِ ومـن ... أبـطَال أهـل الْـبَـطْـحَـاءِ والأسَـلِ

وأما الواقديّ فزعم أنّ غزوة السّويق كانت في ذي القَعدة من سنة اثنتين من الهجرة ، وقال : خرجَ رسولُ الله ﷺ في مائتي رجل من أصحابه من المهاجرين والأنصار . ثم ذكر من قصّة أبي سفيان نحواً مما ذكره ابن إسحاق ، غيرَ أنه قال : فمرّ ـ يعني أبا سفيان ـ بالعُرَيْض ، برجل معه أجير له يقال له مَعْبَد بن عمرو ، فقتلهما وحَرَّق أبياتاً هناك وتبناً ، ورأى أنّ يمينه قد حُلَّت ، وجاء الصريخ إلى النبيّ ﷺ ، فاستنفر الناس ، فخرجوا في أثره فأعجزهم . قال : وكان أبو سفيان وأصحابه يلقُون جُرُب الدقيق ويتخفَّفون ، وكان ذلك عامَّة زادهم ؛ فلذلك سُمِّيت غزوة السّويق .

وقال الواقديّ : واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر .

قال أبو جعفر : ومات في هذه السنة ـ أعني سنة اثنتين من الهجرة ـ في ذي الحجَّة عثمان بن مظعون ، فدفنَه رسولُ الله ﷺ بالبقيع ، وجعل عند رأسه حَجَراً علامة لقبره .

وقيل : إنَّ الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وُلد في هذه السنة .

قال أبو جعفر : وأما الواقديّ ، فإنّه زعم أنّ ابن أبي سَبْرة حدّثه عن إسحاق بن عبد الله عن أبي جعفر ، أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام بَنَىٰ بفاطمة عليها السَّلام في ذي الحجَّة ، على رأس اثنين وعشرين شهراً .

قال أبو جعفر : فإن كانت هذه الرواية صحيحة فالقول الأول باطل .

وقيل : إنّ في هذه السَّنة كتب رسولُ الله ﷺ المَعاقِل فكان معلَّقاً بسيفه .

ثم دخلت السنة الثالثة من الهجرة

فحدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السَّويق ، أقام بالمدينة بقيَّة ذي الحجَّة والمحرّم ، أو قريباً منه ، ثم غزا نجداً يريد غَطَفَان ؛ وهي غزوة ذي أَمَر ، فأقام بنجد صَفَراً كلّه أو قريباً من ذلك ثم رجع إلى المدينة ولم يلقَ كيداً ، فلبث بها شهر ربيع الأوّل كلّه إلّا قليلاً منه .

ثم غزا يريد قريشاً وبني سُلَيْم ، حتى بلغ بَحْران (مَعْدِناً بالحجاز من ناحية الفُرُع) فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلقَ كيداً .

خبر كَعب بن الأشْرَف

قال أبو جعفر : وفي هذه السَّنة سَرّى النبي ﷺ سرية إلى كعب بن الأشرف ؛ فزعم الواقديّ أن النبيّ وجَّه مَن وجَّه إليه في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة .

وحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمَة ، عن ابن إسحاق ، قال : كان من حديث ابنِ الأشرف أنّه لمَّا أصيب أصحاب بدر ؛ وَقَدِمَ زيد بن حارثة إلى أهل السَّافلة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بَشِيرَيْن ، بعثهما رسولُ الله ﷺ إلى مَن بالمدينة من المسلمين بفتح الله عزّ وجلّ عليه وقتْل مَنْ قُتِل من المشركين ؛ كما حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمَة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن المغيث بن أبي بُرْدة بن أسير الظَّفَرِيّ ، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وصالح بن أبي أمامة بن سهل ، قال : كلٌّ قد حدّثني بعض حديثه ، قال : قال كعب بن الأشرف ـ وكان رجلاً من طيىء ، ثم أحد بني نَبْهان ، وكانت أمّه من بني النَّضير ، فقال حين بلغه الخبر : ويلكم أحَقٌّ هذا ! أترون أنّ محمداً قتل هؤلاء الَّذِين يسمِّي هذان الرجلان ـ يعني زيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ؟ وهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمَّد أصاب هؤلاء القوم لَبَطنُ الأرضِ خيرٌ لنا من ظهرها .

فلما تيقَّن عدوُّ الله الخبر ، خرج حتَّى قدم مكّة ، فنزل على المطَّلب بن أبي وَدَاعة بن ضُبَيْرة السَّهميّ ، وعنده عاتكة بنت أَسَيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، فأنزلَتْه وأكرمتْه ؛ وجعل يحَرّض على رسول الله ﷺ ، وينشد الأشعار ، ويبكي على أصحاب القَلِيب الذين أصيبوا ببدر من قريش . ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة ، فشبَّبَ بأمّ الفضل بنت الحارث ، فقال :

أَرَاجِلٌ أَنْتَ لم تَحْلُل بمَنقَبةٍ ... وتاركٌ أنت أُمَّ الفضل بالحَرَم !
صفراءُ رادعةٌ لو تُعْصَرُ انْعَصَرت ... منْ ذي القوارير والحنَّاءِ والكَتم
يرْتَجُّ ما بين كَعْبَيْها ومرْفِقِها ... إذا تأتّتْ قياماً ثم لم تَقُم
أشباهُ أُمِّ حكيمٍ إذْ تُواصِلُنا ... والْحَبْلُ منها مَتينٌ غيرُ مُنْجَذِم
إحدَىٰ بني عامرٍ جُنَّ الفُؤادُ بها ... ولو تَشاءُ شَفَتْ كَعْباً من السَّقِم
فرعُ النِّساءِ وفرعُ القومِ والدُها ... أهلُ التَّحِلَّةِ والإيفاءِ بالذِّمَم
لم أرَ شَمْساً بلَيْلٍ قبلها طَلَعَتْ ... حتى تَجَلَّتْ لنا في ليلةِ الظُّلَم

ثم شَبَّبَ بنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم ؛ فقال النبيّ ﷺ كما حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمَة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن المغيث بن أبي بُرْدة : مَنْ لي من ابن الأشرف ! قال : فقال محمد بن مسلمة ، أخو بني عبد الأشهل : أنا لك به يا رَسولَ الله ، أنا أقتله . قال : فافعل إن قَدَرْت على ذلك ، فرجع محمَّد بن مسلمة ، فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب . إلَّا ما يعلّقُ [به] نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فدعاه فقال له : لِمَ تركتَ الطعام والشراب ؟ قال : يا رسولَ الله ، قلت قولًا لا أدري أفِي به أم لا ! قال : إنما عليك الجَهْد ، قال : يا رسول الله ، إنّه لا بُدَّ لنا من أن نقول . قال : قولوا ما بدا لكم ، فأنتم في حلّ من ذلك !

قال : فاجتمع في قتله محمَّد بن مسلمة وسِلْكَان بن سلامة بن وَقْش ـ وهو أبو نائلة أحدُ بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب من الرّضاعة ـ وعَبَّادُ بن بشر بن وقْش ، أحد بني عبد الأشْهَل ، والحارث بن أوس بن مُعاذ ، أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عَبْس بن جَبْر ، أخو بني حارثة . ثم قَدَّموا إلى ابن الأشرف قبل أن يأتوه سِلْكان بن سلامة أبا نائلة ، فجاءه فتحدَّث معه ساعة ، وتناشدا شعراً ـ وكان أبو نائلة يقول الشعر ـ ثم قال : ويحك يا بن الأشرف ! إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك ، فاكتُم عليّ ، قال : أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرّجل بلاءً علينا عادَتْنا العرب ورَمَوْنا عن قوسٍ واحدة ، وقُطِعَتْ عنا السُّبُلُ حتى ضاع العِيَال ، وجُهِدَتِ الأنفس ، وأصبحنا قد جُهدنا وجُهد عيالُنا ! فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنتُ أخبرتك يا بنَ سلامة أنّ الأمْرَ سيصير إلى ما كنت أقول ، فقال سِلْكان : إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونَرْهَنَك ونُوثّق لك ، وتُحْسن في ذلك . قال : ترهنونني أبناءكم ! فقال : لقد أردت أن تَفضَحَنَا ! إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيَك بهم فتبيعهم ، وتحسن في ذلك ، ونرهنك من الحَلْقَةِ ما فيه لك وفاء ـ وأراد سِلْكان ألّا ينكر السلاح إذا جاؤوا بها ـ فقال : إنّ في الحلقة لوفاء ، قال : فرجع سِلْكان إلى أصحابه ، فأخبرهم خَبَره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح فينطلقوا فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ .

حدّثنا ابنُ حميد قال : حدّثنا سَلَمَة ، عن محمَّد بن إسحاق قال : فحدّثني ثَوْر بن زيد الدِّيليّ ، عن عِكْرمة مولى ابن عبّاس ، عن ابنِ عباس ، قال : مشى معهم رسولُ الله ﷺ إلى بقيع الغَرْقَد ، ثم وجَّههم وقال : انطلقوا على اسم الله ، اللّهمَّ أعِنْهم . ثم رجع رسولُ الله ﷺ إلى بيته في ليلة مُقْمِرة ، فأقبلوا حتى انتهوْا إلى حصنه ، فَهَتَفَ به أبو نائلة ـ وكان حديثَ عهد بعُرْس ـ فوثب في مِلْحَفَتِهِ ؛ فأخذت امرأته بناحيتها ، وقالت : إنك امرؤ مُحاربٌ ؛ وإنّ صاحبَ الحرب لا ينزل في مثل هذه الساعة . قال : إنه أبو نائلة ؛ لو وجدني نائماً لما أيقظني ، قالت : والله إني لأعرف في صوته الشرّ . قال : يقول لها كعب : لو دُعِيَ الفتى لطعنة أجاب ،

فنزل فتحدَّث معهم ساعة ، وتحدّثوا معه ، ثم قالوا له : هل لك يا بن الأشرف ، أن نتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدّث به بقية ليلتنا هذه ! قال : إن شئتم ! فخرجوا يتماشوْن ، فمشوْا ساعة . ثم إنّ أبا نائلة شام يدَه في فَوْدِ رأسه ، ثم شمّ يدَه ، فقال : ما رأيتُ كالليلة طيبَ عطرٍ قطّ . ثم مَشىٰ ساعة ثم عاد لمثلها ، حتى اطمأنّ ثمّ مشى ساعة ، فعاد لمثلها ، فأخذ بفودَىْ رأسه ، ثم قال : اضربوا عدوّ الله ؛ فاختلَفَتْ عليه أسيافهم ، فلم تُغْنِ شيئاً . قال محمَّد بن مسلمة : فذكرت مِغْوَلاً في سيفِي حين رأيتُ أسيافنا لا تغني شيئاً ، فأخذته ، وقد صاح عدوُّ الله صيحة لم يبق حولَنا حِصنٌ إلّا أوقدت عليه نار . قال : فوضعته في ثُنْدؤته ، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانَتَه ، ووقع عدوُّ الله ، وقد أصيب الحارث بن أوْس بن معاذ بجُرْح في رأسه أو رجله ، أصابه بعضُ أسيافنا .

قال : فخرجنا حتى سلكْنا على بني أميَّة بن زيد ، ثم على بني قرَيْظة ، ثم على بُعاث حتى أسْنَدْنا في حرّة العُرَيْض ، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونَزَفه الدَّم ، فوقفْنا له ساعة ، ثم أتانا يتبع آثارنا . قال : فاحتملناه فجئنا به رسولَ الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلّي ، فسلَّمنا عليه ، فخرج إلينا ، فأخبرناه بقتل عدوّ الله ، وتفَل على جُرْح صاحبنا ، ورجعنا إلى أهلنا ، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدوّ الله ، فليس بها يهوديّ إلّا وهو يخاف على نفسه . قال : فقال رسولُ الله ﷺ : مَنْ ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه ، فوثب مُحيِّصَةُ بن مسعود على ابن سُنَيْنة ـ رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله ـ وكان حُوَيِّصة بن مسعود إذ ذاك لم يُسْلِمْ ، وكان أسَنّ من محيِّصة ـ فلما قتله جعل حويِّصة يضربه ويقول : أي عدوّ الله ! قتلته ! أما والله لرُبّ شَحْم في بطنك من ماله ! قال محيِّصة : فقلت له : والله لو أمرني بقتلك مَنْ أمرني بقتله لضربت عنقك . قال : فوالله إنْ كان لأوّل إسلام حويّصة ، وقال : لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني ! قال : نعم والله ، لو أمرني بقتلك لضربت عنقك . قال : والله إن ديناً بلغ بك هذا لَعجب ! فأسلم حُوَيِّصة .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق . قال : حدّثني هذا الحديث مولى لبني حارثة ، عن ابنة محيِّصة ، عن أبيها .

قال أبو جعفر : وزعم الواقديّ أنهم جاؤوا برأس ابن الأشرف إلى رسول الله ﷺ .

وزعم الواقديّ أن في ربيع الأول من هذه السَّنة تزوّج عثمان بن عفان أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ ، وأُدْخِلَتْ عليه في جمادى الآخرة ، وأنّ في ربيع الأول من هذه السنة غزا رسولُ الله ﷺ غزوة أنْمار ـ ويقال لها : ذو أمَر ـ وقد ذكرنا قول ابن إسحاق في ذلك قبل .

قال الواقديّ : وفيها وُلِدَ السائب بن يزيد ابن أخت النَّمِر .

غزوة القَـرْدة

قال الواقديّ : وفي جُمادى الآخرة مِنْ هذه السنة ، كانت غزوة القَرْدة وكان أميرهم ـ فيما ذكر ـ زيد بن حارثة ، قال : وهي أول سريّة خرج فيها زيد بن حارثة أميراً .

قال أبو جعفر : وكان من أمرها ما حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق ، قال :

سريَّة زيد بن حارثة الَّتي بعثه رسولُ الله ﷺ فيها حين أصاب عيرَ قريش ، فيها أبو سفيان بن حرب ، على القَرْدة ، ماء من مياه نجد . قال : وكان من حديثها أن قريشاً قد كانت خافت طريقها التي كانت تسلك إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العِراق ، فخرج منهم تجّار فيهم أبو سفيان بن حرْب . ومعه فضّة كثيرة ؛ وهي عُظْم تجارتهم ، واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له فُرَات بن حَيّان ، يدلّهم على ذلك الطريق ، وبعث رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة ، فلقيَهم على ذلك الماء ، فأصاب تلك العيرَ وما فيها ، وأعجزه الرِّجَال ، فقدم بها على رسولِ الله ﷺ .

قال أبو جعفر : وأمّا الواقديّ ، فزعم أنّ سبب هذه الغزوة كان أن قريشاً قالت : قد عوَّر علينا محمد مَتْجَرَنَا وهو على طريقنا . وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقمنا بمكّة أكلْنا رؤوس أموالنا . قال أبو زَمْعة بن الأسود: فأنا أدلّكم على رجل يسلك بكم النَّجديّة ، لو سلَكها مغمَّض العينين لاهتدى . قال صفوان : مَنْ هو ؟ فحاجتنا إلى الماء قليل ؛ إنَّما نحن شاتون . قال : فرات بن حيَّان ؛ فدعَوَاه فاستأجراه ؛ فخرج بهم في الشتاء ، فسلك بهم على ذات عِرْق ، ثم خرج بهم على غَمْرة ، وانتهى إلى النبيّ ﷺ خبر العيرِ وفيها مال كثير ، وآنية من فضّة حملها صَفْوان بن أميَّة ؛ فخرج زيد بن حارثة ، فاعترضها ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيانُ القوم ؛ فكان الخُمُس عشرين ألفاً ، فأخذه رسولُ الله ﷺ ، وقسّم الأربعة الأخماس على السريَّة ، وأتِيَ بفرات بن حيَّان العِجْليّ أسيراً ، فقيل : إنْ أسلمت لم يقتلْك رسول الله ﷺ ، فلمَّا دعا به رسولُ الله ﷺ أسلم ، فأرسله .

مقتل أبي رافع اليهوديّ

قال أبو جعفر : وفي هذه السَّنة كان مقتل أبي رافع اليهوديّ ـ فيما قيل ـ وكان سبب قتله ، أنَّه كان ـ فيما ذُكِر عنه ـ يُظاهر كعبَ بن الأشرف علىَ رسول الله ﷺ ، فوجَّه إليه ـ فيما ذُكِر ـ رسولُ الله ﷺ في النصف من جمادى الآخرة من هذه السنة عبد الله بن عَتِيك ، فحدّثنا هارون بن إسحاق الهمْدانيّ ، قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، قال : حدّثني إسرائيل ، قال : حدّثنا أبو إسحاق ، عن البَرَاء ، قال : بعث رسولُ الله ﷺ إلى أبي رافع اليهوديّ ـ وكان بأرض الحجاز ـ رجالاً من الأنصار ، وأمَّر عليهم عبد الله بن عقبة ـ أو عبد الله بن عتيك ـ وكان أبو رافع يؤذِي رسولَ الله ﷺ ويبغي عليه ، وكان في حصن له بأرض الحجاز ، فلما دَنَوْا منه وقد غربت الشمس ، وراحَ النَّاس بسَرْحهم ، قال لهم عبد الله بن عقبة ـ أو عبد الله بن عَتِيك : اجلسوا مكانكم ، فإني أنطلق وأتلطّف للبوّاب ، لعلّي أدخل ! قال : فأقبل حتَّى إذا دنا من الباب ، تقنّع بثوبه؛ كأنه يقضي حاجة ، وقد دخل النَّاس ، فهتف به البّواب : يا عبد الله ، إن كنتَ تريد أن تدخل فادخل ، فإني أريدُ أنْ أغلق الباب . قال : فدخلت فكمَنْتُ تحت آرِيّ حمار ؛ فلمّا دخل النَّاس أغلق الباب ثم عَلّقَ الأقاليد على وَدٍّ . قال : فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسْمرُ عنده في علاليّ ؛ فلما ذهب عنه أهل سَمَره ، فصعَدتُ إليه فجعلت كلَّما فتحت باباً أغلقته عَلَيّ مِنْ داخل . قلت : إن القوم نَذِروا بي لم يخلصوا إليّ حتى أقتلَه . قال : فانتهيتُ إليه ؛ فإذا هو في بيت مظلم وسْط عياله ؛ لا أدري أين هو من البيت ! قلت : أبا رافع ! قال : مَنْ هذا ؟ قال : فأهْويتُ نحو الصوت ، فأضرِبهُ ضربة بالسيف ،

وأنا دَهِش فما أغنى شيئاً وصاح ؛ فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد . ثم دخلت إليه ، فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال : لأمّك الويْل ! إنَّ رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف ، قال : فأضربه فأثخنه ولم أقتله . قال : ثم وضعتُ ضبيب السَّيف في بطنه ، حتى أخرجته من ظهره ، فعرفت أني قد قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب باباً فباباً ، حتى انتهيت إلى درجة ؛ فوضعت رجلي ، وأنا أرى أني انتهيت إلى الأرض ، فوقعت في ليلة مقمرة ؛ فانكسرتْ ساقي ، قال : فعصَّبتها بعمامتي ، ثم إني انطلقتُ حتى جلست عند الباب ، فقلت : والله لا أبرح الليلة حتى أعلَم : أقتلته أم لا ؟ قال : فلما صاح الدّيك ، قام الناعي عليه على السُّور ، قال : أنْعَى أبا رافع ربَّاح أهل الحجاز ! قال : فانطلقت إلى أصحابي ، فقلت : النَّجاء ! قد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبيّ ﷺ ، فحدّثته فقال : ابسُط رجلك ، فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشتكها قطّ .

قال أبو جعفر : وأما الواقديّ ؛ فإنه زعم أن هذه السريَّة التي وجّهها رسولُ الله ﷺ إلى أبي رافع سلّام بن أبي الحُقيق إنَّما وجهها إليه في ذي الحجَّة من سنة أربع من الهجرة ، وأنّ الذين توجَّهوا إليه فقتلوه ، كانوا أبا قتادة ، وعبد الله بن عَتيك ، ومسعود بن سنان ، والأسود بن خُزَاعيّ وعبد الله بن أنَيْس .

وأما ابنُ إسحاق ، فإنَّه قصّ من قصّة هذه السريَّة ما حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة عنه : كان سلّام بنُ أبي الحُقِيق ـ وهو أبو رافع ـ ممَّن كان حَزَّبَ الأحزاب على رسولِ الله ﷺ ، وكانت الأوس قبل أحُد قتلت كعب بن الأشرف في عَداوته رسولَ اللهِ ﷺ وتحريضه عليه ، فاستأذنت الخزرج رسولَ الله ﷺ في قتل سلّام بن أبي الحُقيق ؛ وهو بخيبر ، فأذن لهم .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة عن محمد بن إسحاق ، عن محمد مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهريّ ، عن عبد الله بن كَعْب بن مالك ، قال : كان مما صنع الله به لرسوله أنّ هذين الحيَّين من الأنصار : الأوس والخزرج ؛ كانا يتصاوَلان مع رسولِ الله ﷺ تصاوُلَ الفحْلين ؛ لا تصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غَنَاء إلّا قالت الخزرج : والله لا يذهبون هذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ في الإسلام ؛ فلا ينتهون حتى يُوقِعوا مثلها . قال : وإذا فعلت الخزرج شيئاً ، قالت الأوس مثل ذلك . فلمّا أصابت الأوْس كعبَ بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ ، قالت الخزرج : لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً . قال : فتذاكروا : مَنْ رجُلٌ لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف ! فذكروا ابنَ أبي الحُقيق وهو بخيبر ؛ فاستأذنوا رسولَ الله ﷺ في قتله ، فأذن لهم ؛ فخرج إليه من الخزرج ثم من بني سلِمة خمسة نفر : عبد الله بن عَتِيك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أُنَيْس ، وأبو قَتادة الحارث بن رِبعيّ ، وخُزاعيّ بن الأسود ؛ حليف لهم من أسلَم ؛ فخرجوا ، وأمَّر عليهم رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن عتيك ، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة .

فخرجوا حتى قدموا خيبر؛ فأتـوا دار ابن أبي الحُقيق ليلاً؛ فلم يَـدَعوا بيتـاً في الدّار إلاّ أغلقـوه من خلفهم على أهله ، وكان في عُلِّيَّة له إليها عَجَلَة روميةٌ ، فأسندوا فيها حتى قاموا على بابه فاستأذنوا ، فخرجت إليهم امرأته فقالت : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : نفرٌ من العرب نلتمس المِيرَة ، قالت : ذاك صاحبكم فادخلوا عليه ، فلمّا دخلنا أغلقنا عليها وعلينا وعليه باب الحجرة ، وتخوّفنا أن تكون دونه مجاولة تحول بيننا وبينه . قال : فصاحت امرأته ، ونوّهت بنا ، وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا ؛ والله ما يدلّنا عليه في سواد اللّيل إلا بياضُه ؛ كأنه قُبْطِيَّةٌ مُلقاة . قال : ولما صاحتْ بنا امرأته ، جعل الرَّجل منَّا يرفع عليها السَّيف ثم يذكر نهيَ رسول الله

ﷺ ؛ فيكفّ يده ؛ ولولا ذاك فرغنا منها بليلٍ ، فلمّا ضربناه بأسيافنا ، تحامل عليه عبد الله بن أنَيْس بسيفه في بطنه حتى أنفَذه وهو يقول : قَطْنِي قَطْني !

قال : ثم خرجنا ، وكان عبد الله بن عتيك سيء البصر ، فوقع من الدرجة فَوُثِئَتْ رجله وَثْئاً شديداً واحتملناه حتى نأتي به مَنهراً من عيونهم ، فندخل فيه . قال : وأوقدوا النِّيران ، واشتدُّوا في كلّ وجه يطلبوننا ؛ حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه ؛ وهو يقضي بينهم . قال : فقلنا : كيف لنا بأن نعلم أن عدوّ الله قد مات ! فقال رجل منّا : أنا أذهب فأنظر لكم ، فانطلق حتى دخل في الناس ، قال : فوجدُتُه ورجال يهود عنده ، وامرأته في يدها المصباح تنظر في وجهه . ثم قالت تحدّثهم وتقول : أما والله لقد عرفتُ صوتَ ابن عتيك ؛ ثم أكذبت ، فقلت : أنّى ابن عتيك بهذه البلاد ! ثم أقبلت عليه لتنظرَ في وجهه ثم قالت : فاظ وإله يهود ! قال : يقول صاحبُنا ؛ فما سمعتُ من كلمة كانت ألذّ إلى نفسي منها ، ثم جاءنا فأخبرنا الخبر فاحتملنا صاحبنا ، فقدمنا على رسولِ الله ﷺ، وأخبرناه بقتل عدوّ الله ، واختلفنا عنده في قتله ؛ وكلّنا يدّعيه ، فقال رسول الله ﷺ : هاتوا أسيافكم ، فجئناه بها فنظر إليها ، فقال لسيف عبدالله بن أُنيس : هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام . فقال حسان بن ثابت ؛ وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف وسلّام بن أبي الحُقَيق :

لِـلّٰهِ دَرُّ عِـصَـابَـةٍ لاَقَـيْـتَـهُـمْ ... يـا بنَ الْحُقَيْقِ وَأَنْتَ يـا بنَ الأشْـرَف
يَسْـرُونَ بـالْبِيضِ الخفـاف إِلَيْكُمُ ... مـرحـاً كـأُسْـدٍ في عـرينٍ مُغْـرِف
حتى أتـوكُمْ في محـلِّ بِـلادكُمْ ... فـسقَـوْكُمُ حـتْـفـاً بـبِـيضٍ ذُفَّـف
مُسْتَبْصِـرِيـنَ لنَصْـر دين نـبِيِّـهِمْ ... مُسْتَـضْعِفِيـنَ لكـلِّ أمـرٍ مُجْحِـف

حدّثني موسى بن عبد الرحمن المَسْرُوقيّ وعبَّاس بن عبد العظيم العَنْبَريّ ، قالا : حـدّثنا جعفـر بن عون ، قال : حدّثنا إبراهيم بن إسماعيل ، قال : حدّثني إبراهيم بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، أنّ أباه حدّثه عن أمِّه ابنة عبد الله بن أنيس ، أنَّها حدّثته عن عبد الله بن أنيس ، أنّ الرهط الَّذين بعثهم رسولُ الله ﷺ إلى ابن أبي الحُقَيْق ليقتلوه : عبد الله بن عَتِيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قَتادة ، وحليف لهم ، ورجل من الأنصار ؛ وأنهم قَدِمُوا خَيْبَر ليلاً . قال : فَعَمَدْنا إلى أبوابهم نغلقها من خارج ، ونأخذ المفاتيح ، حتى أغلقنا عليهم أبوابهم ، ثم أخذنا المفاتيح فألقيناها في فقير ، ثم جئنا إلى الْمَشْرَبة الَّتي فيها ابنُ أبي الحقيق ، فظهرت عليها أنا وعبد الله بن عتيك وقعد أصحابنا في الحائط ، فاستأذن عبد الله بن عتيك ؛ فقالت امرأة ابن أبي الحُقيق : إنّ هذا لصوت عبد الله بن عَتيك . قال ابنُ أبي الحقيق : ثكلتْك أمّك ! عبدُ الله بن عتيـك بيثرب ؛ أين هو عندك هذه الساعة ! افتحي لي ؛ إنَّ الكريم لا يردّ عن بابه هذه الساعة . فقامت ففتحت ؛ فدخلتُ أنا وعبد الله على ابن أبي الحُقَيق ، فقال عبد الله بن عَتِيك : دونك ، قال : فشهرت عليها السيف ، فأذهب لأضربها بالسيف فأذكر نَهْيَ رسولِ الله ﷺ عن قتل النساء والوِلْدان ، فأكفّ عنها ، فدخل عبد الله بن عتيك على ابن أبي الحُقيق . قال : فأنظر إليه في مَشْرَبة مظلمة إلى شدّة بياضه ، فلمّا رآني ورأى السيف ، أخذ الوسادة فاتّقاني بها ، فأذهب لأضربه فلا أستطيع ، فوخزتُه بالسيف وخْزاً . ثم خرج إليّ عبد الله بن أنَيس ، فقال : أقتله ؟ قال : نعم ، فدخل عبد الله بن أنيس فذفّف عليه . قال : ثم خرجت إلى عبد الله بن عَتِيك ؛ فانطلقنا ، وصاحت المرأة : وا بَيَاتاه وا بَيَاتاه ! قال : فسقط عبدُ الله بن عَتِيك في الدّرجة ، فقال : وا رجلاه وا رجلاه ! فاحتمله عبد الله بن أنيس ؛ حتى وضعه إلى الأرض . قـال : قلت: انطلق ، ليس بـرجلك

بأس . قال : فانطلقنا ، قال عبد الله بن أنيس : جئنا أصحابنا فانطلقنا ، ثم ذكرت قوسي أني تركتها في الدّرجة ؛ فرجعت إلى قوسي ؛ فإذا أهلُ خَيْبر يموجُ بعضهم في بعض ؛ ليس لهم كلام إلَّا مَنْ قَتَل ابن أبي الحقيق ؟ مَنْ قتل ابن أبي الحُقيق ؟ قال : فجعلت لا أنظر في وجه إنسان ، ولا ينظر في وجهي إنسان إلَّا قلت : مَنْ قتل ابن أبي الحُقَيق ؟ قال : ثم صعدت الدّرجة ؛ والناس يظهرون فيها ؛ وينزلون ؛ فأخذت قوسي من مكانها ، ثم ذهبتُ فأدركتُ أصحابي ، فكُنَّا نكمنُ النهار ونسير الليل ؛ فإذا كمنّا بالنهار أقعدنا منّا ناطوراً ينظر لنا ؛ فإنْ رأى شيئاً أشار إلينا ؛ فانطلقنا حتى إذا كنّا بالبيضاء كنت ـ قال موسى : أنا ناطورهم ، وقال عباس : كنتُ أنا ناطورهم ـ فأشرت إليهم فذهبوا جَمْزاً وخرجت في آثارهم ؛ حتى إذا اقتربنا من المدينة أدركتهم ، قالوا : ما شأنك ؟ هل رأيت شيئاً ؟ قلت : لا ، إلَّا أني قد عرفت أنْ قد بلغكم الإعياء والوَصَبُ ، فأحببت أن يحملكم الفَزَع .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة تزوّج النبي ﷺ حَفْصة بنت عمر في شعبان ؛ وكانت قبله تحت خُنَيْس بن حذافة السَّهْميّ في الجاهليّة ، فتوفِّيَ عنها .

وفيها كانت غزوة رسول الله ﷺ أُحُداً ؛ وكانت في شوّال يوم السبت لسبع ليالٍ خلوْن منه ـ فيما قيل ـ من سنة ثلاث من الهجرة .

غـزوة أُحــد

قال أبو جعفر : وكان الَّذي هاج غزوة أُحُد بين رسول الله ﷺ ومشركي قريش وقْعة بدر وقتل مَنْ قُتل ببدْر من أشراف قريش ورؤسائهم ؛ فحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزُّهريّ ، ومحمد بن يحيى بن حَبَّان ، وعاصم بن عمر بن قَتادة ، والحُصَيْن بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن مُعاذ وغيرُهم من علمائنا ؛ كلّهم قد حدّث ببعض هذا الحديث عن يوم أُحد ، وقد اجتمع حديثهم كلّهم فيما سُقْتُ من الحديث عن يوم أُحُد ، قالوا :

لما أُصيبتْ قريش ـ أو من قاله منهم ـ يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القَليب ، فرجع فَلُّهم إلى مكّة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعِكْرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أميَّة ، في رجال من قريش مِمّن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ؛ فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومَنْ كانت له في تلك العِير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشرَ قريش ، إنَّ محمَّداً قد وَتَركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حَرْبه ؛ لعلّنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منّا ، ففعلوا ، فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العِير بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كِنانة وأهل تِهامة ؛ وكلّ أولئك قد استَعوْا على حرب رسول الله ﷺ .

وكان أبو عَزَّة عمرو بن عبد الله الجُمحيّ قد منّ عليه رسول الله ﷺ يَوم بدر . وكان فقيراً ذا بنات ، وكان في الأسارى ، فقال : يا رسولَ الله ، إني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتَها ، فامنن عليّ صلّى الله عليك ! فمنّ عليه رسولُ الله ﷺ ، فقال صَفوان بن أميَّة : يا أبا عزّة ، إنَّك امرؤٌ شاعرٌ ، فأعِنّا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إنَّ محمداً قد منَّ عليَّ فلا أريد أن أظاهِرَ عليه ، فقال : بلَى فأعنّا بنفسك ، فلك الله إن رجعتَ أن

أغنيَك ، وإن أصِبْتَ أن أجعل بناتِك مع بناتي يصيبهنّ ما أصابهنّ من عسر ويسر . فخرج أبو عزّة يسير في تِهامة ، ويدعو بني كنانة . وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حُذافة بن جُمح ؛ إلى بني مالك بن كنانة يحرّضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، ودعا جبير بن مُطْعِم غُلاماً له يقال له وحشيّ ، كان حبشيًّا يقذف بحربة له قَذْف الحَبَشة ، قلّما يُخْطىء بها ، فقال له : اخرج مع النَّاس ، فإن أنت قتلت عمّ محمد بعمي طُعَيْمة بن عديّ فأنت عَتيقٌ .

فخرجت قريش بحدّها وجَدّها وأحابيشها ، ومَن معها من بني كِنانة وأهل تِهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعُن التماس الحفيظة ؛ ولئلا يفرّوا . فخرج أبو سفيان بن حرب ـ وهو قائد النَّاس ، معه هند بنت عُتبة بن ربيعة ـ وخرج عِكْرمة بن أبي جهل بن هشام بن المغيرة بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أميَّة بن خلف ببَرْزَةَ ـ قال أبو جعفر : وقيل ببرَّة ـ بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثَّقفيّة ؛ وهي أمّ عبد الله بن صفوان ـ وخرج عمرو بن العاص بن وائل بريْطة بنت منبّه بن الحجَّاج ، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وخرج طلحة بن أبي طلحة ، وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدّار بسُلافة بنت سعد بن شهيد ـ وهي أمّ بني طلحة مُسافع والجُلاس وكلاب ؛ قتلوا يومئذ وأبوهم ـ وخرجت خناس بنت مالك بن المضَرِب إحدى نساء بني مالك بن حِسْل ، مع ابنها أبي عزيز بن عمير ؛ وهي أمّ مُصْعَب بن عمير ، وخرجت عَمْرة بنت علقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ؛ وكانت هند بنت عُتْبة بن ربيعة كُلَّما مَرَّتْ بوحشيّ أو مَرَّ بها قالت : إيهٍ أبا دَسْمَةَ ! اشْف واشْتَفِ ـ وكان وحشيّ يكنى أبا دَسْمة . فأقبلوا حتى نزلوا بعَيْنين بجبل ببطن السَّبْخَة ؛ من قناة على شفير الوادي ممَّا يلي المدينة .

فلمَّا سمع بهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا قال رسولُ الله ﷺ للمسلمين : إني قد رأيت بقراً فأوّلتها خيراً ، ورأيت في ذُباب سيفي ثَلْماً ، ورأيت أنّي أدخلت يدي في درع حَصِينَة فأوّلتها المدينة ؛ فإنْ رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ؛ فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ؛ وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها . ونزلت قريش منزلَها من أحد يوم الأربعاء . فأقاموا به ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة . وراح رسولُ الله ﷺ حين صلَّى الجمعة ، فأصبح بالشِّعب من أُحُد . فالتقوْا يومَ السّبت للنّصف من شوّال ؛ وكان رأي عبد الله بن أبيّ ابن سَلول مع رأي رسول الله ﷺ ، يرى رأي رسول الله ﷺ في ذلك : ألاّ يخرج إليهم ، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروجَ من المدينة ، فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحُد وغيرهم ممَّن كان فاته بدر وحضوره : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يروْن أنَّا جَبُنَّا عنهم وضَعُفْنا ، فقال عبدُ الله بن أبيّ ابن سَلُول: يا رسولَ الله ، أقمْ بالمدينة ولا تخرجْ إليهمْ ؛ فوالله ما خرجنا منها إلى عَدوٍّ لنا قطّ إلاّ أصاب منّا ، ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه ، فَدعْهم يا رسولَ الله ؛ فإن أقاموا أقاموا بشرّ مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النِّساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا . فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم ؛ حتى دخل رسولُ الله ﷺ ، فلبِس لأمته ؛ وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مـات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له مالك بن عمرو ، أحد بني النَّجار ، فصلَّى عليه رسول الله ﷺ ؛ ثم خرج عليهم وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرَهْنا رسول الله ﷺ ولم يكن ذلك لنا .

قال أبو جعفر : وأما السدّيّ ؛ فإنّه قال في ذلك غير هذا القول ؛ ولكنه قال ما حدّثني محمّد بن الحسين ، قال : حدّثنا أحمد بن المفضل ، قال : حدّثنا أسباط ، عن السدّيّ ، أنّ رسولَ الله ﷺ لما سمع بنزول المشركين من قُريش وأتباعها أحداً ، قال لأصحابه : أشيروا عليّ ما أصنع ! فقالوا : يا رسولَ الله ، اخرج بنا إلى هذه الأكلب ، فقالت الأنصار : يا رسول الله ، ما غلبنا عَدوٌّ لنا قطّ أتانا في ديارنا ، فكيف وأنت فينا ! فدعا رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن أبيّ ابن سَلُول ـ ولم يدعه قطّ قبلها ـ فاستشاره فقال : يا رسولَ الله ، اخرج بنا إلى هذه الأكلُب ؛ وكان رسولُ الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة ، فيقاتلوا في الأزقّة ، فأتاه النّعمان بن مالك الأنصاريّ ، فقال : يا رسولَ الله لا تحرِمْني الجنة ؛ فوالّذي بعثك بالحقّ لأدخلنّ الجنّة ، فقال له : بِمَ ؟ قال : بأنّي أشهدُ أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله ، وأنّي لا أفرُّ من الزّحف . قال : صدقتَ ، فقتل يومئذ . ثم إنّ رسولَ الله ﷺ دعا بدرعه فلبِسها ، فلمّا رأوْه قد لبس السّلاح ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا ! نشيرُ على رسول الله والوحي يأتيه ! فقاموا فاعتذروا إليه ، وقالوا : اصنع ما رأيت ، فقال رسولُ الله ﷺ : لا ينبغي لنبيّ أن يلبس لأمته فيضَعَها حتى يقاتل . فخرج رسولُ الله ﷺ إلى أُحُد في ألف رجل ؛ وقد وعدهم الفتح إن صبروا . فلمّا خرج رجع عبد الله بن أُبيّ ابن سلول في ثلاثمائة ، فتبعهم أبو جابر السُّلميّ يدعوهم ، فلمّا غلبوه وقالوا له : ما نعلم قتالاً ؛ ولئن أطَعتَنا لترجعنّ معنا ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا ﴾[1] فهمّ بنو سَلِمة وبنو حارثة ، همُّوا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبيّ ، فعصمهم الله عزّ وجلّ ، وبقيَ رسول الله ﷺ في سبعمائة .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق : قال : قالوا : لما خرج عليهم رسولُ الله ﷺ قالوا : يا رسولَ الله ؛ استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإنْ شئت فاقعُد صلى الله عليك ! فقال رسولُ الله ﷺ : ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمَتَه أن يضَعَها حتى يقاتل ؛ فخرج رسولُ الله في ألف رجل من أصحابه ؛ حتى إذا كانوا بالشَّوط بين أُحُد والمدينة انخزل عنه عبد الله بن أبيّ ابن سلول بثلث الناس ، فقال : أطاعهم فخرج وعصاني ؛ والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ! فرجع بمن اتّبعه من الناس من قومه من أهل النِّفاق وأهل الرَّيْب ، واتّبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، أخو بني سلمة ، يقول : يا قوم أذكّرُكم الله أن تخذلوا نبيَّكم وقومَكم عند ما حضر من عدوّهم! قالوا : لو نعلم أنّكم تقاتلون ما أسلمناكم ؛ ولكنّا لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوْا عليه ، وأبَوْا إلّا الانصراف عنه ، قال : أبعدكم الله أعداء الله ! فسيغني الله عنكم !

قال أبو جعفر : قال محمد بن عمر الواقديّ : انخزل عبد الله بن أبيّ عن رسول الله ﷺ من الشَّيْخين بثلاثمائة ، وبقيَ رسولُ الله ﷺ في سبعمائة ، وكان المشركون ثلاثة آلاف ، والخيل مائتي فرس ، والظُّعنُ خمس عشرة امرأة .

قال : وكان في المشركين سبعمائة دارع ؛ وكان في المسلمين مائة دارع ؛ ولم يكن معهم من الخيل إلّا فَرسان : فرسٌ لرسول الله ﷺ ، وفرس لأبي بردة بنِ نيار الحارثي . فأدلج رسولُ الله ﷺ من الشيخيْن حين طلعت الحمراء ـ وهما أُطمان ، كان يهودي ويهودية أعميان يقومان عليهما ؛ فيتحدّثان فلذلك ، سُميًا

(١) سورة آل عمران : ١٢٢ .

الشيخين ؛ وهو في طرف المدينة ـ قال : وعرض رسولُ الله ﷺ المقاتِلة بالشَّيْخين بعد المغرب ؛ فأجاز مَنْ أجاز ، وردّ مَنْ رَدّ ، قال : وكان فيمن ردّ زيد بن ثابت وابن عمر ، وأسَيد بن ظُهَير ، والبَرَاء بن عازب ، وعَرَابة بن أوس . قال : وهو الذي قال فيه الشَّمّاخ :

رأيـتُ عَـرَابَـةَ الأوسيَّ يـنْـمِـي ... إلـى الْخَـيْـرَاتِ مُنْـقَـطَعَ القَـريـن

إذا مـا رايـةٌ رُفِـعَـتْ لـمَـجْـدٍ ... تـلـقَّـاهـا عَـرَابـةُ بـالـيـمِـيـن

قال : وردّ أبا سعيد الخُدْرِيّ ، وأجاز سَمُرة بن جندَب ورافع بن خَدِيج ، وكان رسولُ الله ﷺ ، قد استصغر رافعاً ، فقام على خُفَّين له فيهما رقاع ، وتطاول على أطراف أصابعه ؛ فلمّا رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلّم أجازه .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد ، قال: أخبرنا محمد بن عمر ، قال : كانت أم سَمُرةبن جندَب تحت مُرَيّ بن سِنَان بن ثعلبة ، عمّ أبي سعيد الخُدريّ ، فكان ربيبَه ، فلمّا خرج رسولُ الله ﷺ إلى أحُد ، وعرض أصحابه ، فردّ من استصغر ردّ سَمُرة بن جندب ، وأجاز رافع بن خديج ، فقال سَمُرة بن جندب لربيبه مُرَيّ بن سنان : يا أبتِ ، أجاز رسولُ الله ﷺ رافع بن خَدِيج ، وردّني وأنا أصرع رافع بن خَدِيج ، فقال مُرَيّ بن سنان : يا رسول الله : رددت ابني ، وأجزت رافع بن خَدِيج وابني يصرعه ! فقال النبي ﷺ لرافع وسمُرة : تصارعا ، فصرع سمُرة رافعاً ، فأجازه رسولُ الله ﷺ فشهدها مع المسلمين .

قال : وكان دليل النبيّ ﷺ أبو حَثْمَةَ الحارثيّ .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق : قال : ومضى رسولُ الله ﷺ حتى سلك في حَرّة بني حارثة ، فَذَبّ فرس بذنبه ، فأصاب كلاّب سيف ، فاستلّه ، فقال رسولُ الله ﷺ ـ وكان يُحبُّ الفأل ولا يعتاف ـ لصاحب السيف : شِمْ سيفَك ، فإني أرى السيوف ستُسَلُّ اليوم . ثمّ قال رسول الله ﷺ لأصحابه : مَنْ رجُلٌ يخرج بنا على القوم من كثَبٍ ، من طريق لا يمُرُّ بنا عليهم ؟ فقال أبو حثمة أخو بني حارثة بن الحارث : أنا يا رسول الله ، فقدّمه فنفذ به في حَرّة بني حارثة وبين أموالهم حتى سَلَك به في مال المِرْبع بن قيظيّ ـ وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر ـ فلمّا سمع حسّ رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، قام يَحْثِي في وجوههم التراب ، ويقول : إن كنتَ رسول الله؛ فإنّي لا أحلُّ لك أن تدخل حائطي ؛ قال : وقد ذكر لي أنه أخذ حَفْنة من تراب في يده ، ثم قال : لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك . فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسولُ الله ﷺ : لا تفعلوا ؛ فهذا الأعمى البصر ، الأعمى القلب .وقدبدر إليه سعد بن زيد أخو بني عبد الأشهل حين نَهىَ رسولُ الله ﷺ عنه ، فضربه بالقوس في رأسه فشجَّه ، ومضى رسولُ الله ﷺ على وجهه ؛ حتى نزل الشِّعب من أُحُد في عُدْوة الوادي إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد ، وقال : لا يقاتلنّ أحدٌ حتى نأمره بالقتال ؛ وقد سَرّحت قريش الظّهر والكُراع في زروع كانت بالصَّمْغة من قناة للمسلمين . فقال رجل من المسلمين حينَ نهى رسولُ الله ﷺ عن القتال : أتُرْعَى زروع بني قيْلة ولمَّا نُضارب ! وتعبَّأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة رجل ، وتعبَّأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ؛ ومعهم مائتا فرس قد جَنَبُوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عِكْرمة بن أبي جهل ، وأمّر رسولُ الله ﷺ على الرُّماة عبد الله بن جُبَيْر ، أخا بني عمرو بن عوف وهو يومئذ

معلِمٌ بثياب بيض ، والرماة خمسون رجلاً ، وقال : انضح عنا الخيل بالنَّبل لا يأتونا من خلْفنا إن كانت لنا أو علينا ؛ فاثبت مكانك لا نُؤتَيَنَّ من قِبَلك ، وظاهر رسول الله ﷺ بين دِرْعين .

فحدّثنا هارون بن إسحاق ، قال : حدّثنا مُصعب بن المقدام ، قال : حدّثنا إسرائيل . وحدّثنا ابنُ وكيع ، قال : حدّثنا أبي ، عن إسرائيل ، قال : حدّثنا أبو إسحاق ، عن البَراء ، قال : لَمَّا كان يومُ أُحُد ، ولقِيَ رسولُ الله ﷺ المشركين أجْلَسَ رسولُ الله ﷺ رجالاً بإزاء الرّماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جُبير ، وقال لهم : لا تبرحوا مكانَكم إن رأيتمونا ظهَرْنا عليهم ، وإنْ رأيتموهم ظَهَرُوا علينا فلا تعينونا . فلمَّا لقِيَ القوم هزَم المشركين حتى رأيت النساء قد رَفَعن عن سوقهنّ ، وبدت خلاخيلهنّ ، فجعلوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ! فقال عبد الله : مهلاً ، أما علمتم ما عهد إليكم رسولُ الله ﷺ ! فأبَوْا ، فانطلقوا ، فلمَّا أتوْهم صَرَف الله وجوههم ؛ فأصيب من المسلمين سبعون .

حدثني محمَّد بن سعد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني عمّي ، قال : حدّثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عبَّاس ، قال : أقبل أبو سفيان في ثلاث ليال خلوْن من شوّال ، حتَّى نزل أُحُداً ، وخرج النبيّ ﷺ ، فأذن في الناس فاجتمعوا ، وأمَّر الزّبير على الخيل ؛ ومعه يومئذ المِقداد بن الأسود الكِنديّ ، وأعطى رسولُ الله ﷺ اللّواء رجلاً من قريش يقال له مُصعب بن عمير ، وخرج حمزة بن عبد المطّلب بالحسَّر ، وبُعِث حمزةُ بين يديه ، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ؛ ومعه عِكْرمة بن أبي جهل ، فبعث رسولُ الله ﷺ الزّبير ، وقال : استقبلْ خالدَ بن الوليد ؛ فكنْ بإزائِه حتَّى أوذنك ، وأمر بخيل أخرى ، فكانوا من جانب آخر ، فقال : لا تبرحُنّ حتى أوذنكم . وأقبل أبو سفيان يحمِل اللاَّت والعُزَّى ، فأرْسَلَ النبيّ ﷺ إلى الزُّبير أن يحمِل ، فحمل على خالد بن الوليد ؛ فهزمه الله ومَنْ معه ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ ـ إلى قوله ـ : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾(١) ؛ وإنّ الله عزّ وجلّ وَعَدَ المؤمنين أن ينصرهم ؛ وأنَّه معهم . وأنّ رسول الله ﷺ بعث ناساً من الناس ؛ فكانوا من ورائهم ، فقال رسولُ الله ﷺ : كونوا ها هنا ، فرُدُّوا وجهَ مَن فرّ منَّا ، وكونوا حرّاساً لنا من قِبَل ظهورنا . وأنّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا هزم القوم هو وأصحابه ، قال الذين كانوا جُعِلوا من ورائهم بعضهم لبعض ، ورأوا النساء مُصْعدات في الجبل ، ورأوا الغنائم : انطلقوا إلى رسول الله ﷺ ؛ فأدركوا الغنيمة قبَل أن يسبقونا إليها ؛ وقالت طائفة أخرى : بل نطيع رسولَ الله ﷺ فنثبُت مكاننا ؛ فذلك قوله لهم : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ الذين أرادوا الغنيمة ، ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَة ﴾ الذين قالوا : نطيع رسول الله ونثبت مكاننا ، فكان ابن مسعود يقول : ما شعرت أن أحداً من أصحاب النبيّ ﷺ كان يريد الدُّنيا وعرضَها ؛ حتى كان يومئذ .

حدّثني محمد بن الحسين ، قال : حدّثنا أحمد بن المفضلّ ، قال : حدّثنا أسباط ، عن السّدّيّ ، قال : لَمّا برز رسولُ الله ﷺ إلى المشركين بأحُد أمر الرُّماة ، فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين ؛ وقال لهم : لا تبرحوا مكانكم إن رأيتم أننا قد هزمناهم ، فإنَّا لا نزال غالبين ما ثبَتّم مكانكم . وأمَّر عليهم عبدالله بن جُبير أخا خوّات بن جُبير.

ثم إنَّ طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام ، فقال : يا معشرَ أصحابِ محمد ، إنَّكم تزعمون

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٢ .

أنّ الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجّلكم بسيوفنا إلى الجنة ؛ فهل منكم أحدٌ يعجّله الله بسيفي إلى الجنة ، أو يعجّلني بسيفه إلى النار ! فقام إليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : والّذي نفسي بيده لا أفارقك حتى أعجّلك بسيفي إلى النار ، أو تعجّلني بسيفك إلى الجنّة ، فضربه عليّ فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته ، فقال : أنشدك الله والرَّحمَ يا بن عمّ ! فتركه ، فكبّر رسولُ الله ﷺ ، وقال لعليّ : ما منعك أن تجهِزَ عليه ؟ قال : إنّ ابن عمّي ناشدني حين انكشفت عورته فاستحييتُ منه . ثم شدّ الزبير بن العوّام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم ؛ وحَمل النبيّ ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان . فلمّا رأى ذلك خالد بن الوليد ـ وهو على خيل المشركين ـ حمل فرمَتْه الرماة فانقمع . فلمّا نظر الرّماة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه ، بادروا الغنيمة ، فقال بعضهم : لا نترك أمرَ رسولِ الله ﷺ . وانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر ، فلما رأى خالد قلّة الرّماة صاح في خيله ، ثم حمل فقتل الرماة ؛ وحمل على أصحاب النبيّ ﷺ . فلمّا رأى المشركون أنّ خيلهم تقاتل ، تنادَوْا فشدُّوا على المسلمين ، فهزموهم وقتلوهم .

فحدّثني بشر بن آدم ، قال : حدّثنا عمرو بن عاصم الكِلابيّ ، قال : حدّثنا عبيد الله بن الوازع ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : قال الزُّبير : عَرَض رسولُ الله ﷺ سيفاً في يده يوم أُحُد ؛ فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه ؟ قال : فقمت فقلت : أنا يا رسول الله ، قال: فأعرض عني، ثم قال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقِّه ؟ فقمت فقلت : أنا يا رسول الله ، فأعرض عنّي ، ثم قال : مَنْ يأخذ هذا السَّيف بحقِّه ؟ قال : فقام أبو دُجَانة سِماك بن خَرَشَةَ ، فقال : أنا آخذه بحقِّه ؛ وما حقُّه ؟ قال : حقه ألاَّ تقتل به مسلماً ، وألاّ تفرّ به عن كافر ؛ قال : فدفعه إليه . قال : وكان إذا أراد القتال أعْلِم بعصابة ؛ قال : فقلت : لأنظرنْ اليوم ما يصنعَ ، قال : فجعل لا يرتفع له شيء إلاّ هتكه وأفراه ؛ حتى انتهى إلى نسوة في سفح جبل ؛ معهنّ دُفُوف لهنّ ؛ فيهنّ امرأةٌ تقول :

نَحْنُ بَناتُ طارِقْ إنْ تُقْبِلوا نُعانِقْ
ونَبْسُط النَّمارِقْ أو تُدْبِرُوا نُفارِقْ
فِراقَ غَيْرِ وامِقْ

قال : فرفع السّيف ليضربَها ، ثم كفّ عنها . قال : قلت : كلّ عملك قد رأيت ، أرأيت رفعك للسيف عن المرأة بعدما أهويت به إليها ! قال : فقال : أكرمت سيف رسول الله أن أقتل به امرأة .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . فقال رسولُ الله ﷺ : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقِّه ؟ فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ؛ حتّىٰ قام إليه أبو دُجَانة سماك بن خَرَشة أخو بني ساعدة ، فقال : وما حقُّه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به في العدوّ حتى ينحَنيَ ؛ فقال : أنا آخذه بحقِّه يا رسول الله ؛ فأعطاه إياه ـ وكان أبو دُجَانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت ، وكان إذا أعلِم بعصابة له حمراء يعصبها على رأسه علم النَّاس أنه سيقاتل ـ فلمّا أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخذ عصابته تلك ، فعصب بها رأسه ؛ ثم جعل يتبختر بين الصَّفَّين .

فحدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني جعفر بن

عبد الله بن أسلم ، مولى عمر بن الخطاب ، عن رجل من الأنصار من بني سلمة ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ حين رأى أبا دُجَانة يتبختر : إنَّها لمشيَةٌ يبغِضُها الله عزّ وجلّ إلاَّ في هذا الموطن . وقد أرسل أبو سفيان رسولاً ، فقال : يا معشر الأوْس والخزرج ، خلُّوا بيننا وبين ابن عمّنا ننصرفْ عنكم ، فإنّه لا حاجة لنا بقتالكم . فردّوه بما يكره .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، أنّ أبا عامر عبد عمرو بن صيفيّ بن مالك بن النعمان بن أمة ، أحد بني ضُبيْعَة ؛ وقد كان خرج إلى مكّة مُباعداً لرسول الله ﷺ ، معه خمسون غلاماً من الأوْس ؛ منهم عثمان بن حُنَيْف ـ وبعض النَّاس يقول : كانوا خمسة عشر ـ فكان يعِد قريشاً أنْ لو قد لقِيَ محمَّداً لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلمَّا التقى الناس ، كان أوّل مَنْ لقِيَهم أبو عامر في الأحابيش وعُبْدَانِ أهل مكّة ، فنادى : يا معشرَ الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ـ وكان أبو عامر يسمَّى في الجاهلية « الراهب » ، فسمَّاه رسول الله ﷺ « الفاسق » ـ فلمَّا سمع ردّهم عليه ، قال : لقد أصاب قومي بعدي شرّ . ثم قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم راضخهم بالحجارة ، وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللِّواء من بني عبد الدار يحرّضهم بذلك على القتال : يا بني عبدِ الدّار ، إنَّكم وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ؛ وإنَّما يؤتى النَّاس من قبَل راياتهم ؛ إذا زالت زالوا ؛ فإما أن تكفونا لواءنا ؛ وإما أن تخلُّوا بيننا وبينه فسنكفيكموه . فهمُّوا به وتواعدوه ، وقالوا : نحن نسلِّم إليك لواءنا ، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ! وذلك الذي أراد أبو سفيان . فلمَّا التقى الناس ، ودنا بعضُهم من بعض ، قامت هند بنت عُتْبة في النِّسوة اللّواتي معها ، وأخذن الدُّفوفَ يضربْن خلْف الرّجال ويُحرّضنْهم ، فقالت هند فيما تقول :

إنْ تُقْبِلوا نُعانِقْ ونَفْرش النَّمارِقْ
أو تدْبِرُوا نُفارِقْ فِراقَ غيْرِ وامِقْ

وتقول :

وَيْهاً بني عَبد الدّار! وَيْهاً حُماةَ الأدْبار!
ضَرْباً بكلِّ بتَّار

واقْتتل الناس حتى حمِيت الحرب ، وقاتل أبو دُجَانة حتَّى أمعن في الناس ، وحمزة بن عبد المطّلب وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين ، فأنزل الله عزّ وجلّ نصرَه ،وصدقَهم وعدَه، فحسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم ، وكانت الهزيمة لا شكّ فيها .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزُّبير ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : قال الزبير : والله لقد رأيْتني أنظر إلى خَدَم هند بنت عتبة وصواحبها مشمّرات هوارب ، ما دون أخْذِهنَّ قليل كثير ؛ إذ مالت الرُّماة إلى العسكر حين كَشَفْنَا القوم عنه يريدون النَّهب ، وخلَّوْا ظهورنا للخيل ؛ فأُتينا من أدبَارنا وصَرَخَ صَارِخٌ : ألا إن محمداً قد قتِلَ ! فانكفأنا وانكفأ علينا القوم ؛ بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم .

حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، أنَّ اللِّواء لم

يزل صريعاً حتّىٰ أخذتْهُ سَمْرَةُ بنت علقمة الحارثيّة ، فرفعْتُهُ لقريش ، فلاثوا به ، وكان اللّواء مع صَوَاب ، غُلَام لبني أبي طلحة ، حبشيّ ، وكان آخر من أخذه منهم ، فقاتل حتى قُطِعَتْ يداه ، ثم برك عليه ، فأخذ اللواء بصدره وعُنُقِه حتى قُتِلَ عليه ؛ وهو يقول : اللّهمّ هل أعذرت ! فقال حَسَّان بن ثابت في قطع يد صواب حين تقاذفوا بالشعر :

فَخَرْتم بِاللِّواءِ وشرُّ فخرٍ ... لِوَاءٌ حينَ رُدَّ إلى صَوَابِ
جَعَلْتُمْ فَخْرَكُمْ فيها لعبدٍ ... مِنَ آلأمِ مَنْ وَطِي عَفَرَ التّرَاب
ظَنَنْتُمْ والسفيهُ له ظُنُونٌ ... وما إن ذاك مِنْ أمْرِ الصَّوابِ
بأنَّ جِلادَنا يَوْمَ الْتَقَيْنا ... بِمَكَّةَ بيْعُكُمْ حُمْرَ العِيَابِ
أقرَّ العيْنَ أنْ عُصِبَتْ يَدَاهُ ... وما إنْ تُعصَبانِ على خِضَابِ

حدّثنا أبو كُرَيب ، قال : حدّثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدّثنا حِبَّان بن عليّ ، عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : لما قَتَل عليّ بن أبي طالب أصحاب الألوية ، أبصر رسولُ الله ﷺ جماعة من مشركي قريش ، فقال لعليّ : احمل عليهم ، فحمل عليهم ؛ ففرّق جمعهم ، وقتل عمرو بن عبد الله الجُمَحيّ . قال : ثم أبصر رسولُ الله ﷺ جماعةً من مشركي قريش ، فقال لعليّ : احمِل عليهم ، فحمل عليهم ففرّق جماعتهم ؛ وقتل شيبة بن مالك أحَد بني عامر بن لُؤيّ ، فقال جبريل : يا رسولَ الله ، إنّ هذه لَلْمواساة ، فقال رسولُ الله ﷺ : إنه منّي وأنا منه ، فقال جبريل : وأنا منكما ، قال : فسمعوا صَوْتاً :

لا سيْفَ إلَّا ذو الفَقَا ... ر ولا فتىً إلَّا عليّ

قال أبو جعفر : فلمّا أتِيَ المسلمون من خلفهم انكشفوا وأصاب منهم المشركون ، وكان المسلمون لَمّا أصابهم ما أصابهم من البلاء أثلاثاً : ثلث قتيل ، وثلث جريح ، وثلث منهزم ؛ وقد جهدته الحرب حتى ما يدري ما يصنع ، وأصيبت رَبَاعِيَةُ رسول الله ﷺ السفلى ، وشُقَّتْ شفته ، وكُلِم في وجنتيْه وجبْهته في أصول شعره ، وعلاه ابنُ قميئة بالسّيف على شقّه الأيمن ؛ وكان الذي أصابه عُتْبة بن أبي وقاص .

حدّثنا ابن بشار ، قال : حدّثنا ابن أبي عَدِيّ ، عن حُمَيْد ، عن أنس بن مالك ، قال : لَمّا كان يوم أحدٍ ، كُسِرَتْ رَبَاعِيَةُ رسول الله ﷺ وشُجَّ ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : كيف يُفلح قومٌ خضَبوا وجه نبيّهم بالدم . وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ! فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . . . ﴾(١) الآية .

قال أبو جعفر : وقال رسول الله ﷺ حين غشيَه القوم : مَنْ رجلٌ يشري لنا نفسه !

فحدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، عن محمود بن عمرو بن يزيد بن السَّكَن ، قال : فقام زياد بن السَّكَن في نفر خمسة من الأنصار ، وبعض الناس يقول : إنّما هو عُمارة بن زياد بن السَّكَن ، فقاتلوا دونَ رسول الله ﷺ رجلاً ، ثم رجلاً ، يقتلون دونه ؛ حتّىٰ كان آخرهم زيادٌ ـ أو عمارة بن زياد بن السَّكن ـ

---

(١) سورة آل عمران : ١٢٨ .

فقاتل حتى أثبتَتْه الجراحة ، ثم فاءَت من المسلمين فِئَةٌ حَتى أجهَضوهم عنه ، فقال رسولُ الله ﷺ : أدنوهُ مني ، فأدنوْه منه ، فَوَسَّدَ قدمه ؛ فمات وخَدُّه على قَدَمِ رسول الله ﷺ ، وتَرّس دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة بنفسه يَقَعُ النَّبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه ؛ حتى كثُرت فيهِ النَّبل ، ورَمى سعد بن أبي وقاص دونَ رسولِ الله ﷺ ، فقال سَعْدٌ : فلقد رأيتُه يناولني ويقول : ارْمِ فِداك أبي وأمّي ! حتى إنَّه ليُناوِلُني السَّهم ما فيه نَصْلٌ ، فيقول : ارْمِ به !

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمَّد بن إسحاق ، قال : حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة ، أنّ رسول الله ﷺ رَمَى عن قوسه حتى اندقَّتْ سِيَتُهَا ، فأخذها قتادة بن النعمان ؛ فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عينُ قَتادة بن النعمان ؛ حتى وقعت على وجْنَتِه .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة ، أنّ رسولَ الله ﷺ ردّها بيده ؛ فكانت أحسن عينيه وأحَدَّهما .

قال أبو جعفر : وقاتَل مُصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ ومعه لواؤه حتى قتل ؛ وكان الذي أصابه ابن قَمِيئة الليثيّ . وهو يظنّ أنّه رسولُ الله ﷺ ؛ فرجع إلى قريش ، فقال : قتلت محمداً . فلما قتِل مُصعب بن عمير أعطى رسولَ الله ﷺ اللواءَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطاة بن عبد شُرَحْبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ ؛ وكان أحدَ النّفر الَّذين يحملون اللِّواء ، ثم مَرّ به سباع بن عبد العُزّى الغُبْشانيّ ـ وكان يكنى بأبي نِيَار ـ فقال له حمزة بن عبد المطّلب : هلمَّ إليّ يا بنَ مُقَطِّعة البُظور ـ وكانت أمّه أم أنمار مولاة شريق بن عمرو بن وهب الثقفيّ ، وكانت ختّانة بمكّة ـ فلمّا التقيا ضربه حمزة فقتله ، فقال وَحْشيّ غُلَامُ جبَير بن مطعِم ؛ والله إني لأنْظُر إلى حمزة يَهُدّ الناس بسيفه ، ما يُليق شيئاً يمرُّ به ؛ مثل الجمل الأورق ؛ إذ تقدّمني إليه سِباع بن عبد العزّى ، فقال له حمزة : هلُمَّ إليّ يا بن مقطِّعة البظور ! فضربه ؛ فكأنما أخطأ رأسَه ، وهززت حربتي حتى إذا رضيتُ منها دفعتُها عليه فوقعت في لَبّته حتى خرجت من بين رجليه ، وأقبل نحوي ، فغلب فوقع ، فأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذتُ حربتي ؛ ثم تنحّيت إلى العسكر ؛ ولم يكن لي بشيء حاجة غيره . وقد قتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف مسافع بن طلحة وأخاه كِلَابَ بن طلحة ؛ كلاهما يُشعره سهماً ؛ فيأتي أمّه سُلافة فَيَضعُ رأسه في حجرها ، فتقول : يا بنيَّ ، مَنْ أصابك ؟ فيقول : سمعتُ رجلًا حين رماني يقول : خذها وأنا ابن الأقلح ! فتقول : أقلحيّ ! فنذَرَتْ لله إن الله أمكنها من رأس عاصم أن تشرب فيه الخَمْرَ . وكان عاصم قد عاهد الله ألّا يمسّ مشركاً أبداً ولا يمسَّه .

فحدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع ؛ أخو بني عديّ بن النّجار ، قال : انتهى أنس بن النضر ؛ عمّ أنس بن مالك ، إلى عمر بن الخطاب وطلْحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوْا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتِل محمد رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا [كراماً] على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم استقبل القوم ؛ فقاتل حتى قتِل ؛ وبه سمّي أنس بن مالك .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني حُمَيْد الطويل ، عن

أنس بن مالك ، قال : لقد وجدنا بأنس بن النَّضر يومئذ سبعين ضربة وطعنة فما عرفه إلَّا أخته ، عرفتْه بحسن بنانِه .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : كان أوّل مَنْ عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وقول الناس : « قُتِل رسول الله ﷺ » ـ كما حدّثني ابن شهاب الزهريّ ـ كعب بن مالك ، أخو بني سلِمة ، قال : عرفت عينيه تزهَران تحت المغْفر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشرَ المسلمين أبشروا ! هذا رسولُ الله ﷺ ! فأشار إليّ رسولُ الله ﷺ : أن أَنصِت . فلمّا عرف المسلمون رسولَ الله ﷺ نهضوا به ، ونهضَ نحو الشِّعب ، معه عليّ بن أبي طالب ، وأبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، والحارث بن الصِّمَّة ، في رهط من المسلمين . فلما أسند رسول الله ﷺ في الشِّعب أدركه أبيّ بن خلف وهو يقول : أين مُحَمَّد ! لا نَجَوْتُ إن نجوتَ ! فقال القوم : يا رسولَ الله ، أيعطف عليه رجل مِنَّا ؟ قال : دعوه ، فلمّا دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة ـ قال : يقول بعض الناس فيما ذكر لي : فلمّا أخذها رسولُ الله ﷺ ، انتفض بها انتفاضة تطايَرْنا عنه تطايُر الشَّعْراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها ؛ ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تَدَأدَأ منها عن فرسه مَراراً .

وكان أبيّ بن خلف ـ كما حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ـ يلْقَى رسولَ الله ﷺ بمكّة ، فيقول : يا محمّد إن عندي العَوْد ، أعلفه كلّ يوم فَرْقاً من ذُرة أقتلك عليه ! فيقول رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما رجع إلى قريش ، وقدخدشه في عنقه خَدْشاً غير كبير ؛ فاحتقن الدم ، قال : قتلني والله محمّد . قالوا : ذهب والله فؤادك ؛ والله إنْ بك بأس . قال : إنه قد كان بمكّة قال لي : أنا أقتلك ؛ فوالله لو بصق عليّ لقتلني . فمات عدوّ الله بسَرِف وهم قافلون به إلى مكّة .

قال : فلمّا انتهى رسولُ الله ﷺ إلى فم الشِّعب ، خرج عليّ بن أبي طالب حتى ملأ دَرَقَته من المِهْراس . ثم جاء به إلى رسولِ الله ﷺ ليشرب منه ؛ فوجد له ريحاً فعافه ؛ ولم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدّم ؛ وصُبّ على رأسه ؛ وهو يقول : اشتدّ غضب الله على من دَمَّىٰ وَجْه نَبيِّه .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني صالح بن كيسان ، عمَّن حدّثه ،عن سعدبن أبي وقّاص ، أنه كان يقول : والله ما حَرَصْت على قتل رجل قطّ ما حَرَصْت على قتل عُتْبة بن أبي وقّاص ؛ وإن كان ما علمتُ لَسيِّيءَ الخلق ، مبغَّضاً في قومه ؛ ولقد كفاني منه قولُ رسول الله ﷺ : « اشتدّ غضب الله على من دَمَّىٰ وجه رسول الله » .

حدّثنا محمد بن الحُسين ، قال : حدّثنا أحمد بن المفضل ، قال : حدّثنا أسباط ، عن السُّديّ ، قال : أتى ابن قميئة الحارثيّ أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فرمى رسولَ الله ﷺ بحجَر ، فكسر أنفه ورباعيَته ، وشجَّه في وجهه ، فأثقله وتفرّق عنه أصحابه ، ودخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة ، فقاموا عليها ، وجعل رسولُ الله ﷺ يَدْعُو الناس : إليّ عباد الله ! إليّ عباد الله ! فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً ، فجعلوا يسيرون بين يديه ، فلم يقف أحد إلَّا طلحة وسهل بن حُنَيف ، فحماه طلحة ، فرُمي بسهم في يده فيبِسَتْ يَدُه ، وأقبل أبيّ بن خَلَف الجُمحيّ ؛ وقد حلف ليقتلنّ النبي

ﷺ ، فقال : بل أنا أقتله ، فقال : يا كذّاب ، أين تَفِرُّ ! فحمل عليه فطعنه النبيّ ﷺ في جيب الدرع ؛ فجرح جرحاً خفيفاً ، فوقع يخورُ خُوارَ الثور ؛ فاحتملوه ، وقالوا : ليس بك جراحة ، فما يجزعك ؟ قال : أليس قال : « لأقتلنّك » ! لو كانت بجميع ربيعة ومضر لقتلتْهم ! فلم يلبث إلّا يوماً أو بعض يوم حتى مات من ذلك الجرح .

وفشا في النّاس أن رسولَ الله ﷺ قد قُتل ، فقال بعض أصحاب الصخرة : ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن أبيّ، فيأخذ لنا أمَنَة من أبي سفيان! يا قوم ان محمداً قد قتِل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، قال أنس بن النّضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن ربّ محمد لم يقتل فقاتِلوا على ما قاتل عليه محمَّد: اللهمّ. إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء! ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل؛ وانطلق رسول الله ﷺ يدعو النّاس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة؛ فلمّا رأوه وَضَعَ رَجُلٌ سهماً في قوسه، فأراد أن يرميَه فقال: أنا رسولُ الله؛ ففرحوا بذلك حين وجدوا رسولَ الله ﷺ حيًّا، وفرح رسول الله ﷺ حين رأى أنّ في أصحابه مَنْ يمتنع به؛ فلمّا اجتمعوا وفيهم رسولُ الله ﷺ ذهب عنهم الحزن؛ فأقبلوا يذكرون الفتح، وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا، فقال الله عزّ وجلّ للذين قالوا: «إن محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم»: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(١).

فأقبل أبو سفيان حتّى أشرف عليهم ، فلمّا نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه ، وأهمّهم أبو سفيان ، فقال رسولُ الله ﷺ : ليس لهم أن يعلُونا ؛ اللّهمّ إنْ تقتَل هذه العصابة لا تُعْبَد ! ثم نَدَب أصحابه ، فرَمَوْهم بالحجارة حتى أنزلوهم ؛ فقال أبو سفيان يومئذ : اعلُ هُبَل ، حنظلة بحنظلة ، ويومٌ بيوم بدر . وقتلوا يومئذ حنظلة بن الراهب ، وكان جُنُباً فغسّلته الملائكة ؛ وكان حنظلة بن أبي سفيان قُتِل يوم بدر ؛ وقال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عزّى لكم ! فقال رسولُ الله ﷺ لعمر : قل : الله مولانا ولا مولى لكم . فقال أبو سفيان : أفيكم محمّد ! أما إنّها قد كانت فيكم مُثلة ؛ ما أمرت بها ولا نهيت عنها ؛ ولا سَرَّتْني ولا ساءتني ؛ فذكر الله عزّ وجلّ إشراف أبي سفيان عليهم ، فقال : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ ، والغمّ الأول ما فاتهم من الغنيمة والفتح ، والغمّ الثاني إشراف العدوّ عليهم ، ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الغنيمة ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾(٢) من القتل حين تذكرون . فشغلهم أبو سفيان .

قال أبو جعفر : وأما ابنُ إسحاق ، فإنه قال ـ فيما حدّثنا ابنُ حُميد قال : حدّثنا سلمة عنه ـ بينا رسولُ الله ﷺ في الشِّعب؛ ومعه أولئك النّفر من أصحابه إذ عَلَتْ عالية من قريش الجبل، فقال رسولُ الله ﷺ : اللّهمّ إنّه لا ينبغي لهم أن يعلُونا ؛ فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم عن الجبل ؛ ونهض رسولُ الله ﷺ إلى صَخْرة من الجبل ليعلوها . وقد كان بدّنَ رسول الله ﷺ ، وظاهَرَ بين دِرْعَيْن ، فلما ذهب لينهض لم يستطع ؛ فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض حتّى استوى عليها .

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٣ .

حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : قال محمد : قال : قال رسولُ الله ﷺ ، كما حدّثنا يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير ، عن الزُّبير ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يومئذ : أوجب طلحة حين صنع برسول الله ما صنع .

قال أبو جعفر : وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله ﷺ ، حتى انتهى بعضُهم إلى المنقى دون الأعوص ، وفرّ عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان (رجلان من الأنصار) ؛ حتى بلغوا الجَلْعَبَ (جَبلًا بناحية المدينة مما يلي الأعوص) ، فأقاموا به ثلاثاً ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ ؛ فزعموا أنّ رسول الله ﷺ ، قال لهم : لقد ذهبتم فيها عريضة .

قال أبو جعفر : وقد كان حنظلة بن أبي عامر الغسيل ، التقى هو وأبو سفيان بن حرب ، فلمّا استعلاه حنظلة رآه شدّاد بن الأسود ـ وكان يقال له : ابن شَعوب ـ قد علا أبا سفيان ، فضربه شدّاد فقتله ، فقال رسولُ الله ﷺ : إن صاحبكم ـ يعني حنظلة ـ لتغسلهُ الملائكة . فسلوا أهله : ما شأنه ؟ فسئِلَتْ صاحبته ، فقالت : خرج وهو جُنُب حين سمع الهائعة ؛ فقال رسولُ الله ﷺ : لذلك غسَّلته الملائكة ، فقال شدّاد بن الأسود في قتلة حنظلة :

لأَحْمِيَنَّ صاحبي ونفْسي ... بطَعْنةٍ مثل شُعاع الشَّمْسِ

وقال أبو سفيان بن حرب ؛ وهو يذكر صبرَه ذلك اليوم ، ومعاونة ابن شَعوب شدّاد بن الأسود إيّاه على حنظلة :

ولو شئتُ نجَّتْني كُميتٌ طِمرَّةٌ ... ولم أحْمل النّعْماءَ لابن شَعُوب
فما زال مُهْري مَزْجَرَ الكلْب مِنْهُمُ ... لَدَى غَدْوَةٍ حتى دَنَتْ لِغُرُوب
أقاتلُهمْ وأدَّعِي يالَ غالبٍ ... وأدْفعُهُمْ عَنّي برُكْنٍ صَليب
فَبَكّي ولا تَرْعَيْ مقالة عاذلٍ ... ولا تسْأمي من عَبْرَةٍ ونَحيبِ
أباكِ وإخواناً له قد تتابعوا ... وحُقَّ لهم من عَبْرَةٍ بنصيب
وسَلّىٰ الذي قد كان في النَّفس أنّني ... قَتلت من النَّجار كُلَّ نجيب
ومن هاشمٍ قرْماً نجيباً ومُصْعباً ... وكان لَدَى الهيْجاء غير هَيُوب
وَلَو أنّني لم أشْف منهم قَرُونتِي ... لكانت شجىً في القلب ذات نُدُوب
فآبُوا وَقَد أودَى الجلابيبُ منْهُمُ ... لهم خَدَبٌ من مُغْبطٍ وكئيب
أصابهُمُ من لم يكن لدِمَائهم ... كَفيًّا ولا في خُطَّةٍ بضريب

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

ذكرْتَ القُرُومَ الصِّيدَ من آل هاشمٍ ... ولسْتَ لزُورٍ قُلْتَهُ بمُصيب
أتعْجَبُ أنْ أقْصَدْتَ حَمْزَةَ منْهُمُ ... نجيباً وقدْ سَمَّيْتَهُ بنَجيب
أَلَمْ يَقْتُلُوا عَمْراً وعُتْبَةَ وابْنَهُ ... وَشَيْبَةَ وَالحَجَّاجَ وابْنَ حَبيبِ!
غداةَ دَعَا العاصي عَليًّا فراعَهُ ... بِضَرْبَةِ عَضْبٍ بلّه بخَضيب

وقال شدّاد بن الأسود ، يذكر يده عند أبي سفيان بن حرب فيما دفع عنه :

وَلَوْلَا دِفَاعِي يـا بنَ حَرْبٍ ومَشْهَدِي لألْفِيتَ يَـوْمَ النَّعْفِ غيْـرَ مجيبِ
ولَـوْلَا مَكرّي المُهْـرَ بالنَّعْفِ قَرْقَرَتْ ضِبَـاعُ عَلَيْـهِ أوْ ضِـرَاءُ كَـلِيبِ

وقال الحارث بن هشام يجيب أبا سفيان في قوله :

وما زال مُهْرِي مَزْجَرَ الكلبِ منهمُ

وظنّ أنه يعرّض به إذ فرّ يوم بدر :

وإنّـكَ لـوْ عَـايَنْتَ مـا كـان مِنْهُمُ لأبْتَ بقَلْبٍ مَـا بقيتَ نَخِيبِ
لَـدَى صَحْنِ بدْراً أو لقامَتْ نَـوائِحٌ عَلَيك، ولم تَحْفِـلْ مُصَـابَ حَبِيبِ
جَـزَيتَهُـمُ يَـومـاً بـبَـدْر كـمِثْلِهِ عَـلَىٰ سـابِـحٍ ذي مَيْعَـةٍ وَشَبِيبِ

قال أبو جعفر : وقد وقفت هند بنت عتبة ـ فيما حدّثنا ابن حميد ؛ قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني صالح بن كيسان ـ والنّسوة اللّاتي معها يمثّلْنَ بالقتْلَىٰ من أصحاب رسول الله ﷺ ، يجدَعْنَ الآذان والأنوف ؛ حتى اتّخذَتْ هند من آذان الرجال وآنُفِهم خَدَماً وقلائد ، وأعطت خَدَمها وقلائدها وقِرطَتها وَحْشِيًّا ، غلام جُبير بن مُطْعِم ، وبقرتْ عن كبد حمزة فلاكتْها فلم تستطع أن تُسيغها فلَفَظتها . ثم عَلتْ على صخرة مشرِفة ، فصرخت بأعلى صوتها بما قالت من الشعر حين ظفرُوا بما أصابوا من أصحاب رسولِ الله ﷺ .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني صالح بن كيسان ، أنّه حدّث أنّ عمر بن الخطاب قال لحسّان : يا بن الفُرَيْعَة لو سمعتَ ما تقول هند ورأيتَ أشَرَها ، قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمزة ! فقال له حسّان : والله إنّي لأنظر إلى الحربة تهوي وأنا على رأس فارع ـ يعني أُطُمَة ـ فقلت : والله إنّ هذه لسلاحٌ ما هي بسلاح العرب ؛ وكأنّها إنّما تهوِي إلى حمزة ؛ ولا أدري . أسمعْني بعض قولها أكفيكموها ؛ قال : فأنشده عُمَرُ بعض ما قالت ، فقال حسّان يهجو هنداً :

أشِـرَتْ لَكَـاعِ وكـان عَـادَتُـهـا لُـؤْمـاً إذا أشِـرَتْ مَـعَ الْـكُـفْـرِ
لَـعَـنَ الإلـهُ وزوْجَـهـا مَـعَـهـا هِـنْـدَ الهُـنُـود عَـظِـيمَـةَ البَـظْرِ
أخْـرَجْـتِ مُـرْقِـصَـةً إلَـىٰ أُحُـدٍ في القَـوْمِ مُـقْـتِـبَـةً عَـلَىٰ بَـكْـرِ
بَـكْـرٍ ثَـفَـالٍ لا حَـرَاكَ بِـهِ لا عَـنْ مُـعَـاتَـبَـةٍ ولا زَجْـرِ
وَعَـصَـاكِ إسْـتُـكِ تَـتَّـقِـينَ بـهـا دُقِّي العُـجَـايَـةَ هِـنْـدُ بـالـفِـهْـرِ
قَـرِحَـتْ عَجِيـزَتُـهَـا وَمَـشْـرَجُـهَـا من دَأْبِـهـا نَـصًّـا على الـقُـتْـرِ
ظَـلّـتْ تُـدَاوِيـهـا زَمِـيـلَتُـهَـا بـالـمـاءِ تَـنْـضَـحُـهُ وبـالـسِّـدْرِ
أخْـرَجْـتِ ثَـائِـرَةً مـبَـادِرَةً بـأبـيـكِ وابْـنِـكِ يـومَ ذي بـدْرِ
وبـعَـمِّـكِ الـمَـسْـتُـوهِ في رَدَعٍ وأخـيـكِ منعفـرَيْـنِ في الـجَـفْـرِ
ونَـسِـيـتِ فـاحِـشَـةً أتَـيْـتِ بـهـا يـا هِـنْـدُ، وَيْـحَـكِ سُبَّـةَ الـدَّهْـرِ!

فَـرَجَـعْـتِ صـاغِـرَةً بـلا تِـرَةٍ ... مِـنّـا ظَـفِـرْتِ بـهـا ولا نَـصْـرِ
زَعَـمَ الـوَلائِـدُ أنـهـا وَلَـدَتْ ... وَلَـداً صَـغِـيـراً كـان مـن عَـهْـرِ

قال أبو جعفر : ثم إن أبا سفيان بن حرب أشرف على القوم ـ فيما حدّثنا هارون بن إسحاق قال : حدّثنا مصعب بن المقدام ، قال : حدّثنا إسرائيل .

وحدّثنا ابن وكيع ، قال : حدّثني أبي ، عن إسرائيل ، قال : حدّثنا أبو إسحاق ، عن البَرَاء ، قال : ثمّ إن أبا سفيان أشرف علينا ، فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا تجيبوه ؛ مرتين ، ثمّ قال : أفي القوم ابن أبي قُحافة ؟ ثلاثاً ، فقال رسولُ الله ﷺ : لا تجيبوه ، ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لا تجيبوه ، ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : أمَّا هؤلاء فقد قُتِلوا ، لو كانوا في الأحياء لأجابوا ، فلم يملك عمرُ بنُ الخطّاب نفسَه أن قال : كذبتَ يا عدوّ الله ، قد أبقى الله لك ما يخزيك ! فقال : اعْلُ هُبَل ! اعلُ هُبَل ! فقال رسولُ الله ﷺ : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعْلَىٰ وأجَلُّ ! قال أبو سفيان : ألا لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم ! فقال رسولُ الله ﷺ : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ! قال أبو سفيان : يومٌ بيوم بدر ، والحرب سِجَال ؛ أمَّا إنكم ستجدون في القوم مُثَلاً لم آمُرْ بها ولم تسؤني .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال في حديثه : لمَّا أجاب عمرُ أبا سفيان قال له أبو سفيان : هلمَّ يا عمر ، فقال له رسولُ الله ﷺ : إيتِهِ فانظُرْ ما شأنه ؟ فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدُكَ اللهَ يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ فقال عمر : اللهمّ لا ؛ وإنه ليسمع كلامَك الآن ، فقال : أنت أصْدَق عندي من ابن قَميئَة وأبرّ ؛ لقول ابن قميئة لهم : إنّي قتلت محمداً . ثمّ نادى أبو سفيان ، فقال : إنَّه قد كان في قتلاكم مُثَلٌ والله ما رضيت ولا سخِطت ، ولا نهيت ولا أمرْت .

وقد كان الحُلَيْس بن زَبّان أخو بني الحارث بن عبد مَنَاة ؛ وهو يومئذ سيّد الأحابيش ، قد مرّ بأبي سفيان بن حرب ، وهو يضرب في شِدْق حمزة بزُجّ الرّمح ؛ وهو يقول : ذُقْ عُقَقُ ! فقال الحُلَيْس : يا بني كنانة ، هذا سيّد قريش يصنع بابن عمِّه كما ترون لحماً ! فقال : اكتمها ، فإنَّها كانت زَلَّة ؛ فلمَّا انصرف أبو سفيان ومَنْ معه نادى : إنَّ موعدَكم بدر للعام المقبل ، فقال رسولُ الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل نعمْ هي بيننا وبينك موعد .

ثم بعث رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السّلام ، فقال : اخرُجْ في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ! فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ؛ فإنَّهم يريدون مكّة ؛ وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ؛ فهم يريدون المدينةَ ؛ فوالَّذي نفسي بيده ؛ لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزَنَّهم . قال عليّ : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ؛ فلما اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل توجَّهوا إلى مكّة؛ وقد كان رسولُ الله ﷺ قال : أيّ ذلك كان فأخْفِه حتى تأتيَني . قال عليٌّ عليه السلام : فلما رأيتُهم قد توجّهوا إلى مكّة أقبلت أصيح ؛ ما أستطيع أن أكتم الذي أمرني به رسولُ الله ﷺ لما بي من الفَرَح ؛ إذ رأيتهم انصرفوا إلى مكَّة عن المدينة .

وفرغ الناس لقتلاهم ، فقال رسولُ الله ﷺ ـ كما حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال :

حدّثني محمد بن إسحاق ، عن محمَّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازنيّ أخي بني النَّجار ، أنّ رسول الله ﷺ ، قال : مَنْ رجلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ - وسعد أخو بني الحارث بن الخزرج - أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسولَ الله ما فعل ؛ فنظر فوجده جريحاً في القتلىٰ به رَمَق ، قال : فقلت له : إنّ رسولَ الله ﷺ أمرني أن أنظر له : أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : فأنَا في الأموات ؛ أبلغْ رسولَ الله عنّي السَّلام ، وقل له : إنّ سعدَ بن الربيع يقول لك : جَزاكَ الله خير ما جُزي نبيّ عن أمته ؛ وأبلغْ عنّي قومَك السَّلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عُذْر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيِّكم ﷺ وفيكم عينٌ تطرف . ثم لم أبرح حتّىٰ مات ؛ فجئت رسولَ الله ﷺ فأخبرتُهُ خبرَه . وخرج رسول الله ﷺ - فيما بلغني - يلتمس حمزة بن عبد المطّلب ، فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بَطْنُه عن كبده ، ومثل به ، فجُدِعَ أنفه وأذناه .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق ، قال : فحدّثني محمد بن جعفر بن الزبير ، أنّ رسولَ الله ﷺ حين رأى بحمزة ما رأى ، قال : لولا أن تحزن صفيَّة أو تكون سنَّة من بعدي لتركته حتى يكونَ في أجواف السباع وحواصل الطَّير ؛ ولئن أنا أظهَرَني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم ؛ فلمّا رأى المسلمون حزْنَ رسولِ الله ﷺ وغيظه على ما فُعِل بعمِّه ، قالوا : والله لئن ظهرْنا عليهم يوماً من الدهر لنمثّلَنّ بهم مُثْلَةً لم يمثّلها أحد من العرب بأحد قطّ ! .

حدّثنا ابنُ حميد، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق ، قال : أخبرني بُرَيدة بن سفيان بن فروة الأسلميّ ، عن محمد بن كعب القُرَظيّ . عن ابن عبّاس. قال ابن حميد ٠ قال سلَمة : وحدّثني محمد بن إسحاق ، قال : وحدّثني الحسن بن عُمارة ، عن الحكم بن عتيبة ، عن مِقسَم ، عن ابن عباس ، قال : إن الله عزّ وجلّ أنزل في ذلك من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِين ﴾(١) ، إلى آخر السورة ، فعفا رسولُ الله ﷺ وصبر ونهى عن المُثْلَة .

قال ابن إسحاق : وأقبلَتْ - فيما بلغني - صفيَّةُ بنتُ عبد المطَّلب لتنظر إلى حمزة - وكان أخاها لأبيها وأمها - فقال رسولُ الله ﷺ لابنها الزّبير بن العوّام : القَهَا فارجعها ، لا ترى ما بأخيها . فلقيها الزبير فقال لها : يا أمّهْ ؛ إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرك أن ترجعي ، فقالت : ولم ، وقد بلغني أنه مُثِل بأخي وذلك في الله قليل ! فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله . فلمّا جاء الزبير رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، قال : خَلّ سبيلها ، فأتَتْهُ فنظرتْ إليه وَصلّتْ عليه ؛ واسترجعَتْ واستغفرت له ؛ ثم أمرَ رسول الله ﷺ به فَدُفِن .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : فحدّثني محمَّد بن إسحاق ، قال : فزعم بعض آل عبد الله بن جحش - وكان لأمَيْمَةَ بنت عبد المطَّلب خاله حمزة ؛ وكان قد مُثِل به كما مُثِل بحمزة ؛ إلّا أنه لم يُبْقَر عن كبده - أنّ رسولَ الله ﷺ دَفنه مع حمزة في قبره ؛ ولم أسمع ذلك إلّا عن أهله .

---

(١) سورة النحل : ١٢٦ .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني عاصم بن قتادة ، عن محمود بن لَبيد ، قال : لمّا خرج رسول الله ﷺ إلى أحُد وقع حُسَيْل بن جابر ـ وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان ـ وثابت بن وقْش بن زَعوراء في الآطام مع النساء والصبيان ، فقال أحدُهما لصاحبه ؛ وهما شيخان كبيران : لا أبا لك ! ما تنتظر ؟ فوالله إنْ بقي لواحد منّا من عمره إلّا ظِمْءُ حِمَار ؛ إنّما نحن هامة اليوم أو غد ؛ أفلا نأخذ أسيافنا ، ثم نلحق برسول الله ﷺ ، لعلّ الله عزّ وجلّ يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ ! فأخذا أسيافهما ، ثم خرجا حتى دخلا في النّاس ، ولم يُعلَم بهما ؛ فأمّا ثابت بن وقْش فقتله المشركون ، وأما حُسَيْل بن جابر ، اليَمان ، فاختلف عليه أسياف المسلمين فقتلوه ؛ ولا يعرفونه . فقال حُذَيفة : أبي ! قالوا : والله انْ عرفناه . وصدقوا، قال حُذَيفة : يغفرالله لكم وهو أرحم الراحمين ! فأراد رسول الله ﷺ أن يَديَهُ فتصدّق حُذَيفة بِديَتِهِ على المسلمين ، فزادته عند رسول الله ﷺ خيراً .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : قال محمد بن إسحاق : حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة ، أنّ رجلاً منهم كان يُدْعى حاطب بن أميَّة بن رافع ، وكان له ابن يقال له يزيد بن حاطب ، أصابته جِراحة يوم أحُد : فأتِيَ به إلى دار قومه وهو يموت ؛ فاجتمع إليه أهلُ الدّار ؛ فجعل المسلمون يقولون من الرجال والنساء : أبْشِرْ يا بنَ حاطب بالجنَّة ، قال : وكان حاطب شيخاً قد عسا في الجاهليّة ، فَنَجَمَ يومئذ نفاقه ، فقال : بأيّ شيء تبشّرونه ، أبجنّة من حرمل ! غررتُم والله هذا الغلامَ من نفسه ، وفجعتموني به !

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : كان فينا رجلٌ أتيٌّ لا يُدْرَى من أين هو ، يقال له قُزْمَان ، فكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكِر له : إنَّه لَمِنْ أهل النار ؛ فلمّا كان يوم أحُد ، قاتل قتالاً شديداً ، فقَتَل هو وحده ثمانيةً من المشركين أو تسعة ؛ وكان شهماً شجاعاً ذا بأس ؛ فأثبتته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظَفَرَ . قال : فجعل رجالٌ من المسلمين يقولون : والله لقد أبليت اليوم يا قُزمان ؛ فأبشر ! قال : بم أبشر ! فوالله إن قاتلتُ إلّا على أحساب قومي ؛ ولولا ذلك ما قاتلت ؛ فلمّا اشتدّت عليه جراحته ، أخذ سهماً من كنانته فقطع رواهِشَه فنزفه الدم فمات ؛ فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : أشهد أنّي رسولُ الله حقًّا !

وكان ممّن قُتِل يوم أحُد مُخَيْريق اليهوديُّ ، وكان أحدَ بني ثعلبة بن الفِطْيَون ، لمّا كان ذلك اليوم قال : يا معشرَ يهود ؛ والله لقد علمتم أن نصر محمـد عليكم لَحَقٌّ . قالوا : إنَّ اليوم يوم السَّبت ، فقال : لا سبْتَ ، فأخذ سيفه وعدّته ، وقال : إن أصِبْتُ فمالي لمحمَّد يصنع فيه ما شاء . ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتِل ؛ فقال رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ : مُخَيْريق خيرُ يهود .

حدّثنا ابنُ حميد ،قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : وقد احتمل ناسٌ من المسلمين قَتْلاهم إلى المدينة . فدفنوهم بها ، ثم نَهَىٰ رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال : ادفنوهم حيث صُرِعُوا .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني أبي إسحاق بن يَسَار ، عن أشياخ من بني سلِمة ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال يومئذ حين أمرَ بدفن القتْلى : انظروا عمرو بن الجموح

وعبد الله بن عمرو بن حرام . فإنهما كانا متصافيَيْنِ في الدنيا ، فاجعلوهما في قبر واحد . قال : فلمّا احتفر معاوية القناة أُخْرِجا وهما ينثنيان كأنما دفنا بالأمس .

قال : ثم انصرف رسولُ الله ﷺ راجعاً إلى المدينة ، فلقيتْه حَمْنَةُ بنت جحش ـ كما ذكر لي ـ فنُعِيَ لها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجَعَتْ واستغفرتْ لـه ، ثم نعِيَ لهاْ خـالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجَعَت واستغفرت له ، ثم نُعِيَ لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحب وولولت ، فقال رسولُ الله ﷺ : إنّ زَوْجَ المرأة منها لبمكان ؛ لما رأى من تثبُّتها عند أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها .

قال : ومرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظَفَر ، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ؛ فَذَرفتْ عينَا رسولِ الله ﷺ فبكى ثم قال : لكنّ حمزة لا بواكيَ له ! فلمّا رجع سعد بن معاذ وأسَيْد بن حُضيْر إلى دار بني عبد الأشهل أمَرَ نساءهم أن يتحزَّمْنَ ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله ﷺ .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني عبد الواحد بن أبي عَوْن ، عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص ؛ قال : مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار ؛ وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسولِ الله ﷺ بأُحُد ؛ فلما نعُوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أمّ فلان ؛ هو بحمد الله كما تحبِّين ؛ قالت : أرنيه حتى أنظرَ إليه ، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كلُّ مصيبة بعدك جَلَلٌ ! .

قال أبو جعفر : فلمَّا انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفَه ابنته فاطمة ، فقال : اغسِلي عن هذه دمَهُ يا بنيَّة ؛ وناولها عليٌّ عليه السلام سيفَه ، وقال : وهذا فاغسلي عنه ؛ فوالله لقد صدقني اليوم . فقال رسولُ الله ﷺ : لئن كنتَ صدقتَ القتال لقد صـدق معك سهـل بن حُنَيْف ، وأبو دُجَـانة سمـاك بن خَرَشَةَ . وزعموا أن عليّ بن أبي طالب حين أعطى فاطمة عليهما السلام سيفَه قال :

أفـاطِمَ هَـاكِ السَّيْفَ غَيْـرَ ذَمِيمِ ... فَلَسْتُ بِـرِعْـدِيـدٍ ولا بِـمُـلِيـمِ
لَعَمْـرِي لقد قَـاتَلْتُ في حُبِّ أَحْمَـدٍ ... وطـاعـةِ ربٍّ بـالـعِبـادِ رحـيـمِ
وسَيفِـي بكَـفِّي كـالـشِّهـابِ أُهُـزُّهُ ... أُجُـذّ بـه مـن عـاتِـقٍ وصَـمِـيـمِ
فمـا زِلْتُ حتى فَضَّ رَبِّي جُمُـوعَهُمْ ... وحـتـى شَـفَيْـنَـا نَفْسَ كـلِّ حـليـمِ

وقال أبو دُجانة حين أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ فقاتل به قتالاً شديداً ـ وكان يقول : رأيت إنساناً يَخمِش الناس خمشاً شديداً فصَمدْت له ، فلما حملتُ عليه بالسيف وَلْوَلَتْ ؛ فإذا امرأة ؛ فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة ـ وقال أبو دُجَانة :

أنـا الَّـذِي عَـاهَـدَنـي خَـلِيـلِي ... ونحْنُ بـالسَّفْـحِ لَـدَى النَّخِيـلِ
ألاّ أقُـومَ الـدَّهْـرَ فـي الـكَـيُّـولِ ... أضْـرِبْ بِسَيْـفِ ٱللّهِ وٱلـرَّسُـولِ

وكان رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة يوم السبت ؛ وذلك يوم الوقعة بأحُد ؛ فحدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني حسين بن عبد الله ، عن عِكْرمة ، قال : كان

يوم أُحُد يومَ السَّبت ؛ للنّصف من شوال ؛ فلمّا كان الغدُ من يوم أُحُد ـ وذلك يوم الأحد لستّ عشرة ليلة خلتْ من شوّال ـ أذّنَ مُؤذّنُ رسولِ الله ﷺ في الناس بطلب العدوّ ؛ وأذّن مؤذنه : ألاّ يخرجنّ معنا أحد إلاّ مَنْ حضر يومنا بالأمس . فكلّمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرَام ، فقال : يا رسول الله ، إنّ أبي كان خلّفني على أخواتٍ لي سبعٍ ، وقال لي : يا بُنيّ ؛ إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رُجلَ فيهنّ ، ولستَ بالذي أُوثِرك بالجهاد مع رسولِ الله ﷺ على نفسي ؛ فتخلّف على أخَواتـك . فتخلّفت عليهنّ . فأذن له رسولُ الله ﷺ ، فخرج معه ؛ وإنّما خرج رسولُ الله ﷺ مُرْهِباً للعدوّ ؛ وليبلّغهم أنه خرج في طلبهم ؛ ليظنّوا به قوّة ، وأنّ الذي أصابهم لم يوهِنهم عن عدوّهم .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : فحدّثني عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان ، أنّ رجلاً من أصحاب رسولِ الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان شهد أُحُداً ، قال : شهدتُ مع رسولِ الله ﷺ أنا وأخ لي ، فرجعنا جَريحَيْن ؛ فلمّا أذْن مؤذّنُ رسولِ الله ﷺ بالخروج في طلب العدوّ ، قلت لأخي وقال لي : أتفُوتنا غزوة مع رسولِ الله ﷺ ! والله ما لنا من دابّة نركبها ، وما منّا إلاّ جريح ثقيل ؛ فخرجنا مع رسول الله ﷺ ـ وكنت أيسر جُرْحاً منه ـ فكنت إذا غُلِبَ حملتُهُ عُقْبة ومشى عُقْبة ؛ حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون ، فخرج رسولُ الله ﷺ ، حتى انتهى إلى حَمْراء الأسد ؛ وهي من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام بها ثلاثاً : الاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة .

وقد مرّ به ـ فيما حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمَة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ـ معبَدٌ الخُزاعيّ ، وكانت خُزاعة مسلمهم ومشركهم عَيْبَة رسول الله ﷺ بتهامة ، صفْقتُهم معه ، لا يخفون عليه شيئاً كان بها ـ ومعبد يومئذ مشرك ـ فقال : يا محمّد ؛ أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ؛ ولوَدِدْنا أن الله كان أعفاك فيهم ! ثم خرج من عند رسول الله ﷺ بحمراء الأسد ؛ حتى لقيَ أبا سفيان بن حَرْب ومن معه بالرّوحاء ، وقد أجمعوا الرّجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حَدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ؛ ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ؛ لَنكرّن على بقيّتهم ؛ فلنَفْرُغَنّ منهم . فلمّا رأى أبو سفيان مَعْبَداً ، قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمّد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أر مثله قطّ ؛ يتحرّقون عليكم تحرّقاً ؛ قد اجتمع معه مَنْ كان تخلّف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحَنِق عليكم شيء لم أر مثلَه قطّ . قال : ويلك ما تقول ! قال : والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصيَ الخيل . قال : فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل بقيّتهم ، قال : فإنّي أنهاك عن ذلك ، فوالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر ، قال : وماذا قلت ؟ قال : قلت :

كـادَت تُهـدُّمنَ الأصْـوَاتِ رَاحِلَتِي ... إذ سَـالَتِ الأَرْضُ بالجُـرْدِ الأبـابِيـلِ
تَـرِدِي بـأسْـدٍ كِـرَام لا تَـنـابِـلَةٍ ... عنـد اللّقـاءِ ولا خُـرْقٍ مَعَـازِيـلِ
فـظَلتُ عَـدْواً أظنُّ الأرْضَ مَـائلةً ... لمّـا سَمَـوْا بـرَئيسٍ غيرِ مخـذولِ
فقلتُ وَيْـلَ ابْنِ حَـرْبٍ من لِقَـائِكُمْ ... إذا تَغـطْمَـطَتِ البَـطْحَـاءُ بـالجِيـلِ !
إنّي نَـذِيـرٌ لأهـلِ البَسْـلِ صـاحِيَـةً ... لـكـلّ ذي إرْبَـةٍ منهم وَمَـعْقُـولِ

من جَيْشِ أَحْمَدَ لا وَخْشٍ قَنَابِلُه وليسَ يُوصَفُ ما أَنْذَرْتُ بالقِيلِ

قال : فثنى ذلك أبا سفيان وَمَنْ معه . ومَرّ به ركبٌ من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرَة ، قال : فهل أنتم مبلّغون عني محمَّداً رسالة أرسِلكم بها إليه ، وأحمِّل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعُكَاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم ؛ قال : فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسيرَ إليه وإلى أصحابه ؛ لنستأصل بقيَّتهم . فمرّ الركبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان ، فقال رسولُ الله ﷺ وأصحابه : حسبنا الله ونعم الوكيل !

قال أبو جعفر : ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد الثالثة ؛ فزعم بعضُ أهل الأخبار أن رسول الله ﷺ ظفر في وجهه إلى حمراء الأسد بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وأبي عَزّة الجُمَحِيّ ؛ وكان رسول الله ﷺ خلّف على المدينة حين خرج إلى حمراء الأسد ابنَ أمّ مكتوم .

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث من الهجرة ـ وُلِدَ الحَسَنُ بن عليّ بن أبي طالب في النصف من شهر رمضان .

وفيها عَلِقَتْ فاطمة بالحسيْن صلوات الله عليهما . وقيل : لم يكن بين ولادتها الحسن وحملها بالحسين إلَّا خمسون ليلة .

وفيها حملت ـ فيما قيل ـ جَميلة بنت عبد الله بن أبيّ بعبد الله بن حنظلة بن أبي عامر في شوّال .

ذكر الأحداث التي كانت في سنة أربع من الهجرة

ثم دخلت السنة الرابعة من الهجرة ، فكان فيها غزوة الرّجيع في صفر . وكان من أمرها ما حدّثني به ابن حُمَيد ، قال : حدّثنا سلمة . قال : حدّثني محمَّد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ؛ قال : قدِم على رسولِ الله ﷺ بعد أُحُد رهْط من عَضَل والقارة فقالوا له : يا رسولَ الله ؛ إن فينا إسلاماً وخيراً ؛ فابعث معنا نفراً من أصحابك يُفقِّهوننا في الدين ، ويقرءوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام . فبعث رسولُ الله ﷺ معهم نفراً ستَّة من أصحابه : مَرْثَد بن أبي مرثد الغَنَويّ حليف حمزة بن عبد المطّلب ، وخالد بن البكَيْر حليف بني عديّ بن كعب ، وعاصمِ بن ثابت بن أبي الأقلح أخا بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عديّ أخا بني جَحْجَبي بن كُلْفَة بن عمرو بن عوف ، وزيدَ بن الدّثِنة أخا بني بياضة بن عامر ، وعبدَ الله بن طارق حليفاً لبني ظَفَر من بَلِيّ .

وأمَّر رسولُ الله ﷺ على القوم مرثَد بن أبي مرثَد ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرّجِيع (ماء لهذيل بناحية من الحجاز من صدور الهدْأة) غدرُوا بهم ، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلاً ، فلم يُرَع القومُ وهم في رحالهم إلَّا بالرجال في أيديهم السيوف ، قد غشُوهم . فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم ، فقالوا لهم : إنَّا والله ما نريد قتلَكم ؛ ولكنَّا نريد أن نصيب بِكم شيئاً من أهل مكّة، ولكم عهد الله وميثاقه ألَّا نقتلَكم . فأمَّا مرثَد وخالد بن البُكَيْر وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقْداً أبداً ؛ فقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً .

وأمَّا زيد بن الدّثِنة وخُبَيْب بن عَدِيّ وعبد الله بن طارق فلانُوا ورقُّوا ورغِبوا في الحياة ، فأعطوْا بأيديهم ، فأسروهم ، ثمّ خرجوا بهم إلى مكّة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظَّهْران ، انتزع عبدُ الله بن طارق يدَه من القِران ، ثمّ أخذ سيفه واستأخر عنه القوم ، فرموْه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبْرُه بالظَّهْران .

وأما خُبَيْبُ بن عديّ وزيد بن الدّثِنة ، فقدِمُوا بهما مكّة ، فباعوهما فابتاع خبيباً حُجَيْرُ بن أبي إهاب التميميّ حليف بني نوفل لعُقْبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ـ وكان حُجير أخا الحارث بن عامر لأمّه ـ ليقتله بأبيه ، وأمَّا زيد بن الدّثِنَة ، فابتاعه صَفْوان بن أميّة ليقتله بأبيه أميَّة بن خلف ، وقد كانت هُذيل حين قُتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلافة بنت سعد بن شُهَيْد ، وكانت قد نذرتْ حين أصاب ابنها يوم أُحُد : لئن قدرَتْ على رأس عاصم لتشرَبنّ في قِحْفه الخمر ، فمنعته الدَّبْر ، فلما حالت بينهم وبينه ، قالوا : دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فتأخذه فبعث الله الوادي . فاحتمل عاصماً فذهب به ؛ وكان عاصم قد

أعطى الله عهداً ألّا يمسه مشركٌ أبداً ولا يمسَّ مشركاً أبداً، تنجُّساً منه . فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه، أن الدّبْرَ منعته : عجباً، لحفظ الله العبد المؤمن! كان عاصم نذر ألّا يمسَّه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته .

قال أبو جعفر : وأما غيرُ ابنِ إسحاق ، فإنَّه قصّ من خبر هذه السريَّة غير الذي قصّه ، والذي قصّه غيره من ذلك ما حدّثنا أبو كُـرَيب ، قال : حـدّثنا جعفـر بن عون العمـريّ ، قال : حـدّثنا إبـراهيم بن إسماعيل ، عن عمرو ـ أو عمر ـ بن أَسِيد ، عن أبي هُريرة ، أنّ رسولَ الله ﷺ بعث عشرة رهط ، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت ، فخرجوا حتى إذا كانوا بالهَدْأة ذُكِرُوا لحيّ من هُذَيل ، يقال لهم : بنو لِحْيان ، فبعثوا إليهم مائة رجل رامياً ؛ فوجدوا مأكَلَهم حيث أكلوا التَّمر ، فقالوا : هذه نَوَى يثرب ، ثمّ اتَّبعوا آثارهم ؛ حتى إذا أحسّ بهم عاصمٌ وأصحابه التجئوا إلى جبل ، فأحاط بهم الآخرون ، فاستنزلوهم ، وأعطَوْهم العهدَ ؛ فقال عاصم : والله لا أنزل على عهد كافرٍ ؛ اللّهمّ أخبر نبيَّـك عنّا . ونـزل إليهم ابن الدّثِنَـة البَياضِيّ ، وخُبيب ، ورجل آخر ، فأطلق القوم أوتار قسيِّهم ، ثمّ أوْثقوهم ، فجرحوا رجلاً من الثلاثة ، فقال : هذا والله أوّل الغَدْر ؛ والله لا أتَّبعكم . فضربوه فقتلوه ، وانطلقوا بخُبيب وابن الدَّثِنَة إلى مكّة ، فدفعوا خُبيباً إلى بني الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خُبَيب هو الذي قَتَل الحارث بأُحُد ؛ فبينما خُبَيب عند بنات الحارث ؛ إذ استعار من إحدى بنات الحارث موسىً يستحدّ بها للقتل ، فما راع المرأة ـ ولها صبيّ يدْرُجُ ـ إلّا بخُبيب قد أجلَس الصبيَّ على فَخِذِهِ ، والموسىَ في يده ، فصاحت المرأة ، فقال خُبَيب : أتخْشَيْنَ أني أقتُله ! إنّ الغدر ليس من شأننا . قال : فقالت المرأة بعد : ما رأيتُ أسيراً قطّ خيراً من خُبيب ؛ لقد رأيته وما بمكّة من ثمرة ؛ وإن في يده لقطْفاً من عنب يأكله ؛ إن كانَ إلّا رِزْقاً رزقه الله خبَيباً .

وبعث حيّ من قريش إلى عاصم ليُؤْتَوْا من لحمه بشيء ، وقد كان لعاصم فيهم آثار بأحُد ؛ فبعث الله عليه دَبْراً ، فحمَتْ لَحمه ، فلم يستطيعوا أن يأخذوا من لحمه شيئاً ، فلمّا خرجوا بخُبَيب من الحرم ليقتلُوه ، قال : ذَرُوني أصَلّ ركعتيْنْ ، فتركوه فصلَّى سجدتين ، فجرت سُنَّة لمن قُتل صبْراً أن يصلِّيَ ركعتين . ثم قال خُبَيب : لولا أن يقولوا جَزِعَ لزدت ، وما أبالي :

عَلَىٰ أيِّ شِقٍّ كان لله مَصْرَعي

ثم قال :

وذلِـك فـي ذاتِ الإلـه وإن يَـشَـأْ ... يُـبَـارِكْ على أوصـالِ شِلْو مُـمَـزَّعِ

اللهم أحْصِهم عدداً ، وخذهم بَدَداً .

ثم خرج به أبو سِرْوَعة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ؛ فضربه فقتله .

حدّثنا أبو كُريب ، قال : حدّثنا جعفر بن عون ، عن إبراهيم بن إسماعيل ، قال : وأخبرَني جعفر بن عمرو بن أميّة ، عن أبيه ، عن جدّه ، أنّ رسولَ الله ﷺ بعثه وحدَه عَيْناً إلى قريش ، قال : فجئت إلى خشبة خُبيب وأنا أتخوَّف العيون ، فرَقِيتُ فيها ، فَحللْت خُبَيباً ، فوقع إلى الأرض ، فانتبذتُ غير بعيد ، ثم التفتُّ فلم أرَ لخُبيب رِمّة ؛ فكأنما الأرض ابتلعته ؛ فلم تذكر لخُبيب رِمَّة حتى الساعة .

قال أبو جعفر : وأما زيد بن الدَّثِنّة ؛ فإنّ صفوان بن أميَّة بعث به ـ فيما حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا

سلَمة ، عن ابن إسحاق ـ مع مولى له يقال له نِسْطاس إلى التَّنْعيم ، وأخرجه من الحرم ليقتُلَه ، واجتمع إليه رَهطٌ من قريش ؛ فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قُدّم ليُقتل : أنشدُك الله يا زيد ، أتحبّ أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه ، وأنّك في أهلك ! قال : والله ما أحبّ أنّ محمّداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تُؤذيه وأنا جالس في أهلي . قال : يقول أبو سفيان : ما رأيتُ في النّاس أحداً يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمَّد محمَّداً . ثم قتله نِسطاس .

ذكر الخبر عن عمرو بن أميَّة الضَّمريّ إذ وجهه رسول الله ﷺ لقتل أبي سفيان بن حرب

ولمَّا قُتِل من وجَّهَه النبيّ ﷺ إلى عضَل والقارَة من أهل الرّجيع ، وبلغ خبرُهم رسولَ الله ﷺ بعث عمرو بن أميّة الضَّمْريّ إلى مكَّة مع رجل من الأنصار ، وأمرهما بقتل أبي سفيان بن حرب ؛ فحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة بن الفضل ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن جعفر بن الفضل بن الحسن بن عمرو بن أميّة الضَّمْريّ ، عن أبيه ، عن جدّه ـ يعني عمرو بن أميّة ـ قال : قال عمرو بن أميَّة : بعثني رسولُ الله ﷺ بعد قتل خُبيب وأصحابه ، وبعث معي رجلاً من الأنصار ، فقال : ائتيا أبا سفيان بن حرْب فاقتلاه ، قال : فخرجتُ أنا وصاحبي ومعي بعير لي ، وليس مع صاحبي بعير ، وبرجله علَّة . فكنت أحمله على بعيري ؛ حتى جئنا بطن يأجَج ؛ فعقلْنا بعيرنا في فِناءِ شِعْب ، فأسندنا فيه ، فقلت لصاحبي : انطلق بنا إلى دار أبي سفيان ؛ فإني محاول قتلَه . فانظر ؛ فإن كانت مجاولة أو خشيت شيئاً فالحقْ ببعيرك فاركبه ، والحقْ بالمدينة فأتِ رسولَ الله ﷺ فأخبره الخبر ، وخلّ عنّي ؛ فإني رجل عالم بالبلد ، جريء عليه ، نجيب الساق . فلمّا دخلنا مكّة ومعي مثل خافية النَّسر ـ يعني خنجرة ـ قد أعددته ؛ إن عانقني إنسان قتلته به ، فقال لي صاحبي : هل لك أن نبدَأ فنطوفَ بالبيت أسبوعاً ، ونصلّي ركعتين ؟ فقلت : أنا أعلم بأهلِ مكّة منك ؛ إنهم إذا أظلموا رشُّوا أفنيتَهم ، ثم جلسوا بها ، وأنا أعرَف بها من الفَرَس الأبلق .

قال : فلم يزلْ بي حتّىٰ أتينا البيت ، فطفنا به أسبوعاً ، وصلَّينا ركعتين ، ثم خرجنا فمررنا بمجلس من مجالسهم ، فعرفني رجل منهم ، فصرخ بأعلَى صوته : هذا عمرو بن أميَّة ! قال : فتبادرتْنا أهلُ مكّة وقالوا : تالله ما جاء بعمرو خير ! والَّذي يُحلَف به ما جاءها قطّ إلّا لشرّ ـ وكان عمرو رجلاً فاتكاً متشيطناً في الجاهلية ـ قال : فقاموا في طلبي وطلب صاحبي ، فقلت له : النَّجاء ! هذا والله الّذي كنت أحذر ؛ أمّا الرجل فليس إليه سبيل ، فانجُ بنفسك ، فخرجنا نشتدّ حتى أصعدنا في الجبل ، فدخلنا في غار ، فبتْنا فيه ليلَتنا ، وأعجزناهم ، فرجعوا وقد استترتُ دونهم بأحجار حين دخلت الغار ، وقلت لصاحبي : أمهِلْني حتى يسْكُن الطلب عنّا ؛ فإنهم والله ليطلبُنَّا ليلتهم هذه ويومهم هذا حتى يمسُوا . قال : فوالله إني لفيه إذْ أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيميّ ، يتخيَّلُ بفرس له ، فلم يزل يدنُو ويتخيّلُ بفرسه حتى قام علينا بباب الغار . قال : فقلت لصاحبي : هذا والله ابنُ مالك ؛ والله لئن رآنا ليُعلِمَنّ بنا أهل مكّة . قال : فخرجت إليه فوجأته بالخِنْجر تحت الثَّدي ، فصاح صيحة أسمع أهل مكة ، فأقبلوا إليه ، ورجعت إلى مكاني، فدخلت فيه ، وقلت لصاحبي : مكانك ! قال : واتّبع أهلُ مكة الصوتَ يشتدّون ، فوجدوه وبه رَمق ، فقالوا : ويلَكَ مَنْ

ضربك ! قال عمرو بن أميَّة : ثم مات وما أدركوا ما يستطيع أن يخبرهم بمكاننا ، فقالوا : والله لقد علمنا أنَّه لم يأت لخير ، وشغلهم صاحبهم عن طلبنا ، فاحتملوه ؛ ومكثنا في الغار يومينْ حتى سكن عنَّا الطلب . ثم خرجنا إلى التَّنعيم ؛ فإذا خشبةُ خُبيب ، فقال لي صاحبي : هل لك في خُبَيب تُنزله عن خشبته ؟ فقلت : أين هو ؟ قال : هو ذاك حيث ترى . فقلت : نعم ، فأمهلْني وتنحَّ عنِّي . قال : وحوله حرس يحرُسونه . قال عمرو بن أميَّة : فقلت للأنصاريّ : إن خشيت شيئاً فخذ الطريق إلى جَمَلك فاركبْه والحقْ برسولِ الله ﷺ ، فأخبِرْه الخبر ، فاشتددت إلى خشبته فاحتللتُه واحتملتُه على ظهري ؛ فوالله ما مشيتُ إلَّا نحو أربعين ذراعاً حتى نذِروا بي ، فطرحته ؛ فما أنسى وجْبَتَه حين سقط ؛ فاشتدُّوا في أثري ، فأخذت طريق الصفراء فأعْيَوْا ، فرجعوا ، وانطلق صاحبي إلى بعيره فركبه ؛ ثم أتَى النبيّ ﷺ فأخبره أمرَنا ، وأقبلت أمشي ، حتى إذا أشرفْتُ على الغليل ، غليل ضَجْنان ، دخلت غاراً فيه ، ومعي قوسي وأسهمي ، فبينا أنا فيه إذْ دخل عليَّ رجل من بني الدِّيل بن بكر ، أعورُ طويل يسوق غنماً له ، فقال : مَنْ الرجل ؟ فقلت : رجل من بني بكر ، قال : وأنا من بني بكر ، ثم أحد بني الدّيل . ثم اضطجع معي فيه ، فرفع عقيرته يتغنّى ويقول :

ولَسْتُ بمسْلِمٍ ما دمتُ حَيًّا ... ولستُ أدِينُ دِينَ الْمُسْلِمِينَا

فقلت : سوف تعلم ! فلم يلبث الأعرابيّ أن نام وغطّ ، فقمت إليه فقتلته أسوأ قِتْلةٍ قَتَلَها أحدٌ أحداً ؛ قمت إليه فجعلت سِيَةَ قوسي في عينه الصحيحة ، ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه .

قال : ثم أخْرُج مثل السَّبُع ؛ وأخذت المحجَّة كأني نسر ، وكان النَّحاء حتى أخرج على بلد قد وصفه ، ثم على ركوبة ، ثم على النّقيع ؛ فإذا رجلان من أهل مكة بعثَتْهما قريش يتحسَّسان من أمرِ رسول الله ﷺ ، فعرفتهما فقلت : استأسِرا ، فقالا : أنحن نستأسر لك ! فأرمي أحدَهما بسهم فأقتله ، ثم قلت للآخر : استأسِر ، فاستأسَرَ ، فأوثقته ، فقدمتُ به على رسول الله ﷺ .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن ابن إسحاق ، عن سليمان بن وردان ، عن أبيه ، عن عمرو بن أميَّة ، قال : لما قدمتُ المدينة، مررتُ بمشيَخةٍ من الأنصار ، فقالوا : هذا والله عمرو بن أميَّة ، فسمع الصبيان قولهم ، فاشتدّوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه ، وقد شددت إبهام أسيري بوَتر قوسي ، فنظر النبيّ ﷺ إليه فضحك حتى بَدَت نواجذه ، ثم سألني فأخبرته الخبر ، فقال لي خيراً ودعا لي بخير .

وفي هذه السنة تزوّج رسولُ الله ﷺ زينب بنت خزيمة أمّ المساكين من بني هلال في شهر رمضان ، ودخل بها فيه ، وكان أصدَقَها اثنتي عشرة أوقية ونَشًّا ؛ وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث ، فطلقها .

ذكر خبر بئر معونة

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة ـ أعني سنة أربع من الهجرة ـ كان من أمر السريَّة التي وجَّهها رسولُ الله ﷺ ، فقُتلت ببئر مَعُونة . وكان سبب توجيه النبيّ ﷺ إيَّاهم لِمَا وجَّههم له ، ما حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : وحدّثني محمد بن إسحاق ، قال : فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقيّة شوّال وذا القَعْدة وذا الحِجَّة والمحرَّم ، ووليَ تلك الحجَّة المشركون .

ثم بعث أصحاب بئر معونة في صفَر على رأس أربعة أشهر من أُحُد ، وكان من حديثهم ما حدّثني أبي :

إسحاق بن يَسار ، عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وغيرهما من أهل العلم ، قالوا : قدم أبو بَرَاء عامر بن مالك بن جعفر ملاَعِبُ الأسنَّة ـ وكان سيِّد بني عامر بن صَعْصَعة ـ على رسول الله ﷺ المدينة ، وأهدى له هديّة فأبى رسولُ الله ﷺ أن يقبَلها ، وقال : يا أبا بَراء ، لا أقبل هديّة مشرك ، فأَسْلِمْ إن أردتَ أن أقبل هديّتك . ثم عرض عليه الإسلام ، وأخبره بما له فيه ، وما وعد الله المؤمنين من الثَّواب ، وقرأ عليه القرآن فلم يسلِم ولم يبعُد ، وقال : يا محمَّد ، إنَّ أمرك هذا الذي تدعو إليه حَسَنٌ جميل ، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نَجْد فدعَوْهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك . فقال رسولُ الله ﷺ : إني أخشى عليهم أهل نجْد ! فقال أبو بَراء : أنا لهم جارٌ ، فابعثهم فليدعُوا النَّاس إلى أمرك . فبعث رسولُ الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة المُعْنِقَ ليموت في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين ؛ منهم الحارث بن الصِّمَّة ، وحرام بن مِلْحان أخو بني عديّ بن النّجار ، وعُروة بن أسماء بن الصَّلْت السُّلَميّ ، ونافع بن بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ ، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر ؛ في رجال مُسَمَّيْنَ من خيار المسلمين .

فحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن حُميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، قال : بعث رسول الله ﷺ المنذرَ بن عمرو في سبعين راكباً ، فساروا حتى نزلوا بئر مَعونة ـ وهي أرض بين أرض بني عامر وحَرّة بني سُليم ، كِلَا البلدين منها قريب ، وهي إلى حرّة بني سليم أقرب ـ فلمّا نزلوها بعثوا حرام بن مِلْحَان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطُّفَيْل ؛ فلمّا أتاه لم ينظر في كتابه ، حتى عدَا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فأبوْا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نُخْفِرَ أبا بَراء ؛ قد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُليم : عُصَيَّة ، ورِعْلاً ، وذَكْوَان ؛ فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غَشُوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلمّا رأوْهم أخذوا السيوف ، ثم قاتلوهم حتى قُتلوا عن آخرهم ، إلّا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النَّجار ، فإنهم تركوه وبه رمَقٌ ، فارتُثَّ من بين القتلى ، فعاش حتى قُتِل يوم الخندق .

وكان في سَرْحِ القوم عمرو بن أميّة الضمريّ ، ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف ، فلم يُنْبِئهما بمُصاب أصحابهما إلّا الطَّير تحوم على العسكر ، فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً ، فأقبلا لينظرا إليه ، فإذا القوم في دمائهم ، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة . فقال الأنصاريّ لعمرو بن أميَّة : ماذا ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فقال الأنصاريّ : لكنِّي ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتِل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنتُ لتخبرني عنه الرجال . ثمّ قاتل القوم حتى قُتِل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنّه من مُضَر ، أطلقه عامر بن الطُّفَيل ، وجَزَّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنَّها كانت على أمّه . فخرج عمرو بن أميّة حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة ، أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظلّ هو فيه ؛ وكان مع العامريَّيْن عقدٌ من رسول الله ﷺ وجوارٌ لم يعلم به عمرو بن أميّة ، وقد سألهما حين نزلا : ممَّن أنتما ؟ فقالا : من بني عامر ، فأمهلهما حتىٰ إذا ناما عَدَا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنّه قد أصاب بهما ثؤرَة من بني عامر ، بما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ . فلمّا قدم عمرو بن أميَّة علىٰ رسول الله ﷺ أخبره الخبر ، فقال رسولُ الله ﷺ : لقد قتلتَ قتيلين لأدِيَنّهما . ثم قال رسول الله ﷺ : هذا عمل أبي بَراء ؛ قد كنت لهذا كارهاً متخوّفاً فبلغ ذلك أبا بَراء فشقّ عليه إخْفَارُ عامر إيَّاه ، وما أصاب رسولَ الله ﷺ بسببه وجواره ، وكان فيمنْ

أصيب عامر بن فُهَيْرة .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمَّد بن إسحاق ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه ، أنّ عامر بن الطُّفَيل ، كان يقول : إنَّ الرجل منهم لما قتل رأيته رُفع بين السماءِ والأرض حتى رأيت السماءَ من دونه . قالوا : هو عامر بن فهيرة .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن أحد بني جعفر ، رجل من بني جبّار بن سُلْمَىٰ بن مالك بن جعفر ، قال : كان جبّار فيمن حَضَرها يومئذ مع عامر ، ثم أسلم بعد ذلك . قال : فكان يقول : ممَّا دعاني إلى الإسلام أنّي طعنت رجلاً منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سِنان الرّمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول حين طعنته : فُزْتُ والله ! قال : فقلت في نفسي : ما فاز ! أليس قد قتلتُ الرجل ! حتى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : الشهادة ، قال : فقلت : فاز لَعَمْرُ الله ! فقال حسَّان بن ثابت يُحَرّضُ بني أبي البَراءِ على عامر بن الطُّفَيل :

بَنِي أمّ الـبَـنِـينَ أَلَـمْ يَـرُعْـكُـمْ ... وأَنْـتُـمْ مـن ذَوَائِـبِ أَهْـلِ نَـجْـدِ
تَـهَـكُّـمُ عـامِـرٍ بـأبـي بَـرَاء ... لِيُـخْـفِـرَهُ ، ومـا خَـطَأٌ كَـعَـمْـدِ
ألا أبْـلِغْ رَبيـعَـةَ ذا الـمَـسَـاعِي ... فمـا أحْـدَثْتَ في الحـدَثـانِ بَعْـدِي
أبـوك أَبـو الْـحُـرُوبِ أبـو بَـرَاءٍ ... وخـالُـك مـاجِـدٌ حَكَمُ بـن سَعْـدِ

وقال كعب بن مالك في ذلك أيضاً :

لـقـد طـارَتْ شَعَـاعـاً كـلَّ وَجْـهٍ ... خِـفَـارَةُ مـا أجـارَ أَبُـو بَـرَاءِ
فـمـثْـلُ مُـسَـهَّـبٍ وبـنِـي أبـيـهِ ... بِـجَـنْـبِ الـردَةِ مِنْ كَـنَـفَـيْ سَـوَاءِ
بَـنِـي أُمِّ الـبَـنِـيـن أَمَـا سَـمِـعْـتُـمْ ... دُعَـاءَ الْـمُـسْـتَغِـيثِ مَـعَ الـمَـسَـاءِ!
وتَـنْـويـهَ الـصَّـريـخِ بَـلَىٰ ولٰـكِـنْ ... عَـرَفْـتُـمْ أنَّـه صَـدْقُ الـلِّـقَـاءِ
فمـا صَفِـرَتْ عِـيَـابُ بَنِي كِـلَاب ... ولا الـقُـرَطـاءِ مـن ذَمِّ الْـوَفَـاءِ
أعـامِـرَ عَـامِـرَ الـسَّـوْءاتِ قِـدْمـاً ... فـلا بـالـعَـقْـلِ فُـزْتُ ولا الـسَّـنَـاء
أأخـفَـرْتَ الـنَّـبـيَّ وكُـنْـتَ قِـدْمـاً ... إلـى الـسَّـوْءات تَـجْـري بـالعَـرَاء!
فَـلَسْـتَ كـجـارِ جَـار أبـي دُوَادٍ ... ولا الأسَـدِيّ جـارِ أَبِـي الـعَـلَاءِ
ولـكـن عـاركـم داءٌ قـديـمٌ ... وداءُ الـغـدرِ فـاعـلَمْ شَـرُّ داءِ

فلمَّا بلغ ربيعةَ بن عامر أبي البَرَاء قولُ حسَّان وقولُ كعب، حملَ على عامر بن الطُّفَيل فطعنه ، فشطب الرُّمْحُ عن مقتله ، فخرَّ عن فرسه . فقال : هذا عمل أبي بَرَاء ! إن متّ فدمي لعَمِّي ولا يُتْبَعَنَّ به ؛ وإن أعش فسأرَىٰ رأيي فيما أُتيَ إلي .

حدّثني محمد بن مرزوق ، قال : حدّثنا عمرو بن يونس ، عن عكرمة ، قال : حدّثنا إسحاق بن أبي طلحة ، قال : حدّثني أنس بن مالك في أصحاب النبيّ ﷺ الذين أرسلهم رسولُ الله ﷺ إلى أهل بئر معونة ؛ قال : لا أدري ، أربعين أو سبعين ! وعلى ذلك الماءِ عامرُ بن الطُّفَيل الجعفريّ ، فخرج أولئك النَّفر من

أصحابِ النبيّ ﷺ الذين بُعثوا ؛ حتى أتوْا غاراً مشرِفاً على الماءِ قعدوا فيه . ثم قال بعضهم لبعض : أيُّكم يبلِّغ رسالة رسولِ الله ﷺ أهل هذا الماءِ ؟ فقال ـ أراه ابن مِلْحان الأنصاري ـ : أنا أبلِّغ رسالَة رسولِ الله ﷺ ، فخرج حتى أتى حِوَاءً منهم ، فاحتبى أمام البيوت ، ثم قال : يا أهلَ بئر معونة ، إنِّي رسولُ رسولِ الله إليكم ، إنِّي أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، فآمِنوا بالله ورسوله . فخرج إليه من كِسْرِ البيت برمح فضرب به في جَنْبه حتى خرج من الشِّقِّ الآخر ، فقال : الله أكبر ، فُزْتُ وربِّ الكعبة ! فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار ، فقتلهم أجمعين عامِرُ بن الطُّفيل .

قال إسحاق : حدّثني أنس بن مالك أنّ الله عزّ وجلّ أنزل فيهم قُرْآناً : « بَلِّغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربَّنا ، فرضِيَ عنَّا ، ورضينا عنه » ، ثم نُسِخت ، فرفعت بعدما قرأناه زماناً ، وأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ ﴾(١) .

حدّثني العبَّاس بن الوليد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثنا الأوزاعيّ ، قال : حدّثني إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري عن أنس بن مالك ، قال : بعث رسولُ الله ﷺ إلى عامر بن الطُّفَيل الكلابيّ سبعين رجلاً من الأنصار . قال : فقال أميرُهم : مكانَكم حتى آتيَكم بخبر القوم ! فلمّا جاءهم قال : أتؤمِّنونني حتى أخبرَكم برسالة رسول الله ﷺ ؟ قالوا : نعم ؛ فبينا هو عندهم ؛ إذ وخَزَه رجلٌ منهم بالسِّنان . قال : فقال الرّجل : فُزْتُ وربِّ الكعبة ! فقتل ، فقال عامر : لا أحسبه إلَّا أنّ له أصحاباً ، فاقتصّوا أثرَه حتى أتوْهم فقتلوهم ، فلم يفلِت منهم إلَّا رَجُلٌ واحِدٌ .

قال أنس : فكنّا نقرأ فيما نُسِخ : « بَلِّغوا عَنّا إخْوانَنا أنْ قَدْ لَقِينا رَبَّنا ، فرضِيَ عنّا ورضينا عنه » .

وفي هذه السنة ـ أعني السنة الرابعة من الهجرة ـ أجلَىٰ النبيّ ﷺ بني النّضير من ديارهم .

ذكر خبر جلاء بني النضير

قال أبو جعفر : وكان سبب ذلك ما قد ذكرنا قبل من قَتْل عَمْرو بن أميَّة الضَّمْريِّ الرّجُلين الذين قَتَلَهما في منصرَفه من الوجه الذي كان رسولُ الله ﷺ وجّهه إليه مع أصحاب بئر معونة ، وكان لهما من رسول الله ﷺ جوارٌ وعهدٌ . وقيل إنّ عامرَ بن الطُّفَيل كتب إلى رسول الله ﷺ : إنك قتلت رجليْن لهما منك جوارٌ وعهدٌ ؛ فابعث بدِيَتِهما . فانطلق رسولُ الله ﷺ إلى قُباء ، ثم مال إلى بني النَّضير مستعيناً بهم في دِيَتِهما ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ وأسيْد بن حُضَير .

فحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى بني النَّضير ، يستعينهم في ديَةِ ذَيْنِكَ القتيلين من بني عامر اللَّذَيْن قتل عمرو بن أميّة الضَّمْريّ ، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقده لهما ؛ ـ كما حدّثني يزيد بنُ رُومان ـ وكان بين بني النَّضِير وبين بني عامر حِلْف وعقد ؛ فلمّا أتاهم رسولُ الله ﷺ يستعينهم في دِيَة ذيْنك القتيلين؛ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينُك على ما أحببت ممّا استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضُهم ببعض ، فقالوا : إنّكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠ .

هذه ـ ورسولُ الله ﷺ إلى جَنْب جدار من بيوتهم ، قاعد ـ فقالوا : مَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقي عليه صخرةً فيقتله بها فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش بن كعب أحدهم ؛ فقال : أنا لذلك ، فصعِد ليلقي عليه الصخرة ـ كما قال ـ ورسولُ الله ﷺ في نفر من أصحابه ؛ فيهم أبو بكر وعمر وعليّ ؛ فأتى رسولَ الله ﷺ الخَبَرُ من السماء بما أراد القوم ، فقام وقال لأصحابه : لا تبرحوا حتى آتيكم ، وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلمّا استلْبث رسولَ الله ﷺ أصحابُه ، قاموا في طلبه ، فلقُوا رجلًا مقبلًا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيتُه داخلًا المدينة ، فأقبل أصحابُ رسولِ الله ﷺ حتى انتهوْا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يَهُود قد أرادت من الغدْر به ، وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيُّؤ لحربهم ، والسير إليهم .

ثم سار بالنَّاس إليهم ؛ حتى نزل بهم ، فتحصّنوا منه في الحصون ، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحريق فيها ، فنادوْه : يا محمَّد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على مَنْ صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها !

قال أبو جعفر : وأما الواقديّ ، فإنه ذكر أن بني النَّضير لما تآمروا بما تآمروا به س إدلاء الصَّخْرة على رسولِ الله ﷺ ، نهاهم عن ذلك سَلّام بن مِشْكَم وخوّفهم الحرب وقال : هو يعلم ما تريدون ، فعصوْه ، فصعِد عمرو بن جِحاش لِيُدَحْرِجَ الصخرة ، وجاء النبيّ ﷺ الخبر من السماء ، فقام كأنّه يريد حاجة ، وانتظره أصحابه ، فأبطأ عليهم ، وجعلت يهود تقول : ما حبس أبا القاسم ، وانصرف أصحابه ؟ فقال كنانة بن صُورَيا : جاءه الخبر بما هممتم به ، قال : ولما رجع أصحابُ رسول الله ﷺ انتهوا إليه وهو جالس في المسجد ، فقالوا : يا رسول الله ، انتظرناك ومضيْت ، فقال : همّت يهود بقتلي ، وأخبرَنيه الله عزّ وجلّ ، ادعُوا لي محمد بن مسلمة ، قال : فأتي محمد بن مسلمة ، فقال : اذهب إلى يهود فقل لهم : اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به من الغدر .

قال : فجاءهم محمد بن مسلمة ، فقال لهم : إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمركم أن تظعنوا من بلاده ، فقالوا : يا محمَّد ، ما كنا نظنّ أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس ! فقال محمد : تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلامِ العهود ؛ فقالوا : نتحمَّل . قال : فأرسل إليهم عبدُ الله بن أبيّ يقول : لا تخرجوا ، فإنَّ معي من العرب وممَّن أنضوى إليّ من قومي ألفيْن ، فأقيموا فهم يدخلون معكم ، وقُريظة تدخل معكم . فبلغ كعب بن أسد صاحب عهد بني قُرَيظة فقال : لا ينقض العهدَ رجل من بني قُرَيظة وأنا حَيٌّ ، فقال سَلّام بن مِشْكم لحُيَيّ بن أخطب : حُييّ أقبل هذا الذي قال محمَّد ؛ فإنَّما شرُفْنا على قومنا بأموالنا قبل أن تقبل ما هو شرٌّ منه . قال : وما هو شرٌّ منه ؟ قال : أخذ الأموال سبْيُ الذريَّة وقتل المقاتلة ، فأبى حُيَيّ ، فأرسل جُدَيّ بن أخطب إلى رسول الله ﷺ : إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك ! قال : فكبَّر رسولُ الله ﷺ ، وكبَّر المسلمون معه ، وقال : حاربت يهود ، وانطلق جُدَيّ إلى ابن أبيّ يستمدّه . قال : فوجدْتُه جالساً في نفر من أصحابه ، ومنادي النبيّ ﷺ ينادي بالسلاح ، فدخل ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وأنا عنده ، فأخذ السِّلاح ، ثم خرج يعدُو ، قال : فأيست من معونته . قال : فأخبرت بذلك كله حُيَيًّا ، فقال : هذه مكيدة من محمَّد ، فزحف إليهم رسولُ الله ﷺ ، فحاصرهم رسولُ الله ﷺ خمسةَ عشر يوماً ؛ حتى صالحوه على أن يحقِنَ لهم دماءهم ، وله الأموالُ والحلْقة .

فحدّثني محمد بن سعد ، قال : حدّثني أبي ، قال حدّثني عمّي ، قال : حدّثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : حاصرهم رسولُ الله ﷺ - يعني بن النَّضير - خمسةَ عشر يوماً حتّىٰ بلغ منهم كلّ مبلغ ، فأعطوْه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقِن لهم دماءهم ، وأن يُخرجهم من أرضهم وأوطانهم، ويسيّرهم إلى أذرِعات الشأم ، وجعل لكلّ ثلاثة منهم بعيراً وسِقَاءً .

حدّثنا ابنُ عبد الأعلى ، قال : حدّثنا محمد بن ثور ، عن معمَر، عن الزّهري ، قال : قاتلهم النبيّ ﷺ حتى صالحهم على الجلاء ، فأجلاهم إلى الشأم ، على أنّ لهم ما أقلّت الإبلُ من شيء إلّا الحلْقة - والحلْقة : السِّلاح .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق ، قال : وقد كان رهطٌ من بني عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبي بن سَلُول ووديعة ومالك بن أبي قوقل . وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النَّضير : أن اثبتوا وتمنَّعوا ؛ فإنَّا لن نسلمكم ؛ وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرِجْتم خرجنا معكم . تربَّصوا فلم يفعلوا ؛ وقذف الله في قلوبهم الرُّعْب ، فسألوا رسولَ الله ﷺ أن يُجلِيَهم ، ويكفّ عن دمائهم ؛ على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم ؛ إلّا الحلْقة . ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلَّت به الإبل ، فكان الرّجل منهم يهدِم بيتَه عن نِجاف بابه ؛ فيضعه على ظهر بعيره ؛ فينطلق به. فخرجوا إلى خَيْبر ، ومنهم مَنْ سار إلى الشأم ؛ فكان أشرافهم ممن سار منهم إلى خيبر سلّام بن أبي الحُقَيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق ، وحُيَيّ بن أخطب ، فلما نزلوها دانَ لهم أهلها .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ، أنَّه حدّث أنَّهم استقلوا بالنِّساء والأبناء والأموال ، معهم الدّفوف والمزامير والقِيان يعزِفْن خلفهم ، وأنّ فيهم يومئذ لأمّ عمرو ، صاحبة عُرْوة بن الورد العبسيّ ؛ التي ابتاعوا منه ، وكانت إحدى نساء بني غِفار بزُهاء وفَخْر ، ما رُئِيَ مثله من حيّ من الناس في زمانهم ؛ وخلَّوا الأموالَ لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصَّة يضعها حيث يشاء ، فقسَّمها رسولُ الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلّا أنّ سهل بنَ حُنيف وأبا دُجانة سِمَاك بن خَرَشَةَ ، ذكرا فقراً فأعطاهما رسولُ الله ﷺ . ولم يسلم من بني النَّضير إلّا رجلان : يامين بن عمير بن كعب ابن عمّ عمرو بن جِحاش ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال أبو جعفر : واستخلف رسولُ الله ﷺ إذ خرج لحرب بني النَّضير - فيما قيل - ابنَ أمّ مكتوم ، وكانت رايتُه يومئذ مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وفي هذه السنة ماتَ عبدُ الله بن عثمان بن عفَّان ، في جمادَى الأولى منها ، وهو ابن ستّ سنين ، وصلّىٰ عليه رسول الله ﷺ ، ونزل في حفرته عثمان بن عفان .

وفيها وِلد الحسين بن عليّ عليه السلام ، لليالٍ خلوْن من شعبان .

واختلِف في التي كانت بعد غزوة النبيّ ﷺ بني النَّضير من غزواته ، فقال ابن إسحاق في ذلك ، ما حدّثنا ابن حُميد ؛ قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق ، قال : ثم أقام رسولُ الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النَّضير شهريْ ربيع ، وبعض شهر جُمادى . ثمّ غزا نجداً - يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان -

حتى نزل نخْلًا ، وهي غزوةُ ذات الرّقاع ؛ فلقيَ بها جمعاً من غَطَفان ، فتقارب الناس ، ولم يكن بينهُمْ حرب ؛ وقد خاف النّاس بعضُهم بعضاً ، حتى صلّىٰ رسولُ الله ﷺ بالمسلمين صلاةَ الخوف ، ثم انصرف بالمسلمين .

وأما الواقديّ ؛ فإنه زَعَم أنّ غزوة رسولِ الله ﷺ ذات الرّقاع ، كانت في المحرّم سنة خمس من الهجرة . قال : وإنما سُمِّيت ذاتَ الرّقاع ؛ لأن الجبل الذي سُميت به ذات الرّقاع جبل به سواد وبياض وحمرة ؛ فسمّيت الغزوة بذلك الجبل . قال : واستخلف رسول الله ﷺ في هذه الغَزْوة على المدينة عثمان بن عفان .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني محمد بن جعفر بن الزبير ومحمد ـ يعني ابن عبد الرحمن ـ عن عُروة بن الزُّبير ، عن أبي هُريرة ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى نجْد ، حتى إذا كنّا بذات الرّقاع من نَخْل ، لقيَ جمعاً من غطفان ؛ فلم يكن بيننا قتال ؛ إلّا أن الناس قد خافُوهم ، ونزلت صلاة الخوف ، فَصَدَع أصحابَه صدعين ، فقامت طائفة مواجِهة العدوّ ، وقامت طائفة خلْف رسول الله ﷺ ، فكبّر رسولُ الله ﷺ ، فكبَّرُوا جميعاً ، ثم ركع بِمَنْ خلْفه ، وسجد بهم ، فلمّا قاموا مشُوا القهقرى إلى مصافّ أصحابهم ، ورجع الآخرون ، فصلُّوا لأنفسهم ركعة ، ثم قاموا فصلّىٰ بهم رسولُ الله ﷺ ركعة وجلسوا ، ورجع الّذين كانوا مواجهين العدوّ ، فصلّوا الركعة الثانية ، فجلسوا جميعاً ، فجمعهم رسولُ الله ﷺ بالسلام ، فسلّم عليهم .

قال أبو جعفر : وقد اختلفت الرّواية في صفة صلاة رسول الله ﷺ هذه الصلاة ببطن نخْل اختلافاً متفاوتاً ، كرهت ذكره في هذا الموضع خشية إطالة الكتاب ، وسأذكره إن شاء الله في كتابنا المسمّى « بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام » في كتاب صلاة الخوف منه . وقد حدّثنا محمد بن بشّار ، قال : حدّثنا معاذ بن هِشَام ، قال : حدّثني أبي ، عن قتادة ، عن سليمان اليشكريّ ، أنَّه سأل جابرَ بن عبد الله عن إقصار الصّلاة : أيّ يوم أنزل ، أو في أيّ يوم هو ؟ فقال جابر : انطلقنا نتلقّى عيرَ قريش آتية من الشأم ؛ حتى إذا كنّا بنخْل جاء رجلٌ من القوم إلى رسولِ الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، قال : نعم ، قال : هل تخافني ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعُك منّي ؟ قال : الله يمنعني منك ، قال فسلّ السيفَ ثم تهدّده وأوعده . ثم نادى بالرحيل وأخْذ السلاح . ثم نودي بالصّلاة ، فصلّىٰ نبيّ الله ﷺ بطائفة من القوم ، وطائفة أخرى تحرُسهم ، فصلّىٰ بالذين يلُونَه ركعتين ، ثم تأخّر الّذين يُلونه على أعقابهم ، فقاموا في مصافّ أصحابهم ، ثمّ جاء الآخرون فصلّىٰ بهم ركعتيْن ، والآخرون يحرسونهم . ثم سلّم ، فكانت للنبيّ ﷺ أربع ركعات ، وللقوم ركعتين ركعتين ؛ فيومئذ أنزل الله عزّ وجلّ في إقصار الصّلاة ، وأمِر المؤمنون بأخْذ السلاح .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن البصريّ ، عن جابر بن عبد الله الأنْصاريّ ؛ أنّ رجلًا من بني محارب يقال له فلان بن الحارث ، قال لقومه من غَطَفان ومحارب : ألّا أقتلُ لكم محمداً ؟ قالوا : نعم ، وكيف تقتله ؟ قال : أفْتِكُ به ؛ فأقبلَ إلى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ ، وسيفُ رسولِ الله ﷺ في حجره ، فقال : يا محمّد ، انظرُ إلى سيفك هذا ! قال : نعم ، فأخذه فاستلّه ، ثم جعل يهزّه ويهمّ به ، فيكبته الله عزّ وجلّ . ثم قال : يا محمّد ، أما تخافني ؟ قال : لا ، وما أخاف منك ؟ قال : أما تخافني وفي يدي السيف ؟ قال : لا ، يمنعني الله منك ! قال : ثم غَمَد السيف ، فردّه إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ

قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكم ﴾[١] .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني صدقة بن يَسار ، عن عَقِيل بن جابر ، عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، قال : خرجنا مع رسولِ الله ﷺ في غزوة ذات الرِّقاع من نخْلٍ ، فأصاب رجل من المسلمين امرأة من المشركين ، فلمّا انصرفَ رسولُ الله ﷺ قافلاً أتى زوجُها وكان غائباً ، فلمّا أخبِر الخبر ، حَلَف ألاّ ينتَهيَ حتى يُهريق في أصحاب محمّد دماً ، فخرج يتبع أثر رسولِ الله ﷺ ، فنزل رسولُ الله ﷺ منزلاً ، فقال : مَنْ رجل يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ فانتدب رجلٌ من المهاجرين ورجُلٌ من الأنصار ، فقال : نحنُ يا رسولَ الله ، قال : فكونا بفمِ الشِّعب ـ وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ قد نزلوا الشِّعب ، من بطْن الوادي ـ فلمّا خرج الرجلان إلى فم الشِّعب ، قال الأنصاريّ للمهاجريّ ؛ أي الليل تحبّ أن أكفيكه ؟ أوّله أو آخره ؟ قال : بل اكفني أوّله ؛ فاضطجع المهاجريّ فنام ، وقام الأنصاريّ يصلّي ، وأتى زوجِ المرأة ، فلمّا رأى شخص الرجل عرف أنه رَبِيئَة القوم ، فرمى بسهم فوضعه فيه فنزعه ، فوضعه وثبت قائماً يصلّي . ثم رماه بسهم آخر ، فوضعه فيه ، فنزعه فوضعه وثبت قائماً يصلّي ، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه ، فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ، ثم أهبّ صاحبه ، فقال : اجلس ، فقد أتِيت .

قال : فوثب المهاجريّ ، فلمّا رآهما الرجل ، عرف أنهم قد نَذِرُوا به ؛ ولمّا رأى المهاجريّ ما بالأنصاريّ من الدماءِ ، قال : سبحان الله ! أفلا ؛ أهبَبْتني أوّل ما رَمَاك ! قال : كنتُ في سورة أقرؤها فلم أحبّ أن أقطعها حتى أنفدها ؛ فلمّا تتابع عليّ الرميُ فآذنْتُك ، وايم الله لولا أن أضيِّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظِهِ لقَطَع نَفْسي قبل أن أقطعها أو أنفِدَها .

ذكر الخبر عن غزوة السويق
وهي غزوة النبيّ ﷺ بَدْراً الثانية لميعاد أبي سفيان

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن ابن إسحاق ، قال : لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة من غزوَةَ ذات الرِّقاع ، أقام بها بقيَّة جمادى الأولى وجمادَى الآخرة ورجبَ ، ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان حتى نزله ، فأقام عليه ثمانيَ ليالٍ ينتظر أبـا سُفيان ، وخرج أبو سُفْيان في أهل مكَّة ، حتى نزل مَجَنَّة من ناحية مرّ الظَّهْران ـ وبعض الناس يقول : قد قطع عُسفان ـ ثم بدا له الرجوع ، فقال : يا معشرَ قريش ، إنَّه لا يصلِحكم إلَّا عامٌ خِصْب ترعوْن فيه الشجر ، وتشربون فيه اللَّبن ؛ وإنّ عامَكم هذاعام جَدْب ؛ وإنّي راجع فارجعوا . فرجع ورجع الناس ، فسمَّاهم أهل مكّة جيش السَّويق . يقولون : إنّما خرجتم تشربون السَّويق .

فأقام رسولُ الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده ، فأتاه مَخشيُّ بن عمرو الضَّمْريّ ، وهو والذي وادعه على بني ضَمْرة في غزوة وَدَّان ، فقال : يا محمّد ، أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : نعم يا أخا بني ضَمْرة ؛ وإن شئت مع ذلك رَدَدْنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك . حتى يحكم الله بيننا وبينك . فقال : لا والله يا محمّد ، ما لنا بذلك منك من حاجة ، وأقام رسولُ الله ﷺ ينتظر أبا سفيان ؛ فمرّ به مَعْبَدُ بن أبي معبَد الخُزاعيّ ، وقد رأى مكان رسولِ الله ﷺ وناقته تهْوي به فقال :

---

(١) سورة المائدة : ١١ .

قَـد نَفَـرَتْ من رُفقَتَيْ مُحَمَّدِ وَعَجـوَةٍ من يَثْرِبٍ كـالعُنْجُدِ
تَهْوي على دِينِ أبيـها الأتْلَدِ قد جَعَلَتْ ماءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدي
وماءَ ضَجْنان لها ضُحَى الْغَدِ

وأمّا الواقديّ ؛ فإنه ذكر أن رسول الله ﷺ نَدَب أصحابَه لغزوة بدْر لموعد أبي سفيان الذي كان وعده الالتقاء فيه يوم أحُد رأس الحوْل للقتال في ذي القعدة . قال : وكان نُعَيم بن مسعود الأشْجَعيّ قد اعتمر ، فقدم على قريش ، فقالوا : يا نُعيم ، من أين كان وجهك ؟ قال : مِنْ يثرب ، قال : وهل رأيتَ لمحمد حركة ؟ قال : تركته على تعبئة لغزوكم ، ـ وذلك قبل أن يسلِم نعيم ـ قال : فقال له أبو سفيان : يا نُعيم ، إنّ هذا عام جَدْبٌ ، ولا يصلحنا إلّا عامٌ ترعى فيه الإبل الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وقد جاء أوان موعد محمَّد ، فالحق بالمدينة فثَبِّطْهم وأعلمهم أنّا في جمع كثير ، ولا طاقة لهم بنا ؛ فيأتي الخُلْف منهم أحبّ إليّ من أن يأتيَ من قبَلنا ، ولك عشر فرائض أضعها لك في يد سُهيل بن عمرو يضمنُها . فجاء سهيل بن عمرو إليهم ، فقال نعيم لسهيل : يا أبا يزيد ، أتضمن هذه الفرائض وأنطلق إلى محمد فأثبِّطَه ؟ فقال : نعم ، فخرج نُعَيم حتى قدم المدينة ؛ فوجد الناس يتجهَّزون ، فتدسّس لهم ، وقال : ليس هذا برأي ، ألم يُجرح محمد في نفسه ! ألم يقتل أصحابه ! قال : فثبَّط الناس ؛ حتى بلغ رسولَ الله ﷺ ، فتكلَّم ، فقال : والَّذي نفسي بيده ، لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدِي .

ثم أنهجَ الله عزّ وجلّ للمسلمين بصائرهم ؛ فخرجوا بتجارات ، فأصابوا الدّرهم درهمين ؛ ولم يلقوْا عدُوّاً ؛ وهي بَدْر الموعد ؛ وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية ، يجتمعون إليها في كلّ عام ثمانية أيام .

قال أبو جعفر : واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن رَوَاحة .

قال الواقديّ : وفي هذه السنة تزوّج رسولُ الله ﷺ أمّ سلَمة بنت أبي أميَّة في شوّال ؛ ودخل بها .

قال : وفيها أمَر رسولُ الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلَّم كتاب يهود ؛ وقال : إنّي لا آمن أن يبدّلوا كتابي .

ووليَ الحجَّ في هذه السنة المشركون .

ثم كانت السنة الخامسة من الهجرة

ففي هذه السنة تزوّج رسولُ الله ﷺ زينبَ بنت جحش .

حُدّثت عن محمَّد بن عمر ، قال : حدّثني عبد الله بن عامر الأسلميّ عن محمَّد بن يحيى بن حَبَّان ، قال : جاء رسولُ الله ﷺ بيتَ زيد بن حارثة ، وكان زيد إنّما يقال له زيد بن محمد ، ربَّما فقده رسولُ الله ﷺ الساعة ، فيقول : أين زيد ؟ فجاء منزله يطلبه فلم يجده ، وقامت إليه زينب بنت جحش زوجته فُضُلاً ؛ فأعرض عنها رسولُ الله ﷺ ، فقالت : ليس هو ها هنا يارسولَ الله ، فادخل بأبي أنت وأمّي ! فأبى رسولُ الله ﷺ أن يدخل ؛ وإنَّما عجِلت زينب أن تلبس إذْ قيل لها : رسولُ الله ﷺ على الباب ، فوثبت عجِلة ، فأعجبت رسول الله ﷺ ؛ فولّى وهو يهمهم بشيء لا يكادُ يفهم ؛ إلاَّ أنه أعلن : سبحان الله العظيم ! سبحان الله مُصَرّف القلوب ! قال : فجاء زيدٌ إلى منزله ، فأخبرته امرأته أنّ رسولَ الله ﷺ أتى منزله ، فقال زيد : ألا قلتِ له : ادخل ! فقالت : قد عـرضتُ عليه ذلك فأبى ، قال : فسمعتِه يقول شيئاً ؟ قالت : سمعتُه يقول حين ولّىٰ : سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرّف القلوب ! فخرج زيْدٌ حتى أتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ؛ بلغني أنك جئت منـزلي ؛ فهلاّ دخلت بـأبي أنت وأمّي يا رسـول الله ، لعل زينب أعجبتْـك فأفارقها ! فقال رسولُ الله ﷺ : أمسِكْ عليك زوجَك ، فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك ؛ فكان يأتي رسولَ الله ﷺ فيخبره ، فيقول له رسولُ الله ﷺ : أمسِكْ عليك زوجَك ؛ ففارقها زيد واعتزلها وحلّت .

فبينا رسول الله ﷺ يتحدّث مع عائشة ؛ إذ أخذت رسول الله ﷺ غَشْيَـة ، فسُرّيَ عنـه وهو يتبسَّمُ ويقول: مَنْ يذهب إلى زينب يبشِّرها، يقول: إنَّ الله زَوّجَنيها؟ وتلا رسول الله ﷺ: ﴿وإذْ تَقُولُ للّذِي أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ . . . ﴾(١) القصّة كلّها .

قالت عائشة : فأخذني ما قَرُبَ وما بَعُدَ لما يبلغنا من جمالها ؛ وأخرى هي أعظمُ الأمور وأشرفها ، ما صنع الله لها ؛ زَوّجَها ، فقلت : تَفْخَرُ علينا بهذا .

قالت عائشة : فخرجت سَلْمَىٰ خادم رسول الله ﷺ تخبرها بذلك ، فأعطتْها أوضاحاً عليها .

حدّثني يونسُ بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابنُ وهب ، قال : قال ابنُ زيد : كان النبيّ ﷺ قد زوّج زيد بن حارثة زينبَ بنت جحش ابنة عمّته ، فخرج رسولُ الله ﷺ يوماً يريده ، وعلى الباب سِتْرٌ من شعر ؛

(١) سورة الأحزاب : ٣٧ .

فرفعت الريح الستر فانكشف وهي في حُجْرتها حاسرة ، فوقع إعجابُها في قلب النبيّ ﷺ ، فلمّا وقع ذلك كُرّهَتْ إلى الآخر ، قال : فجاء فقال : يا رسولَ الله ، إني أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال : ما لك ! أرابَكَ منها شيء ! فقال : لا والله يا رسولَ الله ، ما رابني منها شيء ، ولا رأيت إلَّا خيراً . فقال له رسولُ الله ﷺ : أمسِك عليك زوْجَكَ واتقِ الله ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ ، تخفي في نفسك إنْ فارقَها تزوجتَها .

قال الواقديّ : وفيها غزَا دَوْمة الجنْدل في شهر ربيع الأول ، وكان سببُها أنّ رسولَ الله ﷺ بلغه أن جمعاً تجمَّعوا بها ودنوْا من أطرافه . فغزاهم رسولُ الله ﷺ ؛ حتى بلغ دَوْمة الجندل ، ولم يلقَ كـيداً ، وخلّف على المدينة سباع بن عُرْفَطَة الغِفاريّ .

قال أبو جعفر : وفيها وادَعَ رسولُ الله ﷺ عُيَيْنَةَ بن حِصْن أن يرعى بتَغْلَمَيْنْ وما والاها .

قال محمد بن عمر ـ فيما حدّثني إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه ـ وذلك أن بلاد عُيَيْنَةَ أجدبت ، فوادع رسولُ الله ﷺ أن يرعى بتغلمينْ إلى المَرَاض ؛ وكان ما هنالك قد أخصب بسحابة وقعت ، فوادعه رسول الله ﷺ أن يرعى فيما هنالك .

قال الواقديّ : وفيها تُوفيتْ أم سعد بن عبادة وسعد غائبٌ مع رسولِ الله ﷺ إلى دومة الجندل .

ذكر الخبر عن غزوة الخندق

وفيها : كانت غزوةُ رسولِ الله ﷺ الخندَقَ في شوّال ؛ حدّثنا بذلك ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن ابن إسحاق : وكان الذي جرّ غزوة رسولِ الله ﷺ الخندق ـ فيما قيل ـ ما كان من إجلاء رسولِ الله ﷺ بني النَّضِير عن ديارهم .

فحدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان ، مولى آل الزُّبير ، عن عُرْوة بن الزبير ومَنْ لا أتَّهم ، عن عبيد الله بن كعب بن مالك ، وعن الزُّهريّ ، وعن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وعن محمد بن كَعْب القُرَظيّ وعن غيرهم من علمائنا ؛ كلٌّ قد اجتمع حديثه في الحديث عن الخندق ، وبعضهم يحدّث ما لا يحدّث بعض ؛ أنه كان من حديث الخندق أنّ نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحُقَيق النَّضريّ وحُيَيّ بن أخْطَب النَّضريّ ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق النَّضريّ ، وَهَوْذَة بن قيس الوائليّ ، وأبو عمّار الوائليّ ؛ في نفر من بني النَّضِير وَنفَر من بني وائل ؛ هم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسولِ الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكّة ؛ فدَعَوْهم إلى حرْب رسولِ الله ﷺ ، وقالوا : إنّا سنكونُ معكم عليه حتى نستأصِله ، فقالت لهم قريشُ : يا معشرَ يهود ؛ إنّكم أهلُ الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفدِينُنا خيرٌ أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه ، وأنتم أولَى بالحقّ منه . قال : فهم الذين أنزل الله عزّ وجلّ فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء: ٥١ ـ ٥٥.

فلمّا قالوا ذلك لقريش ، سرّهم ما قالوا ونشِطوا لما دعوْهم إليه من حرْب رسول ِ الله ﷺ ، فأجمعوا لذلك واتّعدوا له .

ثم خرج أولئك النَّفر من يَهود حتى جاؤوا غَطَفان من قيْس عَيْلان فدعوْهم إلى حَرْب رسول ِ الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ؛ وأنّ قريشاً تابعوهم على ذلك وأجمعوا فيه ، فأجابوهم .

فخرجت قريش وقائدُها أبو سفيان بن حرْب ، وخرجت غَطَفَان وقائدها عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر في بني فَزارة ، والحارث بن عَوْف بن أبي حارثة المرّيّ في بني مرّة ، ومسعود بن رُخَيْلَة بن نُوَيْرَة بن طَريف بن سُحْمَةَ بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشْجَعَ بن رَيْث بن غَطَفَان ؛ فيمن تابعه من قومه من أشجع .

فلمّا سمع بهم رسول الله ﷺ وبما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة . فحدِّثت عن محمد بن عمر ، قال : كان الذي أشار عَلَىٰ رسول الله ﷺ بالخندق سَلْمان ، وكان أوّل مشهد شهده سلْمان مع رسول ِ الله ﷺ ؛ وهو يومئذ حرّ ، وقال : يا رسولَ الله ؛ إنَّا كنَّا بفارس إذا حوصرنا خَنْدَقنا علينا .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق : فعَمِل رسولُ الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل فيه المسلمون : فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عَنْ رسول ِ الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم رجالٌ من المنافقين ، وجعلوا يُوَرُّون بالضَّعْف من العمل ، ويتسلَّلون إلى أهاليهم بغير علْم من رسول ِ الله ﷺ ولا إذن . وجعل الرّجُل من المسلمين إذا نابتْه نائبة من الحاجة التي لا بدّ منها يذكر ذلك لرسول ِ الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته ؛ فيأذن له ؛ فإذا قضى حاجَته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً في الخير ، واحتساباً له ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوه ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) . فنزلت هذه الآية في كلّ من كان من أهل الحِسْبَةِ من المؤمنين والرغبة في الخير ؛ والطاعة لله ولرسولِه ﷺ . ثم قال يعني المنافقين الذين كانوا يتسلَّلون من العمل ، ويذهبون بغير إذْنِ رسول ِ الله ﷺ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾(١) ، أي قد علم ما أنتم عليه من صدق أو كَذِب ، وعمِل المسلمون فيه حتى أحكموه ؛ وارتجزوا فيه برَجُل من المسلمين يقال له جُعَيْل ، فسمَّاه رسول الله ﷺ « عَمْراً » ، فقالوا :

سَمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرَا وكَانَ لِلْبَائِسِ يَوماً ظَهْرَا

فإذا مرّوا بعمرو ، قال رسولُ الله ﷺ : « عمراً » ، وإذا قالوا : « ظهراً » ، قال رسول الله ﷺ : « ظَهَراً » .

فحدّثنا محمد بن باشر ، قال : حدّثنا محمد بن خالد بن عَثْمَة ، قال : حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنيّ ، قال : حدّثني أبي ، عن أبيه ، قال : خطّ رسولُ الله ﷺ الخَنْدَق عامَ الأحزاب من أجُم الشَّيْخَيْن طرف بني حارثة ؛ حتى بلغ المذاد ثم قطّعه أربعين ذراعاً بين كلّ عشرة ، فاحْتقّ المهاجرون والأنصار في سَلْمان الفارسيّ ـ وكان رجلاً قويًّا ـ فقالت الأنصار : سلْمان منّا ، وقالت المهاجرون : سلْمان

(١) سورة النور: ٦٢.
(٢) سورة النور: ٦٣ ـ ٦٤.

منَّا ، فقال رسولُ الله ﷺ : سلْمان منَّا أهلَ البيت . قال عمرو بن عوف: فكنتُ أنا وسلْمان ، وحُذَيفة بن اليمان ، والنعمان بن مقرّن المزنيّ ، وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفرنا تحت ذوباب حتى بلغنا النَّدى ، فأخرج الله عزّ وجلّ من بطن الخندق صخرةً بيضاء مَرْوَةً فكسرت حديدَنا ، وشقّت علينا . فقلنا : يا سلْمان ، ارقَ إلى رسول الله ﷺ فأخبرْه خبرَ هذه الصخرة ، فإمَّا أن نعدِل عنها فإنّ المعدل قريب ، وإمَّا أن يأمرنا فيها بأمره ؛ فإنا لا نحبّ أن نجاوزَ خطَّه .

فرَقِيَ سلمان حتى أتى رسولَ الله ﷺ وهو ضاربٌ عليه قُبَّة تُرْكِيَّة ؛ فقال : يا رسولَ الله ، بأبينا أنت وأمِّنا ! خرجتْ صخرة بيضاء من الخندق مَرْوة ، فكسرتْ حديدَنا ، وشقَّت علينا حتى ما نُحِيك فيها قليلاً ولا كثيراً ؛ فمُرْنا فيها بأمرك ؛ فإنَّا لا نحبّ أن نجاوزَ خطَّك . فهبط رسولُ الله ﷺ مع سلْمان في الخندق ، ورقِينا نحن التِّسعةَ على شقَّة الخندق ، فأخذ رسولُ الله ﷺ المِعْول من سلْمان ، فضرب الصَّخرة ضَرْبةً صدَعها ، وبرقت منها بَرْقة أضاء ما بين لابتَيْها ـ يعني لابتي المدينة ـ حتَّى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم . فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبير فتح ، وكبَّر المسلمون . ثم ضربها رسولُ الله ﷺ الثانية ، فصدَعها وبرق منها برقة أضاء منها ما بين لابتيْها ، حتَّى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم ؛ فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرَ فتح وكبّر المسلمون . ثم ضربها رسولُ الله ﷺ الثالثة فكسرها ، وبرقَ منها برقة أضاء ما بين لابتيْها ، حتى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم ، فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرَ فتح وكبَّر المسلمون ، ثم أخذ بيد سلمان فرقِيَ ، فقال سلْمان : بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ! لقد رأيت شيئاً ما رأيته قطّ ! فالتفت رسولُ الله ﷺ إلى القوم ، فقال : هل رأيتُم ما يقول سلْمان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، بأبينا أنت وأمِّنا قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموْج ، فرأيناك تكبِّر فنكبّر ، ولا نرى شيئاً غير ذلك . قال : صدقتم ، ضربت ضربتي الأولى ، فبرق الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور الحِيرة ومدائن كسرى ، كأنَّها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريلُ أنّ أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربتُ ضربتي الثانية ، فبرق الَّذي رأيتم ؛ أضاءت لي منها قصور الحُمْر من أرض الرُّوم ، كأنَّها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أنّ أمّتي ظاهرة عليها ، ثم ضربتُ ضربتي الثالثة ، فبرق منها الَّذي رأيتُم ؛ أضاءت لي منها قصور صنْعاء كأنَّها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أنّ أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النَّصر ، وأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر ! فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمدُ لله موعد صادق بارّ ، وعدنا النصر بعد الحصر ، فطلعت الأحزاب ، فقال المؤمنون : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إيماناً وَتَسْلِيماً﴾(١) وقال المنافقون : ألاتعجبون! يحدّثكم ويُمَنّيكم ويَعِدكُم الباطل! يخبركم أنه يبصِر من يثرب قصورَ الحيرة ومدائن كسرى؛ وأنها تُفْتح لكم؛ وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا! وأنزل القرآن: ﴿وإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ والَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا آللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُروراً﴾(١).

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، قال: حدّثنا محمد بن إسحاق عمّن لا يتّهم، عن أبي هريرة، أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمن عمر وعثمان وما بعده: افتتحوا ما بدالكم! فوالّذي نفس أبي هريرة بيده؛ ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلّا وقد أعطِيَ محمّد مفاتيحها قبل ذلك.

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٢.

(٢) سورة الأحزاب: ١٢.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق قال: كان أهلُ الخندق ثلاثة آلاف. قال: ولمّا فرغ رسولُ الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجُرُف والغابة، في عشرة آلاف من أحابيشِهم، ومَنْ تابعهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غَطَفان ومَنْ تابعهم من أهل نجْدٍ؛ حتى نزلوا بذَنب نَقَمَى إلى جانب أحُد.

وخرج رسولُ الله صلَّى الله تعالى وسلَّم عليه والمسلمون؛ حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، وأمر بالذراريّ والنساء. فرفعوا في الآطام. وخرج عَدُوُّ الله حُيَيُّ بن أخطب؛ حتى أتى كعب بن أسدَ القُرظيّ صاحب عَقْد بني قُرَيظة وعهدهم، كان قد وادَع رسولَ الله ﷺ على قومِه، وعاهده على ذلك وعاقده؛ فلمّا سمع كعب بحُيَيّ بن أخطب، أغْلَقَ دونه حِصْنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حُيَيٌّ: يا كعب، افتح لي، قال: ويحك يا حيَيّ! إنك امرؤٌ مشئوم، إني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلاَّ وفاءً وصدقاً. قال: ويْحك! افتح لي أكلّمك، قال: ما أنا بفاعل؛ قال: والله إن أغلقتَ دوني إلاّ على جَشيشتك أن آكل معك منها؛ فأحفَظ الرجل، ففتح له، فقال: ويْحك يا كعب! جئتك بعزّ الدّهر وببَحْرٍ طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها؛ حتى أنزلتُهم بمجتَمع الأسيال من رومة، وبغَطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقَمَى إلى جانب أحُد؛ قد عاهدوني وعاقدوني ألاّ يبرحوا حتى يستأصِلوا محمداً ومَنْ معه. فقال له كعب بن أسَد: جئتني والله بذلّ الدهر! بَجَهَام قد هراق ماءَه يرعِد ويُبرق، ليس فيه شيء! ويْحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه؛ فلم أرَ من محمدٍ إلا صدقاً ووفاءً! فلم يزلْ حُيَيّ بكعب يَفْتِله في الذّرْوة والغارب؛ حتى سَمَح له، علَى أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغَطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حِصْنك حتى يصيبَني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهدَه، وبرىء ممّا كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسولِ الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث رسولُ الله ﷺ سعد بن مُعاذ بن النعمان بن امريء القيس أحد بني عبد الأشهل - وهو يومئذ سيِّد الأوْس - وسعد بن عبادة بن دُلَيم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج - وهو يومئذ سيِّد الخزْرج - ومعهما عبدُ الله بن رَواحة أخو بلْحارث بن الخزرج، وخَوَّات بن جُبَير، أخو بني عمرو بن عوف؛ فقال: انْطلِقُوا حتى تنظروا: أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لَحْناً نعرفه، ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوْهم فوجدوهم على أخبث ما بلَغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: لا عقْد بيننا وبين محمَّد ولا عهد. فشاتَمهم سعد بن عبادة وشاتَموه، وكان رجلاً فيه حَدّ، فقال له سعد بن معاذ: دَعْ عنك مشاتَمتهم؛ فما بيننا وبينهم أرْبَى من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومَنْ معهما إلى رسول الله ﷺ فسلّموا عليه، ثم قالوا: عَضَل والقَارة أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرَّجيع؛ خُبَيْب بن عَدِيّ وأصحابه. فقال رسولُ الله ﷺ: الله أكبر! أبشروا يا معشرَ المسلمين، وعَظُمَ عند ذلك البلاء، واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتّىٰ ظنّ المؤمنونَ كلّ ظنّ، ونَجَمَ النِّفاق من بعض المنافقين، حتى قال مُعَتِّبُ بن قُشَيْر، أخو بني عمرو بن عوف: كان محمَّد يعِدُنا أن نأكلَ كنوزَ كسرى

وقيصر ؛ وأحدنا لا يقدِرُ أن يذهب إلى الغائط ! وحتى قال أوس بن قيظيّ ، أحد بني حارثة بن الحارث : يا رسولَ الله ، إن بيوتَنا لعوْرَة من العدوّ ـ وذلك عن ملأ من رجال قومه ـ فأذَنْ لنا فلنرجع إلى دارنا ؛ فإنّها خارجة من المدينة .

فأقام رسولُ الله ﷺ ، وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلة ، قريباً من شهر ؛ ولم يكن بين القوم حَرْب إلَّا الرّميّ بالنَّبْل والحصار .

فلما اشتدّ البلاء على النَّاس بعث رسولُ الله ﷺ ـ كما حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعن محمّد بن مسلم بن شهاب الزهريّ ـ إلى عُيَينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عَوْف بن أبي حارثة المرّيّ ـ وهما قائدا غَطَفان ـ فأعطاهما ثلْث ثمار المدينة ؛ على أن يرجِعَا بِمَنْ معهما عن رسول الله ﷺ وأصحابه ، فجرى بينه وبينهم الصلح ؛ حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلَّا المراوضة في ذلك ، ففعَلا ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ، بعث إلى سعد بن مُعاذ وسعد بن عبادة ؛ فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه فقالا : يا رسول الله ؛ أمرٌ تحبُّه فنصنعه ، أم شيءٌ أمرك الله عزّ وجلّ به ؛ لا بُدَّ لنا من عمل به ، أم شيءٌ تصنعه لنا ؟ قال : لا ، بل لكم ؛ والله ما أصْنَعُ ذلك إلَّا أني رأيت العرب قد رَمَتْكم عن قوس واحدة ، وكالَبُوكم من كلّ جانب ، فأردت أن أكسِرَ عنكم شوكتَهم لأمرٍ ما ساعة . فقالَ له سعْد بن معاذ : يا رسولَ الله ؛ قد كُنَّا نحنُ وهؤلاء القوم على شِرْك بالله عزّ وجلّ وعبادة الأوثان ، ولا نعبد الله ولا نعرفه ؛ وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلَّا قِرىً أو بيعاً ، أفحين أكرمَنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزَّنا بك ، نُعْطيهم أموالنا ! ما لنا بهذا من حاجة ؛ والله لا نعطيهم إلَّا السيف حتى يحكُم الله بيننا وبينهم . فقال رسولُ الله ﷺ : فأنت وذاك ! فتناول سعدٌ الصحيفة ؛ فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليَجْهدوا علينا .

فأقام رسولُ الله ﷺ والمسلمون وعدوّهم محاصروهم ؛ لم يكن بينهم قتال إلَّا أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ بن أبي قيس ، أخو بني عامر بن لُؤيّ ، وعِكْرمة بن أبي جهل وهُبَيْرة بن أبي وهب المخزوميَّان ، ونَوْفَل بن عبد الله ، وضِرَار بن الخطَّاب بن مرداس ، أخو بني محارب بن فِهْر ؛ قد تلبّسوا للقتال ، وخرجوا على خيلهم ، ومرّوا على بني كِنانة ، فقالوا : تهيّئوا يا بني كنانة للحرب ؛ فستعلمون اليوم مَنْ الفرسان ! ثم أقبلوا نحو الخندق ؛ حتّى وقفوا عليه ، فلمّا رأوه قالوا : والله إنّ هذه لمكيدةٌ ما كانت العرب تكيدها ؛ ثم تيمَّموا مكاناً من الخندق ضيِّقاً ، فضربوا خيولَهم ، فاقتحمت منه ؛ فجالت بهم في السَّبَخة بين الخَنْدق وسَلْع ، وخرج عليّ بن أبي طالب في نَفَر من المسلمين ؛ حتى أخذ عليهم الثُّغْرَة التي أقْحَمُوا منها خيلَهم ، وأقبلت الفرسان تُعْنِقُ نحوهم . وقد كان عمرو بن عبد وُدّ قاتل يوم بدر ؛ حتى أثبتَتْه الجراحة ، فلم يشهد أحداً ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِماً ليُرَى مكانُه ؛ فلمَّا وقف هو وخيله ، قال له عليّ : يا عمرو ؛ إنك كنتَ تعاهد الله ألاّ يَدْعُوَك رجلٌ من قريش إلى خلَّتَيْن إلَّا أخذتَ منه إحداهما ! قال : أجَلْ ! قال له عليُّ بن أبي طالب : فإني أدعوك إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لي بذلك ؛ قال : فإني أدعوك إلى النِّزال ، قال : ولِمَ يا بن أخي ؛ فوالله ما أحبّ أن أقتلك ! قال عليّ : ولكني والله أحبُّ أن أقتلك . قال : فحمِيَ عَمْرو عند ذلك ، فاقتحم عن فَرَسه فَعَقَرَه ـ أو ضَرَبَ وجْهَه ـ ثم أقبل على عليّ ،

فتنازلا وتجاولا ، فقتله عليّ عليه السلام وخرج خيلُه منهزمة ؛ حتى اقتحمت من الخَنْدق هاربة ، وقتِل مع عمرو رجلان : مُنَبِّه بن عثمان بن عُبَيْد بن السَّبَّاق بن عبد الدار ، أصابه سهم فمات منه بمكّة ؛ ومن بني مخزوم نوفل بن عبد الله بن المغيرة ؛ وكان اقتحم الخندق فتورّط فيه ، فرموْه بالحجارة ، فقال : يا معشرَ العرب ، قَتْلَة أحسن من هذه ! فنزل إليه عليّ فقتله ، فغلب المسلمون على جسده ، فسألوا رسولَ الله ﷺ أن يبيعهم جسدَه ، فقال رسول الله ﷺ : لا حاجة لنا بجَسده ولا ثمنه ؛ فشأنكم به . فخلَّى بينهم وبينه .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق عن أبي ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاريّ ، ثم أحد بني حارثة ، أنّ عائشة أمّ المؤمنين كانت في حِصْن بني حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة ؛ وكانت أمّ سَعْد بن مُعاذ معها في الحصن .

قالت عائشة : وذلك قبل أن يضرَب علينا الحجاب . قالت : فمرَّ سعدٌ وعليه درْعٌ مقلَّصة ، قد خرجت منها ذِراعه كلُّها ؛ وفي يده حربته يَرْقُدُ بها ويقول :

لَبِّثْ قليلًا يَشْهَدِ الهَيْجا حَمَلْ ... لا بَأْسَ بالمَوْتِ إذَا حَانَ الأَجَلْ

قالت له أمّه : الحق يا بُنَيَّ ، فقد والله أخّرْتَ .

قالت عائشة : فقلتُ لها : يا أمّ سعد ؛ والله لوَددْتُ أنّ دِرْعَ سعد كانت أسبغَ مما هي ! قالت : وخفت عليه حيث أصاب السهم منه .

قالت : فَرُمِيَ سعد بن معاذ بسهْم ، فقطع منه الأكْحل ، رماه ـ فيما حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ـ حِبَّانُ بن قيس بن العرقة أحدُ بني عامر بن لؤيّ ؛ فلمّا أصابه قال : خذْها وأنا ابن العَرِقة ؛ فقال سعدٌ : عَرَّقَ الله وجهك في النَّار ! اللّهمّ إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، فإنّه لا قومَ أحبّ إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوْا رسولَك ، وكذّبوه وأخرجوه . اللهمّ وإن كنت قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تُمِتْني حتى تقرّ عيني من بني قُرَيظة .

حدّثنا سُفيان بن وكيع ، قال : حدّثنا محمد بن بشر ، قال : حدّثنا محمد بن عمرو ، قال : حدّثني أبي ، عن علقمة ، عن عائشة ، قالت : خرجتُ يوم الخَنْدق أقْفو آثار الناس ؛ فوالله إني لأمشي إذْ سمعت وئيد الأرض خلْفي ـ تعني حسَّ الأرض ـ فالتفتُّ فإذا أنا بسعد ؛ فجلست إلى الأرض ، ومعه ابن أخيه الحارث بن أوْس ـ شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ، حدّثنا بذلك محمد بن عمرو ـ يحمل مِجَنَّه ، وعَلَىٰ سعد دِرْع من حديد قد خرجت أطرافه منها .

قالت : وكان من أعظم الناس وأطولهم .

قالت : فأنا أتخوّفُ على أطراف سعد ، فمرّ بي يرتجز ، ويقول :

لَبِّثْ قليلًا يُدْرِكِ الْهَيْجا حَمَلْ ... مَا أَحْسَنَ المَوْتَ إذا حان الأجَلْ!

قالت : فلمّا جاوزني قمتُ فاقتحمت حديقة فيها نَفَر من المسلمين ، فيهم عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تَسْبِغَة له ـ قال محمد : والتَّسبغة المِغْفَر ـ لا تُرى إلَّا عيناه ، فقال عمر : إنكِ لَجَرِيئة ؛ ما جاء بكِ ؟ ما

يدريكِ لعلّه يكون تحوُّز أو بلاء ! فوالله ما زال يلومني حتى وددت أن الأرض تنشقّ لي فأدخل فيها ، فكشف الرجل التَّسبغة عن وجهه ، فإذا هو طلحة ؛ فقال : إنك قد أكثرت ، أين الفرار ، وأين التحوُّز إلّا إلى الله عزّ وجلّ !

قالت : فَرُمِيَ سعد يومئذ بسهم، رماه رجلٌ يقال له ابن العَرِقَة ؛ فقال : خذها وأنا ابنُ العَرِقَة ؛ فقال : سعْد : عرّق الله وجهك في النار ! فأصاب الأكحَل منه فقطعه . قال محمد بن عمرو : زعموا أنّه لم ينقطع من أحدٍ قطّ إلّا لم يزل يبضّ دماً حتى يموت . فقال سعد : اللّهمّ لا تمِتْني حتى تقرّ عيني في بني قُريظة ! وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عمن لا يتّهم ، عن عُبيد الله بن كعب بن مالك ، أنّه كان يقول : ما أصاب سعداً يومئذ بالسَّهم إلا أبو أسامة الجُشَميّ حليف بني مخزوم ؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان !

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عبّاد ، قال : كانت صفِيَّة بنت عبد المطّلب في فارع (حِصْنِ حسّانَ بن ثابت) . قالت : وكان حسّان مَعَنا فيه مع النِّساء والصبيان . قالت صفيّة : فمرّ بنا رجلٌ من يهود ، فجعل يُطِيف بالحصن ، وقد حاربَتْ بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، ليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا ، ورسولُ الله ﷺ والمسلمون في نحورِ عدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إن أتانا آت . قالت : فقلت : يا حسّان ، إنّ هذا اليهوديّ كما ترى ، يُطِيف بالحصن ، وإني والله ما آمنُه أن يدلّ على عوراتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شغل عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزلْ إليه فاقتلْه . فقال : يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطّلب ! والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا ! قالت : فلمّا قال ذلك لي ، ولَمْ أرَ عنده شيئاً احتجزت ؛ ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحِصْنِ إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلمّا فرغت منه رجعت إلى الحِصْن ، فقلت : يا حسّان ، انزل إليه فاسلبه ؛ فإنّه لم يمنعْني من سلبه إلّا أنه رجلٌ ؛ قال : ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب .

قال ابنُ إسحاق : وأقامَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه ؛ فيما وصف الله عزّ وجلّ من الخوف والشدّة ؛ لتظاهر عدوِّهم عليهم ، وإتيانهم من فَوْقهم ومن أسفل منهم .

ثم إنّ نُعَيْمَ بن مسعود بن عامر بن أُنَيْف بن ثعلبة بن قُنْفذ بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن رَيْث بن غَطَفان أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله ، إنّي قد أسلمت ، وإنّ قومِي لم يعلموا بإسلامي ؛ فمُرْني بما شئتَ . فقال له رسولُ الله ﷺ : إنّما أنت فينا رجلٌ واحد ؛ فَخَذِّلْ عنّا إن استطعت ؛ فإنّ الحربَ خُدعة . فخرج نُعَيم بن مسعود حتى أتى بني قُرَيظة ـ وكان لهم نديماً في الجاهلية ـ فقال لهم : يا بني قُرَيظة ، قد عرفتم وُدّي إيَّاكم ، وخاصّة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت ، لستَ عندنا بمتّهم ؛ فقال لهم : إنَّ قريشاً وغطَفان قد جاءوا لحرب محمَّد ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وإنَّ قريشاً وغطَفان ليسوا كهيئتكم ؛ البلد بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ؛ لا تقدرون على أن تَحَوَّلوا منه إلى غيره ، وإنّ قريشاً وَغطَفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره ؛ فليسوا كهيئتكم ، إن رأوْا نُهْزَةً وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقُوا ببلادهم ،

وخلّوْا بينكم وبين الرجل ببلدكم ؛ ولا طاقةَ لكم به إن خلا بكم ؛ فلا تقاتلُوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ؛ ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً ؛ حتى تناجزوه ، فقالوا : لقد أشرت برأيٍ ونصحٍ . ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبي سُفيان بن حرب ومَنْ معه من رجال قريش : يا معشَر قريش ، قد عرفتم ودّي إياكم ، وفراقي محمداً ؛ وقد بلغني أمْرٌ رأيتُ حقًّا عليّ أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عليّ . قالوا : نفعل ، قال : فاعلموا أنّ معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه أن قد ندِمْنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك عنّا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغَطَفان رجالاً من أشرافهم ؛ فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم؛ ثمّ نكون معك على مَنْ بقي منهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم ؛ فإن بعثتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم ؛ فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً . ثم خرجَ حتى أتى غَطَفان ، فقال : يا معشرَ غطفان ؛ أنتم أصلِي وعشيرتي ، وأحبّ الناس إليّ ، ولا أراكم تتّهمونني ! قالوا : صدقتَ ، قال : فاكتموا عليّ ، قالوا : نفعل ، ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش ، وحذّرهم ما حذّرهم ؛ فلمّا كانت ليلة السَّبت في شوّال سنة خمس ؛ وكان ممّا صنع الله عزّ وجلّ لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غَطَفان إلى بني قريظة عِكْرمة بن أبي جهل ، في نفرٍ من قريش وغَطَفان ، فقالوا لهم : إنّا لسْنا بدار مقام ؛ قد هلك الخفّ والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجزَ محمداً ونفرُغ ممّا بيننا وبينه ؛ فأرسلوا إليهم أنّ اليوم السَّبت ؛ وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ؛ وقد كان أحدث فيه بعضنا حدَثاً فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطُونا رُهُناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ؛ حتى نناجز محمداً ؛ فإنّا نخشى إن ضرّستْكم الحرب ، واشتدّ عليكم القتال ، أن تشمّروا إلى بلادكم وتتركونا والرّجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك من محمدٍ . فلمّا رجعت إليهم الرُّسل بالذي قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : تعلمون والله أنّ الذي حدّثكم نُعيم بن مسعود لحقّ . فأرسلوا إلى بني قريظة : إنّا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرُّسل إليهم بهذا : إنّ الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ ؛ ما يريد القوم إلاّ أن يقاتلوا ؛ فإن وجدوا فرصة انتهزوها ؛ وإن كان غير ذلك تشمّروا إلى بلادهم ، وخلّوْا بينكم وبين الرجل في بلادكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنّا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً ، فأبوْا عليهم ، وخذَّل الله بينهم ؛ وبعث الله عزّ وجلّ عليهم الريح في ليالٍ شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورَهم ، وتَطْرح أبنيتهم ، فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم ، وما فرّق الله من جماعتهم ، دعا حُذيفة بن اليَمان ، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً .

حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثنا يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرظيّ ؛ قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليَمان : يـا أبا عبـد الله ، رأيتم رسولَ الله وصحبتموه ! قال : نعم يا بن أخي ، قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنّا نجهَد ، فقال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة : يا بن أخي ؛ والله لقد رأيتُنا مع رسولِ الله ﷺ بالخندق ، وصلّىَ هَوِيًّا من الليل ، ثم التفت إلينا ، فقال : مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يَرجع ـ يشرُط له رسولُ الله أنه يرجع ـ أدخله الله الجنّة؟ فما قام رجل . ثم صلّى رسول الله ﷺ هَويًّا من الليل ، ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منّا رجل ، ثم صلّىَ رسولُ الله ﷺ هَوِيًّا من الليل ، ثم التفت إلينا ، فقال : مَنْ رجُل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشرُط له رسول الله الرجعة ـ

أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة ؟ فـما قام رجُلٌ من القوم من شدّة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد . فلما لم يقم أحدٌ دعاني رسولُ الله ﷺ فلم يكن لي بدّ من القيام حين دعاني . فقال : يا حذيفة ؛ اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثنّ شيئاً حتى تأتِيَنا ؛ قال : فذهبت فدخلتُ في القوم والريحُ وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ؛ لا تقرُّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان بن حرب ، فقال : يا معشرَ قريش ، لينظر امرؤٌ جليسَه ، قال : فأخذتُ بيد الرجلِ الذي كان إلى جنبي ، فقلت : مَنْ أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشرَ قريش ، إنّكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ ، وأخلَفَتْنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الّذي نكره ؛ ولقينا مِنْ هذه الريح ما تروْن ؛ والله ما تطمئنّ لنا قِدْرٌ ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناءٌ ؛ فارتحلوا فإني مرتحل .

ثم قام إلى جمَله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ؛ فما أطلق عِقَاله إلّا وهو قائم ؛ ولولا عهدُ رسول الله ﷺ إليّ ألّا أحْدِث شيئاً حتى آتيَه ، ثم شئت لقتلتُه بسهم . قال حذيفة : فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ ، وهو قائم يصلِّي في مِرْط لبعض نسائه مُرَحَّلٍ ؛ فلمّا رآني أدخلني بين رجليه وطرح عليّ طرف المِرْط ثم ركع وسجد ؛ فأذْلَقْتُه . فلمّا سلّم أخبرتُه الخبر ، سمعتْ غطفان بما فعلتْ قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق قال : فلمّا أصبَح نبيّ الله ﷺ انصرف عن الخندَق راجعاً إلى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح .

غَزْوَةَ بَني قريظة

فلما كانت الظُّهْر ، أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ - كما حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمَّد بن إسحاق ، عن ابن شهاب الزُّهريّ - معتجراً بعمامة من إستبرق ، على بغْلةٍ عليها رِحَالة ، عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أقد وضعتَ السِّلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال جبريل : ما وضعتِ الملائكةُ السِّلاحَ وما رجعت الآن إلّا من طلب القوم ؛ إنَّ الله يأمُرك يا محمَّد بالسَّير إلى بني قُريظة ، وأنا عامد إلى بني قُريظة .

فأمَرَ رسولُ الله ﷺ منادياً ، فأذّن في النَّاس : إنَّ مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّينّ العصر إلّا في بني قُريظة .

وقدّم رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب برايته إلى بني قُريظة ، وابتدرها الناس ، فسار عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ حتى إذا دَنَا من الحصون ؛ سمِع منها مقـالة قَبيحـة لرسـول الله ﷺ منهم؛ فرجع حتى لَقِيَ رسولَ الله ﷺ بالطريق ، فقال : يا رسولَ الله ، لا عليكَ ألّا تدنو من هؤلاء الأخابث ! قال : لِمَ ؟ أظنُّك سمعتَ لي منهم أذىً ! قال : نعم يا رسول الله . لو قد رأوْني لم يقولُوا من ذلك شيئاً . فلمّا دنا رسولُ الله ﷺ من حُصُونهم ، قال : يا إخوان القِردة ، هل أخزاكم الله ، وأنزل بكم نقمته ! قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنتَ جهولاً . ومرّ رسول الله ﷺ على أصحابه بالصَّوْرَيْن قبل أن يصلَ إلى بني قُرَيظة ، فقال : هل مرَّ بكم أحد ؟

فقالوا : نعم يا رسولَ الله ، قد مَرَّ بنا دِحْيَةُ بن خليفة الكلبيّ ، على بغلة بيضاء ، عليها رِحالة عليها قطيفة دِيباج ، فقال رسولُ الله ﷺ : ذلك جبريل ، بُعِثَ إلى بني قريظة يُزَلْزِلُ بهم حصونَهم ، ويقذِفُ الرّعب في قلوبهم . فلمّا أتى رسولُ الله ﷺ بني قريظة ، نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم ، يقال لها بئر أنا ، فلاحق به النّاس ، فأتاه رجالٌ من بعد العشاء الآخرة ، ولم يُصلّوا العصرَ ، لقول رسول ِ الله ﷺ : لا يصلّينّ أحدُ العصر إلّا في بني قريظة ، لشيء لم يكن لهم منه بُدٌّ من حربهم ؛ وأبوْا أن يُصلّوا ، لقول النبيّ ﷺ : حتّىٰ تأتوا بني قُرَيظة ، فصلُّوا العصر بها بعد العشاء الآخرة . فما عابهم الله بذلك في كتابه ؛ ولا عَنَّفَهم به رسولُ الله ﷺ . والحديث عن محمَّد بن إسحاق ، عن أبيه ، عن مَعْبَد بن كعب بن مالك الأنصاريّ .

حدّثنا ابنُ وكِيع ، قال : حدّثنا محمد بن بِشر ، قال : حدّثنا محمَّد بن عمرو ، قال: حدّثني أبي ، عن علقمة ، عن عائشة ، قالت : ضرب رسولُ الله ﷺ على سعد قُبَّة في المسجد ، ووضع السّلاح ـ يعني عند منصرَف رسول الله ﷺ من الخندق ـَ ووضع المسلمون السِّلاح ، فجاءه جبريل عليه السَّلام ، فقال : أوَضعتم السلاح ! فوالله ما وضعتِ الملائكة بَعْدُ السلاح ، اخرُجْ إليهم فقاتِلْهم ، فدعا رسولُ الله ﷺ بلأمتِه فلبسها ، ثم خرج وخرج المسلمون ؛ فمرّ ببني غَنْم ، فقال : من مَرّ بكم ؟ قالوا : مرّ علينا دِحْيَة الكلبيّ ـ وكان يشبِّهُ سُنّتَه ولِحيته ووجهه بجبريل عليه السلام ـ حتى نزل عليهم ، وسعدُ في قُبّته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ في المسجد ؛ فحاصرهم شهراً ـ أو خمساً وعشرين ليلة ـ فلما اشتدّ عليهم الحصار قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ، فأشار أبو لُبابة بن عبد المنذر إنَّه الذبح ، فقالوا : ننزل على حكم سعد بن مُعاذ ، فقال رسولُ الله ﷺ : انزلوا على حكمه ، فنزلوا ، فبعث إليه رسولُ الله ﷺ بحمار بإكَاف من لِيف ، فحمِل عليه . قالت عائشة : لقد كان بَرَأ كَلْمُهُ حتى ما يُرى منه إلّا مثل الخُرْص .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق ، قال : وحاصرهم رسولُ الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة ؛ حتى جَهَدهم الحِصَار ، وقذف الله في قلوبهم الرّعب ـ وقد كان حُيَـيُّ بن أخطب دخلَ على بني قُريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ـ فلما أيقنوا أنّ رسولَ الله ﷺ غيرُ منصرف عنهم حتّىٰ يناجزَهم ، قال كعب بن أسد لهم : يا معشرَ يهود ، إنَّه قد نزل بكم من الأمر ما ترَوْن ، وإني عارضٌ عليكم خِلالاً ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم ! قالوا : وما هنّ ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونُصَدّقه ؛ فوالله لقد كان تبيّنَ لكم أنَّه لنَبيّ مرسل، وأنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم ، فتأمَنُوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيرَه . قال : فإذا أبيتم هذه عليَّ فهَلمّ فلنقتل أبناءَنا ونساءَنا ، ثم نخرج إلى محمّد وأصحابه رجالاً مُصْلِتِين السيوف ؛ ولم نترك وراءَنا ثَقَلاً يهمّنا ؛ حتى يحكم الله بيننا وبين محمّد ؛ فإن نهلِك نهلِك ولم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه ، وإن نظْهر فَلَعمري لنجدنّ النساءَ والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؛ فما خير العيش بعدهم ! قال : فإذا أبيتم هذه عليّ فإن الليلة ليلة السَّبت ؛ وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنُوا فيها ، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمد وأصحابه غِرَّةً . قالوا : نُفْسِد سبتَنا، ونُحْدث فيه ما لم يكن أحدث فيه مَنْ كان قبلنا ، إلّا مَنْ قد علمت . فأصابه من المسخ ما لم يخفَ عليك . قال : ما بات رجل منكم منذ ولدتْه أمه ليلة واحدة من الدّهر حازماً .

قال : ثم إنَّهم بعثوا إلى رسولِ الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر ؛ أخا بني عمرو بن

عوف ـ وكانوا حلفاء الأوس ـ نستشيره في أمرنا ، فأرسله رسولُ الله ﷺ إليهم فلما رأوْه قام إليه الرجال ، وبهشَ إليه النساءُ والصبيان يبكون في وجهه ؛ فرَقَّ لهم وقالوا له : يا أبا لُبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمَّد ! قال : نعم ، وأشـار بيده إلى حلْقه : إنه الذَّبح ؛ قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني خُنْتُ الله ورسوله .

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسولَ الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوبَ الله عليَّ مما صنعت ؛ وعاهد الله ألاّ يطأ بني قريظة أبداً . وقال : لا يراني الله في بلد خُنْت الله ورسوله فيه أبداً . لما بلغ رسولَ الله ﷺ خبرُه ، وأبطأ عليه ـ وكان قد استبطأه ـ قال : أما لو جاءني لاستغفرت له ؛ فأما إذْ فعل ما فعل ، فما أنا بالَّذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة بن الفضل ، قال : حدّثنا محمد بن إسحـاق ، عن يزيـد بن عبد الله بن قُسَيْط ، أنّ توبة أبي لُبابة أنزلَتْ على رسولِ الله ﷺ : وهو في بيت أمّ سلَمة . قالت أمّ سلمة : فسمعتُ رسولَ الله ﷺ من السَّحَر يضحك فقلت : مِمَّ تضحك يا رسول الله ، أضحكَ الله سِنَّك ! قال : تِيبَ على أبي لُبابة ، فقلت : ألاَ أبشّره بذلك يا رسول الله ! قال : بَلَىٰ إن شئتِ ؛ قال : فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يُضرب عليهنّ الحجاب ـ فقالت : يا أبا لُبابة ، أبشِرْ فقد تاب الله عليك . قال : فثارَ الناس إليه ليُطلقوه ؛ فقال : لا والله حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يُطْلِقني بيده ، فلما مَرَّ عليه خارجاً إلى الصّبح أطْلَقَه .

قال ابن إسحاق : ثمّ إنّ ثعلبة بن سَعْيَة وأَسَيْد بن سَعْية ، وأسَد بن عُبَيْدٍ ـ وهم نفر من بني هَدْل ؛ ليسوا من بني قُرَيظة ولا النَّضير ، نَسَبهُم فوق ذلك ـ هم بنو عمّ القوم أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها قُريظة على حكم رسولِ الله ﷺ ـ وخرج في تلك الليلة عمرو بن سُعْدَىٰ القرظيّ ، فـمرَّ بحَرَس رسولِ الله ﷺ ؛ وَعَلَيْهِ محمد بن مَسْلَمة الأنصاريّ تلك الليلة ؛ فلمَّا رآه قال : من هذا ؟ قـال : عمرو بن سعـدى ـ وكان عمرو قد أبَىَ أن يدخلَ مع بني قُريظة في غَدْرهم برسول الله ﷺ ، وقال : لا أغدِر بمحمّد أبداً ـ فقال محمَّد بن مَسْلمة حين عَرَفه : اللهمّ لا تحرِمْني عَثَراتِ الكرام . ثمّ خلَّى سبيله ؛ فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة . ثم ذهب فلا يُدْرَىٰ أين ذهب من أرض الله إلى يومه هذا ! فذكِر لرسول الله ﷺ شأنه ، فقال : ذاك رجل نجَّاه الله بوفائه .

قال ابن إسحاق : وبعضُ النَّاس يزعم أنه كان أوثِق برُمَّة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأصبحَتْ رُمَّته مُلْقاةً لا يُدْرَىٰ أين ذهب ، فقال رسولُ الله ﷺ فيه تلك المقالة . والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فلما أصبحوا نزلـوا على حكم رسـولِ الله ﷺ ، فتواثبت الأوس ، فقـالوا : يـا رسولَ الله ، إنَّهم مَوَالينا دون الخَزْرج ، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت ـ وقد كان رسولُ الله ﷺ قبل بني قُريظة حاصر بني قَيْنُقاع ، وكانوا حلفاء الخَزْرج ، فنزلوا على حكمه ؛ فسأله إيَّاهم عبد الله بن أبيّ بن سَلُول ، فوهبهم له . فلمّا كلّمه الأوْس قال رسولُ الله ﷺ : ألا ترضَوْن يا معشرَ الأوْس أن يحكم فيهم رجل منكم ! قالوا : بلى ، قال : فذاك إلى سَعْد بن معاذ ـ وكان سعد بن معاذ قد جعله رسولُ الله ﷺ في خَيْمة امرأة من أسلم يقال لها رُفَيْدة في مسجده ، كانت تُداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ كانت

به ضَيْعة من المسلمين ؛ وكان رسولُ الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السَّهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رُفَيْدة ، حتى أعودَه من قريب ـ فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة ، أتاه قومُه ، فاحتملوه على حِمار قد وطَّئوا له بوسادة من أدَم ـ وكان رجلاً جسيماً ـ ثم أقبلوا معه إلى رسولِ الله ﷺ ، وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحْسِنْ في مواليك ؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ إنَّما ولاّك ذلك لتُحْسِن فيهم . فلما أكثروا عليه قال : قد آن لسعد ألاّ تأخُذَه في الله لومة لائم . فرجع بعضُ مَنْ كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فنعَى لهم رجال بني قُريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه .

قال أبو جعفر : فلما انتهى سعْدٌ إلى رسولِ الله ﷺ والمسلمين ، قال رسولُ الله ﷺ ـ فيما حدّثنا ابنُ وكيع ، قال : حدّثنا محمد بن بشر ، قال : حدّثنا محمد بن عمرو ، قال : حدّثني أبي ، عن علقمة : في حديث ذكره ، قال : قال أبو سعيد الخُدرِيّ : فلما طلعَ ـ يعني سعداً ـ قال رسولُ الله ﷺ : قوموا إلى سيِّدَكم ـ أو قال : إلَىٰ خيركم ـ فأنزلوه ، فقال رسولُ الله ﷺ : احكم فيهم ، قال : فإنّي أحكم فيهم أن تقتل مُقاتلتهم ، وأن تُسْبَىٰ ذَرارِيُّهم ، وأن تُقْسَم أموالُهم . فقال : لقد حكَمْت فيهم بحكم الله وحكم رسوله .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق : وأمّا ابن إسحاق فإنَّه قال في حديثه : فلما انتهى سعدٌ إلى رسولِ الله ﷺ والمسلمون ؛ قال رسولُ الله ﷺ : قوموا إلى سيِّدكم ، فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، إنَّ رسولَ الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيها ما حكمت ! قالوا : نعم ، قال : وعلى من ها هنا ؟ ـ في النَّاحية التي فيها رسولُ الله ﷺ ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له ـ فقال رسولُ الله ﷺ : نعم ، قال سعْد : فإني أحكُم فيهم بأن تُقتَلَ الرّجال ، وتُقسَم الأموال ، وتسبَىٰ الذراريُّ والنساء .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال: حدّثني محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، عن علقمة بن وقّاص الليثيّ ، قال : قال رسولُ الله ﷺ لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرْقِعَة .

قال ابنُ إسحاق : ثمّ استُنْزلوا ، فحبسهم رسولُ الله ﷺ في دار ابنة الحارث ، امرأة من بني النَّجّار . ثمّ خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم ، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلكِ الخنادق ؛ يُخرَج بهم إليه أرْسَالاً ؛ وفيهم عدوّ الله حُيَيُّ بن أخطب ، وكعب بن أسد ؛ رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ؛ المكثِّرُ لهم يقول : كانوا من الثمانمائة إلى التسعمائة . وقد قالوا لكعب بن أسد ـ وهم يُذْهَب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسَالاً ـ : يا كعب ، ما ترى ما يصنع بنا ! فقال كعب : في كلّ موطن لا تعقلون : ألا ترَوْن الداعي لا ينزع ، وأنَّه من ذُهِبَ به منكم لا يرجع ، هو والله القتل ! فلم يزل ذلك الدّأبُ حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ ، وَأُتِيَ بِحُيَيّ بن أخطب عدوّ الله وعليه حلَّة له فقّاحِيّة قد شقّقها عليه من كلّ ناحية كموضع الأنملة ، أنملة أنملة ، لئلا يُسْلَبها ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلمّا نظر إلى رسول الله ﷺ ، قال : أما والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك ؛ ولكنه من يَخْذُلِ الله يُخْذَل . ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، إنَّه لا بأس بأمر الله ، كتاب الله وقَدَرُه ،وملحمةٌ قد كتبت على بني إسرائيل . ثم جلس فضُربت عنقه ، فقال جبل بن جَوّال الثعلبيّ :

لَعَمْـرُك مَـا لَامَ ابْنُ أَخْـطَبَ نَفْسَـهُ ولكنـه مَنْ يَـخْـذُلِ آللّهَ يُـخْـذَلِ
لَجَـاهَـدَ حتى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُـذْرَهَـا وَقَلْقَـلَ يَبْغِي الـعِـزَّ كـلَّ مُقَلْقَـلِ

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حـدّثني محمد بن إسحـاق ، عن محمد بن جعفـر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، قالت : لم يُقتل من نسائهم إلَّا امرأة واحدة . قالت : والله إنَّها لعِنْدِي تَحَدَّثُ معي ، وتضحـك ظهراً وبطناً ، ورسـولُ الله ﷺ يقتلُ رجـالهم بالسـوق ؛ إذ هتف هاتفٌ باسمها : أين فُلانة ؟ قالت : أنا والله . قالت : قلت : ويلك ما لك ! قالت : أقتَل ! قلت : ولِمَ ؟ قالت : حَدَثٌ أحدثته . قالت : فانُطِلَقَ بها فضُربت عنُقُها . فكانت عائشة تقول : ما أنْسىَ عجبنا منها ، طيبَ نفس وكثرة ضحك ، وقد عرفَتْ أنها تُقْتَل !

وكان ثابت بن قيس بن شَمَّاس ـ كما حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن ابن شهاب الزُّهريّ ـ أتى الزبير بن باطا القُرَظيّ ـ وكان يكنى أبا عبد الرحمن ـ وكان الزّبير قد مَنَّ على ثابت بن قيس بن شَمَّاس في الجاهلية . قال محمَّد : مما ذكر لي بعضُ ولد الزّبير ، أنه كان مَنَّ عليه يوم بُعاث ؛ أخذه فجَزَّ ناصيته ، ثم خلَّىٰ سبيله ـ فجاءَه وهو شيخ كبير ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، هل تعرفني ؟ قال : وهل يجهَلُ مثلي مثلَك ! قال : إني قد أردتُ أن أجزيَك بيدك عندي ، قال : إنَّ الكريم يجزي الكريم . ثم أتى ثابت رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ؛ قد كانت للزّبير عندي يَدٌ ؛ وله عليّ مِنَّةٌ ؛ وقد أحببت أن أجزيَهُ بها ؛ فهبْ لي دَمَه . فقال رسولُ الله ﷺ : هو لك ، فأتاه فقال : إنَّ رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك ؛ قال : شيخ كبير لا أهْلَ له ولا ولد ؛ فما يصنع بالحياة ! فأتى ثابت رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أهلُه وولده ، قال : هم لك ، فأتاه فقال : إنّ رسولَ الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك . قال : أهلُ بيت بالحجاز لا مالَ لهم ، فما بقاؤهم ! فأتى ثابتٌ رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله ، ماله ! قال : هو لك ، فأتاه فقال : إنّ رسولَ الله قد أعطاني مالك فهو لك ، قال : أيْ ثابت ! ما فعل الذي كأنّ وَجْهَهُ مِرْآة صِينِيَّة تتراءى فيها عذارَىٰ الحيّ ؛ كعب بن أسد ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل سيّد الحاضر والبادي ؛ حُيَـيّ بن أخطب ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل مقدّمتُنا إذا شددْنَا ، وحاميتُنا إذا كررنا ؛ عزَّال بن شمويل ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل المجلسان ـ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريـظة ـ قال : ذَهَبُوا ، قتِلوا . قال : فإنّي أسألك بيدي عندك يا ثابت ، إلَّا ألحقْتَني بالقوم ؛ فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله قَبْلة دَلْو نَضَح حتى ألقىٰ الأحِبَّةَ ! فقدَّمه ثابت فضرب عنقه ؛ فلما بلغ أبا بكر قوله : « ألقى الأحبة » قال : يلقاهم والله في نار جهنَّم خالداً فيها مُخَلَّداً أبداً . فقال ثابت بن قيس بن الشماس في ذلك ، يذكر الزَّبير بن باطا :

وَفَـتْ ذِمَّـتِـي أنّـي كـريـمٌ وأنـنـي صَبُـورٌ إذا ما القـومُ حَادُوا عَن الصَّبـرِ
وكـان زَبـيـرٌ أعْـظَمَ النَّـاس مِـنَّـةً عَلَيَّ فلمّـا شُـدَّ كُـوعـاهُ بـالأسْـرِ
أتـيـتُ رسولَ الـلّه كَـيْـمَـا أفُـكَّـهُ وكـان رسـولُ اللّه بَحْـراً لنا يَجْـرِي

قال : وكان رسولُ الله ﷺ قد أمر بقتل مَنْ أنبت منهم .

فحدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن أيوب بن عبد الرحمن بن

عبد الله بن أبي صَعْصَعة ، أخي بني عديّ بن النَّجار ؛ أنّ سَلْمَىٰ بنت قيس أمّ المنذر أخت سَلِيط بن قيس - وكانت إحدى خالاتِ رسولِ الله ، قد صَلَّتْ معه القبلتين ، وبايعَتْه بيعة النساءِ - سألَتْه رفاعَةَ بن شمويل القرظيّ - وكان رجلاً قد بلغ ولاذَ بها ، وكان يعرفهم قبل ذلك - فقالت : يا نبيّ الله ، بأبي أنت وأمّي ! هبْ لي رفاعةَ بن شمويل ؛ فإنّه قد زعم أنه سيُصَلّي ، ويأكل لحم الجمل ؛ فوهبه لها ؛ فاستَحْيَتْه .

قال ابن إسحاق : ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ قسّم أموال بني قُريظة ونساءَهم وأبناءَهم على المسلمين ، وأعلم في ذلك اليوم سُهْمَانَ الخيل وسهمان الرجال ، وأخرج منها الخُمْس ؛ فكان للفارس ثلاثة أسهم ؛ للفرس سهمان ولفارسه سهم ، وللراجل ممّن ليس له فرسٌ سهم ، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرساً ، وكان أوّل فَيْء وقع فيه السهمان وأخرج منه الخمس ، فعَلَىٰ سُنّتها وما مضىٰ من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم ، ومضت السنَّة في المغازي ؛ ولم يكن يُسهِم للخيل إذا كانت مع الرجل إلّا لفرسين .

ثم بعثَ رسولُ الله ﷺ سعدَ بن زيد الأنصاريّ ، أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قُرَيظة إلى نجد ، فابتاع له بهم خيلاً وسلاحاً ، وكان رسولُ الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم رَيْحانة بنت عمرو بن خُنافة إحدى نساء بني عمرو بن قُرَيظة ، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفّي عنها وهي في مِلْكِهِ ، وقد كان رسولُ الله ﷺ عرض عليها أن يتزوّجها ، ويضربَ عليها الحجاب ، فقالت : يا رسولَ الله ، بل تتركني في ملكك فهو أخفّ عليَّ وعليك . فتركها ؛ وقد كانت حين سباها رسول الله ﷺ قد تَعَصَّتْ بالإسلام ، وأبَتْ إلّا اليهوديَّة ، فعزلها رسولُ الله ﷺ ووجد في نفسه لذلك من أمرها ؛ فبينا هو مع أصحابه إذْ سمع وَقْعَ نعلَيْن خلفه ، فقال : إنّ هذا لثعلبة بن سعيَة يبشّرني بإسلام ريحانة ، فجاءَه فقال : يا رسولَ الله ، قد أسلمتْ ريحانة ، فسرَّه ذلك .

فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جُرْحُ سعد بن معاذ ، وذلك أنه دعا - كما حدّثني ابنُ وكِيع ، قال : حدّثنا ابن بشر ، قال : حدّثنا محمد بن عمرو ؛ قال : حدّثني أبي ، عن علقمة ، في خبر ذكره عن عائشة : ثم دعا سعد بن معاذَ - يعني بعد أن حكم في بني قريظة ما حكم - فقال : اللهمّ إنَّك قد علمت أنَّه لم يكن قوم أحبَّ إليّ أن أقاتلَ أو أجاهد من قوم كذّبوا رسولك . اللهمّ إن كنتَ أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئاً فأبقني لها ، وإن كنتَ قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك . فانفجر كَلْمُهُ ، فَرَجَعَه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد . قالت عائشة : فحضره رسولُ الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ؛ فوالّذي نفس محمد بيده ؛ إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وإني لفي حُجرتي . قالت : وكانوا كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1] قال علقمة : أي أمَّهْ ! كيف كان يصنع رسول الله ﷺ ؟ قالت : كانت عينه لا تَدْمَعُ على أحدٍ ؛ ولكنّه كان إذا اشتدّ وَجْدُهُ على أحد ، أو إذا وَجَد فإنما هو آخذٌ بلحيته .

حدّثنا ابنُ حُميد ؛ قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني ابنُ إسحاق ، قال : لم يُقتل من المسلمين يوم الخندق إلّا ستة نفر ، وقُتل من المشركين ثلاثة نفر ، وقُتل يوم بني قريظة خَلّاد بن سُوَيْد بن ثعلبة بن عمرو بن بلحارث بن الخزرج ، طُرِحَتْ عليه رحىً فشدختْه شدخاً شديداً . ومات أبو سنان بن محصن بن حُرْثان ، أخو بني أسد بن خزيمة ، ورسولُ الله ﷺ محاصِرٌ بني قريظةَ ، فدفن في مقبرة بني قُريظة . ولـمّا انصرف

(١) سورة الفتح : ٢ .

رسولُ الله ﷺ عن الخندق ، قال : الآن نَغْزوهم ـ يعني قريشاً ـ ولا يغزوننا ، فكان كذلك حتى فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكّة .

وكان فتح بني قُريظة في ذي القَعْدة أو في صدر ذي الحجة ، في قول ابن إسحاق . وأما الواقديّ فإنه قال : غَزَاهم رسول الله ﷺ في ذي القعدة ، لليال بقِين منه ؛ وزعَم أنّ رسول الله ﷺ أمر أن يُشَقَّ لبني قُريظة في الأرض أخاديد ثم جلس ؛ فجعل عليّ والزبير يضربان أعناقهم بين يديه ، وزعم أنّ المرأة التي قتلها النبيّ ﷺ يومئذ كانت تسمى بُنَانَة ، امرأة الحَكَم القرظيّ ؛ كانت قتلت خلّاد بن سُوَيد ، رمتْ عليه رَحىً ، فدعا له رسولُ الله ﷺ ، فضرب عنقها بخلّاد بن سويد .

واختلف في وقت غزوة النبيّ ﷺ بني المصطلق ؛ وهي الغزوة التي يقال لها غزوة المُرَيْسيع ـ والمريسيع اسم ماء من مياه خُزاعة بناحية قديد إلى الساحل ـ فقال : ابن إسحاق ـ فيما حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، عنه ، أنّ رسول الله ﷺ غزا بني المصطلِق من خُزَاعة ، في شعبان سنة ست من الهجرة .

وقال الواقدّي : غزا رسول الله ﷺ المريسِيع في شعبان سنة خمس من الهجرة . وزعم أن غزوة الخندق وغزوة بني قريظة كانتا بعد المريسيع لحرب بني المصطلق من خُزَاعة .

وزعم ابنُ إسحاق ـ فيما حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عنه ـ أنّ النبيّ ﷺ انصرف بعد فراغه من بين قُريظة ؛ وذلك في آخر ذي القعدة أو في صدر ذي الحجَّة ـ فأقام بالمدينة ذا الحجَّة والمحرّم وصفراً وشهري ربيع ، وولي الحجَّة في سنة خمس المشركون .

ذكر الأحداث التي كانت في سنة ست من الهجرة
غزوة بني لِحيان

قَال أبو جعفر : وخرج رسولُ الله ﷺ في جُمادى الأولى على رأس ستَّة أشهر من فتح بني قُريظة إلى بني لِحيان ، يطلب بأصحاب الرّجيع ؛ خُبَيب بن عديّ وأصحابه ؛ وأظهر أنه يريد الشأم ليصيب من القوم غِرَّةً . فخرج من المدينة ، فسلك على غُراب (جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشأم) ثم على مَخِيض ، ثم على البتراء ؛ ثم صفّق ذات اليسار ، ثم على يَيْن ، ثم على صُخَيْرات اليمام ، ثم استقام به الطريق على المحجَّة من طريق مكة ، فأغَذّ السير سريعاً ؛ حتى نزل إلى غُرَان ؛ وهي منازل بني لحيان ـ وغُرَان وادٍ بين أَمَج وعُسْفان ـ إلى بلد يقال له ساية ، فوجدهم قد حِذُروا وتمنَّعوا في رؤوس الجبال ، فلمّا نَزَلها رسولُ الله ﷺ وأخطأه من غرّتهم ما أراد ، قال : لو أنَّا هبطنا عُسفان لرأى أهل مكّة أنّا قد جئنا مكّة . فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عُسفان ، ثم بعث فارسيْن من أصحابه ؛ حتى بلغا كُرَاع الغَمِيم ، ثم كرَّا وراح قافلاً .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني ابنُ إسحاق ، ـ قال : والحديث في غزوة بني لحيان ـ عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ، عن عبيد الله بن كعب .

قال ابن إسحاق : ثم قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة ، فلم يُقِمْ إلَّا لياليَ قلائل حتى أغار عُيَيْنة بن حِصْن بن حذَيفة بن بدر الفازريّ في خيل لغطفان على لِقَاح رسول الله ﷺ بالغابة ؛ وفيها رجلٌ من بني غَفَار وامرأته ، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللّقاح .

غزوة ذي قَرَد

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمّد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ومَنْ لا أتَّهم ، عن عُبيد الله بن كعب بن مالك ، كلٌّ قد حَدَّثَ في غزوة ذي قَرَد بعض الحديث ، أنه أوّل من نَذِرَ بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلميّ ، غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونَبْلَه ، ومعه غلام لطلحة بن عبد الله .

وأمّا الرّواية عن سَلَمة بن الأكوع بهذه الغزوة من رَسُولِ الله ﷺ بعد مقدَمه المدينة ، منصرفاً من مكة عام الحديبية ، فإن كان ذلك صحيحاً ، فينبغي أن يكون ما رُوي عن سلمة بن الأكوع كان إمَّا في ذي الحجَّة من سنة ستّ من الهجرة ، وإمَّا في أول سنة سبع ، وذلك أنّ انصراف رَسُول الله ﷺ من مكّة إلى المدينة

عام الحدَيْبِيَة كان في ذي الحِجَّة من سنة ستّ من الهجرة ، وبين الوقت الذي وقَّته ابن إسحاق لغزوة ذي قَرَد والوقت الَّذِي رُوِي عن سلمة بن الأكوع قريب من ستة أشهر . حدّثنا حديث سَلَمة بن الأكوع الحسنُ بن يحيى ، قال : حدّثنا أبو عامر العَقَدِيّ ، قال : حدّثنا عِكْرمة بن عَمَّار اليماميّ ، عن إياس بن سَلَمة ، عن أبيه ، قال : أقبلنا مع رَسُولِ الله ﷺ إلى المدينة - يعني بعد صلْح الحدَيْبِيَة - فبعث رسولُ الله ﷺ بظهره مع رَبَاح غلام رسول الله ، وخرجتُ معه بفرس لطلحة بن عبيد الله . فلمّا أصبحنا إذا عبد الرحمن بن عُيَيْنة قد أغار على ظَهْر رسول الله ﷺ ، فاستاقه أجمع ، وقتل راعيه . قلت : يا رَبَاح ؛ خذ هذا الفرس وأبلْغه طلحة . وأخبرْ رسولَ الله أنّ المشركين قد أغاروا على سَرْحِه . ثم قمت على أكَمة استقبلت المدينة ، فناديت ثلاثة أصوات : يا صَبَاحاه ! ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنَّبْل ، وأرتجز وأقول : « أنا ابن الأكوع ، واليوم يوم الرضّع » .

قال : فوالله ما زلتُ أرميهم وأعقِر بهم ، فإذا رجع إليّ فارس منهم أتيت شجرةً وقعدت في أصلها ، فرميتُه فعقرْت به ؛ وإذا تضايق الجبل فدخلوا في مُتَضَايَقٍ علوْت الجَبَل ، ثم أردّيهم بالحجارة ؛ فوالله ما زلت كذلك حتى ما خَلَقَ الله بعيراً من ظهْر رسول الله ﷺ إلَّا جعلته وراء ظَهْري ، وَخَلَّوْا بيني وبينه وحتَّىٰ ألقوْا أكثر من ثلاثين رُمحاً وثلاثين بُرْدةً ، يستخفُّون بها لا يُلْقُون شيئاً إلَّا جعلت عليه آراماً حتّىٰ يعرفه رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى إذا انتهَوْا إلى متضايق من ثنيَّة وإذا هم قد أتاهم عُيَيْنة بن حِصْن بن بـدر مُمِدًّا ، فقعـدوا يَتَضَحّوْن ، وقعدت على قَرْن فوقهم ، فنظر عيَينة ، فقال : ما الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا البَرْح ، لا والله ما فارقنا هذا منذ غلَس ، يرمينا حتى اسْتنقذ كلّ شيء في أيدينا . قال : فليقُمْ إليه منكم أربعة . فعمَد إليّ أربعة منهم . فلمَّا أمكنوني من الكلام ، قلت : أتعرفوني ؟ قالوا : مَنْ أنت ؟ قلت : سَلَمَة بن الأكوع ؛ والذي كرَّم وَجْهَ محمد لا أطلبُ أحداً منكم إلَّا أدركته ؛ ولا يطلبني رجل منكم فيدركني . قال أحدهم : أنا أظنّ ، قال : فرجعوا فما برحت مكاني ذاك حتى نظرت إلى فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر ؛ أوّلهم الأخْرَم الأسديّ ، وعلى إثْره أبو قَتَادة الأنصاريّ ، وعلى إثْره المِقْداد بنُ الأسود الكِنديّ ، فأخذت بعِنان فرس الأخْرم ، [فولّوا مدبرين] ، فقلت : يا أخرم ؛ إنّ القوم قليل ، فاحذرهم لا يقتطعوك حتى يلحقَ بنا رسولُ الله وأصحابه . فقال : يا سلمة ، إن كنتَ تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلم أنّ الجنّة حقّ والنار حقّ ، فلا تُحل بيني وبين الشهادة . قال : فحلَّيتُه ، فالتقى هو وعبد الرحمن بنُ عيينة ، فعقر الأخرم بعبد الرحمن فرسه ، فطعنه عبدُ الرحمن فقتله ، وتحوّل عبد الرحمن على فرسه ، ولحِقَ أبو قَتَادة عبد الرحمن فطعنه وقتله ، وَعَقَرَ عبد الرحمن بأبي قتادة فرسه ، وتحوّل أبو قتادة على فرس الأخرم ؛ فانطلقوا هاربين . قال سَلَمة : فوالذي كَرَّم وجه محمد ، لتَبِعْتهم أعْدُو على رجليّ ؛ حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمَّد ﷺ ولا غبارهم شيئاً .

قال : ويعدِلُون قبل غروب الشمس إلى شِعْب فيه ماء يقال له ذو قَرَد يشربون منه وهم عِطَاش ؛ فنظروا إليّ أعدو في آثارهم ؛ فَحَلَّيْتُهم فما ذاقوا منه قطرة .

قال : ويُسْندون في ثنيّة ذي أثير ، ويعطف عليّ واحدٌ فأرْشُقُه بسهم فيقع في نُغْض كتفه ، قلت :

خُـذهـا وأنـا ابـنُ الأكـوع والـيـومُ يـومُ الـرُّضَّـع

فقال : أكْوَعِي غُدْوَةً ! قلت : نعم يا عدوّ نفسه ؛ وإذا فَرَسان على الثنيَّة ، فجئت بهما أقودُهمـا إلى

رسول الله ، ولحِقني عامر عميّ بعدما أظلمت بسَطِيحة فيها مِذْقَة من لبن ، وسطيحة فيها ماء ، فتوضّأتُ وصلّيت وشربت ، ثمّ جئت إلى رسولِ الله ﷺ وهو على الماء الذي حلّيْتُهم عنه ، عند ذي قَرَد ، وإذا رسولُ الله قدَ أخذ تلك الإبل التي استنقذتُ من العدوّ ، وكلّ رُمح ، وكلّ بُردة ؛ وإذا بلال قد نَحَر ناقة من الإبل التي استنقَذت من العدوّ ، فهو يشوي لرسولِ الله ﷺ من كَبِدها وَسَنامها ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ خلّني فْلأنتخِب مائةَ رجل من القوم ، فأتّبعُ القوم فلا يبقى منهم عين . فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدا ـ وَقَد بانت ـ نواجذُهُ . في ضوء النار . ثم قال : أكنتَ فاعلاً ! فقلتُ : إي والَّذي أكرمك !

فلمَّا أصبحنا قال رسول الله إنَّهم ليُقْرَوْن بأرض غَطَفان . قال : فجاء رجلٌ من غَطَفان ، فقال : نحر لهم فلان جَزوراً ، فلمَّا كشطوا عنها جلدها رأوْا غُباراً ؛ فقالوا : أتِيتمْ ! فخرجوا هاربين ، فلمَّا أصبحنا قال رسولُ الله ﷺ : خير فُرْساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رَجالتنا سلَمة بن الأكْوع . ثمَّ أعطاني رسولُ الله ﷺ سهمين سهم الفارس ، وسهْم الراجل ؛ فجمعهما لي جميعاً ، ثم أردفني رسولُ الله وراءه على العَضباء ؛ راجعين إلى المدينة . فبينما نحن نسير ؛ وكان رجل من الأنصار لا يُسْبَق شَدًّا فجعل يقول : ألا مِن مسابق ! فقال ذاك مِراراً ؛ فلمّا سمعتُه قلتُ : أما تُكرم غريماً ولا تهاب شريفاً ! فقال : لا ؛ إلاَّ أن يكون رسول الله ، فقلت : يا رسولَ الله ، بأبي أنتَ وأمي ! ائذَنْ لي فلأسابق الرجل ! قال : إن شئت ، قال : فطفرت فعدوتُ ، فربطتُ شَرَفاً أو شرفيْن فألحقه وأصكُّه بين كتفيْه ، فقلت : سبقتك والله ! فقال : إنّي أظنّ ، فسبقته إلى المدينة ، فلم نمكث بها إلاَّ ثلاثاً حتى خرجنا إلى خَيْبر .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله ـ يعني مع سَلَمة بن الأكوع ـ معه فرس له يقوده ، حتى إذا علا على ثنيَّة الوَدَاع نظر إلى بعضِ خيولهم ، فأشرف في ناحية سَلْع ، ثم صرخ : وا صَبَاحاه ! ثم خرج يشتدّ في آثار القوم ـ وكان مثل السَّبُعُ ـ حتى لحِق بالقوم ، فجعل يرُدُّهم بالنَّبْل ، ويقول إذا رمى : « خُذها مني وأنا ابن الأكوع ، واليوم يوم الرضع » .

فإذا وُجّهتُ الخيل نحوه ، انطلق هارباً ، ثم عارضهم ؛ فإذا أمكنه الرميُ رَمَىٰ ، ثم قال :

خُذها وانا ابنُ الأكوعِ والْيومُ يوم الرضّعِ

قال : فيقول قائلهم : أويكعنا هو أول النهار .

قال : وبلغ رسولَ الله ﷺ صياحُ ابن الأكوع ؛ فصرخ بالمدينة : الفزع الفزع !؛ فتتامَّتِ الخيول إلى رسول الله ﷺ ؛ فكان أوّلَ من انتهى إليه من الفرسان المقداد بن عمرو .

ثم كان أول فارس وقف على رسول الله ﷺ بعد المقداد من الأنصار ، عبَّاد بن بشْر بن وَقْش بن زُغْبَة بن زَعُورا ، أخو بني عبد الأشهل ، وسعد بن زيد ، أحد بني كعب بن عبد الأشهل ، وأسيد بن ظُهَير أخو بني حارثة بن الحارث ـ يُشكّ فيه ـ وعُكَّاشة بن مِحْصَن ، أخو بني أسد بن خُزيمة ، ومُحْرِز بن نَضْلة ، أخو بني أسَد بن خزيمة ، وأبو قَتَادة الحارث بن رِبْعيّ ، أخو بني سَلِمة ، وأبو عيَّاش ؛ وهو عُبَيد بن زيد بن صامت ، أخو بني زُرَيق .

فلمَّا اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّر عليهم سعد بن زيد . ثم قال : اخْرُج في طلب القوم حتى ألحقك في النَّاس .

وقد قال رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني عن رجال من بني زُرَيق ـ لأبي عيَّاش : يا أبا عيَّاش ، لو أعطيتَ هذا الفرس رجلاً هو أفرسُ منك فلحق بالقوم ! قال أبو عيَّاش : فقلت : يا رسول الله ، أنا أفرسُ الناس ، ثم ضربت الفرس ، فوالله ما جَرَىٰ خمسين ذراعاً حتى طرحني ؛ فعجبت أنَّ رسولَ الله ﷺ يقول : لو أعطيه أفرس منك ! وأقول : أنا أفرس الناس . فزعم رجال من بني زُرَيق أنّ رسولَ الله ﷺ أعطى فرس أبي عَيَّاش مُعاذ بن ماعص ـ أو عائذ بن ماعص ـ ابن قيس بن خَلْدة ـ وكان ثامناً ـ وبعض الناس يعدّ سلمة بن عمرو بن الأكوع أحدَ الثمانية ، ويطرحُ أَسَيد بن ظُهَير أخا بني حارثة ، ولم يكن سَلَمة يومئذ فارساً ، وكان أوّل مَنْ لحق بالقوم على رجْليه ؛ فخرج الفرسانُ في طلب القوم ، حتَّى تلاحقوا .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : وحدّثني محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، أنَّ أول فارسٍ لِحقَ بالقوم مُحرز بن نَضْلة ، أخو بني أسد بن خزيمة ـ ويقال لمحرز : الأخْرَم ، ويقال له : قمير ـ وأنَّ الفزع لمّا كان ، جالَ فرسٌ لمحمود بن مسلمة في الحائط حين سمع صاهِلة الخيل ، وكان فرساً صَنِيعاً جامًّا ، فقال نساءٌ من نساء بني عبد الأشهل حين رأى الفرس يجول في الحائط بجذْع من نخل هو مربوط به : يا قُمَير ، هل لك في أن تركبَ هذا الفرس ـ فإنَّه كما ترى ـ ثمّ تلحق رسول الله ﷺ وبالمسلمين ! قال : نعم ، فأعطنيه إياه ، فخرج عليه ، فلم يَنْشَبْ أن بَذّ الخيل بِجَمامه حتى أدَرك القوم ، فوقف لهم بين أيديهم ، ثم قال : قفوا معشرَ اللكِيعَة حتى يلحق بكم مَنْ وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار .

قال : وحَمَلَ عليه رجُلٌ منهم فقتَله ، وجال الفرس فلم يقدروا عليه ؛ حتى وقف على آرِيّةٍ في بني عبد الأشهل ، فلم يقتل من المسلمين غيره ، وكان اسم فرس محمود ذا اللمّةِ .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عمّن لا يتّهم ، عن عبيد الله بن كعب بن مالك الأنصاري ، أنَّ محرزاً إنَّما كان على فرس لعُكّاشة بنِ محْصن يقال له الجناح ، فقتِل مُحرز ، واستُلب الجناح . ولمَّا تلاحقت الخيول قَتَل أبو قَتَادة الحارث بن رِبْعيّ أخو بني سلِمة ، حَبيبَ بن عيينة بن حِصْن ، وغَشَّاه ببردته ، ثم لحق بالنَّاس ، وأقبل رسولُ الله ﷺ والمسلمون ، فإذا حبيب مسجًّى ببردة أبي قَتادة ، فاسترجع الناس ، وقالوا : قُتِل أبو قَتَادة ، فقال رسول الله ﷺ : ليس بأبي قَتَادة ، ولكنَّه قَتيلٌ لأبي قتادة ، وضع عليه بردته ، لتعرِفوا أنه صاحبه . وأدرك عُكَّاشة بن مِحْصن أوباراً وابنه عمرو بن أوبار على بعير واحد ، فانتظمهما بالرُّمح فقتلهما جميعاً ، واستنقذُوا بعضَ اللّقاح . وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجَبَل مِنْ ذِي قَرَد ، وتلاحق به الناس ، فنزل رسولُ الله ﷺ ، وأقام عليه يوماً وليلة . فقال له سلمة بن الأكوع : يا رسولَ الله ، لو سرّحْتَني في مائة رجل لاستنقذت بقيَة السَّرح ، وأخذت بأعناق القوم . فقال رسولُ الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ : إنَّهم الآن لَيُغْبَقُونَ في غَطَفَان .

وقسمَ رسولُ الله ﷺ في أصحابه في كلّ مائة جَزُوراً ، فأقاموا عليها ، ثم رجع رسولُ الله ﷺ قافلاً حتى قدم المدينة .

فأقام بها بعض جُمادىٰ الآخرة وَرَجب . ثم غزا بلْمصْطلق من خُزاعة في شعبان سنة ستّ .

ذكر غزوة بني المُصْطَلِق

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حـدّثنا سلَمـة بن الفَضْل وعـليّ بن مجاهـد ، عن محمد بن إسحـاق ، عن عاصم بن عمر بن قَتَادة ، وعن عبدِ الله بن أبي بكر . وعن محمد بن يحيى بن حَبَّان ، قال : كُلٌّ قد حدّثني بعض حديث بني المصطلق ، قالوا : بلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ بلْمُصْطلق يجتمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبي ضِرار ، أبو جُوَيْرية بنت الحارث ، زوج النبيّ ﷺ ، فلمّا سمع بهم رسولُ الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيَهم على ماء من مياههم ، يقال له : المُرَيْسِيع ، من ناحية قُدَيد إلى الساحل ، فتزاحف الناس واقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزم الله بني المصطلِق ، وقُتِل مَنْ قتل منهم ، ونَفَّلَ رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم ؛ فأفاءهم الله عليه .

وقد أصيب رجلٌ من المسلمين من بني كلْب بن عوف بن عامر بن ليث بن بكر ، يقال له هشام بن صُبَابة ، أصابه رجل من الأنصار من رهط عُبادة بن الصّامت ، وهو يرى أنه من العدوّ ، فقتله خطأ .

فبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار يقال له جَهْجَاه بن سعيد ، يقود له فرسه ، فازدحم جَهْجَاه وسِنان الجهنيّ حليف بني عَوْف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجُهَنيُّ : يا معشرَ الأنصار ، وصرخ جَهْجَاه : يا معشر المهاجرين ، فغضب عبدُ الله بن أبيّ بن سَلول ، وعنده رَهْطٌ من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السنّ ، فقال : أقد فعلوها ! قد نافرونـا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما عَدَوْنا وجلابيبَ قريش ما قال القائل : « سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأكُلْكَ » ؛ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ ! ثم أقبـل على مَنْ حضـره من قومـه ، فقال : هـذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتُموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ! أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم .

فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوِّه . فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : يا رسـول الله مُرْ بـه عَبَّاد بن بِشْر بن وَقْش فليقتلْه ، فقـال رسول الله ﷺ : فكيف يا عُمَرُ إذا تحدَّث الناس : أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذِّنْ بالرحيل ـ وذلك في ساعة لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحل فيها ـ فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّابن سَلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أنّ زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه . فحلف بالله : ما قلت ما قال ، ولا تكلَّمت به ـ وكان عبدُ الله بن أبيّ في قومه شَرِيفاً عَظِيماً ـ فقال مَنْ حضر رسولَ الله ﷺ من أصحابه من الأنصار : يا رسولَ الله ، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ! حَدَباً على عبد الله بن أبيّ ودفعاً عنه .

فلما استقلّ رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أسَيْد بن حُضَير ، فحياه تَحِيَّة النبوّة ، وسلَّم عليه ، ثم قال : يا رسولَ الله ، لقد رُحْتَ في ساعة منكَرَة ما كنتَ تروح فيها ! فقال له رسولُ الله ﷺ : أَوَمَا بلغـك ما قـال صاحبكم ! قال : وأيُّ صاحب يا رسول الله ! قال : عبد الله بن أبيّ ، قال وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلّ ، قال أسَيْد : فأنت والله يا رسولَ الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذّليل وأنت العزيز ! ثم قال : يا رسولَ الله ، ارفُقْ به فوالله لقد جاء الله بك ، وإنَّ قومه لينظمون له الخَرَز ليتوّجوه ؛ فإنه لَيَرَىٰ أنَّك قد استلبته مُلْكاً .

ثم مَتَنَ رسولُ الله ﷺ بالنَّاس يومهم ذلك حتىٰ أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصَدْرَ يومهم ذلك حتى آذتْهمْ الشمس . ثم نزَل بالنَّاس ؛ فلم يكن إلَّا أن وجدوا مسَّ الأرض وقعوا نياماً ؛ وإنما فَعَل ذلك رسول الله ﷺ ليشغلَ الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ .

ثم راح بالنَّاس ، وسلك الحجاز حتى نزلَ على ماء بالحجاز فُوَيْق النَّقِيع ، يقال له نقعاء ، فلمَّا راحَ رسولُ الله ﷺ هبَّت على الناس ريحٌ شديدةٌ آذتهم ، وتخوّفوها ، فقال رسول الله ﷺ : لا تخافوا ، إنَّما هَبَّت لموت عظيم من عظماء الكفار ، فلمَّا قدِموا المدينة وجدوا رِفاعة بن زيد بن التَّابوت ، أحد بني قَيْنُقاع ـ وكان من عظماء يهود ، وكَهْفاً للمنافقين ـ قد مات في ذلك اليوم .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في عبد الله بن أبيّ بن اسَلُول ومَنْ كان معه على مثل أمره ، فقال : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ ، فلمَّا نزلت هذه السورة أخذ رسولُ الله ﷺ بأذُن زيد بن أرقم فقال : هذا الذي أوفى الله بأذُنه .

حدّثنا أبو كُريب ، قال : حدّثنا يحيى بن آدم ، قال : حدّثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن زيد بن أرقم ، قال : خرجت مع عمّي في غَزاةٍ ، فسمعت عبد الله بن أبيّابن سلول يقول لأصحابه : ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللّهِ ﴾ واللّهِ ، ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلّ ﴾[1] ؛ فذكرت ذلك لعمّي ، فذكره عمّي لرسول الله ﷺ ، فأرسل إليّ فحدّثته ، فأرسل إلى عبد الله وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ؛ قال : فكذّبني رسول الله ﷺ وصدّقه ، فأصابني هَمٌّ لم يصبْني مثله قطّ ، فجلست في البيت ، فقال لي عمِّي : ما أردتَ إلى أن كَذّبك رسولُ الله ومقّتَك ! قال : حتىٰ أنزل الله عزَّ وجلّ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُون﴾ ، قال : فبعث إليّ رسولُ الله ﷺ فقرأها ، ثم قال : إنَّ الله صدّقك يا زيد .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ الذي كان من أمر أبيه . فحدثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قَتَادة ؛ أنّ عبدَ الله بن عبد الله بن أبيّابن سَلول أتىٰ رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله ، إنَّه قد بلغني أنَّك تريد قتلَ عبد الله بن أبيّ ـ فيما بلغك عنه ـ فإن كنت فاعلاً فمرْني به ، فأنا أحمِلُ إليك رأسه ؛ فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجلٌ أبرّ بوالده منِّي ؛ وإنِّي أخشى أن تأمرَ به غيري فيقتلَه ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتلَه ؛ فأقتلَ مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسولُ الله ﷺ : بل نرفُق به ، ونحسِن صحبتَه ما بقيَ معنا . وجعل بعد ذلك إذا أحْدَثَ الحَدَثَ ، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ، ويُعنّفونه ويتوعَّدُونه ، فقال رسولُ الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم : كيف ترى يا عمر ! أما والله لو قتلتهُ يومَ أمرْتَني بقتله ، لأرعِدَت له آنُفٌ لو امرتُها اليوم بقتله لقتلْته . قال : فقال عمر : قد والله علمتُ ، لأمرُ رسولِ الله أعظمُ بركة من أمري .

قال : وقدم مِقْيَس بن صُبابة من مكة مسلماً فيما يُظهر ، فقال : يا رسولَ الله ، جئتك مسلِماً وجئت أطلب دية أخي قتل خطأ . فأمر له رسول الله ﷺ بديَة أخيه هشام بن صُبابة ، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكّة مرتدًّا ، فقال في شعر :

(١) سورة المنافقين : ٧ ـ ٨.

شَفَى النَّفْسَ أنْ قَدْ بَاتَ بالْقَاعِ مُسْنَداً ... تُـضَـرِّجُ ثـوْبَيْـه دِمـاءُ الأخـادِعِ
وكَـانَتْ هُمُـومُ النَّفْسِ من قَبْـلِ قَتْلِهِ ... تُلِمُّ ، فَتَحْميني وِطَـاءَ المَضَـاجِـعِ
حَلَلْتُ بـه وِتْـري ، وأدْرَكْتُ ثُؤْرَتِي ... وكُـنْـتُ إلـى الأوْثـان أوّل رَاجِـعِ
تـأرْتُ بـه فِـهْـراً وحَـمَّـلْت عَـقْـلَه ... سَـرَاةَ بني الـنَّجّـارِ أرْبَـابَ فـارِعِ

وقال مِقيمُ بن صُبابة أيضاً :

جَلَّلْتُـهُ ضَرْبَـةً بـاءَتْ، لهـا وَشَـلٌ ... مِنْ نـاقـعِ الجَـوْفِ يَعْلُوهُ وَيَنْصَـرِمُ
فَـقُلْتُ وَالـمَـوْتُ تَـغْشَـاهُ أَسِـرّتُـهُ ... لا تـأمَـنَنَّ بـنـي بَـكْـرٍ إذَا ظُـلِمُـوا

وأصيب من بني المصطلِق يومئذ ناسٌ كثيرٌ ، وقَتَل علـيُّ بن أبي طالب منهم رجلينْ : مـالكاً وابنـه ، وأصاب رسولُ الله ﷺ منهم سبياً كثيراً ، ففشا قَسْمُه في المسلمين ؛ ومنهم جُوَيْرية بنت الحارث بن أبي ضرار زوْج النبي ﷺ .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحـاق ، عن محمد بن جعفـر بن الزبير ، عن عُروة ، عن عائشة زوْج النبيّ ﷺ ، قالت : لما قَسَمَ رسولُ الله ﷺ سبايا بني المصطلِق ، وقعت جُوَيرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو لابن عمٍّ له ـ فكاتبتْه على نفسها ـ وكانت امرأة حُلْوَةً مُلّاحة ، لا يراها أحَدٌ إلا أخذت بنفسه ـ فأتتْ رسولَ الله ﷺ تستعينه على كتابتها ، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حُجرتي كرِهتها ، وعرفت أنه سيرَى منها مثلَ ما رأيت ، فدخلتْ عليه ، فقالت : يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك ؛ فوقعت في السَّهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو لابن عمٍّ له ـ فكاتبتُه على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي ، فقال لها : فهل لـكِ في خير من ذلـك ؟ قالت : ومـا هو يـا رسول الله ؟ قـال : أقضي كتابَتَـك وأتزوّجك ، قالت : نعم يا رسولَ الله ، قال : قد فعلت ، قالت : وخرج الخبر إلى النَّاس أنَّ رسولَ الله ﷺ قد تزوَّج جويرية بنت الحارث ، فقال النَّاس : أصهارُ رسولِ الله ﷺ ، فأرسلوا ما بأيديهم .

قالت : فلقد أعتِق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأةً كانت أعظمَ بركة على قومها منها .

حديـث الإفـك

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : وأقبل رسولُ الله ﷺ من سفره ذلك ـ كما حدّثني أبي إسحاق ، عن الزهريّ ، عن عُرُوة ، عن عائشة ـ حتى إذا كان قريباً من المدينة ـ وكانت معه عائشة في سفره ذلك ـ قال أهل الإفك فيها ما قالوا .

حدّثنا ابنُ حميد قال : حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزّهريّ ، عن علقمة بن وقّاص الليثيّ وعن سعيد بن المسيَّب، وعن عُرْوة بن الزُّبير وعن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبـة بن مسعود قـال الزهريّ : كُلٌّ قد حدّثني بعضَ هذا الحديث ، وبعضُ القومِ كان أوعَىٰ له من بعض . قال : وقد جمعت لك كلّ الذي حدّثني القوم .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، قال : حدّثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة ، قال : وحدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاريّ ، عن عمرة بنت عبد الرحمن ، عن عائشة ، قال : وكلّ قد اجتمعَ حديثه في خبر قصّة عائشة عن نفسها حين قال أهل الإفك فيها ما قالوا ، فكلٌّ قد دخل في حديثها عن هؤلاء جميعاً ، ويحدّث بعضُهم ما لم يحدّث بعضٌ ، وكلّ كان عنها ثقة ، وكلٌّ قد حدّث عنها بما سمع .

قالت عائشة : كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد سفراً أقْرَعَ بين نسائه ، فأيّتُهن خرج سهمُها خرج بها معه ؛ فلمّا كانت غزوة بني المصطلق ، أقرع بين نسائه كما كان صنع ؛ فخرج سهمِي عليهنّ ، فخرج بي رسولُ الله ﷺ . قالت : وكان النساء إذ ذاك إنّما يأكلن العُلَق لم يُهبّجهنّ اللّحم فيثْقُلْنَ . قالت : وكنت إذا رُحِلَ بعيري جلستُ في هودجِي ، ثمّ يأتي القوم الذين يرحلون هودجي في بعيري ، ويحملوني فيأخذون بأسفل الهودج ، فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير ، فيشدّونه بخباله ، ثم يأخذون برأس البعير ، فينطلقون به . قالت : فلما فرغ رسولُ الله ﷺ من سفره ذلك ، وجّه قافلاً ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً ، فبات فيه بعضَ الليل ، ثم أذَّنَ في النَّاس بالرحيل ، فلمّا ارتحل النّاس خرجتُ لبعض حاجتي وفي عنقي عِقْدٌ لي فيه جَزْعُ ظَفَار ، فلمّا فرغتُ انسلّ من عنقي ولا أدري ؛ فلمّا رجعتُ إلى الرَّحْل ذهبتُ ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ النَّاس في الرحيل . قالت : فرَجعْتُ عَوْدِي على بدئي إلى المكان الذي ذهبت إليه ؛ فالتمسته حتى وجدته ، وجاء خلافي القوم الذين كانوا يرجّلون لي البعير ، وقد فرغوا من رحلته ، فأخذوا الهودج ، وهم يظنون أنّي فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه ، فشدّوه على البعير ، ولم يشكُّوا أنّي فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، ورجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس . قالت : فتلفَّفت بجلبابي ثمّ اضطجعت في مكاني الذي ذهبت إليه ؛ وعرفت أن لو قد افتقدوني قد رجعوا إليّ . قالت : فوالله إنّي لمضطجعة ، إذ مرّ بي صفوان بن المُعَطّل السُلَميّ ، وقد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته ، فلم يبتْ مع النَّاس في العسكر ؛ فلمّا رأى سوادِيَ أقبل حتى وقف عليّ فعرَفني ـ وقد كان يراني قبل أن يُضْرَب علينا الحجاب ـ فلمّا رآني قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ! أظعينة رسول الله ! وأنا متلفّفة في ثيابي . قال : ما خَلَّفَك رحمكِ الله ؟ قالت : فما كلَّمته ، ثم قرّب البعير فقال : ارْكبي رحمكِ الله ! واستأخر عنّي . قالت : فركبتُ وجاءَ فأخذ برأس البعير ، فانطلق بي سريعاً يطلب الناس ؛ فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتُقِدت حتى أصبحت ، ونزل النَّاس ، فلما اطمأنّوا طلع الرجل يقودني ، فقال أهلُ الإفك فيَّ ما قالوا . فارتجّ العسكر ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك . ثمّ قدمنا المدينة ، فلم أمكُثْ أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغني شيء من ذلك ؛ وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبَوَيَّ ، ولا يذكرانِ لي من ذلك قليلاً ولا كثيراً ، إلاَّ أنّي قد أنكرتُ من رسول الله ﷺ بعضَ لُطْفه بي ؛ كنتُ إذا اشتكيتُ رحِمني ولَطُف بي ؛ فلم يفعل ذلك في شكْواي تلك ، فأنكرت منه ، وكان إذا دخل عليَّ وأمي تُمَرّضُني ، قال : كيف تيكُم ؟ لا يزيد على ذلك . قالت : حتى وَجَدتُ في نفسي ممّا رأيت من جَفَائه عنّي ، فقلت له : يا رسولَ الله ، لو أذنت لي فانتقلت إلى أمّي فمرّضتْني ! قال : لا عَلَيْكِ ! قالت : فانتقلت إلى أمّي ، ولا أعلم بشيء ممّا كان ، حتى نقِهْت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة . قالت : وكنّا قوماً عَرَباً لا نتّخذ في بيوتنا هذه الكُنُف التي تتّخذها الأعاجم ، نعافها ونكرهها ؛ إنّما كنا نخرُجُ في فُسَح المدينة ؛ وإنّما كان النساء يخرجْنَ كلّ ليلة في حوائجهنّ ؛ فخرجت ليلةً لبعض حاجتي ،

ومعي أمّ مِسْطح بنت أبي رُهْم بن المطَّلب بن عبد مناف ، وكانت أمّها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم ، خالة أبي بكر . قالت : فوالله إنَّها لتمشي معي ، إذْ عثرت في مِرْطِها ، فقالت : تَعِس مِسْطح ! قالت : قلتُ : بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً ! قالت : أوَمَا بلغك الخبر يا بنتَ أبي بكر ! قالت : قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتْني بالَّذي كان من قول أهل الإفك . قالت : قلت وقد كان هذا ! قالت : نعم والله لقد كان . قالت : فوالله ما قدرتُ على أن أقْضِيَ حاجتي ، ورجعت فما زِلْتُ أبكي حتى ظننتُ أنّ البكاء سيصدع كبدي . قالت : وقلت لأمّي : يغفر الله لكِ ! تحدّث الناس بما تحدّثوا به وبلغكِ ما بلغك ؛ ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ! قالت : أي بُنَيَّة خفِّضِي الشأن ؛ فوالله قلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبُّها لها ضرائر إلَّا كثَّرن وكثَّر الناس عليها .

قالت : وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك . ثم قال : أيّها الناس ، ما بالُ رجالٍ يُؤذُونني في أهلي ، ويقولون عليهنّ غير الحقّ ! والله ما علمتُ منهنّ إلَّا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلَّا خيراً ! وما دخل بيتاً من بيوتي إلَّا وهو معي . قالت : وكان كُبْر ذلك عند عبد الله بن أبيّ بن سَلُول في رجال من الخزرج ؛ مع الذي قال مسطح وحَمْنَة بنت جحش ـ وذلك أنّ أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ، [ولم تكن من نسائه امرأة تناصبني في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله ، وأما حمنة بنت جحش] ، فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضارّني لأختها زينب بنت جحش ـ فشقِيتُ بذلك .

فلمَّا قال رسولُ الله ﷺ تلك المقالة ، قال أسَيد بن حُضَيْر أخو بني عبد الأشهل : يا رسولِ الله ، إن يكونوا من الأوْس نَكْفكَهُم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك ؛ فوالله إنَّهم لأهلٌ أن تضرَب أعناقهم . قالت : فقام سعد بن عبادة ـ وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحاً ـ فقال : كذبت لعمر الله لا تضْرَب أعناقهم ! أما والله ما قلتَ هذه المقالة إلَّا أنَّك قد عرفت أنَّهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ! قال أسَيد : كذبت لعمر الله ! ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ! قالت : وتثاوره النَّاس حتَّى كاد أن يكون بين هذين الحيَّين من الأوْس والخزرج شرّ ، ونزل رسولُ الله ﷺ ، فدخل عليّ ، قالت : فدعا عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد ؛ فاستشارهما ، فأمَّا أسامة فأثنى خيراً وقاله ، ثم قال : يا رسولَ الله ، أهلُك ، ولا نعلم عليهنّ إلا خيراً ؛ وهذا الكذب والباطل . وأمّا عليّ فإنه قال : يا رسولَ الله ؛ إنَّ النساء لكثيرٌ ؛ وإنك لقادرٌ على أن تستخلف ؛ وسل الجارية فإنّها تَصدُقْك . فدعا رسول الله ﷺ بَريرَة يسألها . قالت : فقام إليها عليّ فضربها ضرباً شديداً ؛ وهو يقول : اصدُقي رسول الله ؛ قالت : فتقول : والله ما أعلم إلَّا خيراً ، وما كنت أعيبُ على عائشة ؛ إلَّا أنّي كنتُ أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه ، فيأتي الدّاجن فيأكله .

ثم دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ وعندي أبَوَايَ ، وعندي امرأة من الأنصار ؛ وأنا أبكي وهي تبكي معي ؛ فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ؛ إنَّه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتّقي الله ؛ وإن كنتِ قارفْتِ سوءاً ممَّا يقول النَّاس فتوبي إلى الله ؛ فإنَّ الله يقبل التَّوبة عن عباده ؛ قالت : فوالله ما هو إلَّا أن قال ذلك ، تقلَّص دمعي ؛ حتى ما أحسُّ منه شيئاً ، وانتظرتُ أبَوَيَّ أن يجيبَا رسول الله ﷺ فلم يتكلَّما . قالت : وايْمُ الله لأنا كنتُ أحقَرُ في نفسي وأصغَرُ شأناً من أن ينزّل الله عزّ وجلّ فيّ قرآناً يقرأ به في المساجد ، ويصلَّى به ، ولكنّي قد كنت أرجُو أن يَرَى رسول الله في نومه شيئاً يكذّب الله به عنّي ، لما يعلم من براءتي ، أو

يخبر خبراً ؛ فأما قرآنٌ ينزل فيّ ، فوالله لَنفسي كانتْ أحْقَر عندي من ذلك . قالت : فلمّا لم أرَ أبوَيّ يتكلمان . قالت : قلت : ألا تجيبانِ رسولَ الله ! قالت : فقالا لي : والله ما ندري بماذا نجيبه ! قالت : وايمُ الله ما أعلمُ أهلَ بيت دخلَ عليهم ما دخلَ على آل أبي بكر في تلك الأيام ! قالت : فلما استعجَما عليّ استعبرتُ فَبَكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ؛ والله لئن أقررت بما يقول الناس ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتصدّقني ؛ لأقولنّ ما لم يكن ؛ ولئن أنا أنكرت ما تقولون لا تصدّقونني . قالت : ثم التمست اسمَ يعقوب فما أذكره ؛ ولكنّي أقول كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

قالت : فوالله ما بَرِحَ رسولُ الله ﷺ مجلسَه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشّاه ، فَسُجِّيَ بثوبه ، ووضعت وسادة من أدَمَ تحت رأسه ؛ فأمّا أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ؛ فوالله ما فزعت كثيراً ولا باليت ؛ قد عرفت أنّي بَريئة ، وأنّ الله غير ظالِمِي ، وأمّا أبوايَ ؛ فوالّذي نفس عائشة بيده ، ما سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ حتى ظننت لتخرجَنّ أنفسُهما فَرَقاً أن يأتيَ من الله تحقيق ما قال الناس . قالت : ثم سُرِّيَ عن رسولَ الله ﷺ ، فجلس وإنّه ليتحدّر منه مثل الجُمان في يوم شاتٍ ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ، ويقول : أبشري يا عائشة ؛ فقد أنزل الله براءتك ، قالت : فقلت : بحمد الله وذمّكم . ثمّ خرج إلى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن فيّ . ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحَمْنة بنت جحش ـ وكانوا ممّن أفصح بالفاحشة ـ فضرِبُوا حَدَّهم .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال حدّثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحاق . عن أبيه ، عن بعض رجال بني النَّجّار ، أنَّ أبا أيوب خالد بن زيد ، قالت له امرأته أمّ أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بَلَىٰ ؛ وذلك الكذب ؛ أكنتُ يا أمّ أيوب فاعلةً ذلك ! قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خيرٌ منك . قال : فلمّا نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ . . ﴾(١) . الآية ؛ وذلك حسان بن ثابت في أصحابه الذين قالوا ما قالوا .

ثم قال الله عزّ وجلّ : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ﴾(١) الآية ، أي كما قال أبو أيوب وصاحبته . ثم قال : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ . . . ﴾(٢) الآية . فلمّا نزل هذا في عائشة وفيمنْ قال لها ما قال قال أبو بكر ـ وكان ينفِق على مِسْطَحٍ لقرابته منه وحاجته : والله لا أنفِق على مِسْطح شيئاً أبداً ، ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة ، وأدخل علينا ما أدخل ! قالت : فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ . . . ﴾(٣) الآية .

قالت : فقال أبو بكر : والله لأحِبُّ أن يغفر الله لي فرجع إلى مِسْطح نفقته التي كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

ثم إنَّ صفوان بن المعطَّل اعترض حسان بن ثابت بالسيف حين بلغه ما يقول فيه ؛ وقد كان حسّان قال شعراً مع ذلك يعرّض بابن المعطَّل فيه وبمن أسْلَم من العرب من مُضَر ، فقال :

---

(١) سورة النور: ١١ ـ ١٢ .

(٢) سورة النور: ١٥ .

(٣) سورة النور: ٢٢ .

أَمْسَىٰ الجَلاَبِيبُ قد عزُّوا وقد كثروا ... وابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَىٰ بَيْضَةَ البَلَدِ
قد ثَكِلَتْ أُمُّهُ من كنتَ صَاحِبَهُ ... أو كان مُنْتَشِباً في بُرْثُنِ الأَسَدِ
ما لقتيلي الذي أغدُو فآخُذُهُ ... من دِيَةٍ فيه يُعْطَاها ولا قَوَدِ
ما البَحْرُ حين تهبُّ الرِّيحُ شَامِيَةً ... فَيَغْطئِلُّ ويَرْمِي العِبْرَ بالزَّبَدِ
يَوْماً بأَغْلَبَ منِّي حين تُبْصِرني ... مِلْغَيْظِ أفري كَفَرْيِ العارضِ البَرِدِ

فاعترضه صفوان بن المعطّل بالسيف فضربه ثم قال ـ كما حدّثنا ابن حميد ـ ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق :

تَلقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عنِّي فإنني ... غُلاَمٌ إذا هُوجيتُ لَسْت بشاعِرِ

حدثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيميّ ، أنّ ثابت بن قيس بن الشّماس أخابلْحارثبن الخزرج ، وَثَب على صفْوان بن المعطَّل في ضربه حسان ، فجمع يَدَيْه إلى عُنُقه ، فانطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة ، فقال : ما هذا ؟ قال : ألاَ أعجبْك ضرب حَسَّان بن ثابت بالسَّيف ! والله ما أراه إلاَّ قد قتله . قال : فقال له عبدُ الله بن رَواحة : هل عَلِمَ رسولُ الله ﷺ بشيء مما صنعت ؟ قال : لا والله ، قال : لقد اجترأت ! أطلق الرجل ، فأطلقه . ثم أتوْا رسولَ الله ﷺ ، فذكروا له ذلك ؛ فدعا حَسَّان وصفوان بن المعطَّل ، فقال ابنُ المعطَّل : يا رسولَ الله ، آذاني وهجاني ، فاحتملني الغضب فضربته . فقال رسولُ الله ﷺ لحسان : يا حسان أتشوّهت على قومي أن هداهم الله للإسلام ! ثم قال : أحسِن يا حَسَّان في الذي قد أصابك ؛ قال : هي لك يا رسول الله .

وحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمّد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، أنّ رسولَ الله ﷺ أعطاه عِوَضاً منها بَيْبرَحَا ـ وهي قصر بني حُدَيْلَة اليوم بالمدينة ؛ كانت مالاً لأبي طلحة بن سهل ، تصدّق بها إلى رسولِ الله ﷺ ، فأعطاها حسَّان في ضربته ـ وأعطاه سِيرين ؛ أَمَةً قِبْطيّةً ، فولدت له عبد الرَّحمن بن حسان . قال : وكانت عائشة تقول : لقد سئِل عن صفوان بن المعطّلِ فوجدوه رجلاً حَصُوراً ما يأتي النساء . ثم قتل بعد ذلك شهيداً .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الواحد بن حمزة ، أنّ حديث عائشة كان في عُمْرة القضاء .

قال أبوجعفر : ثم أقامَ رسولُ الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشَوّالاً ، وخرج في ذي القعدة من سنة ست معتمراً .

ذكر الخبر عن عُمرة النبيّ ﷺ
التي صدّه المشركون فيها عن البيت ، وهي قصّة الحُديبية

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا الحكَمَ بن بشير ، قال حدّثنا عمر بن ذرّ الهمْدانيّ ، عن مجاهد ، أن النبيّ ﷺ اعتمر ثلاث عُمَرٍ ، كلّها في ذي القعدة يرجع في كلّها إلى المدينة .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق ، قال : خرج النبيّ ﷺ معتمراً في ذي القَعدة لا يريد حرباً ، وقد استنفرَ العرب ومَنْ حوله من أهل البوادي من الأعراب أن يخرجوا معه ، وهو يخشى من قُريش الذي صنعوا به أن يعرضوا له بحرْب ، أو يصدّوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثيرٌ من الأعْرَاب ، وخرج رسولُ الله ﷺ ومَنْ معه من المهاجرين والأنصار ، ومَنْ لحِق به من العرب ، وساق معه الهدْيَ ، وأحرم بالعُمرة ، ليأمن النَّاسُ من حربه ، وليعلم النَّاس أنّه إنَّما جاء زائراً لهذا البيت ، مُعظِّماً له .

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن محمد بن مسلِم الزهريّ ، عن عروة بن الزُّبير ، عن المِسْور بن مَخْرَمة ومروان بن الحَكَم ؛ أنهما حدّثاه قالا : خرج رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبيَة ، يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالاً ، وساق معه سبعين بَدَنَة ، وكان النّاس سبعمائة رجل ؛ كانت كلّ بَدَنَة عن عشرة نفر .

وأمَّا حديث ابن عبد الأعلى ؛ فحدّثنا عن محمد بن ثَوْر ، عن مَعْمَر ، عن الزّهريّ ، عن عُروة بن الزُّبير ، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة .

وحدّثني يعقوب ، قال : حدّثني يحيى بن سعيد ، قال : حدّثنا عبد الله بن مبارك ، قال : حدّثني معمَر ، عن الزهريّ ، عن عُروة بن الزبير ، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومرْوان بن الحكَم ، قالا : خرج رسولُ الله ﷺ من الحديبيَة ، في بضْعة عشر ومائة من أصحابه . . . ثم ذكر الحديث .

حدّثنا الحسن بن يحيى ، حدّثنا أبو عامر ، قال : حدّثنا عِكْرِمة بن عمَّار اليماميّ ، عن إياس بنَ سلمة ، عن أبيه ، قال : قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبيَة ، ونحن أربعة عشر ومائة .

حدّثنا يوسف بن موسى القَطَّان ، قال : حدّثنا هِشام بن عبد الملك وسعيد بن شُرَحْبيل المصريّ ، قالا : حدّثنا الليث بن سعد المصريّ ، قال : حدّثنا أبو الزُّبير ، عن جابر ، قال : كنَّا يوم الحديبيَة ألفاً وأربعمائة .

حدثني محمد بن سعد ، قال : حدّثني أبي ، قال: حدّثني عمّي ، قال : حدّثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال: كان أهلُ البيعة تحت الشَّجرة ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين .

حدّثنا ابن المثنَّى ، قال : حدّثنا أبو داود ، قال : حدّثنا شُعْبة ، عن عمرو بن مرّة ، قال : سمعتُ عبدَ الله بن أبي أوفَى ، يقول : كنَّا يومَ الشَّجرة ألفاً وثلاثمائة، وكانت أسْلَمُ ثُمن المهاجرين .

حدّثنا ابنُ حميد ،قال : حدّثنا سَلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن الأعمش ، عن أبي سُفيان ، عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، قال : كنَّا أصحابَ الحديبية أربعة عشر ومائة .

قال الزهريّ : فخرجَ رسولُ الله ﷺ ، حتَّىٰ إذا كان بعُسْفان لقَيه بشْر بن سُفيان الكعبيّ ، فقال له : يا رسولَ الله ، هذه قريش قد سمعوا بمسِيرك ، فخرجوا معهم العُوذ المَطَافِيلُ ، قد لبسوا جُلود النمور ، وقد نزلوا بذي طُوي ، يحلفون بالله لا تدخُلُها عليهم أبداً ؛ وهذا خالد بن الوليد في خَيْلهم ، قد قدموها إلى كُرَاع الغَمِيم .

قال أبو جعفر : وقد كان بعضُهم يقول : إنَّ خالدَ بن الوليد كانَ يومئذ مع رسول الله ﷺ مسلماً .

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا يعقوب القُمّيّ ، عن جعفر ـ يعني ابن أبي المغيرة ـ عن ابن أبْزَى ، قال : لمّا خرج النبيّ ﷺ بالهَدْي ، وانتهى إلى ذي الحُلَيْفَة ، قال له عمر : يا رسولَ الله ، تدخل على قوم هم لك حربٌ بغير سلاح ولا كُراع ! قال : فبعثَ النبيّ ﷺ إلى المدينة ، فلم يَدَعْ فيها كُراعاً ولا سلاحاً إلّا حَمَلَه ، فلمّا دنا من مكّة منعوه أن يدخلَ ، فسار حتى أتى مِنىً ، فنزل بمِنىً ، فأتاه عينه أنّ عِكْرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة ، فقال رسولُ الله ﷺ لخالد بن الوليد : يا خالد ، هذا ابنُ عَمّك ، قد أتاك في الخيل ، فقال خالد : أنا سيفُ الله وسيف رسوله ـ فيومئذ سُمِّي سيفَ الله ـ : يا رسولَ الله ارْمِ بي حيث شئت . فبعثه على خيل ، فلقيَ عِكْرمة في الشِّعب ، فهزمه حتى أدخله حيطَان مكّة ، ثم عاد في الثانية ، فهزمه حتى أدخله حيطان مَكّة ، ثم عاد في الثّالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ـ إلى قوله ـ : ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[1] قال : وكف الله النبيّ ﷺ عنهم بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقُوا فيها من بعد أن أظفرَه عليهم كراهيَة أن تطأهم الخيل بغير علم .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق . قال : فقال رسولُ الله ﷺ : يا ويح قريش ! قد أكلتْهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سائر العرب ؛ فإن هن أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهَرَني الله عليهم دخُلوا في الإسلام وافرين ؛ وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة . فما تظنّ قريش ! فوالله لا أزالُ أجاهدهم على الّذي بعثي الله به حتى يظهرَه الله أو تنفرد هذه السالفة .

ثم قال : مَنْ رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟

فحدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سَلَمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ، أنّ رجلاً من أسْلم قال : أنا يا رسولَ الله ، قال : فسلكَ بهم على طريق وَعْرٍ حَزْن بين شعَاب ، فلما أن خرجوا منه ـ وقد شقّ ذلك على المسلمين ، وأفضَوْا إلى أرض سَهْلة عند منقطَع الوادي ـ قال رسولُ الله ﷺ للناس : قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه . ففعلوا . فقال رسولُ الله ﷺ : والله إنها للحِطّة التي عُرِضَتْ على بني إسرائيل فلم يقولوها .

قال ابن شهاب : ثم أَمر رسولُ الله ﷺ الناس فقال : اسلكوا ذات اليمين ، بين ظَهْرَيِ الحَمْضِ في طريق تُخرِجه على ثنيّة المُرَار ؛ على مهبَط الحديبيَة من أسفل مكة . قال : فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلمّا رأت خيل قريش قَتَرَة الجيش ، وأنّ رسولَ الله ﷺ قد خالفهم عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش ، وخرج رسول الله ﷺ ، حتى إذا سلك في ثنيَّة المُرار ، بركَتْ ناقته ، فقال الناس : خلأتْ ! فقال : ما خلأتْ ، وما هو لها بخُلُقٍ ؛ ولكن حبَسها حابسُ الفيل عن مكة ؛ لا تدعوني قريش اليومَ إلى خُطّةٍ يسألوني صلَةَ الرَّحِم إلا أعطيتهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا ، فقيل : يا رسولَ الله ما بالوادي ماء ننزل عليه ! فأخرَج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل في قَليب من تلك القُلب فغرزه في جَوْفه ، فجاش الماءُ بالرَّيّ حتى ضربَ الناسُ عليه بعَطَن .

---

(١) سورة الفتح : ٢٤ .

فحدثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، أنّ رجلاً من أسْلَم حدّثه ، أنّ الذي نزل في القَليب بسهْم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب بن عُمَيْر بن يَعْمَر بن دارم ، وهو سائق بُدْنِ رسول الله ﷺ . قال : وقد زعم لي بعض أهل العلم أن البَرَاءَ بن عازب كان يقول : أنا الذي نزلتُ بسهْم رسولِ الله ﷺ . قال : وأنشدتْ أسلمُ أبياتاً من شعر قالها ناجية ، قد ظَنَنَّا أنه هو الذي نزل بسهْم رسول الله ﷺ ، فزعمتْ أسلم أنّ جاريةً من الأنصار أقبلت بدلْوها ، وناجيةُ في القَلِيبِ يَميح على الناس ، فقالت :

يـا أَيُّهَـا المـائـحُ دَلْـوِي دُونَـكـا ... إنّـي رأيـتُ الـنـاسَ يَـحْـمَـدُونَـكـا
يُثنونَ خيْراً ويُمَجِّدُونَكا

وقال ناجية ، وهو في القَلِيب يَميح الناس :

قـد عَـلمتْ جـارِيـةٌ يَـمَـانِـيَـهْ ... أنّي أنـا المـائـحُ واسْمِي نـاجِـيَـهْ
وطَـعْـنَـةٍ ذاتِ رَشَـاشٍ واهِـيَـهْ ... طَعَنتُهـا تـحتَ صـدورِ العـادِيَـهْ

حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانيّ ، قال : حدّثنا محمد بن ثور ، عن معمَر ، عن الزُّهريّ ، عن عرْوة ، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة . وحدّثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدّثنا يحيى بن سعيد القطان ، قال : حدّثنا عبد الله بن المبارك ، قال : حدّثنا مَعْمَر ، عن الزّهريّ ، عن عروة ، عن المِسْور بن مَخْرمة ومرْوان بن الحكم ، قالا : نزَل رسولُ الله ﷺ بأقصى الحُدَيْبيَة على ثمَد قليل الماء ؛ إنّما يتبَرَّضُه الناس تبرّضاً فلم يُلَبِّثْه الناس أنْ نَزَحُوه، فشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش ، فنزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا عنه ؛ فبينا هم كذلك جاء بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ في نفر من قومِهِ من خُزاعة ـ وكانوا عَيْبَةَ نُصْحِ رسول الله ﷺ من أهل تِهامة ـ فقال : إنّي تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤي قد نزلوا أعْدَاد مِياه الحديبية ؛ معهم العُوذُ المطافِيل ؛ وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت . فقال النبيّ ﷺ : إنّا لم نأتِ لقتال أحد ، ولكنّا جئنا معتمرين ، وإنّ قريشاً قد نهكَتْهم الحرب وأضرَّتْ بهم ، فإن شاءوا مادَدْناهم مُدَّة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس ، فإن أظهَرْ ، فإن شاءوا أن يدخُلُوا فيما دخل فيه الناس فَعَلَوا وإلاّ فقد جَمُّوا ؛ وإن هم أبَوْا فوالذي نفسي بيدِه لأقاتلنهم على أمرِي هذا حتى تنفرد سالِفتي ، أو ليُنَفِّذَنّ الله أمره . فقـال بُدَيـل : سنبلغُهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ؛ فإن شئتم أن نعرِضه عليكم فعَلْنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدّثنا عنه بشيء ، وقال ذو الرأي منهم : هات ما سمعتَه يقول ، قال : سمعتُه يقول كذا وكذا ، فحدّثهم بما قال النبيّ ﷺ . فقام عروة بن مسعود الثقفيّ ، فقال : أيْ قوّم ؛ ألستُمْ بالوالد ! قالوا : بلى ، قال : أو لستُ بالولد ! قالوا : بلى ، قال : فهل تتّهمونني ؟ قالوا : لا ، قال : ألستُمْ تعلمون أنّي استنفرت أهلَ عُكاظ ؛ فلما بَلّحَوا عـليَّ جئتكم بأهـلي وولدي ومن أطاعني ! قالوا : بلى .

وحدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهريّ ، في حديثه ، قال : كان عروة بن مسعود لسُبيْعة بنت عبد شمس .

رجع الحديث إلى حديث ابن عبد الأعلى ويعقوب . قال : فإنّ هذا الرّجل قد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها ، ودعوني آتِهِ . فقالوا : ائته ، فأتاه ، فجعل يكلّم النبيّ ﷺ ، فقال النبيّ نحواً من مقالته لبُدَيلٍ ، فقال عروة عند ذلك : أيْ محمد ، أرأيتَ إن استأصلت قومَك ، فهل سمعتَ بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ! وإن تكن الأخرى ، فوالله إنّي لأرى وجوهاً وأوشاباً من الناس خُلُقاً أن يَفِرُّوا ويَدَعُوك . فقال أبو بكر : امْصص بَظْرَ اللات ـ واللاتُ طاغية ثقيف التي كانوا يعبدون ـ أنحن نَفِرُّ ونَدَعه ! فقال : مَنْ هذا ؟ فقالوا : أبو بكر ، فقال : أما وَالذي نفسي بيده لولا يَدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِك بها لأجبتك ؛ وجعل يكلّم النبيّ ﷺ ، فكلّما كلّمه أخذ بلحيته ـ والمغيرةُ بن شعبة قائمٌ على رأس النبيّ ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ؛ فكلّما أهوَى عروة بيده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يده بنعْل السيف ، وقال : أَخِّرْ يدَك عن لحيته ، فرفع عُروة رأسَه ، فقال : مَنْ هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، قال : أي غُدَرُ ؛ ألستُ أسعَىٰ في غَدْرتك ! وكان المغيرةُ بن شعبة صحَب قوماً في الجاهليّة، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبيّ ﷺ : أما الإسلام فقد قبلْنا ، وأما المالُ فإنه مال غَدْر، لا حاجة لنا فيه .

وإنّ عرْوة جعل يرمُق أصحابَ النبيّ ﷺ بعينه . قال : فوالله إنْ يتنخم النبيّ نُخامة إلَّا وقعت في كَفّ رجل منهم فَدَلَكَ بها وجهه وجلده؛ وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه ؛ وإذا تكلّموا عنده خفضوا أصواتهم وما يُحِدّون النظر إليه تعظيماً له . فرجع عُروة إلى أصحابه ، فقال : أيْ قوم ، والله لقد وفدتُ على الملوكِ ووفدت على كسرى وقيصرَ والنَّجاشيّ ؛ والله إنْ رأيتُ ملِكاً قطّ يُعَظِّمه أصحابه ما يُعَظِّم أصحابُ محمّدٍ محمداً ، والله إن يتخّم نُخامة إلَّا وقعت في كفّ رجل منهم فدَلَكَ بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّموا عنده خفضوا أصواتهم ؛ وما يُحِدّون النظر إليه تعظيماً له ؛ وإنّه قد عرض عليكم خُطةَ رُشْد فاقبلوها . فقال رجل من كنانة : دعوني آتِه ، فقالوا : ائته ، فلمّا أشرفَ على النبيّ ﷺ وأصحابه ، قال النبيّ ﷺ : هذا فلان ، وهو من قوم يُعَظِّمون الْبُدْنَ فابعثوها له ، فبعِثَتْ له ، واستقبله قومٌ يُلَبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت !

وحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن الزهريّ ؛ قال في حديثه : ثم بعثوا إليه الحلَيْس بن عَلْقَمَة ـ أو ابن زَبَّان ـ وكان يومئذ سيّد الأحابِيش ؛ وهو أحد بلْحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلمّا رآه رسولُ الله ﷺ قال : إنّ هذا من قوم يتألّهون ، فابعثوا الهَدْيَ في وجهه حتى يراه ، فلمّا رأى الهدي يسيل عليه من عُرْض الوادي في قلائده ، قد أكل أوبارَه من طول الحبس ، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى ، فقال : يا معشرَ قريش ، إنّي قدرأيتُ ما لا يحلّ صدّه: الهدي في قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس عن مَحِلّهِ ؛ قالوا له : اجلس ، فإنّما أنت رجل أعرابيٌّ لا عِلْم لك .

وحدّثنا ابن حُمَيد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ؛ أنّ الحُليس غضب عند ذلك ، وقال : يا معشرَ قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ؛ أنْ تصدُّوا عن بيت الله مَنْ جاءه معظِّماً له ؛ والذي نفس الحُلَيس بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمّد وبين ما جاء له ؛ أو لأَنْفِرَنّ بالأحابيش نَفْرَةَ رجل واحد ! قال : فقالوا له : مَهْ ! كُفَّ عنّا يا حُليس حتى نأخذَ لأنفسنا ما نرضى به .

رجع الحديث إلى حديث ابن عبد الأعلى ويعقوب . فقام رجل منهم يقال له مِكْرَز بن حفص ، فقال لهم : دَعُوني آتِه ، قالوا : ائته ، فلمّا أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مِكْرز بن حفص ؛ وهو رجل فاجر ؛ فجاء فجعل يكلِّم النبيّ ﷺ ؛ فبينا هو يكلِّمه إذ جاء سهيل بن عمرو .

وقال أيوب عن عكرمة : إنَّه لما جاء سُهَيل قال النبي ﷺ : قد سَهُل لكم من أمركم .

فحدّثني محمد بن عُمارة الأسديّ ومحمد بن منصور ـ واللفظ لابن عمارة ـ قالا : حدّثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبَرَنا موسى بن عبيدة عن إياس بن سَلَمة بن الأكْوع ، عن أبيه ، قال: بعثتْ قريش سهيل بن عمرو وحُوَيْطب بن عبد العُزّى وحفص بن فلان ، إلى النبيّ ﷺ ليصالحوه ، فلمّا رآهم رسولُ الله فيهم سهيل بن عمرو ، قال : سهَّل الله لكم من أمركم ؛القوم ماتُّون إليكم بأرحامكم، وسائلوكم الصّلْح ، فابعثوا الهدي ، وأظهروا التَّلْبِيَةَ ؛ لعلّ ذلك يُلين قلوبهم . فلبَّوْا من نواحي العسكر حتى ارتجّت أصواتهم بالتلبية . قال : فجاؤوا فسألوه الصلح ، قال : فبينما الناس قد توادَعُوا ، وفي المسلمين ناس من المشركين ، وفي المشركين ناس من المسلمين ، قال : ففتك به أبو سفيان ، قال : فإذا الوادي يسيل بالرجال والسلاح . قال إياس : قال سلمة : فجئت بستة من المشركين متسلّحين أسوقُهم ، ما يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ؛ فأتيت بهم النبيّ ﷺ ، فلم يسلب ولم يقتُل ، وعفا .

وأما الحسن بن يحيى فإنه حدّثنا قال : حدّثنا أبو عامر قال : حدّثنا عِكرمة بن عمار اليماميّ ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه ، أنه قال : لما اصطلحنا نحن وأهلُ مكة ، أتيتُ الشجرة فكسحتُ شوكها ، ثم اضطجعتُ في ظلّها ، فأتاني أربعةُ نفر من المشركين من أهل مكة ، فجعلوا يقعُون في رسول الله ﷺ ، فأبغضُتهم . قال : فتحوّلت إلى شجرة أخرى ، فعلّقوا سلاحهم ، ثم اضطجعوا ؛ فبينا هم كذلك ؛ إذ نادى مناد من أسفل الوافدي : يا للمهاجرين ! قُتل ابن زُنَيْم ! فاخترطتُ سيفي ، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود ؛ فأخذت سلاحهم فجعلته ضِغْثاً في يدي ، ثم قلت : والذي كرّم وجهَ محمد ﷺ ؛ لا يرفعُ أحدٌ منكم رأسه إلَّا ضربت الذي فيه عيناه . قال : فجئت بهم أقودهم إلى رسول الله ﷺ ، وجاءَ عَمّي عامر برجل من العَبَلَاتِ، يقال له مكرز؛ يقوده مجَفَّفاً، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسولُ الله ﷺ، فقال: دعوهم يكن لهم بَدْء الفجور، فعفا عنهم. قال: فأنزل الله ع وجلّ: ﴿ وَهوَ الَّذي كَفَّ أَيْديهَمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبطْنِ مَكَّةَ ﴾.

رجع الحديث إلى حديث محمد بن عمارة ومحمد بن منصور، عن عبيد الله. قال سلمة: فشددنا على مَنْ في أيدي المشركين منا، فما تركنا في أيديهم منّا رجلًا إلا استنقذناه. قال: وغلبنا عَلى من في أيدينا منهم.

ثم إنّ قريشاً بعثوا سُهيلَ بن عمرو وحُوَيْطباً فولّوهم صلحَهم،وبعث النبيّ ﷺعليًّا عليه السلام في صُلْحه.

حدَّثنا بشر بن معاذ؛ قال: حدّثنا يزيد بن زُرَيْع، قال: حدّثنا سعيد، عن قتادة، قال: ذُكِر لنا أنّ رجلًا من أصحابِ النبيّ ﷺ يقال له زُنَيم، اطّلع الثنيّة من الحديبيَة، فرماه المشركون فقتلوه، فبعث رسولُ الله ﷺ خيلًا، فأتوْه باثني عشر رجلًا فارساً من الكفار، فقال لهم نبيّ الله ﷺ: هل لكم عليّ عهد؟ هل لكم عليّ ذمة؟ قالوا: لا، قال: فأرسلهم رسولُ الله ﷺ؛ فأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ ـ إلى قوله :﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾.

وأمَّا ابنُ إسحاق، فإنه ذكر أن قريشاً إنما بعثتْ سهيل بن عمرو بعد رسالة كان رسول الله ﷺ أرسلها إليهم مع عثمان بن عفان. حدّثنا ابنُ حُميد، قال حدثنا سلَمة، عن محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني بعضُ أهلِ العلم أنّ رسولَ الله ﷺ دعا خِرَاش بن أميّة الخُزاعيّ، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على جمل له يقال له الثغلب؛ ليبلّغ أشرافَهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسولِ الله وأرادوا قتله، فمنعتْه الأحابيش، فخلَّوْا سبيله؛ حتى أتى رسولَ الله ﷺ.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثني من لا أتَّهم، عن عِكْرمة مولى ابن عبّاس، أنّ قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم ـ أو خمسين رجلاً ـ وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليُصيبوا لهم من أصحابه، فأخِذُوا أخذاً، فأتِيَ بِهِمْ رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلّى سبيلهم ـ وقد كانوا رَمَوْا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنَّبْل ـ ثم دعا النبي ﷺ عُمر بن الخطاب ليبعثَه إلى مكة، فيبلّغ عنه أشرافَ قريشٍ ما جاءَ له؛ فقال: يا رسولَ الله؛ إني أخاف قريشاً على نفسي؛ وليس بمكّة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني؛ وقد عرفَتْ قريش عدواتي إيّاها، وغلظَتي عليها، ولكنِّي أدلك على رجل هو أعزّ بها منِّي، عثمان بن عفان!

فدعا رسولُ الله ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب؛ وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظّماً لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكّة، فلقيَه أبَان بن سَعِيد بن العاص حين دخل مكة ـ أو قبْل أن يدخلها ـ فنزل عن دابّته، فحمله بين يديه، ثم رَدفه وأجاره؛ حتى بلّغ رسالَة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمانَ حتى أتَى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلّغهم عن رسولِ الله ﷺ ما أرسلَهُ به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فطُفْ به؛ قال: ما كنت لأفعلَ حتى يطوف به رسولُ الله ﷺ؛ فاحتبستْه قريش عندها، فبلغ رسولَ لله ﷺ والمسلمين أنّ عثمان قد قُتل.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: فحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر، أنّ رسولَ الله ﷺ حين بلغه أنّ عثمان قد قُتل، قال: لا نبرح حتى نناجزَ القوم؛ ودعا النّاس إلى البيعة فكانت بيعةُ الرّضوان تحت الشجرة.

حدّثني ابنُ عمارة الأسديّ، قال: حدّثني عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة، عن إياس بن سلَمة، قال: قال سلَمة بن الأكْوع: بينما نحن قافلون من الحديبَية، نادى منادِي النبيّ ﷺ: أيها الناس؛ البيعة البيعة! نزل رُوح القدس. قال: فسرْنا إلى رسول الله وهو تحت شجرة سَمُرَة، قال: فبايعناه، قال: وذلك قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (١).

حدثنا عبد الحميد بن بيان، قال: أخبرنا محمد بن يزيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عامر، قال: كان أول مَنْ بايع بيعة الرضوان رجلاً من بني أسد، يقال له: أبو سنان بن وهب.

حدّثني يونس بن عبد الأعلَى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر، عن

(١) سورة الفتح: ١٨.

محمد بن المنكدِر، عن جابر بن عبد الله ؛ أنهم كانوا يوم الحديبية أربعة عشر ومائة. قال: فبايعنا رسولَ الله ﷺ عليه وسلَّم، وعمرُ آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرة، فبايعناه غير الجَدّ بن قيس الأنصاريّ، اختبأ تحت بطن بعيره.

قال جابر: بايعْنا رسول الله على ألاّ نَفِرّ؛ ولم نبايعه على الموت.

وقد قيل في ذلك ما حدّثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرَ أبو عامر، قال: أخبرنا عِكْرِمة اليماميّ؛ عن إياس بن سلَمة بن الأكوع، عن أبيه، أنّ النبيّ ﷺ دعا الناس للبيعة في أصل الشجرة، فبايعتُه في أوّل الناس، ثم بايع وبايع؛ حتى إذا كان في وسط من الناس، قال: بايعْ يا سلَمة، قال: قلت: قد بايعتُك يا رسولَ الله في أوّل الناس! قال: وأيضاً؛ ورآني النبي ﷺ أعْزَلَ، فأعطاني حَجَفَة أو دَرَقَةً. قال: ثم إنّ رسولَ الله بايع الناس؛ حتى إذا كان في آخرهم، قال: ألا تبايعُ يا سلمةُ! قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أوّل الناس وأوسطهم! قال: وأيضاً. قال: فبايعتُه الثالثة، فقال رسولُ الله ﷺ: فأين الدَّرَقة، والحَجَفة التي أعطيتُك؟ قلتُ: لقِيَني عمّي عامر أعزَل فأعطيته إياها، فضحك رسولُ الله ﷺ وقال: إنك كالذي قال الأول: اللهمّ ابغني حبيباً هو أحبّ إليَّ من نفسي.

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق. قالَ: فبايع رسول الله ﷺ النَّاس، ولم يتخلَّفْ عنه أحد من المسلمين حضرها إلاّ الجَدُّ بن قيس، أخو بني سلِمة، قال: كان جابر بن عبدالله يقول: لكأنّي أنظرُ إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضَبَأ إليها يستتر بها من الناس. ثم أتى رسولَ الله ﷺ أنَّ الذي كان من أمر عثمان باطل.

قال ابن إسحاق: قال الزهريّ: ثم بعثتْ قريش سهيلَ بن عمرو، أخا بني عامر بن لؤيّ إلى رسول الله ﷺ؛ وقالوا له: ائت محمداً فصالحْه، ولا يكن في صلْحه إلاّ أن يرجعَ عنّا عامه هذا، فوالله لا تحدّث العرب أنه دخل علينا عنوة أبداً.

قال: فأقبل سُهيل بن عمرو، فلمّا رآه رسولُ الله ﷺ مقبلاً، قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فلمّا انتهَى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلَّم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح، فلمّا التأم الأمر، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله! قال: بلى، قال: أو لَسْنا بالمسلمين! قال: بلى، قال: أو ليسُوا بالمشركين! قال: بلى؛ قال: فَعَلاَمَ نُعْطَى الدنيّة في ديننا! قال أبو بكر: يا عُمر الزَمْ غَرْزَه؛ فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. قال: ثم أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألستَ برسول الله! قال: بلى، قال: أوَ لَسْنا بالمسلمينَ! قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين! قال: بلى، قال: فعلاَم نعطي الدنيّة في ديننا! فقال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالفَ أمرَه، ولن يُضيِّعَني. قال: فكان عمر يقول: ما زلت أصومُ وأتصدَّقُ وأصلِّي وأعتِق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلّمت به؛ حتى رجوت أن يكون خيراً.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن بُرَيْدة بن سفيان بن فروة الأسلميّ، عن محمد بن كعب القرظيّ، عن علقمة بن قيس النخعيّ، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: ثمّ دعاني رسولُ الله ﷺ، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سُهَيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهمّ»، فقال رسول الله: اكتب «باسمك اللهمّ»، فكتبتُها. ثم قال: اكتب: «هذا ما صالح

عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» . . فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت انك رسول الله لم أقاتلْك ؛ ولكن اكتب اسمَك واسم أبيك ، قال : فقالَ رسولُ الله ﷺ : اكتب : «هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو؛ اصطلحا على وضْع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهنّ الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ، على أنه مَنْ أتى رسولَ الله من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممّن مع رسول الله لم تُردَّه عليه . وأنّ بيننا عَيْبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ؛ وأنه مَنْ أحب أن يدخلَ في عَقْد رسولِ الله وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخلَ في عَقْد قريش وعهدهم ، دخل فيه» ـ فتواثبت خُزاعة فقالوا : نحن في عَقْد رسول الله وعهده ، وتواثبتْ بنو بكر ، فقالوا : نحن في عَقْد قريش وعهدها ـ «وأنك ترجع عنَّا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجْنا عنك ، فدخلتَها بأصحابك ؛ فأقمت بها ثلاثاً ، وأن معك سلاح الراكب ، السيوف في القُرُب لا تدخلها بغير هذا» .

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جَنْدل بن سهيل بن عمرو يَرْسُف في الحديد ، قد انفلتَ إلى رسولِ الله ﷺ ـ قال : وقد كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكوّن في الفتح ، لرؤيا رآها رسولُ الله ﷺ ؛ فلمَّا رأوْا ما رأوْا من الصلح والرجوع ، وما تحمَّل عليه رسولُ الله ﷺ في نفسه ، دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتى كادوا أن يهلِكوا ـ فلمَّا رأى سهيل أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ بلَبَبه ، فقال : يا محمد قد لجَّت القضيَّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا! قال : صدقْت ، قال : فجعل يَنْتِزُه بلَبَبه ، ويجرُّه ليَرُدّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرُخ بأعلى صوتِه : يا معشر المسلمين ، أرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني! فزاد الناس ذلك شرّاً إلى ما بهم فقال رسولُ الله ﷺ : يا أبا جندل ، احتسِبْ ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعَفين فَرَجاً ومخرجاً ؛ إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم عَقْداً وصلحاً ، وأعطيناهم على ذلك عهداً ، وأعطونا عهداً ، وإنا لا نغدِر بهم .

قال : فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ، ويقول : اصبر يا أبا جندل ؛ فإنّما هم المشركون ؛ وإنما دَمُ أحدهم دمُ كلب!

قال : ويُدْني قائم السيف منه ، قال : يقولُ عمر : رجوت أن يأخذَ السيفَ فيضرب به أباه ، قال : فضنَّ الرجل بأبيه .

فلمّا فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ، ورجالا من المشركين : أبا بكر بن أبي قُحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقّاص ، ومحمود بن مسلمة أخا بني عبد الأشهل ، ومِكْرز بن حفص بن الأخْيَف ـ وهو مشرك ـ أخا بني عامر بن لؤيّ ، وعلي بن أبي طالب ، وكتب وكان هو كاتب الصحيفة .

حدثنا هارون بن إسحاق ، قال : حدثنا مُصعب بن المقدام ، وحدّثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدّثنا أبي ، قالا جميعاً : حدّثنا إسرائيل ، قال : حدثنا ابو إسحاق عن البراء ، قال : اعتَمر رسولُ الله ﷺ في ذي القَعْدة ، فأبى أهلُ مكة أن يَدَعُوه يدخل مكة ، حتى يقاضيَهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام . فلمّا كتب الكتاب كتب : « هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله » ؛ فقالوا : لو نعلم أنك رسولُ الله ما منعناك ؛ ولكن أنت محمد بن عبد الله ، قال : أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، قال لعليّ عليه السلام : امْح « رسول الله » ، قال : لا والله لا أمحاك أبداً ، فأخذه رسولُ الله ﷺ ـ وليس يُحسِن يكتب ـ فكتب مكان « رسول الله » « محمد »

فكتب: « هذا ما قاضى عليه محمد، لا يدخل مكة بالسلاح إلا السيوف في القِراب، ولا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتّبعه، ولا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يقيم بها ». فلما دخلها ومضَى الأجل، أتْوا علياً عليه السلام، فقالوا له: قل لصاحبك: اخرجْ عنّا فقد مضى الأجل، فخرج رسولُ الله ﷺ.

حدّثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمّر، عن الزهريّ، عن عروة بن الزبير، عن المِسْور بن مخرمة. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا يحيى بن سعيد، قال: حدّثنا وحدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا يحيى بن سعيد، قال: حدّثنا عبد الله بن المبارك، قال: حدّثنا معمَر، عن الزّهريّ، عن عُرْوَة، عن المِسْور بن مَخْرمة ومرْوان بن الحكَم في قصة الحديبيَة: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من قضيّته قال لأصحابه: قوموا فانحرُوا، ثم احلِقُوا. قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرّات؛ فلمّا لم يقمْ منهم أحد، قام فدخلَ على أمّ سلَمة، فذكر لها ما لقيَ من الناس، فقالت له أمّ سلمة: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك! اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بَدَنَتَك؛ وتدعوَ حالِقك فيحلقك؛ فقام فخرج فلم يكلّم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك؛ نحربَدنته ودعا حالِقه فحلقه. فلمّا رأوْا ذلك قاموا فنحرُوا؛ وجعل بعضهم يحلق بعضا؛ حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غَمّاً.

قال ابن حميد: قال سلمة: قال ابن إسحاق: وكان الذي حلقه ـ فيما بلغني ذلك اليوم ـ خراش بن أميّة بن الفضل الخُزاعيّ.

حدثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: حدثني عبدالله بن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: حلَق رجالٌ يوم الحديبية، وقصّر آخرون؛ فقال رسولُ الله ﷺ: يرحم الله المحلِّقين، قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلّقين؛ قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلّقين، قالوا: يا رسولَ الله: والمقصِّرين؟ قال: والمقصِّرين؛ قالوا: يا رسولَ الله؛ فلِمَ ظاهرتَ الترحُّم للمحلّقين دون المقصِّرين؟ قال: لأنهم لم يشكُّوا.

حدّثنا ابن حُميد قال: حدّثنا سلَمة، عن أبان بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: أهدى رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبِيَة في هداياه جملاً لأبي جهل؛ في رأسه بُرَة من فِضّة، ليغيظ المشركين بذلك.

رجع الحديث إلى حديث الزهريّ الذي ذكرنا قبل. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة ـ زاد ابنُ حُميد عن سلمة في حديثه، عن ابن إسحاق عن الزهريّ، قال: يقول الزهريّ: فما فُتِحَ في الإسلام فتحٌ قبلَه كان أعظمَ منه؛ إنما كان القتال حيث التقى النّاس ـ فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلُّهم بعضهم بعضاً فالتقوا؛ وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تيْنك السنتيْن في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. وقالوا جميعاً في حديثهم عن الزُّهْري، عن عُروة، عن المِسْور ومروان: فلما قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة، جاءه أبو بَصير؛ ـ رجل من قريش ـ قال ابن إسحاق في حديثه: أبو بصير عُتْبة بن أَسَيْد بن جارية ـ وهو مسلمٌ، وكان ممن حُبِس بمكة، فلمّا قدِم على رسول الله كتب فيه أزهر بن عبد عَوْف والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفّي إلى رسول الله ﷺ، وبعث رجلاً من بني عامر بن لؤيّ، ومعه مولًى لهم. فقدِما على رسول الله ﷺ

بكتاب الأزهر والأخنس، فقال رسولُ الله ﷺ: يا أبا بصير؛ إنَّا قد أعَطْينا هؤلاء القوم ما قد علمت؛ ولا يصلح لنا في ديننا الغَدْر، وإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرَجاً ومخرجاً.

قال: فانطلق معهما حتى إذا كان بذِي الحُليفَة، جلس إلى جدار وجلس معه صَاحباه، فقال أبو بصير: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ قال: نعم، قال: انظر إليه؟ قال: إن شئت! فاستلّه أبو بَصير، ثمّ علاه به حتى قتله، وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسولَ الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلمّا رآه رسول الله طالعاً، قال: إنّ هذا رجل قد رأى فَزَعاً، فلمّا انتهى إلى رسولِ الله قال: ويلك! مالك! قال: قَتل صاحبُكم صاحبي؛ فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً السيف، حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، وفتْ ذمّتك، وأدِّى عنك، أسلمتَني ورددتَني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فقال النبي ﷺ: ويلُ امِّه مِسْعَرُ حَرْب! ـ وقال ابن إسحاق في حديثه: مِحَشّ حَرْب ـ لو كان معه رجالٌ! فلمّا سمع ذلك عرف أنه سيرُدّه إليهم. قال: فخرج أبو بصير حتى نزل بالعِيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش الذي كانوا يأخذون إلى الشام. وبلغ المسلمين الذين كانوا احتُبسوا بمكة قولُ رسول الله ﷺ لأبي بصير: «ويل امّه محشّ حرب لو كان معه رجال»، فخرجوا إلى أبي بصير بالعِيص؛ وينفلت أبو جندل بن سُهَيل بن عمرو، فلحق بأبي بصير؛ فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلًا منهم؛ فكانوا قد ضيّقوا على قُرَيش؛ فوالله ما يسمعون بعِير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لهم فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبيّ ﷺ يناشدونه بالله وبالرّحم لَمَا أرسل إليهم! فمن أتاه فهو آمِن فآواهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة.

زاد ابن إسحاق في حديثه: فلمَّا بلغ سهيلَ بن عمرو قتلُ أبي بصير صاحبَهم العامريّ أسند ظهرَه إلى الكعبة، وقال: لا أؤخّر ظهرِي عن الكعبة؛ حتى يُودُوا هذا الرجل؛ فقال أبو سفيان بن حرب: والله إنّ هذا لهو السَّفه! والله لا يُودَى! ثلاثا.

وقال ابن عبد الأعلى ويعقوب في حديثهما: ثم جاءه ـ يعني رسولَ الله ـ نسوةٌ مؤمناتٌ، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُم الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ ـ حتى بلغ: ﴿ بِعِصَمِ الْكَوافِرِ ﴾ (١). قال: فطلَّق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتيْن كانتا له في الشرْك. قال: فنهاهم أن يردّوهنّ، وأمرهم أن يردُّوا الصّداق حينئذ.

قال رجل للزهريّ: أمِنْ أجل الفروج؟ قال: نعم؛ فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفْوان بن أميّة.

زاد ابن إسحاق في حديثه: وهاجرتْ إلى رسول الله ﷺ أمّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط في تلك المدّة؛ فخرج أخواها عُمارة والوليد ابنا عُقْبة؛ حتى قَدِما على رسول الله ﷺ يسألانِه أن يردّها عليهما بالعهد الذي كان بينه وبين قريش في الحديبية؛ فلم يفعل، أبَى الله عزّ وجلّ ذلك.

وقال أيضاً في حديثه: كان ممّن طلَّق عمر بن الخطاب؛ طلق امرأتَيْه قُرَيْبَة بنت أبي أمية بن المغيرة؛

(١) سورة الممتحنة: ١٠.

فتزوّجها بعده معاوية بن أبي سفيان؛ وهما على شِرْكهما بمكّة، وأمّ كلثوم بنت عمرو بن جَرْوَل الخُزاعيّة أمّ عُبيد الله بن عمر؛ فتزوّجها أبو جَهْم بن حُذافة بن غانم، رجلٌ من قومها؛ وهما على شركهما بمكة.

وقال الواقديّ: في هذه السنة ـ في شهر ربيع الآخر منها ـ بعث رسولُ الله ﷺ عُكّاشة بن مِحْصَن في أربعين رجلًا إلى الغَمْر؛ فيهم ثابت بن أقْرَم وشُجَاع بن وهب؛ فأغذ السير، ونذِرَ القوم به فهربوا؛ فنزل على مياههم وبعث الطلائع؛ فأصابوا عينا فدلّهم على بعض ماشيتهم؛ فوجدوا مائتي بعير، فحدَرُوها إلى المدينة.

قال: وفيها بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة في عشرة نفر في ربيع الأول منها، فكمن القوم لهم حتى نام هو وأصحابه؛ فما شعروا إلّا بالقوم؛ فقتِل أصحاب محمد بن مسلمة وأفلتَ محمد جريحاً.

قال الواقدي: وفيها أسْرَى رسولُ الله ﷺ سريَّةَ أبي عُبيدة بن الجرَّاح إلى ذي القَصّة في شهر ربيع الآخر في أربعين رجلًا، فساروا ليلتهم مُشاةً، ووافَوْا ذا القَصّة مع عَماية الصُّبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هَرَباً في الجبال، وأصابوا نعماً ورِثَّة ورجلًا واحداً، فأسلم، فتركه رسولُ الله ﷺ.

قال: وفيها كانت سريّة زيد بن حارثة بالجَمُوم، فأصاب امرأة من مُزَيْنة؛ يقال لها حليمة، فدَلَّتْهم على محلَّة بني سُلَيم، فأصابوا بها نَعَماً وشاء وأسَراء؛ وكان في أولئك الأسرَاء زوْج حليمة، فلمّا قفل بما أصاب وَهَب رسول الله ﷺ للمُزَنيَّة زوجَها ونفسَها.

قال: وفيها كانت سريّة زيْد بن حارثة إلى العِيص في جُمادى الأولى منها.

وفيها أخذت الأموال التي كانت مع أبي العاص بن الربيع؛ فاستجار بزينب بنت النبي ﷺ فأجارَتْه.

قال: وفيها كانت سريَّة زيد بن حارثة إلى الطَّرَف، في جمادى الآخرة، إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلًا؛ فهربت الأعراب وخافوا أن يكون رسولُ الله سارَ إليهم، فأصاب من نَعَمهم عشرين بعيراً. قال: وغاب أربع ليال.

قال: وفيها سريَّة زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في جمادى الآخرة. قال: وكان أوّل ذلك ـ فيما حدثني موسى بن محمّد، عن أبيه، قال: أقبل دِحْيَة الكلبيّ من عند قيصر؛ وقد أجاز دِحْيَة بمال، وكساه كُسىً؛ فأقبل حتى كان بحِسْمَى، فلقيَه ناسٌ من جُذام؛ فقطعوا عليه الطريق، فلم يُترك معه شيء؛ فجاء إلى رسول الله قبل أن يدخلَ بيته فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيدَ بن حارثة إلى حِسْمى.

قال: وفيها تزوّج عمر بن الخطاب جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح؛ أخت عاصم بن ثابت، فولدت له عاصم بن عمر؛ فطلَّقها عمر فتزوّجها بعده يزيد بن جارية؛ فولدت له عبد الرحمن بن يزيد؛ فهو أخو عاصم لأمّه.

قال: وفيها سريّة زيد بن حارثة إلى وادي القُرى في رجب.

قال: وفيها سريّة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجَنْدل في شعبان؛ وقال له رسول الله ﷺ: إن أطاعوك فتزوّج ابنَة ملكهم؛ فأسلم القوم، فتزوّج عبد الرحمن تُماضر بنت الأصْبَغ؛ وهي أمّ أبي سلَمة؛ وكان أبوها رأسَهم وملكهم.

قال: وفيها أجدب الناسُ جدباً شديداً، فاستسقى رسول الله ﷺ في شهر رمضان بالناس.

قال: وفيها سرّية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى فَدَك في شعبان.

قال: وحدّثني عبد الله بن جعفر، عن يعقوب بن عُقْبة، قال: خرج عليُّ بن أبي طالب في مائة رجل إلى فَدَك، إلى حيّ من بني سَعْد بن بكر؛ وذلك أنّه بلغ رسولَ الله أنّ لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر؛ فسار إليهم الليل وكَمَن النّهار؛ وأصاب عَيْناً؛ فأقرّ لهم أنه بُعِث إلى خيبر يعرض عليهم نصرَهم على أن يجعلوا لهم ثمر خَيْبر.

قال: وفيها سرّية زيد بن حارثة إلى أمّ قِرْفة في شهر رمضان.

وفيها قتلت أمّ قِرْفة؛ وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، قتلها قتلاً عنيفاً؛ ربط برجليها حبْلاً ثم ربطها بين بعيريْن حتى شقّاها شقّاً؛ وكانت عجوزاً كبيرةً.

وكان من قصّتها ما حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، قال: حدّثني ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: بعث رسولُ الله ﷺ زيد بن حارثة إلى وادي القُرى؛ فلقيَ به بني فزارة؛ فأصيب به أناسٌ من أصحابه، وارْتُثَّ زيد من بين القتلى، وأصيب فيها ورد ابن عمرو أحد بني سعد بني هُذَيم، أصابه أحد بني بدْر؛ فلمّا قدم زيد نَذَر ألاّ يمسّ رأسه غسلٌ من جنابة حتى يَغْزُوَ فزارة؛ فلمّا استبلّ من جراحه، بعثه رسولُ الله ﷺ في جيش إلى بني فَزارة، فلقيَهم بوادي القُرى، فأصاب فيهم؛ وقتل قيس بن المسحَّر اليَعْمُريّ مَسْعَدَة بن حكمة بن مالك بن بدر، وأسر أمَّ قرفة ـ وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وكانت عند مالك بنُ حذيفة بن بدر، عجوزاً كبيرة ـ وبنتاً لها، وعبد الله بن مسعدة. فأمر زيد بن حارثة أن يقتل أم قِرْفة؛ فقتلها قتلاً عنيفاً، ربط برجليها حبلين ثم رَبطها إلى بعيرين حتى شقّاها. ثم قدموا على رسول الله ﷺ بابنة أم قِرْفة وبعبد الله بن مسعدة؛ وكانت ابنة أم قرفة لسلمة بن عمرو بن الأكوع؛ كان هو الذي أصابها، وكانت في بيت شرف من قومها، كانت العرب تقول: لو كنت أعزّ من أم قرفة ما زدتَ. فسألها رسول الله ﷺ، فوهبها له، فأهداها لخاله حَزْن بن أبي وهْب؛ فولدت له عبد الرحمن بن حَزْن.

وأما الرواية الأخرى عن سلَمة بن الأكوع في هذه السرّية، أن أميرها كان أبا بكر بن أبي قحافة؛ حدّثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرَنا أبو عامر، قال: حدّثنا عِكْرمة بن عَمار، عن إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: أمَّرَ رسولُ الله ﷺ علينا أبا بكر؛ فغزونا ناساً من بني فَزارة، فلمّا دنوْنا من الماء أمرَنا أبو بكر فعرّسنا؛ فلمّا صلّينا الصبح، أمرنا أبو بكر فشنَنَّا الغارة عليهم. قال: فوردنا الماء فقتلنا به من قتلنا. قال: فأبصرت عُنُقاً من الناس؛ وفيهم النّساء والذراريُّ قد كادوا يسبقون إلى الجبل، فطرحت سهماً بينهم وبين الجبل، فلمّا رأوا السّهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر؛ وفيهم امرأة من بني فَزارة عليها قَشْعُ أدَم، معها ابنة لها من أحسن العرب. قال: فنفَّلني أبو بكر ابنتها، قال: فقدمت المدينة، فلقَيني رسولُ الله ﷺ بالسوق، فقال: يا سلَمة، لله أبوك! هب لي المرأة! فقلت: يا رسولَ الله؛ والله لقد أعجبَتْني وما كشفت لها ثوباً. قال: فسكت عني حتى إذا كان من الغِد لقيَني في السّوق، فقال: يـا سلَمة، لله أبوك! هبْ لي المرأة، فقلت: يا رسولَ الله؛ والله ما كشفت لها ثوباً؛ وهي لك يا رسولَ الله. قال: فبعث بها رسول الله إلى مكّة؛ ففادى بها أسارى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين. فهذه الرواية عن سلمة.

قال محمد بن عمر: وفيها سرّية كُرز بن جابر الفهريّ إلى العُرَنِيِّين الذين قتلوا راعيَ رسولِ الله ﷺ،

واستاقوا الإبل في شوّال من سنة ستّ؛ وبعثه رسول الله في عشرين فارساً.

قال: وفيها بعث رسول الله ﷺ الرُّسُلَ؛ فبعث في ذي الحجة ستّة نفر: ثلاثة مصطحبين؛ حاطب بن أبي بلتعة من لَخْم حليف بني أسد بن عبد العزى إلى المقوقس، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خُزيمة - حليفا لحرب بن أمية شهد بدراً - إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسانيّ، ودِحْيَةَ بن خليفة الكلبيّ إلى قيصر. وبعث سليط بن عمرو العامريّ عامرَ بن لؤيّ إلى هَوْذة بن علي الحنفيّ. وبعث عبد الله بن حُذافة السهميّ إلى كسرى. وعمرو بن أمية الضَّمْريّ إلى النجاشيّ.

وأمَّا ابنُ إسحاق - فإنَّه - فيما زعم، وحدّثنا به ابنُ حميد - قال: حدّثنا سلَمة، عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ قد فرّق رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم، دعاةً إلى الله عزّ وجلّ فيما بين الحديبيَة ووفاته.

وحدّثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدّثني ابن إسحاق، عن يزيد بن أبي حَبيب المصريّ، أنه وجد كتاباً فيه تسمية مَنْ بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الخائبين، وما قال لأصحابه حين بعثهم، فبعث به إلى ابن شهاب الزُّهريّ، مع ثقة من أهل بلده فعرفَه. وفي الكتاب أنّ رسولَ الله ﷺ خرج على أصحابه ذاتَ غَداة، فقال لهم: إني بُعِثتُ رحمةً وكافّة؛ فأدّوا عنّي يرحمكم الله؛ ولا تختلفوا عليَّ كاختلاف الحواريِّين على عيسى بن مريم، قالوا: يا رسول الله، وكيف كان اختلافُهم؟ قال: دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه؛ فأمَّا من قَرُبَ به فأحبّ وسلِم، وأمَّا مَنْ بَعُد به فكرِه وأبى؛ فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عزّ وجلّ، فأصبحوا من ليلتهم تلك؛ وكلُّ رجل منهم يتكلّم بلغة القوم الّذين بُعث إليهم. فقال عيسى: هذا أمرٌ قد عزم الله لكم عليه؛ فامضوا.

قال ابنُ إسحاق: ثم فرّق رسولُ الله ﷺ بين أصحابه؛ فبعث سَلِيط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ أخا بني عامر بن لؤي إلى هَوْذة بن عليّ، صاحب اليمامة. وبعث العَلاءَ بن الحضرميّ إلى المنذر بن ساوى أخي بني عبد القَيْس صاحب البحْرَيْن، وعمرو بن العاص إلى جَيْفَر بن جُلَنْدَى وعبّاد بن جُلَنْدَى الأزديَّيْنْ صاحِبَيْ عُمان. وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية؛ فأدّى إليه كتابَ رسول الله ﷺ، وأهدى المقوقس إلى رسول الله ﷺ أربعَ جوار، منهنَّ مارية أمّ إبراهيم بن رسول الله ﷺ. وبعث رسول الله دِحْيَةَ بن خليفة الكلبيّ ثم الخزْجيّ إلى قيصر، وهو هِرَقْل ملك الروم؛ فلمّا أتاه بكتاب رسول الله ﷺ نَظر فيه ثم جعله بين فَخِذَيْهِ وخاصِرَته.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن ابن شهاب الزّهري، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة بن مسعود، عن عبدالله بن عباس، قال: حدّثني أبو سُفيان بن حرب، قال: كنّا قوماً تجّاراً، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتْنا حتى نَهَكَتْ أموالَنا؛ فلمّا كانت الهُدْنَة بينَنا وبين رسول الله، لم نأمَنْ ألاّ نجد أمناً؛ فخرجتُ في نَفَر من قريش تُجّار إلى الشأم؛ وكان وجهُ متجرنا منها غَزَّة، فقدمناها حين ظهر هِرَقْل على مَنْ كان بأرضه من فارس؛ وأخرجهم منها، وانتزع له منهم صليبه الأعظم؛ وكانوا قد استلبوه إياه، فلمّا بلغ ذلك منهم، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له - وكانت حِمْصُ منزله - خرج منها يمشي على قدميْه متشكراً لله حين ردّ عليه ما ردّ، ليصليَ في بيت المقدس، تُبْسَطُ له البُسط، وتلقى عليها الرياحين، فلمّا انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته، ومعه بطارقته وأشراف الروم، أصبح ذات غَداة مهموماً يقلّب طرفه إلى السماء، فقال له

بطارقته: والله لقد أصبحتَ أيها الملك الغداةَ مهموماً، قال: أجلْ، أريت في هذه الليلة أن مُلكَ الختان ظاهرٌ! قالوا له: أيها الملك؛ ما نعلم أمَّةً تختتن إلّا يهود؛ وهم في سلطانك وتحت يدك؛ فابعث إلى كلّ مَنْ لك عليه سلطان في بلادك، فمرْه فليضرب أعناقَ ذلك من رأيهم يُديرونه؛ إذْ أتاه رسولُ صاحب بُصْرَى برجل من العرب، يقوده ـ وكانت الملوك تَهادَى الأخبار بينها ـ فقال: أيها الملك؛ إنَّ هذا الرجل من العرب من أهل الشَّاءِ والإبل؛ يحدّث عن أمر حَدَث ببلاده عجب؛ فسلْه عنه.

فلمَّا انتهى به إلى هِرَقْل رسول صاحب بُصرى، قال هرقل لتَرْجُمانه: سلْه، ما كان هذا الحدَث الَّذِي كان ببلاده؟ فسأله فقال: خرج بين أظهرنا رَجُلٌ يزعُم أنه نبيّ، قد اتّبعه ناسٌ وصدّقوه، وخالفه ناس؛ وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة؛ فتركتهم على ذلك. قال: فلمَّا أخبره الخبرَ قال: جَرّدُوه، فجرَّدوه؛ فإذا هو مختُون، فقال هرقل: هذا والله الذي أريت؛ لا ما تقولون؛ أعطوه ثوبه؛ انطلق عنا. ثم دعا صاحبَ شُرْطته، فقال له: قَلِّب لي الشأم ظهراً وبطناً؛ حتى تأتيَني برجل من قوم هذا الرجل ـ يعني النبيّ ﷺ.

قال أبو سفيان: فوالله إنَّا لبغَزَّةَ، إذ هجم علينا صاحب شرطته؛ فقال: أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم، قال: انطلقوا بنا إلى الملك؛ فانطلقنا؛ فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رَهْط هذا الرجل؟ قلنا: نعم، قال: فأيّكم أمسّ به رحِماً؟ قلت: أنا.

قال أبو سفيان: وايمُ الله ما رأيتُ من رجل أرى أنَّه كان أنكَر من ذلك الأغلف ـ يعني هرقل ـ فقال: ادْنُهْ فأقعدني بين يديْه، وأقعد أصحابي خَلْفي، ثم قال: إني سأسأله؛ فإن كَذَبَ فَردُّوا عليه؛ فوالله لو كذبتُ ما رَدُّوا عليّ؛ ولكني كنتُ امرَأ سيّداً أتكرَّمُ عن الكذب؛ وعرفت أن أيْسر ما في ذلك إنْ أنا كذَّبته أن يحفظُوا ذلك عليّ؛ ثم يحدّثوا به عني؛ فلم أكذبه، فقال: أخبرْني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدّعي ما يدّعي! قال: فجعلتُ أزَهّدُ له شأنه؛ وأصغِّرُ له أمره؛ وأقول له: أيّها الملك، ما يهمّك من أمره! إنّ شأنه دون ما يبلغك؛ فجعل لا يلتفت إلى ذلك، ثم قال: أنبئني عَمَّا أسألك عنه من شأنه. قلت: سَلْ عَمَّا بدا لك؛ قال: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: محضٌ؛ أوسطنا نسَبا. قال: فأخبِرْني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول، فهو يتشبَّه به؟ قلت: لا. قال: فهل كان له فيكم مُلْكٌ فاستلبتموه إيَّاه؛ فجاء بهذا الحديث لتردُّوا عليه ملكه؟ قلت: لا؛ قال: فأخبرني عن أتْبَاعِه منكم، مَنْ هم؟ قال: قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغِلْمان والنِّساء، وأما ذوو الأسنان والشَّرَف من قومه؛ فلم يتْبعه منهم أحدٌ. قال: فأخبِرْني عَمّنْ تَبِعه، أيحبّه ويلزمُه أم يقليه ويفارقه؟ قال: قلت: ما تبعه رجل ففارقه. قال: فأخبِرْني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: قلت: سِجَالٌ يُدال علينا وندال عليه؛ قال: فأخبرني هل يَغْدِر؟ فلم أجد شيئاً ممَّا سألني عنه أغمزه فيه غيرها، قلت: لا، ونحن منه في هُدْنة، ولا نأمن غَدْره. قال: فوالله ما التفت إليها منّي، ثم كرّ عليّ الحديث. قال: سألتك كيف نسبه فيكم، فزعمتَ أنه مَحْضٌ، من أوسطكم نسباً؛ وكذلك يأخذ الله النبيّ إذا أخذه؛ لا يأخذه إلا من أوْسَط قومه نسباً. وسألتك: هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول بقوله؛ فهو يتشبَّه به؛ فزعمت أن لا؛ وسألتك: هل كان له فيكم مُلْكٌ فاستلبتموه إياه؛ فجاءَ بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنَّهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء؛ وكذلك أتباع الأنبياء في كلّ زمان، وسألتُك عَمّن يتَّبعه، أيحبه ويلزمه أم يَقْلِيه ويفارقه؟ فزعمت أنه لا يتبعه أحدٌ فيفارقه؛ وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا؛ فلئن كنتَ صدقتَني عنه ليغلبَنِّي على ما تحت قدميّ هاتين؛ ولوددت

أنِّي عنده فأغسل قدميه. انطلق لشأنك.

قال: فقمتُ من عنده وأنا أضرب إحدى يديّ بالأخرى؛ وأقول: أي عبادَ الله؛ لقد أمِرَ أمْرُ ابن أبي كَبْشَةَ! أصبح ملوك بني الأصفر يهابونَه في سلطانهم بالشأم!

قال: وقدم عليه كتاب رسول الله ﷺ مع دحيَة بن خليفة الكلبيّ: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هِرَقْل عظيم الروم. السَّلام على من اتَّبع الهدى. أمَّا بعد: أَسْلِمْ تَسْلَم، وأَسْلِمْ يُؤْتِك الله أجْرَك مرّتين؛ وإن تتولّ فإنْ إثْمَ الأكّارين عليك ـ يعني تحمّالة.

حدّثنا سفيان بن وكيع، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، قال: حدّثنا عبدالله بن إدريس، قال: حدّثنا محمد بن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة، عن ابن عبَّاس، قال: أخبرني أبو سفيان بن حَرْب، قال: لمّا كانت الهُدْنة بيننا وبين رسول الله ﷺ عامَ الحديبيَة، خرجتُ تاجراً إلى الشأم. ثم ذكر نحو حديث ابنِ حميد، عن سلَمة، إلا أنه زاد في آخره: قال: فأخذ الكتاب فجعله بين فخذيه وخاصرته.

حدّثنا ابنُ حُمَيد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني ابنُ إسحاق، قال: قال ابنُ شِهاب الزُّهريّ: حدّثني أسقفٌ للنصارى أدركتُه في زمان عبد الملك بن مروان، أنه أدرك ذلك في أمْرِ رسول الله ﷺ وأمْر هرقل وعَقَله، قال: فلمَّا قدم عليه كتابُ رسول الله ﷺ مع دِحْيَة بن خليفة، أخذه هِرَقْل، فجعله بين فخذيه وخاصرته. ثم كتب إلى رجلٍ برومِيَة كان يقرأ من العبرانية ما يقرءونه؛ يذكر له أمره، ويَصِفُ له شأنه، ويخبره بما جاءَ منه؛ فكتب إليه صاحب روميَة: إنَّه للنّبيُّ الذي كنا ننتظرُهُ؛ لا شكّ فيه؛ فاتَّبعه وصدِّقْه.

فأمر هرقلُ ببطارقة الرُّوم؛ فجُمعُوا له في دَسْكَرة، وأمر بها فأشرِجَتْ أبوابُها عليهم؛ ثم اطّلع عليهم من عُلِّيَّة له؛ وخافهم على نفسه، وقال: يا معشَرَ الروم؛ إني قد جمعتُكم لخير؛ إنه قد أتاني كتاب هذا الرّجل يدعوني إلى دينه؛ وإنَّه والله للنَبيّ الذي كنَّا ننتظره ونجده في كتبنا؛ فهلمّوا فلنَتَّبِعه ونصدِّقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

قال: فَنَخَرُوا نَخْرةَ رجل واحد؛ ثم ابتدروا أبوابَ الدَّسْكرة ليخرجوا منها فوجدُوها قد أغلقت؛ فقال: كرُّوهم عليّ ـ وخافهم على نفسه ـ فقال: يا معشَر الرُّوم؛ إني قد قلت لكم المقالة التي قلت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الَّذي قد حَدَث؛ وقد رأيت منكم الذي أسَرُّ به؛ فوقعوا له سُجَّداً؛ وأمر بأبواب الدَّسْكرة ففتِحَتْ لهم؛ فانطلقوا.

حدثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثنا محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، أنَّ هرقل قال لدِحْيَة بن خليفة حين قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ: ويحك! والله إنِّي لأعلَمُ أن صاحبَك نبيٌّ مرسل؛ وأنه الَّذي كنَّا ننتظره ونجده في كتابنا؛ ولكني أخاف الرُّوم على نفسي؛ ولولا ذلك لاتَّبعتُه؛ فاذهب إلى صغاطر الأسقفّ فاذكر له أمرَ صاحبكم؛ فهو والله أعظم في الروم مِنّي، وأجوَز قولا عندهم منّيّ؛ فانظر ما يقول لك.

قال: فجاءَه دِحْية، فأخبره بما جاءَ به من رسول الله ﷺ إلى هِرَقل، وبما يدعوه إليه، فقال صغاطر: صاحبُك والله نبي مرسَل؛ نعرفه بصفته، ونجده في كتبنا باسمه.

ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً، ولبِس ثياباً بيضا، ثم أخذ عصاه؛ فخرج على الرّوم وهم في

الكنيسة، فقال: يا معشرَ الرُّوم؛ إنه قد جاءَنا كتابٌ من أحمد؛ يدعونا فيه إلى الله عزّ وجلّ؛ وإنّي أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنّ أحمد عبده ورسوله.

قال: فوثبوا عليه وَثْبَةَ رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه. فلمّا رجع دِحْية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت لك: إنا نخافهم على أنفسنا؛ فصغاطر ـ والله ـ كان أعظمَ عندهم وأجْوَزَ قولاً مني.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلَمة، قال: حدّثنا محمّد بن إسحاق، عن خالد بن يسار، عن رجل من قدماء أهل الشأم، قال: لما أراد هِرقْل الخروجَ من أرض الشأم إلى القسطنطينية، لَمّا بلغه من أمر رسول الله ﷺ، جمع الرّوم، فقال: يا معشرَ الرُّوم؛ إني عارضٌ عليكم أموراً، فانظروا فيمَ قد أردتها! قالوا: ما هي؟ قال: تعلمون والله أنّ هذا الرّجل لنبي مرسلٌ؛ إنا نجده في كتابنا نعرفه بصفتِه التي وصف لنا، فهلُمَّ فَلْنتَّبِعْه، فتسلَم لنا دنيانا وآخرتنا، فقالوا: نحن نكون تحتَ يدي العرب؛ ونحن أعظم الناس مُلْكاً، وأكثرهم رجالاً، وأفضلُهم بلدا!

قال: فهلمّ فأعطيه الجزية في كلّ سنة، اكسِرُوا عني شوكتَه وأستريحُ من حَرْبِه بمال أعطيه إياه، قالوا: نحن نعطِي العرب الذلّ والصَّغار، بخَرْجٍ يأخذونه منا؛ ونحن أكثر الناس عدداً، وأعظمهم ملكاً، وأمنعهم بلداً؛ لا والله لا نفعل هذا أبداً.

قال: فهلمَّ فلأصالحه على أنْ أعطيَه أرض سُورِيَة، ويَدَعني وأرض الشأم ـ قال: وكانت أرضُ سوريّة أرضَ فلسطين والأردنّ ودمشق وحِمْص وما دون الدَّرْب من أرض سوريَة؛ وكان ما وراء الدَّرْب عندهم الشأم ـ فقالوا له: نحن نعطيه أرضَ سوريَة؛ وقد عرفت أنها سرّة الشأم؛ والله لا نفعل هذا أبداً.

فلما أبوْا عليه، قال: أما والله لترونّ أنكم قد ظفرتُم إذا امتنعتم منه في مدينتكم، ثم جلس على بَغْل له؛ فانطلق حتى إذا أشرف على الدَّرْب استقبل أرض الشأم، ثم قال: السّلام عليكم أرض سوريَة تسليمَ الوداع، ثم ركض حتى دخل القسطنطينيّة.

قال ابن إسحاق: وبعثَ رسولُ الله ﷺ شُجَاع بن وهب، أخا بني أسد بن خُزيمة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِر الغسانيّ؛ صاحب دمشق.

وقال محمد بن عمر الواقديّ: وكتب إليه معه: سلام عَلى مَن اتّبع الهدى، وآمن به. إنّي أدعُوك إلى أن تؤمنَ بالله وحدَه لا شريك له يبقى لك ملكك.

فقدم به شجاع بن وهْب، فقرأه عليهم، فقال: مَنْ ينزع منّي ملكي! أنا سائر إليه؛ قال النبيّ ﷺ: بادَ مُلْكه!

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثنا ابنُ إسحاق، قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمْرِيّ إلى النجاشيّ في شان جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتاباً.

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشيّ الأصحم ملك الحبشة، سلمٌ أنت؛ فإنّي أحْمَد إليك الله الملك القُدُّوس السَّلام المُؤمِن الميهمن؛ وأشهدُ أن عيسى بن مريم روحُ الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البَتُول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى؛ فخَلقه الله من رُوحِه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنّي أدعوك إلى

الله وحْده لا شريك له ؛ والموالاة على طاعته ؛ وأن تتبعني وتؤمِنَ بالذي جاءني ؛ فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابنَ عمّي جعفراً ونفراً معه من المسلمين ؛ فإذا جاءك فأقرّهم ، ودع التجبّر ؛ فإنّي أدعُوك وجنودَك إلى الله ؛ فقد بلّغت ونصحت ؛ فاقبلوا نصْحِي ؛ والسلام على من اتّبع الهدى .

فكتب النجاشيّ إلى رسولِ الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول ِالله ، من النجاشيّ الأصْحَم بن أجبر . سلامٌ عليك يا نبيَّ الله ورحمة الله وبركاته ، من الله الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني إلى الإسلام . أما بعد ، فقد بلَغني كتابُك يا رسولَ الله فيما ذكرتَ من أمر عيسى ، فوربِّ السماء والأرض إنّ عيسى ما يزيد على ما ذكرتَ ثُفْرُوقاً ؛ إنه كما قلت ؛ وقد عرفنا ما بُعثْتَ به إلينا ؛ وقد قرَيْنا ابنَ عمّك وأصحابه ؛فأشهد أنك رسولُ الله صادقاً مصدَّقاً ؛ وقد بايعتك وبايعتُ ابنَ عمك ؛ وأسلمت على يديه لله ربّ العالمين ؛ وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر ؛ فإني لا أملكُ إلاّ نفسي ؛ وإن شئت أن آتيَك فعلت يا رسول الله ؛ فإنّي أشهد أن ما تقول حقّ ، والسلام عليك يا رسول الله .

قال ابن إسحاق : وذكرَ لي أنّ النجاشيّ بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة ؛ فإذا كانوا في وَسَط من البحر غرِقَتْ بهم سفينتُهم ، فهلكوا .

وحُدّثت عن محمد بن عمر ، قال : أرسل رسولُ الله ﷺ إلى النجاشيّ ليزوّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان ؛ ويبعث بها إليه مع مَنْ عنده من المسلمين ، فأرسل النجاشيّ إلى أمّ حبيبة يخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إياها جارية له يقال لها أبرهة ؛ فأعطتها أوْضَاحاً لها وفَتخاً ؛ سروراً بذلك ، وأمرها أن توكّل مَنْ يزوّجها ، فوكلت خالد بن سعيد بن العاص ، فزوّجها ، فخطب النجاشيّ على رسول الله ﷺ ، وخطب خالد فأنكَح أمّ حبيبة ، ثم دعا النجاشيّ بأربعمائة دينار صداقها ؛ فدفعها إلى خالد بن سعيد ؛ فلما جاءت أمّ حبيبة تلك الدنانير ، قال : جاءت بها أبْرهة فأعطتها خمسين مثقالا ، وقالت : كنت أعطيتُكِ ذلك ؛ وليس بيدي شيء ، وقد جاء الله عزّ وجلّ بهذا .

فقالت أبرهة : قد أمرني الملك ألاّ آخذ منك شيئاً ؛ وأن أردّ إليك الذي أخذت منك ، فرددته وأنا صاحبة دُهن الملك وثيابه ، وقد صدّقتُ محمداً رسول الله وآمنتُ به ؛ وحاجتي إليك أن تقرئيه مني السّلام .

قال : نعم ؛ وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهنّ من عُود وعنبر ؛ فكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكره .

قالت أمّ حبيبة : فخرجنا في سفينتين ؛ وبعث معنا النّواتي حتى قدمنا الجار ، ثم ركبنا الظّهر إلى المدينة ؛ فوجدْنا رسولَ الله ﷺ بخيبر ، فخرج مَنْ خرج إليه ، وأقمت بالمدينة حتى قدِم رسولُ الله ؛ فدخلتُ إليه ، فكان يسائلني عن النّجاشيُ ؛ وقرأت عليه من أبرهة السلام ، فردّ رسول الله ﷺ عليها ؛ ولما جاء أبا سفيانَ تزويجُ النبيّ ﷺ أمّ حبيبة قال : ذلك الفحل لا يقدَعُ أنفه .

وفيها كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ، وبعث الكتاب مع عبدالله بن حُذافة السهميّ ؛ فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلامٌ على مَن اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ؛ وشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّي رسول الله ، إلى الناس كافّة ، لِيُنذِرَ مَنْ كان حَيًّا ؛ أَسْلِمْ تسلَمْ ، فإنْ أبيت فعليك إثم المجوس .

فمزّق كتاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: مُزِّق ملكه!

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن حبيب، قال: وبعث عبدالله بن حُذافة بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم، إلى كِسْرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كِسْرى عظيم فارس؛ سلام عَلَى من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأدعوك بدعاء الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافَّةً لأنذِر من كان حَيًّا ويحقّ القول على الكافرين، فأسلِم تَسلَم، فإن أبيت؛ فإن إثم المجوس عليك.

فلمّا قرأه ومزّقه، وقال: يكتب إليّ هذا وهو عبدي!

حدّثنا ابنُ حُمَيد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، عن الزُّهريّ، عن أبي سلَمة بن عبد الرحمن بن عوف؛ أن عبدالله بن حُذافة قدِمَ بكتاب رسول الله ﷺ على كسرى، فلمّا قرأه شقّه، فقال رسول الله: مزّق ملكُه! حين بلغه أنه شقّ كتابه.

ثم رجع إلى حديث يزيد بن أبي حبيب. قال: ثمّ كتب كِسْرى إلى باذان؛ وهو على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرّجل الذي بالحجاز رجليْن من عندك جَلْدَيْن، فلْيأتياني به؛ فبعث باذانَ قهرمانه وهو بابَوَيْه ـ وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس ـ وبعث معه رجلاً من الفُرْس يقال له خُرّخُسره، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: أئت بلد هذا الرجل، وكلِّمه وأتني بخبره، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش بنَجِب من أرض الطائف فسألاهم عنه، فقالوا: هو بالمدينة، واستبشروا بهما وفرحوا؛ وقال بعضهم لبعض: أبشِرُوا فقد نَصِب له كسرى ملك الملوك، كُفِيتم الرجل!

فخرجا حتى قَدِما على رسول الله ﷺ، فكلّمه بابويه، فقال: إنّ شاهانشاه ملك الملوك كِسْرى؛ قد كتب إلى الملك باذان، يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيه بك؛ وقد بعثني إليك لتنطلِق معي؛ فإن فعلتَ كَتَب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفّه عنك؛ وإن أبيتَ فهو من قد علمت! فهو مهلكُك ومهلك قومك، ومخرّب بلادك؛ ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما، وأعفيا شواربهما؛ فكره النظر إليهما، ثم أقبل عليهما فقال: ويلكُما! مَنْ أمركما بهذا؟ قالا: أمرنا بهذا ربّنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله: لكنّ ربّي قد أمرني بإعفاء لحيتي وقصّ شاربي. ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتياني غداً، وأتى رسول الله الخبرُ من السّماء أنّ رسول الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه؛ فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل؛ بعدما مضى من الليل؛ سلّط عليه ابنُه شيرويه فقتله.

ـ قال الواقديّ: قَتَل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضيْن من جمادى الأولى من سنة سبع لستّ ساعات مضت منها ـ.

رجع الحديث إلى حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب. فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول! إنا قد نَقِمْنا عليك ما هو أيسرُ من هذا؛ أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك! قال: نعم، أخبراه ذلك عنّي، وقولا له: إنّ ديني وسلطاني سيبلغُ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخُفّ والحافر؛ وقولا له:

إنك إن أسْلمتَ أعطيْتُك ما تحت يَدَيك ؛ وملّكتُك على قومك من الأبناء ؛ ثم أعطى خُرّخسره مِنْطقة فيها ذهب وفضة ، كان أهداها له بعض الملوك .

فخرجا من عنده حتى قدِما على باذان ، فأخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا بكلام مَلِك ، وإنّي لأرى الرّجل نبيًّا كما يقول ؛ ولننظرنّ ما قد قال ؛ فلئن كان هذا حقًّا ما فيه كلامٌ ؛ إنه لنبي مُرْسَلٌ ؛ وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا .

فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتابُ شيرويه ؛ أما بعدُ فإنّي قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحلّ من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم ؛ فإذا جاءك كتابي هذا فخذْ لي الطاعة ممّن قِبَلك ؛ وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تُهِجْه حتى يأتيَك أمري فيه .

فلمّا انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إنّ هذا الرجل لرسولٌ . فأسلم وأسلمت الأبناءُ معه من فارس مَنْ كان منهم باليمن ؛ فكانت حِمْيَر تقول لخرّخُسره : ذو المِعْجَزَة ، للمنطقة التي أعطاه إياها رسول الله ﷺ - والمنطقة بلسان حمير المِعجَزة - فبَنُوه اليوم ينسبون إليها خُرّخُسره ذو المِعْجَزَة .

وقد قال بابويه لباذان : ما كلّمت رجلاً قطّ أهيبَ عندي منه ، فقال له باذان : هل معه شُرَطٌ؟ قال : لا .

قال الواقديّ : وفيها كتب إلى المقوقس عظيم القِبْط ، يدعوه إلى الإسلام فلم يُسْلِم .

قال أبو جعفر : ولما رجع رسولُ الله ﷺ من غزوة الحديبية إلى المدينة أقام بها ذا الحجّة وبعض المحرّم - فيما حدثنا ابنُ حُمَيد قال : حدثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق .

قال : وولي الحجّ في تلك السنة المشركون .

ذكر الأحداث الكائنة في سنة سبع من الهجرة
غزوة خَيْبَر

ثم دخلت سنة سبع؛ فخرج رسولُ الله ﷺ في بقيّة المحرّم إلى خَيْبَر واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفطة الغفاريّ، فمضى حتى نزل بجيشه بوادٍ يقال له الرَّجِيع؛ فنزل بين أهل خَيْبر وبين غطفان - فيما حدَّثنا ابنُ حميد قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق - لِيَحُول بينهم وبين أن يُمِدُّوا أهلَ خيبر؛ وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ.

قال: فبلغني أنّ غَطَفان لما سمعتْ بمنزلِ رسول الله ﷺ من خَيْبر، جَمَعُوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهودَ عليه؛ حتى إذا ساروا مَنقَلةً سمعوا خلفهم في أموالهم وأهاليهم حِسًّا؛ ظنُّوا أنّ القوم قد خالفوا إليهم، فرجعُوا على أعقابهم؛ فأقاموا في أهاليهم وأموالهم؛ وخلَّوْا بين رسول الله وبين خَيْبَر، وبدأ رسول الله ﷺ بالأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حِصْناً حِصْناً؛ فكان أوّلَ حصونهم افتتح حصن ناعم؛ وعنده قُتِل محمود بن مسلمة؛ ألقيتْ عليه رحاً منه فقتلته؛ ثم القَمُوص؛ حصن ابن أبي الحُقَيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سَبَايا؛ منهم صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق؛ وابْنَتَيْ عمٍّ لها. فاصطفى رسولُ الله ﷺ صفيّة لنفسه، وكان دحية الكلبيّ قد سألَ رسولَ الله صفية؛ فلما اصطفاها لنفسه أعطاه ابنَتَيْ عمّها؛ وفشت السبايا من خيبر في المسلمين.

قال: ثم جعل رسول الله ﷺ يتدنّى الحصون والأموال.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر؛ أنه حدّثه بعضُ أسلَم؛ أنّ بني سهم مِنْ أسلَم، أتوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله؛ واللّهِ لقد جُهِدْنا وما بأيدينا شيء؛ فلم يجدُوا عند رسول الله شيئاً يعطيهم إياه، فقال النبيّ: اللهمّ إنك قد عرفت حالَهم، وأنْ ليست بهم قوة؛ وأن ليس بيدي شيء أعطِيهم إياه؛ فافتح عليهم أعظمَ حصونها؛ أكثرها طعاماً وَوَدَكاً. فغدا النَّاس، ففتح الله عليهم حِصْنَ الصّعب بن معاذ؛ وما بخيبر حصْنٌ كان أكثرَ طعاماً ووَدَكاً منه.

قال: ولما افتتح رسولُ الله ﷺ مِنْ حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، انتهوْا إلى حصنهم الوَطِيح والسُّلالِم - وكان آخر حصون خَيْبر افتتح - حاصَرَهم رسول الله بضعَ عشرة ليلة.

فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن سهل بن عبد الرحمن بن سَهْل أخي بني حارثة، عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ، قال: خرج مَرْحب اليهوديّ من حِصْنهم؛ قد جمع سلاحه وهو يرتجز؛ ويقول:

قَـد عـلِمَتْ خَيْبَـرُ أنّي مَـرْحَـبُ شـاكِي السِّـلاحِ بَـطَلٌ مُجَـرَّبُ
أَطْعَنُ أَحْيَانـاً وَحِينـاً أَضْـرِبُ إِذَا الـلُّيـوثُ أَقْـبَـلَـتْ تَـحَـرَّبُ
كـانَ حِمَـايَ، لَلْحِمَى لا يُقْـرَبُ

وهو يقول: هَلْ من مبارز! فقال رسولُ الله ﷺ: من لهذا؟ فقام محمد بن مسلمة؛ فقال: أنا له يا رسول الله؛ أنا والله الموتور الثائر؛ قتلوا أخِي بالأمس! قال: فقم إليه؛ اللهمّ أعِنْه عليه.

فلما أن دنا كلُّ واحد منهما مِن صاحبه، دخلت بينهما شجرةٌ عُمْرِيَّةٌ من شجر العُشَر؛ فجعل أحدُهما يلوذ بها من صاحبه؛ فكلّما لاذَ بها اقتطع بسيفه منها ما دونه منها؛ حتى برز كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرَّجل القائم، ما بينهما فَنَنٌ؛ ثم حمل مرحبٌ على محمد فضربه؛ فاتقاه بالدَّرقة فوقع سيفه فيها؛ فعَضَّت به فأمْسَكَتْه، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتلَه.

ثمّ خرج بعد مرحب أخوه ياسر، يرتجز ويقول:

قَـدْ عَـلِمَتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي يَـاسِـرُ شـاكِـي السِّـلاحِ بَـطَلٌ مُـغَـاوِرُ
إِذَا الـلُّيُـوثُ أَقْـبَـلَتْ تُـبَـادِرُ وَأَحْـجَمَتْ عَنْ صَـوْلَتِي الـمَغَـاوِرُ
إِنَّ حِمَـايَ فيـه مَـوْتٌ حَـاضِـرُ

وحدّثنا ابنُ حُمَيد، قال: حدثنا سَلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة؛ أنّ الزُّبَير بنَ العوّام خرج إلى ياسر، فقالت أمّه صفيّة بنت عبد المطلب: أيقتُلُ ابني يا رسول الله؟ قال: بل ابنك يقتلُه إن شاء الله. فخرج الزّبير وهو يقول:

قـد عـلِمَتْ خَـيْـبَـرُ أنِّـي زبَّـارْ قَـرْمٌ لـقَـوم غَـيْـرِ نِـكْس فَـرَّارْ
ابـنُ حُمَـاة الـمَجْـدِ وآبْـنُ الأخْيَـار يَـاسِـرُ لا يَـغْـرُرْكَ جَمْـعُ الكُفّـار
فَجَمْعُهم مثـل السَّـرَابِ الجَـرَّارْ

ثم التقيا فقتله الزبير.

حدّثنا ابنُ بشّار، قال: حدّثنا محمد بن جعفر، قال: حدّثنا عَوْف، عن ميمون أبي عبدالله، أنّ عبدالله بن بُرَيدة حَدّث عن بُرَيدة الأسلميّ، قال: لما كان حين نزل رسولُ الله ﷺ بحصن أهل خيبر، أعطى رسولُ الله ﷺ اللواءَ عمر بن الخطاب، ونهض مَنْ نهض معه من الناس؛ فلقُوا أهل خيبر؛ فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ؛ يجبِّنُه أصحابُه ويجبِّنهم، فقال رسول الله ﷺ: لأعْطِيَنَّ اللواء غداً رَجُلا يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله. فلمّا كان من الغد تطاولَ لها أبو بكر وعمر؛ فدعا عليًّا عليه السلام وهو أرْمد، فتفل في عينيه، وأعطاه اللواءَ؛ ونهض معه من الناس مَنْ نهض. قال: فلقيَ أهل خيبر؛ فإذا مرحب يرتجز ويقول:

قَـدْ عَـلِمَتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي مَـرْحبُ شـاكِـي السِّـلاحِ بَـطَلٌ مجَـرَّبُ
أطـعَـنُ أَحْيَـانـاً وحـينـاً أضْـرِبُ إذا الـلُّيُـوث أقـبـلتْ تَـلَهَّـبُ

فاختلف هو وعليٌّ ضربتين؛ فضربه عليٌّ على هامَتِه؛ حتى عضّ السيف منها بأضراسه؛ وسمع أهل

العسكر صوت ضَرْبته؛ فما تتامّ آخر الناس مع عليّ عليه السلام حتى فتح الله له ولهم.

حدّثنا أبو كُرَيب، قال: حدّثنا يونس بن بكير، قال: حدّثنا المسيّب بن مسلِم الأوديّ، قال: حدّثنا عبدالله بن بُرَيدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ ربما أخذته الشَّقيقة، فيلبث اليوم واليومين لا يخرج. فلمّا نزل رسول الله ﷺ خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس. وإن أبا بكر أخذ رايةَ رسول الله؛ ثم نهض فقاتل قتالا شديداً؛ ثم رجع فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديداً هو أشدُّ من القتال الأوّل؛ ثم رجع فأخبر بذلك رسول الله، فقال: أما والله لأعطينَّها غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، يأخذها عنوة - قال: وليس ثَمّ عليّ عليه السلام - فتطاولت لها قريش، ورجا كلُّ واحد منهم أن يكون صاحب ذلك؛ فأصبح فجاء عليٌّ عليه السلام على بعيرٍ له، حتى أناخ قريباً من خِباء رسول الله ﷺ وهو أرْمد، وقد عصب عينيه بشقّة بُرْد قَطَرِي؛ فقال رسول الله ﷺ: مالك؟ قال: رمِدْتُ بعد، فقال رسول الله ﷺ: ادنُ منّي، فدنا فتَفَل في عينيه، فما وجِعها حتى مضى لسبيله. ثم أعطاه الراية؛ فنهض بها معه وعليه حُلّة أرجوان حمراء قد اخرجّ خَمْلُها. فأتى مدينة خيبر؛ وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مِغْفرٌ مُعَصْفَرٌ يمانٍ، وحجرٌ قد ثقبَه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحبُ ... شاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مجرَّبُ

فقال عليٌّ عليه السلام:

أنَا الذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... أكيلُكم بالسيفِ كيْلَ السنْدَرَهْ
لَيْثٌ بغاباتٍ شَدِيدٌ قَسْوَرَهْ

فاختلفا ضربتين؛ فبدره عليٌّ فضربه، فقدَّ الحجرَ والمِغْفر ورأسَه؛ حتى وقع في الأضراس. وأخذ المدينة.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن الحسن؛ عن بعض أهله، عن أبي رافع مولَى رسول الله ﷺ، قال: خرجنا مع عليّ بن أبي طالب حين بعثَهُ رسولُ الله ﷺ برايته، فلمّا دنا مِن الحِصْن خرج إليه أهلُه؛ فقاتلهم فضربه رجل من اليهود، فطرح تُرْسَه من يده؛ فتناول عليٌّ رضي الله عنه باباً كان عند الحصن، فتترّس به عن نفسه، فلم يزل في يدِه وهو يقاتل؛ حتى فتح الله عليه؛ ثمّ ألقاه من يده حين فرغ؛ فلقد رأيتُني في نفر سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نَقْلِبَ ذلك الباب فما نَقلِبُه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: ولما فَتح رسولُ الله ﷺ القَمُوص، حصن ابن أبي الحُقَيق، أتِيَ رسول الله بصفيّة بنت حُيَي بن أخطب، وبأخرى معها؛ فمرّ بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفيّة صاحت وصَكّتْ وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلمّا رآها رسولُ الله قال: أغرِبوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفيّة فحِيزت خلْفَه، وألقِي عليها رداؤُه، فعرف المسلمون أنّ رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه فقال رسولُ الله ﷺ لبلال - فيما بلغني - حين رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنُزِعَتْ منك الرحمة يا بلال؛ حيث تمرُّ بامرأتين على قتلى رجالهما! وكانت صفيّة قد رأت في المنام وهي عروسٌ بكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق؛ أن قمراً وقع في حجرها؛ فعرضت رؤياها على زوْجها فقال: ما هذا إلا أنّك تمنّيْن ملك الحجاز محمداً، فلطَم وجهَها لطمةً اخضرّتْ عينها منها؛ فأتِيَ بها رسول الله ﷺ وبها أثرٌ منها، فسألها: ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر.

قال ابن إسحاق: وأُتِيَ رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق ـ وكان عنده كنز بني النَّضير ـ فسأله فجحَد أن يكون يعلم مكانه؛ فأُتِيَ رسولُ الله ﷺ برجل من يهود؛ فقال لرسول الله ﷺ: إني قد رأيت كِنانة يُطِيفُ بهذه الخرِبَة كلّ غداة. فقال رسول الله لكنانة. أرأيتَ إن وَجَدْناه عندك، أأقتلك؟ قال: نعم؛ فأمر رسولُ الله ﷺ بالخربة فحُفِرَتْ؛ فأخرج منها بعض كنزهم؛ ثم سأله ما بقي، فأبى أنْ يؤديَه، فأمر به رسول الله ﷺ الزبيرَ بن العوام، فقال: عذِّبه حتى تستأصل ما عنده؛ فكان الزبير يقدح بزنده في صدرِه حتى أشرف على نفسه؛ ثم دفعه رسولُ الله إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة. وحاصر رسول الله ﷺ أهلَ خيبر في حصْنَيْهم، الوطيح والسُّلالم؛ حتى إذا أيقنوا بالهلَكة سألوه أن يسيّرهم ويحقِن لهم دماءهم؛ ففعل. وكان رسول الله قد حاز الأموال كلها: الشِّقّ ونطاة والكتِيبة؛ وجميع حصونهم إلّا ما كان من ذَيْنِكَ الحصنَين. فلما سمع بهم أهل فَدَك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيِّرهم ويحقن دماءهم لهم، ويخلُّوا له الأموال، ففعل، وكان فيمن مشى بينهم وبين رسول الله في ذلك مُحَيِّصَة بن مسعود؛ أخو بني حارثة؛ فلما نزل أهلُ خيبر على ذلك؛ سألوا رسول الله أن يعامِلَهم بالأموال على النِّصْف، وقالوا: نحن أعلمُ بها منكم؛ وأعمرُ لها؛ فصالحهم رسولُ الله ﷺ على النِّصف؛ على أنا إذا شئنا أن نخرجَكم أخرجناكم؛ وصالحه أهل فَدَك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً للمسلمين، وكانت فَدَك خالصة لرسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يجْلِبُوا عليها بخيْلٍ ولا ركاب. فلما اطمأنّ رسولُ الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سَلّام بن مِشْكم شاةً مصليَّة؛ وقد سألت: أيّ عُضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله؟ فقيل لها: الذراع؛ فأكثرتْ فيها السمّ، فسمَّتْ سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتْها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذِّراع؛ فأخذها فلاكَ منها مُضغة فلم يُسِغْها؛ ومعه بِشْر بن البَراء بن معرور؛ وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله، فأما بِشْر فأساغها؛ وأما رسول الله فلفَظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبِرُني أنه مسمُومٌ؛ ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملكِ على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يَخْفَ عليك، فقلتُ: إن كان نبيًّا فسيُخْبَر؛ وإن كان ملِكاً استرحتُ منه؛ فتجاوز عنها النبيّ ﷺ. ومات بشر بن البَراء من أكلَتِه التي أكل.

حدّثنا ابنُ حميد؛ قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق؛ عن مَرْوان بن عثمان بن أبي سعيد بن المعلَّى، قال: وقد كان رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي تُوفِّيَ فيه ـ ودخلتْ عليه أمّ بشر بن البرَاء تعوده: يا أمّ بِشْر؛ إنّ هذا الأوانَ وجدت انقطاع أبْهَري من الأكْلة التي أكلتُ مع ابنك بخيبر.

قال: وكان المسلمون يروْن أنّ رسول الله ﷺ قد مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوّة.

قال ابن إسحاق: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القُرى فحاصر أهله لياليَ، ثمّ انصرف راجعاً إلى المدينة.

ذكر غزوة رسول الله ﷺ وادي القرى

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن ثور بن زيد، عن سالم مولى عبدالله بن مطيع، عن أبي هريرة، قال: لمّا انصرفنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى، نزلْنا أُصُلاً مع مغارِب الشمس، ومع رسول الله ﷺ غلامٌ له؛ أهداه إليه رفاعة بن زيد الجُذاميّ، ثم الضُّبَيْبيّ؛ فوالله إنا لنضع رَحْلَ

رسول الله ﷺ إذ أتاه سهمٌ غرَب؛ فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئاً له الجنّة! فقال رسولُ الله ﷺ: كلا والذي نفس محمد بيده، إنّ شَمْلَتَه الآن لَتُحْرَقُ عليه في النار. قال: وكان غَلَّها من فيْء المسلمين يوم خيبر.

قال: فسمعها رجلٌ من أصحاب رسولِ الله ﷺ فأتاه، فقال: يا رسولَ الله، أصبتُ شِرَاكين لنعلين لي، قال: فقال: يُقَدُّ لك مثلهما من النار.

وفي هذه السّفرة نام رسول الله ﷺ وأصحابُه عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس؛ حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزهريّ، عن سعيد بن المسيّب، قال: لمّا انصرف رسولُ الله ﷺ من خيبر؛ وكان ببعض الطّريق، قال مِنْ آخر الليل: مَنْ رجلٌ يحفظ علينا الفجر، لعلّنا ننام؟ فقال بلال: أنا يا رسول الله أحفظ لك؛ فنزل رسولُ الله ﷺ، ونزل الناس فناموا؛ وقام بلال يصلي، فصَلّى ما شاء الله أن يُصلّي ثم استند إلى بعيره؛ واستقبل الفجر يرمقُه؛ فغلبته عينه، فنام فلم يُوقِظْهم إلا مسُّ الشمس؛ وكان رسول الله ﷺ أوّلَ أصحابه هبّ من نومه، فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال! فقال: يا رسولَ الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: صدقت. ثم اقتاد رسول الله غيرَ كثير، ثم أناخ فتوضّأ وتوضّأ الناس، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة، فصلّى بالناس، فلمّا سلّم أقبل على الناس، فقال: إذا نسيتُم الصلاة، فصلُّوها إذا ذكرتموها، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[1].

قال ابن إسحاق: وكان فتْح خيبر في صفر.

قال: وشهد مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمين، فرضَخَ لهنّ رسول الله من الفَيْء ولم يضربْ لهنّ بسهم.

قال: ولما فتِحت خيبر قال الحجّاج بن عِلَاط السُّلَميّ ثم البَهْزيّ لرسول الله ﷺ: يا رسول الله؛ إنّ لي مالاً بمكة عند صاحبتي أمّ شيبة بنت أبي طلحة ـ وكانت عنده، له منها مُعَرِّض بن الحجاج ـ ومال متفرّق في تجار أهل مكة، فأذنْ لي يا رسول الله. فأذِن له رسول الله ﷺ، ثم قال: إنه لا بدّ لي من أن أقول، قال: قل، قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة، فوجدت بثنيّة البيضاء رجالاً من قريش يتسمّعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز؛ ريفاً ومنعة ورجالا، فهم يتحسّسون الأخبار؛ فلما رأوْني قالوا: الحجاج بن عِلاط ـ ولم يكونوا علموا بإسلامي ـ عنده والله الخَبر! أخبِرْنا بأمرِ محمد، فإنه قد بلَغنا أن القاطع قد سار إلى خَيْبر؛ وهي بلدة يهود وريف الحجاز. قال: قلتُ: قد بلغني ذلك، وعندي من الخبر ما يسرّكم. قال: فالتاطوا بجَنْبَيْ ناقتي يقولون: إيه يا حجّاج! قال: قلت: هُزِمُوا هزيمةً لم تسمعوا بمثلها قطّ؛ وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قطّ، وأسِرَ محمدٌ أسراً، وقالوا: لن نقتلَه حتى نبعثَ به إلى مكّة فيقتلوه بين أظهرهم بمَنْ كان أصاب من رجالهم. قال: فقاموا فصاحوا بمكّة وقالوا: قد جاءكم الخَبر، وهذا محمد إنّما تنتظرون أن يُقْدَم به عليكم فيُقتَل بين أظهركم. قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكّة على غرَمائي؛ فإنّي أريد أن أقدم خَيبر، فأصيب من فَلّ محمد وأصحابه قبل أن يسبِقني التجار إلى ما هنالك.

قال: فقاموا فجمعوا مالي كأحَثِّ جَمْع سمعت به. فجئت صاحبتي فقلت: مالي ـ وقد كان لي عندها مال

---

(١) سورة طه: ١٤.

موضوع ـ لعلي ألحق بخيْبر فأصيب من فُرَصِ البيع قبل أن يسبِقَني إليه التجار. فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج، ما هذا الذي جئت به؟ قال: وهلْ عندك حفظٌ لما وضعت عندك؟ قال: نعم، قلت فاستأخِرْ عني حتى ألقاك على خَلاء، فإني في جَمْع مالي كما ترى؛ فانصرفَ عني حتى إذا فرغتُ من جَمْع كلّ شيءٍ كان لي بمكة، وأجمعت الخروجَ، لقيت العبّاس، فقلت: احفظ عليَّ حديثي يا أبا الفضل؛ فإني أخشى الطَّلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت. قال: أفعل، قال: قلتُ فإني والله لقد تركتُ ابنَ أخيك عروساً على ابنة ملِكهم ـ يعني صفيّة بنت حييّ بن أخطب ـ ولقد افتتح خيبر، وانتثل ما فيها؛ وصارت له ولأصحابه. قال: ما تقول يا حجّاج! قال: قلت: إي والله؛ فاكتم عليَّ؛ ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالي فَرَقاً من أن أغلَب عليه، فإذا مضت ثلاثٌ فأظهِرْ أمرَك؛ فهو والله على ما تحبّ. قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حُلةً له، وتخلّقَ وأخذ عصاه؛ ثم خرج حتى أتى الكعبةَ، فطاف بها؛ فلما رأوْه قالوا: يا أبا الفضل؛ هذا والله التجلّد لحرِّ المصيبة! قال: كلا والذي حلفتم به! لقد افتتحَ محمدٌ خيبر، وتُرِكَ عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالها وما فيها؛ فأصبَحْت له ولأصحابه. قالوا: مَنْ جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به؛ لقد دخل عليكم مسلماً، وأخذ مالَه وانطلق ليلحقَ برسول الله وأصحابه فيكون معه، قالوا: يالَ عبَاد الله! أفلت عدُّو الله! أما والله لو علمْنا لكان لنا وله شأنٌ، ولم ينشَبُوا أن جاءهم الخبر بذلك.

حدثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثني عبدالله بن أبي بكر، قال: كانت المقاسم على أموال خيبر على الشِّقّ ونَطَاة والكَتِيبَة؛ فكانت الشِّقُّ ونَطاة في سُهمان المسلمين، وكانت الكتيبةُ خمس الله عزّ وجلّ وخُمس النبيّ ﷺ؛ وسهم ذوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وطُعْم أزواج النبيّ، وطعم رجال مَشَوْا بين رسول الله وبين أهل فَدَك بالصُّلْح؛ منهم مُحَيِّصَةُ بن مسعود، أعطاه رسولُ الله ﷺ منها ثلاثين وَسْق شعير، وثلاثين وَسْق تمر. وقُسِمَتْ خيبر على أهل الحديبيَة؛ مَنْ شهد منهم خيبر ومن غاب عنها، ولم يَغِبْ عنها إلّا جابر بن عبدالله بن حرَام الأنصاريّ، فقسم له رسولُ الله ﷺ كسهم مَنْ حضرها.

قال: ولما فرغ رسولُ الله ﷺ من خَيْبر قذف الله الرُّعب في قلوب أهل فَدَك حين بلغهم ما أوقع الله بأهل خيبر؛ فبعثوا إلى رسول الله يُصَالحونه على النِّصف من فَدَك، فقدمتْ عليه رُسُلهم بخيْبر أو بالطائف، وإمّا بعد ما قدِم المدينة، فقبل ذلك منهم؛ فكانت فَدَك لرسول الله ﷺ خاصّة، لأنه لم يُوجِفْ عليها بخيل ولا ركاب.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: كان رسولُ الله ﷺ يبعثُ إلى أهل خَيْبر عبدَ الله بن رواحة خارصاً بين المسلمين ويهود، فيَخْرُص عليهم؛ فإذا قالوا: تعدّيت علينا، قال: إن شئتم فلكم؛ وإن شئتم فلنا؛ فتقول يهود: بهذا قامت السموات والأرض.

وإنما خَرَص عليهم عبدالله بن رواحة؛ ثم أصيب بمُؤتة، فكان جَبّار بن صَخْر بن خنساء، أخُو بني سلمة؛ هو الذي يخْرُص عليهم بعد عبدالله بن رواحة، فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأساً في معاملتهم؛ حتى عَدوْا في عهد رسول الله ﷺ على عبدالله بن سهل، أخي بني حارثة، فقتلوه، فاتّهمهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون عليه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: سألتُ ابنَ شهاب الزُّهريّ: كيف كان إعطاء رسولِ الله ﷺ يهودَ خيبر نخيلهم حين أعطاهم النّخل على خَرْجها؟ أبَتَّ ذلك لهم حتى قُبض، أم أعطاهم إياها لضرورة من غير ذلك؟

فأخبرني ابنُ شهاب أنّ رسول الله ﷺ افتتح خيبر عَنْوةً بعد القتال؛ وكانت خيبر مما أفاء الله على رسوله؛ خمّسها رَسول الله وقسّمها بين المسلمين، ونزل مَنْ نزل من أهلها على الإجْلاءِ بعد القتال؛ فدعاهم رسولُ الله ﷺ فقال: إن شئتم دفعنا إليكم هذه الأموال على أن تعملوها؛ وتكون ثمارها بيننا وبينكم؛ وأقِرُّكم ما أقرّكم الله. فقبِلوا، فكانوا على ذلك يعملونها. وكان رسولُ الله ﷺ يبعث عبدَالله بن رواحة فيَقْسِمُ ثمرَها، ويعدل عليهم في الخَرْص؛ فلما توفّى الله عزَّ وجلّ نبيَّه ﷺ أقرَّها أبو بكر بعد النبيّ في أيديهم على المعاملة التي كان عاملهم عليها رسول الله حَتى توفِّيَ، ثم أقرَّها عمر صَدْراً من إمارته؛ ثمّ بلغ عمرَ أنّ رسول الله ﷺ قال في وجَعِه الذي قبض فيه: لا يجتمعنّ بجزيرة العرب دِينان، ففَحَصَ عمر عن ذلك حتى بلَّغه الثَّبْتُ، فأرسَلَ إلى يهود أنّ الله قد أذِنَ في إجلائكم؛ فقد بلغني أنّ رسولَ الله ﷺ قال: لا يجتمعنّ بجزيرة العرب دينان، فمن كان عنده عهدٌ من رسول الله فلْيأتِني به أنفذه له؛ ومَنْ لم يكن عنده عهدٌ من رسول الله من اليهود فليتجهَّزْ للجلاء؛ فأجلى عمر مَنْ لم يكن عندِه عهد من رسول الله ﷺ منهم.

قال أبو جعفر: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال الواقديّ: في هذه السنة ردّ رسول الله ﷺ زينب ابنته على أبي العاص بن الربيع؛ وذلك في المحرّم.

قال: وفيها قَدِمَ حاطبُ بن أبي بَلْتَعة من عند المُقَوْقس بمارية وأختها سيرين وبغلته دُلْدُل وحِماره يَعْفُور وكُساً؛ وبعث معهما بخَصيّ فكان معهما، وكان حاطب قد دعاهما إلى الإسلام قبل أن يقدم بهما؛ فأسلمت هي وأختها، فأنزلهما رسول الله ﷺ على أمّ سلَيْم بنت مِلْحَان ـ وكانت ماريَة وضيئة ـ قال: فبعث النبيّ ﷺ بأختها سيرين إلى حسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن بن حسان.

قال: وفي هذه السنة اتّخذ النبيّ ﷺ مِنْبره الذي كان يخطبُ الناس عليه، واتخذ دَرجتيْن ومقعده.

قال: ويقال إنه عمل في سنة ثمان. قال: وهو الثَّبتُ عندنا.

قال: وفيها بعث رسول الله ﷺ عمرَ بن الخطاب في ثلاثين رجلا إلى عَجُز هوازن بتُرَبَة، فخرج بدليل له من بني هلال؛ وكانوا يسيرون الليل، ويكمُنون النهار، فأتى الخبرُ هوازنَ فهربوا؛ فلم يلق كيداً، ورجع.

قال: وفيها سرّية أبي بكر بن أبي قُحافة في شعبان إلى نجد؛ قال سلَمة بن الأكوع: غزونا مع أبي بكر في تلك السنة.

قال أبو جعفر: قد مضى خبرها قبل.

قال الواقديّ: وفيها سريّة بَشِير بن سعد إلى بني مُرّة بفدَك في شعبان في ثلاثين رجلاً، فأصيب أصحابه وارْتُثَّ في القتلى، ثم رجع إلى المدينة.

قال أبو جعفر: وفيها سريّة غالب بن عبدالله في شهر رمضان إلى المَيْفَعة؛ فحدّثنا ابنُ حُميد قال: حدّثنا سلَمَة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: بعثَ رسول الله ﷺ غالبَ بن عبدالله

الكلبيّ إلى أرض بني مرّة، فأصاب بها مِرْداس بن نَهِيك حليفاً لهم من الحُرَقة من جُهَيْنة؛ قتله أسَامة بن زيد ورجلٌ من الأنصار.

قال أسامة: لما غَشِيناه، قال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ فلم ننزع عنه حتى قتلناه؛ فلما قدمنا على رسول الله أخبرناه الخبر؛ فقال: يا أسامة، مَنْ لك بلا إله إلا الله!

قال الواقديّ: وفيها سريّة غالب بن عبدالله إلى بني عبد بن ثعلبة؛ ذكر أن عبدالله بن جعفر حدّثه عن ابن أبي عون، عن يعقوب بن عتبة، قال: قال يسار مولى رسول الله ﷺ: يا رسولَ الله؛ إني أعلم غِرَّةً من بني عبد بن ثعلبة، فأرسل معه غالب بن عبدالله في مائة وثلاثين رجلاً؛ حتى أغاروا على بني عبد، فاستاقوا النَّعَم والشاء، وحَدَرُوها إلى المدينة.

قال: وفيها سريّة بشير بن سعد إلى يُمن وجِنَاب، في شوّال من سنة سبع، ذكر أن يحيى بن عبد العزيز بن سعيد حدّثه عن سعد بن عبادة، عن بشير بن محمد بن عبدالله بن زيد، قال: الذي أهاج هذه السريّة أن حُسَيْل بن نويرة الأشجعيّ ـ وكان دليل رسول الله ﷺ إلى خيبر ـ قدِم على النبيّ ﷺ، فقال: ما وراءك؟ قال: تركت جمعاً من غَطَفان بالجَنَاب قد بعث إليهم عُيينة بن حِصْن ليسيروا إليكم، فدعا رسول الله بشيرَ بن سعد، وخرج معه الدليل حُسَيل بن نويرة، فأصابوا نَعَماً وشاءً؛ ولقيَهم عبدٌ لعُيينة بن حِصْن فقتلوه، ثم لقوا جمع عُيَيْنة؛ فانهزم، فلقيَه الحارث بن عوف منهزماً، فقال: قد آن لك يا عيينة أن تقصر عما ترى.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: لَمّا رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من خَيْبر، أقام بها شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبانَ وشهر رمضان وشوّالاً؛ يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه، ثم خرج في ذي القعْدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمراً عُمْرة القضاء مكان عُمرته التي صدُّوه عنها؛ وخرج معه المسلمون ممن كان معه في عُمْرته تلك، وهي سنة سبع؛ فلما سمِع به أهلُ مكة خرجوا عنه؛ وتحدّثَتْ قريش بينها أنّ محمداً وأصحابه في عسْر وجُهْد وحاجة.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن عُمارة، عن الحكَم بن عُتَيْبة، عن مِقسَم، عن ابن عباس، قال: اصطفُّوا لرسول الله ﷺ عند دار النَّدْوة لينظروا إليه وإلى أصحابه؛ فلما دخل رسولُ الله المسجد، اضطبع بردائه، وأخرج عَضُدَه اليمنى، ثم قال: رَحمَ الله أمرأً أراهمُ اليوم من نفسه قُوَّةً! ثم استلم الركن. وخرج يُهرْولُ ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراهُ البيت منهم؛ واستلم الرّكْن اليماني مشى حتى يستلم الأسود، ثم هَرْوَل كذلك ثلاثة أطواف؛ ومشى سائرها.

وكان ابن عباس يقول: كان النّاس يظنُّون أنها ليستْ عليهم؛ وذلك أنّ رسولَ الله إنما صنعها لهذا الحيّ من قريش للّذي بلغه عنهم؛ حتى حج حجّة الوداع، فرَمَلَها، فمضت السنة بها.

حدثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمَة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بَكْر؛ أنّ رسولَ الله ﷺ حين دخل مكة في تلك العُمرة، دخلها وعبدالله بن رواحة آخذٌ بخِطام ناقته؛ وهو يقول:

خَلُّوا بني الكُفَّارِ عن سَبِيلِهْ ... إنِّي شَهِيدٌ أنَّه رَسُولُهْ
خَلوا فكلُّ الخَيْرِ في رسولِهْ ... يا رَبِّ إنِّي مُؤمِنٌ بقيلِهْ

أعْـرِفُ حَـقَّ آللهِ فـي قَـبُـولِـهْ ‏ ‏ نَـحْنُ قَـتَـلْنـاكـم على تـأويـلِهْ
كـمـا قَتَـلْنـاكـم عـلى تَـنْـزِيـلِهْ ‏ ‏ ضَـرْبـاً يُـزِيـلُ الْهـامَ عـن مَقِـيلِهْ
ويُـذْهِـلُ الـخَلِيـلَ عـن خَـلِيـلِهْ

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح وعبدالله بن أبي نَجِيح، عن عطاء بن رَباح ومجاهد، عن ابن عباس، أنّ رسولَ الله ﷺ تزوّج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك؛ وهو حرامٌ؛ وكان الذي زوّجه إياها العباس بن عبد المطلب.

قال ابن إسحاق: فأقام رسولُ الله ﷺ بمكّة ثلاثاً، فأتاه حُوَيْطبُ بن عبد العزّى بن أبي قيس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل، في نفر من قريش في اليوم الثالث، وكانت قريش وكّلَتْه بإخراج رسولِ الله ﷺ من مكة، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما عليكم لـو تركتمـوني فأعْرَسْتُ بين أظهركم فصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه! قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا. فخرج رسول الله ﷺ وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة؛ حتى أتاه بها بسَرِف، فبنَى عليها رسول الله هنالك، وأمر رسول الله أن يُبْدِلوا الْهَدْيَ وأبدَل معهم، فعزَّتْ عليهم الإبل فرخّص لهم في البقر؛ ثم انصرف رسولُ الله ﷺ إلى المدينة في ذي الحجة، فأقام بها بقيّة ذِي الحجة ـ وولي تلك الحجة المشركون ـ والمحرم وصفرا وشهرَيْ ربيع، وبعث في جمادى الأولى بعثَهُ إلى الشأم الذين أصيبوا بمؤتة.

وقال الواقديّ: حدّثني ابن أبي ذئب، عن الزهريّ، قال: أمرهم رسولُ الله ﷺ أن يعتمروا في قابل قضاء لعُمْرَة الحديبية، وأن يهدوا.

قال: وحدّثني عبدُالله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر، قال: لم تكُنْ هذه العمرة قضاءً، ولكن كان شرط على المسلمين أن يعتمروا قابلاً في الشهر الذي صَدَّهُم المشركون فيه.

قال الواقديّ: قول ابن أبي ذئب أحبُّ إلينا، لأنهم أحصِرُوا ولم يَصِلوا إلى البيت.

وقال الواقديّ: وحدّثني عُبيدالله بن عبد الرحمن بن موهب، عن محمد بن إبراهيم، قال: ساقَ رسولُ الله ﷺ في عمرة القضية ستين بَدَنة.

قال: وحدّثني مُعاذ بن محمد الأنصاريّ، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: حمل السلاح والبيض والرّماح، وقاد مائة فرس، واستعمل على السلاح بشيرَبن سعد، وعلى الخيل محمد بن مَسْلَمة، فبلغ ذلك قريشاً فراعهم، فأرسلوا مِكْرز بن حفص بن الأخيَف، فلقيه بمَرّ الظَّهْران، فقال له: ما عُرِفتُ صغيراً ولا كبيراً إلّا بالوفاء؛ وما أريد إدخال السلاح عليهم؛ ولكن يكون قريباً إليّ. فرجع إلى قريش فأخبرهم.

قال الواقديّ: وفيها كانت غزوة ابن أبي العوْجاء السُّلَمِيّ إلى بني سُلَيم في ذي القَعْدة؛ بعثه رسول الله ﷺ إليهم بعد ما رجع من مكة في خمسين رجلاً، فخرج إليهم.

قال أبو جعفر: فلقيه ـ فيما حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر ـ بنو سليم، فأصيب بها هو وأصحابه جميعاً.

قال أبو جعفر: أما الواقديّ فإنه زعم أنه نجا ورجع إلى المدينة، وأصيب أصحابه.

ثم دخلت سنة ثمان من الهجرة

ففيها توفيت ـ فيما زعم الواقديّ ـ زيْنب ابنة رسول الله ﷺ، عن يحيى بن عبدالله بن أبي قتادة، عن عبدالله بن أبي بكر.

قال: وفيها أغزى رسولُ الله ﷺ غالبَ بن عبدالله الليثي في صفر إلى الكَدِيد إلى بني الملوّح.

قال أبو جعفر: وكان من خبر هذه السرّية وغالب بن عبدالله؛ ما حدّثني إبراهيم بن سَعِيد الجوهريّ وسعيد بن يحيى بن سعيد ـ قال إبراهيم: حدّثني يحيى بن سعيد، وقال سعيد بن يحيى: حدّثني أبي ـ وحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة؛ جَميعاً عن ابن إسحاق، قال: حدّثني يعقوب بن عُتْبة بن المغيرة، عن مُسْلِم بن عبدالله بن خُبَيْب الجُهنيّ، عن جندب بن مكيث الجهنيّ، قال: بعث رسولُ الله ﷺ غالب بن عبدالله الكلبيّ؛ كلب ليث، إلى بني الملوّح بالكَدِيد، وأمره أن يُغِير عليهم، فخرج ـ وكنت في سريته ـ فمضينَا؛ حتى إذا كنا بقُدَيد لقينَا بها الحارث بن مالك ـ وهو ابن البَرْصاء الليثيّ ـ فأخذناه فقال: إني إنما جئت لأُسلِم؛ فقال غالبُ بن عبدالله: إن كنت إنّما جئت مسلماً، فلنْ يضرّكَ رِبَاطُ يوم وليلة؛ وإن كنتَ على غير ذلك استوثقنا منك. قال: فأوثقه رباطاً ثم خلّف عليه رُوَيْجلا أسود كان معنا، فقال: امكث معه حتى نمرّ عليك، فإنْ نازَعَك فاحتزّ رَأسَه. قال: ثمّ مضينَا حتى أتينا بطن الكَدِيد، فنزلنا عُشَيْشِيَةً بعد العصر، فبعثني أصحابي رَبِيئَةً، فَعَمَدْتُ إلى تلّ يطلعني على الحاضر، فانبطحت عليه ـ وذلك قُبَيْلَ المغرب ـ فخرج منهم رجل، فنظر فرآني منبطحاً على التلّ، فقال لامرأته: والله إنّي لأرى على هذا التلّ سواداً ما كنت رأيتُه أوّل النهار؛ فانظري لا تكون الكلاب جرّت بعض أوعيتك. فنظرتْ فقالت: والله ما أفقد شيئاً. قال: فناولِيني قوسي وسهمين من نَبْلي، فناولته فرماني بسهْم فوضعه في جنبي. قال: فنزعتهُ فوضعته، ولم أتحرّك. ثمّ رماني بالآخر، فوَضعه في رأس منكبي، فنزعته فوضعته ولم أتحرّك. فقال: أما والله لقد خالطه سهمايَ، ولو كان ربيئة لتحرّك؛ فإذا أصبحت فاتّبعي سهميّ فخذِيهما لا تمضغهما على الكلاب، قال: فأمهلناهم حتى راحت رائحتُهم، حتى إذا احتلبوا وعطنوا سكنوا، وذهبت عَتمةٌ من الليل شننّا عليهم الغارة، فقتلنا مَنْ قتلنا واستقْنا النّعم؛ فوجّهنا قافلين؛ وخرج صَرِيخُ القوم إلى القوم مُغَوِّثاً. قال: وخرجنا سِراعاً حتى نمرّ بالحارث بن مالك؛ ابن البرصاء، وصاحبه؛ فانطلقنا به معنا، وأتانا صَرِيخ الناس، فجاءنا ما لا قبل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلاّ بطنُ الوادي مِنْ قُدَيْد، بعثَ الله عزّ وجلّ من حيث شاء سحاباً ما رأينا قبل ذلك مطراً ولا خالاً، فجاء بما لا يقدر أحدٌ أن يقدم عليه؛ فلقد رأيناهم ينظرون إلينا، ما يقدِرُ أحدٌ منهم أن يقدم ولا يتقدّم؛ ونحن نحدوها سراعاً؛

حتى أسندناها في المشلّل؛ ثم حدرناها عنها؛ فأعجزنا القوم بما في أيدينا، فما أنسى قولَ راجزٍ من المسلمين؛ وهو يحدوها في أعقابها، ويقول:

أَبَى أبو القاسم أنْ تَعَزَّبي ... في خَضِلٍ نَباتُه مُغْلَوْلِبِ
صُفْرٍ أعاليه كلَوْنِ المُذْهَبِ

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن رجل من أسلم، عن شيخ منهم، أن شِعارَ أصحابَ رسول الله ﷺ تلك الليلة كان: أَمِتْ أَمِتْ.

قال الواقديّ: كانت سرّية غالب بن عبدالله بضعةَ عشرَ رجلاً.

قال: وفيها بعث رسولُ الله ﷺ العَلاء بن الحضرميّ إلى المنذر بن ساوَى العبديّ؛ وكتب إليه كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبيّ رسول الله إلى المنذر بن ساوَى. سلامٌ عليك؛ فإنّي أحْمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فإنّ كتابك جاءني ورسلك. وإنه مَنْ صلّى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، واستقبل قِبلَتنا فإنه مسلم؛ له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، ومَنْ أبَى فعليه الجزية. قال: فصالحهم رسولُ الله ﷺ على أنّ على المجوس الجِزْية، لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم.

قال: وفيها بعث رسولُ الله ﷺ عمرَو بن العاص إلى جَيْفَر وعبّاد ابنيْ جُلَنْدَى بعُمَان، فصدّقا النبيّ، وأقرّا بما جاء به، وصدّق أموالهما، وأخذ الجزية من المجوس.

قال: وفيها سريّة شجاع بن وهب إلى بني عامر، في شهر ربيع الأول في أربعة وعشرين رجلا، فشنّ الغارة عليهم، فأصابوا نَعَماً وشاءً، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً؛ لكلّ رجل.

قال: وفيها كانت سريّة عمرو بن كعب الغِفاريّ إلى ذات أطلاح، خرج في خمسة عشر رجلا؛ حتى انتهى إلى ذات أطلاح، فوجد جمعاً كثيراً، فدعوْهم إلى الإسلام، فأبوْا أن يجيبوا، فقتلوا أصحابَ عمرو جميعاً، وتحامل حتى بلغ المدينة.

قال الواقديّ: وذات أطلاح من ناحية الشأم، وكانوا من قُضاعة، ورأسهم رَجُلٌ يقال له سَدُوس.

قال: وفيها قدم عمرو بن العاص مسلِماً على رسول الله ﷺ، قد أسلم عند النجاشيّ، وقدم معه عثمان بن طلحة العبدريّ، وخالد بن الوليد بن المغيرة، قدموا المدينة في أوّل صفر.

قال أبو جعفر: وكان سبب إسلام عمرو بن العاص، ما حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن راشد مولى بن أبي أوْس، عن حبيب بن أبي أوْس، قال: حدّثني عمرو بن العاص من فيه إلى أذني، قال: لمّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يروْن رأيي، ويسمعون منّي، فقلت لهم: تعلمون والله أنّي لأرى أمر محمد يَعلُو الأمور عُلوًّا مُنْكَراً. وإنّي قد رأيت رأياً فما تروْن فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيتُ أن نلحقَ بالنجاشيّ، فنكون عنده، فإن ظهر محمدٌ على قومنا كنّا عند النجاشيّ، فلأن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد؛ وإن يظهر قومنا فنحن مَنْ قد عرفوا؛ فلا يأتينا منهم إلا خيرٌ. فقالوا: إنّ هذا لرأيٌ. قلت: فاجمَعوا له ما نُهدِي إليه ـ وكان أحبَّ ما يُهْدَى إليه من أرضنا الأدَم ـ فجمعنا له أدَماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه؛ فوالله إنا لعنده؛ إذ

جاءه عمرو بن أميّة الضّمريّ ـ وكان رسولُ الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه ـ قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلتُ لأصحابي: هذا عَمْرو بن أميةَ الضمْريّ، لو قد دخلت على النّجاشيّ وسألته إياه؛ فأعطانيه فضربتُ عنقه! فإذا فعلت ذلك رأتْ قريش أنّي قد أجزأتُ عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه، فسجدتُ له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي! أهديْتَ لي شيئاً من بلادك؟ قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت لك أدَماً كثيراً، ثم قرَّبته إليه، فأعجبه واشتهاه؛ ثم قلت له: أيها الملك؛ إنّي قد رأيتُ رجلاً خرج من عندك؛ وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطِنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. قال: فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننت أنه قد كسره ـ يعني النجاشيّ ـ فلو انشقّت الأرض لي لدخلتُ فيها فَرَقاً منه. ثم قلت: والله أيها الملك لو ظننتُ أنك تَكْرَه هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيَك رسول رجل يأتيه الناموسُ الأكبر الذي كان يأتي موسى، لتقتله! فقلت: أيّها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتّبعه؛ فإنه والله لعَلى الحقّ، وليظهرنّ عَلَى مَن خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قال: قلت: فتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده، فبايعتُه على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي؛ وقد حال رأيي عمّا كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله لأسلم؛ فلقيتُ خالد بن الوليد ـ وذلك قبل الفتح ـ وهو مقبلٌ من مكة، فقلت: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم؛ وإن الرجل لنَبيّ، أذهب والله أسلِم ؛ فحتّى متى! فقلت: والله ما جئتُ إلّا لأسلم، فقدمنا على رسول الله ﷺ، فتقدّم خالد بن الوليد فأسلَم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسولَ الله، إنّي أبايعك على أن تغفر لي ما تقدّم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخّر! فقال رسولُ الله ﷺ: يا عمرو، بايع فإنّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وإنّ الهجرة تجبُّ ما قبلها. فبايعته ثم انصرفت.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عمّن لا أتهم؛ أنّ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، كان معهما، أسلم حين أسلَمَا.

ذكر ما في الخبر عن الكائن كان من الأحداث المذكورة في سنة ثمان من سني الهجرة

فممّا كان فيها من ذلك توجيهُ رسولِ الله ﷺ عمرو بن العاص في جُمادى الآخرة إلى السّلاسل من بلاد قُضاعة في ثلاثمائة؛ وذلك أنّ أمّ العاص بن وائل ـ فيما ذُكر ـ كانت قُضاعيّة، فذُكر أنّ رسولَ الله ﷺ أراد أن يتألّفهم بذلك، فوجّهه في أهلِ الشرف من المهاجرين والأنصار ثـم استمـدّ رسولَ الله ﷺ، فأمدّه بأبي عبيدة بن الجرّاح على المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر في مائتين، فكان جميعهم خمسمائة.

وحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بَليّ وعُذْرة، يستنفر الناس إلى الشأم؛ وذلك أنّ أمّ العاص بن وائل كانت امرأةً مِنْ بَليّ، فبعثه رسولُ الله إليهم يستألفهم بذلك؛ حتى إذا كان على ماء بأرض جُذام، يقال له

السلاسل - وبذلك سُمِّيت تلك الغزوة ذات السلاسل - فلمّا كان عليه خاف، فبعث إلى رسول الله يستمدّه، فبعث إليه رسولُ الله ﷺ أبا عبيدة بن الجرّاح في المهاجرين الأولين؛ فيهم أبو بكر وعمر رضوان الله عليهم، وقال لأبي عبيدة حين وجّهه: لا تختلفا؛ فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه، قال له عمرو بن العاص: إنما جئتَ مدداً لي، فقال له أبو عبيدة: يا عمرو، إنّ رسول الله قد قال لي: لا تختلفا؛ وأنت إن عصيتَني أطعتُك، قال: فأنا أميرٌ عليك؛ وإنما أنت مددٌ لي، قال: فدونَك! فصلّى عمرو بن العاص بالناس.

قال الواقديّ: وفيها كانت غزوة الخبَط؛ وكان الأميرَ فيها أبو عبيدة بن الجراح، بعثه رسولُ الله ﷺ في رجب منها، في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار قبَل جُهَينة، فأصابهم فيها أزْلٌ شديد وجهدٌ، حتى اقتسموا التّمر عدداً.

وحدثنا أحمد بن عبد الرحمن، قال: حدّثنا عَمّي عبدالله بن وهب، قال: أخبرني عمرو بن الحارث أن عمرو بن دينار حدّثه أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: خرجنا في بعث ونحن ثلاثمائة، وعلينا أبو عبيدة بن الجراح، فأصابنا جوعٌ، فكنّا نأكل الخبَط ثلاثة أشهر؛ فخرجت دابّةٌ من البحر يقال لها العَنبر، فمكثنا نصف شهر، نأكل منها، ونحر رجلٌ من الأنصار جزائر، ثم نحر من الغد كذلك؛ فنهاه أبو عبيدة، فانتهى.

قال عمرو بن دينار - وسمعت ذكوان أبا صالح قال: إنه قيس بن سعد.

قال عمرو: وحدثني بكر بن سوادة الجُذاميّ، عن أبي جمرة، عن جابر بن عبدالله نحو ذلك، إلّا أنه قال: جهدوا؛ وقد كان عليهم قيس بن سعد، ونحر لهم تسع ركائب، وقال: بعثهم في بَعْثٍ من وراء البحر؛ وإنّ البحرَ ألقى إليهم دابّة؛ فمكثوا عليها ثلاثة أيام يأكلون منها ويقدّدون ويغرفون شحمها؛ فلما قدِموا على رسول الله ﷺ ذكروا له ذلك من أمر قيس بن سعد، فقال رسول الله: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت، وقال في الحوت: لو نعلم أنّا نبلغه قبل أن يُرْوِح لأحببنا أن لو كان عندنا منه شيء؛ ولم يذكر الخبَط ولا شيئاً سوى ذلك.

حدّثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا الضّحاك بن مخلد، عن ابن جريج، قال: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبدالله يخبر، قال: زوّدنا النبيّ ﷺ جراباً من تمر، فكان يقبض لنا أبو عبيدة قبضة قبضة، ثم تمرة تمرة، فنمصّها ونشرب عليها الماء إلى الليل؛ حتى نَفِد ما في الجراب، فكُنّا نجني الخبَط، فجعنا جوعاً شديداً. قال: فألقى لنا البحر حوتاً ميتاً، فقال أبو عبيدة: جياع كلوا، فأكلنا - وكان أبو عبيدة ينصب الضِّلع من أضلاعه فيمرّ الراكب على بعيره تحته، ويجلس النفر الخمسة في موضع عينه - فأكلنا وادّهنّا حتى صَلَحت أجسامنا، وحسنت شحماتنا؛ فلما قدمنا المدينة قال جابر: فذكرنا ذلك للنبيّ ﷺ، فقال: كُلوا رزقاً أخرجه الله عزّ وجلّ لكم، معكم منه شيء؟ - وكان معنا منه شيء - فأرسل إليه بعض القوم فأكل منه.

قال الواقديّ: وإنما سميت غزوة الخبَط، لأنهم أكلوا الخبَط حتى كأنّ أشداقهم أشداق الإبل العَضِهة.

قال: وفيها كانت سَرِيّة وجّهها رسول الله ﷺ في شعبان، أميرها أبو قتادة.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: حدثني ابن إسحاق، عن يحيى بن سعيد الأنصاريّ، عن محمد بن إبراهيم، عن عبدالله بن أبي حَدْرَد الأسلميّ، قال: تزوّجتُ امرأةً من قومي، فأصدقتُها مائتي درهم،

فجئت رسولَ الله ﷺ أستعينه على نكاحي، فقال: وكم أصدقتَ؟ قلت: مائتي درهم يا رسول الله، قال: سبحان الله، لو كنتم إنّما تأخذون الدراهم من بطن وادٍ ما زدتم! والله ما عندي ما أعينُك به. قال: فلبثتُ أياماً؛ وأقبل رَجُلٌ من بني جُشَم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس - أو قيس بن رفاعة - في بطنٍ عظيم من جُشَم؛ حتى نزل بقومه ومَنْ معه بالغابة؛ يريد أن يجمع قيساً على حرب رسول الله ﷺ.

قال: وكان ذا اسمٍ وشرف في جُشَم. قال: فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين، من المسلمين فقال: اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتونا به؛ أو تأتونا منه بخبر وعلم. قال: وقدَّم لنا شارفاً عجفاء، فحمل عليها أحدنا؛ فوالله ما قامت به ضعفاً حتّى دَعمها الرجال من خلفها بأيديهم حتى استقلّت وما كادت. ثم قال: تبَلَّغوا على هذه واعتقبوها.

قال: فخرجنا ومعنا سلاحُنا من النّبل والسيوف؛ حتى جئنا قريباً من الحاضر عُشَيْشِيَةً مع غروب الشمس، فكمنت في ناحية، وأمرت صاحبيّ، فكمنَا في ناحية أخرى من حاضر القوم، وقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبّرت وشددت على العسكر فكَبّرَا وشُدَّا معي.

قال: فوالله إنا لكذلك ننتظر أن نرى غِرَّة أو نصيب منهم شيئاً، غَشِيَنا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء؛ وقد كان لهم راعٍ قد سرَح في ذلك البلد، فأبطأ عليهم حتى تخوّفوا عليه.

قال: فقام صاحبهُم ذلك رفاعة بن قيس، فأخذ سيفَه، فجعله في عنقه ثم قال: والله لأتبعنَّ أثر راعينا هذا؛ ولقد أصابه شرٌّ. فقال نفَرٌ ممّن معه: والله لا تذهب، نحن نكفيك! فقال: والله لا يذهب إلّا أنا، قالوا: فنحنُ معك، قال: والله لا يتبعني منكم أحد.

قال: وخرج حتى مرّ بي، فلما أمكنني نفحتُه بسهم فوضعته في فؤاده، فوالله ما تكلّم، ووثبتُ إليه فاحتزرت رأسه، ثم شددتُ في ناحية العسكر وكبَّرت؛ وشدّ صاحباي وكبّرا؛ فوالله ما كان إلا النّجاء ممّن كان فيه عندك بكّل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم؛ وما خفّ معهم من أموالهم.

قال: فاستقنا إبلًا عظيمة، وغنماً كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ، وجئت برأسه أحمله معي، قال: فأعانني رسولُ الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً، فجمعتُ إليَّ أهلي.

وأما الواقديّ، فذكر أنّ محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حَثْمَةَ، حدّثه عن أبيه، أنّ النبيّ ﷺ بعث ابن أبي حَدْرَد في هذه السريّة مع أبي قَتادة، وأنّ السريّة كانت ستة عشر رجلًا، وأنّهم غابوا خمس عشرة ليلة، وأن سُهمانهم كانت اثني عشر بعيراً يُعْدَلُ البعير بعشرٍ من الغنم، وأنهم أصابوا في وُجوههم أربعَ نسوة؛ فيهنّ فتاة وضيئة، فصارت لأبي قتادة، فكلّم مَحْمِيَة بن الجَزْء فيها رسولَ الله ﷺ، فسأل رسولُ الله ﷺ أبا قتادة عنها، فقال: اشتريتها من المغنم، فقال: هَبْها لي، فوهبها له، فأعطاها رسولُ الله محمية بن جَزْء الزُّبيديّ.

قال: وفيها أغزى رسولُ الله ﷺ في سرّيةٍ أبا قتادة إلى بطن إضَم. حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن يزيد بن عبدالله بن قُسَيْط، عن أبي القعقاع بن عبدالله بن أبي حَدْرد الأسلميّ. وقال بعضهم عن ابن القعقاع - عن أبيه، عن عبدالله بن أبي حَدْرَد، قال: بعثَنا رسول الله ﷺ إلى إضَم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قَتادة الحارث بن رِبْعِيّ ومحَلّم بن جَثّامةُ بن قيس الليثي، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن

إضَم ـ وكانت قبل الفتح ـ مَرَّ بنا عارم بن الأضبط الأشجعيّ على قَعود له، معه مُتَيِّع له ووطْب من لبن. فلمّا مرّ بنا سلّم علينا بتحيّة الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلّم بن جَثّامة الليثي لشيء كان بينه وبينه؛ فقتله وأخذ بعيره ومتيِّعه، فلمّا قدمنا على رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا. . .﴾[1] الآية.

وقال الواقديّ: إنّما كان رسولُ الله ﷺ بعثَ هذه السريّة حين خرج لفتح مكة في شهر رمضان، وكانوا ثمانيةَ نفر.

ذكر الخبر عن غزوة مؤتة

قال ابن إسحاق ـ فيما حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة عنه، قال: لما رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من خَيْبر؛ أقام بها شهرَيْ ربيع، ثم بعث في جمادى الأولى بَعثَه إلى الشأم الذين أصيبوا بمؤتة.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُروة بن الزبير، قال: بعث رسولُ الله ﷺ بَعثَهُ إلى مؤتة في جُمادى الأولى من سنة ثمانٍ؛ واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيبَ جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس.

فتجهّـز الناسُ، ثم تهيَّؤوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم وَدَّع الناسُ أمراء رَسُول اللَّهِ وسلموا عليهم وودّعوهم؛ فلمّا ودّع عبدالله بن رَواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكَى، فقالوا له: ما يُبكيك يابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حبّ الدنيا، ولا صبابة بكم؛ ولكني سمعتُ رسولَ الله يقرأ آيةً من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾[2]. فلست أدري كيف لي بالصَّدَرِ بعد الورود! فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، فقال عبدالله بن رواحة:

لكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمٰنَ مَغْفِرَةً ... وضَرْبةَ ذاتَ فَرْغ تَقْذِف الزَّبَدَا
أو طَعْنَةً بيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأحْشاءَ والكَبِدا
حتى يقولوا إذَا مَرُّوا على جَدَثِي ... أَرْشَدَكَ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وقد رَشَدَا!

ثم إن القوم تهيؤوا للخروج، فجاء عبدالله بن رواحة إلى رسول الله ﷺ فودّعه، ثم خرج القوم، وخرج رسول الله يُشَيّعهم؛ حتى إذا ودّعهم وانصرف عنهم، قال عبدالله بن رواحة:

خلَفَ السَّلامُ على آمْرِىءٍ وَدَّعْتُهُ ... فِي النَّخْلِ خَيْرَ مُشَيّعٍ وخَلِيلِ

ثم مضوا حتى نزلوا مُعان من أرض الشأم فبلغ الناسَ أنّ هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة

(١) سورة النساء: ٩٤.

(٢) سورة مريم: ٧١.

ألف من الروم، وانضمّت إليه المستعربة من لَخْم وجُذام وبلقَيْن وبَهْراء وبَلِيّ في مائة ألف منهم؛ عليهم رجلٌ من بَلِيّ، ثم أحد إرَاشة، يقال له: مالك بن رافلة، فلمّا بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مُعان ليلتَيْن، ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ونخبره بعدد عدونا، فإما أن يمُدّنا برجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له فشجّع الناسَ عبدُالله بن رواحة، وقال: يا قوم؛ والله إنّ الذي تكرهونَ لَلّذي خَرَجْتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به؛ فانطلِقوا، فإنما هي إحدَى الحسْنَيَيْن؛ إما ظهور؛ وإمّا شهادة، فقال الناس: قد والله صَدَق ابنُ رواحة. فمضى الناس، فقال عبدالله بن رواحة في مَحبسهم ذلك:

جَلَبْنـا الخيْـلَ مِنْ آجامِ قُـرْحٍ ... تُغَـرُّ مِنَ الحَشِيشِ لها العكُومُ
حَذَوْناها مِنَ الصَّوَّانِ سِبْتاً ... أزَلَّ كأنَّ صَفْحَتَهُ أديمُ
أقامَتْ لَيْلَتَيْنِ على مُعَانٍ ... فأعْقِبَ بَعْدَ فَتْرَتِها جُمُومُ
فَرُحْنا والجِيَادُ مُسَوِمَاتٌ ... تَنَفَّسُ في مَناخِرِها السَّمُومُ
فلا وأبي، مَآبَ لنأتِيَنْها ... ولو كانت بها عَرَبٌ ورُومُ
فعَبَّأنا أعِنَّتَها فجاءَتْ ... عَوَابِسَ والغُبَارُ لها بَرِيمُ
بذِي لَجَب كأنّ البيض فيه ... إذا بَرَزَتْ قَوَانِسُها النُّجُومُ
فراضِيَةِ المعِيشَةِ طَلَّقَتْها ... أسِنَّتُنا فتَنكِح أو تئيمُ

ثم مضى الناس

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، أنه حدّث عن زيد بن أرْقم، قال: كنتُ يتيماً لعبدالله بن رواحة في حِجْره، فخرج في سفره ذلك مُرْدِفي على حَقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلةً إذ سمعته وهو يتمثّل أبياته هذه:

إذا أدَّيْتِنِي وَحَمَلْتِ رحْلي ... مَسِيرَةَ أرْبَعٍ بَعْدَ الحِسَاءِ
فشَأنُكِ أنْعُمٌ وخَلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرجِعْ إلى أهْلي وَرَائِي
وجاءَ المسلمون وغادَرُوني ... بأرضِ الشأم مشتهِيَ الثَّواءِ
وَرَدَّكِ كلُّ ذي نَسَبٍ قريبٍ ... إلى الرَّحْمٰنِ مُنْقَطِعُ الإخَاءِ
هنالك لا أبالي طَلْعَ بَعْلٍ ... ولا نَخْلٍ أسَافِلُهَا رِواءِ

قال: فلما سمعتهنّ منه بكيت، فخفقني بالدِّرَّة، وقال: ما عليك يا لُكَع! يرزقني الله الشهادة، وترجع بين شُعْبَتَي الرَّحْل! ثم قال عبدالله في بعض شعره وهو يرتجز:

يا زَيْدَ زيدَ اليَعْمَلاتِ الذُّبَّلِ ... تطاول اللَّيْلُ هُدِيتَ فانْزِلِ

قال: ثم مضَى الناس حتى إذا كانوا بتُخوم البلقاء، لَقِيتْهم جموع هِرَقل من الرّوم والعرب، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مَشَارِف. ثم دنا العدُوُّ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مُؤْتة؛ فالتقى الناس عندها، فتعبّأ المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذْرة، يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عَبَايَة بن مالك، ثم التقى الناس؛ فاقتتلوا؛ فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط

في رماح القوم؛ ثم أخذها جعفر بن أبي طالب؛ فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتِل؛ فكان جعفرٌ أوّلَ رجل من المسلمين عَقَر في الإسلام فرسه.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة وأبو تُميْلة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عبّاد، عن أبيه، قال: حدّثني أبي الذي أرضعني ـ وكان أحد بني مرّة بن عوف، وكان في تلك الغزوة غزوة مُؤْتة ـ قال: والله لكأنّي أنظرُ إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء؛ فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتِل؛ فلما قتل جعفر أخذ الرّايةَ عبدُالله بن رَواحة؛ ثمّ تقدّم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردّد بعض التردد، ثم قال:

أقسمْتُ يا نَفْسُ لَتَنزلِنّهْ طائعةً أوْ فَلَتُكْرَهِنَّهْ
إنْ أجلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرَّنّهْ مالِي أراكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ!
قد طالَما قد كنْتِ مُطْمَئِنَّهْ هَلْ أنْتِ إلا نُطْفَةٌ في شَنَّهْ!

وقال أيضاً:

يا نَفْس إلاَّ تُقْتَلي تَموتي هَذَا حِمَامُ المَوْتِ قد صَلِيتِ
وما تَمَنَّيتِ فقدْ أعْطِيتِ إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

قال: ثم نزل؛ فلمّا نزل أتاه ابنُ عمٍّ له بعظم من لحم؛ فقال: شُدَّ بها صلبك؛ فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت؛ فأخذه من يده؛ فانتهس منه نهسَةً ثم سمع الحَطْمة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه؛ فتقدّم فقاتل حتى قتل؛ فأخذ الراية ثابتُ بن أقرم؛ أخو بَلْعجلان؛ فقال: يا معشرَ المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل؛ فاصطلح الناس على خالد بن الوليد؛ فلمّا أخذ الراية دافع القوم؛ وحاشى بهم، ثم انحاز وتحيّز عنه حتى انصرف بالناس.

فحدّثني القاسم بن بِشْر بن معروف، قال: حدّثنا سلمان بن حرب، قال: حدّثنا الأسود بن شيبان، عن خالد بن سُمَير، قال: قَدِم علينا عبدالله بن رَبَاح الأنصاريّ ـ وكانت الأنصار تُفَقّهُه ـ فغشِيَه الناس، فقال: حدّثنا أبو قتادة فارسُ رسول الله ﷺ، قال: بعث رسول الله جيشَ الأمراء، فقال: عليكم زيد بن حارثة؛ فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب؛ فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة؛ فوثب جعفر فقال: يا رسولَ الله؛ ما كنت أذهبُ أن تستعمل زيداً عليَّ! قال: امض؛ فإنك لا تدري أيّ ذلك خير!

فانطلقوا، فلبثوا ما شاء الله. ثم إنّ رسولَ الله ﷺ صعِد المنبر، وأمر فنودي: الصّلاة جامعة! فاجتمع الناس إلى رسول الله، فقال: باب خير، باب خير، باب خير! أخبركم عن جيشكم هذا الغازي؛ إنّهم انطلقوا فلقُوا العدوّ، فقتِل زيد شهيداً ـ واستغفر له ـ ثمّ أخذ اللواءَ جعفر، فشدّ على القوم حتى قتِل شهيداً ـ فشهد له بالشهادة واستغفر له ـ ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة؛ فأثبت قدميْه حتى قتِل شهيداً ـ فاستغفر له ـ ثمّ أخذ اللواء خالد بن الوليد ـ! ولم يكن من الأمراء؛ هو أمَّر نفسه ـ ثم قال رسول الله ﷺ: اللهمّ إنه سيف من سيوفك، فأنت تنصره ـ فمنذ يومئذ سمي خالد سيف الله ـ ثم قال رسول الله: أبكروا فأمدُّوا إخوانكم ولا يتخلّفنّ منكم أحد، فنفروا مُشاةً ورُكْبَاناً، وذلك في حرّ شديد.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: لما أتى رسولَ الله

مصابُ جعفر، قال رسول الله ﷺ: قد مرّ جعفر البارحة في نفر من الملائكة، له جناحان، مختضب القوادم بالدّم، يريدون بيشة؛ أرضاً باليمن.

قال: وقد كان قُطْبَة بن قتادة العذريّ الذي كان على ميمنة المسلمين حمل على ملك بن رافلة قائد المستعربة فقتله. قال: وقد كانت كاهنة من حَدَس حين سمعت بجيش رسول الله ﷺ مقبلاً قد قالت لقومها من حَدَس ـ وقومها بطن يقال لهم بنو غَنْم: أُنْذِرُكم قوماً خُزْراً، ينظرون شَزْراً، ويقودون الخيل بُتراً، ويُهريقون دَماً عَكْراً. فأخذوا بقولها؛ فاعتزلوا من بين لَخْم؛ فلم يزالوا بعدُ أثْرَى حَدَس. وكان الذين صَلَوُا الحرب يومئذ بنو ثعلبة؛ بطن من حَدَس؛ فلم يزالوا قليلاً بعد؛ ولما انصرف خالد بن الوليد بالناس أقبل بهم قافلاً.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، قال: لما دَنوا من دخول المدينة، تلقاهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدّون، ورسول الله مقبل مع القوم على دابّة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابنَ جعفر؛ فأُتيَ بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه، قال: وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فُرّار في سبيل الله، فيقول رسول الله: ليسوا بالفُرّار؛ ولكنهم الكُرّار؛ إن شاء الله!

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، عن عامر بن عبدالله بن الزّبير؛ عن بعض آل الحارث بن هشام ـ! وهم أخواله ـ عن أم سلمة زوْج النبيّ ﷺ، قال: قالت أمّ سلَمَة لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: مالي لا أرى سلَمة يحضر الصلاة مع رسول الله ومع المسلمين! قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلّما خرج صاح الناس: أفَرَرتم في سبيل الله! حتى قعد في بيتِه فما يخرج.

وفيها غزا رسول الله ﷺ أهل مكة.

ذكر الخبر عن فتح مكة

حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حَدّثني ابن إسحاق، قال: ثمّ أقامَ رسولُ الله ﷺ بالمدينة بعد بعثه إلى مُؤتة، جمادى الآخرة ورجب.

ثم إن بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عَدَتْ على خُزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة؛ يقال له الوتير. وكان الذي هاج ما بين بني بكر وبني خُزاعة رجلٌ من بَلْحضرميّ، يقال له مالك بن عبّاد ـ وحِلْف الحضرميّ يومئذ إلى الأسود بن رَزْن ـ خرج تاجراً، فلما توسّط أرض خزاعة عدوْا عليه فقتلوه؛ وأخذوا ماله؛ فعدتْ بنوبكْر على رجل من خُزاعة فقتلوه، فعدَتْ خُزاعة قُبيل الإسلام على بني الأسود بن رَزْن الدّيليّ؛ وهم مَنْخَر بني بكر وأشرافهم: سلْمى، وكلثوم، وذؤيب؛ فقتلوهم بعرَفة عند أنصاب الحرم.

حدّثنا ابنُ حُميد؛ قال: حدثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن رجل من بني الدِّيل، قال: كان بنو الأسود يُوَدَّوْنَ في الجاهليّة دِيَتَيْن ديتين، ونُودَّى ديةً ديَةً لفضلهم فينا.

فبينا بنو بكر وخُزاعة على ذلك حَجَز بينهم الإسلام، وتشاغل الناس به، فلمّا كان صلحُ الحديبية بينَ

رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا على رسول الله ﷺ، وشرط لهم - كما حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهريّ، عن عُروة بن الزبير، عن المِسْوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم وغيره من علمائنا - أنه مَنْ أحَبَّ أن يدخلَ في عهد رسول الله ﷺ وعقْده دخلَ فيه، ومَنْ أحبّ أن يدخلَ في عهد قُريش وعقدهم دخل فيه؛ فدخلت بنو بكر في عَقْد قريش، ودخلت خُزاعة في عَقْد رسول الله ﷺ.

فلمّا كانت تلك الهدنة اغتنمتها بنو الدِّيل، من بني بكر من خُزاعة وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً بأولئك النفر الذين أصابوا منهم ببني الأسود بن رَزْن، فخرج نَوْفَل بن معاوية الدّيلي في بني الدِّيل - وهو يومئذ قائدهم؛ ليس كل بني بكْر تابعه - حتى بَيَّتَ خزاعة، وهم على الوتير؛ ماء لهم، فأصابوا منهم رجلاً وتحاوزوا واقتتلوا؛ ورفَدَت قريش بني بكْر بالسّلاح؛ وقاتل معهم من قريش مَنْ قاتل بالليل مستخفياً؛ حتى حازوا خُزاعة إلى الحَرم.

- قال الواقديّ: كان ممن أعان من قريش بني بكْر على خُزاعة ليلتئذ بأنفسهم متنكّرين صَفْوان بن أميّة، وعِكْرمة بن أبي جهل، وسُهَيل بن عمرو؛ مع عيرهم وعبيدهم -

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق، قال: فلما انتهوْا إليه قالت بنو بكْر: يا نوْفل، إنا قد دخلْنا الحرم إلَهَك إلَهَك؛ فقال: كلمة عظيمة إنه لا إله له اليوم! يا بني بكْر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقُون في الحرم؛ أفلا تصيبون ثأركم فيه! وقد أصابوا منهم ليلة بَيَّتوهم بالوتير رجلا يقال له منبّه، وكان منبّه رجلاً مفؤوداً خرج هو ورجل من قومه، يقال له تميم بن أسد - فقال له منبّه: يا تميم، انجُ بنفسك؛ فأمّا أنا فوالله إني لميّت قتلوني أو تركوني؛ لقد انبتَّ فؤادي. فانطلق تميم فأفلَت، وأدركوا منبّها فقتلوه - فلمّا دخلت خُزاعة مكة لجؤوا إلى دار بُدَيْل بن ورْقاء الخُزاعيّ ودار مولى لهم يقال له رافع.

قال: فلما تظاهرت بنو بكر وقُريش على خُزاعة، وأصابوا منها ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلّوا من خُزاعة - وكانوا في عَقْده وعهدِه - خرج عمرو بن سالم الخُزاعيُّ، ثم أحد بني كعب؛ حتى قدِم على رسولِ الله ﷺ المدينةَ؛ وكان ذلك ممّا هاج فتح مكة؛ فوقف عليه وهو في المسجد جالسٌ بين ظهرانَي الناس، فقال:

لا هـمّ إنِّـي نـاشـدٌ مُـحـمّـدا ... حِـلْفَ أبـيـنـا وأبـيـه الأتْـلدَا
فـوالِـداً كُـنّـا وَكُـنْـتَ وَلـدَا ... ثـمَّـتَ أسلَـمْنا فـلم نَـنْـزِعْ يَـدَا
فـانْصُـر رسـول الله نَصْـراً أعْتَـدَا ... وادْعُ عِـبَـادَ الـلّهِ يـأتـوا مَـدَدَا
فـيـهـم رسـول الـلّهِ قـد تـجَـرَّدَا ... أبْيَض مثْـل البَـدْرِ يَنْـمِي صُعـدَا
إن سِيـمَ خَـسْـفـاً وَجْـهُـهُ تَـرَبّـدَا ... في فَيْلَقٍ كـالبَحْـر يجْـري مُـزْبِـدا
إنّ قـريـشـاً أخلفـوك الـمـوْعِـدَا ... ونَقَـضُـوا ميـثـاقـك الـمُـوَكَّـدا
وجـعـلوا لـي فـي كَـدَاء رَصَـدَا ... وزعـمـوا أن لسْـتُ أدْعُـو أحَـدا
وَهُـمْ أذَلُّ وأقَـلُّ عَـدَدَا ... هُـمْ بَيَّـتُـونَـا بـالـوَتِـيـرِ هُـجَّـدَا
فَـقَـتَّـلونـا رُكَّـعـاً وَسُـجَّـدَا

يقول: قد قتّلونا وقد أسلمنا. فقال رسول الله ﷺ حينَ سمع ذلك: قد نُصرْتَ يا عمرو بن سالم! ثم عرض لرسول الله ﷺ عَنَانٌ من السماء، فقال: إنّ هذه السحابة لتستَهِلّ بنصر بني كعب.

ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خُزاعة حتى قدِموا على رسولِ الله المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم؛ ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. وقد كان رسولُ الله ﷺ قال للناس: كأنّكم بأبي سفيان قد جاء ليشدّد العَقْد، ويزيد في المدّة.

ومضى بُديل بن ورقاء وأصحابه، فلقُوا أبا سفيان بعُسفان، قد بعثته قريش إلى رسول الله ليشدّد العقد ويزيد في المدّة؛ وقد رهِبوا الذي صنعوا؛ فلما لقيَ أبـو سفيان بُديلا، قال: مِنْ أين أقبلت يا بديل؟ وظنّ أنه قد أتى رسولَ الله، قال: سِرْت في خُزاعة في السّاحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أَوَ ما أتيتَ محمداً؟ قال: لا، قال: فلما راح بُديل إلى مكّة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد عَلَف بها النّوى؛ فعَمد إلى مَبْرَك ناقته، فأخذ من بعرها ففَتّه؛ فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بُديل محمداً.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدِم على رسولِ الله ﷺ المدينة؛ فدخل على ابنتِه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان؛ فلما ذهب ليجلس على فِراش رسول الله ﷺ طوَتْه عنه، فقال: يا بنيّة؛ والله ما أدرِي أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عنّي! قالت: بل هو فراشُ رسول الله، وأنت رجل مشرك نـجِس، فلم أحبَّ أن تجلس على فراش رسول الله، قال: والله لقد أصابكِ يا بنيّة بعدي شرٌّ. ثم خرَج حتى أتى رسولَ الله ﷺ، فكلّمه فلم يردُدْ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلّم له رسولَ الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمَر بن الخطاب، فكلّمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله! فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتُكم. ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعنده فاطمة ابنة رسول الله، وعندها الحسن بن عليّ؛ غلامٌ يَدِبُّ بين يديها، فقال: يا عليّ؛ إنك أمسُّ القوم بي رَحِماً، وأقربُهم منّي قرابة، وقد جئتُ في حاجة؛ فلا أرجعَنّ كما جئت خائباً، اشفع لنا إلى رسول الله! قال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزَمَ رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: يا ابنةَ محمّد؛ هل لكِ أن تأمري بُنَيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيِّد العرب إلى آخر الدهر! قالت: والله ما بلغ بُنَيّي ذلك أن يجيرَ بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد. قال: يا أبا الحسن، إنّي أرى الأمور قد اشتدَّتْ عليّ فانصحني. فقال له: والله ما أعلمُ شيئاً يُغني عنك شيئاً، ولكنّك سيّد بني كنانة؛ فقم فأجِرْ بين الناس، ثم الحَقْ بأرضك، قال: أَوَ ترَى ذلك مُغْنياً عني شيئاً! قال: لا والله ما أظنّ؛ ولكن لا أجدُ لِك غير ذلك؛ فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيّها الناس؛ إني قد أجَرْتُ بين الناس؛ ثم ركب بعيره فانطلق.

فلما قدِم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلّمته، فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثم جئت ابنَ أبي قُحافة، فلم أجد عنده خيراً، ثم جئت ابنَ الخطاب؛ فوجدته أعْدَى القوم، ثمّ جئت عليّ بن أبي طالب، فوجدته ألينَ القوم؛ وقد أشار عليّ بشيء صنعتُه؛ فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا! قالوا: وبماذا أمَرك؟ قال: أمرَني أن أجيرَ بين الناس ففعلت؛ قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد على أن لَعِبَ بك، فما يُغني عنّا ما قلت. قال: لا والله، ما وجدتُ غير ذلك، قال: وأمرَ رسولُ الله ﷺ الناس بالجهاز؛ وأمر أهله أن يجهّزوه؛ فدخل أبو بكر على ابنتِه عائشة وهي تحرّك بعض جِهاز رسول الله ﷺ، فقال:

أيْ بنَيّة، أأمركم رسول الله بأن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهّزْ، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدري.

ثم إنّ رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة؛ وأمرهم بالجدّ والتهيُّؤ، وقال: اللهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتها في بلادها.

فتجهّز الناس، فقال حسان بن ثابت الأنصاري يُحرّضُ الناس، ويذكر مصابَ رجال خُزاعة:

أتـانِيَ ولم أشْهَـدْ ببَـطْحَـاءِ مكّـةٍ ... رجـالُ بـني كـعب تُـحَـزُّ رقـابُـهـا
بـأيـدي رجـالٍ لم يَسُلُّوا سيوفهمْ ... وقـتلى كـثيـرٌ لـم تُـجَـنّ ثـيـابُـهـا
ألا ليت شعري هـل تَـنـالَنّ نُصْـرَتي ... سُهَيْـلَ بْنَ عمـرو حـرُّهـا وعقـابُها
وصفْـوَان عَـوْداً حُـزّ من شُفُـرِ اسْتِـهِ ... فَهـذَا أَوَانُ الْحَـربِ شُـدّ عصَابُهـا
فـلا تـأمـنَّـنـا يـابـن أمّ مُـجَـالـدٍ ... إذَا احتُلبتْ صِـرْفـاً وأعصَـلَ نـابُهـا
فـلا تجْـزَعـوا منْهـا فـإنّ سيـوفنـا ... لَهـا وقعـة بـالمـوْت يُفْتَـحُ بـابُهـا

وقول حسان:

بـأيْـدِي رِجَـالٍ لَمْ يَسُلّوا سُيـوفَهمْ

يعني قريشاً. وابن أمّ مجالد، يعني عِكْرمة بن أبي جَهل.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوة بن الزُّبير وغيره من عُلمائنا، قالوا: لما أجمعَ رسولُ الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بَلْتَعة كتاباً إلى قُريش، يخبرهم بالذي أجمع عليه رسولُ الله من الأمر في السَّيْر إليهم، ثمّ أعطاه امرأة - يزعمُ محمد بن جعفر أنها من مُزَيْنة؛ وزعم غيرُه أنها سارة، مولاة لبعض بني عبد المطلب - وجعل لها جُعْلاً على أن تُبلِّغه قريشاً. فجعلَتْه في رأسها، ثم فتلتْ عليه قُرونها، ثم خرجتْ به. وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطبٌ؛ فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام، فقال: أدْركا امرأةً قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش، يحذّرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم؛ فخرجا حتى أدركاها بالحُليفة، حُليفة ابن أبي أحمد؛ فاستنزلاها، فالتمسا في رَحْلها، فلم يجدا شيئاً، فقال لها عليُّ بن أبي طالب: إنّي أحلِفُ ما كذب رسول الله ولا كذبنا؛ ولتُخْرِجنَّ إليّ هذا الكتاب أو لنكشفنَّكِ؛ فلما رأت الجدّ منه، قالت: أعرِض عنّي، فأعرض عنها، فحلّتْ قرونَ رأسِها، فاستخرجت الكتاب منه، فدفعته إليه، فجاء به إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله حاطباً؛ فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيَّرْتُ ولا بَدَّلْتُ، ولكنّي كنتُ امرأً ليس لي في القوم أصلٌ ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهلٌ وولَد، فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسولَ الله، دَعْني فلأضربْ عنقه، فإنّ الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر؛ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم! فأنزل الله عزّ وجلّ في حاطب: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا . . .﴾[1] إلى آخر القصة.

(١) سورة الحجرات: ١٣.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلِم الزّهريّ، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة بن مسعود، عن ابن عباس، قال: ثم مضى رسولُ الله ﷺ لسفره؛ واستخلف على المدينة أبا رُهْم كُلْثوم بن حُصَين بن خلَف الغِفاريّ، وخرج لعشر مضين من شهر رمضان، فصام رسولُ الله ﷺ، وصام الناس معه؛ حتى إذا كان بالكَدِيد ما بين عُسفان وأمَج، أفطر رسولُ الله ﷺ، ثم مضى حتى نزل مَرَّ الظَّهْران في عشرة آلاف من المسلمين، فسبَّعَتْ سليم؛ وألَّفَتْ مُزَيْنة وفي كلّ القبائل عدد وإسلام؛ وأوعَبَ مع رسول الله المهاجرون والأنصار، فلم يتخلّف عنه منهم أحد، فلما نزل رسولُ الله ﷺ مَرّ الظهران، وقد عُمِّيَت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبرٌ عن رسول الله؛ ولا يدرون ما هو فاعلٌ؛ فخرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحَكِيم بن حزام، وبُدَيل بن ورْقاء، يتحسسون الأخبار؛ هل يجدون خبراً أو يسمعون به!.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: وقد كان فيما حدّثني محمد بن إسحاق، عن العباس بن عبدالله بن معبد بن العباس بن عبد المطلب؛ عن ابن عباس: وقد كان العباس بن عبد المطلب تلقَّى رسول الله ﷺ ببعض الطريق؛ وقد كان أبو سُفيان بن الحارث وعبدالله بن أبي أميّة بن المغيرة قد لَقِيا رسولَ الله ﷺ بنِيق العُقاب؛ فيما بين مكة والمدينة، فالتمس الدخولَ على رسولِ الله، فكلّمته أمُّ سلَمة فيهما، فقالت: يا رسولَ الله، ابن عمك وابن عمّتك وصِهرُك، قال: لا حاجةَ لي بهما، أما ابنُ عمّي فهتَك عِرْضي؛ وأما ابنُ عمّتي وصِهري فهو الذي قال بمكة ما قال.

فلمّا خرج الخبر إليهما بذلك؛ ومع أبي سفيان بُنيٌّ له فقال: والله ليأذننّ لي أو لآخُذَنَّ بيد بُنيّ هذا؛ ثم لنذهبنّ في الأرض؛ حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقَّ لهما؛ ثم أذن لهما، فدخلا عليه؛ فأسلما وأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مَضَى منه:

لَعَمْرِيَ إنِّي يومَ أحمِلُ رايةً ... لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ محمدِ
لَكَالْمُدْلِجِ الحَيْرانِ أظْلم ليلُه ... فهذا أوانِي حين أُهْدَى وأهْتَدِي
وَهادٍ هَدَانِي غَيْرَ نفسي وَنالَنِي ... مَعَ اللَّهِ مَنْ طَرَّدْتُ كلَّ مُطَرَّدِ
أصُدُّ وأَنْأَى جاهِداً عن محمدٍ ... وأُدْعى ولو لم أنتسِبْ من محمّدِ
هُمُ ما هُمُ مَنْ لم يقل بهواهُمُ ... وَإنْ كانَ ذا رَأْيٍ يُلَمْ ويُفَنَّدِ
أُريد لأُرْضِيهِمْ ولستُ بلائطٍ ... مع القوم ما لم أُهْدَ في كلِّ مَقْعَد
فقل لثقيفٍ لا أُريد قتالها ... وَقُل لثقيفٍ تلك غَيْرِيَ أوْعِدِي
وما كنتُ في الْجيشِ الَّذِي نالَ عامراً ... وما كانَ عن جَرَّى لساني ولا يدِي
قبائلُ جاءتْ مِنْ بلادٍ بعيدَةٍ ... نَزائعُ جاءتْ مِنْ سُهَامٍ وسُرْدَدِ

قال: فزعموا أنه حين أنشد رسولَ الله ﷺ قوله: «ونالني مع الله من طرّدتُ كلَّ مُطَرَّدِ»؛ ضَرَبَ النبي ﷺ في صدره، ثم قال: أنت طرّدتَني كل مطرّد!

وقال الواقديّ: خرج رسولُ الله ﷺ إلى مكّة، فقائلٍ يقول: يريد قريشاً، وقائل يقول: يريد هَوازن، وقائل يقول: يريد ثقِيفاً؛ وبعث إلى القبائل فتخلّفت عنه؛ ولم يعقد الألوية ولم ينشر الرّايات حتى قدم قُدَيْداً، فلقيْته بنو سُليم على الخيل والسلاح التامّ؛ وقد كان عُيينة لحِقَ رسول الله بالعَرْج في نفر من أصحابه، ولحقه

الأقرع بن حابس بالسُّقْيَا، فقال عيينة: يا رسولَ الله؛ والله ما أرى آلة الحرب ولا تهيئة الإحرام، فأين تتوجّه يا رسول الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: حيث شاء الله. ثم دعا رسول الله ﷺ أن تعمى عليهم الأخبار؛ فنزل رسولُ الله ﷺ مَرّ الظَّهْران، ولقيه العباس بالسُّقيا، ولقيه مخرمة بن نوفل بنِيق العُقاب.

فلما نزل مَرّ الظهران خرج أبو سفيان بن حرب ومعه حَكِيم بن حِزام.

فحدّثنا أبو كريب، قال: أخبرَنا يُونس بنُ بكَير، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثني حُسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس، عن عكْرمة عن ابن عباس، قال: لما نزلَ رسول الله ﷺ مرّ الظهران، قال العباس بن عبد المطلب، وقد خرج رسول الله ﷺ من المدينة: يا صباح قريش! والله لئن بَغتَها رسولُ الله في بلادها؛ فدخل مكة عَنْوة؛ إنه لهلاكُ قريش آخر الدهر! فجلس على بغلة رسولِ الله ﷺ البيضاء، وقال: أخرُج إلى الأراك لعلّي أرى حَطاباً أو صاحب لَبَن؛ أو داخلاً يدخل مكة؛ فيخبِرهم بمكان رسول الله؛ فيأتونه فيستأمنونه. فخرجت؛ فوالله إني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له؛ إذ سمعت صوت أبي سفيان بن حَرْب وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتحسسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فسمعتُ أبا سفيان وهو يقول: والله ما رأيت كاليوم قطّ نيراناً! فقال بُديل: هذه والله نيرانُ خُزاعة، حَمَشَتْها الحرب! فقال أبو سفيان: خُزاعة ألأم من ذلك وأذلّ! فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل! فقلت: نعم، فقال: لبّيك فِداك أبي وأمي! فما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله ورائي قد دَلَف إليكم بما لا قِبَلَ لكم به بعشرة آلاف من المسلمين. قال: فما تأمرني؟ فقلت: تركب عَجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسولَ الله؛ فوالله لئن ظَفِر بك ليضرِبَنَّ عنقك، فردفني فخرجت به أركُض بغلةَ رسولِ الله ﷺ نحو رسولِ الله ﷺ، فكلّما مررت بنارٍ من نيران المسلمين ونظروا إليّ، قالوا: عمُّ رسول الله على بَغْلةِ رسول الله؛ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال أبو سفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عَقْدٍ ولا عهد! ثم اشتدّ نحو النبيّ ﷺ، وركضت البغلة، وقد أردفتُ أبا سفيان؛ حتى اقتحمتُ على باب القبّة، وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجلَ البطيء؛ فدخل عمر على رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، هذا أبو سفيان عدوّ الله؛ قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد؛ فدعْني أضرب عنقه؛ فقلت: يا رسولَ الله، إنّي قد أجرْتُه! ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه اليومَ أحدٌ دوني! فلمّا أكثر فيه عُمَر، قلت: مهلا يا عمر! فوالله ما تصنع هذا إلاّ لأنه رجل من بني عبد مناف؛ ولو كان من بني عَدِيّ بن كعب ما قلت هذا. فقال: مهلاً يا عباس! فوالله لإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم! وذلك لأني أعلمُ أنَ إسلامَك كان أحبَّ إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم؛ فقال رسولُ الله ﷺ: اذهب فقد آمنّاه حتى تغدوَ به عليّ بالغداة. فرجع به إلى منزله؛ فلمّا أصبح غدا به على رسول الله ﷺ، فلمّا رآه قال: ويحك أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلَم أن لا إله إلا الله! فقال: بأبي أنت وأمّي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! والله لقد ظننتُ أنْ لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً، فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أنّي رسول الله! فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أمّا هذِه ففي النفس منها شيء! فقال العباس: فقلت له ويلك! تشهّدْ شهادة الحق قبل والله أن تُضرب عنقك؛ قال: فتشهّد.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ للعباس حين تشهّد أبو سفيان: انصرف يا عباس فاحبِسه عند خَطْم الجبل

بمضيق الوادي، حتى تمرّ عليه جنود الله، فقلت له: يا رسولَ الله، إنّ أبا سفيان رجلٌ يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في قومه. فقال: نَعمْ؛ مَنْ دخل دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ، ومَنْ دخلَ المسجد فهو آمنٌ، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمنٌ. فخرجت حتى حبستُه عند خَطْم الجبل بمضيق الوادي؛ فمرَّت عليه القبائل، فيقول: مَنْ هؤلاء يا عباس؟ فأقول: سليْم، فيقول: مالي ولسليْم! فتمرّ به قبيلة، فيقول: مَنْ هؤلاء؟ فأقول: أسلم، فيقول: مالي ولأسلَم! وتمرّ جُهينة، فيقول: مالي ولجهينة! حتى مَرّ رسولُ الله ﷺ في الخضراء؛ كتيبة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في الحديد؛ لا يُرى منهم إلا الحَدَق، فقال: مَنْ هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار؛ فقال: يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيماً. فقلت: ويْحك إنها النبوّة! فقال: نعم إذاً. فقلتُ: الحق الآن بقومك فحذِّرهم؛ فخرج سريعاً حتى أتى مكـة، فصرخ في المسجد: يا معشرَ قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به! قالوا: فمَهْ! فقال: مَنْ دخل داري فهو آمن، فقالوا: ويحك! وما تُغني عَنّا دارك! فقال: ومَنْ دخل المسجد فهو آمن، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن.

حدّثني عبدُ الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا، أبان العطّار قال: حدّثنا هشام بن عروة، عن عُرْوة، أنه كتب إلى عبدِ الملك بن مروان: أمّا بعد، فإنك كتبت إليّ تسألني عن خالد بن الوليد: هل أغار يوم الفتح؟ وبأمر مَنْ أغار؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبيّ ﷺ، فلما ركب النبيّ بطنَ مَرّ عامِداً إلى مكة، وقد كانت قريش بعثوا أبا سفيان وحكيم بن حزام يلتقيّان رسولَ الله ﷺ؛ وهم حين بعثوهما لا يدرون أينَ يتوجّه النبـي ﷺ، إليهم أو إلى الـطائف! وذاك أيام الفتـح؛ واستتبع أبو سفيان وحكيم بن حزام بُدَيْلَ بن ورقاء، وأحبّا أن يصحَبهما، ولم يكن غير أبي سفيان وحكيم بن حزام وبُدَيل؛ وقالوا لهم حين بعثوهم إلى رسول الله ﷺ: لا نُؤْتَيَنَّ من ورائكم، فإنا لا ندري مَنْ يريد محمد! إيّانا يريد، أو هوازن يريد، أو ثقيفاً! وكان بين النبيّ ﷺ وبين قريش صُلْح يوم الحديبية وعَهْد ومدّة، فكانت بنو بكر في ذلك الصلح مع قريش، فاقتتلتْ طائفة من بني كَعب وطائفة من بني بكْر؛ وكان بين رسول الله ﷺ وبين قريش في ذلك الصّلح الذي اصطلحوا عليه: «لا إغلال ولا إسلال»، فأعانت قريش بني بكر بالسلاح، فاتّهمت بنو كعب قريشاً، فمنها غزا رسول الله ﷺ أهلَ مكة؛ وفي غزوته تلك لقي أبا سفيان وحكيماً وبُدَيْلاً بمَرّ الظهْران؛ ولم يشعروا أنّ رسولَ الله ﷺ نزل مَرّ، حتى طلعوا عليه، فلما رأوْه بمَرّ، دخل عليه أبو سفيان وبُدَيل وحكيم بمنزله بمَرّ الظّهران فبايعوه، فلمّا بايعوه بعثَهم بين يديه إلى قريش، يدعوهم إلى الإسلام،فأخبِرتُ أنه قال: مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن ـ وهي بأعلى مكة ـ ومن دخلَ دارَ حكيم ـ وهي بأسفل مكة ـ فهو آمن، ومن أغلق بابه وكَفّ يده فهو آمن.

وإنّه لما خرج أبو سفيان وحكيم من عند النبيّ ﷺ عامديْن إلى مكة، بعث في أثرهما الزُّبير وأعطاه رايته، وأمَّره على خيل المهاجرين والأنصار وأمَره أن يغرز رايته بأعلى مكة بالحَجُون؛ وقال للزُّبير: لا تبرحْ حيث أمرتُك أن تغرز رايتي حتى آتيَك؛ ومن ثَمّ دخل رسولُ الله ﷺ، وأمر خالد بن الوليد ـ فيمن كان أسلم من قُضاعة وبني سليم وأناس، إنما أسلموا قُبَيْل ذلك ـ أن يدخل من أسفَل مكة، وبها بنو بكر قد استنفرتهم قريش، وبنو الحارث بن عبد مناة ومَنْ كان من الأحابيش أمرتهْم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، فدخل عليهم خالد بن الوليد من أسفل مكة.

وحُدّثت أنّ النبيّ ﷺ قال لخالد والزبير حين بعثهما: لا تقاتِلا إلاّ مَنْ قاتلكما؛ فلمّا قدم خالد على بني بكر

والأحابيشُ بأسفل مكة، قاتلهم فهزمهم الله عزّ وجلّ، ولم يكن بمكّة قتال غير ذلك؛ غير أنّ كُرْز بن جابر أحد بني محارب بن فِهْر وابن الأشعر - رجلًا من بني كعب - كانا في خيل الزبير فسلكَا كَدَاء، ولم يسلُكا طريق الزّبير الذي سلك، الذي أمِر به. فقدما على كتيبة من قريش مهبط كَداء فقُتِلا؛ ولم يكن بأعلى مكة من قِبَلِ الزبير قتال؛ ومن ثمّ قدم النبيّ ﷺ، وقام الناس إليه يبايعونه؛ فأسلم أهلُ مكّة، وأقام النبيّ ﷺ عندهم نصف شهر، لم يزد على ذلك، حتى جاءت هَوازن وثَقيف فنزلوا بحُنَيْن.

وحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي نَجيح، أنّ النبيّ ﷺ حين فرّق جيشه مِنْ ذي طُوًى، أمر الزبير أن يدخل في بعض الناس من كُدًى؛ وكان الزبير على المُجنَّبة اليسرى، فأمر سعد بن عبادة أن يدخُل في بعض الناس من كَدَاء. فزعم بعضُ أهل العلم أن سعداً قال حين وجه داخلاً: «اليوم يوم المَلحَمَة، اليوم تُستَحَلُّ الحُرْمَة». فسمعها رجلٌ من المهاجرين، فقال: يا رسولَ الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، وما نأمن أن تكون له في قريش صَوْلَةٌ! فقال رسولُ الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: أدركْه فخُذ الراية، فكن أنتَ الذي تدخُل بها.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي نَجيح في حديثِه، أنّ رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد، فدخل من اللِّيط أسفلَ مكة، في بعض الناس؛ وكان خالد على المجنِّبَة اليمنى، وفيها أسلم وغِفَار ومُزَيْنة وجهينة وقبائل من قبائل العرب؛ وأقبل أبو عبيدة بن الجرّاح بالصَّفّ من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدي رسولِ الله ﷺ، ودخل رسولُ الله ﷺ من أذَاخِر؛ حتى نزل بأعلى مكة، وضُرِبَتْ هنالك قبّتُه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي نَجيح وعبدالله بن أبي بكر، أنّ صفوان بن أمَيّة، وعِكْرِمة بن أبي جَهْل، وسُهيل بن عمرو، وكانوا قدْ جمعوا أناساً بالخندمة ليقاتلوا؛ وقد كان حِمَاسُ بن قيس بن خالد أخو بني بكر يُعِدُّ سلاحاً قبل أن يدخل رسولُ الله ﷺ مكة ويُصلح منها. فقالت له امرأته: لَماذا تعِدّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، فقالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمَك بعضَهم، فقال:

إنْ تُقبلوا اليومَ فمالي عِلّهْ ... هذا سلاحٌ كامل وأَلّهْ
وذُو غِرارَيْنِ سريعُ السَّلّهْ

ثم شهد الخَنْدمة مع صفوان وسهيل بن عمرو وعكرمة، فلمّا لقيَهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد نَاوَشُوهم شيئاً من قتال، فقُتِل كُرْزُ بن جابر بن حِسْل بن الأجَبّ بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر، وحُبَيْش بن خالد، وهو الأشعر بن ربيعة بن أصرم بن ضَبيس بن حرام بن حَبَشِيّة بن كعب بن عمرو؛ حليف بني منْقذ - وكانا في خيل خالد بن الوليد، فشذّا عنه، وسلكا طريقاً غير طريقِه، فقتلا جميعاً - قُتل خُنيس قبل كُرْز بن جابر؛ فجعله كرز بين رجليه؛ ثم قاتل حتى قُتِل وهو يرتجز، ويقول:

قد علمتْ صفراءُ من بني فِهرْ ... نَقِيَّةُ الوَجْهِ نَقِيَّةُ الصَّدرْ
لأضْربنَّ اليومَ عن أبي صَخرْ

وكان حُنيس يكنى بأبي صَخْر، وأصيب من جُهينةَ سلَمة بن الميْلاء من خيل خالد بن الوليد، وأصيب من المشركين أناسٌ قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر. ثم انهزموا، فخرج حِمَاس منهزماً؛ حتى دخل بيته، ثم قال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي، قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنـك لـو شهـدتِ يـوم الخَنْـدَمَـهْ إذْ فـرَّ صـفـوان وفـرَّ عِـكْـرِمَـهْ
وابـو يـزيـدَ قـائـمٌ كـالمـؤتـمـهْ وآستقْبَلَتْهُم بـالسيـوفِ المُسْلِمَـهْ
يَقْـطَعنْ كـلَّ سـاعِـدٍ وجُـمْجُـمَـهْ ضَـرْبـاً فَـلاَ تُسْمَـعُ إلاّ غَـمْغَـمَـهْ
لـهـم نـهـيـتٌ خَـلْفَـنـا وهَـمْـهَـمَـهْ لم تَنْـطِقِـي في الـلَّوْمِ أدْنَى كَـلِمَـهْ

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: وكانَ رسولُ الله ﷺ قد عهِد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة؛ ألاّ يقتلوا أحداً إلاّ من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نَفر سمّاهم؛ أمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة؛ منهم عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح بن حُبَيْب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ ـ وإنما أمر رسولُ الله ﷺ بقتله، لأنه كان قد أسلم فارتدّ مشركاً، ففرّ إلى عُثْمانَ، وكان أخاه من الرضاعة، فغيّبه حتى أتى به رسولَ الله ﷺ بعد أن اطمأنّ أهلُ مكة، فاستأمن له رسول الله، فذُكِر أن رسولَ الله ﷺ صَمَتَ طويلاً، ثم قال: نعم؛ فلمّا انصرف به عثمان، قال رسول الله لمن حولَه من أصحابه: أما والله لقد صمتّ ليقومَ إليه بعضُكم فيضرب عنقه! فقال رجلٌ من الأنصار: فهلاّ أومأتَ إليّ يا رسول الله! قال: إن النبيّ لا يقتُل بالإشارة ـ وعبدالله بن خَطَل، رجلٌ من بني تيم بن غالب ـ وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً، فبعثه رسول الله ﷺ مصدّقاً، وبعث معه رجلاً من الأنصار؛ وكان معه مولًى له يخدُمُه، وكان مسلماً، فنزل منزلاً، وأمر المولى أن يذبح لَه تيْساً، ويصنع له طعاماً، ونام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً، فعدَا عليه فقتله، ثم ارتدَّ مشركاً؛ وكانت له قينتان: فرتنى وأخرى معها، وكانتا تغنّيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه ـ والحويرث بن نُقَيْذ بن وهب بن عبد بن قصيّ، وكان ممن يؤذيه بمكة، ومقيَس بن صُبَابة ـ وإنما أمر بقتلِه لقتلِه الأنصاريَّ الذي كان قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مرتدًّا ـ وعكرمة بن أبي جهل، وسارة مولاة كانت لبعض بني عبد المطلب؛ وكانت ممن يُؤذيه بمكة. فأما عِكْرمة بن أبي جهل فهَرب إلى اليمن؛ وأسلمت امرأته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له رسولَ الله فأمّنه؛ فخرجت في طلبه حتى أتتْ به رسولَ الله ﷺ، فكان عِكْرمة يحدّث ـ فيما يذكرون ـ أنّ الّذي ردّه إلى الإسلام بعد خروجه إلى اليمن أنه كان يقول: أردت ركوبَ البحر لألحقَ بالحبشة، فلما أتيتُ السفينة لأركبها قال صاحبها: يا عبد الله، لا تركب سفينتي حتى تُوَحّدَ اللّهَ، وتخلع ما دونه من الأنداد، فإني أخشى إن لم تفعل أن نهلِك فيها، فقلت: وما يركبه أحدٌ حتى يوحّد الله ويخلع ما دونه! قال: نعم؛ لا يركبه أحدٌ إلاّ أخلص. قال: فقلت: ففيم أفارق محمداً! فهذا الذي جاءنا به، فوالله إنّ إلهنا في البحر لإلهُنا في البرّ؛ فعرفت الإسلام عند ذلك، ودخل في قلبي. وأما عبدالله بن خَطَل، فقتله سعيد بن حريث المخزوميّ وأبو برزة الأسلميّ، اشتركا في دمه، وأما مقيَس بن صُبابة فقتله نُمَيْلَةُ بن عبدالله؛ رجل من قومه، فقالت أخت مِقيَس:

لَعَمْـرِي لَقَـدْ أخـزى نُمَيْلةُ رهْـطَهُ وفَجَّـعَ أضيـافَ الـشتَـاءِ بـمقيَسِ
فـللّه عَيْـنَـا مَن رأى مثـلَ مِـقْيَسٍ إذَا النُّفَسَـاءُ أصبَحَتْ لـم تُخَـرَّسِ

وأما قينتَا ابن خَطَل فقتلت إحداهما، وهربت الأخرى حتى استؤمِن لها رسولُ الله ﷺ بعد، فأمّنها. وأما سارَة، فاستؤمِنَ لها فأمنها، ثم بقيت حتى أوطأها رجلٌ من الناس فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح، فقتلها. وأما الحويرث بن نُقَيْذ، فقتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال الواقديّ: أمر رسول الله ﷺ بقتل ستة نفر وأربع نسوة، فذكر من الرجال مَنْ سمّاه ابن إسحاق، ومن النساء هند بنت عُتْبة بن ربيعة، فأسلمت وبايعت، وسارَة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف، قتلت يومئذ، وقُريبَة؛ قتلت يومئذ، وفرتنَى عاشت إلى خلافة عثمان.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عمر بن موسى بن الوجيه، عن قتادة السَّدوسيّ؛ أن رسولَ الله ﷺ قام قائماً حين وقف على باب الكعبة، ثم قال: لا إله إلا الله وحدَه، لا شريك له، صَدَقَ وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحدَه. ألا كلّ مَأثرة، أو دم، أو مال يُدَّعى؛ فهو تحت قَدَميَّ هاتين إلّا سِدانة البيت وسِقاية الحاجّ. ألاَ وقتيلُ الخطأ مثل العَمْد؛ السوط والعصا، وفيهما الدية مغلّظة مائة من الابل، منها أربعون في بطونها أولادها.

يا معشر قريش؛ إنّ الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهليّة وتعظُّمها بالآباء. الناسُ من آدَمَ؛ وآدم خلق من تراب. ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم . . .﴾[1] الآية.

يا معشر قريش، ويا أهل مكة؛ ما تُرَوْن أني فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريمٌ وابن أخ كريم. ثم قال: اذهبُوا فأنتم الطُّلَقاء.

فأعتقهم رسولُ الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عَنْوة، وكانوا له فيْئاً فبذلك يسمَّى أهل مكة الطلقاء. ثمّ اجتمع الناس بمكّة لبيعَةِ رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم ـ فيما بلغني ـ على الصَّفَا وعمر ابن الخطاب تحت رسول الله أسفلَ من مجلسه يأخذ على الناس. فبايع رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة لله ولرسوله ـ فيما استطاعوا ـ وكذلك كانت بيعتُه لمن بايع رسولَ الله ﷺ من الناس على الإسلام. فلما فرغ رسولُ الله ﷺ من بيعة الرّجال بايعَ النساء، واجتمع إليه نساءٌ من نساء قريش؛ فيهنّ هند بنت عُتْبة، متنقّبة متنكّرة لحدَثِها وما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذَها رسولُ الله ﷺ بحدَثها ذلك، فلما دنوْنَ منه ليبايعنَه قال، رسولُ الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ تبايعْنَني على ألاّ تشركْن بالله شيئاً! فقالت هند: والله إنّك لتَأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرّجال وسنؤتيكه، قال: ولا تسرقْنَ، قالت: والله إن كنتُ لأصيب من مال أبي سفيان الهَنَة والهَنَة، وما أدري أكان ذلك حِلاًّ لي أم لا! فقال أبو سفيان ـ وكان شاهداً لما تقول: أمّا ما أصبتِ فيما مضى فأنت منه في حِلٍّ، فقال رسولُ الله ﷺ: وإنَّكِ لهند بنت عتبة! فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعفُ عمّا سلف عفا الله عنك! قال: ولا تزنينَ، قالت: يا رسولَ الله، هل تزني الحرّة! قال: ولا تقتلْن أولادَكُنّ، قالت: قد رَبَّيْناهم صغاراً، وقتلتَهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرَب. قال: ولا تأتينَ ببهتان تفترينَه بين ايديكُنّ وأرجلُكنّ، قالت: والله إنّ إتيان البهتان لقبيح؛ ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصينِني في معروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلسَ ونحن نريد أن نعصيَكَ في معروف، فقالَ رسولُ الله ﷺ

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

لعمر: بايعهنّ واستغْفر لهنّ رسولَ الله، فبايعهنّ عُمر، وكان رسول الله ﷺلا يُصَافِحُ النساء،ولا يمسّ امرأة ولا تمسهُّ إلّا امرأة أحلّها الله له، أو ذات مَحْرَمٍ منه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن أبان بن صالح، أنّ بيعة النساء قد كانت على نحويْن ـ فيما أخبره بعض أهل العلم ـ كان يوضَع بين يدي رسول الله ﷺ إناء فيه ماء، فإذا أخذ عليهنّ وأعطيْنَه غمسَ يدَه في الإناء، ثم أخرجها. فغمس النساءُ أيديهنّ فيه. ثم كان بعد ذلك يأخذ عليهنّ، فإذا أعطينَه ما شرط عليهنّ، قال: اذهبْنَ فقد بايعتُكنّ، لا يزيد على ذلك.

قال الواقديّ: فيها قتل خِرَاشُ بن أميّة الكعبيّ جُنَيْدبَ بن الأدْلع الهُذليّ ـ وقال ابن إسحاق: ابن الأثْوَع الهذليّ ـ وإنما قتله بذَحْل، كان في الجاهليّة، فقال النبيّ ﷺ: إنّ خراشاً قتّال؛ إن خراشاً قتّال! يَعِيبُه بذلك، فأمر النبيّ ﷺ خُزَاعَةَ أن يَدُوه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير ـ قال محمد بن إسحاق: ولا أعلمه إلّا وقد حدّثني عن عروة بن الزبير ـ قال: خرج صَفْوان بن أميّة يريد جُدّة، ليركب منها إلى اليمن، فقال عُمير بن وهب، يا نبيّ الله، إنّ صفوان بن أميّة سيّد قومه، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر؛ فأمِّنْه صلّى الله عليك! قال: هو آمِنٌ، قال: يا رسول الله، أعطِني شيئاً يعرف به أمانك؛ فأعطاه عمامته التي دخل فيها مكة؛ فخرج بها عُمير حتى أدركه بجُدَّة، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان، فِداكَ أبي وأمي! أذكِّرك اللّهَ في نفسك أن تُهْلِكَها! فهذا أمانٌ من رسول الله قد جئتك به، قال: ويلك! اغرُبْ عَنِّي فلا تكلّمني! قال: أيْ صفوان، فداك أبي وأمّي! أفضلُ الناس، وأبرّ الناس، وأحلمُ الناس، وخيرُ الناس، ابن عمّتك، عِزُّه عزّك، وشرفه شرفك، ومُلْكه ملكك! قال: إنّي أخافه على نفسي، قال: هو أحلَمُ من ذلك وأكرمُ؛ فرجع به معه، حتى قدِم به على رسول الله ﷺ. فقال صفوان: إنّ هذا زعم أنك قد أمَّنَتني، قال: صدق، قال: فاجعلني في أمري بالخيار شهريْن، قال: أنت فيه بالخيار أربعة أشهر.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزّهري، أنّ أمّ حكِيم بنت الحارث بن هشام وفاخِتَةَ بنت الوليد ـ وكانت فاختة عند صفوان بن أميّة، وأمّ حَكِيم عند عكْرمة بن أبي جهل ـ أسلمتَا، فأمّا أمّ حكيم فاستأمنت رسولَ الله لعِكْرمة بن أبي جهل، فآمنَه، فلحقت به باليمن، فجاءَتْ به؛ فلمّا أسلم عِكْرمة وصفوان، أقرّهما رسولُ الله ﷺ عندهما على النكاح الأول.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق؛ لما دخلَ رسولُ الله ﷺ مكّة هرب هبَيْرَةُ بن أبي وهب المخزوميّ وعبدالله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمي إلى نَجْران.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاريّ؛ قال: رمَى حسّانُ عبدَالله بن الزِّبَعْرى وهو بنجْران ببيت واحد، ما زاده عليه:

لا تَعْدَمَنْ رجلا أحَلَّكَ بُغْضُهُ ... نَجْرانَ في عَيْشٍ أحَذَّ لئِيم

فلما بلغ ذلك ابنَ الزِّبعرى، رجع إلى رسولِ الله ﷺ، فقال حين أسلم:

يا رسولَ المليكِ إنّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُورُ

إذْ أُبَـارِي الشيطانَ في سننِ : الرِّيـ ـحِ ومَـنْ مَـالَ مَـيْـلَهُ مَـثْـبُـورُ
آمَـنَ الـلَّحْـمُ والـعِـظَامُ لِـربِّـي ثـم نفْسي الشهيـدُ أنْتَ النَّـذِيـرُ
إنَّـنـي عـنـكَ زاجِـرٌ ثَـمَّ حَـيًّ مِـن لـؤيٍّ فـكُـلُّهـم مَـغْـرُورُ

وأما هُبيرة بن أبي وَهْب، فأقام بها كافراً، وقد قال حين بلغه إسلامُ أمّ هانىء بنت أبي طالب وكانت تحته، واسمها هند:

أشَـاقَتْـك هِنْـدٌ أم نَـآك سُـؤالُهـا كَـذَاكَ النَّوَى أسبـابها وانفتـالُهـا

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: وكان جميعُ مَنْ شهد فتح مكّة من المسلمين عشرة آلاف؛ من بني غِفار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة، ومِن مُزينة ألف وثـلاثة نَفـر، ومن بني سُلَيْم سبعمائة، ومن جُهينة ألف وأربعمائة رجل؛ وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من بني تميم وقيس وأسد.

قال الواقديّ: في هذه السنة تزوّج رسولُ الله ﷺ مليكة بنت داود الليْثِيّة، فجاء إليها بعضُ أزواج النبيّ ﷺ، فقالت لها: ألا تسْتَحيين حين تزوّجين رجُلاً قتل أباك! فاستعاذت منه؛ وكانت جميلة، وكانت حدثة، ففارقها رسول الله؛ وكان قتل أباها يوم فتح مكة.

قال: وفيها هدم خالد بن الوليد العُزّى ببطن نَخْلة، لخمس ليال بقِينَ من رمضان؛ وهو صنمٌ لبني شيبان؛ بطن من سليم حلفاء بني هاشم، وبنو أسد بن عبد العزّى، يقولون: هذا صَنمنا، فخرج إليه خالد، فقال: قد هدمته، قال: أرأيتَ شيئاً؟ قال: لا، قال: فارجع فاهدِمْه، فرجع خالد إلى الصنم فهدم بيتَه، وكسر الصنم، فجعل السادنُ يقول: أعُزَّى اغضَبي بعض غضباتك! فخرجت عليه امرأة حبشيّة عريانةٌ مُوَلْوِلَة، فقتلها وأخذ ما فيها من حلية، ثم أتى رسولَ الله ﷺ، فأخبره بذلك، فقال: تلك العزّى، ولا تُعْبَدُ العُزّى أبداً.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: بعث رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العُزّى ـ وكانت بنخلة، وكانت بيتاً يعظّمه هذا الحيّ من قريش وكنانة ومُضر كلّها؛ وكانت سَدَنَتُها من بني شيبان، من بني سُلَيم حلفاء بني هاشم ـ فلما سمع صاحبها بمسير خالد إليها، علّق عليها سيفَه، وأسند في الجبل الذي هي إليه فأصعد فيه، وهو يقول:

أَيـا عُـزَّ شُـدِّي شَـدَّةً لا شَـوَى لهـا على خَـالِـدٍ أَلْقِي القِنـاعَ وشَمِّـرِي
ويـا عُـزَّ إن لم تَقْتُلِي اليـومَ خَـالِـداً فَبُـوئي بـإثم عـاجِـل أو تنصَّـرِي

فلما انتهى إليها خالد هَدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ.

قال الواقديّ: وفيها هُدِم سُواع؛ وكان برُهاط لهذيل، وكان حَجَراً؛ وكان الذي هدَمه عمرو بن العاص لما انتهى إلى الصّنم، قال له السّادن: ما تريد؟ قال: هَدْم سُواع، قال: لا تطيق تهدمُه، قال له عمرو بن العاص: أنتَ في الباطل بعد! فهدمه عمرو، ولم يجد في خزانته شيئاً، ثم قال عمرو للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت والله.

وفيها هدم مناة بالمشلّل، هدمه سعد بن زيد الأشهليُّ، وكان للأوس والخزرج.

وفيها كانت غزوة خالد بن الوليد بني جَذِيمة، وكان من أمره وأمرهم ما حدّثنا به ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: قد كانَ رسولُ الله ﷺ بعث فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عزّ وجلّ؛ ولم يأمرهم بقتال؛ وكان ممّن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تِهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتِلاً؛ فوطىء بني جذيمة، فأصاب منهم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمّد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عبّاد بن حُنَيف، عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين، قال: بعث رسولُ الله ﷺ حين افتتح مكة خالدَ بن الوليد داعياً ولم يبعثه مقاتلا، ومعه قبائل من العرب: سُلَيم ومُدْلِج، وقبائل من غيرهم؛ فلمّا نزلوا على الغُمَيْصاء ـ وهي ماء من مياه بني جَذِيمَة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ـ على جماعتهم، وكانت بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عَوْف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة ـ وكانا أقبلا تاجرين من اليمن ـ حتى إذا نزلا بهم قتلوهما؛ وأخذوا أموالهما، فلمّا كان الإسلام، وبعث رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد، سار حتى نزل ذلك الماء؛ فلمّا رآه القوم أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح، فإنّ الناس قد أسلموا.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثني بعضُ أهل العلم، عن رجل من بني جُذيمة، قال: لما أمرَنا خالدٌ بوضع السّلاح، قال رجل منّا يقال له جَحْدَم: ويلكم يا بني جذيمة! إنّه خالد! والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، ثمّ ما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق؛ والله لا أضع سلاحي أبداً. قال: فأخذه رجال من قومه، فقالوا: يا جحدم، أتريد أن تسفِك دماءنا! إنّ الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب، وأمِن الناس؛ فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح لقول خالد؛ فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكُتِفُوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل مَنْ قَتَل منهم. فلما انتهى الخبرُ إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السّماء، ثم قال: اللهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد!

ثم دعا عليَّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال: يا عليّ اخرج إلى هؤلاء القوم؛ فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميْك. فخرج حتى جاءهم ومعه مالٌ قد بعثه رسول الله ﷺ به، فودَى لهم الدماء وما أصيب من الأموال؛ حتى إنه لَيدِي مِيلغَةَ الكلب؛ حتى إذا لم يبقَ شيء من دم ولا مال إلاّ وَدَاه، بقيتْ معه بقيّة من المال. فقال لهم عليٌّ عليه السلام حين فرغ منهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم؟ قالوا، لا، قال: فإنّي أعطيكم هذه البقيّة من هذا المال احتياطاً لرسولِ الله ﷺ ممّا لا يعلم ولا تعلمون. ففعل، ثمّ رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: أصبت وأحسنت، ثم قامَ رسولُ ﷺ، فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه؛ حتى إنه ليُرى بياضُ ما تحت منكِبيه؛ وهو يقول: اللهمّ إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات!

قال ابن إسحاق: وقد قال بعض مَنْ يَعْذِرُ خالداً: إنه قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبدالله بن حُذافة السهميّ، وقال: إنّ رسولَ الله قد أمرك بقتلهم لامتناعهم من الإسلام، وقد كان جَحْدم قال لهم حين وضعوا سلاحهم، ورأى ما يصنع خالد ببني جذيمة: يا بني جذيمة، ضاع الضّرب، قد كنت حذّرتكم ما وقعتم فيه!

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: حدّثني عبدالله بن أبي سلَمة، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف ـ فيما بلغني ـ كلام في ذلك، فقال له: عملت بأمر الجاهليّة في

الإسلام! فقال: إنّما ثأرت بأبيك، فقال عبد الرحمن بن عوف: كذبت! قد قتلتُ قاتل أبي، ولكنك إنما ثأرت بعمّك الفاكِه بن المغيرة؛ حتى كان بينهما شيءٌ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: مهلاً يا خالد! دع عنك أصحابي؛ فوالله لو كان لك أُحُدٌ ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله؛ ما أدركت غَدْوَةَ رجل من أصحابي ولا رَوْحته.

حدّثنا سعيد بن يحيى الأمويّ، قال: حدّثنا أبي. وحدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمة؛ جميعاً عن ابن إسحاق، عن يعقوب بن عُتْبة بن المغيرة بن الأخنس بن شَرِيق، عن ابن شهاب الزهريّ، عن ابن عبدالله بن أبي حَدْرَد الاسلميّ، عن أبيه عبدالله بن أبي حَدْرد، قال: كنتُ يومئذ في خَيْل خالد، فقال لي فتى منهم ـ وهو في السبي؛ وقد جُمعت يداه إلى عنقه برُمَّةٍ ونسوة مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى! قلت: نعم؛ قال: هل أنتَ آخذٌ بهذه الرُّمة فقائدي بها إلى هؤلاء النسوة، حتى أقضيَ إليهنّ حاجة، ثم تَرُدّني بعد، فتصنعوا بي ما بدا لكم؟ قال: قلت. والله ليَسيرٌ ما سألت، فأخذت برُمّتِه فقدْتُه بها حتى أوقفته عليهنّ، فقال: اسلمي حُبَيش، على نَفَد العيش:

أرَيْتَكِ إذْ طالَبْتكم فوَجَدْتُكُم بحَلْيَةَ أو أُلْفيتكمْ بالخَوانِقِ!
ألم يَكُ حَقًّا أن يُنَوَّلَ عاشِقٌ تَكَلَّف إدْلاَجَ السُّرى والوَدَائِقِ!
فلا ذَنْبَ لي قد قُلْتُ إذْ أهْلُنا معاً أثيبي بوُدٍّ قَبْلَ إحْدَى الصَّفَائِقِ!
أثيبي بوُدٍّ قبل أن تَشْحَط النَّوَى وينْأى الأمِيرُ بالحبيب المفارِقِ
فإِنِّيَ لا سِرًّا لَدَيَّ أضَعْتُه ولا راق عَيْني بعد وَجهك رائِق
عَلَى أنَّ ما نابَ العَشِيرَةَ شَاغِلٌ ولا ذِكْرَ إلَّا أن يكون لوامِقِ

قالت: وأنت فحُيّيتَ عشراً، وسبْعاً وِتْراً، وثمانياً تَترى! ثم انصرفتُ به، فقدِّم فضُرِبت عنقه.

حدثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن أبي فِراس بن أبي سُنْبُلة الأسلميّ؛ عن أشياخ منهم، عمّن كان حضرها، قالوا: قامت إليه حين ضُربت عنقه، فأكبّتْ عليه، فما زالت تُقَبِّلُهُ حتى ماتت عنده.

حدّثنا ابنُ حميد؛ قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزهريّ، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة بن مسعود، قال: أقام رسول الله ﷺ بمكّة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصرُ الصلاة.

قال ابنُ إسحاق: وكان فتح مكة لعشر ليال بقِينَ من شهر رمضان سنة ثمانٍ.

ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ﷺ هوازن بحنين

وكان من أمْر رسولِ الله ﷺ وأمْر المسلمين وأمْرِ هوازن ما حدّثنا عليّ بن نصر بن عليّ الجَهضميّ وعبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث ـ قال عليّ: حدّثنا عبد الصّمد، وقال عبد الوارث: حدثنا أبي ـ قال: حدّثنا أبان العطار، قال: حدّثنا هشام بن عروة، عن عُروة، قال: أقام النبيّ ﷺ بمكّة عام الفتح نصف شهر، لم يزد على ذلك؛ حتى جاءت هوازن وثَقيف، فنزلوا بحُنين ـ وحنين واد إلى جنب ذي المجاز ـ وهم يومئذ

عامدون يريدون قتال النبيّ ﷺ، وكانوا قد جمعوا قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنُّون أنه إنما يريدهم حيث خرج من المدينة، فلمّا أتاهم أنه قد نزل مكة، أقبلتْ هَوازِن عامدين إلى النبيّ ﷺ، وأقبلوا معهم بالنساء والصبيان والأموال ـ ورئيس هَوازن يومئذ مالك بن عوف أحد بني نصر ـ وأقبلت معه ثَقيف؛ حتى نزلوا حُنَيْناً يريدون النبيّ ﷺ؛ فلما حُدِّث النبيّ وهو بمكّة أن قد نزلت هوازن وثقيف بحنين، يسوقهم مالك بن عوف أحد بني نصر ـ وهو رئيسهم يومئذ ـ عمَد النبيّ ﷺ حتى قدِم عليهم، فوافاهم بحُنَين، فهزمهم الله عزّ وجلّ، وكان فيها ما ذكر الله عزّوجلّ في الكتاب؛ وكان الذي ساقوا من النساء والصبيان والماشية غنيمة غنّمها الله عزّ وجلّ رسولَه، فقسّم أموالَهم فيمن كان أسلم معه من قريش.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، قال: لما سمعتْ هوازِن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة؛ جمعها مالك بن عوف النَّصرِي؛ واجتمعت إليه مع هَوازن ثَقِيف كلّها، فجُمعت نصر وجُشَم كلّها وسعد بن بكر وناس من بني هلال؛ وهم قليل، ولم يشهدها من قَيْس عَيْلان إلاّ هؤلاء، وغابت عنها فلم يحضرها من هَوازن كعب ولا كلاب؛ ولم يشهدها منهم أحدٌ له اسمٌ، وفي جُشم دُرَيْد بن الصِّمَّة شيخ كبير؛ ليس فيه شيء إلا التيمّن برأيه ومعرفته بالحرْب، وكان شيخاً كبيراً مجرّباً؛ وفي ثقيف سيّدان لهم في الأحْلاف: قارب بن الأسود بن مسعود، وفي بني مالك ذو الخِمار سُبيْع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث في بني هلال، وجِمَاع أمِر الناس إلى مالك بن عوف النصريّ.

فلمّا أجمع مالك المسِيرَ إلى رسول الله ﷺ حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم؛ فلمّا نزل بأوْطاس، اجتمع إليه الناس؛ وفيهم دُرَيد بن الصمة في شِجَار له يُقَادُ به؛ فلما نزَل قال: بأيّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوْطاس، قال: نعم مجالُ الخيل! لا حَزْن ضَرِس، ولا سَهْل دهس؛ مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، ويُعار الشاء، وبكاء الصغير! قالوا: ساقَ مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالَهم، فقال: أين مالك؟ فقيل: هذا مالك، فدُعِي له، فقال: يا مالك، إنَّك قد أصبحتَ رئيس قومك؛ وإنّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام؛ مالي أسمع رُغاء البعير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء، وبكاء الصغير! قال: سُقْتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، قال: ولِمَ؟ قال: أردتُ أن أجعل خَلْف كلّ رجل أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم؛ قال: فأنقضَ به ثم قال: راعي ضأنٍ والله! هل يردّ المنهزمَ شيءٌ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك. ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهد منهم أحد، قال: غاب الجِدُّ والحَدُّ؛ لو كان يوم عَلاءٍ ورفعة لم تَغِب عنه كعب وكلاب؛ ولوَددت أنكم فعلتم ما فعلتْ كعب وكلاب؛ فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر؛ قال: ذانك الجَذعان من بني عامر! لا ينفعان ولا يضرّان، يا مالك إنّك لم تصنع بتقديم البَيْضة؛ بيضة هوازن، إلى نُحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى متمنّع بلادهم وعُلْيا قومهم؛ ثم الق الصبَّاء على مُتُون الخيل، فإن كانت لك لحِق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحْرزتَ أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل، إنك قد كبرتَ وكَبِرَ علمك؛ والله لتطيعُنّني يا معشرَ هوازن أو لأتّكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري! وكره أن يكون لدُرَيْد فيها ذكرٌ ورأيٌ. قال دُريد بن الصمّة: هذا يوم لم أشهده؛ ولم يَفُتْني:

يا ليْتَني فيها جذَعْ أخُبّ فيها وَأضَعْ
أَقُودُ وَطْفاءَ الزَّمَعْ كَأنَّها شَاةٌ صَدَعْ

وكان دُريد رئيسَ بني جُشَم وسيّدهم وأوسطهم؛ ولكن السنّ أدركته حتى فَنِيَ - وهو دُريد بن الصِّمة بن بكر بن عَلْقمة بن جُدَاعة بن غَزِيّة بن جُشَم بن معاوية بن بكْر بن هوازن - ثم قال مالكٌ للناس: إذا أنتم رأيتم القومَ فاكسِرُوا جفونَ سيوفكم، وشُدُّوا شَدَّةَ رجل واحد عليهم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن أميّة بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان؛ أنه حدّث أن مالك بن عوف بعث عيوناً من رجاله لينظروا له، ويأتوه بخبر الناس؛ فرجعوا إليه وقد تفرّقت أوصالُهم، فقال: ويلكم! ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق؛ فوالله ما تماسَكْنا أن أصابَنا ما ترى! فلم ينهَهُ ذلك عن وجهه؛ أن مضى على ما يريد.

قال ابن إسحاق: ولما سمع بهم رسولُ الله ﷺ بعث إليهم عبدَالله بن أبي حَدْرد الأسلميّ، وأمره أن يدخلَ في الناس فيُقيم فيهم حتى يأتيَه بخبر منهم؛ ويعلم مِنْ علمهم. فانطلق ابن أبي حَدْرد، فدخل فيهم، فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حَرْب رسولِ الله ﷺ، وعلم أمر مالك وأمرَ هوازن وما هم عليه. ثم أتى رسولَ الله، فأخبره الخبر؛ فدعا رسولُ الله ﷺ عمرَ بن الخطاب، فأخبره خبرَ ابن أبي حَدْرد. فقال عمرُ: كذب! فقال ابن أبي حَدْرد: إنْ تكذّبْني فطالَما كذّبْتَ بالحقّ يا عمر! فقال عمر: ألا تسمعُ يا رسول الله إلى ما يقول ابن أبي حَدْرد! فقال رسولُ الله ﷺ: قد كنتَ ضالاً فهداك الله يا عمر.

حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثني أبو جعفر محمد بن علي بن حسين، قال: لما أجمع رسولُ الله ﷺ السَّيْرَ إلى هَوازن ليلقاهم، ذكِر له أنّ عند صفوان بن أميّة أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه، فقال: يا أبا أميّة - وهو يومئذ مشرك: أعِرْنا سلاحك هذا نلْق فيه عدوّنا غداً. فقال له صفوان: أغَصْباً يا محمد! قال: بل عارِيّة مضمونة حتى نؤدّيَها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة دِرْع بما يصلِحُها من السلاح؛ فزعموا أنّ رسولَ الله ﷺ سأله أن يكفيَه حَمْلها ففعل.

قال أبو جعفر محمد بن عليّ: فمضت السنّة أن العاريَّة مضمونة مؤدَّاة.

حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكْر، قال: ثمّ خرجَ رسولُ الله ﷺ؛ ومعه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل رسولُ الله ﷺ عَتّابَ بن أسيد بن أبي العِيص بن أميّة بن عبد شمس على مكّة أميراً على مَنْ غاب عنه من الناس، ثم مضى على وجهه يريد لقاء هوازن.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه، قال: لمّا استقبلنا وادي حُنين، انحدَرْنا في واد من أودية تِهامة أجوف حَطُوط، إنما ننحدر فيه انحداراً - قال: وفي عَماية الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي، فكَمنوا لنا في شِعَابه وأحنائه ومضايِقه، قد أجمعوا وتهيؤوا وأعدّوا - فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلاّ الكتائب قد شدّتْ علينا شَدّة رجل واحد؛ وانهزم الناس أجمعون، فانشمروا لا يلوِي أحدٌ على أحد؛ وانحاز رسولُ الله ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: أين أيها الناس! هلمّ إليّ! أنا رسولُ الله، أنا محمد بن عبدالله! قال: فلا شيء، احتملت الإبل بعضها بعضاً، فانطلق الناس؛ إلاّ أنه قد بقيَ مع رسولِ الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وممّن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر، وعمر، ومن أهل بيته عليُّ بن أبي طالب، والعبّاس بن عبد المطلب، وابنُه الفضل، وأبو

سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيْمَن بن عُبيد ـ وهو أيمن بن أمّ أيمن ـ وأسامة بن زيد بن حارثة. قال: ورجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، أمام الناس وهوازن خلْفه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه؛ فاتبعوه. ولما انهزم النّاس، ورأى مَنْ كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمةَ، تكلّم رجالٌ منهم بما في أنفسهم من الضِّغْن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر؛ والأزلام معه في كنانته؛ وصرخ كَلَدةُ بن الحنبل ـ وهو مع أخيه صفوان بن أمية بن خَلف وكان أخاه لأمه، وصفوان يومئذ مشرك في المدّة التي جعل له رسول الله فقال: ألا بطل السِّحْرُ اليوم! فقال له صفوان: اسكت فَضَّ اللهُ فاك! فوالله لأنْ يَرُبَّني رجلٌ من قريش أحبُّ إليّ من أن يَرُبّني رجل من هوازن! وقال شيبةُ بن عثمان بن أبي طلحة، أخو بني عبد الدار: اليوم أدْرِكُ ثأري ـ وكان أبوه قُتل يوم أُحد ـ اليوم أقتل محمداً. قال: فأردت رسولَ الله لأقتلَه، فأقبل شيء حتى تغشّى فؤادي فلم أطقْ ذلك، وعلمت أنه قد مُنع منّي.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن الزّهريّ، عن كَثِير بن العباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب، قال: إنّي لمعَ رسولِ الله ﷺ آخذٌ بحَكمَة بغلته البيضاء، قد شجرتُها بها، قال: وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت، قال: ورسولُ الله ﷺ يقول حين رأى مِن الناس ما رأى: أينَ أيّها الناس! فلمّا رأى الناس لا يَلْوُون على شيء قال: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار! يا أصحاب السَّمُرَة! فناديت: يا معشر الأنصار، ! يا معشر أصحاب السَّمُرة! قال: فأجابوا: أنْ لبَّيك لبّيك! قال: فيذهبُ الرّجُل منهم يريد ليثني بعيرَه؛ فلا يقدِر على ذلك، فيأخذ دِرْعه فيقذِفها في عُنقه، ويأخذ سيفه وتُرسه، ثم يقتحم عن بعيره فيخلّي سبيلَه في الناس، ثم يَؤمّ الصوت، حتى ينتهيَ إلى رسول الله ﷺ؛ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس، فاقتتلوا، فكانت الدَّعوى أوّلَ ما كانت: يا للأنصار! ثم جُعلت أخيراً: يا للخزرج! وكانوا صُبُراً عند الحرب؛ فأشرف رسول الله ﷺ في ركابه، فنظر مُجْتَلَد القوم وهم يجتلدون، فقال: الآن حَمِيَ الوَطِيس!

حدّثنا هارونُ بن إسحاق، قال: حدّثنا مُصعب بن المقدام، قال: حدّثنا إسرائيل، قال: حدّثنا أبو إسحاق، عن البَرَاء، قال: كان أبو سفيان بن الحارث يقودُ بالنبيّ ﷺ بغلته يوم حُنين، فلمّا غَشيَ النبيَّ ﷺ المشركون، نزل فجعل يرتجز، ويقول:

أنا النبيُّ لا كَذِب ... أنا ابنُ عبد المطَّلِبُ

فما رئيَ من الناس أشدّ منه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبدالله، قال: بينَا ذلك الرجل من هَوازن صاحب الراية على جملِه يصنع ما يصنع؛ إذ هَوَى له عليّ بن أبي طالب ورجل من الأنصار، يريدانه، فيأتيه عليٌّ من خلْفه، فيضرب عُرْقُوبَيِ الجمل، فوقع على عَجُزه، ووثب الأنصاريّ على الرّجل فضربه ضربة أطَنَّ قدَمه بنصف ساقه، فانجعف عن رَحْله. قال: واجتلد الناس، فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارَى مكتّفين؛ وقد التفت رسولُ الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان ممّن صَبر يومئذ مع رسول الله ﷺ، وكان حسنَ الإسلام حين أسلم، وهو آخذ بثَفَر بغلته ـ فقال: من هذا؟ قال: ابن أمّك يا رسول الله!

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكْر، أنّ رسولَ الله ﷺ التَفَت، فرأى أمّ سُليم بنت مِلحان ـ وكانت مع زوجها أبي طلحة ـ حازمة وسطها ببُـرْد لها؛ وإنّها لحـامل بعبدالله بن أبي طلحة، ومعها جـمل أبي طلحة، وقد خشيتْ أن يَعُزّها الجمل، فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها في خِزَامته مع الخِطام، فقال رسولُ الله ﷺ: أمّ سليم! قالت: نعم؛ بأبي أنت وأمّي يا رسول الله! اقتُلْ هؤلاء الذين يفرُّون عنك كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهلٌ،فقال رسولُ الله ﷺ: أوَ يكفي اللّهُ يا أمّ سُليم! ومعها خنجر في يدها، فقال لها أبو طلحة: ما هذا معك يا أمّ سليم؟ قالت: خنجر أخذته معي؛ إن دنا مني أحدٌ من المشركين بعجتُه به. قال: يقول أبو طلحة: ألا تسمع ما تقولُ أمّ سليم يا رسول الله!.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، قال: حدّثني حمّاد بن سلمة،عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك، قال: لقد استلبَ أبو طلحة يوم حنين عشرين رجلاً وحْدَه هو قتلهم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن أبيه، أنه حدّث عن جُبير بن مُطعِم، قال: لقد رأيتُ قبلِ هزيمة القوم والناس يقتتلون مثلَ البِجَاد الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم؛ فنظرت فإذا نملٌ أسود مبثوثٌ قد ملأ الوادي؛ فلم أشكّ أنها الملائكة، ولم يكن إلاّ هزيمة القوم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: فلمّا انهزمت هوازن استحرّ القتل من ثَقيف ببني مالك، فقُتِل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم، فيهم عثمان بن عبدالله بن ربيعة بن الحارث بن حُبيِّب؛ جَدُّ ابن أمّ حكم بنت أبي سفيان، وكانت رايتهم مع ذي الخِمار، فلمّا قُتل أخذها عثمان بن عبدالله فقاتل بها حتى قُتل.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عامر بن وهب بن الأسود بن مسعود، قال: لّما بلغ رسولَ الله ﷺ قتلُ عثمان، قال: أبعَدَه الله! فإنه كان يبغِض قريشاً.

حدّثنا عليّ بن سهل، قال: حدّثنا مؤمّل، عن عُمارة بن زاذان، عن ثابت، عن أنس، قـال: كان النبيّ ﷺ يوم حُنين على بغلة بيضاء، يقال لها دُلْدُل، فلمّا انهزم المسلمون، قال النبيّ ﷺ لبغلته: البُدِي دُلْدُل! فوضعت بطنهـا على الأرض، فـأخذ النبيّ ﷺ حَفْنَـةً من تراب، فـرمى بها في وجـوههم، وقال: «حمَ لا يُنْصَرون!». فولّى المشركون مُدْبرين، ما ضربَ بسيف ولا طعن برمْح ولا رمى بسهم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، قال: قتل مع عثمان بن عبدالله غلام له نَصرانيٌّ أغرلُ. قال: فبينا رجلٌ من الأنصار يستلب قتلَى من ثقيف، إذ كشف العبد ليستلبَه، فوجده أغرل، فصرخ بأعلَى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن! قال المغيرة بن شعبة: فأخذت بيده، وخشيت أن تذهب عنّا في العرب، فقلت: لا تقُلْ ذلك فداك أبي وأمي! إنما هو غلامٌ لنا نصرانيٌّ، ثم جعلت أكشف له قتلانا فأقول: ألا تراهم مُختَّنين! قال: وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود بن مسعود، فلمّا هُزِم الناس أسند رايتَه إلى شجرة، وهرب هو وبنو عمّه وقومه من الأحلاف، فلم يُقتَلْ منهم إلاّ رجلان؛ رجل من بني غِيَرَة يقال له وهب، وآخر من بني كُنّة يقال له: الجُلاَح، فقال رسولُ الله ﷺ حين بلغه قتل الجُلاح: قُتل اليوم سيد شباب ثَقِيف؛ إلا ما كان من ابن هُنَيدة ـ وابنُ هنيدة الحارث بن

أوْس.

حدّثنا ابنُ حميد، قال حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، قال: ولما انهزم المشركون أتَوُا الطائف، ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوْطاس، وتوجّه بعضُهم نحو نَخْلة ـ ولم يكن فيمن توجّه نحو نخلة إلاّ بنو غِيَرة من ثَقِيف ـ فتبعتْ خيلُ رسولِ الله ﷺ مَنْ سلك في نَخْلة من الناس، ولم تتبع مَنْ سلَك الثنايا، فأدرك ربيعةُ بن رُفيع بن أهبان بن ثعلبة بن ربيعة بن يَرْبوع بن سَمَّال بن عوْف بن امرىء القيس ـ وكان يقال له ابن لذْعة وهي أمّه، فغلبتْ على نسبه ـ دريدَ بن الصِّمة، فأخذ بخِطام جمله؛ وهو يظنّ أنه امرأة؛ وذلك أنه كان في شِجارٍ له، فإذا هو رجل، فأناخ به، وإذا هو بشيخٍ كبير؛ وإذا هو دريد بن الصِّمّة، لا يعرفه الغلام، فقال لهُ دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك، قال: ومَنْ أنتَ؟ قال: أنا ربيعة بنُ رفيع السُلَميّ، ثمّ ضربه بسيفه فلم يُغْن شيئاً، فقال: بئسما سَلّحَتْك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخّر الرّحل في الشّجار، ثم اضرب به وارفع عن العظام، واخفض عن الدّماغ، فإني كذلك كنت أقتل الرجال، ثمّ إذا أتيتَ امك فأخبرْهـا أنك قتلتَ دُريد بن الصّمة؛ فرُبّ يومٍ والله قد منعت نساءَك! فزعمتْ بنو سُليم أنّ ربيعة قال: لما ضربتُه فوقع تكشف الثوب عنه، فإذا عِجَانُه وبطون فَخِذيْه مثل القِرْطاس من ركوب الخيل أعراء، فلمّا رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه، فقالت: والله لقد أعتق أمّهات لك ثلاثاً.

قال أبو جعفر: وبعث رسولُ الله ﷺ في آثار مَنْ توجّه قِبَلَ أوطاس؛ فحدّثني موسى بن عبدالـرحمن الكِنديّ، قال: حدّثنا أبو أسامة، عن بُريْد بن عبدالله، عن أبي بُرْدة، عن أبيه، قال: لما قدِم النبيّ ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوْطاس، فلقيَ درَيْد بن الصّمّة، فقتل دريداً، وهزم الله أصحابه.

قال أبو موسى: فبعثني مع أبي عامر، قال: فرُمِيَ أبو عامر في ركْبته، رماه رجلٌ من بني جُشَم بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه، فقلت: يا عمّ، مَنْ رماك؟ فأشار أبو عامر لأبي موسى، فقال: إنّ ذاك قاتلي، تراه ذلك الذي رماني!

قال أبو موسى: فقصدت له فاعتمدتُه، فلحِقْتُه، فلما رآني ولّى عني ذاهباً، فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحِي! ألستَ عربيًّا! ألا تثبت! فكرَّ، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا ضربتين، فضربته بالسيف، ثم رجعت إلى أبي عامر، فقلت: قد قتل الله صاحبَك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعتُه فنزَا منه الماء، فقال: يابن أخي، انطلق إلى رسول الله، فأقرِئْه مني السلام، وقل له إنه يقول لك: استغفر لي.

قال: واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً. ثمّ إنه مات.

حدثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، قال: يزعمون أن سَلمة بن دُريد، هو الذي رمى أبا عامر بسهم فأصاب رُكْبته، فقتله، فقال سَلمة بن دُرَيد في قتله أبا عامر:

إنْ تسْـألـوا عنّي فـإنّي سَلَمَـهْ ... ابـنُ سَمَـادِيـرَ لـمَنْ تـوَسَّـمَـهْ
أضـرِبُ بـالسَّيْفِ رؤوسَ المُسْلِمَـهْ

وسمادير أمّ سَلمة، فانتمى إليها.

قال: وخرج مالك بن عوْف عند الهزيمة، فـوقف في فوارس من قَـوْمه عـلى ثنيّة من الـطريق، وقال

لأصحابه: قِفوا حتى تمضي ضُعفاؤكم وتلحق أخراكم؛ فوقف هنالك حتى مضى مَنْ كان لحق بهم من منهزمة الناس.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، قال: حدّثني بعضُ بني سعد بن بكر، أنّ رسول الله ﷺ قال يومئذ لخيله التي بعث: إن قدرتم على بِجَاد ـ رجل من بني سعد بن بكر ـ فلا يفلتَنّكم؛ وكان بجاد قد أحدَث حدثاً، فلمّا ظفِر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا أخته الشَّيْماء بنت الحارث بن عبدالله بن عبد العُزّى، أخت رسولِ الله ﷺ من الرضاعة، فعنّفوا عليها في السياق معهم، فقالت للمسلمين: تعلمون والله أنّي لأختُ صاحبكم من الرّضاعة؛ فلم يُصدِّقوها حتى أتوْا بها رسولَ الله ﷺ.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثنا ابنُ إسحاق، عن أبي وَجْزة يزيد بن عبيد السعديّ، قال: لما انتُهِيَ بالشَّيْماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسولَ الله، إنّي أختُك، قال: وما علامة ذلك؟ قالت عَضَّةٌ عَضضْتَنيها في ظهري وأنا متورّكَتُك. قال: فعرَف رسولُ الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداءَه، ثم قال: ها هنا، فأجلسها عليه، وخيّرها، وقال: إن أحببتِ فعندي مُحبّبةً مكْرَمَةً، وإن أحببتِ أمتِّعْك وترجعي إلى قومك، قالت: بل تمتعني وتردّني إلى قومي، فمتّعها رسول الله ﷺ، وردَّها إلى قومها؛ فزعمت بنو سعد بن بكر أنه أعطاها غلاماً له يقال له مكحول، وجارية؛ فزوّجت أحدهما الآخر، فلم يزل فيهم من نَسْلهما بقية.

قال ابن إسحاق: استشهد يوم حُنَين من قريش، ثم من بني هاشم: أَيْمَنُ بن عبيد ـ وهو ابن أمّ أيمن، مولاة رسولِ الله ﷺ ـ ومن بني أسد بن عبد العُزّى يزيد بن زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ـ جَمَحَ به فرسٌ له يقال له الجناح، فقُتل ـ ومن الأنصار سُراقة بن الحارث بن عديّ بن بلْعجلان، ومن الأشعريين أبو عامر الأشعريّ. ثم جُمعت إلى رسول الله سَبَايا حُنين وأموالها؛ وكان على المغانم مسعود بن عمرو القاريّ، فأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجِعْرانة فحبِسَتْ بها.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: قال ابن إسحاق: لما قدِم فَلّ ثَقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها، وصنعوا الصنائع للقتال؛ ولم يشهد حُنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيْلان بن سلمة؛ كانا بجُرَش يتعلّمان صنعة الدّباب والضُّبُور والمجانيق.

فحدّثنا عليّ بن نصر بن عليّ، قال: حدّثنا عبدُ الصمد بن عبد الوارث، وحدّثنا عبدُ الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث، قال: حدّثنا أبي، قال: أخبرَنا أبان العطار، قال: حدّثنا هِشام بن عُرْوة، عن عروة، قال: سارَ رسولُ الله ﷺ يوم حُنين من فوره ذلك ـ يعني منصرَفه من حنين ـ حتى نزلَ الطائف، فأقام نصف شهر يقاتلهم رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، وقاتلهم ثقيف من وراء الحِصْن؛ لم يخرج إليه في ذلك أحدٌ منهم؛ وأسلم مَنْ حولهم من الناس كلّهم؛ وجاءت رسول الله ﷺ وفُودهم؛ ثم رجع النبيّ ﷺ ولم يحاصرهم إلّا نصفَ شهر حتى نزل الجِعْرانة؛ وبها السبْي الذي سَبَى رسولُ الله من حُنين من نسائهم وأبنائهم ـ ويزعمون أنّ ذلك السَّبْيَ الذي أصاب يومئذ من هوازن كانت عدّته ستة آلاف من نسائهم وأبنائهم ـ فلمّا رجَع النبيّ ﷺ إلى الجِعْرانة، قدمتْ عليه وفود هَوازِن مُسْلِمين، فأعتق أبناءهم ونساءهم كلّهم، وأهلّ بعُمْرةٍ من الجِعْرانة؛ وذلك في ذي القعدة.

ثم إنّ رسول الله ﷺ رجع إلى المدينة، واستخلف أبا بكر رضي الله تعالى عنه على أهلِ مكة، وأمره أن

يقيم للناس الحجّ، ويعلّم الناس الإسلام، وأمره أن يؤمّن مَنْ حجّ من الناس؛ ورجع إلى المدينة؛ فلما قَدِمها قَدِم عليه وفود ثَقيف، فقاضوْه على القضيّة التي ذكرت؛ فبايعوه، وهو الكتاب الذي عندهم كاتبوه عليه.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، قال: حدّثني ابنُ إسحاق عن عمرو بن شعَيب؛ أنّ رسولَ الله ﷺ سلَك إلى الطائف من حُنَين علىنخلة اليمانية، ثم على قَرْن، ثم على المُلَيْح، ثم على بَحْرَة الرُّغاء من لِيّة، فابتنى بها مسجداً، فصلّى فيه، فأقاد يومئذ ببحْرة الرّغاء حين نزلَها بدم ـ وهو أول دم أقيد به في الإسلام ـ رجلا من بني ليث؛ قتل رجلاً من هُذَيل، فقتله رسول الله ﷺ؛ وأمر رسول الله وهو بلِيّة بحصن مالك بن عوف فهُدِم؛ ثم سلك في طريق يقال لها الضّيْقة، فلما توجّه فيها، سأل على اسمها، فقال: ما اسم هذه الطريق؟ فقيل له: الضيِّقْة، فقال: بل هي اليسرى. ثم خرج رسول الله ﷺ على نَخْب؛ حتى نزل تحت سِدْرةٍ يقال لها الصادرة، قريباً من مال رجل من ثَقِيف، فأرسل إليه رسولُ الله ﷺ: إما أن تخرُج؛ وإما أن نُخرب عليك حائطك؛ فأبى أن يخرُج، فأمر رسولُ الله ﷺ بإخرابه.

ثم مضى رسولُ الله حتى نزل قريباً من الطائف؛ فضرب عسكره، فقُتل أناس من أصحابه بالنَّبْل؛ وذلك أنّ العسكر اقترب من حائط الطائف فكانت النّبْل تنالُهم، ولم يقدر المسلمون أن يدخُلوا حائطهم، غلّقوه دونهم؛ فلما أصيبَ أولئك النّفرُ من أصحابه بالنَّبْل، ارتفع، فوضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم؛ فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة؛ ومعه امرأتان من نسائه؛ إحداهما أمّ سلمة بنت أبي أميّة وأخرى معها ـ قال الواقديّ: الأخرى زينب بنت جحش ـ فضرب لهما قبّتين، فصلّى بين القبّتين ما أقام.

فلما أسلمتْ ثَقِيف، بنَى عَلى مُصلى رسول الله ﷺ ذلك أبو أميّة بن عمرو بن وهب بن مُعتِّب بن مالك مسجداً، وكانت في ذلك المسجد سارِيَةٌ ـ فيما يزعمون ـ لا تطلع عليها الشمس يوماً من الدهر؛ إلا سُمع لها نقيض؛ فحاصرهم رسولُ الله ﷺ، وقاتلهم قتالاً شديداً، وترامَوْا بالنَّبْل حتى إذا كان يوم الشدْخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبّابة؛ ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سككَ الحديد مُحْمّاةً بالنار، فخرجوا مِنْ تحتِها، فرمتهم ثَقيف بالنّبْل، وقتلوا رجالا؛ فأمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف، فوقع فيها الناس يقطعون.

وتقدّم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعبة إلى الطائف. فناديا ثقيفاً: أنْ أمّنُونا حتى نكلّمكم، فأمّنوهما؛ فدعَوا نساءً من نساء قريش وبني كنانة ليخرُجْن إليهما ـ وهما يخافان عليهنّ السّباء ـ فأبيْنَ؛ منهنّ آمنة بنت أبي سفيان، كانت عند عروة بن مسعود له منها داود بن عروة وغيرها.

وقال الواقديّ: حدثني كَثِير بن زيد، عن الوليد بن رَبَاح، عن أبي هريرة، قال: لما مضت خمس عشرة من حصار الطائف، استشار رسول الله ﷺنَوْفَل بن معاوية الدّيلي، وقال: يا نوفل، ما تَرَى في المقام عليهم؟ قال: يا رسول الله؛ ثعلب في جُحْرٍ؛ إن أقمت عليه أخذتَه، وإن تركتَه لم يضرَّك.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثنا ابنُ إسحاق، قال: قد بلَغني أن رسولَ الله ﷺ قال لأبي بكر بن أبي قحافة، وهو محاصرٌ ثقيفاً بالطائف: يا أبا بكر، إنّي رأيتُ أنه اهديتْ لي قَعْبةٌ مملوءة زُبْداً، فنقرَها ديكٌ فأهَراق ما فيها؛ فقال أبو بكر: ما أظنّ أن تدْرك منهم يومك هذا ما تُريد يا رسولَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: وأنا لا أرى ذلك.

ثم إنّ خَوْلة بنت حَكِيم بن أميّة بن حارثة بن الأوْقص السُّلَمِيّة ـ وهي امرأة عثمان بن مظعون ـ قالت: يا رسولَ الله، أعْطِني إن فتح الله عليك الطائف حُليَّ بادية بنت غيلان بن سلمة، أو حُليَّ الفارعة بنت عُقَيْل ـ وكانتا من أحْلَى نساءِ ثقيف ـ قال: فذكر لي أنّ رسولَ الله ﷺ قال لها: وإن كان لم يؤذنْ لي في ثقيف يا خويلة! فخرجت خويلة، فذكَرتْ ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل عمرُ على رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما حديث حدَّثَتْنيه خويلة أنك قلتَه! قال: قد قلتُه، قال: أوَ مَا أذِن فيهم يا رسول الله! قال: لا، قال: أفلا أؤَذِّنُ بالرّحيل في الناس! قال: بلى؛ فأذَّنَ عمر بالرّحِيل؛ فلما استقلّ الناس نادى سعيد بن عُبَيد بن أسيد بن أبي عمرو بن علاج الثقفيُّ: ألا إنّ الحَيّ مقيمٌ! قال: يقول عيينة بن حصن: أجلْ والله مَجَدَةً كراما! فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عُيينة! أتمدح قوماً من المشركين بالامتناع من رسول الله، وقد جئت تنصره! قال: إني والله ما جئت لأقاتِلَ معكم ثقِيفاً؛ ولكني أردت أن يفتح محمدٌ الطّائف فأصيب من ثَقِيف جارية أتبطّنُها لعلها أن تلد لي رجلًا؛ فإن ثقيفاً قوم مناكير.

واستُشهد بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً؛ سبعة من قريش ورجل من بني لَيْث، وأربعة من الأنصار.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: ثمّ خرجَ رسولُ الله ﷺ حين انصرف من الطائف على دَحْنَا؛ حتى نزل الجِعْرانة بمن معه من المسلمين؛ وكان قدّم سَبْيَ هوازن حين سار إلى الطّائف إلى الجِعْرانة، فحُبس بها؛ ثم أتته وفود هَوازن بالجِعْرانة؛ وكان مع رسول الله ﷺ من سَبْي هوازن من النساء والذراريّ عدد كثير، ومن الإبل ستة آلاف بعير، ومن الشاء ما لا يُحْصى.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة قال: حدّثني محمد بن إسحاق، قال: حدّثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: أتى وفدُ هوازِن رسولَ الله ﷺ وهو بالجِعْرانة؛ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسولَ الله، إنّا أصلٌ وعشيرة؛ وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفَى عليك، فامننْ علينا مَنّ الله عليك! فقام رجل من هوازن ـ أحدُ بني سعد بن بكر، وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ ـ يقال له زهير بن صُرَد، وكان يكنى بأبي صُرَد ـ فقال: يا رسولَ الله؛ إنّما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفُلْنك! ولو أننا ملَحْنا للحارث بن أبي شمِر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منّا بمثل ما نزلتَ به، رجوْنا عطْفَه وعائدته، وأنت خير المكفولين! ثم قال:

اُمْنُن عَلينا رسولَ اللّهِ في كَرَمٍ ... فإنَكَ المرْءُ نرْجُوه ونَدَّخِرُ
امننْ على بَيْضَةٍ قد عاقَها قدرٌ ... مُمَزَّقٌ شَمْلُهَا، في دهرِهَا غِيَرُ

في أبيات قالها، فقال رسولُ الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسولَ الله؛ خيَّرتَنا بين أحسابنا وأموالنا، بل تردّ علينا نساءنا وأبناءَنا فهم أحبّ إلينا، فقال: أمّا ما كان لي ولبني عبد المطّلب فهو لكم؛ فإذا أنا صلّيت بالناس، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا؛ فسأعطيكم عند ذلك؛ وأسأل لكم؛ فلمّا صلّى رسولُ الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلّموا بالذِي أمرهم به، فقال رسول الله: أمّا ما كان لِي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله. قال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال

عيينة بن حصن: أمّا أنا وبنو فَزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أمّا أنا وبنو سليم فلا، قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله.

قال: يقول العباس لبني سليم: وهّنتموني! فقال رسولُ الله ﷺ: أمّا مَنْ تمسّك بحقه من هذا السبي منكم فله بكلّ إنسان ستّ فرائض من أوّل شيء نُصيبه، فرَدّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثني يزيد بن عُبَيد السعديّ أبو وَجْزة، أنّ رسولَ الله ﷺ كان أعطى عليّ بن أبي طالب جاريةً من سَبْي حُنين يقال لها رَيْطة بنت هلال بن حَيّان بن عميرة بن هلال بن ناصرة بن قُصَيّة بن نصر بن سعد بن بكر، وأعطى عثمان بن عفّان جاريةً يقال لها زينب بنت حيّان بن عمرو بن حيّان، وأعطى عمَر بن الخطاب جارية، فوهبها لعبدالله بن عمر.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن نافع، عن عبدالله بن عمر، قال: أعطى رسولُ الله ﷺ عمرَ بن الخطاب جاريةً من سبي هوازن، فوهبها لي، فبعثت بها إلى أخوالي من بني جُمَح ليُصلِحوا لي منها حتى أطوف بالبيت ثم آتيهم؛ وأنا أريد أن أصيبَها إذا رجعت إليها، قال: فخرجتُ من المسجد حين فرغت؛ فإذا الناس يشتدّون، فقلت: ما شأنكم؟ قالوا: ردّ علينا رسولُ الله نساءَنا وأبناءَنا، قال: قلت: تِلْكُم صاحبتكم في بني جُمح؛ اذهبوا فخذوها، فذهبوا إليها فأخذوها؛ وأما عُيينة بن حِصْن فأخذ عجوزاً من عَجائز هَوازن، وقال حين أخذها: أرى عجوزاً وأرى لها في الحيّ نسباً؛ وعسى أن يعظُم فداؤها! فلمّا ردّ رسولُ الله ﷺ السبايا بستّ فرائض أبى أن يردّها، فقال له زهير أبو صُرَد: خُذْها عنك؛ فوالله ما فُوها ببارد، ولا ثَديُها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا دَرُّها بماكد، ولا زوجها بواجد. فردّها بستّ فرائض حين قال له زهير ما قال؛ فزعمو أنّ عُيينة لقيَ الأقرع بن حابس، فشكا إليه ذلك، فقال: والله إنك ما أخذتَها بكْراً غريرةً، ولا نَصَفاً وثيرَةً؛ فقال رسول الله ﷺ لوَفْد هوازن، وسألهم عن مالك بن عوف: ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثَقِيف؛ فقال رسول الله: أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل، فأتِيَ مالك بذلك؛ فخرج من الطائف إليه؛ وقد كان مالك خاف ثَقِيفاً على نفسه أن يعلموا أنّ رسولَ الله ﷺ قال له ما قال، فيحبسوه، فأمر براحلته فهيِّئتْ له، وأمر بفرس له فأتِيَ به الطائف؛ فخرج ليلا، فجلس على فرسه فركضَه؛ حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحْبس له، فركبها، فلحق برسول الله فأدركه بالجعْرانة - أو بمكة - فردّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسُن إسلامه.

واستعمله رسول الله ﷺ على قومِه وعلَى مَنْ أسلم من تلك القبائل حولَ الطائف: ثُمالة وسلِمة وفَهْم؛ فكان يقاتل بهم ثَقِيفاً، لا يخرج لهم سَرْحٌ إلاّ أغار عليه، حتى ضَيَّقَ عليهم، فقال أبو مِحْجَن بن حبيب بن عمرو بن عميْر الثَّقفِيّ:

هـابَتِ الأعـداءُ جَـانِبَنـا ... ثمَّ تَغْـزُونـا بَنـو سَلِمَـهْ
وأتـانـا مـالـكٌ بِـهِـمُ ... نـاقِضـاً لِلعَهْـدِ والحُـرُمَـهْ
وأتَـوْنـا فـي مَـنـازِلـنـا ... ولقَـد كنَّـا أُولِـي نَقِمَـهْ

وهذا آخر حديث أبي وجْزة.

ثم رجع الحديث إلى حديث عمرو بن شعيب، قال: فلما فرغَ رسولُ الله ﷺ من ردّ سبايا حُنين إلى

أهلها، ركب واتّبعه الناس يقولون: يا رسولَ الله، اقسمْ علينا فيئَنا الإبل والغنم، حتى ألجؤوه إلى شجرة، فاختطفت الشجرة عنه رداءه، فقال: رُدُّوا عليَّ ردائي أيها الناس؛ فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَماً لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جَبَاناً ولا كَذّاباً. ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وَبَرَةً من سَنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيّها الناس، إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلّا الخمس، والخُمس مردودٌ عليكم، فأدُّوا الخِياطَ والمِخيط؛ فإن الغُلول يكون على أهله عاراً وناراً وشَناراً يوم القيامة. فجاءَه رجلٌ من الأنصار بكُبَّة من خيوط شَعَر فقال: يا رسولَ الله أخذتُ هذه الكُبّة أعملُ بها برذعة بعير لي دَبِر، قال: أمّا نصيبي منها فلَكَ، فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجةَ لي بها، ثم طرحها من يده.

إلى ها هنا حديث عمرو بن شعَيْب.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكْر، قال: أعطى رسولُ الله ﷺ المُؤَلَّفَةَ قلوبهم ـ وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألّفهم ويتألّف به قلوبهم ـ فأعطى أبا سفيان بن حرْب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حَكِيم بن حزام مائة بعير، وأعطى النُّضير بن الحارث بن كلَدة بن علقمة أخا بني عبد الدار مائة بعير، وأعطى العَلاء بن جارية الثقفيّ حليف بني زُهْرة مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى صَفْوان بن أميّة مائة بعير، وأعطى سُهَيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حُويطب بن عَبدالعُزّى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى عُيَيْنَةَ بن حِصْن مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميميّ مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف النصريّ مائة بعير، فهؤلاء أصحاب المئين؛ وأعطى دون المائة رجالاً من قريش؛ منهم مَخْرَمة بن نوفل بن أهَيب الزهريّ، وعمير بن وهب الجمحيّ، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤيّ ـ لا يحفَظ عدّة ما أعطاهم؛ وقد عرف فيها زعم أنها دون المائة ـ وأعطى سعيد بن يربوع بن عَنْكَثة بن عامر بن مخزوم خمسين من الإبل، وأعطى السَّهْمِيَّ خمسين من الإبل، وأعطى عبّاس بن مرداس السُّلمي أباعرَ فتَسخّطها، وعاتب فيها رسول الله ﷺ، فقال:

كانت نِهاباً تلافيتُها ... بكَرِّي على المهرِ في الأجْرَعِ
وإيقاظِيَ القَوْمَ أن يرْقدوا ... إذا هَجَعَ الناسُ لم أهْجَعِ
فأصْبَحَ نَهْبِي ونَهْبُ العُبَيْـ ... ـدِ بيْنَ عُيَيْنَةَ والأقْرَعِ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَإٍ ... فلم أُعْطَ شَيْئاً ولم أمْنَعِ
إلّا أفائِلَ أُعْطِيتُها ... عَدِيدَ قوائمها الأرْبَعِ
وما كانَ حِصْنٌ ولا حابِسٌ ... يَفُوقانِ مِرْداسَ في المَجْمَعِ
وما كُنْتُ دونَ آمْرِىءٍ منهما ... ومَنْ تَضَعِ آلْيَوْم لا يُرْفَعِ

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: اذْهبوا فاقطعوا عني لسانه؛ فزادوه حتى رضيَ؛ فكان ذلك قطْع لسانه الذي أمر به.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، أنّ قائلاً قال لرسولِ الله ﷺ من أصحابه: يا رسولَ الله، أعطيتَ عُيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس مائةً مائةً، وتركتَ جُعَيْلَ بن سراقة الضّمْريّ! فقال رسولُ الله ﷺ: أما والذي نفسي بيده، لَجُعَيْلُ بن سراقة خيرٌ من طلاع

الأرض، كلّهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس؛ ولكنّي تألّفتهما ليُسْلما، ووكلتُ جُعَيل بن سُراقة إلى إسلامه.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثني أبو عبيدة بن محمد، عن مِقْسَم أبي القاسم مولى عبدالله بن الحارث بن نوفل، قال: خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثيّ حتى أتينا عبدالله بن عمرو بن العاص وهو يطوف بالبيت معلّقاً نعْلَيه بيده، فقلنا له: هل حضرتَ رسولَ الله ﷺ حين كلّمه التميميُّ يوم حنين؟ قال: نعم، أقبل رَجُلٌ من بني تميم يقال له ذو الخُوَيْصِرة، فوقف على رسول الله ﷺ وهو يعطي الناس، فقال: يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم! فقال رسول الله: أجل؛ فكيف رأيت؟ قال: لم أركَ عدلْتَ! فغضِب رسولُ الله ﷺ، ثم قال: ويحك! إذا لم يكن العدل عندي، فعند مَنْ يكون! فقال عمر بن الخطاب: يا رسولَ الله، ألا نقتله! فقال: لا، دعوه؛ فإنه سيكون له شيعة يتعمّقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميّة، يُنْظَرُ في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القِدْح فلا يوجد شيءٌ ثم في الفُوق فلا يوجد شيء؛ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدّمَ.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي مثل ذلك؛ وسمّاه ذا الخويصِرة التميميّ.

قال أبو جعفر: وقد روي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ أنّ الذي كلّم رسول الله ﷺ بهذا الكلام؛ إنما كلّمه به في مالٍ كان عليٌّ عليه السلام بعثه من اليمن إلى رسول الله، فقسّمه بين جماعة؛ منهم عُيَينة بن حِصْن، والأقرع، وزيد الخيل؛ فقال حينئذ ما ذُكر عن ذي الخُوَيصرة أنه قاله رجل حضره.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر أنّ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ممّن شهد معه حَنيْناً، قال: والله إنّي لأسير إلى جَنْب رسولِ الله ﷺ على ناقة لي، وفي رِجْلي نَعل غليظة، إذ زحمت ناقتي ناقةَ رسول الله، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله فأوجعَه، قال: فقرَع قدمِي بالسوط، وقال: أوجعتَني فتأخّرْ عنّي، فانصرفت؛ فلمّا كان من الغد إذا رسول الله يلتمسني، قال: قلت: هذا والله لما كنت أصبتُ من رجْل رسول الله بالأمس. قال: فجئته وأنا أتوقّع، فقال لي: إنّك قد أصبتَ رجلي بالأمس فأوجعتَني فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوّضَك منها؛ فأعطاني ثمانين نعجة بالضَّرْبة التي ضربني.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخُدرِيّ، قال: لما أعطَى رسولُ الله ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَد هذا الحيّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثُرَتْ منهم القالة؛ حتى قال قائلهم: لقيَ والله رسولُ الله قومَه! فدخل عليه سعد بن عُبادة فقال: يا رسولَ الله؛ إن هذا الحيّ من الأنصار قد وجَدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبت؛ قَسَمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيّ من الأنصار شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد! قال: يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي! قال: فاجْمَعْ لي قومَك في الحظيرة، قال: فخرج سعدٌ فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، قال: فجاءَه رجالٌ من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهـم، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعدٌ فقال: قد اجتمع

لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسولُ الله ﷺ، فحمِد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهلٌ، ثم قال: يا معشرَ الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، ومَوْجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم! ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله؛ وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم! قالوا: بلَى، لله ولرسوله المنُّ والفضل! فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار! قالوا: وبماذا نُجيبُكَ يا رسول الله، لله ولرسوله المنُّ والفضلُ! قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصَدَقْتم، ولَصُدّقْتم؛ أتيْتنا مُكذَّباً فصَدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك؛ وَجَدْتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعة من الدنيا تألّفْتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضَوْن يا معشر الأنصار؛ أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالِكم! فوالذي نفس محمد بيده؛ لولا الهجرةُ لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناسُ شِعْباً وسلكت الأنصار شِعْباً، لسلكتُ شِعْب الأنصار! اللّهم ارْحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناءِ الأنصار!

قال: فبكى القوم حتى أخْضَلوا لحاهم، وقالوا: رضِينا برسول الله قِسماً وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرَّقوا.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: ثم خرجَ رسولُ الله ﷺ من الجِعْرانة معتمراً، وأمر ببقايا الفيء، فحبس بمَجَنّة، وهي بناحية مَرّ الظَّهران، فلمّا فرغ رسول الله من عُمْرته وانصرف راجعاً إلى المدينة؛ استخلف عتّاب بنَ أَسِيد على مكة، وخلف معه معَاذَ بن جبل يُفَقّهُ الناس في الدين ويعلّمهم القرآن، واتُّبع رسول الله ﷺ ببقايا الفيء.

وكانت عُمرة رسول الله في ذي القعدة، فقدم رسولُ الله ﷺ المدينة في ذي القعدة أو في ذي الحجة، وحجّ الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحجّ عليه، وحجّ تلك السنة بالمسلمين عتّاب بن أَسيد؛ وهي سنة ثمانٍ؛ وأقام أهلُ الطائف على شركهم وامتناعهم في طائفهم ما بين ذي القعدة، إذ انصرف رسول الله عنهم إلى شهر رمضان من سنة تسع.

قال الواقديّ: لمّا قسم رسولُ الله ﷺ الغنائمَ بين المسلمين بالجعرانة، أصاب كلَّ رجلٍ أربع من الإبل وأربعون شاة؛ فمن كان منهم فارساً أخذ سهم فرسه أيضاً. وقال أيضاً: قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ لليالٍ بقينَ من ذي الحجة من سفرته هذه.

قال: وفيها بعث رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جَيْفَر وعمرو ابني الجُلَنْدَى من الأَزْد مُصَدِّقاً، فخلّيا بينه وبين الصّدقة، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردَّها على فقرائهم، وأخذ الجزية من المجوس الذين بها، وهم كانوا أهل البلد، والعرب كانوا يكونون حولها.

قال: وفيها تزوّج رسولُ الله ﷺ الكِلابية التي يقال لها فاطمة بنت الضّحاك بن سفيان، فاختارت الدنيا حين خُيّرت. وقيل: إنها استعاذتْ من رسول الله، ففارقها. وذكر أن إبراهيم بن وثيمة بن مالك بن أوس بن الحدثان؛ حدّثه عن أبي وجزة السعديّ أنّ النبيّ ﷺ تزوّجها في ذي القعدة.

قال: وفيها ولدت مارية إبراهيم في ذي الحجّة، فدفعه رسول الله ﷺ إلى أمّ بُرْدة بنت المنذر بن زيد بن لبيد بن خِداش بن عامر بن غَنْم بن عديّ بن النجار، وزوْجها البَرَاء بن أوس بن خالد بن الجعد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غَنْم بن عديّ بن النجار؛ فكانت ترضعه.

قال: وكانت قابلتُها سَلْمى مولاة رسولِ الله ﷺ؛ فخرجت إلى أبي رافع فأخبرته أنها ولدت غلاماً؛ فبشّر به أبو رافع رسول الله، فوهب له مملوكاً.

قال: وغارت نساء رسول الله ﷺ، واشتدّ عليهنّ حين رزِقتْ منه الولد.

ثم دخلت سنة تسع

وفيها قَدِم وفدُ بني أسد على رسولِ الله ﷺ ـ فيما ذكر ـ فقالوا: قدِمنا يا رسول الله قبل أن ترسل إلينا رسولا، فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ. . .﴾[1] الآية.

وفيها قدم وفد بَلِيّ في شهر ربيع الأوّل، فنزلوا على رُوَيفع بن ثابت البَلَوِيّ.

وفيها قدِم وفد الداريِّين من لخْم، وهم عشرة.

وفيها قدِم ـ في قول الواقديّ ـ عُرْوة بن مسعود الثقفيّ على رسول الله ﷺ مسلماً، وكان من خبره ـ ما حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق ـ أنّ رسول الله ﷺ حين انصرف عن أهل الطائف اتّبع أثرَه عروة بنُ مسعود بن مُعتّب حتى أدركه قبل أن يصِل إلى المدينة، فأسلم؛ وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ ـ كما يتحدّث قومهم: إنهم قاتلوك؛ وعرف رسولُ الله أنّ فيهم نخوةً بالامتناع الذي كان منهم ـ فقال له عُروة: يا رسول الله، أنا أحبّ إليهم من أبكارهم ـ وكان فيهم كذلك محبَّباً مطاعاً ـ فخرج يدعُو قومَه إلى الإسلام، ورجا ألّا يخالفوه لمنزلته فيهم؛ فلما أشرف لهم على عُلَيَّة له وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموْه بالنَّبل من كلّ وجه، فأصابه سهمٌ فقتله؛ فتزعم بنو مالك أنه قتله رَجُلٌ منهم يقال له أوْس بن عوف، أخو بني سالم بن مالك، وتزعم الأحلاف أنه قتله رجلٌ منهم من بني عتّاب بن مالك، يقال له وهب بن جابر. فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ، فليس فيّ إلّا ما في الشهداءِ الذين قُتِلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فدفنوه معهم. فزعموا أنّ رسول الله ﷺ قال فيه: إن مَثَله في قومه كمثل صاحب يّس في قومه.

وفيها قدم وفدُ أهل الطائف على رسول الله ﷺ، قيل: إنهم قدموا عليه في شهر رمضان.

فحدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمّد بن إسحاق، قال: ثمّ أقامت ثَقِيف بعد قتل عُرْوة أشهُراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ألّا طاقة لهم بحرب مَنْ حَوْلهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا.

وحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عَن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عُتْبة بن المغيرة بن الأخنس بن شَرِيق الثقفيّ، أنّ عمرو بن أميّة أخا بني عِلاج كان مهاجراً لعبد ياليل بن عمرو، الذي بينهما

---

(١) سورة الحجرات: ١٧.

سَيِّءٌ ـ وكان عمرو بن أميّة من أدهى العرب ـ فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل عليه داره، ثم أرسل إليه: إن عمرو بن أمية يقول لك: اخرج إليّ، فقال عبد ياليل للرسول: ويحك! أعمرو أرسلك؟ قال: نعم، وهو ذا واقف في دارك. فقال: إنّ هذا لشيءٌ ما كنت أظنُّه! لَعَمْرو كان أمنعَ في نفسه من ذلك. فلمّا رآه رَحَّبَ به، وقال عمرو: إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هِجْرةٌ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيتَ، وقد أسلمت العربُ كلُّها، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم. فعند ذلك ائتمرت ثَقِيف بينها، وقال بعضهم لبعض: ألا ترَوْن أنه لا يأمن لكم سِرْبٌ، ولا يخرج منكم أحدٌ إلّا اقتُطِع به! فائتمروا بينهم، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجُلًا، كما أرسلوا عروة، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ـ وكان في سنّ عُروة بن مسعود ـ وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشيَ أن يُصنَع به إذا رجع كما يُصنع بعروة، فقال: لست فاعلًا حتى تبعثوا معي رجالًا، فأجمعوا على أن يبعثوا معه رجلَيْن من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فيكونوا ستة: عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دُهْمان أخو بني يَسَار، وأوس بن عوف أخو بني سالِم، ونُمَيْر بن خَرَشة بن ربيعة أخو بلحارث؛ وبعثوا من الأحلاف مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن وهب بن معتِّب وشُرَحْبيل بن غَيْلان بن سَلمة بن معتّب؛ فخرج بهم عبد ياليلَ ـ وهو نابُ القوم وصاحب أمرهم؛ ولم يخرج إلا خَشْيَةً من مثل ما صنِع بعروة بن مسعود، ليشغلَ كلُّ رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه ـ فلما دنوْا من المدينة، ونزلوا قناة لقُوا بها المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله، وكانت رِعْيتُها نُوَباً على أصحابه، فلما رآهم المغيرة ترك الركاب وضَبر يشتدُّ لِيُبَشِّرَ رسولَ الله ﷺ بقدومهم عليه، فلقيَه أبو بكر الصّديق، رضي الله عنه قبل أن يدخُل على رسول الله، فأخبره عن ركْب ثقيف أنّهم قدموا يريدون البيعة والإسلام، بأن يشرط لهم شروطاً، ويكتتبوا من رسول الله كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم. فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدّثه! ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله، فأخبره عن ركب ثقيف بقدومهم، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فرَوَّح الظَّهر معهم، وعلّمهم كيف يُحيُّون رسولَ الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهليّة.

ولما أن قدِموا على رسولِ الله ﷺ ضرب عليهم قبّة في ناحية مسجده ـ كما يزعمون ـ وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ؛ حتى اكتتبوا كتابهم؛ وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعَمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله حتى يأكل منه خالد؛ حتى أسلموا وبايعوا وفرغوا من كتابهم ـ وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدَع الطاغية؛ وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين؛ فأبى رسولُ الله ذلك عليهم؛ فما برحوا يسألونه سنة سنة، فأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدَمهم؛ فأبى أن يدَعها شيئاً يسمّى؛ وإنما يريدون بذلك فيما يُظْهِرُون أن يسلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريّهم، ويكرهون أنْ يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلَهم الإسلام ـ فأبى رسولُ الله ﷺ ذلك إلّا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها؛ وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفيَهم من الصّلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم؛ فقال رسول الله: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنُعْفيكم منه؛ وأما الصّلاة فلا خيرَ في دين لا صلاة فيه؛ فقالوا: يا محمد، أما هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة.

فلمّا أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم؛ أَمَّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص ـ وكان من أحدثِهم سنًّا ـ

وذلك أنه كان أحرصَهم على التفقه في الإسلام وتعلّم القرآن، فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله؛ إني قد رأيتُ هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلّم القرآن.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن يعقوب بن عُتْبة، قال: فلمّا خرجوا من عند رسول الله ﷺ وتوجّهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدْم الطاغية، فخرجا مع القوم؛ حتى إذا قدِموا الطائف أراد المغيرة أن يقدِّم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: ادخل أنتَ على قومك؛ وأقام أبو سفيان بماله بذي الهرْم، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمِعْوَل، وقام قومه دونه ـ بنو مُعتِّب ـ خَشْيَةَ أن يُرْمَى أو يصاب كما أصيب عُروة، وخرج نساءُ ثقيف حُسَّراً يبكين عليها، ويقلن:

أَلَا ٱبْكِيَنْ دُفَّاعْ أَسْلَمَهَا ٱلرُّضَّاعْ
لم يُحْسِنُوا المِصَاع

قال: ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس: واهاً لك! واهاً لك! فلما هدمها المغيرة أخذ مالها وحُلِيَّها وأرسل إلى أبي سفيان وحليُّها مجموع، ومالُها من الذهب والجَزْع، وكان رسول الله ﷺ أمر أبا سفيان أن يقضيَ من مال اللات ديْنَ عروة والأسود ابنيْ مسعود، فقضى منه دينْهما.

وفي هذه السنة غَزا رسولُ الله ﷺ غزوة تبوك.

ذكر الخبر عن غزوة تبوك

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: أقامَ رسولُ الله ﷺ بالمدينة بعد منصَرفه من الطائف، ما بين ذي الحجة إلى رجب.

ثم أمر النّاس بالتهيُّؤ لغزو الروم؛ فحدّثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن الزّهريّ ويزيد بن رومان وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم؛ كلٌّ قد حدّث في غزوة تبوك ما بلَغه عنها، وبعض القوم يحدّث ما لم يحدّث بعض، وكلٌّ قد اجتمع حديثه في هذا الحديث. إنّ رسولَ الله ﷺ أمـرَ أصحابه بالتهيُّؤ لغزو الرُّوم؛ وذلك في زمن عُسْرة من الناس، وشدّة من الحرّ، وجَدْب من البلاد؛ وحين طابت الثمار وأحِبّت الظلال؛ فالناس يحبُّون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسولُ الله ﷺ قلّما يخرج في غزوة إلّا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الذي يصمِد له؛ إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس لبُعْدِ الشُّقَّة وشدّة الزمان وكثرة العدوّ الذي يصمدِ له، ليتأهَّبَ الناس لذلك أهبتَه، وأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.

فتجهّز الناس على ما في أنفسهم من الكُرْه لذلك الوجه لما فيه؛ مع ما عظّموا من ذكر الرّوم وغزوهم؛ فقال رسولُ الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه ذلك للجَدّ بن قيس أخي بني سِلمة: هل لك يا جدّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أوَ تأذَنُ لي ولا تفتنّي! فوالله لقد عرف قومي ما رجلٌ أشدّ عجباً بالنساء منّي؛ وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر ألّا أصبرَ عنهنّ. فأعرض عنه رسولُ الله ﷺ وقال: قد أذنت لك؛ ففي

الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي. . .﴾(١) الآية؛ أي إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر - وليس ذلك به - فما سقط فيه من الفتنة بتخلّفه عن رسول الله والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم؛ وإن جهنم لمن ورائه.

وقال قائل من المنافقين لبعض: لا تنفِرُوا في الحرّ، زهادةً في الجهاد، وشكًّا في الحقّ، وإرْجافاً بالرسول، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. إلى قوله: ﴿جَزَاءً بما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

ثم إنّ رسول الله ﷺ جَدَّ في سفره، فأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحضَّ أهل الغِنَى على النفقة والحُمْلان في سبيل الله، ورغَّبهم في ذلك، فحمل رجال من أهل الغنى فاحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحدٌ أعظمَ من نفقته.

ثمّ إن رجالاً من المسلمين أتوْا رسولَ الله؛ وهم البكّاءُون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، فاستحْملوا رسولَ الله، وكانوا أهلَ حاجة، فقال: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾(٣). قال: فبلَغني أنّ يامين بن عُمَير بن كعب النضْريّ لقيَ أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبدالله بن مُغَفَّل، وهما يبكيان، فقال لهما: ما يُبْكيكما؟ قالا: جئنا رسولَ الله ليحمِلنا، فلم نجد عنده ما يحمِلُنا عليه، وليس عندنا ما نتقوّى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحاً فارتحلاه، وزوَّدهما شيئاً من تَمْر، فخرجا مع رسول ِ الله ﷺ.

قال: وجاءَ المُعَذِّرون من الأعراب، فاعتذروا إليه فلم يعذرهم الله عزّ وجلّ؛ وذُكِر لي أنهم كانوا من بني غِفَار، منهم خُفاف بن إيماء بن رَحْضَة.

ثم استتبَّ برسول ِ الله ﷺ سفرُه، وأجمع السير؛ وقد كان نفر من المسلمين أبطأَتْ بهم النيّة عن رسول الله حتى تخلّفوا عنه من غير شكّ ولا ارتياب؛ منهم كعب بن مالك بن أبي كعب أخو بني سلِمة، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أميّة أخو بني واقف، وأبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف؛ وكانوا نفرَ صدق لا يُتَّهمون في إسلامهم، فلمّا خرج رسولُ الله ﷺ ضرب عسكره على ثنيّة الوَدَاع، وضرب عبدالله بن أبيّ ابن سَلُول عسكره على حِدَةٍ أسفل منه بحذاء ذُبَاب؛ جبل بالجَبّانة أسفل من ثنيّة الوداع. وكان - فيما يزعمون - ليس بأقلّ العسكرين؛ فلمّا سار رسولُ الله ﷺ تخلّف عنه عبدالله بن أبيّ فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الرّيب - وكان عبدُالله بن أبيّ أخا بني عوف بن الخزرج - وعبدالله بن نَبْتَل أخا بني عمرو بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت أخا بني قَيْنُقَاع؛ وكانوا من عظماء المنافقين؛ وكانوا ممّن يكيد الإسلام وأهله.

قال: وفيهم - فيما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن البصريّ - أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ. . .﴾(٤)، الآية.

---

(١) سورة التوبة: ١٤٩.

(٢) سورة التوبة: ٨١، ٨٢.

(٣) سورة التوبة ٩٢.

(٤) سورة التوبة: ٤٨.

قال ابن إسحاق: وخلّف رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، واستخلَف على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة، أخا بني غِفار، فأرجف المنافقون بعليّ بن أبي طالب، وقالوا: ما خلّفه إلاّ استثقالاً له، وتخفّفاً منه. فلما قال ذلك المنافقون، أخذ عليٌّ سلاحَه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو بالجُرف فقال: يا نبيّ الله؛ زعم المنافقون أنّك إنّما خَلّفتني؛ أنك استثقلتَني وتخفَّفتَ منّي! فقال: كذبوا، ولكني إنما خلّفتُك لما ورائي، فارجع فاخلُفْني في أهلي وأهلِك؛ أفلا ترضَى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون بن موسى؛ إلاّ أنه لا نبيّ بعدي! فرجع عليٌّ إلى المدينة، ومضى رسولُ الله ﷺ على سفره.

ثم إنّ أبا خَيْثَمة أخا بني سالم رجع ـ بعد أن سارَ رسولُ الله ﷺ أياماً ـ إلى اهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط، قد رشّتْ كلُّ واحدة منهما عريشَها وبرَّدتْ له فيه ماءً، وهيَّأتْ له فيه طعاماً؛ فلمّا دخل فقام على باب العريشين؛ فنظر إلى امرأتيْه وما صنعتا له، قال: رسولُ الله في الضِّحِّ والريح، وأبو خيثمة في ظلال باردة وماء بارد وطعام مهيّإ وامرأة حسناء، في ماله مقيمٌ! ما هذا بالنَّصَف! ثمّ قال: والله لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتى ألحَقَ برسول الله؛ فهيئا لي زاداً؛ ففعلتَا. ثم قدّم ناضِحَه فارتحله، ثمّ خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبُوك، وقد كان أدركَ أبا خيثمة عميرُ بن وهب الجُمحيّ في الطريق، يطلب رسولَ الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دَنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعُمير بن وهب: إنَّ لي ذنباً، فلا عليك أن تَخلَّفَ عنّي حتى آتيَ رسولَ الله ﷺ. ففعل، ثم سار حتى إذا دنا من رسولِ الله ﷺ وهو نازل بتَبُوك، قال الناس: يا رسولَ الله، هذا راكب على الطريق مقبِل، فقال رسول الله: كُنْ أبا خيثمة! فقالوا: يا رسولَ الله، هو والله أبو خيثمة، فلمّا أناخ أقبلَ فسلّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسولُ الله: أَوْلَى لك يا أبا خيثمة! ثم أخبر رسولَ الله الخبر، فقال له رسولُ الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

وقد كان رسولُ الله ﷺحين مرّ بالحِجْر نزلها واستقى الناس من بئـرها، فلمّا راحـوا منها قـال رسولُ الله ﷺ: لا تشربُوا من مائها شيئاً، ولا توضؤوا منها للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنّ أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له؛ ففعل الناس ما أمرهم به رسولُ الله ﷺ إلا رجُلين من بني ساعدة؛ خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيرله، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خُنِقَ على مذهبه، وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته في جبلَيْ طيّىء، فأخبر بذلك رسولُ الله ﷺ فقال: ألم أنهكم أنْ يخرج منكم أحدٌ إلا ومعه صاحب له! ثم دعا للّذي أصيب على مذهبه فشُفِيَ، وأما الآخر الذي وقع بجبلَيْ طيّىء؛ فإنّ طيئاً هدتْهُ لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

قال أبو جعفر: والحديث عن الرجلين.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبـدالله بن أبي بكر، عن العبّـاس بن سهل بن سعد الساعديّ: فلما أصبح النّاس ـ ولا ماءَ معهم ـ شكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فـدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوَى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: قلت لمحمود بن لَبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم؛ والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه

ومن عمّه ومن عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك؛ ثم قال محمود: لقد أخبرني رجالٌ من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقُه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الماء بالحِجْر ما كان، ودعا رسولُ الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، أقبلنا عليه نقول: ويْحَك! هل بعد هذا شيء؟! قال: سحابة مارَّةٌ.

ثمّ إنّ رسولَ الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق. ضلّتْ ناقتهُ، فخرج أصحابُه في طلَبها، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أصحابه، يقال له عُمارة بن حزم، وكان عَقبيًّا بدريًّا، وهو عمّ بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن لُصَيْب القَيْنُقاعي، وكان منافقاً، فقال زيد بن لُصَيب وهو في رحل عُمارة، وعُمارة عند رسول الله ﷺ: أليس يزعم محمد أنه نبيّ يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته! فقال رسولُ الله ﷺ ـ وعمارة عنده: إن رجلًا قال: إنّ محمداً هذا يخبركم أنه نبـي ، وهو يزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته! وإني والله ما أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في الوادي من شِعْب كذا وكذا قد حبستْها شجرة بزمامها، فانطلِقوا حتى تأتُوا بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عُمارة بن حزم إلى أهله، فقال: والله لِعجبٌ من شيء حدّثناه رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه كذا وكذا ـ للذي قال زيد بن اللُّصَيب ـ. فقال رجُلٌ ممن كان في رحْل عمارة، ولم يحضر رسول الله: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتيَ. فأقبل عمارة على زيد يجَأ في عنقه، ويقول: يا عباد الله، والله إنّ في رَحْلي لداهية وما أدري! اخرج يا عدوّ الله من رحلي فلا تصحَبْني! قال: فزعم بعضُ الناس أنّ زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض: لم يزل مُتّهماً بشرّ حتى هلك.

ثم مضى رسولُ الله ﷺ سائراً؛ فجعل يتخلّف عنه الرجل فيقولون: يا رسولَ الله، تخلّف فلان، فيقول: دعوه، فإن يكُ فيه خير فسيُلْحِقه الله بكم، وإنْ يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه؛ حتى قيل: يا رسول الله، تخلّف أبو ذرّ وأبطأ به بعيره؛ فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم، وإن يَكُ غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه.

قال: وتلوّم أبو ذرّ على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعَه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً، ونزل رسولُ الله في بعض منازله، فنظره ناظرٌ من المسلمين، فقال: يا رسولَ الله، إنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسولُ الله ﷺ: كن أبا ذرّ! فلمّا تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو أبو ذرّ! فقال رسولُ الله ﷺ: يرحم الله أبا ذرّ! يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعث وحده.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بُرَيْدة بن سفيان الأسلميّ، عن محمّد بن كعب القُرظيّ، قال: لما نفى عثمان أبا ذرّ نزل أبو ذرّ الرّبَذَة، فأصابه بها قَدَرُه، ولم يكن معه أحدٌ إلّا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن غَسِّلاني وكَفِّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأوّل ركْب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، فأقبل عبد الله بن مسعود ورهطٌ من أهل العراق عُمّاراً، فلم يَرُعْهم إلّا بجنازة على الطريق قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله، فأعينونا على دفنه. قال: فاستهلّ عبدُ الله بن مسعود يبكي، ويقول: صدق رسول الله! تمشي وحدَك، وتموت وحدك، وتُبْعث وحدك! ثم نزل هو وأصحابه فوارَوْه.

ثمّ حدّثهم ابن مسعود حديثه وما قال له رسول الله في مسيره إلى تبوك.

قال: وقد كان رهط من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشْجَع حليفٌ لبني سلِمة، يقال له مَخشيّ بن حُمَيِّر، يسيرون مع رسولِ الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم! والله لكأنّي بكم غداً مُقَرَّنين في الحبال؛ إرْجَافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشيّ بن حميِّر: والله لَوَددْتُ أنّي أقاضَى على أن يُضرب كلّ رجل منّا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن يُنزِل الله فينا قرآناً لمقالتكم هذه. وقال رسولُ الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ لعمّار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلْهم عمّا قالوا؛ فإن أنكروا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا. فانطلق إليهم عمّار فقال لهم ذلك؛ فأتوْا رسولَ الله يعتذرون إليه، فقام وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبِها: يا رسولَ الله، كنّا نخوض ونلعب؛ فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[1]. وقال مخشيّ بن حميِّر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي؛ فكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية مخشيّ بن حميِّر؛ فسمّي عبد الرحمن، وسأل الله أنْ يقتله شهيداً لا يُعلَم مكانه، فقُتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر. فلما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى تبوك، أتاه يُحَنّه بن رُؤبة، صاحب أيلَة، فصالح رسولَ الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأهل جَرْباء وأذْرُح أعطوْه الجزية، وكتب رسولُ الله ﷺ لكلٍّ كتاباً، فهو عندهم.

ثم إنّ رسولَ الله ﷺ دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكَيْدِر دومة ـ وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كِنْدة، كان ملكاً عليها، وكان نصرانيًّا ـ فقال رسولُ الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر، فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمِرة صائفة، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحُكّ بقرونها باب القصر، فقالت امرأته: هل رأيتَ مثل هذا قطّ! قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأسْرِج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخٌ له يقال له حسان، فركب، وخرجوا معه بمطاردهم؛ فلمّا خرجوا تَلَقّتهم خيلُ رسولِ الله ﷺ فأخذتْه، وقتلوا أخاه حسّان، وقد كان عليه قَباء له من ديباج مُخوّص بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أنس بن مالك؛ قال: رأيتُ قَباء أكيدر حين قُدِم به إلى رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم، ويتعجّبون منه، فقال رسول الله : أتَعْجَبون مِنْ هذا! فوالذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسنُ من هذا!

حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: ثمّ إن خالداً قدم بأكيدِر على رسولِ الله ﷺ، فحقن له دَمَه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيلَه، فرجع إلى قريته.

رجع الحديث إلى حديث يزيد بن رومان الذي في أول غزوة تَبُوك. قال: فأقام رسولُ الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، ثم انصرَف قافلاً إلى المدينة، فكان في الطريق ماء يخرج من وَشَلٍ ما يرْوِي الراكبَ والراكبَيْن والثلاثة، بوادٍ يقال له وادي المُشقّق، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ سبقنا إلى ذلك الماء فلا يَسْتَقِيَنَّ منه شيئاً حتى نأتيَه. قال: فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين فاستقوْا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم يَرَ فيه

(١) سورة التوبة: ٦٥.

شيئاً؛ فقال: مَنْ سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: يا رسول الله، فلان وفلان، فقال: أوَ لم نَنْهَهم أن يستقُوا منه شيئاً حتى نأتيه! ثم لعنهم رسولُ الله، ودعا عليهم. ثمّ نزل ﷺ، فوضع يده تحت الوَشَل، فجعل يصبّ في يده ما شاء الله أن يصبّ، ثم نضحه به ومسحه بيده ودعا رسولُ الله ﷺ بما شاء الله أن يدعوَ، فانخرق من الماء ـ كما يقول مَنْ سمعه: إن له حِسًّا كحسّ الصواعق؛ فشرب الناس واستقوْا حاجتهم منه، فقال رسولُ الله ﷺ: مَنْ بَقِيَ مِنكم لَيسمعنّ بهذا الوادي؛ وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه. ثمّ أقبل رسولُ الله ﷺ حتى نزل بذي أوَان؛ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار؛ وكان أصحاب مسجد الضِّرار قد كانوا أتوْه وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله؛ إنا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المَطِيرة والليلة الشاتية، وإنا نحبّ أن تأتيَنا فتصلّي لنا فيه. فقال: إنّي على جَنَاح سَفَرٍ، وحال شغل ـ أو كما قال رسول الله ـ ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا لكم فيه؛ فلما نزل بذي أوَان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالكَ بن الدُّخشم، أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عديّ ـ أو أخاه عاصم بن عديّ أخا بني العَجْلان ـ فقال: انـطلقا إلى المسجد الظالم أهلُه فاهدِماه وحرِّقاه؛ فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف؛ وهم رهط مالك بن الدُّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرْني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله، فأخذ سَعَفاً من النّخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقاه، وهدماه وتفرّقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِين﴾(١)، إلى آخر القصة.

وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خِذام بن خالد، من بني عُبَيد بن زيد؛ أحد بني عمرو بن عوف ـ ومن داره أخرج مسجد الشقاق ـ وثعلبة بن حاطب من بني عـبيد ـ وهو إلى بني أمية بن زيد، ومُعتّب بن قُشَيْر من بني ضُبَيْعة بن زيد، وأبو حَبيبة بن الأزعر من بني ضُبيعة بن زيد، وعبّاد بن حُنيْف، أخو سهل بن حُنيْف من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه مجمّع بن جارية وزيد بن جارية، ونَبْتَل بن الحارث، من بني ضُبَيعة، وبحزَجَ ـ وهو إلى بني ضُبيعة ـ وبجاد بن عثمان ـ وهو من بني ضُبيعة ـ ووديعة بن ثابت وهو إلى بني أميّة رهط أبي لُبابة بن عبد المنذر.

قال: وقدم رسولُ الله ﷺ المدينة ـ وقد كان تخلّف عنه رهط من المنافقين، وتخلّف أولئك الرّهط من المسلمين من غير شكّ ولا نفاق: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية ـ فقال رسول الله ﷺ: لا يكلّمن أحدٌ أحداً من هؤلاء الثلاثة، وأتاه مَنْ تخلّف عنه من المنافقين، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، فصفح عنهم رسول الله ولم يعذرْهم الله ولا رسوله، واعتزل المسلمون كلامَ هؤلاء الثلاثة النفر، حتى أنزل الله عزّ وجلّ قوله: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾(١)، فتاب الله عليهم.

قال: وقدِم رسول الله ﷺ المدينة من تَبُوك في شهر رمضان. وقدِم عليه في ذلك الشهر وفْد ثَقِيف، وقد مضى ذكر خبرهم قبل.

قال: وفي هذه السنة ـ أعني سنة تسع ـ وجّه رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في سريّة إلى

---

(١) سورة التوبة: ١٠٧.

(٢) سورة التوبة: ١١٧ ـ ١١٩.

بلاد طيّىء في ربيع الآخر، فأغار عليهم، فسبّى وأخذ سيفين كانا في بيتِ الصنم، يقال لأحدهما: رَسُوب، وللآخرِ المخذَم؛ وكان لهما ذِكْر،كان الحارث بن أبي شِمر نَذَرهما له، وسَبَى أخت عديّ بن حاتم.

قال أبو جعفر: فأما الأخبار الواردة عن عديّ بن حاتم عندنا بذلك فبغير بيان وقت، وبغير ما قال الواقديّ في سبي عليّ أختَ عديّ بن حاتم.

حدّثنا محمد بن المثنى، قال: حدّثنا محمد بن جعفر، قال: حدّثنا شعبة، قال: حدثنا سماك، قال: سمعت عَبّاد بن حُبَيْش يحدّث عن عديّ بن حاتم، قال: جاءت خيلُ رسول الله ﷺ ـ أو قال: رسلُ رسول الله ـ فأخذوا عمّتي وناساً فأتوْا بهم النبي ﷺ. قال: فصُفّوا له. قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، نأى الوافد، وانقطع الوالد؛ وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة؛ فمنّ عليّ مَنَّ الله عليك يا رسول الله! قال: ومن وَافِدُك؟ قالت: عديُّ بن حاتم، قال: الذي فرّ من الله ورسوله! قالت: فمَنَّ عليّ ـ وَرَجُل إلى جنبه تَرى أنه عليٌّ عليه السلام، قال: سلِيه حُمْلاناً ـ قال: فسألته، فأمر بها فأتتني، فقالت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها! قالت: ائتِه راغباً وراهباً، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه. قال: فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان ـ أو صبيّ ـ فذكر قربهم من النبيّ ﷺ ـ فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال لي: يا عَدِيّ بن حاتم، ما أفرّك أن يقال لا إله إلا الله! فهل من إله إلا الله! وما أفرّك أن يُقال الله أكبر! فهل من شيء هو أكبر من الله! فأسلمتُ فرأيتُ وجهَه استبشر.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن شَيْبان بن سعد الطائيّ، قال: كان عديّ بن حاتم طيّىء يقول فيما بلغني: ما رجل من العرب كان أشدّ كراهيَةً لرسول الله حين سمع به منّي؛ أمّا أنا فكنتُ آمرأ شريفاً، وكنتُ نصرانيّاً أسيرُ في قومي بِالمرْباع، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملِكاً في قومي، لما كان يُصنع بي، فلمّا سمعتُ برسول الله كرهْتُه، فقلت لغلام كان لي عربيّ وكان راعياً لإبلي: لا أبالك! أعدِدْ لي من إبلي اجمالاً ذُلُلاً سِمانا مَسَانٌ، فـاحبسها قريباً منّي؛ فإذا سمعتَ بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذنّي، ففعل. ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عديّ؛ ما كنت صانعاً إذا غَشِيَتْك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيتُ رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد، قال: فقلت: قَرّبْ لي جمالي، فقرّبها، فاحتملتُ بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحقُ بأهلِ ديني من النّصارى بالشأم، فسلكت الحوشيّة وخلّفت ابنةَ حاتم في الحاضر، فلما قدمتُ الشأم أقمت بها، وتُخالفني خيلٌ لرسول الله ﷺ فتصيبُ ابنةَ حاتم فيمن أصيب. فقُدِم بها على رسول الله في سبايا طيّىء، وقد بلغ رسولَ الله ﷺ هَرَبي إلى الشأم. قال: فجُعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا يُحْبَسن بها، فمرّ بها رسولُ الله ﷺ فقامت إليه ـ وكانت امرأةً جَزْلَةً ـ فقالت: يا رسولَ الله؛ هلك الوالد، وغاب الوافد، فامننْ عليَّ مَنَّ الله عليك! قال: ومَنْ وافدك؟ قالت: عديُّ بن حاتم، قال: الفارُّ من الله ورسوله! قالت: ثم مضى رسولُ الله ﷺ وتركني؛ حتى إذا كان الغد مرّ بي وقد أيِستُ، فأشار إليَّ رجلٌ من خَلْفه: أن قومي إليه فكلّميه، قالت: فقمتُ إليه، فقلت: يا رسولَ الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامننْ عليَّ مَنَّ الله عليك، قال: قد فعلتُ فلا تعجلي بخروجٍ حتى تجدِي من قومك مَنْ يكون لك ثقة حتى يبلّغك إلى بلادك ثم آذنيني. قالت: فسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن كلّميه فقيل: عليّ بن أبي طالب. قالت: وأقمت حتى قدم ركبٌ من بَلِيّ ـ أو من قضاعة ـ قالت: وإنما أريد أن آتيَ أخي بالشأم، قالت: فجئت رسول الله ﷺ،

فقلت: يا رسولَ الله، قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني رسولُ الله ﷺ، وحملني وأعطاني نفقةً، فخرجت معهم حتى قدِمْت الشأم.

قال عديّ، فوالله، إنّي لقاعدٌ في أهلي إذ نظرت إلى ظَعينة تُصَوّبُ إليّ تَؤمّنا. قال: فقلت: ابنة حاتم! قال: فإذا هي هي؛ فلما وقفتْ عليّ انسحلَتْ تقول: القاطع الظالم! احتملتَ بأهلك وولدك، وتركت بُنَيّة والدك وعَوْرَتَهُ! قال: قلت: يا أخيّة، لا تقولي إلا خيراً، فوالله مالي عذر، لقد صنعت ما ذكرت. قال: ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمةً: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرَى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبيًّا فالسابق إلَيه له فضيلة، وإن يكن ملِكاً فلن تذلَّ في عزّ اليمن وأنت أنت! قلتُ: واللهِ إن هذا للرّأي. قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده فسلّمت عليه، فقال: مَنِ الرجل؟ فقلت: عديُّ بن حاتم، فقام رسولُ الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامِدٌ بي إذ لَقِيَتْهُ امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفَتْه، فوقف لها طويلاً تكلّمه في حاجتها. قال: فقلت في نفسي: والله ما هذا بملِك، ثم مضى رسولُ الله حتى دخل بيته، فتناول وسادةً من أدَم محشُوَّةً لِيفاً، فقذفها إليّ، فقال لي: اجلس على هذه، قال: قلت: لا بل أنت، فاجلس عليها. قال: لا بل أنت، فجلستُ وجلس رسولُ الله ﷺ بالأرض. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملِك، ثم قال: إيه يا عدّي بن حاتم! ألم تك رَكُوسِيا! قال: قلت: بلى، قال: أوَ لم تكن تسير في قومك بالمِرْباع! قال: قلت: بلى، قال: فإنّ ذلك لم يكن يحلّ لك في دينك، قال: قلت: أجلْ والله ـ وعرفت أنه نبيُّ مرسل يعلم ما يُجهل ـ قال: ثمّ قال: لعلّه يا عديّ بن حاتم؛ إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم! فوالله ليوشِكَنَّ المال يفيض فيهم حتى لا يُوجَد مَنْ يأخذه؛ ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم، فوالله لَيوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرُجُ من القادسيّة على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلا الله؛ ولعلّه إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أنّ المُلك والسلطان في غيرهم، وايمُ الله ليوشكَنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت. قال: فأسلمت، فكان عَدِيُّ بن حاتم يقول: مضت الثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكوننّ قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتِحت، ورأيت المرأة تَخرج من القادسيّة على بعيرها لا تخاف شيئاً حتى تحجّ هذا البيت. وايمُ الله لتكونَنّ الثالثة ليفيضَنَّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

قال الواقديّ: وفيها قدم على رسول الله ﷺ وفد بني تميم، فحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر، قالا: قدِم على رسول الله ﷺ عُطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدَس التميميّ في أشراف من تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزّبرقان بن بدر التَّميميّ ثمّ أحد بني سعد، وعمرو بن الأهتم، والحُتات بن فلان، ونعيم بن زيد، وقيس بن عاصم أخو بني سعد، في وفد عَظِيم من بني تميم، معهم عُيينة بن حصن بن حُذيفة الفزاريّ ـ وقد كان الأقرع بن حابس وعُيينة بن حصْن شهدا مع رسولِ الله ﷺ فتح مكة وحصار الطائف، فلمّا وفد وفد بني تميم كانا معهم ـ فلمّا دخل وفد بني تميم المساجد، نادَوْا رسولَ الله ﷺ من وراء الحُجُرات: أن اخرج إلينا يا محمد. فآذى ذلك من صياحهم رسولَ الله ﷺ؛ فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جئناك لنفاخرَك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: نعم، أذنت لخطيبكم فليقلْ. فقام إليه عُطارد بن حاجب، فقال: الحمدُ لله الذي له علينا الفَضْل وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره

عُدَّةً، فمن مثلُنا في الناس! ألسْنابرؤوس الناس وأولي فضلهم! فمن يفاخرنا فليعدّد مثل ما عدّدنا؛ وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام؛ ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا؛ وإنا نُعرف. أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضلَ من أمرنا، ثم جلس. فقال رسولُ الله ﷺ لثابت بن قيس بن شمّاس أخي بلحارث بن الخزرج: قمْ فأجب الرجل في خطبته.

فقام ثابت، فقال: الحمدُ لله الذي السمواتُ والأرضُ خَلْقُه، قضى فيهنّ أمره، وَوسِعَ كُرْسيه علمه، ولم يك شيء قطّ إلاّ من فضله. ثم كان من قدرته أنْ جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمهم نَسَباً، وأصْدَقهم حَدِيثاً، وأفضلهم حَسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خَلْقِه؛ فكان خِيرَةَ الله من العالمين، ثم دعا الناسَ إلى الإيمان، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رَحِمِه؛ أكرم الناس أنساباً، وأحسن الناس وجوهاً؛ وخير الناس فعالاً؛ ثم كان أوّل الخلق إجابةً ـ واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ ـ نحنُ؛ فنحنُ أنصارُ الله ووُزراء رسوله، نقَاتِل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله وَدَمَه، ومَنْ كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يَسِيراً، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين وللمؤمنات؛ والسلام عليكم.

قالوا: يا محمد، ائذَنْ لشاعرنا، فقال: نعم، فقام الزِّبرقان بن بدر فقال:

نَحْنُ الكِرامُ فلاَ حَيٌّ يُعادِلُنا ... منَّا الملوكُ وفينَا تُنصَبُ البِيَعُ
وكَم قَسَرْنا من الأحياء كلِّهم ... عند النِّهابِ وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبعُ
ونحن نُطْعم عند القَحْطِ مطعَمنا ... مِنَ الشِّواءِ إذا لم يُؤنَس القَزَعُ
ثم ترى الناسَ تأتينا سَرَاتُهمُ ... من كلِّ أرضٍ هوِيًّا ثمَّ نَصْطَنعُ
فَنَنْحَرُ الكُومَ عَبْطاً في أرُومَتِنا ... لِلنَّازِلِينَ إذا ما أنزلوا شَبِعُوا
فلاَ تَرانا إلَى حَيّ نُفاخِرُهمْ ... إلا اسْتَقَادُوا وكادَ الرَّأسُ يُقْتَطعُ
إنا أبَيْنا ولَنْ يأبَى لنا أحدٌ ... إنا كَذلِكَ عند الفَخْرِ نَرْتَفِعُ
فَمنْ يُقَادِرنَا في ذاكَ يعْرِفنا ... فيرجِع القَوْل والأخبارُ تُسْتَمَعُ

وكان حسّان بن ثابت غائباً، فبعث إليه رسول الله ﷺ، قال حسان: فلمّا جاءني رسولُه فأخبرني أنه إنما دَعَاني لأجيبَ شاعر بني تميم، خرجتُ إلى رسول الله، وأنا أقول:

مَنعَنا رسولَ اللهِ إذْ حَلَّ وَسْطَنا ... على كلِّ باغٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ
منعْنَاه لمّا حَلَّ بين بُيُوتنا ... بأسْيافنا من كلِّ عادٍ وظَالِمِ
ببَيْتٍ حَرِيدٍ عِزُّه وثَرَاؤُه ... بجابِيَةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأعاجِمِ
هَلِ المَجْد إلا السُّؤدُد العَوْد والنَّدَى ... وَجَاهُ الملوكِ وَاحتمالُ العَظَائم!

قال: فلما انتهيتُ إلى رسولِ الله ﷺ وقام شاعر القوم، فقال ما قال، عرضتُ في قوله وقلت على نحوِ مما قال؛ فلما فرغ الزِّبرقان بن بدر من قوله قال رسولُ الله ﷺ لحسّان: قم يا حسّان فأجب الرجل فيما قال، قال: فقال حسان:

إنَّ الذَّوائِبَ من فِهْرٍ وَإخْوتِهم ... قد بيَّنُوا سُنَّة لِلنَّاسِ تُتبَعُ

يَرْضَى بها كلُّ مَن كانت سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الإلٰه وكلُّ الخير يُصْطَنَعُ
قومٌ إذا حَارَبوا ضَرُّوا عَدُوَّهمُ أو حَاوَلُوا النَّفْعَ في أشياعهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تلك منهم غير مُحْدَثَةٍ إنَّ الخلائق فاعلم شَرُّها البِدَعُ
إنْ كانَ في الناس سَبَّاقونَ بَعْدَهُمُ فكلُّ سَبْقٍ لأدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لاَ يَرْفَعُ الناسُ ما أوْهَتْ أكُفُّهمُ عند الدِّفاعِ وَلاَ يُوهُونَ ما رَقَعُوا
إنْ سابَقوا الناسَ يَوْماً فازَ سَبْقُهُمُ أَوْ وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بالنَّدَى مَتَعُوا
أعِفَّةٌ ذكِرَتْ في الوَحْيِ عِفَّتُهمْ لا يَطْبَعونَ وَلا يُرْدِيهِمُ طَمَعُ
لاَ يَبْخَلونَ على جَارٍ بِفَضْلِهِمُ وَلا يَمَسُّهُم من مَطْمَعٍ طَبَعُ
إذَا نَصَبْنَا لِحَيٍّ لم نَدِبّ لهم كما يَدِب إلَى الوَحْشِيَةِ الذَّرَعُ
نَسْمو إذَا الحَرْبُ نالَتْنا مَخَالِبُها إذَا الزَّعَانِفُ من أظْفَارِها خَشَعُوا
لاَ فَخْرَ إن هُمْ أصابوا من عَدوِّهِم وَإِنْ أُصيبوا فلاَ خُورٌ ولا هُلُعُ
كَأنهمْ في الوَغَى والموْتُ مُكْتَنِعٌ أُسْدٌ بحَلْيَةَ في أرْسَاغِها فَدَعْ
خذْ منهمُ ما أتوا عَفْواً إذا غَضِبُوا ولا يكن همَّكَ الأمرُ الذي مَنَعوا
فإنّ في حربهم - فاتْرُكْ عَدَاوَتهمْ شَرّاً يُخَاضُ عليه السّمُّ والسلَعُ
أكْرِمْ بقومٍ رسول الله شِيعَتهم إذا تَفَرَّقَتِ الأهواءُ والشِّيَعُ
أهدى لهم مِدْحَتِي قَلْبٌ يُوازره فيما أحَبَّ لسانٌ حائكٌ صَنَعُ
فإنهمْ أفضَلُ الأحيَاء كلّهمُ إنْ جَدَّ بالناسِ جِدُّ القوْلِ أو شَمَعُوا

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقْرعُ بن حابس: وأبي إنّ هذا الرجلَ لمُؤتّى له! لخَطيبهُ أخطب من خطيبنا، ولشَاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلمّا فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسولُ الله ﷺ فأحْسَنَ جوائزهم - وكان عمرو بن الأهتم قد خلَّفه القوم في ظهرهم - فقال قيس بن عاصم - وكان يُبغِض عمرو بن الأهتم: يا رسولَ الله؛ إنه قد كان منّا رجلٌ في رحالنا وهو غلام حَدَثٌ، وأزري به. فأعطاه رسولُ الله ﷺ مثلَ ما أعطى القوم؛ فقال عمرو بن الأهتم حين بلغه ذلك من قول قيس بن عاصم، وهو يهجوه:

ظَلِلْتَ مُفْتَرِشاً هَلباكَ تَشْتِمُني عند الرسولِ فلم تَصدُقْ ولم تُصِبِ
إنْ تُبْغِضُونا فَإنَّ الرُّومَ أصْلكُمُ وَالرُّوم لا تملِك البغضاءَ لِلعَربِ
سُدْنا فسؤددنا عَوْدٌ وسُؤدَدُكمْ مُؤَخَّرٌ عند أصلِ العَجْبِ والذَّنَبِ

حدثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان، قال: فأنزل الله فيهم القرآن: ﴿ إنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ - من بني تميم - ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون ﴾[١]؛ قال: وهي القراءة الأولى.

قال الواقديّ: وفيها مات عبدُ الله بن أبيّ ابن سَلُول، مرِضَ في ليال بقِينَ من شوال، ومات في ذي القَعْدة، وكان مرضه عشرين ليلة.

(١) سورة الحجرات: ٤.

قال: وفيها قدم على رسولِ الله ﷺ كتابُ ملوكِ حِمْيَرَ في شهر رمضان مُقرين بالإسلام؛ مع رسولهم الحارث بن عبد كُلَال ونعيم بن عبد كُلَال، والنعمان قَيْل ذي رُعَيْن.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: قدم علَى رسول الله ﷺ كتابُ ملوكِ حميرَ مَقْدَمهُ من تَبُوك ورسولهم إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كِلال ونعيم بن عبد كُلال، والنعمان قَيْل ذي رُعَين، وهَمْدان ومَعافِر؛ وبعث إليه زُرْعة ذو يَزَن مالكَ بن مُرّة الرَّهاويّ بإسلامه، ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب إليهم رسولُ الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبيّ رسولِ الله إلى الحارث بن عبد كُلال ونعيم بن عبد كُلال والنعمان قَيْل ذي رُعَين وهَمْدان ومَعافر؛ أما بعد ذلكم؛ فإني أحمَد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعدُ؛ فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلَنَا من أرض الرّوم، فلقينا بالمدينة، فبلّغ ما أرسَلْتم، وخبَّرَ ما قبلَكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين؛ وإنّ الله قد هداكم بهدايته، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة؛ وأعطيتم من المغانم خُمس الله، وسهم نبيّه وصفيّه؛ وما كُتِب على المؤمنين من الصّدقة من العَقار عُشْرُ ما سَقَت العين وما سَقَت السماءُ، وكلّ ما سُقِي بالغَرْب نصف العُشْر، وفي الإبل في الأربعين ابنة لَبون، وفي ثلاثين من الإبل ابنُ لبون ذكرٌ، وفي كلّ خمس من الإبل شاة، وفي كلّ عشر من الإبل شاتان، وفي كلّ أربعين من البقر بقرةٌ، وفي كلّ ثلاثين من البقر تَبيعٌ؛ جَذَعٌ أو جَذَعَة، وفي كلّ أربعين من الغنم سائمة وحدَها، شاة. وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة؛ فمن زاد خيراً فهو خيرٌله، ومَنْ أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين؛ فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم؛ وله ذمّة الله وذمة رسوله. وإنه مَنْ أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ فإنّ له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومَنْ كان على يهوديّته أو نصرانيّته فإنه لا يفتَنُ عنها، وعليه الجزية؛ على كلّ حالمِ ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد؛ دينار وافٍ أو قيمته من المَعافر أو عرْضُهُ ثياباً؛ فمن أدّى ذلك إلى رسول الله؛ فإنّ له ذمة الله وذمة رسوله، ومَنْ منعه فإنه عدوٌ لله ولرسوله.

أما بعد؛ فإنّ رسولَ الله محمداً النبيّ أرسلَ إلى زُرْعة ذي يَزن أن إذا أتتكم رُسُلي فأوصِيكم بهم خيراً: مُعاذ بن جَبل، وعبد الله بن زيد ومالك بن عُبادة، وعُقْبة بن نَمِر، ومالك بن مُرّة وأصحابهم؛ وأنِ اجْمَعُوا ما عندكم من الصدقة والجِزْية من مخالِفيكم وبلّغوها رُسُلي، وإنّ أميرهم معاذ بن جبل؛ فلا ينقلبنّ إلاّ راضياً.

أما بعد؛ فإنّ محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله؛ ثم إن مالك بن مرة الرُّهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أوّل حمير، وقتلت المشركين فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيْراً، ولا تَخُونُوا ولا تخذلوا فإن رسولَ الله مولى غنيّكم وفقيركم؛ وإنّ الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لأهله؛ وانما هي زكاة يتزكّى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السبيل، وإنّ مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً، وإني قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولي ديني، وأولِي علمهم، فآمركم بهم خيراً فإنه منظور إليهم؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال الواقديّ: وفيها قدمَ وفْدُ بَهْراء على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر رجلًا، ونزلوا على المقداد بن عمرو.

قال: وفيها قدم وفد بني البَكّاء.

وفيها قدم وفد بني فزارة؛ وهم بضعة عشر رجلا فيهم خارجة بن حصن.

قال: وفيها نَعى رسولُ الله ﷺ للمسلمين النجاشيَّ، وأنه مات في رجب سنة تسع.

قال: وفيها حجّ أبو بكر بالناس ثم خرج أبو بكر من المدينة في ثلاثمائة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بَدَنَة، وساق أبو بكر خمس بدنَات. وحجّ فيها عبد الرحمن بن عوف وأهدى.

وبعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام على أثر أبي بكر رضي الله عنه؛ فأدركه بالعَرْج، فقرأ عليّ عليه براءة يوم النحر عند العقبَة. فحدّثني محمد بن الحُسين، قال: حدّثنا أحمد بن المُفضَّل، قال: حدّثنا أسباط؛ عن السّديّ، قال: لما نزلت هذه الآيات إلى رأس الأربعين - يعني من سورة براءة - فبعث بهنّ رسول الله مع أبي بكر، وأمَّره على الحجّ، فلما سار فبلغ الشجرة من ذي الحُلَيْفة أتبعه بعليّ، فأخذها منه؛ فرجع أبو بكر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، بأبي أنت وأمي! أنزَل في شأني شيءٌ؟ قال: لا ولكن لا يبلّغ عني غيري أو رجل منّي. أما ترضى يا أبا بكر أنك كنتَ معي في الغار، وأنك صاحبي على الحوض! قال: بلَى يا رسول الله. فسار أبو بكر على الحجّ، وسار عليٌّ يُؤذِن، فقام يوم الأضْحَى فآذن فقال: لا يقرَبنّ المسجد الحرام مشرِك بعد عامه هذا، ولا يطوفَنّ بالبيت عُريان، ومَنْ كان بينه وبين رسول الله عهد فله عهده إلى مدّته، وإنّ هذه أيام أكل وشرب، وإن الله لا يُدخِل الجنة إلاّ مَنْ كان مسلماً. فقالوا: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمّك إلاّ من الطعن والضرب.

فرجع المشركُون فلام بعضهم بعضاً، وقالوا: ما تصنعون وقد أسْلَمَتْ قريش! فأسلموا.

حدّثني الحارث بن محمد، قال: حدّثنا عبد العزيز بن أبان، قال: حدّثنا أبو معشَر، قال: حدّثنا محمد بن كعب القرَظيّ وغيره، وقالوا: بعث رسولُ الله ﷺ أبا بكر أميراً على المَوْسِم سنة تسع، وبعث عليّ بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من « براءة »، فقرأها على الناس، يؤجّل المشركين أربعة أشهر يَسِيحون في الأرض، فقرأ عليهم براءة يوم عرفة، أجّل المشركين عشرين يوماً فمن ذي الحجّة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، ولا يحجّنّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عُريان.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة فُرضت الصدقات، وفَرَّقَ فيها رسول الله ﷺ عُمّاله على الصدقات.

وفيها نزل قوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾[1]؛ وكان السبب الذي نزل ذلك به قصّة أمر ثعلبة بن حاطب، ذكر ذلك أبو أمامة الباهلي.

قال الواقديّ: وفي هذه السنة ماتت أمّ كلثوم ابنة رسولِ الله ﷺ في شعبان، وغسلَتْها أسماء بنت عُمَيس وصفية بنت عبد المطلب. قال: وقيل غسلتْها نسوة من الأنصار، فيهنّ امرأة يقال لها أم عطية، ونزل في حفرتها أبو طلحة.

قال: وفيها قدم وفد ثعلبة بن منقذ.

وفيها قدم وفد سعد هُذَيْم. حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: حدّثني سلَمة بن كُهيل ومحمد بن الوليد بن نويفع، عن كُرَيب مولى ابن عبّاس، عن عبد الله بن عبّاس، قال: بعث بنو سَعْد بن بكر ضِمَامَ بن ثعلبة إلى رسولِ الله ﷺ، فقدم عليه؛ فأناخ بعيرَه على باب المسجد ثم عَقَله، ثم

---

(١) سورة التوبة ١٠٣.

دخل المسجد ورسولُ الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام بن ثعلبة رجلاً جَلْداً أشعر ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟ قال: رسولُ الله: أنا ابن عبد المطلب، قال: محمد؟ قال: نعم، قال: يا بن عبد المطلب، إني سائلك ومُغْلِظٌ لك في المسألة، فلا تَجِدَنّ في نفسك! قال: لا أجِد في نفسي، فسَلْ عمّا بدا لك، قال: أنشدُك بالله إلَهك وإله مَن كان قبلك وإلهِ مَنْ هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولا؟ قال: اللهمّ نعم، قال: فأنشدك بالله إلهك وإله مَنْ كان قبلك وإله مَنْ هو كائن بعدك، آلله أمَرَك أن تأمرنا أن نَعْبدُه وَحْدَه، ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا تعبد من دونه؟ قال: اللهمّ نعم، قال: فأنشدك بالله إلهك وإله مَنْ كان قَبْلَك وإله مَنْ هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نُصَلِّيَ هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهمّ نعم. قال: ثم جعل يذكر فرائضَ الإسلام فريضة فريضة؛ الزكاة، والصيام، والحجّ، وشرائع الإسلام كلّها، يناشده عن كلّ فريضة كما ناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتَني عنه، ثم لا أنقصُ ولا أزيد. ثم انصرف إلى بعيره راجعاً. فقال رسولُ الله ﷺ حين ولّى: إن صدق ذو العَقِيصَتَيْن يدخل الجنة. قال: فأتى بعيرَه فأطلق عِقَاله، ثم خرج حتى قدِم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أوّل ما تكلم به أن قال: باستِ اللات والعزّى! قالوا: مَهْ يا ضِمام! اتّق البرصَ، اتّق الجذام، اتّق الجنون! قال: وَيْحكم، إنهما والله لا ينفعان ولا يضرّان؛ إن الله قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتاباً، استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له؛ وأن محمداً عبده رسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

قال: فوالله ما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً. قال: يقول ابن عباس: فما سمعنا بوافِدِ قومٍ كان أفضَل من ضِمام بن ثعلبة.

ثم دخلت سنة عشر

قال أبو جعفر: فبعث فيها رسول الله ﷺ خالدَ بن الوليد في شهر ربيع الآخر ـ وقيل في شهر ربيع الأول، وقيل في جَمادى الأولى ـ سريّةً في أربعمائة إلى بني الحارث بن كعب.

فحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني ابنُ إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد في شهر ربيع الآخر، أو في جمادى الأولى ـ من سنة عشر، إلى بلْحارث بن كعب بنجْران، وأمره أن يدعوَهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابُوا لك فاقبل منهم، وأقِمْ فيهم، وعلِّمهم كتابَ الله وسنّة نَبيِّهِ، ومعالم الإسلام، فإن لم يفعلوا فقاتلْهم.

فخرج خالدٌ حتى قدِم عليهم، فبعث الرّكبان يضربون في كلّ وجه، ويدعون الناس إلى الإسلام، ويقولون يا أيها الناس أسْلِموا تَسْلَموا. فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعاهم إليه، فأقام خالد فيهم؛ يعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيِّه.

ثم كتب خالدٌ إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد النبيّ رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السّلام عليك يا رسولَ الله ورحمة الله وبركاته؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أمّا بعد يا رسولَ الله صلّى الله عليك؛ بعثَني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتُهم ألاّ أقاتلَهم ثلاثةَ أيام، وأن أدعوَهم إلى الإسلام؛ فإن أسلموا قبلتُ منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيّه، وإن لم يُسلموا قاتلتهم. وإني قدمتُ عليهم فدعوتُهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسولُ الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً قالوا: يا بني الحارث، أسْلِموا تَسْلَموا، فأسلَموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيمٌ بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عمّا نهاهم الله عنه؛ وأعلّمهم معالم الإسلام وسنة النّبيّ ﷺ حتى يكتب إليّ رسول الله، والسلام عليك يا رسولَ الله ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه رسولُ الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبيّ رسول الله إلى خالد بن الوليد. سلام عليك، فإنّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنّ كتابك جاءني مع رسُلك بِخبر أنّ بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتَلوا، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه؛ فبشِّرهم وأنذِرهم، وأقْبلْ وليُقبِلْ معك وفدُهُم؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ، وأقبل معه وفدُ بلْحارث بن كعب؛ فيهم قيس بن الحُصين بن يزيد بن قَنَان ذي الغُصّة، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المُحَجَّل، وعبد الله بن قُرَيظ الزياديّ؛ وشدّاد بن عبد الله القَنانيّ، وعمرو بن عبد الله الضِّبابيّ.

فلما قدِموا على رسولِ الله ﷺ، فرآهم قال: مَنْ هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل: يا رسول الله، هؤلاء بنو الحارث بن كعب؛ فلمّا وقفوا عند رسول الله ﷺ سلّموا عليه، فقالوا: نشهد أنك رسولُ الله، وأن لا إله إلا الله، فقال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. ثم قال رسولُ الله ﷺ: أنتم الذين إذا زُجِروا استقدموا! فسكتوا، فلم يراجعْه منهم أحـد ثم أعادها رسول الله ﷺ الثانية، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها رسول الله الثالثة فلم يراجعْه منهم أحد، ثم أعادها رسولُ الله الرابعة، فقال يزيد بن عبد المَدان: نعمْ يا رسولَ الله، نحن الذين إذا زُجِرنا استقدمنا، فقالها أربعَ مرات، فقال رسولُ الله ﷺ: لو أنّ خالدَ بن الوليد لم يكتُبْ إليّ فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم. فقال يزيد بن عبد المدان: أمَا والله يا رسول الله، ما حمِدناك ولا حمدنَا خالداً، فقال رسول الله: فمن حَمِدتم؟ قالوا: حَمِدْنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله؛ قـال: صدقتم؛ ثم قـال رسولُ الله ﷺ: بمَ كنتم تغلبـون مَنْ قاتلكم في الجاهليّة؟ قالوا: لم نكن نغلب أحداً، فقال رسولُ الله: بلى قد كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم، قالوا: يا رسولَ الله، كنا نغلب مَنْ قاتلنا، أنّا كنا بني عبيد، وكنا نجتمع ولا نتفرّق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: صدقتم. ثم أمَّر رسولُ الله علَى بلْحارث بن كعب قيسَ بن الحُصين. فرجع وفد بلْحارث بن كعب إلى قومهم في بقيّة شوال أو في صدر ذي القعدة، فلم يمكثوا بعد أن قدِموا إلى قومهم إلا أربعة أشهر، حتى توفِّيَ رسول الله ﷺ.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: حَدّثني عبدُ الله بن أبي بكر، قال: وكان رسولُ الله ﷺ بعَث إلى بني الحارث بن كعب بعد أن ولّى وفدهم عَمْـرَو بن حزم الأنصـاريّ، ثم أحد بني النّجار، ليفقّههم في الدين ويعلّمهم السنّة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم، صدقاتهم، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه، وأمره فيه بأمره: بسم الله الرحمن الـرحيم. هذا بيـان من الله ورسولـه: ﴿ يَأَيُّهـا ٱلَّذِينَ آمَنُـوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾(١)؛ عقدٌ من محمد النبيّ لعمرو بن حَزْم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمر به الله وأنْ يبشّر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلِّم الناس القرآن، ويفقّههم في الدين، وينهى الناس ولا يمسّ أحد القرآن إلاّ وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم؛ وبالذي عليهم؛ ويلين للناس في الحقّ، ويشتدّ عليهم في الظلم؛ فإنّ الله عزّ وجلّ كره الظلم ونهى عنه وقال: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلى الظَّالِمِين ﴾(٢)، ويبشِّر الناس بالجنة وبعملها، ويُنذر بالنار وبعملها، ويستألِف الناس حتى يتفقّهوا في الدّين، ويعلّم الناس معالمَ الحجّ وسنَّته وفريضته، وما أمر الله به في الحج الأكبر والحجّ الأصغر، وهو العُمْرة، وينهَى الناس أن يصليَ أحدٌ في ثوب واحد صغير؛ إلا أن يكون ثوباً واحداً يثني طَرَفه على عاتقه، وينهى أن يحتبيَ أحدٌ في ثوب واحد يُفْضِي بفرْجه إلى السماء، وينهى ألاّ يعقص أحد شعر رأسه إذا عفا في قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هَيْجٌ عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له؛ فمن لم يدعُ إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائل فليقطَّعُوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحدَه لا

(١) سورة المائدة: ١.

(٢) سورة هود: ١٨.

شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله عزّ وجلّ، وأمره بالصّلاة لوقتها، وإتمام الركوع والخشوع، ويغلّس بالفجر، ويهجّر بالهاجرة حين تَمِيل الشمس، وصلاةِ العصر والشمسُ في الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل؛ لا تؤخّر حتى تبدوَ النجوم في السماء، والعشاء أوّلَ الليل. ويأمر بالسّعي إلى الجُمُعة إذا نودي لها، والغُسل عند الرّواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خُمسَ الله وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عُشْر ما سقي البعل وما سقت السماء وممّا سقى الغرْب نصف العشر، وفي كلّ عشْر من الإبل شاتان، وفي كلّ عشرين من الإبل أربع شياه، وفي كلّ أربعين من البقر بقرة، وفي كلّ ثلاثين من البقر تبيع جَذَعٌ أو جَذَعَةٌ، وفي كلّ أربعين من الغنم سائمةٌ شاةٌ؛ فإنها فريضة الله التي افترض الله عزّ وجلّ على المؤمنين في الصدقة؛ فمن زاد خيراً فهو خيرٌ له، وأنه مَنْ أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ إسلاماً خالصاً من نفسه، ودانَ دين الإسلام فإنه من المؤمنين؛ له مثل ما لهمْ وعليه مثل ما عليهم؛ ومَنْ كان على نصرانيّته أو يهوديته فإنه لا يُفْتَن عنها، وعلى كلّ حالم ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد، دينارٌ وافٍ أو عَرْضه ثياباً، فمن أدّى ذلك؛ فإن له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومَنْ منع ذلك فإنه عدوّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً.

قال الواقديّ، توفِّيَ رسولُ الله ﷺ وعمرو بن حزم عامله بنَجْران.

قال الواقديّ: وفي هذه السنة قدم وفد سَلامان في شوّال على رسول الله ﷺ، وهم سبعة نفر؛ رأسهم حبيب السَّلامانيّ.

وفيها قدِم وَفْدُ غسّان في رمضان.

وفيها قدم وفد غامد في رمضان.

وفيها قدم وفد الأزد، رأسهم صُرَد بن عبد الله في بضعة عشر. فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكْر، قال: قدم على رسولِ الله ﷺ صُرَد بن عبد الله الأزديّ فأسلم فحسن إسلامه، في وفدٍ من الأزد، فأمّره رسولُ الله على مَنْ أسلم من قومه، وأمَره أن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن، فخرج صُرَد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله في جيش حتى نزل بجُرَش؛ وهي يومئذ مدينة مغلَقة، وفيها قبائل اليمن، وقد ضَوَتْ إليهم خَثْعم، فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين، فحاصروهم بها قريباً من شهر، وامتنعوا منهم فيها. ثم إنه رجع عنهم قافلاً؛ حتى إذا كان إلى جبل يقال له «كَشر» ظنّ أهل جُرَش أنه إنما ولّى عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه؛ حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً؛ وقد كان أهل جُرَش قد بعثوا رجلين منهم إلى رسولِ الله ﷺ وهو بالمدينة يرتادان وينظران؛ فبينا هما عند رسول الله عشيّةً بعد العصر، إذْ قال رسولُ الله ﷺ: بأيّ بلاد الله شَكْر؟ فقام الجُرَشيّان فقالا: يا رسولَ الله؛ ببلادنا جبل يقال له جبل كَشر؛ وكذلك تسميّه أهلُ جرش، فقال: إنه ليس بكشر؛ ولكنه «شكر» قالا: فما له يا رسول الله؟ قال: إنّ بُدنَ الله لتُنحَر عنده الآن. قال: فجلس الرَّجُلان إلى أبي بكر وإلى عثمان، فقال لهما: ويْحكما! إنّ رسول الله الآن لينْعي لكما قومكما، فقوما إلى رسول الله فاسألاه أن يدعوَ الله فيرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: اللهم ارفع عنهم؛ فخرجا من عند رسول الله راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما أصيبوا يوم أصابهم صُرَد بن عبد الله في اليوم الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ ما قال؛ وفي

الساعة التي ذكر فيها ما ذكر؛ فخرج وفدُ جُرَش حتى قدِموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، وحَمى لهم حِمًى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرَس، وللراحلة، وللمثيرة تُثير الحرث؛ فَمنْ رعاها من الناس سوى ذلك فمالُه سُحْتٌ، فقال رجل من الأزد في تلك الغزوة ـ وكانت خثعم تصيب من الأزْد في الجاهلية وكانوا يغزُون في الشهر الحرام :

يـا غَـزْوَةً مَـا غَزَوْنـا غَيْـرَ خَـائِبَـةٍ　　فيهـا البغـالُ وفيهـا الخيـلُ والحُمُـر
حتى أتيْنـا حُمَيْـراً فـي مَصـانِعهـا　　وجَمْـعَ خَثْعَمَ قَـدْ سَـاغَتْ لَهـا النُّـذُرُ
إذَا وَضَـعْـتُ غَـلِيـلا كـنـت أحْـمِـلُه　　فَـمـا أبـالِي ادانـوا بعْـدُ أمْ كَفَـروا!

قال: وفيها وجّه رسولُ الله ﷺعليّ بن أبي طالب في سريّة إلى اليمن في رمضان. فحدّثنا أبو كريب ومحمد بن عمرو بن هيّاج، قالا: حدّثنا يحيى بن عبد الرحمن الأرْحبيّ، قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيهِ، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء بن عازب، قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن سار معه، فأقام عليه ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب، وأمره أن يُقْفِل خالداً ومَنْ معه، فإن أراد أحد ممن كان مع خالد بن الوليد أن يعقّب معه تركه.

قال البَراء: فكنت فيمن عقّب معه؛ فلمّا انتهينا إلى أوائل اليمن، بلغ القوم الخبر، فجمعوا له، فصلّى بنا عليٌّ الفجر، فلما فرغ صَفّنا صفًّا واحداً، ثمّ تقدّم بين أيدينا، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتابَ رسولِ الله ﷺ، فأسلمَتْ همْدان كلُّها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسولِ الله ﷺ، فلما قرأ كتابه خرّ ساجداً، ثم جلس، فقال: السلام على همْدان، السلام على همْدان! ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام.

قال أبو جعفر: وفيها قدِم وفدُ زُبيد علَى النبيّ ﷺ بإسلامهم. فحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: قدِم علَى رسول الله ﷺ عمرُو بن معِد يكرب في أناس من بني زُبَيد، فأسلم، وكان عمرو بن معد يكرب قد قال لقيس بن مكْشوح المُراديّ حين انتهى إليهم أمرُ رسول الله ﷺ: يا قيس؛ إنك سيّد قومِك اليوم؛ وقد ذُكر لنا أنّ رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحِجازلي يقول: إنّي نبيّ؛ فانطلق بنا إليه حتى نعلم عِلْمَه؛ فإن كان نبياً كما يقول؛ فإنه لا يخفى عليك، إذا لقيناه اتبعناه؛ وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه ذلك قيسُ بن مكشوح وسَفّه رأيه.

فركب عمرو بن معد يكربَ حتى قدِم على رسول الله ﷺ فصدّقه وآمن به؛ فلما بلغ ذلك قيساً أوعد عَمراً، وتحفّظ عليه، وقال: خالفني وترك رأيي! فقال عمرو في ذلك:

أمَـرْتُـكَ يَـومَ ذي صَنْعَـا　　ءَ أمْـراً بـادِيـاً رَشَـدُهْ
أَمَـرْتُـكَ بـاتّـقـاء الـلـ　　ـه والـمـعـروف تـاتـعِـدُهْ
خَـرجتَ مِنَ المنَى مثْلَ الـ　　ـحِـمَـارِ أعـارَهُ وَتِـدُهْ
تَـمَـنَّـانِـي عـلى فـرسٍ　　عـلـيـه جَـالِـسـاً أسـدُهْ
عـليّ مُـفـاضَـةٌ كـالـنّـهْـ　　ـيِ أخْـلَصَ مَـاءَهُ جَـدَدُهْ
تَـرُدُّ الـرُّمْـح مَـثْـنِـيَّ الـ　　ـسِّـنـانِ عَـوائـراً قِـصَـدُهْ
فـلَوْ لاقَـيْـتَـنِي لاقَـيـ　　ـت لَـيْـثـاً فـوقـه لِـبَـدُهْ

تـلاقِي شَنْبَثـاً شَثْـنَ الـ ـبَـرَاثِـنِ نـاشِـزاً كَـتَـدُهْ
يُسَـامي القِـرْنَ إنْ قِـرْنٌ تَـيَـمَّـمَـهُ فَـيَـعْـتَـضِـدُهْ
فَـيَـأخُـذُه فَـيَـرْفَـعُـه فَـيَـخْـفِـضُـه فَـيَـقْـتَـصِـدُه
فَـيَـدْمَـغـه فَـيَـحْـطِـمُـهُ فَـيَـخْـضَـمُـهُ فَـيَـزْدَرِدُهْ
ظَـلومُ الـشِّـرْكِ فـيـمـا أحـ ـرزَتْ أنـيـابُـهُ وَيَـدُهْ
مَـتـى مـا يـغْـدُ أو يُـغْـدَى بـه فَـقـبـولـه بـردهْ
فَيخـطر مِثْـلَ خـطْرِ الفَحـ ـلِ فـوقَ جِـرانِـهِ زَبَـدُهْ
فـأمسَى يَعتـريـه مِنَ الـ ـبَعـوض ممنَّـعـاً بـلَدُهْ
فـلاَ تـتَـمَـنَّـنـي وتَـمـنَّ غَـيْـرِيَ لَـيِّـنـاً كَـتَـدُهْ
وبَـوِّئـنـي لـه وَطَـنـاً كَـثِـيـراً حـوْلَـه عَـدَدُهْ

قال: فأقام عمرو بن معد يكرب في قومِه من بني زُبَيْد؛ وعليهم فرْوة بن مُسيْك المُراديّ، فلما توفي رَسولُ الله ﷺ ارتدّ عمرو فقال حين ارتدّ:

وَجَـدْنـا مُـلْكَ فَـرْوَةَ شَـرَّ مُـلْكٍ حِـمَـاراً سَـافَ مُـنْـخُـره بِـقَـذْرِ
وكـنْـتَ إذا رَأيْـتَ أبـا عُـمَـيْـرٍ تَـرَى الـحُـوَلاَءَ مِن خُـبْثٍ وغَـدْرِ

وقد كان قدم على رسول الله في هذه السنة ـ أعني سنة عشر ـ قبل قدوم عمرو بن معد يكرب، فَرْوَةُ بن مُسَيك المُراديّ مفارقاً لملوك كِندة. فحدثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: قدِم فَرْوة بن مُسيك المراديّ علَى رسولِ الله ﷺ مفارقاً لملوك كِنْدة، ومعانداً لهم؛ وقد كان قَبْلَ الإسلام بين مُراد وهَمْدان وقعة أصابت فيها هَمْدان من مُراد ما أرادوا؛ حتى أثخنوهم في يوم يقال له الرَّزْم؛ وكان الذي قاد هَمْدان إلى مُراد الأجدع بن مالك، ففضحهم يومئذ، وفي ذلك يقول فَروة بن مُسَيك:

فَـإنْ نَـغْـلِبْ فـغـلاّبـونَ قِـدْمـاً وإنْ نُـهْـزَمْ فـغَـيْـرُ مُـهَـزَّمِـيـنـا
وإنْ نُـقْـتَـلْ فـلاَ جُـبْـنٌ ولـكـن مـنـايـانـا وطُـعْـمَـةُ آخـريـنـا
كَـذَاكَ آلـدَّهْـر دولـتـه سِـجَـالٌ تَـكـرُّ صُـرُوفُـه حـيـنـاً فـحِـيـنـا
فـبَـيْـنَـاهُ يُـسَـرُّ بِـهِ وَيـرضَـى ولَـو لُـبِـسَـتْ غَـضَـارَتُـهُ سِـنِـيـنَـا
إذ انْـقَـلَـبَـتْ بـه كَـرَّات دَهْـرٍ فـألفى لـلأولى غَـبَـطُوا طَـحِـيـنـاً
وَمَـنْ يُـغْـبَـط بَـرَيْـبِ آلـدّهـرِ منهـم يـجِـدْ رَيْـبَ الـزّمَـانِ لَـه خَـؤونـا
فـلَـوْ خَـلَـدَ الـمـلـوكُ إذاً خَـلَـدْنـا وَلَـوْ بَـقِـيَ الـكِـرَامُ إذاً بَـقِـيـنـا
فـأفـنـى ذاكُـمُ سَـرَوَات قـومِـي كـمـا أفْـنَـى الـقُـرونَ الأوّلِـيـنـا

ولما توجّه فَروة بن مُسَيك إلى رسولِ الله ﷺ مفارقاً كِنْدة قال:

لـمـا رَأيْـتُ مـلوكَ كِنْـدَة أعـرَضَـت كـالرِّجْـل خَانَ آلـرِّجْلَ عِـرْقُ نسَـائهـا
يـمَّـمْـتُ رَاحلتـي أؤمُّ مُـحَـمَّـداً أرْجُـو فـوَاضِلهـا وَحُسْـنَ ثَـرَائهـا

قال: فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني: يا فرْوة، هل ساءك ما أصاب قومك

يومك يوم الرّزم ،؟ فقال : يا رسول الله ، ومَنْ ذا يصيب قومَه مثل ما أصاب قومِي يوم الرّزم ؛ لا يسوءه ذلك! فقال رسولُ الله ﷺ : أما إنّ ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً . فاستعمله رسولُ الله على مُراد وزُبَيْد ومَذْحِج كلّها ؛ وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصَّدَقة ، وكان معه في بلاده حتى تُوفِّيَ رسولُ الله ﷺ .

حدّثنا أبو كُرَيب وسفيان بن وكيع ، قالا : حَدّثنا أبو أسامة ، قال : أخبرنا مجالد ، قال : حدَّثنا عامر ، عن فَرْوة بن مُسَيك ، قال : قال رسول الله ؛ أكرهت يومك ويوم هَمْدان؟ فقلت : إي والله ! أفنى الأهل والعشيرة ؛ فقال : أما إنه خيرٌ لمن بقي .

وفيها قَدِم وفْد عبد القيس ، فحدثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : قَدِمَ على رسول الله ﷺ الجارودُ بن عمرو بن حَنش بن المعلّى ، أخو عبد القيس في وفد عبد القيس وكان نصرانيًّا .

حدّثنا ابن حميد ، قال : حَدّثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن الحسن بن دينار ، عن الحسن ، قال : لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلّمه ، فعرض عليه الإسلام ، ودعاه إليه ، ورغّبه فيه ، فقال : يا محمد ، إني قد كنت على دين ؛ وإني تاركٌ ديني لدينك ؛ فتضمن لي دَيْني؟ فقال رسولُ الله ﷺ : نعم أنا ضامنٌ لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه . قال : فأسلم وأسلم معه أصحابه ، ثم سألوا رسولَ الله الحُمْلان ؛ فقال : والله ما عندي ما أحمِلُكم عليه ، فقالوا : يا رسولَ الله ، إنّ بيننا وبين بلادنا ضَوَالّ من ضوالّ الناس ؛ أفنتبلّغ عليها إلى بلادنا؟ قال : إياكم وإياها ؛ فإنما ذلك حَرَق النار . قال : فخرج من عنده الجارود راجعاً إلى قومه ـ وكان حسنَ الإسلام صُلْباً على دينه ـ حتى هلك ؛ وقد أدرك الرِّدةَ ، فلما رجع من قومه مَنْ كان أسلم منهم إلى دينهم الأوّل مع الغَرور ، المنذر بن النعمان بن المنذر ، أقام الجارود فشهد شهادةَ الحقّ ودعا إلى الإسلام ، فقال : يا أيها الناس ؛ إنّي أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنهى مَنْ لم يشهد .

وقد كان رسول الله بعث العَلاءَ بن الحضرميّ قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوَى العبديّ ، فأسلم فحسُن إسلامه ، ثم هلك بعد وفاةِ رسول الله ، وقبل رِدّة أهل البَحْرَيْن ، والعَلاءُ أميرٌ عنده لرسول الله على البحرين .

وفيها قدم وفد بني حنيفة ، حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمَة ، عن ابن إسحاق ، قال : قدِم على رسولِ الله ﷺ وفد بني حَنِيفة ؛ فيهم مُسيلمة بن حبيب الكذّاب ، فكان منزلهم في دار ابنة الحارث ؛ امرأة من الأنصار ، ثم من بني النجار .

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق ، قال : حَدّثني بعضُ علمائنا من أهل المدينة ، أنّ بني حنيفة أتتْ بمَسَيْلمة إلى رسولِ الله ﷺ تستره بالثياب ، ورسول الله جالِس في أصحابه ، ومعه عَسِيبٌ من سَعف النَّخل ، في رأسه خُوصات ، فلمّا انتهَى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثّياب ، كلّم رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله : لو سألتَني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك!

حدّثنا ابنُ حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، عن ابن إسحاق ؛ عن شيخ من بني حَنيفة من أهل اليمامة ، قال : كان حديثُ مسيلمة على غير هذا ؛ زعم أن وفدَ بني حنيفة أتوْا رسولَ الله ﷺ وخلّفوا مسيلمة في رحالهم ؛ فلما أسلموا ذكروا له مكانه ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إنا قد خلّفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظهما لنا . قال : فأمر له رسول الله بمثل ما أمر به للقوم ؛ وقال : أما إنه ليس بشرّكم مكاناً ، يحفظ ضيعة أصحابه ؛ وذلك الذي

يريد رسول الله. قال: ثم انصرفوا عن رسولِ الله وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله؛ فلما انتهى إلى اليمامة ارتدّ عدو الله وتنبأ وتكذّب لهم، وقال: إنّي قد أشرِكت في الأمر معه، وقال لوفده: ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني: «أما إنه ليس بشرّكم مكاناً»! ما ذلك إلا لما كان يعلم أني قد أشـركت معه؛ ثم جعـل يسجَع السّجعات، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: «لقد أنعم الله على الحُبْلى، أخرج منها نسمة تَسْعى، من بين صفاق وحشى»، ووضع عنهم الصلاة؛ وأحَلّ لهم الخمر والزّنا، ونحو ذلك. فشهد لرسولِ الله ﷺ أنه نبيٌّ، فأصفقت بنو حنيفة على ذلك، فالله أعلم أيّ ذلك كان.

قال أبو جعفر: وفيها قدم وفدُ كِنْدة؛ رأسُـهم الأشعث بن قيس الكنديّ؛ فحدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن ابن شهاب الزهريّ، قال: قدِم على رسولِ الله ﷺ الأشعث بن قيس في ستين راكباً من كِندة، فدخلوا على رسول الله مسجدَه، وقد رَجَّلوا جُمَمَهُم، وتكحّلوا، عليهم جُبَب الحِبرة؛ قد كفّفوها بالحرير؛ فلمّا دخلُوا على رسولِ الله ﷺ، قال: ألم تسلِموا؟ قالوا: بلى، قال: فما بالُ هذا الحرير في أعناقكم؟ قال: فشَقُّوه منها فألقوْه، ثم قال الأشعث: يا رسولَ الله؛ نحن بنو آكل المُرار، وأنت ابن آكل المُرار، فتبسّم رسول الله، ثم قال: ناسبوا بهذا النَّسَب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث. قال: وكان ربيعة والعبّاس تاجِرَين؛ فكانا إذا ساحا في أرض العرب فسئلا مَنْ هما؟ قالا: نحن بنو آكل المُرار؛ يتعزّزان بذلك؛ وذلك أن كِنْدة كانت ملوكاً فقال رسولُ الله ﷺ: نحن بنو النَّضْر بن كنانة لا نَقْفُو أمَّنا، ولا ننتفي من أبينا. فقال الأشعث بن قيس: هل عرفتم يا معشرَ كندة! والله لا أسمع رجلاً قالها بعد اليوم إلا ضربته حَدَّهُ ثمانين.

قال الواقديّ: وفيها قدم وفدُ محارب.

وفيها قدم وفدُ الرّهاويّين.

وفيها قدم وفد العاقب والسَّيِّد من نجْران، فكتب لهما رسول الله ﷺ كتاب الصلح.

قال: وفيها قدم وفد عَبْس.

وفيها قدم وفد صَدِف، وافوْا رسول الله ﷺ في حجّة الوداع.

قال: وفيها قدم عديُّ بن حاتم الطائيّ، في شعبان.

وفيها مات أبو عامر الراهب عند هِرَقل، فاختلف كنانة بن عبد ياليل وعلقمة بن عُلاثة في ميـراثه، فَقُضِيَ به لكنانة بن عبد ياليل. قال: هما من أهل المدر، وأنت من أهل الوَبَر.

قال وفيها قدم وفد خَوْلان، وهم عشرة.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حَدّثنا سلمة، قال: حدّثني ابن إسحاق، قال: حدّثني يزيدُ بن أبي حبيب، قال: قدِم علَى رسول الله ﷺ في هُدْنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الجُذاميّ ثم الضُّبَيْبي، فأهدى لرسول الله غلاماً، وأسلم فحسُن إسلامه، وكتب له رسول الله إلى قومه كتاباً، في كتابه: بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعـة بن زيد؛ إنّي بعثته إلى قومه عامَّةً ومَنْ دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله؛ فَمنْ أقبل فمِن حزب الله وحزب رسوله، ومَنْ أدبر فله أمان شهريْن. فلمّا قدم رفاعة على قومه، أجابوا وأسلموا، ثمّ ساروا إلى الحَرّة؛ حَرّة الرّجلاء فنزلوها.

فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحق، عمّن لا يتّهم، عن رجال من جُذام كانوا بها علماءَ، أنّ رفاعة بن زيد، لما قدِم من عند رسول الله ﷺ بكتابه يدعوهم إلى الإسلام، فاستجابوا له، لم يلبث أن أقبل دحْية بن خليفة الكلبيّ مِنْ عند قيصر صاحب الروم، حين بعثه رسول الله ومعه تجارة له؛ حتى إذا كان بوادٍ من أوديتها، يقال له: شَنار، أغار على دِحية الهُنَيْد بن عَوْص وابنه عوص بن الهُنَيد، الضُّلَيْعِيّان ـ والضُّلَيْع بطن من جُذام ـ فأصابا كلّ شيء كان معه؛ فبلغ ذلك نفراً من بني الضُّبَيْب قوم رفاعة ممّن كان أسلَم وأجاب، فنفروا إلى الهُنَيد وابنه، فيهم من بني الضُّبيب النّعمان بن أبي جِعال، حتى لقُوهم، فاقتتلوا، وانتمى يومئذ قُرةُ بن أشْقَر الضّفاريّ ثم الضُّلَيعيّ، فقال: أنا ابن لُبْنَى؛ ورمى النّعمانَ بن أبي جِعال بسهم فأصاب رُكبَته، فقال حين أصابه: خُذْها وأنا ابن لُبنى ـ وكانت له أمٌّ تدعى لُبنى ـ قال: وقد كان حسّان بن مَلّة الضُّبَيْبي قد صحب دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ قبل ذلك؛ فعلّمه أمَّ الكتاب؛ فاستنقذوا ما كان في يد الهُنيد وابنه عوص، فردُّوه على دِحْية؛ فسار دِحْية حتى قدِم على رسولِ الله، فأخبره خبره، واستسقاه دم الهُنيد وابنه؛ فبعث إليهم رسول الله زيد بن حارثة ـ وذلك الذي هاج غزوة زيد جُذَاماً، وبعث معه جيشاً ـ وقد وجّهت غطفان من جُذام كلّها ووائل ومَنْ كان من سَلامان وسعد بن هُذَيم حين جاءهم رفاعة بن زيد بكتاب رسول الله؛ فنزلوا بالحَرّة؛ حرَّة الرجلاء، ورفاعة بن زيد بكُرَاع رَبّةٍ ولم يعلم، ومعه ناسٌ من بني الضبيب وسائر بني الضّبيب بوادٍ من ناحية الحَرَّة ممّا يسيل مُشَرِّقاً، وأقبل جيش زيد بن حارثة من ناحية الأولاج؛ فأغار بالفَضَافِض من قِبَل الحرّة، وجمعوا ما وجدوا من مال وأناس، وقتلوا الهُنَيد وابنه ورجُلَيْن من بني الأحنف، ورجلاً من بني خَصِيب؛ فلمّا سمعت بذلك بنو الضُّبيب والجيش بفَيْفاء مَدَان، ركب حسّان بن ملّة على فرس لسُويد بن زيد يقال لها العَجَاجة، وأنَيف بن ملّة على فرس لملّة، يقال لها رِغال، وأبو زيد بن عمرو على فرس له يقال لها شَمِر؛ فانطلقوا حتى إذا دَنَوْا من الجيش، قال أبو زيد لأنَيْف بن ملّة: كفّ عنا وانصرفْ؛ فإنا نخشى لسانَك، فانصرف فوقف عنهما، فلم يبعدا منه؛ فجعل فرسُه تبحث بيدها وتوثّب؛ فقال: لأنا أضنُّ بالرجلين منك بالفرسَين؛ فأرخَى لها حتى أدركهما، فقالا له: أمّا إذْ فعلت ما فعلت، فكفّ عنا لسانك ولا تشأَمْنا اليوم، وتواطؤوا ألاّ يتكلم منهم إلاّ حسان بن مَلّة؛ وكانت بينهم كلِمة في الجاهلية؛ قد عرفوها؛ بعضهم من بعض؛ إذا أراد أحدهم أن يضرب بسيفه قال: «ثوري».

فلمّا برزوا على الجيش أقبل القومُ يبتدرونَهم؛ فقال حسان: إنا قوم مسلمون؛ وكان أوّلَ مَنْ لقيهم رجلٌ على فرس أدْهم بائع رمحه يقول معرِّضُه: كأنما ركزه على منسج فرسه جدّ وأعتق؛ فأقبل يسوقهم، فقال أنيف: «ثوري»، فقال حسان: مهلاً! فلما وقفوا على زيد بن حارثة قال له حسّان: انا قوم مسلمون، فقال له زيد: فاقرأ أمّ الكتاب، فقرأها حسان، فقال زيد بن حارثة: نادوا في الجيش، إنّ الله قد حَرّمَ علينا ثُغرة القوم التي جاءوا منها إلا من ختَر؛ وإذا أختٌ لحسان بن ملّة ـ وهي امرأة أبي وبْر بن عـديّ بن أمية بن الضُّبيب ـ في الأسارى. فقال له زيد: خذها، فأخذت بحَقْويْه، فقالت أمُّ الفَزْر الضُّلَيْعية: أتَنْطلقون ببناتكم، وتَذَرُون أمّهاتكم! فقال أحد بني خصيب: إنها بنو الضّبيب! وسحرت ألسنَتهم سائر اليوم؛ فسمعها بعضُ الجيش؛ فأخبر بها زيد بن حارثة؛ فأمر بأخت حسان؛ ففُكّت يداها من حَقْويه، فقال لها: اجلسي مع بنات عَمّك حتى يحكم الله فيكنّ حكمه؛ فرجعوا؛ ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذي جاءوا منه؛ فأمسَوْا في أهليهم؛ واستعتموا ذَوْداً لسُويد بن زيد؛ فلما شربوا عَتمتَهُمْ ركبوا إلى رفاعة بن زيد؛ وكان ممن ركب إلى رفاعة تلك

الليلة أبو زيد بن عمرو وأبو شمّاس بن عمرو، وسويد بن زيد، وبعْجة بن زيد، وبَرْذع بن زيد، وثعلبة بن عمرو، ومَخربة بن عديّ، وأنيف بن ملّة، وحسّان بن ملّة؛ حتى صبّحوا رفاعة بن زيد بكراع رَبَّة بظهر الحرّة على بئر هنالك من حَرّة ليلى، فقال له حسان بن ملّة: إنك لجالسٌ تحلُبُ المِعْزَى ونساء جذام يُجْرَرْنَ أسارى قد غرَّها كتابك الذي جئت به! فدعا رفاعة بن زيد بجمل له؛ فجعل يشكل عليه رحله؛ وهو يقول:

هــل أنـت حيٌّ أو تُـنَـادي حيّـا

ثم غدا وهم معه بأميّة بن ضفارة أخي الخصيبيّ المقتول مبكّرين من ظهر الحرّة، فساروا إلى جوف المدينة ثلاث ليال؛ فلما دخلوا انتهوْا إلى المسجد، ونظر إليه رجلٌ من الناس، فقال لهم: لا تُنِيخوا إبلَكم فتقطع أيديهنّ، فنزلوا عنها وهن قيامٌ؛ فلمّا دخلوا على رسول الله ﷺ ورآهم، ألاح إليهم بيده: أن تعالوْا من وراء الناس؛ فلما استفتح رفاعة بن زيد المنطق قام رجلٌ من الناس، فقال: إنّ هؤلاء يا نبيّ الله قومٌ سَحرةٌ؛ فرددها مرّتيْن؛ فقال رفاعة: رحمَ الله من لم يَجْزنا في يومنا هذا إلا خيراً! ثم دفع رفاعة كتابه إلى رسول الله الذي كان كتبه له، فقال: دونك يا رسول الله قديماً كتابُه، حديثاً غدره. فقال رسولُ الله ﷺ: اقرأ يا غلام وأعلن؛ فلما قرأكتابهم واستخبرهم فأخبروه الخبر، قال رسول الله: كيف أصنع بالقتلى؟ ثلاث مرات؛ فقال رفاعة: أنت يا رسول الله أعلمُ، لا نحرّم عليك حلالاً، ولا نُحِلّ لك حراماً؛ فقال أبو زيد بن عمرو: أطْلِقْ لنا يا رسولَ الله مَنْ كان حيًّا، ومن كان قد قُتِل فهو تحت قدمَيَّ هاتَيْن. فقال رسول الله: صدق أبو زيد، اركب معهم يا عليُّ، فقال عليٌّ: يا رسولَ الله؛ إنّ زيداً لن يطيعَني، قال: خذ سيفي، فأعطاه سيفَه، فقال عليّ: ليس لي راحلة يا رسولَ الله أركبها، فحمله رسول الله على جمل لثعلبة بن عمرو، يقال له المكحال؛ فخرجوا، فإذا رسولٌ لزيد بن حارثة على ناقة من إبل أبي وبْر، يقال لها الشمر؛ فأنزلوه عنها، فقال: يا عليّ ما شأني؟ فقال له عليٌّ: ما لهم عرفوه فأخذوه. ثم ساروا حتى لقوا الجيش بفيفاء الفَحْلَتَيْن، فأخذوا ما في أيديهم من أموالهم؛ حتى كانوا ينزعون لبَدَ المرأة من تحت الرّحل.

وفْدُ بني عامر بن صَعْصَعَة

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: قدِم علَى رسولِ الله ﷺ وفدُ بني عامر؛ فيهم عامر بن الطفَيل؛ وأربَدُ بن قيس بن مالك بن جعفر، وجَبّارُ بن سلمَى بن مالك بن جعفر؛ وكان هؤلاء الثلاثة رؤوس القوم وشياطينهم.

فقدم عامر بن الطّفيل على رسولِ الله ﷺ وهو يريد الغَدْر به؛ وقد قال له قومه: يا عامر؛ إنَّ الناس قد أسلموا فأسلِمْ قال: واللهِ لقد كنتُ آليتُ ألّا أنتهيَ حتى تتبع العربُ عَقِبي؛ أفأنا أتّبع عقِب هذا الفتى من قريش! ثم قال لأربد: إذا قدمت على الرجل فإني شاغلٌ عنك وجهه؛ فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُه بالسَّيْف، فلما قدِموا على رسولِ الله ﷺ قال عامر بن الطفيل: يا محمد خالّني؛ قال: لا والله حتى تؤمِنَ بالله وحده، قال: يا محمد خالّني، قال: وجعل يكلمه فينتظر منْ أربد ما كان أمرَه به، فجعل أربد لا يحير شيئاً، فلمّا رأى عامر ما يصنع أربد، قال: يا محمد خالّني، قال: لا والله حتى تؤمنَ بالله وحدَه لا شريك له. فلما أبى عليه رسولُ الله ﷺ قال: أما والله لأملأنّها عليك خيلاً حُمْراً ورجالاً، فلما ولّى قال رسول الله: اللهمّ اكفني عامر بن الطفَيْل، فلما

خرجوا من عند رسول الله قال عامر لأربد: ويلك يا أربد أين ما كنت أوصيتك به! والله ما كان على ظهر الأرض رجلٌ هو أخوف على نفسي عندي منك، وايمُ اللهِ لا أخافك بعد اليوم أبداً. قال: لا تعجلْ عليّ لا أبالك! والله ما هممت بالذي أمرتني به من مرة إلّا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف! قال عامر بن الطُّفَيل:

بَعَثَ الـرسـولُ بمَـا تَـرى فكـأنَّمـا ... عَمْـداً نَشـنّ على الـمَقَـانِـب غَـارَا
وَلَقَـدْ وَرَدْنَ بنَـا الـمـدينَـةَ شُـزَّبـاً ... ولَـقـد قَـتَلْنَ بِجَـوِّهَـا الأَنْـصَـارَا

وخرجوا راجعين إلى بلادهم؛ حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله عزّ وجلّ على عامر بن الطُّفيل الطاعون في عنقه فقتله؛ وإنّه في بيت امرأة من بني سَلول؛ فجعل يقول: يا بني عامر؛ أغُدَّةٌ كغُدَّة البَكْر؛ وموت في بيت امرأة من بني سَلول! ثم خرج أصحابه حين واروْه؛ حتى قدموا أرضَ بني عامر؛ فلما قدموا أتاهم قومهم، فقالوا: ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء؛ والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بنَبْلي هذه حتى أقتلَه؛ فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومَيْن، معه جملٌ له يبيعه؛ فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقةً فأحرَقْتهما. وكان أربدُ بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمّه.

وقدم على رسول الله ﷺ وفدُ طيّىء؛ فيهم زيد الخيل، وهو سيّدهم، فلما انتهوْا إليه كلّموه وعرض عليهم رسول الله الإسلام فأسلموا فحسن إسلامهم، فقال رسولُ الله ﷺ - كما حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن رجال من طيِّىء: «ما ذُكِر لي رجلٌ من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دونَ ما يقال فيه إلا ما كان من زيد الخيل؛ فإنه لم يُبْلَغ فيه كلّ ما فيه». ثم سمَّاه زيد الخير؛ وقطع له فيداً وأرضين معه؛ وكتب له بذلك. فخرج من عند رسول الله راجعاً إلى قومه، فقال رسول الله: إن يَنْجُ زيدٌ من حُمَّى المدينة! سمّاها رسول الله باسم غير الحُمّى وغير أمِّ مَلْدَم فلم يُثْبِتْه - فلما انتهى من بلاد نجد إلى ماء من مياهه يقال له فَرْدَة أصابتْه الحُمّى؛ فمات بها، فلما أحسّ زيد بالموت قال:

أمُـرتَحِـلٌ قَـوْمِي المَشَـارِقَ غُـدْوَةً ... وَأُتـرَكُ فِـي بَيْـتٍ بفَـرْدَةَ مُـنْجِـدِ
ألا رُبَّ يَـوْمٍ لَـوْ مَـرِضْتُ لَعـادَنِي ... عَـوائِـدُ من لم يُبْـرَ مِنْهـنَّ يَـجْهَـد

فلما مات عمِدت امرأته إلى ما كان معها من كُتبه التي قطع له رسولُ الله ﷺ فحرّقتها بالنار.

وفي هذه السنة كتب مُسيلمة إلى رسول الله ﷺ يدّعي أنه أشرك معه في النبوّة. حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق؛ عن عبد الله بن أبي بكر، قال: كان مُسيلمة بن حبيب الكذّاب كتبَ إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. . سلامٌ عليك؛ فإني قد أشرِكت في الأمر معك؛ وإن لنا نِصْفَ الأرض ولقريش نِصْف الأرض، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون.

فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن شيخ من أشجع قال ابن حميد: أمّا عليّ بن مجاهد فيقول: عن أبي مالك الأشجعيّ، عن سلمة بن نُعيم بن مسعود الأشجعيّ، عن أبيه نُعَيم - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرآ كتاب مسيلِمة: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال؛ فقال: أما والله

لولا أن الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لضربتُ أعناقكما.

ثم كتب إلى مسيلمة: بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد رسول الله إلى مُسيلِمة الكذّاب. سَلاَمٌ عَلى من اتَّبَعَ الهدى؛ أما بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قال: وكان ذلك في آخر سنة عشر.

قال أبو جعفر: وقد قيل: إنّ دعوى مُسيلمة ومَن ادّعى النبوّة من الكذابين في عهد النبيّ ﷺ، إنما كانت بعد انصراف النبيّ من حَجّه المسمى حِجّة الوداع؛ ومرْضته التي مرضَها التي كانت منها وفاته ﷺ.

حدّثنا عبيد الله بن سعيد الزُّهريّ، قال: حدّثني عمّي يعقوب بن إبراهيم قال: حدّثني سيف بن عمر ـ وكتب بذلك إليّ السريُّ يقول: حدّثنا شُعيب بن إبراهيم التميميّ، عن سَيْف بن عمر التميميّ الأسيِّدِيّ ـ قال: حدّثنا عبد الله بن سعيد بن ثابت بن الجِذْع الأنصاريّ، عن عبيد مولَى رسول الله ﷺ عن أبي مُوَيهِبة مولى رسول الله، قال: لما انصرف النبيّ ﷺ إلى المدينة بعد ما قضى حجّة التمام، فتحلّل به السيرُ، وطارت به الأخبار لتحلّل السير بالنبيّ ﷺ؛ أنه قد اشتكى؛ فوثب الأسود باليمن ومسيلمةُ باليمامة؛ وجاء الخبر عنهما للنبيّ ﷺ، ثم وثب طليحة في بلاد بني أسد بعد ما أفاق النبيّ، ثم اشتكى في المحرّم وجعه الذي توفّاه الله فيه.

قال أبو جعفر: وفرّق رسول الله ﷺ في جميع البلاد التي دخلها الإسلامُ عُمّالاً على الصدقات. فحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: كان رسولُ الله ﷺ قد بعث أمراءَه وعمّاله على الصّدقات، على كلّ ما أوطأ الإسلام من البلدان؛ فبعث المهاجر بن أبي أميّة بن المغيرة إلى صنعاء؛ فخرج عليه العَنْسيّ وهو بها، وبعث زياد بن لَبِيد أخا بني بياضة الأنصاريّ إلى حضرموت على صدقتها، وبعث عديّ بن حاتم على الصدقة؛ صدقةطيىء وأسد، وبعث مالك بن نُوَيْرة على صدقات بني حنظلة، وفرّق صدقة بني سعد على رجلين منهم، وبعث العلاء بن الحضرميّ على البحريْن، وبعث عليّ بن أبي طالب إلى نَجْران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم...

فلمّا دخل ذو القعدة من هذه السنة ـ أعني سنة عشر ـ تجهّز النبيّ إلى الحجّ، فأمر الناس بالجهاز له. فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمَة، عن ابن إسحاق؛ عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: خرج النبيّ ﷺ إلى الحجّ لخمس ليال بقينَ من ذي القعدة، لا يَذكُر ولا يذكر الناس إلّا الحجّ، حتى إذا كان بسَرِف، وقد ساق رسول الله معه الهدْيَ وأشرافٌ من أشراف الناس، أمر الناس أن يحِلّوا بعُمْرة إلّا من ساق الهدي، وحِضْتُ ذلك اليوم؛ فدخل عليّ وأنا أبكي؛ فقال: مالك يا عائشة؟ لعلك نَفِسْتِ! فقلت: نعم، لوددت أنّي لم أخرج معكم عامِي هذا في السفر، قال: لا تفعلي؛ لا تقولنّ ذلك؛ فإنك تقضين كلّ ما يقضي الحاجّ؛ إلّا أنك لا تطوفين بالبيت. قالت: ودخلَ رسولُ الله ﷺ مكة؛ فحلّ كلّ مَنْ كان لاهدي معه، وحلّ نِساؤه بعمْرة؛ فلمّا كان يوم النحر أتِيتُ بلحم بقر كثير، فطُرِح في بيتي، قلت: ما هذا؟ قالوا: ذَبَح رسول الله عن نسائه البقر؛ حتى إذا كانت ليلة الحَصْبَة، بعثني رسولُ الله مع أخي عبد الرحمن بن أبي بكر، لأقضيَ عُمرتي من التّنعيم مكان عُمْرتي التي فَاتَتْني.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن ابن أبي نَجيح، قال: بعث رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى نَجْران، فلقيَه بمكّة؛ وقد أحرم؛ فدخل عليٌّ علَى فاطمة ابنة رسول الله، فوجدها قد حلّتْ

وتهيّأت، فقال: مالك يا ابنة رسول الله؟ قالت: أمَرَنا رسولُ الله أن نحِلّ بعمرة، فأحللنا، قال: ثم أتى رسول الله ﷺ، فلما فرغ من الخبر عن سفره، قال له رسولُ الله: انطلق فطُفْ بالبيت، وحلّ كما حلّ أصحابك، فقال: يا رسولَ الله، إني قد أهللتُ بما أهللتَ به؛ قال: ارجع فاحلِل كما حلّ أصحابك، قال: قلت: يا رسولَ الله، إني قلت حين أحرمت، اللهمّ إني أهللت بما أهلّ به عبدك ورسولك؛ قال: فهلْ معك من هَدْي؟ قال: قلت: لا، قال: فأشركه رسولُ الله ﷺ في هديه وثبت على إحرامه مع رسول الله؛ حتى فرغا من الحجّ، ونحر رسول الله الهدْيَ عنهما.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عَمْرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن رُكانة، قال: لما أقبل عليٌّ بن أبي طالب من اليمن ليلقَى رسول الله بمكّة تعجّل إلى رسولِ الله، واستخلف على جنده الذين معه رجلًا من أصحابه، فعمَد ذلك الرجل، فكسا رجالاً من القوم حُلَلًا من البزّ الذي كان مع عليّ بن أبي طالب؛ فلما دنا جيشه؛ خرج عليٌّ ليلقاهم؛ فإذا هم عليهم الحُلَل، فقال: ويْحك ما هذا! قال: كسوت القوم ليتجمّلوا به إذا قدموا في الناس، فقال: ويلك! انْزِعْ من قبل أن تنتهيَ إلى رسول الله. قال: فانتزع الحُلل من الناس، وردّها في البزّ؛ وأظهر الجيشُ شكاية لما صُنع بهم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمَر بن حزْم، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عُجْرة، عن عمّته زينب بنت كعب بن عُجْرة ـ وكانت عند أبي سعيد الخدريّ ـ عن أبي سعيد، قال: شكا الناس عليّ بن أبي طالب، فقام رسول الله فينا خطيباً، فسمعته يقول: يا أيها الناس؛ لا تشكُوا عليًّا، فوالله إنه لأخشى في ذات الله ـ أو في سبيل الله ـ من أن يُشكَى.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجِيح، قال: ثمّ مضى رسولُ الله ﷺ على حجّه؛ فأرى الناس مناسكَهم، وأعلمهم سننَ حجّهم؛ وخطب الناس خطبته التي بيّن للناس فيها ما بيّن، فحمِد الله وأثنى عليه؛ ثم قال:

أيّها الناس، اسمعوا قولي؛ فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، وبهذا الموقف أبداً. أيّها الناس؛ إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ إلى أن تلقَوْا ربّكم كحرْمة يومكم هذا، وحرْمة شهركم هذا؛ وستلقوْن ربّكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بَلّغْتُ، فمن كانت عنده أمانة فليُؤدِّها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ كلّ رباً موضوع، ولكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإنّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلّه، وإنّ كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإنّ أوّل دم أضَعُ دمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضَعاً في بني ليث، فقتلتْه بنو هُذَيْل ـ فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهليّة.

أيّها الناس؛ إنّ الشيطان قد يئس من أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبداً؛ ولكنه رَضِيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيّها الناس: ﴿ إنّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْر يُضَلّ بِهِ الّذِينَ كَفرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً ويُحَرّمُونَهُ عاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرّمَ الله فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ الله ﴾(١)، ويُحَرّمُوا ما أَحَلّ الله وإنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلَق الله

---

(١) سورة التوبة: ٣٧.

السموات والأرض؛ و ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ الله يَوْم خَلَقَ السَّمواتِ وَالأرْضَ مِنْها أرْبعةٌ حُرُمٌ ﴾[1] ، ثلاثة متوالية؛ ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس؛ فإنّ لكم على نسائكم حقًّا ولهنّ عليكم حقًّا، لكم عليهنّ ألا يُوطِئن فرشَكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ألا يأتينَ بِفاحشة مُبَيِّنة؛ فإن فعلن فإنّ الله أذِن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهينَ فلهنّ رزقهنّ وكِسْوهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهنّ عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله؛ فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي؛ فإنّي قد بلّغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلنْ تضلُّوا أبداً؛ كتاب الله وسنة نبيّه.

أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بلّغت، واعقلوه. تعلَّمُنَّ أن كلّ مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طِيب نفس؛ فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغتُ! قال: فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله: اللهمّ اشهد.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه عبّاد، قال: كان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله وهو على عَرَفَة، ربيعة بن أميّة بن خلف، قال: يقول له رسول الله: قل: أيُّها الناس؛ إنّ رسول الله يقول: هل تدرون أيّ شهر هذا! فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: قل لهم: إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرْمة شهركم هذا. ثمّ قال: قلْ: إنّ رسولَ الله، يقول: أيّها الناس؛ فهل تدرُون أيّ بلد هذا؟ قال: فيصرخُ به، فيقولون، البلد الحرام، قال: فيقول: قل: إنّ الله حَرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أنْ تلقوْا ربّكم، كحرمة بلدكم هذا. ثم قال: قل: أيها الناس، هل تدرون أيّ يوم هذا؟ فقال لهم، فقالوا: يوم الحجّ الأكبر، فقال: قل: إن الله حرّم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوْا ربكم كحرمة يومكم هذا.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجيح، أنّ رسولَ الله حين وقف بعرَفة، قال: هذا الموقف ـ للجبل الذي هو عليه ـ وكلّ عرفة موقف. وقال حين وقف على قُزَح صبيحة المزدلفة: هذا الموقف، وكلّ المزدلفة موقف. ثم لما نحر بالمَنحر، قال: هذا المنحر، وكلّ مِنًى منحرٌ؛ فقضى رسولُ الله ﷺ الحجّ وقد أراهم مناسكَهم، وعلّمهم ما افترض عليهم في حجّهم في المواقف ورمْيِ الجمار والطواف بالبيت، وما أحلّ لهم في حجّهم وما حرّم عليهم؛ فكانت حجّة الوداع وحجّة البلاغ؛ وذلك أن رسول الله لم يحجّ بعدها.

قال أبو جعفر: وكانت غزواتُه بنفسه ستّاً وعشرين غزوة؛ ويقول بعضهم: هنّ سبع وعشرون غزوة؛ فمن قال: هي ستٌّ وعشرون، جعلَ غزوة النبيّ ﷺ خيبر وغزوته من خيبر إلى وادي القرى غزوة واحدة؛ لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أمرها إلى منزله؛ ولكنه مضى منها إلى وادي القرى؛ فجعل ذلك غزوة واحدة. ومن قال: هي سبع وعشرون غزوة، جعل غزوة خيبر غزوةً، وغزوة وادي القرى غزوة أخرى؛ فيجعل العدد سبعاً وعشرين.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: كان جميع

(١) سورة التوبة: ٣٦.

ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه ستًّا وعشرين غزوة. أول غزوة غزاها وَدَّان؛ وهي غزوة الأبواء، ثم غزوة بُوَاط إلى ناحية رَضْوَى، ثم غزوة العُشيرةمن بطن يَنْبُع، ثم غزوة بدر الأولى يطلب كُـرْز بن جابـر، ثم غزوة بـدر الكبرى التي قتل بها صناديد قريش وأشرافهم، وأسَر فيها مَنْ أسر، ثم غزوة بني سُليم حتى بلغ الكُدْر؛ ماء لبني سُليم، ثم غزوة السَّويق يطلب أبا سفيان حتى بلغ قرقرة الكُدْر، ثم غزوة غَطفان إلى نجد؛ وهي غزوة ذي أَمَر؛ ثم غزوة بَحْران؛ معدن بالحجاز من فوق الفُرع، ثم غزوة أُحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النَّضير، ثم غزوة ذات الرِّقاع من نخل، ثم غزوة بدْر الآخرة، ثم غزوة دُومة الجنْدل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قُريظة، ثم غزوة بني لِحْيان من هُذَيل، ثم غزوة ذي قَرَد، ثم غزوة بني المصطلِق من خُزاعة، ثم غزوة الحديبيَة ـ لا يريد قتالاً، فصدّه المشركون ـ ثم غزوة خيبر، ثم اعتمر عُمرة القضاء، ثم غزوة الفتح، فتح مكة، ثم غزوة حُنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك. قاتل منها في تسع غزوات: بدْر، وأُحُد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحُنين، والطائف.

حدّثنا الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: حدّثنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حَثْمة، عن أبيه، عن جدّه، قال: غَزا رسولُ الله ﷺ ستًّا وعشرين غزوة. ثم ذكر نحو حديث ابن حُميد، عن سَلَمة.

قال محمد بن عمر: مغازي رسول الله معروفة مجتمع عليها، ليس فيها اختلاف بين أحد في عددها؛ وهي سبع وعشرون غزوة؛ وإنما اختلفوا بينهم في تقديم مغزاة قبل مغزاة.

حدثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: حدّثني محمد بن عمر، قـال: حدّثنـا مُعاذ بن محمـد الأنصاريّ، عن محمد بن ثابت الأنصاريّ، قال: سئِل ابن عُمر: كَمْ غزا رسول الله ﷺ؟ قال: سبعا وعشرين غزوة، فقيل لابن عمر: كم غزوتَ معه؟ قال: إحدى وعشرين غزوة؛ أوّلها الخندق، وفاتني ستّ غزوات، وقد كنت حريصاً، قد عرضت على النبي ﷺ؛ كلّ ذلك يردّني فلا يجيزني حتى أجازني في الخندق.

قال الواقديّ: قاتلَ رسولُ الله ﷺ في إحدى عشرة، ذكر من ذلك التسع التي ذكرتها عن ابن إسحاق؛ وعدّ معها غزوة وادي القرى، وأنه قاتل فيها فقُتل غلامه مِدْعَم، رُمِي بسهم. قال: وقاتل يوم الغابة، فقتل من المشركين، وقُتل مُحْرزُ بن نضلة يومئذ.

واختلف في عدد سراياه ﷺ، حدّثنا محمد بن حُميـد، قال: حـدّثنا سلمـة، قال: حـدّثني محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: كانت سرايا رسولِ الله ﷺ وبعوثه ـ فيما بين أن قدِم المدينة وبين أن قبضه الله ـ خمساً وثلاثين بعثاً وسريَّة: سريّة عُبَيدة بن الحارث إلى أحياء من ثنيّة المَرَة، وهو ماء بالحجاز، ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر من ناحية العِيص ـ وبعض الناس يقدِّم غزوة حمزة قبل غزوة عبيدة ـ وغزوة سعد بن أبي وقّاص إلى الخَرَّار من أرض الحجاز، وغزوة عبدالله بن جحش إلى نخلة، وغزوة زيد بن حارثة القَرْدَة، ماء من مياه نجد؛ وغزوة مَرْثَد بن أبي مَرْثدٍ الغَنَوي الرّجيع، وغزوة المنذر بن عمرو بئر مَعُونة، وغزوة أبي عبيد بن الجرَّاح إلى ذي القَصة من طريق العراق، وغزوة عمر بن الخطاب تُرَبَة من أرض بني عامر، وغزوة عليّ بن أبي طالب اليمن، وغزوة غالب بن عبد الله الكلبيّ ـ كلب ليث ـ الكَدِيدَ ، وأصاب بلْمُلوّح، وغزوة عليّ بن أبي طالب إلى بني عبد الله بن سعد من أهل فَدَك، وغزوة ابن أبي العَوْجاء السُّلَميّ أرض بني سُلَيم؛ أصيب بها هو وأصحابه جميعاً، وغزوة عُكَاشة بن مِحْصن الغَمْرَة، وغزوة أبي سَلمة بن عبد الأسد قَطَناً؛

ماء من مياه بني أسد من ناحية نجد قُتل فيها مسعود بن عروة، وغزوة محمد بن مسلمة؛ أخي بني الحارث إلى القُرَطاء من هوازن، وغزوةبشير بن سعد إلى بني مُرَّة بفَدَك، وغزوة بشير بن سعد أيضاً إلى يُمن وجِناب؛ بلدمن أرض خيبر ـ وقيل يُمْن وجَبَار؛ أرض من أرض خيبر، وغزوة زيد بن حارثة الجَمُومَ؛ من أرض بني سليم، وغزوة زيد بن حارثة أيضاً جُذَام من أرض حِسْمَى ـ وقد مضى ذكر خبرها قبل ـ وغزوة زيد بن حارثة أيضاً وادي القُرى، لقيَ بني فَزارة.

وغزوة عبد الله بن رواحة خيْبَرَ مَرّتين: إحداهما التي أصاب الله فيها يُسَيْر بن رزام ـ وكان من حديث يُسير بن رزام اليهوديّ أنه كان بخيبر يجمع غَطَفَان لغزو رسولِ الله ﷺ، فبعث إليه رسولُ الله عبد الله بن رواحة في نفر من أصحابه؛ منهم عبد الله بن أنَيْس حليف بني سَلِمة، فلمّا قدِموا عليه كلّموه وواعدوه وقرّبوا له، وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول الله استعملك وأكرمك؛ فلم يزالوا به حتى خرج معهم في نفرٍ من يهود؛ فحمله عبد الله بن أنَيْس على بعيره وردفه حتى إذا كان بالقَرْقرة من خيبر على ستّة أميال ندِم يُسير بن رِزام على سيره إلى رسول الله، فَفطِن له عبد الله بن أنَيس وهو يريد السَّيف؛ فاقتحم به؛ ثم ضربه بالسيف فقطع رجْله وضربه يُسَيْر بمخرَش في يده من شَوْحط، فأمَّه في رأسه، وقتل الله يُسيراً؛ ومال كلّ رجل من أصحاب رسولِ الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله إلا رجلاً واحداً أفلت على راحلته؛ فلمّا قدم عبد الله بن أنَيس على رسول الله ﷺ تفل على شجَّتِه فلم تَقِح ولم تؤذِه.

وغزوة عبد الله بن عَتِيك إلى خيبر؛ فأصاب بها أبا رافع؛ وقد كان رسولُ الله ﷺ بعث محمد بن مسلمة وأصحابه ـ فيما بين بدر وأحد ـ إلى كعب بن الأشرف فقتلوه، وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنَيس إلى خالد بن سُفيان بن نُبَيْح الهُذليّ ـ وهو بنخلة أو بعُرَنة ـ يجمع لرسول الله ليغزوَه، فقتله.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبد الله بن أنَيْس، قال: دعاني رسولُ الله ﷺ، فقال: إنه بلغني أنّ خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهذليّ يجمع لي الناس ليغزوَني ـ وهو بنخلة أو بعُرَنَة ـ فأتِه فاقتلْه، قال: قلت: يا رسولَ الله؛ انعتْه لي حتى أعرفَه، قال: إذا رأيته أذكَرَك الشيطانَ! إنه آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قُشَعْريرة. قال: فخرجت متوشّحاً سيفِي حتى دفعت إليه وهو في ظُعُن يرتاد لهنّ منزلاً حيث كان وقت العصر؛ فلمّا رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القُشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن تكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصّلاة، فصلَّيت وأنا أمشي نحوه، أومىء برأسي إيماء؛ فلمّا انتهيتُ إليه قال: مَن الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمِع بك وبجمعك لهذا الرجل؛ فجاءك لذلك، قال: أجلْ، أنا في ذلك؛ فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف حتى قتلته؛ ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبّات عليه. فلمّا قدِمت على رسول الله وسلّمت عليه ورآني، قال: أفلح الوجه! قال: قلت: قد قتلته. قال: صدقت! ثم قام رسولُ الله فدخل بيته، فأعطاني عصا، فقال: أمْسِكْ هذه العصا عندك يا عَبدالله بن أنيس. قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله، وأمرني أن أمسكها عندي، قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله فتسأله لِمَ ذلك؟ فرجعتُ إلى رسولِ الله، فقلت: يا رسولَ الله، لِمَ أعطيتَني هذه العصا؟ قال: آية ما بيني وبينك يوم القيامة؛ إنّ أقلّ الناس المتخصّرون يومئذ؛ فقرنها عبدالله بسيفه، فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضُمّت معه في كفنه، ثم دفنا جميعاً.

ثم رجع الحديث إلى حديث عبد الله بن أبي بكر. قال: وغزوة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة إلى مُؤْتة من أرض الشام، وغزوة كعب بن عمير الغِفاريّ بذات أطلاح من أرض الشأم، فأصيب بها هو وأصحابه، وغزوة عيينة بن حصن بني العنبر من بني تميم؛ وكان من حديثهم أنّ رسول الله ﷺ بعثه إليهم؛ فأغار عليهم، فأصاب منهم ناساً، وسبى منهم سبياً.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، أنّ عائشة قالت لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله؛ إنّ عليَّ رقَبَةً من بني إسماعيل، قال: هذا سبيُ بني العنبر يقدُم الآن فنُعْطيك إنساناً فتُعْتقينه. قال ابن إسحاق: فلما قدِم سبيهُم على رسول الله ﷺ ركب فيهم وفدٌ من بني تميم، حتى قدِموا على رسول الله ﷺ؛ منهم ربيعة بن رُفيع، وسَبْرة بن عمرو، والقعقاع بن معبد، ووردْان بن محرز، وقيس بن عاصم، ومالك بن عمرو، والأقرع بن حابس، وحنظلة بن دارم، وفراس بن حابس. وكان ممّن سُبِيَ من نسائهم يومئذ أسماء بنت مالك، وكأس بنت أريّ، ونَجْوَة بنت نهد وجُمَيْعة بنت قيس، وعمرة بنت مَطر.

ثم رجع إلى حديث عبد الله بن أبي بكر. قال: وغزوة غالب بن عبد الله الكلبيّ ـ كلبِ ليث ـ أرض بني مُرَّة؛ فأصاب بها مرداس بن نَهيك؛ حليفاً لهم من الحُرَقة من جُهينة، قتله أسامة بن زيد ورجل من الأنصار، وهو الذي قال فيه النبيّ ﷺ لأسامة: مَنْ لك بلا إله إلا الله!

وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل، وغزوة ابن أبي حَدْرَد وأصحابه إلى بطن إضَم، وغزوة ابن أبي حَدْرد الأسلميّ إلى الغابة، وغزوة عبد الرحمن بن عوف.

وبعث سَريّةً إلى سِيف البحر، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح؛ وهي غزوة الخَبَط.

حدثني الحارث بن محمد، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: قال محمد بن عمر: كانت سرايا رسولِ الله ﷺ ثمانياً وأربعين سريّة.

قال الواقديّ: في هذه السنة قدِم جرير بن عبد الله البَجَليّ على رسول الله ﷺ مسلِماً في رمضان، فبعثه رسولُ الله إلى ذي الخَلَصَة فهدمها.

قال: وفيها قدم وَبرُ بن يُحَنّس على الأبناء باليمن، يدعوهم إلى الإسلام فنزل على بنات النعمان بن بُزُرْج فأسلمْن، وبعث إلى فيروز الديلميّ فأسلم، وإلى مركبود وعطاء ابنه، ووهب بن منبِّه، وكان أوّل مَنْ جمع القرآن بصنعاء ابنه عطاء بن مركبود ووهب بن منبِّه.

قال: وفيها أسلم باذان، وبعث إلى النبي ﷺ بإسلامه.

قال أبو جعفر: وقد خالف في ذلك عبد الله بن أبي بكر مَن قال: كانت مغازي رسول الله ﷺ ستًّا وعشرين غزوة، مَنْ أنا ذاكره.

حدّثنا أبو كُرَيب محمد بن العَلاء، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، قال: حدّثنا زُهير؛ عن أبي إسحاق، عن زيد بن أرقم، قال: سمعتُ منه أنّ رسولَ الله غزا تسع عشرة غزوة، وحجّ بعد ما هاجر حجةً، لم يحجّ غير حجّة الوداع. وذكر ابن إسحاق حجّة بمكة.

قال أبو إسحاق: فسألتُ زيدَ بن أرقم: كم غزوتَ مع رسول الله؟ قال: سبع عشرة.

حدّثنا ابن المثنّى، قال: حدّثنا محمد بن جعفر، حدّثنا شُعبة، عن أبي إسحاق؛ أن عبد الله بن يزيد الأنصاريّ خرج يستسقِي بالناس، قال:

فصلّى ركعتين ثم استسقى. قال: فلقيتُ يومئذ زيدَ بن أرقم، قال: ليس بيني وبينه غيرُ رجل - أو بيني وبينه رجل - قال: فقلت: كم غَزا رسولُ الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزوة، فقلت: كم غزوتَ معه؟ قال: سبع عشرة غزوة، فقلت: فما أوّلُ غزوة غزا؟ قال: ذات العُسير - أو العُشير.

وزعم الواقديّ أن هذا عندهم خطأ؛ حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: أخبرَنا إسرائيل، عن أبي إسحاق الهمْدانيّ، قال: قلت لزيد بن أرقم: كم غزوتَ مع رسولِ الله ﷺ؟ قال: سبع عشرة غزوة، قلت: كم غزا رسولُ الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزوة. قال الحارث: قال ابنُ سعد: قال الواقديّ: فحدّثت بهذا الحديث عبدَ الله بن جعفر، فقال: هذا إسناد أهلِ العراق؛ يقولون هكذا؛ وأوّل غزوة غزاها زيد بن الأرقم المُرَيْسيع؛ وهو غلام صغير، وشهد مُؤتة رديف عبد الله بن رَوَاحة؛ وما غزا مع النبي ﷺ إلا ثلاث غزوات أو أربعا.

ورُوِي عن مكحول في ذلك ما حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا ابنُ عمر، قال: حدّثني سُويد بن عبد العزيز، عن النعمان بن المنذر، عن مكحول، قال: غزا رسولُ الله ﷺ ثمانيَ عشرة غزوة، قاتل من ذلك في ثمانِ غزوات أوّلهنّ بدر وأُحُد والأحزاب وقريظة.

قال الواقديّ: فهذان الحديثان: حديث زيد بن الأرقم، وحديث مكحول جميعاً غلَط.

ذكر الخبر عن حجّ رسولِ الله ﷺ

حدّثني عبدُ الله بن أبي زياد، قال: حدّثنا زيدُ بن الحارث، عن سفيان الثوريّ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر، أنّ النبيّ ﷺ حجّ ثلاث حِجَج: حِجّتين قبل أن يهاجر، وحِجّة بعد ما هاجر، معها عُمرة.

حدّثنا عبد الحميد بن بيان، قال: أخبرنا إسحاق بن يوسف، عن شريك، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: اعتمرَ رسولُ الله ﷺ عُمْرتين قبل أن يحجّ، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: اعتمر رسولُ الله أربعَ عُمَر؛ قد علم ذلك عبد الله بن عمر، منهنّ عُمرةٌ مع حجّته.

حدّثنا محمد بن علي بن الحسن بن شَقِيق، قال: سمعتُ أبي، قال: حدّثنا أبو حمزة، عن مُطَرّف، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، قال: سمعت ابنَ عمر يقول: اعتمر رسولُ الله ﷺ ثلاث عُمَر. فبلغ عائشة، فقالت: لقد علم ابن عمر أنه اعتمر أربع عُمَر، منها عمرته التي قرن معها الحجّة.

حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد، قال: دخلتُ أنا وعروة بن الزُّبير المسجد؛ فإذا ابن عمر جالسٌ عند حجرة عائشة، فقلنا: كم اعتمر النبيّ ﷺ؟ فقال: أربعاً؛ إحداهنّ في رَجب، فكرهنا أن نكذّبه ونردّ عليه، فسمعنا استنان عائشة في الحُجْرة، فقال عروة بن الزبير: يا أمّهْ، يا أمّ المؤمنين، أما تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن! فقالت: وما يقول؟ قال: يقول: إنّ النبيّ ﷺ اعتمر أربع عُمر:

إحداهنّ في رجب، فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن! ما اعتمر النبيّ عمرةً إلّا وهو شاهد، وما اعتمر في رجب.

ذكر الخبر عن أزواج رسول الله ﷺ

ومَنْ منهنّ عاش بعده ومن منهنّ فارقه في حياته، والسبب الذي فارقه من أجله، ومن منهنّ مات قبله.

فحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: حدّثنا هشام بن محمد، قال: أخبرنِي أبي أنَّ رسولَ الله ﷺ تزوّج خمس عشرة امرأة؛ دخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة، وتوفّيَ عن تسع.

تزوّج في الجاهليّة، وهو ابن بضع وعشرين سنة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى، وهي أوّل مَنْ تزوّج، وكانت قبله عند عَتِيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ وأمّها فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ بن رَواحة بن حَجَر بن مَعِيص بن لؤيّ. فولدت لعتيق جارية، ثم توفّيَ عنها وخلَف عليها أبو هالة بن زُرَارة بن نَبّاش بن زُرارة بن حبيب بن سلامة بن غُذَيّ بن جُرْوَة بن أسيّد بن عمرو بن تميم؛ وهو في بني عبد الدار بن قصيّ. فولدت لأبي هالة هند بن أبي هالة؛ ثمّ توفِّي عنها فخلَف عليها رسول الله، وعندها ابنُ أبي هالة هند، فولدت لرسول الله ثمانية: القاسم، والطيّب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقيّة، وأمّ كلثوم، وفاطمة.

قال أبو جعفر: ولم يتزوّج رسولُ الله ﷺ في حياتها على خديجة حتى مضتْ لسبيلها؛ فلمّا توفّيت خديجة تزوّج رسول الله بعدها؛ فاختلف فيمن بدأ بنكاحها منهنّ بعد خديجة، فقال بعضهم: كانت التي بدأ بنكاحها بعد خديجة قبل غيرها عائشة بنت أبي بكر الصديق. وقال بعضهم: بل كانت سوْدة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر. فأما عائشة فكانت يوم تزوّجها صغيرة لا تصلح للجِماع؛ وأما سَوْدة فإنها كانت امرأة ثيّباً، قد كان لها قبل النبي ﷺ زوْج؛ وكان زوجها قبل النبيّ السّكران بن عمرو بن عبد شمس، وكان السَّكْران من مهاجرة الحبشة فتنصّر ومات بها؛ فخلف عليها رسول الله ﷺ وهو بمكة.

قال أبو جعفر: ولا خلاف بين جميع أهل العلم بسيرة رسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ بنَى بسوْدة قبل عائشة.

ذكر السبب الذي كان في خطبة رسول الله ﷺ عائشة وسودة والرواية الواردة بأولاهما كان عقد عليها رسول الله عقدة النكاح:

حدّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا محمد بن عمرو، قال: حدّثنا يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عائشة، قالت: لمّا توفّيت خديجة، قالت: خولة بنت حكيم بن أميّة بن الأوقص، امرأة عثمان بن مَظْعون وذلك بمكّة: أيْ رسولَ الله، ألا تزوَّج؟ فقال: ومَنْ؟ فقالت: إن شئت بكراً وإن شئتَ ثيّباً قال: فمَن البِكْر؟ قالت: ابنة أحبّ خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر، قال: ومَن الثيّب؟ قالت: سودة بنت زمعة بن قيس، قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه. قال: فاذهبي فاذكريها عليّ. فجاءت فدخلت بيت أبي بكر، فوجدتْ أمّ رُومان؛ أمّ عائشة، فقالت: أي أمّ رومان؟ ماذا أدخل الله عليكم

من الخير والبركة! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة، قالت: وددتُ! انتظري أبا بكر، فإنه آتٍ، فجاء أبو بكر، فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! أرسلني رسولُ الله أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه! فرجعتْ إلى رسول الله ﷺ، فقالت له ذلك، فقال: ارجعي إليه، فقولي له: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي؟؟ فأتت أبا بكر فذكرت ذلك له، فقال: انتظريني حتى أرجع، فقالت أم رُومان: إن المطعِم بن عدّي كان ذكرها على ابنِه، ولا والله ما وعد شيئاً قطّ فأخلف. فدخل أبو بكر على مطعِم، وعنده امرأته أمّ ابنه الذي كان ذكرها عليه، فقالت العجوز: يا ابن أبي قُحافة، لعلنا إن زوّجنا ابننا ابنتك أن تصبِئَه وتدخله في دينك الذي أنت عليه! فأقبل على زوجها المطعِم، فقال: ما تقول هذه؟ فقال: إنها تقول ذاك. قال: فخرج أبو بكر، وقد أذهب الله العِدَة التي كانت في نفسه من عِدَته التي وعدها إياه، وقال لخولة: ادعِي لي رسول الله، فدعتْه فجاء فأنكحه؛ وهي يومئذ ابنة ستّ سنين. قالت: ثم خرجتُ فدخلت على سَوْدة فقالت: أي سَوْدة، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسولُ الله يخْطبك عليه، قالت: فقالت: وددت! ادخلي على أبي فاذكري له ذلك، قالت: وهو شيخ كبير قد تخلّف عن الحجّ، فدخلت عليه فحيّيته بتحية أهل الجاهليّة! ثم قلت: إن محمّد بن عبدالله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه سَوْدة، قال: كفءٌ كريمٌ؛ فماذا تقول صاحبته؟ قالت: تحبّ ذلك، قال: ادعيها إليّ، فدعيت له، فقال: أيْ سودة، زعمتْ هذه أنّ محمد بن عبدالله بن عبد المطلب أرسل يخطبك وهو كفءٌ كريم، فتحبّين أن أزوِّجكه؟ قالت: نعم، قال: فادعيه لي، فدعتْه، فجاء فزوّجه، فجاء أخوها من الحجّ؛ عبد بن زمعة، فجعل يحثي في رأسه التراب، فقال بعد أن أسلم: إنّي لسفيهٌ يوم أحثِي في رأسي التراب أن تزوّج رسول الله سودة بنت زمعة! قال: قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فنزل أبو بكر السُّنْح في بني الحارث بن الخزرج، قالت: فجاء رسولُ الله فدخل بيتنا، فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أمّي وأنا في أرجوحة بيْنَ عَذقين يرجَّح بي، فأنزلتني ثم وفَتْ جُميمة كانت لي ومسحت وجهي بشيء من ماء، ثم أقبلت تقودني، حتى إذا كنتُ عند الباب وقفت بي حتى ذهب بعض نفَسي ثم أدخلت ورسول الله جالسٌ على سرير في بيتنا. قالت: فأجلستني في حجره، فقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهنّ وبارك لهنّ فيك! ووثب القوم والنساء، فخرجوا، فبنى بي رسول الله في بيتي، ما نحِرت جَزورٌ ولا ذُبحت عليّ شاة، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجَفْنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ.

حدّثنا عليّ بن نَصْر، قال: حدّثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ـ وحدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، قال: حدّثني أبي ـ قال: حدّثنا أبان العطار، قال: حدّثنا هِشام بن عروة، عن عُروة، أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان: إنك كتبت إليّ في خديجة بنت خويلد تسألني: متى توفيّت؟ وإنها توفيت قبل مخرَج رسول الله ﷺ من مكة بثلاث سنين أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة متوفَّى خديجة، كان رسول الله رأى عائشة مرّتين، يقال له: هذه امرأتك، وعائشة يومئذ ابنة ستّ سنين.

ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعائشة بعد ما قدم المدينة وهي يوم بنى بها ابنة تسع سنين.

رجع الخبر إلى خبر هشام بن محمد. ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر ـ واسمه عتيق بن أبي قُحافة، وهو عثمان ـ ويقال عبد الرحمن بن عثمان ـ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة، تزوّجها قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي ابنة سبع سنين؛ وجمع إليها بعد أن هَاجر إلى المدينة وهي ابنة تسع سنين

في شوّال؛ فتوفِّيَ عنها وهي ابنة ثمان عشرة، ولم يتزوّج رسول الله ﷺ بكْراً غيرها، ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطّاب بن نُفيل بن عبد العزَّى بن رِيَاح بن عبد الله بن قُرْط بن كعب ـ وكانت قبله عند خُنَيْس بن حُذافة بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم. وكانَ بدريًّا، شهد بـدراً مع رسول الله ﷺ ـ فلم تلد له شيئاً، ولم يشهد من بني سهم بدراً غيره.

ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ أمّ سلَمة، واسمها هند بنت أبي أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ وكانت قبله عند أبي سلَمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وشهد بدراً مع رسولِ الله ﷺ، وكان فارسَ القوم، فأصابته جراحة يوم أُحد فمات منها؛ وكان ابن عمة رسول الله ورضيعه، وأمّه برّة بنت عبد المطلب ولدت له عمر، وسلمة، وزينب، ودُرّة، فلما مات كبّر رسول الله ﷺ على أبي سلمة تسع تكبيرات، فلمّا قيل: يا رسول الله، أسهوتَ أم نسيت؟ قال: لم أسْهُ ولم أنْسَ؛ ولو كبّرت على أبي سلمة ألفاً كان أهلًا لذلك؛ ودعا النبيّ ﷺ لأبي سلمة بخَلَفه في أهله. فتزوّجها رسول الله ﷺ قبل الأحزاب سنة ثلاث، وزوّج سلمة بن أبي سَلمة ابنةَ حمزة بن عبد المطلب.

ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ عام المرَيْسيع جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن مالك بن جَذِيمة ـ وهو المصطلق بن سعد بن عمرو ـ سنة خمس، وكانت قبله عند مالك بن صفوان ذي الشُّفر بن أبي سَرْح بن مالك بن المصطلق؛ لم تلد له شيئاً؛ فكانت صفيّة رسول الله ﷺ يوم المريسيع، فأعتقها وتزوّجها، وسألتْ رسولَ الله ﷺ عتق ما في يده من قومها، فأعتقهم لها.

ثمّ تزوّج رسولُ الله ﷺ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب؛ وكانت عند عبيدالله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صَبِرَة بن مرّة بن كَبِير بن غَنْم بن دُودان بن أسد ـ وكانت من مُهاجرات الحبشة هي وزوجها، فتنصّر زوجُها وحاولها أن تتابعه فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانيّة، فبعث رسول الله ﷺ إلى النجاشيّ فيها، فقال النجاشيّ لأصحابه: مَنْ أولاكم بها؟ قالوا: خالد بن سعيد بن العاص، قال: فزوِّجْها من نبيّكم، ففعل وأمهرها أربعمائة دينار. ويقال: بل خَطَبها رسولُ الله ﷺ إلى عثمان بن عفان، فلمّا زوّجه إياها بعث إلى النجاشيّ فيها، فساق عنه النجاشيّ، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ.

ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ زينبَ بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبِـرة؛ وكانت قبله عنـد زيد بن حارثة بن شراحيل مولَى رسول الله ﷺ، فلم تلد له شيئاً، وفيها أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ...﴾[1] إلى آخر الآية، فزوّجها الله عزّ وجلّ إياه، وبعث في ذلك جبريل؛ وكانت تَفْخَر على نساء النبيّ ﷺ، وتقول: أنا أكرمكن وليًّا، وأكرمكنّ سَفيراً.

ثم تزوّج رسول الله ﷺ صَفِية بنت حُيَيّ بن أخطب بن سَعْيَة بن ثعلبة بن عُبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النَّضِير؛ وكانت قبله تحت سلّام بن مِشْكَم بن الحكَم بن حارثة بن الخزرج بن كعب بن الخزرج؛ وتوفّي عنها وخلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق، فقتله محمد بن مسلمة بأمر النبيّ ﷺ، ضرب عنقه صبراً، فلما تصفّح النبيّ ﷺ السّبيَ يوم خَيبر، ألقى رداءه على صفيّة، فكانت صَفِيَّةُ يوم خيبر؛ ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها؛ وذلك سنة ستّ.

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٧.

ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ ميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَير بن الهُزَم بن رُوَيْبة بن عبدالله بن هلال؛ وكانت قبله عند عمير بن عمرو، من بني عُقْدة بن عوف بن قَمِيّ ـ وهو ثقيف ـ لم تلد له شيئاً، وهي أخت أمّ الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب، فتزوّجها رسولُ الله ﷺ بسَرِف في عُمْرة القضاء؛ زوّجها إياه العباس بن عبد المطلب؛ فتزوّجها رسولُ الله.

وكلُّ هؤلاء اللواتي ذكرنا أنّ رسولَ الله ﷺ تزوّجهن إلى هذا الموضع، توفّي رسولُ الله وهنّ أحياء، غير خديجة بنت خويلد.

ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ امرأةً من بني كلاب بن ربيعة؛ يقال لها النشاة بنت رفاعة، وكانوا حلفاءَ لبني رفاعة من قُريظة. وقد اختلف فيها، وكان بعضُهم يسمِّي هذه سَنَا وينسبها، فيقول: سنا بنت أسماء بن الصَّلْت السُّلَمية. وقال بعضهم: هي سبا بنت أسماء بن الصَّلْت من بني حرام من بني سُليم. وقالوا: توفّيت قبل أن يدخل بها رسولُ الله ﷺ، ونسبها بعضهم فقال: هي سنا بنت الصَّلْت بن حبيب بن حارثة بن هلال بن حرام بن سمّال بن عَوْف السُّلَمِيّ.

ثمّ تزوّج رسولُ الله ﷺ الشَّنْباء بنت عمرو الغِفاريّة. وكانوا أيضاً حلفاءَ لبني قُرَيظة، وبعضُهم يزعم أنها قُرَظيّة، وقد جهل نسبها لهلاك بني قُرَيظة، وقيل أيضاً إنها كنانيّة، فَعَرَكَت حين دخلت عليه؛ ومات إبراهيم قبل أن تطهُر، فقالت: لو كان نبيّاً ما مات أحبُّ النّاس إليه؛ فسرَّحها رسولُ الله ﷺ.

ثمّ تزوّج رسول الله ﷺ غَزيّة بنت جابر من بني أبي بكر بن كلاب، بلغ رسول الله عنها جمالٌ وبسطة، فبعث أبا أَسَيْد الأنصاريّ، ثم الساعديّ، فخطبها عليه. فلما قدمتْ على النبيّ ﷺ ! وكانت حديثة عهد بالكفر، فقالت: إنيّ لم أستأمرْ في نفسي، إني أعوذ بالله منك! فقال النبيّ ﷺ: امتنع عائذُ الله. وردّها إلى أهلها؛ يقال: إنها من كِنْدة.

ثم تزوّج رسولُ الله ﷺ أسماء بنت النعمان بن الأسود بن شَرَاحيل بن الجَوْن بن حُجْر بن معاوية الكنديّ، فلما دخل بها وجد بها بياضاً فمتّعها وجهّزها وردّها إلى أهلها؛ ويقال: بل كان النعمان بعثَ بها إلى رسولِ الله فسرّحَتْه، فلما دخلت عليه استعاذت منه أيضاً، فبعث إلى أبيها، فقال له: أليست ابنتك؟ قال: بلى، قال لها: ألست ابنته؟ قالت: بلى، قال النعمان: عليكها يا رسولَ الله، فإنها وإنها. . . وأطْنَبَ في الثناء فقال: إنها لم تِيجَعْ قطّ، ففعل بها ما فعل بالعامريّة، فلا يُدْرَى: ألقولها أم لقول أبيها: «إنها لم تِيجعْ قطّ».

وأفاء الله عزّ وجلّ على رسوله ريحانة بنت زيد، من بني قُرَيظة.

وأهدِيَ لرسول الله ﷺ مارية القبطية، أهداها له المُقَوقس صاحبُ الإسكندرية، فولدَتْ له إبراهيم بن رسول الله.

فهؤلاء أزواج رسول الله ﷺ، منهنّ ستّ قرَشيّات.

قال أبو جعفر: وممن لم يذكر هشام في خبره هذا ممّن روى عن رسول الله ﷺ أنه تزوّجه من النساء: زَيْنب بنت خزيمة ـ وهي التي يقال لها أمّ المساكين ـ من بني عامر بن صعصعة، وهي زينب بنت خُزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت قبل رسول الله عند الطّفيل بن

الحارث بن المطلب، أخي عبيدة بن الحارث، توفّيت عند رسولِ الله ﷺ بالمدينة.

وقيل إنه لَمْ يَمُتْ عند رسول الله في حياته من أزواجه غيرها وغير خديجة وشَرَاف بنت خليفة، أخت دِحْية بن خليفة الكلبيّ، والعالية بنت ظَبيان.

حدّثني ابن عبدالله بن عبد الحكَم، قال: حدّثنا شُعَيْب بن الليث، عن عُقَيل، عن ابن شهاب، قال: تزوّج رسولُ الله ﷺ العالية؛ امرأة من بني أبي بكر بن كلاب فمتّعها، ثمّ فارقها، وقُتَيْلة بنت قيس بن معد يكرب أخت الأشعث بن قيس، فتوفّيَ عنها قبل أن يدخل بها، فارتدّت عن الإسلام مع أخيها، وفاطمة بنت شُرَيح.

وذُكِر عن ابن الكلبيّ أنّه قال: غَزِيَّة بنت جابر، هي أمّ شريك، تزوّجها رسولُ الله ﷺ بعد زوجٍ كان لها قبله؛ وكان لها منه ابنٌ يقال له شريك، فكُنيت به. فلمّا دخل بها النبيّ ﷺ وجدها مسنّةً، فطلّقها، وكانت قد أسلمت؛ وكانت تدخل على نساء قريش فتدعوهنّ إلى الإسلام.

وقيل: إنه تزوّج خَوْلة بنت الهُذَيل بن هُبيرة بن قَبِيصة بن الحارث؛ رُوِيَ ذلك عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

وبهذا الإسناد أن ليلَى بنت الخَطِيم بن عديّ بن عمرو بن سَواد بن ظَفَر بن الحارث بن الخزرج، أقبلت إلى النبيّ ﷺ وهو مُوَلّ ظهرَه الشمسَ، فضربتْ على منكِبه، فقال: مَنْ هذه؟ قالت: أنا ابنة مبارِي الريح، أنا ليلى بنت الخَطِيم، جئتك أعرِض عليك نفسي فتزوّجْني، قال: قد فعلت، فرجعت إلى قومها، فقالت: قد تزوّجني رسول الله، فقالوا: بئسما صنعت! أنت امرأة غَيْرَى؛ والنبيُّ صاحبُ نساء، استقيليه نفسك، فرجعتْ إلى النبيّ ﷺ، فقالت: أقلني، قال: قد أقلتك.

وبغير هذا الإسناد أنّ النبيّ ﷺ تزوّج عَمْرة بنت يزيد، امرأة من بني رُؤاس بن كلاب.

ذكر مَنْ خطب النبيّ
صلى الله عليه وسلم من النساء ثم لم ينكحهنّ

منهنّ أم هانىء بنت أبي طالب، واسمها هِنْد، خطبها رسولُ الله ﷺ ولم يتزوّجها؛ لأنها ذكرتْ أنها ذات ولَد.

وخطب ضُبَاعة بنت عامر بن قُرْط بن سَلمة بن قُشَير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة إلى ابنها سلَمة بن هشام بن المغيرة، فقال: حتى استأمِرَها، فأتاها فقال: إنّ النبي ﷺ خطبك، فقالت: ما قلتَ له؟ قال: قلت له حتى أستأمِرَها! قالت: وفي النبيّ يُسْتأمَرُ! ارْجِعْ فزَوّجْه؛ فرجع فسكت عنه النبيّ ﷺ، وذلك أنه أخبر أنها قد كبِرَتْ.

وخطب ـ فيما ذكر ـ صَفِيّة بنت بشامة أخت الأعْوَر العنبريّ، وكان أصابها سِباء، فخيّرها، فقال: إن شئتِ أنا وإن شئت زَوْجك، قالت: بل زوجي؛ فأرسلها.

وخطب أمّ حبيب بنت العبّاس بن عبد المطلب، فوجد العباس أخاه من الرضاعة، أرضعتهما ثُوَيبة.

وخطب جَمْرة بنت الحارث بن أبي حارثة، فقال أبوها - فيما ذكر: بها شيء، ولم يكن بها شيء، فرجع فوجدها قد بَرِصَتْ.

ذكر سراري رسول الله ﷺ

وهي مارية بنت شمعون القِبْطِيَّة، وريحانة بنت زيد القُرَظيَّة. وقيل: هي من بني النَّضِير. وقد مضى ذكر أخبارهما قبل.

ذكر موالي رسول الله ﷺ

فمنهم زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد، وقد ذكرنا خبره فيما مضى. وثَوْبان - مولى رسول الله، فأعتقه، ولم يزل معه حتى قُبض، ثم نزل حِمْص وله بها دار وقْف؛ ذكر أنه توفي سنة أربع وخمسين في خلافَة معاوية. وقال بعضُهم: بل كان سكن الرَّمْلة، ولا عقِب له.

وشُقْرَان - وكان من الحبشة، اسمه صالح بن عديّ؛ اختلف في أمرِه. قد ذكر عن عبدالله بن داود الخُرَيْبيّ أنه قال: شُقْران ورِثه رسولُ الله ﷺ عن أبيه. وقال بعضهم: شُقْران من الفرس، ونسبه فقال: هو صالح بن حول بن مهر بود.

نسب شُقْران مولى رسول الله ﷺ في قول مَنْ نسبه إلى عجم الفرس. زعم أنه صالح بن حول بن مهربوذ بن آذَر جُشْنَس بن مهربان بن فيران بن رستَم بن فيروز بن ماي بن بهرام بن رشتهري، وزعم أنهم كانوا من دَهاقين الرّيّ.

وذكر عن مصعب الزبيريّ أنه قال: كان شُقران لعبد الرحمن بن عوف. فوهبه للنبيّ ﷺ وأنه أعقب؛ وأن آخرهم مؤبا، رجلٌ كان بالمدينة من ولده، كان له بالبصرة بقيّة.

ورُوَيْفع - وهو أبو رافع مولَى رسول الله ﷺ، اسمه أسلم. وقال بعضهم: اسمه إبراهيم. واختلفوا في أمره؛ فقال بعضُهم: كان للعباس بن عبدالمطلب، فوهبه لرسول الله ﷺ، فأعتقه رسول الله. وقال بعضهم: كان أبو رافع لأبي أحَيْحة سعيد بن العاص الأكبر فورثه بنوه، فأعتق ثلاثةٌ منهم أنصباءهم منه، وقُتِلوا يوم بدر جميعاً؛ وشهد أبو رافع معهم بدراً، ووهب خالد بن سعيد نصيبَه منه لرسول الله ﷺ فأعتقه رسولُ الله.

وابنه البهيّ - اسمه رافع.

وأخو البهيّ عُبيدة الله بن أبي رافع - وكان يكتُب لعليّ بن أبي طالب، فلما وَلِيَ عمرو بن سعيد المدينةَ دعا البهيّ، فقال: مَنْ مولاك؟ فقال: رسولُ الله، فضربه مائةَ سوط، وقال: مولى مَنْ أنت! قال: مولى رسولِ الله، فضربه مائة سوط؛ فلم يزل يفعل به ذلك كلّما سأله: مَولى من أنت؟ قال: مولى رسول الله؛ حتى ضربه

خمسمائة سوط، ثم قال: مَوْلَى مَنْ أنت؟ قال: مولاكم، فلمّا قتل عبدُ الملك عمرَو بن سعيد قال البهيّ بن أبي رافع:

صَحَّتْ ولَا شَلَّتْ وَضَـرَّتْ عَـدُوَّهَـا ... يَمِيـنُ هَـرَاقَتْ مُـهْجَـةَ آبْـنِ سَعِيـدِ
هُـوَ آبْنُ أَبِي العـاصِي مِـرَاراً ويَنْتَمِي ... إلـى أُسْـرَةٍ طـابـتْ لـه وجُـدُودِ

وسَلْمان الفارسيّ ـ وكنيته أبو عبدالله من أهل قرية أصبهان؛ ويقال: إنه من قرية رامَهُرْمُز؛ فأصابه أسرٌ من بعض كَلْب، فبيع من بعض اليهود بناحية وادي القُرى؛ فكاتب اليهوديّ، فأعانه رسولُ الله ﷺ والمسلمون حتى عَتَق. وقال بعضُ نسّابة الفُرس: سلْمان من كورسابور، واسمه مابه بن بوذخشان بن ده ديره.

وسَفِينة ـ مولَى رسول الله ﷺ، وكان لأمّ سلمة فأعتقته؛ واشترطت عليه خِدْمة رسول الله ﷺ حياتَه، قيل: إنه أسوَد؛ واختلِف في اسمه، فقال بعضهم: اسمه مِهران، وقال بعضهم: اسمه رَبَاح، وقال بعضهم: هو مِن عجم الفرس؛ واسمه سبيه بن مارقيه، وأنسة. يكنى أبا مُسَرَّح، وقيل: أبا مَسْرُوح. كان من مولّدى السراة؛ وكان يأذن على رسولِ الله ﷺ إذا جلس، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: أصلُه من عَجَم الفرس؛ كانت أمّه حبشيّةً وأبوه فارسيًّا. قال: واسم أبيه بالفارسية كردوي بن أشرنيده بن أدوهر بن مهرادر بن كحنكان من بني مهجوار بن يوماست.

وأبو كَبْشَة ـ واسمه سُلَيْم، قيل إنه كان من مولّدي مكة، وقيل: من مولّدي أرض دَوْس، ابتاعه رسولُ الله ﷺ فأعتقه، فشهِد مع رسولِ الله بدْراً وأحُداً والمشاهدَ. تُوُفِّيَ في أوّلِ يوم استُخلِف فيه عمر بن الخطاب، سنة ثلاث عشرة من الهجرة.

وأبو مُوَيْهِبَة ـ قيل: إنه كان من مولَّدي مُزَينة، فاشتراه رسولُ الله ﷺ فأعتقه.

ورَبَاح الأسود ـ كان يأذن لرسولِ الله ﷺ.

وفَضَالة ـ مولى رسول الله ﷺ نَزَل ـ فيما ذكر ـ الشأم.

ومِدْعَم ـ مولَى رسولِ الله ﷺ، كان عبداً لرفاعة بن زيد الجُذَاميّ، فوهبه لرسول الله، فقتِل بوادي القُرى، يوم نزل بهم رسول الله، أتاه سهم غَرْب فقتله.

وأبو ضُمَيرة ـ كان بعضُ نسّابة الفرس زعم أنه من عجم الفرس، من ولَدِ كشتاسب الملك، وأنّ اسمه واح بن شيرز بن بيرويس بن تاريشمه بن ماهوش بن باكمبر. وذكر بعضهم أنه كان ممن صار في قَسْم رسول الله في بعض وقائعه، فأعتقه، وكتب له كتاباً بالوصيّة؛ وهو جَدُّ حسين بن عبدالله بن أبي ضُميرة، وأن ذلك الكِتاب في أيدي ولد ولده وأهل بيته، وأنّ حسين بن عبدالله هذا قدم على المهديّ ومعه ذلك الكتاب، فأخذه المهديّ فوضعه على عينيه، ووصله بثلاثمائة دينار.

ويَسَار ـ وكان فيما ذكر نوبيًّا؛ كان فيما وقع في سهم رسولِ الله ﷺ في بعض غزواته فأعتقه؛ وهو الذي قتله العُرَنيُّون الذين أغاروا على لِقاح رسول الله.

ومِهْران ـ حدّث عن رسول الله ﷺ.

وكان له خَصيٌّ يقال له مابور ـ كان المقوقس أهداه إليه مع الجاريتين اللتيْن يقال لإحداهما مارية، وهي

التي تَسرّى بها والأخرى سِيرين وهي التي وَهَبها رسولُ الله ﷺ لحسان بن ثابت، لما كان من جناية صفوان بن المعطّل عليه، فولدتْ لحسان ابنَه عبد الرحمن بن حسّان. وكان المقوقس بعث بهذا الخصيّ مع الجاريتين اللتين أهداهما لرسولِ الله ﷺ ليوصلهما إليه، ويحفظهما من الطريق حتى تَصلا إليه. وقيل: إنه الذي قُذِفت مارية به، فبعث رسولُ الله ﷺ عليًّا وأمره بقتله، فلمّا رأى عليًّا وما يريد به تكشّف حتى تبيّن لعليّ أنه أجبُّ لا شيء معه مما يكون مع الرجال، فكفّ عنه عليٌّ. وخرج إليه من الطائف - وهو محاصِرٌ أَهْلها - أعبدٌ لهم أربعة، فأعتقهم ﷺ، منهم أبو بَكْرة.

ذكر من كان يكتب لرسول الله ﷺ

ذُكِر أنّ عُثمان بن عفّان كان يكتب له أحياناً، وأحياناً عليّ بن أبي طالب، وخالد بن سعيد،وأبان بن سعيد، والعَلاء بن الحضرميّ.

قيل: أوّل مَنْ كتب له أبيّ بن كعب؛ وكان إذا غاب أبيّ كتب له زيد بن ثابت.

وكتب له عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، ثم ارتدّ عن الإسلام، ثم راجع الإسلام يوم فتح مكة.

وكتب له معاوية بن أبي سفيان، وحنظلة الأسَيِّديّ.

أسماء خيل رسول الله ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: حدّثنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حَثْمة، عن أبيه، قال: أوّل فرس ملَكه رسولُ الله ﷺ فرسٌ ابتاعه بالمدينة من رجُلٍ من بني فَزارة بعشر أواق، وكان اسمه عند الأعرابيّ الضَّرِس، فسمّاه رسول الله السَّكْب؛ وكان أوّلَ ما غزا عليه أحُدٌ، ليس مع المسلمين يومئذ فرس غيره، وفرس لأبي بُرْدة بن نِيَار، يقال له مُلاَوح.

حدّثني الحارث، قال: أخبرنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: سألت محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حَثْمة عن المرتجز، فقال: هو الفرس الذي اشتراه من الأعرابيّ الذي شهد له فيه خُزَيْمَة بن ثابت؛ وكان الأعرابيّ من بني مرّة.

حدّثني الحارث قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: أخبرنا أبيّ بن عباس بن سهل، عن أبيه، عن جدّه، قال: كان لرسول الله ﷺ ثلاثة أفراس: لِزَاز، والظَّرِب، والَّلخِيف؛ فأما لِزَاز فأهداه له المقوقس، وأما الَّلخِيفُ فأهداه له ربيعة بن أبي البرَاء؛ فأثابه عليه فرائضَ من نَعَم بني كلاب، وأمّا الظَّرِب فأهداه له فَرْوة بن عمرو الجُذاميّ. وأهدى تميم الداريّ لرسول الله فرساً يقال له: الوَرْد، فأعْطاه عمر؛ فحمل عليه عمر في سبيل الله، فوجده يَبْاع.

وقد زعم بعضُهم أنه كان له مع ما ذكرت من الخيل فرس يقال له اليَعْسُوب.

ذكر أسماء بغال رسول الله ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: حدّثنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه، قال: كانت دُلْدُل بغلَة النبيّ ﷺ أوّل بغلة رُئيت في الإسلام، أهداها له المقوقِس وأهدى له

معها حماراً يقال له عُفيْر؛ فكانت البغلة قد بقيَتْ حتى كان زمن معاوية.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: أخبرنا معمَر، عن الزهريّ، قال: دُلْدُل أهداها له فَرْوة بن عمرو الجذاميّ.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: أخبرَنا أبو بكر بن عبدالله بن أبي سَبْرة، عن زامل بن عمرو، قال: أهدى فَرْوة بن عمرو إلى النبيّ ﷺ بغلة يقال لها فضّة؛ فوهبها لأبي بكر، وحمارَه يعْفُور؛ فنفق منصرفَه من حجة الوداع.

ذكر أسماء إبله

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني موسى بن محمد بن إبراهيم التيميّ، عن أبيه، قال: كانت القَصْواء من نَعَم بني الحريش، ابتاعها أبو بكر وأخرى معها بثمانمائة درهم، وأخذها منه رسول الله ﷺ بأربعمائة؛ فكانت عنده حتى نفقت؛ وهي التي هاجر عليها؛ وكانت حين قدم رسولُ الله المدينة رَباعية، وكان اسمها القصواء والجَدْعاء والعَضْباء.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرَنا محمد بن عمر قال: حدّثني ابن أبي ذئب، عن يحيى بن يعلَى، عن ابن المسيّب، قال: كان اسمها العَضْباء؛ وكان في طرف أذنها جَدْع.

ذكر أسماء لقاح رسول الله ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني معاوية بن عبدالله بن عبيدالله بن أبي رافع، قال: كانت لرسول الله ﷺ لِقاح، وهي التي أغار عليها القوم بالغابة، وهي عشرون لَقْحة، وكانت التي يعيش بها أهلُ رسول الله ﷺ يراح إليه كلّ ليلة بقرْبَتَيْن عظيمتين من لبن فيها لِقَاحٌ غِزَارٌ: الحناء، والسَّمْراء، والعريس، والسَّعْدِية، والبَغوم، واليَسيرة، والرَّيَّا.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني هارون بن محمد، عن أبيه، عن نَبْهان؛ مولَى أمّ سلَمة، قال: سمعتُ أمّ سلَمَة، تقول: كان عيشُنا مع رسول الله اللبن - أو قالت أكثر عيشنا - كانت لرسول الله لِقاح بالغابَة كان قد فرّقها على نسائه، فكانت فيها لقحة تُدعى العريس؛ وكنا منها فيما شئنا من اللبن، وكانت لعائشة لِقحة تدعى السمراء غزيرة، لم تكن كلَقحتي، فقرّب راعيهنّ اللقَاحَ إلى مَرعًى بناحية الجوّانيّة، فكانت تروح على أبياتنا فنؤتَى بهما فتحلبان، فتوجَدُ لقحته أغزر منها بمثل لبنها أو أكثر.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدّثنا عبد السلام بن جُبَيْر، عن أبيه، قال: كانت لرسول الله ﷺ لقائح تكون بذي الجَدْر، وتكون بالجَمَّاء، فكان لبنُها يَؤوب إلينا؛ لِقحة تدعى مهرة، أرسل بها سعدُ بن عُبادة من نَعم بني عُقَيل وكانت غزيرة؛ وكانت الرّيّا والشقراء ابتاعهما بسوق النَّبَط من بني عامر، وكانت بردة، والسمراء، والعريس، واليسيرة، والحناء، يُحْلَبْنَ ويُراح إليه بلبنهنّ كلّ ليلة؛ وكان فيها غلام للنبي ﷺ اسمه يَسَار، فقتَلوه.

ذكر أسماء منائح رسول الله ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرَنا محمد بن عمر، قال: حدّثني زكريا بن يحيى، عن إبراهيم بن عبدالله، من ولد عُتْبة بن غَزْوَان، قال: كانت منائحُ رسول الله ﷺ سبعاً: عجوَة، وزَمْزم، وسُقْيَا، وبَرَكة، ووَرَسة، وأطلال، وأطراف.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد، قال: حدّثني أبو إسحاق، عن عبّاد بن منصور، عن عِكْرمة، عن ابن عباس، قال: كانت منائحُ رسولِ الله ﷺ سبع أعْنُز منائح، يرعاهنّ ابنُ أم أيمن.

ذكر أسماء سيوف رسول الله ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا أبو بكر بن عبدالله بن أبي سَبْرة، عن مَرْوان بن أبي سعيد بن المعلّى، قال: أصاب رسولُ الله ﷺ من سلاح بني قَيْنُقاع ثلاثة أسياف: سيفاً قَلَعياً، وسيفاً يُدعى بَتّاراً، وسيفاً يدعى الحَتْف؛ وكان عنده بعد ذلك المِخْذَم ورَسُوب، أصابهما من الفِلْس. وقيل إنه قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ ومعه سيفان، يقال لأحدهما: القضيب، شهد به بدراً، وسيفه ذو الفَقَار غَنِمه يوم بدر، كان لمنبه بن الحجّاج.

ذكر أسماء قِسِيّه ورماحه ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا أبو بكر بن عبدالله بن أبي سَبْرة، عن مَرْوان بن أبي سعيد بن المعلّى، قال: أصابَ رسولُ الله ﷺ من سلاح بني قَيْنُقاع ثلاثة أرماح وثلاث قِسِيّ: قَوْس الرّوحاء، وقَوْس شَوْحَط، تدعى البَيْضاء، وقوس صَفْرَاء تدعَى الصفراء من نَبْع.

ذكر أسماء دروعه ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرَنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا أبو بَكْر بن عبدالله بن أبي سَبْرة، عَن مَرْوان بن أبي سعيد بن المعلّى، قال: أصاب رسول الله ﷺ من سلاح بني قَيْنُقاع درعيْن؛ درع يقال لها السعْدية، ودرع يقال لها فضّة.

حدّثني الحارث، قال: حدّثني ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني موسى بن عمر، عن جعفر بن محمود، عن محمد بن مسلمة، قال: رأيتُ على رسول الله ﷺ يومَ أُحُد دِرْعيْن: درعُه ذاتُ الفُضول ودرعُه فضّة، ورأيت عليه يوم خَيْبر درعين: ذات الفضول والسّعدية.

ذكر تُرسه ﷺ

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا عتّاب بن زياد، قال: أخبرَنا عبدالله بن المبارك، قال: أخبرنا عبدُ الرّحمن بن يزيد بن جابر، قال: سمعتُ مكحولا يقول: كان لرسولِ الله ﷺ تُرس فيه تمثال رأس كبشٍ، فكره رسولُ الله مكانَه، فأصبح يوماً وقد أذهبه الله عزّ وجلّ.

ذكر أسماء رسول الله ﷺ

حدّثني محمد بن المثنّى، قال: حدّثنا ابنُ أبي عديّ، عن عبد الرحمن - يعني المسعوديّ - عن عمرو بن مرّة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى، قال: سمّى لنا رسولُ الله ﷺ نفسَه أسماء، منها ما حفظنا. قال: أنا محمد، وأحمد، والمقفّي، والحاشر، ونبيّ التوبة والمَلْحَمَةِ.

حدّثني ابن المثنى، قال: حدثنا أبو داود، قال: أخبرَنا إبراهيم - يعني ابن سعد - عن الزهريّ، قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعِم، عن أبيه، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: إن لي أسماء؛ أنا محمد، وأحمد، والعاقب، والماحي. قال الزهريّ: العاقب: الذي ليس بعده أحد، والماحي: الذي يمحو الله به الكفر.

حدّثني ابن المثنّى، قال: حدّثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا سفيان بن حسين، قال: حدّثني الزهريّ، عن محمد بن جُبير بن مطعم، عن أبيه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: أنا محمد، وأحمد، والماحي، والعاقب، والحاشر؛ الذي يحشر الناس على قدَميّ. قال يزيد: فسألت سفيانَ: ما العاقب؟ قال: آخر الأنبياء.

ذكر صفة النبيّ ﷺ

حدّثني ابنُ المثنَّى، قال: حدّثني ابن أبي عديّ، عن المسعوديّ، عن عثمان بن عبدالله بن هُرمز، قال: حدّثني نافع بن جُبير، عن عليّ بن أبي طالب، قال: كان رسولُ الله ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير، ضَخْم الرأس واللحية، شَثن الكفّيْن والقدمَيْن، ضَخْم الكراديس، مُشْرَباً وجهه الحُمْرَةَ، طويل المَسْرُبَة إذا مشى تكَّفأ تَكَفُّؤاً كأنما ينحطُّ من صَبَب، لم أر قبله ولا بعده مثلَه؛ ﷺ.

حدثنا ابن المثنّى، قال: حدّثنا أبو أحمد الزبيريّ، قال: حدّثنا مجمّع بن يحيى، قال: حدّثنا عبدالله بن عمران، عن رجل من الأنصار - لم يسمّه - أنه سأل عليّ بن أبي طالب وهو في مسجد الكوفة مُحْتَب بحِمَالة سيفه، فقال: انعَتْ لي نعتَ رسولِ الله ﷺ، فقال له عليّ: كان رسولُ الله أبيضَ اللون مُشْرَباً حُمْرَةً، أدعج سَبْط الشعر، دقيق المَسْرُبة، سَهْل الخَدَّيْن، كَثُّ اللحية، ذَا وفْرَةٍ؛ كأن عنقه إبريقُ فِضَّة؛ كان له شعر من لَبَّتة إلى سُرَّته يجري كالقضيب؛ لم يكن في إبطه ولا صدره شعر غيره، شَثْن الكفّ والقدَم؛ إذا مشى كأنما ينحدِر من صَبَب؛ وإذا مشى كأنما ينقلع من صَخْر، وإذا التفت التفت جميعاً؛ ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا العاجز ولا اللئيم؛ كأنّ العَرَق في وجهه اللؤلؤ؛ ولَريحُ عَرَقه أطيب من المسك؛ لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

حدّثنا ابنُ المقدميّ، قال: حدّثنا يحيى بن محمد بن قيس الذي يقال له أبو زُكَيْر. قال: سمعتُ ربيعة بن أبي عبد الرحمن يذكر عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ بُعث على رأس أربعين؛ فأقام بمكة عشراً وبالمدينة عشراً، وتوفِّيَ على رأسِ ستين؛ ليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء؛ ولم يكن رسولُ الله ﷺ بالطويل البائن، ولا القصير؛ ولم يكن بالأبيض الأمهق ؛ ولا الآدم، ولم يكن بالجَعْد القَطَط ولا السَّبط.

حدثني ابن المثنَّى قال: حدّثنا يزيد بن هارون، عن الجُرَيريّ، قال: كنت مع أبي الطُّفيل نطوف بالبيت؛

فقال: ما بقيَ أحدٌ رأى رسولَ الله ﷺ غيري؛ قال: وقلت: أرأيتَه؟ قال: نعم، قلت: كيف كان صفتُه؟ قال: كان أبيضَ مليحاً مقصَّداً.

ذكر خاتم النبوة التي كانت به ﷺ

حدثنا ابن المثنى، قال: حدّثنا الضحّاك بن مَخلد، قال: حدّثنا عَزْرَة بن ثابت، قال: حدّثنا عِلباء، قال: حدّثنا أبو زيد، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: يا أبا زيد، ادْنُ مني امسَحْ ظهري ـ وكشف عن ظهره ـ قال: فمسَّسْتُ ظهره، ثم وضعتُ أصبعي على الخاتم فغَمَزْتُها، قال: قلت: وما الخاتم؟ قال: شعرٌ مجمعٌ كان على كتفيْه.

حدّثنا ابن المثنى، قال: حدّثنا بشر بن الوضّاح أبو الهيثم، قال: حدّثنا أبو عقيل الدَّوْرَقيّ عن أبي نَضْرة، قال: سألت أبا سعيد الخدري عن الخاتم التي كانت للنبيّ ﷺ، قال: كانت بَضعةً ناشزة.

ذكر شجاعته وجوده ﷺ

حدثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا حمّاد بن واقد، عن ثابت، عن أنس، قال: كان نبيّ الله ﷺ من أحسن الناس، وأسمح الناس، وأشجع الناس؛ لقد كان فزعٌ بالمدينة، فانطلق أهلُ المدينة نحو الصوت، فإذا هم قد تلقَّوْا رسولَ الله ﷺ على فرس عُرْي لأبي طلحة، ما عليه سَرْج، وعليه السَّيْف. قال: وقد كان سبقهم إلى الصَّوْت، قال: فجعل يقول: يا أيها الناس، لم تُراعوا، لم تُراعوا! مرّتين، ثم قال: يا أبا طلحة، وجدناه بحراً؛ وقد كان الفرس يبطّأ، فما سبقه فرسٌ بعد ذلك.

حدّثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا عبدُ الرحمن بن مهديّ، قال: حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كان رسولُ الله ﷺ أشجع الناس، وأجودَ الناس؛ كان فزعٌ بالمدينة فخرج الناس قبَل الصوت، فاستبرأ الفزعَ على فرس لأبي طلحة عُرْي، ما عليه سَرْج، في عنقه السيف. قال: وجدناه بحْراً ـ أو قال: وإنه لبَحْرٌ.

ذكر صفة شعره ﷺ وهل كان يخضب أم لا

حدّثني ابنُ المثنى، قال: حدّثنا مُعاذ بن معاذ، قال: حدّثنا حَريز بن عثمان، قال أبو موسى: قال مُعاذ: وما رأيتُ من رجل قطّ من أهل الشأم أفضِّله عليه، قال: دخلنا على عبدالله بن بُسْر، فقلت له من بين أصحابي: أرأيتَ رسولَ الله ﷺ؟ أشَيْخا كان؟ قال: فوضع يده على عَنْفَقته، وقال: كان في عَنْفقته شعر أبيض.

حدّثنا ابن المثنّى، قال: حدّثنا أبو داود، قال: حدثنا زُهير، عن أبي إسحاق، عن أبي جُحَيفة، قال: رأيت رسولَ الله ﷺ عنفقتُه بيضاء، قيل: مثلُ مَنْ أنت يومئذ يا أبا جُحيفة؟ قال: أبري النَّبل وأريشها.

حدّثني ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا خالد بن الحارث، قال: حدّثنا حُميد، قال: سئِل أنس: أخَضَب رسول الله؟ قال: فقال أنس: لم يشتدّ برسول الله الشَّيْب، ولكن خضب أبو بكر بالحنّاء والكَتَم، وخضب عمر بالحنّاء.

حدّثنا ابن المثنى، قال: حدّثنا ابن أبي عديّ، عن حُميد، قال: سئِل أنسٌ: هل خَضَب رسولُ الله ﷺ؟ قال: لم يُرَ من الشّيب إلّا نحوٌ من تسع عشرة أو عشرين شعرة بيضاء في مقدّم لحيته. قال: إنه لم يُشَنْ بالشَّيْب، فقيل لأنس: وشَينٌ هو! قال: كلُّكم يكرهه؛ ولكن خضب أبو بكر بالحنّاء والكَتَم، وخضَب عمر بالحناء.

حدّثنا ابنُ المثنى، قال: حدّثنا مُعاذ بن معاذ: حدّثنا حُميد، عن أنس، قال: لم يكن الشيبُ الذي بالنبيّ ﷺ عشرين شعرة.

حدّثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا عبدُ الرحمن، قال: حدّثنا حمّاد بن سلَمة، عن سِمَاك، عن جابر بن سَمُرة، قال: ما كان في رأس رسول الله ﷺ من الشيْب إلّا شعرات في مفرِق رأسه؛ وكان إذا دهنه غطّاهنّ.

حدّثنا ابنُ المثنى، قال: حدّثنا عبدُ الرحمن بن مهديّ، قال: حدّثنا سلّام بن أبي مطيع، عن عثمان بن عبدالله بن مَوْهَب، قال: دخلتْ زوجُ النبيّ ﷺ فأخرجتْ إلينا شعراً من شعر رسول الله مخضوباً بالحنّاء والكتَم.

حدّثنا ابنُ جابر بن الكرديّ الواسطيّ، قال: حدّثنا أبو سفيان، قال: حدّثنا الضّحاك بن حُمْرَة، عن غَيْلان بن جامع، عن إياد بن لَقِيط، عن أبي رِمْثَة، قال: كان رسولُ الله ﷺ يخضِب بالحنّاء والكَتَم؛ وكان يبلغ شعره كَتِفيْه أو منكبيْه ـ الشكّ من أبي سفيان.

حدّثنا ابنُ المثنى، قال: حدّثنا عبدُ الرحمن بن مهديّ، عن إبراهيم ـ يعني ابن نافع ـ عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن أمّ هانيء، قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ وله ضفائر أربع.

ذكر الخبر عن بدء مرض رسول الله الذي توفي فيه وماكان منه قبيل ذلك لما نعيت إليه نفسه ﷺ

قال أبو جعفر: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بحمد رَبكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً﴾(١). قد مضى ذكرُنا قبلُ ما كان من تعليم رسول الله ﷺ أصحابه ـ في حجّته التي حجّها المسمّاة حجّة الوداع، وحجّة التمام، وحجة البلاغ ـ مناسكَهم ووصيّته إياهم، بما قد ذكرت قبل في خطبته التي خَطَبها بهم فيها.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من سَفَره ذلك بعد فراغه من حجّه إلى منزله بالمدينة في بقيّة ذي الحجّة، فأقام بها ما بقيَ من ذي الحجّة والمحرّم والصَّفَر.

---

(١) سورة النصر ١ ـ ٣.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة
ذكر الأحداث التي كانت فيها

قال أبو جعفر: ثم ضرب في المحرّم من سنة إحدى عشرة على النّاس بَعْثاً إلى الشأم، وأمّر عليهم مولاه وابن مولاه أسَامة بن زيد بن حارثة، وأمَره ـ فيما حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عيّاش بن أبي ربيعة ـ أن يوطىء الخيل تُخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين، فتجهّز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون.

فبينا الناس على ذلك ابتدىء ﷺ شكْواه التي قبضه الله عزّ وجلّ فيها إلى ما أراد به من رحمته وكرامته. في ليالٍ بقينَ من صَفَر، أو في أول شهر ربيع الأول.

حدّثنا عبيدُالله بن سعد الزُّهريّ، قال: حدّثني عميّ يعقوب بن إبراهيم قال: أخبرنا سيف بن عمر، قال: حدّثنا عبدالله بن سعيد بن ثابت بن الجزع الأنصاريّ، عن عبيد بن حنين مولَى النبيّ ﷺ، عن أبي مُوَيْهبة مولَى رسول الله، قال: رجعَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة بعدما قضى حجة التمام، فتحلّل به السيرُ، وضرب على الناس بعثاً، وأمّر عليهم أسامة بن زيد، وأمَره أن يوطِىء من آبل الزيت من مشارف الشأم الأرض بالأردنّ، فقال المنافقون في ذلك، وردّ عليهم النبيّ ﷺ: «إنه لخليق لها ـ أي حقيق بالإمارة ـ وإن قلتم فيه لقد قلتم في أبيه من قبل وإن كان لخليقاً لها». فطارت الأخبار بتحلّل السير بالنبيّ ﷺ أنّ النبيّ قد اشتكى، فوثب الأسود باليمن ومسيلِمة باليمامة؛ وجاء الخبر عنهما للنبيّ ﷺ. ثم وثب طليحة في بلاد أسَد بعد ما أفاق النبيّ ﷺ، ثم اشتكى في المحرّم وجعَه الذي قبضه الله تعالى فيه.

حدّثنا ابنُ سعد، قال: حدّثني عمّي يعقوب بن إبراهيم قال: أخبرنا سيف، قال: حدّثنا هِشام بن عروة، عن أبيه؛ قال: اشتكى رسولُ الله ﷺ وجعَه الذي توفّاه الله به في عقِب المحرّم.

وقال الواقديّ: بُدِىء رسول الله ﷺ وجعه لليلتين بقيتا من صفر.

حدّثنا عبيدالله بن سعد، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثنا سيف بن عمر، قال: حدّثنا المُسْتَنِير بن يزيد النَّخعيّ، عن عروة بن غَزِيّة الدَّثِينيّ، عن الضحاك بن فيْرُوز بن الديلميّ، عن أبيه، قال: إنّ أول رِدّة كانت في الإسلام باليمن كانت على عهد رسولِ الله ﷺ على يدي ذي الخِمار عَبْهلة بن كعب ـ وهو الأسود ـ في عامّة مذحِج. خرج بعد الوداع؛ كان الأسود كاهناً شِعْباذا، وكان يريهم الأعاجيب، ويسبي قلوب مَنْ سمع منطقه، وكان أوّل ما خرج أن خرجَ من كهف خُبّان؛ وهي كانت داره، وبها ولد ونشأ؛ فكاتبته مذحِج،

وواعدته نَجْـران فوثبوا بها وأخرجوا عَمْرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وأنزلوه منزلهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فَرْوة بن مُسَيك وهو على مُراد، فأجلاه ونزل منزله؛ فلم يَنْشَب عَبْهلة بنجْران أن سارَ إلى صنعاء فأخذها، وكتب بذلك إلى النبيّ ﷺ من فعله ونزوله صنعاء؛ وكان أوّل خبر وقع به عنه من قِبَل فَرْوة بن مُسَيك، ولحق بفروة من تمّ على الإسلام من مذْحِج، فكانوا بالأحْسِيَة، ولم يكاتبه الأسود ولم يرسل إليه، لأنه لم يكن معه أحد يشاغبه، وصفا له مُلْك اليمن.

حدّثنا عبيدُ الله، قال: أخبرني عمّي يعقوب، قال: حدّثني سيف، قال: حدّثنا طَلحة بن الأعلم، عن عِكْرمة، عن ابن عباس، قال: كان النبيّ ﷺ قد ضرب بَعْثَ أسامة فلم يستتبّ لوجع رسولِ الله ولخلع مسيلمة والأسود؛ وقد أكثر المنافقون في تأمير أسامة، حتى بلَغه؛ فخرج النبيّ ﷺ على الناس عاصباً رأسه من الصُّداع لذلك الشأن وانتشارِه، لرؤيا رآها في بيتِ عائشة: فقال: إنّي رأيتُ البارحةَ ـ فيما يرى النائم ـ أن في عضديّ سوارين من ذهب؛ فكرهتُهما فنفختهما، فطارا، فأوّلتهما هذين الكذّابين ـ صاحب اليمامة وصاحب اليمن ـ وقد بلغني أنّ أقواماً يقولون في إمارة أسامة! ولعمري لئنْ قالوا في إمارته، لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله! وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة، وإنه لخليق لها؛ فأنفِذوا بعثَ أسامة. وقال: لعن الله الذين يتّخذون قبور أنبيائهم مساجدَ!.

فخرج أسامة فضربَ بالجُرْف؛ وأنشأ الناس في العسكر، ونجمَ طليحة وتمهّل الناس، وثقُل رسولُ الله ﷺ فلم يستتمّ الأمر؛ ينظرون أوّلهم آخرَهم، حتى توفَّى الله عزّ وجلّ نبيَّه ﷺ.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، يقول: حدّثنا شُعيب بن إبراهيم التّميميّ، عن سيف بن عمر، قال: حدّثنا سعيد بن عبيد أبو يعقوب، عن أبي ماجد الأسديّ، عن الحضرميّ بن عامر الأسديّ، قال: سألته عن أمر طُلَيحة بن خُوَيلد؛ فقال: وقع بنا الخبر بوجعِ النبيّ ﷺ، ثم بَلَغنا أن مسيلمة قد غلَب على اليمامة، وأنّ الأسود قد غلَب على اليمن؛ فلم يلبث إلا قليلاً حتى ادّعى طُليحة النبوّة، وعسكر بسَمِيراء، واتّبعه العوامّ؛ واستكثف أمره؛ وبعث حِبال ابنَ أخيه إلى النبيّ ﷺ يدعوه إلى الموادعة، ويخبره خبرَه. وقال حبال: إنّ الذي يأتيه ذو النون؛ فقال: لقد سمّى ملَكاً، فقال حِبال: أنا ابن خُوَيلد، فقال النبيّ ﷺ: قتلك الله وحرمك الشهادة!

وحدّثني عبيدُ الله بن سعد، قال: أخبرَنا عمّي يعقوب، قال: أخبرنا سَيْف، قال: وحدّثنا سعيد بن عبيد، عن حُرَيْث بن المعلّى: أنّ أوّل مَنْ كتب إلى النبيّ ﷺ بخبر طُليحة سِنانُ بن أبي سنان، وكان على بني مالك؛ وكان قُضاعيّ بن عمرو على بني الحارث.

حدّثنا عبيدُ الله بن سعد، قال: أخبرَنا عمّي، قال: أخبرنا سيف، قال: أخبرَنا هِشام بن عُروة، عن أبيه، قال: حاربهم رسولُ الله ﷺ بالرسل، قال: فأرسل إلى نفرٍ من الأبناء رسولاً، وكتب إليهم أن يحاولوه، وأمرهم أن يستنجدوا رجالاً ـ قد سمّاهم ـ من بني تميم وقيس؛ وأرسل إلى أولئك النَّفَر أن ينجدوهم، ففعلوا ذلك؛ وانقطعت سُبل المرتدّة، وطعنوا في نقصان وأغلقهم، واشتغلوا في أنفسهم، فأصيب الأسود في حياة رسولِ الله ﷺ وقبل وفاته بيوم أو بليلة، ولظّ طليحة ومسيلمة وأشباههم بالرّسل؛ ولم يشغله ما كان فيه من الوجَع عن أمرِ الله عزّ وجلّ والذبّ عن دينـه، فبعث وبَر بن يُحَنّس إلى فيـروز وجُشَيْش الديلميّ وداذويـه

الإصطخريّ ؛ وبعث جرير بن عبدالله إلى ذي الكلَاع وذي ظُلَيم، وبعث الأقرع بن عبدالله الحميريّ إلى ذي زُود وذي مُرَّان، وبعث فرات بن حيّان العجليّ إلى ثُمامة بن أثال، وبعث زياد بن حنظلة التميميّ ثم العمري إلى قيس بن عاصم والزِّبْرقان بن بدر، وبعث صلصل بن شُرَحبيل إلى سَبْرة العنبريّ ووكيع الدارميّ وإلى عمرو بن المحجوب العامريّ، وإلى عمرو بن الخَفَاجيّ من بني عامر، وبعث ضرار بن الأزْور الأسديّ إلى عَوْف الزرقانيّ من بني الصَّيْداء وسنان الأسديّ ثم الغنميّ، وقضاعيّ الدُّئليّ، وبعث نعيم بن مسعود الأشْجَعي إلى ابن ذي اللحية وابن مشيمصة الجبيريّ.

وحُدّثت عن هشام بن محمد، عن أبي مِخْنف، قال: حدّثنا الصقْعَب بن زهير، عن فقهاء أهل الحجاز، أنّ رسولَ الله ﷺ وَجِع وجعه الذي قبض فيه في آخر صفر في أيام بقِين منه؛ وهو في بيت زينب بنت جحش.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلمَة وعليّ بن مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن عمر بن عليّ، عن عبيد بن جُبَير، مولى الحكم بن أبي العاص، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، عن أبي مُوَيهبة مولى رسول الله ﷺ، قال: بعثني رسولُ الله ﷺ من جوف الليل، فقال لي: يا أبا مويهبة، إني قد أمِرْتُ أن أستغفرَ لأهل البقيع؛ فانطلق معي، فانطلقت معه، فلمّا وقف بين أظهرهم، قال: السّلام عليكم أهلَ المقابر؛ ليَهْنِ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه! أقبلت الفِتَن كقِطَع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شرٌّ من الأولى. ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيحَ خزائن الدنيا والخلْد فيها، ثم الجنة، خيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربّي والجنة، فاخترت لقاء ربّي والجنّة. قال: بأبي أنت وأميّ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلْد فيها، ثم الجنّة. فقال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربّي والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدىء رسول الله ﷺ بوجعه الذي قُبِض فيه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا سلَمة، قال: حدّثنا محمد بن إسحاق.

وحدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا عليّ بن مجاهد، قال: حدّثنا ابنُ إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهريّ، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة، عن عائشة زوج النبيّ ﷺ، قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجدُ صُداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه! قال: بل أناوالله يا عائشة وارأساه! ثمّ قال: ما ضرّكِ لو متّ قبلي فقمتُ عليك وكفّنْتك، وصلّيت عليك، ودفنتك! فقلت: والله لكأنّي بك لو فعلت ذلك رجعتَ إلى بيتي فأعْرستَ ببعض نسائك، قالت: فتبسّم رسولُ الله ﷺ، وتَنامّ به وجعه؛ وهو يدور على نسائه حتى استُعِزّ به وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهنّ أن يُمرّض في بيتي، فأذِنَّ له.

فخرج رسولُ الله ﷺ بين رجُلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخطّ قدَماه الأرض، عاصباً رأسه حتى دخل بيتي.

ـ قال عبيد الله: فحدّثت هذا الحديث عنها عبدَالله بن عباس، فقال: هل تدري من الرجل؟ قلت: لا، قال: عليّ بن أبي طالب، ولكنها كانت لا تقدر على أن تذكره بخير وهي تستطيع ـ

ثم غُمِر رسول الله ﷺ واشتد به الوجع؛ فقال: أهريقوا عليّ من سبع قِرَب من آبار شتّى؛ حتى أخرج إلى الناس فأعهدَ إليهم، قالت: فأقْعَدْناه في مِخضَب لحفصة بنت عمر، ثم صببْنا عليه الماء حتى طَفِق يقول:

حَسْبُكم، حسبكم!

فحدّثني حُميد بن الرّبيع الخراز، قال: حدّثنا معن بن عيسى، قال: حدّثنا الحارث بن عبد الملك بن عبدالله بن إياس الليثيّ؛ ثم الأشجعيّ، عن القاسم بن يزيد، عن عبدالله بن قُسَيْط، عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عبّاس، عن أخيه الفضْل بن عبّاس، قال: جاءني رسولُ الله ﷺ، فخرجت إليه فوجدته موعوكاً قد عصَب رأسه، فقال: خذ بيدِي يا فَضْل، فأخذتُ بيده؛ حتى جلَس على المنبر، ثم قال: نـادِ في الناس. فاجتمعوا إليه، فقال: أمّا بعدُ أيّها الناس، فإني أحمَد إليكم الله الذي لا إله إلا هو؛ وإنه قد دنا منّي حقوق من بين أظهركم، فمن كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقِدْ منه، ومنْ كنتُ شتمتُ له عِرْضاً فهذا عِرْضي فليستقـد منه؛ ألاَ وإنّ الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإنّ أحبّكم إليّ مَنْ أخذ منّي حقًّا إن كان له، أو حلّلني فلقيت الله وأنا أطيبُ النفس؛ وقد أرى أن هذا غير مُغْن عنّي حتى أقوم فيكم مراراً.

قال الفضل: ثمّ نزل فصلّى الظهر، ثم رجع فجلس على المِنْبر، فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقام رجل فقال: يا رسول الله؛ إنّ لي عندك ثلاثة دراهم، قال: أعطِه يا فضل، فأمرته فجلس، ثم قال: أيّها الناس، مَنْ كان عنده شيء فليؤدِّه ولا يقل فُضوح الدنيا، ألاَ وإن فضوحَ الدنيا أيسرُ من فضوح الآخرة. فقام رجل فقال: يا رسولَ الله عندي ثلاثة دراهم غللتُها في سبِيل الله، قال: ولِمَ غللتَها؟ قال: كنت إليها محتاجاً، قال: خُذْها منه يا فضل. ثم قال: يا أيها النَّاس، مَنْ خَشيَ من نفسه شيئاً فليقم أدعُ له. فقام رجل فقال: يا رسولَ الله، إنّي لكذّاب، إنّي لفاحِش، وإني لنؤوم؛ فقال: اللهمّ ارزقه صدقاً وإيماناً، وأذهِبْ عنه النوم إذا أراد. ثم قام رجل فقال: والله يا رسولَ الله، إنّي لكذّاب وإني لمنافق، وما شيء - أو إن شيء - إلاّ قد جنيته. فقام عمر بن الخطاب، فقال: فضحتَ نفسك أيها الرجل! فقال النبيّ ﷺ: يا بنَ الخطاب، فضوح الدنيا أهونُ من فضوح الآخرة، اللهمّ ارزقه صدقاً وإيماناً وصيِّرْ أمرَه إلى خير.

فقال عمر كلمة، فضحِك رسول الله، ثمّ قال: عمر معِي وأنا مع عمر، والحقّ بعدي مع عمر حيث كان.

حدّثنا ابنُ حُميد قال: حدّثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزّهريّ، عن أيوب بن بشير، أنّ رسولَ الله ﷺ خرجَ عاصباً رأسه؛ حتى جلس على المنبر؛ ثم كان أوّل ما تكلّم به أنْ صلّى على أصحاب أُحُـد، واستغفر لهم؛ وأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: إنّ عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله. قال: ففهمها أبو بكر، وعلم أنّ نفسه يُريد؛ فبكى، وقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: على رِسْلك يا أبا بكر! انظروا هذه الأبواب الشوارع اللّافظة في المسجد فسُدُّوها؛ إلاّ ما كان من بيت أبي بكر؛ فإنّي لا أعلم أحداً كان أفضل عندي في الصحبة يداً منه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن عبدالله، عن بعض آل أبي سعيد بن المُعَلّى، أنّ رسولَ الله قال يومئذ في كلامه هذا: فإنّي لو كنت متّخِذاً من العباد خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً؛ ولكن صحبة وإخاءُ إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده.

وحدّثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، قال: حدّثني عمّي عبدالله بن وهب، قال: حدّثنا مالك، عن أبي النَّضْر، عن عُبيد بن حنين، عن أبي سعيد الخُدرِيّ أنّ رسول الله ﷺ جلس يوماً على المنبر، فقال: إنّ عبداً

خيّره الله بين أن يؤتيَه من زَهْرة الدنيا ما شاء، وبين ما عند الله؛ فاختار ما عند الله؛ فبكى أبو بكر ثم قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله! قال: فتعجّبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله عن عبد يخيَّر، ويقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! قال: فكان رسول الله هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمَنا به؛ فقال رسولُ الله ﷺ: إنّ أَمَنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر؛ ولو كنتُ متّخذاً خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً؛ ولكن أخوّة الإسلام؛ لا تبق خَوْخة في المسجد إلّا خَوْخة أبي بكر.

حدّثني محمد بن عمر بن الصبّاح الهمْدانيّ، قال: حدّثنا يحيى بن عبد الرحمن، قال: حدّثنا مسلم بن جعفر البَجَليّ، قال: سمعتُ عبد الملك بن الأصبهانيّ عن خَلّاد الأسديّ، قال: قال عبدالله بن مسعود: نعى إلينا نبيُّنا وحبيبُنا نفسَه قبل موته بشهر؛ فلمّا دنا الفراق جَمَعنا في بيت أمنا عائشة، فنظر إلينا وشدّد، فدمعتْ عينُه، وقال: مرحباً بكم! رحمكم الله! آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفّقكم الله، نصركم الله! سلَّمكم الله! رحمكم الله! قبلكم الله! أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلِفه عليكم، وأؤديكم إليه؛ إني لكم نذير وبشير، لا تعلوا على الله في عباده وبلاده؛ فإنه قال لي ولكم: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١). وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٢). فقلنا: متى أجلك؟ قال: قد دنا الفراق، والمنقلبُ إلى الله، وإلى سِدْرَة المُنْتَهَى. قلنا: فمن يغسلك يا نبيّ الله؟ قال: أهلي الأدْنى فالأدنى، قلنا: ففِيم نكفِّنُك يا نبيّ الله؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم؛ أو في بياض مصر، أو حلّة يمانيّة، قلنا: فمن يصلّي عليك يا نبيّ الله؟ قال: مهلاً غفر الله لكم، وجزاكم عن نبيّكم خيراً! فبكينا وبكَى النبيّ ﷺ، وقال: إذا غسّلتموني وكفّنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا، على شفِير قبري، ثم اخرجوا عنّي ساعة، فإنّ أوّل منْ يصلّي عليّ جليسي وخليلي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملَك الموت مع جنودٍ كثيرةمن الملائكة بأجمعها، ثم ادخلوا عليّ فَوْجاً فوْجاً، فصلوا عليّ وسلموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكِية ولا برنّة ولا صيْحة، وليبدأ بالصّلاة عليّ رجالُ أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد. أقرئوا أنفسكم منّي السلام؛ فإنّي أشهدكم أنّي قد سلّمت على مَنْ بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة. قلنا: فمن يُدخِلك في قبرك يا نبيّ الله؟ قال: أهلي مع ملائكة كثيرين يروْنكم من حيث لا ترونهم.

حدّثنا أحمد بن حمّاد الدُّولابيّ، قال: حدّثنا سُفيان، عن سليمان بن أبي مسلم، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: يوم الخميس وما يوم الخميس! قال: اشتدَّ برسولِ الله ﷺ وجعُه، فقال: ائتوني أكتب كتاباً لا تضلّوا بعدي أبداً. فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبيّ أن يُتنازع ـ فقالوا: ما شأنه؟ أهَجَرَ! استفهموه؛ فذهبوا يعيدون عليه، فقال: دعوني فما أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه؛ وأوصى بثلاث؛ قال: أخرِجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفدَ بنحوٍ مما كنت أجيزهم؛ وسكت عن الثالثة عمداً ـ أو قال: فنسيتها.

حدّثنا أبو كُريب، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، قال: حدّثنا ابنُ عيينة، عن سليمان الأحول، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: يوم الخميس! ثم ذكر نحو حديث أحمد بن حماد، غير أنه قال: ولا ينبغي عند نبيّ أن ينازَع.

---

(١) سورة القصص: ٨٣.

(٢) سورة الزمر: ٦٠.

حدّثنا أبو كُريب وصالح بن سَمّال، قال: حدّثنا وكيع، عن مالك بن مِغْوَل، عن طلحة بن مصرِّف، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: يوم الخميس وما يوم الخميس! قال: ثم نظرتُ إلى دموعه تسيل على خدَّيْه كأنها نظام اللؤلؤ. قال: قال رسولُ الله ﷺ: ائتوني باللَّوح والدّواة ـ أو بالكَتِف والدّواة ـ أكتب لكم كتاباً لا تضِلّون بعده. قال: فقالوا: إن رسول الله يَهْجُر.

حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، قال: حدّثني عمي عبدالله بن وهب، قال: أخبرَني يونس، عن الزُّهريّ، قال: أخبرَني عبدالله بن كعب بن مالك؛ أنّ ابنَ عباس أخبره أنّ عليّ بن أبي طالب خرَج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي تُوفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبَحَ رسولُ الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عبّاس بن عبد المطلب، فقال: ألا تَرَى أنك بعد ثلاث عَبْدُ العصا! وإني أرَى رسول الله سيُتَوفَّ في وجعه هذا؛ وإنّي لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت؛ فاذهب إلى رسول الله فسلْه فيمَنْ يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا علِمْنَا ذلك، وإن كان في غيرنا أمر به فأوصَى بنا. قال عليٌّ: والله لئن سألناها رسولَ الله فمنَعنَاها لا يعطيناها النّاس أبداً؛ والله لا أسألها رسولَ الله أبداً.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثنا محمدُ بن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن عبدالله بن كعب بن مالك، عن عبدالله بن عبّاس، قال: خرج يومئذ عليّ بن أبي طالب علَى الناس من عند رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحوه؛ غير أنه قال في حديثه: أحلِف بالله لقد عرفت الموتَ في وجه رسول الله كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب؛ فانطلقْ بنا إلى رسول الله؛ فإنْ كان هذا الأمر فينا علمنا، وإن كان في غيرنا أمَرْنا فأوصى بنا الناس؛ وزاد فيه أيضاً: فتوفّي رسولُ الله حين اشتدّ الضُّحَى من ذلك اليوم.

حدّثنا سعيد بن يحيى الأمويّ، قال: حدّثنا أبي، عن عروة، عن عائشة، قالت: قال لنا رسولُ الله ﷺ: أفرغوا عليّ من سبع قِرَب من سبع آبار شتّى، لعلّي أخرج إلى الناس فأعهَدَ إليهم.

قال محمد، عن محمد بن جعفر، عن عروة، عن عائشة، قالت: فصببنا عليه من سبع قِرَب، فوجد راحةً، فخرج فصلّى بالناس، وخطَبهم، واستغفر للشهداء من أصحاب أُحُد، ثم أوصى بالأنصار خيراً، فقال: أمّا بعد يا معشر المهاجرين، إنكم قد أصبحتم تزيدون، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم، والأنصار عيْبَتي التي أويت إليها، فأكرِموا كريمهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم. ثم قال: إنّ عبداً من عباد الله قد خُيّر بين ما عند الله وبين الدنيا فاختار ما عند الله؛ فلم يفقهها إلاّ أبو بكر؛ ظنّ أنه يريد نفسَه، فبكى، فقال له النبيّ ﷺ: على رِسْلِك يا أبا بكر! سدُّوا هذه الأبوابَ الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر؛ فإني لا أعلم أمرأً أفضلَ يداً في الصحابة من أبي بكر.

حدّثنا عمرو بن عليّ، قال: حدّثنا يحيى بن سعيد القطّان، قال: حدّثنا سُفيان، قال: حدّثنا موسى بن أبي عائشة، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة، عن عائشة، قالت: لَدَدْنَا رسولَ الله ﷺ في مرضه، فقال: لا تلُدُّوني! فقلنا: كراهيَةُ المريض الدواء. فلمّا أفاق قال: لا يبقى منكم أحدٌ إلا لُدّ؛ غير العبّاس فإنه لم يشهدْكم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق في حديثه الذي ذكرناه عنه، عن الزهريّ، عن عبيدالله بن عبدالله، عن عائشة، قالت: ثم نزلَ رسولُ الله ﷺ، فدخل بيته، وتتامّ به وجعُه حتى غُمِر، واجتمع عنده نساء من نسائِه: أمّ سلَمة، وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين؛ منهنّ أسماء بنت عُميس، وعنده

عمُّه العباس بن عبد المطلب، وأجمعوا على أن يلُدُّوه، فقال العباس: لألُدنّه، قال: فلُدّ، فلما أفاقَ رسولُ الله ﷺ، قال: مَنْ صنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله، عمّك العباس، قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض - وأشار نحو أرض الحبشة - قال: ولِمَ فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسولَ الله أن يكون بك وجع ذات الجَنْب، فقال: إن ذلك لداء ما كان الله ليعذِّبَني به، لا يبقى في البيت أحدٌ إلا لُدّ إلاّ عمّي. قال: فلقد لدّت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسولِ الله ﷺ؛ عقوبةً لهم بما صنعوا.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة، أنّ عائشة حدّثته أنّ رسولَ الله ﷺ حين قالوا: خشينا أن يكونَ بك ذات الجَنْب، قال: إنّها من الشيطان؛ ولم يكن الله ليسلّطها علي.

حُدّثتُ عن هشام بن محمد، عن أبي مِخنف، قال: حدّثني الصّقْعب بن زهير، عن فقهاء أهل الحجاز، أنّ رسول الله ﷺ ثَقُل في وجعه الذي تُوُفِّيَ فيه حتى أغْمِيَ عليه؛ فاجتمع إليه نساؤه وابنته وأهلُ بيته والعبّاس بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب وجميعهم؛ وإنّ أسماءَ بنت عُميس قالت: ما وجعه هذا إلاّ ذات الجنْب، فلُدّوه، فلددناه، فلما أفاق، قال: مَنْ فعل بي هذا؟ قالوا: لَدَّتْك أسماء بنت عُميس؛ ظنّتْ أنّ بك ذات الجَنْب. قال: أعوذ بالله أن يُبليَني بذات الجَنْب؛ أنا أكرم على الله من ذلك.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حَدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن سعيد بن عُبَيد بن السَّبَّاق، عن محمد بن أسامة بن زيد، عن أبيه أسامة بن زيد، قال: لما ثقُل رسولُ الله ﷺ هبطتُ وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلنا على رسولِ الله ﷺ، وقد أُصْمِت فلا يتكلّم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليّ، فعرفتُ أنه يدعُو لي.

حدثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزهريّ، عن عبيدالله بن عبدالله، عن عائشة، قالت: كان رسولُ الله ﷺ كثيراً ما أسمعه، وهو يقول: إنّ الله عزَّ وجلّ لم يقبض نبيًّا حتى يخيّره.

حدثنا أبو كُريب، قال: حدّثنا يونس بن بكير، قال: حدّثنا يونس بن عمرو، عن أبيه، عن الأرقم بن شُرَحبيل، قال: سألتُ ابنَ عباس: أوصَى رسولُ الله ﷺ؟ قال: لا، قلت: فكيف كان ذلك؟ قال: قال رسول الله: ابعثوا إلى عليّ فادعوه، فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر! وقالت حفصة: لو بعثَت إلى عمر! فاجتمعوا عنده جميعاً، فقال رسولُ الله ﷺ: انصرفوا، فإن تك لي حاجة أبعث إليكم؛ فانصرفوا، وقال رسولُ الله ﷺ: آن الصلاة؟ قيل: نعم، قال: فأمروا أبا بكر ليُصليِّ بالناس، فقالت عائشة: إنه رجلٌ رقيق، فمرْ عمر، فقال: مُرُوا عمر، فقال عمر: ما كنت لأتقدّم وأبو بكر شاهد، فتقدّم أبو بكر، ووجد رسولُ الله خِفَّةً، فخرج، فلمّا سمع أبو بكر حركَته تأخر، فجذب رسولُ الله ﷺ ثوبه، فأقامه مكانه، وقعد رسول الله، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر.

حدّثنا ابنُ وكيع، قال: حدّثنا أبي، عن الأعمش، قال: وحدّثنا أبو هشام الرفاعيّ، قال: حدّثنا أبو معاوية ووكيع، قالا: حدّثنا الأعمش، وحدّثنا عيسى بن عثمان بن عيسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: لما مرض رسولُ الله ﷺ المرضَ الذي مات فيه، أُذِّنَ بالصلاة، فقال: مُرُوا أبا بكر أنْ يصَليِّ بالناس، فقلت: إنّ أبا بكر رجلٌ رقيق، وإنه متى يقوم مقامَك لا يطيق! قال: فقال: مروا أبا بكر

يصلّي بالناس، فقلت مثل ذلك، فغضِب، وقال: إنكنّ صواحبُ يوسف ـ وقال ابن وكيع: «صواحبات يوسف» ـ مُروا أبا بكر يصلّي بالناس، قال: فخرج يُهادَى بين رجلين وقدماه تخُطّان في الأرض؛ فلما دنا من أبي بكر، تأخّر أبو بكر؛ فأشار إليه رسولُ الله ﷺ أن قُمْ في مقامك، فقعد رسولُ الله ﷺ، فصلّى إلى جنب أبي بكر جالساً. قالت: فكان أبو بكر يصلّي بصلاة النبيّ، وكان الناس يصلّون بصلاة أبي بكر. اللفظ لحديث عيسى بن عثمان.

حُدّثت عن الواقديّ، قال: سألت ابن أبي سَبْرة: كم صلّى أبو بكر بالناس؟ قال: سبع عشرة صلاة، قلت: مَنْ أخبرك؟ قال: أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن رجلٍ من أصحابِ النبيّ ﷺ. قال: وحدّثنا ابنُ أبي سَبْرة، عن عبد المجيد بن سُهَيل، عن عِكْرمة، قال: صلّى بهم أبو بكر ثلاثةَ أيام.

حدّثني محمد بن عبدالله بن عبد الحكم، قال: حدّثنا شُعيب بن الليث، عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن موسى بن سَرْجِس، عن القاسم، عن عائشة، قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يموت، وعنده قدحٌ فيه ماء يُدخل يده في القدح، ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: اللهم أعنّي على سَكْرة الموت!

حدّثني محمد بن خلَف العسقلانيّ، قال: حدثنا آدم، قال: حدّثنا الليث بن سعد، عن ابن الهاد، عن موسى بن سَرْجِس، عن القاسم بن محمد عن عائشة، قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يموت. ثم ذكر مثله؛ إلا أنه قال: أعِنّي على سَكَرات الموت.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزهريّ، قال: حدّثنا أنَس بن مالك، قال: لما كانَ يوم الاثنين، اليوم الذي قُبِض فيه رسولُ الله ﷺ، خرجَ إلى الناس وهم يصلون الصبح، فرَفَعَ السّتْرَ، وفتح الباب، فخرج رسولُ الله؛ حتى قام بباب عائشة، فكاد المسلمون أن يفتتِنُوا في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه؛ فَرَحاً به، وتفرَّجوا. فأشار بيده: أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسّم رسولُ الله فرِحاً لّما رأى من هيئتهم في صلاتهم، وما رأيتُ رسولَ الله ﷺ أحسنَ هيئة منه تلك الساعة؛ ثم رجع وانصرف الناس، وهم يظنّون أنّ رسولَ الله ﷺ قد أفاق من وجعه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمَة، عن ابن إسحاق، عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي مُلَيْكة، قال: لما كان يومُ الاثنين خرجَ رسول الله ﷺ عاصباً رأسه إلى الصُّبح؛ وأبو بكر يصلّي بالناس؛ فلما خرج رسولُ الله ﷺ تفرَّج الناس، فعرف أبو بكر أن الناس لم يفعلوا ذلك إلاّ لرسول الله ﷺ، فنكص عن مصلاّه، فدفع رسول الله في ظهره، وقال: صلّ بالناس. وجلس رسول الله إلى جنبه؛ فصلّى قاعداً عن يمين أبي بكر؛ فلمّا فرغ من الصّلاة، أقبل على الناس وكلّمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد؛ يقول: يا أيها الناس، سُعِّرت النار، وأقبلت الفتن كقِطَع الليل المظلم! وإنّي والله لا تمْسكون عليّ شيئاً؛ إنيّ لم أحِلّ لكم إلا ما أحَلَّ لكم القرآن، ولم أحرّم عليكم إلا ما حرَّم عليكم القرآن. فلما فرغَ رسولُ الله ﷺ من كلامه، قال له أبو بكر: يا نبيّ الله؛ إنّي أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحبّ، واليوم يوم ابنة خارجة، فآتيها. ثم دخل رسولُ الله ﷺ وخرجَ أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عنابن إسحاق،عن يعقوب بن عُتْبة، عن الزهريّ، عن عروة، عن عائشة، قالت: رجع رسولُ الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجْري، فدخل

عليَّ رجل من آل بكر في يده سواك أخضر. قالت: فنظر رسول الله ﷺ إلى يده نظراً عرفتُ أنه يريده، فأخذته فمضغتُه حتى ألنْتُه، ثم أعطيته إياه، قالت: فاستنّ به كأشدّ ما رأيته يستنُّ بسواك قبله، ثم وضعه؛ ووجدت رسول الله يثقل في حِجْري. قالت: فذهبت أنظر في وجهه، فإذا نظره قد شَخص، وهو يقول: بل الرفيق الأعلَى من الجَنّة! قالت: قلت: خُيِّرتَ فاخترتَ والذي بعثَك بالحق! قالت: وقُبِض رسول الله ﷺ.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عبّاد بن الزبير، عن أبيه عبّاد، قال: سمعتُ عائشةَ تقول: مات رسولُ الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري وفي دوْري؛ ولم أظلِم فيه أحداً، فمِن سَفَهِي وحداثة سِنّي أنّ رسول الله قُبِض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة؛ وقمت ألْتَدِمُ مع النساء، وأضرب وجهي.

ذكر الأخبار الواردة باليوم الذي توفي فيه رسول الله ومبلغ سنه يوم وفاته

قال أبو جعفر: أما اليوم الذي مات فيه رسولُ الله ﷺ؛ فلا خلاف بين أهل العلم بالأخبار فيه أنّه كان يومَ الاثنين من شهر ربيع الأوّل، غير أنه اختُلِف في أيّ الأثانين كان موته ﷺ؟ فقال بعضهم في ذلك ما حُدِّثت عن هشام بن محمد بن السائب، عن أبي مِخنَف، قال: حدّثنا الصَّقْعَب بن زهير، عن فقهاء أهل الحجاز، قالوا: قُبِض رسولُ الله ﷺ نصفَ النهار يوم الاثنين، لليلتَيْن مَضَتا من شهر ربيع الأول، وبويع أبو بكر يوم الاثنين في اليوم الذي قُبِض فيه النبيّ ﷺ.

وقال الواقديُّ: تُوُفِّيَ يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من شهر ربيع الأوّل، ودفن من الغد نصفَ النهار حين زاغت الشمس، وذلك يوم الثلاثاء.

قال أبو جعفر: تُوفِّيَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر بالسُّنْح وعمر حاضِرٌ. فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة، قال: لما تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنَّ رسول الله تُوُفِّيَ وإنّ رسول الله والله ما مات؛ ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة؛ ثم رجع بعد أن قيل قد مات؛ والله ليرجعَنَّ رسولُ الله فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّ رسول الله مات.

قال: وأقبلَ أبو بكر حَتى نزلَ على باب المسجد حين بلَغه الخبر، وعمَر يكلّم الناس؛ فلم يلتفت إلى شيء حتى دخلَ علَى رسولِ الله ﷺ في بيت عائشة؛ ورسول الله مُسَجًّى في ناحية البيت، عليه بُرْد حِبَرة، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي! أما المَوْتة التي كتب الله عليك فقد ذُقْتَها، ثمّ لن يصيبَك بعدها موتةٌ أبداً. ثم رَدَّ الثّوْب على وجهه، ثم خرج وعمرُ يكلّم الناس، فقال: على رِسْلِك يا عمر! فأنصت، فأبى إلّا أن يتكلّم، فلما رآه أبو بكر لا يُنصِت أقبل على الناس، فلمّا سمع الناسُ كلامَه أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيّها الناس؛ إنه مَنْ كان يعبُد محمداً فإن محمداً قد مات؛ ومَنْ كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل. . .﴾[1] إلى

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

آخر الآية. قال: فوالله لكأنّ الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسولِ الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ. قال: وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم.

قال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلّا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعَقِرتُ حتى وقعتُ إلى الأرض؛ ما تحملني رِجْلاي، وعرفتُ أنّ رسولَ الله قد مات.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا جَرير، عن مغيرة، عن أبي معشر زياد بن كُلَيب، عن أبي أيّوب، عن إبراهيم، قال: لما قُبِض النبيُّ ﷺ كان أبو بكر غائباً، فجاءَ بعد ثلاث، ولم يجترىء أحدٌ أن يكشِفَ عن وجهه؛ حتى اربدّ بطنُه؛ فكشف عن وجهه، وقبَّل بين عينيه، ثم قال: بأبي أنت وأمّي! طِبْت حيًّا وطبت مَيّتاً! ثم خرج أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: مَنْ كان يعبدُ الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، ومَنْ كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات. ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(١). وكان عمر يقول: لم يمُت؛ وكان يتوعّد الناس بالقتل في ذلك.

فاجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعِدة ليبايعوا سعدَ بن عُبادة، فبلَغ ذلك أبا بكر، فأتاهم ومعه عُمر وأبو عبيدة بن الجرّاح، فقال: ما هذا؟ فقالوا: منّا أميرٌ ومنكم أمير، فقال أبو بكر: منّا الأمراء ومِنْكم الوزراء.

ثم قال أبو بكر: إنّي قد رضيتُ لكم أحدَ هذيْن الرجُلين: عمر أو أبا عبيدة، إنّ النبيّ ﷺ جاءَه قومٌ فقالوا: ابعث معنا أميناً فقال: لأبعثنّ معكم أميناً حَقَّ أمين؛ فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وأنا أرضَى لكم أبا عُبيدة. فقام عمر، فقال: أيّكُم تطيب نفسه أن يخلُف قَدَمَيْن قدّمهما النبيّ ﷺ! فبايعه عمر وبايعه الناس، فقالت الأنصار ـ أو بعض الأنصار؛ لا نبايع إلّا عليًّا.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا جرير، عن مغيرة، عن زياد بن كليب، قال: أتى عمرُ بن الخطاب منزلَ عليّ وفيه طلحة والزبير ورجالٌ من المهاجرين، فقال: والله لأحرقَنَّ عليكم أو لتخرُجُن إلى البَيْعة. فخرج عليه الزبيرُ مُصْلِتاً بالسيف، فعثر فسقط السَّيْف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه.

حدّثنا زكريا بن يحيى الضرير، قال: حدّثنا أبو عَوانة، قال: حدّثنا داود بن عبدالله الأوْدِيّ، عن حُميد بن عبد الرحمن الحميريّ، قال: تُوُفّيَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر في طائفة من المدينة، فجاء فكشف الثوبَ عن وجْهه فقبّله، وقال: فِداك أبي وأمي! ما أطْيَبَك حيًّا وميتاً! مات محمدٌ وربِّ الكعبة! قال: ثم انطلق إلى المنبر، فوجد عمر بن الخطاب قائماً يُوعِد الناس، ويقول: إنَّ رسولَ الله ﷺ حيٌّ لم يمت؛ وإنه خارج إلى من أرْجَفَ به، وقاطع أيديَهم، وضارب أعناقَهم، وصالبهم. قال: فتكلّم أبو بكر، وقال: أنصِتْ. قال: فأبى عمر أن يُنصِت، فتكلّم أبو بكر، وقال: إن الله قال لنبيّه ﷺ: ﴿إِنكَ مَيِّت وَإِنَّهُمْ مَيِّتون * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُون﴾(٢). ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾(٣)؛ حتى ختم الآية، فمن كان يعبدُ محمداً فقد مات إلهه الذي كان يعبُده، ومَنْ كان يعبد الله

(١) سورة ال عمران: ١٤٤.
(٢) سورة الزمر: ٣٠، ٣١.
(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.

لا شريك له، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت.

قال: فحلف رجالٌ أدركناهم من أصحاب محمد ﷺ: ما علمنا أنّ الآيتين نزلَتا حتى قرأهما أبو بكر يومئذ؛ إذ جاء رجل يسعَى فقال: هاتِيكَ الأنصار قد اجتمعتْ في ظُلّةِ بني ساعدة، يبايعون رجلاً منهم، يقولون: منّا أميرٌ ومن قريش أمير، قال: فانطلق أبو بكر وعمر يتقاوَدان حتى أتياهم؛ فأراد عمر أن يتكلّم، فنهاه أبو بكر، فقال: لا أعصي خليفةَ النبيّ ﷺ في يوم مرَّتَيْن.

قال: فتكلّم أبو بكر، فلم يترك شيئاً نزل في الأنصار، ولا ذكره رسولُ الله ﷺ من شأنهم إلّا وذكره. وقال: لقد علمتْم أنّ رسولَ الله قال: لو سلك النّاس وادياً وسلكت الأنصارُ وادياً سلكتُ واديَ الأنصار، ولقد علمتَ يا سعد أنّ رسول الله قال وأنت قاعدٌ: قريش ولاةُ هذا الأمر، فبَرُّ الناس تَبَعٌ لبَرّهم، وفاجرهم تبعٌ لفاجرهم. قال: فقال سعد: صدقتَ، فنحن الوزراء وأنتم الأمراء. قال: فقال عمر: ابسُطْ يدك يا أبا بكر فلأبايعك؛ فقال أبو بكر: بل أنت يا عمر، فأنتَ أقوَى لها منّي. قال: وكان عمر أشدّ الرجلين، قال: وكان كلُّ واحد منهما يريد صاحبَه يفتح يده يضرب عليها، ففتح عمر يد أبي بكر وقال: إن لك قوّتي مع قوّتك. قال: فبايع الناس واستثبتوا للبيْعة، وتخلّف عليّ والزّبير، واخترط الزُّبير سيفَه، وقال: لا أغمده حتى يُبايَع عليٌّ، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر: خُذُوا سيفَ الزُّبير، فاضربوا به الحجَر. قال: فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعباً، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان! فبايعا.

حديث السقيفة

حدثني عليّ بن مسلم، قال: حدّثنا عَبّاد بن عبّاد، قال: حدّثنا عباد بن راشد، قال: حُدّثنا عن الزهريّ، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتبة، عن ابن عبّاس، قال: كنت أقرىء عبدَ الرحمن بنَ عَوْف القرآن، قال: فحجّ عمر وحججنا معه، قال: فإني لَفِي منزلٍ بمنًى إذ جاءني عبدُ الرحمن بن عوف، فقال: شهدتُ أمير المؤمنين اليوم، وقام إليه رجلٌ فقال: إني سمعت فلاناً يقول: لو قد مات أمير المؤمنين لقد بايعتُ فلاناً. قال: فقال أمير المؤمنين: إني لقائم العشيّةَ في الناس فمحَذّرُهم هؤلاء الرّهط الذين يريدون أن يغصِبوا الناس أمرَهم. قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين؛ إنّ الموسم يجمع رِعاع الناس وغوغاءَهم؛ وإنهم الذين يغلبون على مجلِسك، وإني لخائف إن قلت اليوم مقالة ألّا يَعُوها ولا يحفظوها، ولا يضعوها على مواضِعها، وأن يطيروا بها كلَّ مطيرٍ؛ ولكن أمهل حتى تقدم المدينة، تقدم دار الهجرة والسنّة، وتخلُص بأصحابِ رسولِ الله من المهاجرين والأنصار، فتقول ما قلت متمكّناً فيعُوا مقالتَك، ويضعوها على مواضعها. فقال: والله لأقومنّ بها في أوّل مقام أقومُه بالمدينة.

قال: فلمّا قدِمْنا المدينة، وجاء يوم الجمعة هَجَّرت للحديث الذي حدثنيه عبد الرحمن؛ فوجدت سعيد بن زيد قد سبَقني بالتّهجير، فجلست إلى جنبه عند المنبر، ركبتي إلى ركبته؛ فلمّا زالت الشمس لم يلبث عمر أن خرَج، فقلت لسعيد وهو مقبل: ليقولنّ أميرُ المؤمنين اليومَ على هذا المنْبر مقالةً لم تُقلْ قبلَه. فغضب وقال: فأيّ مقالة يقول لم تُقَل قبله! فلمّا جلس عمر على المنبر أذَّن المؤذنون، فلمّا قضى المؤذن أذانه قام عمر،

فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد، فإنّي أريد أن أقول مقالة قد قُدّر أن أقولها، مَنْ وعاها وعَقَلها وحفظها، فليحدّث بها حيث تنتهي به راحلته، ومَنْ لم يعِها فإني لا أحلّ لأحد أن يكذِبَ عليّ: إن الله عزّوجلّ بعثَ محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب؛ وكان فيما أنزل عليه آية الرَّجْم، فرجم رسولُ الله ورجمنا بعده، وإني قد خشيتُ أن يطولَ بالناس زمان، فيقول قائل: والله ما نجد الرَّجْم في كتاب الله، فيَضلُّوا بتَرْك فريضة أنزلها الله، وقد كنا نقول: لا تَرْغبوا عن آبائكم؛ فإنه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم. ثم إنه بلَغني أنّ قائلاً منكم يقول: لو قد مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً! فلا يَغُرَّنّ امرأً أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتَة؛ فقد كانت كذلك؛ غيرَ أنّ الله وَقى شرّها؛ وليس منكم من تُقطَعُ إليه الأعناق مثل أبي بكر! وإنه كان من خَبَرِنا حين توفّى الله نبيَّه ﷺ أنّ عليًّا والزُّبير ومَنْ معهما تخلّفوا عنا في بيت فاطمة، وتخلّفت عنا الأنصار بأسْرها، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم؛ فلقيَنا رجلان صالحان قد شهدا بدراً، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخوانَنا هؤلاء من الأنصار. قالا: فارجعوا فاقضوا أمرَكم بينَكم. فقلنا: والله لنأتينّهم، قال: فأتيناهم وهم مجتمعون في سَقِيفة بني ساعدة. قال: وإذا بين أظهرهم رجلٌ مُزَمَّلٌ، قال: قلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما شأنه؟ قالوا: وَجِعٌ، فقام رجلُ منهم، فحمد الله، وقال: أمّا بعد، فنحنُ الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشرَ قريش رهطُ نبيّنا؛ وقد دفّت إلينا من قومكم دَافّةٌ قال: فلما رأيتهم يريدون أن يختزِلُونا من أصلِنا، ويغصِبونا الأمر. وقد كنت زوَّرت في نفسي مقالةً أقدمها بين يدي أبي بكر، وقد كنت أداري منه بعض الحدّ، وكان هو أوقرَ منّي وأحلم؛ فلمّا أردت أن أتكلم، قال: على رِسْلِكَ! فكرهت أن أعصيَه؛ فقام فحمد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئاً كنتُ زوّرت في نفسي أن أتكلّم به لو تكلمت؛ إلا قد جاء به أو بأحسنَ منه. وقال: أما بعدُ يا معشرَ الأنصار؛ فإنكم لا تذكُرون منكم فضلاً إلاّ وأنتم له أهلٌ؛ وإنّ العربَ لا تعرف هذا الأمرَ إلاّ لهذا الحيّ من قريش؛ وهم أوسط العرب داراً ونسباً، ولكن قد رضيتُ لكم أحدَ هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح. وإني والله ما كرهتُ من كلامه شيئاً غيرَ هذه الكلمة؛ إن كنت لأقدَّم فتُضْرَب عنقي فيما لا يقرّبني إلى إثم أحبُّ إليَّ من أن أؤمَّر على قوم فيهم أبو بكر. فلمّا قضى أبو بكر كلامَه، قام منهم رجلٌ، فقال: أنَا جُذَيْلُها المُحكّك، وَعُذَيْقُها المُرَجَّب؛ منّا أميرٌ ومنكم أمير؛ يا معشر قريش.

قال: فارتفعت الأصوات، وكثر اللَّغط، فلمّا أشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر: ابسُطْ يدك أبايعْك. فبسط يده فبايعتُه وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار. ثم نزونا على سعد، حتى قال قائلهم: قتلتُم سعد بن عبادة! فقلت: قتل الله سعداً! وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إنْ فارقنا القوم ولم تكن بيعةٌ أن يحدِثوا بعدنا بيعة، فإما أن نتابعهم على ما نرضَى، أو نخالفهم فيكون فساد.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن عروة بن الزبير، قال: إن أحدَ الرجُلين اللذيْن لقوا من الأنصار حين ذهبوا إلى السقيفة، عُوَيْم بن ساعدة والآخر معْنُ بن عديّ؛ أخو بني العجلان، فأما عُويم بن ساعدة فهو الذي بلَغنا أنه قيل لرسول الله ﷺ: مَن الذين قال الله لهم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾(١)؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم المرء منهم عُويم بن ساعدة!

---

(١) سورة التوبة: ١٠٨.

وأما معن فبلَغنا أنّ الناس بكَوْا علَى رسول الله ﷺ حين توفّاه الله، وقالوا: والله لوددنا أنا متنا قبلَه؛ إنا نخشى أن نفتتن بعده. فقال معن بن عديّ: والله ما أحبُّ أني متُّ قبله حتى أصدّقه ميتاً كما صدّقته حيًّا. فقتل مَعْنٌ يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر يوم مُسَيْلمة الكذّاب.

حدّثنا عُبيدالله بن سعيد الزهـري، قال: أخبرنا عمي يعقوب بن إبـراهيم قال: أخبـرني سَيْفُ بن عمر، عن الوليد بن عبدالله بن أبي ظَبية البَجَليّ، قال: حدّثنا الوليد بن جُمَيْع الزُّهريّ، قال: قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: أشهدت وفاةَ رسولِ الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: فمتى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسولُ الله ﷺ كرهوا أن يبقوْا بعض يوم وليسوا في جماعة. قال: فخالف عليه أحدٌ؟ قال: لا إلا مرتدٌّ أو مَنْ قد كاد أن يرتدّ، لولا أنّ الله عزّ وجلّ ينقذهم من الأنصار. قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته، من غير أن يدعوَهم.

حدثنا عبيد الله بن سعد، قال: أخبرني عمّي، قال: أخبرني سيف، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: كان عليٌّ في بيته إذْ أتِيَ فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيْعة، فخرج في قميص ما عليه إزارٌ ولا رداءٌ، عجلاً، كراهيَةَ أن يُبْطىء عنها، حتى بايعه. ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه.

حدّثنا أبو صالح الضّراريّ، قال: حدّثنا عبد الرزاق بن همّام، عن معمَر، عن الزهريّ، عن عروة، عن عائشة، أنّ فاطمةَ والعباس أتيا أبا بكر يطلُبان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضَه من فَدَك، وسهمَه من خيبر، فقال لهما أبو بكر: أما إنّي سمعتُ رسولَ الله يقول: لا نورَثُ، ما تَركْنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال. وإني والله لا أدَعُ أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلاّ صنعته. قال: فهجرتْه فاطمة فلم تكلّمْه في ذلك حتى ماتت، فدفنها عليٌّ ليلاً، ولم يؤذِنْ بها أبا بكر. وكان لعليّ وَجْهٌ من الناس حياةَ فاطمة، فلمّا توفِّيَتْ فاطمة انصرفتْ وجوه الناس عن عليّ؛ فمكثتْ فاطمة ستة أشهر بعد رسول الله ﷺ، ثم توفّيت.

قال معمر: فقال رجلٌ للزهريّ: أفلم يبايعه عليٌّ ستة أشهر! قال: لا؛ ولا أحدٌ من بني هاشم؛ حتى بايعه عليّ. فلما رأى عليٌّ انصرافَ وجوه الناس عنه ضَرع إلى مصالحة أبي بكر، فأرسل إلى أبي بكر: أن ائتنا ولا يأتِنا معك أحدٌ، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدّة عمر، فقال عمر: لا تأتهم وحدَك، قال أبو بكر: واللهِ لآتينّهم وحدِي، وما عسى أن يصنعوا بي! قال: فانطلق أبو بكر، فدخل على عليّ، وقد جَمع بني هاشم عنده، فقام عليٌّ فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أمّا بعد، فإنه لم يمنعنا من أنْ نبايعك يا أبا بكر إنكارٌ لفضيلتك، ولا نَفاسَةٌ عليك بخيْرٍ ساقه الله إليك، ولكنا كنّا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقًّا، فاستبددتم به علينا. ثم ذكر قرابتَه من رسول الله ﷺ وحقهـم. فلم يزل عليٌّ يقول ذلك حتى بَكى أبو بكر.

فلما صمت عليٌّ تشهّد أبو بكر. فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعدُ؛ فوالله لقرابة رسول الله أحبُّ إليّ أن أصلَ من قرابتي؛ وإني والله ما ألوتُ في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم غيرَ الخير؛ ولكنّي سمعت رسول الله يقول: «لا نورَث؛ ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال»؛ وإني أعوذ بالله لا أذكر أمراً صنعه محمد رسول الله إلاّ صنعتُه فيه إن شاء الله.

ثم قال عليٌّ: موعدك العشيّة للبَيْعة، فلمّا صلى أبو بكر الظّهْرَ أقبلَ على النّاس، ثم عذر عليًّا ببعض ما

اعتذر، ثم قام عليٌّ فعظّم من حقّ أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه. قالت: فأقبل الناس إلى عليّ فقالوا: أصبت وأحسنت، قالت: فكان الناس قريباً إلى عليّ حين قاربَ الحق والمعروف.

حدّثني محمد بن عثمان بن صفوان الثقفيّ، قال: حدّثنا أبو قُتيبة، قال: حدّثنا مالك ـ يعني ابن مِغْوَل ـ عن ابن الحرّ، قال: قال أبو سفيان لعليّ: ما بالُ هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش! والله لئنْ شئت لأملأنّها عليه خيلًا ورجالًا! قال: فقال عليٌّ: يا أبا سفيان، طالما عاديتَ الإسلام وأهلَه فلم تضرّه بذاك شيئاً! إنا وجدنا أبا بكر لها أهلًا.

حدّثني محمد بن عثمان الثَّقَفِيّ، قال: حدّثنا أميّة بن خالد، قال: حدثنا حمّاد بن سلَمة، عن ثابت، قال: لما استخلِف أبو بكر قال أبو سُفيان: ما لَنا ولأبي فَصِيل: إنما هي بنو عبد مناف! قال: فقيل له: إنه قد ولّى ابنَك، قال: وصَلَتْه رَحِم!

حُدّثت عن هِشام، قال: حدّثني عَوَانَة، قال: لما اجتمَع الناسُ على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان؛ وهو يقول: والله إنّي لأرَى عجاجةً لا يطفِئها إلّا دم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم! أين المستضعَفان! أين الأذلان عليّ والعباس! وقال: أبا حسنٍ! ابسُط يدك حتى أبايعَك. فأبى عليٌّ عليه، فجعل يتمثل بشعر المتلمّس:

وَلَنْ يُقِيمَ عَلَى خَسْفٍ يُرادُ بِهِ ... إلَّا الأذلّانِ عَيْرُ الحَيِّ وَالوَتِدُ
هٰذَا عَلَى الْخَسْفِ مَعْكُوسٌ بِرُمَّتِهِ ... وذَا يُشَجُّ فَلا يَبكي لَهُ أحَدُ

قال: فزجره عليّ، وقال: إنك والله ما أردتَ بهذا إلا الفتنة؛ وإنك والله طالما بغيت الإسلامَ شَرًّا! لا حاجة لنا في نصيحتك.

قال هشام بن محمد: وأخبرني أبو محمد القرشيّ، قال: لما بويع أبو بكر، قال أبو سفيان لعليّ والعباس: أنتما الأذلان! ثم أنشد يتمثّل:

إنَّ الهوَانَ حِمَارُ الأهلِ يعْرِفُه ... وَالحُرُّ يَنْكَرُهُ والرَّسْلَةُ الأُجُد
ولاَ يُقِيمُ على ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إلا الأَذلّانِ عَيْرُ الحَيِّ وَالوتِدُ
هٰذَا عَلَى الخَسْفِ معكوسٌ بِرُمَّتِه ... وذَا يُشَجُّ فَلا يَبكي لَه أحد

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهريّ، قال: حدّثنا أنس بن مالك، قال: لما بويع أبو بكْر في السقيفة؛ وكان الغدُ، جلس أبو بكر على المِنْبَر، فقام عُمر فتكلّم قبل أبي بكر؛ فحمد اللّهَ وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس؛ إنّي قد كنتُ قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي؛ وما وجدتُها في كتاب الله؛ ولا كانت عهداً عَهِده إليَّ رسولُ الله ﷺ؛ ولكني قد كنت أرى أنّ رسول الله سيدبّر أمرنا؛ حتى يكون آخرَنا؛ وإنّ الله قد أبقَى فيكم كتابه الذي هَدى به رسول الله؛ فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هَداه له؛ وإنّ الله قد جمع أمرَكم على خيركم؛ صاحِب رسول الله، وثاني اثنين إذْ هما في الغار؛ فقوموا فبايعوا. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامّة بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلّم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهلُه، ثم قال: أما بعدُ أيها الناس؛ فإني قد وُلّيتُ

عليكم ولستُ بخيرِكم؛ فإن أحسنت فأعينوني؛ وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف. فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقّه إن شاء الله، والقويُّ منكم الضعيف عندي حتى آخذَ الحقّ منه إن شاء الله. لا يَدَع أحدٌ منكم الجهاد في سبيل الله؛ فإنه لا يَدعُه قوم إلّا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ إلّا عَمَّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله؛ فإذا عَصيتُ اللّهَ ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله!

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن حسين بن عبد الله، عن عِكْرمة، عن ابن عباس، قال: والله إني لأمشي مع عمر في خلافته؛ وهو عامد إلى حاجة له، وفي يده الدِّرَة، وما معه غيري. قال وهو يحدّث نفسه، ويضرب وَحْشيَّ قدمه بدِرَّته، قال إذ التفت إليّ فقال: يا بنَ عباس، هلْ تدري ما حملني على مقالتي هذه التي قلت حين توفّى الله رسولـه؟ قال: قلت: لا أدري يا أميرَ المؤمنين؛ أنت أعلم، قال: والله إنْ حمَلَني على ذلك إلّا أنّي كنتُ أقرأ هذه الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1]، فوالله إنّي كنت لأظنّ أنّ رسولَ الله سيبقى في أمّته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها؛ فإنه لَلّذي حملني على أن قلتُ ما قلت.

قال أبو جعفر: فلما بويع أبو بكر أقبلَ الناسُ على جِهازِ رسولِ الله ﷺ، فقال بعضهم: كان ذلك من فعلهم يوم الثلاثاء؛ وذلك الغدُ من وفاته ﷺ.

وقال بعضهم: إنما دُفن بعد وفاته بثلاثة أيام، وقد مضى ذكرُ بعض قائلي ذلك.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبدِ الله بن أبي بكر وكثير بن عبد الله وغيرهما من أصحابه، عمّن يحدثه، عن عبد الله بن عباس، أنّ عليَّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وقُثَم بن العباس وأسامة بن زيد وشُقران مولى رسولِ الله ﷺ هُم الذين وَلُوا غَسْلَه، وإنّ أوسَ بن خَوْليّ أحد بني عوف بن الخزرج؛ قال لعليّ بن أبي طالب: أنشُدك الله يا عليُّ؛ وحَظّنا من رسول الله! وكان أوْس من أصحاب بدر، وقال: ادخل؛ فدخل فحضر غُسْلَ رسولِ الله ﷺ؛ فأسنده عليُّ بن أبي طالب إلى صدره؛ وكان العبّاس والفضل وقُثَم هم الذين يقلِّبونه معه؛ وكان أُسامة بن زيد وشُقْران مولياه هُمَا اللذان يصبّان الماء، وعليّ يغسله قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يَدْلُكه مِنْ ورائه، لا يفْضي بيده إلى رسول الله ﷺ وعليٌّ يقول: بأبي أنت وأمّي! ما أطيبك حيًّا ومَيّتا! ولم يُرَ من رسول الله شيءٌ مما يُرى من الميت.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن يحيى بن عَبّاد، عن أبيه عَبّاد، عن عائشة، قالت: لما أرادوا أن يَغْسِلوا النبيّ ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري أنُجرّد رسولَ الله من ثيابه كما نجرّد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه! فلما اختلفوا ألقِيَ عليهم السِّنَةُ حتى ما منهم رجل إلا وَذقْنُه في صدره، ثم كلّمهم متكلّمٌ من ناحية البيت لا يُدْرى مَنْ هو: أن اغسلوا النبيّ وعليه ثيابُه؛ قالت: فقاموا إلى رسولِ الله ﷺ فغسّلوه وعليه قميصه يصبّون عليه الماء فوق القميص، ويدلكُونه والقميص دون أيديهم.

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

قال: فكانت عائشة تقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما غسّله إلا نِساؤه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن جعفر بن محمد بن علي بن حسين، عن أبيه، عن جدّه عليّ بن حسين. قال ابن إسحاق: وحدّثني الزّهريّ، عن عليّ بن حسين، قال: فلما فُرغ من غُسْل رسولِ الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب: ثوبين صُحَارِيَّيْن وبُرد حِبَرَة؛ أدرج فيها إدراجاً.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن حسين بن عبد الله، عن عِكْرِمة مولى ابنِ عبّاس، عن عبد اللهبن عبّاس، قال: لما أرادوا أن يحفِرُوا لرسولِ الله ﷺ- وكان أبو عبيدة بن الجرّاح يَضْرَح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفِر لأهل المدينة، وكان يلْحد - فدعا العباسُ رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة، وللآخر: اذهب إلى أبي طلحة؛ اللهمّ خِرْ لرسولك؛ قال: فوجد صاحبُ أبي طلحة أبا طلحة فجاء به فلحَد لرسولِ الله ﷺ. فلمّا فرِغ من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وُضع على سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه؛ فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: يدفَن مع أصحابه؛ فقال أبو بكر: إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما قبِض نبيٌّ إلّا يدفن حيث قُبض»؛ فرُفع فراش رسولِ الله الذي توفِّيَ عليه؛ فحُفِرَ له تحته؛ ودخل الناس على رسول الله يصلّون عليه أرْسالا؛ حتى إذا فرغ الرجال أدخِل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخِل الصبيان؛ ثم أدخِل العبيد؛ ولم يَؤمّ النّاسَ على رسولِ الله ﷺ أحدٌ، ثم دفن رسولُ الله ﷺ من وسَط الليل ليلة الأربعاء.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن فاطمة بنت محمد بن عُمارة، امرأة عبد الله - يعني ابن أبي بكر - عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن عائشة أمّ المؤمنين، قالت: ما علمنا بدفن رسولِ الله ﷺ حتى سمِعنا صوتَ المَساحي من جوف الليل ليلة الأربعاء.

قال ابن إسحاق: وكان الذي نزل قبرَ رسولِ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب والفضل بن العبّاس وقُثَم بن العباس وشُقران مولَى رسولِ الله ﷺ؛ وقد قال أوس بن خَوليّ: أنشُدك الله يا عليّ وحَظّنا من رسول الله! فقال له: انزِل، فنزل مع القوم؛ وقد كان شُقران مولَى رسولِ الله ﷺ حين وُضِع رسول الله ﷺ في حفرته، وبنِيَ عليه؛ قد أخذ قطيفة كان رسول الله يلبسها ويفترشها؛ فقذفها في القبر وقال: والله لا يلبَسها أحدٌ بعدَك أبداً. قال: فدفِنت مع رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وكان المغيرة بن شعبة يدّعي أنه أحدثُ الناس عهداً برسولِ الله ﷺ، ويقول: أخذت خاتمي فألقيتُه في القبر، وقلت: إنّ خاتمي قد سقط، وإنما طرحته عمداً لأمسّ رسول الله، فأكون آخرَ الناس به عهداً.

حدّثني ابنُ حُميد، قال: حدثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبيه إسحاق بن يَسار، عن مِقْسَم أبي القاسم، مولَى عبدِ الله بن الحارث بن نوفل، عن مولاه عبد الله بن الحارث، قال: اعتمرتُ مع عليّ بن أبي طالب في زمانِ عمر - أو زمان عثمان - فنزل على أخته أمّ هانىء بنت أبي طالب، فلما فرغ من عُمرته رجع وسكبتُ له غسلا فاغتسل؛ فلمّا فرغ من غُسْله دخل عليه نفرٌ من أهل العراق؛ فقالوا، يا أبا الحسن؛ جئنا نسألك عن أمر نحبّ أن تخبرنا به! فقال: أظنّ المغيرة يحدّثكم أنه كان أحدثُ الناس عهداً برسول الله ﷺ! قالوا: أجل عن ذا جئنا نسألك! قال: كذب؛ كان أحدث الناس عهداً برسول الله قُثَم بن العبّاس.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن صالح بن كيسان، عن الزهـريّ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن عائشة، قالت: كان على رسولِ الله ﷺ خميصة سوداء حين اشتدّ به وجعُه، قالت: فهو يَضَعُها مرّة على وجهه، ومرّة يكشفها عنه، ويقول قاتل الله قوماً اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ! يحذَر ذلك على أمته.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن صالح بن كيسان، عن الزهـري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة، قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أنه قال: لا يُترك بجزيرة العرب دينان.

قالت: وتوفِّي رسولُ الله ﷺ لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، في اليوم الذي قدم فيه المدينة مهاجراً فاستكمل في هجرته عشر سنين كوامل.

واختلف في مبلغ سنّه يوم توفي ﷺ، فقال: بعضهم: كان له يومئذ ثلاث وستون سنة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثنا ابن المثنّى، قال: حدّثنا حجّاج بن المنهال، قال: حدّثنا حمّاد ـ يعني ابنَ سلَمة ـ عن أبي جمرة، عن ابن عباس، قال: أقام رسولُ الله ﷺ بمكّة ثلاث عشرة سنة يُوحَى إليه، وبالمدينة عشراً؛ ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

حدّثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا حجّاج بن المنهال، قال: حدّثنا حمّاد، عن أبي جمرة، عن أبيه، قال: عاش رسولُ الله ﷺ ثلاثاً وستين سنة.

حدّثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا عبد الوهاب، قال: حدّثنا يحيى بن سعيد، قـال: سمعت سعيد بن المسيّب، يقول: أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وأقام بمكّة عشراً، وبالمدينة عشراً، وتوفِّيَ وهو ابن ثلاث وستين.

حدّثنا محمد بن خلَف العسقلانيّ، قال: حدّثنا آدم، قال: حدّثنا حمّاد بن سلمة، قال: حدّثنا أبو جمرة الضُّبعيّ، عن ابن عباس، قال: بُعِث رسولُ الله ﷺ لأربعين سنة، وأقام بمكّة ثـلاث عشرة يـوحىَ إليه، وبالمدينة عشراً، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

حدّثني أحمدُ بن عبد الرحمن بن وهب، قال: حدّثني عمي عبد الله، قال: حدّثنا يونس، عن الزُّهري، عن عُرْوة، عن عائشة، قالت: توفِّيَ رسولُ الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين.

وقال آخرون: كان له يومئذ خمس وستون.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني زياد بن أيّوب، قال: حدّثنا هُشيم، قال: أخبرنا عليّ بن زيد، عن يوسف بن مِهران، عن ابن عبّاس، قال: قبِض النبيّ ﷺ وهو ابن خمس وستين.

حدّثنا ابنُ المثنى، قال: حدّثنا معاذ بن هشام، قال: حدّثني أبي، عن قتادة، عن الحسن، عن دغْفل ـ يعني ابن حنظلة ـ أن النبي ﷺ توفّيَ وهو ابن خمس وستين سنة.

وقال آخرون : بل كان له يومئذ ستون سنة.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن المثنّى، قال: حدّثنا حجاج، قال: حدّثنا حمّاد، قال: حدّثنا عمرو بن دينار، عن عُروة بن الزبير، قال: بُعِث رسولُ الله ﷺ وهو ابن أربعين، ومات وهو ابن ستين.

حدّثنا الحسينُ بن نصر، قال: أخبرَنا عبيدُ الله، قال: أخبرنا شيبان، عن يحيى بن أبي كَثِير، عن أبي سلَمة، قال: حدثتْني عائشة وابنُ عبّاس، أن رسولَ الله ﷺ لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً.

ذكر الخبر عن اليوم والشهر اللَّذَيْن توفّي فيهما رسول الله ﷺ

قال أبو جعفر: حدّثنا عبد الرحمن بن الوليد الجرجانيّ، قال: حدّثنا أحمد بن أبي طَيْبة؛ قال: حدّثنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، أنّ النبيّ ﷺ استعمل أبا بكر على الحجّ سنة تسع، فأراهم مناسكَهم، فلمّا كان العام المقبل حجّ رسول الله ﷺ حجّةَ الوداع سنة عشر، وصدر إلى المدينة، وقُبِض في ربيع الأول.

حدّثني إبراهيم بن سعيد الجوهريّ، قال: حدّثنا موسى بن داود، عن ابن لَهِيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حَنَش الصنعانيّ، عن ابن عباس، قال: وُلد النبيّ ﷺ يومَ الاثنين، واستُنْبِىء يوم الاثنين، ورفع الحَجَر يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين وقدِم المدينة يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين.

حدّثني أحمدُ بن عثمان بن حكيم، قال: حدّثنا عبد الرحمن بن شريك، قال: حدّثني أبي، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، قال: توفِّيَ رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل في اثنتي عشرة ليلة مضتْ من شهر ربيع الأوّل يوم الاثنين ودفن ليلةَ الأربعاء.

حدّثني أحمدُ بن عثمان، قال: حدّثنا عبد الرحمن، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا محمد بنُ إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، أنه دخل عليه فقال لامرأته فاطمة: حَدِّثِي محمداً ما سمعتِ من عَمْرة بنت عبد الرحمن. فقالت: سمعت عَمْرة تقول: سمعت عائشة تقول: دُفِن نبيّ الله ﷺ ليلةَ الأربعاء؛ وما علمنا به حتى سمعنا صوتَ المَسَاحِي.

ذكر الخبر عما جرى بين المهاجرين والأنصار في أمر الإمارة في سقيفة بني ساعدة

حدّثنا هِشام بن محمد، عن أبي مِخْنف، قال: حدّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاريّ، أنّ النبيّ ﷺ لما قُبِض اجتمعت الأنصارُ في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: نُولّي هذا الأمر بعد محمد عليه السلام سعدَ بن عبادة، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض؛ فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمّه: إني لا أقدِر لشكوايَ أن أسمِع القوم كلّهم كلامي؛ ولكن تَلَقَّ منّي قولي فأسْمِعْهموه؛ فكان يتكلّم ويحفظ الرجل قوله، فيرفع صوتَه فيسمِع أصحابه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه؛ يا معشر الأنصار؛ لكم سابقةٌ في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب؛ إنّ محمّداً عليه السلام لَبِث بضع عشرة سنة في قومِه يدعوهم إلى عبادة

الرّحمن وخلْع الأنداد والأوثان؛ فما آمن به من قومه إلا رجالٌ قليل؛ وكان ما كانوا يقدرون على أن يمنعُوا رسولَ الله؛ ولا أن يُعِزُّوا دينَه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضَيْماً عُمُّوا به؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلةَ، ساق إليكم الكرامةَ وخصّكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنعَ له ولأصحابه، والإعزازَ له ولدينه؛ والجهادَ لأعدائه؛ فكنتم أشدَّ الناس على عدوّه منكم، وأثقلَه على عدوّه من غيركم؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً؛ وأعطى البعيدُ المقادةَ صاغراً داخراً؛ حتى أثخن الله عزّ وجلّ لرسولـه بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب؛ وتوفّاه الله وهو عنكم راض؛ وبكم قرير عين. استبدّوا بهذا الأمر فإنّه لكم دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم: أن قد وُفِّقتَ في الرأي وأصبت في القول، ولن نعدُوَ ما رأيت، ونولِّيك هذا الأمر، فإنك فينا مَقْنَعٌ ولصالح المؤمنين رضا. ثم إنهم ترادُّوا الكـلام بينهم، فقالوا: فإن أبَتْ مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأوّلون؛ ونحن عشيرته وأولياؤه، فعَلامَ تنازعوننا هذا الأمر بعده! فقالت طائفة منهم؛ فإنّا نقولُ إذاً: منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ؛ ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً. فقال سعدُ بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهَن!

وأتى عمرَ الخبرُ، فأقبل إلى منزل النبي ﷺ، فأرسل إلى أبي بكر وأبو بكر في الدار وعلي بن أبي طالب عليه السلام دائب في جِهاز رسولِ الله ﷺ؛ فأرسل إلى أبي بكر أن اخرج إليّ، فأرسل إليه؛ إنّي مشتغل؛ فأرسل إليه أنه قد حدَثَ أمرٌ لا بدّ لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أمَا علمتَ أنّ الأنصار قد اجتمعت في سَقِيفة بني ساعدة، يريدون أن يولُّوا هذا الأمر سعدَ بن عبادة؛ وأحسنهم مقالةً مَنْ يقول: منّا أمير ومِنْ قريش أمير! فمضيـا مسرعين نحوهم؛ فلقيَا أبا عُبيـدة بن الجراح، فتمـاشَوْا إليهم ثـلاثتُهم، فلقيَهم عاصم بن عـديّ وعُوَيمُ بن ساعدة، فقالا لهم: ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون، فقالوا: لا نفعل، فجاءوا وهم مجتمعون. فقال عمر بن الخطاب: أتيناهم ـ وقد كنتُ زوَّرت كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ـ فلما أن دفعتُ إليهم ذهبتُ لأبتدىء المنطق، فقال لي أبو بكر: رُوَيداً حتى أتكلّم ثم انطِقْ بعد بما أحببت. فنطق، فقال عمر: فما شيء كنتُ أردت أن أقوله إلاّ وقد أتى به أو زاد عليه.

فقال عبد الله بن عبد الرحمن: فبدأ أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: إنّ الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه، وشهيداً على أمته، ليعبُدوا الله ويوحّدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعةٌ، ولهم نافعة؛ وإنما هي من حَجَر منحوت، وخشب منجور، ثم قرأ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقولونَ هٰؤلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللهِ ﴾[1]، وقـالوا: ﴿ مَـا نَعْبدُهُم إلَّا لِيُقَـرِّبُونَـا إلَى اللهِ زُلْفَى ﴾[2]؛ فعظُم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصّ الله المهاجرين الأولين. من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمؤاساة له، والصبر معه على شدّة أذى قومهم لهم؛ وتكذيبهم إياهم؛ وكلُّ الناس لهم مخالف، زارٍ عليهم؛ فلم يستوحشوا لقلّة عددهم وشَنَفِ الناس لهم؛ وإجماع قومهم عليهم؛ فهم أوّل مَنْ عَبَد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول؛ وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقُّ الناس بهذا الأمر من بعده؛ ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشرَ الأنصار، مَنْ لا ينكَر فضلُهم في الدين، ولا سابقتُهم العظيمة في الإسلام، رضيَكم الله

(١) سورة يونس: ١٨.
(٢) سورة الزمر: ٣.

أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جِلّةُ أزواجه وأصحابه؛ فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحدُ بمنزلتكم؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تُفْتاتون بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور.

قال: فقام الحُبابُ بن المنذر بن الجموح، فقال: يا معشرَ الأنصار، املِكوا عليكم أمركم؛ فإنّ الناس في فيئكم وفي ظِلّكم، ولن يجترىء مجترىء على خلافِكم؛ ولن يُصدِر الناس إلّا عن رأيكم، أنتم أهل العزّ والثروة، وأولو العَدَد والمَنعة والتجربة، ذوو البأس والنجْدة؛ وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون؛ ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيُكم؛ وينتقض عليكم أمركم؛ فإن أبى هؤلاء إلّا ما سمعتم؛ فمنّا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان في قَرن! والله لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبيها من غيركم؛ ولكن العرب لا تمنع أن تولّي أمرَها مَنْ كانت النبوّة فيهم ووَلي أمورهم منهم؛ ولنا بذلك على مَنْ أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين؛ مَنْ ذا ينازعنا سلطانَ محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل، أو مُتَجانِف لإثم، ومتورِّط في هَلَكة!

فقام الحُباب بن المنذر فقال: يا معشرَ الأنصار، املِكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر؛ فإن أبوْا عليكم ما سألتموه، فاجلُوهم عن هذه البلاد، وتولّوا عليهم هذه الأمور؛ فأنتم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم؛ فإنه بأسيافكم دانَ لهذا الدين مَنْ دان ممّن لم يكن يدين؛ أنا جُذَيْلُها المُحكَّك، وعُذَيقُها المُرَجَّب! أمَا والله لئن شئتم لنعيدنّها جذَعَةً؛ فقال عمر: إذاً يقتلك الله! قال: بل إياك يقتل!

فقال أبو عبيدة: يا معشرَ الأنصار؛ إنكم أوّل مَنْ نصر وآزرَ؛ فلا تكونوا أوّل مَنْ بدّل وغيّر.

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يا معشرَ الأنصار؛ إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهادِ المشركين، وسابقةٍ في هذا الدّين؛ ما أردنا به إلّا رضا ربنا وطاعة نبينا، والكَدْحَ لأنفسنا؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرَضا؛ فإن الله وليُّ المنة علينا بذلك؛ ألا إنّ محمداً ﷺ من قريش، وقومُه أحقّ به وأولى. وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم!

فقال أبو بكر: هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيَّهما شئتم فبايعوا. فقالا: لا والله لا نتولّى هذا الأمر عليك؛ فإنك أفضلُ المهاجرين وثاني اثنين إذْ هما في الغار، وخليفةُ رسول الله على الصّلاة؛ والصّلاة أفضلُ دين المسلمين؛ فمن ذا ينبغي له أن يتقدّمك أو يتولّى هذا الأمر عليك! ابسُط يدك نبايعك.

فلما ذهبا ليبايعاه، سبقهما إليه بشير بن سعد، فبايعه، فناداه الحُباب بن المنذر: يا بشير بن سعد: عَقّتك عَقاقِ؛ ما أحوجَك إلى ما صنعت، أنَفِسْتَ على ابن عمّك الإمارة! فقال: لا والله؛ ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقًّا جعله الله لهم.

ولما رأت الأوسُ ما صنع بشير بن سعد، وما تدعو إليه قريش، وما تطلبُ الخزرجُ من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض، وفيهم أسَيْد بن حُضير ـ وكان أحدَ النقباء: والله لئن وليَتها الخزرج عليكم مرّة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة؛ ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم.

قال هشام: قال أبو مخنف: فحدّثني أبو بكر بن محمد الخُزاعيّ، أن أسلم أقبلتْ بجماعتها حتى تضايَقَ بهم السكك، فبايعوا أبا بكر؛ فكان عمر يقول: ما هو إلاّ أن رأيتُ أسلم، فأيقنتُ بالنّصر.

قال هشام: عن أبي مخنف: قال عبدُالله بن عبد الرحمن: فأقبَل الناس من كلّ جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطؤون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعداً لا تطؤوه، فقال عمر: اقتلوه قتله الله! ثم قام على رأسه، فقال: لقد هممتُ أن أطأكَ حتى تُنْدَر عَضُدك، فأخذ سعد بلِحية عمر، فقال: والله لو حصصتَ منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة؛ فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر! الرِّفْقُ ها هنا أبلغ. فأعرض عنه عمر. وقال سعد: أما والله لو أنّ بي قوّة مّا، أقوى على النهوض، لسمعتَ منّي في أقطارها وسككها زئيراً يُجْحِرك وأصحابك؛ أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنتَ فيهم تابعاً غير متبوع! احملوني مِنْ هذا المكان، فحملوه فأدخلوه في داره، وترك أياماً ثم بعث إليه أن أقْبِل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومُك؛ فقال: أما والله حتى أُرميَكم بما في كنانتي من نَبْلي، وأخْضِب سنان رمْحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومَنْ أطاعني من قومي؛ فلا أفعل، وايْمُ الله لو أنّ الجنّ اجتمعتْ لكم مع الإنس ما بايعتكم، حتى أعرَض على ربّي، وأعلَم ما حسابي.

فلما أتى أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تَدَعْه حتى يبايع. فقال له بشير بن سعد: إنه قد لجّ وأبى، وليس بمبايعكم حتى يُقتل، وليس بمقتول حتى يُقتل معه ولدُه وأهل بيته وطائفة من عشيرته؛ فاتركوه فليس تركُه بضارّكم؛ إنما هو رجلٌ واحد. فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لما بدَا لهم منه؛ فكان سعْد لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع معهم ويحجّ ولا يُفيض معهم بإفاضتهم فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله.

حدّثنا عُبيد الله بن سعد، قال: حدّثنا عمّي، قال: أخبرنا سَيْف بن عمر، عن سهل وأبي عثمان، عن الضحّاك بن خليفة، قال: لما قام الحُبابُ بن المنذر انتضَى سيفه؛ وقال: أنا جُذَيلُها المحكّك وعُذَيقها المرجّب، أنا أبو شبل في عِرّيسةِ الأسد، يعزَى إلى الأسْد، فحامله عمر فضرب يده، فندَر السيفُ، فأخذه ثم وثب على سعد ووثبوا على سعد؛ وتتابع القوم على البيعة وبايع سعد؛ وكانت فلتةً كفَلَتات الجاهليّة، قام أبو بكر دونها. وقال قائل حين أوطىء سعد: قتلتم سعداً، فقال عمر: قتله الله! إنه منافق، واعترض عمرَ بالسيف صخرةً فقطعه.

حدّثنا عُبيد الله بن سعيد، قال: حدّثني عمّي يعقوب، قال: حدثنا سيف، عن مبشّر، عن جابر، قال: قال سعد بن عبادة يومئذ لأبي بكر: إنكم يا معشرَ المهاجرِين حسدتموني على الإمارة؛ وإنك وقومي أجبرتموني على البَيعة، فقالوا: إنا لو أجْبَرْناك على الفُرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سَعة؛ ولكنا أجبرنا على الجماعة، فلا إقالة فيها؛ لئن نزعت يداً من طاعة، أو فرّقت جماعة، لَنضربنّ الذي فيه عيناك.

حدّثنا عبيدُ الله بن سعد، قال: أخبرنا عمي، قال: حدّثنا سيف ـ وحدّثني السريّ بن يحيى، قال: حدّثنا شُعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر ـ عن أبي ضَمْرة، عن أبيه، عن عاصم بن عديّ، قال: نادَى منادي أبي بكر، من بعد الغدِ مِنْ متوفَّى رسولِ الله ﷺ: لِيُتَمّ بعث أسامة؛ ألا لا يبقينّ بالمدينة أحدٌ من جُنْد أسامة إلاّ خرج إلى عسكره بالجُرف. وقام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، إنما أنا مثلُكم؛ وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسولُ الله ﷺ يطيق؛ إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من

الآفات؛ وإنما أنامتبعٌ ولست بمبتدع ؛ فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوّموني ؛ وإنّ رسولَ الله ﷺ قبِض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها ؛ ألاَ وإنّ لي شيطاناً يعتريني ؛ فإذا أتاني فاجتنبوني ؛ لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم ، وأنتم تغدون وتَرُوحون في أجلٍ قد غيِّب عنكم علمه ؛ فإن استطعتم ألاّ يمضيَ هذا الأجل إلّا وأنتم في عمل صالح فافعلوا ؛ ولن تستطيعوا ذلك إلّا بالله ؛ فسابقوا في مَهل آجالكم من قبل أن تُسلمَكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ؛ فإن قوماً نسُوا آجالهم ، وجعلُوا أعمالهم لغيرهم ؛ فإيّاكم أن تكونوا أمثالهم . الجدّ الجدّ! والوحا الوحا! والنّجاء النّجاء! فإن وراءكم طالباً حثيثاً ، أجلاً مَرُّه سريعٌ . احذروا الموت . واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ،ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات .

وقام أيضاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل من الأعمال إلّا ما أريد به وجهه ؛ فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وخطأٌ ظفرتم به ، وضرائب أدّيتموها ، وسلَفٌ قَدَّمتموه من أيام فانية لأخرى باقية ؛ لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمَنْ مات منكم ، وتفكّروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا أمس ، وأين هم اليوم! أين الجبّارون! وأين الذين كان لهم ذِكْر القتال والغلبَة في مواطن الحروب! قد تضعضع بهم الدّهر ، وصاروا رميماً ؛ قد تُركت عليهم القالات ؛ الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات . وأينَ الملوك الذين أثاروا الأرض وعمرُوها ؛ قد بعدوا ونُسيَ ذكرهم ، وصاروا كلا شيء . ألا إنَّ الله قد أبقى عليهم التَّبِعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوْا والأعمال أعمالهم ، والدنيا غيرهم ، وبقينا خلَفاً بعدهم ؛ فإن نحن اعتبرنا بهم نجوْنا ؛ وإن اغتررنا كنّا مثلهم! أين الوُضّاءُ الحسنة وجوهُهم ، المعجبون بشبابهم! صاروا تراباً ، وصار ما فرطوا فيه حَسْرة عليهم! أين الذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها لأعاجيب! قد تركوها لمن خَلَفَهم ؛ فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً! أين مَنْ تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؛ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدموا فحلُّوا عليه وأقاموا للشّقْوة والسعادة فيما بعد الموت . ألاَ إنّ الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد مِنْ خلقه سببٌ يعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه به سوءاً ، إلّا بطاعته واتباع أمره واعلموا أنكم عبيدٌ مَدِينُونَ ، وإنّ ما عنده لا يُدْرك إلّا بطاعته ؛ أما أنه لا خير بخير بَعْدَه النارُ ، ولا شر بشرٍّ بعده الجنة .

حدّثني عُبيد الله بن سعد ، قال : أخبرني عمّي ، قال : أخبرني سيف ـ وحدّثني السَّرِي ، قال : حدّثنا شُعيب ، قال : أخبَرنا سيف ـ عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه ، قال : لِيُتَمّ بعثُ أسامة ؛ وقد ارتدت العرب ؛ إمّا عامة وإما خاصّة في كلّ قبيلة ونجم النفاق ، وأشرأبّت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغَنَم في الليلة المطِيرة الشاتية ، لفقد نبيِّهم ﷺ وقِلّتهم ، وكثرة عدوّهم . فقال له الناس : إن هؤلاء جُلّ المسلمين والعرب ـ على ما ترى ـ قد انتقضت بك ؛ فليس ينبغي لك أن تفرّق عنك جماعة المسلمين . فقال أبو بكر : والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السِّباع تخطّفني لأنفذت بعثَ أسامة كما أمَر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يَبْقَ في القرى غيري لأنفذته!

حدّثني عبيدِ الله ، قال : حدّثني عمّي ، قال : أخبرني سيف ـ وحدّثني السريّ ، قال : حدّثنا شعيب ، قال : حدّثنا سيف ـ عن عطية ، عن أبي أيوب عن عليّ ، وعن الضّحاك عن ابن عباس ، قالا : ثم اجتمعَ من حول المدينة من القبائل التي غابت في عام الحُدَيبِيَة ، وخرجوا وخرج أهلُ المدينة في جُنْد أسامة ؛ فحبس أبو بكر مَنْ بَقِيَ من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم ، فصاروا مسالحَ حول قبائلهم وهم قليل .

حدّثنا عبيدُ الله، قال حدّثني عمي، قال: أخبرني سيف ـ وحدّثني السريّ، قال: حدّثنا شعيب، قال: حدّثنا سَيْف ـ عن أبي ضَمْرة وأبي عمرو وغيرهما؛ عن الحسن بن أبي الحسن البصريّ، قال: ضرب رسولُ الله ﷺ قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومَنْ حولهم؛ وفيهم عمر بن الخطاب؛ وأمَّر عليهم أسامة بن زيد. فلم يجاوز آخرهم الخندقَ، حتى قُبِض رسولُ الله ﷺ، فوقف أسامة بالناس، ثم قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله فاستأذنه، يأذن لي أن أرجع بالناس؛ فإنّ معي وجوهَ الناس وحدَّهم؛ ولا آمن على خليفة رسول الله وثَقَل رسول الله وأثقال المسلمين أن يتخطّفهم المشركون. وقالت الأنصارُ: فإن أبى إلاّ أن نمضيَ فأبلغْه عنّا، واطلب إليه أن يولِّي أمرَنا رجلاً أقدمَ سناً من أسامة. فخرج عمر بأمر أسامة، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو خَطَفَتْني الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قَضَى به رسولُ الله ﷺ، قال: فإنّ الأنصار أمروني أن أبلغك، وإنهم يطلبون إليك أن تُولِّي أمرَهم رجلاً أقدمَ سنًّا من أسامة؛ فوثب أبو بكر ـ وكان جالساً ـ فأخذ بلحيةِ عمر، فقال له: ثكلتك أمّك وعدمَتْك يابن الخطاب! استعملَه رسولُ الله ﷺ وتأمرني أن أنزِعَه، فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا، ثكلَتْكم أمَّهاتُكم! ما لقيتُ في سببكم من خليفة رسول الله!

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم، فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماش وأسامة راكبٌ، وعبد الرحمن بن عوف يقودُ دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفةَ رسول الله، والله لتركبنّ أو لأنزلنّ! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما عليّ أن أغبّرَ قدمَيّ في سبيل الله ساعةً، فإن للغازي بكلّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترتفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة! حتى إذا انتهى قال: إن رأيتَ أن تعينَني بعمر فافعل! فأذن له، ثم قال: يا أيها الناس، قفُوا أوصِكُمْ بعشر فاحفظوها عنِّي: لا تَخُونُوا ولا تُغِلوا، ولا تَغْدِروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقِرُوا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة؛ وسوف تمرُّون بأقوام قد فرّغوا أنفسَهم في الصوامع؛ فدَعُوهم وما فرّغوا أنفسهم له، وسوف تقدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوانُ الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسمَ الله عليها. وتلقوْن أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفِقوهم بالسيف خَفْقاً. اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاعون.

حدّثني السريّ، قال: حدّثنا شعيب، قال: حدّثنا سيف ـ وأخبرنا عبيد الله، قال: أخبرني عمّي قال: حدثنا سيف ـ عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: خرج أبو بكر إلى الجُرْف، فاستَقْرى أسَامة وبعْثه، وسأله عمر فأذن له، وقال له: اصنع ما أمرَك به نبيُّ الله ﷺ، ابدأ ببلاد قُضاعة ثم إيتِ آبِلَ، ولا تقصرنّ في شيء من أمر رسول الله ﷺ، ولا تعجلنّ لما خلّفتَ عن عهده. فمضى أسامة مُغِذًّا على ذي المَرْوَة والوادي، وانتهى إلى ما أمره به النبيّ ﷺ من بَثّ الخيول في قبائل قُضاعة والغارة على آبل، فسلم وغنِم، وكان فراغه في أربعين يوماً سوى مقامه ومنقلبه راجعاً.

فحدّثني السريّ بن يحيى، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف ـ وحدّثنا عُبيد الله، قال: أخبرنا عمّي، قال: أخبرنا سيف ـ عن موسى بن عقبة، عن المغيرة بن الأخنَس.

وعنهما، عن سيف، عن عمرو بن قيس، عن عطاء الخراساني مثلَه.

بقيّة الخبر عن أمر الكذّاب العنسيّ

كان رسولُ الله ﷺ جَمَع ـ فيما بلغنا ـ لباذام حين أسلم وأسلمت اليمن عَمَل اليمن كلّها، وأمَّرَه على جميع مخاليفها، فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيامَ حياته، فلم يعزِله عنها ولا عن شيء منها، ولا أشرك معه فيها شريكاً حتى مات باذام، فلمّا مات فرّق عملها بين جماعة من أصحابه.

فحدّثني عُبيد الله بن سعد الزُّهري، قال: حدّثنا عمّي، قال: حدّثنا سيف ـ وحدّثني السريّ بن يحيى، قال: حدّثنا شُعيب بن إبراهيم، عن سيف ـ قال: حدّثنا سَهْل بن يوسف، عن أبيه، عن عبيد بن صَخْر بن لَوْذان الأنصاريّ السُّلميّ ـ وكان فيمن بعث النبيّ ﷺ مع عمَّال اليمن في سنة عشر بعد ما حجّ حجّة التّمام: وقد مات باذام، فلذلك فرّق عملَها بين شَهْر بن باذام، وعامر بن شهر الهَمْدانيّ، وعبدالله بن قيس أبي موسى الأشعري، وخالد بن سعيد بن العاص، والطّاهر بن أبي هالة، ويعلَى بن أمَيّة، وعمرو بن حَزْم، وعلى بلاد حَضْرَمَوْت زياد بن لَبِيد البَيَاضيّ وعُكّاشة بن ثور بن أصغر الغَوْثيّ؛ على السَّكاسك والسَّكون ومعاوية بن كندة، وبعث مُعاذ بن جبل معلِّماً لأهل البلدَيْن: اليمن وحضرموت.

حدّثني عبيدُ الله، قال: أخبرني عمِّي، قال: أخبرني سَيْف ـ يعني ابن عمر ـ عن أبي عمرو مولى إبراهيم بن طلحة، عن عبادة بن قُرْص بن عبادة، عن قُرْص الليثيّ، أنّ النبي ﷺ رجع إلى المدينة بعد ما قضى حجّة الإسلام، وقد وجَّه إمارة اليمن وفرّقها بين رجال، وأفرد كلَّ رجل بحَيِّزه، ووجّه إمارة حضر موت وفرّقها بين ثلاثة، وأفرد كلَّ واحد منهم بحيِّزه، واستعمل عمرو بن حزم على نَجْران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نَجْران ورِمع وزَبِيد، وعامر بن شهر على هَمْدان، وعلى صنعاء ابن باذام، وعلى عَكّ والأشعريّين الطّاهر بن أبي هالة، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجَند يعلَى بن أميّة. وكان معاذ معلِّماً يتنقّل في عِمالة كلّ عامل باليمن وحضرموت؛ واستعمل على أعمالِ حضرموت؛ على السَّكاسك والسَّكون عُكّاشة بن ثور، وعلى بني معاوية بن كندة عبد الله ـ أو المهاجر ـ فاشتكى فلم يذهب حتى وجّهه أبو بكر. وعلى حضرموت زياد بن لبيد البيّاضيّ، وكان زياد يقوم على عمل المهاجر؛ فمات رسول الله ﷺ وهؤلاء عمّاله على اليمن وحضرموت، إلّا مَنْ قُتِل في قتال الأسود أو مات؛ وهو باذام، مات ففرّق النبيّ ﷺ العملَ من أجله. وشهر ابنُه ـ يعني ابن باذام ـ فسار إليه الأسود فقاتله فقتله.

وحدّثني بهذا الحديث السريّ، عن شعيب بن إبراهيم، عن سَيْف. فقال فيه: عن سيف، عن أبي عمرو مولى إبراهيم بن طلحة. ثم سائر الحديث بإسناده مثل حديث ابن سعد الزُّهري.

قال: حدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب بن إبراهيم، عن سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن عِكْرمة، عن ابن عبّاس، قال: أوّل من اعترض على العَنْسيّ وكاثَره عامرُ بن شَهْر الهمْدانيّ في ناحيته وفيروز وداذَوَيْه في ناحيتها، ثم تتابع الذين كتِب إليهم على ما أمِروا به.

حدّثنا عُبيد الله بن سعد، قال: أخبرنا عمّي، قال: أخبرني سَيْف، قال: وحدّثنا السرِيّ، قال: حدّثنا شعيب، قال: حدّثنا سيف ـ عن سهل بن يوسف، عن أبيه عن عبيد بن صخر، قال: فبينا نحن بالجَند قد أقمناهم على ما ينبغي، وكتبنا بيننا وبينهم الكتب، إذ جاءنا كتاب من الأسْود: أيها المتورِّدُون علينا، أمسكوا

علينا ما أخذتم من أرضِنا، ووفِّروا ما جمعتم؛ فنحن أَوْلى به وأنتم عَلَى ما أنتم عليه. فقلنا للرسول: مِنْ أين جئت؟ قال: من كهف خُبَّان. ثم كان وجّهه إلى نَجْران؛ حتى أخذها في عشرٍ لمخرجه، وطابقه عوامّ مذحج. فبينا نحن ننظر في أمرنا، ونجمع جَمعنا، إذ أتينا فقيل: هذا الأسود بشَعُوب، وقد خرج إليه شهر بن باذام؛ وذلك لعشرين ليلة من منجمه. فبينا نحن ننتظر الخبر على من تكون الدَّبْرة، إذ أتانا أنه قتل شهراً، وهزم الأبناء، وغلب على صَنعاء لخمس وعشرين ليلة من منجَمه. وخرج معاذ هارباً، حتى مرّ بأبي موسى وهو بمأرِب، فاقتحما حضرموت، فأما معاذ فإنه نزل في السَّكون؛ وأما أبو موسى فإنه نزل في السَّكاسك مما يلي المفُور والمفازة بينهم وبين مأرب، وانحاز سائر أمراء اليَمن إلى الطّاهر إلّا عمراً وخالداً؛ فإنهما رجعا إلى المدينة؛ والطّاهر يومئذ في وَسط بلاد عَكّ بحِيال صنعاء. وغلب الأسودُ على ما بين صَهيد ـ مفازة حضرموت ـ إلى عمل الطائف إلى البحرين قِبَل عَدن، وطابقت عليه اليمن، وعكّ بتهامة معترضون عليه؛ وجعل يستطير استطارة الحريق، وكان معه سبعمائة فارس يوم لقيَ شهراً سوى الرُّكبان؛ وكان قُوَّاده قيس بن عبد يغوث المُراديّ ومعاوية بن قيس الجَنْبيّ ويزيد بن محرم ويزيد بن حُصين الحارثيّ ويزيد بن الأفكَل الأزديّ. وثبت ملكه واستغلظ أمرُه؛ ودانَتْ له سواحل من السواحل، حاز عَثّر والشَّرْجَة والحَرْدة وغَلافقَة وعَدَن، والجَنَد، ثم صَنعاء إلى عَمَل الطائف، إلى الأحسيَة وعُلَيْب؛ وعامله المسلمون بالبقيّة، وعامله أهلُ الرِّدّة بالكفر والرجوع عن الإسلام. وكان خليفته في مذحج عمرَو بن معد يكرب، وأسند أمره إلى نفر؛ فأما أمرُ جنده فإلى قيس بن عبد يغوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز وداذويْه.

فلمّا أثخن في الأرض استخفَّ بقيس وبفيروز وداذويْه، وتزوّج امرأة شهر؛ وهي ابنة عمّ فيروز، فبينا نحن كذلك بحضرموت ـ ولا نأمن أن يسير إلينا الأسود، أو يبعث إلينا جيشاً، أو يخرج بحضرموت خارجٌ يدّعي بمثل ما ادّعى به الأسود، فنحن على ظهر، تزوّج مُعاذ إلى بني بكرة؛ حي من السَّكون، امرأة أخوالها بنو زنكبيل يقال لها رَمْلة، فحَدِبوا لصهره علينا، وكان معاذ بها معجَباً، فإن كان ليقول فيما يدعو الله به: اللهم ابعثني يوم القيامة مع السَّكون، ويقول أحياناً: اللهم اغفر للسَّكون ـ إذ جاءتْنا كتبُ النبيّ ﷺ يأمرنا فيها أن نبعثَ الرِّجالَ لمحاولته أو لمصاولته؛ ونُبلِغَ كلّ مَنْ رجا عنده شيئاً من ذلك عن النبي ﷺ. فقام معاذ في ذلك بالذي أمِر به، فعرفنا القوّة ووثقنا بالنصر.

حدّثنا السريّ، قال: أخبرَنا شُعيب، قال: حدّثنا سَيْف ـ وحدّثني عُبيد الله، قال: أخبرَنا عمّي، قال: أخبرنا سيف ـ قال: أخبرَنا المستنير بن يزيد، عن عروة بن غزيّة الدَّثيني، عن الضّحاك بن فيروز ـ قال السريّ: عن جُشَيْش بن الديلميّ، وقال عبيد الله: عن جشنس بن الديلميّ ـ قال: قدِم علينا وَبَرُ بن يُحَنّس بكتاب النَّبيّ ﷺ، يأمرنا فيه بالقيام على ديننا، والنهوض في الحرب، والعمل في الأسود: إمّا غيلة وإما مصادمة؛ وأن نبلغ عنه مَن رأينا أنّ عنده نجدة وديناً. فعملنا في ذلك، فرأينا أمراً كثيفاً، ورأيناه قد تغيّر لقيس بن عبد يغوث ـ وكان على جنده ـ فقلنا: يُخاف على دمه، فهو لأوّل دعوة: فدعونا وأنْبأناه الشأنَ، وأبلغنا عن النبيّ ﷺ؛ فكأنما وقعنا عليه من السماء، وكان في غمّ وضيق بأمره؛ فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك، وجاءنا وبر بن يحنّس، وكاتبْنا الناس ودعوناهم؛ وأخبره الشيطان بشيء، فأرسل إلى قيس وقال: يا قيس، ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: عَمَدت إلى قيس فأكرمته؛ حتى إذا دخل منك كلّ مدخل، وصار في العزّ مثلك؛ مال ميل عدوك، وحاول ملكَك وأضمر على الغدر، ! إنه يقول: يا أسود يا أسود! يا سوءة يا

سوءة، اقطف قُنَّته، وخذْ من قيس أعلاه؛ وإلّا سلبك أو قطف قُنَّتك. فقال قيس ـ وحلَف به: كذَبَ وذي الخِمار؛ لأنتَ أعظمُ في نفسي وأجَلُّ عندي من أنْ أحدِّث بك نفسي؛ فقال: ما أجفاك: أتكذّب المَلَك! قد صدق المَلَك؛ وعرفت الآن أنك تائبٌ مما أطّلع عليه منك.

ثم خرج فأتانا، فقال: يا جُشَيش، ويا فَيْروز، ويا داذويه، إنه قد قال وقلت؛ فما الرأيُ؟ فقلنا: نحن على حذَر؛ فإنا في ذلك؛ إذ أرسل إلينا، فقال: ألم أشرِّفْكُم على قومِكم، ألم يبلغني عنكم! فقلنا: أقِلْنا مرّتَنا هذه، فقال: لا يبلغني عنكم فأقتلكم؛ فنجوْنا ولم نكدْ، وهو في ارتياب من أمرنا وأمر قيس؛ ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم؛ إذ جاءنا اعتراض عامر بن شَهْر وذي زود وذي مُرّان وذي الكَلاع وذي ظُلَيْم عليه، ؛ وكاتبونا وبذلوا لنا النَّصر؛ وكاتبناهم وأمرناهم ألّا يحركوا شيئاً حتى نُبْرم الأمْرَ ـ وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتاب النبيّ ﷺ؛ وكتب النبيّ ﷺ إلى أهل نَجْران؛ إلى عَرَبهم وساكني الأرض من غير العرب؛ فثبتوا فتَنحوا وانضمّوا إلى مكان واحد ـ وبلغه ذلك، وأحسّ بالهلاك، وفرق لنا الرّأيُ، فدخلتُ على آذاد، وهي امرأته، فقلت: يا ابنةَ عمّ؛ قد عرفتِ بلاءَ هذا الرجل عند قومك؛ قَتَل زوجك؛ وطأطأ في قومك القتل، وسفل بمن بقي منهم؛ وفضح النساء؛ فهل عندك من ممالأة عليه! فقالت: على أيّ أمره؟ قلت: إخراجه، قالت: أو قتله، قلت: أو قتله، قالت: نعم والله ما خلَقَ الله شخصاً أبغض إليّ منه؛ ما يقوم لله على حقّ، ولا ينتهي له عن حُرْمة، فإذا عزمتم فأعلموني أخبركم بمَأتَى هذا الأمر. فأخرجُ فإذا فيروز وداذويه ينتظراني، وجاء قيس ونحن نريد أن نناهِضه، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا: المَلِك يدعوك، فدخل في عشرة من مَذْحِج وهَمْدان، فلم يقدِر على قتله معهم ـ قال السرّيّ في حديثه ـ فقال: يا عَيْهلة بن كعب بن غوث، وقال عُبيد الله في حديثه: يا عبهلة بن كعب بن غوث ـ أمِنِّي تحَصَّنُ بالرّجال! ألم أخبرك الحقَّ وتخبرني الكذابة! إنه يقول: يا سوءة يا سوءة! إلّا تقطع من قيس يدَه يقطع قُنّتك العُلْيا؛ حتى ظنّ أنه قاتله؛ فقال: إنه ليس من الحق أن أقتلك وأنت رسول الله، فمر بي بما أحببت؛ فأما الخوف والفَزَع فأنا فيهما مخافة أن تقتلني ـ قال الزّهري: فإمّا قتلتَني فموتة، وقال السّريّ: اقتلني فموتةٌ أهوَنُ عليّ من موتات أموتُها كلّ يوم ـ فرقّ له فأخرجه، فخرج علينا فأخبرنا وواطأنا، وقال: اعْملُوا عَمَلَكم؛ وخرج علينا في جمع، فقمنا مُثُولاً له، وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير، فقام وخَطَّ خَطًّا فأقيمت من ورائه، وقام من دونها، فنحرها غير محبَّسة ولا معقَّلة، ما يقتحم الخطّ منها شيء، ثم خلّاها فجالتْ إلى أن زَهَقت؛ فما رأيت أمراً كان أفظع منه، ولا يوماً أوحش منه. ثم قال: أحقٌّ ما بلغني عنك يا فيروز؟ وَبوَّأ له الحربة ـ لقد هممتُ أن أنْحرَك فأُتْبِعَك هذه البهيمة، فقال: اخترتَنا لِصهْرِك وفضّلتنا على الأبناء؛ فلو لم تكن نبيًّا ما بِعْنَا نصيبَنا منك بشيء؛ فكيف وقد اجتمع لنا بك أمرُ آخرة ودنيا؛ لا تقبلنّ علينا أمثال ما يبلغك؛ فإنّا بحيث تحبّ. فقال: اقسِمْ هذه؛ فأنت أعلم بمَنْ ها هنا؛ فاجتمع إليّ أهلُ صنعاء، وجعلت آمر للرهط بالجَزور، ولأهل البيت بالبقرة، ولأهل الحِلَّة بعدّة، حتى أخذ أهل كلّ ناحية بقسطهم. فلحق به قبل أن يصل إلى داره ـ وهو واقف عليّ ـ رجلٌ يسعى إليه بفيروز؛ فاستمع له، واستمع له فيروز وهو يقول: أنا قاتله غداً وأصحابه؛ فاغدُ عليّ، ثم التفت فإذا به، فقال: مَه! فأخبره بالذي صنع، فقال: أحسنت، ثم ضرب دابّته داخلاً، فرجع إلينا فأخبرنا الخبر، فأرسلنا إلى قيس، فجاءنا؛ فأجمع مَلؤهم أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا لتخبرَنا بما تأمر؛ فأتيتُ المرأة وقلت: ما عندك؟ فقالت: هو متحرِّز متحرِّس؛ وليس من القَصْر شيء إلّا والحَرَسُ محيطون به غير هذا البيت؛ فإنّ ظهرَه إلى مكان كذا وكذا من الطريق؛ فإذا أمسيتُم فانقُبوا عليه؛ فإنّكم من دون الحَرَس؛

وليس دون قتله شيء. وقالت: إنّكم ستجدون فيه سِراجاً وسلاحاً. فخرجتُ فتلقّاني الأسود خارجاً من بعض منازله. فقال لي. ما أدخلك عليّ؟ ووجأ رأسي حتى سقطتُ ـ وكان شديداً ـ وصاحت المرأة فأدهشتْه عنّي؛ ولولا ذلك لقتلني. وقالت: ابن عمّي جاءني زائراً، فقصّرْتَ بي! فقال: اسكتي لا أبالك، فقد وهبته لك! فتزايلَتْ عنّي، فأتيت أصحابي فقلت: النَّجاء! الهَرَب! وأخبرتُهم الخبر، فإنا على ذلك حَيَارَى إذ جاءني رسولُها: لا تَدَعنَّ ما فارقتك عليه؛ فإني لم أزَلْ به حتى اطمأنّ؛ فقلنا لفيروز: ائتِها فتثبّتْ منها؛ فأما أنا فلا سبيلَ لي إلى الدخول بعد النَّهي. ففعل، وإذا هو كان أفطنَ مني، فلما أخبرته قالتْ: وكيف ينبغي لنا أن ننقب على بيوت مبطّنة! ينبغي لنا أن نقلع بِطانَةَ البيت؛ فدخلا فاقتلعا البطانة، ثم أغلقاه؛ وجلس عندها كالزائر، فدخلَ عليها الأسود فاستخفّتْه غَيْرة، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم، فصاح به وأخرجه. وجاءنا بالخبر؛ فلما أمسينا عملنا في أمرنا؛ وقد واطَأنا أشيَاعُنا، وعجِلْنا عن مراسلة الهَمْدانيّين والحميرَيِّين؛ فنقبنا البيتَ من خارج، ثم دخلنا وفيه سراج تحت جَفْنة؛ واتّقينا بفَيروز، وكان أنجدنا وأشدّنا ـ فقلنا: انظر ماذا ترى! فخرج ونحن بينه وبين الحرس معه في مقصورة؛ فلما دنا من باب البيت سمع غطيطاً شديداً وإذا المرأة جالسة، فلمّا قام على الباب أجلسه الشَّيْطان فكلّمه على لسانه ـ وإنه ليغُطّ جالساً. وقال أيضاً: مالي ولك يا فيروز! فخشيَ إن رجع أن يهلِك وتهلك المرأة، فعاجله فخالطه وهو مثل الجَمَل؛ فأخذ برأسه فقتله؛ فدقّ عنقه، ووضع ركبته في ظهره فدقّه، ثم قام ليخرج، فأخَذت المرأة بثوبه وهي ترَى أنه لم يقتله، فقالت: أين تَدعُني! قال: أخبرُ أصحابي بمقتله؛ فأتانا فقمنا معه؛ فأردنا حزّ رأسه؛ فحرّكه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه؛ فقلت: اجلسوا علَى صدره؛ فجلس اثنان على صدره، وأخذت المرأة بشعره وسمعنا بربرة فألجمتُه بمِئلاة؛ وأمَرّ الشَّفْرة على حَلْقه فخار كأشدّ خُوار ثور سمعته قطّ؛ فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا، ما هذا! فقالت المرأة: النبيّ يوحَى إليه! فخمد. ثم سمرنا ليلَتنا ونحن نأتمر كيف نخبرُ أشياعَنا، ليس غيرنا ثلاثتنا: فيروز وداذويه وقيس؛ فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا وبين أشياعنا، ثم يُنَادى بالأذان، فلما طَلع الفجر نادى داذويه بالشعار، ففزع المسلمون والكافرون، وتجمّع الحرس فأحاطوا بنا، ثم ناديت بالأذان، وتوافت خيولُهم إلى الحَرس، فناديتهم: أشهدُ أن محمداً رسول الله؛ وأن عَبْهلة كذّاب! وألقينا إليهم رأسَه، فأقام وَبَر الصلاة، وشَنّها القوم غارةً، ونادينا: يا أهلَ صنعاء، مَن دخل عليه داخل فتعلّقوا به، ومَن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به. ونادينا بمَن في الطريق: تعلَّقوا بمن استطعتم! فاختطفوا صبياناً كثيرين، وانتهبوا ما انتهبوا، ثم مضوْا خارجين، فلمّا برزوا فقدوا منهم سبعين فارساً ركبانا؛ وإذا أهلُ الدّور والطُرق وقد وافونا بهم؛ وفقدنا سبعمائة عَيِّل فراسلونا وراسلناهم أن يتركُوا لنا ما في أيديهم، ونترك لهم ما في أيدينا؛ ففعلوا فخرَجوا لم يظفروا منّا بشيء؛ فتردَّدوا فيما بين صنعاء ونَجْران؛ وخلصت صنعاء والجَنَد، وأعزّ الله الإسلام وأهله؛ وتنافسْنا الإمارة؛ وتراجع أصحابُ النبيّ ﷺ إلى أعمالهم؛ فاصطلحنا على معاذ بن جبل، فكان يصلّي بنا، وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر؛ وذلك في حياة النبي ﷺ. فأتاه الخبر مِنْ ليلته، وقدِمت رُسُلُنا؛ وقد مات النبيُّ ﷺ صبيحةَ تلك الليلة؛ فأجابنا أبو بكر رحمه الله.

حدّثنا عبيد الله، قال: أخبرنا عَمّي، قال: أخبرَنا سيف ـ وحدّثني السَّريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سَيْف ـ عن أبي القاسم الشَّنَويّ، عن العلاء بن زياد، عن ابن عمر، قال: أتى الخبرُ النبيَّ ﷺ من السماء

الليلة التي قتل فيها العَنْسيُّ ليبشِّرنا فقال: قُتِل العنسيّ البارحةَ، قتله رجلٌ مباركٌ من أهل بيت مباركين، قيل: ومن هو؟ قال: فيروز، فاز فيروز؟

حدّثنا عبيد الله، قال: أخبرنا عَمّي، قال: أخبرني سيف ـ وحدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف ـ عن المستنير، عن عُروة، عن الضّحاك، عن فيروز، قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا كما كان؛ إلّا أنا أرسلْنا إلى مُعاذ، فتراضينا عليه؛ فكان يصلّي بنا في صَنْعاء؛ فوالله ما صلَّى بنا إلا ثلاثاً ونحن راجعون مؤمّلون؛ لم يبق شيء نكرهه إلّا ما كان من تلك الخيول التي تتردّد بيننا وبين نَجْران؛ حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور؛ وأنكرنا كثيراً مما كنا نعرف، واضطربت الأرض.

حدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، قال: حدثنا سيف، عن أبي القاسم وأبي محمد، عن أبي زُرعة يحيى بن أبي عمرو السّيبانيّ، من جُنْد فلسطين؛ عن عبد الله بن فيروز الدّيلميّ؛ أنّ أباه حدّثه أنّ النبيّ ﷺ بعث إليهم رسولاً، يقال له: وَبَر بن يُحنّس الأزديّ؛ وكان منزله على داذَويه الفارسيّ، وكان الأسود كاهناً معه شيطان وتابع له، فخرج فنزل على ملك اليمن؛ فقتل ملكها ونكح امرأته ومَلَك اليمن، وكان باذام هلك قبل ذلك، فخلف ابنه على أمره، فقتله وتزوجها، فاجتمعتُ أنا وداذويه وقيس بن المكشوح المراديّ عند وَبَر بن يُحنّس رسول نبيّ الله ﷺ نأتمر بقتل الأسود. ثمّ إنّ الأسود أمر الناس فاجتمعوا في رَحَبَة من صنعاء، ثمّ خرج حتى قام في وسطهم، ومعه حربة الملك، ثم دعا بفرَس الملك فأوْجَره الحربة، ثم أرسِل فجعل يجري في المدينة ودماؤه تسيل حتى مات. وقام وسط الرّحبة؛ ثمّ دعا بجُزُر من وراء الخطّ فأقامها،وأعناقها ورؤوسها في الخطّ ما يُجُزْنَه. ثمّ استقبلهنّ بحربته فنحرهنّ فتصدّعْن عنه؛ حتى فرغ منهنّ؛ ثم أمسك حربتَه في يده؛ ثم أكبّ على الأرض، ثم رفع رأسه، فقال: إنه يقول ـ يعني شيطانه الذي معه: إنّ ابنَ المَكْشُوح من الطغاة، يا أسود اقطع قُنَّةَ رأسه العليا. ثم أكبّ رأسه أيضاً ينظر، ثمّ رفع رأسه، فقال: إنه يقول: إنّ ابن الديلميّ من الطغاة؛ يا أسود اقطع يده اليمنى ورجله اليمنى؛ فلما سمعتُ قولَه قلت: والله ما آمنت أن يدعوَ بي فينحرني بحربته كما نحر هذه الجُزُر، فجعلت أستتر بالناس لئلا يراني، حتى خرجت ولا أدري من حذري كيف آخذ! فلما دنوتُ من منزلي لقيني رجلٌ من قومه، فدقّ في رقبتي، فقال: إنّ الملك يدعوك وأنت تَرُوغ! ارجع؛ فردّني، فلمّا رأيتُ ذلك خشيتُ أن يقتلني. قال: وكنّا لا يكاد يفارق رجلاً منا أبداً خنجرُه، فأدسّ يدي في خفّي، فأخذت خِنجَري، ثم أقبلت وأنا أريد أن أحمل عليه، فأطعنه به حتى أقتله، ثم أقتل مَن معه، فلمّا دنوت منه رأى في وجهي الشّرّ، فقال: مكانك! فوقفت، فقال: إنّك أكبرُ مَن هاهنا وأعلمُهم بأشراف أهلها، فاقسِم هذه الجُزُرَ بينهم، وركب فانطلق وعَلِقتُ أقسم اللّحم بين أهل صنعاء، فأتاني ذلك الذي دقّ في رقبتي، فقال: أعطِني منها، فقلت: لا والله ولا بَضعة واحدة؛ أَلَسْتَ الذي دققتَ في رقبتي! فانطلق غضبانَ حتى أتى الأسْود؛ فأخبره بما لقي مني وقلت له. فلمّا فرغتُ أتيتُ الأسودَ أمشي إليه، فسمعت الرّجل وهو يشكوني إليه، فقال له: الأسود: أمَا والله لأذبحنّه ذبحاً!فقلت له: إني قد فرغت ممّا أمرتَني به، وقسَمْتُه بين الناس. قال: قد أحسنتَ فانصرف. فانصرفت، فبعثنا إلى امرأة الملك: إنا نريد قتل الأسود، فكيف لنا! فأرسلتْ إليّ: أن هلمَّ. فأتيتها، وجعلت الجارية على الباب لتُؤذِنَنا إذا جاء؛ ودخلتُ أنا وهي البيتَ الآخر، فحفرنا حتى نقبنَا نقْباً، ثم خرجنا إلى البيت، فأرسلنا السّتر، فقلت: إنا نقتله الليلة، فقالت: فتعالوْا؛ فما شعرت بشيء حتى إذا الأسود قد دخل البيت؛ وإذا هو معنا؛ فأخذتْه غَيْرة شديدة، فجعل يدقّ في رقبتي، وكَفْكَفْتُه عنّي، وخرجت فأتيتُ أصحابي

بالذي صنعت، وأيقنت بانقطاع الحيلة عنّا فيه؛ إذ جاءنا رسولُ المرأة؛ ألاّ يَكْسِرنّ عليكم أمرَكم ما رأيتم؛ فإنّي قد قلت له بعد ما خرجتَ: ألسْتم تزعمون أنكم أقوام أحرار لكم أحسابٌ! قال: بلى، فقلت: جاءني أخي يُسَلّم عليّ ويكْرمني، فوقعتَ عليه تدقّ في رقبته، حتى أخرجته، فكانت هذه كرامتك إيّاه! فلم أزَلْ ألومه حتى لام نفسه، وقال: أهو أخوك؟ فقلت: نعم فقال: ما شعرتُ؛ فأقبِلوا الليلة لما أردتم.

قال الديلميّ: فاطمأنّتْ أنفُسنا، واجتمع لنا أمرُنا؛ فأقبلنا من الليل أنا وداذويه وقيس حتى ندخل البيت الأقصى من النّقْب الذي نَقَبنا، فقلت: يا قيس، أنت فارس العرب، ادخل فاقْتُل الرجل، قال: إني تأخذني رِعْدة شديدة عند البأس؛ فأخاف أن أضرب الرجل ضربةً لا تُغْني شيئاً؛ ولكن ادخل أنت يا فيروز، فإنّك أشبُّنا وأقوانَا، قال: فوضعتُ سيفي عند القوم، ودخلت لأنظر أين رأسُ الرجل، فإذا السراج يزهر؛ وإذا هو راقد على فُرُش قد غاب فيها لا أدري أين رأسه من رجليْه! وإذا المرأة جالسة عنده كانت تطعمه رمَّاناً حتى رقد، فأشرتُ إليها: أين رأسه؟ فأشارت إليه، فأقبلتُ أمشي حتى قمتُ عند رأسه لأنظر، فما أدري أنظرتُ في وجهه أم لا! فإذا هو قد فَتَح عينيه؛ فنظر إليّ، فقلت: إن رجعتُ إلى سيفي خفت أن يفوتني ويأخذ عُدَّة يمتنع بها منّي؛ وإذا شيطانه قد أنذره بمكاني وقد أيقظه، فلمّا أبطأ كلّمني على لسانه، وإنه لينظر ويغُطُّ، فأضرب بيديّ إلى رأسه، فأخذت رأسه بيد ولحيته بيدٍ، ثم ألْوي عنقه فدققتها؛ ثم أقبلت إلى أصحابي، فأخذت المرأة بثوبي، فقالت: أختكم نصيحتكم، قلت: قد والله قتلتُه وأرحْتُك منه. قال: فدخلتُ على صاحبيَّ فأخبرتُهما، قالا: فارجع فاحتزّ رأسَه وائتنابه، فدخلتفبربَر فألجمته فحزَزت رأسه، فأتيتهما به، ثم خرجنا حتى أتينا منزلَنا؛ وعندنا وَبَرُ بن يحنس الأزديّ؛فقام معنا حتى ارتقينا على حِصْن مرتفع من تلك الحصون؛ فأذّنَ وَبَر بن يُحَنّس بالصلاة، ثم قلنا: ألا إنّ الله عزّ وجلّ قد قتل الأسودالكذّاب،فاجتمع الناس إلينا فرميْنا برأسه، فلمّا رأى القوم الذين كانوا معه أسْرَجوا خيولهم؛ ثم جعل كلّ واحد منهم يأخذ غلاماً من أبنائنا معه من أهل البيت الذي كان نازلاً فيهم؛ فأبصرتُهم في الغَلَس مُرْدفي الغلمان، فناديت أخي وهو أسفل منّي مع الناس: أن تعلّقوا بمَن استطعتم منهم؛ ألا ترَوْن ما يصنعون بالأبناء! فتعلّقوا بهم؛ فحبسنا منهم سبعين رجلاً، وذهبوا منّا بثلاثين غلاماً، فلمّا برزوا إذا هم يفقدون سبعين رجلا حين تفقّدوا أصحابَهم، فأتوْنا فقالوا: أرسِلوا إلينا أصحابَنا، فقلنا لهم: أرسلوا إلينا أبناءنا، فأرسلوا إلينا الأبناء، وأرسلنا إليهم أصحابهم.

قال: وقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: إنّ الله قد قتل الأسوَد الكذّاب العَنْسيَّ، قتله بيَدِ رجل من إخوانكم، وقوم أسلموا وصدّقوا؛ فكنّا كأنّا على الأمر الذي كان قبل قدوم الأسود علينا وأمِن الأمراءُ وتراجعوا، واعتذر الناسُ وكانوا حديثي عهد بالجاهلية.

حدّثنا عبيدُ الله، قال: حدّثنا عمّي، قال: أخبرنا سيف ـ وحدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، قال: حدّثنا سيف ـ عن سهل بن يوسف، عن أبيه، عن عُبيد بن صَخْر، قال: كان أول أمره إلى آخره ثلاثة أشهر.

وحدّثني السريّ، قال: حدّثنا شَعيب، عن سيف ـ وحدّثنا عبيد الله قال: أخبرنا عمّي، قال: أخبرنا سَيف ـ عن جابر بن يزيد، عن عُروة بن غَزيّة، عن الضّحّاك بن فيروز، قال: كان ما بين خروجه بكَهْف خُبَّان ومقتله نحواً من أربعة أشهر، وقد كان قبل ذلك مستسرّاً بأمره، حتى بادَى بعد.

حدّثني عمر بن شبَّة، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، عن أبي معْشر ويزيد بن عياض بن جُعْدَبة وغسّان بن

عبد الحميد وجُوَيرِيَة بن أسماء، عن مشيختهم، قالوا: أمضى أبو بكر جيشَ أسامة بن زيد في آخر ربيع الأول، وأتى مقتلُ العنسيّ في آخر ربيع الأول بعد مخرج أسامة، وكان ذلك أوّل فتح أتى أبا بكر وهو بالمدينة.

وقال الواقديّ: في هذه السنة ـ أعني سنة إحدى عشرة ـ قدِم وفد النَّخَع في النصف من المحرّم على رسولِ الله ﷺ، رأسُهم زُرارة بن عمرو، وهم آخر من قدم من الوفود.

وفيها: ماتت فاطمة ابنة رسول الله ﷺ في ليلة الثلاثاء، لثلاث خلوْن من شهر رَمضان؛ وهي يومئذ ابنة تسع وعشرين سنة أو نحوها. وذكر أنّ أبا بكر بن عبد الله، حدّثه عن إسحاق بن عبد الله، عن أبان بن صالح بذلك. وزعم أنّ ابن جُريج حدّثه عن عمرو بن دينار، عن أبي جعفر، قال: تُوفِّيتْ فاطمة عليها السلام بعد النبيّ ﷺ بثلاثة أشهر.

قال: وحدّثنا ابن جُريج، عن الزهريّ، عن عروة، قال: توفِّيتْ فاطمة بعد النبيّ ﷺ بستة أشهر.

قال الواقديّ: وهو أثبت عندنا.

قال: وغسّلها عليّ عليه السلام وأسماء بنت عُمَيس.

قال: وحدّثني عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله بن عثمان بن حنيف، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن عَمْرة ابنة عبد الرّحمن قالت: صلّى عليها العباس بن عبد المطلب.

وحدّثنا أبو زيد، قال: حدّثنا عليّ، عن أبي معشر، قال: دخل قبرَها العباس وعليّ والفضل بن العباس.

قال: وفيها توفِّيَ عبدُ الله بن أبي بكر بن أبي قُحافة، وكان أصابه بالطائف سهمٌ مع النبيّ ﷺ، رماه أبو محجن، وَدمِلَ الجرح حتى انتقض به في شوّال؛ فمات.

وحدّثني أبو زيد، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدّثنا أبو معشر ومحمد بن إسحاق وجُوَيْريَة بن أسماء بإسناده الذي ذكرتُ قبل، قالوا: في العام الذي بُويع فيه أبو بكر مَلَّكَ أهلُ فارس عليهم يَزْدَجِرد.

قال أبو جعفر: وفيها كان لقاء أبي بكر رحمه الله خارجة بن حصْن الفَزاريّ، حدّثني أبو زيد، قال: حدّثنا عليّ بن محمد بإسناده الذي ذكرت قبل، قالوا: أقام أبو بكر بالمدينة بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ وتوجيهه أسامة في جيشه إلى حيث قُتل أبوه زيد بن حارثة من أرض الشأم، وهو الموضع الذي كان رسول الله ﷺ أمره بالسير إليه؛ لم يُحْدِثْ شيئاً، وقد جاءته وفودُ العرب مرتدّين يُقِرُّون بالصّلاة، ويمنعون الزكاة. فلم يقبل ذلك منهم وردّهم، وأقام حتى قَدِم أسامة بن زيد بن حارثة بعد أربعين يوماً من شخوصه ـ ويقال: بعد سبعين يوماً ـ فلمّا قدِم أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر على المدينة وشخص ـ ويقال استخلف سناناً الضَّمْريّ على المدينة ـ فسار ونزل بذي القَصّة في جُمادى الأولَى؛ ويقال في جُمادى الآخرة؛ وكان نوفل بن معاوية الدِّيليّ بعثه رسولُ الله ﷺ، فلقيه خارجة بن حصن بالشَّرَبَّة؛ فأخذ ما في يديْه، فردّه على بني فزارة؛ فرجع نوفل إلى أبي بكر بالمدينة قبل قدوم أسامة على أبي بكر. فأوّل حرب كانتْ في الرِّدة بعد وفاة النبيّ ﷺ حرب العنسيّ؛ وقد كانت حرب العنسيّ باليمن، ثم حرب خارجة بن حصن ومنظور بن زَبَّان بن سبّار في غَطَفان، والمسلمون غارُّون، فانحاز أبو بكر إلى أجَمة فاستتر بها، ثم هزَم الله المشركين.

وحدّثني عُبيد الله، قال: حدّثنا عمّي، قال: أخبرنا سيف ـ وحدّثني السَّريّ، قال: حدّثنا شُعيب،

قال: حدّثنا سَيْف ـ عن المجالد بن سعيد، قال: لما فَصَل أسامة كفرت الأرض وتضرَّمت، وارتدّت من كلّ قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً.

وحدّثني عُبيد الله، قال: حدّثنا عمّي، قال: أخبرَنا سيف ـ وحدّثني السّريّ، قال: حدّثنا شُعيب، قال: حدّثنا سيْف ـ عن هشام بن عُروة، عن أبيه، قال: لما مات رسولُ الله ﷺ، وفَصَل أسامة ارتدّت العرب عوامَّ أو خواصّ وتوَحَّى مسيلمة وطُليحة، فاستغلظ أمرهما؛ واجتمع على طُليحة عوامُّ طيِّيء وأسد، وارتدّت غَطَفان إلى ما كان من أشْجع وخواصّ من الأفناء فبايعوه، وقدّمت هوازن رِجْلاً وأخَّرَتْ رِجْلاً أمسكوا الصّدقة إلّا ما كان من ثَقِيف ولِفّها؛ فإنهم اقتدى بهم عوامّ جَدِيلة والأعجاز، وارتدّت خواصّ من بني سُلَيْم؛ وكذلك سائر الناس بكلّ مكان.

قال: وقدمت رسُل النبيّ ﷺ من اليَمن واليمامة وبلاد بني أسد ووفود مَن كان كاتبه النبيّ ﷺ، وأمِر أمرُه في الأسود ومسيلمة وطلحة بالأخبار والكتب؛ فدفعوا كتبَهم إلى أبي بكر، وأخبروه الخبر، فقال لهم أبو بكر: لا تبرحوا حتى تجيء رسلُ أمرائكم وغيرهم بأدْهى ممّا وصفتم وأمر؛ وانتقاضِ الأمور. فلم يلبَثُوا أن قَدِمَتْ كتبُ أمراء النبيّ ﷺ من كلّ مكان بانتقاضِ عامّة أو خاصّة، وتبسُّطهم بأنواع الميل على المسلمين، فحاربهم أبو بكر بما كان رسولُ الله ﷺ حاربهم بالرّسل. فردّ رسلَهم بأمره، وأتبعَ الرّسلَ رسلاً؛ وانتظر بمصادمتهم قدومَ أسامة؛ وكان أول مَنْ صادم عَبْس وذُبْيان، عاجلوه فقاتلهم قبل رجوع أسامة.

حدثني عُبيد الله، قال: أخبرَنا عمّي، قال: أخبرنا سَيْف ـ وحدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، قال: حدّثنا سَيْف ـ عن أبي عمرو، عن زيد بن أسلم، قال: ماتَ رسولُ الله ﷺ وعُمّاله على قضاعة، وعلى كلْب امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبيّ من بني عبدالله، وعلى القَيْن عمرو بن الحكم، وعلى سعد هُذَيْم معاوية بن فلان الوائليّ.

وقال السريّ الوالبيّ: فارتدّ وديعة الكلبيّ فيمن آزره من كلْب، وبقيَ امرؤ القيس على دينه، وارتدّ زُمَيْل بن قُطْبَةَ القَيْنِيّ فيمن آزره من بني القَيْن وبقي عمرو، وارتدّ معاوية فيمن آزره من سعد هُذَيم. فكتب أبو بكر إلى امرىء القيس بن فلان ـ وهو جَدّ سُكَيْنة ابنة حسين ـ فسار لوديعة، وإلى عمرو فأقام لزميل، وإلى معاوية العذريّ. فلمّا توسّط أسامة بلاد قضاعة، بَثّ الخيول فيهم وأمرهم أن يُنهضوا مَن أقام على الإسلام إلى مَن رجع عنه؛ فخرجوا هُرّاباً؛ حتى أرَزُوا إلى دُومَة؛ واجتمعوا إلى وديعة، ورجعت خيول أسامة إليه؛ فمضى فيها أسامة. حتى أغار على الحَمْقَتَيْن، فأصاب في بني الضُّبيب من جُذام، وفي بني خيليل من لَخْم ولِفّها من القبيلين، وحازهم من آبل وانكفأ سالماً غانماً.

فحدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: ماتَ رسولُ الله ﷺ؛ واجتمعت أسَد وغَطفان وطيّيء على طليحة؛ إلا ما كان من خواصّ أقوام في القبائل الثلاث؛ فاجتمعت أسد بسَمِيراء، وفزارة ومن يليهم من غَطفان بجنوب طيبة، وطيّىء على حدود أرضهم. واجتمعت ثَعلبة بن سعد ومَن يليهم من مُرّة وعَبْس بالأبرق من الرَّبَذة، وتأشَّب، إليهم ناسٌ من بني كنانة؛ فلم تحملهم البلاد؛ فافترقوا فرقتين؛ فأقامت فرقة منهم بالأبرق، وسارت الأخرى إلى ذي القَصّة، وأمدهم طليحة بحِبال فكان حِبال على أهل ذي القَصّة من بني أسد ومن تأشّب من لَيْث والدِّيل ومُدْلِج. وكان على مُرّة

بالأبرق عوف بن فلان بن سنان، وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان؛ أحد بني سبيع، وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة، فنزلوا على وجوه الناس، فأنزلوهم ما خلاَ عبَّاساً فتحمّلوا بهم على أبي بكر؛ على أن يقيموا الصّلاة، وعلى ألّا يؤتوا الزّكاة؛ فعزم الله لأبي بكر على الحقّ، وقال: لو منعوني عِقالا لجاهدتهم عليه ـ وكانت عُقُل الصدقة على أهل الصّدقة مع الصدقة ـ فردّهم فرجع وفْدُ من يَلي المدينة من المرتدَّة إليهم، فأخبروا عشائرهم بقلّة من أهل المدينة، وأطمعوهم فيها؛ وجعل أبو بكر بعد ما أخرج الوفد على أنقاب المدينة نفراً: عليًّا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود؛ وأخذ أهلَ المدينة بحضور المسجد، وقال لهم: إن الأرض كافرة؛ وقد رأى وفدهم منكم قلّة؛ وإنكم لا تدرون أَلَيْلاً تُؤتَوْن أم نهاراً! وأدناهم منكم على بريد. وقد كان القوم يأمُلون أن نقبل منهم ونوادِعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعِدّوا وأعدّوا. فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارةً مع الليل، وخلّفوا بعضهم بذي حُسىً، ليكونوا لهم رِدْءاً فوافق الغِوار ليلا الأنقاب؛ وعليها المقاتلة، ودونهم أقوام يدرجون، فنبّهوهم؛ وأرسلوا إلى أبي بكر بالخَبَر، فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنَكم، ففعلوا. وخرج في أهلِ المسجد على النواضح إليهم، فانفشَّ العدو،فاتّبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حُسىً؛ فخرج عليهم الرّدء بأنحاء قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دَهْدهوها بأرجلِهم في وجوه الإبل، فتدهده كلّ نِحْي في طوله، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ـ ولا تنفر الإبل من شيء نفارَها من الأنحاء ـ فعاجت بهم ما يملكونها؛ حتى دخلت بهم المدينة؛ فلم يُصْرَعْ مسلمٌ ولم يُصَبْ؛ فقال في ذلك الخُطَيل بن أوس أخو الحُطَيْئة بن أوس:

فِدًى لِبَني ذُبْيَان رَحْلِي ونَاقتي ... عَشِيّةَ يُحْذَى بالرِّمَاحِ أبو بَكْرِ
ولكِنْ يُدَهْدَى بالرِّجالِ فهِبْنَه ... إلى قَدَرٍ مَا إنْ يزيد وَلَا يَحري
ولِلهِ أجْنَادٌ تُذَاقُ مَذَاقَهُ ... لتُحْسَبَ فيما عُدّ منْ عَجبِ الدَّهْرِ!

وأنشده الزّهريّ: « من حسب الدهر ».

وقال عبدُ الله الليثيّ، وكانتْ بنو عبد مناة من المرتدّة ـ وهم بنو ذُبيان ـ في ذلك الأمر بذي القَصَّة وبذي حسًى:

أَطَعْنا رسولَ اللهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا ... فَيَا لَعبادِ اللهِ مَا لأبي بَكْرِ!
أَيُورِثُهَا بكراً إذا ماتَ بَعْدَه ... وتِلْك لَعَمْرُ آللهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ
فَهلَّا رَدَدْتم وفْدَنا بزَمَانِهِ ... وهلَّا خَشِيتم حِسَّ راغِيَةِ الْبَكْرِ!
وإنَّ التي سألُوكم فمنعْتُمُ ... لكالتَّمْرِ أَوْ أحلى إلَيّ مِنَ التَّمْرِ

فظنَّ القومُ بالمسلمين الوهَن، وبعثوا إلى أهل ذي القَصَّة بالخبر، فقدموا عليهم اعتماداً في الذين أخبروهم، وهم لا يشعرون لأمر الله عزّ وجلّ الذي أراده، وأحبّ أن يبلّغه فيهم، فبات أبو بكر ليلَته يتهيّأ، فعبّى الناس، ثم خرج على تَعْبِيةٍ من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مُقَرِّن، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرّن، وعلى السَّاقة سُويد بن مقرّن معه الرُّكاب؛ فما طلَع الفجر إلاّ وهُم والعدوُّ في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين هَمْساً ولا حسًّا حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم؛فما ذَرَّ قَرْن الشَّمس حتى ولَّوْهم الأدبارَ، وغلبوهم على عامّة ظهرهم؛ وقتل حِبال واتّبعهم أبو بكر؛ حتى نزل بذي القَصّة ـ وكان أوّل

الفتح ـ ووضع بها النعمان بن مقرّن في عدد، ورجع إلى المدينة فذلّ بها المشركون؛ فوثب بنو ذُبيان وعبس على مَن فيهم من المسلمين، فقتلوهم كلّ قتلة؛ وفعل مَنْ وراءهم فعلهم. وعزَّ المسلمون بوقعة أبي بكر، وحلَف أبو بكر ليقتلَنّ في المشركين كلّ قتلة؛ وليقتلنّ في كلّ قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وفي ذلك يقول زيادة بن حنظلة التميميّ:

غَـدَاة سَعَى أبـو بَكْـرٍ إلَيْـهِم ... كـمـا يَسْعَى لـمـوْتَـتِـه جُـلَالُ
أراحَ عَـلَى نَـوَاهِـقـهـا عَـلِيًّـا ... ومَـجَّ لَـهـنَّ مُـهْـجَـتَـهُ حِـبَـالُ

وقال أيضاً:

أَقَمْنـا لهم عُـرْض الشِّمَـال فكُبْكِبُـوا ... كَكَبْكَبَـةِ الغُـزَّى أَنَـاخـوا علَى الـوَفْـرِ
فَمـا صَبَـرُوا لِلْحَـرْبِ عِنْـدَ قِيَـامِهَـا ... صبيحَـةَ يَسْمُـو بـالـرجَـالِ أَبُـو بَكْـرِ
طَـرَقْنـا بني عَبْسٍ بـأَدْنى نِبَـاجِهَـا ... وذُبْيَـانَ نَهْنَهْنَـا بِقَـاصِمَـةِ الـظَّهْـرِ

ثم لم يُصنَعْ إلّا ذلك: حتى ازداد المسلمون لها ثباتاً على دينهم في كلّ قبيلة، وازداد لها المشركون انعكاساً من أمرهم في كلّ قبيلة؛ وطرقت المدينةَ صدقاتُ نفر: صَفْوان، الزبرقان، عديّ؛ صفوان، ثم الزبرقان، ثم عديّ؛ صفوان في أول الليل، والثاني في وسطه، والثالث في آخره. وكان الذي بشّر بصَفْوان سعد بن أبي وقاص، والذي بشّر بالزبرقان عبدُ الرحمن بن عوف، والذي بشّر بعديّ عبدُ الله بن مسعود. وقال غيره: أبو قتادة.

قال: وقال الناس لكلِّهم حين طلع: نذير، وقال أبو بكر: هذا بشير، هذا حامٍ وليس بوانٍ، فإذا نادى بالخير، قالوا: طالما بشّرت بالخير! وذلك لتمام ستين يوماً من مَخْرج أسامة. وقدم أسامة بعد ذلك بأيام لشهرين وأيام، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهرَكم.

ثم خرج في الذين خرجوا إلى ذي القَصّة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظَّهر؛ فقال له المسلمون: نَنْشُدُك الله يا خليفة رسول الله أنْ تعرّض نفسك! فإنك إن تُصَبْ لم يكن للناس نِظَامٌ، ومقامُك أشدُّ على العدوّ؛ فابعث رجلاً، فإن أصيب أمّرتَ آخر، فقال: لا والله لا أفعلُ ولأواسينَّكم بنفسي؛ فخرج في تعبيته إلى ذي حُسًى وذي القَصّة، والنُّعمان وعبد الله وسُويد على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الرَّبذَة بالأبرق؛ فاقتتلوا، فهزم الله الحارث وعوفاً، وأُخِذ الحطَيْئةُ أسيراً، فطارت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً، وقد غلَب بني ذُبيان على البلاد. وقال: حرام على بني ذبيان أن يتملّكوا هذه البلاد إذْ غنَّمَناها اللهُ! وأجلاها. فلما غلب أهل الردّة؛ ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه؛ وسامح الناس جاءت بنو ثَعلبة؛ وهي كانت منازلهم لينزلوها، فمنِعوا منها فأتوْه في المدينة، فقالوا: عَلَامَ نُمْنَع من نزول بلادنا! فقال: كذبتم، ليست لكم ببلاد، ولكنّها مَوْهبي ونَقَذِي، ولم يُعْتِبْهم، وحَمَى الأبرقَ لخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الرَّبذة الناس على بني ثعلبة، ثم حَمَاها كلَّها لصدقات المسلمين؛ لقتالٍ كان وقع بين الناس وأصحَاب الصّدقات، فمنع بذلك بعضهم من بعض.

ولما فُضّت عبس وذبيان أرَزوا إلى طليحة وقد نزل طليحة على بُزَاخة، وارتحل عن سَمِيراء إليها، فأقام عليها؛ وقال في يوم الأبرق زياد بن حنظلة:

ويـوم ٍ بـالأبـارق قـد شَهِـدْنـا عـلى ذُبيـانَ يَلْتـهـب التِـهـابـا
أَتَيْـنـاهـمْ بـداهيَـةٍ نَـسُـوفٍ مَـعَ الصِّـدّيقِ إذ تَـرَكَ العِتـابَـا

حدّثني السريّ، قال: حدّثنا شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد بن ثابت بن الجِذْع وحرام بن عثمان، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: لما قدِم أسامة بن زيد خرج أبو بكر واستخلفه على المدينة، ومضى حتى انتهى إلى الرَّبَذَة يلقى بني عبس وذُبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة، فلقيَهم بالأبْرَق، فقاتلهم فهزمَهم الله وفَلَّهم. ثم رجع إلى المدينة، فلما جمّ جند أسامة، وثاب مَن حول المدينة خرج إلى ذي القَصّة فنزل بهم ـ وهو على بريد من المدينة تلقاء نَجْد ـ فقطّع فيها الجند، وعَقَد الألوية، عقد أحد عشر لواءً على أحد عشر جنداً، وأمر أمير كلّ جند باستنفار مَنْ مَرّ به من المسلمين من أهل القوّة، وتخلّف بعضُ أهل القوّة لمنع بلادهم.

حدّثنا السَّريّ، قال: حدّثنا شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: لما أراح أسامة وجنده ظهرَهم وجَمُّوا، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضُل عنهم، قطع أبو بكر البعوثَ وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً: عقد لخالد بن الوليد وأمَره بطليحة بن خويلد؛ فإذا فرغ سار إلى مالك بن نُويرة بالبُطاح إن أقام له، ولِعكْرمة بن أبي جهل وأمره بمسيْلمة، وللمهاجر بن أبي أميّة وأمَره بجنود العنْسيّ ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومَنْ أعانه من أهل اليمن عليهم، ثم يمضي إلى كنْدة بحضرموت، ولخالد بن سعيد بن العاص ـ وكان قدم على تفيئة ذلك من اليمن وترك عمله ـ وبعثه إلى الحَمْقَتَيْن من مشارف الشأم، ولعمرو بن العاص إلى جماع قُضاعة ووديعة والحارث، ولحذيفة بن مِحْصَن الغلفانيّ وأمَره بأهل دَبا ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهْرة؛ وأمرهما أن يجتمعا وكلّ واحد منهما في عمله على صاحبه، وبعث شُرحبيل بن حَسَنة في أثر عكرمة بن أبي جهل، وقال: : إذا فرِغ من اليمامة فالحق بقُضاعة، وأنت على خيلك تقاتلُ أهل الرِّدّة، ولطُريفةَ بن حاجز وأمره ببني سُليم ومَن معهم من هَوازن، ولسُويد بن مقرّن وأمَره بتِهامة اليمن، وللعَلاء بن الحضرميّ وأمَره بالبَحْرين.

ففصلت الأمراء من ذي القَصّة، ونزلوا على قَصْدهم، فلحِق بكلّ أمير جندُه، وقد عهد إليهم عهده، وكتب إلى مَنْ بعث إليهم من جميع المرتدّة.

حدّثنا السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك؛ وشاركه في العهد والكتاب قَحْذَم؛ فكانت الكتب إلى قبائل العرب المرتدة كتاباً واحداً:

بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسولِ الله ﷺ إلى من بَلَغه كتابي هذا من عامَّة وخاصَّة؛ أقام على إسلامه أو رجع عنه. سلامٌ علَى مَن اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى؛ فإنّي أحْمَد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نُقِرُّ بما جاء به، ونكفّر مَن أبى ونُجاهده. أمّا بعدُ؛ فإن الله تعالى أرسلَ محمداً بالحقّ من عنده إلى خلقه بشيراً ونَذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لينذِر مَن كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين. فهدَى الله بالحقّ مَن أجاب إليه. وضرب رسولُ الله ﷺ بإذنه مَنْ أدبر عنه؛ حتى صار إلى الإسلام طَوْعاً وكَرْهاً. ثمّ تَوَفّى الله ورسولَه ﷺ وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمته؛ وقضى الذي عليه، وكان الله قد بيّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي

أنزل؛ فقال: ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾(١) وقال: ﴿ وما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُون ﴾(٢) وقال للمؤمنين: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل أَفإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ آنْقَلَبْتُم عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي آللهُ الشَّاكِرِين ﴾(٣)؛ فمَن كان إنما يعبدُ محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومَن كان إنما يعبدُ الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد؛ حَيٌّ قَيُّومٌ لا يموت؛ ولا تأخذُهُ سِنَة ولا نَومٌ، حافظ لأمره، منتقمٌ من عدوّه، يجزيه. وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله، وما جاءكم به نبيُّكم ﷺ، وأن تهتدوا بهُداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإنّ كلّ مَن لم يهدِه الله ضالٌّ، وكل مَنْ لم يُعافِه مبتلًى، وكلّ مَنْ لم يُعِنْه الله مخذول، فمن هداه الله كان مُهْتَدِياً، ومَنْ أضلّه كان ضالاًّ؛ قال الله تعالى: ﴿ مَنْ يَهْدِ آللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ﴾(٤)، ولم يُقْبَل منه في الدنيا عَمَلٌ حتى يقرّ به؛ ولم يُقْبَلْ منه في الآخرة صَرْف ولا عَدْلٌ. وقد بلغني رجوعُ مَنْ رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به؛ اغتراراً بالله، وجهالةً بأمره، وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿ وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ آسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾(٥). وقال: ﴿ إنَّ الشَّيْطَانَ لَكمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونوا مِنْ أَصْحَاب السَّعِير ﴾(٦)؛ وإني بعثتُ إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرتُه ألّا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوَه إلى داعية الله؛ فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمِل صالحاً قَبِلَ منه وأعانه عليه؛ ومَنْ أبى أمَرتُ أن يقاتلَه على ذلك؛ ثم لا يبقِي على أحد منهم قَدر عليه، وأن يُحرقهم بالنار، ويقتلهم كلّ قِتْله، وأن يَسبيَ النساء والذراريّ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام؛ فمَن اتّبعه فهو خير له، ومَنْ تركه فلن يعجِز الله. وقد أمرتُ رسولي أن يقرأ كتابي في كلّ مجمع لكم؛ والداعية الأذان؛ فإذا أذّن المسلمون فأذَّنوا كُفُّوا عنهم؛ وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم؛ وإن أذّنوا اسألوهم ما عليهم؛ فإن أبوْا عاجلوهم، وإن أقرّوا قبِل منهم؛ وحملهم على ما ينبغي لهم.

فنفذت الرُّسل بالكتب أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم العهود:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا عهدٌ من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال مَن رجع عن الإسلام، وعهِد إليه أن يتّقي الله ما استطاع في أمره كلّه سرّه وعلانيته، وأمره بالجدّ في أمر الله، ومجاهدة مَنْ تولّى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أمانيّ الشيطان بعد أن يُعذِر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام؛ فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرُّوا له؛ ثم ينبئهم بالذي عليهم والّذي لهم، فيأخذ ما عليهم؛ ويعطيهم الذي لهم؛ لا يُنظرهم، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم، فمن أجاب إلى أمرِ الله عزّ وجلّ وأقرّ له قبِل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف؛ وإنما يقاتل مَن كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله؛ فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيلٌ؛ وكان الله حسيبه بعد فيما استسرّ به، ومَن لم يجب داعية الله قُتِل وقوتل

(١) سورة الزمر: ٣٠.
(٢) سورة الأنبياء: ٣٤.
(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.
(٤) سورة الكهف: ١٧.
(٥) سورة الكهف: ٥٠.
(٦) سورة فاطر: ٦.

حيث كان؛ وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام؛ فمَن أجابه وأقرّ قبِل منه وعلّمه، ومَنْ أبى قاتله؛ فإن أظهره الله عليه قتل منهم كلّ قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسَّم ما أفاء الله عليه، إلا الخُمس فإنه يبلّغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألّا يُدخل فيهم حَشْواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم؛ لا يكونوا عيوناً، ولئلّا يؤتى المسلمون مِنْ قبَلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقّدهم، ولا يعجل بعضَهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حُسْن الصحبة ولين القول.

ذكر بقية الخبر عن غطفان
حين انضمت إلى طُلَيْحَة وما آل إليه أمْرُ طليحة

حدّثنا عبيدالله بن سعد، قال: حدّثنا عمي، قال: أخبرَنا سيف ـ وحدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، قال: حدّثنا سيف ـ عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد وبدر بن الخليل وهشام بن عروة، قالوا: لما أرزَتْ عَبْس وذُبيان ولِفُّها إلى البُزَاخَة، أرسل طليحة إلى جَدِيلة والغَوْث أن ينضمُّوا إليه، فتعجَّل إليه أناس من الحَيَّيْن، وأمروا قومهم باللحاق بهم، فقدِموا على طُلَيحَة، وبعث أبو بكر عَدِيًّا قبل توجيه خالد من ذي القَصَّة إلى قومه، وقال: أدْرِكْهُم لا يُؤكَلُوا. فخرج إليهم ففَتلهم في الذِّرْوَة والغارب، وخرج خالد في أثره، وأمره أبو بكر أن يبدأ بطيِّىء على الأكناف، ثم يكون وجهه إلى البُزاخة، ثم يثلِّث بالبُطاح، ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يحدّث إليه، ويأمره بذلك. وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خَيْبر ومنصبّ عليه منها حتى يلاقيَه بالأكناف، أكناف سَلْمَى؛ فخرج خالد فازوارَّ عن البُزاخة، وجَنَح إلى أجأ، وأظهر أنه خارج إلى خَيْبر، ثم منصبّ عليهم، فقعَّد ذلك طيِّئاً وبطَّأهم عن طليحة؛ وقدم عليهم عديٌّ؛ فدعاهم فقالوا: لا نبايع أبا الفَصِيل أبداً، فقال: لقد أتاكم قوم ليُبيحُنّ حريمكم، ولتُكَنُّنَّه بالفَحْل الأكبر؛ فشأنَكم به. فقالوا له: فاستقبِل الجيش فنهنِهْه عنّا حتى نستخرج من لحِق بالبُزاخة منّا، فإنا إن خالفنا طُلَيحة وهم في يديه قَتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عديٌّ خالداً وهو بالسُّنْح، فقال: يا خالد، أمسِكْ عنِّي ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك؛ وذلك خيرٌ من أن تُعْجِلَهم إلى النار؛ وتشاغلُ بهم؛ ففعل. فعاد عديّ إليهم وقد أرسلوا إخوانهم؛ فأتوْهم من بُزاخة كالمدَدِ لهم؛ ولولا ذلك لم يُتْركوا؛ فعاد عديّ بإسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأنسُر يريد جَدِيلة، فقال له عديّ: إن طيْئاً كالطائر، وإن جَدِيلة أحدُ جنَاحيْ طيّىء فأجِّلْني أياماً لعلّ الله أن ينقذ جَدِيلة كما انتقذ الغوْث؛ ففعل، فأتاهم عديّ فلم يزل بهم حتى بايعوه؛ فجاءه بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب؛ فكان خير مولود وُلِد في أرض طيّىء وأعظمه عليهم بركة.

وأما هشام بن الكلبي؛ فإنه زعم أنّ أبا بكر لما رَجع إليه أسامة ومَن كان معه من الجيش؛ جَدَّ في حرب أهل الرِّدة، وخرج بالناس وهو فيهم حتى نزل بذي القَصّة؛ منزلا من المدينة على بريد من نحو نجد، فعَبَّى هنالك جنودَه، ثم بعث خالد بن الوليد على الناس، وجعل ثابت بن قيس على الأنصار، وأمْرُه إلى خالد وأمره أن يصمُد لطليْحة وعُيينة بن حصن، وهما على بُزَاخة؛ ماء من مياه بني أسد؛ وأظهِر أنّي ألاقيك بمَن معي من نحو خيبر، مكيدة؛ وقد أوعب مع خالد النّاس؛ ولكنّه أراد أن يبلغ ذلك عدوّه فيرعبهم. ثم رجع إلى المدينة، وسار خالد بن الوليد؛ حتى إذا دَنَا من القوم بعث عُكّاشة بن محصن، وثابت بن أقرم ـ أحد بني العَجْلان

حليفاً للأنصار ـ طليعة؛ حتى إذا دنَوا من القوم خرج طُليحة وأخوه سلَمة، ينظران ويسألان: فأمَّا سلمَة فلم يمهل ثابتاً أن قتله، ونادى طليحة أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أن أعِنّي على الرجل؛ فإنه آكل؛ فاعتوَنا عليه، فقتلاه ثم رجعا، وأقبل خالد بالناس حتى مرّوا بثابت بن أقرم قتيلاً، فلم يفطنُوا له حتى وطئته المطِيُّ بأخفافها، فكبُر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هم بعُكّاشة بن محصن صريعاً؛ فجزع لذلك المسلمون، وقالوا: قتل سيِّدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم؛ فانصرف خالد نحو طيِّىء.

قال هشام: قال أبو مِخْنف: فحدّثني سَعْد بن مجاهد، عن المُحِلّ بن خليفة، عن عديّ بن حاتم، قال: بعثتُ إلى خالد بن الوليد أن سِرْ إليّ فأقم عندي أياماً حتى أبعث إلى قبائل طيّىء، فأجمع لك منهم أكثر ممن معك، ثم أصحبك إلى عدوّك. قال: فسار إليّ.

قال هشام: قال أبو مِخنف: حدّثنا عبد السلام بن سُويد أنّ بعض الأنصار حدّثه أن خالداً لما رأى ما بأصحابه من الجزع عند مقتل ثابت وعُكّاشة، قال لهم: هل لكم إلى أن أميل بكم إلى حيٍّ من أحياء العرب؛ كثير عددهم، شديدة شوْكتهم، لم يرتدّ منهم عن الإسلام أحد! فقال له الناس: ومَنْ هذا الحيُّ الذي تعني؟ فنعم والله الحيّ هو! قال لهم: طيّىء؛ فقالوا: وفّقك الله، نعم الرأي رأيت! فانصرف بهم حتى نزل بالجيش في طيّىء.

قال هشام: حدّثني جديل بن خَبّاب النّبهانيّ من بني عمرو بن أبيّ، أن خالداً جاء حتى نزل على أرُك؛ مدينة سَلْمى.

قال هشام: قال أبو مخنف: حدّثني إسحاق أنه نزل بأجأ، ثم تعبّى لحربه، ثمّ سار حتى التقيَا على بُزَاخة، وبنو عامر على سادتهم وقادتهم قريباً يستمعون ويتربّصون على من تكون الدَّبْرَة.

قال هشام عن أبي مِخْنف: حدّثني سعد بن مجاهد، أنه سمع أشياخاً من قومه يقولون: سألْنا خالداً أن نكفيَه قيساً فإنّ بني أسد حلفاؤنا، فقال: والله ما قيسٌ بأوهن الشوْكتين، اصمُدُوا إلى أيّ القبلتين أحببتم؛ فقال عديٌّ: لو ترك هذا الدينَ أسْرَتي الأدنى فالأدنى من قَوْمي لجاهدْتهم عليه، فأنا أمتنع من جهاد بني أسَد لحِلْفهم! لا لعمرُ الله لا أفعل! فقال له خالد: إنّ جهاد الفريقين جميعاً جهادٌ؛ لا تخالف رأيَ أصحابك، امضِ إلى أحدِ الفريقين، وامضِ بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط.

قال هشام، عن أبي مخنف: فحَدّثني عبد السلام بن سُويد، أن خيلَ طيّىء كانت تلقى خيل بني أسد وفزارة قبل قُدوم خالد عليهم فيتشامّون ولا يقتتلون، فتقول أسد وفزارة: لا والله لا نبايع أبا الفَصِيل أبداً. فتقول لهم خيل طيىء: أشهد ليقاتلنّكم حتى تكنوه أبا الفحل الأكبر!

فحَدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة! عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن طلحة بن يزيد بن رُكانة، عن عُبيدالله بن عبدالله بن عُتبة، قال: حُدِّثت أنّ الناس لما اقتتلوا، قاتل عُيينة مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة قتالا شديداً، وطُلَيحة متلفّف في كساء له بفناء بيت له من شَعَر، يتنبّأ لهم، والناس يقتتلون، فلما هزّتْ عُيَيْنَة الحرب، وضرَس القتال، كرّ على طليحة، فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا، قال: فرجع فقاتل حتى إذا ضرَس القتال وهزّته الحرب كرّ عليه فقال: لا أبا لك! أجاءك جبريل بعد؟ قال: لا والله، قال: يقول عُيينة حلِفاً: حتى متى! قد والله بلَغ منّا! قال: ثم رجع فقاتل، حتى إذا بلغ كرّ عليه، فقال: هل جاءك جبريل

بعد؟ قال: نعم، قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: «إنّ لك رحاً كرحَاه، وحديثاً لا تنساه»، قال: يقول عيينة: أظنّ أن قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه؛ يا بني فزارة هكذا؛ فانصرفوا؛ فهذا والله كذّاب. فانصرفوا وانهزم الناس فغَشُوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟ وقد كان أعدّ فرسه عنده، وهيّأ بعيراً لامرأته النّوار، فلما أن غَشُوه يقولون: ماذا تأمرنا؟ قام فوثب على فرسه، وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال: مَن استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فلْيفعل؛ ثم سلك الحوشيّة حتى لحق بالشأم وارفضّ جمعه؛ وقتل الله مَن قتل منهم، وبنو عامر قـريباً منهم على قادتِهم وسادتهم؛ وتلك القبائل من سُلَيم وهوازن على تِلك الحال؛ فلما أوقع الله بطُلَيحة وفَزَارة ما أوقع، أقبل أولئك يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، ونُسلّم لحُكْمه في أموالنا وأنفسنا.

قال أبو جعفر: وكان سبب ارتداد عُيينة وغطَفان ومَن ارتدّ من طيىء ما حدثنا عبيدالله بن سعد، قال: أخبرني عمّي، قال: أخبرني سيف ـ وحدثني السريّ قال: حدثنا شعيب عن سيف ـ عن طلحة بن الأعلم عن حبيب بن ربيعة الأسَديّ، عن عُمارة بن فلان الأسديّ، قال: ارتدّ طُلَيحَة في حياةِ رسول الله ﷺ، فادّعى النبوّة، فوجَّه النبيّ ﷺ ضِرار بن الأزْور إلى عمّاله على بني أسد في ذلك؛ وأمرهم بالقيام في ذلك على كلّ مَن ارتدّ، فأشجَوْا طليحة وأخافوه، ونزل المسلمون بوَارِدَات، ونزل المشركون بسَمِيراء، فما زال المسلمون في نماء والمشركون في نقصان؛ حتى همّ ضرار بالمسير إلى طُليحـة، فلم يَبْق أحد إلاّ أخـذه سلَماً، إلاّ ضربـةً كان ضربهابالجُراز، فنبا عنه، فشاعت في النّاس. فأتىَ المسلمون وهم على ذلك بخبر موتِ نبيّهم ﷺ، وقال ناس من الناس لتلك الضربة: إنّ السلاح لا يُحيك في طليحة؛ فما أمسى المسلمون من ذلك اليوم حتى عرفوا النقصان، وارفضّ الناس إلى طُليحة واستطار أمرُه، وأقبل ذو الخِماريْن عوفُ الجَذَمِيّ حتى نزل بإزائنا، وأرسل إليـه ثُمامة بن أوْس بن لأم الطائيّ: إنّ معي من جَديلة خمسمائة، فإنْ دَهِمَكم أمر فنحن بالقُرْدُودة والأنسُر دُوَيْنَ الرمل. وأرسل إليه مُهَلْهِلُ بن زيد: إنّ معي حدّ الغوث؛ فإنْ دهِمكم أمرٌ فنحن بالأكناف بحيال فَيْد. وإنما تحدَّبتْ طيّىء على ذي الخِمارين عوف؛ أنه كان بين أسَد وغَطَفان وطيّىء حِلْفُ في الجاهليّة، فلما كان قبل مبعث النبيّ ﷺ اجتمعتْ غَطَفان وأسَد على طيىء، فأزاحوها عن دارها في الجاهليّة: غَوْثها وجَدِيلتها، فكره ذلك عَوْف؛ فقطع ما بينه وبين غَطَفان، وتتابع الحيَّانِ على الجَلاء، وأرسل عوف إلى الحيّيْن من طيّىء، فأعاد حِلْفهم، وقام بنصرتهم، فرجعوا إلى دُورهم، واشتدّ ذلك على غَطَفان؛ فلما مات رسولُ الله ﷺ قام عُيَينة بن حِصْن في غَطَفان، فقال: ما أعرِف حدودَ غَطَفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسَد؛ وإني لمجدّد الحِلْف الذي كان بيننا في القديم ومتابعُ طليحَة؛ والله لأنْ نتّبع نبيًّا من الحليفيْن أحبُّ إلينا من أن نتّبع نبيًّا منْ قريش؛ وقد مات محمد، وبَقِيَ طليْحة. فطابَقُوه على رأيه، ففعل وفعلوا.

فلما اجتمعت غطفان على المطابَقة لطليحة هَرب ضـرار وقُضاعيّ وسنـان ومَن كان قام بشيء من أمر النبيّ ﷺ في بني أسد إلى أبي بكر، وارفضّ مَن كان معهم، فأخبروا أبا بكر الخبر، وأمروه بالحـذَر، فقال ضرار بن الأزور: فما رأيتُ أحداً ـ ليس رسولَ الله ﷺ ـ أمْلأ بحرب شَعْواء من أبي بكر؛ فجعلنا نخبره، ولكأنما نخبره بما له ولا عليه. وقدمتْ عليه وفودُ بني أسد وغَطَفان وهَـوازِن وطيّىء، وتلقتْ وفودُ قضـاعة أسامة بن زيد، فحوَّزها إلى أبي بكْر؛ فاجتمعُوا بالمدينة فنزلوا على وجوه المسلمين؛ لعاشر من مُتَوَفّى رسول الله ﷺ، فعرضوا الصلاةَ على أن يُعفَوْا من الزّكاة، واجتمع مَلأ مَن أنزلهم على قبول ذلك حتى يبلغوا مـا

يريدون؛ فلم يبق من وجوه المسلمين أحد إلا أنزل منهم نازلا إلا العبّاس. ثم أتوا أبا بكر فأخبروه خبرهم وما أجمع عليه ملؤهم، إلّا ما كان من أبي بكر، فإنه أبى إلّا ما كان رسولُ الله ﷺ يأخذ، وأبوْا، فردّهم وأجّلهم يوماً وليلة؛ فتطايروا إلى عشائرهم.

حدّثني السّريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف عن الحجاج، عن عمرو بن شعيب، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ قد بعثَ عمرو بن العاص إلى جَيْفر، منصرَفَه من حجَّة الوداع، فماتَ رسولُ الله ﷺ وعمرو بعُمَان، فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحْرين وجَد المنذر بن ساوى في الموت. فقال له المنذر: أشِرْ عليَّ في مالي بأمرٍ لي ولا عليّ، قال: صَدِّقْ بعَقار صَدَقَةً تجري مِن بعدك، ففعل. ثم خرج مِن عنده، فسار في بني تميمٍ، ثم خرج منها إلى بلاد بني عامرٍ، فنزل على قُرَّة بن هبيرة، وقرّة يقدّم رِجْلاً ويؤخّر رِجلاً؛ وعلى ذلك بنو عامر كلّهم إلّا خواصّ، ثم سار حتى قدِم المدينة، فأطافت به قريش، وسألوه فأخبرهم أن العساكر مُعَسْكرة من دَبَا إلى حيث انتهيت إليكم، فتفرّقوا وتحلّقوا حَلَقاً، وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو، فمرّ بحلْقة، وهم في شيء مِنَ الذي سمعوا من عمرو في تلك الحلْقة: عثمان وعليّ وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد؛ فلما دنا عمر منهم سكتوا، فقال: فيمَ أنتم؟ فلم يجيبوه، فقال: ما أعلمني بالذي خلوتم عليه! فغضب طلحة، وقال: تالله يابن الخطاب لتُخْبرنا بالغيب! قال: لا يعلم الغيبَ إلا الله؛ ولكن أظنّ قلتم: ما أخوفَنا على قريش من العرب وأخلقهم ألّا يقرُّوا بهذا الأمر! قالوا: صدقت، قال: فلا تخافوا هذه المنزلة، أنا والله منكم على العرب أخوفُ منِّي من العرب عليكم؛ والله لو تدخلون معاشرَ قريش جُحْراً لدخلت العرب في آثاركم؛ فاتقوا الله فيهم. ومضى إلى عمرو فسلّم عليه، ثم انصرف إلى أبي بكر.

حدّثنا السّريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: نزل عَمرو بن العاص منصرفَه من عُمَان ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ بقُرَّة بن هُبيرة بن سلَمة بن قُشير، وحوله عسكر من بني عامر من أفنائهم، فذبح له وأكرمَ مثواه، فلمّا أراد الرحلة خَلا به قرّة، فقال: يا هذا، إنّ العرب لا تطيبُ لكم نفساً بالإتاوة، فإن أنتم أعفيتموها من أخذِ أموالها فستسمع لكم وتطيع؛ وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم. فقال عمرو: أكفرت يا قرّة! وحوله بنو عامر؛ فكره أن يبوح بمتابعتهم فيكفروا بمتابعته، فينفر في شرّ، فقال: لنردّنكم إلى فيئتِكم ـ وكان من أمره الإسلام ـ اجعلوا بيننا وبينكم موعداً. فقال عمرو: أتوعدنا بالعرب وتخوّفنا بها! موعدك حَفْشُ أمك؛ فوالله لأوطِئنّ عليك الخيل. وقدم على أبي بكر والمسلمين فأخبرهم.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: لمّا فرغ خالد من أمر بني عامر وبيعتهم على ما بايعهم عليه، أوثق عُيينة بن حصن وقُرّة بن هبيرة، فبعث بهما إلى أبي بكر، فلمّا قدِما عليه قال له قرّة: يا خليفةَ رسولِ الله، إنِّي قد كنت مسلماً، ولي من ذلك على إسلامي عند عمرو بن العاص شهادة؛ قد مرّ بي فأكرمته وقرّبته ومنعته. قال: فدَعا أبو بكر عمرَو بن العاص، فقال: ما تعلم من أمر هذا؟ فقصّ عليه الخبر، حتى انتهى إلى ما قال له من أمر الصّدقة، قال له قرّة: حسبك رحمك الله! قال: لا والله؛ حتى أبلِّغ له كلّ ما قلت. فبلّغ له، فتجاوز عنه أبو بكر، وحقَن دمه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، عن محمّد بن طلحة بن يزيد بن رُكانة، عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة، قال: أخبرنِي مَنْ نظر إلى عُيَينة بن حصن مجموعةً يداه إلى عُنقِه بحبل، يَنْخُسه غلمان المدينة بالجرِيد، يقولون: أيْ عدوّ الله، أكفرت بعد إيمانك! فيقول: والله ما كنت آمنت

بالله قطّ. فتجاوز عنه أبو بكر وحَقَن له دمه.

حدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن سَهْل بن يوسف، قال: أخذ المسلمون رجلاً من بني أسَد، فأتِيَ به خالد بالغَمْر ـ وكان عالماً بأمر طُليحة ـ فقال له خالد: حدّثنا عنه وعمّا يقول لكم، فزعم أن مما أتى به: «والحمام واليمام، والصُّرَد الصَّوَّام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغنّ مُلْكُنا العراق والشام».

حدّثني السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن أبي يعقوب سعيد بن عبيد، قال: لما أرْزَى أهل الغَمْر إلى البُزاخة، قام فيهم طليحة، ثم قال: «أمرت أن تصنعوا رحاً ذات عُرا، يرمي الله بها مَنْ رَمى، يهوي عليها من هوى»، ثم عَبّى جنوده، ثم قال: «ابعثوا فارسيْنِ، على فرسين أدهمَيْنِ، من بني نَصْر بن قُعَيْنِ، يأتيانكم بعينْ». فبعثوا فارسين من بني قُعَين، فخرج هو وسلمة طليعتين.

حدثنا السريّ، قال: حدثنا شعيب، عن سيف، عن عبدالله بن سعيد بن ثابت بن الجذْع، عن عبد الرحمن بن كعب، عمّن شهد بُزاخة من الأنصار، قال: لم يُصبْ خالد على البُزاخة عيّلا واحداً، كانت عيالات بني أسد مُحْرَزة ـ وقال أبو يعقوب: بين مِثْقَب وفَلْج، وكانت عيالات قيس بين فلْج وَواسط !ـ فلم يَعْدُ أن انهزموا، فأقرُّوا جميعاً بالإسلام خشية على الذراريّ، واتقوا خالداً بطلبته، واستحقوا الأمان؛ ومضى طُلَيحة؛ حتى نزل كلْب على النَّقْع، فأسلم، ولم يزل مقيماً في كلْب حتى مات أبو بكر؛ وكان إسلامه هنالك حين بلغه أن أسداً وغطفان وعامرا قد أسلموا؛ ثم خرج نحو مكة معتمراً في إمارة أبي بكر، ومرّ بجَنَبات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما اصنع به! خلّوا عنه، فقد هداه الله للإسلام. ومضى طليحة نحو مكة فقضى عمرته، ثم أتى عمر إلى البَيعة حين استخْلِف، فقال له عمر: أنت قاتل عُكّاشة وثابت! والله لا أحبُّك أبداً. فقال: يا أمير المؤمنين، ما تهَمّ من رجلين أكرمها الله بيدي، ولم يُهِنّي بأيديهما! فبايعه عمر ثم قال له: يا خُدَع، ما بقي من كهانتك؟ قال: نفخة أو نفختان بالكير. ثم رجع إلى دار قومه؛ فأقام بها حتى خرج إلى العراق.

ذكر رِدّة هوازن وسليم وعامر

حدّثنا السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن سهل وعبدالله، قالا: أمّا بنو عامر فإنهم قدّموا رِجْلا وأخّروا أخرى، ونظروا ما تصنع أسد وغَطَفان؛ فلما أحيطَ بهم وبنو عامر على قادتِهم وسادتهم، كان قُرّة بن هُبيرة في كعب ومن لافَّها، وعلقمة بن عُلاَثة في كلاب ومَن لافّها؛ وقد كان علقمة أسلَم ثم ارتدّ في أزمان النبيّ ﷺ، ثم خرج بعد فَتْح الطائف حتى لحق بالشأم؛ فلما تُوُفِّيَ النبيّ ﷺ أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كَعْب، مقدّماً رجلاً ومؤخراً أخرى؛ وبلغ ذلك أبا بكر، فبعث إليه سريّة، وأمَّر عليها القَعْقاع بن عمرو، وقال: يا قعقاع، سِرْ تُغير على عَلْقمة بن عُلاثة، لعلك أن تأخذه لي أو تقتله؛ واعلم أنّ شفاء الشَّقّ الحَوْص، فاصنع ما عندك. فخرج في تلك السرّية؛ حتى أغار على الماء الذي عليه عَلْقمة؛ وكان لا يبرح أن يكون على رِجْل؛ فسابقهم على فرسه؛ فسبقهم مراكضةً، وأسلم أهلَه وولده، فانتسف امرأتَه وبناتِه ونساءَه، ومَن أقام من الرجال؛ فاتقوه بالإسلام، فقدِم بهم على أبي بكر، فجحد ولده وزوجته أن يكونوا مالؤوا علقمة، وكانوا مقيمين في الدار، فلم يبلغه إلاّ ذلك، وقالوا: ما ذنبنا فيما صنع علقمة من ذلك! فأرسلهم ثم أسلم، فقبل ذلك منه.

حدّثنا السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمرو وأبي ضَمْرة، عن ابن سِيرين مثل معانيه.

وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بُزاخة يقولون: ندخلُ فيما خرجنا منه؛ فبايعهم على ما بايع عليه أهل البُزاخة من أسَد وغَطَفان وطيىء قبلَهم، وأعطوْه بأيديهم على الإسلام، ولم يقبل من أحد من أسد ولا غطَفان ولا هوازن ولا سُليم ولا طيّىء إلّا أن يأتوه بالذين حَرّقوا ومثّلوا وعدوْا على أهل الإسلام في حال ردّتهم. فأتوْه بهم، فقبل منهم إلّا قرة بن هُبيرة ونفراً معه أوثقهم، ومثَّل بالذين عَدَوْا على الإسلام؛ فأحرقهم بالنيران ورضَخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار، وخَزَق بالنّبال. وبعث بقرّة وبالأسارى، وكتب إلى أبي بكر: إنّ بني عامر أقبلت بعد إعراض، ودخلت في الإسلام بعد تربُّص؛ وإنّي لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين؛ فقتلتهم كلّ قتلة، وبعثتُ إليك بقرّة وأصحابه.

حدّثنا السَّريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن أبي عمرو، عن نافع، قال: كتب أبو بكر إلى خالد: ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً؛ واتّق الله في أمرك؛ فإنّ الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هُمْ محسنون جدَّ في أمر الله ولا تَبِنيَنّ، ولا تظفرنّ بأحد قتَل المسلمين إلا قتلتَه ونكّلتَ به غيره؛ ومَن أحببت ممن حادَّ الله أو ضادَّه؛ ممّن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله. فأقام على البُزاخة شهراً يُصَعِّد عنها ويُصَوِّب، ويرجع إليها في طلب أولئك؛ فمنهم مَنْ أحرق، ومنهم من قمطه ورضَخه بالحجارة؛ ومنهم مَنْ رمى بـه من رؤوس الجبال. وقـدم بقرّة وأصحابه، فلم ينزلوا ولم يُقَل لهم كما قيل لعُيَيْنة وأصحابه؛ لأنهم لم يكونوا في مثل حالهم؛ ولم يفعلوا فعلهم.

قال السريّ: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن سهل وأبي يعقوب، قالا: واجتمعت فُلّال غَطَفان إلى ظَفَر، وبها أم زِمْل سلمى ابنة مالك بن حُذيفَة بن بدْر؛ وهي تشبَّه بأمّها أم قرفة بنت ربيعة بن فلان بن بدر؛ وكانت أمّ قرفة عند مالك بن حذيفة، فولدت له قِرفة، وحكَمَة، وجُرَاشَة، وزِمْلاً، وحصيناً، وشريكاً، وعبداً، وزُفَر، ومعاوية، وحَمَلة، وقيساً، ولأياً؛ فأما حَكَمة فقتله رسولُ الله ﷺ يوم أغار عُيينة بن حِصْن على سَرْح المدينة، قتله أبو قتادة؛ فاجتمعت تلك الفُلّال إلى سلْمى؛ وكانت في مثل عزّ أمها، وعندها جَمل أم قرفة؛ فنزلوا إليها فذمرتْهُم، وأمرتهم بالحرب، وصعَّدتْ سائرة فيهم وصوَّبتْ، تدعوهم إلى حرب خالد، حتى اجتمعوا لها، وتشجَّعوا على ذلك، وتأشَّب إليهم الشُّرَداءُ من كلّ جانب ـ وكانت قد سبِيَت أيَّام أم قِرْفة، فوقعت لعائشة فأعتقتها، فكانت تكون عندها، ثم رجعت إلى قومها؛ وقد كان النبيّ ﷺ دخل عليهنّ يوماً، فقال: إنّ إحداكنّ تستنبح كلاب الحوءب؛ ففعلت سَلْمى ذلك حين ارتدّت؛ وطلبت بذلك الثأر، فسيّرت فيما بين ظفَر والحوْءب؛ لتجمع إليها، فتجمَّع إليها كُلُّ فَلّ ومُضَيَّق عليه من تلك الأحياء من غَطفان وهَوازِن وسُلَيم وأسد وطيّىء، فلما بلغ ذلك خالداً ـ وهو فيما هو فيه من تتبع الثأر، وأخذ الصدقة ودعاء الناس وتسكينهم ـ سار إلى المرأة وقد استكثف أمرُها، وغلُظ شأنها؛ فنزل عليها وعلى جُمّاعها، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ وهي واقفة على جَمَل أمّها، وفي مثل عزّها، وكان يقال: من نخس جملها فله مائة من الإبل لعزّها، وأبيرتْ يومئذ بيوتات من جاس ـ قال أبو جعفر: جاس حيّ من غَنْم ـ وهاربة، غَنْم، وأصيب في أناس من كاهِل، وكان قتالهم شديداً؛ حتى اجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها. وقتِل حول جملها مائة رجل؛ وبعث بالفتح، فقدم على أثر قُرّة بنحو من عشرين ليلة.

قال السريّ: قال شعيب، عن سيف، عن سهل وأبي يعقوب، قالا: كانَ من حديث الجوَاء وناعِر، أنّ الفجاءة إياس بن عبد ياليل قدِم على أبي بكر، فقال: أعنّي بسلاح، ومُرْني بمن شئت من أهل الـرّدة؛ فأعطاه سلاحاً، وأمَره أمـره، فخالف أمره إلى المسلمين؛ فخرج حتى ينزل بالجواء، وبعث نجبة بن أبي المَيْثاء من بني الشَّرِيد، وأمره بالمسلمين؛ فشنّها غارةً على كلّ مسلم في سُلَيم وعامر وهوازن؛ وبلغ ذلك أبا بكر، فأرسل إلى طُرَيْفة بن حاجز يأمره أن يجمع له وأن يسير إليه؛ وبعث إليه عبدالله بن قيس الجاسيّ عوناً؛ ففعل، ثمّ نهضا إليه وطلباه، فجعل يلوذ منهما حتى لقِيَاه على الجواء؛ فاقتتلوا، فقتل نجبة، وهرب الفجاءة، فلحقه طُرَيفة فأسره. ثم بعث به إلى أبي بكر، فقدم به على أبي بكر، فأمر فأوقد له ناراً في مصلّى المدينة على حطب كثير، ثمّ رمِي به فيها مقموطاً.

قال أبو جعفر: وأمّا ابنُ حُميد؛ فإنه حدّثنا في شأن الفُجاءة عن سلَمة، عنم محمّد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: قدِم على أبي بكر رجلٌ من بني سُلَيْـم، يقال له الفجاءة؛ وهو إياس بن عبدالله بن عبد ياليل بن عُميرة بن خُفاف، فقال لأبي بكر: إني مسلم؛ وقد أردت جهاد مَن ارتدّ من الكُفّار، فاحملني وأعنّي؛ فحمله أبو بكر على ظَهْر، وأعطاه سلاحاً، فخرج يستعرِض الناس: المسلِم والمرتدّ، يأخذ أموالهم، ويصيب مَن امتنع منهم؛ ومعه رجلٌ من بني الشَّريد، يقال له: نجبة بن أبي المَيْثاء، فلمّا بلغ أبا بكر خبرُه، كتب إلى طريفة بن حاجز: إنّ عدو الله الفجاءة أتاني يزعمُ أنه مسلم، ويسألني أنْ أقوّيَه عَلَى من ارتدّ عن الإسلام، فحملته وسلَّحتُه، ثم انتهى إليّ من يقين الخبر أنّ عدوّ الله قد استعرَض الناس: المسلم والمرتد يأخذ أموالهم، ويقتل مَن خالفه منهم، فسرْ إليه بمن معك من المسلمين حتى تقتلَه، أو تأخذه فتأتيَني به. فسار طُريفة بن حاجز، فلمّا التقى الناس كانت بينهم الرِّمِّيَّا بالنّبل، فقُتل نجبة بن أبي الميثاء بسهم رُمي به، فلما رأى الفجاءة من المسلمين الجدَّ قال لطُريفة: والله ما أنت بأوْلى بالأمر منّي، أنت أميرٌ لأبي بكر وأنا أميره. فقال له طريفة: إن كنت صادقاً فضعِ السلاح، وانطلق معي إلى أبي بكر. فخرج معه، فلما قدما عليه أمر أبو بكر طُرَيفَة بن حاجز، فقال: اخرج به إلى هذا البَقيع فحرِّقْه فيه بالنار؛ فخرج به طُريفة إلى المصلَّى فأوقد له ناراً، فقذفه فيها، فقال خُفاف بن نُدْبَة ـ وهو خُفاف بن عمير ـ يذكر الفُجاءة، فيما صنع:

لِمَ يـأخـذون سـلاحَـه لِقِتـالِـه ... ولـذاكُـمُ عـنـد الإلـهِ أثـامُ
لا ديـنـهـمْ ديـنـي ولا أنـا مـنـهـم ... حتى يـسيـرَ إلى الـصّـرَاةِ شَمـامُ

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر، قال: كانت سُليم بن منصور قد انتقض بعضُهم، فرجعوا كُفّاراً، وثبت بعضهم على الإسلام مع أمير كان لأبي بكر عليهم، يقال له معن بن حاجز، أحد بني حارثة، فلمّا سار خالد بن الوليد إلى طليحة وأصحابه، كتب إلى معن بن حاجز أن يسير بمن ثبت معه على الإسلام من بني سُلَيم مع خالد، فسار واستخلف على عمله أخاه طُرَيفة بن حاجز، وقد كان لحِقَ فيمن لحق من بني سُلَيم بأهل الردّة أبو شجرة بن عبد العُزّى، وهو ابن الخنساء، فقال:

فـلو سـألَـتْ عـنّـا غـداةَ مُـرامـرٍ ... كمـا كنتُ عنها سـائلا لـو نَـأيْتُهـا
لـقـاء بني فِـهْـرٍ وكـان لـقـاؤهـم ... غـداةَ الجِـوَاءِ حَـاجَـةً فقضيتُهـا
صبَـرْتُ لهم نفسِي وعـرَّجْت مُهْـرَتي ... على الطَّعْن حتى صار وَرْداً كُمَيْتُها

إذا هي صدّت عن كميٍّ أريده عَدلتُ إليه صدرَها فهديْتُها

فقال أبو شجرة حين ارتدّ عن الإسلام:

صَحَا القلبُ عن مَيّ هواه وأقْصرا وطاوَعَ فيها العاذلين فأبْصَرا
وأصبح أدنى رائدِ الجَهْل والصِّبا كما وُدُّها عنَّا كذاك تَغيَّرَا
وأصبح أدنى رائدِ الوصل منهُمُ كما حبْلُها من حبلنا قد تَبَتَّرا
ألا أيّها المُدْلِي بكثرة قومه وحظُّك منهم أن تُضَامَ وتُقْهَرَا
سَلِ الناس عنّا كلَّ يوم كَريهَةٍ إذا ما التقينا: دارِعينَ وحُسَّرا
أَلَسْنا نُعاطى ذا الطِّمَاح لجامَهُ ونَطْعن في الهيجا إذا الموتُ أَقْفرا!
وعاضِرَةٌ شهباءُ تَخْطِرُ بالقَنا ترى البُلْقَ في حافاتها والسَّنَوّرا
فَرَوَّيْتُ رُمْحِي من كَتِيبَةِ خَالِدٍ وإني لأرْجو بعدها أن أُعمَّرا

ثم إنّ أبا شجرة أسلم، ودخل فيما دخل فيه الناس؛ فلما كان زمن عمر بن الخطاب قدم المدينة. فحدَّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن أنس السُّلميّ، عن رجال من قومه.
وحدثنا السَّري قال: حدّثنا شعيب، عن سيف، عن سهل وأبي يعقوب ومحمد بن مرزوق، وعن هشام، عن أبي مِخْنف، عن عبد الرحمن بن قيس السُّلمِيّ، قالوا: فأناخ ناقته بصعيد بني قريظة. قال: ثمّ أتى عمر وهو يعطي المساكين من الصّدقة ويقسِّمها بين فقراء العرب، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطني فإني ذو حَاجة، قال: ومَنْ أنت؟ قال: أبو شجرة بن عبد العزَّى السُّلميّ، قال: أبو شجرة! أيْ عدوّ الله، ألستَ الذي تقول:

فروّيتُ رمحي من كتيبة خالدٍ وإني لأرجُو بعدها أن أعمّرا

قال: ثم جعل يعلوه بالدِّرَّة في رأسه حتى سبقه عَدْواً، فرجع إلى ناقته فارتحلها، ثم أسندها في حَرَّة شَوْران راجعاً إلى أرض بني سليم، فقال:

ضَنّ علينا أبو حفصٍ بنائِلِه وكلُّ مُختبطٍ يَوماً له وَرَقُ
ما زال يُرْهقني حتى خَذِيت لهُ وحال من دون بعض الرَّغْبَةِ الشَّفَقُ
لمَّا رهبتُ أبا حفصٍ وشُرْطَتهُ والشيْخُ يفزع أحياناً فيَنْحمِقُ
ثُمَّ ارْعويتُ إليها وَهْيَ جانحَةٌ مِثل الطَّريدة لم ينبت لها ورقُ
أوردتها الخَلَّ من شَوْران صادِرَةً إني لأزْرِي عليها وَهْيَ تنطلقُ
تَطِيرُ مَرْوُ أبانٍ عن مناسمها كما تُنوقِد عند الجِهْبِذ الورقُ
إذا يعارضها خَرْقٌ تعارضه وَرْهَاء فيها إذا استعجلتها خُرُق
ينوءُ آخرها منها بأوّلها سُرْحُ اليدين بها نَهّاضَة العُنُقِ

ذكر خبر
بني تميم وأمر سَجَاح بنت الحارث بن سُوَيد

وكان من أمر بني تميم، أنّ رسولَ الله ﷺ تُوُفِّيَ وقد فرّق فيهم عماله؛ فكان الزِّبْرِقان بن بدر على الرِّباب وعوف والأبناء ـ فيما ذكر السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن عطية بن بلال، عن أبيهُ وسهم بن مِنجاب ـ وقيس بن عاصم على مُقَاعِس والبُطُون، وصفوان بن صفوان وسَبْرَةُ بن عمرو على بني عمرو؛ هذا على بَهْدَى وهذا على خَضَّم ـ قبيلتين من بني تميم ـ ووكيع بن مالك ومالك بن نُوَيْرة على بني حنظلة؛ هذا على بني مالك، وهذا على بني يربوع. فضرب صفوان إلى أبي بكر حين وقَع إليه الخبر بموت النبيّ ﷺ بصدقات بني عمرو، وما ولى منها وبما ولى سبرة، وأقام سبرة في قومه لحدث إن ناب القوم، وقد أطرق قيس ينظر ما الزبرقان صانعٌ. وكان الزّبرقان متعتّباً عليه، وقلّما جامله إلّا مزّقه الزّبرقان بحظوته وجَدّه. وقد قال قيس وهو ينتظر لينظر ما يصنع ليخالفه حين أبطأ عليه: واويلنا من ابن العُكْليّة! والله لقد مزّقني فما أدري ما أصنع! لئن أنا تابعتُ أبا بكر وأتيته بالصّدقة لينحرنّها في بني سعد فليسودنّي فيهم، ولئن نحرتها في بني سعد ليأتينّ أبا بكر فليسوّدَنّي عنده. فعزم قيس على قسمها في المقاعس والبطون، ففعل. وعزم الزّبرقان على الوَفاء، فاتّبع صَفوانَ بصدقات الرِّباب وعوف والأبناء حتى قدِم بها المدينة، وهو يقول ويُعرّض بقيس:

وفيتُ بـأذْوادِ الـرَّسـول وقـد أبتْ ... سُعَـاة فلم يَـرْدُدْ بعيـراً مُـجِيـرُهـا

وتحلّل الأحياء ونشب الشرّ، وتشاغلوا وشَغَل بعضُهم بعضاً. ثم نـدم قيس بعد ذلـك، فلما أظلّه العَلاء بن الحَضْرمِيّ أخرج صدقتها؛ فتلقّاه بها؛ ثم خرج معه، وقال في ذلك:

ألَا أبْلِغَـا عَنّـي قـريشـاً رسـالـةً ... إذا مـا أتَـتْـهَـا بيّـنـاتُ الـودائـع

فتشاغلت في تلك الحال عَوْف والأبناء بالبُطون، والرِّباب بمقاعس، وتشاغلت خَضَّمَ بمالك وبَهْدَى بيربوع؛ وعلى خَضّم سَبْرة بن عمرو، وذلك الذي حلَّفه عن صفوان والحصين بن نِيَار على بَهْدَى، والرّباب؛ عـبدالله بن صَفْوان على ضبَّة، وعِصمة بن أبَيْر على عبد مناة، وعلى عوف والأبناء عوف بن البلاد بن خالد من بني غَنْم الجُشميّ، وعلى البطون سِعْر بن خُفاف؛ وقد كان ثمامة بن أثال تأتيه أمدادٌ من بني تميم؛ فلمّا حدث هذا الحدث فيما بينهم تراجعوا إلى عشائرهم، فأضرَّ ذلك بثمامة بن أثال حتى قدم عليه عكرمة وأنهضه؛ فلم يصنع شيئاً؛ فبينا الناس في بلاد تميم على ذلك، قد شغل بعضهم بعضاً؛ فمُسْلِمُهم بإزاء من قَدّم رجْلا وأخّر أخرى وتربَّص، وبإزاء من ارتاب، فجِئَتْهم سَجَاح بنت الحارث قد أقبلت من الجزيرة، وكانت ورهطها في بني تغلِب تقود أفناءَ ربيعة، معها الهُذَيل بن عمران في بني تغلِب، وعَقَّة بن هلال في النَّمِر، وتاد بن فلان في إياد، والسَّليل بن قيس في شَيْبان، فأتاهم أمرٌ دهيّ، هو أعظم مما فيه الناس، لهجوم سَجاح عليهم، ولما همْ فيه من اختلاف الكلمة، والتشاغل بما بينهم. وقال عُفَيف بن المنذر في ذلك:

ألـم يـأتِـيـك والأنـبـاءُ تَـسْـرِي ... بـمـا لاقَـتْ سَـرَاة بـنـي تَـمـيـم
تَـدَاعَـى مِـنْ سـراتـهـمُ رِجَـالٌ ... وكـانـوا فـي آلـذَّوائب والـصَّمِيـم
وألجــوْهـم وكـان لـهـم جِـنـابٌ ... إلـى أحـيـاء خـالـيـةٍ وخِـيـمِ

وكانت سَجاح بنت الحارث بن سويد بن عُقْفان ـ هي وبنو أبيها عُقْفان ـ في بني تغلِب. فتنبَّتْ بعد موت رسول الله ﷺ بالجزيرة في بني تغلِب، فاستجاب لها الهُذيل، وترك التنصّر؛ وهؤلاء الرؤساء الذين أقبلوا معها لتغزو بهم أبا بكر. فلما انتهتْ إلى الحَزْن راسلتْ مالك بن نُويرة ودَعَتْه إلى الموادعة، فأجابها، وفثأها عن غزوها، وحَمَلها على أحياء من بني تميم، قالت: نعم، فشأنَك بمن رأيت، فإني إنما أنا امرأة من بني يربوع، وإن كان مُلك فالمُلك مُلْككم. فأرسلت إلى بني مالك بن حنظلة تدعوهم إلى الموادعة، فخرج عطارد بن حاجب وسرَوات بني مالك حتى نزلوا في بني العنبر على سَبْرة بن عمرو هرّاباً قد كرهوا ما صنع وكيع، وخرج أشباههم من بني يربوع؛ حتى نزلوا على الحصين بن نِيَار في بني مازن، وقد كرهوا ما صنع مالك؛ فلمّا جاءت رسلُها إلى بني مالك تطلب الموادعة، أجابها إلى ذلك وكيع، فاجتمع وكيع ومالك وسجاح، وقد وادع بعضهم بعضاً، واجتمعوا على قتال الناس وقالوا: بمن نبدأ؟ بخَضّم، أم ببَهدى، أم بعوف والأبناء، أم بالرِّباب؟ وكفّوا عن قيس لما رأوا من تردّدِه وطمعوا فيه، فقالت: «أعِدُّوا الرّكاب، واستعدّوا للنّهاب، ثمّ أغيروا على الرِّباب، فليس دونهم حجاب».

قال: وصمدتْ سجاح للأحفار حتى تنزل بها، وقالت لهم: إنّ الدَّهْناء حجاز بني تميم؛ ولن تعدوَ الرِّباب؛ إذا شدّها المصاب، أن تلوذ بالدجاني والدهاني؛ فلينزلها بعضكم. فتوجّه الجفول ـ يعني مالك بن نُوَيرة ـ إلى الدّجاني فنزلها؛ وسمعتْ بهذا الرِّباب فاجتمعوا لها؛ ضَبَّتها وعبد مناتها، فولِي وَكِيع وبِشْر بني بكْر من بني ضَبَّة، ووَلِيَ ثعلبة بن سَعْد بن ضَبَّة عقَّة، ووليَ عبدَ مناة الهذيلُ. فالتقى وكيع وبشر وبنو بكر من بني ضَبَّة، فهُزما، وأُسِرَ سماعة ووكيع وقَعْقاع، وقتلتْ قتلى كثيرة؛ فقال في ذلك قَيْس بن عاصم؛ وذلك أوّلَ ما استبانَ فيه الندم:

كأنّك لم تَشْهَدْ سَماعةَ إذْ غَزَا ... وما سُرّ قَعْقاعٌ وخابَ وَكِيعُ
رأيتُك قد صاحَبْتَ ضَبَّةَ كارهاً ... على نَدَبٍ في الصَّفْحَتَيْن وَجِيع
ومُطْلِقُ أَسْرَى كان حمقاً مَسِيرُها ... إلى صَخَراتٍ أَمْرُهُنَّ جَمِيع

فصرفَتْ سجاح والهذيل وعقَّة بني بكر، للموادعة التي بينها وبين وكيع ـ وكان عقَّة خالَ بشر ـ وقالت: اقتلوا الرِّباب ويصالحونكم ويطلقون أسراكم، وتحملون لهم دماءهم؛ وتحمَد غبَّ رأيهم أخراهم. فأطلقتْ لهم ضبَّة الأسْرَى؛ ووَدَوُا القتلَى، وخرجوا عنهم. فقال في ذلك قيس يُعَيِّرهم صلْحَ ضبَّة، إسعاداً لضبَّة وتأنيباً لهم. ولم يدخل في أمر سجاح عمريّ ولا سعديّ ولا ربيّ؛ ولم يطمعوا من جميع هؤلاء إلا في قيس؛ حتّى بدا منه إسعاد ضبَّة؛ وظهر منه الندم. ولم يُمالِئْهُم من حنظلة إلاّ وكيع ومالك؛ فكانت ممالأتها موادَعةٌ على أن ينصر بعضهم بعضا، ويحتاز بعضهم إلى بعضهم؛ وقال أصَمُّ التَّيميّ في ذلك:

أَتَتْنا أختُ تغلب فاستهدّتْ ... جلائبَ من سَرَاةِ بني أبينا
وأرْسَتْ دعوةً فينا سَفَاهاً ... وكانت من عمائر آخرينا
فما كُنَّا لنَرْزيهم زِبالاً ... وما كانت لتُسْلم إذ أُتِينا
ألاَ سَفِهَتْ حلومُكُمُ وضلَّتْ ... عَشِيَّةَ تَحْشُدونَ لها ثُبِينا

قال: ثمّ إنّ سَجاح خرجت في جُنود الجزيرة، حتى بلغت النِّبَاج؛ فأغار عليهم أوْس بن خُزيمة الهُجَيْميّ

فيمن تأشَّبَ إليه من بني عمرو، فأسِر الهذيل؛ أسره رجلٌ من بني مازن ثم أحد بني وَبر، يُدْعى ناشرة. وأسِرَ عَقَّة؛ أسره عبدة الهجيميّ؛ وتحاجزوا على أن يترادّوا الأسرى، وينصرفوا عنهم، ولا يجتازوا عليهم؛ ففعلوا، فردُّوها وتوثَّقوا عليها وعليهما؛ أن يرجعوا عنهم، ولا يتَّخذوهم طريقاً إلا من ورائهم. فوفوا لهم؛ ولم يزل في نفس الهذيل على المازنيّ؛ حتى إذا قُتل عثمان بن عفَّان، جمع جمعاً فأغار على سَفَار، وعليه بنو مازن؛ فقتلتْه بنو مازن ورَموا به في سَفَار.

ولَّما رجع الهُذيل وعقَّة إليها واجتمع رؤساء أهل الجزيرة قالوا لها: ما تأمريننا؟ فقد صالَح مالك ووكيع قومَها؛ فلا ينصروننا ولا يزيدوننا على أن نجوز في أرضهم، وقد عاهدنا هؤلاء القوم. فقالت: اليمامة؛ فقالوا: إن شوكة أهل اليمامة شديدة؛ وقد غُلظَ أمر مسيْلمة؛ فقالت: «عليكم باليمامة؛ ودفُّوا دَفِيفَ الحمامة؛ فإنها غزوة صَرّامة؛ لا يلحقكم بعدها ملامة». فَنَهَدَتْ لبني حنيفة؛ وبلغ ذلك مسيلمة فهابها؛ وخاف إن هو شغل بها أن يغلبه ثُمامة على حَجْر أو شرحبيل بن حَسَنَة، أو القبائل التي حولَهم، فأهدى لها؛ ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيَها. فنزلت الجنود على الأمواه، وأذِنَتْ له وآمَنَتْه؛ فجاءها وافداً في أربعين من بني حَنِيفة ـ وكانت راسخةً في النَّصرانية، قد علمت من علم نصارى تغلِب ـ فقال مُسيلِمة: لنا نصف الأرض؛ وكان لقريش نصفها لو عدلَتْ؛ وقد ردّ الله عليكِ النّصف الذي رَدَّتْ قريش؛ فَحَباك به، وكان لها لو قبلَتْ. فقالت: «لا يردّ النّصف إلاّ مَنْ حَنَف، فاحمل النّصف إلى خيل تراها كالسَّهَف». فقال مسيلمة: «سمع الله لمن سمع، وأطمعه بالخير إذ طمع؛ ولا زال أمره في كلّ ما سرّ نفسه يجتمع. رآكم ربُّكم فحيَّاكم، ومن وحشة خلاّكم؛ ويوم دينه أنجاكم. فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربّكم الكُبار، ربّ الغيوم والأمطار».

وقال أيضاً: «لَمّا رأيت وجوههم حَسُنَت، وأبشارهم صفت، وأيديهم طَفُلَت؛ قلت لهم: لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربُون؛ ولكنَّكم معشر أبرار، تصومون يوماً، وتكلفون يوماً؛ فسبحان الله! إذا جاءت الحياة كيف تحيَوْن، وإلى ملك السماء ترقوْن! فلو أنها حبّة خرْدَلة؛ لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثُّبور».

وكان ممَّا شرَع لهم مسيلمة أنّ من أصاب ولداً واحداً عقِباً لا يأتي امرأة إلى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد؛ حتى يصيب ابنا ثم يُمْسِك؛ فكان قد حرَّم النِّساء على من له ولد ذَكر.

قال أبو جعفر: وأمَّا غير سيف ومنْ ذكرنا عنه هذا الخبر؛ فإنه ذكر أنّ مسيْلمة لما نزلتْ به سجاح، أغلق الحصْن دُونها، فقالت له سجاح: انزل، قال: فنحِّي عنكِ أصحابَكِ، ففعلت. فقال مسيلمة: اضربوا لها قُبَّةً وجَمِّروها لعلَّها تذكر الباه؛ ففعلوا، فلَّما دخلت القُبَّة نزل مسيلمة فقال: لِيقِفْ هاهنا عشرة، وها هنا عشرة؛ ثم دارسَها، فقال: ما أوحِيَ إليكِ؟ فقالت: هل تكون النساءُ يبتدئن! ولكن أنت قُلْ ما أوحي إليك؟ قال: «ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحُبْلى، أخرج منها نسمة تسْعى، من بين صِفاق وحشى». قالت: وماذا أيضاً؟ قال: أوحيَ إليّ: «أنّ الله خلق النساء أفراجا، وجعل الرجال لهنّ أزواجا؛ فنولج فيهن قُعْساً إيلاجا، ثم نُخْرِجُها إذا نشاء إخراجا، فيُنْتَجْن لنا سِخَالا إنتاجاً». قالت: أشهد أنك نبيّ، قال: هل لكِ أن أتزوّجك فآكل بقومي وقومك العرب! قالت: نعم، قال:

أَلَا قُومي إلى النَّيْك فقد هُيِّي لك المَضْجَعْ
وإن شئتِ ففي البيت وإن شئتِ ففي المخدَعْ
وإن شئتِ سلقناكِ وإن شئتِ على أربعْ
وإن شئتِ بثلثيْه وإن شئتِ به أجْمَعْ

قالت: بل به أجمع، قال بذلك أوحي إليّ. فأقامت عنده ثلاثاً ثمّ انصرفت إلى قومها، فقالوا: ما عندك؟ قالت: كان على الحقّ فاتّبعتُه فتزوّجته، قالوا: فهل أصدَقَك شيئاً؟ قالت: لا، قالوا: ارجعي إليه، فقبيحٌ بمثلك أن ترجع بغير صَدَاق! فرجعت، فلمّا رآها مسيلمة أغلق الحِصْن، وقال: مالك؟ قالت: أصدقْني صداقاً، قال: من مؤذِّنك؟ قالت: شَبَث بن ربْعيّ الرِّيَاحيّ، قال: عليّ به، فجاء فقال: نادِ في أصحابك أنّ مسيلمة بن حبيب رسولُ الله قد وضع عنكم صلاتين ممّا أتاكم به محمّد: صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر.

قال: وكان من أصحابها الزّبرقان بن بدْر وعُطارد بن حاجب ونُظَراؤهم.

ـ وذكر الكلبيّ أن مشيخة بني تميم حدّثوه أن عامَّة بني تميم بالرّمل لا يصلونها ـ فانصرفت ومعها أصحابها، فيهم الزّبرقان، وعُطارد بن حاجب، وعَمْرو بن الأهْتَم، وغيلان بن خَرَشَة، وشبَث بن رِبعيّ، فقال عُطارد بن حاجب:

أَمْسَتْ نَبِيّتُنا أنْثى نُطيفُ بها وأصْبَحَتْ أنبياءُ النّاس ذُكْرانا

وقال حكيم بن عيَّاش الأعور الكلبيّ، وهو يعيِّر مُضَر بسَجاح، ويذكر ربيعة:

أَتَوْكُمْ بدِينٍ قائِمٍ وأتيتُمُ بِمُنْتَسِخ الآيات في مُصْحَفٍ طَبِّ

رجع الحديث إلى حديث سيف. فصالحها على أن يحمل إليها النّصف من غَلّات اليمامة، وأبت إلاّ السنة المقْبلة يُسْلِفها؛ فباح لها بذلك؛ وقال: خَلِّفِي على السلف مَنْ يجمعه لك؛ وانصرفي أنتِ بنصف العام؛ فرجع فحمل إليها النّصف، فاحتملتْه وانصرفتْ به إلى الجزيرة، وخَلَّفَتِ الْهذيل وعقّة وزياداً لينجز النّصف الباقي؛ فلم يفجأهم إلا دُنُوّ خالد بن الوليد منهم، فارفضّوا. فلم تزل سَجاح في بني تَغْلِب؛ حتى نقلهم معاوية عامَ الجماعة في زمانه؛ وكان معاوية حين أجمع عليه أهلُ العراق بعد علي عليه السلام يُخرِج من الكوفة المستغربَ في أمر عليّ، ويُنْزِل داره المستغربَ في أمر نفسه من أهل الشأم وأهل البصرة وأهل الجزيرة؛ وهم الذين يقال لهم النواقل في الأمصار؛ فأخرج من الكوفة قَعقاعَ بن عمرو بن مالك إلى إيليا بفلسطين، فطلب إليه أن ينزل منازلَ بني أبيه بني عُقْفان، وينقلهم إلى بني تميم، فنقلهم من الجزيرة إلى الكوفة، وأنزلهم منازل القَعْقَاع وبني أبيه؛ وجاءت معهم وحسن إسلامها؛ وخرج الزّبرقان والأقرع إلى أبي بكر، وقالا: اجعل لنا خَراج البحرين ونضمن لك ألّا يرجع من قومنا أحدٌ، ففعل وكتب الكتاب. وكان الذي يختلف بينهم طلحة بن عبيدالله وأشهدوا شهوداً منهم عمر. فلما أتِيَ عمر بالكتاب فنظر فيه لم يشهد، ثم قال: لا والله ولا كَرَامة! ثم مزّق الكتاب ومحاه، فغضب طلحة، فأتى أبا بكر، فقال: أأنت الأمير أم عمر؟ فقال: عمر؛ غير أنّ الطاعة لي. فسكت.

وشهدَا مع خالد المشاهدَ كلّها حتى اليمامة، ثم مضى الأقرع ومعه شُرَحبيل إلى دُومة.

ذكر البُطَاح وخبره

كتب إليّ السريُّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن الصَّعْب بن عطية بن بلال، قال: لما انصرفتْ سَجاح إلى الجزيرة، ارعَوَى مالك بن نُوَيرة، وندِم وتحيَّر في أمره، وعرف وكيع وسماعة قُبْحَ ما أتيا، فرجعا رجوعاً حسناً، ولم يتجبَّرا، وأخرجا الصدقات فاستقبلا بها خالداً؛ فقال خالد: ما حملكما على موادعة هؤلاء القوم؟ فقالا: ثأرٌ كنَّا نطلبه في بني ضَبَّة؛ وكانت أيام تشاغُل وفرص، وقال وكيع في ذلك:

فــلا تَـحْسَـبـا أنِّي رجعـتُ وأنـني ... مُنِعْتُ وقـد تُحْنَى إلـيَّ الأصـابـعُ
ولكنّني حـامَيْتُ عـن جُـلِّ مـالـكٍ ... ولاحَـظْتُ حتى أكْحَلْتني الأخـادِعُ
فـلمّـا أتـانـا خـالـدٌ بلِوائـه ... تخـطَّتْ إليـه بـالبُـطَاح الـوَدائـعُ

ولم يبق في بلاد بني حنظلة شيء يكره إلا ما كان من مالك بن نُويرة ومَن تأشّب إليه بالبُطاح؛ فهو على حاله متحيِّرٌ شَجٍ.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل، عن القاسم وعمرو بن شعيب، قالا: لما أراد خالد السَّيْر خرج من ظَفَر، وقد استبرأ أسداً وغَطَفان وطيِّئاً وهوازن؛ فسار يريدُ البُطاح دون الحَزْن؛ وعليها مالك بن نُوَيرة، وقد تردّد عليه أمره، وقد تردّدت الأنصار على خالد وتخلَّفت عنه، وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا! إنّ الخليفة عَهِد إلينا إنْ نحن فرغنا من البُزاخة، واستبرأنا بلادَ القوم أن نقيمَ حتَّى يكتب إلينا.

فقال خالد: إن يكُ عهد إليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضيَ، وأنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار. ولو أنَّه لم يأتِني له كتاب ولا أمر؛ ثم رأيت فرصةً، فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعْلِمْه حتى أنتهزها؛ كذلك لو ابتُلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم نـدعْ أن نرى أفضلَ ما بحضرتنا، ثم نعمل به. وهذا مالك بن نُوَيرة بحيالنا، وأنا قاصد إليه ومَن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان؛ ولست أكرهكم. ومضى خالد، ونـدمت الأنصار، وتَذامروا، وقالوا: إن أصاب القوم خيراً إنه لَخَيرٌ حُرِمتموه، وإن أصابتهم مصيبة ليجْتَنِبُنَّكُم الناس. فأجمعوا اللّحاق بخالد وجرّدوا إليه رسولا؛ فأقام عليهم حتى لحِقوا به؛ ثم سار حتى قدم البُطاح فلم يجد به أحداً.

قال أبو جعفر؛ فيما كتب به إليَّ السريُّ بن يحيى، يذكر عن شعيب بن إبراهيم أنَّه حدّثه عن سيف بن عمر، عن خزيمة بن شَجرة العُقْفانيّ، عن عثمان بن سويد، عن سُويد بن المثعبة الرِّيَاحيّ؛ قال: قدم خالد بن الوليد البُطاح فلم يجدْ عليه أحداً، ووجد مالكاً قد فرّقهم في أموالهم، ونهاهم عن الاجتماع حين تردّد عليه أمره، وقال: يا بني يَربوع؛ إنَّا قد كنا عصيناأمراءناإذ دعوْناإلى هذا الدين، وبَطَّأنا الناس عنه فلم نُفْلح ولم نُنْجِح، وإنِّي قد نظرتُ في هذا الأمر، فوجدتُ الأمر يتأتَّى لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس؛ فإيَّاكم ومناوأة قوم صُنع لهم؛ فتفرّقوا إلى دياركم وادخلوا في هذا الأمر. فتفرّقوا على ذلك إلى أموالهم، وخرج مالك حتى رجع إلى منزله. ولما قدم خالد البطاح بثَّ السَّرايا وأمرهم بداعية الإسلام أن يأتُوه بكلّ مَن لم يُجب، وإن امتنع أن يقتلوه؛ وكان ممَّا أوصى به أبو بكر: إذا نزلتُم منزلا فأذِّنوا وأقيموا؛ فإن أذّن القوم وأقاموا فكفُّوا عنهم؛ وإن لم يفعلوا فلا شيءَ إلاّ الغارة؛ ثم اقتلوهم كلَّ قِتْلة؛ الحرْق فما سواه؛ وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم؛ فإن أقرُّوا بالزكاة فاقبلوا منهم؛ وإن أبَوْها فلا شيءَ إلاّ الغارة ولا كلمة. فجاءته الخيل بمالك بن

نُويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع، من عاصم وعبيد وعرين وجعفر، فاختلفت السريَّة فيهم، وفيهم أبو قتادة؛ فكان فيمَن شهد أنَّهم قد أذّنوا وأقاموا وصلّوا. فلمّا اختلفوا فيهم أمر بهم فحُبِسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء؛ وجعلت تزداد بَرْداً، فأمر خالدٌ منادياً فنادى: «أدفِئوا أسراكم»، وكانت في لغة كنانة إذا قالوا: دَثِّروا الرجل فأدفئوه، دِفْئُه قتله وفي لغة غيرهم: أدْفِه فاقتله، فظنّ القوم ـ وهي في لغتهم القتل ـ أنه أراد القتل، فقتلوهم، فقتل ضرارُ بن الأزور مالكاً، وسمع خالد الواعية؛ فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه.

وقد اختلف القوم فيهم، فقال أبو قتادة: هذا عملُك، فَزَبَرَه خالد فغضب ومضَى، حتى أتى أبا بكر فغضِب عليه أبو بكر؛ حتى كلّمه عمر فيه، فلم يرضَ إلاّ أن يرجع إليه فرجع إليه حتى قدم معه المدينة، وتزوج خالدٌ أم تميم ابنة المنهال، وتركها لينقضِيَ طُهرها، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايرهُ، وقال عمر لأبي بكر: إنّ في سيفِ خالد رَهَقاً، فإن لم يكن هذا حقاً، حقّ عليه أن تُقِيدَه؛ وأكثر عليه في ذلك ـ وكان أبو بكر لا يُقِيد من عماله ولا وَزَعَته ـ فقال: هيه يا عمر! تأوّلَ فأخطأ، فارفَعْ لسانك عن خالد. وودى مالكاً وكتب إلى خالد أن يقدُم عليه، ففعل، فأخبره خبَرَه، فعذره وقبل منه، وعنّفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: شهد قومٌ من السريّة أنهم أذّنوا وأقاموا وصلّوا، ففعلوا مثل ذلك. وشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء، فقُتلوا. وقدم أخوه متمّم بن نُوَيْرة يَنْشُد أبا بكر دمَه، ويطلب إليه في سَبْيهم؛ فكتب له بردّ السَّبْي، وألحّ عليه عمر في خالد أن يعزله، وقال: إنّ في سيفِه رَهَقاً. فقال: لا يا عمر؛ لم أكُنْ لأشِيمَ سيفاً سلَّه الله على الكافرين.

كتب إلي السَّريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن خُزيمة، عن عثمان، عن سُوَيد، قال: كان مالك بن نُويرة من أكثر الناس شعراً؛ وإن أهل العسكر أثْفوا برؤوسهم القُدور، فما منهم رأس إلا وصلت النار إلى بَشرته ما خلامالكاً، فإنّ القِدْر نَضِجتْ وما نضج رأسه من كثرة شعره، وقَى الشَّعرُ البَشَرةَ حَرَّها أن يبلغ منه ذلك.

وأنشده متمّم؛ وذكر خَمَصَه؛ وقد كان عمر رآه مقدَمَه على النبيّ ﷺ، فقال: أكذاك يا متمّم كان! قال: أمَّا ما أعني. فنعم.

حَدَّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حَدّثنا محمد بن إسحاق، عن طلحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق؛ أنّ أبا بكر كان من عهده إلى جيوشه: أنْ إذا غشيتم داراً من دُور النَّاس فسمعتم فيها أذانا للصلاة، فأمسكُوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نقِموا! وإن لم تسمعوا أذانا، فشُنُّوا الغارة، فاقتلوا وحَرّقوا.

وكان ممَّن شهد لمالك بالإسلام أبو قتَادة الحارث بن رِبْعِيّ أخو بني سَلِمة، وقد كان عاهد الله ألاّ يشهد مع خالد بن الوليد حرباً أبداً بَعدها؛ وكان يحدّث أنَّهم لما غَشُوا القـوم راعوهم تحت الليـل، فأخـذ القوم السلاح. قال: فقلنا: إنّا المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم! قالوا لنا: فما بال السلاح معكم! قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعُوا السلاح، قال: فوضعوها؛ ثم صلَّيْنا وصلَّوا. وكان خالد يعتذِر في قتله أنه قال له وهو يراجعه: ما إخال صاحبَكم إلاّ وقد كان يقول كذا وكذا. قال: أَوَ ما تعدّه لك

صاحباً! ثم قدّمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه، فلما بلغ قتلُهم عمرَ بن الخطاب، تكلّم فيه عند أبي بكر فأكثر، وقال: عدوُّ الله عَدا على امرىء مسلم فقتله، ثم نَزَا على امرأته!

وأقبل خالد بن الوليد قافلا حتى دخل المسجد وعليه قَباءٌ له عليه صَدأ الحديد، معتجراً بعمامة له، قد غرز في عمامته أسْهُماً؛ فلمّا أنْ دخلَ المسجد قام إليه عُمَرُ فانتزع الأسْهُمَ من رأسه فحطّمها، ثم قال: أرِئَاء! قتلتَ امرأً مسلما، ثم نزوت على امرأته! والله لأرْجمنّك بأحجارك ـ ولا يكلّمه خالد بن الوليد، ولا يظنّ إلا أنّ رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه ـ حتى دخل على أبي بكر، فلمّا أنْ دخلَ عليه أخبره الخبر، واعتذر إليه فعذره أبو بكر، وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك. قال: فخرَج خالد حين رضي عنه أبو بكر، وعُمَـرُ جالسٌ في المسجد، فقال: هلم إليّ يابن أمّ شَمْلة! قال: فعرف عمر أن أبا بكر قد رضيَ عنه فلم يكلّمه، ودخل بيته.

وكان الـذي قتل مالك بن نويرة عبد بن الأزور الأسدي. وقال ابن الكلبيّ: الَّذي قتل مالك بن نُويرة ضرار بن الأزور.

ذكر بقيّة خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: كان أبو بكر حين بعث عِكْرمة بن أبي جهل إلى مُسيْلمة وأتبْعه شُرَحْبيلَ عجّل عكرمة، فبادر شرحْبيل ليذهب بصوتها فواقعهم، فنكبوه، وأقام شُرحْبيل بالطريق حيث أدركه الخبر؛ وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان من أمره، فكتب إليه أبو بكر: يابن أمّ عكرمة، لا أرينّك ولا تراني على حالها! لا ترجع فتوهِن الناسَ؛ امض على وجهك حتى تساند حُذَيْفَةَ وعَرْفجة فقاتلْ معهما أهلَ عُمان ومَهْرة، وإن شغلا فامضِ أنت، ثم تسير وتسيّر جندك تستبرئون مَنْ مررتم به؛ حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أميَّة باليمن وحضرموت.

وكتب إلى شُرحبيل يأمره بالمقام حتى يأتيَه أمرُه، ثم كتب إليه قبل أن يوجّه خالداً بأيام إلى اليمامة: إذا قدم عليك خالدٌ، ثم فرغتم إن شاء الله فالحق بقُضاعة؛ حتى تكونَ أنت وعمرو بن العاص على مَنْ أبَى منهم وخالف. فلمّا قدِم خالدٌ على أبي بكر من البُطاحرضيَ أبو بكر عن خالد، وسَمِع عذْره وقَبِل منه وصدّقه ورضي عنه، ووجّهه إلى مُسيَلمة وأوعب معه الناس. وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبَراء بن فلان، وعلى المهاجرين أبو حذَيفة وزيد، وعلى القبائل؛ علَى كلّ قبيلة رجلً. وتعجَّل خالد حتى قدِم على أهلِ العسكر بالبُطاح، وانتظر البعث الذي ضرِب بالمدينة؛ فلمّا قدِم عليه نهض حتّى أتى اليَمامة وبنو حَنيفة يومئذ كثير.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمرو بن العلاء، عن رجال، قالوا: كان عددُ بني حنِيفة يومئذ أربعين ألف مقاتل؛ في قُراها وحُجَرها، فسار خالد حتى إذا أظلّ عليهم أسندَ خيولاً لعَقّة والهُذيل وزياد؛ وقد كانوا أقاموا على خَرْج أخرجَه لهم مُسيلمة ليلحقوا به سجاح. وكتب إلى القبائل من تميم فيهم؛ فنفّروهم حتى أخرجوهم من جزيرة العرب، وعجَّل شُرحبيل بن حسنة، وفعل فِعْل عِكْرمة، وبادر خالداً بقتال مُسيْلمة قبل قدوم خالد عليه؛ فنُكِب، فحاجَزَ؛ فلمّا قدم عليه خالد لامَهُ؛ وإنّما أسْنَد خالد تلك الخيول مخافَةَ أن يأتُوه من خَلْفه؛ وكانوا بأفْنِيَةِ اليمامة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد بن ثابت، عمّن حدّثه، عن جابر بن فلان، قال: وأمَدّ أبو بكر خالداً بسَليط؛ ليكون رِدْءاً له مِن أن يأتِيَه أحدٌ من خَلْفه؛ فخرج؛ فلمّا دنا من خالد وجد تلك الخيول الّتي انتابت تلك البلاد قد فُرّقوا؛ فهربوا، وكان منهم قريباً رِدْءاً لهم؛ وكان أبو بكر يقول: لا أستعمل أهل بدر؛ أدَعُهم حتى يلقوا الله بأحسنِ أعمالهم؛ فإنّ الله يدفع بهم وبالصُّلَحاء من الأمم أكثرَ وأفضلَ

ممَّا ينتصر بهم؛ وكان عمر بن الخطاب يقول: والله لأشرِكنَّهم وليُواسُنِّني.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن عُبيد بن عمير، عن أثال الحنفيّ ـ وكان مع ثمامة بن أثال ـ قال: وكان مُسيلمة يصانع كلّ أحد ويتألّفه ولا يبالي أن يطّلع الناس منه على قبيح؛ وكان معه نهار الرَّجّال بن عُنْفُوَةَ، وكان قد هاجر إلى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وقرأ القرآن؛ وُفقّه في الدّين، فبعثه مُعلّماً لأهل اليمامة وليشْغَب على مُسيلمة، وليشدّد مِنْ أمر المسلمين؛ فكان أعظمَ فتنةً على بني حَنيفَة مِنْ مُسيلمة؛ شهد له أنَّه سمع محمَّداً ﷺ يقول: إنه قد أشرك معه؛ فصدّقوه واستجابوا له، وأمروه بمكاتبة النبيّ ﷺ، ووعدُوه إن هو لم يقبل أن يُعينوه عليه؛ فكان نهار الرَّجّال بن عَنْفوة لا يقول شيئاً إلاّ تابعه عليه؛ وكان ينتهي إلى أمره، وكان يؤذّن للنبيّ ﷺ، ويشهد في الأذان أنَّ محمداً رسول الله؛ وكان الَّذي يؤذّن له عبد الله بن النَّوَاحة، وكان الذي يُقيم له حُجَيْر بن عُمَير، ويشهد له، وكان مسيلمة إذا دنا حُجَيْر من الشهادة، قال: صَرِّح حُجَير؛ فيزيد في صوته، ويبالغ لتصديق نفسه، وتصديق نهار وتضليل مَن كان قد أسلم؛ فعَظُمَ وَقَارُه في أنفسهم.

قال: وضرب حَرَماً باليمامة، فنهى عنه؛ وأخذ النَّاس به، فكان مُحَرَّماً فوقع في ذلك الحَرَم قُرَى الأحاليف؛ أفخاذ من بني أسَيِّد، كانت دارهم باليمامة؛ فصار مكان دارهم في الحَرَم ـ والأحاليف: سَيْحان ونُمارة ونمر والحارث بنو جُرْوة ـ فإن أخصبوا أغاروا على ثمار أهل اليمامة، واتَّخذوا الحَرَم دغَلا، فإن نَذِرُوا بهم فدخلوه أحجموا عنهم؛ وإن لم ينذِروا بهم فذلك ما يريدون. فكثر ذلك منهم حتى اسْتَعْدَوْا عليهم؛ فقال: أنتظر الَّذي يأتي من السماء فيكم وفيهم. ثم قال لهم: « والليل الأطحم، والذئب الأدلم. والجَذَع الأزلم، ما انتهكت أسَيّدٌ من مَحْرَم »؛ فقالوا: أما مَحْرم استحلالُ الحَرَم وفساد الأموال! ثم عادوا للغارة، وعادوا للعُدوى. فقال: أنتظر الذي يأتيني، فقال: « والليل الدّامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسَيِّد من رَطْب ولا يابس »؛ فقالوا: أمَّا النخيل مُرْطبة فقد جَدُّوها، وأمَّا الجدران يابسة فقد هَدَموها؛ فقال: اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم.

وكان فيما يقرأ لهم فيهم: « إنّ بني تميم قوم طهر لَقَاحٌ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة، نجاورهم ما حيينا بإحسان، نمنعهم من كلّ إنسان؛ فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن ».

وكان يقول: « والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها. والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب مَحْض، وقد حرِّم المذق، فما لكم لا تمجّعون! ».

وكان يقول: « يا ضفدع ابنة ضفدع، نُقِّي ما تَنقِّين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدّرين ».

وكان يقول: « والمبذِّرات زَرْعا، والحاصدات حَصْداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خُبزاً، والثاردات ثرداً؛ واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضِّلتُم على أهل الوَبر، وما سبقكم أهل المَدَر؛ رِيفكم فامنعوه، والمعترَّ فآووه، والباغي فناوئوه ».

قال: وأتته امرأة من بني حنيفة تكنى بأمّ الهيثم فقالت: إنّ نخلنا لسُحُق وإن آبارَنا لجُرُز؛ فادع الله لمائنا ولنخلنا كما دعا محمد لأهل هَزْمان ». فقال: يا نَهارُ ما تقول هذه؟ فقال: إنّ أهل هَزْمان أتوْا محمداً ﷺ فشكَوْا بُعْد مائهم؛ ـ وكانت آبارهم جُرزاً ـ ونخلهم أنَّها سُحُق، فدعا لهم فجاشت آبارهم، وانْحَنَتْ كلّ نخلة قد

انتهت حتى وضعت جِرانها لانتهائها، فحكَّت به الأرض حتى أَنْشَبَتْ عروقاً ثم قُطعت من دون ذلك، فَعَادت فسيلا مكمَّماً ينمى صاعداً. قال: وكيف صنع بالآبار؟ قال: دَعا بسجل، فدعا لهم فيه، ثم تمضمضَ بفمِه منه، ثم مَجَّهُ فيه، فانطلقوا به حتى فرّغوه في تلك الآبار، ثم سَقَوه نخلهم، ففعل النبيّ ما حدَّثتك، وبقي الآخر إلى انتهائه. فدعا مُسيلمة بدلْوٍ من ماء فدعا لهم فيه، ثم تمضمض منه، ثم مجّ فيه فنقلوه فأفرغوه في آبارهم. فغارت مياه تلك الآبار، وخَوَى نخلُهم؛ وإنما استبان ذلك بعد مهلكه.

وقال له نهار: بَرِّكْ على مولودي بني حنيفة، فقال له: وما التبريك؟ قال: كان أهلُ الحجاز إذا ولد فيهم المولود أتَوْا به محمداً ﷺ فحنَّكه ومسح رأسه؛ فلم يؤتَ مسيلمة بصبيّ فحنّكه ومسح رأسه إلاّ قَرِع ولَثِغ واستبان ذلك بعد مهلَكه.

وقالوا: تَتَبَّعْ حيطَانهم كما كان محمد ﷺ يصنع فصلّ فيها. فدخل حائطاً من حوائط اليمامة، فتوضّأ، فقال نهار لصاحب الحائط: ما يمنعك من وَضُوء الرحمن فتسقِيَ به حائطَك حتى يَرْوَى ويبتلّ، كما صنع بنو المهريَّة، أهل بيت من بني حنيفة ـ وكان رجل من المهريَّة قدم على النبيّ ﷺ فأخذ وَضُوءَه فنقله معه إلى اليمامة فأفرغه في بئره، ثم نزع وسقى، وكانت أرضه تَهُوم فرويتْ وجَزأَتْ فلم تُلْفَ إلا خضْرَاء مُهْتَزّةٌ ـ ففعل فعادت يَبَاباً لا ينبت مرعاها.

وأتاه رجُلٌ فقال: ادْعُ الله لأرضي فإنَّها مُسْبخةٌ؛ كما دعا محمد ﷺ لسُلميّ على أرضه. فقال: ما يقول يا نهار؟ فقال: قدم عليه سلمي، وكانت أرضه سبخة فدعا له، وأعطاه سَجْلا من ماء، ومجّ له فيه، فأفرغه في بئره، ثم نزع، فطابت وعَذُبَتْ؛ ففعل مثل ذلك فانطلق الرّجُل، ففعل بالسَّجْل كما فعل سلمي، فغرقت أرضه، فما جفّ ثراها، ولا أدرك ثمرها.

وأتته امرأة فاستجلبته إلى نَخْل لها يدعو لها فيها، فجزّت كبائسها يوم عَقْرَباء كلَّها؛ وكانوا قد علموا واستبان لهم؛ ولكن الشَّقاء غلَب عليهم.

كتب إليّ السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن خُلَيد بن ذفرة النَّمِريّ، عن عمير بن طلحة النَّمِريّ، عن أبيه، أنَّه جاء اليمامة، فقال: أين مُسيلمة؟ قالوا: مه رسول الله! فقال: لا، حتَّى أراه؛ فلمَّا جاءه، قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: مَنْ يأتيك؟ قال: رحمن، قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنَّك كذاب وأنّ محمداً صادق؛ ولكنّ كَذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادقِ مُضَر، فقتِل معه يوم عقرَباء.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن الكلبي مثله؛ إلاّ أنه قال: كذّاب ربيعة أحبّ إليّ من كذّاب مضر.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن عبيد بن عمير، عن رجل منهم، قال: لما بلغ مسيلمة دنوُّ خالد، ضرب عسكره بعقرَباء، واستنفر الناس، فجعل النَّاس يخرجون إليه، وخرج مجّاعة بن مُرارة في سرّية يطلب ثأراً له في بني عامر وبني تميم قد خاف فواته، وبادر به الشغل، فأمَّا ثأره في بني عامر فكانت خَوْلة ابنة جعفر فيهم، فمنعوه منها، فاختلجها؛ وأما ثأره في بني تميم فنعَمٌ أخذُوا له. واستقبل

خالدُ شُرَحبيل بن حَسَنة، فقدمه وأمّر على المقدمة خالد بن فلان المخزوميّ، وجعل على المجنَّبَتَيْن زيداً وأبا حُذَيفة، وجعل مُسَيلمة على مجنَّبتيه المحكَّم والرَّجَّال، فسار خالد ومعه شُرَحبيل، حتى إذا كان من عسكر مسيلمة على ليلة، هجم على جُبيلة هجوم ـ المقلِّل يقول: أربعين، والمكثِّر يقول: ستين ـ فإذا هو مجّاعة وأصحابه، وقد غَلَبهم الكَرَى، وكانوا راجعين من بلاد بني عامر، قد طوَوْا إليهم؛ واستخرجوا خَوْلة ابنة جعفر فهي معهم، فعرّسوا دون أصل الثَّنية؛ ثَنِّية اليمامة، فوجدوهم نياماً وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم وهم لا يشعرون بقرب الجيش منهم؛ فأنبهوهم، وقالوا: مَن أنتم؟ قالوا: هذا مجّاعة وهذه حنيفة، قالوا: وأنتم فلا حيّاكم الله! فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد، فأتَوْه بهم؛ فظنّ خالد أنهم جاءوه ليستقبلوه وليتّقوه بحاجته، فقال: متى سمعتم بنا؟ قالوا: ما شَعَرْنا بك؛ إنَّما خرجنا لثأر لنا فيمَن حولنا من بني عامر وتميم، ولو فطنوا لقالوا: تلقّيناك حين سمعنا بك. فأمر بهم أن يقتلوا، فجادوا كلُّهُم بأنفسهم دُون مَجّاعَة بن مرارة، وقالوا: إن كنتَ تريد بأهل اليمامة غداً خيراً أو شرّاً فاستبق هذا ولا تقتله؛ فقتلهم خالد وحبس مجّاعة عنده كالرَّهينة.

كتب إليّ السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن طلحة، عن عِكْرمة، عن أبي هريرة، وعبد الله بن سَعيد عن أبي سعيد عن أبي هريرة، قال: قد كان أبو بكر بعثَ إلى الرجَّال فأتاه فأوصاه بوصيَّته، ثم أرسله إلى أهل اليمامة؛ وهو يرى أنّه على الصدق حين أجابه. قالا: قال أبو هريرة: جلستُ مع النبيّ ﷺ في رهط معنا الرَّجّال ابن عُنْفوة، فقال: إنّ فيكم لرجلاً ضِرْسه في النار أعظم من أحُد، فهلك القوم وبقيت أنا والرّجال، فكنت متخوّفاً لها؛ حتى خرج الرَّجّال مع مُسيلمة، فشهد له بالنبوّة؛ فكانت فتنة الرَّجّال أعظَم من فتنة مُسَيلمة، فبعث إليهم أبو بكر خالداً، فسار حتى إذا بلغ ثنيّة اليَمامة، استقبل مجّاعة ابن مُرارَة ـ وكان سيّد بني حنيفة ـ في جِبلّ من قومه، يريد الغارة على بني عامر، ويطلبُ دماً، وهم ثلاثة وعشرون فارساً ركباناً قد عرّسوا. فبيّتهم خالد في معرَّسهم، فقال: مَتَى سمعتم بنا؟ فقالوا: ما سمعنا بكم؛ إنَّما خرجنا لنثأر بدم لنا في بني عامر. فأمر بهم خالد فضربتْ أعناقهم، واستحيَا مجّاعة؛ ثم سار إلى اليمامة؛ فخرج مسيلمة وبنو حَنيفة حين سمعوا بخالد، فنزلوا بعقرباء، فحلّ بها عليهم ـ وهي طرف اليمامة دون الأموال ـ وريف اليمامة وراء ظهورهم. وقال شُرحبيل بن مُسيلمة: يا بني حنيفة، اليومَ يومُ الغَيْرة، اليوم إن هزمتم تستردَفُ النّساء سبيَّات، ويُنْكحْن غير خطيبات؛ فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم. فاقتتلوا بعقَرباء، وكانت رايةُ المهاجرين مع سالم مولَى أبي حذيفة، فقالوا: تخشى علينا من نفسك شيئاً! فقال: بئس حامل القرآن أنا إذاً! وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شمّاس، وكانت العرب على راياتها ومجّاعة أسيرٌ مع أمّ تميم في فُسطاطها. فجال المسلمون جَوْلَةً، ودخل أناس من بني حَنيفة على أمّ تميم، فأرادوا قتلَها، فمنعها مجّاعة. قال: أنا لها جارٌ، فنِعْمَتِ الحُرَّة هي! فدفعهم عنها، وترادَّ المسلمون، فكرُّوا عليهم؛ فانهزمت بنو حنيفة، فقال المحكّم بن الطّفيْل: يا بني حنيفة، ادخلوا الحديقة؛ فإني سأمنع أدباركم، فقاتَل دونهم ساعة ثم قتله الله؛ قتله عبد الرحمن بن أبي بكر؛ ودخل الكفار الحديقة، وقتَل وحشيّ مسيلمة، وضربه رجلٌ من الأنصار فشاركه فيه.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، بنحو حديث سيف هذا؛ غير أنه قال: دعا خالد بمجّاعةومَنْ أخذ معه حين أصبح، فقال: يا بني حنيفة، ما تقولون؟ قالوا: نقول: منّا نبيٌّ ومنكم نبيٌّ؛ فعرضَهم على السيف؛ حتى إذا بقيَ منهم رجلٌ يقال له سارية بن عامر ومجّاعة بن مُرارة، قال له سارية: أيّها

الرّجل؛ إن كنتَ تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شرّاً، فاستبقِ هذا الرجل ـ يعني مجّاعة ـ فأمر به خالد فأوثقه في الحديد؛ ثم دفعه إلى أمّ تميم امرأته، فقال: استوصي به خيراً، ثم مضى حتى نزل اليَمامة على كثيب مشرِف على اليمامة، فضرب به عسكره، وخرج أهل اليمامة مع مسيلمة وقد قدم في مقدمته الرّجَّال ـ قال أبو جعفر، هكذا قال ابن حميد بالحاء ـ بن عُنْفوة بن نهشل، وكان الرّجّال رجلاً من بني حنيفة قد كان أسلم، وقرأ سورة البقرة، فلمّا قدم اليمامة شهد لمسيلمة أنّ رسولَ الله ﷺ قد كان أشركه في الأمر؛ فكان أعظَمَ على أهل اليمامة فتنةً من مسيلمة؛ وكان المسلمون يسألون عن الرّجّال يرجون أنه يَثْلم على أهل اليمامة أمرهم بإسلامه، فلقيَهم في أوائل النّاس متكتّباً، وقد قال خالد بن الوليد وهو جالس على سريره، وعنده أشراف الناس والنّاس على مصافّهم؛ وقد رأى بارقة في بني حنيفة: أبشروا يا معشَر المسلمين؛ فقد كفاكم الله أمر عدوّكم. واختلف القوم إن شاء الله؛ فنظر مجّاعة وهو خلْفَه موثَقاً في الحدِيد، فقال: كلاّ والله، ولكنها الهُنْدُوانيّة خَشُوا عليها من تحطُّمها، فأبرزوها للشمسِ لتَلين لهم؛ فكان كما قال. فلما التقى المسلمون كان أوّل من لقيَهم الرّجال بن عُنْفُوة، فقتله الله.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن شيخ من بني حنيفة، عن أبي هريرة، أنّ رسولَ الله ﷺ قال يوماً ـ وأبو هريرة ورجَّال بن عُنْفوة في مجلس عنده: «لضِرْسُ أحدكم أيّها المجلس في النار يوم القيامة أعظم من أُحُد». قال أبو هريرة: فمضى القوم لسبيلهم، وبقيتُ أنا ورجَّال بن عُنفوة، فما زلت لها متخوّفاً؛ حتى سمعت بمخرَج رجّال، فأمنت وعرفت أنّ ما قال رسولُ الله ﷺ حقّ.

ثم التقى الناس ولم يلقهم حَرْبٌ قطّ مثلَها من حرب العرب؛ فاقتتل النّاس قتالاً شديداً؛ حتى انهزمَ المسلمون وخلَص بنو حنيفة إلى مجّاعة وإلى خالد، فزال خالد عن فُسطاطه ودخل أناس الفسطاطَ وفيه مجّاعة عند أم تميم، فحمل عليها رجل بالسيف، فقال مجّاعة: مَهْ، أنا لها جارٌ، فنعْمَت الحُرَّة! عليكم بالرجال، فرَعبَلوا الفُسْطاط بالسيوف. ثم إنّ المسلمين تَداعَوْا، فقال ثابت بن قيس: بئسَما عَوَّدْتم أنفسَكم يا معشر المسلمين! اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممَّا يَعْبُد هؤلاء ـ يعني أهل اليمامة ـ وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ ثم جالد بسيفه حتى قُتِل. وقال زيد بنَ الخطاب حين انكشف الناس عن رحالهم: لا تحوُّزَ بعد الرّحال، ثم قاتل حتى قتِل. ثم قام البَرَاءُ بن مالك أخو أنس بن مالك ـ وكان إذا حضر الحرب أخذته العُرَوَاء حتى يقعد عليه الرجال؛ ثم ينتفض تحتهم حتى يبولَ في سراويله؛ فإذا بال يثورُ كما يثور الأسد ـ فلمّا رأى ما صنع الناس أخذه الذي كان يأخذه حتى قعد عليه الرجال، فلمّا بال وثَب، فقال: أين يا معشر المسلمين! أنا البراءُ بن مالك، هلمّ إليّ! وفاءَتْ فئة من النَّاس، فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله، وخَلَصوا إلى مُحكَم اليمامة ـ وهو مُحكَم بن الطُّفيل فقال حين بلغه القتال: يا معشَر بني حنيفة، الآنَ والله تُستحْقَب الكرائم غيرَ رضِيَّات، ويُنكحن غير خطيبات؛ فما عندكم من حَسَب فأخرجوه. فقاتل قتالاً شديداً؛ ورماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدّيق بسهم فوضعه في نحره فقتله. ثم زحف المسلمون حتى ألجؤوهم إلى الحديقة؛ حديقة الموت؛ وفيها عدوّ الله مُسيلمة الكذاب، فقال البرَاء: يا معشَر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة. فقال الناس: لا تفعل يا بَرَاء، فقال: والله لتطرُحنّي عليهم فيها؛ فاحتمِل حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار؛ اقتحم فقاتلهم عن باب الحديقة، حتى فتحها للمسلمين، ودخل المسلمون عليهم فيها؛ فاقتتلوا حتى قتل الله مسيلمة عدوّ الله؛

واشترك في قتله وَحْشيٌّ مولى جُبَيْر بن مطعم ورجل من الأنصار، كلاهما قد أصابه؛ أمّا وحشيٌّ فدفع عليه حرَبته، وأمّا الأنصاريُّ فضربَه بسيفه، فكان وحشيّ يقول: ربّك أعلم أيّنا قتله!

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: وحدّثني محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن الفضل بن العباس بن ربيعة، عن سليمان بن يسار، عن عبد الله بن عُمَر، قال: سمعتُ رجلًا يومئذ يصرُخ يقول، قتله العبد الأسود!

كتبَ إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلْحة، عن عبيد بن عُميْر، قال: كان الرّجالُ بحيال زيد بن الخطاب؛ فلَمّا دنا صَفّاهما، قال زيد: يا رجّال، الله الله! فوالله لقد تركت الدّين، وإن الذي أدعوك إليه لأشرفُ لك، وأكثرُ لدنياك فأبى، فاجتلدا فقُتِل الرجّال وأهل البصائر من بني حنيفة في أمر مسيلمة، فتذامروا وحمل كلُّ قوم في ناحيتهم؛ فجال المسلمون حتى بلغوا عسكرَهم، ثم أعْرَوْه لهم، فقطعُوا أطناب البيوت، وهتكُوها، وتشاغلوا بالعسكر، وعالجوا مجّاعة؛ وهَمّوا بأمّ تميم، فأجارها، وقال: نِعْمَ أمُّ المَثْوَى! وتذامر زيْدٌ وخالد وأبو حذيفة، وتكلّم النّاس ـ وكان يوم جنوب له غبار ـ فقال زيد: لا والله لا أتكلّم اليوم حتى نهزمهم أو ألقَى الله فأكلمه بحُجتي! عضُّوا على أضراسكم أيّها الناس، واضربوا في عدوّكم، وامضوا قُدماً. ففعلوا، فَردّوهم إلى مصافّهم حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عسكرهم، وقُتل زيد رحمه الله. وتكلّم ثابت فقال: يا معشرَ المسلمين، أنتم حزْبُ الله وهم أحزاب الشيطان، والعزّة لله ولرسوله ولأحزابه، أرُوني كما أرِيكم، ثم جلد فيهم حتى حازهم. وقال أبو حذيفة: يا أهلَ القرآن، زَيِّنوا القرآن بالفَعال. وحمل فحازهم حتى أنفذهم، واصيب رحمه الله، وحمل خالد بن الوليد، وقال لحُماته: لا أوتينَّ مِن خلفي. حتى كان بحيال مسيلمة يطلب الفُرْصة ويرْقب مسيلمة.

كتب إليّ السري، عن شعيب، عن سيف، عن مُبَشّر بن الفُضَيْل، عن سالم بن عبد الله، قال: لمّا أعْطِيَ سالم الراية يومئذ، قال: ما أعلمَني لأيّ شيء أعطيتمونيها! قلتم: صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات! قالوا: أجل. وقالوا: فانظر كيف تكون؟ فقال: بئس والله حامل القرآن أنا إن لم أثبت! وكان صاحبُ الراية قبله عبدَ الله بن حفص بن غانم.

وقال عبد الله بن سعيد بن ثابت وابن إسحاق: فلمّا قال مجّاعة لبني حَنيفة: ولكن عليكم بالرّجّال؛ إذا فئة من المسلمين قد تذامروا بينهم فتَفَانَوْا وتفانَى المسلمون كلّهم، وتكلّم رجالٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال زيد بن الخطاب: والله لا أتكلّم أو أظفر أو أقتل، واصنعوا كما أصنعُ أنا؛ فحمل وحمل أصحابه. وقال ثابت بن قيس: بِئسَما عَوّدتم أنفسكم يا معشر المسلمين! هكذاعَنِّي حتى أريكم الجلاد. وقُتِل زيد بن الخطاب رحمه الله.

كتب إليّ السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن مبشّر، عن سالم، قال: قال عمر لعبد الله بن عمر حين رجع: ألاّ هلكت قبل زيد! هلك زيد وأنت حَيّ! فقال: فقد حَرَصتُ على ذلك أن يكون، ولكنّ نفسي تأخّرَت، فأكرمه الله بالشّهادة. وقال سهل: قال: ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألاّ واريتَ وجهك عنّي! فقال: سأل الله الشهادة فأعطيها، وجهدتُ أن تُساقَ إليّ فلم أعْطَها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة بن الأعْلم، عن عُبيد بن عمير: إنّ

المهاجرين والأنصار جَبَّنوا أهلَ البوادي وجَبَّنهم أهلُ البوادي، فقال بعضهم لبعض: امتازوا كي نُسْتحْيَا من الفرار اليوم، ونعرف اليوم من أين نؤتى! ففعلوا. وقال أهلُ القرى: نحن أعلم بقتال أهل القُرى يا معشرَ أهلِ البادية منكم، فقال لهم أهل البادية: إنّ أهل القرى لا يحسنون القتال، ولا يدرون ما الحرب! فستَرَوْن إذا امتزنا من أين يجيء الخلل! فامتازوا، فما رُئِيَ يوم كان أحدّ ولا أعظم نكايةً مما رُئيَ يومئذ؛ ولم يُدْرَ أيّ الفريقين كان أشدّ فيهم نكاية! إلاّ أن المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية، وأنّ البقيَّة أبداً في الشّدة. ورَمى عبدُ الرّحمن بن أبي بكر المحكَّم بسهم فقتله وهو يخطب، فنحره وقَتل زيدُ بن الخطاب الرجَّال بن عُنْفوة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الضحاك بن يربوع، عن أبيه، عن رجل من بني سُحَيْم قد شهدها مع خالد، قال: لمّا اشتدَّ القتال ـ وكانت يومئذ سِجَالا إنّما تكون مرة على المسلمين ومرّة على الكافرين ـ فقال خالد: أيُّها الناس امتازوا لنعلمَ بلاء كلّ حيّ، ولنعلم من أين نؤتى! فامتاز أهلُ القُرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر؛ فوقف بنو كلّ أب على رايتهم، فقاتلوا جميعاً، فقال أهل البَوادي يومئذ: الآن يستحرّ القتل في الأجزع الأضعف، فاستحرّ القتل في أهل القرى، وثبت مسيلمة، ودارت رحاهم عليه، فعرف خالدٌ أنّها لا تركُد إلاّ بقتل مسيلمة؛ ولم تَحْفل بنو حنيفة بقتل مَن قتل منهم. ثم برز خالد، حتى إذا كان أمام الصّفّ دعا إلى البِراز وانتمى، وقال: أنا ابنُ الوليد العوْد، أنا ابن عامر وزيد!. ونادى بشعارهم يومئذ، وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه! فجعل لا يبرز له أحدٌ إلا قتله، وهو يرتجز:

أَنَــا ابـنُ أَشيــاخ وَسَيْفِي السَّخْـتْ   أَعْــظَمُ شيء حيـن يــأتيـك الـنَّفْـتْ

ولا يبرُز له شيء إلا أكله، ودارت رحا المسلمين وطحنت. ثم نادى خالد حين دنا من مُسَيلِمة ـ وكان رسول الله ﷺ قال: إنّ مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه، فإذا اعتراه أزْبَدَ كأنّ شِدْقيه زَبيبتَان لا يهمّ بخير أبداً إلا صَرفه عنه، فإذا رأيتم منه عَوْرة؛ فلا تُقيلوه العَثْرةَ ـ فلمّا دنا خالدٌ منه طلب تلك، ورآه ثابتاً ورحاهم تَدور عليه؛ وعرف أنّها لا تزول إلا بزواله، فدعا مسيلمة طلباً لعورته، فأجابه، فعرض عليه أشياءَ ممّا يشتهي مسيلمة، وقال: إن قبِلنا النّصف، فأيَّ الأنصاف تعطينا؟ فكان إذا همَّ بجوابه أعرض بوجهه مستشيراً، فينهاه شيطانه أن يقبلَ، فأعرضَ بوجهه مرّة من ذلك؛ وركبه خالدٌ فأرهقه فأدبر، وزالوا فذمَرَ خالد النَّاس، وقال: دونكم لا تقيلوهم! وركبوهم فكانت هزيمتهم؛ فقال مسيلمة حين قام، وقد تطاير النَّاس عنه، وقال قائلون: فأين ما كنتَ تَعِدُنا؟ فقال: قاتِلُوا عن أحسابكم، قال: ونادى المحكّم: يا بني حنيفة؛ الحديقة الحديقة! ويأتي وحشيٌّ على مسيلمة وهو مُزْبِدٌ متساندٌ لا يعقل من الغيظ، فخرَط عليه حربَته فقتله، واقتحم النَّاس عليهم حديقةَ الموت من حيطانها وأبوابها، فقُتِل في المعركة، وحديقة الموت عشرة آلاف مقاتل.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن هارون، وطلحة، عن عمرو بن شعيب وابن إسحاق أنهم لما امتازوا وصبروا، وانحازت بنو حنيفة تبعهم المسلمون يقتلونهم؛ حتى بلَغوا بهم إلى حديقة الموت، فاختلفوا في قتل مُسيلمةَ عندها، فقال قائلون: فيها قُتل، فدخلوها وأغلقوها عليهم، وأحاط المسلمون بهم وصرخ البَراء بن مالك، فقال: يا معشَر المسلمين، احملوني على الجِدَار حتى تطرحوني عليه؛ ففعلوا حتى إذا وضعوه على الجِدار نظر وأرْعِد فنادى: أنزلوني، ثم قال: احملوني؛ ففعل ذلك مراراً ثم قال: أفّ لهذا خَشِعا!

ثم قال: احمِلوني، فلمّا وضعوه على الحائط اقتحم عليهم، فقاتلهم على الباب حتّى فتحه للمسلمين وهم على الباب من خارج فدخلوا؛ فأغلق الباب عليهم، ثم رمَى بالمفتاح من وراء الجدار، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يَروا مثله، وأبير مَن في الحديقة منهم؛ وقد قتل الله مسيلمة، وقالت له بنو حنيفة: أين ما كنت تعدنا! قال: قاتلوا عن أحسابكم!

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن هارون وطلحة وابن إسحاق، قالوا: لمّا صرخ الصارخ أنّ العبد الأسود قتل مسيلمة؛ خرج خالد بمجّاعة يرسُفُ في الحديد ليُرِيَه مُسيْلمة، وأعلام جنده، فأتى على الرجَّال فقال: هذا الرجَّال!

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: لمّا فَرَغ المسلمون من مُسيلِمة أُتِي خالد فأخبِر، فخرج بمجَّاعة يرسفُ معه في الحديد ليَدلَّه على مُسَيلمَة، فجعل يكشِف له القتلى حتى مرّ بمحكَّم بن الطُّفيَل ـ وكان رجلاً جسيماً وَسِيماً ـ فلما رآه خالد، قال: هذا صاحبكم. قال: لا، هذا والله خيرٌ منه وأكرم، هذا محكَّم اليمامة. قال: ثمّ مضى خالد يكشف له القتلى حتى دخَل الحديقة، فقلّب له القتلى؛ فإذا رُوَيْجل أصَيْفر أخينس. فقال مجّاعة: هذا صاحبكم، قد فَرَغتم منه، فقال خالد لمجّاعة: هذا صاحبكم الّذِي فعل بكم ما فعل، قال: قد كان ذلك يا خالد، وإنّه والله ما جاءك إلاّ سَرَعان الناس؛ وإنّ جماهير النّاس لفي الحصون. فقال: ويلك ما تقول! قال: هو والله الحقّ؛ فهلمّ لأصالِحك على قومي.

كتبَ إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الضّحاك، عن أبيه، قال: كان رجلٌ من بني عامر بن حنيفة يُدْعى الأغلب بن عامر بن حنيفة، وكان أغلظَ أهلِ زمانه عُنُقاً؛ فلمّا انهزم المشركون يومئذ، وأحاط المسلمون بهم، تَمَاوَتَ، فلمّا أثبَت المسلمون في القتلى أتى رجلٌ من الأنصار يكنى أبا بَصيرة ومعه نفرٌ عليه، فلمّا رأوه مُجدَّلا في القتلى وهم يحسبونه قتيلا، قالوا: يا أبا بصيرة، إنَّك تزعم ـ ولم تزل تزعم ـ أنّ سيفك قاطع، فاضرب عنُق هذا الأغلب الميّت، فإنْ قطعته فكلّ شيء كان يبلغنا حقّ، فاخترطه ثمّ مشى إليه ولا يروْنه إلاّ ميتاً، فلمّا دنا منه ثار، فحاضره، واتّبعه أبو بصيرة، وجعل يقول: أنا أبو بصيرة الأنصاريّ! وجعل الأغلب يتمطّر ولا يزداد منه إلا بُعْداً؛ فكلّما قال ذلك أبو بصيرة، قال الأغلب: كيف ترى عَدْوَ أخيك الكافر! حتى أفلت.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: لمّا فرغ خالد من مُسيْلمة والجند، قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر: ارتحِلْ بنا وبالنَّاس فانزل على الحصون، فقال: دعاني أبُثّ الخيولَ فألقط مَن ليس في الحصون، ثم أرى رأيي. فبثّ الخيول فَحَوَوْا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان، فضمّوا هذا إلى العسكر، ونادى بالرّحيل لينزل على الحصون، فقال له مجّاعة: إنّه والله ما جاءك إلاّ سَرَعان الناس، وإنّ الحصون لمملوءة رِجالاً، فهلّم لك إلى الصُّلح على ما ورائي، فصالحه على كلّ شيء دون النفوس. ثم قال: أنطلقُ إليهم فأشاورهم وننظر في هذا الأمر؛ ثمّ أرجع إليك. فدخل مجّاعة الحصون، وليس فيها إلاّ النساء والصبيان ومشيخة فانية، ورجال ضَعْفَى فظَاهَر الحديد على النساء وأمرهنّ أن ينشرن شعورهنّ، وأن يُشْرِفْن على رؤوس الحصون حتى يرجع إليهنّ؛ ثم رجع فأتى خالداً فقال: قد أبَوْا أن يُجيزوا ما صنعتُ، وقد أشرف لك بعضهم نقضاً عليَّ وهم منّي بُرَآء. فنظر خالد إلى رؤوس الحصون وقد

اسودّت، وقد نَهَكَت المسلمين الحرب، وطال اللقاء؛ وأحبُّوا أن يرجعوا على الظَّفَر، ولم يدروا ما كان كائناً لو كانَ فيها رجال وقتال، وقد قتِل من المهاجرين والأنصار من أهل قصَبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون. قال سهل: ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلثمائة من هؤلاء وثلاثمائة من هؤلاء؛ ستمائة أو يزيدون. وقتل ثابت بن قيس يومئذ؛ قتله رجل من المشركين قُطعت رجلُه، فرمى بها قاتله فقتله، وقتِل من بني حنيفة في الفضاء بعَقْرَباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموت سبعة آلاف؛ وفي الطلب نحْوٌ منها.

وقال ضِرَارُ بن الأزْوَر في يوم اليمامة:

ولـو سُئِلتْ عنَّـا جَنُـوبُ لأخْبَـرَتْ ... عشيَّـةَ سـالَـتْ عَـقْـرَبـاءُ ومَـلْهَـمُ
وسـال بفَـرْعِ الـوادِ حتى تَـرَقْـرَقَتْ ... حجـارتُـه فيهـا من القوم بـالـدَّمِ
عشيَّـةَ لا تُغني الـرِّمـاحُ مكـانَـهـا ... ولا النَّبْـلُ إلَّا المَشْـرَفيُّ المُصَمِّـمُ
فـإن تَبْتَـغي الـكفَّـارَ غيـر مُلِيمَـةٍ ... جَنُـوب، فـإنِّي تـابـعُ الـدين مُسْلِمُ
أجـاهِـد إذ كـان الجهـادُ غنيمـةً ... ولَـلّهُ بـالـمَـرْءِ المجـاهـدِ أعـلَمُ

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: قال مجّاعة لخالد ما قال إذ قال له: فهلمّ لأصالحك عن قومي لرجل قد نهكتْه الحرب، وأصيب معه من أشرافِ الناس مَنْ أصيب؛ فقد رقّ وأحبّ الدَّعَةَ والصُّلْح. فقال: هلمّ لأصالحك، فصالحه على الصفراء والبَيْضاء والحَلْقة ونصف السِّبْي. ثم قال: إنّي آتـي القوم فأعرض عليهم ما قد صنعت. قال: فانطلق إليهم، فقال للنساء: الْبَسْنَ الحديد ثم أشْرِفنَ على الحصون، ففعلن. ثم رجع إلى خالد، وقد رأى خالدٌ الرِّجال فيما يرى على الحُصُون عليهم الحديد. فلمَّا انتهى إلى خَالد، قال: أبوْا ما صالحتُك عليه، ولكنْ إن شئتَ صنعت لك شيئاً، فعزمتُ على القوم. قال: ما هو؟ قال: تأخذُ مني رُبْعَ السَّبْي وتَدَعُ ربعاً. قال خالد: قد فعلت، قال: قد صالحتُك، فلمَّا فرغا فتحت الحصون، فإذا ليس فيما إلاّ النسّاء والصِّبْيان، فقال خالد لمجّاعة: ويحك خدعْتَنِي! قال: قـومي: لم أستطع إلا مـا صنعت.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، قال: قال مجّاعة يومئذ ثانية: إن شئت أن تقبل مني نِصْفَ السَّبْي والصَّفْراء والبيضاء والحلْقة والكُراع عزمت وكتبت الصُّلْحَ بيني وبينك. ففعل خالد ذلك، فصالحه على الصَّفْراء والبَيْضاء والحلْقة والكُراعِ وعلى نصف السبْي وحائط من كلّ قرية يختاره خالد، ومزرعة يختارها خالد. فتقاضَوْا على ذلك، ثم سرّحه، وقال: أنتم بالخيار ثلاثاً؛ والله لئن تُتِمُّوا وتقبلوا لأنهدَنّ إليكم، ثم لا أقبل منكم خَصْلة أبداً إلاّ القتل. فأتاهم مجّاعة فقال: أمَّا الآن فاقبلوا، فقال سلَمة بن عمير الحنَفي: لا والله لا نقبل؛ نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نقاضي خالداً، فإنّ الحصـون حصينة والطعام كثير، والشتاء قد حَضرَ. فقال مجّاعة: إنَّك امرؤٌ مشؤوم، وغرّك أنّي خدعت القوم حتى أجابوني إلى الصلح، وهل بقيَ منكم أحد فيه خيرٌ، أو به دَفْع! وإنَّما أنا بادرتكم قبل أن يصيبكم ما قال شـرحبيل بن مسيلمة، فخرج مجّاعة سابع سبعة حتى أتى خالداً، فقال: بعد شدّ ما رضوا؛ اكتب كتابك، فكتب:

هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجّاعة بن مـرارة وسلَمة بن عمـير وفلانـا وفلانـاً؛ قاضـاهم على

الصَّفْراء والبَيْضاء ونصف السَّبْي والحلْقة والكُراع وحائط من كلّ قرية؛ ومزرعة؛ على أن يُسْلموا. ثمّ أنتم آمنون بأمان اللهِ؛ ولكم ذمّة خالد بن الوليد وذمَّة أبي بكر رسولِ الله ﷺ، وذمّة المسلمين على الوفاء.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة، عن عِكْرمة، عن أبي هُريرة، قال: لمّا صالح خالد مجّاعة؛ صالَحه على الصَّفْراء والبيضاء والحلْقة وكلّ حائط رِضَانَا في كلّ ناحية ونصف المملوكين. فأبَوْا ذلك، فقال خالد: أنتَ بالخيار ثلاثةَ أيام، فقال سلَمة بن عُمَير: يا بني حَنِيفة، قاتِلُوا عن أحْسَابكم، ولا تصالحوا على شيء، فإنّ الحصْنَ حَصين، والطعام كَثير وقد حَضَرَ الشِّتاء. فقال مجّاعة: يا بني حَنِيفة، أطيعوني واعصُوا سلَمة، فإنّه رجلٌ مشؤوم، قبل أن يصيبَكم ما قال شُرَحبيل بن مسيلمة «قَبْل أن تُسْتَرْدف النساءغير رضِيَّات، وينكَحْن غير خطيبات». فأطاعوه وعَصَوْا سَلمة، وقبِلوا قضيَّته. وقد بعث أبو بكر رضي الله عنه بكتاب إلى خالد مع سلَمة بن سَلامة بن وقْش، يأمره إن ظفَّره الله عزّ وجلّ أن يقتل مَنْ جرَت عليه المواسي من بني حَنِيفة، فقدِم فوجده قد صالحهم، فوفَى لهم، وتمّ على ما كان منه، وحُشرت بنو حَنِيفة إلى البَيْعة والبَراءة ممَّا كانوا عليه إلى خالد، وخالد في عسكره؛ فلمّا اجتمعوا قال سلَمة بن عمير لمجّاعة: استأذِن لي على خالد أكلّمْه في حاجة له عندي ونصيحة ـ وقد أجمع أن يفتك به ـ فكلّمه فأذن له، فأقبل سلَمة بن عُمَير، مشتملاً على السيف يريد ما يريد، فقال: مَن هذا المقبل؟ قال مجّاعة: هذا الَّذي كلَّمتك فيه، وقد أذنت له، قال: أخرجُوه عنّي؛ فأخرجوه عنه، ففتشوه فوجدوا معه السيف، فلعنوه وشتموه وأوثقوه، وقالوا: لقد أردت أن تهلك قومك، وايم الله ما أردت إلا أن تُسْتَأْصَلَ بنو حنيفة، وتسبى الذريّة والنساء؛ وايم الله لو أن خالداً علم أنك حملت السلاح لقتلك، وما نأمنه إن بلغه ذلك أن يقتلك و أن يقتُل الرجال ويسبي النّساء بما فعلت؛ ويحسب أنّ ذلك عن مَلإٍ منّا. فأوثقوه وجعلوه في الحِصْن؛ وتتابع بنو حنيفة على البَراء ممّا كانوا عليه، وعلى الإسلام، وعاهدهم سَلَمة على ألاّ يُحدث حدثاً ويعفوه، فأبَوْا ولم يثِقُوا بحُمْقه أن يقبلوا منه عهداً، فأفلت ليلا؛ فعمَد إلى عسكر خالد، فصاح به الحرَس، وفزعتْ بنُو حنيفة، فاتّبعوه فأدركوه في بعض الحوائط، فشدّ عليهم بالسيف؛ فاكتنفوه بالحجارة، وأجال السيف على حلْقه فقطع أوداجَه، فسقط في بئر فمات.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الضحّاك بن يربوع، عن أبيه، قال: صالح خالدٌ بني حنيفة جميعاً إلاّ ما كان بالعرْض والقريّة فإنهم سُبُوا عند انبثاث الغارة، فبعث إلى أبي بكر ممَّن جَرَى عليه القسْمُ بالعِرْض والقُرَيَّة من بني حَنِيفة أو قيس بن ثعلبة أو يشكُر، خمسمائة رأس.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمَّد بن إسحاق، قال: ثمّ إن خالداً قال لمجَّاعة :زَوِّجني ابنَتك، فقال له مجَّاعة: مهلاً، إنَّك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك. قال: أيها الرجل، زَوِّجْني؛ فزوجّه؛ فبلغ ذلك أبا بكر، فكتب إليه كتاباً يقطر الدم: لعَمري يا بنَ أمّ خالد، إنك لفارغ تنكح النّساء وبفناء بيتك دَمُ ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجْففْ بعد! قال: فلمَّا نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأعَيْسر ـ يعني عمر بن الخطاب ـ وقد بعث خالد بن الوليد وفداً من بني حَنِيفة إلى أبي بكر، فقدِمُوا عليه، فقال لهم أبو بكر: وَيْحكم! ما هذا الذي استزلّ منكم ما استزّل! قالوا: يا خليفةَ رسول الله؛ قد كان الَّذي بلغك ممَّا أصابنا كان أمراً لم يبارك الله عزّ وجلّ له ولا لعشيرته فيه، قال: على ذلك، ما الَّذي دعاكم به! قالوا: كان يقول: «يا ضِفْدَع نقّي نِقّي، لا الشارِب تمنعين، ولا الماء تكدّرين؛ لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض؛ ولكنّ قريشاً قوم يَعْتدون».

قال أبو بكر: سبحان الله! ويحكم! إنّ هذا لكلامٌ ما خرج من إلّ ولا برّ، فأين يُذهب بكم! فلمّا فرغ خالد بن الوليد من اليمامة ـ وكان منزله الذي به التقى الناس أباض، واد من أودية اليمامة. ثم تحوّل إلى وادٍ من أوديتها يقال له الوَبَر ـ كان منزله بها.

ذكر خبر
أهل البَحْرَيْن وردّة الحُطَم وَمنْ تجمّع معه بالبحرين

قال أبو جعفر: وكان فيما بلَغنا من خبَرَ أهل البحرين وارتداد مَنِ ارتدّ منهم ما حدّثنا عبيد الله بن سعد، قال: أخبَرنا عَمّي يعقوب بن إبراهيم، قال: أخبرنا سَيْف، قال: خرج العَلاء بن الحضرمي نحو البحرين؛ وكان من حديث البحرْين أنّ النبيّ ﷺ والمنذر بن ساوى اشتكيا في شهر واحد، ثم مات المنذر بعد النبيّ ﷺ بقليل، وارتدّ بعده أهلُ البحرين، فأمّا عبد القيس ففاءت، وأمّا بكر فتمّت على رِدّتها؛ وكان الّـذي ثَنى عبدَ القيس الجارودُ حتى فاءوا.

حدّثنا عُبيد الله، قال: أخبَرنا عمّي، قال: أخبَرنا سيف، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن بن أبي الحسن، قال: قَدِم الجارود بن المُعَلَّى عَلَى النبيّ ﷺ مرتاداً، فقال: أسلِم يا جارود، فقال: إنّ لي ديناً، قال له النبيّ ﷺ: إنّ دينَك يا جارود ليس بشيء، وليس بدين؛ فقال له الجارود: فإنْ أنا أسلمت فما كان من تبِعة في الإسلام فعليك؟ قال: نعم. فأسلم ومكث بالمدينة حتى فقه. فلما أرادَ الخروج، قال: يا رسولَ الله، هل نجدُ عند أحد منكم ظهراً نتبلّغ عليه؟ قال: ما أصبح عندنا ظهر، قال: يا رسول الله؛ إنّا نَجِد بالطريق ضَوالّ من هذه الضوالّ، قال: تلك حَرَقُ النار، فإيّاك وإيّاها. فلّما قدم على قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلُّهم، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى مات النبي ﷺ. فقالت عبد القيس: لو كان محمدُ نبيّاً لما مات؛ وارتدوا، وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم، ثم قام فخَطَبهم، فقال: يا معشَر عبد القيس؛ إني سائلُكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ولا تجيبوني إن لم تَعْلموا. قالوا: سلْ عَمّا بدا لك، قال: تعلمون أنّه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأنّك سيِّدنا وأفضلُنا. وثبتوا على إسلامهم، ولم يبسطوا ولم يُبْسَط إليهم وخَلَّوْا بين سائر ربيعة وبـين المنذر والمسلمين، فكان المنذر مشتغلاً بهم حياته، فلمّا مات المنذر حُصِر أصحاب المنذر في مكانين حتى تنقّـذهم العلاء.

قال ابو جعفر: وأمّا ابن إسحاق فإنه قال في ذلك ما حدّثنا به ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة عنه، قال: لمّا فرغ خالد بن الوليد من اليَمامة بعث أبو بكر رضي الله عنه العَلاء بن الحضرميّ. وكان العَلاء هو الّذِي كان رسولُ الله ﷺ بعثه إلى المنذر بن ساوى العبدّي، فأسلم المنذر، فأقام بها العلاء أميراً لرسول الله ﷺ، فمات المنذر بن ساوى بالبحرين بعد متوفَّى رسولِ الله ﷺ، وكان عمرو بن العاص بعُمان، فتوفّي رسولُ الله ﷺ وعمرو بها فأقبل عمرو، فمرّ بالمنذر بن ساوى وهو بالموت فدخل عليه فقال المنذر له: كم كان رسُول الله ﷺ يجعل للميّت من المسلمين من ماله عند وفاته؟ قال عمرو: فقلت له: كان يجعل له الثّلُث؛ قال: فما ترى لِي أن

أصنع في ثلُث مالي؟ قال عمرو: فقلت له: إن شئت قسمتَه في أهل قرابتك، وجعلتَه في سبيل الخير؛ وإن شئت تصدّقت به فجعلته صدقةً مُحرّمة تجري من بعدك على مَنْ تصدّقت به عليه. قال: ما أحبّ أن أجعل من مالي شيئاً محرّماً كالبَحيرة والسّائبة والوَصِيلة والحامِي ولكن أقسمه، فأنفِذه على مَنْ أوصيتُ به له يصنع به ما يشاء.

قال: فكان عمرو يعجب لها من قوله. وارتدّت ربيعة بالبحرين فيمَن ارتدّ من العرب، إلا الجارود بن عمرو بن حَنَش بن مُعَلًّى؛ فإنه ثبت على الإسلام ومَن معه من قومه، وقامَ حين بلغته وفاة رسول الله ﷺ وارتداد العرب، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وأكفّر من لا يشهد. واجتمعت ربيعة بالبحرين وارتدّت، فقالوا: نردُّ المُلْك في آل المنذر، فملّكوا المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يُسَمّى الغَرور، وكان يقول حين أسلم وأسلم الناس وغلبهم السيف: لستُ بالغَرُور؛ ولكنّي المغرور.

حدّثنا عُبيد الله بن سعد، قال: أخبَرنا عمّي، قال: أخبرنا سَيفٌ، عن إسماعيل بن مسلم، عن عُمَير بن فلان العَبْدِيّ، قال: لمّا مات النبيّ ﷺ خرج الحُطَمُ بن ضُبَيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمَن اتّبعه من بكر بن وائل على الرّدّة، ومَنْ تأشّب إليه من غير المرتدّين ممّن لم يزل كافراً، حتى نزل القَطِيف وهَجَر، واستغوى الخطّ ومن فيها من الزُّطّ والسَّيابجة، وبَعث بعثاً إلى دارِين، فأقاموا له ليجعلَ عبدَ القَيْس بينه وبينهم، وكانوا مخالفين لهم، يمدُّون المنذر والمسلمين؛ وأرسل إلى الغَرور بن سُوَيد، أخي النعمان بن المنذر؛ فبعثه إلى جؤاثَى، وقال: اثبت، فإنّي إن ظفرت ملّكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة. وبعث إلى جؤاثى، فحصرهم وألحُّوا عليهم فاشتدّ على المحصورين الحصر، وفي المسلمين المحصورين رَجُل من صالح المسلمين يقال له عبد الله بن حذَف؛ أحد بني أبي بكر بن كِلاب، وقد اشتدّ عليه وعليهم الجوع حتى كادوا أن يهلكوا. وقال في ذلك عبد الله بن حَذَف:

ألا أبْلغْ أبا بَكْر رسولاً ... وفِتْيانَ المدينة أجمعينا
فهل لكُمُ إلى قومٍ كرامٍ ... قُعود في جؤاثى مُحصَرينا
كأنَّ دِماءَهُمْ في كلِّ فَجّ ... شُعاعُ الشَّمس يَغْشَى الناظرينا
توكّلْنا على الرّحمن إنّا ... وَجَدْنا الصَّبْرَ للمتوكّلينا

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن عطيّة بن بلال، عن سَهْم بن مِنْجاب، عن مِنْجاب بن راشد، قال: بعث أبو بكر العَلاء بن الحضرميّ على قتال أهل الرّدة بالبحرين؛ فلمّا أقبل إليها؛ فكان بحيال اليمامة، لحِقَ به ثُمامة بن أثال في مُسْلِمة بني حنيفة من بني سُحَيْم ومِن أهل القرى مِن سائر بني حنيفة، وكان متلدّداً، وقد ألحق عكرمة بُعمان ثم مَهْرة، وأمَر شُرحبيل بالمقام حيث انتهى إلى أن يأتَيه أمرُ أبي بكر، ثم يغاور هو وعمرو بن العاص أهل الرّدة من قُضاعة. فأمّا عمرو بن العاص فكان يُغاوِر سعداً وبَلِيّاً وأمَر هذا بكلْب ولِفّها، فلمّا دنا منّا ونحن في عُليا البلادِ لم يكن أحدٌ له فرس من الرِّباب وعمرو بن تميم إلاّ جنَبَه، ثم استقبله؛ فأمّا بنو حنظلة فإنّهم قدّموا رِجْلا وأخّروا أخرى. وكان مالك بن نُويرة في البُطاح ومعه جُموع يساجلنا ونساجله. وكان وكيع بن مالك في القَرْعاء معه جموع يُساجل عمرا وعمرو يساجلُه، وأمّا سعد بن زيد مناة فإنّهم كانوا فِرْقتين؛ فأمّا عوف والأبناء فإنّهم أطاعوا الزّبْرقان بن بدر، فثبتوا على إسلامهم وتمّوا وذَبُّوا عنه؛ وأمّا

المُقاعس والبُطون فإنَّها أصاخا ولم يتابعا؛ إلّا ما كان من قَيْس بن عاصم؛ فإنَّه قسّم الصدقات التي كانت اجتمعت إليه في المقاعس والبطون حين شخص الزِّبْرقان بصَدقاتِ عَوْفٍ والأبناء؛ فكانت عوف والأبْناء مشاغيل بالمُقاعس والبطون. فلمّا رأى قيس بن عاصم ما صنعت الرِّباب وعمرو منْ تلقّي العلاء نَدِم على ما كان فَرَط منه، فتلقّى العَلاء بإعداد ما كان قسم من الصدقات، ونزع عن أمره الَّذِي كان همَّ به، واستاق حتى أبلغها إياه، وخرج معه إلى قتال أهل البحرين؛ وقال في ذلك شعراً كما قال الزبرقان في صَدقته حين أبلغها أبا بكر؛ وكان الذي قال الزبرقان في ذلك:

وَفيتُ بأذْواد الرَّسُول وقد أبتْ ... سُعاةٌ فلمْ يَردُد بعيراً مُجيرُها
معاً ومَنعْناها منَ النَّاسِ كلِّهمُ ... تَرامِي الأعادي عِنْدَنا ما يضيرُها
فأدَّيْتُها كَيْ لا أخُونَ بِذمَّتِي ... مَحانِيق لم تُدرَسْ لِركبٍ ظهورُها
أردتُ بها التَّقْوَى ومَجْد حديثِها ... إذا عُصْبَة سامَى قَبيلى فَخُورُها
وإني لَمِنْ حَيّ إذا عُدَّ سَعْيُهم ... يرى الفَخر منها حَيُّها وقُبورها
أصاغِرهم لم يَضْرَعُوا وَكِبارُهم ... رِزانٌ مَراسِيها، عِفافٌ صُدُورُها
ومن رَهْطِ كنَّادٍ توفَّيتُ ذِمَّتي ... ولم يُثْنِ سيفي نَبْحُها وهَريرُها
ولله مُلْك قد دخلتُ وفارس ... طعنتُ إذا ما الخَيْلُ شَدَّ مُغِيرُها
فَفَرَّجْتُ أُولاَهَا بِنَجْلاءَ ثَرَّةٍ ... بحيث الذي يَرْجو الحياةَ يَضِيرُها
ومَشْهَدِ صِدْقٍ قد شهدتُ فلم أكُنْ ... به خامِلاً واليومَ يُثْنَى مَصِيرُها
أَرَى رَهْبَةَ الأعداء منِّي جَراءَةً ... ويبكي إذا ما النفسُ يُوحَى ضميرها

وقال قيس عند استقبال العلاء بالصدقة:

ألاَ أبْلِغا عنِّي قريشاً رسالةً ... إذا ما أَتَتها بَيِّناتُ الودائعِ
حَبَوتُ بها في الدَّهر أعراضَ مِنْقَرٍ ... وأيأستُ منها كلّ أطْلَس طامعِ
وَجَدْتُ أبي والخالَ كانا بنجوة ... بقاعٍ فلم يَحْلُلْ بها مَنْ أدافِعُ

فأكرمه العلاءُ، وخرج مع العَلاء بن عمرو وسعد الرِّباب مثل عسكره، وسلك بنا الدَّهْناء؛ حتى إذا كنا في بُحْبُوحتها والحَنَّانات والعَزَّافاتُ عن يمينه وشماله، وأراد الله عزّ وجلّ أن يرَينا آياته نَزَل وأمر الناس بالنّزول، فنفَرت الإبل في جَوْف الليل؛ فَمَا بَقِيَ عندنا بعير ولا زادٌ ولا مزاد ولا بناء إلا ذهب عليها في عرض الرمل، وذلك حين نزل الناس، وقبل أن يحطُّوا؛ فما علمت جمعاً هجم عليهم من الغَمّ ما هجم علينا وأوصَى بعضُنا إلى بعض، ونادى منادي العَلاءِ: اجتمعوا،فاجتمعنا إليه، فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم؟ فقال الناس: وكيف نلامُ ونحن إن بلغنا غداً لم تحْمَ شمسُه حتى نصير حديثاً! فقال: أيّها الناس؛ لا تُراعوا، ألَسْتم مسلمين! ألستم في سبيل الله! ألستم أنصار الله! قالوا: بلى، قال: فأبشروا؛ فوالله لا يَخْذُل الله مَن كان في مثل حالكم. ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلَع الفجر فصلَّى بنا، ومنَّا المتيمِّم، ومنَّا من لم يزل على طَهُوره؛ فلمَّا

قضى صلاته جثا لرُكْبَتَيْه وجَثا النَّاس، فنصِب في الدّعاء ونصِبوا معه؛ فلمع لهم سرابُ الشمس؛ فالتفت إلى الصّفّ، فقال: رائد ينظر ما هذا؟ ففعل ثم رجع، فقال: سراب، فأقبل على الدّعاء، ثم لمع لهم آخر فكذلك، ثم لمع لهم آخر، فقال: ماء، فقام وقام الناس، فمشينا إليه حتى نزلْنا عليه، فشربنا واغتسلنا، فما تعالى النّهار حتى أقبلت الإبل تُكْرَد من كلّ وجه، فأناخت إلينا، فقام كلّ رجل إلى ظهره، فأخذه، فما فقدنا سِلْكاً. فأرويناها وأسقيناها العَلَل بعد النَّهَل؛ وَتَرَوّينا ثم تروّحنا ـ وكان أبو هريرة رفيقِي ـ فلمّا غِبْنَا عن ذلك المكان، قال لي: كيف علمُك بموضع ذلك الماء؟ فقلت: أنا من أهدَى العرب بهذه البلاد قال: فكن معي حتى تقيمَني عليه، فكررتُ به، فأتيت به على ذلك المكان بعينه؛ فإذا هو لا غديرَ به، ولا أثر للماء، فقلت له: والله لولا أنّي لا أرى الغدير لأخبرتك أنّ هذا هو المكان؛ وما رأيت بهذا المكان ماءً ناقعاً قبل اليوم؛ وإذا إداوة مملوءة، فقال: يا أبا سهم، هذا والله المكان؛ ولهذا رجعت ورجعت بك. وملأت إداوتي ثم وضعتها على شفيره، فقلت: إن كانَ مَنّاً من المَنّ وكانتْ آية عرفتها؛ وإن كان غياثاً عرفته؛ فإذا منّ من المَنّ، فحمد الله، ثم سرْنا حتى ننزل هَجَر. قال: فأرسل العَلاء إلى الجارود ورجل آخر أن انضمّا في عبد القيس حتى تنزلا على الحطَم ممّا يليكما؛ وخرج هو فيمَن جاء معه وفيمَن قدِم عليه؛ حتى ينزل عليه ممّا يلي هَجَر، وتجمّع المشركون كلُّهم إلى الحُطَم إلاّ أهل دارين، وتجمّع المسلمون كلّهم إلى العَلاء بن الحضرميّ، وخندق المسلمون والمشركون، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خَنْدقهم؛ فكانوا كذلك شهراً؛ فبينَا الناس ليلةً إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة؛ كأنها ضوضاءُ هزيمة أو قتال، فقال العلاء: مَنْ يأتينا بخبر القوم؟ فقال عبدالله بن حَذَف: أنا آتيكم بخبر القوم ـ وكانت أمّه عِجْليَّة ـ فخرج حتى إذا دنا من خَندقهم أخذوه، فقالوا له: مَن أنت؟ فانتسب لهم، وجعل ينادي: يا أبْجَراه! فجاء أبجر بن بُجَير، فعرفه فقال: ما شأنُك؟ فقال: لا أضِيعنَّ الليلة بين اللَّهَازم! عَلامَ أقتَل وحولي عساكر من عِجْل وتَيْم اللات وقيس وعنَـزَة! أيتلاعب بي الحُطم ونُزَّاع القبائل وأنتم شهود! فتخلَّصه، وقال: والله إني لأظنُّك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة! فقال: دَعْني من هذا وأطعِمْني؛ فإنّي قد متُّ جوعاً. فقرّب له طعاماً؛ فأكل ثمّ قال: زوّدني واحمِلْني وجَوّزني أنطلِق إلى طِيَّتي. ويقول ذلك لرجل قد غلب عليه الشراب، ففعل وحمله على بعير، وزوّده وجَوّزه؛ وخرج عبدالله بن حَذَف حتى دخل عسكرَ المسلمين، فأخبرهم أنّ القوم سُكارى، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكَرهم، فوضعوا السيوف فيهم حيث شاؤوا، واقتحموا الخندق هُرّابا، فمتردٍّ، وناجٍ ودهِشٍ، ومقتول أو مأسور، واستولَى المسلمون على ما في العسكر؛ لم يفلِت رجلٌ إلا بما عليه؛ فأما أبجر فأفلتَ، وأمّا الحُطَم فإنَّه بَعِل ودُهِش، وطار فؤاده؛ فقام إلى فرسه ـ والمسلمون خلالهم يجُوسُونهم ـ ليركبَه؛ فلمّا وضع رجلَه في الرّكاب انقطَع به، فمرّ به عفيف بن المنذر أحد بني عمرو بن تميم، والحُطم يستغيث ويقول: ألا رجلٌ مِنْ بني قيس بن ثعلبة يَعْقِلني! فرفع صوته، فعرف صوته، فقال: أبو ضُبَيعة! قال: نعم، قال: أعطني رِجْلك أعِقْلك، فأعطاه رِجْله يعقلُه، فنفَحها فأطنَّها من الفَخذِ، وتركه، فقال: أجهز عليّ، فقال: إني أحبّ ألا تموت حتى أمِضَّك. ـ وكان مع عَفيف عدّة من ولد أبيه، فأصيبوا ليلتئذ ـ وجعل الحطم لا يمرُّ به في الليل أحدٌ من المسلمين إلاّ قال: هل لك في الحُطَم أن تقتله؟ ويقول: ذاك لمن لا يعرفه، حتى مرّ به قيس بن عاصم، فقال له ذلك، فمال عليه فقتله، فلمّا رأى فخِذَه نادرةً، قال: واسوأتاه! لو علمت الَّذي به لم أحرّكه؛ وخرج المسلمون بعد ما أحرزوا الخندق على القوم يطلبونهم،

فاتّبعوهم، فلحق قيس بن عاصم أبجر ـ وكان فرس أبجر أقوى من فرس قيس ـ فلمّا خشيَ أن يفوتَه طعنه في العُرقوب فقطع العَصَب، وسَلِم النَّسا؛ فكانت رادّة، وقال عُفَيف بن المنذر:

فـإنْ يـرقَـأ العـرقـوبُ لا يـرْقـأ النَّسَـا ... ومـا كُـلُّ مَنْ يهْـوى بـذلـك عـالِمُ
ألـم تـرَ أنَّـا قـد فَلَلْنـا حُمَـاتَهـمْ ... بـأسْـرَةِ عمـرو والـرِّبـابِ الأكـارِمِ

وأسرَ عفيف بن المنذر الغَرور بن سويد، فكلّمته الرّباب فيه، وكان أبوه ابن أخت التَّيْم، وسألوه أن يُجيره، فقال للعلاء: إني قد أجرْت هذا، قال: ومَنْ هذا؟ قال: الغُرُور، قال: أنت غررت هؤلاء، قال: أيّها الملك، إني لستُ بالغَرور؛ ولكني المغرور، قال: أسْلِمْ، فأسلم وبقي بهجَر، وكان اسمه الغَـرور، وليس بلَقب؛ وقتل عفيف المنذر بن سـويد بن المنـذر، أخا الغـرور لأمّه، وأصبـح العَلاء فقسّم الأنفـال، ونفَّل رجالاً من أهل البلاء ثياباً، فكان فيمن نفل عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمامة بن أثال؛ فأمّا ثمامة فنُفِّل ثياباً فيها خميصة ذات أعلام، كان الحُطَم يُباهي فيها، وباع الثياب. وقصد عُظْمُ الفُلّال لدارين، فركبوا فيها السفن، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم؛ فكتب العلاء بن الحضرميّ إلى مَن أقام على إسلامه من بكر بن وائل فيهم، وأرسل إلى عُتَيبة بن النَّهّاس وإلى عامر بن عبد الأسود بلزوم ما هم عليه والقعود لأهل الردّة بكلّ سبيل، وأمر مِسْمَعاً بمبادرتهم، وأرسل إلى خَصَفة التميميّ والمثنَّى بن حارثة الشيبانيّ، فأقاموا لأولئك بالطريق، فمنهم مَنْ أناب، فقبلوا منه واشتملوا عليه؛ ومنهم مَنْ أبى ولَجّ فمنع من الرجوع، فرجعوا عَوْدَهم على بدئهم؛ حتى عَبَرُوا إلى دارين، فجمعهم الله بها، وقال في ذلك رجل مِن بني ضُبيعة بن عجل، يدْعَى وهباً، يعيّر مَن ارتدّ من بكر بن وائل:

ألَـم تَـرَ أنَّ الله يـسْـبـك خَـلْقَـه ... فـيَخْبُثَ أقـوامٌ ويَـصْـفُـوَ مَـعْـشَـرُ
لَحَى الله أقـوامـاً أُصيبـوا بـخَنْـعَـةٍ ... أصـابَهُـمُ زيـدُ الضَّـلَالِ ومَعْـمَـرُ!

ولم يزل العَلاءُ مقيماً في عسكر المشركين حتى رجعت إليه الكتب من عند مَنْ كان كتب إليه من بكْر بن وائل، وبلَغه عنهم القيام بأمر الله، والغضبُ لدينه، فلمّا جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهي، أيقن أنه لن يؤتَى من خلفه بشيء يكرهه على أحد من أهل البحرين، وندَب النَّاس إلى دارِين، ثم جمعهم فخطبهم، وقال: إنّ الله قد جمع لكم أحزابَ الشياطين وشُرَّدَ الحرب في هذا البحر؛ وقد أراكم من آياته في البرّ لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوّكم، ثم استعرِضوا البحر إليهم، فإنّ الله قد جمعهم، فقالوا: نفعل ولا نهاب والله بعدَ الدَّهناء هَوْلاً ما بقينا.

فارتحل وارتحلوا، حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الصّاهل، والجامِل، والشاحج والنّاهق؛ والراكبُ والراجل، ودعا ودعوا؛ وكان دعاؤه ودعاؤهم: يا أرحم الراحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صَمَد يا حيّ يا مُحيي الموتى، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت يا ربّنا. فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعاً يمشون على مثل رَمْلة مَيْثاءَ، فوقها ماء يغمُر أخفاف الإبل، وإنّ ما بين الساحل ودَارين مسيرة يوم وليلة لسُفُن البحر في بعض الحالات، فالتقوْا بها، واقتتلوا قتالاً شديداً، فما تركوا بها مُخْبِراً وسبوا الذَراريّ، واستاقوا الأموالَ؛ فبلغ نَفَل الفارس ستَّة آلاف، والراجل ألفيْن، قطعوا ليلهم وساروا يومَهم؛ فلمّا فرغوا رجعوا عَوْدَهم على بدئهم

حتى عَبَروا، وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر:

أَلـم تَـرَ أَنَّ الله ذَلَّـلَ بَـحْـرَه وأنـزل بـالكُفَّـار إحـدَى الجَـلائـلِ!
دَعَـوْنـا الَّـذي شقَّ البحارَ فجـاءَنـا بـأعجبِ من فَلْقِ البحـار الأوائـلِ

ولَّما رجع العلاء إلى البحْرين، وضرب الإسلام فيها بجِرَانِه، وعزّ الإسلامُ وأهله، وذلّ الشرْك وأهلُه؛ أقبل الَّذين في قلوبهم ما فيها على الإرجاف، فأرجف مُرْجِفُون، وقالوا: هاذاك مَفْرُوق، قد جمع رهطه. شيبان وتغلب والنَّمِر، فقال لهم أقوام من المسلمين: إذاً تشغَلهم عنا اللَّهَازِم - واللَّهَازم يومئذ قد استجمع أمرهم على نصر العلاء وطابقوا. وقال عبد الله بن حَذَف في ذلك:

لا تُـوعِـدونـا بمَفْـروق وأسْـرَتِـهِ إنْ يـأتِنـا يَلْقَ فينـا سنَّـة الحُطَم
وإنّ ذَا الـحيَّ مـن بَكـرٍ وإنْ كـثـروا لأُمَّـةٌ داخـلون الـنـارَ فـي أمـمِ
فـالنَّخـلُ ظـاهـره خَيْـلٌ وبـاطنـه خيـلٌ تَكَـدَّسُ بـالفِتيـان في النَّعمِ

وأقفل العلاء بن الحضرميّ الناس، فرجع النَّاس إلاّ مَن أحبّ المقام، فقَفلنا وقَفَل ثُمامة بن أثال؛ حتى إذا كنَّا على ماء لبني قَيْس بن ثعلبة؛ فرأوا ثمامة، ورأوا خَميصة الحُطَم عليه دسُّوا له رجلاً، وقالوا: سله عنها كيف صارت له؟ وعن الحطم: أهو قتله أو غيره؟ فأتاه، فسأله عنها، فقال: نُفِّلْتُها. قال: أأنت قتلت الحُطَم؟ قال: لا، ولوددت أني كنت قتلته، قال: فما بال هذه الخميصة معك؟ قال: ألم أخبرك! فرجع إليهم فأخبرهم، فتجمَّعوا له، ثم أتوه فاحْتَوَشُوه؛ فقال: مالكم؟ قالوا: أنت قاتل الحُطَم؟ قال: كذبتم، لستُ بقاتِله ولكني نفِّلتها، قالوا: هل ينَفَّل إلاّ القاتل! قال: إنها لم تكن عليه، إنما وُجِدَتْ في رَحْله، قالوا: كذبت. فأصابوه.

قال: وكان مع المسلمين راهبٌ في هَجَر؛ فأسلم يومئذ فقيل: ما دعاك إلى الإسلام؟ قال: ثلاثة أشياء، خشيت أن يمسخني الله بعدَها إن أنا لم أفعل: فَيْضٌ في الرمال، وتمهيد أثباج البحار، ودعاءٌ سمعته في عسكرهم في الهواء من السَّحَر. قالوا: وما هو؟ قال: اللهمّ أنتَ الرّحمن الرّحيم؛ لا إلهٰ غيرُك، والبديع ليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، والحيّ الذي لا يموت، وخالق ما يُرَى وما لا يُرَى، وكلّ يوم أنت في شأن، وعَلِمتَ اللهمّ كلّ شيء بغير تَعَلُّم؛ فعلمت أنّ القوم لم يُعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله.

فلقد كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يسمعون من ذلك الهَجَريّ بعد.

وكتب العَلاء إلى أبي بكر: أما بعدُ؛ فإنّ الله تبارك وتعالى فَجَّر لنا الدَّهْناءَ فيضاً لا تُرَى غواربه، وأرانا آية وعبرة بعد غمّ وكرب، لنحمد الله ونمجِّده، فادعُ الله واستنصرْه لجنوده وأعوان دينه.

فحمِد أبو بكر الله ودعاه، وقال: ما زالت العرب فيما تحدّث عن بلدانهم يقولون: إنّ لقمان حين سُئِل عن الدّهناء: أيحتفرونها أو يَدَعونها؟ نهاهم، وقال: لا تبلغها الأَرْشِيَة، ولم تقرّ العيون؛ وإنّ شأن هذا الفَيْض من عظيم الآيات، وما سمعنا به في أمّة قبلها. اللهمّ أخلف محمداً ﷺ فينا.

ثم كتب إليه العلاءُ بهزيمة أهل الخندق وقتْل الحطم، قتله زيد ومعمر: أمَّا بعد، فإنّ الله تبارك اسمه

سلَب عدوَّنا عقولهم، وأذهب رِيحَهم بشراب أصابوه من النَّهار، فاقتحمنا عليهم خندقَهم، فوجدناهم سُكارى، فقتلناهم إلّا الشريد، وقد قتل الله الحُطَم.

فكتب إليه أبو بكر: أمَّا بعد، فإنْ بلغك عن بني شيبان بن ثعلبة تمامٌ على ما بلغك، وخاض فيه المُرْجفون، فابعث إليهم جنداً فأوطِئهم وشرِّد بهم من خلفهم. فلم يجتمعوا؛ ولم يصرْ ذلك من إرجافهم إلى شيء.

ذكر الخبر عن ردَّة أهل عُمان ومَهْرة واليمن

قال أبو جعفر: وقد اختُلف في تاريخ حَرْب المسلمين، فقال محمد بن إسحاق ـ فيما حدثنا ابنُ حميد، عن سلَمة عنه: كان فتحُ اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود إلى الشَّأم في سنة اثنتيْ عشرة.

وأمَّا أبو زيد فحدّثني عن أبي الحسن المدائني في خبر ذكره، عن أبي معشر ويزيد بن عياض بن جُعْدُبَة وأبي عبيدة بن محمد بن أبي عُبَيدة وغسَّان بن عبد الحميد وجُوَيْرِيَة بن أسماء، بإسنادهم عن مشيختهم وغيرهم من عُلماء أهل الشأم وأهل العِرَاق؛ أنّ الفتوح في أهل الرّدة كُلَّها كانت لخالد بن الوليد وغيره في سنة إحدى عشرة، إلاّ أمر ربيعة بن بُجَيْر؛ فإنّه كان في سنة ثلاث عشرة.

وقصّة ربيعة بن بجير التغلبيّ أنّ خالد بن الوليد ـ فيما ذكر في خبره هذا الذي ذكرت عنه ـ بالمُصَيَّخ والحَصِيد، قام وهو في جَمْع من المرتدّين فقاتله، وغَنِم وسَبَى، وأصاب ابنةً لربيعة بن بُجَير، فسباها وبعث بالسَّبْي إلى أبي بكر رحمه الله، فصارت ابنة ربيعة إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

فأمَّا أمْر عُمان فإنَّه كان ـ فيما كتب إليَّ السريّ بن يحيى يخبرني عن شُعيب، عن سَيْف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد والغصن بن القاسم وموسى الجليوسيّ عن ابن مُحَيْريز، قال: نبغ بعمان ذو التَّاج لَقِيط بن مالك الأزديّ، وكان يسامي في الجاهليَّة الجُلَنْدَى؛ وادَّعى بمثل ما ادّعى به مَنْ كان نبيّاً، وغلب على عُمَان مرتدّاً، وألجأ جَيْفَراً وعبّاداً إلى الأجبال والبحر؛ فبعث جيفْر إلى أبي بكر يخبره بذلك، ويستجيشه عليه. فبعث أبو بكر الصِّدّيق حُذَيفة بن مِحصن الغَلْفانيّ من حِمْير، وعَرْفجة البارقيّ من الأزد، حذيفة إلى عُمَان وعرفجة إلى مهْرة. وأمرهما إذا اتَّفقا أن يجتمعا على مَن بُعثا إليه، وأن يبتدِئا بعُمان، وحُذيفة على عَرْفجة في وجْهِه، وعَرْفَجة على حذيفة في وجهه. فخرجا متساندين، وأمرهما أن يُجِدَّا السَّيْرَ حتى يقدَما عُمان؛ فإذا كانا منها قريباً كاتَبَا جَيْفَراً وعبَاداً؛ وعملا برأيهما. فمضيا لما أمِرا به؛ وقد كان أبو بكر بعث عِكْرمة إلى مُسَيْلمة باليمامة، وأتبعه شُرَحبيل بن حَسَنة، وسمَّى لهما اليَمامة؛ وأمرهما بما أمر به حُذيفة وعَرْفجة. فبادر عِكْرمة شُرَحْبيل، وطلب حُظْوَةَ الظَّفَر، فنكبه مُسَيْلمة؛ فأحجم عن مُسيلمة، وكتب إلى أبي بكر بالخَبَر، وأقام شُرَحبيل عليه حيث بلغه الخبَر، وكتب أبو بكر إلى شُرَحْبيل بن حَسَنة؛ أن أقم بأدنى اليَمامة حتى يأتيَك أمري، وتَرَك أن يُمْضيَه لوجهه الذي وجَّهه له؛ وكتب إلى عِكْرِمة يُعَنِّفه لتسرُّعه، ويقول: لا أرَيّنك ولا أسمعنّ بك إلاّ بعد بلاء، والحقْ بعُمَان حتى تقاتل أهلَ عُمان، وتُعين حُذَيفة وعَرْفجة، وكلّ واحد منكم على خَيْله، وحذيفة ما دُمتم في عمله على النَّاس، فإذا فرغتم فامضِ إلى مَهْرة، ثم ليكُنْ وجهُك منها إلى اليَمَن؛ حتى تُلاقيَ المهاجر ابن أبي أميّة باليمن وبحضْرَموت، وأوطِىء مَنْ بين عمان واليمن ممنْ ارتدّ؛ وَلْيَبْلُغني بلاؤك.

فمضى عِكْرمة في أثَرِ عَرْفجة وحُذيفة فيمَن كان معه حتَّى لحق بهما قبل أن ينتهيَا إلى عُمان، وقد عهد إليهم إن ينتهوا إلى رأي عِكرِمة بعد الفراغ في السَّيْر معه أو المقام بعُمان، فلمَّا تلاحقوا ـ وكانوا قريباً من عُمَان بمكان يُدعى رجَاماً ـ راسلوا جَيْفَراً وعَبَّاداً. وبلغ لَقِيطا مجيء الجيش، فجمع جموعه وعسكر بدَبَا، وخرج جَيْفر وعبَّاد من موضعهما الَّذي كانا فيه، فعسكرا بصُحار وبعثا إلى حُذَيفة وعَرْفجة وعِكْرِمة في القدوم عليهما، فقدموا عليهما بصُحَار، فاستبرءُوا ما يليهم حتى رضُوا ممّن يليهم؛ وكاتبوا رؤساءَ مع لقيط وبدأوا بسيد بني جُدَيْد، فكاتبهم وكاتبوه حتى ارفضُّوا عنه؛ ونهَدوا إلى لَقِيط، فالتقوْا على دَبَا، وقد جمع لقيط العِيَالات، فجعلهم وراء صفوفهم ليُجَرّبهم؛ وليحافظوا على حُرَمِهم ـ ـ ودَبَا هي المِصْر والسوق العظمى ـ فاقتتلوا بدَبَا قتالا شديداً؛ وكاد لَقِيط يستعلي النَّاس؛ فبيناهم كذلك، وقد رأى المسلمون الخَلَل ورأى المشركون الظَّفَر، جاءت المسلمين موادُّهم العُظْمى من بني ناجية؛ وعليهم الخِرّيتُ بن راشد، ومن عبد القيس وعليهم سَيْحان بن صُوحان، وشواذب عُمان من بني ناجية وعبد القيس، فقوَّى الله بهم أهلَ الإسلام، ووهَّن الله بهم أهلَ الشِّرْك؛ فولَّى المشركون الأدبار، فقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وركبوهم حتى أثخنوا فيهم، وسَبَوُا الذّراريّ، وقسموا الأموال على المسلمين، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عَرْفجة، ورأى عِكْرمة وحذيفة أن يقيم حُذَيفة بعُمان حتى يوطّىء الأمور، ويُسكّن الناس؛ وكان الخمس ثمانمائة رأس، وغنموا السوق بحذافيرها. فسار عرفجة إلى أبي بكر بخُمسِ السَّبي والمغانم، وأقام حُذَيفة لتسكين النَّاس، ودعا القبائل حَوْلَ عُمان إلى سكون ما أفاء الله على المسلمين، وشواذب عُمان، ومضى عِكْرمة في الناس، وبدأ بمَهْرة، وقال في ذلك عَبَّاد الناجيّ:

لَعَمْـري لقـد لاقَى لَقِيط بنَ مـالـكٍ ... من الشَّرِّ مـا أخزى وجوهَ الثَّعـالِب
وبـادَى أبـا بكـرٍ ومن هَـلَّ فـارْتَمى ... خَـليجَـانِ مِنْ تَيّـارِهِ الـمُـتَـراكِبِ
ولم تَنْهَـهُ الأولى ولـم يُنْكَـأ العِـدَا ... فـألْـوَتْ عليـه خَيْلُه بـالجَنَـائبِ

ذكر خبر مَهْرَة بالنّجد

ولَمَّا فَرغ عِكْرِمة وعَرْفجة وحُذَيفة من رِدّة عُمان، خرج عِكْرمة في جنده نحو مَهْرة، واستنصر مَن حول عُمان وأهل عُمان، وسار حتى يأتي مَهْرة، ومعه ممَّن استنصره من ناجية والأزْد وعبد القيس وراسب وسَعْد من بني تميم بشرٌ؛ حتى اقتحم على مَهْرة بلادَها، فوافق بها جمعَيْن من مَهْرة: أمَّا أحدُهما فبمكان من أرض مَهْرة يقال له: جَيْرُوت، وقد امتلأ ذلك الحَيّز إلى نَضدُون ـ قاعَيْن من قِيعان مَهْرة ـ عليهم شخريت، رجل من بني شخراة؛ وأمَّا الآخر فبالنَّجد؛ وقد انقادت مَهْرة جميعاً لصاحب هذا الجمْع؛ عليهم المُصَبَّح؛ أحد بني مُحَارب والنَّاس كلُّهم معه؛ إلاّ ما كان من شخريت، فكانا مختلفين؛ كلّ واحد من الرئيسين يدعو الآخر إلى نفسه، وكلُّ واحد من الجُنْدَيْن يشتهي أن يكون الفُلْج لرئيسهم؛ وكان ذلك ممَّا أعان الله به المسلمين وقوَّاهم على عدّوهم؛ ووهنهم.

ولما رأى عِكْرِمة قلةَ مَنْ مع شخريت دعاه إلى الرجوع إلى الإسلام؛ فكان لأوّل الدعاء، فأجابه ووهَّن الله بذلك المصبَّح. ثم أرسل إلى المصبَّح يدعوه إلى الإسلام والرجوع عن الكفر؛ فاغترَّ بكثرة مَن معه، وازداد

مباعدةً لمكان شخريت، فسار إليه عِكْرِمة، وسار معه شخريت، فالتقوْا هم والمصبّح بالنَّجد؛ فاقتتلوا أشَدّ من قتال دَبا.

ثمَّ إنّ الله كشفَ جنودَ المرتدّين، وقتل رئيسهم، وركبهم المسلمون فقتلوا منهم ما شاءوا، وأصابوا ما شاءوا، وأصابوا فيها أصابوا ألْفَيْ نَجِيبة، فخمَّس عِكْرِمة الفيء، فبعثَ بالأخماس مع شخريت إلى أبي بكر، وقسّم الأربعة الأخماس على المسلمين، وازداد عِكْرِمة وجنده قوّةً بالظَّهر والمَتَاع والأداة، وأقام عِكْرِمة حتَّى جمعهم على الذي يحبّ، وجمع أهلَ النَّجد؛ أهل رياض الروضة، وأهل الساحل؛ وأهل الجزائر؛ وأهل المُرّ واللّبان وأهل جيْروت، وظهور الشِّحْر والصَّبَرات، وينعب، وذات الخيم؛ فبايعوا على الإسلام، فكتب بذلك مع البشير ـ وهو السائب أحد بني عابد من مخزوم ـ فقدم على أبي بكر بالفَتْح، وقدم شخريت بعده بالأخماس، وقال في ذلك عُلْجُوم المحاربيّ:

جـزى الله شخـريتـاً وأفنـاءَ هَيْشَمٍ ... وفِـرْضِمَ إذْ سـارت إلينـا الحـلائِبُ
جـزَاءَ مُـسِيءٍ لَـمْ يُـرَاقِب لـذِمَّـة ... ولم يَـرْجُهـا فيمـا يُـرَجّى الأقـاربُ
أعِكْـرِمَ لـولا جَمْـع قـومِي وفِعلُهم ... لضـاقَتْ عليـك بـالفَضَـاء المـذاهب
وكنّـا كمـن إقتـاد كـفّـاً بـأختهـا ... وحَلَتْ علينـا في الـدُّهـورِ النـوائبُ

ذكر خبر المرتدّين باليمن

قال أبو جعفر: كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة، عن عكرمة وسهل، عن القاسم بن محمّد، قال: توُفِّيَ رَسولُ الله ﷺ وعلى مكَّة وأرضها عَتَّاب بن أسِيد والطَّاهر بن أبي هالة؛ عتَّاب على بني كنانة، والطَّاهر على علكّ؛ وذلك أنّ النبيّ ﷺ قال: اجعلوا عمالة علكّ في بني أبيها مَعَدّ بن عدنان، وعلى الطَّائف وأرضها عُثمان بن أبي العاص ومالك بن عوف النّصريّ؛ عثمان على أهل المَدَر ومالك على أهل الوَبر أعجازِ هوازن، وعلى نجران وأرضِها عَمْرو بن حزم وأبو سفيان بـن حَرْب؛ عمرو بن حزم على الصّلاة وأبو سفيان بن حرب على الصَّدَقات، وعلى ما بين رِمَع وزَبيد إلى حدّ نَجْران خالد بن سعيد بن العاص، وعلى هَمْدان كلّها عامر بن شَهْر، وعلى صنعاء فيروز الدَّيلميّ يسانده داذَوَيْه وقيس بن المَكْشُوح، وعلى الجَنَد يعلَى بن أميَّة، وعلى مأرب أبو موسى الأشعريّ، وعلى الأشعرّيين مع علكّ الطَّاهر بن أبي هالة، ومُعاذ بن جبل يعلّم القوم، يتنقّل في عَمَل كلّ عامل، فنَزا بهم الأسْود في حياة النبيّ ﷺ، فحارَبه النبيّ عليه السَّلام بالرُّسل والكتب حتى قتله الله، وعاد أمر النبيّ عليه السلام كما كان قبل وفاة النبي عليه السّلام بليلة؛ إلاّ أنّ مجيئهم لم يحرِّك النَّاس، والنَّاس مستعدّون له.

فلمّا بلغهم موتُ النبيّ ﷺ انتقضت اليمن والبلدان؛ وقد كانت تذبذبَتْ خيولُ العَنْسيّ ـ فيما بين نَجْران إلى صَنْعَاء في عرض ذلك البحر ـ لا تأوي إلى أحد، ولا يأوِي إليها أحدٌ؛ فعمرو بن معد يكرب بحيال فَرْوة بن مُسَيك، ومعاوية بن أنس في فَالَّة العَنْسيّ يتردّد؛ ولم يرجع من عمال النبيّ ﷺ بعد وفاة النبيّ ﷺ إلاّ عمرو بن حَزْم وخالد بن سعيد، ولجأ سائر العمَّال إلى المسلمين؛ واعترض عمرو بن معد يكرب خالدَ بن سعيد، فسلَبه

الصَّمصامة. ورجعت الرُّسل مع مَن رجع بالخبر، فرجع جرير بن عبد الله والأقرع بن عبد الله ووبَر بن يُحَنِّس، فحارب أبو بكر المرتدّة جميعاً بالرسل والكتب، كما كان رسولُ الله ﷺ حاربهم؛ إلى أن رجع أسامة بن زيد من الشَّأم، وحزْر ذلك ثلاثة أشهر، إلّا ما كَان من أهل ذي حُسىً وذي القَصّة. ثم كان أوّل مصادم عند رجوع أسامة هم. فخرَج إلى الأبرَق فلم يصمُد لقوم فيَفلّهم إلا استنفر مَنْ لم يرتدّ منهم إلى آخرين، فيفلّ بطائفة من المهاجرين والأنصار والمستنفرة ممن لم يرتدّ إلى الَّتي تَلِيهم؛ حتى فَرَغ من آخر أمور النَّاس، ولا يستعين بالمرتدّين.

فكان أوّل مَنْ كتب إليه عتَّاب بن أسِيد، كتب إليه بركوب مَن ارتدّ من أهل عمله بمَن ثبت على الإسلام، وعثمان بن أبي العاص بركوب من ارتدّ من أهل عَمَله بمن ثبتَ على الإسلام، فأما عتَّاب فإنّه بعث خالد بن أسِيد إلى أهل تِهامة، وقد تجمَّعت بها جُمَّاعٌ من مُدْلج، وتأشَّب إليهم شُذّاذٌ من خُزَاعَة وأفْنَاء كنانة، عليهم جُندَب بن سُلْمَى، أحد بني شَنوق، من بني مدْلج، ولم يكن في عمل عتَّاب جمعٌ غيره، فالتقوْا بالأبارق، ففرّقهم وقَتلهم، واستحرَّ القتل في بني شَنُوق، فما زالوا أذلاء قليلاً، وبرئت عمالةُ عتَّاب، وأفلت جندب، فقال جندب في ذلك:

ندمتُ وأيقنت الفَدَاة بأنَّنِي ... أَتَيْتُ الَّتي يَبْقى على المَرْءِ عارُها
شهدتُ بأنَّ الله لا شيءَ غيرُه ... بني مُدْلج فالله رَبِّي وجارُها

وبعث عثمان بن أبي العاص بعثا إلى شَنوءة، وقد تجمعت بها جُمَّاع من الأزْد وبَجِيلة وخَثْعَم؛ عليهم حُمَيْضة بن النُّعمان، وعلى أهل الطَّائف عثمان بن ربيعة، فالتقوْا بشنوءة، فهزموا تلك الجُمَّاعَ، وتفرّقوا عن حُمَيضة وهرب حُمَيضة في البلاد، فقال في ذلك عثمان بن ربيعة:

فضضنا جَمْعهم والنَّقْعُ كابٍ ... وقد تُعْدِي على الغَدْرِ الفُتُوقُ
وَأَبْرَقَ بارقٌ لمَّا التقينا ... فعادت خُلَّباً تلك البروقُ

خبر الأخابِث من علّك

قال أبو جعفر: وكان أول منتقض بعد النبيّ ﷺ بتهامة علّك والأشْعرون، وذلك أنّهم حين بلَغهم موتُ النبيّ ﷺ تجمَّع منهم طَخارير، فأقبل إليهم طَخاريرُ من الأشعرين وخَضَّم فانضمُّوا إليهم، فأقاموا على الأعلاب طريق الساحل، وتأشَّب إليهم أوزاعٌ على غير رئيس؛ فكتب بذلك الطاهر بن أبي هالة إلى أبي بكر؛ وسار إليهم، وكتب أيضاً بمسيره إليهم، ومعه مَسْرُوق العكّيّ حتى انتهى إلى تلك الأوزاع، على الأعلاب، فالتقوْا فاقتتلوا، فهزمهم الله، وقتلوهم كلّ قِتْلةٍ؛ وأنْتَنتِ السُّبل لقتلِهم؛ وكان مقتلُهم فتحاً عظيماً. وأجاب أبو بكر الطَّاهر قبل أن يأتيَه كتابه بالفتح:

بلغني كتابك تخبرُني فيه مسيرَك واستنفارَك مسروقاً وقومَه إلى الأخابث بالأعلاب، فقد أصَبْتَ، فعاجلوا هذا الضَّرْب ولا تُرَفِّهوا عنْهم، وأقيموا بالأعلاب حتى يأمَن طريق الأخابث، ويأتيَكم أمرِي. فسمِّيَتْ تلك

الجموع من علكّ ومَنْ تأشّب إليهم إلى اليوم الأخابث، وسُمِّي ذلك الطريق طريقَ الأخابِث؛ وقال في ذلك الطاهر بن أبي هالة:

ووالله لـوْلا اللهُ لا شـيءَ غـيْـرُه ... لَمـا فُضَّ بـالأجراع جَمْعُ العثـاعِث
فـلم تـرَ عيني مِثْـلَ يـوم رأيتُـه ... بجَنْب صُحَـارٍ في جموع الأخَـابِث
قَتَلْنَـاهُـمُ مـا بيـن قُنّـةِ خَـامِـرٍ ... إلى القِيَعـة الحَمْـراء ذات النبـائِثِ
وفِئنـا بـأمـوالِ الأخـابث عَنْـوَةً ... جهاراً ولم نَحْفِـلْ بتلك الهثـاهِث

وعسكر طاهر على طريق الأخابث، ومعه مسروق في علكّ ينتظر أمرَ أبي بكر رحمه الله.

قال أبو جعفر: ولما بلغ أهلَ نَجْران وفاةُ رسولِ الله ﷺ وهم يومئذ أربعون ألف مقاتل، من بني الأفْعى؛ الأمَّة الَّتي كانوا بها قبل بني الحارث؛ بعثوا وفداً ليجدّدوا عهداً، فقدموا إليه فكتب لهم كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من عبد الله أبي بكر خليفة رسولِ الله ﷺ لأهل نَجْران، أجارهم من جُنْده ونفسه، وأجاز لهم ذمَّة محمَّد ﷺ إلاّ ما رجع عنه محمد رسول الله ﷺ بأمر الله عزّ وجلّ في أرضهم وأرض العرب؛ ألاّ يسكن بها دِينان؛ أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم، وغائبهم وشاهدهم، وأسقُفّهم ورهبانهم وبيَعِهم حيثما وقعت؛ وعلى ما ملكَت أيديهم من قليل أو كثير؛ عليهم ما عليهم، فإذا أدَّوْه فلا يُحْشرون ولا يُعَشَّرُون. ولا يغيَّر أسقفٌ من أسقفيّته، ولا راهبٌ من رَهْبانيَّته؛ ووفّى لهم بكلّ ما كتَب لهم رسولُ الله ﷺ وعلى ما في هذا الكتاب من ذمَّة محمد رسول الله ﷺ وجوار المسلمين. وعليهم النُّصْح والإصلاح فيما عليهم من الحقّ. شهد المِسْور بن عمرو، وعمرو مولى أبي بكر.

وردّ أبو بكر جريرَ بن عبد الله، وأمَره أن يدعو من قومه مَن ثبت على أمر الله، ثم يستنفر مُقوِيَهم، فيقاتل بهم مَن ولّى عن أمر الله، وأمره أن يأتي خَثْعَم؛ فيقاتل مَن خرج غَضَباً لذي الخَلَصة؛ ومَن أراد إعادته حتى يقتلَهم الله، ويقتلَ مَن شاركهم فيه؛ ثم يكون وجهه إلى نجْران، فيقيم بها حتى يأتيَه أمرُه.

فخرج جريرٌ فنفذ لما أمره به أبو بكر، فلم يقرّ له أحدٌ إلا رجالٌ في عدّة قليلة، فقتلهم وتتبَّعهم؛ ثمَّ كان وجهه إلى نَجْران، فأقام بها انتظاراً أمرَ أبي بكر رحمه الله.

وكتب إلى عثمان بن أبي العاص أن يضرب بعثاً على أهل الطَّائف على كلّ مِخْلاف بقدْره، ويولِّيَ عليهم رجلاً يأمنه ويثِق بناحيته؛ فضرب على كلِّ مخلاف عشرين رجلاً، وأمّر عليهم أخاه.

وكتب إلى عتَّاب بن أسِيد؛ أن اضرب على أهلِ مكَّة وعملها خمسمائة مُقْو؛ وابعث عليهم رَجُلاً تأمَنه، فسمَّى مَن يبعث، وأمّر عليهم خالد بن أسِيد؛ وأقام أمير كلِّ قوم، وقاموا على رِجْلٍ ليأتيَهم أمر أبي بكر، وليمرّ عليهم المهاجر.

رِدّة أهل اليمن ثانية

قال أبو جعفر: فممّن ارتدّ ثانية منهم، قيس بن عبد يغوث المكْشوح؛ كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، قال: كان من حديث قيس في رِدّته الثانية، أنه حين وقع إليهم الخبر بموت رسولِ الله ﷺ انتكث، وعمل في قتل فيروز وداذويه وجُشَيْش، وكتبَ أبو بكر إلى عُمير ذي مُرّان وإلى سعيد ذي زود وإلَى سَمَيْفَع ذي الكَلاع، وإلى حَوْشب ذي ظُلَيْم، وإلى شَهْر ذي يناف؛ يأمرهم بالتمسك بالذي هم عليه، والقيام بأمرِ الله والنّاس، ويعدهم الجنود:

من أبي بكـر خليفة رسـولِ الله ﷺ إلى عُمَير بن أفْلَح ذي مُـرّان، وسعيـد بن العـاقب ذي زُود؛ وسَميْفَع بن ناكُور ذي الكَلاع وحَوْشب ذِي ظُلَيم، وشهر ذي يناف. أمَّا بعد، فأعينوا الأبناء على مَنْ ناوَأهم وحُوطوهم واسمعوا مِنْ فيروز، وجِدُّوا معه، فإني قد ولّيْتُه.

كتب إليّ السري، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير بن يزيد، عن عُروة بن غزيَّة الدَّثِيني، قال: لَّما وليَ أبُو بكرٍ أمْر فيْروز؛ وهم قبل ذلك متساندون؛ هو وداذويه وجُشَيش وقيس؛ وكتب إلى وجوه مِن وجوه أهل اليمن؛ ولما سمع بذلك قيس أرسل إلى ذي الكَلاع وأصحابه: إنّ الأبناء نُزّاع في بلادكم، ونُقَلاء فيكم؛ وإن تتركوهم لن يزالـوا عليكم، وقد أرَى من الرأي أن أقتُل رؤوسهم، وأخرجهم من بلادنا. فتبرؤوا، فلم يمالِئوه ولم ينصروا الأبناء، واعتزلوا وقالوا: لسنا ممَّا ها هنا في شيء، أنت صاحبُهم وهم أصحابك.

فتربَّص لهم قيس، واستعدّ لقتل رؤسائهم وتسيير عامَّتهم؛ فكاتب قيس تلك الفالَّة السيَّارة اللَّحْجيّة؛ وهم يصعّدون في البلاد ويصوّبون، محاربين لجميع مَن خالفهم؛ فكاتبهم قيس في السرّ؛ وأمرهم أن يتعجَّلـوا إليه؛ وليكون أمره وأمرهم واحداً؛ وليجتمعوا على نفي الأبناء من بلاد اليمن. فكتبوا إليه بالاستجابة له، وأخبروه أنهم إليه سِراعٌ؛ فلم يَفْجأ أهلَ صنعاء إلا الخبر بدنوّهم منها، فأتى قيس فيروزَ في ذلك كالفَرِق من هذا الخبر وأتى داذويه؛ فاستشارهما ليَلْبِس عليهما، ولئلاّ يَتَّهماه، فنظروا في ذلك واطمأنُّوا إليه.

ثم إن قيساً دعاهم من الغد إلى طَعام، فبدأ بداذويه، وثنَّى بفيروز، وثلّث بجشيش؛، فخرج داذويه حتى دخلَ عليه؛ فلمّا دخل عليه عاجله فقتله، وخرج فيروز يسير حتى إذا دنا سمع امرأتيْن عـلى سطحـين تتحدّثان، فقالت إحداهما: هذا مقتول كما قُتِل داذويه؛ فلقيهما، فعاج حتى يرى أوِيَّ القوم الذي أربؤوا، فأُخْبِر برجوع فيروز؛ فخرجوا يركُضون، وركض فيروز، وتلقَّاه جُشَيش، فخرج معه متوجِّهـاً نحو جبـل خَوْلان-وهم أخوال فيروز- فسبقا الخيول إلى الجبل، ثم نزلا، فتوقَّلا وعليهما خِفافٌ ساذجة، فما وَصَلا حتى تقطَّعت أقدامُهما، فانتهيا إلى خَوْلان وامتنع فيروز بأخواله، وآلى ألاّ ينتعل ساذجاً، ورجعتْ الخيول إلى قيس؛ فثار بصنعاء فأخذها، وجَبَى ما حولها، مقدّماً رِجْلاً ومؤخِّراً أخرى، وأتته خيول الأسود. ولَّما أوى فيروز إلى أخواله خَوْلان فمنعوه وتأشّب إليه الناس، كتب إلى أبي بكر بالخَبَر. فقال قيس: وما خولان! وما فيروز! وما قَرَار أوَوْا إليه! وطابق على قيس عوامُّ قبائل مَنْ كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين، وعمَد قيسٌ إلى الأبناء ففرّقهم ثلاث فرق: أقرّ مَنْ أقام وأقرّ عياله، وفرّق عيال الذين هربوا إلى فيروز فرقَتَيْن؛ فوجّـه إحدَاهما إلى عَدَن؛ ليُحمَلوا في البحر، وحمل الأخرى في البرّ، وقال لهم جميعاً: الحقوا بأرضكم؛ وبعث معهم

مَنْ يسيِّرهم؛ فكان عيال الديلميّ مِمّن سُيِّر في البَرّ وعيال داذويه ممن سُيِّرَ في البحر؛ فلمّا رأى فيروز أن قد اجتمع عوامّ أهلِ اليمن على قيس؛ وأنَّ العيال قد سيِّروا وعرَّضهم للنّهب، ولم يجد إلى فراق عسكره في تنقذّهم سبيلا؛ وبلغه ما قال قيس في استصغاره الأخوال والأبناء، فقال فيروز منتمياً ومفاخراً وذكر الظُّعْن:

ألا ناديا ظُعْناً إلى الرَّمْل ذي النَّخْلِ ... وقولاَ لها ألاَّ يُقَالَ ولا عَذْلِي
وما ضَرَّهم قولُ العُدَاةِ لو إنّه ... أتى قَوْمه عن غير فحش ولا بَخْلِ
فَدَعْ عنك ظُعنا بالطريق التي هَوَتْ ... لِطِيّتِها صَمْدَ الرَّمَالِ إلى الرَّمْلِ
وإنّا وإن كانت بصَنْعَاءَ دارُنا ... لنا نَسْلُ قوم مِنْ عَرَانينهم نَسْلي
ولَلدَّيْلَمُ الرَّزَّامُ من بعد باسِلٍ ... أَبى الخَفْضَ وَاخْتَارَ الحَرور على الظِّلّ
وكانت مَنابِتُ العراق جسَامُها ... لِرَهْطي إذا كسرى مَرَاجِلُهُ تغلِي
وباسِلُ أَصْلي إن نَمَيْتُ وَمَنْصبي ... كما كلُّ عود مُنتهاه إلى الأصل
هُمُ تَرَكُوا مَجْرايَ سَهْلاً وحَصّنوا ... فجاجي بحسن القَوْلِ والحَسَب الجَزْلِ
فما عزّنا في الجَهْل من ذي عَدَاوة ... أبى الله إلاَّ أَنْ يعزّ على الجَهْلِ
ولا عاقنا في السِّلْم عن آل أَحْمَدٍ ... ولا خسَّ في الإسلام إذ أسْلَمُوا قَبْلِي
وإنْ كان سَجْلٌ من قَبيلي أرَشّني ... فإني لَراجٍ أن يُغَرِّقهمْ سَجْلِي

وقام فيروز في حربه، وتجرّد لها، وأرسل إلى بني عُقَيْل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة رسولاً بأنه متخفّر بهم، يستمدّهم ويستنصرهم في ثَقَله على الّذين يزعجون أثقال الأبناء، وأرسل إلى عكّ رسولاً يستمدّهم ويستنصرهم على الّذين يزعجون أثقال الأبناء. فركبت عُقَيل وعليهم رجل من الحُلفاء يقال له معاوية، فاعترضوا خيل قَيْس فتنقّذوا أولئكَ العِيال، وقتلوا الذين سيَّروهم، وقصروا عليهم القرى؛ إلى أن رجع فيروز إلى صَنْعاء، ووثبت عكّ؛ وعليهم مسروق، فساروا حتى تنقَّذوا عيالات الأبناء، وقصروا عليهم القرى، إلى أن رجع فَيْروز إلى صَنْعاء وأمدّت عُقَيل وعكّ فيروز بالرّجال، فلما أتته أمدادُهم ـ فيمن كان اجتمع إليه ـ خرج فيمن كان تأشَّب إليه ومن أمَدّه من عكّ وعُقيل، فناهد قيساً فالتقوا دون صَنْعاء، فاقتتلوا فهزَم الله قيساً في قومه ومَن أنهضوا، فخرج هارباً في جنده حتى عاد معهم، وعادوا إلى المكان الذي كانوا به مبادِرين حين هربوا بعد مقتل العنسيّ، وعليهم قيس، وتَذَبْذَبَتْ رافضة العنسي وقيس معهم فيما بين صنعاء ونَجْران، وكان عمرو بن معد يكرب بإزاء فَرْوة بن مُسَيْك في طاعة العَنْسيّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن عطيّة عن عمرو بن سلَمة، قال: وكان من أمر فَرْوة بن مُسَيك أنه كان قَدِم على رسولِ الله ﷺ مُسْلِماً، وقال في ذلك:

لمّا رأيتُ ملوك حِمْيَر أعرَضَتْ ... كالرِّجْلِ خان آلرِّجْلَ عِرْقُ نَسائها
يمّمتُ راحلتي أَمام محمّدٍ ... أرْجُو فواضلَها وحُسْنَ ثَنَائها

وقال له رسول الله ﷺ فيما قال له: هل ساءك ما لقيَ قومُك يوم الرَّزْم يا فروة أو سَرّك؟ قال: ومن يُصَبْ في قومه بمثل الذي أصِبْتُ به في قومي يوم الرَّزْم إلا ساءه ذلك!

وكان يوم الرّزم بينهم وبين هَمْدان على يغوث؛ وثَنٍ كان يكون في هؤلاء مرّة وفي هؤلاء مرة، فأرادت مراد

أن تغلبهم عليه في مرّتهم، فقتلتهم هَمْدان، ورئيسهم الأجدع أبو مسروق؛ فقال رسول الله ﷺ: أما إن ذلك لم يزدهم في الإسلام إلا خيراً، فقال: قد سرّني إذ كان ذلك، فاستعمله رسولُ الله ﷺ على صدقات مُراد ومَن نازلهم أو نزل دارهم. وكان عمرو بن معديكرب قد فارق قَومه سعد العشيرة في بني زُبيد وأخلافها، وانحاز إليهم، وأسلم معهم؛ فكان فيهم، فلمّا ارتدّ العنسيّ واتّبعه عوامّ مذحِج، اعتزل فَرْوة فيمَن أقام معه على الإسلام، وارتدّ عمرو فيمن ارتدّ، فخلّفه العنسيّ، فجعله بإزاء فَرْوة، فكان بحياله، ويمتنع كلُّ واحد منهما لمكان صاحبه من البَراح، فكانا يتهاديان الشعر، فقال عمرو يذكر إمارة فَرْوة ويعيبها:

وَجَـدْنَـا مُـلكَ فَـرْوَةَ شَـرَّ مُـلْكٍ ... حِـمَـاراً سـافَ مَـنْـخِـرُهُ بِـقَـذْرِ
وكـنـتَ إذا رأيـتَ أبـا عُـمَـيْـر ... تـرى الحُـوَلاء من خُبْثٍ وَغَـدْرِ

فأجابه فَرْوة:

أتـاني عَـنْ أبي ثَـوْر كـلامٌ ... وقِـدْمـاً كـان في الأبغـال يَجْـرِي
وكـان اللهُ يُـبْـغِـضُـهُ قَـدِيـمـاً ... عَـلَى مـا كـان من خُبْثٍ وَغَـدْرِ

فبيناهم كذلك قدم عكرمة أبْيَنَ.

وكتب إليّ السري، عن شعيب، عن سيف، عن سهل، عن القاسم وموسى بن الغصن، عن ابن مُحَيْريز، قال: فخرَج عكرمة من مَهْرة سائراً نحن اليمن حتى وَرَد أبْيَن، ومعه بشرٌ كثير من مَهْرة، وسعد بن زيد، والأزد، وناجية، وعبد القيس، وحُذْبان من بني مالك بن كنانة، وعمرو بن جندب من العَنْبَر، فجمع النَّخع بعد من أصاب من مدبِّريهم فقال لهم: كيف كنتم في هذا الأمر؟ فقالوا له: كنّا في الجاهليّة أهل دينٍ، لا نَتعاطَى العرب بعضها من بعض، فكيف بنا إذا صرنا إلى دينٍ عرفنا فضلَه، ودخلنَا حبُّه! فسأل عنهم فإذا الأمر كما قالوا، ثبت عوامّهم وهرَب مَن كان فارق من خاصّتهم، واستبرأ النَّخع وحِمْيَر، وأقام لاجتماعهم، وأرَزَ قيس بن عبد يغوث لهبوط عِكْرمة إلى اليمن إلى عمرو بن معديكرب، فلَما ضامَّه وقع بينهما تَنَازُعٌ، فتعايَرا، فقال عمرو بن معد يكرب يُعَيِّر قيساً غَدْرَه بالأبناء وقتْله داذويه، ويذكر فراره من فيروز:

غَـدرتَ ولم تُحْسِنْ وَفَـاءً ولـم يكُـنْ ... لـيَحْـتـمـلَ الأسـبـابَ إلّا الـمـعـوَّدُ
وكـيـف لـقَيْـس أن يُـنَـوِّط نـفـسَـه ... إذا مـا جـرى والمَضْـرِحيُّ المسوّدُ!

وقال قيس:

وفَيْتُ لقـومِي وَاحْتشـدتُ لمَعْشَـرٍ ... أصـابـوا على الأحيـاء عَمْـراً ومَـرْثَـدَا
وكنتُ لـدَى الأبـنـاء لمَّـا لـقيتُـهم ... كـأصيَـدَ يسمـو بـالعَـزازة أصْيَـدا

وقال عمرو بن معديكرب:

فـمـا إنْ داذَوَيْ لـكُـمُ بـفَـخْـرٍ ... ولـكـن داذوَيْ فـضَـحَ الـذِّمَـارَا
وفـيـروزٌ غَـدَاةَ أصـاب فـيـكـمْ ... وأضْـرَبَ في جمـوعكـم اسْـتَجَـارا

ذكر خبر طاهر حين شخص مَدَداً لفيروز

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: قد كان أبو بكر رحمه الله كتبَ إلى طاهر بن أبي هَالَة بالنّزول إلى صنعاء وإعانة الأبناء؛ وإلى مسروق، فخرجا حتى أتيَا صنْعاء، وكتب إلى عبد الله بن ثَوْر بن أصغر، بأن يجمع إليه العَرب ومن استجاب له من أهل تِهامة، ثم يقيم بمكانه حتى يأتيَه أمرُه.

وكان أوّلَ رِدّة عمرو بن معد يكرب أنّه كان مع خالد بن سعيد فخالفه، واستجاب للأسود، فسار إليه خالد بن سعيد حتى لقيه، فاختلفا ضربتين، فضربه خالد على عاتقه فقطع حِمالةَ سَيْفِه فوقَع، ووصلت الضربة إلى عاتقه، وضربه عمرو فلم يصنع شيئاً، فلمّا أراد خالد أن يُثنِّي عليه نزل فتوقّل في الجبل، وسَلَبَه، فرسه وسيفَه الصَّمْصامة، ولحِج عمرو فيمن لحج. وصارت إلى سعيد بن العاص الأصغر مواريثُ آل سعيد بن العاص الأكْبر. فلمّا وليَ الكوفَة عرض عليه عمرو ابنَته، فلم يقبلْها، وأتاه في داره بعدّة سيوف كان خالد أصابها باليمن، فقال: أيّها الصَّمصامة؟ قال: هذا، قال: خذه فهو لك، فأخذه، ثم آكف بغلاً له فضرب الإكاف فقطعه والبرذعة، وأسرع في البغل، ثم ردّه على سعيد، وقال: لو زرتَني في بيتِي وهو لِي لوهبتُه لك، فما كنت لأقبلَه إذ وقع.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المُسْتَنير بن يزيد عن عُرْوة بن غَزيّة وموسى، عن أبي زُرْعة السَّيبانيّ، قال: ولما فَصَل المهاجر بن أبي أميَّة من عند أبي بكر ـ وكان في آخر مَنْ فَصَل ـ اتّخذ مكة طريقاً، فمرّ بها فاتّبعه خالد بن أسِيد، ومرّ بالطائف فاتّبعه عبد الرحمن بن أبي العاص، ثم مضى حتى إذا حاذَى جرير بن عبد الله ضمَّه إليه، وانضمّ إليه عبد الله بن ثَوْر حين حاذاه، ثم قدِم على أهل نَجْران؛ فانضمّ إليه فَرْوة بن مُسَيك، وفارق عمرو بن معد يكرب قيساً، وأقبل مستجيباً؛ حتى دخل على المهاجر على غير أمان؛ فأوثقه المهاجر؛ وأوثق قَيْساً، وكتب بحالهما إلى أبي بكر رحمه الله، وبعث بهما إليه. فلمّا سار المهاجر من نَجْران إلى اللحجيّة، والتفّت الخيول على تلك الفالّة استأمنوا، فأبى أن يؤمّنهم، فافترقوا فرقتين، فلقيَ المهاجر إحداهما بعجيب، فأتى عليهم، ولقَيْت خيولُه الأخرى بطريق الأخابث، فأتوْا عليهم ـ وعلى الخيول عبدُ الله ـ وقتل الشُّرَداء بكلّ سبيل، فقُدِم بقيس وعمرو على أبي بكر، فقال: يا قيس، أعَدوْت على عباد الله تقتلهم وتتّخذ المرتدّين والمشركين وِليجَةً من دون المؤمنين! وهمّ بقتله لو وجد أمراً جليًّا. وانتفى قيس مِن أن يكون قَارف من أمر داذويه شيئاً، وكان ذلك عملاً عُمِل في سِرّ لم يكن به بيّنةٌ، فتجافَى له عن دمه، وقال لعمرو بن معديكرب: أما تخزَى أنّك كلّ يوم مهزوم أو مأسور! لو نصرت هذا الدين لرفعك الله. ثم خلَّى سبيله، وردَّهما إلى عشائرهما، وقال عمرو: لا جَرَمَ! لأقبلنّ ولا أعود.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير وموسى قالا: سار المهاجِر من عجيب، حتى ينزلَ صَنْعاء، وأمر أن يتّبعوا شُذّاذ القبائل الذين هربوا؛ فقتلوا مَنْ قَدرُوا عليه منهم كلّ قِتْلَة، ولم يُعْفِ متمرّداً، وقبل توبةَ من أناب من غير المتمرّدة؛ وعملوا في ذلك على قَدْر ما رأوا من آثارهم؛ ورجَوا عندهم. وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء وبالذي يتّبع من ذلك.

ذكر خبر حَضْرموت في ردّتهم

قال أبو جعفر: كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن الصَّلْت، عن كَثير بن الصَّلْت، قال: مات رسولُ الله ﷺ وعُمَّاله على بلاد حَضْرموت: زياد بن لَبيد البياضيّ على حَضْرموت، وعُكَّاشة بن مِحْصَن على السَّكاسِك والسَّكون، والمهاجر على كِنْدة ـ وكان بالمدينة لم يكن خرج حتى توفِّيَ رسولُ الله ﷺ، فبعثه أبو بكر بعد إلى قتال مَن باليمن والمُضِيّ بعد إلى عمله.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي السائب، عطاء بن فلان المخزوميّ، عن أبيه، عن أمّ سَلَمة والمهاجر بن أبي أمية، أنَّه كان تخلَّف عن تبوك، فرجع رسولُ الله ﷺ وهو عليه عاتبٌ؛ فبينا أمّ سلَمة تغسل رأس رسولِ الله ﷺ، قالت: كيف ينفعني شيء وأنت عاتب على أخي! فرأت منه رِقَّة؛ فأومأت إلى خادمها؛ فدعتْه، فلم يزل برسول الله ﷺ يَنْشُر عُذْرَه حتى عَذَره ورضِيَ عنه وأمَّره على كِنْدة. فاشتكى ولم يطق الذَّهاب؛ فكتب إلى زياد ليقوم له على عمله. وبَرَأ بعد؛ فأتَمّ له أبو بكر إمْرَتَه، وأمره بقتال مَن بين نَجْران إلى أقصى اليمن؛ ولذلك أبطأ زياد وعُكّاشة عن مناجزة كندة انتظاراً له.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد؛ قال: كان سبب رِدّة كِنْدة إجابتَهم الأسود العنسيّ حتى لعن رسول الله ﷺ الملوك الأربعة، وأنَّهم قبل رِدّتهم حين أسلموا وأسلم أهل بلاد حَضْرَموت كلّهم أمر رسول الله ﷺ بما يوضع من الصَّدقات أن يوضَع صدقة بعض حَضْرموت في كِنْدة، وتوضع صدقة كِنْدة في بعض حضْرموت، وبعض حضْرموت في السَّكُون والسَّكون في بعض حَضْرموت. فقال نفرٌ من بني وَلِيعة: يا رسولَ الله، إنَّا لسنا بأصحاب إبل؛ فإن رأيت أن يبعثوا إلينا بذلك على ظَهر! فقال: إن رأيتم! قالوا: فإنَّا ننظر، فإن لم يكن لهم ظَهْرٌ فعلنا. فلمَّا توفِّي رسول الله ﷺ، وجاء ذلك الإبّان، دعا زياد الناس إلى ذلك، فحضروه، فقالت بنو وَليعة: أبلغونا كما وعدتم رسول الله ﷺ فقالوا: إنّ لكم ظهراً، فهلمّوا فاحتملوا، ولاحَوْهم؛ حتى لاحوْا زياداً؛ وقالوا له: أنت معهم علينا. فأبى الحضرميُّون، ولجّ الكِنديُّون، فرجعوا إلى دارهم، وقدّموا رِجْلاً وأخّروا أخرى، وأمسك عنهم زياد انتظاراً للمُهاجر؛ فلمّا قدم المهاجر صنعاء، كتب إلى أبي بكر بكلّ الذي صنع، وأقام حتى قدم عليه جواب كتابه من قِبَل أبي بكر؛ فكتب إليه أبو بكر وإلى عكرمة، أن يسيرا حتى يقدَما حضرموت، وأقِرّ زياداً على عَمِله، وأذَنْ لمن معك من بين مكّة واليمن في القَفْل؛ إلا أن يؤثر قوم الجهاد. وأمِدّه بعُبَيْدَة بن سعد. ففعل؛ فسار المُهاجر من صَنْعاء يريد حضرموت، وسار عِكْرمة من أبْيَنَ يريد حضْرموت، فالتقيا بمأرب، ثم فَوّزا من صَهيد؛ حتى اقتحما حَضْرموت، فنزل أحدُهما على الأشعث والآخر على وائل.

كَتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن أبيه، عن كَثِير بن الصَّلْت؛ قال: وكان زياد بن لبيد حين رجع الكِنْديّون ولجُّوا ولجّ الحضرميون، ولى صدقات بني عمرو بن معاوية بنفسه، فقدِم عليهم وهم بالرِّياض، فصدّق أوّل مَن انتهى إليه منهم؛ وهو غلام، يقال له شَيْطان بن حُجْر؛ فأعجبته بَكْرة من الصّدقة، فدعا بنارٍ فوضع عليها المِيسَم، وإذا النَّاقة لأخي الشيطان العَدّاء بن حُجْر، وليست عليه صدقة، وكان أخوه قد أوهم حين أخرجها وظنَّها غيرها، فقال العدّاء: هذه شَذْرة باسمها؛ فقال

الشيطان: صدق أخي؛ فإني لم أعْطِكموها إلّا وأنا أراها غيرها؛ فأطلِق شذرة وخذ غيرها، فإنَّها غير متروكة. فرأى زياد أنّ ذلك منه اعتلال، واتَّهمه بالكفر ومباعدة الإسلام وتَحَرِّي الشرّ. فَحَمي وحَمِي الرجلان، فقال زياد: لا ولا تَنْعَم؛ ولا هي لك؛ لقد وقع عليها ميسَم الصدقة وصارت في حقّ الله، ولا سبيل إلى ردها، فلا تكون شذرة عليكم كالبَسُوس؛ فنادى العدّاء: يا آل عمرو، بالرياضِ أضامُ وأضطَهَد! إن الذليل مَنْ أكِل في داره! ونادى: يا أبا السُّمَيْط، فأقبل أبو السّميط حارثة بن سُراقة بن معدِ يكرب؛ فقصد لزياد بن لَبيد وهو واقف، فقال: أطلِق لهذا الفتى بَكْرته، وخذ بعيراً مكانها، فإنما بعير مكان بعير، فقال: ما إلى ذلك سبيل! فقال: ذلك إذا كنتَ يهوديًّا! وعاج إليها؛ فأطلق عِقالها، ثم ضرب على جَنْبها، فبعثها وقام دونها، وهو يقول:

يَمْنَعُهـا شيـخٌ بخـدَّيْـه الشَّيْبْ ... مُـلَمَّـعُ كـمـا يُـلَمَّـع الـثَّـوْبْ

فأمر به زياد شباباً من حضْرموت والسَّكون، فمغثوه وتوطؤوه، وكتفوه وكتفوا أصحَابه، وارتهنوهم، وأخذوا البَكْرة فعقلوها كما كانت؛ وقال زياد بن لَبيد في ذلك:

لـم يـمـنَـعِ الـشَّـذْرَةَ أُرْكُـوبُ ... والـشَّيْـخُ قـد يَـثْنِيـهِ أرْجُـوبُ

وتصايح أهلُ الرّياض وتنادَوْا، وغَضِبَتْ بنو معاوية لحارثة، وأظهروا أمرهم، وغضبت السَّكُون لزياد، وغضبت له حَضْرموت، وقاموا جميعاً دونه. وتَوافى عسكران عظيمان من هؤلاءوهؤلاء؛ لا تُحْدث بنو معاوية لمكان أَسَرائهم شيئاً، ولا يجد أصحاب زياد على بني معاوية سبيلا يتعلَّقون به عليهم؛ فأرسل إليهم زياد: إمَّا أن تَضَعُوا السِّلاح، وإما أن تُؤذِنوا بحرْب؛ فقالوا: لا نضع السِّلاح أبداً حتى ترسِلوا أصحابنا، فقال زياد: لا يُرْسَلون أبداً حتى ترفضُّوا وأنتم صَغَرَةٌ قَمَأة. يا أخابثَ النَّاس، ألستُم سكَّانَ حَضْرموت وجيران السَّكون! فما عسيتم أن تكونوا وتصنعوا في دار حَضْرموت؛ وفي جنوب مواليكم! وقالت له السَّكون: ناهِد القوم، فإنه لا يفطِمُهم إلّا ذلك، فنَهد إليهم ليلاً، فقتل منهم؛ وطاروا عَبادِيد، وتمثّل زياد حين أصبح في عسكرهم:

وكنتُ امـرأً لا أبعثُ الحـربَ ظـالـمـاً ... فلما أَبَوْا سـامَحتُ في حَرْبِ حـاطِبِ

ولَّما هرب القوم خَلَّى عن النفر الثلاثة؛ ورجع زياد إلى منزله على الظَّفر. ولما رجع الأَسَراء إلى أصحابهم ذَمَّرُوهم فتذامروا، وقالوا: لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلُو لأحد الفريقين. فأجمعوا وعسكروا جميعاً، ونادَوْا بمنع الصدقة، فتركهم زياد لم يخرج إليهم ،وتركوا المسير إليه. وأرسل إليهم الحُصَين بن نمَير، فما زال يُسفِر فيما بينهم وبين زياد وحَضْرموت والسَّكُون حتى سكن بعضهم عن بعض، وهذه النَّفْرة الثانية، وقال السَّكُونيّ في ذلك:

لَعَمْـري ومـا عمـري بعُـرْضـةِ جـانـبِ ... لَيَجْتَلِبُنْ منـهـا المـرارَ بـنـو عَمْـرو
كَـذَبْـتُمْ وبـيتِ الله لا تَـمْنَـعـونـهـا ... زيـاداً، وقـد جئنـا زيـاداً على قَـدْرِ

فأقاموا بعد ذلك يسيراً. ثم إن بني عمرو بن معاوية خصوصاً خرجوا إلى المحاجر، إلى أحماء حَمَوْها، فنزل جَمَد محجراً، ومِخْوص محجراً، ومِشْرح محجراً، وأبضَعة محجراً، وأختهم العَمَرَّدة محجراً ـ وكانت بنو عمرو بن معاوية على هؤلاء الرُّؤساء ـ ونزلت بنو الحارث بن معاوية محاجرها، فنزل الأشعث بن قيس مَحْجَراً، والسِّمط بن الأسود محجراً، وطابقت معاوية كلُّها عـلى منع الصـدقة، وأجمعـوا على الـرِّدّة إلا ما كـان من

شُرَحبيل بن السّمط وابنه، فإنهما قاما في بني معاوية، فقالا: والله إنّ هذا لقَبيحٌ بأقوام أحرار التنقُّل؛ إنّ الكرام ليكونون على الشّبهة فيتكرّمون أن يتنقّلوا منها إلى أوْضَح منها مخافة العار؛ فكيف بالرجوع عن الجميل، وعن الحقّ إلى الباطل والقبيح! اللهم إنّا لا نمالىء قومنا على هذا، وإنّا لَنادِمون على مجامعتهم إلى يومنا هذا ـ يعني يوم البكرة ويوم النُّفرة ـ وخرج شُرَحبيل بن السّمط وابنه السّمط، حتى أتيا زياد بنَ لَبيد، فانضمّا إليه، وخرج ابن صالح وامرؤ القيس بن عابس؛ حتى أتيا زياداً، فقالا له: بَيِّتِ القوم، فإنّ أقواماً من السَّكاسك قد انضمُّوا إليهم، وقد تسرّع إليهم قوم من السَّكُون وشُذّاذ من حَضْرموت، لعلّنا نُوقع بهم وَقْعة تُورث بيننا عداوة، وتفرِّق بيننا؛ وإن أبيتَ خشينا أن يرفض الناس عنّا إليهم؛ والقوم غارّون لمكان مَن أتاهم، راجون لمن بقِي. فقال: شأنَكم. فجمعوا جمعَهم، فطرقوهم في محاجرهم، فوجدوهم حول نيرانهم جلوساً، فعرفوا من يريدون فأكبّوا على بني عمرو بن معاوية؛ وهم عدَد القوم وشوكتهم، من خمسة أوجه في خمس فرق، فأصابوا مشرحاً ومخوصاً وجَمَداً وأبضعَة وأختهم العمَّردة، أدركتهم اللعنة، وقَتَلوا فأكثروا، وهرب مَنْ أطاق الهَرب، ووُهِّنت بنو عمرو بن معاوية، فلم يأتوا بخير بعدها، وانكفأ زياد بالسَّبْي والأموال، وأخذوا طريقاً يُفْضِي بهم إلى عَسْكر الأشعث وبني الحارث بن معاوية؛ فلمّا مرُّوا بهم فيه استغاث نسوةُ بني عمرو بن معاوية ببني الحارث ونادينه: يا أشعث، يا أشعث! خالاتك خالاتك! فثار في بني الحارث فتنقّذهم ـ وهذه الثالثة ـ وقال الأشعث:

منعتُ بني عمرو وقد جاء جمعُهمْ ... بأمْعَزَ من يوم البضيض وأصبَرا

وعلم الأشعث أنّ زياداً وجنْده إذا بلغهم ذلك لم يُقلعوا عنه ولا عن بني الحارث بن معاوية وبني عمرو بن معاوية، فجمع إليه بني الحارث بن معاوية وبني عمرو بن معاوية، ومَن أطاعه من السَّكاسك والخَصائص مِن قبائل ما حولهم، وتباين لهذه الوقعة مَن بحضْرموت من القبائل، فثبتَ أصحاب زياد على طاعةِ زياد، ولَجَّتْ كِنْدة، فلمّا تباينت القبائل كتب زيادٌ إلى المهاجِر، وكاتَبه النَّاس فتلقَّاه بالكتاب، وقد قطع صَهيد ـ مفازةٌ ما بين مأرب وحضرموت ـ واستخلف على الجيش عِكْرمة، وتعجَّل في سَرَعان النَّاس، ثم سَار حتى قدِم على زِياد؛ فَنَهَد إلى كِنْدة وعليهم الأشعث، فالتقوْا بمحجر الزُّرْقان فاقتتلوا به فهُزمت كندة، وقُتلت وخرجوا هُرّاباً، فالتجأتْ إلى النُّجَيْر وقد رَمُّوه وحصنوه، وقال في يوم مَحْجر الزُّرْقان المهاجر:

كُنّا بزُرْقان إذ يُشَرِّدُكُمْ ... بحرٌ يُزَجّي في مَوْجه الحَطَبا

نحن قتلناكُمُ بمحْجركم ... حتى ركبْتُمْ من خَوْفِنا السَّبَبا

إلى حصارٍ يكون أهْوَنَه ... سَبْيُ الذَّرارِي وسَوْقُها خَبَبا

وسار المهاجر في النَّاس من مَحْجر الزُّرْقان حتى نزل على النُّجَير، وقد اجتمعت إليه كندة، فتحصّنوا فيه؛ ومعهم من استغْوَوْا من السكاسك وشُذّاذ من السَّكون وحضْرموت والنُّجير، على ثلاثة سُبُل، فنزل زياد على أحدها، ونزل المهاجر على الآخر، وكان الثالث لهم يؤتون فيه ويذهبون فيه، إلى أن قدم عِكْرِمة في الجيش، فأنزله على ذلك الطَّريق، فقطع عليهم الموادّ وردّهم، وفرَّق في كِنْدة الخيول، وأمرَهم أن يُوطِئوهم. وفيمن بعث يزيد بن قَنَان من بني مالك بن سعد، فقتل مَن بقرى بني هند إلى بَرَهُوت، وبعث فيمَن بعث إلى السَّاحل خالدَ بن فلان المخزوميّ وربيعة الحضرميّ، فقتلوا أهل مَحَا وأحياء أخَر؛ وبلغ كِنْدة وهم في الحِصار ما لقيَ

سائر قومهم، فقالوا: الموت خير ممَّا أنتم فيه؛ جُزُّوا نواصيَكم حتى كأنَّكم قومٌ قد وهبتم لله أنفسَكم، فأنعم عليكم فبؤتم بنعمه؛ لعلَّه أن ينصرَكم على هؤلاء الظَّلَمة. فجزُّوا نواصِيَهم، وتعاقدوا وتواثقوا ألّا يفرّ بعضُهُم عن بعض، وجعل راجزهم يرتجز في جوف الليل فوق حصنهم:

صَبَاحُ سَوْء لبني قَتِيرهْ ولِلأمير من بني المغِيرهْ

وجعل راجزُ المسلمين زياد بن دينار يردّ عليهم:

لا توعِدُونا واصْبروا حَصِيرهْ نحنُ خيولُ وَلدِ المغيرهْ

وفي الصَّبَاح تَظفَرُ العشيرهْ

فلمَّا أصبحوا خرجوا على النَّاس، فاقتتلوا بأفنية النُّجير، حتى كثرت القتلى بحِيال كلّ طريق من الطرق الثلاثة، وجعل عِكْرِمة يرتجز يومئذ، ويقول:

أطعنُهمْ وأنا على أوْفَازِ طَعْناً أبوءُ به على مَجَازِ

ويقول:

أنْفِذُ قولي وله نفَاذُ وكلُّ مَنْ جاوَرني مُعَاذُ

فهزِمت كِنْدة، وقد أكثروا فيهم القتل.

وقال هشام بن محمد: قدِم عِكْرِمة بن أبي جهل بعد ما فرغ المهاجر من أمرِ القوْم مدداً له، فقال زياد والمهاجر لمن معهما: إنّ إخوانَكم قَدِموا مدداً لكم، وقد سبقتموهم بالفتح فأشركوهم في الغنيمة. ففعلوا وأشرَكوا من لحق بهم، وتواصوْا بذلك، وبعثوا بالأخماس والأسْرى، وسار البشير فسبقهم؛ وكانوا يبشّرون القبائل ويقرؤون عليهم الفتح.

وكتب إليّ السّريّ، قال: كتب أبو بكر رحمه الله إلى المهاجر مع المغيرة بن شعبة: إذا جاءكم كتابي هذا ولم تظفَروا؛ فإن ظفرتم بالقوم فاقتلوا المقاتِلة؛ واسبُوا الذرّيَّة إن أخذتموهم عَنْوة، أو ينزلوا على حكمي، فإن جَرَى بينكم صُلْح قبل ذلك فعلَى أن تخرجوهم من ديارهم؛ فإنّي أكْرَهُ أن أقرّ أقواماً فعلوا فعلهم في منازلهم، ليعلموا أن قد أساءوا، وليذوقوا وَبال بعض الذي أتَوْا.

قال أبو جعفر: ولما رأى أهل النُّجَير الموادّ لا تنقطع عن المسلمين، وأيقنوا أنَّهم غيرُ منصرفين عنهم، ...عت أنفسهم، ثمَّ خافوا القتل، وخاف الرُّؤساء على أنفسهم؛ ولو صبروا حتَّى يجيء المغيرة لكانت لهم في ... على الجلاء نَجاةً. فعجَّل الأشعث، فخرج إلى عكْرِمة بأمان، وكان لا يأمن غيرَه؛ وذلك أنَّه ...مان بن الجَوْن، خطبها وهو يومئذ بالجند ينتظِر المهاجر، فأهداها إليه أبوها قبل أن ...أمنه له على نفسه، ونَفَر معه تسعة؛ على أن يؤمِّنهم وأهلِيهم وأن يفتحوا لهم ... ثقْ لنفسك، ثم هلمّ كتابك أختمه.

...، إسحاق الشَّيْباني، عن سعيد بن أبي بُرْدة، عن ... أن يفتح لهم الباب فيدخلوا على قومه،

فقال له المهاجر: اكتب ما شئت واعْجل، فكتب أمانه وأمانهم، وفيهم أخوه وبنو عمّه وأهلُوهم، ونسيَ نفسه، عَجِلَ ودَهِشَ. ثم جاء بالكتاب فختمه؛ ورجع فسرّب الّذين في الكتاب.

وقال الأجْلَح والمجالد: لَمَّا لم يبق إلاّ أن يكتب نفسه وثب عليه جَحْدَم بشَفْرة، وقال: نفسَك أو تكتبني! فكتبه وترك نفسه.

قال أبو إسحاق: فلمّا فتح الباب اقتحمه المسلمون فلم يَدَعوا فيه مقاتلا إلاّ قتلوه؛ ضَرَبوا أعناقهم صبْراً، وأحصي ألف امرأة ممّن في النُّجير والخَنْدق؛ ووضع على السَّبْى والفَيْء الأحراس، وشاركهم كثير.

وقال كَثِير بن الصّلت: لَمّا فُتح الباب وفُرغ ممّن في النُّجير، وأحصيَ ما أفاء الله عليهم، دعا الأشعث بأولئك النَّفر، ودعا بكتابه فعرَضهم، فأجاز مَن في الكتاب، فإذا الأشعث ليس فيه، فقال المهاجر: الحمد لله الّذي أخطأك نوْءُك يا أشعث، يا عدوّ الله! قد كنت أشتهي أن يخزيَك الله. فشدّه وَثاقا، وهمّ بقتله، فقال له عكرمة: أخِّرْه، وأبلْغه أبا بكر، فهو أعلمُ بالحكْم في هذا. وإنه كان رجلاً نسي اسمه أن يكتبه؛ وهو وليّ المخاطبة. أفذاك يبطل ذاك! فقال المهاجر: إنّ أمره لبينٌ، ولكني أتّبع المشورة وأوثرها. وأخَّرَه وبعث به إلى أبي بكر مع السَّبي، فكان معهم يلعنه المسلمون ويلعنه سبايا قومِه، وسمَّاه نساء قومه عُرْفَ النَّار ـ كلامٌ يمانٍ يسمّون به الغادر ـ وقد كان المغيرة تحيّر ليلَه للّذي أراد الله، فجاء والقوم في دمائهم والسَّبي على ظَهْر، وسارت السبايا والأسْرى، فقدم القوم على أبي بكر رحمه الله بالفَتْح والسَّبايا والاسرى. فدعا بالأشعث، فقال: استزّلك بنو وَليعة، ولم تكن لتستزلَّ لهم ـ ولا يروْنك لذلك أهلاً ـ وهلكوا وأهلكوك! أما تَخشى أن تكون دعوةُ رسولِ الله ﷺ قد وصل إليك منها طرفٌ! ما تراني صانعاً بك؟ قال: إني لا علـم لي برأيك، وأنت أعلم برأيك، قال: فإنّي أرى قتلك. قال: فإنّي أنا الذي راوضتُ القوم في عشرة، فما يحلُّ دمي، قال: أفَوّضُوا إليك؟ قال: نعم، قال: ثم أتيتَهُمْ بما فَوّضُوا إليك فختموه لك؟ قال: نعم، قال: فإنّما وجب الصّلح بعد خَتْم الصحيفة على مَن في الصحيفة، وإنّما كنتَ قبل ذلك مُراوضاً. فلمّا خَشيَ أن يقع به قال: أو تحتسب فيّ خيراً فتطلق إساري وتُقِيلني عثرتي، وتقبل إسلامي، وتفعل بي مثل ما فعلتَه بأمثالي وتردّ عليّ زوجتي ـ وقد كان خطب أمَّ فَرْوة بنت أبي قحافة مَقْدَمَه على رسول الله ﷺ؛ فزوّجه وأخّرها إلى أنْ يقدم الثانية، فمات رسولُ الله ﷺ، وفعل الأشعث ما فعل، فخشيَ ألاّ تُرَدّ عليه ـ تجدُني خيْرَ أهل بلادي لدين الله! فتجافَى له عن دمه، وقَبِل منه، وردّ عليه أهله، وقال: انطلِقْ فلْيبلغني عنك خيرٌ وخلّى عن القوم فذهبوا، وقسّم أبو بكر في الناس الخُمْس، واقتسم الجيش الأربعة الأخماس.

قال أبو جعفر: وأمَّا ابنُ حُميد، فإنه قال: حَدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، أنَّ الأشعث لَمَّا قُدِم به على أبي بكر، قال: ماذا تراني أصنع بك؛ فإنَّك قد فعلتَ ما علمتَ! قال: تَمُنُّ عليّ فتَفُكّني من الحديد وتزوّجني أختَك؛ فإني قد راجعتُ وأسلمتُ. فقال أبو بكر: قد فعلتُ. فزوّجه أمّ فروة ابنة أبي قُحافة، فكان بالمدينة حتى فتح العراق.

رجع الحديث إلى حديث سيف. فلمَّا ولي عمر رحمه الله، قال: إنّه لَيقبُح بالعرب أن يملِك بعضُهم بعضاً، وقد وسَّع الله، وفتح الأعاجم. واستشار في فداء سَبَايا العرب في الجاهليَّة والإسلام إلاّ امرأة [illegible] لسيّدها، وجعل فداء كلّ إنسان سبعةَ أبعرة وستَّةَ أبعرة إلاّ حَنيفة كندة؛ فإنّه خَفّف

يقدر على فداء لقيامهم وأهل دَبَا، فتتبَّعتْ رجالُهم نساءَهم بكلّ مكان. فوجد الأشعثُ في بني نَهْد وبني غُطَيْف امرأتين؛ وذلك أنَّه وقف فيها يسأل عن غُراب وعُقاب، فقيل: ما تريد إلى ذلك؟ قال: إنّ نساءنا يوم النُّجير خطفهنّ العِقْبان والغربان والذِّئاب والكلاب. فقال بنو غطيف: هذا غُراب، قال: فما موضعه فيكم؟ قالوا: في الصِّيانة، قال فنعم، وانصرف. وقال عمر: لا مِلْكَ عَلَى عربيّ، للذي أجمع عليه المسلمون معه.

قالوا: ونظر المهاجر في أمر المرأة التي كان أبوها النُّعمان بن الجَوْن أهدَاها لرسولِ الله ﷺ؛ فوصفها أنَّها لم تَشْتَكِ قط فردَّها، وقال: لا حاجةَ لنا بها، بعد أن أجلَسها بين يديه وقال له: لو كان لها عند الله خيرٌ لاشتكت. فقال المهاجر لعِكْرِمة: متى تزوجتَها؟ قال: وأنا بعَدن، فأهديتْ إليّ بالجَنَد، فسافرت بها إلى مأرِب، ثم أوردتُها العسكر. فقال بعضم: دعْها فإنَّها ليست بأهل أن يُرغَب فيها. وقال بعضُهم: لا تَدَعْها. فكتب المهاجر إلى أبي بكر رحمه الله يسأله عن ذلك، فكتب إليه أبو بكر: إنّ أباها النُّعمان بن الجَوْن أتى رسولَ الله ﷺ، فزيَّنها له حتى أمره أن يجيئه بها، فلمَّا جاءه بها قال: أزيدك أنـها لم تِيجعْ شيئاً قطّ، فقال: لو كان لها عند الله خيرٌ لاشتكتْ، ورغب عنها، فارغَبُوا عنها. فأرسلها وبقي في قريش بعد ما أمر عمر في السَّبْي بالفداء عدَّةٌ، منهم بشرى بنت قيس بن أبي الكيسم عند سعد بن مالك، فولدت له عمر، وزُرْعة بنت مِشْرَح عند عبدالله بن العباس ولدت له عليًّا.

وكتب أبو بكر إلى المهاجر يخيِّره اليمَن أو حضرموت؛ فاختار اليَمَن، فكانت اليمن على أميرين: فيروز والمهاجر، وكانت حضْرموت على أميرين: عُبيدة بن سعد على كندة والسَّكاسك، وزياد بن لَبيد على حَضْرموت.

وكتب أبو بكر إلى عمَّال الرِّدّة: أمَّا بعدُ، فإنّ أحبَّ مَنْ أدخلتم في أموركم إليّ مَن لم يرتدّ ومَن كان ممَّن لم يرتدّ، فأجمعوا على ذلك، فاتّخذوا منها صنائع، وائذنوا لمن شاء في الانصراف، ولا تستعينوا بمرتدّ في جهاد عدوّ.

وقال الأشعث بن مئناس السَّكونيّ يبكي أهل النُّجيْر:

لعَمْـرِي ومـا عَمْـرِي عَلَيَّ بهَيِّنٍ ... لقـد كنتُ بـالقَتْلى لـحقّ ضَـنِيـنِ
فـلا غَـرْوَ إلا يـومَ أَقْـرِعَ بينهـمْ ... ومـا الـدَّهـرُ عنـدي بَعْـدَهم بـأمِينِ
فليتَ جُنُوبَ الناس تحتَ جنوبهم ... ولم تَمْشِ أنْثى بعـدهم لِجَنـينِ
وكنتُ كـذات البَـوِّ ريعَتْ فـأقبلتْ ... عـلى بَـوِّهـا إذ طَـرَّبَتْ بـحنيـنِ

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن موسى بن عُقْبَة، عن الضّحاك بن خليفة، قال: وقع إلى المهاجر امرأتان مُغَنِّيتان؛ غَنَت إحداهما بشتْم رسولِ الله ﷺ، فقطع يدها، ونزع ثنيَّتها؛ فكتب إليه أبو بكر رحمه الله: بَلَغني الذي سِرْتَ به في المرأة التي تغنَّت وزمرت بشتيمة رسولِ الله ﷺ؛ فلو لا ما قد سبقْتني فيها لأمرتك بقتْلها؛ لأنّ حدّ الأنبياء لَيس يشبه الحدود، فمن تعاطَى ذلك من مسلم فهو مرتدّ، أو معاهد فهو محارب غادر.

وكتب إليه أبو بكر في التي تغنّت بهجاء المسلمين: أما بعدُ؛ فإنه بلغني أنَّك قطعت يـدامرأة في أن تغنَّت بهجاء المسلمين، ونزعت ثنيتها فإن كانت ممن تدّعي الإسلام فأدبٌ وتقدمةٌ دون المثلـة، وإن كانت ذِمِّيـة فلعمري لماصفحتعنه من الشِّرْكِ أعظم، ولو كنتُ تقدّمت إليك في مثل هذا لَبلغتُ مكروهاً؛ فاقبل الدّعة

وإياك والمُثلة في الناس؛ فإنها مأثم ومُنَفّرة إلّا في قصاص.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة إحدى عشرة ـ انصرف مُعاذ بن جبل من اليمن.

واستقضى أبو بكر فيها عمر بن الخطاب، فكان على القضاء أيَّام خلافته كلّها.

وفيها أمَّر أبو بكر رحمه الله على الموسِم عتَّاب بن أسِيد ـ فيما ذكره الذين أسند إليهم خبره عليّ بن محمد الذين ذكرت قبل في كِتابي هذا أسماءَهم.

وقال علي بن محمد: وقال قومٌ: بل حجّ بالناس في سنة إحدى عشرة عبد الرحمن بن عوف عن تأمير أبي بكر إيَّاه بذلك.

ثم كانت سنة اثنتي عشرة من الهجرة

قال أبو جعفر، ولمّا فرغ خالدٌ من أمر اليمامة، كتب إليه أبو بكر الصّدّيق رحمه الله؛ وخالد مقيم باليمامة ـ فيما حدّثنا عُبيد الله بن سعد الزُّهريّ، قال: أخبرنا عمّي، قال: أخبرنا سَيف بن عمر، عن عمرو بن محمّد، عن الشعبيّ: أنْ سِر إلى العراق حتى تدخلَها؛ وابدأ بفرْج الهند، وهي الأبُلَّة، وتألَّف أهلَ فارس، ومَن كان في مُلْكِهم من الأمم.

حَدّثني عمر بن شَبَّة، قال: حدّثنا عليّ بن محمد بالإسناد الّذي قد تَقدّم ذكرُه، عن القوم الذين ذكرتهم فيه، أنّ أبا بكر رحمه الله وجّه خالدَ بن الوليد إلى أرضِ الكوفة، وفيها المثنًّى بن حارثة الشيباني، فسار في المحرّم سنة اثنتي عشرة، فجعل طريقه البصرة، وفيها قُطْبة بن قَتادة السَّدُوسيّ.

قال أبو جعفر: وأمّا الواقديّ، فإنه قال: اختُلف في أمر خالد بن الوليد، فقائل يقول: مضى من وجهه ذلك من اليَمامة إلى العراق. وقائل يقول: رجع من اليمامة، فقدم المدينة، ثم سار إلى العراق من المدينة على طريق الكُوفة؛ حتى انتهى إلى الحِيرة.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن صالح بن كيسان؛ أنّ أبا بكر رحمه الله كتَبَ إلى خالد بن الوليد يأمُره أن يسير إلى العراق، فمضى خالدٌ يريد العراق، حتى نزل بقُرَيّات من السّواد، يقال لها: بانِقْيا وبارُوسْما وألَّيس؛ فصالحه أهلُها، وكان الّذي صالحه عليها ابن صَلوبا، وذلك في سنة اثنتي عشرة، فقبل منهم خالد الجِزْية وكتب لهم كتاباً فيه: بسم الله الرّحمن الرّحيم. من خالد بن الوليد لابن صلوبا السَّواديّ ـ ومنزله بشاطىء الفُرات ـ إنَّك آمنٌ بأمان الله ـ إذْ حَقن دمه بإعطاء الجزية ـ وقد أعطيتَ عن نفسك وعن أهل خَرْجك وجزيرتك ومَنْ كان في قريتيك ـ بانقيا وباروسما ـ ألف درهم ـ فقبلتُها منك، ورضيَ مَن معي من المسلمين بها منك، ولك ذمَّة الله وذمَّة محمَّد ﷺ، وذمَّة المسلمين على ذلك. وشهد هشام بن الوليد.

ثم أقبل خالد بن الوليد بمن معه حتى نزل الحيرة، فخرج إليه أشرافُهم مع قَبيصة بن إياس بن حيَّة الطائيّ ـ وكان أمَّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر ـ فقال له خالد ولأصحابه: أدعُوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتمْ من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم؛ فإن أبيْتم فالجزية، فإن أبيتم الجِزية فقد أتيتُكم بأقوام هم أحرصُ علَى الموت منكم على الحياة؛ جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

فقال له قَبيصة بن إياس: ما لنا بحرْبك من حاجة، بل نقيم على دِيننا، ونعطيك الجِزْية. فصالحهم على تسعين ألف درهم، فكانت أوّل جزية وقعت بالعراق، هي القُرَيّات الّتي صالح عليها ابن صلوبا.

قال أبو جعفر: وأمّا هشام بن الكلبيّ؛ فإنه قال: لمّا كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة أن يسير إلى الشأم، أمره أن يبدأ بالعراق فيمرّ بها؛ فأقبل خالد منها يسير حتى نزل النِّباج.

قال هشام: قال أبو مخنف: فحدّثني أبو الخطّاب حمزة بن عليّ، عن رجل من بكْر بن وائل، أنّ المثنى بن حارثة الشَّيبانيّ، سار حتى قدِم على أبي بكر رحمه الله، فقال: أمِّرني على مَنْ قِبَلي من قومي؛ أقاتل مَن يليني من أهل فارس، وأكفِيك ناحيتي، ففعل ذلك؛ فأقبل فجمع قومَه وأخذ يُغير بناحية كَسْكَر مرّة، وفي أسفل الفرات مرّة، ونزل خالد بن الوليد النِّباج والمثَنَّى بن حارثة بخفَّانَ معسكرٌ، فكتب إليه خالد بن الوليد ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبي بكر يأمره فيه بطاعته؛ فانقضّ إليه جواداً حتى لحق به، وقد زعمت بنو عِجْل أنّه كان خرج مع المثنَّى بن حارثة رجلٌ منهم يقال له مذعور بن عديّ، نازع المثنَّى بن حارثة، فتكاتبا إلى أبي بكر؛ فكتب أبو بكر إلى العِجْليّ يأمره بالمسير مع خالد إلى الشأم، وأقرّ المثنَّى على حاله، فبلغ العجليُّ مصرَ، فشرُف بها وعظم شأنه، فدارُه اليوم بها معروفة؛ وأقبل خالد بن الوليد يسير، فعرض له جابانُ صاحِب ألّيس، فبعث إليه المثنَّى بن حارثة، فقاتله فهزمه، وقتل جُلّ أصحابه، إلى جانب نهرٍ ثَمَّ يُدعى نهر دم لتلك الوقعة؛ وصالح أهلَ ألّيس، وأقبل حتى دنا من الحِيرة، فخرجت إليه خيول آزاذبه صاحب خيل كسرى التي كانت في مسَالح ما بينه وبين العرب، فلقُوهم بمجتَمع الأنهار، فتوجّه إليهم المثنّى بن حارثة، فهزمهم الله.

ولمّا رأى ذلك أهلُ الحيرة خرجوا يستقبلونه؛ فيهم عبد المسيح بن عمرو بن بُقَيلة وهانىء بن قَبِيصة، فقال خالد لعبد المسيح: من أين أثَرُك؟ قال: من ظَهْر أبي، قال: من أينَ خرجت؟ قال: من بطن أمّي، قال: ويحك! علَى أيّ شيء أنت؟ قالَ: على الأرض، قال: ويلَك! في أيّ شيء أنت؟ قال: في ثيابي، قال: ويحك! تعقل؟ قال: نعم وأقيِّد، قال: إنّما أسألك، قال: وأنا أجيبُك، قال: أسلِمٌ أنت أم حربٌ؟ قال: بل سِلْم، قال: فما هذه الحصون التي أرى؟ قال: بنيناها للسَّفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه. ثم قال لهم خالد: إنِّي أدعُوكم إلى الله وإلى عبادته وإلى الإسلام، فإن قبلتم فلكم ما لَنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزْية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبُّون الموت كما تحبّون أنتم شرب الخمر. فقالوا: لا حاجة لنا في حَرْبك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم، فكانت أوّلَ جزية حملت إلى المدينة من العراق. ثم نزل على بانِقْيا، فصالحه بُصْبُهْرى بن صلوبا على ألف درهم وطيلسان؛ وكتب لهم كتاباً، وكان صالح خالد أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً، ففعلوا.

قال هشام، عن أبي مخنف، قال: حدّثني المجالد بن سعيد، عن الشَّعبي، قال: أقرأني بنو بُقيلة كتابَ خالد بن الوليد إلى أهل المدائن:

من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس؛ سلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعدُ، فالحمدُ لله الذي فَضَّ خَدَمتكم، وسلب مُلْككم، ووهن كيدَكم. وإنّه مَن صلَّى صلاتنا؛ واستقبَل قبلتَنا، وأكلَ ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ما لنا، وعليه ما علينا. أمّا بعد، فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إليّ بالرُّهُن، واعتقدوا منيِّ الذّمة، وإلاّ فوالَّذي لا إله غيره لأبعثنّ إليكم قوماً يحبُّون الموت كما تحبّون الحياة.

فلما قرؤوا الكتاب، أخذوا يتعجَّبون، وذلك سنة اثنتي عشرة.

قال أبو جعفر: وأما غيرُ ابن إسحاق وغير هشام ومَن ذكرت قولَه من قَبْل، فإنّه قال في أمر خالد ومسيره

إلى العراق ما حدّثنا عُبيد الله بن سعد الزُّهريّ، قال: حدّثني عمِّي، عن سيف بن عمـر، عن عمرو بن محمد، عن الشَّعبيّ، قال: لَّما فرغَ خالد بن الوليد من اليَمامة، كتب إليه أبو بكر رحمه الله: إن الله فتحَ عليك فعارِقْ حتَّى تلقى عِياضاً. وكتب إلى عياض بن غَنْم وهو بين النِّبَاج والحجاز: أن سِرْ حتَّى تأتيَ المُصَيَّخَ فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالداً. وأذَنَا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكارِهٍ.

ولما قدم الكتاب على خالد وعياض، وأذنا في القفْل عن أمر أبي بكر قَفل أهلُ المدينة وما حولَها وأعروهما، فاستمدّا أبا بكر، فأمدّ أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو التميميّ، فقيل له: أتمدّ رجلاً قد ارفضّ عنه جنودُه برجل! فقال: لا يُهْزم جيشٌ فيهم مثل هذا. وأمدّ عِياضاً بعبد بن عوف الحميريّ، وكتب إليهما أن استنفرا مَن قاتل أهل الردّة، ومَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزونّ معكم أحدٌ ارتدّ حتى أرَى رأيي. فلم يشهد الأيَّام مرتَدّ.

فلمَّا قدِم الكتاب على خالد بتأمير العراق. كتب إلى حَرْمَلَة وسُلْمَى والمثنَّى ومذعور باللّحاق به، وأمرهم أن يواعدوا جنودَهم الأُبُلَّة، وذلك أنّ أبا بكرٍ أمر خالداً في كتابه: إذا دخلَ العراق أن يبدأ بفرْج أهل السِّنْد والهِنْد ـ وهو يومئذ الأُبُلَّة ـ ليوم قد سمَّاه، ثم حشر مَن بينه وبين العراق، فحشر ثمانية آلاف من رَبيعة ومُضر إلى ألفيْن كانا معه، فقدم في عشرة آلاف على ثمانية آلاف ممَّن كان مع الأمراء الأربعة ـ يعني بالأمراء الأربعة: المثنَّى، ومذعوراً، وسُلْمى، وحرملة ـ فلقيَ هُرْمُزَ في ثمانية عشر ألفاً.

حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن المهلَّب الأسديّ عن عبـد الرحمن بن سِيـاه، وطلحة بن الأعلَم، عن المغِيرة بن عُتَيبة، قالوا: كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد، إذ أمَّره على حرب العراق؛ أن يدخلَها من أسفلها. وإلى عياض إذ أمّره على حرب العراق؛ أن يدخلَها من أعلاها؛ ثم يستبقا إلى الحيرة، فأيّهما سبق إلى الحيرة فهو أميرٌ على صاحبه، وقال: إذا اجتمعتُما بالحيرة، وقد فضضتما مسالحَ فارس وأمِنْتُما أن يؤتَى المسلمون من خلْفهم، فليكن أحدكما رِدْءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة؛ وليقتحم الآخر على عدوّ الله وعدوكم من أهل فارس دارَهم ومستقَرَّ عِزّهم؛ المدائن.

حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمِّي، عن سيف، عن المجالد، عن الشّعبيّ، قال: كتب خالد إلى هُرمز قبل خروجه مع آزاذبه ـ أبي الزياذبة الَّذين باليمامة وهرمز صاحب الثَّغر يومئذ: أمَّا بعدُ، فأسلِمْ تَسْلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة، وأقرِرْ بالجزية؛ وإلا فلا تلومنّ إلاّ نفسَك، فقد جئتُك بقومٍ يحبّون الموت كما تحبُّون الحياة.

قال سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن المغيرة بن عتيبة ـ وكان قاضيَ أهل الكوفة ـ قال: فرّق خالد مخرَجه من اليمامة إلى العراق جندَه ثلاث فِرَق، ولم يحمِلْهم على طريق واحدة. فسرَّح المثنَّى قبلَه بيومين ودليله ظَفَر، وسرّح عديّ بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عبَّاد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم؛ وخرج خالد ودليله رافع؛ فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصادموا به عدوّهم؛ وكان فرْج الهند أعظَم فروج فارس شأنا، وأشدَّها شَوْكةً، وكان صاحبه يحارب العرب في البرّ والهند في البحر.

قال ـ وشاركه المهلَّب بن عُقْبة وعبد الرحمن بن سِياه الأحمريّ، الذي تُنْسَب إليه الحمراء؛ فيقال: حمراء سياه ـ قال: لَّما قدِم كتاب خالد على هُرْمز كتب بالخبر إلى شِيرَى بن كسرى وإلى أردشير بن شيرى وجمع جموعه،

ثم تعجَّل إلى الكواظم في سَرعَان أصحابه ليتلقَّى خالداً، وسبَّق حلْبَته فلم يجدها طريق خالد، وبلَغه أنَّهم تواعدوا الحفيرَ، فعاج يبادره إلى الحفِير فنزله، فتعبّى به، وجعل على مجنَّبته أخوين يُلاقيان أرْدَشير وشيرى إلى أردشير الأكبر، يقال لهما: قُباذ وأنوشَجان، واقترنوا في السلاسل، فقال مَن لم ير ذلك لمن رآه: قيَّدتم أنفسكم لعدوّكم، فلا تفعلوا، فإنّ هذا طائر سَوْءٍ، فأجابوهم وقالوا: أمَّا أنتم فحدّثوننا أنَّكم تريدون الهَرَب. فلما أتى الخبر خالداً بأنّ هرمز في الحفير أمالَ النَّاس إلى كاظِمَةَ، وبلغ هرمزَ ذلك. فبادره إلى كاظمة فنزلها وهو حسير؛ وكان من أسْوَأ أمراء ذلك الفرْج جِواراً للعرب، فكلّ العرب عليه مَغِيظ؛ وقد كانوا ضربوه مثلاً في الخُبث حتى قالوا: أخبث من هرمز، وأكفر من هرمز. وتعبّى هرمز وأصحابه واقترنوا في السلاسل، والماء في أيديهم. وقدم خالد عليهم فنزل على غير ماءٍ، فقالوا له في ذلك، فأمر مناديَه، فنادى: ألا انزِلوا وحُطُّوا أثقالكم، ثم جالِدوهم على الماء، فلَعمري ليصيرَنّ الماءُ لأصْبَرِ الفريقين، وأكرم الجندَيْن؛ فحُطَّت الأثقال والخيل وقُوف، وتقدّم الرَّجْل، ثم زحف إليهم حتى لاقاهم؛ فاقتتلوا، وأرسل الله سحابةً فأغْزَرت ما وراء صفّ المسلمين، فقوّاهم بها؛ وما ارتفع النهار وفي الغائط مقترِن.

حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمِّي، عن سيف، عن عبد الملك بن عطاء البَكَّائيّ؛ عن المقطَّعْ بن الهيثم البكائيّ بمثله، وقالوا: وأرسل هُرمز أصحابه بالغدِ ليغدِروا بخالد، فواطؤوه على ذلك، ثم خرج هُرْمز، فنادى رجلٌ ورجلٌ: أين خالد؟ وقد عهد إلى فرسانه عهدَه، فلمَّا نزل خالد نزلَ هرمز، ودعاه إلى النزال فنزل خالد فمشَى إليه، فالتقيا فاختلفا ضربتيْن، واحتضنه خالدٌ، وحملت حامية هُرْمز وغدرت، فاستلحموا خالداً، فما شغله ذلك عن قتله. وحمل القَعْقاع بن عمرو واستلحم حُماةَ هرمز فأناموهم؛ وإذا خالد يُمَاصعهم، وانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافَهم إلى الليل، وجمع خالد الرّثاث وفيها السَّلاسل، فكانت وقْرَ بعيرٍ، ألف رطل، فسمِّيت ذات السلاسل، وأفلت قُباذ وأنو شجان.

حدثنا عبيدُ الله، قال: حدّثني عمِّي، عن سيف، عن عمرو بن محمَّد؛ عن الشعبيّ، قال: كان أهلُ فارس يجعلون قلانسَهم على قَدْر أحسابهم في عشائرهم، فَمنْ تمّ شرفُه فقيمة قلنسوته مائة ألف. فكان هرمز ممنْ تَمّ شرفه، فكانت قيمتها مائة ألف؛ فنفّلها أبو بكر خالداً، وكانت مفصَّصة بالجوهر، وتمام شرف أحدِهم أن يكون من بُيوتات.

حدّثنا عُبيدالله، قال: حدثني عمِّي عن سيف، عن محمَّد بن نَوْيرة، عن حنظلة بن زياد بن حنظلة، قال: لما تراجع الطَّلب من ذلك اليوم، نادى منادي خالد بالرّحيل، وسار بالنَّاس، واتَّبعته الأثقال؛ حتى ينزل بموضع الجسْر الأعظم من البصرة اليوم، وقد أفلت قُباذ وأنوشجان، وبعث خالد بالفتح وما بقيَ من الأخماس وبالفيل، وقرأ الفتح على الناس. ولما قدم زِرّ بن كليب بالفِيل مع الأخماس، فطِيف به في المدينة ليراه النَّاس، جعل ضعيفات النساء يقلن: أمِن خلْق الله ما نرى! ورأينَه مصنوعاً، فردّه أبو بكر مع زِرّ. قال: ولما نزل خالد موضع الجسر الأعظم اليوم بالبَصْرة؛ بعث المثنَّى بن حارثة في آثار القوم؛ وأرسل معقل بن مُقرِّن المُزَنيّ إلى الأُبلَّة ليجمع له مالها والسّبي، فخرج معقل حتى نزل الأُبلَّة فجمع الأموال والسبايا.

قال أبو جعفر: وهذه القصة في أمر الأُبلَّة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السِّير، وخلاف ما جاءت به الآثار الصِّحَاح، وإنما كان فتح الأبلَّة أيـام عُمر رحمه الله، وعلى يد عُتْبة بن غَزْوان في سنة أربع عشرة من الهجرة؛

وسنذكر أمرها وقصّة فتحها إذا انتهينا إلى ذلك إن شاء الله .

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن محمّد بن نويرة، عن حنظلة بن زياد، قال: وخرج المثنّى حتّى انتهى إلى نهر المرأة، فانتهى إلى الحصن الذي فيه المرأة، فخلَف المُعَنَّى بن حارثة عليه، فحاصرها في قَصْرها، ومضى المثنى إلى الرَّجُل فحاصره ثم استنزلهم عَنْوَةً؛ فقتلهم واستفاء أموالهم؛ ولمّا بلغ ذلك المرأة صالحت المثنّى وأسلمتْ، فتزوّجها المعنّى، ولم يحرّكْ خالد وأمراؤه الفلاّحين في شيء من فتوحهم لتقدُّم أبي بكر إليه فيهم، وسَبى أولاد المقاتلة الّذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم، وأقرّ مَن لم ينهض من الفلاحين، وجعل لهم الذِّمَّة؛ وبلغ سهمُ الفارس في يوم ذات السلاسل والثِّنْي ألف درهم، والراجل على الثلث من ذلك.

قال: وكانت وقعة المذار في صفر سنة اثنتي عشرة، ويومئذ قال الناس: صفر الأصفار، فيه يقتَل كلّ جبَّار، على مجمع الأنهار. حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمِّي، عن سيف، عن زياد والمهلَّب، عن عبد الرحمن بن سياه الأحمريّ.

وأمّا فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، فإنّه عن سيف، عن المهلّب بن عُقْبة وزياد بن سَرْجِس الأحمريّ وعبد الرحمن بن سياه الأحمريّ وسفيان الأحمريّ، قالوا: وقد كان هُرْمز كتب إلى أردشير وشيرى بالخبر بكتاب خالد إليه بمسيره من اليمامة نحوه، فأمدّه بقارِن بن قريانس، فخرج قارن من المدائن مُمِدًّا لهرمز؛ حتى إذا انتهى إلى المذار بلغتْه الهزيمة؛ وانتهت إليه الفُلاّل فتذامَروا، وقال فُلاّل الأهواز وفارس لفُلاّل السواد والجبَل: إن افترقتم لم تجتمعوا بعدَها أبداً؛ فاجتمِعوا على العَوْد مرّة واحدة، فهذا مدد الملك وهذا قارن، لعلّ الله يُديلُنا ويشفينا من عدوّنا ونُدرك بعضَ ما أصابوا منّا. ففعلوا وعسكروا بالمذار، واستعمل قارن على مجنّبته قُباذ وأنوشجان، وأرَز المثنّى والمعنّى إلى خالد بالخبَر؛ ولمّا انتهى الخبر إلى خالد عن قارن قسّم الفَيْء على مَن أفاءه الله عليه، ونفّل من الخُمْس ما شاء الله، وبعث ببقيَّته وبالفتح إلى أبي بكر وبالخَبَر عن القوم وباجتماعهم إلى الثِّنْي المغيثِ والمغاث، مع الوليد بن عُقْبة - والعرب تسمى كلّ نهر الثِّنْي - وخرج خالد سائراً حتى ينزل المذار على قارن في جموعه؛ فالتقوْا وخالد على تعبيته، فاقتتلوا على حَنَقٍ وحفيظة، وخرج قارن يدعو للبراز، فبرز له خالد وأبيض الركبان معقل بن الأعشى بن النَّبَّاش، فابتدراه، فسبقه إليه معقِل، فقتله وقتل عاصِمٌ الأنوشجان، وقتل عديٌّ قُباذ. وكان شرف قارن قد انتهى؛ ثم لم يقاتل المسلمون بعده أحداً انتهى شرفه في الأعاجم، وقُتلت فارس مقتلة عظيمة؛ فضمُّوا السفُنَ، ومنعت المياه المسلمين مِن طلَبهم، وأقام خالد بالمذار، وسلَّم الأسلاب لمن سلَبها بالغةً ما بلغتْ، وقسّم الفيءَ ونفّل من الأخماس أهل البلاء، وبعث ببقيَّة الأخماس، ووفَّد وفداً مع سعيد بن النعمان أخي بني عديّ بن كعب.

حدثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمِّي، عن سيف، عن محمَّد بن عبد الله، عن أبي عثمان، قال: قتل ليلة المذار ثلاثون ألفاً سوَى مَن غرق، ولولا المياه لأتيَ على آخرهم؛ ولم يفلت منهم مَن أفلت إلا عُراة وأشباه العراة.

قال سيف، عن عمرو والمجَالد، عن الشعبيّ، قال: كان أوّل مَن لقيَ خالد مَهْبَطهُ العراق هرمزَ بالكواظم، ثم نزل الفرات بشاطىء دِجْلة؛ فلم يلقَ كيداً، وتبحبَح بشاطىء دجلة، ثم الثِّني، ولم يلقَ بعد هرمز أحداً إلا كانت الوقْعة الآخرة اعظَم من التي قبلها، حتى أتى دُومَةَ الجندل، وزاد سهمُ الفارس في يوم الثِّني على سهمه في ذات السلاسل. فأقام خالد بالثِّني يسبِي عِيالات المقاتلة ومَن أعانَهم، وأقرَّ الفلاحين ومن أجاب

إلى الخراج من جميع الناس بعدما دُعوا، وكلّ ذلك أخذ عنوةً ولكن دُعوا إلى الجزاء، فأجابوا وتراجعوا، وصاروا ذمَّة، وصارت أرضهم لهم؛ كذلك جرى ما لم يُقسم، فإذا اقتُسم فلا.

وكان في السّبي حبيب أبو الحسن ـ يعني أبا الحسن البصري ـ وكان نصرانيًّا، ومافنَّة مولى عثمان، وأبو زياد مولَى المغيرة بن شعبة.

وأمَّر على الجند سعيد بن النُّعمان، وعلى الجزاء سُوَيد بن مُقرّن المزنيّ، وأمره بنزول الحفير، وأمره ببثّ عُماله ووضع يده في الجباية، وأقام لعدوّه يتحسَّس الأخبار.

ثم كان أمر الوَلَجة في صفر من سنة اثنتي عشرة؛ والوَلَجة مما يلي كَسْكر من البرّ.

حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمي، قال: حَدّثني سَيْف، عن عمرو والمجالد، عن الشعبيّ، قال لما فرغ خالد من الثِّنْي وأتى الخبرُ أردشير بعث الأنْدَرْ زَغَرَ؛ وكان فارِسيًّا من مولَّدي السّواد.

حدثنا عبيد الله، قال: حدثني عمي، قال: حدثني سيف، عن زياد بن سَرْجِس، عن عبد الرحمن بن سياه، قال ـ وفيها كتب به إليّ السريّ، قال: حدّثنا شُعيب، قال: حدثنا سَيْف، عن المهلَّب بن عُقْبة وزياد بن سرجس وعبد الرحمن بن سياه ـ قالوا: لمَّا وقع الخبرُ بأردَشِير بمصاب قارن وأهل المَذَار، أرسل الأندرْزَغَر؛ ـ وكان فارسيًّا من مولّدي السواد وتُنَّائهم، ولم يكن ممّن وُلد في المدائن ولا نشأ بها ـ وأرسل بَهمن جاذَوَيْه في أثره في جيش، وأمَره أن يعبُر طريق الأندرْزَغر، وكان الأندرْزَغر قبل ذلك على فَرْج خُراسان، فخرج الأندرْزَغر سائراً من المَدَائن حتى أتى كَسْكَر، ثم جازَها إلى الوَلَجة، وخرج بَهْمَن جاذويه في أثره، وأخذ غيرطريقه، فسلك وسط السَّواد،وقد حشر إلى الأندرزَغرمن بيْن الحِيرة وكَسْكَر من عرب الضّاحية والدّهاقين فعسكروا إلى جَنْب عسكره بالوَلَجة، فلمّا اجتمع له ما أراد واستتمّ أعجبه ما هو فيه، وأجمع السَّير إلى خالد؛ ولما بلغ خالداً وهو بالثِّني خبرُ الأندرْزَغر ونزوله الولَجة، نادى بالرّحِيل، ، وخلّف سُوَيد بن مقرّن، وأمره بلزوم الحفِير، وتقدّم إلى مَن خلّف في أسفل دِجْلة؛ وأمرهم بالحذرِ وقِلّة الغَفْلَة، وترك الاغترار، وخرج سائراً في الجنود نحو الوَلَجة، حتى ينزل على اندَرْزَغر وجنوده ومَن تأشّبَ إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ هو أعظم من قتال الثني.

حدّثنا عبيدالله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن محمّد بن أبي عثمان، قال: نزل خالدٌ على الأندرْزَغر بالولَجة في صَفَر، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً، حتى ظنَّ الفريقان أنّ الصبر قد فرغ، واستبطأ خالد كمينَه.

وكان قد وضع لهم كميناً في ناحيتيْن، عليهم بسُر بن أبي رُهم وسعيد بن مُرّة العِجليّ، فخرج الكمين في وجْهين، فانهزمت صفوف الأعاجم وولّوا، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم، فلم يرَ رجلٌ منهم مقتلَ صاحبه؛ ومضى الأندرْزَغر في هزيمته، فمات عطشاً. وقام خالد في الناس خطيباً يرغِّبهم في بلاد العَجم، ويزهّدهم في بلاد العرب، وقال: ألا تروْن إلى الطَّعام كرفْغ التراب وبالله لو لم يلزمنا الجهادُ في الله والدعاء إلى الله عزّ وجلّ ولم يكن إلاّ المعاش، لكان الرأي أن نقارعَ على هذا الرّيف حتّى نكونَ أولى به، ونولّي الجوعَ والإقلال مَن تولاّه ممّن اثّاقل عمّا أنتم عليه. وسار خالد في الفلاحين بسيرته فلم يقتلهم، وسبَى ذراريّ المقاتلة ومن أعانهم، ودعا أهلَ الأرض إلى الجزاء والذمَّة، فتراجعوا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف ـ وحدّثنا عبيد الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف ـ عن

عمرو، عن الشَّعبيّ، قال: بارز خالد يوم الوَلَجة رجلاً من أهل فارس يُعدَل بألف رجل فقتله، فلمّا فرغ اتَّكأ عليه، ودعا بغدائه. وأصاب في أناس من بكْر بن وائل ابناً لجابر بن بُجير وابناً لعبد الأسود.

خبر أُلّيس، وهي على صُلْب الفرات

قال أبو جعفر، حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمِّي، قال: حدّثنا سيف، عن محمد بن طلحة، عن أبي عثمان وطلحة بن الأعلم عن المغيرة بن عتيبة. وأمَّا السَّريّ فإنه قال فيما كتب إليّ: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن محمَّد بن عبد الله عن أبي عثمان، وطلحة بن الأعلم عن المغيرة بن عُتَيبة، قالا: ولَّما أصاب خالد يوم الوَلَجة مَن أصاب من بكْر بن وائل مِن نصاراهم الَّذِين أعانوا أهلَ فارس غضب لهم نصارَى قومِهم؛ فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم؛ فاجتمعوا إلى ألّيس، وعليهم عبد الأسود العِجْليّ، وكان أشدّ الناس على أولئك النَّصارى مسلمو بني عِجْل: عُتيبة بن النَّهاس وسعيد بن مُرّة وفرات بن حَيَّان والمثنّى بن لاحق ومذعور بن عديّ. وكتب أردشير إلى بَهمن جاذَوَيْه، وهو بقُسْيَانا ـ وكان رافدَ فارس في يوم من أيام شَهْرهم وبنوْا شهورَهم كلَّ شهر على ثلاثين يوماً؛ وكان لأهل فارس في كلّ يوم رافد قد نُصِب لذلك يرفدُهم عند الملك؛ فكان رافدهم بَهْمَن روز ـ أن سِر حتى تقدَم ألّيس بجيشك إلى مَن اجتمع بها من فارس ونصارى العرب. فقدّم بَهْمَن جاذويه جابان وأمره بالحثّ، وقال: كفكِفْ نفسَك وجندَك من قتال القوم حتى ألحق بك إلاّ أنْ يُعجِلوك. فسار جابان نحو ألّيس؛ وانطلق بَهْمَن جاذويه إلى أردشير ليُحْدِث به عهداً، وليستأمره فيما يريد أن يشيرَ به، فوجده مريضاً؛ فعرَّج عليه، وأخلَى جابان بذلك الوجه، ومضى حتى أتى أُلَّيْس، فنزل بها في صفَر، واجتمعت إليه المسالح التي كانت بإزاء العرب؛ وعبد الأسود في نصارى العربِ من بني عِجْل وتيم اللّات وضُبَيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة؛ وكان جابر بن بجير نصرانياً، فساند عبد الأسود؛ وقد كان خالد بلغه تجمُّع عبد الأسود وجابر وزُهير فيمنْ تأشَّب إليهم، فنَهدلهم ولا يشعر بدنوّ جابان، وليست لخالد همة إلاّ من تجمّع له من عَرَب الضّاحية ونصاراهم؛ فأقبل فلمّا طلع على جابان بألَّيس، قالت الأعاجم لجابان: أنعاجلهم أم نغدي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم، ثم نقاتلهم بعد الفراغ؟ فقال جابان: إن تركوكم والتّهاون بكم فتهاونوا، ولكن ظنّي بهم أن سيعجلونكم ويعجّلونكم عن الطعام. فعصوه وبسطوا البُسُط ووضعوا الأطعمة، وتداعوْا إليها، وتوافوْا عليها. فلمّا انتهى خالد إليهم، وقف وأمر بحطّ الأثقال، فلمّا وُضِعت توجّه إليهم، ووكَّل خالد بنفسه حواميَ يحمُون ظهره، ثم بَدَرَ أمام الصفّ، فنادى: أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ رجلٌ من جَذْرة؛ فنكَلُوا عنه جميعاً إلاّ مالكاً، فبرز له، فقال له خالد: يابنَ الخبيثة، ما جرَّأك عليَّ من بينهم، وليس فيك وفاء! فضربه فقتله، وأجهض الأعاجمَ عن طعامهم قبل أن يأكلوا؛ فقال جابان: ألم أقل لكم يا قومُ! أما والله ما دخلَتْني من رئيس وحشة قطُّ حتى كان اليوم؛ فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل تجلّداً: نَدعُها حتى نفرغ منهم؛ ونعود إليها. فقال جابان: وأيضاً أظنّكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون؛ فالآن فأطيعوني؛ سُمّوها؛ فإن كانت لكم فأهْونُ هالكٍ، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئاً؛ وأبلَيْتم عذراً. فقالوا: لا، اقتداراً عليهم. فجعل جابان على مجنِّبَتَيْه عبد الأسود وأبجر؛ وخالد على تعبئته في الأيام التي قبلها، فاقتتلوا قتالاً شديداً، والمشركون يزيدهم كَلَباً وشدَّةً ما يتوقَّعون من قدوم بَهْمَن جاذويه، فصابروا المسلمين للّذي كان في علم الله أن يصيِّرَهم إليه، وحَرِبَ المسلمون عليهم، وقال خالد: اللهمّ إنَّ لك عليّ إن منحتَنا أكتافَهم ألاّ أستبقِيَ منهم أحداً قدْرنا عليه حتى أجرِيَ نهرَهم بدمائهم!

ثم إنّ الله عزّ وجلّ كشفَهم للمسلمين، ومنحَهم أكتافهم، فأمر خالد مناديَه، فنادى في الناس: الأَسْرَ الأسرَ! لا تقتلوا إلاّ مَن امتنع؛ فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سَوْقاً، وقد وكّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد؛ حتى انتهوْا إلى النّهرين، ومقدارِ ذلك من كلّ جوانب أُلّيْس. فضرب أعناقهم وقال له القعقاع وأشباهٌ له: لو أنَّك قتلتَ أهلَ الأرض لم تجرِ دماؤهم؛ إنّ الدّماء لا تزيد على أن ترَقرَق منذ نُهيتْ عن السَّيلان، ونُهيت الأرض عن نَشْف الدماء؛ فأرسل عليها الماء تَبَرّ يمينك. وقد كان صدّ الماءَ عن النَّهر فأعاده، فجرى دماً عبيطاً فسمِّي نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم.

وقال آخرون منهم بشير بن الخصاصيّة، قال: وبلغنا أن الأرض لما نشِفتْ دمَ ابن آدم نُهيَتْ عن نَشْف الدماء، ونُهِيَ الدّم عن السَّيلان إلا مقدارَ بَرْدِهِ.

ولما هُزِم القوم وأجْلُوا عن عسكرهم، ورجع المسلمون مِن طلبهم ودخلوه؛ وقف خالد على الطعام، فقال: قد نفَّلْتُكموه فهو لكم. وقال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نفَّله. فقعد عليه المسلمون لعشائِهم بالليل، وجعل مَنْ لم يرَ الأرياف ولا يعرف الرّقاق يقول: ما هذه الرّقاق البيض! وجعل مَنْ قد عرفها يجيبهم، ويقول لهم مازحاً: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم، فيقول: هو هذا؛ فسمي الرّقاق، وكانت العرب تسمّيه القرَى.

حدّثنا عبيدُ الله، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثنا سيف، عن عمرو بن محمَّد، عن الشَّعبيّ، عمَّن حدّث، عن خالد، أنَّ رسولَ الله ﷺ نفّل الناس يوم خَيْبَر الخبز والطَّبيخ والشِّواء، وما أكلوا غير ذلك في بطونهم غير متأثِّليهِ.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن طلحة، عن المغيرة، قال: كانت على النَّهر أرحاء، فطحنتْ بالماء وهو أحمر قوت العسكر؛ ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون ثلاثة أيام. وبعث خالد بالخبر مع رجل يدعى جَنْدَلا من بني عجْل، وكان دليلاً صارماً، فقدم على أبي بكر بالخَبر، وبفتح أُلّيس، وبقدْر الفيء وبعدّة السَّبي، وبما حصل من الأخماس، وبأهل البلاء من الناس؛ فلمَّا قدم على أبي بكر؛ فرأى صرامته وثباتَ خبره، قال: ما اسمك؟ قال: جَنْدَل، قال: ويْهاً جندل!

نَفسُ عِصـامٍ سَـوَّدَتْ عِصـامَـا ... وَعَـوَّدَتْـهُ الـكـرَّ وَالإقْـدامـا

وأمر له بجارية من ذلك السَّبي، فولدت له.

قال: وبلغت قتلاهم من أُلّيْس سبعين ألفاً جلّهم من أمْغيشِيا.

قال أبو جعفر: قال لنا عبيد الله بن سعد: قال عمّي: سألت عن أمْغِيشِيَا بالحيرة فقيل لي: مَنِشِيَا، فقلت لسيف، فقال: هذانِ اسمان.

حديث أمغيشيا

في صفر، وأفاءَها الله عزّ وجلّ بغير خيل.

حدثنا عبيد الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة، قال: لمّا فَرَغ خالد من وقعة ألَّيْس، نهض فأتى أمْغيشيا، وقد أعجلهم عمّا فيها، وقد جلا أهلُها؛ وتفرّقوا في السَّواد، ومن يومئذ صارت السَّكرات في السَّواد؛ فأمر خالد بهدم أمْغِيشِيَا وكلّ شيء كان في حَيِّزها، وكانت مِصْراً كالحيرة، وكان فرات بادَقْلَى ينتهي إليها، وكانت ألَّيْس من مسالحها، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قطّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن بَحْر بن الفُرات العجليّ، عن أبيه، قال: لم يصِب المسلمون فيما بين ذات السَّلاسل وأمغيشِيا مثل شيء أصابوه في أمغيشِيا، بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة، سوى النَّفَل الذي نُفِّلَه أهلُ البلاء. وقالوا جميعاً: قال أبو بكر رحمه الله حين بلغه ذلك: يا معشرَ قريش - يخبرهم بالذي أتاه: عدا أسدُكم على الأسد فغلَبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد!

حديث يوم المَقْر وفم فُرات بادَقْلَى

قال أبو جعفر: كتب إليّ السَّريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة: أن الآزاذبه كان مرزُبان الحِيرة أزمان كسرى إلى ذلك اليوم؛ فكانوا لا يمدُّ بعضُهم بعضاً إلاّ بإذن الملك، وكان قد بلغ نصف الشَّرَف، وكان قيمة قَلَنْسُوته خمسين ألفا؛ فلما أخرب خالد أمغيشيا، وعاد أهلها سَكَرات لدهاقين القرى علم الآزاذبه أنّه غيرُ متروك، فأخذ في أمره وتهيّأ لحرب خالد، وقدّم ابنه ثم خرج في أثرِه حتى عسكر خارجاً من الحيرة؛ وأمر ابنه بسدّ الفرات، ولما استقلّ خالد من أمغيشيا وحمل الرَّجْل في السفن مع الأنفال والأثقال، لم يفجَأ خالدٌ إلاّ والسفنُ جوانح، فارتاعوا لذلك، فقال الملاّحون: إن أهلَ فارس فجّروا الأنهار، فسلك الماء غير طريقه؛ فلا يأتينا الماء إلاّ بسدّ الأنهار، فتعجّل خالد في خيلٍ نحو ابن الآزاذبه، فتلقّاه على فم العتيق خيلٌ من خيله؛ فجأهم وهم آمنون لغارة خالد في تلك الساعة، فأنامهم بالمَقْر، ثم سار من فَوْرِه وسبق الأخبارَ إلى ابن الآزاذبه حتّى يلقاه وجندَه على فم فرات بادَقْلَى؛ فاقتتلوا فأنامهم؛ وفجّر الفُرات وسدّ الأنهار وسلك الماءُ سبيلَه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد، عن أبي عثمان وطلحة عن المغيرة، وبحر عن أبيه، قالوا. وحدّثنا عبيدُ الله، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثنا سيفٌ، عن محمَّد عن أبي عثمان، وطلحة عن المغيرة، قالا: لمّا أصابَ خالد ابن الآزاذبه على فم فرات بادَقْلَى، قصد للحيرة، واستلحق أصحابه، وسار حتى ينزل بين الخَوَرْنَق والنَّجَف، فقدِم خالد الخورنَق، وقد قطع الآزاذبه الفُرات هارباً من غير قتال؛ وإنَّما حداه على الهَرَب أنّ الخبر وقع إليه بموت أردشير ومصاب ابنه، وكان عسكره بين الغَرِيَّيْن والقصر الأبيض. ولمَّا تتامّ أصحابُ خالد إليه بالخورنق خرج من العسكر حتى يعسكر بموضع عسكر الآزاذبه بين الغريّيْن والقصر الأبيض، وأهلُ الحيرة متحصّنون، فأدخل خالد الحيرة الخيلَ من عسكره، وأمر بكلّ قصر رجلاً من قوّاده يحاصر أهلَه ويقاتلهم، فكان ضرار بن الأزور محاصِراً القصر الأبيض، وفيه إياس بن قَبِيصة الطائيّ، وكان

ضرار بن الخطاب محاصِراً قصر العدَسيّين وفيه عديّ بن عديّ المقتول، وكان ضرار بن مقرّن المزنيّ عاشر عشرة إخوة له محاصِراً قصرَ بني مازن، وفيه ابن أكَّال ؛وكان المثنَّى محاصِراً قصر ابن بُقَيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ؛ فدعوهم جميعاً، وأجَّلُوهم يوماً، فأبى أهلُ الحيرة ولجُّوا، فناوشهم المسلمون.

حدّثني عبيدُ الله بن سعد، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن الغُصْن بن القاسم، رجل من بني كنانة ـ قال أبو جعفر: هكذا قال عُبيد الله. وقال السَّريّ فيما كتب به إليّ: حدّثنا شُعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، عن رجل من بني كنانة ـ قال: عهِد خالد إلى أمرائه أن يبدؤوا بالدّعاء، فإن قَبِلُوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجّلوهم يوماً، وقال: لا تمكِّنوا عدوّكم من آذانكم، فيتربّصوا بكم الدوائر؛ ولكن ناجزُوهم ولا تُرَدّدُوا المسلمين عن قتال عدوّهم. فكان أوّل القُوّاد أنشب القتال بعد يوم أجلَوهم فيه ضرار بن الأزور، وكان على قتال أهل القَصْر الأبيض، فأصبحوا وهم مشرفُون؛ فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجِزَاء، أو المنابذة، فاختاروا المنابذة وتنادوا: عليكم الخزازيف، فقال ضرار: تنحَّوْا لا ينالكم الرّمي؛ حتى ننظر في الذي هتفوا به. فلم يلبث أن امتلأ رأسُ القصر من رجال متعلّقي المخالي، يرمون المسلمين بالخزازيف ـ وهي المَداحي من الخَزَف ـ فقال ضرار: ارشقوهم، فدنوْا منهم فرشقُوهم بالنَّبْل، فأعروا رؤوس الحيطان، ثم بثُّوا غارتهم فيمن يليهم، وصبّح أمير كلّ قوم أصحابه بمثل ذلك، فافتتحوا الدُّور والديرات، وأكثروا القتل، فنادى القسيسون والرُّهبان: يا أهلَ القصور، ما يقتلنا غيركم. فنادى أهل القصور: يَا معشرَ العرب، قد قبِلْنا واحدة من ثلاث؛ فادعوا بنا وكُفّوا عنّا حتّى تبلِغونا خالداً. فخرج إياس بن قَبيصة وأخوه إلى ضرار بن الأزور، وخرج عديّ بن عديّ وزيد بن عديّ إلى ضرار بن الخطاب ـ وعديّ الأوسط الذي رثته أمّه وقتل يوم ذي قَار ـ وخرج عمرو بن عبد المسيح وابن أكَّال، هذا إلى ضرار بن مقرّن، وهذا إلى المثنَّى بن حارثة، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد عن أبي عثمان، وطلحة عن المغيرة، قالا: كان أوّل مَنْ طلب الصلح عمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيّان بن الحارث وهو بُقَيْلة ـ وإنما سُمي بُقَيلة لأنه خرج على قومه في برْدَيْن أخضرين، فقالوا: يا حارِ ما أنت إلا بُقَيلة خضراء ـ وتتابعوا على ذلك، فأرسلهم الرؤساء إلى خالد، مع كلّ رجل منهم ثِقة؛ ليصالح عليه أهلَ الحصن، فخلا خالد بأهلِ كلّ قصرٍ منهم دون الآخرين، وبدأ بأصحابِ عديّ، وقال: ويحكم! ما أنتم! أعرب؟ فما تنقمون من العرب! أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل! فقال له عديّ: بل عرب عاربة وأخرى متعرّبة، فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادُّونا وتكرهوا أمرنا، فقال له عديّ: ليَدلّك على ما نقول أنّه ليس لنا لسان إلّا بالعربية، فقال: صدقتَ. وقال: اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإنْ أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة؛ فقد والله أتيتُكم بقوم هم على الموت أحرصُ منكم على الحياة. فقال: بل نعطيك الجِزْية، فقال خالد: تبًّا لكم، ويحكم! إنّ الكُفْر فلاة مَضلَّة، فأحمقُ العرب مَن سلكها فلقيه دليلان: أحدهما عربيّ فتركه واستدلّ الأعجميّ. فصالحوه على مائة ألف وتسعين ألفا؛ وتتابعوا على ذلك، وأهدَوْا له هَدَايا، وبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر رحمه الله مع الهذيل الكاهليّ، فقبلها أبو بكر من الجِزَاء، وكتب إلى خالد أن احسبْ لهم هديّتهم من الجِزَاء، إلّا أن تكون من الجِزَاء، وخذ بقيَّة ما عليهم فَقوِ بها أصحَابك: وقال ابنُ بُقَيْلة:

أَبَعْدَ المُنْذِرِينِ أَرَى سَواماً ... تُرَوَّحُ بالخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ!
وبَعْدَ فَوَارِسِ النُّعْمانِ ارْعى ... قَلوصاً بينَ مُرَّةَ والحفِيرِ
فَصِرْنا بعد هُلْك أبي قُبَيسٍ ... كجُرْب المَعْز في اليوم المَطِيرِ
تَقَسَّمُنَا القَبائلُ مِنْ مَعَدٍّ ... علانِيَةً كأَيْسارِ الجَزُورِ
وَكُنّا لا يُرامُ لنا حَرِيمٌ ... فنَحْنُ كضَرَّة الضرْعِ الفَخُورِ
نؤَدِّي الْخَرْجَ بعد خَراج كِسْرَى ... وخَرْجٍ مِنْ قُرَيْظَة والنَّضِيرِ
كذاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُه سِجالٌ ... فَيَوْمٌ مِنْ مَساءةٍ أو سُرُورِ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم عن رجل من بني كِنانة، ويونس بن أبي إسحاق بنحو منه، وقالا: فكانوا يختلفون إليه ويقدمون في حوائجهم عمروَ بن عبد المسيح، فقال له خالد: كم أتتْ عليك من السنين قال: مئو سنين، قال: فما أعجبُ ما رأيت؟ قال: رأيتُ القرى منظومةً ما بين دمشق والحِيرة، تخرجُ المرأة من الحيرة فلا تُزَوَّدُ إلا رغيفاً. فتبسّم خالد، وقال:

هـل لـك من شَيخـك إلا عَمَـلُهْ

خرفْتَ والله يا عمرو! ثم أقبل على أهل الحيرة فقال: ألم يبلغني أنّكم خَبَثَة خَدَعة مكَرة! فمالكم تتناولون حوائجكم بخَرِفٍ لا يدرَى من أين جاء! فتجاهل له عمرو، وأحبَّ أن يريَه من نفسه ما يَعْرِفُ به عقله، ويستدلّ به على صحَّة ما حدّثه به، فقال: وحقِّك أيها الأمير، إنّي لأعرف من أين جئتُ؟ قال: فمن أين جئتَ قال: أقْرب أم أبْعِد؟ قال: ما شئت، قال: من بَطْن أمّي، قال: فأين تريد؟ قال: أمامي، قال: وما هو؟ قال: الآخرة. قال: فمن أين أقصَى أثرك؟ قال: من صُلْب أبي، قال: ففيم أنت؟ قال: في ثيابي، قال: أتعقل؟ قال: إي والله وأقيِّد. قال: فوجده حين فَرّه عِضًا، وكان أهل قريته أعلم به ـ فقال خالد: قتلت أرْض جاهلَها، وقَتَل أرْضاً عالمها؛ والقوم أعلم بما فيهم. فقال عمرو: أيُّها الأمير، النملة أعلم بما في بيتها من الجَمل بما في بيت النَّملة. وشاركهم في هذا الحديث من هذا المكان محمد بن أبي السَّفَر، عن ذي الجوشن الضِّبابيّ، وأمَّا الزهريّ فإنه حدثنا به، فقال: شاركهم في هذا الحديث رجل من الضِّباب.

قالوا: وكان مع ابن بُقيلة مَنْصفٌ له فعلّق كيساً في حَقْوه، فتناول خالد الكيس، ونثر ما فيه في راحتِه، فقال: ما هذا يا عمرو؟ قال: هذا وأمانة الله سَمّ ساعة، قال: لِمَ تحتقب السمّ؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيتُ، وقد أتيتُ على أجلِي، والموت أحبُّ إليّ من مكروه أدخِله على قومي وأهل قريتي. فقال خالد: إنَّها لن تموت نفسٌ حتى تأتيَ على أجلِها، وقال: بسم الله خير الأسماء، ربّ الأرض وربّ السماء، الذي ليس يضرّ مع اسمه داء، الرحمن الرحيم. فأهْوَوْا إليه ليمنعوه منه، وبادرهم فابتلعه، فقال عمرو: والله يا معشَر العرب لتملكُنّ ما أردتم مـا دام منكم أحد أيَها القَرن. وأقبل على أهل الحيرة، فقال: لم أر كاليوم أمراً أوضحَ إقبالاً!

وأبى خالد أن يكاتبَهم إلاّ على إسلام كرامةَ بنت عبد المسيح إلى شُوَيل؛ فثقُل ذلك عليهم، فقالت: هوِّنوا عليكم وأسلموني، فإنّي سأفتدي. ففعلوا؛ وكتب خالد بينه وبينهم كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا وعمراً ابنيْ عديّ، وعمرو بنَ عبد المسيح وإياس بنَ قَبيصة وحيريّ بن أكّال ـ وقال عبيد الله: جبريّ ـ وهم نقباء أهل الحيرة؛ ورضيَ بذلك

أهلُ الحيرة، وأمروهم به ـ عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم، تُقبَل في كلّ سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا، رهبانهم وقسّيسهم؛ إلاّ مَن كان منهم على غير ذي يدٍ، حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها ـ وقال عبيدُ الله: إلاّ من كان غير ذي يد حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها ـ أو سائحاً تاركاً للدنيا، وعلى المَنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقوْل فالذمَّة منهم بريئة. وكُتِب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة، ودفع الكتاب إليهم.

فلما كفر أهلُ السَّواد بعد موت أبي بكر استخفُّوا بالكتاب، وضيَّعوه، وكفروا فيمن كفر، وغلب عليهم أهل فارس؛ فلما افتتح المثنَّى ثانية، أدْلَوْا بذلك، فلم يجبْهم إليه، وعاد بشرط آخر؛ فلما غُلب المثنَّى على البلاد كَفَروا وأعانوا واستخفُّوا وأضاعوا الكتاب. فلمَّا افتتحها سعد، وأدْلَوا بذلك سألهم واحداً من الشّرطين، فلم يجيئوا بهما؛ فوضع عليهم وتحرّى ما يرى أنهم مُطيقون، فوضع عليهم أربعمائة ألف سوى الحَرَزة ـ قال عبيدُ الله: سوى الخَرَزة.

حدّثنا عبيدُ الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف ـ والسَّريّ، عن شُعيب، عن سيف ـ عن الغُصن بن القاسم الكنانيّ، عن رجل من بني كِنانة ويونسَ بن أبي إسحاق، قالا: كان جرير بن عبدالله مِمّن خرج مع خالد بن سعيد بن العاصي إلى الشأم، فاستأذن خالداً إلى أبي بكر ليكلّمه في قومه وليجمَعهم له؛ وكانوا أوزاعاً في العرب، وليتخلّصهم، فأذن له، فقدِم على أبي بكر، فذكر له عدَةً من النبيّ ﷺ وأتاه على العدَة بشهود، وسأله إنجاز ذلك، فغضب أبو بكر، وقال له: ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدَيْن فارس والروم؛ ثم أنْتَ تكلّفني التَّشاغلَ بما لا يغني عمّا هو أرضى لله ولرسوله! دعْني وسِرْ نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجْهيْن.

فسار حتى قدِم على خالد وهو بالحيرة، ولم يشهد شيئاً ممَّا كان بالعراق إلاّ ما كان بعد الحيرة؛ ولا شيئاً مّما كان خالد فيه من أهل الرِّدَّة. وقال القعقاع بن عمرو في أيام الحيرة:

سَقى آللّهُ قَتْلَى بِالفُراتِ مُقيمَةً ... وأخْرَى بأَثْباجِ النِّجافِ الكوانِفِ
فنحْنُ وَطِئنا بِالْكواظِم هُرْمُزاً ... وبالثّنِيْ قَرْنَيْ قارنٍ بالجَوارِفَ
ويَوْمَ أحَطْنا بالقُصُورِ تتابعَتْ ... على الحِيرَةِ الرَّوْحاءِ إحْدَى المَصارِفِ
حَطَطْناهُمُ مِنْها وقَدْ كادَ عَرْشُهُمْ ... يَميلُ بهم، فِعْلَ الجَبانِ المُخَالِفِ
رَمَيْنا عَلَيهِم بالْقَبُولِ وَقَدْ رَأَوْا ... غَبُوقَ المنايا حَوْلَ تلكَ المَحارِفِ
صَبِيحَةَ قالوا نَحْنُ قَوْمٌ تَنَزَّلُوا ... إلى الرِّيفِ مِن أرضِ العُرَيْبِ المَقانِفِ

خبر ما بعد الحيرة

حدّثنا عبيد الله بن سعد الزهريّ، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن جميل الطائيّ، عن أبيه، قال: لما أعطِيَ شُوَيل كرامة بنت عبد المسيح قلت لعديّ بن حاتم: ألا تعجبُ من مسألة شويل كرامةَ بنت عبد المسيح على ضَعْفه! قال: كان يَهْرِف بها دهرَه، قال: وذلك أنِّي لما سمعت رسول الله ﷺ يذكر ما رُفع له من البلدان، فذكر الحيرة فيما رُفع له، وكأنّ شُرَف قصورها أضراسُ الكلاب؛ عرفت أن قد أُرِيهَا، وأنها ستفتح، فلقيّتُه مسألتها.

وحدّثنا عبيد الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، قال: قال لي عمرو والمجالد، عن الشعبيّ - والسريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن المجالد عن الشعبيّ - قال: لما قدم شُوَيل إلى خالد، قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يذكر فتحَ الحيرة، فسألتُه كرامة، فقال: «هي لك إذا فتِحت عنوةً». وشُهد له بذلك، وعلى ذلك صالحهم؛ فدفعها إليه، فاشتدّ ذلك على أهلِ بيتها وأهل قرْيتها ما وقعت فيه، وأعظموا الخَطَر، فقالت: لا تُخطروه، ولكن اصبروا، ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة! فإنّما هذا رجلٌ أحمقُ رآني في شبيبتي فظن أنّ الشباب يدوم. فدفعوها إلى خالد؛ فدفعها خالد إليه؛، فقالت: ما أرَبُك إلى عجوز كما ترى! فَادِني، قال: لا، إلّا على حُكْمي، قالت: فلك حكمك مُرسَلا. فقال: لستُ لأمٍّ شويل إن نقَصْتُك من ألف درهم! فاستكثرتْ ذلك لتخدَعه، ثم أتته بها. فرجَعتْ إلى أهلها، فتسامع الناس بذلك، فعنّفوه، فقال: ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف! فأبوْا عليه إلّا أن يخاصمهم فخاصمهم ، فقال: كانت نيّتي غاية العدد، وقد ذكروا أنّ العدد يزيد على ألف، فقال خالد: أردتَ أمراً وأراد الله غيره؛ نأخذ بما يظهر ونَدَعك ونيّتك، كاذباً كنت أو صادقاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: لمّا فتح خالد الحيرةَ صلّى صلاةَ الفتح ثمانيَ ركعات لا يسلّم فيهنّ، ثم انصرف، وقال: لقد قاتلت يوم مُؤتَة فانقطع في يدي تسعةُ أسياف، وما لقيت قوماً كقوم لقيتُهم من أهل فارس؛ وما لقيت من أهل فارسَ قوماً كأهل أُلَّيْس!

حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن عمرو والمجالد، عن الشعبيّ، قال: صلَّى خالد صلاةَ الفتح، ثم انصرف. ثم ذكر مثل حديث السريّ.

حدّثنا عبيدُ الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف - والسريّ، عن شعيب، عن سيف - عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قَيْس بن أبي حازم - وكان قدِم مع جرير على خالد - قال: أتينَا خالداً بالحيرة وهو متوشّح قد شدّ ثوبه في عُنُقه يصلّي فيه وحده، ثمّ انصرف، فقال: اندقّ في يدي تسعةُ أسياف يوم مُؤْتة، ثم صَبَرَتْ في يدي صَفِيحةٌ يمانيَة، فما زالت معي.

حدّثنا عبيدُ الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن محمد بن عبد الله عن أبي عثمان وطلحة بن الأعلم عن المغيرة بن عُتيبة والغصن بن القاسم، عن رجلٍ من بني كنانة وسفيان الأحمريّ عن ماهان، قال: ولمّا صالحَ أهلُ الحيرة خالداً خرج صَلُوبا بن نسطونا صاحب قُسِّ النّاطف، حتى دخل على خالد عسكره، فصالحه على بانِقْيا وَبَسْما، وضمِن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات جميعاً، واعتقد لنفسه وأهلِه وقومه على عشرة آلاف دينار سوى الخَرزة، خرزة كسرى؛ وكانت على كلّ رأس أربعة دراهم، وكتب لهم كتاباً فتمّوا وتمّ، ولم يتعلّق عليه في حالِ غلبة فارس بغدْرٍ، وشاركهم المجالد في الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من خالد بن الوليد لصَلُوبا بن نَسْطونا وقومه؛ إنّي عاهدتكم على الجِزْية والمَنَعة؛ على كلّ ذي يد؛ بانقيا وبَسْما جميعاً، على عشرة آلاف دينار سوى الخرزَة، القويّ على قدر قوّته، والمقلّ على قدر إقلاله، في كلّ سنة. وإنّك قد نُقِّبْتَ على قومك، وإنّ قومك قد رضُوا بك، وقد قبلتُ ومَن معي من المسلمين، ورضيتُ ورضيَ قومُك؛ فلك الذِّمَّة والمَنعة؛ فإن منعناكم فلنا الجزية؛ وإلّا فلا حتى نمنعكم شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله الحميريّ، وحنظلة بن الربيع. وكتِب سنة اثنتي عشرة في صفر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن أبي عثمان، عن ابن أبي مُكنِف، وطلحة عن المغيرة، وسفيان عن ماهان. وحدّثنا عبيدُ الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن محمّد، عن أبي عثمان، وطلحة عن المغيرة، قال: كان الدهّاقين يتربّصون بخالد وينظُرون ما يصنع أهلُ الحيرة. فلمّا استقامَ ما بين أهل الحيرة وبين خالد، واستقاموا له أتته دَهاقين المِلْطاطيْن، وأتاه زاذبن بُهَيْش دِهقان فُرات سِرْيَا، وصَلُوبا بن نسطونا بن بَصْبَهْرَى ـ هكذا في حديث السريّ، وقال عبيد الله: صلوبا بن بصبهرى ونسطونا ـ فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هُرْمُزْجِرْدَ على ألفَيْ ألف ـ وقال عبيد الله في حديثه: على ألف ألف ثقيل ـ وأنّ للمسلمين ما كان لآل كسرى، ومَن مالَ معهم عن المقام في داره فلم يدخل في الصلح، وضرب خالد رِواقه في عسكره، وكتب لهم كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بُهَيش وصَلُوبا بن نسطونا، لكم الذّمّة وعليكم الجزية، وأنتم ضامنون لمن نُقّبتُم عليه من أهلّ البِهْقُباذ الأسفل والأوسط ـ وقال عبيد الله: وأنتم ضامنون جزية مَن نُقِّبتم عليه ـ على ألفي ألف ثقيل في كل سنة؛ عن كلّ ذي يد سوى ما على بانِقْيا وبَسْما وإنّكم قد أرضيتموني والمسلمين، وإنا قد أرضيناكم وأهل البِهْقُباذ الأسفل؛ ومن دخل معكم من أهل البِهْقُباذ الأوسط على أموالكم، ليس فيها ما كان لآل كسرى ومَن مال ميلَهم. شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبدالله الحِمْيَريّ، وبشير بن عبدالله بن الخصاصيّة، وحنظلة بن الربيع. وكتِب سنة اثنتي عشرة في صَفَر.

وبعث خالد بن الوليد عمّاله ومسالحه، فبعث في العِمالة عبد الله بن وثيمة النَّصْريّ، فنزل في أعلَى العمل بالفلاليج على المَنَعة وقبض الجزية، وجرير بن عبد الله على بانقيا وبَسما، وبشيرَ بن الخصاصيَّة على النَّهْرَيْن فنزل الكُوَيْفة ببانبورا، وسُوَيدَ بن مقرّن المزنيّ إلى نِستَر، فنزل العَقْر ـ فهي تسمَّى عَقْر سُوَيد إلى اليوم، وليست بسويد المِنقريّ سمّيت ـ وأطّ بن أبي أطّ إلى روذمستان، فنزل منزلاً على نهر سُمّي ذلك النهر به ـ ويقال له: نهر أطّ إلى اليوم؛ وهو رجل من بني سعد بن زيد مناة؛ فهؤلاء كانوا عمالَ الخَراجِ زمنَ خالد بن الوليد.

وكانت الثُّغور في زمن خالد بالسِّيب، بعث ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب والمثنّى بن حارثة وضِرار بن مقرّن والقعقاع بن عمرو وبُسر بن أبي رُهْم وعُتَيْبة بن النَّهاس، فنزلوا على السِّيْب في عَرْض سلطانه. فهؤلاء أمراءُ ثغور خالد. وأمرهم خالد بالغَارة والإلحاح، فمَخرُوا ما وراء ذلك إلى شاطىء دِجْلة.

قالوا: ولَمّا غلب خالد على أحد جانبي السواد، دعا من أهل الحيرة برجل، وكتب معه إلى أهل فارس وهم بالمدائن مختلفون متساندون لموت أردشير؛ إلا أنهم قد أنزلوا بهمن جاذويه ببَهُرَسير؛ وكأنّه على المقدّمة، ومع بهمن جاذويه الآزاذبه في أشباه له، ودعا صلوبا برجُلٍ، وكتب معهما كتابيْن، فأمّا أحدُهما فإلى الخاصّة وأما الآخر فإلى العامَّة؛ أحدهما حِيريّ والآخر نَبَطيّ.

ولما قال خالد لرسول أهل الحيرة: ما اسمك؟ قال: مُرّة، قال: خذ الكتاب فأتِ به أهل فارس، لعلّ الله أن يُمِرَّ عليهم عيشَهم، أو يُسلموا أو ينيبوا. وقال لرسول صلوبا: ما اسمك؟ قال: هِزْقيل، قال: فخذ الكتاب. وقال: اللهمّ أزهق نفوسَهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد وغيره، بمثله. والكتابان:

بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس؛ أمّا بعدُ، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم، ووهّن كيدكم، وفرّق كلمتَكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم؛ فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوُزكم إلى غيركم، وإلّا كان ذلك وأنتم كارهون على غَلَبٍ، على أيدي قومٍ يحبّون الموت كما تحبّون الحياة.

بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس؛ أمّا بعد فأسلِموا تسلَموا؛ وإلّا فاعتقدوا مني الذّمّة، وأدُّوا الجزْية، وإلّا فقد جئتكم بقوم يحبّون الموت، كما تحبّون شُربَ الخمر.

حدّثني عبيدُ الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن محمَّد بن نويرة، عن أبي عثمان. والسريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن أبي عثمان والمهلب بن عُقْبة وزياد بن سَرْجِس، عن سياه وسفيان الأحمريّ، عن مَاهَان: أن الخراج جُبِيَ إلى خالد في خمسين ليلة، وكان الّذين ضَمِنوه والذين هم رؤوس الرساتيق رُهُناً في يده، فأعطى ذلك كلَّه للمسلمين، فقوُوا به على أمورهم. وكان أهلُ فارس بموت أردشير مختلفين في المُلْك، مجتمعين على قتال خالد، متساندين؛ وكانوا بذلك سنةً، والمسلمون يمخُرُون ما دون دَجْلة، وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمْر؛ وليست لأحد منهم ذمّة إلّا الذين كاتبوه واكتتبوا منه؛ وسائر أهل السواد جُلّاء، ومتَحصّنون، ومحاربون. واكتتب عمّال الخراج، وكتبوا البراءات لأهل الخراج، من نسخة واحدة:

بسم الله الرحمن الرحيم. براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزْية الّتي صالحهم عليها الأمير خالدُ بن الوليد، وقد قبضت الّذي صالحهم عليه خالد، وخالد والمسلمون لكم يَدٌ على من بَدّل صالح خالد؛ ما أقررتم بالجزية وكففتم. أمانكم أمان، وصلحكم صلح؛ نحن لكم على الوفاء.

وأشهدوا لهم النَّفر من الصحابة الّذين كان خالد أشهدهم: هشاما، والقعقاع، وجابر بن طارق، وجريراً، وبشيراً، وحنظلة، وأزداذ، والحجّاج بن ذي العُنُق، ومالك بن زيد.

حدّثنا عُبيدالله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف، عن عطية بن الحارث، عن عبد خير، قال: وخرجَ خالدٌ وقد كتب أهل الحيرة عنه كتاباً: إنّا قد أدَّينا الجزْية الّتي عاهدنا عليها خالدٌ العبد الصالح والمسلمون عباد الله الصالحون، على أن يمنعونا وأميرهم البغيَ من المسلمين وغيرهم.

وأمّا السريّ؛ فإنه قال في كتابه إليّ: حدثنا شُعيب، عن سيف، عن عطية بن الحارث، عن عبد خير، عن هشام بن الوليد، قال: فرغ خالد... ثم سائر الحديث مثل حديث عبيدالله بن سعد.

حدّثنا عُبيد الله، قال: حدّثني عمّي، عن سيف ـ والسريّ، عن شعيب عن سيف ـ عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن الهذيل الكاهلي نحواً منه، قالوا: وأمر الرسولين اللّذَيْن بعثهما أن يوافِيَاه بالخبر، وأقام خالد في عَمَلِه سنة، ومنزله الحيرة، يصعّد ويصوّب قبل خروجه إلى الشأم، وأهل فارس يخلعون ويملّكون؛ ليس إلّا الدّفع عن بَهُرَسِير؛ وذلك أن شِيرَى بن كسرى قتل كلّ مَن كان يناسبه إلى كسرى بن قُباذ، ووثب أهل فارس بعده وبعد أردشير ابنه، فقتلوا كلّ مَن بين كسرى بن قُباذ وبيْن بَهْرام جور، فبقُوا لا يقدرون على من يملّكونَه ممن يجتمعون عليه.

حدّثنا عبيدُالله، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثني سيف، عن عمرو والمجالد، عن الشعبيّ، قال: أقام خالد بن الوليد فيما بين فتح الحيرة إلى خروجه إلى الشأم أكثرَ من سنة، يعالج عَمَل عِياض الذي سُمِّيَ له، وقال

خالد للمسلمين: لولا ما عهد إليّ الخليفة لم أتنقّذ عياضاً، وكان قد شجِيَ وأشجى بدُومة، وما كان دون فتح فارس شيء؛ إنها لسنّة كأنها سنّة نساء. وكان عهد إليه ألاّ يقتحم عليهم وخلفه نظام لهم. وكان بالعيْن عسكر لفارس وبالأنبار آخر وبالفراض آخر. ولما وقعت كتُب خالد إلى أهل المدائن تكلّم نساء آل كسرى، فوُلّي الفَرُّخْزاذ بن البِنْدوان إلى أن يجتمع آل كسرى على رجل إن وجدوه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبدالله عن أبي عثمان، وطلحة عن المغيرة، والمهلّب عن سياه، وسُفْيان عن ماهان، قالوا: كان أبو بكر رحمه الله قد عهد إلى خالد أن يأتيَ العِراق من أسفل منها، وإلى عياض أن يأتيَ العراق من فَوْقِها، وأيُّكما ما سبق إلى الحيرة فهو أميرٌ على الحِيرة؛ فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس وأمِنتم أن يؤتى المسلمون من خلْفهم فلْيُقِم بالحيرة أحدُكما، وليقتحم الآخر على القوم، وجالدوهم عمّا في أيديهم، واستعينوا بالله واتّقوه، وآثروا أمْرَ الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم؛ ولا تؤثروا الدنيا فتسلَبوهما. واحذروا ما حذّركم الله بترك المعاصي ومعاجلة التوبة؛ وإيَّاكم والإصرار وتأخير التوبة.

فأتى خالد على ما كان أمِر به، ونزل الحيرة، واستقام له ما بين الفلاليج إلى أسفل السَّواد، وفرّق سَواد الحيرة يومئذ على جرير بن عبدالله الحميريّ، وبشير بن الخَصاصيَّة، وخالد بن الواشمة، وابن ذي العنق، وأطّ، وسويد وضرار؛ وفرّق سواد الأبُلّة على سُوَيد بن مقرّن، وحَسَكة الحبطيّ، والحصين بن أبي الحُرّ، وربيعة بن عِسْل، وأقرّ المسالحَ على ثُغورهم، واستخلَف على الحيرة القعقاع بن عمرو. وخرج خالد في عمل عياض ليقضِيَ ما بينه وبينه، ولإغاثته، فسلك الفَلُّوجة حتى نزل بكَرْبَلاء وعلى مَسْلَحتِها عاصم بن عمرو، وعلى مقدّمة خالد الأقرع بن حابس؛ لأنّ المثنّى كان على ثَغر من الثّغور التي تلي المدائن؛ فكانوا يغاورون أهل فارس، وينتهون إلى شاطىء دجلة قبل خروج خالد من الحيرة وبعد خروجه في إغاثة عياض.

كتب إليّ السريّ، عن شُعَيب، عن سيف، عن أبي رَوْق، عمَّن شهدهم بمثله، إلى أن قال: وأقام خالد على كَرْبَلاء أيّاماً، وشَكا إليه عبدُالله بن وثيمة الذُّباب، فقال له خالد: اصبرْ فإنّي إنَّما أريد أن أستفرغ المسالح التي أمِر بها عياضٌ فنُسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتَوْا من خَلْفهم، وتجيئنا العرب أمِنةً وغير مُتَعْتَعةٍ؛ وبذلك أمرَنا الخليفة، ورأيه يعدل نَجْدَة الأمّة. وقال رجل من أشْجَع فيما حَكى ابن وثيمة:

لقد حُبسَتْ في كَرْبَلاءَ مطّيتي ... وفي العَيْنِ حتى عاد غَثًّا سمينُها
إذا زَحلَتْ من مَبْرَكٍ رجعَتْ لَه ... لَعَمْرُ أبيها إنّني لأهِينُها
ويمْنعُها من ماءِ كلِّ شريعةٍ ... رِفاق من الذِّبان زُرقٌ عيونها

حديث الأنبار ـ وهي ذات العيون ـ وذكر كَلْواذَى

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة وأصحابهما، قالوا: خرج خالدُ بن الوليد في تعبِيته الّتي خرج فيها من الحيرة، وعلى مقدّمته الأقرعُ بن حابس. فلمّا نَزَل الأقرع المنزلَ الّذي يُسلمه إلى الأنبار أنتجَ قومٌ من المسلمينَ إبلَهم، فلم يستطيعوا العُرْجة، ولم يجدوا بُدًّا من الإقدام، ومعهم بنات مَخاض،

تتبعهم. فلمَّا نودِي بالرَّحيل صَرُّوا الأمَّهات، واحتقبوا المنتوجات؛ لأنها لم تطقِ السَّيْر؛ فانتهوا ركبانا إلَى الأنبار، وقد تحصَّنَ أهلُ الأنبار، وخندقوا عليهم، وأشرفوا من حصنهم، وعلى تلك الجنودشيرزاذ صاحب ساباط ـ وكان أعقل أعجميّ يومئذ وأسودَه وأقنعَه في الناس: العرب والعجم ـ فتصايح عربُ الأنبار يومئذ من السُّور، وقالوا: صبَّح الأنبار شرٌّ؛ جَمَلٌ يحمل جُمَيْلَهُ وجملٌ تُرِبُّهُ عوذٌ. فقال شيرزاذ: ما يقولون؟ ففسَّر له، فقال: أمَّا هؤلاء فقد قَضَوْا على أنفسهم؛ وذلك أنّ القوم إذا قضوْا على أنفسهم قضاءً كاد يلزمهم؛ والله لئن لم يكن خالد مجتازاً لأصالحنَّه؛ فبيناهم كذلك قدِم خالد على المقدّمة، فأطاف بالخندق، وأنشب القتال؛ وكان قليل الصَّبْر عنه إذا رآه أو سمع به؛ وتقدّم إلى رُماته، فأوصاهم وقال: إنِّي أرى أقواماً لا علم لهم بالحرْب، فارموا عيونهم ولا تَوَخَّوْا غيرَها، فرموا رِشْقا واحداً، ثم تابعوا، ففقىء ألف عين يومئذ، فسُمّيت تلك الوقعة ذات العيون؛ وتصايح القوم: ذهبت عيون أهل الأنبار! فقال شيرزاذ: ما يقولون؟ ففسر له، فقال: آباذ آباذ. فراسل خالداً في الصُّلْح على أمر لم يرضَه خالد، فردّ رسلَه، وأتى خالد أضيقَ مكان في الخندق برذايا الجيش فنحرها؛ ثم رمى بها فيه فأفعمه؛ ثم اقتحم الخندق ـ والرذايا جسورهم ـ فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق. وأرَزَ القوم إلى حصنهم، وراسل شيرزاذ خالداً في الصلح على ما أراد، فقبل منه على أن يخلّيَه ويُلحِقَه بمأمنه في جريدة خيل، ليس معهم من المتاع والأموال شيء؛ فخرج شيرزاذ، فلمّا قدِم على بهمن جاذويه، فأخبره الخبر لامه، فقال: إني كنتُ في قوم ليست لهم عقول، وأصلهم من العرب، فسمعتهم مَقدَمهم علينا يقضون على أنفسهم، وقلَّما قضي قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم. ثم قاتلهم الجند، ففقؤوا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين؛ فعرفتُ أنّ المسالمة أسلم. ولمّا اطمأنّ خالد بالأنبار والمسلمون، وأمنَ أهلُ الأنبار وظهروا، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلَّمونها، فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: قوم من العرب، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ـ فكانت أوائلهم نزلوها أيّامَ بختنصّر حين أباح العرب؛ ثمّ لم تزُل عنها ـ فقال: ممَّنْ تعلّمتم الكتاب؟ فقالوا: تعلَّمنا الخطّ من إياد، وأنشدوه قول الشاعر:

قَوْمي إيادٌ لو أنَّهم أممُ ... أو لو أقاموا فتُهْزَلَ النَّعَمُ
قَوْمٌ لهم باحةُ العراق إذا ... ساروا جميعاً والخَط والقَلَم

وصالح خالد مَنْ حولهم، وبدأ بأهل البَوازيج؛ وبعث إليه أهلُ كَلْواذَى ليعقِد لهم، فكاتبهم فكانوا عيْبَته من وراء دجلة. ثم إن أهل الأنبار وما حولها نقضُوا فيما كان يكون بين المسلمين والمشركين من الدُّول ما خلا أهل البوازيج، فإنَّهم ثبتوا كما ثبت أهل بانِقْيا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد العزيز ـ يعني ابن سياه ـ عن حبيب بن أبي ثابت، قال: ليس لأحد من أهلِ السَّواد عَقْد قبل الوقعة إلاّ بني صلوبا ـ وهم أهل الحيرة ـ وكلواذَى، وقرى من قرى الفرات، ثم غدروا حتى دُعوا إلى الذمَّة بعد ما غدروا.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، قال: قلت للشعبيّ: أخِذ السواد عنوة؟ قال: نعَمْ وكلّ أرض إلا بعض القلاع والحصون، فإنَّ بعضهم صالح به، وبعضهم غَلَب. فقلت: فهل لأهل السَّواد ذمَّة اعتقدوها قبل الهَرب؟ قال: لا، ولكنَّهم لما دُعوا ورضُوا بالخَراج وأخِذ منهم صاروا ذمّة.

خبر عَيْن التَّمْر

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلَّب وزياد، قالوا: ولما فرغ خالد من الأنبار، واستحكمت له، استخلف على الأنبار الزّبْرِقان بن بدر، وقصد لعين التَّمْر؛ وبها يومئذ مِهران بن بهرام جُوبين في جَمع عظيم من العجم، وعَقّة بن أبي عقَّة في جمع عظيم من العرب من النَّمِر وتغلِب وإياد ومن لافّهم. فلما سمعوا بخالد قال عقّة لمِهران: إنّ العرب أعلمُ بقتال العرب، فدَعْنا وخالداً، قال: صدقت، لعمري لأنتم أعلمُ بقتال العرب، وإنّكم لَمثلنا في قتال العجم. فخدعه واتّقى به، وقال: دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم. فلما مضى نحو خالد قالت له الأعاجم: ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب! فقال: دعوني فإني لم أرِدْ إلّا ما هو خير لكم وشرّ لهم؛ إنَّه قد جاءكم مَن قتلَ ملوككم، وفلَّ حدَّكم، فاتّقيتُه بهم؛ فإن كانت لهم على خالد فهي لكم؛ وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يَهِنوا، فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعَفون. فاعترفوا له بفضْل الرّأي، فلزم مِهْران العين، ونزل عَقَّة لخالد على الطريق، وعلى ميمنته بُجَير بن فلان أحد بني عتبة بن سعد بن زهير، وعلى ميسرته الهذيل بن عمران، وبين عَقَّة وبين مِهران رَوْحة أو غَدوة، ومِهران في الحصن في رابطة فارس، وعقَّة على طريق الكَرْخ كالخفير. فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده، فعبىّ خالد جندَه وقال لمجنّبتيه: اكفُونا ما عنده، فإني حامل؛ ووكَّل بنفسه حواميَ، ثمّ حمل وعقَّة يقيم صُفوفه؛ فاحتضنه فأخذه أسيراً، وانهزم صفّه من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسْر، وهرب بُجَير والهذيل، واتّبعهم المسلمون. ولّما جاء الخبرُ مِهرانَ هرب في جُنْده، وتركوا الحِصْن. ولما انتهت فُلّال عَقَّة من العرب والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به؛ وأقبل خالد في النّاس حتَّى ينزل على الحِصْن ومعه عَقَّة أسير وعمرو بن الصَّعِق، وهم يرجون أن يكون خالد كمَن كان يُغير من العرب، فلما رأوْه يحاولهم سألوه الأمان. فأبى إلّا على حُكمِه فسلِسوا له به. فلما فتحوا دفعهم إلى المسلمين فصاروا مِساكاً، وأمر خالد بعقَّة وكان خفير القوم فضُربت عنُقه ليُوئس الأسراءَ من الحياة، ولما رآه الأسراءُ مطروحاً على الجسر يئسوا من الحياة، ثم دعا بعمرو بن الصَّعِق فضرب عنقَه، وضرب أعناق أهل الحصْن أجمعين. وسبَى كلّ من حوى حصنهم، وغنم ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلَّمون الإنجيل، عليهم باب مُغْلَق؛ فكسره عنهم، وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهُن، فقسمهم في أهل البلاء؛ منهم أبو زياد مولى ثَقِيف، ومنهم نُصَيْر أبو موسى بن نصَير، ومنهم أبو عمرة جدّ عبدالله بن عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد بن سيرين، وحُرَيث، وعُلاثة. فصار أبو عمرة لشُرَحْبيل بن حَسَنة، وحُريث لرجل من بني عِباد، وعلاثة للمعنَّى، وحُمران لعثمان. ومنهم عمير وأبو قيس؛ فثبت على نسبه من موالي أهل الشأم القدماء، وكان نُصير يُنسب إلى بني يشكر، وأبو عمْرة إلى بني مُرّة. ومنهم ابن أخت النَّمِر.

كتب إليّ السرّي، عن شُعَيْب، عن سيف، عن محمَّد وطلحة وأبي سفيان طلحة بن عبد الرحمن والمهلَّب بن عُقْبة، قالوا: ولما قدِم الوليد بنُ عُقْبة من عند خالد على أبي بكر رحمه الله بما بعث به إليه من الأخْماس إلى عِياض، وأمدّه به، فقدِم عليه الوليد، وعِياض محاصرُهمْ وهم محاصروه، وقد أخذوا عليه بالطّريق، فقال له: الرأي في بعض الحالات خيرٌ من جند كثيف؛ ابعث إلى خالد فاستمدّه. ففعل؛ فقدم عليه رسولُه غِبَّ وقعة العين مستغيثاً، فعجِل إلى عياض بكتابه: من خالد إلى عياض إيَّاك أريد.

لبّثْ قليلاً تأتِكَ الحلائبُ ... يَحْمِلْن آساداً عليها القاشِبُ

كَـتـائـبٌ يـتْـبَـعُـهـا كَـتـائـبُ

خبر دُومَة الجَنْدَل

قالوا: ولما فرغ خالد من عَيْن التَّمْر خلَّف فيها عُوَيْم بن الكاهل الأسلميّ، وخرج في تعبيته الَّتي دخل فيها العين؛ ولَّما بلغ أهلَ دُومة مسيرُ خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بَهْراء وكلْب وغسَّان وتَنُوخ والضَّجاعم، وقبلُ ما قد أتاهم وَديعة في كلْب وبَهراء، ومساندُه ابن وَبَرة بن رُومانِس، وآتاهم ابن الحِدرجان في الضَّجاعم، وابن الأيْهَم في طوائف من غَسَّان وتَنُوخ، فـأشْجَـوْا عياضاً وشجُوا به.

فلما بلغهم دنوّ خالد؛ وهم على رئيسين: أكَيْدر بن عبد الملك والجُوديّ بن ربيعـة، اختلفوا، فقـال أكيدر: أنا أعلمُ النَّاس بخالد؛ لا أحد أيمنُ طائـراً منه، ولا أحدّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قَلُّوا أو كثُروا إلّا انهزموا عنه؛ فأطيعوني وصالحوا القوم. فأبوْا عليه، فقال: لن أمالئكم على حرْب خالد، فشأنَكم.

فخرج لطِيَّته، وبلغ ذلك خالداً؛ فبعث عاصمَ بن عمرو معارضاً له، فأخذه فقال: إنَّما تلقَّبْت الأمير خالداً؛ فلمَّا أتى به خالداً أمر به فضُرِبت عنقُه، وأخذ ما كان معه من شيء، ومضى خالدٌ حتى ينزل على أهل دُومة، وعليهم الجوديّ بن ربيعة، ووديعة الكلبيّ، وابن رُومانس الكلبيّ، وابن الأيهم وابن الحِدْرجـان؛ فجعل خالد دُومة بين عسكره وعسكر عياض. وكان النَّصارى الذين أمدُّوا أهل دُومة من العـرب محيطين بحصن دُومة، لم يحمِلْهم الحصن، فلما اطمأن خالد خرج الجوديّ، فنهض بوديعة فزحفا لخالد، وخرج ابن الحدرجان وابن الأيْهم إلى عياض؛ فاقتتلوا، فهزم الله الجوديَّ ووديعة على يديْ خالد، وهزم عياض مَن يليه، وركبهم المسلمون؛ فأمّا خالد فإنه أخذ الجوديّ أخذاً، وأخذ الأقرع بن حابس وديعةً، وأرَزَ بقيَّة النَّاس إلى الحصن؛ فلم يحملهم؛ فلما امتلأ الحِصْن، أغلق مَن في الحصن الحصنَ دون أصحابهم، فبقُوا حولَه حُرداءَ؛ وقال عاصم بن عمرو: يا بني تميم، حلفاؤكم كَلْب، آسوهم وأجيروهم؛ فإنَّكم لا تقدرون لهم على مِثْلها، ففعلوا. وكان سبب نجاتِهم يومئذ وصيَّة عاصم بني تميم بهم، وأقبل خالد على الَّذين أرَزُوا إلى الحِصْن فقتلهم حتى سدّ بهم بابَ الحِصْن، ودعا خالد بالجوديّ فضَرَب عنقه، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم إلّا أسارى كلب، فإنّ عاصماً والأقرع وبني تميم قالوا: قد آمناهم؛ فأطلقهم لهم خالد، وقال: مالي ولكم! أتحفظون أمر الجاهليَّة وتُضيِّعون أمر الإسلام! فقال له عاصم: لا تحسُدهم العافيةَ؛ ولا يُحـوِّزهم الشيطانُ. ثم أطاف خالد بالباب، فلم يزُل عنه حتى اقتلعه؛ واقتحموا عليهم، فقتلوا المقاتلة، وسبوا الشَّرْخَ؛ فأقاموهم فيمن يزيد؛ فاشترى خالد ابنة الجوديّ وكانت موصوفةً، وأقام خالد بدُومة وردّ الأقرع إلى الأنبار.

ولما رجع خالد إلى الحيرة ـ وكان منها قريباً حيث يصبّحها ـ أخذ القعقاع أهل الحيرة بالتَّقْليس، فخرجوا يتلقونه وهم يُقلِّسُون؛ وجعل بعضهم يقول لبعض: مُرّوا بنا فهذا فَرَج الشرّ!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب، قالوا: وقد كان خالد أقام بدُومة، فظنّ الأعاجم به؛ وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً لَعَقَّة؛ فخرج، زَرْمهْر من بغداد ومعه رُوزبه يريدان الأنبار؛ واتَّعدا حُصيداً والخنافس، فكتب الزّبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع بن عمرو وهو يومئذٍ خليفة خالد

على الحيرة؛ فبعث القعقاع أعْبَدَ بن فَدَكِيّ السعديّ وأمره بالحُصيد، وبعث عُرْوة بن الجعْد البارقيّ وأمره بالخَنافس، وقال لهما: إن رأيتما مَقْدَماً فأقدِما. فخرجا فحالا بينهما وبين الريف، وأغلقاهما، وانتظر روزبه وزرمهر بالمسلمين اجتماع مَن كاتبهما من ربيعة؛ وقد كانوا تكاتَبوا واتَّعدوا؛ فلمّا رجع خالد من دُومة إلى الحيرة على الظَّهر وبلغه ذلك وقد عزم على مصادمة أهل المدائن، كره خلافَ أبي بكر، وأن يتعلّق عليه بشيء، فعجَّل القعقاع بن عمرو وأبو ليلى بن فَدكِيّ إلى رُوزبه وزرمهر، فسبقاه إلى عين التَّمر، وقدم على خالد كتاب امرىء القيس الكلبيّ، أنَّ الهذيل بن عمران قد عَسْكر بالمُصَيَّخ، ونزل ربيعة بن بُجير بالثّني وبالبِشْر في عسكر غضباً لعقَّة، يريدان زرمهر ورُوزبه. فخرج خالد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، واستخلَفَ على الحيرة عياض بن غَنْم، وأخذ طريق القعقاع وأبي ليلى إلى الخنافس حتى قدم عليهما بالعين. فبعث القعقاع إلى حُصَيد، وأمَّره على الناس، وبعث أبا ليلى إلى الخَنافس، وقال: زجّياهم ليجتمعوا ومن استثْأرهم؛ وإلّا فواقِعاهم. فأبيا إلّا المُقام.

خبر حُصَيد

فلمّا رأى القعقاع أنّ زرمهر وروزبه لا يتحرّكان سار نحو حُصيد، وعلَى من مرّ به من العرب والعجم روزْبه. ولمّا رأى روزْبه أنّ القعقاع قد قصد له استمدّ زرمهر، فأمدّه بنفسه، واستخلف على عسكره المَهْبُوذان، فالتقوْا بحُصَيد، فاقتتلوا، فقتل الله العجمَ مقتلةً عظيمة، وقَتَلَ القعقاعُ زرمهر، وقُتِل روزبه؛ قتله عِصْمة بن عبدالله أحد بني الحارث بن طريف، من بني ضَبَّة، وكان عصمة من البَرَرَة ـ وكلّ فَخِذٍ هاجرت بأسرها تُدعى البررة، وكلّ قوم هاجروا من بطن يُدعون الخِيَرة ـ فكان المسلمون خِيرَة وبرَرة. وغنم المسلمون يوم حُصيد غنائم كثيرة وأرَز فُلّال حُصيد إلى الخَنافس فاجتمعوا بها.

الخَنافِس

وسار أبو ليلى بن فَدَكِيّ بمَن معه ومَن قدم عليه نحو الخنافس؛ وقد أرَزت فُلّال حُصيد إلى المَهْبُوذان، فلما أحسَّ المهبوذان [بقدومهم] هرب ومن معه وأرَزُوا إلى المُصَيَّخ، وبه الهُذيل بن عمران، ولم يلق بالخنافس كيداً، وبعثوا إلى خالد بالخبر جميعاً.

مُصَيَّخ بني البَرْشاء

قالوا: ولمّا انتهى الخبرُ إلى خالد بمصاب أهلِ الحُصيد وهرب أهل الخَنافس كتب إليهم، ووعد القعقاعَ وأبا ليلى وأعبد وعُروة ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيَّخ ـ وهو بين حَوْران والقَلْت ـ وخرج خالد من العين قاصداً للمصَيَّخ على الإبل يجنّب الخيل، فنزل الجَناب فالبَردان فالحِني واستقلّ من الحِني؛ فلمّا كان تلك الساعة من ليلة الموعِد اتفقوا جميعاً بالمصَيَّخ، فأغاروا على الهُذَيل ومَن معه ومن أوى إليه؛ وهم نائمون من ثلاثة أوجه، فقتلوهم. وأفلت الهُذَيل في أناس قليل؛ وامتلأ الفضاء قَتلى، فما شبَّهوا بهم إلّا غنماً مصرَّعة؛ وقد كان حُرْقوص بن النّعمان قد محضهم النّصح، وأجاد الرأي، فلم ينتفعوا بتحذيره، وقال حرقوص بن النّعمان قبل

الغارة:

ألا سَقِّيــاني قبـلَ خيــلِ أبي بكْــر

الأبيات. وكان حرقوص معرِّساً بامرأة من بني هلال تُدعى أمّ تغلب، فقتِلت تلك الليلة، وعُبادة بن البشر وامرؤ القيس بن بشر وقيس بن بشر؛ وهؤلاء بنو الثَّوريَّة من بني هِلال. وأصاب جرير بن عبدالله يوم المَصَيَّخ من النَّمِر عبدَ العزّى بن أبي رُهْم بن قِرْواش أخا أوس مناة، من النَّمِر، وكان معه ومع لَبيد بن جرير كتاب من أبي بكر بإسلامهما، وبلغ أبا بكر قول عبد العزّى؛ وقد سماه «عبدالله» ليلة الغارة، وقال:

سبحــانـك اللـهـمّ ربَّ محـمـد

فوداه وودى لبيدا ـ وكانا أصيبا في المعركة ـ وقال: أما إنّ ذلك ليس عليَّ إذ نازلا أهل الحرب؛ وأوصى بأولادهما، وكان عمر يعتدّ على خالد بقتلهما إلى قتل مالك ـ يعني ابن نوَيْرة ـ فيقول أبو بكر: كذلك يلقى مَن ساكنَ أهل الحرب في ديارهم. وقال عبد العُزّى:

أقــول إذ طَـرَقَ الـصبـاحُ بِـغـارةٍ: سـبـحــانــك الـلـهـمّ ربَّ مـحـمـد
ســبــحــان رَبّــي لا إلــه غَـيْـرُه ربِّ الـبـلاد وربِّ مــن يَـتَـوَرَّدُ

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن عطية، عن عديّ بن حاتم، قال: أغرنا على أهل المُصَيَّخ، وإذا رجلٌ يُدعى باسمه حُرْقوص بن النعمان، من النَّمِر، وإذا حوله بنوه وامرأته، وبينهم جَفْنة من خَمْر؛ وهم عليها عكوف يقولون له: ومَن يشرب هذه الساعة وفي أعجاز الليل! فقال: اشربوا شُرْب وَداع، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها، هذا خالد بالعين وجنوده بحُصَيد، وقد بلغه جمْعُنا وليس بتاركنا؛ ثم قال:

ألا فـاشربـوا من قبل قـاصمة الـظّهْـرِ بُعَيْـدَ انْتِفـاخ القـومِ بـالعَكَـرِ الـدَّثْـرِ
وقبــلَ مَنـايــانـا المُصِيبَــةِ بــالقَــدْرِ لحِينٍ لَعَمْــري لا يـزيــدُ ولا يَحْـري

فسبق إليه وهو في ذلك في بعض الخيل، فضرب رأسه، فإذا هو في جفنته، وأخذنا بناته وقتلنا بنيه.

الثَّنِيّ والزُّمَيْل

وقد نزل ربيعة بن بُجَير التغلبيّ الثَّنيّ والبِشْر غضباً لعقّة، وواعد رُوزْبه وزَرْمِهر والهُذيل. فلمّا أصاب خالد أهل المُصَيَّخ بما أصابَهم به، تقدّم إلى القعقاع وإلى أبي ليلى، بأن يرتحلا أمامَه، وواعدهما اللَّيلة ليفترقوا فيها للغارة عليهم من ثلاثة أوجه؛ كما فعل بأهل المُصَيَّخ. ثم خرج خالد من المُصَيَّخ، فنزل حَوْران، ثمّ الرَّنْق، ثم الحَمَاة ـ وهي اليوم لبني جُنادة بن زهير من كلْب ـ ثم الزُّمَيل؛ وهو البِشْر والثَّنِيّ معه ـ وهما اليوم شرقيّ الرُّصافة ـ فبدأ بالثَّنِيّ، واجتمع هو وأصحابه، فبيَّتَه من ثلاثة أوجه بياتاً ومن اجتمع له ولِلِه، ومن تأشَّب لذلك من الشّبان؛ فجرّدُوا فيهم السيوف، فلم يُفلِتْ من ذلك الجيش مخبِر، واستَبى الشَّرْخ، وبعث بخُمْس الله إلى أبي بكر مع النُّعمان بن عوف بن النعمان الشيبانيّ، وقسّم النَّهْب والسَّبَايا، فاشترى عليّ بن أبي طالب عليه السلام بنتَ ربيعة بن بُجَير التغلبيّ، فاتّخذها؛ فولدت له عمر ورُقيّة، وكان الهذيل حين نجا

أوى إلى الزُّمَيْل، إلى عتَّاب بن فلان؛ وهو بالبِشْر في عسكر ضخم؛ فبيّتهم بمثلها غارةً شَعْواءَ من ثلاثة أوجه سبقت إليهم الخبر عن ربيعة، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يُقْتَلُوا قبلها مثلها؛ وأصابوا منهم ما شاؤوا، وكانت على خالد يَمين: «ليبغَتنّ تَغْلِبَ في دارها»؛ وقسّم خالد فيئَهُم في الناس، وبعث بالأخماس إلى أبي بكر مع الصباح بن فلان المزنيّ، وكانت في الأخماس ابنة مُؤذن النَّمَريّ؛ وليلى بنت خالد، وريحانة بنت الهذيل بن هبيرة. ثم عطف خالد من البِشْر إلى الرُّضاب؛ وبها هلال بنُ عَقّة، وقد ارفضَّ عنه أصحابُه حين سمعوا بدنوّ خالد؛ وانقشع عنها هلال فلم يلق كيداً بها.

حديث الفِراض

ثم قصد خالدٌ بعد الرُّضاب وبغتته تغلِبَ إلى الفِراض ـ والفِراض: تخوم الشأم والعراق والجزيرة ـ فأفطر بها رمضان في تلك السّفْرة التي اتّصلت له فيها الغزَوات والأيّام، ونُظمنَ نظماً، أكثرَ فيهنّ الرُّجّاز إلى ما كان قبل ذلك منهنّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة ـ وشاركهما عمرو بن محمد؛ عن رجل من بني سعد، عن ظَفرَ بن دهى ـ والمهلَّب بن عُقْبة، قالوا: فلمّا اجتمعَ المسلمون بالفِراض، حمِيَت الرّوم واغتاظت، واستعانوا بمَن يليهم من مَسالح أهلِ فارس، وقد حَمُوا واغتاظوا واستمدُّوا تَغْلِب وإياد والنَّمِر؛ فأمدُّوهم؛ ثم ناهدوا خالداً؛ حتى إذا صار الفرات بينهم، قالوا: إما أن تعبرُوا إلينا وإمّا أن نعبُر إليكم. قال: خالد: بل اعبروا إلينا، قالوا: فتنحَّوْا حتى نعبُر؛ فقال خالد: لا نفعل؛ ولكن اعبُروا أسفَل منّا. وذلك للنّصْف من ذي القَعدة سنة اثنتي عشرة. فقالت الرّوم وفارس بعضُهم لبعض: احتسبوا ملككم؛ هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل وعلم، ووالله ليُنْصَرَنّ ولَنُخْذلَنّ. ثم لم ينتفعوا بذلك؛ فعبروا أسفلَ من خالد؛ فلما تتامُّوا قالت الروم: امتازوا حتى نعرِف اليوم ما كان من حَسَنٍ أو قبيح؛ من أيِّنا يجيء! ففعلوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً. ثم إنّ الله عزّ وجلّ هزمهم، وقال خالد للمسلمين: ألحُّوا عليهم ولا تُرَفِّهوا عنهم؛ فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزُّمْرة برماح أصحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم، فقتِل يوم الفِراض في المعركة وفي الطلب مائة ألف، وأقام خالد على الفِرَاض بعد الوقعة عشرا، ثم أذن في القفْل إلى الحيرة لخمس بقِين من ذي القَعدة؛ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم؛ وأمر شَجرة بن الأعزّ أن يسوقهم، وأظهر خالد أنه في السّاقة.

حجّة خالد

قال أبو جعفر: وخرج خالدٌ حاجًّا من الفِراض لخمس بقين من ذي القعدة، مكتتماً بحجّه، ومعه عدّةٌ من أصحابه، يعتسف البلاد حتى أتى مكّة بالسمت، فتأتّى له من ذلك ما لم يتأتَّ لدليل ولا رئبال، فسار طريقاً من طُرق أهل الجزيرة، لم يُرَ طريقٌ أعجبُ منه؛ ولا أشدّ على صعوبته منه، فكانت غيبته عن الجند يسيرة؛ فما تَوَافَى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب السَّاقة الَّذي وضعه، فقدما معاً؛ وخالد وأصحابه محلّقون؛ لم يعلَم بحجِّه إلا مَنْ أفضى إليه بذلك من السَّاقة، ولم يعلم أبو بكر رحمه الله بذلك إلاّ بعد، فعتب عليه. وكانت

عقوبته إيَّاه أن صرَفه إلى الشأم. وكان مسيرُ خالد من الفراض أن استعرض البلاد متعسّفاً متسمّتاً، فقطع طريقَ الفِراض ماءَ العنبريّ، ثم مِثْقَباً، ثم انتهى إلى ذات عِرْقٍ، فشرّق منها، فأسلمه إلى عَرَفات من الفِراض، وسُمِّيَ ذلك الطريق الصُّدّ؛ ووافاه كتاب من أبي بكر منصرفَه من حَجّه بالحيرة يأمره بالشأم؛ يقاربه ويباعده.

قال أبو جعفر: قالوا: فوافى خالداً كتابُ أبي بكر بالحيرة، منصرفَه من حجّه: أن سِرْ حتّى تأتيَ جموعَ المسلمين باليَرموك، فإنهم قد شجُوا وأشجوْا؛ وإيَّاك أن تعودَ لمثل ما فعلت؛ فإنَّه لم يُشْجِ الجموعَ من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجَى من الناس نَزْعَك؛ فليهنئك أبا سليمان النّيّة والحُظْوة؛ فأَتْمِمْ يتمم الله لك، ولا يدخلنَّك عُجْب فتخسَر وتخْذَل، وإيَّاك أن تُدِلّ بعمل، فإنّ الله له المنّ، وهو وليّ الجزاء.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف؛ عن عبد الملك بن عطاء بن البَكائي، عن المقطَّع بن الهيثم البكّائي، عن أبيه، قال: كان أهل الأيّام من أهلِ الكوفة يُوعدون معاوية عند بعض الّذي يبلغهم، ويقولون: ما شاء معاوية! نحن أصحاب ذات السلاسل. ويُسمُّون ما بينها وبين الفَراض ما يذكرون ما كان بعدُ احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل.

وحدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ بن محمد بالإسناد الذي قد مضى ذكرُه، أن خالد بن الوليد أتى الأنبارَ فصالحوه على الجلاء، ثم أعطوْه شيئاً رضيَ به، وأنه أغار على سوق بغداد من رُسْتاق العال، وأنه وجّه المثنّى فأغار على سوق فيها جَمْع لقُضاعة وبكْر، فأصاب ما في السُّوق، ثم سار إلى عين التَّمر، ففتحها عَنْوة، فقتل وسَبى، وبعث بالسَّبي إلى أبي بكر، فكان أوّلَ سبي قدِم المدينة من العجم؛ وسار إلى دُومة الجندل، فقتل أكيدر، وسبَى ابنة الجوديّ، ورجع فأقام بالحيرة.

هذا كلّه سنة اثنتي عشرة.

وفيها تزوّج عمر رحمه الله عاتكة بنت زيد.

وفيها مات أبو مرثَد الغنويّ.

وفيها مات أبو العاصي بن الربيع في ذي الحجة؛ وأوصى إلى الزبير، وتزوج عليّ عليه السلام ابنته.

وفيها اشترى عمر أسلم مولاه.

واختلف فيمن حجّ بالناس في هذه السنة، فقال بعضهم: حجّ بهم فيها أبو بكر رحمه الله.

ذكر من قال ذلك:

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن العَلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، مولَى الحُرَقة، عن رجل من بني سَهْم، عن ابن ماجدة السَّهميّ، أنه قال: حجّ أبو بكر في خلافته سنة اثنتي عشرة، وقد عارمتُ غلاماً من أهلي، فعضّ بأذني فقطع منها - أو عضضتُ بأذنه فقطعت منها - فرُفع شأننا إلى أبي بكر، فقال: اذهبوا بهما إلى عمر فلينظر، فإن كان الجارح قد بلَغ فليُقِدْ منه. فلما انتُهيَ بنا إلى عمر رضي الله عنه، قال: لَعَمْري لقد بلَغ هذا! ادعوا لي حجّاماً. قال: فلمّا ذكر الحجام، قال: أما إنّي قد سمعتُ النَّبيّ ﷺ يقول: قد أعطيت خالتي غلاماً، وأنا أرجو أن يبارك الله لها فيه، وقد نهيتُها أن تجعله حجّاماً أو قصّابا أو صائغاً؛ فاقتصّ منه.

وذكر الواقديّ، عن عثمان بن محمد بن عبيد الله بن عبدالله بن عمر، عن أبي وَجْزة يزيد بن عبيد، عن أبيه، أنّ أبا بكرٍ حجّ في سنة اثنتي عشرة، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رحمه الله.

وقال بعضهم: حجّ بالناس سنة اثنتي عشرة عمر بن الخطاب.

ذكر من قال ذلك:

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: بعضُ النَّاس يقول: لم يحجّ أبو بكر في خلافته، وإنه بعَث سنة اثنتي عشرة على الموسِم عمرَ بن الخطاب، أو عبد الرحمن بن عوف.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

ففيها وَجَّه أبو بكر رحمه الله الجيوشَ إلى الشأم بعد منصرَفه من مكّة إلى المدينة.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمَّد بن إسحاق، قال لما قَفَل أبو بكر من الحجّ سنة اثنتي عشرة جهّز الجيوش إلى الشأم، فبعث عمرو بن العاص قِبَلَ فلسْطِين، فأخذ طريق المُعْرِقة على أيْلَة، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجرَّاح وشُرحبيل بن حَسَنة ـ وهو أحد الغَوْث ـ وأمرهم أن يسلُكوا التَّبُوكيَّة على البلقاء من عَلياء الشأم.

وحدّثني عُمر بن شبَّة، عن عليّ بن محمد بالإسناد الذي ذكرت قبلُ، عن شيوخه الَّذين مضى ذكرهم، قال: ثم وجَّه أبو بكر الجنودَ إلى الشَّأم أوّل سنة ثلاث عشرة، فأوّل لواء عقده لواءُ خالد بن سعيد بن العاصي، ثم عزله قبل أن يسير، وولّى يزيدَ بن أبي سفيان، فكان أوّل الأمراء الذين خرجوا إلى الشأم، وخرجوا في سبعة آلاف.

قال أبو جعفر: وكان سببُ عزلِ أبي بكر خالدَ بن سعيد ـ فيما ذُكِر ـ ما حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمَة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر؛ أنّ خالدَ بن سعيد لّما قَدِم من اليمن بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ تربَّص ببيعته شهريْن، يقول: قد أمَّرني رسولُ الله ﷺ، ثم لم يعزلني حتى قَبَضه الله. وقد لقي عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان؛ فقال: يا بني عبد مناف؛ لقد طِبْتم نفساً عن أمركم يليه غيركم! فأمّا أبو بكر فلم يحفِلْها عليه، وأمَّا عمر فاضطغنها عليه. ثم بعث أبو بكر الجنود إلى الشأم، وكان أوّل مَن استعمل على رُبْعٍ منها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول: أتؤمِّره وقد صنع ما صنع وقال ما قال! فلَم يزل بأبي بكر حتى عزَله، وأمَّر يزيد بن أبي سفيان.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشّر بن فُضَيل، عن جُبَير بن صخر حارس النبيّ ﷺ؛ عن أبيه، قال: كان خالدُ بن سعيد بن العاصي باليمن زمنَ النبيّ ﷺ، وتوفِّي النبيُّ ﷺ وهو بها، وقدم بعد وفاته بشهر، وعليه جُبَّة ديباج فلقِيَ عمَر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب، فصاح عمر بمن يليه: مَزِّقوا عليه جُبَّته! أيلبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور! فمزّقوا جُبَّته، فقال خالد: يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغُلِبتم عليها! فقال عليّ عليه السلام: أمغالبة ترى أم خلافة؟ قال: لا يغالب على هذا الأمر أوْلى منكم يا بني عبد مناف. وقال عمر لخالد: فضّ الله فاك! والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثم لا يضرُّ إلا نفسه. فأبلغ عمر أبا بكر مقالته؛ فلمّا عقد أبو بكر الألوية لقتال أهل الرّدة عقد له فيمن عقد، فنهاه عنه عمر

وقال: إنه لمخـذول، وإنه لضعيف التروئة؛ ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدْلٍ بها وخائضٌ فيها، فلا تستنصر به. فلم يحتمِل أبو بكر عليه، وجعله ردءاً بتَيْماء؛ أطاع عمرَ في بعض أمره وعصاه في بعض.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي إسحاق الشيباني، عن أبي صفيَّة التَّيمّي؛ تَيْم بن شيبان، وطلحة عن المغيرة؛ ومحمد عن أبي عثمان، قالوا: أمرَ أبو بكر خالداً بأن ينزل تَيْماء، ففصل ردءاً حتّى ينزل بتَيْماءَ؛ وقد أمره أبو بكر ألاّ يبرَحها، وأنْ يدعُوَ مَن حَوْله بالانضمام إليه، وألاّ يقبل إلاّ ممَّن لم يرتدّ، ولا يقاتل إلاّ من قاتله؛ حتى يأتيَه أمرُه. فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة؛ وبلغ الرّوم عِظَمُ ذلك العسكر، فضربوا على العرب الضَّاحية البعوث بالشأم إليهم؛ فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، وبنزول من استنفرت الرّوم؛ ونفر إليهم من بَهْراء وكلْب وسَليح وتَنُوخ ولَخْم وجُذام وغسَّان من دون زِيزاءَ بثلاث؛ فكتب إليه أبو بكر: أن أقدْم ولا تُحْجِم واستنصر الله؛ فسار إليهم خالد، فلمَّا دنا منهم تفرّقوا وأعروا منزلهم؛ فنزله ودخل عامة مَن كان تجمَّع له في الإسلام؛ وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك؛ فكتب إليه أبو بكر: أقدِم ولا تقتحمنّ حتى لا تُؤتَى مِن خلفك. فسار فيمن كان خرج معه من تَيْماء وفيمَن لحق به من طَرَف الرمل؛ حتى نزلوا فيما بين آبل وزِيزاء والقسطل؛ فسار إليه بِطْريقٌ من بطارقة الرُّوم، يُدعى باهان؛ فهزمه وقتل جندَه، وكتب بذلك إلى أبي بكر واستمدّه. وقد قدم على أبي بكر أوائلُ مستنفَري اليمن ومَن بين مكَّة واليمن؛ وفيهم ذو الكَلاع، وقدم عليه عِكْرمة قافلا وغازياً فيمَن كان معه من تِهامة وعُمان والبحرين والسَّرْو. فكتب لهم أبو بكر إلى أمـراء الصدقات أن يبدّلوا من استبدل؛ فكلّهم استبدل؛ فسُمّيَ ذلك الجيش جيش البِدال. فقدموا على خالد بن سعيد؛ وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشأم، وعناه أمرُه. وقد كان أبو بكر ردّ عمرو بن العاص على عمالة كان رسولُ الله ﷺ ولاّها إيَّاه من صدقات سعد هُذَيْم، وعُذْرة ومَنْ لَفَّها من جُذام، وحَدَس قبل ذهابه إلى عُمان. فخرَج إلى عُمان وهو على عِدَةٍ من عمله؛ إذا هو رجع. فأنجز له ذلك أبو بكر.

فكتب أبو بكر عند اهتياجه للشأم إلى عمرو: إني كنت قد رددتُك على العمل الذي كان رسولُ الله ﷺ ولاّكه مرّة، وسمّاه لك أخرى؛ مبعثَك إلى عُمان إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ؛ فقد وليتَه ثم وليته؛ وقـد أحببتُ ـ أبا عبد الله ـ أن أفرّغَك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه؛ إلاّ أنْ يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك. فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامِي بها، والجامعُ لها، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلَها فارمِ به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي. وكتب إلى الوليد بن عقبة بنحو ذلك، فأجابه بإيثار الجهاد.

كتب إليّ السريّ، عن شُعَيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: كتبَ أبو بكر إلى عمرو، وإلى الوليد بن عُقْبة ـ وكان على النّصف من صدقات قُضاعة ـ وقد كان أبو بكر شيَّعهما مبعثَهما على الصدقة، وأوصى كلّ واحد منهما بوصيَّة واحدة: اتَّقِ الله في السرّ والعلانية؛ فإنه مَنْ يتّق الله يجعلْ له مخرجاً، ويرزقه مِنْ حيث لا يحتسب؛ ومن يتّق الله يكفِّرْ عنه سيِّئاته ويُعظِم له أجراً. فإنّ تقوى الله خيرُ ما تَواصَى به عباد الله؛ إنَّك في سبيل من سبُل الله؛ لا يَسعُك فيه الإذهان والتفريط والغفلة عمَّا فيه قِوام دينكم، وعصمة أمركم، فلا تَنِ ولا تفتُر. وكتب إليهما: استخلفا على أعمالكما، واندُبا مَنْ يليكما.

فولَّى عمروٌ على عُليا قضاعة عَمرو بن فلان العذريّ، وولّى الوليدُ على ضاحية قضاعة مما يلي دُومة امرأ

القيس، وندبا الناس، فتتامّ إليهما بشر كثير، وانتظرا أمرَ أبي بكر.

وقام أبو بكر في الناس خطيباً، فحمِد الله وأثنَى عليه، وصلَّى على رسوله، وقال: ألاَ إنّ لكلّ أمر جوامعَ، فمن بلَغها فهي حسبُه؛ ومن عمل لله كفاه الله. عليكم بالجدّ والقصد؛ فإنّ القصد أبلَغ؛ ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا أجرَ لمن لا حِسْبة له، ولا عمل لمن لا نيَّة له. ألا وإنّ في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لَمَا ينبغي للمسلم أن يحبّ أن يُخَصَّ به؛ هي التجارة التي دلّ الله عليها، ونجَّى بها من الخزي؛ وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة.

فأمدّ عمراً ببعض من انتدب إلى من اجتمع إليه، وأمَّره على فِلَسطين، وأمَره بطريق سمَّاها له؛ وكتب إلى الوليد وأمَرَه بالأرْدُنّ، وأمدّه ببعضهم. ودعا يزيد بن أبي سفيان، فأمّره على جُند عظيم، هم جمهور مَن انتدب له، وفي جنده سُهَيل بن عمرو أشباهه من أهل مكّة، وشيَّعه ماشياً. واستعمل أبا عبيدة بن الجرّاح على من اجتمع إليه، وأمَّره على حِمْص وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما وخلفهما، وأوْصيَ كلّ واحد منهما.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل، عن القاسم، ومبشِّر عن سالم، ويزيد بن أسِيد الغسانيّ عن خالد، وعبادة، قالوا: ولمَّا قدِم الوليد على خالد بن سعيد فسانده، وقدمت جنود المسلمين الَّذين كان أبو بكر أمدّه بهم وسُمّوا جيش البِدال، وبلغه عن الأمراء وتوجُّههم إليه، اقتحم على الرّوم طلبَ الحُظْوة، وأعرى ظهرَه، وبادر الأمراء بقتال الرّوم، واستطرد له باهان فأرَزَ هو ومَن معه إلى دمشق؛ واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكَلاع وعِكْرمة والوليد حتى ينزل مَرْج الصُّفَّر؛ من بين الواقوصة ودِمشق؛ فانطوت مسالح باهان عليه، وأخذوا عليه الطرق ولا يشعر، وزحف له باهان فوجد ابنه سعيد بن خالد يستمطِر في الناس، فقتلوهم. وأتى الخبرُ خالداً، فخرج هارباً في جريدة، فأفلت مَن أفلت من أصحابه على ظهور الخيل والإبل، وقد أجهضوا عن عسكرهم؛ ولم تنته بخالدِ بن سعيد الهزيمة عن ذي المروة، وأقام عِكْرِمة في الناس ردءاً لهم، فردّ عنهم باهانَ وجنوده أن يطلبُوه، وأقام من الشأم على قريب، وقد قدم شرحبيل بن حَسَنة وافداً من عند خالد بن الوليد، فندب معه النَّاس، ثم استعمله أبو بكر على عمل الوليد، وخرج معه يوصيه، فأتى شرحبيل على خالد، ففصل بأصحابه إلاّ القليل، واجتمع إلى أبي بكر أناسٌ، فأمَّر عليهم معاوية، وأمرَه باللحاق بيزيد، فخرج معاوية حتى لحق بيزيد؛ فلما مرّ بخالد فصل ببقيَّة أصحابه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أنّ عمر بن الخطاب لم يزلْ يكلّم أبا بكر في خالد بن الوليد وفي خالد بن سعيد؛ فأبى أن يعطيَه في خالد بن الوليد، وقال: لا أشِيم سيَفاً سلَّه الله على الكُفَّار، وأطاعه في خالد بن سعيد بعد ما فعل فَعْلته. فأخذ عمرو طريق المُعْرِقة، وسلك أبو عبيدة طريقه، وأخذ يزيد طريق التبوكيَّة؛ وسلك شُرحبيل طريقه، وسمّى لهم أمصار الشأم، وعرف أن الرُّوم ستشغلهم، فأحبّ أن يصعّد المصوّب ويصوّب المصعّد؛ لئلا يتواكلوا، فكان كما ظنّ وصاروا إلى ما أحبّ.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: لما قدم خالد بن سعيد ذا المروة، وأتى أبا بكر الخبرُ كتب إلى خالد: أقمْ مكانك، فلعمري إنَّك مقدام محجام، نجَّاءٌ من الغمرات، لا تخوضها إلاّ إلى حقّ، ولا تصبر عليه. ولمّا كان بعد؛ وأذن له في دخوله المدينة قال خالد: اعذِرْني، قال: أخَطَلُ! أنت امرؤٌ جُبَن لدى الحرب. فلمّا خرج من عنده قال: كان عمر وعليّ أعلمَ بخالد؛ ولو أطعتهما فيه

أختشيته واتّقيته!

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن مبشّر وسهل وأبي عثمان، عن خالد وعبادة وأبي حارثة، قالوا: وأوعَبَ القوّاد بالنّاس نحو الشأم وعكرمة ردءٌ للناس، وبلغ الرُّوم ذلك؛ فكتبوا إلى هِرَقل؛ وخرج هرقل حتى نزل بحِمْص، فاعدّ لهم الجنودَ، وعبّى لهم العساكر؛ وأرادَ اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنـدِه، وفضول رجاله؛ وأرسل إلى عمرو أخاه تَذارِق لأبيه وأمّه، فخرج نحوهم في تسعين ألفاً، وبعث مَن يسوقهم، حتّى نزل صاحب الساقة ثنيَّة جِلّق بأعلى فلسطين، وبعث جَرَجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه، وبعث الدُّراقص فاستقبَل شُرحبيل بن حَسَنة، وبعث الفِيقار بن نَسْطُوس في ستّين ألفاً نحو أبي عبيدة؛ فهابهم المسلمون وجميع فِرَق المسلمين واحد وعشرون ألفاً؛ سوى عكرمة في ستّة آلاف؛ ففزِعوا جميعاً بالكُتب وبالرّسل إلى عمرو: أن ما الرأي؟ فكاتبهم وراسلهم: إنّ الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلَب من قلّة؛ وإذا نحن تفرّقْنا لم يبق الرّجل منا في عدد يُقْرِن فيه لأحد ممّن استقبلنا وأعِدّ لنا لكلّ طائفة منّا. فاتَّعَدوا اليَرْموك ليجتمعوا به، وقد كتب إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرا؛ فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو، بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً، والقَوْا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله؛ والله ناصرٌ مَن نصره، وخاذلٌ من كَفره، ولن يؤتَى مثلُكم من قلّة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أُتوا مِنْ تلقاء الذنوب؛ فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين ولْيُصلّ كلّ رجل منكم بأصحابه.

وبلغ ذلك هرقل، فكتب إلى بطارقته: أن اجتمعُوا لهم،وانزلوا بالرُّوم منزلاً واسع العَطَن،واسع المَطْرَد، ضيّق المهرَب؛ وعلى الناس التَّذارق وعلى المقدمة جَرَجَة، وعلى مجنِّبتَيْه باهـان والدُّراقص، وعـلى الحرب الفيقار؛ وأبشروا فإن باهان في الأثر مددٌ لكم. ففعلوا فنزلوا الواقوصة وهي على ضفَّة اليَرموك، وصار الوادي خَنْدقاً لهم؛ وهو لِهْبٌ لا يدرَك؛ وإنما أراد باهان وأصحابهُ أن تستفيق الرُّوم ويأنسوا بالمسلمين؛ وترجع إليهم أفئدتهم عن طِيَرَتها.

وانتقل المسلمون عن عسكرِهم الذي اجتمعوا به؛ فنزل عليهم بحذائهم على طريقهم؛ وليس للرُّوم طريق إلّا عليهم. فقال عمرو: أيّها الناس، أبشِروا، حُصِرت والله الرُّوم، وقلّما جاء محصور بخير! فأقاموا بإزائهم وعلى طريقهم؛ ومخرجهم صفر من سنة ثلاث عشرة وشهرَيْ ربيع، لا يقدرون من الرّوم على شيء؛ ولا يخلصُون إليهم؛ اللّهْبُ ـ وهو الواقوصة ـ من ورائهم، والخندق من أمامهم، ولا يخرجون خرْجةً إلا أديل المسلمون منهم؛ حتى إذا سلخوا شهر ربيع الأول؛ وقد استمدُّوا أبا بكر وأعلموه الشأن في صفر؛ فكتب إلى خالد ليلحق بهم، وأمره أن يخلّف على العراق المثنّى؛ فوافاهم في ربيع.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة وعمرو والمهلّب، قالوا: ولما نزل المسلمون اليرمُوك، واستمدُّوا أبا بكر، قال: خالد لها. فبعث إليه وهو بالعراق، وعَزَم عليه واستحثّه في السَّير، فنفذ خالد لذلك؛ فطلع عليهم خالد؛ وطلع باهان على الرُّوم، وقد قدّم قدّامَه الشَّمامِسَةَ والرّهبان والقسِّيسين؛ يُغرونهم ويحضّضونهم على القتال؛ ووافق قدوم خالد قدومَ باهان، فخرج بهم باهان كالمقتدر؛ فولّى خالد قتالَه، وقاتل الأمراءُ مَنْ بإزائهم؛ فهزم باهان، وتتابع الروم على الهزيمة، فاقتحموا خندقَهم؛ وتيمَّنت الروم بباهان؛ وفرح المسلمون بخالد وحَرِد المسلمون. وحَرِب المشركون وهم أربعون ومائتا ألف؛ منهم ثمانون ألف

مقيَّد، وأربعون ألفاً منهم مسلسل للموت، وأربعون ألفاً مربَّطون بالعمائم، وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل، والمسلمون سبعة وعشرون ألفاً ممّن كان مقيماً؛ إلى أن قدم عليهم خالد في تسعة آلاف؛ فصاروا ستة وثلاثين ألفاً.

ومرض أبو بكر رحمه الله في جمادى الأولى، وتُوُفِّيَ للنصف من جمادى الآخرة، قبل الفتح بعشر ليال.

خبر اليَرْموك

قال أبو جعفر: وكان أبو بكر قد سمّى لكلّ أمير من أمراء الشأم كُورَة؛ فسمّى لأبي عُبيدة بن عبد الله بن الجرّاح حِمْص، وليزيد بن أبي سفيان دِمَشق؛ ولشُرحبيل بن حَسَنة الأردنَّ، ولعمرو بن العاصِ ولعلقمة بن مُجَزِّز فِلسطين، فلمّا فرغا منها نزل علقمة وسار إلى مِصْر. فلمّا شارفوا الشأم، دهم كلَّ أمير منهم قومٌ كثير، فأجمع رأيهم أن يجتمعوا بمكان واحد، وأن يلقوْا جمعَ المشركين بجمع المسلمين.

ولما رأى خالد أنّ المسلمين يقاتلون متساندين قال لهم: هل لكم يا معشر الرؤساء في أمْرٍ يُعزّ الله به الدّين، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن أبي عثمان يزيد بن أَسِيد الغسّاني، عن خالد وعبادة، قالا: توافَقَ إليها مع الأمراء والجنود الأربعة سبعةٌ وعشرون ألفاً وثلاثة آلاف من فُلّال خالد بن سعيد، أمّر عليهم أبو بكر معاويةَ وشُرحبيل، وعشرة آلاف من أمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد سوى ستّة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردءاً بعد خالد بن سعيد؛ فكانوا ستّة وأربعين ألفاً، وكلّ قتالهم كان على تساند، كلّ جند وأميره؛ لا يجمعهم أحدٌ؛ حتّى قدم عليهم خالد من العراق. وكان عسكر أبي عبيدة باليَرْموك مجاوراً لعسكر عمرو بن العاص، وعسكر شُرَحبيل مجاوراً لعسكر يزيد بن أبي سفيان؛ فكان أبو عبيدة ربّما صلَّى مع عمرو، وشرحبيل مع يزيد. فأما عمرو ويزيد فإنّهما كانا لا يصلّيان مع أبي عبيدة وشُرحبيل، وقدم خالد بن الوليد وهم على حالهم تلك؛ فعسكر على حِدَة؛ فصلَّى بأهلِ العراق، ووافق خالد بن الوليد المسلمين وهم متضايقُون بمَدِدِ الرّوم؛ عليهم باهان، ووافق الرُّوم وهم نِشاط بمددهم، فالتقوْا، فهزمهم الله حتى ألجأهم وأمدادَهم إلى الخنادق - والواقوصة أحد حدوده - فلزموا خندقهم عامّة شهر، يُحَضِّضُهم القسِّيسون والشَّمامسة والرّهبان وينعَوْن لهم النَّصرانية؛ حتى استبصروا. فخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله، في جمادى الآخرة.

فلمّا أحسّ المسلمون خروجَهم، وأرادوا الخروجَ متساندين، سار فيهم خالد بن الوليد؛ فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: إن هذا يومٌ من أيّـام الله، لا ينبغي فيه الفخـر ولا البغي. أخلِصوا جهـادَكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يومٌ له ما بعده؛ ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية؛ على تساندٍ وانتشار؛ فإن ذلك لا يحلّ ولا ينبغي. وإنّ مَن وراءَكم لو يعلم علمَكم حال بينكم وبين هذا؛ فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي تروْن أنّه الرّأي من واليكم ومحبَّته، قالوا: فهات، فما الرأي؟ قال: إنّ أبا بكر لم يبعثْنا إلاّ وهو يرى انا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون؛ لقد جمعكم. إنّ الذي أنتم فيه أشدُّ على المسلمين ممّا قد غشيَهم، وأنفعُ للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أنّ الدنيا فرّقت بينكم، فاللهَ الله، فقد أُفرِد كلّ رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أن دانوا له. إنّ تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول

الله ﷺ. هلمّوا فإنّ هؤلاء تهيؤوا، وهذا يوم له ما بعده، إنْ رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم، وإن هزمونا لم نُفلح بعدها. فهلمّوا فلْنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضُنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد؛ حتى يتأمّر كلّكم، ودعوني ألِيكُم اليوم.

فأمَّروه، وهم يرون أنها كخرجاتهم، وأن الأمر أطولُ ممَّا صاروا إليه؛ فخرجت الرُّوم في تعبيـة لم يرَ الراؤون مثلَها قطّ، وخرج خالد في تعبية لم تُعبِّها العرب قبل ذلك؛ فخرج في ستّة وثـلاثين كُـردوساً إلى الأربعين، وقال: إنّ عدوّكم قد كثُر وطَغَى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس. فجعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العـاص وفيها شُـرَحْبيل بن حَسَنة. وجعل الميسرة كَراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان. وكان على كُردوس من كراديس أهـلِ العراق القَعْقاع بن عمرو، وعلى كُردوس مذعور بن عديّ، وعياض بن غَنْم على كُرّدوس، وهـاشم بن عتبة عـلى كُرْدوس، وزياد بن حنظلة على كُردوس، وخالد في كُردوس؛ وعلى فالّة خالد بن سعيد دحْيَة بن خليفة على كُردوس، وامرؤ القيس على كُرْدُوس، ويزيد بن يحنّس على كُردوس، وأبو عبيدة على كُردوس، وعِكْرمة على كُردوس، وسهيل على كُردوس، وعبد الرحمن بن خالد على كُردوس ـ وهـو يومئـذ ابن ثماني عشـرة سنة ـ وحبيب بن مَسلمة على كُرْدوس، وصفوان بن أميّـة على كُـردوس، وسعيد بن خـالد عـلى كُرْدوس، وأبـو الأعور بن سفيان على كُرْدوس، وابن ذي الخِمار على كُرْدُوس؛ وفي الميمنة عُمارة بن مُخشيّ بن خُوَيْلِد على كُردوس؛ وشُرَحْبيل على كُردوس ومعه خالد بن سعيد، وعبد الله بن قيس على كُردُوس؛ وعمرو بن عبسَة على كُرْدوس، والسِّمط بن الأسود عـلى كُردوس، وذو الكَـلاَع على كُـردوس، ومعاويـة بن حُدَيْـج على آخـر؛ وجُنْدب بن عمرو بن حُمَمَة على كُردوس، وعمرو بن فلان على كـردوس؛ ولَقيط بن عبد القيس بن بجـرة حليف لبني ظَفَر من بني فزارة على كُرْدوس، وفي المَيْسَرة يزيد بن أبي سفيان على كُرْدوس، والزُّبَير على كُرْدوس، وحَوْشب ذو ظُلَيْم على كُرْدوس، وقيس بن عمرو بن زيـد بن عوف بن مبـذول بن مازن بن صعصعـة من هوازن ـ حليف لبني النَّجّار ـ على كُردوس، وعِصْمة بن عبد الله ـ حليف لبني النجـار من بني أسد ـ عـلى كُردوس، وضِرار بن الأزور على كُردوس، ومسروق بن فلان على كُرْدُوس، وعُتْبة بن ربيعة بن بَهْز ـ حليف لبني عِصْمة ـ على كُردوس، وجارية بن عبد الله الأشجعيّ ـ حليف لبني سلِمة ـ على كُـرْدوس ،وقبَاث على كردوس.

وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاصَّ أبو سفيان بن حرب، وكان على الطَّلائع قبَاث بن أشيَم؛ وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة نحواً من حديث أبي عثمان؛ وقـالوا جميعاً: وكان القارىء المِقْداد. ومن السُّنَّة التي سنَّ رسولُ الله ﷺ بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللِّقاء؛ وهي الأنفال، ولم يَزلِ النَّاس بعد ذلك على ذلك.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغَسَّاني، عن عبادة وخالد؛ **قالا: شهد اليَرْموك ألفٌ من أصحاب رسول الله، فيهم نحومن مائة من أهل بدر. قالا: وكان أبو سفيان يسيرُ فيقف على الكراديس، فيقول: الله الله ـ! إنكم ذَادةُ العرب، وأنصارُ الإسلام، وإنهم ذَادة الرُّوم وأنصار الشرك! اللهمّ إنّ هذا يومٌ من أيَّامك؛ اللهم أنزلْ نصرك على عبادك!**

قالا: وقال رجل لخالد: ما أكثرَ الرومَ وأقلّ المسلمين! فقال خالد: ما أقلَّ الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثُر الجنود بالنَّصر وتقلّ بالخذلان، لا بعدد الرِّجال؛ والله لوددت أنّ الأشقر بَراءٌ من توجِّيه؛ وأنهم أضعفوا في العدد ـ وكان فرسه قد حفِيَ في مسيره ـ قالا: فأمر خالد عِكرمة والقَعْقاع، وكانا على مجنَّبتي القَلْب، فأنشبا القِتال، وارتجز القعقاع وقال:

يا ليتني ألقاك في الطِّرادِ قبلَ اعترام الجَحْفَلِ الوَرَّادِ
وأنت في حَلْبتك الورادِ

وقال عِكْرمة:

قد عَلِمتْ بَهْكَنة الجواري أنِّي على مَكْرُمةٍ أحامي

فنشِب القتال، والتحمَ النَّاس، وتطارد الفرسان؛ فإنَّهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة؛ فأخذته الخيول؛ وسألوه الخَبر؛ فلم يخبرهم إلّا بسلامة؛ وأخبرهم عن أمداد؛ وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله وتأمير أبي عبيدة؛ فأبلغوه خالداً، فأخبره خبَر أبي بكر؛ أسرّه إليه، وأخبره بالَّذي أخبر به الجندَ. قال: أحسنتَ فقفْ، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته؛ وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتثر له أمر الجند؛ فوقف محميَة بن زُنَيم مع خالد؛ وهو الرسول؛ وخرج جَرَجة؛ حتى كان بين الصفَّين، ونادى: ليخرجْ إليّ خالد، فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه، فوافقه بين الصَّفَّين؛ حتى اختلفت أعناق دابَّتيهما، وقد أمَّن أحدُهما صاحبَه، فقال جَرَجَة: يا خالد أصدِقْني ولا تكذِبْني فإنّ الحرّ لا يكذِب ولا تخادعني فإنّ الكريم لا يخادع المسترسل بالله؛ هل أنزل الله على نبيّكم سيفاً من السماء فأعطاكه، فلا تسلَّه على قوم إلّا هزمتهم؟ قال: لا، قال: فبمَ سُميت سيف الله؟ قال: إن الله عزّ وجلّ بعث فينا نبيَّه ﷺ، فدعانا فنفرْنا عنه ونأيْنا عنه جميعاً. ثم إنّ بعضنا صدّقة وتابعه؛ وبعضنا باعده وكذّبه؛ فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله. ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا؛ فهدانا به، فتابعناه. فقال: أنت سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين! ودعا لي بالنّصر؛ فسُمِّيت سيف الله بذلك؛ فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين. قال صدقتني، ثم أعاد عليه جَرَجة: يا خالد، أخبرْني إلامَ تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله، قال: فَمنْ لم يُجِبْكم؟ قال: فالجِزْيَة ونمنعهم، قال: فإن لم يعطِها، قال: نؤذنه بحرب، ثم نقاتله. قال: فما منزلةُ الَّذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتُنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأوّلنا وآخرنا. ثم أعاد عليه جَرَجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالدُ مثل مالكم من الأجر والذُّخر؟ قال: نعم، وأفضل؛ قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنَّا دخلْنا في هذا الأمر، وبايَعنا نبينا ﷺ وهو حيّ بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحقّ لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا، أن يُسْلِم ويبايع؛ وإنكم أنتم لم تروْا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحُجَج؛ فمنْ دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونيَّة كان أفضَل منَّا. قال جرجة: بالله لقد صدَقتني ولم تخادعْني ولم تألَفني! قال: بالله؛ لقد صدقتُك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة؛ وإنَّ الله لَوليٌّ ما سألت عنه. فقال: صدقتني؛ وقلب التّرس ومال مع خالد، وقال: عَلِّمْني الإسلام، فمال به خالد إلى فُسطاطه، فشنّ عليه قِربَة من ماء، ثم صلَّى ركعتين؛ وحملت الرُّوم مع انقلابه إلى خالد؛ وهم يروْن أنَّها منه حملة، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية، عليهم عِكرمة والحارث بن هشام.

وركب خالدٌ ومعه جرَجة والرُّوم خلالَ المسلمين؛ فتنادَى الناس، فثابوا، وتراجعت الرُّوم إلى مواقفهم، فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسُّيوف، فضرب فيهم خالد وجَرَجة من لدن ارتفاع النهار إلى جُنُوح الشمس للغروب، ثم أصيبَ جرجَة ولم يصلِّ صلاة سجد فيها إلا الرّكعتين اللّتيْن أسلم عليهما، وصلّى الناس الأولى والعصر إيماءً، وتضعضع الروم، ونَهَد خالد بالقلب حتّى كان بين خيلهم ورجْلهم، وكان مقاتَلهُم واسعَ المطّرد، ضيّق المهرب؛ فلمّا وجدت خيلُهم مذهَباً ذهبت وتركوا رَجْلهم في مصافّهم؛ وخرجت خيلُهم تشتدّ بهم في الصحراء، وأخّر النّاس الصلاة حتى صلّوا بعد الفتح. ولما رأى المسلمون خيلَ الروم توجَّهت للهَرب، أفرجوا لها، ولم يحرّجوها؛ فذهبت فتفرّقت في البلاد، وأقبل خالد والمسلمون على الرّجْل ففضّوهم؛ فكأنما هُدِم بهم حائط؛ فاقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم فعَمَدوا إلى الواقوصة، حتى هوى فيها المقترنون وغيرهُم، فمَنْ صبر من المقترنين للقتال هوى به من خَشَعتْ نفسُه، فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه؛ كلّما هوى اثنان كانت البقيَّة أضعف، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف؛ ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق؛ سوى مَنْ قُتِل في المعركة من الخَيْل والرّجل؛ فكان سهم الفارس يومئذ ألفا وخمسمائة، وتجلّل الفيقار وأشرافٌ من أشراف الرُّوم برانسَهم، ثم جلسوا وقالوا: لا نحبّ أن نرى يوم السَّوء إذْ لم نستطع أن نرى يوم السرور؛ وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانيَّة؛ فأصيبوا في تزمّلهم.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان، عن خالد وعبادة؛ قالا: أصبح خالد من تلك اللّيْلة، وهو في رِواق تَدارِق، لمّا دخل الخندق نزله وأحاطت به خيله، وقاتل الناسُ حتى أصبحوا.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي عثمان الغسّانيّ، عن أبيه، قال: قال عِكْرمة بن أبي جهل يومئذ: قاتلت رسولَ الله ﷺ في كلّ موطن، وأفِرُّ منكم اليوم! ثم نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزْور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم؛ فقاتلوا قدّام فُسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً، وقُتِلوا إلاّ من برأ، ومنهم ضرار بن الأزور. قال: وأتِي خالد بعد ما أصبحوا بعِكْرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذِه، وبعمرو بن عِكْرمة فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجوههما، ويقطّر في حلوقهما الماء، ويقول: كلاّ، زعم ابن الحَنْتَمة أنّا لا نُستشهَد!

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عُميس، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة ـ وكان شهد اليَرْموك هو وعبُادة بن الصامت ـ أنّ النساء قَاتلْنَ يوم اليَرْموك في جَوْلة، فخرجت جُوَيْرية ابنة أبي سفيان في جَوْلة، وكانت مع زوجها، وأصيبت بعد قتال شديد، وأصيبت يومئذ عينُ أبي سفيان، فأخرج السهم من عينه أبو حثْمة.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن المُسْتَنير بن يزيد بن أرطاة بن جُهَيْش، قال: كان الأشتَر قد شهد اليَرْموك ولم يشهد القادسيَّة؛ فخرج يومئذ رجلٌ من الرّوم، فقال: مَنْ يبارز؟ فخرج إليه الأشتر؛ فاختلفا ضربتَين، فقال للرّومي: خُذْها وأنا الغلام الإياديّ، فقال: الرومّي: أكثر الله في قومي مثلك! أمَا والله لو أنَّك من قومي لآزرْت الرُّوم، فأمَّا الآن فلا أعِينهم!

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان وخالد: وكان ممَّن أصيب في الثلاثة الآلاف الّذين أصيبوا يوم اليَرْموك عِكرمة، وعمرو بن عِكْرمة، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد ـ

وأثبت خالد بن سعيد فلا يُدرَى أين ماتَ بَعْد ـ وجُنْدَب بن عمرو بن حُمَمَة الدَّوْسيّ، والطُّفَيْل بن عمرو، وضِرار بن الأزور أثبت فبقي وطُلَيب بن عُمَير بن وَهْب من بني عبد بن قُصيّ، وهَبَّار بن سُفْيان، وهشام بن العاصي.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه، قال: لقِي خالداً مقدمَه الشأم مغيثاً لأهل اليرموك رجلٌ من روم العرب، فقال: يا خالد، إنّ الروم في جمع كثير؛ مائتي ألف أو يزيدون، فإنْ رأيت أن ترجعَ عَلَى حامِيتك فافعل؛ فقال خالد: أبالرّوم تخوّفني! والله لودِدْتُ أنّ الأشقر بَراءٌ من تَوَجِّيه، وأنَّهم أضعفوا ضِعْفَهم، فهزمهم الله على يدْيه!

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير بن يزيد، عن أرطاة بن جهيش، قال: قال خالد يومئذ: الحمدُ لله الَّذِي قضى على أبي بكر بالموتِ وكان أحبَّ إليَّ من عمر، والحمدُ لله الذي ولَّى عمراً، وكان أبغضَ إليّ من أبي بكر ثم ألزمني حُبَّه!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وعمرو بن ميمون، قالوا: وقد كان هرقل حجّ قبل مهزم خالد بن سعيد، فحجّ بيت المقدس، فبينا هو مقيم به أتاه الخبر بقُرْب الجنود منه، فجمع الرُّوم، وقال: أرى من الرأي ألّا تقاتِلُوا هؤلاء القوم، وأن تُصالحوهم؛ فوالله لأن تُعطوهم نصفَ ما أخرجت الشأم؛ وتأخذوا نصفاً وتقِرَّ لكم جبال الرُّوم؛ خيرٌ لكم من أن يبلغوكم على الشأم، ويشاركوكم في جبال الرُّوم؛ فنخر أخوه ونخر خَتَنُه؛ وتصدّع عنه مَن كان حوله؛ فلمّا رآهم يعصونه ويردّون عليه بعث أخاه، وأمَّر الأمراء ووجَّه إلى كلّ جند جنداً. فلما اجتمع المسلمون، أمرهم بمنزل واحد واسع جامع حصين، فنزلوا بالواقوصة، وخرج فنزل حِمْص، فلمّا بلغه أن خالداً قد طلع على سُوَى وانتسف أهلَه وأموالَهم، وعَمَد إلى بُصْرَى وافتتحها وأباح عَذْراء، قال لجلسائه: ألم أقل لكم لا تقاتلوهم! فإنّه لا قِوامَ لكم مع هؤلاء القوم؛ إنّ دينهم دينٌ جديد يجدّد لهم ثِبارَهم، فلا يقوم لهم أحد حتى يُبْلَى. فقالوا: قاتِل عن دينك ولا تُجبِّن النَّاس، واقض الذي عليك؛ قال: وأيَّ شيء أطلب إلّا توفيرَ دينكم!

ولما نزلت جنود المسلمين اليَرْموك، بعث إليهم المسلمون: إنَّا نريد كلامَ أميركم وملاقاته؛ فدعُونا نأتِه ونكلّمه، فأبلغوه فأذِن لهم. فأتاه أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان كالرسول، والحارث بن هشام وضِـرَار بن الأزور وأبو جَنْدل بن سُهيل؛ ومع أخي الملك يومئذ ثلاثون رِواقاً في عسكره وثلاثون سُرادِقاً، كلُّها من ديباج؛ فلمّا انتهوْا إليها أبوْا أن يدخلوا عليه فيها، وقالوا: لا نستحلّ الحرير فابْرُز لنا. فبرز إلى فُرُش ممهَّدة؛ وبلغ ذلك هرقل، فقال: ألم أقل لكم! هذا أوّلُ الذُّلّ، أما الشأم فلا شأم؛ وويل للروم من المولود المشؤوم! ولم يتأتّ بينهم وبين المسلمين صُلْح، فرجع أبو عبيدة وأصحابه واتّعدوا، فكان القتال حتى جاء الفتح.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن مُطَّرِح، عن القاسم، عن أبي أمامة وأبي عثمان، عن يزيد بن سنان، عن رجال من أهل الشأم ومن أشياخهم؛ قالوا: لَمَّا كان اليوم الَّذِي تأمّر فيه خالد، هزم الله الرُّوم مع الليل، وصعد المسلمون العَقَبة، وأصابوا ما في العسكر، وقتل الله صناديدَهم ورؤوسهم وفرسانهم، وقتل الله أخا هِرَقْل، وأخِذ التَّذارق، وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دُون مدينة حِمْص، فارتحل فجعل حِمْص بينه وبينهم، وأمَّر عليها أميراً وخلَّفه فيها، كما كان أمَّر على دمشق، وأتبع المسلمون الرُّوم حين هزموهم خيولاً

يَثْفِنونهم. ولَّما صار إلى أبي عبيدة الأمرُ بعد الهزيمة؛ نادى بالرحيل، وارتحل المسلمون بزحفهم حتى وضعوا عساكرَهم بمَرْج الصُّفَّر. قال أبو أمامة: فبُعِثت طليعةً من مَرج الصُّفَّر، معي فارسان؛ حتى دخلت الغُوطة فجُسْتها بين أبياتها وشجراتها، فقال أحد صاحبَيّ: قد بلغتَ حيث أمِرت فانصرف لاتهلكْنا، فقلت: قِفْ مكانَك حتى تصبح أو آتيَك. فسِرْتُ حتى دفعت إلى باب المدينة؛ وليس في الأرض أحدٌ ظاهر، فنزعت لجام فرسي وعلَّقت عليها مخلاتها، وركزت رمحي، ثم وضعت رأسي فلم أشعُر إلّا بالمفتاح يحرَّك عند الباب ليُفتح؛ فقمت فصلَّيت الغداة، ثم ركبت فرسي، فحملت عليه، فطعنت البواب فقتلته، ثم انكفأت راجعاً؛ وخرجوا يطلبونني، فجعلوا يكفّون عنّي مخافة أن يكون لي كمين، فدفعت إلى صاحبي الأدْنى الّذي أمرتُه أن يقف، فلمّا رأوْه قالوا: هذا كمين انتهى إلى كمينه. فانصرفوا وسرت أنا وصاحبي، حتى دفعنا إلى صاحبنا الثاني، فسِرنا حتى انتهينا إلى المسلمين؛ وقد عزم أبو عبيدة ألاّ يبرح حتى يأتيَه رأيُ عمر وأمْرُه؛ فأتاه فرحلوا حتى نزلوا على دِمَشق، وخلّف باليَرْمُوك بشير بن كعب بن أبيّ الحميريّ في خَيْل.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف عن عبد الله بن سعيد عن أبي سَعِيد، قال: قال قَباث: كنت في الوفْد بفتح اليَرْموك، وقد أصبنا خيراً ونَفَلا كثيراً، فمرَّ بنا الدّليل على ماء رجل قد كنت اتَّبعته في الجاهليَّة حين أدركتُ وآنستُ من نفسي لأصيب منه؛ كنت دُلِلْـتُ عليه، فأتيته فأخبرته، فقال: قد أصبتَ، فإذا ريبال من ريابلة العرب قد كان يأكل في اليوم عَجُز جَزور بأدْمها ومقدارَ ذلك من غير العَجُز ما يفضل عنه إلاّ ما يقوتني. وكان يُغيرُ على الحيّ ويَدَعُني قريباً، ويقول: إذا مرّ بك راجز يرتجز بكذا وكذا، فأنا ذلك؛ فَشُلَّ معي. فمكثت بذلك حتى أقطعني قطيعاً من مال، وأتيت به أهلي؛ فهو أوّلُ مال أصبته. ثم إنّي رأستُ قومي؛ وبلغت مبلغ رجال العرب، فلمّا مرّ بنا على ذلك الماء عرفتُه، فسألت عن بيته فلم يعرفوه، وقالوا: هو حيٌّ، فأتيت ببنين استفادهم بعدي، فأخبرتهم خبري، فقالوا: اغْدُ علينا غداً، فإنه أقربُ ما يكون إلى ما تحبّ بالغداة، فغاديتهم فأدخِلْت عليه، فأخرِج من خِدْره؛ فأجلِس لي، فلم أزل أذكِّره حتى ذكر، وتسمَّع وجعل يطرَب للحديث ويستطعمنيه، وطال مجلسنا وثقُلنا على صبيانهم؛ ففرّقوه ببعض ما كان يفرَق منه ليدخل خِدْره، فوافق ذلك عقله، فقال: قد كنت وما أفزَّع! فقلت: أجل، فأعطيته ولم أدعْ أحداً من أهله إلا أصبتُه بمعروف ثم ارتحلت.

كتب إليّ السريّ، عن سيف، عن أبي سعيد المَقْبُريّ، قال: قال مروان بن الحكم لقَبَاث: أأنت أكبر أم رسولُ الله ﷺ؟ قال: رسول الله أكبر منّي، وأنا أقدم منه، قال: فما أبعدُ ذكرك؟ قال: خِثْي الفيل لسنة. قال: وما أعجب ما رأيتَ؟ قال: رجل من قُضاعة؛ إني لما أدركتُ وآنَسْتُ من نفسي سألتُ عن رجل أكونُ معه وأصيب منه، فدلِلْتُ عليه... واقتصّ هذا الحديث.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن صالح بن كيسان، أنّ أبا بكر رحمه الله حين سار القوم خرج مع يَزيد بن أبي سفيان يُوصِيه، وأبو بكر يمشي ويزيد راكب، فلمّا فرغ من وصيّته قال: أقرئُك السلام، وأستودعك الله. ثم انصرف ومضى يزيد، فأخذ التَّبُوكِيَّة ثم تبعه شُرَحبيل بن حَسَنة ثم أبو عبيدة بن الجرّاح مدداً لهما على رُبْع، فسلكوا ذلك الطريق، وخرج عمرو بن العاص حتى نزل بغَمْر العَرَبات، ونزلت الرُّوم بثَنِيَّة جِلِّق بأعلَى فلسطين في سبعين ألفاً، عليهم تَذَارِق أخو هِرَقْل لأبيه وأمِّه. فكتب عَمْرو بن العاص إلى أبي بكر، يذكر له أمرَ الرُّوم ويستمدُّه. وخرج خالد بن سعيد بن العاصي؛ وهو بمرج الصُّفَّر من

أرض الشأم في يوم مَطير يستمطر فيه؛ فتعاوَى عليه أعلاجُ الروم، فقتلوه، وقد كان عمرو بن العاص كتب إلى أبي بكر يذكر له أمر الروم ويستمدّه.

قال أبو جعفر: وأمّا أبو زيد، فحدّثني عن عليّ بن محمد بالإسناد الذي قد ذكرت قبلُ؛ أنّ أبا بكر رحمه الله وجَّه بعد خروج يزيد بن أبي سفيان موجّها إلى الشأم بأيام، شُرَحبيلَ بن حَسَنة ـ قال: وهو شُرَحْبيل بن عبدالله بن المطاع بن عمرو، من كِنْدة، ويقال من الأزد ـ فسار في سبعة آلاف، ثم أبا عبيدة بن الجرّاح في سبعة آلاف، فنزل يزيد البَلْقاء، ونزل شُرحبيل الأرْدُنّ ـ ويقال بُصْرَى ـ ونزل أبو عبيدة الجابية، ثم أمدّهم بعمرو بن العاص، فنزل بغَمْر العرَبات، ثم رغِب الناس في الجهاد؛ فكانوا يأتون المدينة فيوجّههم أبو بكر إلى الشّأم فمنهم مَن يصير مع أبي عبيدة، ومنهم مَن يصير مع يزيد، يصير كلّ قوم مع من أحبّوا.

قالوا: فأوّل صُلْح كان بالشأم صلح مَآب؛ وهي فسطاط ليست بمدينة، مرّ أبو عبيدة بهم في طريقه، وهي قرية من البَلْقاء، فقاتلوه، ثم سألوه الصُّلْح فصالحهم. واجتمع الرُّوم جمعاً بالعَرَبة من أرضِ فلسطين؛ فوجَّه إليهم يزيدُ بن أبي سفيان أبا أمامة الباهليّ؛ ففضَّ ذلك الجمع.

قالوا: فأوّل حرب كانت بالشأم بعد سريَّة أسامة بالعَرَبة. ثم أتوا الدّاثنة ـ ويقال الدّاثن ـ فهزمهم أبو أمامة الباهليُّ، وقتل بِطْريقاً منهم. ثم كانت مَرْج الصُّفَّر، استشهد فيها خالد بن سعيد بن العاصي، أتاهم أدْرَنْجار في أربعة آلاف وهم غارُّون، فاستُشهد خالد وعدّة من المسلمين.

قال أبو جعفر: وقيل إنّ المقتول في هذه الغزوة كان ابناً لخالد بن سعيد، وإنّ خالداً انحاز حين قُتل ابنه، فوجَّه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشأم، ضَمَّهم إليه؛ فشخص خالد من الحيرة في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة في ثمانمائة ـ ويقال في خَمْسمائة ـ واستخلف على عَمَله المثنَّى بن حارثة، فلَقيَه عدوّ بِصَنْدَوْدَاء، فظفر بهم، وخلَّف بها ابن حَرام الأنصاريّ؛ ولقيَ جمعاً بالمُصيّخ والحُصَيْد، عليهم ربيعة بن بُجَيْر التَّغلِبيّ، فهزمهم وسَبَى وغَنِم، وسار ففوّز من قُراقِر إلى سُوَى؛ فأغار على أهل سُوَى؛ واكتسح أموالَهم، وقتل حُرْقُوصَ بن النُّعمان البَهرانيّ، ثم أتى أرَك فصالحوه، وأتى تَدْمُر فتحصّنوا، ثم صالحوه؛ ثم أتى القريتيْن، فقاتلهم فظفِر بهم وغَنِم، وأتى حُوَّارين؛ فقاتلهم فهزَمَهم وقتلَ وسبَى، وأتى قُصَم فصالحه بنو مَشْجَعة من قُضاعة، وأتى مَرْج راهِط، فأغار على غَسَّان في يوم فِصْحهم، فقتل وسَبَى، ووجَّه بُسْر بن أبي أرطاة وحبيب بن مَسْلَمة إلى الغوطة، فأتَوْا كنيسة فسَبوا الرِّجال والنِّساء، وساقُوا العِيال إلى خالد.

قال: فوافى خالداً كتابُ أبي بكر بالحيرة منصرفَه من حجّه: أن سِرْ حتَّى تأتيَ جموعَ المسلمين باليَرْموك، فإنهم قد شَجُوا وأشْجَوْا، وإيّاك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يُشْجِ الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجَى من الناس نزعك. فليهنئك أبا سليمان النِّية والحُظوة؛ فأتِمم يُتمم الله لك، ولا يدخلنَّك عُجب فتخسَر وتُخْذَل؛ وإيّاك أن تُدِلّ بعمل، فإن الله عزّ وجلّ له المنّ، وهو وليّ الجزاء.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الملك بن عطاء، عن الهَيْثم البكائيّ، قال: كان أهلُ الأيَّام من أهل الكوفة يُوعدون معاويةَ عند بعض الذي يبلُغهم، ويقولون: ما شاء معاوية! نحنُ أصحابُ ذات السلاسل، ويسمّون ما بينها وبين الفِراض؛ ما يذكرون ما كان بعد؛ احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل.

كتب إليّ السري ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن ظَفَر بن دهى، ومحمد بن عبدالله عن أبي عثمان، وطلحة عن المغيرة، والمهلّب بن عقبة عن عبد الرحمن بن سِياه الأحمريّ، قالوا: كان أبو بكر قد وجّه خالدَ بن سعيد بن العاصي إلى الشأم حيث وجّه خالد بن الوليد إلى العراق، وأوصاه بمثل الّذي أوصى به خالداً. وإنّ خالد بن سعيد سار حتى نزلَ على الشأم ولم يقتحم؛ واستجلب النّاس فعزَّ، فهابته الرُّوم، فأحجموا عنه، فلم يصبر على أمر أبي بكر ولكن تورّدها فاستطردت له الرُّوم، حتى أوردوه الصُّفَّر، ثم تعطّفوا عليه بعد ما أمِن؛ فوافقوا ابنَه سعيد بن خالد مستمطِراً؛ فقتلوه هو ومَن معه، وأتى الخبرُ خالداً، فخرج هارباً؛ حتى يأتي البرّ، فينزل منزلا، واجتمعت الرُّوم إلى اليَرْموك؛ فنزلوا به، وقالوا: والله لنشغلنّ أبا بكر في نفسه عن تورّد بلادنا بخيوله.

وكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بالّذي كان، فكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص ـ وكان في بلاد قُضاعة ـ بالسَّير إلى اليرموك، ففعل. وبعث أبا عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان، وأمر كَلّ واحد منهما بالغارة، وألاّ تُوغلوا حتى لا يكون وراءكم أحدٌ من عدوّكم.

وقدم عليه شُرَحْبيل بن حَسَنة بفتح من فتوح خالد، فسرّحه نحو الشأم في جُنْد، وسمّى لكلّ رجل من أمراء الأجناد كورةً من كور الشأم؛ فتوافوا باليَرْموك، فلمّا رأت الروم توافيَهم، ندموا على الّذي ظهر منهم، ونَسُوا الذي كانوا يتوعّدون به أبا بكر، واهتموا وهمّتهم أنفسهم، وأشْجَوْهم وشجوا بهم، ثم نزلوا الواقوصة. وقال أبو بكر: والله لأنْسِيَنّ الرُّوم وساوسَ الشيطان بخالد بن الوليد، فكتب إليه بهذا الكتاب الّذِي فوق هذا الحديث، وأمَره أن يستخلِف المثنّى بن حارثة على العِراق في نصف الناس، فإذا فتح الله على المسلمين الشّأم، فارجعْ إلى عملك بالعراق. وبعث خالد بالأخماس إلاّ ما نفّل منها مع عُمَير بن سعد الأنصاريّ وبمسيره إلى الشأم. ودعا خالد الأدلّة، فارتحل من الحيرة سائراً إلى دُومة، ثم طعن في البرّ إلى قراقر، ثم قال: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم! فإني إن استقبلتها حبستني عن غِياث المسلمين، فكلّهم قال: لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش، يأخذه الفذّ الراكب، فإيّاك أن تغرّر بالمسلمين. فعزم عليهم ولم يُجِبْه إلى ذلك إلاّ رافع بن عُميرة على تهيُّب شديد، فقام فيهم، فقال: لا يختلفنّ هَدْيُكم، ولا يضعفنّ يقينُكم، واعلموا أنّ المعونة تأتي على قدر النيّة، والأجر على قدر الحِسْبة؛ وإنّ المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له، فقالوا له: أنت رَجُلٌ قد جمع الله لك الخير، فشأنَك. فطابقوه ونووا واحتسبوا، واشتهوا مثلَ الذي اشتهى خالد، فأمرهم خالد، فتروَّوا للشَّفَة لخمس، وأمر صاحب كلّ خيل بقدر ما يسقيها، فظمَّأ كلُّ قائد من الإبل الشُّرُفِ الجلال ما يكتفي به، ثم سَقَوها العَلَل بعد النَّهل؛ ثم صرُّوا آذان الإبل وكعموها، وخلَّوا أدبارها، ثم ركبوا من قراقر مفوّزين إلى سُوَى ـ وهي على جانبها الآخر ممّا يلي الشأم ـ فلما ساروا يوماً افتظّوا لكل عِدّة من الخيل عشراً من تلك الابل فمزجوا ما في كُروشها بما كان من الألبان، ثم سَقَوا الخيلَ، وشربوا للشفة جَرْعاً، ففعلوا ذلك أربعة أيام.

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، عن سَيْف، عن عبيدالله بن مُحَفّز بن ثعلبة؛ عمّن حدّثه من بكر بن وائل أنّ مُحْرز بن حَرِيش المحاربيّ قال لخالد: اجعل كوكبَ الصبح على حاجبك الأيمن، ثم أُمَّه تُفْضِ إلى سُوَى؛ فكان أدلّهم.

قال أبو جعفر الطبريّ: وشاركهم محمَّد وطلحة، قالوا: لما نزل بسُوَى وخشيَ أن يفضحهم حرُّ الشمس، نادى خالد رافعاً: ما عندك؟ قال: خير، أدركتم الرِّيّ، وأنتم على الماء! وشجَّعهم وهو متحيّر أرمد، وقال: أيُّها النَّاس، انظروا عَلمَيْن كأنهما ثَدْيان. فأتَوْا عليهما وقالوا: عَلَمان، فقام عليهما فقال: اضربوا يمْنةً ويَسْرَةً ـ لعَوْسجة كقِعدة الرجل ـ فوجدوا جِذْمها، فقالوا: جذمٌ ولا نرى شجرة، فقال: احتفروا حيث شئتمْ، فاستثاروا أو شالاً وأحساءً رواءً، فقال رافع: أيّها الأمير، والله ما وردتُ هذا الماء منذ ثلاثين سنة، وما وردته إلاّ مرّة وأنا غلام مع أبي. فاستعدُّوا ثم أغاروا والقوم لا يروْن أنّ جيشاً يقطع إليهم.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن ظفر بن دهي، قال: فأغار بنا خالد من سُوَى على مُصَيَّخ بَهْرَاءَ بالقُصْوانيَ ـ ماء من المياه ـ فصبَّح المُصَيَّخ والنَّمِر؛ وإنهم لغارّون، وإن رفقة لتشرب في وجه الصُّبْح، وساقيهم يغنِّيهم، ويقول:

ألا صَبّحاني قَبْلَ جَيْشِ أبي بكرِ

فضُربت عنُقه، فاختلط دمُه بخمره.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد بإسناده الذي تقدّم ذكره، قال: ولمّا بلغ غسَّان خروج خالد على سُوى وانتسافها، وغارتُه على مصَيَّخ بَهْراء وانتسافها، فاجتمعوا بمرْج راهط، وبلغ ذلك خالداً، وقد خلّف ثُغور الرُّوم وجنودها ممّا يلي العراق، فصار بينهم وبين اليرموك، صمد لهم؛ فخرج من سُوَى بعد ما رجع إليها بسبْي بَهْراء فنزل الرُّمّانَتيْن ـ عَلَميْن على الطريق ـ ثم نزل الكَثَب؛ حتى صار إلى دمشق، ثم مَرْج الصُّفَّر، فلقِيَ عليه غَسّانَ وعليهم الحارث بن الأيْهَم، فانتسف عسكرهم وعيالاتِهم. ونزل بالمَرْج أيَّاماً، وبعث إلى أبي بكر بالأخماس مع بلال بن الحارث المُزَنيّ، ثم خرج من المرْج حتى ينزل قناة بُصْرَى؛ فكانت أوّلَ مدينة افتُتحت بالشأم على يديْ خالد فيمن معه من جُنُود العراق، وخرج منها، فوافَى المسلمين بالواقُوصة فنازلهم بها في تسعة آلاف.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب، قالوا: ولما رجع خالدٌ من حجِّه وافاه كتاب أبي بكر بالخُروج في شَطْر الناس، وأن يخلّف على الشَّطْر الباقي المثنّى بن حارثة، وقال: لا تأخذنْ نجداً إلاّ خلَّفت له نجداً، فإذا فتح الله عليكم فاردُدْهم إلى العراق، وأنت معهم، ثم أنت على عَمَلِك؛ وأحضر خالدٌ أصحابَ رسول الله ﷺ واستأثر بهم على المثنَّى، وترك للمثنَّى أعدادهم من أهل القناعة ممّنْ لم يكن له صحبة، ثم نظر فيمن بقيَ، فاختلج مَن كان قدِم على النبيّ ﷺ وافداً أو غير وافد، وترك للمثنَّى أعدادَهم من أهل القناعة؛ ثم قسَم الجند نصفيْن، فقال المثنّى: والله لا أقيم إلاّ على إنفاذ أمر أبي بكر كلِّه في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف؛ وبالله ما أرجو النَّصر إلاّ بهم، فأنَّى تُعريني منهم! فلما رأى ذلك خالد بعد ما تلكَّأ عليه أعاضه منهم حتى رضيَ، وكان فيمن أعاضه منهم فُرات بن حيَّان العجليّ، وبَشِير بن الخَصَاصِيّة والحارث بن حسّان الذُهليَّان، ومعبَد بن أم معبد الأسلميّ، وعبدالله بن أبي أوفى الأسلميّ؛ والحارث بن بِلال المُزنيّ، وعاصم بن عمرو التميميّ؛ حتى إذا رضيَ المثنّى وأخذ حاجَته، انجذب خالد فمضَى لوجهه وشيَّعه المثنَّى إلى قُراقر، ثم رجع إلى الحيرة في المحرّم، فأقام في سلطانه، ووضع في المسلحة التي كان فيها على السَّيْب أخاه، ومكان ضرار بن الخطاب عتيبةَ بن النّهاس، ومكان ضرار بن الأزور مسعوداً أخاه الآخر، وسدّ أماكن

كلّ مَن خرج من الأمراء برجالٍ أمثالهم من أهل الغناء، ووضع مذعور بن عديّ في بعض تلك الأماكن، واستقام أهل فارس ـ على رأس سنة من مقدَم خالد الحيرة؛ بعد خروج خالد بقليل؛ وذلك في سنة ثلاث عشرة ـ على شَهْرَ بَراز بن أردشير بن شهريار ممّن يُناسب إلى كسرى، ثم إلى سابور. فوجّه إلى المثنّى جنداً عظيماً عليهم هُرْمُز جاذَوَيْه في عشرة آلاف، ومعه فيل، وكتبت المسالح إلى المثنّى بإقباله، فخرج المثنّى من الحِيرة نحوه، وضمّ إليه المسالح، وجعل على مجنِّبَتَيْه المُعَنَّى ومسعوداً ابنَي حارثة، وأقام له ببابل، وأقبلَ هُرمز جاذويه، وعلى مجنِّبتَيْه الكوكبد والخُرُكبذ. وكتب إلى المثنَّى: من شهر براز إلى المثنّى؛ إني قد بعثتُ إليك جنداً من وخش أهل فارس، إنما هم رُعاة الدّجاج والخنازير؛ ولست أقاتلك إلّا بهم. فأجابه المثنَّى: من المثنَّى إلى شهر براز؛ إنما أنتَ أحدُ رجليْن: إما باغٍ فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا، وإمَّا كاذب فأعظم الكذّابين عقوبةً وفضيحة عند الله في الناس الملوك. وأمَّا الذي يدلّنا عليه الرأي؛ فإنَّكم إنما اضطررتم إليهم؛ فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدّجاج والخنازير. فجزع أهلُ فارس من كتابه، وقالوا: إنما أتيَ شهر براز من شؤم مولده ولؤم منشئه ـ وكان يسكن ميسان ـ وبعض البلدان شَيْنٌ على مَنْ يسكنه. وقالوا له: جَرّأت علينا عدوَّنا بالَّذي كتبت به إليهم؛ فإذا كاتبت أحداً فاستشِرْ. فالتقوْا ببابل، فاقتتلوا بعُدْوة الصَّراة الدُّنيا على الطريق الأوّل قتالاً شديداً.

ثم إن المثنّى وناساً من المسلمين اعتورُوا الفيل ـ وقد كان يفرّق بين الصفوف والكراديس ـ فأصابوا مقتَله، فقتلوه وهزموا أهلَ فارس، واتّبعهم المسلمون يقتلونهم، حتى جازوا بهم مسالِحَهُمْ، فأقاموا فيها، وتتبَّع الطلب الفالَّة؛ حتى انتهوْا إلى المدائن؛ وفي ذلك يقول عَبْدة بن الطبيب السعديّ، وكان عَبْدة قد هاجرَ لمهاجَرة حليلة له حتى شهد وقعة بابل؛ فلما آيسته رجع إلى البادية، فقال:

هـل حَبْلُ خَـولَة بَعْـدَ البَيْن مـوصـولُ ... أم أنت عنهـا بَعِيـدُ الـدارِ مشغـولُ!
ولِـلأحِـبَّـة أيّـامٌ تَـذكَّـرُهـا ... وللنّـوى قبـل يـوم البيـن تـأويـل
حَـلَّتْ خُـوَيلةُ فـي حَيّ عَـهِـدتُـهُـم ... دُونَ المَـدائنِ فيهـا الـدِّيـكُ والفيـلُ
يُقـارِعـون رؤوسَ العُجْم ضـاحِيَـةً ... مِـنْهُـمْ فـوارِسُ، لا عُـزلٌ ولا مِيـلُ

القصيدة. وقال الفرزدق يعدّد بيوتات بكر بن وائل وذكر المثنّى وقَتْلَه الفيل:

وبَيْتُ المُثنّى قـاتِـلِ الفيـلِ عَنْـوةً ... ببـابـلَ إذ في فـارِسٍ مُلكُ بـابِـلِ

ومات شهر براز منهزَمَ هرمز جاذويه.

واختلف أهل فارس، وبقي ما دون دِجْلة وبُرْس من السَّواد في يدي المثنَّى والمسلمين.

ثم إنّ أهل فارس اجتمعوا بعد شهر براز على دُخْت زَنان ابنة كسرى؛ فلم ينفذ لها أمرٌ فخُلعت.

ومُلِّكَ سابور بن شهر براز. قالوا: ولما ملك سابور بن شهر براز قام بأمره الفَرُّخزاذ بن البِنْدَوان، فسأله أن يزوّجه آزَرْميدُخْت ابنة كِسْرى، ففعل، فغضبت من ذلك، وقالت: يا بن عَمّ، أتزوّجني عبدي! قال: استحْيِي من هذا الكلام ولا تعيديه عليّ، فإنّه زوجُك، فبعثت إلى سِياوَخْش الرازيّ ـ وكان من فتّاك الأعاجم ـ فشكَتْ إليه الَّذي تخاف، فقال لها: إن كنتِ كارهة لهذا فلا تعاودِيه فيه، وأرسلي إليه وقولي له: فليقل له فليأتك؛ فأنا أكفيكه. ففعلت وفعل؛ واستعدّ سياوَخْش، فلمّا كان ليلة العُرْس أقبل الفرُّخزاذ حتى دخلَ، فثار

به سياوَخْش فقتله ومَن معه، ثم نَهَدَ بها معه إلى سابور، فحضرته ثم دخلوا عليه فقتلوه، ومُلّكَتْ آزر ميدخت بنت كسرى، وتشاغلوا بذلك؛ وأبطأ خبر أبي بكر على المسلمين فخلّف المثنّى على المسلمين بشير بن الخصاصيَّة ووضع مكانه في المسالحِ سعيدَ بن مُرّة العِجْليّ؛ وخرج المثنّى نحو أبي بكر ليخبره خبر المسلمين والمشركين، وليستأذنه في الاستعانة بمَن قد ظهرت توبتُه وندمه من أهل الرّدةِ ممّن يستطعمه الغزوَ، وليخبره أنه لم يخلّف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم. فقدم المدينة وأبو بكر مريض، وقد كان مرض أبو بكر بعد مخرَج خالد إلى الشأم ـ مَرْضَتَه التي مات فيها ـ بأشهر؛ فقدم المثنّى وقد أشفى، وعقد لعمر، فأخبره الخبر، فقال: عليّ بعمر، فجاء فقال له: اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعـمل به؛ إني لأرجُو أن أموتَ من يومي هذا ـ وذلك يوم الاثنين ـ فإن أنا مِتّ فلا تمسينّ حتى تندُب الناس مع المثنّى، وإن تأخّرتُ إلى الليل فلا تُصْبحنّ حتى تندب الناس مع المثنّى، ولا تشغلنَّكم مصيبة وإنَ عَظُمت عن أمر دينكم، ووصية ربِّكم؛ وقد رأيتُني متوفَّى رسول الله ﷺ وما صنعت، ولم يصَب الخلق بمثله؛ وبالله لو أنّي أني عن أمر رسوله لخذلَنا ولعاقَبنا، فاضطرمت المدينة ناراً. وإن فتح الله على أمراء الشأم فارددْ أصحابَ خالد إلى العراق، فإنّهم أهلُه وولاة أمره وحدّه وأهل الضّراوة منهم والجراءة عليهم.

ومات أبو بكر رحمه الله مع الليل، فدفنه عمرُ ليلاً، وصلى عليه في المسجد، وندب الناس مع المثنى بعد ما سُوِّيَ على أبي بكر، وقال عمر: كان أبو بكر قد عَلِم أنه يَسُوءني أنْ أؤمّر خالداً على حرب العراق؛ حين أمرني بصرف أصحابي، وتَرك ذكره.

قال أبو جعفر: وإلى آزر ميدخت انتهى شأن أبي بكر، وأحدُ شِقَّيِ السَّواد في سلطانه، ثم مات وتشاغل أهلُ فارس فيما بينهم عن إزالة المسلمين عن السَّواد، فيما بين ملك أبي بكر إلى قيام عمر ورجوع المثنّى مع أبي عبيد إلى العراق، والجمهور من جُنْد أهل العراق بالحيرة، والمسالح بالسيب، والغارات تنتهي بهم إلى شاطىء دِجْلة، ودجلة حجاز بين العرب والعجم.

فهذا حديث العراق في إمارة أبي بكر من مبتدئه إلى منتهاه.

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق. وكتب أبو بكر إلى خالد وهو بالحِيرة، يأمره أن يمدّ أهلَ الشأم بمَن معه من أهل القوّة، ويخرج فيهم، ويستخلف على ضَعَفة النَّاس رجلاً منهم؛ فلمّا أتى خالداً كتابُ أبي بكر بذلك، قال خالد: هذا عمل الأعيسر بن أمّ شَمْلَة ـ يعني عمر بن الخطاب ـ حسدني أن يكون فتْح العراق على يديّ. فسار خالد بأهل القوّة من الناس وردّ الضعفاء والنّساء إلى المدينة؛ مدينة رسول الله ﷺ، وأمّر عليهم عُمير بن سعد الأنصاريّ، واستخلف خالد على مَن أسلم بالعراق من رَبيعة وغيرهم المثنّى بن حارثة الشيبانيّ. ثم سار حتى نزل على عَيْن التَّمْر، فأغار على أهلها، فأصاب منهم، ورابط حِصْناً بها فيه مقاتِلةٌ كان كسرى وضعهم فيه حتى استنزلهم، فضرب أعناقهم، وسَبَى من عَيْن التّمْر ومن أبناء تلك المرابِطة سبايا كثيرة، فبعث بها إلى أبي بكر؛ فكان مِن تلك السَّبَايا أبو عَمْرة مولى شبّان؛ وهو أبو عبد الأعلى بن أبي عمرة، وأبو عبيدة مولى المعلّى، من الأنصار من بني زُريق، وأبو عبدالله مولى زُهرة، وخَيْر مولى أبي داود الأنصاريّ ثم أحد بني مازن بن النَّجار، ويَسار وهو جدّ محمد بن إسحاق مولى قيس بن مَخْـرمة بن المـطّلب بن عبد منـاف، وأفلح مولى أبي أيـوب الأنصاريّ ثم أحد بني مالك بن النَّجار، وحُمران بن أبان مَوْلى عثمان بن عفان. وقَتَل خالد بن الوليد هلالَ بن

عَقّة بن بشر النَّمريّ وصلَبه بعين التّمر، ثم أراد السَّير مفوّزاً من قُراقر ـ وهو ماء لكلب إلى سُوَى، وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال ـ فلم يهتدِ خالد الطريق، فالتمس دليلا، فدُلّ على رافع بن عميرة الطائِيّ؛ فقال له خالد: انطلق بالنَّاس، فقال له رافع: إنَّك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال؛ والله إنّ الراكب المفرد ليخافُها على نفسه وما يسلُكها إلا مغرّراً؛ إنها لخمس ليال جِياد لا يُصاب فيها ماء مع مَضَلَّتها، فقال له خالد: ويْحك! إنه والله إنْ لي بدٌّ من ذلك، إنه قد أتتني من الأمير عَزْمة بذلك، فمرْ بأمرك. قال: استكثروا من الماء؛ مَن استطاع منكم أن يصرّ أذنَ ناقته على ماء فليفعل؛ فإنها المهالك إلا ما دفع الله؛ ابْغِني عشرين جَزوراً عظاماً سماناً مَسانّ. فأتاه بهنّ خالد، فعمد إليهنّ رافع فظمَّأهن، حتى إذا أجهدهنّ عطشاً أوردهنّ فشربن حتى إذا تملأن عمَد إليهنّ، فقطع مشافرهنّ، ثم كَعمهنّ لئلا يجترن، ثم أخلى أدبارهنّ.

ثم قال لخالد: سر؛ فسار خالد معه مُغِذًّا بالخيول والأثقال؛ فكُلَّما نزل منزلا افتظّ أربعا من تلك الشوارف؛ فأخذ ما في أكراشها، فسقاه الخيل؛ ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء؛ فلما خشيَ خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة وهو أرمد: ويحكَ يا رافع! ما عندك؟ قال أدركتَ الرِّيّ إن شاء الله؛ فلمَّا دنا من العلَمينْ، قال للناس: انظروا هل ترون شُجيرة من عَوْسج كقِعْدة الرجل؟ قالوا: ما نراها. قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون! هلكتم والله إذاً وهلكتُ؛ لا أبالكم! انظروا، فطلبوا فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقيَّة، فلمَّا رآها المسلمون كبَّروا وكبَّر رافع بن عميرة؛ ثم قال: احفروا في أصلها، فحفروا فاستخرجوا عيناً، فشربوا حتى رَوِيَ النَّاس، فاتّصلتْ بعد ذلك لخالد المنازل، فقال رافع: والله ما وردتُ هذا الماءَ قطّ إلا مرةً واحدة، وردته مع أبي وأنا غلام، فقال شاعر من المسلمين:

لله عَيْنا رافعٍ أنّى اهْتَدَى ... فَوّزَ من قُراقرٍ إلى سُوَى!
خمْساً إذا ما سارها الجَيْشُ بكى ... ما سارها قَبْلكَ إنسيٌّ يُرَى

فلمَّا انتهى خالد إلى سُوَى، أغار على أهله ـ وهم بَهْراء ـ قبيل الصُّبح، وناس منهم يشربونَ خَمْراً لهم في جَفْنة قد اجتمعوا عليها، ومغنِّيهم يقول:

ألا علّلاني قبل جيش أبي بكرِ ... لعلّ منايانا قريب وما نَدْري
ألا علّلاني بالزُّجاج وكرِّرا ... عَليَّ كُمَيْتَ اللونِ صافيةً تَجْري
ألا علّلاني من سُلافة قهوةٍ ... تُسلّي همومَ النفس من جيِّدِ الخمرِ
أظُنُّ خيولَ المسلمين وخالداً ... ستطرُقكمْ قبل الصَّباح من البِشْرِ
فهل لكُمُ في السير قبل قتالهم ... وقبل خروج المعصراتِ من الخِدْرِ!

فيزعمون أن مغنّيَهم ذلك قتِل تحت الغارة، فسال دمُه في تلك الجفنة. ثم سار خالدٌ على وجهه ذلك، حتى أغار على غَسَّان بمرْج راهط، ثم سار حتى نزلَ على قناة بُصْرَى، وعليها أبوعبيدة بن الجراح وشُرَحْبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان؛ فاجتمعوا عليها، فرابطوها حتى صالحت بُصرى على الجِزْية، وفتحها الله على المسلمين، فكانتْ أوّلَ مدينة من مَدائن الشأم فتحت في خلافة أبي بكر. ثم ساروا جميعاً إلى فِلَسطين مدداً لعمرو بن العاص، وعمرو مقيم بالعَربات مِنْ غَوْر فِلَسطين، وسمعت الرُّوم بهم، فانكشفوا عن جِلّق إلى أَجْنادِين؛ وعليهم تَذارق أخو هِرَقْل لأبيه وأمّه ـ وأجنادين بلد بين الرّمْلة وبيت جَبْرين من أرض فلسطين ـ وسار

عمرو بن العاص حينَ سمع بأبي عبيدة بن الجرّاح وشُرَحْبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان حتى لقيَهم، فاجتمعوا بأجنادين؛ حتى عسكروا عليهم.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزّبير، عن عُروة بن الزبير، أنّه قال: كان على الرّوم رجل منهم يقال له القُبُقْلار؛ وكان هِرَقل استخلفه على أمَراء الشأم حين سار إلى القسطنطينيّة، وإليه انصرف تذارق بمَنْ معه من الروم. فأمّا علماء الشأم فيزعمون أنّما كان على الرّوم تَذارِق. والله أعلم.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمَّد بن إسحاق، عن محمّد بن جعفر بن الزبير، عن عُروة، قال: لما تدانَى العسكران بعث القُبُقْلار رجلاً عربيًّا ـ قال: تحدّثت أنّ ذلك الرجل رجلٌ من قضاعة، من تزيد بن حَيْدَان، يقال له ابن هزارف ـ فقال: ادْخُل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة، ثم ائتني بخبرهم. قال: فدخل في النَّاس رجلٌ عربيٌ لا ينكَر؛ فأقام فيهم يوماً وليلة، ثم أتاه فقال له: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سَرَق ابنُ ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رُجِم؛ لإقامة الحقّ فيهم. فقال له القبقلار: لئن كنتَ صدقتني لَبطنُ الأرض خيْرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أنّ حظّي من الله أن يخلّيَ بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرُهم عليّ. قال: ثم تزاحف النّاس، فاقتتلوا، فلما رأى القُبُقْلار ما رأى من قتال المسلمين؛ قال للروم: لفُّوا رأسي بثوب، قالوا له: لِمَ؟ قال: يوم البئيس، لا أحبّ أن أراه! ما رأيت في الدُّنيا يوماً أشدّ من هذا! قال: فاحتزَّ المسلمون رأسَه، وإنّه للمُلفَّف.

وكانت وقعة أجنادين في سنة ثلاث عشرة لليلتين بقِيَتا منْ جُمادَى الأولى. وقتل يومئذ من المسلمين جماعةٌ؛ منهم سلمة بن هشام بن المغيرة، وهبّار بن الأسود بن عبد الأسد، ونعيم بن عبدالله النحَّام، وهشام بن العاصي بن وائل، وجماعة أخر من قُريش. قال: ولم يسمّ لنا من الأنصار أحد أصيب بها.

وفيها تُوُفِّيَ أبو بكر لثمانِ ليالٍ بقينَ ـ أو سبع بقينَ ـ من جُمَادى الآخرة.

رجع الحديث إلى حديث أبي زيد، عن علي بن محمد بإسناده الذي قد مضى ذكره، قال: وأتى خالدٌ دمشقَ فجمع له صاحِب بصرى، فسار إليه هو وأبو عُبيدة؛ فلقيَهم أدرنجار، فظفر بهم، وهزمهم؛ فدخلوا حصنَهم؛ وطلبوا الصُّلْح، فصالحهم على كلّ رأس دينار في كلِّ عام وجريب حنطة. ثم رجع العدوُّ للمسلمين، فتوافَتْ جنود المسلمين والرُّوم بأجنادين، فالتقَوْا يوم السبت لليلتين بقِيَتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة؛ فظهر المسلمون، وهزم الله المشركين، وقتل خليفة هِرَقل، واستشهد رجال من المسلمين؛ ثم رجع هِرَقْل للمسلمين؛ فالتقوْا بالواقوصة فقاتلوهم؛ وقاتلهم العدوّ، وأتتهم وفاة أبي بكر وهم مصافُّون، وولاية أبي عبيدة، وكانت هذه الوقعة في رجب.

حدّثني أبو زيد؛ عن عليّ بن محمد، بإسناده الذي قد مضى ذكره؛ قالوا: مات أبو بكر وهو ابن ثلاث وستين سنة في جُمادى الآخرة يوم الاثنين لثمان بقين منه. قالوا: وكان سبب وفاته أنّ اليهود سَمَّتْه في أرُزّة، ويقال في جذيذة، وتناول معه الحارث بن كَلَدة منها، ثم كَفّ وقال لأبي بكر: أكلتَ طعاماً مسموماً سمّ سنة. فمات بعد سنة، ومرض خمسة عشر يوماً، فقيل له: لو أرسلت إلى الطبيب! فقال: قد رآني. قالوا: فما قال لك؟ قال: إنّي أفعل ما أشاء.

قال أبو جعفر: ومات عتّاب بن أسِيد بمكّة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر ـ وكانا سُمّا جميعاً ـ ثم مات عَتَّاب بمكة.

وقال غيرُ مَن ذكرت في سبب مرض أبي بكر الذي توفي فيه، ما حدّثني الحارثُ، قال: حدّثَنا ابنُ سعد، قال: أخبَرَنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أسامة بن زيد الليْثيّ، عن محمد بن حمزة، عن عمرو، عن أبيه، قال: وأخبرنا محمَّد بن عبدالله، عن الزُّهريّ، عن عروة، عن عائشة، قال: وأخبرَنا عمر بن عمران بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن عمر بن الحسين مولى آل مظعون، عن طلحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، قالوا: كان أوّل ما بدَأ مرضُ أبي بكر به أنَّه اغتسلَ يوم الاثنين لسبع خَلَوْن من جُمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً فَحُمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة؛ وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يُصَلِّي بالنَّاس؛ ويدخل الناس يعودونه؛ وهو يَثْقل كلّ يوم، وهو نازل في داره التي قطع له رسول الله ﷺ وِجَاه دار عثمان بن عفان اليوم، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه؛ وتوفي أبو بكر مُسْيَ ليلة الثلاثاء؛ لثمان ليالٍ بقين من جُمَادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة. وكانت خلافتُه سنتينْ وثلاثة أشهر وعشر ليال. قال: وكان أبو مَعْشَر يقول: كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال، فتُوُفِّيَ، وهو ابن ثلاث وستين سنة؛ مجتمَعٌ على ذلك في الروّايات كلِّها، استوفى سنّ النبي ﷺ، وكان أبو بكر وُلِد بعد الفيل بثلاث سنين.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا جَرير، عن يحيى بن سعيد، قال: قال سعيد بن المسيِّب: استكمل أبو بكر بخلافته سنَّ رسول الله ﷺ، فتوفِّيَ وهو بسنِّ النبي ﷺ.

حدّثنا ابو كُرَيب، قال: حدّثنا أبو نُعَيم، عن يونس بن إسحاق، عن أبي السَّفَر، عن عامر، عن جرير، قال: كنت عند معاوية فقال: تُوفِّيَ النَّبيّ ﷺ وهو ابنُ ثلاث وستين سنة، وتوفِّيَ أبو بكر وهو ابن ثلاث وستين سنة، وقتل عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وحدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد، عن جرير، قال: قال معاوية: قُبِض رسولُ الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وقُتِل عمر وهو ابن ثلاث وستين، وتُوُفِّيَ أبو بكر وهو ابن ثلاث وستين.

وقال عليّ بن محمد في خبره الذي ذكرت عنه: كانت ولاية أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ويقال: عشرة أيام.

ذكر الخبر عمّن غسَّله والكفن الذي كفّن فيه أبو بكر ومن صلّى عليه والوقت الذي صلَّى عليه فيه والوقت الذي توفِّي فيه

حدّثني الحارث، عن ابن سعد، قال: أخبرَنا محمد بن عمر، قال: حدّثني مالك بن أبي الرّحّال، عن أبيه، عن عائشة، قالت: توفِّيَ أبو بكر رحمه الله بين المغرب والعشاء.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا يحيى بن واضح، عن محمد بن عبدالله، عن عطاء وابن أبي مُلَيكة، أنّ أسماءَ بنت عُمَيس، قالت: قال لي أبو بكر: غَسِّليني، قلت: لا أطيق ذلك، قال: يعينُك عبد الرحمن بن أبي بكر، يصبّ الماء.

حدّثني الحارث، عن محمد بن سعد، قال: أخبرَنا مُعاذ بن مُعاذ ومحمد بن عبدالله الأنصاريّ، قالا: حدّثنا الأشعث، عن عبد الواحد بن صَبِرة، عن القاسم بن محمد، أنّ أبا بكر الصّدّيق أوصى أن تغسله امرأته أسماء؛ فإن عجزت أعانها ابنُه محمد. قال ابن سعد: قال محمد بن عمر: وهذا الحديث وَهِل؛ وإنما كان لمحمد يوم تُوُفِّي أبو بكر ثلاث سنين.

حدّثنا ابنُ وكيع، قال: حدّثنا ابن عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، سألها أبو بكر؛ في كم كُفّن النبي ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثواب، قال: اغسلوا ثوبيَّ هذين ـ وكانا ممشّقَيْن ـ وابتاعوا لي ثوباً آخر. قلت: يا أبَهْ، إنّا موسرون، قال: أيْ بُنيّة، الحيُّ أحقُّ بالجديد من الميِّت، وإنما هما للمُهْلة والصَّديد.

حدّثني العبَّاس بن الوليد، قال: أخبرَنا أبي قال: حـدّثنا الأوزاعيّ؛ قـال: حدّثني عبـد الرحمن بن القاسم؛ أنّ أبا بكر تُوُفِّيَ عشاءً بعد ما غابت الشمس ليلَةَ الثلاثاء، ودفن ليلا ليلة الثلاثاء.

حدّثنا أبو كُرَيب، قال: حدّثنا غَنّام، عن هشام، عن أبيه، أنّ أبا بكر مات ليلة الثلاثاء ودُفن ليلاً.

حدّثني أبو زيد، عن عليّ بن محمد بإسناده الذي قد مَضَى ذكريه، أنّ أبا بكر حُمِلَ على السَّرير الذي حُمِل عليه رسولُ الله ﷺ، وصلّى عليه عمر في مسجد رسولِ الله ﷺ، ودخل قبره عمر، وعثمان؛ وطلحة؛ وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ وأراد عبدالله أن يدخل قَبره، فقال له عمر: كُفِيت.

قال أبو جعفر: وكان أوصى ـ فيما حدّثني الحارثُ، عن ابن سعد، قال: أخبرَنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا أبو بكر بن عبدالله بن أبي سَبْرة، عن عمر بن عبدالله ـ يعني ابن عروة ـ أنّه سمع عُروة والقاسم بن محمد يقولان: أوصى أبو بكر عائشة أن يُدفن إلى جَنْب النبيّ ﷺ، فلمّا تُوُفِّيَ حُفِر له، وجعل رأسه عند كَتِفَي رسول الله ﷺ، وألصقوا اللحدَ بلَحدِ النبيِّ ﷺ فقبِر هنالك.

قال الحارث: حدّثني ابنُ سعد، قال: وأخبرنا محمد بن عمر، قال: حَدّثني ابنُ عثمان، عن عامر بن عبدالله بن الزبير، قال: جعل رأس أبي بكر عند كتفي رسولِ الله ﷺ، ورأس عمر عند حَقْوَيْ أبي بكر.

حدّثني عليّ بن مسلم الطوسيّ، قال: حدّثنا ابنُ أبي فُدَيك، قال: أخبرني عمرو بن عثمان بن هانىء، عن القاسم بن محمد، قال: دخلتُ على عائشة رضي الله تعـالى عنها فقلت: يـا أمَّهْ، اكشفِي لي عن قبـر النبيّ ﷺ وصاحبيْه؛ فكشفت لي عن ثلاثة قبور، لا مُشرِفَة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العَرْصة الحمراء؛ قال: فرأيتُ قبرَ النبيّ ﷺ مقدَّماً وقبر أبي بكر عند رأسه، وعمر رأسه عند رِجْلِ النبيّ ﷺ.

حدّثني الحارثُ، عن ابن سعد، قال: أخبرَنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا أبو بكر بن عبدالله بن أبي سَبْرة، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطّلب بن عبدالله بن حَنْطَب، قال: جُعل قبر أبي بكر مثل قبرِ النبيّ ﷺ مُسَطَّحاً؛ ورُشَّ عليه الماء، وأقامت عليه عائشة النَّوْح.

حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابنُ وهب، قال: أخبرَنا يونس بن يزيد عن ابن شهاب؛ قال: حدّثني سعيد بن المسيّب، قال: لما تُوُفِّيَ أبو بكر رحمه الله أقامت عليه عائشة النَّوْح، فأقبل عمر بن الخطّاب حتى قام ببابها، فنهاهنّ عن البكاء على أبي بكر، فأبيْنَ أن ينتهين، فقال عمر لهشام بن الوليد: ادخل فأخرج إليَّ ابنة أبي قُحافة؛ أخت أبي بكر، فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر: إني أحرِّج عليك بيتي. فقال عمر

لهشام: ادخُل فقد أذنتُ لك، فدخل هشام فأخرج أمّ فَرْوة أخت أبي بكر إلى عمر، فعلاها بالدّرّة، فضربها ضربات، فتفرّق النَّوْح حين سمعوا ذلك.

وتمثّل في مرضِه - فيما حدثني أبو زيد، عن عليّ بن محمد بإسناده - الذي توفي فيه:

وكلُّ ذي إبلٍ موروثُ وكلُّ ذي سَلَبٍ مسلوبُ
وكلّ ذي غيبةٍ يؤوبُ وغائبُ الموتِ لا يؤوب

وكان آخر ما تكلم به: رَبِّ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين﴾.

ذكر الخبر عن صفة جسم أبي بكر رحمه الله

حدّثني الحارث، عن ابن سعد، قال: أخبرَنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا شُعَيب بن طَلْحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله تعالى عنها، أنها نظرتْ إلى رجلٍ من العرب مرّ وهي في هَوْدجها، فقالت: ما رأيتُ رجلا أشبَه بأبي بكر من هذا، فقلنا لها: صِفي أبا بكر، فقالت: رجل أبيض نحيف خفيف العارضين، أجْنأ لا يستمسك إزاره، يسترخي عن حَقويْه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتِىء الجبهة، عاري الأشاجع.

وأما عليّ بن محمد؛ فإنه قال في حديثه الذي ذكرت إسناده قَبْلُ: إنّه كان أبيضَ يخالِطه صُفرة، حسنَ القامة، نحيفاً أجْنأ، رقيقاً عتيقاً، أقنى، معروق الوجه، غائر العينين، حَمْش الساقين، ممحوص الفخذيْنِ، يخضب بالحنَّاء والكتَم.

وكان أبو قحافة حين تُوُفِّيَ حيًّا بمكّة، فلما نُعي إليه قال: رُزْءٌ جليل!

ذكر نسب أبي بكر واسمِه وما كان يُعرف به

حدّثني أبو زيد، قال: حدّثنا عليّ بن محمد بإسناده الذي قد مَضى ذكرُه، أنَّهم أجمعوا على أنَّ اسم أبي بكر عبدالله، وأنه إنما قيل له عَتيق عن عتقه. قال: وقال بعضهم قيل له ذلك؛ لأنّ النبيّ ﷺ، قال له: أنت عَتِيقٌ من النار.

حدّثني الحارثُ، عن ابن سعد، عن محمد بن عمر، قال: حدثنا إسحاق بن يحيى بن طلحة، عن معاوية بن إسحاق، عن أبيه، عن عائشة، أنها سُئلت: لِمَ سُمِّيَ أبو بكر عتيقاً؟ فقالت: نظر إليه النبيّ ﷺ يوماً، فقال: هذا عتيق الله من النار.

واسم أبيه عثمان، وكنيته أبو قُحافة، قال: فأبو بكر عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرّة بن كعب بن لُؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك، وأمُّه أمّ الخيْر بنت صَخْر بن عامر بن كعب بن سَعْد بن تَيْم بن مُرّة.

وقال الواقديّ: اسمه عبدالله بن أبي قُحافة ـ واسمه عثمان ـ بن عامر. وأمّه أمّ الخير، واسمها سَلْمى بنت صَخْر بن عامر بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرّة.

وأمّا هِشام، فإنه قال ـ فيما حُدّثت عنه ـ إنّ اسم أبي بكر عَتيق بن عثمان بن عامر.

وحدثني يونس، قال أخبرَنا ابن وَهْب، قال: أخبرَني ابن لَهيعة، عن عُمارة بن غزيّة، قال: سألتُ عبدَ الرحمن به القاسم عن اسم أبي بكر الصديق، فقال: عَتِيق؛ وكانوا إخوةً ثلاثة بني أبي قُحافة: عتِيق ومُعْتق وعُتَيْق.

ذكر أسماء نساء أبي بكر الصدّيق رحمه الله

حدّث علي بن محمَّد، عمّن حدّثه ومن ذكرت مِنْ شيوخه، قال: تزوّج أبو بكر في الجاهلية قُتَيْلة ـ ووافقه على ذلك الواقديّ والكلبيّ ـ قالوا: وهي قُتَيلة ابنة عبد الْعُزَّى بن عبد بن أسعد بن جابر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ، فولدت له عبدَالله وأسماء. وتزوّج أيضاً في الجاهليّة أم رُومان بنت عامر بن عَميرة بن ذُهْل بن دُهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة ـ وقال بعضهم: هي أمّ رُومان بنت عامر بن عُوَيْمِر بن عبد شمس بن عَتّاب بن أذَينة بن سُبيع بن دُهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة ـ فولدت له عبد الرحمن وعائشة.

فكلّ هؤلاء الأربعة من أولاده، وُلدوا من زوجتيْه اللتيْن سمّيناهما في الجاهليَّة.

وتزوّج في الإسلام أسماء بنت عُميس؛ وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب؛ وهي أسماء بنت عميس بن مَعْد بن تَيْم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قُحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن مالك بن نَسْر بن وهب الله بن شَهْران بن عِفْرِس بن حَلْف بن أفْتَل ـ وهو خَثْعم ـ فولدت له محمد بن أبي بكر.

وتزوَّج أيضاً في الإسلام حَبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير؛ من بني الحارث بن الخزرج؛ وكانت نَسْأ حين تُوُفّيَ أبو بكر؛ فولدت له بعد وفاته جاريةً سُمّيتْ أمّ كلثوم.

ذكر أسماء قضاته وكتّابه وعُمَّاله على الصدقات

حدّثنا محمد بن عبدالله المُخَرّمي، قال: حدّثنا أبو الفتح نَصْر بن المغيرة، قال: قال سفيان ـ وذكره عن مِسْعَر: لمّا ولي أبو بكر، قال له أبو عبيدة: أنا أكفِيك المال ـ يعني الجِزاء ـ وقال عمر: أنا أكفيك القضاء: فمكث عمر سنةً لا يأتيه رجلان.

وقال عليّ بن محمد عن الذين سمَّيتُ: قال بعضهم: جعل أبو بكر عمرَ قاضياً في خلافته، فمكث سنة لم يخاصم إليه أحد.

قال: وقالوا: كان يكتب له زيد بن ثابت، ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان يكتب له مَنْ حضر.

وقالوا: كان عاملَه على مكّة عَتّاب بن أسِيد، وعلى الطّائف عُثْمان بن أبي العاصي، وعلى صَنْعاء المهاجر بن أبي أميَّة، وعلى حَضْرموت زياد بن لَبيد، وعلى خَوْلان يَعْلى بن أميَّة؛ وعلى زَبيد ورِمَع أبو موسى الأشعريّ، وعلى الجَنَد مُعاذ بن جبل، وعلى البحْرين العَلاء بن الحضرميّ. وبعث جرير بن عبدالله إلى نَجْران ، وبعث بعبد الله بن ثَوْر؛ أحد بني الغَوْث إلى ناحية جُرَش، وبعث عِياض بن غَنْم الفِهريّ إلى دُومة الجَنْدَل؛ وكان بالشأم أبو عبيدة وشُرَحْبيل بن حَسَنة، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص؛ كلّ رجل منهم على جند، وعليهم خالد بن الوليد.

قال أبو جعفر: وكان رَضي الله عنه سخيًّا ليِّناً، عالماً بأنساب العرب؛ وفيه يقول خِفاف ابن نَدْبة - ونَدْبة أمُّه، وأبوه عمير بن الحارث - في مرثيته أبا بكر:

أبْلَجُ ذو عُرْفٍ وذو مُنْكَرٍ ... مُقَسّمُ المعروف رَحْبُ الفِناءْ
لِلمَجْدِ في منزِلِهِ بادِياً ... حَوْضٌ رفيعٌ لم يَخُنْهُ الإزاءْ
واللَّهِ لا يُدْرِكُ أيّامَهُ ... ذو مِئزَرٍ حافٍ ولا ذو رِدَاء
مَنْ يَسْعَ كيْ يُدْرِكَ أيّامَهُ ... يَجْتَهِدِ الشّدَّ بأرضٍ فَضاءْ

وكان - فيما ذكر الحارث، عن ابن سعد، عن عمرو بن الهيثم أبي قَطَن؛ قال: حدثنا الربيع عن حَيَّان الصائغ، قال: كان نقش خاتم أبي بكر رحمه الله: «نِعْم القادر اللّهُ».

قالوا: ولم يعش أبو قُحافة بعد أبي بكر إلا ستَّة أشهر وأياماً؛ وتوفِّيَ في المحرَّم سنة أربع عشرة بمكّة؛ وهو ابن سبع وتسعين سنة.

وعقد أبو بكر في مَرْضته التي تُوُفِّيَ فيها لعمر بن الخطاب عَقْد الخلافة من بعده.

وذُكر أنه لما أراد العَقْد له دَعَا عبد الرحمن بن عَوْف؛ فيما ذكر ابن سعد، عن الواقديّ، عن ابن أبي سَبْرة، عن عبد المجيد بن سُهيل، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن؛ قال: لَمّا نزل بأبي بكر رحمه الله الوفاةُ دعا عبدَ الرحمن بن عَوْف، فقال: أخبِرْني عن عمر، فقال: يا خليفةَ رسول الله، هو واللّهِ أفضلُ منْ رأيك فيه من رجل؛ ولكن فيه غِلْظة. فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضىَ الأمر إليه لترك كثيراً ممَّا هو عليه. ويا أبا محمد قد رمَّقتُه، فرأيتُني إذا غضبتُ على الرجل في الشيء أراني الرّضا عنه، وإذا لِنتُ له أراني الشدّة عليه؛ لا تذكرْ يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً، قال: نعم. ثم دعا عثمان بن عفان، قال: يا أبا عبدالله، أخبِرْني عن عمر، قال: أنت أخبرُ به، فقال أبو بكر: عليَّ ذاك يا أبا عبدالله! قال: اللهمّ عِلْمِي به أنّ سريرته خيرٌ من علانيته؛ وأن ليس فينا مثله. قال أبو بكر رحمه الله: رحمك الله يا أبا عبدالله، لا تذكر ممَّا ذكرتُ لك شيئاً، قال: أفعل، فقال له أبو بكر: لو تركتُه ما عدوتُك، وما أدري لعلَّه تَارِكه، والخِيرَة له ألاّ يلي من أموركم شيئاً، ولوددتُ أني كنت خلْواً من أموركم؛ وأنّي كنتُ فيمَن مضى من سلَفِكم؛ يا أبا عبدالله، لا تذكرَنّ مما قلتُ لك من أمر عمر، ولا ممّا دعوتك له شيئاً.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا يحيى بن واضِح، قال: حدّثنا يونس بن عمرو، عن أبي السَّفَر، قال: أشرف أبو بكر على النّاس من كنيفه وأسماءُ ابنة عُميس ممسِكتُه، موشومة اليديْن، وهو يقول: أترضوْن بمن أستخلف عليكم؟ فإنّي واللّهِ ما ألوْتُ من جَهْد الرّأي، ولا ولَّيت ذا قرابة، وإنّي قد استخلفتُ عمر بن

الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا.

حدّثني عُثمان بن يحيى، عن عثمان القرقسانيّ، قال: حدّثنا سفيان بن عُيَينة، عن إسماعيل، عن قيس، قال: رأيتُ عمرَ بن الخطاب وهو يجلس والنَّاس معه، وبيده جَرِيدة، وهو يقول: أيُّها الناس، اسمعوا وأطيعوا قولَ خليفةِ رسول الله ﷺ؛ إنَّه يقول: إنِّي لَمْ آلُكم نصْحاً. قال: ومعه مولًى لأبي بكر يقال له: شديد، معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر.

قال أبو جعفر: وقال الواقديّ: حدّثني إبراهيم بن أبي النّضر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، قال: دعا أبو بكر عثمانَ خالياً، فقال: اكتُب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين؛ أمَّا بعد. قال: ثمّ أغمِيَ عليه، فذهب عنه، فكتب عثمان: أمَّا بعد؛ فإني قد استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطاب، ولم آلُكم خيراً منه، ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر، وقال: أراكَ خِفْتَ أن يختلف الناس إن افتُلتَتْ نفسي في غَشيتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرّها أبو بكر رضي الله عنه من هذا الموضع.

حدّثنا يونُس بن عبد الأعلى، قال: حَدّثنا يحيى بن عبدالله بن بُكَيْر، قال: حدّثنا اللَّيْث بن سعد، قال: حَدّثنا عُلْوان، عن صالح بن كيسان، عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، أنَّه دخل على أبي بكر الصّدّيق رضي الله تعالى عنه في مَرَضِه الذي تُوُفِّيَ فيه؛ فأصابه مهتمًّا، فقال له عبد الرحمن: أصبحتَ والحمد لله بارئاً! فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتراه؟ قال: نعم، قال: إنِّي ولَّيْتُ أمرَكم خيرَكم في نفسي؛ فكلّكم وَرِمَ أنفُه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه؛ ورأيتم الدنيا قد أقبلتْ ولمّا تقبِلْ، وهي مقبلة حتى تتَّخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج. وتألَّموا الاضطجاع على الصوف الأذْرِيّ؛ كما يألَمُ أحدُكم أن ينامَ على حَسَك؛ والله لأن يقدّم أحدكم فتُضرب عنقُه في غير حدّ خيرٌ له من أن يخوضَ في غمرة الدنيا وأنتم أوّلُ ضالّ بالناس غداً، فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً. يا هاديَ الطريق، إنَّما هو الفَجْر أو البَجْر، فقلت له: خَفّض عليك رحمك الله؛ فإن هذا يَهيضك في أمرك. إنَّما النَّاس في أمرك بين رجلَيْن: إمَّا رجلٌ رأى ما رأيتَ فهو معك، وإمَّا رجلٌ خالفك فهو مُشير عليك وصاحبُك كما تحبّ؛ ولا نعلمك أردتَ إلا خيراً، ولم تزل صالحاً مصْلحاً، وأنك لا تأسى على شيء من الدنيا.

قال أبو بكر رضي الله عنه: أجَلْ، إني لا آسَى على شيء من الدنيا إلاّ على ثلاث فعلتُهنّ وددت أني تركتهنّ، وثلاث تركتهنّ وددتُ أني فعلتهنّ؛ وثلاث ودِدت أنّي سألتُ عنهنّ رسولَ الله ﷺ. فأمَّا الثلاث اللاّتي وددت أنّي تركتُهنّ؛ فودِدْت أنّي لم أكشِفْ بيتَ فاطمة عن شيء. وإن كانوا قد غلَّقوه على الحرب، ووددت أني لم أكن حَرَقْتُ الفُجاءَة السُّلَميّ، وأني كنت قتلته سريحاً أو خلّيته نجيحاً. ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنتُ قذفت الأمرَ في عنق أحد الرجلين ـ يريد عمر وأبا عبيدة ـ فكان أحدُهما أميراً؛ وكنت وزيراً. وأمّا اللاتي تركتهنّ؛ فوددت أني يوم أتِيتُ بالأشعثِ بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه، فإنه تخيَّل إليّ أنه لا يرى شرًّا إلاّ أعان عليه. ووددت أني حين سيَّرتُ خالد بن الوليد إلى أهل الرّدّة؛ كنت أقمت بذي القَصّة؛ فإن ظَفِر المسلمون ظفِروا، وإن هُزموا كنت بصدد لقاءٍ أو مدداً. ووددت أني كنت إذ وجَّهت خالد بن الوليد إلى الشأم كنتُ وجّهت عمر بن الخطاب إلى العراق؛ فكنت قد بسطتُ يديّ كلتيهما في سبيل الله ـ ومدّ يديه ـ ووددْت أني كنتُ

سألتُ رسولَ الله ﷺ: لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعَه أحد؛ وودت أني كنتُ سألته: هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ وودِدْتُ أني كنتُ سألته عن ميراث ابنة الأخ والعَمَّة؛ فإنّ في نفسي منهما شيئاً.

قال لي يونس: قال لنا يحيى: ثم قدِم علينا علْوان بعد وفاة اللَّيْث، فسألته عن هذا الحديث، فحدّثني به كما حدّثني الليث بن سعد حَرْفاً حَرْفاً؛ وأخبرني أنه هو حدَّث به الليث بن سعد، وسألته عن اسم أبيه، فأخبرني أنه علوان بن داود.

وحدّثني محمد بن إسماعيل المراديّ، قال: حَدّثنا عبدالله بن صالح المصريّ، قال حدّثني اللَّيْث، عن علوان بن صالح، عن صالح بن كَيْسان، عن حُميد بن عبد الرحمن بن عوف؛ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قال ـ ثم ذكر نحوه، ولم يقل فيه: «عن أبيه».

قال أبو جعفر: وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجراً، وكان منزله بالسُّنْح، ثم تحوّل إلى المدينة. فحدّثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنا أبو بكر بن عبدالله بن أبي سَبْرة، عن مَرْوان بن أبي سعيد بن المعلَّى، قال: سمعتُ سعيد بن المسيَّب. قال: وأخبرنا مُوسى بن محمَّد بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن صبيحة التميمي، عن أبيه، قال: وأخبرَنا عبيدالله بن عمرعن نافع عن ابن عمر، قال: وأخبرَنا محمد بن عبدالله، عن الزهريّ، عن عُروة، عن عائشة، قال: وأخبرنا أبو قُدامة عُثْمان بن محمد، عن أبي وَجْزة، عن أبيه، قال: وغير هؤلاء أيضاً قد حدّثني ببعضِه، فدخلَ حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: قالت عائشةُ: كان منزل أبي بالسُّنْح عند زوْجته حَبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زُهير من بني الحارث بن الخزرج، وكان قد حجَّر عليه حُجرة من سَعَف؛ فما زادَ على ذلك حتى تحوّل إلى منزله بالمدينة؛ فأقام هنالك بالسُّنح بعد ما بويع له ستَّة أشهر، يغدُو على رجليْه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورِداء ممشَّق، فيوافي المدينةَ فيصلي الصَّلَواتِ بالنَّاس، فإذا صلَّى العِشاء؛ رجع إلى أهله بالسُّنْح؛ فكان إذا حَضَر صلَّى بالناس وإذا لم يحضر صلَّى بهم عمر بن الخطاب. قال: فكان يُقيم يوم الجمعة صدرَ النَّهار بالسُّنح يصبغ رأسه ولحيته ثم يروح لقَدَر الجمعة، فيُجمِّع بالنَّاس. وكان رجلاً تاجراً، فكان يغدُو كلّ يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع؛ وكانت له قطعة غنم تروحُ عليه؛ وربَّما خرج هو بنفسه فيها؛ وربما كُفِيَهَا فرُعيت له، وكان يحلب للحيّ أغنامَهم، فلمَّا بويع له بالخلافة قالتْ جارية من الحيّ: الآن لا تُحْلَبُ لنا منائحُ دارِنا، فسمعها أبو بكر، فقال: بلَى لعمري لأحلبنَّها لكم؛ وإني لأرجو ألّا يغيِّرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه. فكان يحلُب لهم، فربما قال للجارية من الحيّ: يا جارية أتحبِّين أن أرعَى لك، أو أصرِّح؟ فربما قالت: ارْعَ، وربما قالت: صرِّح؛ فأيّ ذلك قالتْه فعل؛ فمكث كذلك بالسُّنْح ستَّة أشهر؛ ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها، ونظر في أمرِه، فقال: لا والله، ما تصلح أمور الناس التِّجارة، وما يصلِحُهم إلّا التفرُّغ لهم والنَّظر في شأنهم، ولا بدّ لعيالي مما يُصلِحُهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يُصلِحُه ويُصْلح عيالَه يوماً بيوم، ويحجّ ويعتمِر. وكان الذي فرضوا له في كلّ سنة ستَّة آلاف درهم؛ فلما حضرتْه الوفاة. قال: رُدُّوا ما عندنَا من مال المسلمين؛ فإني لا أصيبُ من هذا المال شيئاً، وإنّ أرضي الَّتِي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم؛ فدفع ذلك إلى عمر، ولقوحاً وعبداً صَيْقلا، وقطيفة ما تُساوي خمسة دراهم؛ فقال عمر: لقد أتعب مَن بعده.

وقال عليّ بن محمد ـ فيما حدّثني أبو زيد عنه في حديثه عن القوم الذين ذكرتُ روايته عنهم ـ قال أبو بكر:

انظروا كم أنفقت منذ وُلِّيتُ من بيت المال فاقضوه عنّي. فوجدوا مبلَغه ثمانية آلاف دِرهم في ولايته.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حَدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن الزهريّ، عن القاسم بن محمد، عن أسماءَ ابنة عُمَيس، قالت: دخل طلحة بن عبيدالله على أبي بكر، فقال: استخلفتَ على الناس عُمر، وقد رأيتَ ما يلقى الناس منه وأنت معه؛ فكيف به إذا خلا بهم! وأنت لاقٍ ربَّك فسائلك عن رعيَّتك. فقال: أبو بكر ـ وكان مضطجعاً: أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة: أبالله تفرّقني ـ أو أبالله تخوّفني ـ إذا لقيتُ الله ربِّي فساءلني قلت: استخلفتُ على أهلِكَ خيرَ أهلك.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن محمَّد بن عبد الرحمن بن الحصين بمثل ذلك.

قال أبو جعفر: قد تقدّم ذكرنا وقت عقد أبي بكر لعُمر بن الخطاب الخلافة، ووقت وفاة أبي بكر، وأنّ عمَر صلَّى عليه، وأنه دفن ليلةَ وفاته قبل أن يُصبح الناس، فأصبح عمر صبيحةَ تلك الليلة، فكان أوّل ما عمل وقال ـ فيما ذُكِر ـ ما حدثنا أبو كُرَيب، قال: حدّثنا أبو بكر بن عيّاش، عن الأعمش، عن جامع بن شدّاد، عن أبيه؛ قال: لمّا استُخلف عمر صعِد المنبر، فقال: إني قائل كلمات فأمِّنوا عليهنّ، فكان أوّل منطق نطق به حين استُخلِف ـ فيما حدّثني أبو السائب، قال: حدّثنا ابن فُضيل، عن ضرار، عن حُصَين المُريّ، قال: قال عمر: إنّما مَثَلُ العربِ مثلُ جمل أنِف اتّبع قائده، فلينظر قائدُه حيث يقود؛ وأمّا أنَا فوربّ الكعبة لأحملنَّهم على الطريق.

حدّثنا عمر، قال: حدّثني عليّ، عن عيسى بن يزيد، عن صالح بن كيسان، قال: كان أوّل كتاب كتبه عمر حين وُلِّي إلى أبي عبيدة يولِّيه على جند خالد: أوصيك بتقوى الله الذي يبقَى ويفنَى ما سواه؛ الذي هدانا من الضّلالة، وأخرجَنا من الظُّلمات إلى النور. وقد استعملتك على جُنْد خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحقّ عليك، لا تُقدِّم المسلمين إلى هَلَكة رجاء غنيمة؛ ولا تُنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم؛ وتعلمَ كيف مأتاه؛ ولا تبعث سرّية إلا في كَثْف من الناس؛ وإيّاك وإلقاء المسلمين في الهلَكة، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك؛ فغمِّضْ بَصَرك عن الدنيا؛ وألْهِ قلبك عنها؛ وإيّاك أن تُهلِكَك كما أهلكتْ مَن كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعَهم.

حدّثني عمر، عن عليّ بن محمد، بإسناده، عن النّفر الذين ذكرت روايتَهم عنهم في أول ذكري أمرَ أبي بكر؛ أنَّهم قالوا: قدِم بوفاة أبي بكر إلى الشأم شدّاد بن أوْس بن ثابت الأنصاريّ ومَحْمِيَة بن جَزْء، ويَرْفأ؛ فكتموا الخبرَ الناس حتى ظفر المسلمون ـ وكانوا بالياقوصة يقاتلون عدوَّهم من الروم؛ وذلك في رجب ـ فأخبروا أبا عبيدة بوفاة أبي بكر وولايته حَرْب الشأم، وضمّ عمر إليه الأمراءَ، وعزل خالد بن الوليد.

فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، قال: لما فرغ المسلمون من أجنَادين ساروا إلى فِحْل من أرض الأردنّ؛ وقد اجتمعت فيها رافضة الروم، والمسلمون على أمرائهم وخالد على مقدّمة الناس. فلمّا نزلت الروم بيْسان بثقوا أنهارها؛ وهي أرض سبخة، فكانت وحلاً، ونزلوا فِحْلاً ـ وبيسانُ بين فلسطين وبين الأردنّ ـ فلما غشيَها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم، وَحِلت خيولُهم، ولقوا فيها عَناءً، ثم سلَّمهم الله ـ وسميت بَيْسان ذات الرَّدغَة لما لقي المسلمون فيها ـ ثم نهضوا إلى الروم وهم بفِحْل فاقتتلوا فهُزمت

الروم، ودخل المسلمون فِحْلاً ولحقت رافضة الروم بدمشق؛ فكانت فِحْل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة، على ستّة أشهر من خلافة عمر. وأقام تلك الحجَّة للناس عبد الرحمن بن عوف. ثم ساروا إلى دمشق وخالد على مقدّمة الناس؛ وقد اجتمعت الروم إلى رجل منهم يقال له باهان بدمشق ـ وقد كان عمر عزلَ خالدَ بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس ـ فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم هزم الله الرّومَ، وأصاب منهم المسلمون، ودخلت الروم دمشق؛ فغلّقوا أبوابَها وجَثم المسلمون عليها فرابطوها حتى فُتحت دمشق، وأعطوا الجزية، وقد قدم الكتاب على أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد، فاستحيا أبو عبيدة أن يقرىء خالداً الكتاب حتى فتحت دمشق؛ وجرى الصُّلْح على يديْ خالد؛ وكتب الكِتاب باسمه. فلما صالحت دمشق لحِق باهان ـ صاحب الروم الّذي قاتل المسلمين ـ بهِرْقل. وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب، وأظهر أبو عبيدة إمارتَه وعَزْلَ خالد؛ وقد كان المسلمون، التقوْا هم والرّوم ببلد يقال له عينْ فِحْل بين فِلَسطين والأردنّ، فاقتتلوا به قتالا شديداً، ثمّ لحقت الروم بدمشق.

وأما سيف ـ فيما ذكر السريّ، عن شُعيب، عنه، عن أبي عثمان، عن خالد وعبادة ـ فإنه ذكر في خبره أنّ البريد قدم على المسلمين من المدينة بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة؛ وهم باليرموك؛ وقد التحم القتال بينهم وبين الرُّوم. وقصّ من خبر اليرموك وخبر دمشق غير الذي اقتصّه ابن إسحاق؛ وأنا ذاكر بعض الذي اقتصّ من ذلك:

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد، عن أبي عثمان، عن أبي سعيد، قال: لَمَّا قام عمر رضي عن خالد بن سعيد والوليد بن عُقْبة فأذِنَ لهما بدخول المدينة، وكان أبو بكر قد منعهما لفَرّتهما التي فرّاها وردّهما إلى الشأم، وقال: ليبلغني عنكما غناء أبْلِكما بلاءً؛ فانضمَّا إلى أي أمرائنا أحببتما؛ فلحقا بالناس فأبليا وأغنيا.

خبر دمشق من رواية سيف:

كتب إليَّ السّريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي عثمان، عن خالد وعبادة؛ قالا: لما هزم الله جُنْد اليَرْموك، وتهافت أهلُ الواقوصة وفُرغ من المقاسم والأنفال، وبُعِث بالأخماس وسُرِّحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليَرْموك بشير بن كعب بن أبيّ الحِمْيَريّ كَيْلا يُغتال بردّة؛ ولا تقطع الرُّوم على موادّه، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصُّفَّر؛ وهو يريد إتباع الفالّة؛ ولا يدري يجتمعون أو يفترقون؛ فأتاه الخبر بأنَّهم أرَزوا إلى فِحْل، وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حِمص، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفِحْل من بلاد الأردنّ. فكتب في ذلك إلى عمر، وانتظر الجواب، وأقام بالصّفَّر، فلمَّا جاء عمَر فتحُ اليرموك أقرّ الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلاّ ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنه ضمّ خالداً إلى أبي عبيدة، وأمر عمراً بمعونة الناس؛ حتى يصير الحرب إلى فِلَسطين، ثم يتولّى حربَها.

وأما ابن إسحاق؛ فإنه قال في أمْر خالد وعَزْل عمر إياه ما حدّثنا محمد بن حُميد، قال: حدثنا سَلَمة عنه، قال: إنَّما نَزَع عمر خالداً في كلام كان خالد تكلَّم به ـ فيما يزعمون ـ ولم يزل عمر عليه ساخطاً ولأمره كارهاً في زمان أبي بكر كلّه، لوقعته بابن نُويْرة، وما كان يعمل به في حربه؛ فلمَّا استُخلف عمر كان أوّل ما تكلَّم به عزله، فقال: لا يلِي لي عملاً أبداً؛ فكتب عمر إلى أبي عُبيدة: إنْ خالد أكذب نفسه فهو أمير على ما هو عليه؛ وإن هو لم

يُكذب نفسَه فأنتَ الأمير على ما هو عليه؛ ثم انزع عمامته عن رأسه، وقاسمْه مالَه نصفينْ. فلمّا ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد، قال: أنظِرْني أستشِرْ أختي في أمري، ففعل أبو عبيدة؛ فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد ـ وكانت عند الحارث بن هشام ـ فذكر لها ذلك، فقالت: والله لا يحبّك عمر أبداً، وما يريد إلّا أن تُكذب نفسك ثم ينزعك. فقبّل رأسها وقال: صدقتِ والله! فتمّ على أمرِه، وأبى أن يُكْذِب نفسَه. فقام بلال مولَى أبي بكر إلى أبي عبيدة، فقال: ما أمِرْتَ به في خالد؟ قال: أمِرْت أن أنزع عمامته، وأقاسمه مالَه. فقاسمه مالَه حتى بقيتْ نعلاه، فقال أبو عبيدة: إنّ هذا لا يصلُح إلّا بهذا، فقال خالد: أجلْ، ما أنا بالَّذِي أعصي أميرَ المؤمنين؛ فاصنع ما بدَا لك! فأخذ نعلا وأعطاه نعلا. ثم قدم خالد على عمر المدينة حين عزله.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمَّد بن عمر بن عطاء، عن سُلَيمان بن يَسار، قال: كان عُمر كلَّما مرّ بخالد قال: يا خالد، أخرِج مالَ الله من تحتِ استك، فيقول: والله ما عندي من مال؛ فلمّا أكثرَ عليه عمر قال له خالد: يا أميرَ المؤمنين، ما قيمةُ ما أصبتُ في سلطانكم! أربعين ألف درهم! فقال عمر: قد أخذتُ ذلك منك بأربعين ألف درهم، قال: هو لك، قال: قد أخذته. ولم يكن لخالد مال إلّا عُدّة ورقيق، فحُسِب ذلك، فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصَفَه عمر ذلك، فأعطاه أربعين ألف درهم، وأخذ المال. فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، لو رددت على خالد مَاله! فقال: إنّما أنا تاجر للمسلمين، والله لا أردّه عليه أبداً. فكان عمر يُرَى أنه قد اشتفَى من خالد حين صنع به ذلك.

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن أبي عثمان، عن خالد وعبادة، قالا: ولمَّا جاء عمَر الكتاب عن أبي عُبيدة بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب إليه:

أمَّا بعد؛ فابدأوا بدمشق، فانْهَدوا لها؛ فإنَّها حِصن الشأم وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهلَ فِحْل بخيلٍ تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فِلسطين وأهل حِمْص؛ فإن فتحها الله قبل دمشق فذَاك الَّذي نحبّ، وإن تأخّر فتحُها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق مَن يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تُغيروا على فِحْل؛ فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حِمْص، ودَعْ شُرَحْبيل وعمراً وأخْلِهما بالأردنّ وفلسطين، وأميرُ كلّ بلد وجُنْد على الناس حتى يخرجوا من إمارته. فسرّح أبو عبيدة إلى فِحْل عشرة قُوّاد: أبا الأعور السُّلَميّ، وعبدَ عمرو بن يزيد بن عامر الجُرَشيّ، وعامرَ بن حَثْمة، وعمرو بن كُليب من يَحْصُب، وعُمَارة بن الصَّعِق بن كعب، وصَيْفِيَّ بن عُلْبة بن شامل، وعمرَو بن الحبيب بن عمرو، ولبدة بن عامر بن خَثْعمة، وبِشْرَ بن عصْمة، وعُمارة بن مُخشّ قائد الناس؛ ومع كلّ رجل خمسة قوّاد؛ وكانت الرُّؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا مَن يحتمل ذلك منهم، فساروا من الصُّفَّر حتَّى نزلوا قريباً من فِحْل، فلمّا رأت الرُّوم أنّ الجنود تريدهم بَثُقوا المياه حوْلَ فِحْل، فأردِغتْ الأرض، ثم وحِلَت، واغتمّ المسلمون من ذلك، فحبسوا عن المسلمين بها ثمانين ألف فارس. وكان أوّلَ محصور بالشأم أهل فِحْل، ثم أهل دِمشق. وبعث أبو عبيدة ذا الكَلاع حتَّى كان بين دمشق وحِمْص ردءاً. وبعث عَلْقمة بن حكيم ومَسْروقاً فكانا بين دمشق وفِلَسطين، والأمير يزيد. ففصَل، وفصَل بأبي عبيدة من المرْج؛ وقدم خالد بن الوليد، وعلى مجنّبَتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عِياض، وعلى الرَّجْل شُرَحبيل، فقدِموا على دمشق، وعليهم نِسطاس بن نُسْطُورس؛ فحصَروا أهلَ دمشق، ونزلوا حواليْها، فكان أبو عبيدة على ناحية، وعمرو على ناحية، ويزيد على ناحية، وهِرَقل يومئذ بِحِمْص، ومدينة حِمْص بينه وبينهم. فحاصروا أهلَ دمشق نحواً من سبعين ليلة حِصاراً شديداً بالزُّحوف والتَّرامِي

والمجانيق؛ وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغِياث، وهِرَقل منهم قريب وقد استمدّوه. وذو الكلاع بين المسلمين وبين حِمْص على رأس ليلة من دمشق؛ كأنه يريد حِمْص، وجاءت خيولُ هِرقل مغيثةً لأهل دمشق، فأشجتْها الخيول الّتي مع ذي الكَلاع، وشغلتها عن النّاس، فأرَزوا ونَزَلوا بإزائه، وأهلُ دمشق على حالهم.

فلمّا أيقن أهلُ دمشق أنَّ الأمداد لا تصلُ إليهم فشِلوا ووَهنوا وأبلِسوا وازداد المسلمون طمعاً فيهم؛ وقد كانوا يروْن أنَّها كالغارات قبل ذلك؛ إذا هجم البرد قفَل الناس، فسقط النَّجم والقوم مقيمون؛ فعند ذلك انقطع رجاؤهم، وندِموا على دخول دمشق، ووُلِد للبِطريق الَّذي دخل على أهل دمشق مولودٌ؛ فصنع عليه، فأكل القوم وشربوا، وغفلوا عن مواقفهم؛ ولا يشعر بذلك أحدٌ من المسلمين إلا ما كان من خالد؛ فإنه كان لا ينام ولا يُنيم، ولا يخفى عليه من أمورهم شيء؛ عيونُه ذاكية وهو معنيٌّ بما يليه، قد اتَّخذ حبالا كهيئة السلاليم وأوْهاقاً فلمّا أمسى من ذلك اليوم نَهَد ومَنْ معه من جنده الذين قدم عليهم، وتقدّمهم هو والقعقاع بن عمرو، ومذعور بن عديّ، وأمثاله من أصحابه في أول يومه، وقالوا: إذا سمعتم تكبيرَنا على السّور فارقَوْا إلينا، وانْهدوا للباب. فلما انتهى إلى الباب الذي يَليه هو وأصحابه المتقدّمون رَمَوْا بالحبال الشُّرَف وعلى ظهورهم القِرَب التي قطعوا بها خندقهم. فلمّا ثبت لهم وَهَقان تسلَّق فيهما القعقاع ومذعور، ثم لم يدعا أحبولةً إلّا أثبتاها ـ والأوْهاق بالشُّرَف ـ وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق، أكثرَه ماءً، وأشدّه مدخلا، وتوافوا لذلك، فلم يبقَ ممّن دخل معه أحدٌ إلا رقى أو دنا من الباب؛ حتى إذا استَووْا على السُّور حَدَر عامَّةَ أصحابه، وانحدَر معهم؛ وخلَّف مَنْ يحمِي ذلك المكان لمن يرتقِي، وأمرهم بالتَّكبير، فكبَّر الذين على رأس السور، فنهَد المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحِبال بشرٌ كثير، فوثَبُوا فيها، وانتهى خالد إلى أوّل مَن يليه فأنامهم، وانحدر إلى الباب، فقتل البوّابين، وثار أهلُ المدينة، وفزِع سائر الناس؛ فأخذوا مواقفَهم، ولا يدرون ما الشأن! وتشاغل أهلُ كلّ ناحية بما يليهم، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين، فأقبلوا عليهم مِن داخل، حتّى ما بقِيَ ممّا يلي باب خالد مقاتل إلا أنِيم. ولما شدّ خالد على مَن يليه؛ وبلغ منهم الذي أراد عَنْوة أرَزَ من أفلت إلى أهل الأبواب التي تَلِي غيرَه؛ وقد كان المسلمون دَعَوْهم إلى المشاطرة فأبوْا وأبعدوا، فلم يفجأهم إلاّ وهم يَبُوحون لهم بالصُّلح، فأجابوهم وقبلوا منهم، وفتحوا لهم الأبواب، وقالوا: ادخلوا وامنعونَا من أهلِ ذلك الباب. فدخل أهلُ كلّ باب بصلح ممّا يليهم، ودخل خالد مما يليه عَنْوة، فالتقى خالد والقوّاد في وسطها؛ هذا استعراضاً وانتهاباً، وهذا صلحاً وتسكيناً؛ فأجْرَوا ناحيةَ خالد مُجْرَى الصّلح، فصار صُلْحاً، وكان صلح دمشق على المقاسمة، الدينار والعقار، ودينارٌ على كلّ رأس، فاقتسموا الأسلاب؛ فكان أصحابُ خالد فيها كأصحاب سائر القوّاد، وجَرَى على الديار ومَنْ بقي في الصّلح جَريب من كلّ جَريب أرض؛ ووَقف ما كان للملوك ومَن صوّب معهم فَيْئاً، وقسموا لذي الكَلاع ومَن معه، ولأبي الأعور ومَن معه، ولبشير ومَن معه، وبعثوا بالبِشارة إلى عمر، وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر؛ بأن اصرِف جند العراق إلى العراق، وأمرهم بالحث إلى سعد بن مالك، فأمَّر على جُنْد العراق هاشم بن عُتْبة، وعلى مقدّمته القعقاع بن عمرو، وعلى مجنَّبَتَيْه عمرو بن مالك الزُّهريّ ورِبْعيّ بن عامر، وضربوا بعد دمشق نحو سعد، فخرج هاشم نحو العراق في جُنْد العراق؛ وخرج القوّاد نحو فِحْل وأصحاب هاشم عشرة آلاف إلاّ مَن أصيب منهم، فأتمّوهم بأناس ممّن لم يكن منهم؛ ومنهم قيس والأشتر، وخرج علقمة ومسروق إلى إيلياءَ، فنزلا على طريقها، وبقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان من قوّاد أهلِ اليمن عددٌ؛ منهم عمرو بن شِمْر بن غزيَّة،

وسَهْم بن المسافر بن هَزْمة، ومشافع بن عبدالله بن شافع. وبعث يزيد دِحْية بن خليفة الكلبيّ في خيل بعد ما فتح دمشق إلى تَدْمُر، وأبا الزهراء القُشَيريّ إلى البَثَنِيَّة وحَوْران، فصالحوهما على صلح دمشق؛ ووليّا القيام على فَتْح ما بُعثا إليه.

وقال محمد بن إسحاق: كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب.

وقال أيضاً: كانت وقعة فِحْل قبل دمشق؛ وإنما صار إلى دمشق رافضة فِحْل، واتّبعهم المسلمون إليها. وزعم أنّ وقعة فحْل كانت سنة ثلاث عشرة في ذي القَعْدة منها؛ حدّثنا بذلك ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عنه.

وأمّا الواقديّ: فإنه زعم أنّ فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة؛ كما قال ابنُ إسحاق. وزعم أنّ حِصار المسلمين لها كان ستَّة أشهر. وزعم أنّ وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة. وزعم أنّ هرقل جَلا في هذه السنة بعد وقعة اليَرْموك في شعبان من أنْطَاكِيَة إلى قُسْطَنطِينيَّة، وأنه لم يكن بعد اليَرْموك وقعة.

قال أبو جعفر: وقد مضى ذكري ما رُوِي عن سيف، عمَّن رَوى عنه؛ أنّ وقعة اليرموك كانتْ في سنة ثلاث عشرة؛ وأنّ المسلمين وَرَد عليهم البريد بوفاة أبي بكر باليَرْموك، وفي اليوم الذي هُزِمت الروم في آخره، وأنّ عمر أمرهم بعد فراغهم من اليَرْموك بالمسير إلى دمشق، وزعم أن فِحْلاً كانت بعد دمشق؛ وأنّ حروباً بعد ذلك كانت بين المسلمين والرُّوم سوى ذلك، قبل شخوص هِرَقل إلى قسطنطينية؛ سأذكرها إن شاء الله في مواضعها.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث عشرة ـ وجَّه عمر بن الخطاب أبا عُبيد بن مسعود الثقفيّ نحو العراق. وفيها استُشهد في قول الواقديّ.

وأمّا ابن إسحاق؛ فإنه قال: كان يوم الجِسْر؛ جِسْرِ أبي عُبيد بن مسعود الثَّقَفيّ في سنة أربع عشرة.

ذكر أمر فِحْلَ من رواية سيف:

قال أبو جعفر: ونذكر الآن أمر فِحْل إذ كان في الخبر الذي فيه من الاختلاف ما ذكرتُ من فتوح جُنْد الشأم. ومن الأمور التي تستنكَر وقوعُ مثل الاختلاف الذي ذكرتُه في وقته؛ لقرب بعض ذلك من بعض.

فأمّا ما قال ابنُ إسحاق من ذلك وقصّ من قصّته، فقد تقدّم ذكريه قبل.

وأمّا السريّ فإنّه فيما كتب به إليَّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي عثمان يزيد بن أسِيد الغسّانيّ وأبي حارثة العبشمي، قالا: خلَّف النَّاسُ بعد فتح دمشق يزيدَ بن أبي سفيان في خَيْله في دِمشق، وساروا نحو فِحْل، وعلى الناس شُرَحبيل بن حَسَنة، فبعث خالداً على المقدّمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنِّبتيه، وعلى الخيل ضِرار بن الأزْور، وعلى الرَّجْل عياض، وكرهوا أن يصمُدوا لهرقل، وخَلْفهم ثمانون ألفاً، وعلِموا أنّ مَنْ بإزاء فِحْل جُنَّة الرّوم وإليهم ينظرون، وأن الشأم بعدهم سِلْم. فلما انتهوْا إلى أبي الأعور، قدّموه إلى طَبَرِيَّة، فحاصرهم ونزلوا على فِحْل من الأردنّ، ـ وقد كان أهل فِحْل حين نزل بهم أبو الأعور تركوه وأرَزُوا إلى بَيْسان ـ فنزل شُرَحبيل بالناس فِحْلاً، والروم بَيْسان، وبينهم وبين المسلمين تلك المياه والأوحال، وكتبوا إلى عمر بالخبر، وهم يحدّثون أنفسهم بالمقام، ولا يريدون أن يَرِيموا فِحْلاً حتَّى يرجع جواب كتابهم من عند عمر، ولا

يستطيعون الإقدام على عدوِّهم في مكانهم لما دونهم من الأوحال؛ وكانت العرب تسمّي تلك الغزاة فِحْلاً وذاتَ الرَّدَغة وبَيْسان. وأصاب المسلمون من رِيف الأردنّ أفضلَ ممّا فيه المشركون؛ مادّتهم متواصِلة، وخصبهم رَغْد؛ فاغترّهم القوم، وعلى القوم سَقَلّار بن مِخْراق؛ ورجوا أن يكونوا على غِرَّة، فأتوْهم والمسلمون لا يأمنون مجيئهم، فهم على حَذَر. وكان شُرَحبيل لا يبيت ولا يصبح إلاّ على تعبية. فلمّا هجموا على المسلمين غافصوهم، فلم يناظروهم، واقتتلوا بفِحْل كأشدّ قِتال اقتتلوه قطّ ليلتَهم ويومَهم إلى الليل، فأظلم الليلُ عليهم وقد حاروا، فانهزموا وهم حيارَى. وقد أصيب رئيسهم سَقَلّار بن مخراق؛ والذي يلِيه فيهم نسطورس، وظفِر المسلمون أحسنَ ظفر وأهنأه، وركبوهم وهم يَرْون أنهم على قَصْد وجدَد، فوجدوهم حيارَى لا يعرفون مأخذهم، فأسلمتهم هزيمتُهم وحَيْرتهم إلى الوَحَل، فركبوه، ولحِق أوائل المسلمين بهم؛ وقد وحِلوا فركبوهم؛ وما يمنعون يد لامس؛ فوخَزُوهم بالرّماح، فكانت الهزيمة في فِحْل؛ وكان مقتلهم في الرّداغ، فأصيب الثمانون ألفا، لم يُفلِت منهم إلاّ الشّريد؛ وكان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون، كرهوا البُثوق فكانت عوناً لهم على عدوّهم، وأناةً من الله ليزدادوا بصيرة وجِدًّا، واقتسموا ما أفاء الله عليهم، وانصرف أبو عبيدة بخالد من فِحْل إلى حِمْص، وصرفوا سُمَيْر بن كعب معهم، ومضَوْا بذي الكَلاع ومَن معه، وخلّفوا شُرَحبيل ومَن معه.

ذكر بَيْسان

ولمّا فرغ شُرَحبيل من وقعة فِحْل نَهَد في النّاس ومعه عمرو إلى أهل بَيْسَان، فنزلوا عليهم، وأبو الأعور والقوّاد معه على طَبريَّة، وقد بلغ أفناءَ أهل الأردنّ ما لقيت دمشق، وما لقي سقلّار والرّوم بفِحْل وفي الردَغة، ومسيرُ شرحبيل إليهم، ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسُهيل بن عمرو؛ يريد بيسان، وتحصّنُوا بكلّ مكان، فسار شُرَحبيل بالنّاس إلى أهلِ بَيْسان، فحصروهم أياماً. ثم إنَّهم خرجُوا عليهم فقاتلوهم،فأناموا مَن خرج إليهم، وصالحوا بقيَّة أهلها، فقبِل ذلك على صلْح دمشق.

طَبَريَّة

وبلغ أهلَ طَبرِيَّة الخبر، فصالحوا أبا الأعور، على أن يبلغهم شُرَحبيل، ففعل؛ فصالحوهم وأهل بَيْسان على صلح دمشق، على أن يشاطروا المسلمين المنازلَ في المدائن، وما أحاط بها ممّا يصلُها، فيدَعون لهم نصفاً، ويجتمعون في النِّصف الآخر، وعن كلّ رأس دينار كلَّ سنة، وعن كلّ جريب أرض جَريب بُرّ أو شعير؛ أيّ ذلك حُرِث؛ وأشياء في ذلك صالحوهم عليها؛ ونزلت القوّاد وخيولُهم فيها، وتمّ صلح الأردنّ، وتفرّقت الأمداد في مدائن الأردنّ وقراها، وكُتب إلى عمر بالفتح.

ذكر خبر المثنّى بن حارثة وأبي عبيد بن مسعود

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف بن عمر، عن محمد بن عبد الله بن سَوَاد وطلحة بن الأعلم وزياد بنِ سِرْجِس الأحْمَريّ بإسنادهم، قالوا: أوّل ما عمِل به عمر أن ندَب النَّاس مع المثنَّى بن حارثة الشيبانيّ إلى أهل فارس قَبْل صلاة الفجر، من اللَّيلة التي مات فيها أبو بكر رضي الله عنه، ثم أصبح فبايع الناس، وعاد فندَب النَّاس إلى فارس، وتتابع النَّاس على البَيْعة ففرغوا في ثلاثٍ، كلّ يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس؛

وكان وجْه فارس من أكرهِ الوجوه إليهم وأثقلها عليهم؛ لشدّة سلطانهم وشوكتهم وعزّهم وقهرهم الأمم.
قالوا: فلمّا كان اليوم الرابع؛ عاد فندب النّاس إلى العراق؛ فكان أوّلَ منتدب أبو عُبيد بن مسعود وسعد بن عبيد الأنصاريّ حليف بني فزارة؛ هرب يوم الجسر، فكانت الوجوه تُعْرَض عليه بعد ذلك؛ فيأبى إلّا العراق، ويقول: إنّ الله جلّ وعزّ اعتدّ عليّ فيها بفَرَّة؛ فلعلّه أن يردّ عليّ فيها كرّة. وتتابع الناس.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: وتكلّم المثنّى بن حارثة، فقال: يا أيها الناس، لا يَعْظُمنّ عليكم هذا الوجه؛ فإنا قد تبحبحنا ريفَ فارس، وغلبناهم على خير شِقَّي السَّواد وشاطرناهم ونلنا منهم؛ واجترأ مَن قِبلَنا عليهم؛ ولها إن شاء الله ما بعدها.
وقام عمر رحمه الله في الناس؛ فقال: إنّ الحجاز ليس لكم بدار إلّا على النُّجعة، ولا يقوَى عليه أهلُه إلّا بذلك؛ أين الطُّرَّاء المهاجرون عن موعود الله! سيرُوا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثَكموها؛ فإنه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه﴾، والله مظهر دينه، ومعزّ ناصِره، وموليِ أهله مواريثَ الأمم. أين عباد الله الصالحون!

فكان أوّلَ منتدب أبو عُبيد بن مسعود، ثم ثنى سعد بن عبيد ـ أو سَلِيط بن قيس ـ فلمّا اجتمعَ ذلك البعث، قيل لعمر: أمِّرْ عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار. قال: لا والله لا أفعل؛ إنّ الله إنّما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدوّ؛ فإذا جبُنتم وكرهتم اللِّقاء؛ فأولى بالرياسة منكم مَن سبق إلى الدفع، وأجاب إلى الدعاء! والله لا أؤمّر عليهم إلّا أوّلَهم انتداباً. ثم دعا أبا عُبيد، وسَلِيطاً وسعداً؛ فقال: أما إنّكما لو سبقتماه لولّيتكما ولأدركتُما بها إلى مالَكما من القُدْمة. فأمّر أبا عُبيد على الجيش، وقال لأبي عبيد: اسْمَع من أصحاب النبيّ ﷺ، وأشركْهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبينَّ؛ فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلّا الرّجل المكِيث الذي يعرف الفرصة والكفّ.

وقال رجل من الأنصار: قال عمر رضي الله عنه لأبي عبيد: إنه لم يمنعني أن أؤمِّرَ سَلِيطاً إلّا سرعته إلى الحرب، وفي التسرّع إلى الحرب ضَياع إلّا عن بيان، والله لولا سرعتُه لأمّرتُه؛ ولكنّ الحرب لا يصلحها إلّا المَكِيث.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب بن إبراهيم، عن سَيْف بن عمر، عن المجالد، عن الشعبيّ، قال: قدِم المثنّى بن حارثة على أبي بكر سنة ثلاث عشرة؛ فبعث معه بَعْثاً قد كان ندبهم ثلاثاً؛ فلم ينتدب له أحد حتّى انتدَب له أبو عبيد ثم سعد بن عبيد، وقال أبو عبيد حين انتدَب: أنا لَهَا، وقال سعد: أنا لَهَا: لفعلة فعلها. وقال سَليط: فقيل لعمَر: أمّر عليهم رجلاً له صحبة، فقال عمر: إنّما فَضَل الصحابة بسرعتهم إلى العدوّ وكفايتهم مَنْ أبى؛ فإذا فعل فعلهم قوْم واثّاقلوا كان الذين ينفرون خِفافًا وثِقالا أَوْلَى بها منهم؛ والله لا أبعث عليهم إلّا أوّلَهم انتداباً؛ فأمّر أبا عُبيد، وأوصاه بجنده.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب بن إبراهيم، عن سيْف بن عمر، عن سهل، عن القاسم ومُبشِّر، عن سالم، قال: كان أوّلَ بعث بعثه عمر بعثُ أبي عبيد، ثم بعث يعلَى بن أميَّة إلى اليمن وأمَره بإجلاء أهل نجْران، لوصيَّة رسولِ الله ﷺ في مرضه بذلك، ولوصيَّة أبي بكر رحمه الله بذلك في مرضِه، وقال: ائْتِهم ولا تفتنْهم عن دينهم، ثمّ أجْلهم؛ مَن أقام منهم على دينه، وأقرر المسلم، وامْسح أرض كلّ

مَنْ تُجْلِي منهم، ثمّ خيّرهم البلدان، وأعلِمهمْ أنّا نُجليهم بأمر الله ورسوله؛ ألاّ يُتْرك بجزيرة العرب دينان؛ فلْيخرَجوا؛ مَن أقام على دينه منهم؛ ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم؛ إقراراً لهم بالحقّ على أنفسنا، ووفاء بذمّتهم فيما أمر الله من ذلك، بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالرّيف.

خبر النّمارق

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن سهل ومبشّر بإسنادهما، ومُجالدٍ عن الشعبيّ، قالوا: فخرج أبو عُبيد ومعه سعد بن عبيد، وسَلِيط بن قيس، أخو بني عديّ بن النجار، والمثنّى بن حارثة أخو بني شيبان، ثم أحد بني هند.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، وعمرو عن الشعبيّ، وأبي رَوْق، قالوا: كانت بُوارن بنت كسرى كلّما اختلف النّاس بالمدائن ـ عَدْلاً بين الناس حتى يصطلحوا، فلما قُتِل الفَرُّخزاذ بن البِنْدُوان وقدِم رستَم فقتل آزَرْميدُخت، كانت عَدْلاً إلى أن استخرجوا يَزْدَجِرْد، فقدم أبو عُبيد والعَدْل بُوران، وصاحب الحرب رستم؛ وقد كانت بُوارن أهدتْ للنبي ﷺ، فقبِل هديّتها، وكانت ضدًّا على شيرى سنة، ثم إنّها تابعته، واجتمعا على أن رأس وجعلها عدلاً.

كتب إليّ السريّ بن يحيى. عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: لما قتَل سِيَاوَخْش فرّخْزَاذ بن البِنْدوان، وملكت آزرميدخت، اختلف أهلُ فارس، وتشاغلوا عن المسلمين غَيْبَةَ المثنّى كلّها إلى أن رجع من المدينة. فبعثت بُوران إلى رستم بالخبر، واستحثّته بالسيَر؛ وكان على فَرْج خُراسان، فأقبل في النّاس حتى نزل المدائن؛ لا يلقى جيشاً لآزرميدخت إلاّ هزمه، فاقتتلوا بالمدائن، فهُزم سِياوَخْش وحُصِر وحُصِرت آزرميدخت؛ ثم افتتحها فقتل سِياوَخش، وفقأ عين آزرميدخت، ونصّبَ بوران ودعتْه إلى القيام بأمرِ أهل فارس، وشكَتْ إليه تضعضعَهم وإدبار أمرهم، على أن تملّكه عَشْر حجَج؛ ثم يكون المُلْكُ في آل كسرى، إن وجدوا من غلمانهم أحداً؛ وإلاّ ففي نسائِهم. فقال رستم: أمّا أنا فسامع مطيع، غير طالب عِوضاً ولا ثواباً، وإن شرّفتموني وصنعتم إليّ شيئاً فأنتم أولياء ما صنعتم؛ إنما أنا سهمُكم وطوعُ أيديكم. فقالت بُوران: اغدُ عليّ، فغدا عليها ودعتْ مرازبةَ فارس، وكتبت له بأنّك على حرب فارس؛ ليس عليك إلاّ الله عزّ وجلّ، عن رضاً منّا وتسليم لحكمك، وحكمُك جائز فيهم ما كان حكمك في منْع أرضهم وجمعِهم عن فُرقتهم. وتوّجته وأمرت أهلَ فارس أن يسمعوا له ويطيعوا. فدانت له فارس بعد قدوم أبي عُبيد؛ وكان أوّل شيء أحدثه عمر بعد موتِ أبي بكر من اللّيل؛ أن نادى: الصلاة جامعة! ثم ندبهم فتفرّقوا على غير إجابة من أحد، ثم نَدبهم في اليوم الرابع، فأجاب أبو عبيد في اليوم الرابع أوّل الناس، وتتابع الناس، وانتخب عمر من أهل المدينة ومَن حولها ألف رجل، أمّر عليهم أبا عُبيد، فقيل له: استعمل عليهم من أصحاب النبيّ ﷺ، فقال: لا ها الله ذا يا أصحاب النبيّ، لا أندبكم فتنكَلون، وينتدب غيركم فأؤمّركم عليهم! إنكم إنّما فُضّلتم بتسرّعكم إلى مثلها؛ فإن نكَلتم فضَولكم؛ بل أؤمّر عليكم أوّلكم انتداباً. وعَجّل المثنّى. وقال: النَّجاء حتى يقدم عليك أصحابك! فكان أوّل شيء أحدثه عمر في خلافته مع بيعته بعثُه أبا عبيد، ثم بعث أهلَ نجران، ثم ندَب أهل الرّدة، فأقبلوا سراعاً من كلّ أوْب؛ فرمى بهم في الشأم والعراق؛ وكتب إلى أهل اليرموك؛ بأنّ

عليكم أبا عبيدة بن الجرّاح؛ وكتب إليه: إنَّك على الناس؛ فإن أظفرَك الله فاصرف أهلَ العراق إلى العراق؛ ومن أحبَّ من أمدادكم إذا هم قدِموا عليكم. فكان أوّل فتح أتاه اليرموك على عشرين ليلة من متوفَّى أبي بكر؛ وكان في الأمداد إلى اليرموك في زمن عمر قيس بن هبيرة، ورجع مع أهل العراق ولم يكن منهم، وإنما غزا حين أذن عمر لأهل الردّة في الغزْو. وقد كانت فارس تشاغلتْ بموت شَهْرَبَراز عن المسلمين؛ فملّكت شاه زَنان؛ حتى اصطلحوا على سابور بن شَهْرَبَراز بن أردشير بن شَهرِيار، فثارت به آزرميدُخْت، فقتلته والفَرُّخْزاذ، وملكت ـ ورستم بن الفُرّخْزاذ بخُراسان على فَرْجها ـ فأتاه الخبر عن بُوران، وقدم المثنَّى الحيرة من المدينة في عَشْرٍ، ولحقه أبو عبيد بعد شهر، فأقام المثنَّى بالحيرة خمسَ عشرة ليلة، وكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين، ودسّ في كلّ رُستاق رجلاً ليثور بأهله، فبعث جابان إلى البِهْقُباذ الأسفل، وبعث نَرْسي إلى كَسْكر، ووعدهم يوماً؛ وبعث جنداً لمصادمة المثنَّى؛ وبلغ المثنَّى ذلك؛ فضمّ إليه مسالِحه وحذِر، وعجِل جابان، فثار ونزل النّمارق.

وتوالوا على الخروج؛ فخرج نَرْسي، فنزل زَنْدَوَرْد، وثار أهلُ الرساتيق من أعلَى الفُرات إلى أسفله؛ وخرج المثنَّى في جماعة حتى ينزل خَفّان؛ لئلاّ يؤتى مِن خلفه بشيء يكرهه، وأقام حتى قدِم عليه أبو عبيدة؛ فكان أبو عبيد على النَّاس، فأقام بَخفَّان أياماً ليستجمّ أصحابه؛ وقد اجتمع إلى جابان بشرٌ كثير، وخرج أبو عبيد بعد ما جمَّ الناسُ وظَهْرُهم، وتعبَّى، فجعل المثنَّى على الخيل، وعلى ميمنته والِق بن جيدارة، وعلى ميسرته عمرو بن الهَيْثم بن الصَّلْت بن حبيب السلميّ. وعلى مجنَّبتي جابان جُشنَس ماه ومَرْدانْشاه. فنزلوا على جابان بالنَّمارق، فاقتتلوا قتالاً شديداً. فهزم الله أهلَ فارس، وأسِرَ جابان، أسره مطر بن فضّة التيميّ، وأسِرَ مَرْدانشاه، أسره أكْتَل بن شَمَّاخ العُكْليّ، فأمّا أكْتَل فإنه ضرب عنق مردانشاه، وأمَّا مطر بن فضّة فإن جابان خَدَعه، حتى تفلَّت منه بشيء فخلّى عنه؛ فأخذه المسلمون، فأتوا به أبا عُبيد وأخبروه أنَّه الملك، وأشاروا عليه بقتله، فقال: إنّي أخافُ الله أن أقتلَه؛ وقد آمنه رجل مسلِم، والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسدِ؛ ما لزم بعضَهم فقد لزمهم كلَّهم. فقالوا له: إنه الملك، قال: وإن كان لا أغدر، فتركه.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن الصلت بن بهرام، عن أبي عمران الجُعْفيّ، قال: ولَّت حربَها فارس رُستَمَ عشر سنين، وملَّكوه، وكان منجّماً عالماً بالنجوم، فقال له قائل: ما دعاك إلى هذا الأمر وأنت ترى ما ترى! قال: الطَّمَع وحبّ الشَّرَف. فكاتب أهل السَّواد، ودسّ إليهم الرؤساء، فثاروا بالمسلمين؛ وقد كان عهد إلى القوم أنّ الأمير عليكم أوّل مَنْ ثار، فثار جابان في فُرات بَادَقْلَى، وثار الناس بعده، وأرَز المسلمون إلى المثنَّى بالحيرة، فصمد لِخَفّان، ونزل خَفَّان حتى قدم عليه أبو عبيد وهو الأمير على المثنَّى وغيره، ونزل جابان النَّمارق، فسار إليه أبو عبيد من خَفَّان، فالتقوْا بالنَّمارق؛ فهزم الله أهلَ فارس، وأصابوا منهم ما شاؤوا وبَصُر مَطَر بن فضّة ـ وكان ينسب إلى أمّه ـ وأبيٌّ برجل عليه حَليٌ؛ فشدّا عليه فأخذاه أسيراً، فوجداه شيخاً كبيراً فزهد فيه أبيّ ورغب مَطَر في فدائه، فاصطلحا على أنّ سلبَه لأبيّ، وأن إساره لَمطر، فلما خلَص مصر به، قال: إنَّكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمّني وأعطيَك غلامَيْن أمردَيْن خفيفين في عملك وكذا وكذا! قال: نعم، قال: فأدخِلْني على مَلِككم؛ حتى يكون ذلك بمشهد منه. ففعل فأدخله على أبي عبيد، فأمّنته

على ذلك؛ فأجاز أبو عبيد، فقام أبيّ وأناس من ربيعة؛ فأما أبيّ فقال: أسرتُه أنا وهو على غير أمان؛ وأمّا الآخرون فعرفوه، وقالوا: هذا الملك جابان؛ وهو الذي لقينا بهذا الجمع، فقال: ما تروْني فاعلاً معاشر ربيعة؟ أيؤمِّنه صاحبكم وأقتله أنا! معاذ الله من ذلك! وقسَّم أبو عبيد الغنائم، وكان فيها عِطْر كثير ونَفَل، وبعث بالأخماس مع القاسم.

السَّقاطية بكَسْكر

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: وقال أبو عبيد حين انهزموا وأخذوا نحو كَسْكَر ليلجؤوا إلى نَرْسي - وكان نَرْسي ابن خالة كسرى؛ وكانت كسكر قطيعة له؛ وكان النِّرْسِيان له، يحميه لا يأكله بشرٌ، ولا يغرسه غيرهم أو ملك فارس إلّا مَنْ أكرموه بشيء منه، وكان ذلك مذكوراً من فِعْلهم في النّاس، وأنّ ثَمرهم هذا حِمًى، فقال له رستم وبوران: اشخص إلى قطيعتك فاحمِها من عدوّك وعدوّنا وكن رجلاً، فلمّا انهزم الناس يوم النَّمارق، ووجَّهت الفالَّة نحو نَرْسي - ونَرْسي في عسكره - نادى أبو عبيد بالرّحيل، وقال للمجرّدة: أتبعوهم حتى تُدخِلوهم عسكر نَرْسي، أو تبيدوهم فيما بين النَّمارق إلى بارق إلى دُرْتا. وقال عاصم بن عمرو في ذلك:

لَعَمْري وما عمري عَلَيَّ بِهَيِّنٍ ... لَقَدْ صُبِّحَتْ بالْخِزْى أهلُ النَّمارِق
بأيْدِي رِجالٍ هاجروا نحو ربِّهمْ ... يجوسونهم ما بين دُرْتا وبارِقِ
قتلناهُم ما بين مَرْجِ مُسَلّح ... وبين الهَوافِي من طريق البَذارِقِ

ومضى أبو عُبَيْد حين ارتحلَ من النَّمارق حتى ينزل على نَرْسي بكَسْكر - ونَرْسي يومئذ بأسفل كَسْكر - والمثنَّى في تعبيته الّتي قاتل فيها جابانَ، ونَرْسي على مجنَّبتيه ابنا خاله - وهما ابنا خال كسرى بِنْدَوَيْه وتِيرَوَيْه ابنا بِسْطام - وأهل بارُوسْما ونهر جَوْبَر والزّوابي معه إلى جنده، وقد أتى الخبر بُوران ورستَم بهزيمة جابان؛ فبعثوا إلى الجالِنُوس، وبلغ ذلك نَرْسي وأهل كَسْكَر وبارُوسْما ونهر جَوْبَر والزّاب، فرجوا أن يلحق قبل الوقعة، وعاجَلَهم أبو عُبيد فالتقوْا أسفل من كَسْكر بمكان يدعى السَّقاطية فاقتتلوا في صحارَى مُلْس قتالاً شديداً. ثمّ إنّ الله هزم فارس، وهرب نَرْسي، وغُلِب على عسكره وأرضه، وأخرب أبو عبيد ما كان حول معسكرهم من كسكر، وجمع الغنائم، فرأى من الأطعمة شيئاً عظيماً، فبعث فيمَن يليه من العرب فانتقلوا ما شاؤوا، وأخذت خزائن نَرْسي؛ فلم يكونوا بشيء ممَّا خزن أفرح منهم بالنّرسِيان؛ لأنّه كان يحميه ويمالئه عليه ملوكهم، فاقتسموه فجعلوا يُطعمونه الفلاحين؛ وبعثوا بخُمسه إلى عمر وكتبوا إليه: إنّ الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها، وأحببنا أن تروها؛ ولتذكروا إنعام الله وإفضاله.

وأقام أبو عبيد وسرّح المثنَّى إلى بارُوسما، وبعث والقاً إلى الزَّوابي وعاصِماً إلى نهر جَوْبر؛ فهزموا مَن كان تجمّع وأخربوا وسبوْا، وكان ممَّا أخرب المثنَّى وسبَى أهل زَنْدَوَرْد وبسوسيا، وكان أبو زَعْبل من سَبْي زَنْدوَرْد؛ وهرب ذلك الجند إلى الجالِنوس؛ فكان ممَّن أسر عاصم أهل بيتيق من نهر جوبر، وممَّن أسر والق أبو الصَّلْت. وخرج فرُّوخ وفرْوَنداذ إلى المثنَّى، يطلبان الجزاء والذمّة، دفعاً عن أرضهم؛ فأبلغهما أبا عبيد: أحدهما بارُوسْما والآخر نهر جوبر، فأعطياه عن كلّ رأس أربعة، فرّوخ عن باروسما وفرونداذ عن نهر جَوْبر، ومثل ذلك الزّوابي

وكَسْكر، وضمّنا لهم الرّجال عن التعجيل، ففعلوا وصاروا صُلْحاً. وجاء فرُّوخ وفرونداذ إلى أبي عُبيد بآنية فيها أنواع أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها؛ فقالوا: هذه كرامة أكرمناك بها؛ وقِرىً لك. قال: أأكرمتم الجند وقريتمُوهم مثله؟ قالوا: لم يتيسَّر ونحن فاعلون؛ وإنما يتربَّصون بهم قدوم الجالِنُوس وما يصنع؛ فقال أبو عُبيد: فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند، فردّه، وخرج أبو عُبيد حتى ينزل بباروسما فبلغه مسير الجالِنوس.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن النضر بن السريّ الضّبي، قال: فأتاه الأندَرْزَغر بن الخركبذ بمثل ما جاء به فرُّوخ وفرونداذ. فقال لهم: أأكرمتُم الجند بمثلِه وقريتموهم؟ قالوا: لا، فردّه، وقال: لا حاجة لنا فيه؛ بئس المرءُ أبو عبيد؛ إن صحب قوماً من بلادهم أهراقوا دماءَهم دُونه أو لم يُهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه! لا والله لا يأكل ممَّا أفاء الله عليهم إلا مثْل ما يأكل أوساطهم.

قال أبو جعفر: وقد حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق بنحو من حديث سيف هذا، عن رجاله في توجِيه عمر المثنَّى وأبا عبيد بن مسعود إلى العراق في حرب مَن بها من الكُفَّار وحروبهم، ومن حاربهم بها؛ غير أنه قال: لما هُزم جالنوس وأصحابه، ودخل أبو عبيد باروسما، نزل هو وأصحابه قريةً من قراها؛ فاشتملت عليهم، فصُنع لأبي عبيد طعامٌ فأتِيَ به؛ فلمَّا رآه قال: ما أنا بالذي آكل هذا دون المسلمين! فقالوا له: كُلْ فإنَّه ليس من أصحابك أحدٌ إلا وهو يؤتَى في منزله بمثل هذا أو أفضل؛ فأكل. فلمَّا رجعوا إليه سألهم عن طعامهم، فأخبروه بما جاءهم من الطعام.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: وقد كان جابان ونَرْسي استمدّا بوران، فأمدتهما بالجالنوس في جُنْدجابان، وأمِر أن يبدأ بنَرْسي؛ ثم يقاتل أبا عُبيد بعد، فبادره أبو عبيد، فنهض في جنده قبل أن يدنوَ، فلمَّا دنا استقبله أبو عبيد، فنزل الجالِنوس بباقُسْياثا من بارُوسما، فنَهد إليه أبو عُبيد في المسلمين؛ وهو على تعبيتِه، فالتقوْا على باقُسياثا، فهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس، وأقام أبو عُبيد، قد غَلب على تلك البلاد.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر بن السريّ والمجالد بنحو من وقعة باقُسياثا.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة ومجالد وزياد والنَّضْر بإسنادهم، قالوا: أتاه أولئك الدّهاقين المتربِّصون جميعاً بما وسع الجند، وهابوا وخافوا على أنفسهم. وأمَّا النَّضْر ومجالد فإنهما قالا: قال أبو عبيد: ألم أعلمكم أني لستُ آكلا إلاّ ما يسع مَن معي ممّن أصبتم بهم! قالوا: لم يبقَ أحدٌ إلاّ وقد أتى بشبَعه من هذا في رحالهم وأفضل. فلمَّا راح النَّاس عليه سألهم عن قِرى أهلِ الأرض فأخبروه، وإنما كانوا قصَّروا أوّلاً تربُّصاً ومخافة عقوبة أهل فارس. وأمَّا محمد وطلحة وزياد فإنهم قالوا: فلمَّا علم قَبل منهم: وأكل وأرسل إلى قوم كانوا يأكلون معه أضيافاً عليه يدعوهم إلى الطعام، وقَد أصابوا من نزُل فارس ولم يروْا أنّهم أتوا أبا عبيد بشيء فظنّوا أنهم يُدْعَون إلى مثل ما كانوا يُدعون إليه من غَليظ عيش أبي عبيد؛ وكرهوا تَرْك ما أتوا به من ذلك؛ فقالوا له: قل للأمير؛ إنَّا لا نشتهي شيئاً مع شيء أتتنابه الدهاقين، فأرسل إليهم: إنَّه طعام كثير من أطعمة الأعاجم؛ لتنظروا أين هو مما أتيتم به! إنه قَرْو ونجم وجوزل وشواء وخردل، فقال في ذلك عاصم بن عمرو وأضيافه عنده:

إن تَـكُ ذا قـرْوٍ ونَـجْـمٍ وَجَـوْزَلٍ ... فـعِنـدَ ابنِ فَـرُّوخٍ شـواءٌ وخَـرْدَلُ
وقَـرْوٌ رقـاق كـالصَّحـائِفِ طُـوِّيَتْ ... عـلى مُـزَعٍ فيـهـا بقُـولٌ وجَـوْزَلُ

وقال أيضاً:

صَبَحْنـا بـالبَقـايسِ رَهْط كِسـرَى ... صَبُـوحـاً ليس مـن خَمـرِ السَّـوادِ
صَبَحْنـاهُـمْ بكـلِّ فتًـى كَـمِـيٍّ ... وأجْـرَدَ سـابـحٍ مـن خَيْـلِ عـادِ

ثم ارتحل أبو عُبيد، وقدم المثنَّى، وسار في تعبيته حتى قدم الحيرة. وقال النَّضر ومجالد ومحمد وأصحابه: تقدّم عمر إلى أبي عُبيد، فقال: إنَّك تقدم على أرض المكْر والخديعة والخيانة والجبريَّة، تقدم على قوم قد جرؤوا على الشرّ فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون! واخزُن لسانك، ولا تفشِينّ سرّك؛ فإنّ صاحبَ السرّ ما ضبطه، متحصّن لا يؤتَى من وجْه يكرهه؛ وإذا ضيّعه كان بمضيعة.

وقعة القَرْقس

ويقال لها القُسّ قَسّ النَّاطِف، ويقال لها الجِسر، ويقال لها المَرْوحَة.

قال أبو جعفر الطبريّ رحمه الله: كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: ولَّما رجع الجالنوس إلى رستَم ومَن أفلت من جنوده، قال رستم: أيُّ العجم أشدّ على العرب فيها ترون؟ قالوا بَهْمَن جاذويه؛ فوجَّهه ومعه فيَلة وردّ الجالِنوس معه، وقال له: قدّم الجالنوس، فإن عاد لمثلها فاضرب عنقه، فأقبل بهمن جاذويه ومعه «دِرَفْش كابيان» راية كِسرى وكانت من جلود النَّمِر، عرض ثمانية أذرع في طول اثني عشر ذراعاً ـ وأقبل أبو عبيد، فنزل المَرْوحة، موضع البُرْج والعاقول، فبعث إليه بهمن جاذويه: إمّا أن تعبروا إلينا ونَدَعكم والعبور وإمّا أن تَدَعونا نعبر إليكم! فقال الناس: لا تعبريا أبا عُبيد، ننهاك عن العبور. وقالوا له: قل لهم: فليعبروا ـ وكان من أشدّ الناس عليه في ذلك سَلِيط ـ فلجّ أبو عبيد، وتركَ الرّأي، وقال: لا يكونون أجرأ على الموت منّا؛ بل نعبُر إليهم. فعبروا إليهم وهم في منزل ضيّق المطرد والمذهب، فاقتتلوا يوماً ـ وأبو عبيد فيها بين الستّة والعشرة ـ حتى إذا كان من آخر النهار، واستبطأ رجلٌ من ثَقِيف الفتح، ألّف بين الناس، فتصافحوا السيوف وضرب أبو عبيد الفيل، وخبط الفيلُ أبا عبيد، وقد أسرعت السيوف في أهلِ فارس، وأصيب منهم ستة آلاف في المعركة، ولم يبقَ ولم يُنتظر إلا الهزيمة، فلما خُبِط أبو عبيد، وقام عليه الفيل جالَ المسلمون جولَة، ثم تمّوا عليها، وركبهم أهلُ فارس، فبادر رجل من ثَقِيف إلى الجسر فقطعه، فانتهى النَّاس إليه والسيوف تأخذهم من خَلْفهم، فتهافتوا في الفرات، فأصابوا يومئذ من المسلمين أربعة آلاف؛ من بين غريق وقتيل، وحمى المثنَّى الناس وعاصمٌ والكلَج الضَّبِّي ومذعور، حتى عقدوا الجسر وعبّروهم ثم عبروا في آثارهم، فأقاموا بالمروحة والمثنّى جَريح، والكلَج ومذعور وعاصم ـ وكانوا حماة الناس ـ مع المثنّى، وهرب من الناس بشرٌ كثير على وجوههم، وافتضحوا في أنفسهم، واستحيَوْا ممّا نزل بهم، وبلغ ذلك عمر عن بعض مَنْ أوى إلى المدينة فقال: عبادَ الله! اللهم إنّ كلّ مسلم في حلّ منّي، أنا فئة كلّ مسلم، يرحم الله أبا عُبيد! لو كان عَبَر فاعتصم بالخَيْف، أو تحيّزَ إلينا ولم يستقتِل لكنّا له فئة!

وبينا أهلُ فارس يحاولون العبور أتاهم الخبر أنّ النَّاس بالمدائن قد ثاروا برستَم، ونقضوا الذي بينهم

وبينه فصاروا فرقتين: الفَهْلوج على رستم، وأهل فارس على الفَيْرُزان؛ وكان بين وقعة اليَـرْموك والجِسر أربعون ليلة. وكان الذي جاء بالخبر عن اليَرْموك جرير بن عبد الله الحميريّ؛ والذي جاء بالخبر عن الجسر عبد الله بن زيد الأنصاريّ ـ وليس بالّذي رأى الرؤيا ـ فانتهى إلى عمر وعمر على المنبر. فنادى عمر: الخبر يا عبد الله بن زيد! قال: أتاك الخبر اليقين؛ ثم صعِد إليه المنبر فأسرّ ذلك إليه.

وكانت اليرموك في أيام من جمادى الآخرة، والجسر في شعبان.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد وسعيد بن المَرْزُبان، قالا: واستعمل رستم على حرب أبي عُبيد بهمن جاذويه؛ وهو ذو الحاجب، وردّ معه الجالنوس ومعه الفيَلة، فيها فيل أبيض عليه النَّخل، وأقبل في الدَّهْم، وقـد استقبله أبو عُبيد حتى انتهى إلى بابل؛ فلمّا بلغه انحاز حتى جعل الفرات بينه وبينه، فعسكر بالمَرْوَحَة.

ثم إن أبا عبيد ندم حين نزلوا به وقالوا: إمَّا أن تعبروا إلينا وإمَّا أن نعبر، فحلف ليقطعنّ الفرات إليهم، وليمحّصنّ ما صنع، فناشده سَلِيط بن قيس ووجوه النَّاس، وقالوا: إنّ العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا، وإنهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الزُّهاء والعُدّة بما لم يلقنَا به أحد منهم وقد نزلتَ منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع؛ من فَرّة إلى كَرّة. فقال: لا أفعل؛ جبُنت والله! وكان الرَّسول فيما بين ذي الحاجب وأبي عبيد مردانْشاه الخصيّ؛ فأخبرهم أنّ أهل فارس قد عيّروهم؛ فازداد أبو عبيد مَحَكا، وردّ على أصحابه الرأي، وجبّن سَلِيطا، فقال: سليط: أنا والله أجرأ منك نفساً؛ وقد أشرنا عليك الرأيّ فستعلم!

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر بن السريّ، عن الأغرّ العِجليّ، قال: أقبل ذو الحاجب حتى وقف على شاطىء الفُرات بقُسّ النَّاطف، وأبو عبيد معسكرٌ على شاطىء الفرات بالمَرْوحة فقال: إما أن تعبُروا إلينا وإما أن نعبُر إليكم. فقال أبو عبيد: بل نعبُر إليكم. فعقد ابن صلوبا الجسر للفريقين جميعاً؛ وقبل ذلك ما قد رأت دَوْمة امرأة أبي عبيد رُؤيا وهي بالمَرْوحة؛ أنّ رجلا نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عُبيد وجَبْر في أناس من أهله؛ فأخبرت بها أبا عبيد، فقال: هذه الشهادة؛ وعهد أبـو عبيد إلى الناس، فقال: إن قتِلتُ فعلَى الناس جَبْر، فإن قتِل فعليكم فلان، حتى أمّر الذين شربوا من الإناء على الولاء من كلامه. ثم قال: إن قتل أبو القاسم فعليكم المثنّى، ثم نَهَد بالناس فعبَر وعبروا إليهم، وعضَّلت الأرض بأهلها، وألحم الناس الحربَ. فلمّا نظرت الخيول إلى الفيَلة عليها النخل؛ والخيل عليها التَّجافيف والفرسان عليهم الشُّعر رأت شيئاً منكراً لم تكن ترى مثله، فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم لم تقدم خيولهم، وإذا حملوا على المسلمين بالفِيلة والجلاجل فرّقت بين كراديسهم؛ لا تقـوم لها الخيـلُ إلا على نِفـار. وخزقهم الفُـرْس بالنّشاب، وعضّ المسلمين الألم، وجعلوا لا يصلون إليهم؛ فترجَّل أبو عبيد وترجّل الناس، ثم مشـوا إليهم فصافحوهم بالسيوف؛ فجعلت الفِيَلة لا تحمل على جماعة إلاّ دفعتهم؛ فنادى أبو عبيد: احتوِشـوا الفيلة؛ وقطّعوا بُطُنها واقلبوا عنها أهلها؛ وواثب هو الفيل الأبيض، فتعلّق ببطانه فقطعه؛ ووقع الذين عليه، وفعل القوم مثل ذلك؛ فما تركوا فيلا إلا حطّوا رحله؛ وقتلوا أصحابه، وأهوى الفيـل لأبي عُبيد، فنفـح مِشْفَره بالسيف، فاتّقاه الفيل بيده؛ وأبو عبيد يتجرثمه؛ فأصابه بيده فوقع فخبطه الفيل، وقام عليه؛ فلما بصُرَ النّاس بأبي عبيد تحت الفيل، خشعت أنفس بعضهم، وأخذ اللواء الذي كان أمّره بعده، فقاتل الفيل حتى تنحّى عن أبي

عبيد، فاجترّه إلى المسلمين، وأحرزوا شِلوه؛ وتجرثم الفيلَ فاتّقاه الفيل بيده، دأبَ أبي عبيد وخبطه الفيل. وقام عليه وتتابع سبعة من ثَقيف؛ كلُّهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يموت. ثم أخذ اللواء المثنَّى، وهرب النَّاس، فلما رأى عبد الله بن مَرثَد الثقفيّ ما لقيَ أبو عبيد وخلفاؤه وما يصنع الناس، بادرهم إلى الجسر فقطعه، وقال: يا أيُّها الناس، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا. وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر؛ وخشع ناس فتواثبوا في الفُرات؛ فغرق من لم يصبِر وأسرعوا فيمن صَبَر، وحَمَى المثنّى وفرسانٌ من المسلمين الناس، ونادى: يا أيُّها الناس، إنَّا دونكم فاعبُروا على هِينتكم ولا تدهَشوا؛ فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب، ولا تغرِّقوا أنفسكم. فوجدوا الجسر وعبد الله بن مرثَد قائم عليه يمنع الناس من العبور، فأخذوه فأتوا به المثنَّى، فضربه وقال: ما حملك على الذي صنعت؟ قال: ليقاتلوا، ونادى من عبر فجاؤوا بعلوج، فضمّوا إلى السفينة التي قُطِعتْ سفائنها، وعبر الناس، وكان آخر من قُتِل عند الجسر سَلِيط بن قيس، وعَبَر المثنَّى وحمى جانبه، فاضطرب عسكره، ورامهم ذو الحاجب فلم يقدر عليهم؛ فلمّا عبر المثنّى وحمى جانبه ارفضّ عنه أهلُ المدينة حتى لحقوا بالمدينة وتركها بعضهم ونزلوا البوادي وبقي المثنَّى في قلّة.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن رجل، عن أبي عثمان النَّهديّ، قال: هلك يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق؛ وهرب ألفان، وبقيَ ثلاثة آلاف، وأتى ذا الحاجب الخبرُ باختلاف فارس، فرجع بجنده وكان ذلك سبباً لارفضاضهم عنه، وجرح المثنَّى، وأثبِتَ فيه حَلَق من درعه هَتَكهنّ الرمح.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد وعطية نحواً منه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب عن سيف، عن مجالد وعطية والنّضر، أنّ أهل المدينة لما لحقوا بالمدينة وأخبروا عمّن سار في البلاد استحياءً من الهزيمة، اشتدّ على عمر ذلك ورحمهم. قال: الشعبيّ: قال عمر: اللهمّ كلّ مسلم في حلّ مِنّي، أنا فئة كلّ مسلم، مَن لقي العدوّ ففظِع بشيء من أمره فأنا له فئة؛ يرحم الله أبا عُبَيد لو كان انحاز إليّ لكنت له فئة! وبعث المثنَّى بالخبر إلى عمر مع عبد الله بن زيد، وكان أوّل من قدم على عمر.

وحدثنا ابنُ حميد؛ قال: حدّثنا سَلَمة، عن محمد بن إسحاق بنحو خبر سيف هذا في أمر أبي عُبيد وذي الحاجب، وقصّة حربها، إلاّ أنه قال: وقد كانت رأت دَوْمة أمّ المختار بن أبي عُبيد، أن رجلا نزل من السماء معه إناء فيه شراب من الجنَّة فيما يرى النائم، فشرب منه أبو عُبيد وجَبر بن أبي عبيد وأناس من أهله. وقال أيضاً: فلما رأى أبو عُبيد ما يصنع الفيل، قال: هل لهذه الدابّة من مقتل؟ قالوا: نعم؛ إذا قطع مِشفرها ماتت، فشدّ على الفيل فضرب مِشفره فقطعه، وبرك عليه الفيل فقتله. وقال أيضاً: فرجعت الفُرس ونزل المثنَّى بن حارثة ألَّيس، وتفرّق الناس، فلحقوا بالمدينة، فكان أوَّل مَن قدم المدينة بخبر الناس عبدُ الله بن زيد بن الحُصين الخَطْمِيّ؛ فأخبر الناس.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرة ابنة عبد الرحمن، عن عائشة زوْج النبيّ ﷺ، قالت: سمعتُ عمر بن الخطاب حين قدم عبد الله بن زيد، فنادى: الخبر يا عبد الله بن زيد! وهو داخل المسجد، وهو يمرّ على باب حُجرتي، فقال: ما عندك يا عبد الله بن زيد؟ قال: أتاك الخبرُ يا أمير المؤمنين؛ فلمّا انتهى إليه أخبره خبرَ الناس، فما سمعت برجل حضر أمراً فحدّث عنه كان

أثبتَ خبراً منه. فلما قدم فلّ الناس، ورأى عمر جَزَع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفِرار، قال: لا تجزعوا يا معشر المسلمين، أنا فئتكم، إنما انحزتم إليّ.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة؛ عن ابن إسحاق، عن محمد بن عبد الرحمن بن الحصين وغيره؛ أنّ مُعاذاً القارىء أخا بني النَّجار؛ كان ممّن شهدها ففرّ يومئذ، فكان إذا قرأ هذه الآية: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾[1]، بكى، فيقول له عمر: لا تبك يا معاذ، أنا فئتُك، وإنما انحزْتَ إليّ.

خبر ألّيس الصُّغْرَى

قال أبو جعفر: كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر، عن محمد بن نُويرة وطلحة وزياد وعطيّة، قالوا: وخرج جَابان ومَرْدانْشاه حتى أخذا بالطريق، وهم يروْن أنهم سيرفضّون ولا يشعرون بما جاء ذا الحاجب من فُرقة أهل فارس، فلما ارفضّ أهلُ فارس، وخرج ذو الحاجب في آثارهم، وبلغ المثنى فَعْلة جَابان ومَرْ دانشاه؛ استخلف على النَّاس عاصم بن عمرو، وخرج في جريدة خيل يريدهما، فظَّنا أنه هارب، فاعترضاه فأخذهما أسيريْن، وخرج أهل ألَّيس على أصحابهما، فأتوْه بهم أسراء؛ وعقد لهم بها ذمَّة وقدّمهما، وقال: أنتما غررتما أميرَنا، وكذبتماه واستفززتماه. فضرب أعناقهما، وضرب أعناق الأسَراء؛ ثمّ رجع إلى عسكره وهرب أبو مِحْجن من ألَّيس؛ ولم يرجع مع المثنَّى؛ وكان جرير بن عبد الله وحنظلة بن الربيع ونفر استأذنوا خالداً من سُوى، فأذِن لهم، فقدموا على أبي بكر، فذكر له جريرٌ حاجته، فقال: أعلى حالِنا! وأخَّره بها، فلما ولِّي عمر دعاه بالبيِّنة؛ فأقامها، فكتب له عمر إلى عُمَّاله السعاة في العرب كلّهم: مَن كان فيه أحدٌ يُنسب إلى بَجِيلة في الجاهليّة، وثبت عليه في الإسلام يُعْرف ذلك فأخرجوه إلى جرير. ووعدهم جرير مكاناً بين العراق والمدينة. ولما أعطِيَ جرير حاجته في استخراج بَجِيلة من الناس فجمعهم فأخرجوا له، وأمرهم بالموعد ما بين مكة والمدينة والعراق، فتتامّوا، قال لجرير: اخرج حتى تَلحق بالمثنَّى، فقال: بل الشأم، قال: بل العراق، فإن أهل الشأم قد قَوُوا على عدوّهم، فأبى حتى أكرهه؛ فلمّا خرجوا له وأمرهم بالموعد عوَّضه لإكراهه واستصلاحاً له، فجعل له ربع خُمس ما أفاء الله عليهم في غَزاتهم هذه له ولمن اجتمع إليه، ولمن أخرِج له إليه من القبائل، وقال: اتَّخذونا طريقاً، فقدموا المدينة، ثم فصلوا منها إلى العراق ممدّين للمثنَّى، وبعث عصمة بن عبد الله من بني عبد بن الحارث الضَّبِّيّ فيمن تبعه من بني ضبَّة؛ وقد كان كتب إلى أهل الرّدة، فلم يوافِ شعبانَ أحدٌ إلا رمى به المثنَّى.

البُوَيْب

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: وبعث المثنَّى بعد الجسر فيمَن يليه من الممِدّين، فتوافوْا إليه في جمع عظيم، أو بلغ رستَم والفَيْرُزان ذلك، وأتتهم العيون به وبما ينتظرون من الأمداد، واجتمعا على أن يبعثا مِهْران الهَمَذانيّ؛ حتى يريا مِن رأيهما، فخرج مِهْران في الخيول وأمرَاه بالحيرة، وبلغ المثنَّى الخبر وهو معسكر بمَرْج السِّباخ بين القادسيَّة وخَفَّان في الذين أمدّوه من العرب عن

---

(١) سورة الأنفال: ١٦.

خبر بشير وكِنانة ـ وبشير يومئذ بالحيرة ـ فاستبطن فُرات بادَقْلى، وأرسل إلى جرير ومَن معه: إنَّا جاءنا أمر لم نستطِع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجِّلوا اللّحاق بنا، وموعدكم البُوَيْب.

وكان جرير مُمِدًّا له، وكتب إلى عِصْمة ومَن معه، وكان مُمدًّا له بمثل ذلك، وإلى كل قائد أظلَّه بمثل ذلك، وقال: خذوا على الجَوْف، فسلكوا القادسيَّة والجَوْف، وسلك المثنَّى وسط السَّواد، فطلع على النَّهرَيْن ثم على الخوَرْنَق، وطلع عصمة على النَّجَف، ومَن سلك معه طريقه، وطلع جرير على الجوْف ومَن سلك معه طريقه، فانتهوْا إلى المثنَّى، وهو على البُويب، ومِهران من وراء الفرات بإزائه، فاجتمع عسكر المسلمين على البُويب ممَّا يلي موضع الكوفة اليوم؛ وعليهم المثنّى وهم بإزاء مِهران وعسكره. فقال المثنّى لرجل من أهل السواد: ما يقال للرُّقعة التي فيها مِهران وعسكره؟ قال: بَسُوسْيا. فقال: أكْدَى مِهران وهلك! نزل منزلاً هو البَسوس؛ وأقام بمكانه حتى كاتبه مِهران: إمّا أن تعبُروا إلينا، وإمّا أن نعبر إليكم؛ فقال المثنَّى: اعبُروا؛ فعبر مِهْران، فنزل على شاطىء الفرات معهم في الملطاط، فقال المثنّى لذلك الرجل: ما يُقال لهذه الرقعة التي نزلها مِهران وعسكره؟ قال: شُوميا ـ وذلك في رمضان ـ فنادى في الناس: انهدوا لعدوّكم، فتناهدوا، وقد كان المثنّى عَبَّى جيشه، فجعل على مجنِّبتيه مذعوراً والنُّسَير، وعلى المجرّدة عاصِماً، وعلى الطلائع عِصْمة، واصطفّ الفريقان؛ وقام المثنَّى فيهم خطيباً؛ فقال: إنكم صُوّام؛ والصوم مَرَقّة ومَضعفة؛ وإنّي أرى من الرأي أن تُفطِروا ثم تقوَوْا بالطعام على قتال عدوّكم. قالوا: نعم، فأفطروا؛ فأبصر رجلاً يستوفز ويستنتِل من الصّفّ، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: هو ممَّنْ فرّ من الزّحف يوم الجسر، وهو يريد أن يستقتِل، فقرعه بالرّمح، وقال: لا أبالك! الزَمْ موقفَك، فإذا أتاك قِرنك فأغْنِه عن صاحبك ولا تستقتل، قال: إني بذلك لجَدير، فاستقرّ ولزم الصّفّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي إسحاق الشيبانيّ بمثله.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سَيْف، عن عطيَّة. وعن سفيان الأحمريّ، عن المجالد، عن الشعبيّ، قالا: قال عمر حين استجمّ جَمْعُ بجيلة: اتّخذونا طريقاً، فخرج سَرَوات بَجِيلة ووفدُهم نحوه، وخلَّفوا الجمهور، فقال: أيّ الوجوه أحبّ إليكم؟ قالوا: الشأم فإنّ أسلافنا بها، فقال: بل العراق؛ فإنّ الشأم في كفاية؛ فلم يزل بهم؛ ويأبوْن عليه حتى عزم على ذلك؛ وجعل لهم ربع خُمس ما أفاء الله على المسلمين إلى نصيبهم من الفيء، فاستعمل عَرْفجة على مَن كان مقيماً على جَديلة من بَجِيلة، وجريراً علَى مَن كان من بني عامر وغيرهم؛ وقد كان أبو بكر ولّاه قتالَ أهل عُمان في نفر، وأقفله حين غزا في البحر، فولّاه عمر عُظْم بَجِيلة، وقال: اسمعوا لهذا، وقال للآخرين: اسمعوا لجرير، فقال: جرير لبَجِيلة: تُقِرُّونَ بهذا ـ وقد كانت بَجِيلة غضبت على عَرْفجة في امرأة منهم ـ وقد أدخل علينا ما أدخل! فاجتمعوا فأتوا عُمر، فقالوا: أعْفِنا من عَرْفجة، فقال: لا أعفيكم من أقدمكم هجرةً وإسلاماً، وأعظمكم بلاءً وإحساناً، قالوا: استعمل علينا رجلاً منّا، ولا تستعمل علينا نزيعاً فينا، فظنّ عمر أنَّهم يَنفُونه من نسبه، فقال: انظروا ما تقولون! قالوا: نقول ما تسمع؛ فأرسل إلى عرفجة، فقال: إنّ هؤلاء استعفوْني منك، وزعموا أنَّك لست منهم، فما عندك؟ قال: صدقوا، وما يسُرّني أني منهم. أنا امرؤ من الأزد، ثم من بارق، في كَهْف لا يُحصَى عدده، وحَسَبٍ غير مُؤْتَشَب. فقال عمر: نِعْمَ الحيُّ الأزد! يأخذون نصيبَهم من الخير والشرّ. قال عرفجة: إنه كان من شأني أنّ الشرّ تفاقم فينا، ودارُنا واحدة؛ فأصبنا الدّماء، ووتر بعضنا بعضاً، فاعتزلتهم لَمَّا خِفتهم، فكنت في هؤلاء أسودُهم وأقودُهم، فحفِظوا

عليّ لأمر دار بيني وبين دهاقينهم، فحسدوني وكفروني. فقال: لا يضرّك فاعتزلهْمْ إذ كرهوك. واستعمل جريراً مكانه، وجمع له بَجِيلة، وأرى جريراً وبَجِيلة أنّه يبعث عَرْفجة إلى الشأم، فحبِّب ذلك إلى جرير العراق، وخرج جرير في قومه مِدًّا للمثنى بن حارثة، حتى نزل ذا قار، ثم ارتفع حتى إذا كان بالجُلّ والمثنى بمرج السِّباخ، أتى المثنَّى الخبرُ عن حديث بشير وهو بالحيرة؛ أنّ الأعاجم قد بعثوا مِهران، ونهض من المدائن شاخصاً نحو الحيرة. فأرسل المثنَّى إلى جرير وإلى عصمة بالحثّ، وقد كان عهد إليهم عمر ألّا يعبروا بحراً ولا جسراً إلّا بعد ظفَر، فاجتمعوا بالبُوَيب، فاجتمع العسكران على شاطىء الْبُوَيب الشرقيّ، وكان البويب مَغيضاً للفرات أيام المدود، أزمانَ فارس، يصبّ في الجوف، والمشركون بموضع دار الرزق، والمسلمون بموضع السُّكون.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شُعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر، عن عطيَّة والمجالد بإسنادهما، قالا: وقدما على عُمر غُزاة بني كنانة والأزْد في سبعمائة جميعاً، فقال: أيّ الوجوه أحبّ إليكم؟ قالوا: الشأم، أسلافنا أسلافنا! فقال: ذلك قد كُفيتموه؛ العراقَ العراقَ! ذَرُوا بلدة قد قَلَّل الله شوكتها وعددها، واستقبلوا جهاد قوم قد حوَوْا فنون العيش، لعلّ الله أن يورثكم بِقسْطكم من ذلك فتعيشوا مع مَن عاش من الناس. فقال غالب بن عبدالله الليثيّ وعرفجة البارقيّ، كلّ واحد منها لقومه، وقاما فيهم: يا عشيرتاه! أجيبوا أميرَ المؤمنين إلى ما يرى، وأمضوا له ما يُسكِنكم. قالوا: إنَّا قد أطعناك وأجبنا أميرَ المؤمنين إلى ما رأى وأراد. فدعا لهم عمر بخير وقاله لهم، وأمَّر على بني كنانة غالب بن عبد الله وسرّحه، وأمَّر على الأزْد عَرْفَجة بن هَرْثمة وعامَّتهم من بارق، وفرحوا برجوع عَرْفجة إليهم. فخرج هذا في قومه، وهذا في قومه، حتى قدما على المثنّى.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وعمرو بإسنادهما، قالا: وخرج هلال بن عُلَّفة التيميّ فيمن اجتمع إليه من الرِّباب حتى أتى عمر، فأمَّره عليهم وسرَّحه، فقدِم على المثنَّى وخرج ابن المثنّى الجُشَمِيّ؛ جُشَم سعد، حتى قدم عليه، فوجَّهه وأمَّره على بني سعد، فقدم على المثنَّى.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد، عن الشعبيّ وعطية بإسنادهما، قالا: وجاء عبد الله بن ذي السَّهْمَيْن في أناس من خَثْعم، فأمَّره عليهم ووجَّهه إلى المثنَّى، فخرج نحوه حتى قدم عليه.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سَيْف، عن محمد وعمرو بإسنادهما، قالا: وجاء رِبْعِيّ في أناس من بني حنظلة، فأمَّره عليهم وسرّحهم، وخرجوا حتى قدم بهم على المثنَّى، فرأس بعده ابنه شَبَث بن رِبْعِيّ، وقدم عليه أناسٌ من بني عمرو، فأمَّر عليهم رِبْعِيّ بن عامر بن خالد العَنُود، وألحقه بالمثنى، وقدم عليه قومٌ من بني ضبَّة، فجعلهم فرقتين، فجعل على إحدى الفرقتين ابن الهَوْبَر، وعلى الأخرى المنذر بن حسَّان، وقدم عليه قُرْط بن جمَّاح في عبد القيس، فوجَّهه. وقالوا جميعاً: اجتمع الفيرزان ورستَم على أن يبعثا مِهْران لقتال المثنَّى واستأذنا بُوران ـ وكانا إذا أرادَا شيئاً دنَوَا من حجابها حتى يكلّماها به ـ فقالا بالذي رأيا وأخبراها بعدد الجيش ـ وكانت فارس لا تُكثِر البعوث؛ حتى كان من أمر العرب ما كان ـ فلمّا أخبراها بكثرة عدد الجيش، قالت: ما بالُ أهلِ فارس لا يخرجون إلى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم؟ ومالكما لا تبعثان كما كانت الملوك تبعث قبل اليوم! قالا: إنَّ الهيبة كانت مع عدوّنا يومئذ، وإنها فينا اليوم؛ فمالأتْها وعرفت ما جاءاها به، فمضى مِهْران في جنده حتى نزل من دون الفرات والمثنّى وجنده على شاطىء الفرات؛ والفرات بينهما؛ وقدم أنس بن هلال النَّمَرِيّ ممداً للمثنَّى في أناس من النَّمِر نصارى وجلّاب جلبوا خيلا، وقدم ابن مِرْدَى الفِهْريّ التغلبيّ في أناس

من بني تَغْلِب نصارى وجلاّب جلبوا خيلا ـ وهو عبد الله بن كُلَيب بن خالد ـ وقالوا حين رأوا نزولَ العرب بالعجم: نقاتل مع قومنا. وقال مِهران: إمّا أن تعبُروا إلينا، وإمّا أن نعبُر إليكم، فقال المسلمون: اعبُروا إلينا، فارتحلوا من بسُوسْيا إلى شُومِيا، وهي موضع دار الرّزق.

كتب إليَّ السَّريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن عبيد الله بن مُحَفِّز، عن أبيه، أنّ العَجم لمّا أذِن لهم في العبور نزلوا شوميا موضع دار الرّزق، فتعبَّوْا هنالك؛ فأقبلوا إلى المسلمين في صُفوف ثلاثة مع كلّ صفّ فيل، ورَجْلُهم أمام فيلهم، وجاءوا ولهم زَجَل. فقال المثنَّى للمسلمين: إنّ الّذي تسمعون فَشَلٌ، فالزموا الصَّمْت وائتمروا هَمْساً. فدنوا من المسلمين وجاءوهم من قِبَل نهر بني سُليم نحو موضع نهر بني سُلَيم، فلمّا دنوا زحفوا، وصُفَّ المسلمون فيما بين نهر بني سليم اليوم وما وراءها.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد وطلحة، قالا وكان على مجنَّبتَي المثنَّى بشير وبُسْر بن أبي رُهْم، وعلى مجرَّدته المُعنَّى، وعلى الرَّجْل مسعود، وعلى الطلائع قبل ذلك اليوم النُّسَيْر، وعلى الرّدء مذعور، وكان على مجنَّبتي مِهران ابنُ الآزاذبه مرزُبان الحيرة ومَرْدانْشاه. ولمّا خرج المثنّى طاف في صفوفه يعهد إليهم عهدهَ، وهو على فرسه الشَّمُوس ـ وكان يُدعَى الشّموس من لين عريكته وطهارته، فكان إذا ركبه قاتَل؛ وكان لا يركبه إلاّ لقتال ويدَعُه ما لم يكن قتال ـ فوقف على الرّايات راية راية يحضّضهم، ويأمرهم بأمره، ويهزّهم بأحسن ما فيهم، تحضيضاً لهم، ولكلّهم يقول: إنّي لأرجو ألاّ تُؤتَى العرب اليوم من قِبَلكم؛ والله ما يسرُّني اليوم لنفسي شيء إلاّ وهو يسرّني لعامتكم؛ فيجيبونه بمثل ذلك. وأنصفهم المثنَّى في القول والفعل، وخلَط النَّاس في المكروه والمحبوب؛ فلم يستطع أحدٌ منهم أن يعيب له قولاً ولا عملاً. ثم قال: إنِّي مكبّر ثلاثاً فتهيّؤوا؛ ثم احمِلوا مع الرابعة، فلمَّا كبَّر أوّل تكبيرة أعجلهم أهل فارس وعاجلوهم فخالطوهم مع أوّل تكبيرة، وركدت حرْبُهم مَلِيًّا، فرأى المثنَّى خللاً في بعض صُفوفه فأرسل إليهم رجلاً، وقال: إنّ الأمير يقرأ عليكم السّلام، ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم، فقالوا: نعم، واعتدلوا؛ وجعلوا قبل ذلك يروْنه وهو يمدّ لحيته لما يرى منهم؛ فاعتنوْا بأمر لم يجيء به أحد من المسلمين يومئذ فرمقوه، فرأوه يضحك فَرَحاً والقوم بنو عِجْل. فلمّا طال القتال واشتدّ، عمَد المثنَّى إلى أنس بن هلال، فقال: يا أنس إنَّك امرؤ عربيّ، وإن لم تكن على ديننا؛ فإذا رأيتَني قد حملت على مِهران فاحمِل معي، وقال لابن مِرْدَى الفَهْر مثلَ ذلك فأجابه. فحمل المثنَّى على مهران؛ فأزاله حتى دخل في ميمنته، ثم خالطوهم، واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنَّبات تقتَتِل، لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لا المشركون ولا المسلمون، وارتُثَّ مسعود يومئذ وقُوّاد من قُوّاد المسلمين؛ وقد كان. قال لهم: إن رأيتمونا أصِبنا فلا تَدَعوا ما أنتم فيه؛ فإنّ الجيش ينكشف ثم ينصرف؛ الزموا مصافَّكم، وأغْنُوا غَناء مَن يليكم. وأوجع قلب المسلمين في قلْب المشركين، وقَتَل غلام من التغلبيّين نصرانيّ مِهران واستوى على فرسه، فجعل المثنَّى سلبه لصاحب خَيْله؛ وكذلك إذا كان المشرك في خيل رجل فقتل وسلب فهو للذي هو أمير على مَن قتل؛ وكان له قائدان: أحدهما جَرير والآخر ابن الهوبر؛ فاقتسما سلاحه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيد الله بن محفز، عن أبيه محفِّز بن ثعلبة؛ قال: جلَب فتية من بني تغلِب أفراساً، فلمَّا التقى الزّحفان يوم البُوَيب، قالوا: نقاتل العجم مع العرب، فأصاب أحدهم مِهران يومئذ، ومِهران على فرس له وَرْد مجفَّف بتِجْفاف أصفر، بين عينيه هلالٌ، وعلى ذَنَبه أهِلَّة من شَبَه،

فاستوى على فرسه، ثم انتمى: أنا الغلام التغلبيّ، أنا قتلتُ المرزبان! فأتاه جرير وابن الهوبر في قومهما فأخذا برجله فأنزلاه.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن سعيد بن المرزبان أن جريراً والمنذر اشتركا فيه فاختصما في سلاحه، فتقاضيا إلى المثنّى. فجعل سلاحه بينهما والمِنْطقة والسوارين بينهما، وأفنَوا قلْب المشركين.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي رَوْق، قال: والله إنْ كنّا لنأتي البُويب، فنرى فيما بين موضع السَّكون وبني سُليم عظاماً بيضاً تلولاً تلوح من هامِهم وأوصالهم؛ يُعتبر بها. قال: وحدّثني بعض مَنْ شهدها أنـهم كانوا يحزُرونها مائة ألف، وما عُفي عليها حتى دفنها أدْفان البيوت.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة؛ قالا: وقف المثنّى عند ارتفاع الغُبار؛ حتى أسفر الغبار، وقد فنِيَ قلب المشركين، والمجنِّبات قد هزّ بعضها بعضاً، فلمّا رأوه وقد أزال القلب، وأفنى أهلَه، قَويت المجنَّبات ـ مجنِّبات المسلمين ـ على المشركين، وجعلوا يردّون الأعـاجم على أدبـارهم، وجعل المثنى والمسلمون في القلْب يدعُون لهم بالنَّصر، ويرسل عليهم مَن يذمُرهم، ويقول: إنّ المثنَّى يقول: عاداتكم في أمثالهم، انصروا الله ينصركم؛ حتى هزموا القوم، فسـابقهم المثنَّى إلى الجسر فسبقهم وأخذ الأعـاجم، فافترقوا بشاطىء الفرات مصعِّدين ومصوِّبين، واعتورتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم، ثم جعلوهم جثاً؛ فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أبقى رِمة منها. ولما ارتُثّ مسعود بن حارثة يومئذ ـ وكان صرِع قبل الهزيمة، فتضعضع مَن معه، فرأى ذلك وهو دَنِف ـ قال: يا معشر بكر بن وائل، ارفعوا رايَتكم، رفعكم الله! لا يهولنكم مَصْرعي. وقاتل أنس بن هلال النَمِريّ يومئذ حتى ارتُثّ، ارتثّـه المثنَّى، وضمَّه وضمّ مسعوداً إليه. وقاتل قُرْط بن جَمّاح العبديّ يومئذ حتى دقّ قناً، وقطع أسيافاً. وقتِل شَهْربراز من دهاقين فارس وصاحب مجرّدة مِهران.

قال: ولما فرغوا جلس المثنَّى للناس من بعد الفراغ يحدّثهم ويحدّثونه، وكلّما جاء رجل فتحدّث قال له: أخبرْني عنك، فقال له قُرْط بن جمّاح: قتلتُ رجلاً فوجدتُ منه رائحة المسك، فقلتُ مِهران، ورجوت أن يكون إيّاه، فإذا هو صاحب الخيل شَهْر براز، فوالله ما رأيته إذ لم يكن مِهران شيئاً.

فقال: المثنَّى: قد قاتلت العرب والعجم في الجاهليَّة والإسلام؛ والله لمائة من العجم في الجاهليَّة كانوا أشدّ عليّ من ألف من العرب، ولمائة اليومَ من العرب أشدّ عليّ من ألف من العجم؛ إن الله أذهب مصدوقتَهم، ووهَّن كيدَهم؛ فلا يروعنَّكم زُهـاء ترونْه، ولا سوَاد ولا قِسيٌّ فُجٌّ، ولا نِبال طوال، فإنَّهم إذا أعجِلوا عنها أو فقدوها، كالبهائم أيْنما وجّهتموها اتَّجهت.

وقال رِبْعيّ وهو يحدّث المثنَّى: لّما رأيتُ ركود الحرب واحتدامها، قلتُ: تترّسوا بالمجانّ، فإنهم شادّون عليكم؛ فاصبروا لشدّتَيْن وأنا زعيم لكم بالظفر في الثالثة؛ فأجابوني والله؛ فوفَّى الله كفالتي.

وقال ابن ذي السَّهمين محدّثاً: قلت لأصحابي: إنّي سمعت الأميرَ يقرأ ويذكر في قراءته الرُّعْب؛ فما ذكره إلا لفضل عنده؛ اقتدوا برايتكم، وليَحْمِ راجلَكم خيلُكم، ثم احملوا، فما لقول الله من خُلْف؛ فأنجز الله لهم وعده، وكان كما رجوت.

وقال عَرْفجة محدّثاً: حُزْنا كتيبةً منهم إلى الفرات، ورجوْت أن يكون الله تعالى قد أذِن في غَرَقِهم وسلّى عنّا بها مصيبة الجسر، فلمّا دخلوا في حدّ الإحراج، كرّوا علينا، فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى قال بعض قومي: لو أخَّرتَ رايَتك! فقلت: عليّ إقدامُها، وحملت بها على حاميتهم فقتلتُه، فولّوْا نحو الفُرات، فما بلغه منهم أحد فيه الرّوح.

وقال رِبْعِيّ بن عامر بن خالد: كنت مع أبي يوم البُويب ـ قال وسُمِّيَ البُويب يوم الأعشار ـ أحصي مائة رجل، قَتَل كلّ رجل منهم عشرة في المعركة يومئذ، وكان عُرْوة بن زيد الخيل من أصحاب التّسعة، وغالِب في بني كنانة من أصحاب التسعة، وعرفجة في الأزْد من أصحاب التسعة.

وقتِل المشركون فيما بين السَّكون اليوم إلى شاطىء الفرات، ضفَّة البويب الشرقية؛ وذلك أنّ المثنّى بادرهم عند الهزيمة الجسرَ، فأخذه عـليهم، فأخَذوا يَمْنة ويَسرة، وتبعهم المسلمون إلى الليل، ومن الغد إلى اللَّيل، وندم المثنَّى على أخذه بالجسر، وقال: لقد عجزتُ عجزة وَقَى الله شرّها بمسابقتي إيّـاهم إلى الجسر وقَطْعِه؛ حتى أخرجتهُم؛ فإني غير عائد؛ فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيّها الناس، فإنها كانت منّي زلَّة لا ينبغي إحراج أحد إلاّ مَن لا يقوى على امتناع. ومات أناس من الجرحى من أعلام المسلمين، منهم خالـد بن هلال ومسعود بن حارثة، فصلَّى عليهم المثنَّى، وقدّمهم على الأسنان والقرآن، وقال: والله إنَّه ليُهوّن عليّ وجْدي أن شهِدوا البُويب، أقدَموا وصَبَرُوا، ولم يجزَعوا ولم ينكلوا، وإن كان في الشهادة كفَّارة لِتجوُّز الذنوب.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: وقد كان المثنّى وعصمة وجرير أصابوا في أيّام البُويب على الظّهر نُزْل مِهْران غنماً ودقيقاً وبقراً، فبعثوا بها إلى عيالات مَن قدم من المدينة وقد خلَّفوهنّ بالقوادس، وإلى عِيالات أهل الأيّام قبلَهم؛ وهم بالحيرة. وكان دليـل الذين ذهبـوا بنصيب العِيالات الَّذين بالقوادس عَمْرو بن عبد المسيح بن بُقَيلة، فلمّا رُفِعوا للنسوة فرأين الخيلَ، تصَايحن وحسبنها غارةً، فقمْنَ دون الصبيان بالحجارة والعُمُد، فقال عمرو: هكذا ينبغي لنسـاء هذا الجيش! وبشّـروهنّ بالفتح، وقالوا: هذا أوّله، وعلى الخيل التي أتتهم بالنُّزل النُّسَيْر؛ وأقام في خيله حاميةً لهم؛ ورجع عمرو بن عبد المسيح فبات بالحيرة. وقال المثنَّى يومئذ: من يتبَع الناس حتَّى ينتهي إلى السِّيب؟ فقام جرير بن عبد الله في قومه، فقال: يا معشر بَجِيلة، إنَّكم وجميع مَن شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء، وليس لأحد منهم في هذا الخُمس غداً من النَّفَل مثل الذي لكم منه؛ ولكم رُبع خمسه نفَلا من أمير المؤمنين؛ فلا يكوننَّ أحدٌ أسرعَ إلى هذا العدوّ ولا أشدّ عليه منكم للذي لكم منه، ونيَّة إلى ما ترجون؛ فإنما تنتظرون إحـدى الحُسنَيَيْن: الشهادة والجنَّة أو الغنيمة والجنَّة.

ومال المثنَّى على الَّـذين أرادوا أن يستقتلوا من مُنهزِمـة يوم الجسر، ثم قـال: أين المستبسل بـالأمس وأصحابه! انتدبوا في آثار هؤلاء القوم إلى السِّيب، وابلغوا من عدوّكم ما تغيظونهم به، فهو خيرٌ لكم وأعْظَمُ أجراً؛ واستغفروا الله إنّ الله غفورٌ رحيم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن حمزة بن عليّ بن محفِّز، عن رجل من بَكْر بن وائل، قال: كان أوّل الناس انتدَب يومئذ المثنَّى واتَّبع آثارهم المستبسل وأصحابه؛ وقد كان أراد الخروج بالأمس إلى العدوّ من صفِّ المسلمين واستوفز واستنتل، فأمَر المثنَّى أنْ يُعقد لهم الجسر؛ ثم أخرجهم في آثارٍ للقوم،

واتَّبعتهم بَجيلة وخيولٌ من المسلمين تُغِذّ من كلّ فارس، فانطلقوا في طلبهم حتى بلغوا السِّيْب، ولم يبقَ في العسكر جسريّ إلّا خرج في الخيل، فأصابوا من البقر والسَّبي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً فقسمه المثنَّى عليهم، وفضَّل أهل البلاء من جميع القبائل، ونفَّل بَجيلة يومئذ ربعَ الخمس بينهم بالسويَّة، وبعث بثلاثة أرباعه مع عكرمة، وألقى الله الرُّعب في قلوب أهلِ فارس. وكتب القُوّاد الذين قادوا النّاس في الطَّلب إلى المثنَّى، وكتب عاصم وعصمة وجرير: إنّ الله عز وجلّ قد سلَّم وكفى، ووجَّه لنا ما رأيت، وليس دون القوم شيء؛ فتأذن لنا في الإقدام! فأذن لهم، فأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصّن أهل ساباط منهم واستباحوا القُرَيّات دونها؛ وراماهم أهل الحصن بساباط عن حصنهم، وكان أوّل مَن دخل حصنهم ثلاثة قُوّاد: عصمة، وعاصم، وجرير، وقد تبعهم أوزاعٌ من الناس كلّهم. ثم انكفؤوا راجعين إلى المثنَّى.

كتبَ إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطية بن الحارث، قال: لمَّا أهلك الله مِهران استمكن المسلمون من الغارة على السَّواد فيما بينهم وبين دجلة فَمَخروها، لا يخافون كيداً، ولا يلقوْن فيها مانعاً، وانتقضت مسالح العجم، فرجعت إليهم؛ واعتصموا بساباط، وسرّهم أن يتركوا ما وراء دجلة.

وكانت وقعة البُوَيب في رمضان سنة ثلاث عشرة، قتل الله عليه مِهْران وجيشه، وأفعموا جنبتي البُوَيب، عظاماً، حتى استوى وما عفَّى عليها إلّا التراب أزمان الفتنة، وما يثار هنالك شيء إلّا وقعوا منها على شيء؛ وهو ما بين السَّكون ومُرْهِبة وبني سُليم، وكان مَغيضاً للفرات أزمان الأكاسرة يصبّ في الجَوْف. وقال الأعور العَبْديّ الشَّنّي:

هاجَتْ لِأعْوَرَ دارُ الحيِّ أحْزَانا ... واستَبْدَلَتْ بَعْدَ عبد القَيْس خَفّانا
وقد أرانا بها والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ ... إذ بالنُّخَيْلة قَتَلى جُنْدِ مِهْرانا
أزْمانَ سار المُثنَّى بالخيول لَهُمْ ... فقُتِّلَ الزَّحْفُ من فُرْسٍ وجِيلانا
سما لِمِهْرَانَ والجيش الّذي معه ... حتى أبادَهُمُ مَثْنَى وَوُحْدانا

قال أبو جعفر: وأمَّا ابن إسحاق، فإنه قال في أمر جرير وعرفجة والمثنَّى وقتال المثنَّى مِهرانَ غير ما قصّ سيف من أخبارهم؛ والذي قال في أمرِهم ما حدّثنا محمد بن حُمَيد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، قال: لمَّا انتهت إلى عمر بن الخطاب مصيبةُ أصحاب الجسر، وقدم عليه فَلّهم؛ قدِم عليه جرير بن عبد الله البجَليّ من اليمن في ركب من بَجيلة، وعَرْفجة بن هرثمة - وكان عرفجة يومئذ سيّد بَجيلة، وكان حليفاً لهم من الأزْد - فكلّمهم عمر، فقال لهم: إنّكم قد علمتم ما كان من المصيبة في إخوانكم بالعراق؛ فسيروا إليهم وأنا أخرج إليكم مَن كان منكم في قبائل العرب فأجمعهم إليكم. قالوا: نفعل يا أمير المؤمنين، فأخرج لهم قَيْس كُبَّة وسُحْمة وعُرَينة؛ وكانوا في قبائل بني عامر بن صعصعة، وأمَّر عليهم عرفجة بن هَرثمة، فغضب من ذلك جَرير بن عبد الله البَجليّ، فقال لبَجيلة: كلّموا أميرَ المؤمنين، فقالوا له: استعملت علينا رجلاً ليس منّا، فأرسل إلى عَرفجة، فقال: ما يقول هؤلاء؟ قال: صدقوا يا أمير المؤمنين، لستُ منهم، ولكنّي رجل من الأزْد، كنّا أصبنا في الجاهليَّة دماً في قومنا، فلحقْنا بَجيلة، فبلغنا فيهم من السؤدد مَا بلغك. فقال له عمر: فاثبت على منزلتِك، ودافعهم كما يدافعونك. قال: لستُ فاعلاً ولا سائراً معهم؛ فسار عرفجة إلى البَصْرة بعد أن نُزلت، وترك بَجِيلة، وأمَّر عمر على بَجِيلة جرير بن عبد الله، فسار بهم مكانه إلى الكوفة وضمّ إليه عمر قومَه من

بَجِيلة، فأقبل جرير حتى إذا مرَّ قريباً من المثنَّى بن حارثة، كتب إليه المثنّى أن أقْبلْ إليَّ، فإنما أنت مَدَدٌ لي. فكتب إليه جرير: إنّي لست فاعلاً إلاّ أن يأمرَمي بذلك أمير المؤمنين؛ أنت أمير وأنا أمير.

ثم سار جرير نحو الجسر، فلقيَه مهران بن باذان - وكان من عظماء فارس - عند النُّخَيْلة، قد قطع إليه الجسر، فاقتتلا قتالاً شديداً، وشدّ المنذِر بن حسَّان بن ضِرار الضَّبيّ على مِهران فطعَنه، فوقع عن دابّته، فاقتحم عليه جرير فاحتزّ رأسَه، فاختصما في سَلَبه، ثم اصطلحا فيه؛ فأخذ جَرير السِّلاح، وأخذ المنذر بن حسَّان مِنطقته.

قال: وحُدّثتُ أنّ مهران لمّا لقي جريراً قال:

إن تسألوا عنّي فإني مِهْرانْ   أنا لِمَنْ أنكَرَني ابنُ باذانْ

قال: فأنكرتُ ذلك حتى حدّثني من لا أتّهم من أهل العلم أنه كان عربيًّا نشأ مع أبيه باليمن إذ كان عاملاً لكسرى. قال: فلم أنكر ذلك حين بلغني.

وكتب المثنَّى إلى عمر يَمْحَل بجرير، فكتب عمر إلى المثنّى: إنّي لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمّد ﷺ - يعني جريراً. وقد وجّه عمر سعد بن أبي وقّاص إلى العراق في ستة آلاف، أمّره عليهم، وكتب إلى المثنَّى وجرير بن عبد الله أن يجتمعا إلى سعد بن أبي وقّاص، وأمَّر سعداً عليهما؛ فسار سعد حتى نزل شَراف، وسار المثنَّى وجرير حتى نزلا عليه، فشتا بها سعد، واجتمع إليه الناس، ومات المثنَّى بن حارثة رحمه الله.

خبر الخَنافس

رجع الحديث إلى حديث سيف. كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: ومخر المثنَّى السَّواد وخلَّف بالحيرة بشيرَ بن الخصاصيَّة، وأرسل جريراً إلى مَيْسان، وهلال بن عُلَّفة التَّيْميّ إلى دَسْت ميسان، وأذكى المسالح بعصمة بن فلان الضبيّ وبالكَلج الضبيّ وبعرفجة البارقيّ، وأمثالهم في قوّاد المسلمين؛ فبدأ فنزل ألَّيْس - قرية من قُرى الأنبار - وهذه الغزاة تُدعى غزاة الأنبار الآخرة؛ وغزاة ألَّيس الآخرة، وألزّ رجلان بالمثنَّى: أحدهما أنباريّ، والآخر حِيريّ يدلّه كلّ واحد منهما على سوق، فأما الأنباري فدلَّه على الخَنافس، وأمَّا الحيريّ فدلَّه على بغداد. فقال المثنَّى: أيّتهما قبل صاحبتها؟ فقالوا: بينهما أيّام، قال: أيّهما أعجل؟ قالوا: سوق الخنافس سوق يتوافى إليها الناس، ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يخفرونهم. فاستعدّ لها المثنَّى؛ حتى إذا ظنّ أنه مُوافيها يوم سوقِها ركب نحوهم، فأغار على الخَنافس يوم سُوقها، وبها خَيْلان من ربيعة وقضاعة، وعلى قضاعة رُومانِس بن وَبَرَة، وعلى ربيعة السَّليل بن قيس وهم الخُفراء، فانتسف السّوق وما فيها، وسَلَب الخفراء، ثم رجع عَوْدَه على بدْئه حتى يطرق دهاقين الأنبار طروقاً في أوّل النهار يومَه، فتحصّنوا منه، فلمّا عرفوه نزلُوا إليه فأتوْه بالأعلاف والزاد؛ وأتوْه بالأدلاّء على بغداد؛ فكان وجهُه إلى سوق بغْداد، فصبَّحهم والمسلمون يمخرون السَّواد والمثنَّى بالأنبار، ويَشنُّون الغارات فيها بين أسفل كَسْكر وأسفل الفرات وجسور مِثْقَب إلى عين التَّمر وما والاها من الأرض في أرض الفلاليج والعال.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيد الله بن محفِّز، عن أبيه، قال: قال رجلٌ من أهل

الحيرة للمثنّى: ألا ندلّك على قرية يأتيها تجّار مدائن كسرى والسَّواد، وتجتمع بها في كلّ سنة مرّة ومعهم فيها الأموال؛ كبيت المال؛ وهذه أيام سوقهم، فإن أنت قدرت أن تُغيرَ عليهم وهم لا يشعرون أصبتَ فيها مالاً يكونُ غَناء للمسلمين؛ وقَووا به على عدوّهم دهرَهم؛ قال: وكم بين مدائن كسرى وبينها؟ قال: بعض يوم أو عامَّة يوم، قال: فكيف لي بها؟ قالوا: نأمرك إنْ أردتَها أن تأخذ طريق البرّ، حتى تنتهي إلى الخنافس، فإنّ أهل الأنبار سيضربون إليها، ويخبرون عنك فيأمنون، ثم تعوج على أهل الأنبار فتأخذ الدّهاقين بالأدلّاء، فتسير سواد ليلتك من الأنبار حتى تأتيَهم صُبحاً فتُصبّحهم غارةً.

فخرج من ألّيس حتى أتَى الخَنَافس، ثم عاج حتى رجع على الأنبار، فلمّا أحسَّه صاحبها تحصّن وهو لا يدري من هو؛ وذلك ليلاً؛ فلمّا عرفه نزل إليه فأطعمه المثنَّى، وخوّفه واستكتمه، وقال: إنّي أريدُ أن أغِيرَ فابعثْ معي الأدلّاء إلى بغداد، حتى أغير منها إلى المدائن. قال: أنا أجيء معك، قال: لا أريد أن تجيء معي، ولكن ابعث معي مَن هو أدلُّ منك، فزوّدهم الأطعمة والأعلاف، وبعث معهم الأدلّة، فساروا حتى إذا كانوا بالنّصف، قال لهم المثنَّى: كم بيني وبين هذه القرية؟ قالوا: أربعة أو خمسة فراسخ. فقال لأصحابه: مَن ينتدب للحرَس؟ فانتدب له قومٌ فقال لهم: أذكُوا حرسَكم، ونزل، وقال: أيُّها الناس، أقيموا واطعَموا وتوضّؤوا وتهيؤوا. وبعث الطلائع فحبسوا النَّاس ليسبقوا الأخبار، فلمّا فرغوا أسرى إليهم آخر الليل، فعبر إليهم، فصبَّحهم في أسواقهم، فوضع فيهم السيف فقتل، وأخذوا ما شاءوا، وقال المثنَّى: لا تأخذوا إلّا الذهب والفضة، ولا تأخذوا من المتاع إلّا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابَّته. وهرب أهلُ الأسواق، وملأ المسلمون أيديَهم من الصفراء والبيضاء والحُرّ من كلّ شيء، ثم خرج كارًّا حتى نزل بنهر السَّيْلحين بالأنبار؛ فنزل وخطب الناس، وقال: أيُّها الناس، انزلوا وقَضُّوا أوطاركم، وتأهَّبوا للسَّير، واحمدوا الله وسلُوه العافية، ثم انكشِفوا قبيضاً. ففعلوا، فسمع همساً فيما بينهم: ما أسرعَ القومَ في طلبنا! فقال: تناجَوْا بالبرّ والتقوى ولا تتناجَوْا بالإثم والعدوان، انظروا في الأمور وقدّروها ثم تكلّموا؛ إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد؛ ولو بلغهم لحال الرُّعب بينهم وبين طلبكم. إن للغارات رَوْعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل، ولو طلبكم المحامون من رأى العين ما أدركوكم؛ وأنتم على العِراب حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين: التماس الأجر ورجاء النصر؛ فثِقُوا وأحسنوا به الظَّنّ، فقد نصركم الله في مواطن كثيرة وهم أعدُّ منكم، وسأخبركم عنّي وعن انكماشي والذي أريد بذلك؛ إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلّل العُرْجة، ونسرع الكرّة في الغارات، ونسرع في غير ذلك الأوْبَة. وأقبل بهم ومعهم أدلّاؤهم يقطعون بهم الصحارى والأنهار؛ حتى انتهى بهم إلى الأنبار؛ فاستقبلهم دهاقين الأنبار بالكرامة، واستبشروا بسلامته، وكان موعده الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبّون.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: لَمّا رجع المثنَّى من بغداد إلى الأنبار سرّح المُضارِبَ العجلي وزيداً إلى الكَباث، وعليه فارس العُناب التغلبيّ، ثمّ خرج في آثارهم، فقدم الرّجلان الكَباث، وقد ارفضّوا وأخلوا الكَباث، وكان أهله كلّهم من بني تغلِب، فركبوا آثارَهم يتبعونهم، فأدركوا أخرياتهم وفارس العُناب يحمِيهم، فحماهم ساعة ثم هرب، وقتلوا في أخرياتهم وأكثروا، ورجع المثنَّى إلى عسكره بالأنبار، والخليفة عليهم فُرات بن حَيَّان. فلما رجع المثنَّى إلى الأنبار سرّح فُرات بن حيَّان وعُتَيبة بن النَّهاس وأمرهما بالغارة على أحياء من تغلِب والنَّمِر بِصِفّين، ثم اتَّبعهما وخلَّف على الناس عمرو بن أبي سُلمى

الهُجَيميّ ؛ فلمّا دنوا من صِفين، افترق المثنّى وفُرات وعُتيبة، وفرّ أهل صِفِّين وعبروا الفرات إلى الجزيرة، وتحصّنوا، وأرمل المثنّى وأصحابه من الزاد، حتى أقبلوا على رواحلهم إلاّ ما لا بدّ منه فأكلوها حتى أخفافها وعظامها وجلودها. ثم أدركوا عِيراً من أهل دِيَاف وحَوْران، فقتلوا العلوج وأصابوا ثلاثة نفر من بني تغلِب خفراء، وأخذوا العِير، وكان ظهراً فاضلاً، وقال لهم: دلّوني، فقال أحدهم: آمنوني على أهلي ومَالي، وأدلُّكم على حَيّ من تغلِب غدوت من عِندهم اليوم؛ فآمَنه المثنّى وسارَ معه يومه، حتى إذا كان العشيّ هجم على القوم، فإذا النَّعَم صادرة عن الماء، وإذا القوم جُلوس بأفنية البيوت، فبثّ غارته، فقتلوا المقاتلة، وسبوا الذريّة؛ واستاقوا الأموال، وإذا هم بنو ذي الرُوَيْحلة؛ فاشترى مَن كان بين المسلمين من ربيعة السَّبايا بنصيبه من الفيء، وأعتقوا سبْيَهم؛ وكانت ربيعة لا تُسْبَى إذ العرب يتسابَوْن في جاهليّتهم.

وأخبِر المثنّى أن جمهور مَنْ سلك البلاد قد انتجعوا الشَّطّ؛ شاطىء دِجْلة، فخرج المثنَّى، وعلى مقدَّمته في غزواته هذه بعد البُوَيب كلّها حُذيفة بن محصن الغلفانيّ، وعلى مجنَّبتيه النُّعمان بن عوف بن النعمان ومطر الشيبانيان، فسرّح في أدبارهم حُذيفة واتّبعه؛ فأدركوهم بَتكرِيت دُونهَا من حيث طلبوهم يخوضون الماء، فأصابوا ما شاءوا من النَّعَم، حتى أصاب الرجل خمساً من النَّعم، وخمساً من السَّبْي، وخُمس المال؛ وجاء به حتى ينزل على النَّاس بالأنبار؛ وقد مضى فُرات وعُتيبة في وجوههما؛ حتى أغاروا على صِفّين وبها النَّمِر وتغْلِب متساندين، فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء، فناشدوهم فلم يقلِعوا عنهم، وجعلوا ينادونهم: الغرق الغرق! وجعل عُتيبة وفرات يذمُرون النَّاس، وينادونهم: تغريق بتحريق ـ يذكّرونهم يوماً من أيّامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكْر بن وائل في غَيْضة من الغياض ـ ثم انكفؤوا راجعين إلى المثنّى، وقد غرّقوهم.

ولما تراجع الناس إلى عسكرهم بالأنبار وتوافَى بها البعوث والسرايا، انْحدر بهم المثنَّى إلى الحيرة، فنزل بها. وكانت تكون لعمر رحمه الله العيون في كلّ جيش، فكتب إلى عمر بما كان في تلك الغَزاة، وبلغه الذي قاله عتيبة وفُرات يوم بني تغلِب والماء؛ فبعث إليهما فسألهما، فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه أنه مَثَل، وأنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذَحْل الجاهليَّة، فاستحلفهما، فحلفا أنّهما ما أرادا بذلك إلاّ المثل وإعزاز الإسلام، فصدّقهما وردّهما حتى قدِما على المثنَّى.

ذكر الخبر عمَّا هيّج أمر القادسيّة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبدالله بن سواد بن نُويرة، عن عزيز بن مِكنَف التميميّ ثم الأسيْديّ، وطلحة بن الأعلم الحنفيّ، عن المغيرة بن عتيبة بن النَّهاس العِجْليّ، وزياد بن سَرِجس الأحمريّ، عن عبد الرحمن بن سابـاط الأحمريّ، قالوا جميعاً: قال أهلُ فارس لرُسْتم والفيرزان ـ وهما على أهل فارس: أين يُذهب بكما! لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهَّنتما أهلَ فارس، وأطمعتما فيهم عدوّهم! وإنه لم يبلغ من خطركما أن يقرّكما فارس على هذا الرأي، وأنْ تعرّضاها للهلَكة؛ ما بعد بغداد وساباط وتَكريت إلا المدائن؛ والله لتجتمعان أو لنبدأنّ بكما قبل أن يشمت بنا شامت.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيدالله بن محفّز، عن أبيه، قال: قال أهلُ فارس لرستم والمسلمون يمخرون السَّواد: ما تنتظرون والله إلاّ أن يُنزلَ بنا ونهلك! والله ماجرّ هذا الوَهَن علينا غيركم

يا معاشر القوّاد! لقد فرّقتم بين أهل فارس وثبّطتموهم عن عدوّهم. والله لولا أنّ في قتلكم هلاكنا لعجّلنا لكم القتل الساعة، ولئن لم تنتهوا لنهلكنّكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: فقال الفيرزان ورستم لبُوران ابنة كسرى: اكتبي لنا نساءَ كسرى وسراريَّه ونساءَ آل كسرى وسراريَّهم. ففعلت، ثم أخرجت ذلك إليهم في كتاب، فأرسلوا في طلبهنّ فلم يبق منهنّ امرأة إلا أتوْا بها، فأخذوهنّ بالرجال ووضعوا عليهنّ العذاب يستدلونهنّ على ذَكَرٍ من أبناء كسرى، فلم يوجد عندهنّ منهم أحد، وقلن ـ أو من قال منهنّ: لم يبقَ إلّا غلام يدعى يَزْدَجِرْد من ولد شَهْريار بن كسرى، وأمّه من أهل بادوريا. فأرسلوا إليها فأخذوها به، وكانت قد أنزلته في أيام شيري حين جمعهنّ في القصر الأبيض، فقتل الذّكور، فواعدت أخواله، ثم دلَّته إليهم في زَبيل فسألوها عنه وأخذوها به، فدلتْهم عليه، فأرسلوا إليه فجاءوا به فملَّكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واجتمعوا عليه، واطمأنَّت فارس واستوثقوا وتبارَى الرؤساء في طاعته ومعونته فسمى الجنود لكلّ مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر، فسمَّى جند الحيرة والأنبار والمسالح والأُبُلَّة. وبلغ ذلك من أمرهم واجتماعهم على يَزْدجِرد المثنَّى والمسلمين، فكتبوا إلى عمر بما ينتظرون ممَّن بين ظهرانيهمْ، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كَفَر أهل السَّواد؛ مَن كان له منهم عهد ومن لم يكن له منهم عهد. فخرج المثنّى على حاميته حتى نزل بذي قار، وتنزّل الناس بالطَّفّ في عسكر واحد حتى جاءهم كتاب عمر:

أما بعد؛ فاخرجوا من بين ظَهري الأعاجم، وتفرّقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تَدَعُوا في ربيعة أحداً ولا مُضَر ولا حلفائهم أحداً من أهل النَّجَدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه؛ فإن جاء طائعاً وإلّا حشرتموه، احملوا العرب على الجدّ إذ جدّ العجم؛ فلتلقوْا جِدّهم بِجِدّكم.

فنزل المثنّى بذي قار، ونزل الناس بالجُلّ وشَراف إلى غُضَيّ ـ وغُضَيّ حيال البصرة ـ فكان جرير بن عبدالله بغُضَيّ وسَبْرة بن عمرو والعَنْبَريّ ومن أخذ أخذهم فيمن معه إلى سلمان، فكانوا في أمواه الطّفّ من أوّلها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض؛ ويُغيث بعضهم بعضاً إن كان كون، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة.

حدّثنا السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: كان أوّل ما عمل به عمر حين بلغه أنّ فارس قد ملّكوا يزدجر، أن كتب إلى عُمَّال العَرب على الكُور والقبائل، وذلك في ذي الحجَّة سنة ثلاث عشرة مخرجَه إلى الحجّ، وحجّ سنواته كلها: لا تدعوا أحداً له سلاح، أو فرس، أو نجدة، أو رأي إلا انتخبتموه، ثم وجّهتموه إليّ، والعَجَلَ العجَلَ!

فمضت الرُّسل إلى مَن أرسلهم إليهم مخرجَه إلى الحجّ، ووافاه أهلُ هذا الضّرب من القبائل التي طُرُقها على مكّة والمدينة، فأمَّا مَن كان من أهل المدينة على النِّصف ما بينه وبين العراق، فوافاه بالمدينة مرجِعَه من الحجّ، وأمّا مَن كان أسفلَ من ذلك فانضمّوا إلى المثنَّى، فأمَّا مَنْ وافَى عمر فإنَّهم أخبروه عمَّن وراءهم بالحثّ.

وقال أبو معشر، فيما حدثني الحارث، عن ابن سعد، عنه. وقال ابن إسحاق ـ فيما حدثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عنه: الذي حجّ بالناس سنة ثلاث عشرة عبد الرحمن بن عوف.

وقد حدثني المقَدّميّ، عن إسحاق الفَرْويّ، عن عبيدالله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال:

استعمل عمرُ على الحجّ عبدَ الرحمن بن عَوْف في السنة التي وليَ فيها، فحجّ بالناس، ثم حجّ سنيه كلّها بعد ذلك بنفسه.

وكان عامل عمر في هذه السنة - على ما ذكر - على مكّة عتّاب بن أسِيد، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن يَعْلَى بن مُنْية، وعلى عُمان واليمامة حُذيفة بن مِحْصَن، وعلى البحرين العلاء بن الحضرميّ، وعلى الشأم أبو عبيدة بن الجراح، وعلى فرْج الكوفة وما فتح من أرضها المثنَّى بن حارثة.

وكان على القضاء - فيما ذُكِر - عليّ بن أبي طالب. وقيل: لم يكن لعمر في أيامه قاضٍ.

ثم دخلت سنة أربع عشرة

ففي أوّلِ يوم من المحرّم سنة أربع عشرةَ ـ فيما كتب إليّ به السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم ـ خرج عمر حتّى نزل على ماء يدعى صِراراً، فعسكر به ولا يدري النّاس ما يريد؛ أيسيرُ أم يقيم. وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموْه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف؛ وكان عثمان يُدعى في إمارة عمر رَدِيفاً ـ قالوا: والرّدِيف بلسان العرب الرجل الّـذي بعد الـرّجُل، والعـرب تقول ذلـك للرجل الّذي يرجونه بعد رئيسهم ـ وكانوا إذا لم يقدِر هذان على علم شيء ممّا يريدون، ثلّثوا بالعبّاس، فقال عثمان لعمر: ما بلغك؟ ما الذي تريدُ؟ فنادى: الصلاة جامعة. فاجتمع النّاس إليه، فأخبرهم الخبر. ثم نظر ما يقول النّاس، فقال العامّة: سِرْ وسِرْ بنا معك؛ فدخل معهم في رأيهم، وكره أن يَدَعهم حتى يُخرجهم منه في رِفْق، فقال: استعدّوا وأعِدّوا فإنّي سائر إلاّ أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك. ثم بعث إلى أهل الرأي، فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبيّ ﷺ وأعلامُ العرب، فقال: أحضِروني الرّأيَ فإني سائر. فاجتمعوا جميعاً، وأجمع مَلؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسولِ الله ﷺ ويقيم، ويرميه بالجنود، فإن كان الّذي يشتهي من الفتح، فهو الذي يريد ويريدون؛ وإلاّ أعاد رجلاً وندَب جنداً آخر؛ وفي ذلك ما يغيظ العدوّ، ويرعوي المسلمون، ويجيء نصر الله بإنجاز موعود الله. فنادى عمر: الصلاة جامعة، فاجتمع النّاس إليه، وأرسل إلى عليّ عليه السلام، وقد استخلفه على المدينة، فأتاه، وإلى طلحة وقد بعثَه على المقدّمة، فرجع إليه، وجعل على المجنّبتين الزُّبير وعبد الرحمن بن عوف، فقام في الناس فقال: إنَّ الله عزّ وجلّ قد جمع على الإسلام أهلَه؛ فألّف بين القلوب، وجعلهم فيه إخواناً، والمسلمون فيما بينهم كالجسَد لا يخلُو منه شيء من شيء أصاب غيره؛ وكذلك يَحِقُّ على المسلمين أن يكونوا أمرُهم شورى بينهم وبين ذوي الرّأي منهم؛ فالناس تبَعٌ لمن قام بهذا الأمر؛ ما اجتمعوا عليه ورضُوا به لزم النّاس وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن أقام بهذا الأمر تبعٌ لأولي رأيهم ما رأوْا لهم ورضُوا به لهم من مكِيدة في حرْب كانوا فيه تَبَعاً لهم. يا أيها النّاس، إني إنّما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرّأي منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً، وقد أحضرتُ هذا الأمر؛ مَنْ قدّمتُ ومَنْ خلّفتُ. وكان عليّ عليه السلام خليفتَه على المدينة، وطلحة على مقدّمته بالأعوص، فأحضرهما ذلك.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن إسحاق، عن صالح بن كيسان، عن عمر بن عبد العزيز، قال: لمّا انتهى قتلُ أبي عُبَيد بن مسعود إلى عُمر، واجتماعُ أهلِ فارس على رجل من آل كسرى، نادى في المهاجرين والأنصار؛ وخرجَ حتى أتى صِراراً، وقدّم طلحةَ بن عُبيدالله حتّى يأتيَ الأعوَص، وسمّى

لميمنته عبد الرحمن بن عوف، ولميسرته الزّبير بن العوّام، واستخلف عليًّا رضي الله عنه على المدينة، واستشار النَّاسَ، فكلّهم أشار عليه بالسَّير إلى فارس، ولم يكن استشار في الَّذي كان حتى نزل بصِرار ورجع طلحة، فاستشار ذوِي الرَّأيِ، فكان طلحة ممَّن تابع النَّاس، وكان عبد الرحمن ممّن نهاه، فقال عبد الرحمن: فما فديتُ أحداً بأبي وأمي بعد النبيّ ﷺ قبل يومئذ ولا بعده؛ فقلت: يا بأبي وأمّي، اجعل عَجْزها بي وأقِم وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبلُ وبعدُ، فإنه إن يُهزم جيشُك ليس كهزيمتك؛ وإنّك إن تُقتل أو تُهزم في أنف الأمر خشيتُ ألاّ يكبِّر المسلمون وألاّ يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً وهو في ارتياد من رجل؛ وأتى كتاب سعْدٍ على حَفَف مَشُورتهم؛ وهو على بعض صدقات نجْد، فقال عمر: فأشيروا عليّ برجل، فقال عبد الرحمن؛ وجدتُه، قال: مَنْ هو؟ قال: الأسد في براثنه؛ سعد بن مالك؛ ومالأه أولو الرأي.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن خُلَيْد بن ذَفْرَة، عن أبيه، قال: كتب المثنَّى إلى عُمر باجتماع فارس على يَزْدَجرد وببعوثهم، وبحالِ أهل الذمَّة. فكتب إليه عمر؛ أن تَنَحَّ إلى البَرّ، وادعُ مَن يليك، وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم؛ حتى يأتيَك أمري.

وعاجلتهم الأعاجم فزاحفتهم الزُّحوف، وثار بهم أهل الذمَّة؛ فخرج المثنَّى بالناس حتى ينزلَ الطّفّ، ففرّقهم فيه من أوّله إلى آخره، فأقام ما بين غُضَيّ إلى القُطْقُطانة مسالحَه، وعادت مسالحُ كسرى وثغورُه، واستقرّ أمرُ فارس وهم في ذلك هائبون مُشْفِقُون، والمسلمون متدفِّقون قد ضَرُوا بهم كالأسد ينازِع فريستَه، ثم يعاود الكرّ؛ وأمراؤهم يكفكفونهم بكِتاب عمر وأمداد المسلمين.

كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: قد كان أبو بكر استعمل سعداً على صدقات هوازن بنجْد، فأقرّه عمر، وكتب إليه فيمن كتب إليه من العُمَّال حين استنفر الناس أن ينتخب أهلَ الخيل والسّلاح ممَّن له رأي ونجدة. فرجع إليه كتاب سعد بمَن جمع الله له من ذلك الضرب؛ فوافق عمرَ وقد استشارهم في رجل، فأشاروا عليه به عند ذكره.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد وطلحة بإسنادهما، قالا: كان سعد بن أبي وقَّاص على صَدَقات هوازن، فكتب إليه عمر فيمَن كتب إليه بانتخاب ذوِي الرَّأي والنَّجدة ممَّن كان له سلاح أو فرس، فجاءه كتاب سعد: إنّي قد انتخبت لك ألف فارس مُؤدٍ كلّهم له نجدة ورأي، وصاحبُ حِيطة يحوط حريم قومه، ويمنع ذمارهم، إليهم انتهت أحسابهم ورأيُهُم، فشأنَك بهم. ووافق كتابُه مشورتهم، فقالوا: قد وجدْتَه، قال: فمن؟ قالوا: الأسد عَادِياً، قال: مَنْ؟ قالوا: سعد، فانتهى إلى قولهم فأرسل إليه، فقدم عليه، فأمَّره على حرب العراق وأوصاه. فقال: يا سعد، سعد بَني وُهَيْب؛ لا يغرّنك مِن الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله؛ فإنّ الله عزّ وجلّ لا يمحُو السيّىء بالسيّىء؛ ولكنّه يمحُو السيّىء بالحسن؛ فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلاّ طاعته؛ فالنَّاس شريفُهم ووضيعهم في ذات الله سواءٌ؛ الله ربُّهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويُدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمرَ الَّذي رأيت النبيّ ﷺ عليه منذ بُعِث إلى أن فارقنا فالزمْهُ فإنَّه الأمر. هذه عظتي إيَّاك إن تركتها ورَغبت عنها حَبِطَ عَمَلُك؛ وكنت من الخاسرين.

ولَمَّا أراد أن يسرّحه دعاه، فقال: إني قد ولَّيتُك حرب العراق فاحفظ وصِيَّتي فإنّك تقدِم على أمر شديد

كريه لا يخلّص منه إلاّ الحقُّ، فعوّد نفسك ومَن معك الخير، واستفتح به. وأعلم أنّ لكل عادة عَتاداً، فعتاد الخير الصبر؛ فالصبر على ما أصابك أو نابك؛ يجتمع لك خشية الله. واعلم أنّ خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته؛ وإنّما أطاعه مَن أطاعه ببغض الدنيا وحبّ الآخرة، وعصاه مَن عصاه بحبّ الدنيا وبغض الآخرة؛ وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً؛ منها السرّ، ومنها العلانية؛ فأمّا العلانية فأنْ يكون حامدُه وذامّه في الحقّ سواءً، وأما السرّ فيعرف بظهور الحِكْمة من قلبه على لسانه، وبمحبّة النَّاس؛ فلا تزهد في التحبّب فإنّ النبيّين قد سألوا محبَّتهم؛ وإن الله إذا أحبّ عبداً حبّبه؛ وإذا أبغض عبداً بغّضه. فاعتبرْ منزلتَك عند الله تعالى بمنزلتِك عند الناس، ممّن يشرع معك في أمرك. ثم سرّحه فيمن اجتمع إليه بالمدينة من نفير المسلمين. فخرج سعد بن أبي وقّاص من المدينة قاصداً العراق في أربعة آلاف؛ ثلاثة ممّن قدِم عليه من اليَمَن والسَّراة؛ وعلى أهل السَّرَوات حُمَيْضة بن النّعمان بن حُميضة البارقيّ؛ وهم بارِقٌ وألْمَعُ وغامِدٌ وسائر إخوتهم؛ في سبعمائة من أهل السَّراة، وأهلُ اليمن ألفان وثلاثمائة؛ منهم النَّخع بن عمرو، وجميعهم يومئذ أربعة آلاف؛ مقاتلتهم وذراريُّهم ونساؤهم؛ وأتاهم عمر في عسكرهم؛ فأرادهم جميعاً على العِراق، فأبوْا إلاّ الشَّأم، وأبى إلاّ العراق، فسمح نصفُهم فأمضاهم نحو العراق، وأمضى النّصف الآخر نحو الشَّأم.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سَيْف، عن حنَش النَّخَعيّ، عن أبيه وغيره منهم، أنّ عمر أتاهم في عسكرهم؛ فقال: إنّ الشَّرف فيكم يا معشر النَّخع لمتربِّع، سيروا مع سعد. فنـزعوا إلى الشـأم، وأبى إلاّ العِراق، وأبوْا إلاّ الشأم؛ فسرّح نصفَهم إلى الشأم ونصفَهم إلى العراق.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمستنير وحَنَش؛ قالوا: وكان فيهم من حَضْرَمَوْت والصَّدِف ستّمائة؛ عليهم شَدّاد بن ضَمعَج، وكان فيهم ألف وثلاثمائة من مَذْحج، على ثلاثة رؤساء: عمرو بن مَعْدِ يكَرِبَ على بني منَبّه، وأبو سَبْرة بن ذؤيْب على جُعْفيّ ومَن في حِلف جُعْفِيّ من إخوة جَزْء وزُبَيْد وأنَس الله ومَن لَفَّهم، ويزيد بن الحارث الصّدائيّ على صُداء وجَنْب ومُسْلِية في ثلاثمائة؛ هؤلاء شهدوا من مذحِج فيمن خرج من المدينة مَخْرَج سعد منها، وخرج معه من قيس عَيْلاَن ألفٌ عليهم بِشر بن عبدالله الهلاليّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عُبيدة، عن إبراهيم، قال: خرج أهل القادسيَّة من المدينة، وكانوا أربعة آلاف؛ ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن وألفٌ من سائر الناس.

كتب إليّ السريّ؛ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وسهل، عن القاسم، قالوا: وشيَّعهم عمر من صِرار إلى الأعوص، ثم قام في الناس خطيباً، فقال: إنّ الله تعالى إنّما ضربَ لكم الأمثال، وصرّف لكم القول، ليحيي به القلوب؛ فإنّ القلوب ميّتة في صدورها حتى يحييها الله؛ مَن علم شيئاً فلينتفع به؛ وإن للعدل أمارات وتباشير؛ فأما الأمارات فالحياء والسَّخاء والهَيْن واللَّيْن، وأما التَّباشير فالرّحمة؛ وقد جعل الله لكلّ أمر باباً، ويسَّر لكلّ باب مفتاحاً، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد. والاعتبار ذكرُ الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزّهدُ أخذُ الحقّ من كلّ أحد قِبَله حقٌّ، وتأديةُ الحقّ إلى كلّ أحد له حقٌ. ولا تصانع في ذلك أحداً، واكتَفِ بما يكفيك من الكَفاف؛ فإنّ مَن لم يكفه الكفاف لم يُغنه شيء. إنّي بينكم وبين الله؛ وليس بيني وبينه أحدٌ؛ وإنّ الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فأنهُوا شكاتكم إلينَا؛ فمن لم يستطع فإلى من

يبلّغُناها نأخذ له الحقّ غير متعتَع . وأمر سعداً بالسّيْر، وقال : إذا انتهيتَ إلى زَرود فانزِل بها ؛ وتفرّقوا فيها حولها، واندب مَن حولك منهم، وانتخبْ أهلَ النجدة والرأي والقوّة والعُدّة.

كتب إليّ السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن سُوقة، عن رجل، قال : مرّت السَّكون مع أوّلِ كِنْدة مع حُصَيْن بن نُمير السَّكونيّ ومعاوية بن حُدَيج في أربعمائة ؛ فاعترضهم ؛ فإذا فيهم فِتْية دُلْم سِباط مع معاوية بن حُدَيج، فأعرض عنهم، ثم أعرض، ثم أعرض؛ حتى قيل له : مالك ولهؤلاء! قال : إني عنهم لمتردّد، وما مرّ بي قومٌ من العرب أكره إليَّ منهم. ثم أمضاهم، فكان بعدُ يُكثر أن يتذكّرهم بالكراهيَة، وتعجَّب الناس من رأي عمر. وكان منهم رجل يقال له سودان بن حُمْران، قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وإذا منهم حليف لهم يقال له خالد بن مُلْجَم، قتلَ عليّ بن أبي طالب رحمه الله ؛ وإذا منهم معاوية بن حُدَيج ؛ فنهض في قوم منهم يتبع قَتَلة عثمان يقتلهم ؛ وإذا منهم قوم يَقْرُون قَتَلَة عثمان.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمَّد وطلحة، عن ماهان، وزياد بإسناده، قالوا : وأمدّ عمر سعداً بعد خروجه بألفَيْ يمانيّ وألفي نجديّ مُؤْدٍ من غَطَفان وسائر قَيْس، فقدِم سعد زَرُودَ في أوّل الشتاء، فنزلها وتفرّقت الجنود فيها حولَها من أمواه بني تميم وأسد، وانتظر اجتماع الناس، وأمْر عمر، وانتخب من بني تميم والرِّباب أربعة آلاف ؛ ثلاثة آلاف تميميّ وألف رِبيّ ؛ وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا على حدّ أرضهم بين الحَزْن والبَسيطة، فأقاموا هنالك بين سَعْد بن أبي وقّاص وبين المثنَّى بن حارثة، وكان المثنّى في ثمانية آلاف مِنْ ربيعة بستة آلاف من بكر بن وائل، وألفان من سائر ربيعة ؛ أربعة آلاف ممّن كان انتخب بعد فصول خالد، وأربعة آلاف كانوا معه ممَّن بقيَ يوم الجسر. وكان معه من أهل اليمن ألفان من بَجِيلة، وألفان من قُضاعة وطيِّىء ممَّن انتُخبوا إلى ما كان قبل ذلك، على طيىء عديّ بن حاتم، وعلى قُضاعة عمرو بن وَبَرة، وعلى بَجِيلة جرير بن عبدالله ؛ فبينا النَّاس كذلك ؛ سعد يرجو أن يقدم عليه المثنّى، والمثنَّى يرجو أن يقدَم عليه سعد، مات المثنَى من جِراحته التي كان جُرِحها يوم الجِسْر، انتقضت به ؛ فاستخلف المثنَّى على النَّاس بشير بن الخَصاصيَّة، وسعد يومئذ بزَرُود، ومع بشير يومئذ وجوهُ أهل العراق، ومع سعد وفود أهل العراق الّذين كانوا قدموا على عمر، منهم فُرات بن حيَّان العِجْليّ وعتيبة، فردّهم مع سعد.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد بإسناده، وزياد عن ماهان، قالا : فمن أجلِ ذلك اختلف النَّاس في عددِ أهل القادسيَّة، فمَن قال : أربعة آلاف فلمخرجهم مع سَعْد من المدينة، ومَن قال : ثمانية آلاف فلاجتماعهم بَزرُود، ومَنْ قال : تسعة آلاف فللحاق القيسيِّين، ومن قال : اثنا عشر ألفاً فلدفوف بني أسَد من فروع الحَزْن بثلاثة آلاف. وأمر سعداً بالإقدام، فأقدم ونهض إلى العراق وجموع الناس بشَراف، وقدم عليه مع قدومه شَراف الأشْعثُ بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن ؛ فجميع مَن شهد القادسيَّة بضعة وثلاثون ألفاً، وجميع من قُسم عليه فيْء القادسيَّة نحو من ثلاثين ألفاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الملك بن عمير، عن زياد، عن جرير، قال : كان أهلُ اليمن ينزعون إلى الشَّأم ؛ وكانت مُضَر تنزع إلى العراق، فقال عمر : أرحامكم أرسخ من أرحامنا! ما بال مُضر لا تذكر أسلافها من أهل الشأم!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي سعد بن المرزبان، عمَّن حدّثه، عن محمد بن

حذيفة بن اليَمان، قال: لم يكن أحدٌ من العرب أجرأ على فارس من ربيعة، فكان المسلمون يسمُّونهم ربيعة الأسد إلى ربيعة الفَرَس، وكانت العرب في جاهليَّتها تسمّي فارس الأسد، والرّوم الأسد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة، عن ماهان، قال: قال عمر: والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب؛ فلم يَدَعْ رئيساً، ولاذا رأي، ولاذا شَرف، ولا ذا سِطة، ولا خطيباً؛ ولا شاعراً؛ إلّا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: كان عمر قد كتب إلى سعد مرتحلَه من زَرُود؛ أن ابعث إلى فَرْج الهند رجلاً ترضاه يكون بحياله، ويكون ردءاً لك من شيء إن أتاك من تلك التّخوم؛ فبعث المغيرة بن شعبةفي خمسمائة؛ فكان بحيال الأبُلَّة من أرض العرب؛ فأتى غُضَيًّا، ونـزل على جرير؛ وهو فيما هنالك يومئذ. فلمّا نزلَ سعد بشَراف، كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غضيّ إلى الجَبّانة، فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فعشّر النَّاس وعرّف عليهم، وأمّرْ على أجنادهم، وعبّهم، ومُرْ رؤساء المسلمين فليَشْهَدوا، وقدّرْهم وهم شهود؛ ثم وجّههم إلى أصحابهم، وواعدْهم القادسيَّة؛ واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خَيْله؛ واكتب إليّ بالذي يستقرّ عليه أمرهم.

فبعث سعد إلى المغيرة؛ فانضمّ إليه وإلى رؤساء القبائل، فأتوْه، فقدّر الناس وعبَّاهم بشَراف، وأمَّر أمراء الأجناد، وعرّف العُرَفاء؛ فعرّف على كلّ عشرة رجلا، كما كانت العِرافات أزمانَ النبيّ ﷺ، وكذلك كانت إلى أن فُرِض العطاء، وأمّر على الرّايات رجالاً من أهل السابقة، وعشّر الناس، وأمّر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام، وولّى الحروبَ رجالا، فولّى على مقدّماتها ومجنَّباتها وساقتها ومجرّداتها وطلائعها ورَجْلها ورُكْبانها، فلم يفصل إلّا على تعبيَة، ولم يفصل منها إلّا بكتاب عمر وإذنه؛ فأمَّا أمراء التعبيـة، فاستعمـل زُهرة بن عبدالله بن قتادة بن الحَوِيـة بن مَرْثَـد بن معاويـة بن معن بن مالـك بن أرثم بن جُشَم بن الحارث الأعرج؛ وكان ملك هَجَر قد سَوّدَه في الجاهليّة، ووفَّدَه على النبيّ ﷺ، فقدّمه، ففصل بالمقدّمات بعد الإذن من شَراف؛ حتى انتهى إلى العُذَيْب، واستعمل على الميمنة عبدالله بن المُعْتَمّ، وكان من أصحاب النبيّ ﷺ؛ وكان أحدَ التّسعة الذين قدِموا على النبيّ ﷺ، فتمّمهم طلحة بن عبيدالله عشرة؛ فكانوا عِرافة، واستعمل على الميسرة شُرحبيل بن السِّمْط بن شُرَحبيل الكِنْديَّ ـ وكان غلاماً شابًّا، وكان قد قاتل أهل الرّدّة، ووفَّى اللّهَ، فعُرِف ذلك له، وكان قد غلب الأشعث على الشّرف فيما بين المدينة؛ إلى أن اختُطّت الكُوفة وكان أبوه ممّن تقدّم إلى الشأم مع أبي عبيدة بن الجراح ـ وجعل خليفته خالد بن عُرْفطة، وجعل عاصم بن عمـرو التميميّ ثم العمريّ على الساقة، وسواد بن مالك التميميّ على الطلائع، وسلْمان بن ربيعة الباهليّ على المجرّدة، وعلى الرّجْل، حَمال بن مالك الأسديّ، وعلى الرّكبان عبدالله بن ذي السهمين الخَثْعَميّ، فكان أمراء التّعبية يَلُون الأمير، والذين يلُون أمراء الأعشار، والذين يلُون أمراء الأعشار أصحاب الرايات، والذين يلُون أصحاب الرايات والقوّاد رؤوس القبائل، وقالوا جميعاً: لا يستعين أبو بكر في الرّدّة ولا على الأعاجم بمرتدّ، واستنفرهم عمر ولم يولّ منهم أحداً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مُجالد وعمرو بإسنادهما، وسعيد بن المرزبان، قالوا: بعث عمر الأطبَّة، وجعل على قضاء النَّاس عبدَ الرحمن بن ربيعة الباهليّ ذا النور، وجعل إليه الأقباض وقسمة

الفيء، وجعل داعيتهم ورائدهم سلْمان الفارسيّ.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي عمرو، عن أبي عثمان النَّهْديّ؛ قال: والتّرجمان هلال الهَجَريّ والكاتب زياد بن أبي سفيان. فلمّا فرغ سعد من تعبيته، وعدّ لكلّ شيء من أمره جماعاً ورأساً، كتب بذلك إلى عمر، وكان من أمر سعد فيما بين كتابه إلى عمر بالّذي جمَعَ عليه الناس وبين رجوع جوابه ورحله من شَراف إلى القادسيَّة قدومُ المُعَنَّى بن حارثة وسلْمى بنت خَصَفة التيميَّة؛ تَيْم اللات، إلى سعد بوصيَّة المثنَّى، وكان قد أوصى بها، وأمرهم أن يعجّلوها على سعد بزرود، فلم يفرغوا لذلك وشغلهم عنه قابوس بن قابوس بن المنذر؛ وذلك أن الآزاذمرد بن الآزاذبه بعثه إلى القادسيَّة، وقال له: ادعُ العربَ، فأنت على من أجابك، وكن كما كان آباؤك. فنزل القادسيَّة، وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به مقاربة ووعيداً. فلمّا انتهى إلى المعنَّى خبره، أسْرَى المعنَّى من ذي قار حتى بيَّته، فأنامه ومن معه، ثمّ رجع إلى ذي قار، وخرج منها هو وسَلْمى إلى سعد بوصيَّة المثنَّى بن حارثة ورأيه، فقدموا عليه وهو بشَراف، يذكر فيها أنَّ رأيه لسعد ألّا يقاتل عدوّه وعدوّهم - يعني المسلمين - من أهل فارس؛ إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عُقْر دارهم، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حَجَر من أرض العرب وأدنى مَدَرة من أرض العجم، فإن يُظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم؛ وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلَمَ بسبيلهم، وأجرأ على أرضهم؛ إلى أن يردّ الله الكرّة عليهم.

فلمّا انتهى إلى سعد رأيُ المثنَّى ووصيّته ترحَّم عليه، وأمَّر المعنَّى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيراً، وخطب سَلْمَى فتزَوّجها وبنى بها؛ وكان في الأعشار كلِّها بضعة وسبعون بدْريًّا، وثلاثمائة وبضعة عشر ممَّن كانت له صُحبة، فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممَّن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصّحابة، في جميع أحياء العرب. وقدم على سعد وهو بشراف كتابُ عمر بمثل رأي المثنَّى؛ وقد كتب إلى أبي عُبيدة مع كتاب سعد؛ ففصل كتاباهما إليهما، فأمر أبا عبيدة في كتابه بصرْف أهل العراق وهم ستَّة آلاف، ومَنِ اشتهى أن يلحق بهم؛ وكان كتابه إلى سعد:

أمَّا بعد، فسِرْ من شَراف نحو فارس بمن معك من المسلمين؛ وتوكَّل على الله، واستعِنْ به على أمرك كلِّه؛ واعلم فيما لديك أنَّك تقدِمُ على أمَّة عددهم كثير، وعُدَّتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلدمنيع - وإن كان سهلاً - كَؤود لبحوره وفيوضه ودآدِئه؛ إلّا أن توافقوا غَيْضاً من فَيْض. وإذا لقِيتم القوم أو أحداً منهم فابدأوهم الشدّ والضرب، وإيَّاكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعُنَّكم؛ فإنهم خَدَعة مكَرة؛ أمرُهم غير أمركم؛ إلا أن تجادّوهم، وإذا انتهيت إلى القادسيَّة - والقادسيَّة باب فارس في الجاهليَّة، وهي أجمع تلك الأبواب لمادّتهم، ولما يريدونه من تلك الآصُل؛ وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر، وأنهار ممتنعة - فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحَجَر والمَدَر على حافّات الحجَر وحافّات المدر، والجِراع بينهما؛ ثم الزم مكانك فلا تبرحْه؛ فإنهم إذا أحسُّوك أنغصتَهم ورمَوْك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجْلهم وحدّهم وجِدّهم؛ فإن أنتم صبرتم لعدوّكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة؛ رجوتُ أن تُنصَروا عليهم؛ ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلّا أن يجتمعوا؛ وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجَر في أدباركم؛ فانصرفتم من أدنى مَدَرة من أرضهم إلى أدنى حَجَر من أرضكم؛ ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبَن وبها أجهل؛ حتى يأتيَ الله بالفتح عليهم، ويردّ لكم الكرّة.

وكتب إليه أيضاً باليوم الذي يرتحل فيه من شرَاف: فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحِل بالنَّاس حتى تنزلَ فيما بين عُذَيب الهِجانات وعُذَيب القوادس، وشرِّقْ بالناس وغرِّبْ بهم.

ثم قدم عليه كتاب جواب عمر: أمَّا بعد، فتعاهد قلبك، وحادِثْ جندَك بالموعظة والنِّيّة والحِسْبة، ومَنْ غفل فليحْدثْهما؛ والصبرَ الصبرَ؛ فإنّ المعونة تأتي من الله على قدر النيَّة؛ والأجر على قدر الحِسْبة. والحذَرَ الحذر علَى مَنْ أنت عليه وما أنت بسبيله، واسألوا الله العافية، وأكثِروا من قول: «لا حول ولا قوّة إلا بالله»، واكتب إليّ أينَ بلغك جمعُهم، ومَن رأسهُم الذي يلي مصادمتَكم؛ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلَّةُ عِلْمي بما هجمتم عليه، والذي استقرّ عليه أمرُ عدوّكم؛ فصِفْ لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفةً كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجليّة، وخفِ الله وارجُه، ولا تُدِلّ بشيء. واعلم أنّ الله قد وَعدكم. وتوكّل لهذا الأمر بما لا خُلْف له؛ فاحذرْ أن تَصرفه عنك، ويستبدل بكم غيركم.

فكتب إليه سعد بصفة البلدان: إنّ القادسيّة بين الخندق والعَتيق، وإنّ ما عن يَسار القادسيَّة بحر أخضر في جوف لاحّ إلى الحيرة بين طريقين؛ فأمَّا أحدهما فعلى الظَّهْر، وأمَّا الآخر فعلى شاطىء نهر يُدعَى الحُضُوض؛ يطلع بمَنْ سلكه على ما بين الخَوَرْنَق والحيرة؛ وما عن يمين القادسيَّة إلى الوَلَجَة فيضٌ من فيوض مياههم. وإنَّ جميع من صالح المسلمين من أهل السَّواد قبلي ألْبٌ لأهل فارس قد خَفُّوا لهم، واستعدُّوا لنا. وإنَّ الذي أعدّوا لمصادمتنا رُسْتم في أمثال له منهم؛ فهم يحاولون إنغاضَنا وإقحامنا؛ ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم؛ وأمْرُ الله بعدُ ماضٍ؛ وقضاؤه مسلّم إلى ما قدّر لنا وعلينا؛ فنسأل الله خير القضاء، وخير القَدَر في عافية.

فكتب إليه عمر: قد جاءني كتابك وفهِمتُه، فأقِمْ بمكانك حتى يُنغِض الله لك عدوَّك؛ واعلم أنَّ لها ما بعدها، فإن منحَك الله أدبارَهم فلا تنزعْ عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن؛ فإنه خرابها إن شاء الله.

وجعل عمر يدعُو لسعد خاصّة، ويدعون له معه، وللمسلمين عامة، فقدّم زُهْرةَ سعدٌ حتى عسكر بعُذيب الهجانات، ثم خرج في أثره حتى ينزل على زُهرة بعُذيب الهجانات، وقدّمه، فنزل زهرةُ القادسيَّة بين العتيق والخندق بحيال القنطرة؛ وقُدَيْس يومئذ أسفل منها بميل.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيْف، عن القعقاع بإسناده، قال: وكتب عمر إلى سعد: إنِّي قد أُلقِيَ في رُوعي أنّكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم، فاطّرحوا الشكّ، وآثروا التقيَّة عليه؛ فإنْ لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفَه بإشارة أو بلسان، فكان لا يدري الأعجمي ما كلّمه به، وكان عندهم أماناً، فأجروا ذلك له مجرى الأمان. وإيَّاكم والضَّحِك والوفاءَ الوفاءَ! فإن الخطأ بالوفاء بقيَّة وإن الخطأ بالغدرِ الهلكة، وفيها وهنُكم وقوّة عدوّكم، وذهاب ريحكم، وإقبال ريحهم. واعلموا أني أحذّركم أن تكونوا شَيْناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم.

كتب إليَّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن عبدالله بن مُسلم العُكْليّ والمقدام بن أبي المقدام، عن أبيه، عن كَرِب بن أبي كَرِب العُكْليّ ـ وكان في المقدّمات أيّام القادسيَّة ـ قال: قدّمنَا سعد من شَراف، فنزلنا بعُذيب الهِجانات ثم ارتحل؛ فلما نزل علينا بعُذيب الهجانات وذلك في وجه الصُّبْح خرج زُهرة بن الحَويَّة في المقدّمات، فلما رُفع لنا العُذَيب ـ وكان من مسالحهم ـ استبنَّا على بروجه ناساً، فما نشاءُ أن نرى على برج من بروجه رجلا أو بين شُرْفتين إلاّ رأيناه، وكنا في سَرَعان الخيل، فأمسكنا حتى تلاحق بنا كَثْف ونحن نرى أنّ فيها

خيلا، ثم أقدمنا على العُذَيب، فلمّا دنونا منه، خرج رجل يركضُ نحو القادسيَّة، فانتهينا إليه، فدخلناه فإذا ليس فيه أحد؛ وإذا ذلك الرجل هو الذي كان يتراءى لنا على البُروج وهو بين الشُّرف مكيدة، ثم انطلق بخبرنا، فطلبناه فأعجزَنا، وسمع بذلك زُهرة فاتَّبعنَا، فلحق بنا وخلَفَنا واتَّبعه. وقال: إن أفلت الرَّبِيءُ أتاهم الخبر. فلحقه بالخندق فطعنه فجدَّله فيه، وكان أهل القادسيَّة يتعجّبون من شجاعة ذلك الرّجل، ومن علمه بالحرب، لم يُرَ عين قوم قطُّ أثبتَ ولا أربط جأشاً من ذلك الفارسيّ، لولا بُعْدُ غايته لم يلحق به، ولم يُصبه زُهرة، ووجد المسلمون في العُذَيب رماحاً ونُشَّاباً وأسفاطاً من جلود وغيرها، انتفع بها المسلمون. ثم بثّ الغارات، وسرّحهم في جوف الليل، وأمرهم بالغارة على الحيرة، وأمَّر عليهم بُكَيْر بن عبدالله الليثي - وكان فيها الشَّمَّاخ الشاعر القيسيّ في ثلاثين معروفين بالنَّجدة والبأس - فسرَوْا حتَّى جازوا السَّيْلحين، وقطعوا جِسرها يريدون الحِيرة، فسمعوا جَلَبة وأزْفَلة، فأحجموا عن الإقدام، وأقاموا كمينا حتى يتَبيَّنوا، فما زالوا كذلك حتى جازُوا بهم، فإذا خيول تقدُم تلك الغَوْغاء، فتركوها فنفذت الطريق إلى الصِّنِّين، وإذا هم لم يشعروا بهم؛ وإنما ينتظرون ذلك العَيْنَ لا يريدونهم، ولا يأبهون لهم، إنَّما همَّتُهم الصّنّين، وإذا أخت آزاذ مَرْدَ بن آزاذ به مَرْزُبان الحيرة تُزَفُّ إلى صاحب الصّنّين - وكان من أشراف العجَم - فسار معها من يبلّغها مخافة ما هو دون الذي لقوا؛ فلمّا انقطعت الخيل عن الزوافّ، والمسلمون كمينٌ في النخل، وجازت بهم الأثقال، حمل بُكَيْر على شيرزاذ بن آزاذ به، وهو بينها وبين الخيل، فقصَم صُلْبَه، وطارت الخيل على وجوهها، وأخذوا الأثقال وابنة آزاذ به في ثلاثين امرأة من الدّهاقين ومائة من التوابع، ومعهم مالا يُدرَى قيمته، ثم عاج واستاق ذلك، فصبَّح سعداً بعُذَيْبِ الهِجَانات بما أفاء الله على المسلمين، فكبَّروا تكبيرة شديدة. فقال سعد: أقسم بالله لقد كبَّرتم تكبيرة قوم عرفتُ فيهم العزّ، فقسم ذلك سعد على المسلمين فالخمس نفله، وأعطى المجاهدين بقيّته، فوقع منهم موقعاً، ووضع سعد بالعُذَيب خيلا تَحُوط الحريم، وانضمّ إليها حاطة كلّ حريم، وأمَّر عليهم غالبَ بن عبدالله الليثيّ، ونزل سعد القادسيَّة، فنزل بقُدَيْس، ونزل زُهرة بحيال قنطرة العتيق في موضع القادسيَّة اليوم؛ وبعث بخبر سرّية بُكير، وبنزوله قُديساً، فأقام بها شهراً، ثم كتب إلى عمر: لم يوجّه القوم إلينا أحداً، ولم يُسْنِدوا حرباً إلى أحد علمناه، ومَتى ما يبلغنا ذلك نكتب به؛ واستنصر الله، فإنَّا بمنحاة دنيا عريضة؛ دونها بأس شديد؛ قد تقدّم إلينا في الدعاء إليهم، فقال: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾(١).

وبعث سعد في مقامه ذلك إلى أسفل الفُرات عاصم بن عمرو فسار حتَّى أتى مَيْسان، فطلب غنماً أو بقراً فلم يقدر عليها، وتحصّن منه مَن في الأفدان، ووغَلُوا في الآجام، ووَغَل حتَّى أصاب رجلا على طَفِّ أجَمة! فسأله واستدلَّه على البقر والغنم، فحلف له وقال: لا أعلم؛ وإذَا هو راعي ما في تلك الأجَمة، فصاح منها ثور كذب والله وها نحن أولاء؛ فدخل فاستاق الثيران وأتى بها العسكر، فقسم ذلك سعد على الناس فأخصبوا أياماً؛ وبلغ ذلك الحجَّاج في زمانه، فأرسل إلى نفر ممَّن شهدها أحدهم نذير بن عمرو والوليد بن عبد شمس وزاهر، فسألهم فقالوا: نعم، نحن سمعنا ذلك، ورأيناه واستقناها، فقال: كذبتم! فقالوا: كذلك؛ إن كنت شهدتها وغِبْنا عنها، فقال: صدقتم، فما كان الناس يقولون في ذلك؟ قالوا: آيةُ تبشير يُستدلّ بها على رضا الله، وفتح عدوّنا؛ فقال: والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء، قالوا: والله ما ندري ما أجنّت قلوبهم؛ فأمّا ما

---

(١) سورة الفتح: ١٦.

رأينا فإنّا لم نرَ قوماً قطُّ أزهدَ في دنيا منهم، ولا أشدَّ لها بُغْضاً؛ ما اعتدَّ على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث؛ لا بجُبْن ولا بغدر ولا بغُلُول؛ وكان هذا اليوم يوم الأباقِر؛وبثّ الغارات بين كَسْكَر والأنبار، فحوَوْا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زماناً، وبعث سعد عيوناً إلى أهل الحيرة وإلى صَلُوبا، ليعلَموا له خبر أهل فارس؛ فرجعوا إليه بالخبر؛ بأن الملك قد ولّى رُستم بن الفَرّخزاذ الأرْمَنيّ حرْبَه، وأمره بالعسكرة. فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: لا يكرُبنَّك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به؛ واستعن بالله وتوكّل عليه، وابعث إليه رجالا من أهل المنظَرة والرأي والجلَد يدعونه، فإنّ الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم، وفَلْجاً عليهم؛ واكتب إليَّ في كلّ يوم. ولمّا عسكر رُسْتم بساباط كتبوا بذلك إلى عمر.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي ضَمْرة، عن ابن سيرين، وإسماعيل بن أبي خالد عن قَيْس بن أبي حازم، قالا: لمّا بلغ سعداً فصولُ رستم إلى ساباط، أقام في عسكره لاجتماع الناس؛ فأمّا إسماعيل فإنه قال: كتب إليه سعد أنّ رستم قد ضرب عسكره بساباط دون المدائن وزحف إلينا؛ وأمّا أبو ضَمْرة فإنه قال: كتب إليه أنّ رستم قد عسكر بسَاباط، وزحف إلينا بالخيول والفيول وزُهاء فارس، وليس شيء أهمَّ إليَّ ولا أنا له أكثر ذكراً منّي لما أحببت أن أكون عليه؛ ونستعين بالله، ونتوكّل عليه، وقد بعثت فلاناً وفلاناً وهم ما وصفت.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو والمجالد بإسنادهما، وسعيد بن المرزُبان؛ أن سعد بن أبي وقّاص حين جاءه أمرُ عمر فيهم، جمع نفراً عليهم نِجار، ولهم آراء، ونفراً لهم منظر؛ وعليهم مهابة ولهم آراء؛ فأمّا الذين عليهم نِجار ولهم آراء ولهم اجتهاد فالنعمان بن مقرّن وبُسْر بن أبي رُهْم وحَملة بن جُوَيّة الكِنانيّ وحنظلة بن الربيع التميميّ وفُرات بن حيّان العِجْليّ وعديّ بن سُهيل والمغيرة بن النَّبّاش بن حبيب؛ وأما مَنْ لهم منظر لأجسامهم؛ وعليهم مَهابة ولهم آراء؛ فعُطارد بن حاجب والأشعث بن قيس والحارث بن حسّان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمعنَّى بن حارثة؛ فبعثهم دُعاةً إلى الملك.

حدثني محمد بن عبدالله بن صَفْوان الثّقفيّ، قال: حدّثنا أميَّة بن خالد، قال: حدّثنا أبو عوانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، قال: قال أبو وائل: جاء سعد حتى نزل القادسيَّة، ومعه النَّاس، قال: لا أدري لعلَّنا لا نزيد على سبعة آلاف أو نحو من ذلك، والمشركين ثلاثون ألفاً أو نحو ذلك. فقالوا لنا: لا يدي لكم ولا قوّة ولا سلاح، ما جاء بكم؟ ارجعوا، قال: قلنا: لا نرجع؛ وما نحن براجعين، فكانوا يضحكون من نَبْلنا، ويقولون: «دُوك دوك»، ويشبّهونها بالمغازل. قال: فلما أبينا عليهم أن نرجع، قالوا: ابعثوا إلينا رجلاً منكم، عاقلاً يبينّ لنا ما جاء بكم؛ فقال المغيرة بن شعبة: أنا، فَعَبَر إليهم، فقعد مع رستم على السرير، فنخَروا وصاحوا، فقال: إنَّ هذا لم يزدني رفعة، ولم ينقص صاحبكم، قال رستم: صدقت، ما جاء بكم؟ قال: إنَّا كنّا قوماً في شرٍّ وضلالة؛ فبعث الله فينا نبيًّا، فهدانا الله به ورزقنا على يديه؛ فكان ممّا رزقنا حَبَّة زُعمت تنْبتُ بهذا البلد؛ فلما أكلناها وأطعمناها أهلينا قالوا: لا صبر لنا عن هذه، أنزلونا هذه الأرضَ حتى نأكل من هذه الحبَّة، فقال رستم: إذاً نقتُلكم، فقال: إن قتلتمونا دَخلْنا الجنَّة، وإن قتلناكم دخلتم النار؛ أو أدّيتم الجزْية. قال: فلمّا قال: أدّيتم الجزية، نخروا وصاحوا، وقالوا: لا صلحَ بيننا وبينكم، فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم؟

فقال رستم: بل نعبُر إليكم، فاستأخَر المسلمون حتى عَبَر منهم مَن عبر، فحملوا عليهم فهزموهم.

قال حصين: فحدّثني رجل منّا يقال له عُبيد بن جَحْش السُّلميّ، قال: لقد رأيتُنا وإنّا لنَطَأ على ظهور الرجال، ما مسَّهم سلاح، قتل بعضهم بعضاً، ولقد رأيتُنا أصبْنا جِراباً من كافور، فحسِبْناه ملحاً لا نشكّ أنه مِلْح؛ فطبخنا لحماً، فجعلنا نُلقيه في القِدْر فلا نجد له طعماً، فمرّ بنا عِبـاديّ معه قميص فقـال: يا معشرَ المُعربين، لا تفسِدُوا طعامَكم؛ فإنَّ ملح هذه الأرض لا خير فيه، هل لكم أن تأخذوا هذا القميصَ به؟ فأخذناه منه، وأعطيناه منّا رجلا يلبسه، فجعلنا نُطيف به ونعجب منه، فلمّا عرفنا الثياب، إذا ثمن ذلك القميص درهمان. قال :ولقد رأيتُني أقربُ إلى رجل عليه سِواران من ذهب، وسلاحُه، فجاء فما كلّمته حتى ضربت عنقه.

قال: فانهزموا حتى انتهوا إلى الصَّراة؛ فطلبناهم فانهزموا حتى انتهوا إلى المدائن؛ فكان المسلمون بكُوثَى وكان مسلحة المشركين بدَيْر المسلاخ، فأتاهم المسلمون فالتقوْا، فهُزِم المشركون حتى نزلوا بشاطىء دِجلة، فمنهم مَن عبر من كَلْواذَى، ومنهم مَن عبَر من أسفل المدائن، فحصروهم حتى ما يجدون طعاماً يأكلونه، إلّا كلابَهم وسنانيرهم. فخرجوا ليلاً، فلحِقوا بجَلولاء، فأتاهم المسلمون؛ وعلى مقدّمة سعد هاشم بن عُتْبة، وموضع الوقعة التي ألحقهم منها فريد. قال أبو وائل: فبعث عمر بن الخطاب حذيفةَ بن اليمان على أهـل الكوفة، ومُجاشع بن مسعود على أهل البصرة.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشعبيّ، وطلحة عن المغيرة، قالوا: فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائنَ احتجاجاً ودُعاةً ليزدَجِرد، فطوَوا رستم، حتى انتهوْا إلى باب يَزْدَجرد، فوقفوا على خيولٍ عُرُوات، معهم جَنائب، وكلّها صهّال، فاستأذنوا فحبسوا، وبعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضِه يستشيرهم فيما يصنع بهم، ويقوله لهم، وسمع بهم الناس فَحَضَرُوهم ينظرون إليهم، وعليهم المقطَّعات والبُرود، وفي أيديهم سِياط دقاق، وفي أرجلهم النّعال. فلما اجتمع رأيُهم أذن لهم فأدخِلوا عليه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة، عن بنت كيسان الضَّبِّيّة، عن بعض سبايا القادسيَّة ممَّن حسن إسلامه، وحضر هذا اليوم الذي قدم فيه وفود العرب. قال: وثاب إليهم النّاس ينظرون إليهم؛ فلم أرَ عشرة قطّ يعدلون في الهيئة بألف غيرَهم، وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضا. وجعل أهلُ فارس يسوءهم ما يروْن من حالهم وحال خيلهم؛ فلمّا دخلوا على يَزْدَجرد أمرهم بالجلوس؛ وكان سيّىء الأدب، فكان أوّل شيء دار بينه وبينهم أن أمر التّرجمان بينه وبينهم فقال: سَلْهم ما يسمّون هذه الأردية؟ فسأل النُّعمان ـ وكان على الوفد: ما تُسمِّي رداءكَ؟ قال: البُرْد، فتطيَّر وقال: «برْدجهان»، وتغيَّرت ألوان فارس وشقَّ ذلك عليهم. ثم قال: سلهم عن أحذيتهم، فقال: ما تسمّون هذه الأحذية؟ فقال: النّعال، فعاد لمثلها، فقال: «ناله ناله» في أرضنا، ثم سأله عن الّذي في يده فقال: سوط، والسوط بالفارسيّة الحريق، فقال: أحرقوا فارس أحرقهم الله! وكان تطَيُّره على أهل فارس، وكانوا يجدون من كلامه.

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيْف، عن عمرو، عن الشعبيّ، بمثله وزاد: ثمّ قال الملك: سلْهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غَزْونا والوَلوع ببلادنا؟ أمِنْ أجلِ أنَّا أجممناكم، وتشاغلنا عنكم، اجترأتم علينا! فقال لهم النعمان بن مقرّن: إن شئتم أجبتُ عنكم؛ ومن شاء آثرته. فقالوا: بل تكلّم، وقالوا للملك: كلامُ

هذا الرجل كلامُنا. فتكلّم النّعمان، فقال: إنَّ الله رحِمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلّنا على الخير ويأمُرنا به، ويعرّفنا الشرّ وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خيرَ الدّنيا والآخرة؛ فلم يدعُ إلى ذلك قبيلةً إلاّ صاروا فرقتين؛ فرقة تُقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دِينه إلاّ الخواصّ. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينبِذ إلى مَن خالفه من العرب؛ وبدأ بهم وفعل؛ فدخلوا معه جميعاً على وجْهين: مكرَه عليه فاغتبط؛ وطائع أتاه فازداد؛ فعرفنا جميعاً فضلَ ما جاء به على الّذي كنّا عليه من العداوة والضيق؛ ثم أمرنا أن نبدأ بمَن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعُوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسَن وقبَّح القبيح كلَّه، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرّ هو أهون من آخرَ شرٍّ منه الجِزاء؛ فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خَلّفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم؛ وإن اتّقيتمونا بالجِزاء قَبِلْنا ومنعناكم؛ وإلاّ قاتلناكم.

قال: فتكلَّم يَزْدَجرد، فقال: إني لا أعلم في الأرْض أمَّة كانت أشقى ولا أقلّ عدداً ولا أسوأ ذات بينٍ منكم؛ قد كنّا نوكّل بكم قُرَى الضواحي فيكفوناكُم. لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تَقُوموا لهم، فإن كان عددٌ لحق فلا يغرَّنَّكم منَّا، وإن كان الجَهد دعاكم فرضْنا لكم قوتاً إلى خِصْبكم؛ وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملَّكنا عليكم مَلِكاً يرفُق بكم.

فأسكَت القوم. فقام المغيرة بن زُرارة بن النبَّاش الأسَيْديُّ، فقال: أيُّها الملك، إنَّ هؤلاء رؤوس العرب ووجوهُهم؛ وهم أشراف يستحيُون من الأشراف؛ وإنّما يكرم الأشرافَ الأشرافُ، ويعظّم حقوق الأشراف الأشراف، ويفخّم الأشرافَ الأشرافُ؛ وليس كلّ ما أرسِلوا به جمعوه لك، ولا كلّ ما تكلّمتَ به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسُن بمثلهم إلاّ ذلك؛ فجاوِبْني لأكون الذي أبلّغك، ويشهدون على ذلك؛ إنَّك قد وصفتَنا صفةً لم تكن بها عالماً، فأمَّا ما ذكرت من سُوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منَّا، وأمَّا جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنّا نأكل الخنافس والجِعلان والعقارب والحيَّات؛ فنرى ذلك طعامنا. وأمَّا المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلاَّ ما غزلْنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم؛ ديننا أن يقتل بعضُنا بعضاً، ويُغيرَ بعضُنا على بعض، وإن كان أحدنا ليَدفن ابنَتَه وهي حيَّة كراهيةَ أن تأكل من طعامنا؛ فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك؛ فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبَه، ونعرف وجهه ومولده؛ فأرضُه خير أرضنا، وحسبُه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا؛ وقبيلته خير قبائلنا؛ وهو بنفسه كان خيرَنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمَنا؛ فدعانا إلى أمر فلم يُجبه أحد قبل ترْبٍ كان له وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا: وصَدق وكَذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلاّ كان، فقذفَ الله في قلوبنا التّصديق له واتّباعه؛ فصار فيما بيننا وبين ربّ العالمين؛ فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمرُ الله؛ فقال لنا: إنَّ ربَّكم يقول: إنّي أنا اللّهُ وحدي لا شَريك لي، كنتُ إذْ لم يكن شيء وكلّ شيء هالك إلاّ وجهي، وأنا خلقتُ كلّ شيء، وإليّ يصير كلّ شيء، وإنَّ رحمتي أدركتكمْ فبعثت إليكم هذا الرّجل لأدُلَّكُمْ عَلَى السَّبيل الَّتي بها أنْجيكمْ بعد الموت من عذابي، ولأحِلَّكم داري؛ دار السَّلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحقّ من عند الحقّ، وقال: مَنْ تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم، ومَنْ أبَى فاعرِضوا عليه الجزية، ثم امنعوه ممّا تمنعون منه أنفسَكم، ومَنْ أبى فقاتلوه، فأنا الحكَم بينكم. فمن قُتل منكم أدخلته جنَّتي، ومَنْ بقيَ منكم أعقبته النَّصر على من ناوأه؛ فاخترْ إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر؛ وإن شئت فالسيف، أو تُسلم فتُنجي نفسك. فقال: أتستقبلني بمثل هذا!

فقال: ما استقبلتُ إلاّ مَنْ كلَّمني، ولو كلَّمني غيرُك لم أستقبِلك به. فقال: لولا أنَّ الرسل لا تُقْتَل لقتلتُكم؛ لا شيء لكم عندي، وقال: ائتوني بوقْر من تراب، فقال: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن؛ ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنّي مرسِل إليكم رستَم حتى يُدفيَكم ويدفيَه في خندق القادسيَّة، وينكل به وبكم من بعد، ثـم أورِده بلادكم، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشدّ ممَّا نالكم من سابور.

ثم قال: مَنْ أشرفُكم؟ فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو ـ وافتات ليأخذ التراب: أنا أشرفُهم، أنا سيِّد هؤلاء فحمّلْنيه، فقال: أكذاك؟ قالوا: نعم، فحمّله على عنقه، فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلَته فحمله عليها؛ ثم انجذب في السَّير، فأتوْا به سعداً وسبقهم عاصم فمرّ بباب قُدَيس فطواه، فقال: بشِّروا الأميرَ بالظَّفر، ظفرنا إن شاء الله. ثم مضى حتَّى جعل التراب في الحِجْر، ثم رجع فدخل على سعد، فأخبره الخبر فقال: أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليدَ ملْكِهم.

وجاء أصحابه وجعلوا يزدادون في كلّ يوم قوّة، ويزداد عدوّهم في كلّ يـوم وَهَناً، واشتـدّ ما صنـع المسلمون، وصنع الملك من قبول التراب على جلساء الملك، وراح رستم من ساباط إلى الملك يسأله عمَّا كان من أمره وأمرهم، وكيف رآهم، فقال الملك: ما كنتُ أرى أنَّ في العرب مثل رجال رأيتهم دخلُوا عليَّ وما أنتم بأعقلَ منهم، ولا أحسنَ جواباً منهم؛ وأخبره بكلام متكلِّمهم، وقال: لقد صَدَقني القوم، لقد وعِد القوم أمراً ليُدركُنَّه أو ليموتُنّ عليه، على أني قد وجدت أفضلَهم أحمقَهم، لمَّا ذكروا الجزية أعطيتُه تراباً فحملَه على رأسه، فخرج به، ولو شاء اتَّقى بغيره؛ وأنا لا أعلم.

قال: أيّها الملك، إنه لأعقلُهم، وتطيَّر إلى ذلك، وأبصرها دون أصحابه.

وخرج رستم من عنده كئيباً غضبانَ ـ وكان منجِّماً كاهناً ـ فبعث في أثَر الوفد، وقال لثقته: إن أدركَهم الرّسول تلافَينا أرضَنا، وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم وأبناءكم. فرجع الرّسول من الحِيرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضِكم غيرذي شكّ، ما كان من شأن ابن الحجَّامة المُلك! ذهب القوم بمفاتيح أرضنا! فكان ذلك مما زاد الله به فارس غيظاً. وأغاروا بعد ما خرج الوفد إلى يَزْدَجِرد، إلى أن جاءوا إلى صيَّادين قد اصطادوا سمكاً، وسار سواد بن مالك التميميّ إلى النّجاف والفِراض إلى جنبها، فاستاق ثلاثمائة دابَّة من بين بغل وحمار وثور، فأوقروها سمكاً، واستاقوها، فصبَّحوا العسكر، فقسم السَّمك بين النَّاس سعد، وقسمَ الدوابّ، ونفَّل الخمس إلّا ما رُدَّ على المجاهدين منه، وأسهم على السَّبْي؛ وهذا يوم الحِيتان، وقد كان الآزاذمَرد بن الآزاذ به خرج في الطَّلب، فعَطَف عليه سوادٌ وفوارس معه، فقاتلهم على قنطرة السَّيْلَحين؛ حتى عرفوا أنّ الغنيمة قد نجت، ثم اتَّبعوها فأبلغوها المسلمين، وكانوا إنَّما يقرَمون إلى اللحم؛ فأمَّا الحنطة والشعير والتمر والحبوب؛ فكانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوْا به لو أقاموا زماناً؛ فكانت السَّرَايا إنَّما تسري للحوم، ويسمُّون أيامها بها، ومن أيَّام اللحم يومُ الأباقر ويوم الحيتان. وبُعِث مالك بن ربيعة بن خالد التيميّ؛ تَيْم الرّباب، ثم الواثليّ ومعه المساور بن النّعمان التيميّ ثم الرُّبيعيّ في سريَّة أخرى؛ فأغارا على الفيّوم؛ فأصابا إبلاً لبني تغلِب والنَّمِـر فشلّاها ومَن فيها، فغدوَا بها على سعد، فنُحِرت الإبل في النَّاس. وأخصبوا، وأغار على النَّهْرَيْن عمرو بن الحارث، فوجدوا على باب ثوراء مـواشيَ كثيرة، فسلكوا أرض شَيْلى ـ وهي اليوم نهر زياد ـ حتى أتوا بها العسكر.

وقال عمرو: ليس بها يومئذ إلا نهرانِ. وكان بين قدوم خالد العراق ونزول سعد القادسيَّة سنتان وشيء. وكان مُقام سعد بها شهرين وشيئاً حتى ظفر.

قال ـ والإسناد الأول ـ: وكان من حديث فارس والعرب بعد البُوَيب أنَّ الأنوشَجان بن الهِرْبَذ خرجَ من سَواد البصرة يريد أهل غُضَيّ، فاعترضه أربعة نفر على أفناء تميم؛ وهم بإزائهم: المُسْتَورِد وهو على الرِّباب، وعبدالله بن زيد يسانده؛ الرِّبابُ بينهما، وجَزْء بن معاوية وابن النابغة يسانده؛ سَعْد بينهما، والحُصين بن نِيَار والأعور بن بشامة يسانده على عمرو، والحصين بن معبد والشَّبه على حنظلة، فقتلوه دونهم. وقدم سعد فانضمُّوا إليه هم وأهل غُضَيّ وجميع تلك الفِرَق.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وعمرو بإسنادهم، قالوا: وعجَّ أهلُ السَّواد إلى يَزْدَجِرد بن شهريار، وأرسلوا إليه أنَّ العرب قد نزلوا القادسيَّة بأمر ليس يُشبه إلاّ الحرب، وإنّ فعل العرب مذ نزلوا القادسيَّة لا يبقى عليه شيء؛ وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات؛ وليس فيها هنالك أنيس إلاّ في الحصون، وقد ذهب الدوابّ وكلّ شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة، ولم يبق إلاّ أن يستنزلونا، فإن أبطأ عنّا الغياث أعطيناهم بأيدينا. وكتب إليه بذلك المُلُوك الَّذين لهم الضيّاع بالطفّ، وأعانوهم عليه، وهيَّجوه على بعثه رستم.

ولما بدا ليزدَجِرْد أن يرسلَ رستَم أرسلَ إليه، فدخل عليه، فقال له: إنِّي أريد أن أوَجِّهك في هذا الوجه؛ وإنما يُعَدّ للأمور على قدرها، وأنت رجل أهل فارس اليوم، وقد ترى ما جاء أهلَ فارس مِن أمر لم يأتِهم مثلُه منذ وليَ آلُ أردشير. فأراه أن قد قبِل منه، وأثنى عليه.

فقال له الملك: قد أحبُّ أن أنظر فيما لديك لأعرفَ ما عندك، فصفْ لِي العرب وفعلَهم منذ نزلوا القادِسيَّة، وصف لِي العَجَم وما يلقوْن منهم.

فقال رستم: صفَة ذئابٍ صادفت غِرَّةً من رِعاء فأفسدت. فقال: ليس كذلك؛ إني إنما سألتك رجاء أن تُعرِب صفتهم فأقوّيك لتعمل على قَدْر ذلك فلم تُصِبْ، فافهم عنِّي؛ إنَّما مَثَلُهم ومثَلُ أهل فارس كَمَثل عُقاب أوفَى على جبل يأوي إليه الطير بالليل، فتبيت في سَفْحه في أوكارها، فلمّا أصبحت تجلَّت الطير، فأبصرته يرقبها، فإن شذّ منها شيء اختطفه، فلمّا أبصرته الطير لم تنهض من مخافته؛ وجعلت كلَّما شذّ منها طائر اختطَفه، فلو نهضت نهضةً واحدة ردَّته؛ وأشدُّ شيء يكون في ذلك أن تنجُوَ كلُّها إلا واحداً؛ وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلاَّ هلكت؛ فهذا مثلُهم ومثل الأعاجم؛ فاعمل على قَدْرِ ذلك. فقال له رستم: أيّها الملك، دَعْني؛ فإنَّ العرب لا تزالُ تهاب العجم مالم تُضَرِّهم بي؛ ولعلّ الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كَفَى، ونكون قد أصبْنا المكيدة ورأي الحرب؛ فإنّ الرّأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظَّفر. فأبى عليه وقال: أيُّ شيء بقي! فقال رستم: إنَّ الأناة في الحَرْب خيرٌ من العجلة، وللأناة اليوم موضع، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرّة وأشدّ على عدونا. فلجَّ وأبَى، فخرج حتى ضرب عسكره بساباط، وجعلت تختلف إلى الملك الرُّسل ليرى موضعاً لإعفائه وبعثة غيره، ويجتمع إليه النَّاس. وجاء العيون إلى سعد بذلك من قبَل الحيرة وبني صلوبا، وكتب إلى عمر بذلك. ولما كثرت الاستغاثة على يَزْدَجرد من أهل السَّواد على يدي الآزاذمرد بن الآزاذبه جشعت نفسه، واتّقى الحرب برستم، وترك الرّأي ـ وكان ضيّقاً لجوجاً ـ فاستحثّ رستم، فأعاد عليه رستم القول، وقال: أيُّها الملك؛ لقد

اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها؛ ولو أجدُ من ذلك بدًّا لم أتكلَّمْ به، فأنشدكَ الله في نفسِك وأهلك ومُلْكك؛ دعني أقم بعسكري وأسرِّح الجالنوس؛ فإن تكن لنا فذلك؛ وإلّا فأنا على رِجْل وأبعث غيره، حتى إذا لم نجد بدًّا ولا حيلةً صَبَرْنا لهم؛ وقد وهَّنّاهم وحسَّرناهم ونحن جامُّون. فأبى إلّا أن يسير.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن النّضْر بن السريّ الضّبيّ، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه، قال: لمّا نزل رستم بساباط، وجمع آلة الحرب وأداتها بعثَ على مقدّمته الجالنوس في أربعين ألفاً، وقال: ازحف زحفاً، ولا تنْجذب إلّا بأمري؛ واستعملَ على ميمنته الهُرْمزان، وعلى ميسرته مِهْران بن بَهْرام الرازيّ، وعلى ساقته البيرزان، وقال رستم ليشجّع الملك: إن فتح الله علينا القوم فهو وجْهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم، إلى أن يقبلوا المسالَمة أو يرضوْا بما كانوا يرضوْن به. فلمّا قدمت وفود سعد على الملِك، ورجعوا من عنده رأى رستم فيما يرى النائم رؤيا فكرهها، وأحسّ بالشرّ، وكره لها الخروج ولقاء القوم، واختلف عليه رأيه واضطرب. وسأل الملك أن يُمضيَ الجالنوس ويُقيم حتّى ينظر ما يصنعون، وقال: إن غنَاء الجالنوس كغنَائي، وإن كان اسمي أشدّ عليهم من اسمه، فإن ظفِر فهو الذي نريد، وإن تكن الأخرى وُجِّهْتُ مثله، ودفعنا هؤلاء القوم إلى يوم ما؛ فإنّي لا أزال مرجوًّا في أهل فارس، ما لم أهزَم ينشَطون، ولا أزال مهيباً في صدور العرب؛ ولا يزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم؛ فإن باشرتهم اجترؤوا آخرَ دهرِهم، وانكسر أهلُ فارس آخرَ دهرهم. فبعث مقدّمته أربعين ألفاً؛ وخرج في ستين ألفاً، وساقته في عشرين ألفاً.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم؛ قالوا: وخرج رستُم في عشرين ومائة ألف، كلُّهم متبوع، وكانوا بأتباعهم أكثرَ من مائتي ألف، وخرج من المدائن في ستين ألف متبوع.

كتب إليَّ السريُّ، عن شُعيب، عن سَيْف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، أنّ رستَم زحف لسعد وهو بالقادسيَّة في ستين ألفَ متبوع.

كتب إليَّ السريُّ، عن شُعيب عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم، قالوا: لمّا أبى المَلِك إلّا السيرَ، كتب رستم إلى أخيه وإلى رؤوس أهل بلادهم: من رستم إلى البِنْدوان مرزبان الباب، وسهم أهل فارس، الّذي كان لكلّ كونٍ يكون، فيفضّ الله به كلّ جند عظيم شديد، ويفتح به كلّ حصن حصين، ومن يليه، فرُمُّوا حصونكم، وأعِدّوا واستعِدّوا، فكأنّكم بالعرب قد وردُوا بلادكم، وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودُهم نحوساً؛ فأبى الملك.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّلْت بن بَهرام، عن رجل؛ أنّ يزدَجرد لمّا أمر رستم بالخروج من ساباط، كتب إلى أخيه بنحوٍ من الكتاب الأوّل، وزاد فيه: فإنّ السمكة قد كدّرت الماء، وإنّ النعائم قد حسُنت، وحسُنت الزُّهرَة، واعتدل الميزان، وذهب بَهْرام؛ ولا أرى هؤلاء القوم إلّا سيظهرون علينا، ويستولُون على ما يلينا. وإنَّ أشدّ ما رأيت أن الملك قال: لتسيرُنَّ إليهم أو لأسيرَنّ إليهم أنا بنفسي. فأنا سائر إليهم.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر بن السّريّ، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه، قال: كانَ الذي جرّأ يزدجِرد على إرسال رستم غلام جابان منجِّم كسرى، وكان من أهل فُرات بادَقلَى، فأرسل إليه

فقال: ما ترى في مسير رستم وحرب العرب اليوم؟ فخافه على الصّدق فكذبه، وكان رستم يعلَم نحواً من علمه، فثقُل عليه مسيرُه لعلمه، وخفَّ على الملكِ لما غرّه منه، وقال: إنّي أحبّ أن تخبرَني بشيء أراه أطمئنّ به إلى قولك، فقال الغلام لزُرنا الهنديّ: أخبِره، فقال: سَلْني، فسأله فقال: أيها الملكُ يُقبل طائر فيقع على إيوانِك فيقع منه شيء في فيه ها هنا ـ وخطّ دارةً ـ فقال العبد: صدَق، والطائر غراب، والذي في فيه درهم. وبلغ جابان أنّ الملك طلبه، فأقبل حتّى دخل عليه، فسأله عمّا قال غلامُه، فحسِب فقال: صدق ولم يُصب؛ هو عقعق، والذي في فيه درهم، فيقع منه على هذا المكان، وكذب زرنا. ينزو الدرهم فيستقرّ ها هنا ـ ودوّر دارة أخرى ـ فما قاموا حتّى وقع على الشُّرفات عَقعق، فسقط منهُ الدرهم في الخط الأول، فنزا فاستقرّ في الخطّ الآخر. ونافر الهنديُّ جابان حيث خطّأه؛ فأتيا ببقرة نَتُوج؛ فقال الهنديُّ: سَخْلتها غرّاء سَوداء، فقال جابان: كذبْتَ، بل سوداء صبغاء، فنُحرت البقرة فاستُخرجت سخلتها، فإذا هي ذنَبها بين عينيها، فقال جابان: من هاهنا أتيَ زرنا، وشجّعاه على إخراج رستم، فأمضاه، وكتب جابان إلى جُشْنَسْماه: إنّ أهل فارس قد زالَ أمرهم، وأدِيلَ عدوُّهم عليهم، وذهب مُلك المجوسيَّة، وأقبل مُلك العرب، وأديل دينهم؛ فاعتقدْ منهم الذمّة، ولا تخلُبنَّك الأمور، والعجل العجل قبل أن تُؤخذ! فلمّا وقع الكتاب إليه خرج جشنسماه إليهم حتى أتى المعنَّى؛ وهو في خيل بالعَتِيق، وأرسله إلى سعد، فاعتقد منه على نفسه وأهل بيته ومَن استجاب له وردّه، وكان صاحبَ أخبارهم. وأهدى للمعنّى فالوذق، فقال لامرأته: ما هذا؟ فقالت: أظنّ البائسة امرأته أراغت العصيدةَ فأخطأتْها، فقال المعنَّى: بؤساً لها!

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم، قالوا: لمّا فَصَل رستم من سَاباط، لقيَه جابان على القَنْطَرة، فشكا إليه، وقال: ألا ترَى ما أرى؟ فقال له رستم: أمّا أنا فأقاد بخِشاش وزمام، ولا أجد بُدًّا من الانقياد. وأمر الجالنوس حتّى قدم الحِيرة؛ فمضى واضطرب فُسطاطه بِالنَّجَف، وخرج رستم حتى ينزل بكُوثَى، وكتب إلى الجالنوس والآزاذ مرْد: أصيبَا لي رجلاً من العرب من جند سَعْد. فركبا بأنفسهما طليعة، فأصابا رجلا، فبعثا به إليه وهو بكوثَى فاستخبرَه، ثم قتله.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر بن السريّ، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه، قال: لمّا فصَل رستم، وأمر الجالنوس بالتقدّم إلى الحيرة، أمره أن يصيبَ له رجلا من العَرب، فخرجَ هو والآزاذمرد سريَّةً في مائة؛ حتى انتهيا إلى القادسيَّة، فأصابا رجلاً دون قنطرة القادسيّة فاختطفاه، فنفَر النَّاس فأعجزوهم إلاّ ما أصاب المسلمون في أُخْرَياتهم. فلمّا انتهيا إلى النَّجَف سرّحا به إلى رستم، وهو بكُوثَى، فقال له رستم: ما جَاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال: جئنا نطلب موعود الله، قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تُسْلِموا. قال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك؟ قال: في موعود الله أنَّ مَن قُتِل منّا قبل ذلك أدخله الجنة، وأنجز لمن بقي منّا ما قلت لك، فنحن على يقين. فقال رستم: قد وُضِعْنا إذاً في أيديكم؛ قال: ويحك يا رستم! إنّ أعمالَكم وضعتْكم فأسلمكم الله بها؛ فلا يغرنَّك ما ترى حولَك، فإنك لست تُحاول الإنس؛ إنما تحاول القضاءَ والقدر! فاستشاط غضباً؛ فأمر به فضربت عنقه، وخرج رستم من كُوثَى؛ حتى ينزل ببُرس، فغصب أصحابُه الناسَ أموالَهم ووقعوا على النساء، وشربوا الخمور. فضجّ العلُوج إلى رستم، وشكَوْا إليه ما يلقَوْن في أموالهم وأبنائهم. فقام فيهم، فقال: يا معشر أهل فارس، والله لقد صدَق العربيّ، والله ما أسلَمنا إلا أعمالنا، والله للعرب في هؤلاء وهم لهم ولنا حربٌ أحسنُ سيرةً منكم. إنّ الله كان ينصركم على العدوّ، ويمكّن لكم في

البلاد بحُسن السيرة وكفِّ الظلم والوفاءِ بالعهود والإحسان؛ فأمَّا إذ تحوَّلتم عن ذلك إلى هذه الأعمال، فلا أرى الله إلا مغيّراً ما بكم، وما أنا بآمِن أن ينزع الله سلطانه منكم. وبعث الرجال؛ فلقطوا له بعض من يُشكى فأتِيَ بنفر، فضرب أعناقهم، ثم ركب ونادى في الناس بالرّحيل، فخرج ونزل بحيال دير الأعور، ثم انصبّ إلى الملْطاط؛ فعسكر ممّا يلي الفرات بحِيال أهل النَّجَف بحيال الخَوَرْنق إلى الغرِيَّيْن، ودعا بأهل الحيرة، فأوعدهم وهمّ بهم، فقال له ابن بُقَيْلة: لا تجمع علينا اثنتين: أن تعجز عن نُصرتنا، وتلومنا على الدفع عن أنفسنا وبلادنا. فسكت.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، والمقدام الحارثي عمَّن ذكره، قالا: دعا رستم أهلَ الحيرة وسُرادقُه إلى جانب الدَّير، فقال: يا أعداءَ الله، فرحتم بدخول العرب علينا بلادَنا، وكنتم عيوناً لهم علينا، وقوّيتموهم بالأموال! فاتَّقوْه بابن بُقَيلة، وقالوا له: كن أنت الذي تكلِّمه، فتقدّم، فقال: أمَّا أنت وقولك: «إنا فرحنا بمجيئهم»، فماذا فعلوا؟ وبأيّ ذلك من أمورهم نفرح، إنَّهم ليزعمون أنَّا عبيد لهم، وما هم على ديننا؛ وإنّهم ليَشهدون علينا أنَّا من أهل النار. وأمَّا قولُك: «إنَّا كنا عيوناً لهم»، فما الذي يُحوجهم إلى أن نكون عيوناً لهم، وقد هرب أصحابكم منهم، وخلَّوا لهم القرى! فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه؛ إن شاءوا أخذوا يميناً أو شمالاً. وأمَّا قولك: «إنا قوَّيناهم بالأموال»؛ فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا؛ وإذ لم تمنعونا مخافة أن نُسْبَى وأن نُحرب، وتُقتل مقاتلتُنا ـ وقد عجز منهم مَنْ لقيهم منكم ـ فكنَّا نحن أعجز؛ ولعمري لأنتم أحبُّ إلينا منهم؛ وأحسن عندنا بلاءً، فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً؛ فإنّما نحن بمنزلةِ عُلُوج السَّواد، عَبيد مَنْ غَلَب. فقال رستم: صدقكم الرجل.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه، قال: رأى رستُم بالدّير أنّ ملكاً جاء حتى دخل عسكر فارس، فختَم السلاح أجمع.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وأصحابه؛ وشارَكهم النَّضر بإسناده، قالوا: ولمّا اطمأنّ رستم أمَر الجالنوس أن يسير من النَّجف، فسار في المقدّمات، فنزل فيها بين النَّجف والسَّيْلَحين، وارتحل رستم، فنزل النَّجَف ـ وكان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط وزحفه منها إلى أن لَقِيَ سعداً أربعة أشهر، لا يُقدِم ولا يقاتِل ـ رجاء أن يضجَروا بمكانهم، وأن يجهَدوا فينصرفوا، وكره قتالَهم مخافة أن يلقى ما لَقِي مَن قبله، وطاولَهم لولا ما جعل الملك يستعجله ويُنهضه ويُقدّمه؛ حتى أقحمه؛ فلما نزل رستم النَّجَف عادت عليه الرؤيا، فرأى ذلك الملك ومعه النبيّ ﷺ وعمر، فأخذ الملك سلاح أهل فارس، فختمه، ثم دفعه إلى النبيّ ﷺ، فدفعه النبيّ ﷺ إلى عمر. فأصبح رستم، فازداد حُزنا، فلمَّا رأى الرُّفيل ذلك رغبَ في الإسلام؛ فكانت داعيتَه إلى الإسلام، وعرف عمر أنّ القوم سيطاولونهم، فعهد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلُوا حدود أرضِهم، وأنْ يطاولوهم أبداً حتى يُنغضوهم، فنزلوا القادسيَّة، وقد وطَّنوا أنفسهم على الصَّبْر والمطاولة، وأبى الله إلا أن يتِمّ نوره، فأقاموا واطمأنوا، فكانوا يُغِيرون على السَّواد، فانتسفوا ما حولَهُمْ فحوَوه وأعدّوا للمطاولة؛ وعلى ذلك جاءوا، أو يفتح الله عليهم. وكان عمر يمدُّهم بالأسواق إلى ما يصيبون؛ فلمَّا رأى ذلك الملك ورستم عرفوا حالهم، وبلغهم عنهم فعلُهم؛ علم أن القوم غير منتهين، وأنَّه إن أقام لم يتركوه؛ فرأى أن يشخص رستم، ورأى رستم أن ينزل بين العتيق والنَّجَف، ثم يطاولهم مع المنازلة، ورأى أنّ ذلك أمثلُ ما هم

فاعلون، حتى يصيبوا من الإحجام حاجَتَهم، أو تدور لهم سعود.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: وجعلت السَّرايا تطوفُ، ورستُم بالنَّجف والجالِنوس بين النَّجف والسَّيْلَحِين وذو الحاجب بين رستم والجالنوس، والهُرْمزان ومِهْران على مجنِّبتَيْه، والبِيرزان على ساقته وزاذ بن بُهَيْش صاحب فُرات سريا على الرّجالة؛ وكنارَى على المجرّدة؛ وكان جنده مائة وعشرين ألفا، ستين ألفَ متبوع مع الرجل الشاكريّ، ومن الستين ألفا خمسة عشر ألف شريف متبوع، وقد تسلسلوا وتقارنوا لتدورَ عليهم رَحى الحرب.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قَيْس، عن موسى بن طَريف، قال: قال النَّاس لسعد: لقد ضاق بنا المكان؛ فأقدِمْ، فزَبر مَن كلّمه بذلك، وقال: إذا كُفيتم الرّأي، فلا تكلّفوا؛ فإنا لن نقدِم إلّا على رأي ذوي الرّأي، فاسكتوا ما سكتنا عنكم. وبعث طليحة وعمراً في غير خيلٍ كالطليعة، وخرج سواد وحُمَيضة في مائة مائة؛ فأغاروا على النَّهرين؛ وقد كان سعد نهاهما أن يُمعِنا، وبلغ رستم، فأرسل إليهم خيلاً، وبلغ سعداً أنَّ خيلَه قدوَغلت؛ فدعاعاصم بن عمرو وجابراً الأسديّ، فأرسلهما في آثارهم يقتصّانها، وسلكا طريقَها، وقال لعاصم: إن جَمَعَكم قِتَال فأنت عليهم، فلقيهم بين النهرين وإصْطِيمِيَا؛ وخيل أهل فارس محتوشتُهم، يريدون تخلّص ما بين أيديهم؛ وقد قال سواد لحُميضة: اخترْ؛ إمَّا أن تقيم لهم وأستاق الغَنيمة، أو أقيم لهم وتستاق الغنيمة. قال: أقِمْ لهم ونَهْنِهْهُم عنّي، وأنا أبلّغ لك الغنيمة؛ فأقام لهم سواد، وانجذب حُميضة، فلقيه عاصم بن عمرو، فظنّ حُميضة أنَّها خيل للأعاجم أخرى، فصدّ عنها منحرفاً؛ فلمّا تعارفوا ساقَها؛ ومضى عاصم إلى سواد ـ وقد كان أهل فارس تنقّذوا بعضها ـ فلمَّا رأت الأعاجم عاصِماً هربوا، وتنقّذ سوادُ ما كانوا ارتجعوا؛ فأتوا سعداً بالفتح والغنائم والسلامة؛ وقد خرج طُلَيحة وعمرو؛ فأمَّا طُلَيحة فأمره بعسكر رستم، وأما عمرو فأمره بعسكر الجالنوس؛ فخرج طُليحة وحْدَه، وخرج عمرو في عدّة، فبعث قيس بن هبيرة في آثارهما؛ فقال: إن لقيتَ قتالا فأنت عليهم ـ وأراد إذلال طليحة لمعصيته، وأمَّا عمرو فقد أطاعه ـ فخرج حتى تلقّى عمراً، فسأله عن طليحة، فقال: لا علْمَ لي به، فلَّما انتهينا إلى النَّجَف من قبل الجَوْف، قال له قيس: ما تريد؟ قال: أريد أن أغير على أدنَى عسكرهم؛ قال: في هؤلاء! قال: نعم، قال: لا أدَعك والله وذاك! أتُعرّض المسلمين لِما لا يطيقون! قال: وما أنت وذاك! قال: إني أمِّرت عليك؛ ولو لم أكن أميراً لم أدعك وذاك. وشهد له الأسْود بن يزيد في نفر أنّ سعداً قد استعمله عليك، وعلى طليحة إذا اجتمعتم، فقال عمرو: والله يا قيس؛ إنَّ زماناً تكون عليّ فيه أميراً لزمانُ سوء! لأن أرجعَ عن دينكم هذا إلى ديني الّذي كنت عليه وأقاتل عليه حتى أموت أحبُّ إليّ مِنْ أن تتأمّر عليّ ثانية. وقال: لئن عاد صاحبك الّذي بعثَك لمثلها لنفارقنَّه؛ قال: ذاك إليك بعد مرّتك هذه، فردّه، فرجعا إلى سعد بالخَبَر. وبأعلاج وأفراس، وشكا كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه؛ أمّا قيسٌ فشكا عصيانَ عمرو، وأمَّا عمرو، فشكا غِلْظة قيس، فقال سعد: يا عمرو، الخبر والسلامة أحبّ إليّ من مُصاب مائة بقتل ألف، أتعمَد إلى حَلْبة فارس فتصادِمهم بمائة! إن كنت لأراك أعلَم بالحرب ممَّا أرى. فقال: إنَّ الأمر لكَما قلت؛ وخرج طُلَيحة حتى دخل عسكرهم في ليلة مقمِرة، فتوسّم فيه، فهتك أطنابَ بيت رجل عليه، واقتاد فرسه، ثم خرج حتى مرّ بعسكر ذي الحاجب، فهتَك على رَجُلٍ آخر بيتَه، وحلّ فرسه، ثم دخل على الجالنوس عسكرَه فهتك على آخر بيته، وحلّ فرسه، ثم خرج حتى أتى الخرّارة؛ وخرج الّذي كان بالنَّجف، والّذي كان في عسكر ذي الحاجب فاتّبعه الذي كان في عسكر الجالنوس، فكان

أوَّلهم لحاقاً به الجالنوس؛ ثم الحاجبيّ، ثم النَّجَفي؛ فأصاب الأوّليْن، وأسَرَ الآخِر. وأتى به سعداً فأخبره، وأسلم؛ فسمَّاه سعد مسلماً؛ ولزم طُليحة؛ فكان معه في تلك المغازي كلّها.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمرو، عن أبي عثمان النَّهْديّ، قال: كان عمر قد عهد إلى سعد حين بعثَه إلى فارس؛ ألاّ يمرّ بماء من المياه بذي قوّة ونجدة ورياسة إلاّ أشخصه؛ فإن أبَى انتخبه، فأمَّره عمر، فقدم القادسيَّة في اثني عشر ألفاً من أهل الأيَّام، وأناس من الحمراء استجابوا للمسلمين، فأعانوهم؛ أسلم بعضهم قبل القتال، وأسلم بعضهم غبَّ القتال، فأشركوا في الغنيمة، وفُرضت لهم فرائض أهل القادِسيَّة: ألفين ألفين؛ وسألوا عن أمنع قبائل العرب، فعادُّوا تميماً؛ فلمَّا دنا رستم، ونزل النَّجَف بعث سعد الطلائع؛ وأمرهم أن يصيبوا رجلاً ليسأله عن أهل فارس؛ فخرجت الطلائع بعد اختلاف؛ فلما أجمع مَلأ الناس أنَّ الطليعةَ من الواحد إلى العشرة سَمَحوا، فأخرج سعد طُلَيحة في خمسة، وعمرو بن مَعْد يكرب في خمسة؛ وذلك صبيحةَ قدّم رستم الجالنوس وذا الحاجب؛ ولا يشعرون بفُصولهم من النَّجف؛ فلم يسيروا إلاّ فرسخا وبعض آخر؛ حتى رأوا مسالحَهم وسَرْحَهم على الطُّفوف قد ملؤوها، فقال بعضهم: ارجعوا إلى أميركم فإنه سرَّحكم؛ وهو يرى أنَّ القوم بالنَّجَف؛ فأخبِروه الخبر، وقال بعضهم: ارجعوا لا يَنْذرْ بكم عدّوكم! فقال عمرو لأصحابه: صدقتم، وقال طليحة لأصحابه: كذبتم؛ ما بُعثتم لتُخبروا عن السَّرْح، وما بُعثتم إلا للخُبْر قالوا: فما تريد؟ قال: أريد أن أخاطِر القوم أو أهلك، فقالوا: أنت رجل في نفسِك غَدْر؛ ولن تفلح بعد قتل عُكّاشة بن مِحْصَن؛ فارجع بنا، فأبى. وأتى سعداً الخبرُ برحيلهم؛ فبعث قيس بن هُبيرة الأسديّ، وأمَّره على مائة، وعليهم إن هو لقيَهم. فانتهى إليهم وقد افترقوا، فلمَّا رآه عمرو قال: تجلَّدوا له، أرَوْه أنَّهم يريدون الغارة؛ فردّهم، ووجد طليحةَ قد فارَقهم فرجع بهم. فأتوْا سعداً، فأخبروه بقُرب القوم، ومضى طُليحة، وعارض المياهَ على الطُّفُوف؛ حتى دخَل عسكر رستم، وبات فيه يجُوسه وينظر ويتوسّم؛ فلمَّا أدبر الليل، خرج وقد أتى أفْضل مَن توسّم في ناحية العسكر؛ فإذا فرس له لم يُرَ في خيل القوم مثلُه، وفسطاط أبيض لم يُرَ مثله؛ فانتضى سيفَه، فقَطع مِقْوَد الفرس، ثم ضمَّه إلى مقْوَد فرسه، ثم حرّك فرسه، فخرج يعدُو به، ونذِر به الناس والرَّجْل، فتنادوْا وركبوا الصَّعْبة والذَّلول، وعجِل بعضهم أن يسرج، فخرجوا في طلبه، فأصبح وقد لحقه فارسٌ من الجُند، فلمَّا غشِيَه وَبوّأ له الرّمح ليطعنه عدل طُليحة فرسه، فندر الفارسيّ بين يديه، فكرّ عليه طُلَيحة، فقصَم ظهره بالرّمح، ثم لحِق به آخر، ففعل به مثلَ ذلك، ثم لحِق به آخر؛ وقد رأى مصرع صاحبيه ـ وهما ابنا عمِّه ـ فازداد حَنَقا، فلمّا لحق بطُليحة! وبوَّأ له الرمح، عدل طليحة فرسَه، فندر الفارسيّ أمامه، وكرَّ عليه طليحة؛ ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسيّ أنه قاتله فاستأسَر، وأمره طُليحة أن يركُض بين يديه؛ ففعل.

ولحِق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتِلا وقد أسِر الثالث، وقد شارف طُليحة عسكرهم، فأحجموا عنه، ونكسوا، وأقبل طُليحة حتى غشيَ العسكر، وهم على تعبية، فأفزِع النَّاس، وجوّزوه إلى سعد؛ فلمَّا انتهى إليه، قال: ويحك ما وراءك! قال: دخلت عساكرَهم وجُستها منذ الليلة، وقد أخذت أفضلَهم توسُّماً، وما أدري أصبت أمأخطأت! وها هو ذا فاستخبِرْه. فأقيم التّرجمان بين سعد وبين الفارسيّ، فقال له الفارسيّ: أتؤمِّنني على دمي إن صدقتُك؟ قال: نعم، الصّدق في الحرب أحبّ إلينا من الكذب، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمّن قِبَلي؛ باشرتُ الحروب وغشِيتُها، وسمعت بالأبطال ولقِيتُها؛ منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما تَرَى، ولم أرَ ولم أسمع بمثل هذا؛ أن رجلاً قطع عسكرين لا يجترىء عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفاً،

يخدم الرجلَ منهم الخمسةُ والعشرة إلى ما هو دون؛ فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتَّى سلَب فارس الجند؛ وَهَتك أطناب بيته فانذَره، فأنذرَنا به، فطلبناه، فأدركه الأوَّل وهو فارس الناس، يعدِل ألفَ فارس فقتله، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركتُه، ولا أظنُّ أنني خلَّفت بعدي مَنْ يعدِلني وأنا الثائر بالقتيلين، وهما ابنا عمّي، فرأيتُ الموت فاستأسرت. ثم أخبره عن أهل فارس؛ بأن الجند عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خُدّام لهم. وأسلم الرّجل وسمَّاه سعد مسلماً، وعاد إلى طليحة، وقال: لا والله، لا تُهزَمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمؤاساة؛ لا حاجَة لي في صُحبة فارس؛ فكان من أهل البلاء يومئذ.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن موسى بن طريف، قال: قال سعد لقيس بن هُبيرة الأسديّ: اخرج يا عاقلُ، فإنَّه ليس وراءك من الدُّنيا شيء تحنُو عليه حتى تأتِيَني بعلم القوم. فخرج وسرّح عمرَو بن معديكرب وطليحةَ؛ فلمّا حاذَى القنطرة لم يسِرْ إلاّ يسيراً حتى لحِق، فانتهى إلى خيلٍ عظيمة منهم بحيالها تردّ عن عسكرهم، فإذا رستُم قد ارتحلَ من النَّجَف، فنزل منزل ذي الحاجب، فارتحل الجالِنوس، فنزل ذو الحاجب منزلَه، والجالنوس يريد طَيْزَناباذ؛ فنزل بها، وقدّم تلك الخيل. وإنَّ ما حمل سعداً على إرسال عمرو وطليحة معه لَمقالةٌ بلغتْه عن عمرو، وكلمة قالها لقيس بن هُبيرة قبل هذه المرَّة، فقال: قاتِلوا عدوَّكم يا معشَر المسلمين. فأنشِب القتال، وطاردهم ساعة. ثم إنّ قيساً حَمَل عليهم، فكانت هزيمتهم، فأصاب منهم اثني عشر رجلاً، وثلاثة أسراء، وأصاب أسلاباً، فأتوا بالغنيمة سعداً وأخبروه الخبر؛ فقال: هذه بشرى إن شاء الله؛ إذا لقيتم جمعهم الأعظم وحدَّهم؛ فلهم أمثالُها، ودعا عمرا وطُليحة، فقال: كيف رأيتما قيسا؟ فقال طليحة: رأيناه أكمانا، وقال عمرو: الأمير أعلم بالرّجال منّا. قال سعد: إنَّ الله تعالى أحيانا بالإسلام وأحيا به قلوباً كانت ميّتة، وأمات به قلوباً كانت حيَّة، وإني أحذّركما أن تؤثِرا أمر الجاهليَّة على الإسلام؛ فتموت قلوبكما وأنتما حيَّان؛ الزَما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق؛ فما رأى النَّاس كأقوام أعزَّهم الله بالإسلام.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وعمرو وزياد؛ وشاركهم المجالِد وسعيد بن المَرْزُبان، قالوا: فلمّا أصبح رستم من الغدِ من يوم نزل السَّيْلِحين قدّم الجالنوس وذا الحاجب، فارتحل الجالِنوس، فنزل من دون القنطرة بِحيال زُهرة، ونزل إلى صاحب المقدّمة، ونزل ذو الحاجب منزله بطيزَنَاباذ، ونزل رستم منزلَ ذي الحاجب بالخرَّارة، ثم قدّم ذا الحاجب؛ فلمّا انتهى إلى العتيق تيَاسر حتى إذا كان بحيال قُدَيس خندق خندَقاً، وارتحل الجالنوس فنزل عليه وعلى مقدّمته - أعني سعداً - زُهرة بن الحَويَّة، وعلى مجنَّبتيه عبد الله بن المُعْتَمّ، وشُرحبيل بن السِّمط الكنديّ، وعلى مجرّدته عاصم بن عمرو، وعلى المُرامية فلان، وعلى الرجْل فلان، وعلى الطلائع سَواد بن مالك، وعلى مقدّمة رستَم الجالنوس، وعلى مجنَّبتيه الهُرمزان ومِهران وعلى مجرّدته ذو الحاجب، وعلى الطلائع البيرزان، وعلى الرّجالة زاذ بن بُهَيش. فلما انتهى رستم إلى العتيق، وقف عليه بِحيال عسكر سعد ونزَّل الناس؛ فما زالوا يتلاحَقُون ويُنْزِلهم فينزلون؛ حتى أعتموا من كَثْرتهم؛ فبات بها تلك الليلة والمسلمون مُمْسِكون عنهم.

قال سعيد بن المرزبان: فلمّا أصبحوا من ليلتِهم بشاطىء العتيق غدا منَجّم رستم على رستم برؤيا أُريَها من اللّيل، قال: رأيت الدّلو في السماء؛ دلواً أفرِغ ماؤه، ورأيت السمكة؛ سمكة في ضَحْضاح من الماء تضطرب، ورأيت النّعائم والزُّهرة تزدهر، قال: ويحك! هل أخبرت بها أحداً؟ قال: لا، قال: فاكتمها.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: كان رستم منجِّماً، فكان يبكِي ممَّا يرى ويقْدم عليه، فلمَّا كان بظهر الكوفة رأى أنّ عمر دخل عسكر فارس، ومعه ملَك، فختم على سلاحهم، ثم حزمه ودفعه إلى عمر.

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم ـ وكان قد شهد القادسيَّة ـ قال: كان مع رستم ثمانية عشر فيلاً، ومع الجالنوس خمسة عشر فيلا.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد، عن الشعبيّ؛ قال: كان مع رستم يوم القادسيَّة ثلاثون فيلا.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيْف، عن سعيد بن المرزبان؛، عن رجل، قال: كانَ مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا؛ منها فيل سابور الأبيض؛ وكانت الفيَلة تألفه، وكان أعظمها وأقدمها.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه، قال: كان معه ثلاثة وثلاثون فيلا، معه في القَلْب ثمانية عشر فيلاً، ومعه في المجنَّبتين خمسة عشر فِيلا.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد وسعيد وطلحة وعمرو وزياد، قالوا: فلمَّا أصبح رستم من ليلته الَّتي باتها بالعتيق، أصبح راكباً في خَيْلِه، فنظر إلى المسلمين، ثم صعد نحو القنطرة، وقد حزر الناس، فوقف بحيالهم دون القنطرة؛ وأرسل إليهم رَجُلاً؛ إنَّ رستم يقول لكم: أرسلوا إلينا رجلاً نكلِّمه ويكلّمنا، وانصرف فأرسل زُهرة إلى سعد بذلك؛ فأرسل إليه المغيرة بن شُعبة، فأخرجه زُهرة إلى الجالنوس؛ فأبلغه الجالِنوس رستَم.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر، عن ابن الرُّفَيل، عن أبيه، قال: لَمَّا نزل رستم على العتيق وبات به، أصبح غادياً على التّصفّح والحزْر، فسايَرَ العتيق نحو خَفَّان؛ حتى أتى على مُنْقطَع عسكر المسلمين، ثم صعِد حتى انتهى إلى القنطرة؛ فتأمَّل القوم؛ حتى أتى على شيء يُشرِف منه عليهم؛ فلما وقف على القنطرة راسل زُهرة، فخرج إليه حتى واقفه، فأراده أن يصالحهم، ويجعل له جُعْلاً على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول فيما يقول: أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا؛ فكنّا نُحسن جِوارهم، ونكفّ الأذى عنهم، ونولِّيهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم؛ فنُرعيهم مرَاعينَا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا؛ وقد كان لهم في ذلك معاشٌ ـ يعرّض لهم بالصّلح؛ وإنما يخبره بصنيعهم، والصلح يريد ولا يصرّح ـ فقال له زهرة: صدقتَ، قد كان ما تذكر؛ وليس أمرُنا أمرَ أولئك ولا طَلِبتنا. إنَّا لم نأتِكم لطلَب الدُّنيا؛ إنما طَلِبتنا وهِمَّتنا الآخرة؛ كنّا كما ذكرت، يدين لكم من ورد عليكم منَّا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم. ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربِّه، فأجبناه، فقال لنبيّه ﷺ: إنِّي قد سلَّطت هذه الطائفة عَلَى من لم يَدِنْ بديني، فأنا منتقم بهم منهم؛ وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقِرّين به، وهو دين الحقّ، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به أحَد إلاّ عزّ. فقال له رستم: وما هو؟ قال: أمَّا عموده الَّذِي لا يصلح منه شيء إلاّ به، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى. قال: ما أحسن هذا! وأيُّ شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى. قال: حسنٌ، وأيّ شيء أيضاً؟ قال: والنَّاس بنو آدم وحَوَّاء، إخوة لأب وأمّ، قال: ما أحسن هذا! ثمّ قال له رستم: أرأيت لو أنّي

رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه؛ ومعِي قومي كيف يكون أمركم! أترجعون؟ قال: إي والله، ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلّا في تجارة أو حاجة. قال: صدقتني والله، أمَا إنّ أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدَعُوا أحداً يخرج من عمله من السِّفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدَّوا طَوْرهم، وعادَوْا أشرافهم. فقال له زُهرة: نحن خيرُ النّاس للنّاس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون؛ نطيع الله في السّفلة، ولا يضرّنا مَنْ عصى الله فينا. فانصرف عنه، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا، فَحمُوا من ذلك، وأنِفوا، فقال: أبعَدَكم الله وأسحقكم! أخزى الله أخْرَعنا وأجبنَنا! فلمّا انصرف رستم ملتُ إلى زُهرة، فكان إسلامي؛ وكنت له عديداً. وفرض لي فرائض أهل القادسيَّة.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن محمد وطلحة وعمرو وزياد بإسنادهم مثله. قالوا: وأرسل سعد إلى المغيرة بن شُعبة وبُسْر بن أبي رُهْم وعَرفَجة بن هَرثمة وحُذيفة بن مِحصَن ورِبْعي بن عامر وقِرفة بن زاهر التيميّ ثم الواثليّ ومذعُور بن عَديّ العجليّ، والمضارب بن يزيد العِجليّ ومَعْبَد بن مُرَّة العِجليّ ـ وكان من دُهاة العرب ـ فقال: إني مُرسلُكم إلى هؤلاء القوم؛ فما عندكم؟ قالوا جميعاً: نتّبع ما تأمرنا به، وننتهي إليه؛ فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثلَ ما ينبغي وأنفعَه للنّاس؛ فكلّمناهم به. فقال سعد: هذا فِعل الحَزَمة، اذهبوا فتهيؤوا، فقال رِبعيّ بن عامر: إنّ الأعاجم لهم آراء وآداب، ومتى نأتهم جميعاً يروا أنّا قد احتفلنا بهم! فلا تَزِدهم على رجل؛ فمالؤوه جميعاً على ذلك، فقال: فسرّحوني، فسرّحه، فخرج ربعيّ ليدخُل على رستم عسكره، فاحتبسه الّذين على القنطرة، وأرسِل إلى رستم لمجيئه، فاستشار عظماءَ أهل فارس، فقال: ما ترون؟ أنُباهي أم نتهاوَن! فأجمع ملؤُهم على التهاون، فأظهروا الزِّبْرِج، وبسطوا البُسُط والنّمارق، ولم يتركوا شيئاً، ووضع لرستم سرير الذّهب، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب. وأقبل رِبعيّ يسير على فرس له زبّاء قصيرة، معه سيف له مَشُوف، وغمده لِفافة ثوب خَلَق، ورمحُه معلوب بقِدّ، معه حَجَفة من جلود البقر؛ على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونَبْله. فلمّا غشي الملكَ، وانتهى إليه وإلى أدنى البُسط، قيل له: انزل، فحمَلها على البساط، فلمّا استوت عليه، نَزَل عنها ورَبطها بوسادتين فشقَّهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهَوه؛ وإنما أروه التّهاون وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجَهم، وعليه دِرع له كأنها أضاة ويَلْمَقُه عباءة بعيره، قد جابها وتدرّعها، وشدّها على وسطه بسَلَب وقد شدّ رأسه بمعجرته؛ وكان أكثر العرب شعرةً، ومِعجرته نِسعة بعيره؛ ولرأسه أربع ضفائر؛ قد قمن قياماً، كأنهنّ قرون الوعِلة. فقالوا: ضَعْ سلاحك، فقال: إنِّي لم آتِكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت. فأخبروا رستم؛ فقال: ائذنوا له؛ هل هو إلّا رجل واحد! فأقبل يتوكّأ على رمحه، وزُجّه نصلٌ يقارب الخطو، ويزجّ النّمارق والبُسط؛ فَما ترك لهم نُمرقة ولا بساطاً إلّا أفسده وتركه منهتِكا مخرَّقاً؛ فلمّا دنا من رستم تعلّق به الحرس، وجلَس على الأرض، وركز رمحَه بالبُسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنّا لا نستحبّ القعود على زينتكم هذه. فكلّمه، فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنُخرجَ مَن شاء من عبادةِ العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدُّنيا إلى سَعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقه لندعوَهم إليه، فَمَن قَبِل منّا ذلك قَبِلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضَه يليها دُوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً؛ حتى نُفضيَ إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنَّة لمن مات على قتالِ مَن أبى، والظّفَر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتَكم؛ فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه

وتَنْظُروا! قال: نعم، كم أحبّ إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتّى نكاتب أهَل رأينا ورؤساء قومِنا. وأراد مقاربته ومدافعتَه، فقال: إنّ مما سنّ لنا رسولُ الله ﷺ وعمِل به أئمّتنا، ألاّ نمكّن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجّلهم عند اللقاء أكثرَ من ثلاث، فنحن متردّدون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدةً من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام ونَدَعك وأرضك، أو الجزاء، فنقبل ونكفّ عنك؛ وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك؛ أو المنابذة في اليوم الرابع؛ ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا؛ أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع مَن ترى. قال: أسيّدُهم أنت؟ قال: لا؛ ولكنّ المسلمين كالجسد بعضهم من بعض؛ يجير أدناهم على أعلاهم. فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلاماً قطّ أوضحَ ولا أعزّ من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدَع دينك لهذا الكلْب! أما ترى إلى ثيابه! فقال: وَيْحكم لا تنظروا إلى الثياب؛ ولكن انظروا إلى الرّأي والكلام والسِّيرة؛ إنّ العرب تستخفّ باللّباس والمأكل ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللّباس، ولا يروْن فيه ما ترون. وأقبلوا إليه يتناولون سلاحه، ويزهّدونه فيه، فقال لهم: هل لكم إلى أن تُروني فأريَكم؟ فأخرج سيفه من خِرَقه كأنه شُعْلة نار. فقال القوم: اغمِده، فغمده؛ ثم رمى تُرساً ورموا حَجَفته، فخُرق تُرسهم، وسلمت حَجَفته، فقال: يا أهلَ فارس؛ إنكم عظّمتم الطعام واللِّباس والشراب؛ وإنّا صغّرناهنّ. ثمّ رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل، فلمّا كان من الغد بعثوا أن ابعث إلينا ذلك الرّجُل؛ فبعث إليهم سعد حُذيفة بن مِحصن، فأقبل في نحو من ذلك الزّيّ، حتى إذا كان على أدنى البِساط، قيل له: انزل، قال: ذلك لو جئتُكم في حاجتي؛ فقولوا لملككم: أله الحاجة أم لي؟ فإن قال: لي؛ فقد كذب؛ ورجعت وتركتكم؛ فإن قال: له، لم آتكم إلا على ما أحِبّ. فقال: دعوه، فجاء حتى وقف عليه ورستم على سريره، فقال: انزل، قال: لا أفعل، فلمّا أبى سأله: ما بالك جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس؟ قال: إن أميرنا يحبّ أن يعدل بيننا في الشدّة والرّخاء؛ فهذه نوْبتي. قال: ما جاء بكم؟ قال: إنّ الله عزّ وجلّ مَنّ علينا بدينه؛ وأرانا آياته، حتى عرفناه وكنا له منكرين. ثم أمرَنا بدُعاء الناس إلى واحدة من ثلاث؛ فأيّها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذَة. فقال: أو الموادعة إلى يوم ما؟ فقال: نعم، ثلاثاً من أمس. فلمّا لم يجد عنده إلا ذلك ردّه وأقبل على أصحابه، فقال: ويْحكم! ألا ترون إلى ما أرى! جاءنا الأوّل بالأمس فغلَبنا على أرضنا، وحقّر ما نعظّم، وأقام فرسه على زِبْرِجنا وربَطه به؛ فهو في يُمْن الطائر، ذهب بأرضنا وما فيها إليهم، مع فضل عقله. وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا؛ فهو في يُمْنِ الطائر، يقوم على أرضنا دوَننا؛ حتى أغضبهم وأغضبوه فلمّا كان من الغد أرسل: ابعثوا إلينا رجلاً، فبعثوا إليهم المغيرة بن شعبة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان النّهديّ قال: لمّا جاء المغيرة إلى القنطرة فعَبرها إلى أهل فارس حبسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيِّروا شيئاً من شارتهم، تقويةً لتهاونهم؛ فأقبل المغيرة بن شعبة، والقوم في زيّهم، عليهم التّيجان والثّياب المنسوجة بالذهب، وبُسُطهم على غَلْوة لا يصلُ إلى صاحبهم؛ حتى يمشي عليهم غَلْوةً؛ وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي؛ حتى جلس معه على سريره ووسادته؛ فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه. فقال: كانت تَبْلغنا عنكم الأحلام؛ ولا أرى قوماً أسفَه منكم! إنّا معشر العرب سواءٌ؛ لا يستعبد بعضنا بعضاً إلّا أن يكون محارباً لصاحبه؛ فظننت أنّكم تُواسون قوَمكم كما نَتواسى؛ وكان أحسن مِن

الذي صنعتم أن تُخبروني أنَّ بعضكم أربابُ بعض، وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه؛ ولم آتِكم؛ ولكن دعوتموني اليوم؛ علمت أن أمركم مضمحلّ، وأنّكم مغلوبون؛ وأن مُلكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول.

فقالت السّفلة: صدَق والله العربيّ، وقالت الدّهاقين: والله لقد رمَى بكلام لا يزال عبيدُنا ينزِعون إليه؛ قاتل الله أوّلينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغّرون أمر هذه الأمّة! فمازحه رستُم ليمحُوَ ما صُنع، وقال له: يا عربيّ؛ إنّ الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عمّا ينبغي من ذلك؛ فالأمر على ما تحبّ من الوفاء وقبول الحقّ؛ ما هذه المغازل التي معك؟ قال: ما ضرّ الجمرة ألّا تكون طويلة! ثم راماهم. وقال: ما بال سيفك رثّاً! قال: رثُّ الكسوةِ، حديد المضربة. ثم عاطاه سيفه، ثم قال له رستم: تكلّم أم أتكلّم؟ فقال المغيرة: أنت الّذي بعثت إلينا، فتكلَّم، فأقام الترجمان بينهما، وتكلّم رستم، فحمِد قومه، وعظَّم أمرهم وطوّله، وقال: لم نزل متمكّنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافاً في الأمم؛ فليس لأحدٍ من الملوك مثل عزّنا وشرفنا وسلطاننا، نُنصرَ على النّاس ولا يُنصرون علينا إلّا اليوم واليومين، أو الشّهر والشهرين؛ للذنوب؛ فإذا انتقم الله فرضيَ ردّ إلينا عزّنا، وجمعْنا لعدونا شرّ يوم هو آتٍ عليهم. ثم إنه لم يكن في النّاس أمة أصغر عندنا أمراً منكم؛ كنتم أهـلَ قَشف ومعيشة سيّئـة، لا نراكم شيئاً ولا نعدُّكم، وكنتم إذا قحـطت أرضكم، وأصابتكم السَّنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التّمْر والشعير ثم نردّكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمرُ لأميركم بكُسوة وبغْل وألف درهم، وآمرُ لكلّ رجل منكم بوِقر تمْرٍ وبثوبين، وتنصرفون عنّا، فإني لست أشتهي أن أقتُلَكم ولا آسركم.

فتكلّم المغيرة بن شُعبة، فحمِد الله وأثنَى عليه، وقال: إنّ الله خالق كلّ شيء ورازقه؛ فَمن صنع شيئاً فإنما هو الذي يصنعه هو له. وأمّا الذي ذكرت به نفسَك وأهلَ بلادك؛ من الظّهورِ على الأعداء والتمكّن في البلاد وعُظْم السلطان في الدنيا؛ فنحن نعرفه، ولسنا نُنكره؛ فالله صنعه بكم؛ ووضعه فيكم؛ وهو له دونكم؛ وأمّا الذي ذكرت فينا من سُوء الحال، وضِيق المعيشة واختلاف القلوب؛ فنحن نعرفُه؛ ولسنا ننكره؛ والله ابتلانا بذلك، وصيّرنا إليه، والدنيا دُوَل؛ ولم يزل أهلُ شدائدها يتوقَّعون الرّخاء حتى يصيروا إليه؛ ولم يزل أهل رخائها يتوقَّعون الشَّدائد حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها؛ ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوِي شُكر، كان شكركم يقصّر عمّا أوتيتم، وأسلمكم ضَعْف الشكر إلى تغيّر الحال؛ ولو كنّا فيما ابتُلينا به أهلَ كفر؛ كان عظيم ما تتابع علينا مستجلباً من الله رحمة يرفِّه بها عنّا، ولكنّ الشأن غيرُ ما تذهبون إليه؛ أو كنتم تعرفوننا به؛ إنَّ الله تبارك وتعالى بعثَ فينا رسولاً . . . ثم ذكر مثلَ الكلام الأوّل؛ حتى انتهى إلى قوله: وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكنْ لنا عبداً تؤدّي الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإلّا فالسيف إن أبيت! فنخر نخرة، واستشاط غضباً، ثم حلَف بالشَّمْس لا يرتفع لكم الصّبح غداً حتى أقتلكم أجمعين.

فانصرف المغيرة؛ وخلَص رستم تألفا بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا! ألم يأتِكم الأوّلان فحسَّراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا، فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً؛ هؤلاء والله الرجال؛ صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن كان بلغ من إربهم وصَوْنهم لِسِرّهم ألّا يختلفوا، فما قَوْمٌ أبلغَ فيما أرادوا منهم؛ لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء! فلجّوا وتجلّدوا وقـال: والله إني لأعلم أنّكم تُصغون إلى ما أقول لكم؛ وإنّ هذا منكم رِئاء؛ فازدادوا لَجاجة.

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن النَّضْر، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه، قال: فأرسل مع المغيرة رجلاً، وقال له: إذا قطع القنطرة، ووصل إلى أصحابه، فناد: إن الملك كان منجّماً قد حسب لك ونظر في أمرك، فقال: إنَّك غداً تُفقأ عينُك. ففعل الرسول، فقال المغيرة: بشّرتَني بخير وأجر؛ ولولا أنْ أجاهدَ بعد اليوم أشباهَكم من المشركين، لتمنّيتُ أنّ الأخرى ذهبت أيضاً. فرآهم يضحكون من مقالته، ويتعجَّبون مِنْ بصيرته؛ فرجع إلى الملك بذلك، فقال: أطيعوني يا أهلَ فارس؛ وإنّي لأرى لله فيكم نِقْمة لا تستطيعون ردَّها عن أنفسكم. وكانت خيولُهم تلتقِي على القنطرة لا تلتقي إلّا عليها، فلا يزالون يبدؤون المسلمين، والمسلمون كافُّون عنهم الثلاثة الأيام؛ لا يبدؤونهم؛ فإذا كان ذلك منهم صَدُّوهم وَرَدَعُوهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: كان ترجمان رستم عن أهل الحيرة يُدعى عَبُود.

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن مجالِد، عن الشعبيّ وسعيد بن المرزبان، قالا: دعا رستم بالمغيرة، فجاء حتى جلَس على سريره، ودعا رستم ترجمانه ـ وكان عربيّاً من أهل الحيرة، يُدعى عَبُود ـ فقال له المغيرة: ويحك يا عَبُود! أنت رجل عربيّ؛ فأبلِغْه عنّي إذا أنا تكلَّمت كما تُبلغني عنه. فقال له رستم مثل مقالته، وقال له المغيرة مثل مقالته، إلى إحدى ثلاث خلال: إلى الإسلام ولكم فيه ما لناوعليكم فيه ما علينا؛ ليس فيه تفاضُل بيننا، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون. قال: ما «صاغرون»؟ قال: أن يقوم الرجل منكم على رأس أحدِنا بالجزية يحمَده أن يقبلها منه... إلى آخر الحديث؛ والإسلام أحبّ إلينا منهما.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيدة، عن شقيق، قال: شهدتُ القادسيَّة غلاماً بعد ما احتلمت؛ فقدم سعد القادسيَّة في اثني عشر ألفاً؛ وبها أهل الأيَّام، فقدمتْ علينا مقدمّات رستم، ثمّ زحف إلينا في ستين ألفاً، فلما أشرف رستم على العسكر قال: يا معشَر العرب، ابعثوا إلينا رجلاً يكلِّمنا ونكلّمه؛ فبعث إليه المغيرةَ بن شعبة ونفراً، فلما أتوْا رستم جلس المغيرة على السَّرير، فنخر أخو رستم، فقال المغيرة: لا تنخر؛ فما زادني هذا شرفاً ولا نقص أخاك. فقال رستم: يا مغيرة، كنتم أهل شَقَاء، حتى بلغ؛ وإن كان لكم أمرٌ سِوى ذلك، فأخبرونا. ثم أخذ رستم سهماً من كنانته، وقال: لا تروْا أنّ هذه المغازل تغني عنكم شيئاً؛ فقال المغيرة مُجيباً له، فذكَر النبيّ ﷺ [قال]: فكان ممَّا رزقنا الله على يديه حبَّة تنبت في أرضكم هذه؛ فلمّا أذقناها عيالَنا، قالوا: لا صبَر لنا عنها، فجئنا لنُطعمهم أو نموت. فقال رستم: إذاً تموتون أو تُقتلون، فقال المغيرة: إذاً يدخل مَن قتِل منّا الجنّة، ويدخل مَن قَتلنا منكم النارَ، ويظفر مَن بقيَ منّا بمن بقي منكم؛ فنحن نخيّرك بين ثلاث خلال... إلى آخر الحديث. فقال رستم: لا صلح بيننا وبينكم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: أرسل إليهم سعد بقيَّة ذوي الرأي جميعاً، وحبس الثّلاثة، فخرجوا حتى أتوْه ليعظموا عليه استقباحاً، فقالوا له: إنّ أميرَنا يقول لك: إنّ الجوار يحفظ الوُلاة، وإنّي أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا، وترجع إلى أرضك وبعضنا مِن بعْض؛ إلّا أنّ داركم لكم، وأمركم فيكم؛ وما أصبتم ممّا وراءكم كان زيادة لكم دوننا؛ وكنّا لكم عوناً على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم. واتّق الله يا رستم؛ ولا يكونَنّ هلاكُ قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تُغبَط به إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك؛ فقال: إني قد كلّمت منكم

نفراً، ولو أنهم فهموا عنّي رجوت أن تكونوا قد فهِمتم، وإنّ الأمثال أوضحُ من كثير من الكلام، وسأضرب لكم مثَلكم تَبَصَّروا. إنكم كنتم أهل جَهد في المعيشة، وقَشَف في الهيئة، لا تمتنعون ولا تنتصفون، فلم نُسيء جِوارَكم، ولم ندع مواساتكم، تُقحَمون المرّة بعد المرّة، فنميركم ثم نردّكم، وتأتوننا أجَراء وتجّاراً، فنحسِن إليكم؛ فلما تطاعمتم بطعامنا، وشربتم شرابنا، وأظلَّكم ظلّنا، وصفتم لقومكم؛ فدعوتموهم، ثم أتيتمونا بهم، وإنما مثلُكم في ذلك ومثلُنا كمثل رجل كان له كَرْم، فرأى فيه ثعلباً، فقال: وما ثعلب! فانطلق الثّعلب، فدعا الثّعالب إلى ذلك الكَرْم، فلما اجتمعن عليه سدّ عليهنّ صاحبُ الكرْم الجُحر الَّذي كنّ يدخلْن منه، فقتلهنّ؛ وقد علمتُ أنّ الذي حَمَلكم على هذا الحرصُ والطمعُ والجَهد؛ فارجعوا عنّا عامَكم هذا، وامتاروا حاجتَكم، ولكم العَوْد كلّما احتجتم، فإني لا أشتهي أن أقتلكم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عُمارة بن القعقاع الضّبّي، عن رجل من يَربوع شهدهَا، قال: وقال وقد أصابَ أناس كثير منكم من أرضنا ما أرادوا، ثم كان مصيرُهم القتل والهَرَب، ومَن سنّ هذا لكم خيرٌ منكم وأقوى؛ وقد رأيتم أنتم كلَّما أصابوا شيئاً أصيب بعضهم ونجا بعضهم؛ وخرج ممّا كان أصاب، ومن أمثالكم فيما تصنعون مثل جُرْذان ألِفت جرَّة فيها حَبّ، وفي الجرَّة ثَقْب، فدخل الأوَّل فأقام فيها، وجعل الأخَر يَنقُلن منها ويرجعْنَ ويكلّمْنه في الرجوع، فيأبَى فانتهى سمن الذي في الجرّة، فاشتاق إلى أهله ليُريَهم حُسن حاله، فضاق عليه الجُحر، ولم يُطِق الخروج، فشكا القَلقَ إلى أصحابه، وسألهم المخرج، فقلن له: ما أنت بخارج منها حتى تعودَ كما كنت قبل أن تدخل، فكفّ وجوّع نفسه، وبقِيَ في الخوف، حتى إذا عاد كما كان قبل أن يدخُلَها أتى عليه صاحب الجَرَة فقتله. فاخرُجوا ولا يكونَنّ هذا لكم مثلاً.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه، قال: وقال: لم يخلق الله خلْقاً أولَع من ذُباب ولا أضرّ؛ ما خلاكم يا معشر العرب؛ تروْن الهلاك ويُدلِيكم فيه الطّمع؛ وسأضرب لكم مثلكم: إنّ الذّباب إذا رأى العسَل طار، وقال: مَن يوصّلني إليه وله درهمان حتى يدخله؟ لا ينهنهُه أحد إلا عصاه، فإذا دخله غرق ونشِب وقال: مَن يخرجني وله أربعة دراهم؟ وقال أيضاً: إنما مثلُكم مثل ثعلب دخل جُحراً وهو مهزول ضعيف إلى كَرْم، فكان فيه يأكل ما شاء الله، فرآه صاحب الكَرْم، ورأى ما به، فرحمه، فلمّا طال مكثُه في الكرَمْ وسمِن، وصلَحت حالُه، وذهب ما كان به من الهزال أشِر، فجعل يعبث بالكَرْم ويُفسد أكثر ممّا يأكل، فاشتدّ على صاحب الكَرْم، فقال: لا أصبر عليَ هذا من أمر هذا، فأخذ له خشبة واستعان عليه غِلمانه، فطلبوه وجعل يراوغهم في الكَرْم، فلَّما رأى أنَّهم غيرُ مُقلعين عنه، ذهب ليخرج من الجُحر الَّذي دخل منه، فنشب. اتَّسع عليه وهو مهزول، وضاق عليه وهو سمين؛ فجاءه وهو على تلك الحال صاحب الكَرْم، فلم يزل يضربه حتى قتله، وقد جئتم وأنتم مهازيل؛ وقد سمنتُم شيئاً من سِمَن؛ فانظروا كيف تخرجون! وقال أيضاً: إنَّ رجلاً وضع سَلاًّ، وجعل طعامه فيه؛ فأتى الجِرذان، فخرقوا سلَّه، فدخلوا فيه فأراد سدّه، فقيل له: لا تفعل، إذاً يخرِقْنَه، ولكن انقب بحياله؛ ثم اجعل فيها قصبة مجوَّفة، فإذا جاءت الجُرذان دخلْن من القصبة وخرجن منها، فكلَّما طلع عليكم جُرَذ قتلتموه. وقد سددتُ عليكم؛ فإيَّاكم أن تقتحموا القصَبة، فلا يخرج منها أحدٌ إلاّ قُتل، وما دعاكم إلى ما صنعتم؛ ولا أرى عَدداً ولا عُدّة!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد وطلحة بإسنادهما وزياد معهما، قالوا: فتكلَّم القوم

فقالوا: أمَّا ما ذكرتم من سُوء حالِنا فيما مضى، وانتشار أمرِنا، فلمَّا تبلغ كُنْهَه! يموت الميّت منَّا إلى النار، ويبقى الباقي منّا في بؤس؛ فبينا نحن في أسْوَإ ذلك؛ بعث الله فينا رَسُولاً مِن أنْفُسِنا إلى الإنس والجنّ، رحمةً رحم بها مَن أراد رحْمَتَه، ونقمة ينتقم بها ممن ردَّ كرامته؛ فبدأ بنا قبيلةً قبيلة، فلم يكن أحدٌ أشدّ عليه؛ ولا أشدّ إنكاراً لما جاء به، ولا أجهد على قتله وردّ الذي جاء به من قومِه، ثم الَّذين يلُونهم، حتى طابقْناه على ذلك كلّنا، فنصبنا له جميعاً، وهو وحده فَردٌ ليس معه إلاّ الله تعالى،فأُعطِيَ الظَّفَر علينا، فدخل بعضُنا طوعاً، وبعضنا كرهاً، ثم عرفنا جميعاً الحقّ والصّدق لما أتانا به من الآيات المعجزة؛ وكان ممَّا أتانا به من عند رَبّنا جِهاد الأدنى فالأدنى، فسِرنا بذلك فيما بيننا، نرى أنّ الذي قال لنا ووعَدنا لا يُخرَم عنه ولا يُنقَض؛ حتى اجتمعت العرب على هذا، وكانوا من اختلاف الرّأي فيما لا يطيق الخلاَئق تأليفهم. ثم أتيناكم بأمر ربّنا، نجاهد في سبيله، ونَنفُذ لأمره، وننتجز موعودَه، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه؛ فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلَّفنا فيكم كتابَ الله؛ وإن أبيتم لم يحلّ لنا إلاّ أن نعاطيَكم القتال أو تفتدوا بالجزَى؛ فإن فعلتم وإلا فإنّ الله قد أورثنا أرضَكم وأبناءكم وأموالكم. فاقبلوا نصيحتَنا؛ فوالله لإسلامُكم أحبُّ إلينا من غنائمكم، ولَقتالكم بعدُ أحبّ من صلحكم. وأمَّا ما ذكرت من رثاثتنا وقلَّتنا فإنّ أداتَنا الطاعة، وقتالَنا الصبر. وأمَّا ما ضربتم لنا من الأمثال، فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجِدّ الهزل؛ ولكنّا سنضرب مثلكم، إنَّما مثلُكم مثلُ رجل غَرَس أرضاً، واختار لها الشَّجَر والحَبّ، وأجرى إليها الأنهار، وزيَّنها بالقصور، وأقام فيها فلاّحين يسكنون قصورها، ويقومون على جنّاتها، فخلاَ الفلاحون في القصور على ما لا يحبّ، وفي الجنان بمثل ذلك، فأطال نظرتهم؛ فلمَّا لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم؛ استعتَبهم فكابروه، فدعا إليها غيرهم، وأخرجهم منها؛ فإن ذهبوا عنها تخطَّفهم النَّاس، وإن أقاموا فيهاصارُوا خَوَلاً لهؤلاء يملكونهم؛ ولا يملَّكون عليهم؛فيسومونهم الخَسْفَ أبداً؛ ووالله أن لو لم يكن ما نقول لك حقاً، ولم يكن إلاَّ الدنيا، لما كان لنا عَمّا ضرِينَا به من لذيذ عيشكم، ورأينا من زِبْرِجكم من صبرٍ، ولقارعناكم حتى نغلبَكم عليه.

فقال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبرُوا إلينا، فخرجوا من عنده عشيّاً، وأرسل سعد إلى النَّاس أن يقفوا مواقفَهم، وأرسل إليهم: شأنَكم والعبور؛ فأرادوا القنطرة، فأرسل إليهم: لا ولا كرامة! أمّا شيء قد غلبناكم عليه فلن نردَّه عليكم؛ تكلَّفوا مِعبراً غير القناطر، فباتوا يسكُرون العتيق حتى الصباح بأمتعتهم.

يوم أرماث

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد، عن عبيد الله، عن نافع وعن الحكَم، قالا: لمَّا أراد رستم العبورَ أمر بسَكْر العتيق بحيال قادس، وهو يومئذ أسفل منها اليوم ممَّا يلي عين الشمس، فباتوا ليلَتَهم حتَّى الصباح يسكُرون العتيق بالتراب والقَصَب والبراذع حتى جعلوه طريقاً، واستُتِمّ بعد ما ارتفع النهار من الغد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: ورَأى رستم من الليل أن ملَكاً نزل من السماء، فأخذ قسيّ أصحابه، فختم عليها، ثم صعِد بها إلى السماء؛ فاستيقظ مهموماً محزوناً، فدعا خاصته فقصّها عليهم، وقال: إنَّ الله لَيعظُنا، لو أنّ فارس تركوني أتَّعظ! أما ترَوْن النصر قد رُفع

عنّا، وترون الريح مع عدوّنا، وأنّا لا نقوم لهم في فعل ولا مَنطق، ثم هم يريدون مغالبة بالجبريّة! فعبروا بأثقالهم حتى نزلُوا على ضَفَّة العتيق.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأعْمَش، قال: لمّا كان يوم السّكْر، لبس رستم درعَيْن ومِغفراً وأخذ سلاحه، وأمر بفرسه فأسرج، فأتِيَ به فوثَب؛ فإذا هو عليه لم يمسّه ولم يضع رِجله في الرِّكاب، ثم قال: غداً ندقّهم دقّاً، فقال له رجل: إن شاء الله، فقال: وإن لم يشأ.

كتبَ إليّ السريُّ، بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: قال رستم: إنّما ضَغَا الثعلب حين مات الأسد ـ يذكرّهم موتَ كسرى ـ ثم قال لأصحابه: قد خشيتُ أن تكونَ هذه سنة القرود. ولما عَبر أهل فارس أخذوا مصافَّهم، وجلس رستم على سريره وضُرب عليه طيّارة، وعبّى في القلب ثمانية عشر فيلاً، عليهَا الصناديق والرِّجال، وفي المجنِّبتين ثمانية وسبعة، عليها الصناديق والرّجال، وأقام الجالِنوس بينه وبين ميمنته والبِيرزان بينه وبين ميسرته، وبقيت القنطرة بين خيلَيْن من خيول المسلمين وخيول المشركين؛ وكان يَزْدَجِرد وَضَع رجُلاً على باب إيوانه، إذ سرّح رستم، وأمَره بلزومه وإخباره، وآخرَ حيث يسمعه من الدّار، وآخر خارج الدار، وكذلك علىَ كلّ دعوة رجلاً؛ فلما نزل رستم، قال الذي بساباط: قد نزل، فقاله الآخر. . . حتى قاله الذي على باب الإيوان؛ وجعل بين كلّ مرحلتَيْن على كلّ دعوة رجلاً؛ فكلّما نزل وارتحل أو حدث أمرٌ قاله؛ فقاله الذي يليه، حتى يقوله الذي يلي باب الإيوان؛ فنظّم ما بين العتيق والمدائن رجالاً، وترك البُرُد، وكان ذلك هو الشأن.

وأخذ المسلمون مصافَّهم، وجُعِل زُهرة وعاصم بين عبد الله وشُرَحبيل، ووكّل صاحب الطلائع بالطِّراد، وخلَط بين الناس في القلب والمجنَّبات، ونادى مناديه: ألا إنّ الحسد لا يحلّ إلاّ على الجهاد في أمر الله يا أيها الناس؛ فتحاسدوا وتغَايروا على الجهاد. وكان سعد يومئذ لا يستطيعُ أن يركبَ ولا يجلس، به حبُون، فإنّما هو على وجهه في صدره وسادة، هو مُكِبّ عليها، مُشرِف على الناس من القَصْر، يرمي بالرِّقاع فيها أمرُه ونهيُه، إلى خالد بن عُرْفطة، وهو أسفل منه؛ وكان الصفّ إلى جنب القَصْر، وكان خالد كالخليفة لسعد لو لم يكن سعد شاهداً مُشرِفاً.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن القاسم بن الوليد الهمْداني، عن أبيه، عن أبي نِمْران، قال: لمّا عَبَر رستم تحوّل زُهرة والجالنوس، فجعل سعد زُهرةَ مكان ابن السِّمط، وجعل رستم الجالِنوس مكان الهُرْمُزان، وكان بسعد عِرْق النَّسَا ودَماميل، وكان إنما هو مكبٌّ، واستخلف خالد بن عُرْفُطة علَى الناس، فاختلف عليه الناس، فقال: احملوني، وأشرِفوا بي على النَّاس؛ فارتقَوْا به، فأكبَّ مطَّلعاً عليهم، والصفُّ في أصل حائط قُدَيْس؛ يأمر خالداً فيأمر خالد الناس، وكان ممَّن شغب عليه وجوهٌ من وجوه النَّاس، فهمّ بهم سعد وشتَمهم، وقال: أمَا والله لولاَ أنّ عدوّكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم! فحبسهم ـ ومنهم أبو مِحْجَن الثَّقفِي ـ وقيّدهم في القصر، وقال جرير: أما إني بايعت رسولَ الله ﷺ على أن أسمعَ وأطيع لمن ولاَّه الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً، وقال سعد: والله لا يعود أحدٌ بعدها يحبس المسلمين عن عدوّهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلاّ سُنَّت به سُنَّة يؤخذ بها مِنْ بعدي.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: إنّ سعداً خطب

مَنْ يليه يومئذ؛ وذلك يوم الاثنين في المحرّم سنة أربع عشرة، بعد ما تهدّم على الذين اعترضوا على خالد بن عُرْفُطة فحمِد الله وأثنى عليه. وقال: إن الله هو الحقّ لا شريك له في المُلك؛ وليس لقوله خلْف، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١)، إنّ هذا ميراثكم وموعود ربّكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حِجَج؛ فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها، وتقتلون أهلها، وتجْبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيّام منكم، وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوهُ العرب وأعيانُهم، وخيار كلّ قبيلة، وعِزُّ مَن وراءكم؛ فإن تَزْهدوا في الدّنيا وترغبوا في الآخرة جَمَع الله لكم الدُّنيا والآخرة، ولا يقرّب ذلك أحداً إلى أجلِه، وإنْ تفشَلوا وتَهِنوا وتضعُفوا تذهب ريحُكم، وتُوبقوا آخرتكم.

وقام عاصم بن عمرو في المجرّدة؛ فقال: إنَّ هذه بلاد قد أحلّ الله لكم أهلَها، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم، وأنتم الأعلوْن والله معكم؛ إن صبرتم وصدقتموهم الضّرب والطعن فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم؛ وإن خُرتم وفشِلتم فالله لكم من ذلك جار وحافظ، لم يُبق هذا الجمع منكم باقية؛ مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك. الله الله! اذكروا الأيّام وما منحكم الله فيها؛ أوَلا ترون أنّ الأرض وراءكم بسابس قِفارٌ ليس فيها خَمَر ولا وَزَر يُعقل إليه، ولا يُمتنَع به! اجعلوا همّكم الآخرة.

وكتب سعد إلى الرّايات: إني قد استخلفتُ عليكم خالد بن عُرْفُطة، وليس يمنعني أن أكونَ مكانَه إلاّ وَجَعي الذي يعودُني وما بي من الحُبون، فإنّي مُكبّ على وجهي وشخصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنّه إنّما يأمركم بأمري، ويعمل برأيي. فقُرِىء على النّاس فزادهم خيراً، وانتهوْا إلى رأيه، وقبلوا منه وتحاثّوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عُذر سعد والرّضا بما صنع.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن حلاّم، عن مسعود، قال: وخطب أمير كلّ قوم أصحابَه، وسيّر فيهم، وتحاضّوا على الطاعة والصبر تواصَوْا؛ ورجع كلّ أمير إلى موقفه بمن والاه من أصحابه عند المواقف؛ ونادى مُنادي سعد بالظُّهر، ونادى رستم: «پادِشَهانِ مَرَنْدر»، أكل عمر كبِدِي أحرق الله كبده! علَّم هؤلاء حتى علموا.

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، قال: حدّثنا سيف، عن النَّضر، عن ابن الرُّفيل، قال: لمّا نزل رستم النَّجَف بعثَ منها عيناً إلى عسكر المسلمين، فانغمس فيهم بالقادسيَّة كبعض مَن ندّ منهم، فرآهم يستاكون عند كلّ صلاة ثم يصلّون فيفترقون إلى مواقفهم، فرجع إليه فأخبره بخبرهم، وسيرتهم، حتى سأله: ما طعامهم؟ فقال: مكثتُ فيهم ليلةً، لا والله ما رأيت أحداً منهم يأكل شيئاً إلا أن يمصُّوا عِيدَاناً لهم حين يُمْسُون، وحين ينامون، وقُبيلَ أن يُصبِحوا. فلمّا سار فنزل بين الحصن والعتيق وافقهم وقد أذّن مؤذّن سعد الغداة، فرآهم يتحشحشون؛ فنادى في أهل فارس أنْ يركبوا، فقيل له: ولِمَ؟ قال: أما ترون إلى عدّوكم قد نُودِيَ فيهم فتحشحشوا لكم! قال عينه: ذلك إنما تحشُحُشهم هذا للصلاة، فقال بالفارسية، وهذا تفسيره بالعربية. أتاني صوت عند الغداة، وإنما هو عُمَر الذي يكلّم الكلاب فيعلّمهم العقل، فلمّا عبروا تواقفوا، وأذّن مؤذّن سعد للصّلاة، فصلَّى سعد، وقال رستم: أكل عمر كَبِدِي!

كتب إليّ السريُّ، قال: حدّثنا شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: وأرسل

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

سعدُ الذين انتهى إليهم رأيُ الناس، والذين انتهت إليهم نجدتُهم وأصناف الفَضْل منهم إلى الناس، فكان منهم من ذوِي الرأي النَّفُر الذين أتوا رستم المغيرةُ، وحُذَيفة، وعاصم؛ وأصحابهم؛ ومن أهل النجدة طُلَيْحة، وقَيس الأسديّ، وغالب، وعمرو بن مَعْد يكرب وأمثالهم؛ ومن الشعراء الشَّمّاخ والحُطَيْئة، وأوس بن مَغْراء، وعبْدة بن الطبيب؛ ومن سائر الأصناف أمثالهم. وقال قبل أن يُرسلهم: انطلقوا فقومُوا في النَّاس بما يحقّ عليكم ويحقّ عليهم عند مواطن البأس؛ فإنَّكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شُعراء العرب وخُطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في الناس، فذكِّروهم وحَرِّضوهم على القتال، فساروا فيهم. فقال قيس بن هُبَيرة الأسَديّ: أيُّها الناس، احمَدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يَزِدْكم، واذكروا آلاءَ الله، وارغَبوا إليه في عاداته؛ فإنّ الجنّة أو الغنيمة أمامكم؛ وإنه ليس وراء هذا القصْر إلا العراء والأرض القَفْر، والظِّراب الخُشْن، والفلوات التي لا تقطعها الأدِلّة.

وقال غالب: أيّها الناس، احمَدوا الله على ما أبلاكم، وسلوه يزدْكم، وادعوه يُجِبْكم؛ يا معاشر مَعَدّ؛ ما علَّتُكم اليوم وأنتم في حصونكم ـ يعني الخيل ـ ومعكم من لا يعصيكم ـ يعني السيوف؟ اذكروا حديث الناس في غدٍ؛ فإنه بكم غداً يُبْدَأ عنده، وبمن بعدكم يُثنَّى.

وقال ابن الهُذيْل الأسديّ: يا معاشر معدّ، اجعلوا حصونَكم السيوف، وكونوا عليهم كأسود الأجَم، وترَبَّدوا لهم تربُّد النُّمور، وادَّرِعوا العَجاج، وثقوا بالله. وغُضّوا الأبصار، فإذا كلَّت السيوف فإنها مأمورة، فأرسلوا عليهم الجنادل، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه.

وقال بُسْر بن أبي رُهْم الجُهَنيّ: احمَدوا الله، وصدّقوا قولكم بفعل، فقد حمِدتم الله على ما هداكم له ووحّدتموه ولا إله غيره، وكبرتموه، وآمنتم بنبيّه ورُسُله فلا تَموتُنّ إلا وأنتم مُسْلِمون؛ ولا يكوننّ شيء بأهونَ عليكم من الدُّنيا، فإنها تأتي مَن تهاون بها، ولا تميلوا إليها فتهرُب منكم لتميلَ بكم. انصُرُوا الله ينصُركم.

وقال عاصم بن عمرو: يا معاشَر العرب؛ إنَّكم أعيانُ العرب، وقد صمدتم الأعيان من العجم؛ وإنما تخاطرون بالجنَّة، ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونُنّ على دنياهم أحوطَ منكم على آخرتكم. لا تحدِثوا اليوم أمراً تكونون به شَيْئاً على العَرَب غداً.

وقال ربيع بن البلاد السعديّ: يا معاشَر العرب، قاتلوا للدّين والدُّنيا؛ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوَاتُ وَالأرْضُ أعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين ﴾ (١)، وإن عظَّم الشيطان عليكم الأمْر، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل.

وقال رِبْعيّ بن عامر: إنّ الله هداكم للإسلام، وجمعكم به، وأراكم الزّيادة، وفي الصبر الـرّاحة، فعَوّدوا أنفسَكم الصبر تعتادوه، ولا تعوّدوها الجَزَع فتعتادوه.

وقام كلّهم بنحو من هذا الكلام، وتواثَق الناس، وتعاهدوا، واهتاجوا لكلّ ما كان ينبغي لهم، وفعل أهلُ فارس فيما بينهم مثلَ ذلك، وتعاهدوا وتواصوْا؛ واقترنوا بالسلاسل؛ وكان المقترنون ثلاثين ألفاً.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ: إنَّ أهل فارس كانوا عشرين ومائة

(١) سورة آل عمران: ١٣٣.

ألف، معهم ثلاثون فيلاً، مع كل فيل أربعة آلاف.

كتب إليّ السريُّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن حلاّم عن مسعود بن خِراش، قال: كان صفّ المشركين على شفير العتيق، وكان صفّ المسلمين مع حائط قُدَيْس، الخندقُ من ورائهم. فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق. ومعهم ثلاثون ألف مسلسَل. ، وثلاثون فيلا تُقاتِل، وفِيَلة عليها الملوك وقوف لا تُقاتل. وأمر سعد النَّاس أن يقرؤوا على الناس سورة الجهاد، وكانوا يتعلّمونها.

وكتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: قال سعد: الزمُوا مواقفَكم، لا تحرّكوا شيئاً حتى تصلّوا الظهر، فإذا صلَّيتم الظهر فإنّي مكبِّر تكبيرةً، فكبِّروا واستعدّوا. واعلموا أنّ التّكبير لم يُعْطَه أحدٌ قبلَكم، واعلموا أنّما أعطيتموه تأييداً لكم. ثم إذا سمعتم الثانية فكبِّروا، ولتُستَتم عُدّتكم، ثم إذا كبَّرت الثالثة فكبِّروا، ولينشِّط فرسانُكم الناس ليبرزوا وليطاردوا، فإذا كبّرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوّكم؛ وقولوا: لا حول ولا قوّة إلا بالله!

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن الريَّان، عن مُصْعَب بن سعد، مثله.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن زكريَّاء، عن أبي إسحاق، قال: أرسل سعد يوم القادسيَّة في النَّاس: إذا سمعتم التَّكبير فشدّوا شُسوع نعالكم، فإذا كبَّرتُ الثانية فتهيَّؤوا، فإذا كبّرت الثالثة فشدّوا النواجذ على الأضراس واحملوا.

كتب إليّ السريُّ بن يحيى، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: لمَّا صلَّى سعد الظهر أمر الغلام الَّذي كان ألزمه عمر إيَّاه ـ وكان من القرّاء ـ أن يقرأ سورة الجهاد، وكان المسلمون يتعلَّمونها كلّهم، فقرأ على الكتيبَة الذين يلُونه سورةَ الجهاد، فقرئت في كلّ كتيبة، فهشَّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: لما فرغ القُرّاء كبَّر سعد، فكبَّر الذين يلُونه تكبيرة، وكبَّر بعض الناس بتكبير بعض، فتحشحش الناس، ثم ثنَّى فاستتَمَّ الناس، ثم ثلَّث فبرز أهلُ النَّجدات فأنشبوا القتال، وخرج من أهل فارس أمثالُهم، فاعتوروا الطَّعن والضرب، وخرج غالب بن عبد الله الأسديّ وهو يقول:

قــد عَـلِمَـتْ واردَةُ الـمســائـحِ ذاتُ اللَّبَــانِ والبنــانِ الــواضــحِ
أنِّي سِمَــامُ البَـطَلِ المُشَــايــحِ وفــارِجُ الأمْــرِ المُـهِـمّ الـفــادِحِ

فخرج إليه هُرْمُز ـ وكان من ملوك الباب، وكان متوَّجاً ـ فأسره غالب أسراً، فجاء سعداً، فأدخِل، وانصرف غالب إلى المطاردة، وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول:

قــد عَلِمَتْ بَيْضـاء صَفْــراءُ اللَّبَبْ مِثْــلُ اللُّجَيْن إذْ تَغَشّــاهُ الــذَّهَــبْ
أنِّي امْــرُؤٌ لا مَنْ تَـعيبُــه السُّبَبْ مِثْلي على مِثْلِك يُغْــريــهِ الـعَـتَـبْ

فطارد رجلاً من أهل فارس، فهرب منه واتّبعه، حتى إذا خالط صفَّهم التقى بفارس معه بغله، فترك الفارس البَغل، واعتصم بأصحابه فحموْه، واستاق عاصم البغل والرَّحْل، حتى أفضى به إلى الصفّ، فإذا هو

خبّاز الملك وإذا الّذي معه لَطَفُ الملك الأخبصةُ والعسل المعقود، فأتى به سعداً، ورجع إلى موقفه، فلمّا نظر فيه سعد، قال: انطلقوا به إلى أهل موقفه، وقال: إنَّ الأمير قد نفَّلكم هذا فكلُوه، فنفّلهم إياه. قالوا: وبينا الناس ينتظرون التكبيرة الرابعة، إذ قام صاحب رجّالة بني نَهْد قيس بن حِذيَم بن جُرثومة، فقال: يا بني نَهْد انهدوا، إنما سمِّيتم نَهْداً لتفعلوا. فبعث إليه خالد بن عُرفُطة: والله لتكُفَّنّ أَوْ لأولِّيَنّ عملَكَ غيرَك. فكَفّ.

ولما تطاردت الخيل والفُرسان خرج رجُلٌ من القوم ينادي: مَرد ومَرد، فانتدب له عمرو بن معديكرب وهو بحياله، فبارزه فاعتنقه، ثم جلَد به الأرض فذبحه، ثم التفتَ إلى النَّاس، فقال: إن الفارسيّ إذا فقد قوسَه فإنما هو تَيْس. ثم تكتَّبت الكتائب من هؤلاء وهؤلاء.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: مرّ بنا عمرو بن معديكرب وهو يحضّض الناس بين الصّفين، وهو يقول: إنَّ الرجل مِن هذه الأعاجم إذا ألقى مِزراقه، فإنَّما هو تيْس؛ فبينا هو كذلك يحرّضنا إذ خرج إليه رجلٌ من الأعاجم، فوقف بين الصفَّين فرمى بنُشَّابة، فما أخطأت سِيَةَ قوسِه وهو متنكِّبها، فالتفت إليه فحمل عليه، فاعتنقه، ثم أخذ بمِنْطقَته، فاحتمله فوضعه بين يديه، فجاء به حتى إذا دنا منَّا كسر عنقَه، ثم وضع سيفَه على حَلْقه فذبحه، ثم ألقاه. ثم قال: هكذا فاصنعوا بهم! فقلنا: يا أبا ثَور، مَن يستطيع أن يصنع كما تصنع!

وقال بعضهم غير إسماعيل: وأخذ سوارَيْه ومِنْطقته ويلْمَق ديباج عليه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم؛ أنَّ الأعاجم وجَّهت إلى الوجه الّذي فيه بَجيلةُ ثلاثة عشر فيلاً.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: كانت - يعني وقعة القادسيَّة - في المحرّم سنة أربع عشرة في أوله. وكان قد خرج من الناس إليهم، فقال له أهل فارس: أحِلْنا، فأحالهم على بَجِيلة، فصرفوا إليهم ستَّة عشر فيلاً.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد قالوا: لمَّا تكتَّبت الكتائب بعد الطِّراد حمل أصحاب الفيَلة عليهم، ففرّقت بين الكتائب، فابذعرّت الخيل؛ فكادت بَجيلة أن تُؤكل؛ فَرّت عنها خيلُها نِفاراً، وعمَّن كان معهم في مواقفهم، وبقيت الرجَّالة من أهل المواقف، فأرسل سعد إلى بني أَسَد: ذبّبوا عن بَجيلة ومن لافَّها من الناس؛ فخرج طُلَيحة بن خُوَيْلِدٍ وحَمَّال بن مالك وغالب بن عبد الله والرِّبِّيل بن عمرو في كتائبهم، فباشروا الفيَلة حتى عدلها ركبانها؛ وإنَّ على كلّ فيل عشرين رجلاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن موسى بن طريف، أن طُلَيحة قام في قومه حين استصرخهم سعد، فقال: يا عشيرتاه؛ إنَّ المنوَّه باسمه، الموثوق به، وإنَّ هذا لو علم أنّ أحداً أحقّ بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم؛ ابتدئوهم الشّدّة، وأقدِموا عليهم إقدام اللّيُوث الحَربة؛ فإنّما سمِّيتم أسَداً لتفعلوا فعِله؛ شدّوا ولا تصدُّوا، وكرُّوا ولا تفِرُّوا، لله درُّ ربيعة! أي فَرِيّ يَفْرون! وأيَّ قِرْن يُغنون! هل يوصَل إلى مواقفهم! فأغنوا عن مواقفكم أعانكم الله! شدّوا عليهم باسم الله، فقال المَعْرور بن سوَيْد وشَقيق: فشدّوا والله عليهم فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسْنا الفيلة عنهم؛ فأخِّرتْ، وخرج إلى طُلَيْحة عظيم منهم فبارزه؛ فما لبَّثه طليحة أن قتله.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: وقام الأشعث بن قيس فقال: يا معشرَ كِنْدة؛ لله درُّ بني أسد! أيّ فَرِيّ يفْرُون! وأيَّ هَذّ يَهُذُّون عن موقفهم منذ اليوم. أغنى كلّ قوم ما يليهم؛ وأنتم تنتظرون مَن يكفيكم البأس! أشهَدُ ما أحسنتم أسوَة قومكم العرب منذ اليوم، وإنهم ليُقتَلون ويقاتلون؛ وأنتم جثاةٌ على الرُّكب تنظرون! فوثب إليه عدد منهم عشرة؛ فقالوا: عثَّر الله جَدَّك! إنَّك لتؤبِّسُنا جاهداً، ونحن أحسنُ الناس موقفاً! فمن أين خذلْنا قومنا العرب وأسأنا إسوتهم! فها نحن معك. فنَهد ونَهدوا، فأزالوا الَّذين بإزائهم، فلمّا رأى أهلُ فارس ما تلقى الفِيَلة من كتيبة أسد رَمَوْهم بحدّهم وبدر المسلمين الشِّدة عليهم ذو الحاجب والجالنوس، والمسلمون ينتظرون التَّكبيرة الرابعة من سعد، فاجتمعت حَلْبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة، وقد ثبتوا لهم؛ وقد كبَّر سعد الرّابعة، فزحف إليهم المسلمون ورحَى الحرب تدور على أسَد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة على الخيول؛ فكانت الخيول تُحْجِم عنها وتَحيد، وتلحّ فرسانهم على الرَّجْل يشمّسون بالخيل؛ فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو، فقال: يا معشرَ بني تميم؛ ألستم أصحابَ الإبل والخيل! أما عندكم لهذه الفيَلة من حيلة! قالوا: بلى والله؛ ثم نادى في رجال من قومه رماة وآخَرين لهم ثَقافة، فقال لهم: يا معشرَ الرماة ذبُّوا ركبان الفِيَلة عنهم بالنَّبْل، وقال: يا معشرَ أهل الثقافة استدبِروا الفِيَلة فقَطِّعُوا وُضنها؛ وخرج يحميهم والرّحى تدور على أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد؛ وأقبل أصحاب عاصم على الفيَلة، فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتها، فقطَعوا وضُنَها، وارتفع عُواؤهم؛ فما بقيَ لهم يومئذ فيل إلاّ أعرِيَ، وقُتل أصحابها، وتقابل الناس ونُفِّس عن أسد، وردّوا فارسَ عنهم إلى مواقفهم؛ فاقتتلوا حتى غربت الشمس. ثمَّ حتى ذهبت هَدأة من الليل؛ ثم رجع هؤلاء وهؤلاء؛ وأصيب من أسد تلك العشيّة خمسمائة؛ وكانوا ردءاً للنَّاس؛ وكان عاصم عادية النَّاس وحاميتهم؛ وهذا يومها الأوّل وهو يوم أرماث.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن، عن القاسم، عن رجل من بني كنانة، قال: جالت المجنَّبات ودارت على أسد يوم أرماث فقتِل تلك العشيَّة منهم خمسمائة رجل؛ فقال عمرو بن شَأس الأسديّ:

جَلَبْنَا الخَيْلَ من أكنافِ نِيقٍ ... إلى كِسْرَى فوافَقَها رِعالا
تَرَكْنَ لهم على الأقسام شجواً ... وبالْحَقْوَيْنِ أيَّاماً طِوالا
وداعِيةٍ بفارِسَ قد تَرَكْنا ... تُبَكِّي كُلَّما رَأتِ الهِلالا
قَتَلنا رُسْتُماً وبَنِيه قَسْراً ... تُثِيرُ الخيل فوقَهُم الهَيالا
تركْنا منهُمُ حَيْثُ التَقيْنا ... فِئاماً ما يُريدون ارتِحالا
وفَرّ البِيرُزانُ ولم يُحامِي ... وكان على كتيبتِه وَبالا
ونَجّى الهُرْمُزَانَ حِذارُ نَفْسٍ ... وركْضُ الخيلِ مُوصِلةً عِجالا

يوم أغواث

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وكان سعد قد تزوّج سلْمَى بنت خَصَفة؛ امرأة المثنَّى بن حارثة قبله بشرَاف، فنزل بها القادسيَّة، فلمَّا كان يوم أرماث، وجال الناسُ، وكان لا

يُطيق جِلْسةً إلَّا مستوفِزاً أو على بطنه؛ جعل سعد يَتَململ ويَحُول جَزَعاً فوق القصر؛ فلمَّا رأت ما يصنع أهلُ فارس، قالت: وامُثنَّياهُ ولا مُثنَّى للخيل اليوم! ـ وهي عند رجل قد أضجره ما يَرى من أصحابه وفي نفسه ـ فلطَم وجهها، وقال: أين المثنّى من هذه الكتيبة التي تدورُ عليها الرّحى! ـ يعني أسداً وعاصماً وخيله ـ فقالت: أغَيْرةً وجُبْناً! قال: والله لا يعذِرني اليوم أحد إذا أنتِ لم تعذريني وأنتِ تَرَيْنَ ما بي، والناس أحقُّ ألّا يعذِروني! فتعلَّقها الناس؛ فلمّا ظهر النَّاس لم يبقَ شاعر إلَّا اعتدّ بها عليه، وكان غير جَبان ولا ملوم. ولمَّا أصبح القوم من الغد أصبحوا على تعبية، وقد وكّل سعد رجالاً بنقل الشهداء إلى العُذيْب ونقل الرّثيث؛ فأمَّا الرّثيث فأسلِمَ إلى النساء يقمْن عليهم إلى قضاء الله عزّ وجلّ عليهم؛ وأمَّا الشُّهداء فدفنوهم هنالك على مُشرّق ـ وهو وادٍ بين العُذيْب وبين عين الشمس في عُدْوَتَيْه جميعاً؛ الدنيا منهما إلى العُذَيب والقُصوى منهما من العُذيب ـ والنَّاس ينتظرون بالقتال حَمْلَ الرّثيث والأموات؛ فلمّا استقلّت بهم الإبل وتوجَّهت بهم نحو العُذَيب طلعت نواصي الخيل من الشأم ـ وكان فتح دِمَشْق قبل القادسيَّة بشهر ـ فلمّا قدم على أبي عُبَيدة كتاب عمر بصرف أهلِ العراق أصحاب خالد؛ ولم يذكر خالداً ضنَّ بخالد فحبسه وسرّح الجيش؛ وهم ستة آلاف؛ خمسة آلاف من ربيعة ومُضر وألف من أفناء اليَمن من أهل الحجاز؛ وأمَّر عليهم هـاشم بن عُتبة بن أبي وقَّـاص، وعلى مقـدّمته القعقاع بن عمرو، فجعله أمامه؛ وجعل على إحدى مجنّبَتَيْه قيس بن هُبيرة بن عبد يغوث المراديّ ـ ولم يكن شهد الأيّام، أتاهم وهم باليرموك حين صُرِف أهل العراق وصُرف معهم ـ وعلى المجنَّبة الأخرى الهَزهاز بن عمرو العِجليّ، وعلى الساقة أنس بن عبَّاس. فانجذب القعقاع وطوى وتعجَّل، فقدم على الناس صبيحة يوم أغواث، وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطّعوا أعشاراً؛ وهم ألف، فكُلَّما بلغ عشرة مَدَى البَصَر سرَّحوا في آثارهم عشرة، فقدّم القعقاع أصحابه في عشرة، فأتى النَّاس فسلَّم عليهم؛ وبشّرهم بالجنود، فقال: يا أيّها الناس؛ إنّي قد جئتكم في قوم؛ والله أن لو كانوا بمكانكم، ثم أحسُّوكم حسدوكم حُظْوتَها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم، فاصنعوا كما أصنع، فتقدّم ثم نادى: مَن يبارز؟ فقالوا فيه بقول أبي بكر: لا يُهْزَم جيشٌ فيهم مثل هذا، وسكنوا إليه؛ فخرج إليه ذو الحاجب، فقال له القعقاع: مَن أنت؟ قال: أنا بهْمَن جاذَوَيْه، فنادى: يا لِثارات أبي عبيد وسَليط وأصحاب يوم الجِسْر! فاجتلدا، فقتله القعقاع، وجعلت خيله تَرِد قِطَعاً، وما زالت تـرِدُ إلى الليل وتنشّط الناس؛ وكأن لم يكن بالأمس مصيبة؛ وكأنّما استقبلوا قتالَهم بقتل الحاجبيّ وللحاق القِطَع، وانكسرت الأعاجم لذلك. ونادى القعقاع أيضاً: مَن يبارز؟ فخرج إليه رجلان: أحدهما البِيرزان والآخر البِنْدوان؛ فانضمّ إلى القعقاع الحارث بن ظَبْيان بن الحارث أخو بني تَيْم اللّات، فبارز القعقاع البِيرزان، فضربه فأذرى رأسَه، وبارز ابن ظَبْيان البِندوان، فضربه فأذرى رأسَه، وتورَّدهم فرسان المسلمين، وجعل القعقاع يقول: يا معاشِرَ المسلمين، باشروهم بالسيوف، فإنَّما يُحْصَد الناس بها! فتواصى النَّاس، وتشايعوا إليهم، فاجتلدوا بها حتَّى المساء. فلم يرَ أهل فارس في هذا اليوم شيئاً ممَّا يعجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتْل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فِيل، كانت توابيتها تكسَّرت بالأمس، فاستأنفوا علاجها حين أصبحوا فلم ترتفع حتى كان الغد.

كتب إليَّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: كانت امرأة من النَّخع لها بنون أربعة شهدوا القادسيَّة؛ فقالت لبنِيها: إنَّكم أسلمتم فلم تُبدّلوا، وهاجرتم فلم تثوبُوا، ولم تَنْبُ بكم البلاد، ولم تُقحِمكم السَّنة، ثم جئتم بأمِّكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس؛ إنّكم لبنُو رجل واحد، كما أنّكم بنو امرأة واحدة، ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحت خَالكم؛ انطلِقوا فاشهدوا أوّل القتال وآخرَه.

فأقبلوا يشتدّون، فلمّا غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء، وهي تقول: اللهمّ ادفع عن بنيّ! فرجعوا إليها، وقد أحسنوا القتال؛ ما كُلِم منهم رجل كَلْماً؛ فرأيتُهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العَطاء، ثم يأتون أمَّهُم، فيُلقونه في حجْرها، فتردّه عليهم وتقسمه فيهم على ما يُصلحهم ويُرضيهم.

كتب إليّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: فأزرَ القعقاعَ يومئذ ثلاث نفر من بني يربوع رياحيّين، وجعل القعقاع كلّما طلعت قطعة كبّر وكبّر المسلمون، ويحمل ويحملون واليربوعيّون: نعَيْم بن عمرو بن عتّاب، وعتّاب بن نُعَيم بن عتّاب بن الحارث بن عمرو بن همّام، وعمرو بن شبيب بن زنباع بن الحارث بن ربيعة؛ أحد بني زيد. وقدم ذلك اليوم رسولٌ لعمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس يقسمها فيمن انتهى إليه البلاء، إن كنت لقيتَ حرباً. فدعا حَمَّالَ بن مالك والرِّبِّيل بن عمرو بن ربيعة الواليبيّيْن وطليحة بن خويلد الفَقْعسيّ ـ وكلّهم من بني أسد ـ وعاصم بن عمرو التميميَّ؛ فأعطاهم الأسياف، ودعا القعقاع بن عمرو واليربوعيين فحملَهم على الأفراس؛ فأصاب ثلاثة من بني يربوع ثلاثة أرباعها، وأصاب ثلاث من بني أسد ثلاثة أرباع السيوف، فقال في ذلك الربّيل بن عمرو:

لقد عَلِم الأقوامُ أنّا أحقُّهم ... إذا حصلوا بالمُرْهَفاتِ البواتِرِ
وما فَتِئَتْ خَيْلِي عَشِيَّةَ أرْمَثُوا ... يَذُودون رَهْواً عن جُموع العشائر
لَدُنْ غدوةٍ حتى أتى الليلُ دونهمْ ... وقد أفلحَتْ أُخْرَى الليالي الغوابر

وقال القعقاع في شأن الخيل:

لم تعرف الخيل العِرابُ سواءنا ... عَشِيَّةَ أغْواثٍ بجَنْبِ القَوادِسِ
عشيَّة رُحْنا بالرِّماح كأنَّها ... على القوم ألوانُ الطُّيورِ الرَّسارِسِ

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن القاسم بن سُليم بن عبد الرحمن السعديّ، عن أبيه، قال: كان يكون أوّل القتال في كلّ أيامها المطاردة، فلمّا قدم القعقاع قال: يا أيها الناس، اصنعوا كما أصنع، ونادَى: مَنْ يبارزُ؟ فبرز له ذو الحاجب فقتلَه، ثم البِيرزان فقتله، ثم خرج الناس من كلّ ناحية، وبدأ الحرب والطِّعان، وحمل بنو عمّ القعقاع يومئذ، عشرة عشرة من الرَّجالة، على إبل قد ألبسوها فهي مجلَّلة مبرقعة، وأطافت بهم خيولُهم، تحميهم، وأمرهم أن يحملوا على خيلهم بين الصّفين يتشبَّهون بالفيَلة، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث، فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا لكثير إلّا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين. فلمّا رأى ذلك الناس استنُّوا بهم، فلقيَ فارس من الإبل يوم أغواث أعظَم ممّا لقي المسلمون من الفيَلة يوم أرماث.

وحمل رجلٌ من بني تميم ممَّن كان يحمي العشيرة يقال له سواد، وجعل يتعرَّض للشهادة، فقُتل بعد ما حمل، وأبطأت عليه الشهادة؛ حتى تعرَّض لرستم يريده، فأصيب دونه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصْن عن العَلاء بن زياد، والقَاسم بن سُلَيم عن أبيه، قالا: خرج رجل من أهلِ فارس، ينادي: مَنْ يبارز؟ فبرز له عِلْباء بن جحش العِجليّ، فنفَحه عِلباء، فأسحره، ونفحه الآخر فأمْعاه، وخرّا؛ فأمّا الفارسيّ فمات من ساعته، وأمّا الآخر فانتشرت أمعاؤه، فلم

يستطع القيام، فعالج إدخالها فلم يتأتَّ له حتى مرّ به رجل من المسلمين، فقال: يا هذا، أعنِّي على بطني، فأدخله له، فأخذ بصِفاقَيْه، ثم زحف نحو صفّ فارس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعاً من مَصْرَعه، إلى صفّ فارس، وقال:

أرْجُـو بـهـا مـن ربّـنـا ثـوابـا قـد كنتُ مِمَّنْ أحْسَنَ الـضِّـرابـا

كتب إليَّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن عن العلاء، والقاسم عن أبيه، قالا: وخرج رجل من أهل فارس فنادى: مَنْ يبارز؟ فبرز له الأعْرَف بنُ الأعلم العقيليّ فقتله، ثم برز له آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه، ونَدَرَ سلاحُه عنه فأخذوه، فغبّر في وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه؛ وقال في ذلك:

وإن يـأخـذوا بَـزّي فـإنّي مُجَـرَّبٌ خَـرُوجٌ من الغَمَّـاءِ مُحْتَضِـرُ النَّصْـرِ
وإنـي لَـحـامٍ مـن وراءِ عـشـيـرتـي رَكُـوبٌ لآثـارِ الهَـوى مُحْفِـلُ الأمْـرِ

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن عن العلاء، والقاسم عن أبيه، قالا: فحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حَملة؛ كلَّما طلعت قطعة حَمل حملة، وأصاب فيها، وجعل يرتجز ويقول:

أُزْعِجُهُـم عَمْـداً بـهـا إزْعـاجـا أطعنُ طَـعْـنـاً صـائـبـاً ثَجّـاجـا
أرْجُو بـه مـن جـنّـةٍ أفـواجـا

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: قتَل القعقاع يوم أغواث ثلاثين في ثلاثين حملة؛ كلَّما حمل حملة قتل فيها، فكان آخرهم بُزُرْجُمهر الهَمذانيّ، وقال في ذلك القعقاع:

حَـبَـوْتُـهُ جيَّـاشـةً بـالـنّـفسِ هَـدَّارةً مـثـلَ شُـعـاع الـشـمسِ
في يـوم أغـواثٍ فَلَيْـلِ الفُـرْسِ أنْـخُسُ بـالـقـوم أشَـدَّ الـنَّـخْس
حـتى تَـفِيضَ مَـعْشَـري ونَـفْـسي

وبارز الأعْوَر بن قُطبة شَهْرَ بَراز سِجْستان، فقتل كلّ واحد منهما صاحبَه، فقال أخوه في ذلك:

لـم أرَ يـومـاً كـان أحـلَى وأمَـرّ من يـوم أغـواثٍ إذ افتـرَّ الثَّغَـرْ
من غيـر ضَحْـكٍ كـان أَسْـوَا وَأَبَـرّ

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، وشاركهم ابن مِخراق عن رجل من طَيّىء، قالوا: وقاتلت الفرسان يوم الكتائب فيما بين أن أصبحوا إلى انتصاف النهار؛ فلمّا عدَل النهار تزاحف الناس؛ فاقتتلوا بها صَتيتًا حتى انتصف الليل؛ فكانت ليلة أرماث تُدعى الهَدْأة، وليلة أغواث تُدعى السَّواد، والنّصف الأول يدعى السَّواد. ثم لم يزل المسلمون يروْن في يوم أغواث في القادسيَّة الظَّفَر، وقتلوا فيه عامّة أعلامهم، وجالت فيه خيل القلب، وثبتَ رَجْلهم؛ فلولا أنَّ خيلهم كرّت أخِذ رستم أخذاً فلمّا ذهب السواد بات النَّاس على مثل ما بات عليه القوم ليلة أرماث، ولم يزل المسلمون ينتمون لَدُن أمسوا حتى تفايؤوا. فلمّا أمسى سعد وسمع ذلك نام، وقال لبعض من عنده: إن تمّ الناس على الانتماء فلا تُوقِظْني، فإنهم أقوياء على

عدوّهم؛ وإن سكتوا ولم ينْتَم الآخرون فلا توقظني، فإنهم على السَّواء فإن سمعتَهم ينتمون فأيقظني؛ فإن انتماءهم عن السَّوء.

فقالوا: ولما اشتدّ القتال بالسواد، وكان أبو مِحْجَن قد حُبس وقُيّد، فهو في القصر، فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله، فزبره وردّه، فنزل، فأتى سلْمى بنت خَصفة، فقال: يا سلمى يا بنت آل خَصَفة؛ هل لكِ إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلّين عني وتُعيرينني البَلقاء؛ فلله عليَّ إن سلَّمني الله أن أرجع إليكِ حتى أضعَ رجلي في قَيْدي، فقالت: وما أنا وذاك! فرجع يرسُف في قيوده، يقول:

كَفَى حَزناً أن تَرْدِيَ الخَيْلُ بالقَنا ... وأُترَكَ مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قُمْتُ عَنَّاني الحديدُ وأُغلِقَتْ ... مصاريع دوني قد تُصِمُّ المُناديا
وقد كنتُ ذا مال كثيرٍ وإخْوَة ... فقد تركوني واحداً لا أخَا لِيَا
ولله عَهْدٌ لا أخيسُ بعهده ... لئن فُرِجَتْ ألَّا أزورَ الحوانيا

فقالت سَلْمى: إنِّي استخرتُ الله ورضيتُ بعهدك، فأطلقَتْه. وقالت: أمَّا الفَرَس فلا أعيرها؛ ورجعتْ إلى بيتها، فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها؛ ثم دبّ عليها؛ حتى إذا كان بحيال الميمنة كبَّر، ثم حمل على ميسرة القَوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصّفَّين؛ فقالوا: بسرجها، وقال سعيد والقاسم، عُرْياً؛ ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة فكبَّر وحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصّفَّين برمحه وسلاحه، ثم رجع من خلْف المسلمين إلى القلب فندَر أمام النَّاس، فحمل على القوم يلعب بين الصّفين برمحه وسلاحه؛ وكان يقصِف الناس ليلتئذٍ قصْفاً منكراً وتعجَّب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروْه من النَّهار، فقال بعضهم: أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه. وجعل سعد يقول وهو مُشرِف على النَّاس مُكِبّ من فوق القصر: والله لولا مَحْبس أبي مِحْجَن لقلتُ: هذا أبو مِحْجَن وهذه البلقاء! وقال بعض الناس: إنْ كان الخَضِر يشهد الحروب فنظنّ صاحب البلقاء الخَضِر، وقال بعضهم: لولا أنّ الملائكة لا تُباشر القتال لقلنا: مَلَكٌ يثبِّتنا؛ ولا يذكره الناس ولا يأبهون له؛ لأنَّه بات في محبسه، فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو مِحْجَن حتى دخل من حيث خرج؛ ووضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجلَيْه في قيديْه، وقال:

لقد علِمَتْ ثَقِيفٌ غيرَ فَخْرٍ ... بأنَّا نحن أكرَمُهم سُيُوفاً
وأكثَرُهُمْ دُروعاً سابغَاتٍ ... وأصبَرُهم إذا كَرِهوا الوُقُوفا
وأنا وَفدُهم في كلّ يومٍ ... فإن عَمِيُوا فَسَل بِهِمُ عَرِيفاً
وليلةَ قادِسٍ لم يَشْعُروا بي ... ولم أُشْعِرْ بمَخْرَجِيَ الزُّحُوفا
فإن أُحْبَسْ فذلكُمُ بلائي ... وإنْ أترَك أذيقُهُمُ الحُتوفا

فقالت له سلْمى: يا أبا مِحْجَن، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ قال: أمَا والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحبَ شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدِبّ الشعر على لساني، يبعثه على شفتي أحياناً، فيُساء لذلك ثنائي؛ ولذلك حبسني، قلت:

إذا مِتُّ فادْفِنِّي إلى أصل كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عِظامي بعد موتي عُروقها
ولا تَدْفِنَنِّي بالفَلاة فإنني ... أخافُ إذا ما متُّ ألّا أذوقها

وتُرْوِي بخمر الحُصِّ لحدي فإنني ... أسيرٌ لها من بعدِ ما قد أسوقُها

ولم تزل سلْمى مغاضبة لسعد عشيَّة أرماث، وليلة الهدأة، وليلة السواد؛ حتى إذا أصبحتْ أتته وصالحتْه وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، قال: لا جَرَم؛ والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً.

يوم عِماس

كتب إليَّ السريُّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، وابن مخراق عن رجل من طيّىء، قالوا: فأصبحوا من اليوم الثالث؛ وهم على مواقفهم؛ وأصبحت الأعاجم على مواقفهم، وأصبح ما بين النَّاس كالرِّجلة الحَمراء ـ يعني الحَرَّة ـ مِيلٌ في عرض ما بين الصّفين، وقد قتل من المسلمين ألفان من رثيث ومَيّت، ومن المشركين عشرة آلاف من رثيث وميّت. وقال سعد: مَنْ شاء غَسَل الشهداء، ومن شاء فليدفنْهم بدمائهم. وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم، فجعلوهم من وراء ظهورهم، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر، ويُبلِّغون الرّثيث إلى النساء، وحاجب بن زيد على الشهداء، وكان النِّساء والصبيان يحفرون القبور في اليومين: يوم أغواث، ويوم أرماث، بِعُدْوتي مُشَرّق، فدُفن ألفان وخمسمائة من أهل القادسيَّة وأهل الأيّام، فمرّ حاجب وبعض أهلِ الشهادة ووُلاةِ الشهداء في أصل نخلة بين القادسيَّة والعُذَيْب، وليس بينهما يومئذ نخلة غيرها، فكان الرّثيث إذا حُملوا فانتهِيَ بهم إليها وأحدهم يَعقِل سألهم أن يقفوا به تحتها يستَرْوح إلى ظلِّها، ورجل من الجرْحَى يُدعى بُجَيراً، يقول وهو مستظلّ بظلها:

ألا يا اسْلَمِي يا نَخْلَةً بين قادسٍ ... وبين العُذَيْب لا يُجاوِرُكِ النَّخْلُ

ورجل من بني ضبَّة، أو من بني ثوْر يُدعى غَيْلان، يقول:

ألا يا اسلَمِي يا نخلةً بين جَرْعةٍ ... يجاوِرُكِ الجُمّانُ دونكِ والرَّغلُ

ورجل من بني تيْم الله، يقال له: رِبْعيّ يقول:

أيا نخلة الجَرْعاءِ يا جَرْعَةَ العِدَى ... سَقَتْكِ الغوادِي والغُيُوثُ الهواطِل

وقال الأعور بن قُطبة:

أيا نخلة الرُّكبان لا زُلْتِ فانضِري ... ولا زال في أكناف جَرْعَائِكِ النَّخل

وقال عوف بن مالك التميميّ ـ ويقال التيْمي تَيْم الرّباب:

أيا نخلةً دون العُذَيب بتَلْعةٍ ... سُقِيتِ الغَوادِي المُدْجناتِ من النّخل

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: وبات القعقاع ليلته كلَّها يسرِّب أصحابَه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس، ثم قال: إذا طلعتْ لكم الشمس، فأقبلوا مائة مائة، كلّما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة؛ فإن جاء هاشم فذاك وإلاّ جدَّدتم للناس رَجاءً وجدًّا، ففعلوا، ولا يشعر بذلك أحدٌ، وأصبح الناس على مواقفهم قد أحرزوا قتلاهم؛ وخلُّوا بينهم وبين حاجِب بن زيد وقتلى المشركين

بين الصّفّين قد أضيعوا، وكانوا لا يعرضون لأمواتهم، وكان مكانهم مما صنع الله للمسلمين مكيدة فتحها ليشدّ بها أعضاد المسلمين؛ فلمّا ذرّ قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيلَ، وطلعت نواصيها كبّر وكبّر الناس، وقالوا: جاء المَدَد، وقد كان عاصم بن عمرو أمر أن يصنع مثلها؛ فجاءوا من قِبَل خَفَّان، فتقدمَ الفرسان وتكتّبت الكتائب، فاختلفوا الضّرب والطّعن، ومددُهم متتابع؛ فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم؛ وقد طلعوا في سبعمائة، فأخبروه برأي القعقاع وما صنع في يوميه، فعبّى أصحابه سبعين سبعين، فلمّا جاء آخر أصحاب القعقاع خرَج هاشم في سبعين معه، فيهم قيس بن هبيرة بن عبد يغوث ـ ولم يكن من أهل الأيّام؛ إنما أتى من اليمن اليَرموك ـ فانتدب مع هاشم، فأقبل هاشم حتى إذا خالط القلب؛ كبّر وكبّر المسلمون؛ وقد أخذوا مصافّهم، وقال هاشم: أوّل القتال المطاردة ثم المراماة؛ فأخذ قوسَه، فوضع سهماً على كَبِدها، ثمّ نزع فيها، فرفعت فرسُه رأسها، فخلّ أذنها، فضحك وقال: واسوأتاه من رمية رجل! كلّ من رأى ينتظره! أين ترون سهمي كان بالغاً؟ فقيل: العتيق، فنزّقها وقد نزع السهم، ثم ضربها حتى بلغت العتيق، ثم ضربها فأقبلت به تخرقهم، حتى عاد إلى موقفه، وما زالت مَقَانبه تطلع إلى الأولى، وقد بات المشركون في علاج توابيتهم، حتى أعادوها، وأصبحوا على مواقفهم، وأقبلت الفِيَلة معها الرّجالة يحمُونها أن تقطَع وُضُنها، ومع الرَّجّالة فرسان يحمونهم، إذا أرادوا كتيبة دلفوا لها بفيل وأتباعه، ليُنفِروا بهم خيلَهم، فلم يكن ذلك منهم كما كان بالأمس، لأنّ الفيل إذا كان وحْده ليس معه أحد كان أوحشَ، وإذا أطافوا به كان آنسَ، فكان القتال كذلك، حتى عدَل النهار، وكان يومُ عِماس من أوّله إلى آخره شديداً؛ العرب والعجم فيه على السواء، ولا يكون بينهم نُقطة إلاّ تعاوَرَها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجِرْد، فيبعث إليهم أهل النَّجَدات ممّن بقي عنده، فيَقْوَون بهم، وأصبحت عنده للّذي لقيَ بالأمس الأمداد على البرُد، فلولا الذي صنع الله للمسلمين بالذي ألهم القعقاعَ في اليومين وأتاح لهم بهاشم، كسر ذلك المسلمين.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: قدم هاشم بن عُتْبة من قِبَل الشأم، معه قيس بن المكشوح المراديّ في سبعمائة بعد فَتح اليرموك ودمشق؛ فتعجَّل في سبعين؛ فيهم سعيد بن نِمْران الهَمْدانيّ. قال مجالد: وكان قيس بن أبي حازم مع القعقاع في مقدّمة هاشم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن جَحْدَب بن جَرْعَب، عن عصْمة الوابليّ ـ وكان قد شهد القادسيّة ـ قال: قدم هاشم في أهلِ العراق من الشأم، فتعَجَّل أناس ليس معه أحد من غيرهم إلاّ نُفير، منهم ابن المكشوح؛ فلمّا دنا تعجَّل في ثلاثمائة، فوافق النَّاس وهم على مواقفهم، فدخلوا مع النَّاس في صفوفهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: كان اليوم الثالث يوم عِماس؛ ولم يكن في أيام القادسيَّة مثله؛ خرج النَّاس منه على السَّواء، كلُّهم على ما أصابه كان صابراً، وكلّما بلغ منهم المسلمون بلغ الكافرون من المسلمين مثلَه، وكلّما بلغ الكافرون من المسلمين بلغ المسلمون من الكافرين مثلَه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن الرَّيّان، عن إسماعيل بن محمد بن سعد، قال: قدم هاشم بن عتبة القادسيَّة يوم عِماس، فكان لا يقاتل إلاّ على فرس أنثى، لا يقاتل على ذَكَر؛ فلمّا وقف في الناس رمى بسهم، فأصاب أُذُن فرسه، فقال: واسوأتاه من هذه! أين ترَوْن سهمي كان بالغاً لو لم يُصِب أذن

الفرس! قالوا: كذا وكذا، فأجال فنزل وترك فرسه، ثم خرج يضربهم حتى بلغ حيث قالوا.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: وكان في الميمنة.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن الرَّيان، عن إسماعيل بن محمد، قال: كنّا نرى أنه كان على الميمنة، وما كان عامّة جُنَن الناس إلّا البراذع؛ براذع الرحال، قد أعرضوا فيها الجريد، وعصّب من لم يكن له وقاية رؤوسَهم بالأنساع.

كتب إليّ السَّريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي كِبْران الحسن بن عُقبة، أنّ قيس بن المكشوح، قال مقدَمَه من الشأم مع هاشم، وقام فيمن يليه، فقال لهم: يا معشرَ العرب، إنّ الله قد منّ عليكم بالإسلام، وأكرمكم بمحمَّد ﷺ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً. دَعْوَتُكم واحدة، وأمركم واحد، بعد إذ أنتم يعدُو بعضكم على بعض عَدْوَ الأسْد، ويختطف بعضكم بعضاً اختطاف الذئاب، فانصروا الله ينصركم، وتنجَّزوا من الله فتح فارس؛ فإن إخوانكم من أهل الشأم قد أنجز الله لهم فتح الشأم، وانتثال القصور الحُمر والحصون الحُمر.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن المقدام الحارثيّ، عن الشعبيّ، قال: قال عمرو بن معد يكرب: إنّي حاملٌ على الفيل ومَنْ حوله ـ لفيل بإزائهم ـ فلا تَدَعوني أكثر من جزر جَزور، فإن تأخَّرْتم عنّي فقدتم أبا ثور؛ فإني لكم مثل أبي ثور! فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف. فحمل فما انثنى حتى ضرب فيهم، وستره الغبار، فقال أصحابه: ما تنتظرون! ما أنتم بخُلقاء أن تُدركوه، وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسَهم، فحملوا حملة، فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوه وطعنوه، وإنّ سيفه لفي يده يضاربهم، وقد طُعن فرسه، فلمّا رأى أصحابه، وانفرج عنه أهل فارس أخذ برجْل فرس رجل من أهل فارس، فحرّكه الفارسيّ، فاضطرب الفرس، فالتفت الفارسيّ إلى عمرو؛ فهمّ به وأبصره المسلمون، فغشُوه، فنزل عنه الفارسيّ، وحاضر إلى أصحابه، فقال عمرو: أمكِنوني من لجامه، فأمكنوه منه فركبه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن المغيرة العبديّ، عن الأسود بن قيس، عن أشياخ لهم شهدوا القادسيَّة، قالوا: لمّا كان يوم عِماس خرج رجل من العجم حتى إذا كان بين الصَّفَّين هدر وشقشق ونادى: مَنْ يبارز؟ فخرج رجل منّا يقال له شَبْر بن علقمة ـ وكان قصيراً قليلاً دميماً ـ فقال: يا معشر المسلمين قد أنصفكم الرّجل، فلم يُجبه أحدٌ؛ ولم يخرج إليه أحد، فقال: أما والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه. فلمّا رأى أنه لا يُمنع أخذ سيفه وحَجَفته، وتقدم. فلمّا رآه الفارسيّ هدَر، ثم نزل إليه فاحتمله، فجلس على صدره، ثم أخذ سيفه ليذبحه ومِقْوَدُ فرسه مشدود بمِنْطقته، فلما استلّ السيف حاص الفرس حيصة فجذبه المقود، فقلبه عنه، فأقبل عليه وهو يُسحب، فافترشه، فجعل أصحابه يصيحون به، فقال: صيحوا ما بدا لكم؛ فوالله لا أفارقه حتى أقتله وأسلبه. فذبحه وسلبه، ثم أتى به سعداً، فقال: إذا كان حين الظُّهر فأتني، فوافاه بالسَّلَب، فحمد الله سعد وأثنى عليه، ثم قال: إنّي قد رأيتُ أن أنحلَه إيّاه، وكلّ مَن سلب سلباً فهو له، فباعه باثني عشر ألفاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: ولمّا رأى سعد الفيَلة تُفرّق بين الكتائب وعادت لفعلها يوم أرماث، أرسل إلى أولئك المُسْلِمة: ضَخْم، ومُسْلِم، ورافع، وعَشنّق؛ وأصحابهم من الفرس الَّذِين أسلموا، فدخلوا عليه، فسألهم عن الفِيَلة: هل لها مَقاتِل؟ فقالوا: نعم؛ المشافر والعيون لا

يُنتفَع بها بعدها. فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابنَي عمرو: اكفِياني الأبيض - وكانت كلُّها آلفة له، وكان بإزائهما - وأرسل إلى حمَّال والرِّبِّيل: اكفياني الفيل الأجرب، وكانت آلفة له كلّها، وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمَّين ليّنين ودَّبا في خيل ورجل فقالا: اكتنِفوه لتخيّروه، وهما مع القوم، ففعل حمَّال والرِّبيل مثلَ ذلك فلما خالطوهما اكتنفوهما، فنظر كلّ منهما يَمنة ويَسرة، وهما يريدان أن يتخبَّطا، فحمل القعقاع وعاصم، والفيل متشاغل بمن حوله، فوضعا رمحَيْهما معاً في عيني الفيل الأبيض، وقبع ونفض رأسه، فطرح سائسه ودلَّى مشفرَه، فنفحه القعقاع، فرمى به ووقع لجنبه، فقتلوا مَن كان عليه، وحمل حمَّال، وقال للرِّبيل: اخترْ، إمَّا أن تضرب المشفر وأطعن في عينه، أو تطعن في عينه وأضرب مشفره؛ فاختار الضَّرب، فحمل عليه حمَّال وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه؛ لا يخاف سائسه إلاّ على بِطانه، فانفرد به أولئك، فطعنه في عينه، فأقعى؛ ثم استوى ونفحه الرِّبيل، فأبان مشفره وبصر به سائسُه، فبقر أنفه وجبينه بفأسه.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: قال رجلان من بني أسد؛ يقال لهما الرِّبيل وحمَّال: يا معشر المسلمين أيّ الموت أشدّ؟ قالوا: أن يُشَدّ على هذا الفيل، فنزّقا فرسيْهما حتى إذا قاما على السَّنابك ضرباهما على الفيل الذي بإزائهما، فطعن أحدهما في عين الفيل، فوطىء الفيل من خلفه، وضرب الآخر مشفرَه، فضربه سائس الفيل ضربة شائنة بالطَّبرزين في وجهه، فأفلت بها هو والرِّبِّيل، وحمل القعقاع وأخوه على الفيل الذي بإزاهما، ففقآ عينيه، وقطعا مشفره، فبقي متلدِّداً بين الصّفَّين، كلّما أتى صفّ المسلمين وخزوه، وإذا أتى صفّ المشركين نخسُوه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبي، قال: كان في الفيَلة فيلان يعلّمان الفيَلة، فلمَّا كان يوم القادسيَّة حملوهما على القلْب؛ فأمر بهما سعد القعقاع وعاصماً التميميَّين وحمَّالا والرِّبيل الأسديَّين؛ فذكر مثل الأول إلاّ أن فيه: وعاش بعد، وصاح الفيلان صياح الخنزير، ثم ولّى الأجرب الَّذي عُوِّر فوثب في العتيق، فاتَّبعته الفيلة؛ فخرقَت صفّ الأعاجم فعبرت العتيق في أثره، فأتت المدائن في توابيتها، وهلك مَن فيها.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد؛ قالوا: فلمَّا ذهبت الفيَلة، وخلَص المسلمون بأهلِ فارس، ومال الظِّل تزاحفَ المسلمون، وحماهم فرسانهم الَّذين قاتلوا أوّل النهار، فاجتلدوا بها حتى أمسوْا على حَرْد؛ وهم في ذلك على السّواء، لأنّ المسلمين حين فعلوا بالفيول ما فعلوا، تكتَّبت كتائب الإبل المجفَّفة، فعرقبوا فيها؛ وكفكفوا عنها. وقال في ذلك القعقاع بن عمرو:

حَضَّضَ قـومي مَضَـرجِيُّ بنُ يَعْمَـرٍ ... فللَّه قـومي حين هَـزُّوا العَـواليـا
ومـا خام عنهـا يـومَ سـارت جموعُنـا ... لأهـلِ قُـدَيسٍ يمنعـون المـوالِيـا
فـإن كـنتُ قـاتـلتُ العـدوَّ فَـللتُـهُ ... فـإنِّي لألَقى في الحـروب الـدَّواهِيـا
فُيـولا أراهـا كـالبيـوت مُغِيـرةً ... أسـمِّـل أعيـانـاً لـهـا ومـآقيـا

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: لمَّا أمسى الناس من يومهم ذلك، وطعنوا في الليل؛ اشتدّ القتال وصبر الفريقان، فخرجا على السَّواء إلا الغماغم من هؤلاء وهؤلاء، فسُمِّيت ليلة الهَرير؛ لم يكن قتال بليل بعدها بالقادسيَّة.

قال أبو جعفر: كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد بن قيس، عن عبد الرحمن بن جيش؛ أنّ سعداً بعث ليلة الهرير طُليحة وعمراً إلى مخاضة أسفل من العسكر ليقوما عليها خَشْيَةَ أن يأتِيَه القوم منها؛ وقال لهما: إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم؛ وإن لم تجداهم عَلموا بها، فأقيما حتى يأتيكما أمري - وكان عمر قد عهد إلى سعد ألاّ يولي رؤساء أهل الرِّدّة على مائة - فلما انتهيا إلى المخاضة فلم يريا فيها أحداً، قال طليحة: لو خُضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم! فقال عمرو: لا، بل نعبر أسفل؛ فقال طُليحة: إنّ الذي أقوله أنفع للناس، فقال عمرو: إنَّك تدعوني إلى ما لا أطيق، فافترقا، فأخذ طليحة نحو العسكر من وراء العتيق وحده، وسفل عمرو بأصحابهما جميعاً، فأغاروا، وثارت بهم الأعاجم، وخَشيَ سعد منهما الّذي كان، فبعث قيس بن المكشوح في آثارهما في سبعين رجلاً، وكان من أولئك الرؤساء الذين نهى عنهم أن يوليهم المائة، وقال: إن لحقتَهم فأنت عليهم. فخرج نحوهم، فلمّا كان عند المخاضة وجد القوم يكردون عمراً وأصحابه، فنهنه الناسُ عنه، وأقبل قيس على عمرو يلومه، فتلاحيَا، فقال أصحابه: إنّـه قد أُمِّـر عليك؛ فسكت، وقال: يَتأمَّر عليَّ رجل قد قاتلتُه في الجاهليَّة عُمْرَ رجل! فرجع إلى العسكر، وأقبل طليحة حتى إذا كان بحيال السِّكْر، كبّر ثلاث تكبيرات؛ ثم ذهب، فطلبه القوم فلم يدروا أين سلك! وسفل حتى خاض، ثمّ أقبل إلى العسكر، فأتى سعداً فأخبره؛ فاشتدَّ ذلك على المشركين، وفرح المسلمون وما يدرون ما هو!

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن قُدامة الكاهليّ، عمَّن حدّثه، أن عشرة إخوة من بني كَاهل بن أَسَد، يقال لهم بنو حَرْب؛ جعل أحدهم يرتجز ليلتئذ، ويقول:

أنـا ابـن حَـرْبٍ ومعي مِخـراقي ... أضـربـهُـمْ بـصـارمٍ رَقْـراقِ
إذْ كَـرِه الـمـوت أبـو إسـحـاقِ ... وجـاشـتِ الـنَّفسُ على الـتَّـراقِـي

صَـبْـراً عِـفَـاقُ إنّـه الـفـراقُ

وكان عِفاق أحد العشرة، فأصيب فَخذ صاحبِ هذا الشعر يومئذ، فأنشأ يقول:

صـبْـراً عِـفَـاقُ إنّـهـا الأسـاوِرَهْ ... صَـبْـراً ولا تَـغْـرُرك رِجْـل نَـادِرَهْ

فمات من ضربته يومئذ.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر، عن ابن الرُّفَيْل، عن أبيه، عن حُميد بن أبي شجّار، قال: بعث سعد طليحة في حاجة فتركها، وعبر العتيق، فدار إلى عسكر القوم، حتى إذا وقف على رَدْم النهر كبَّر ثلاث تكبيرات، فراع أهلَ فارس، وتعجَّب المسلمون، فكفَّ بعضُهم عن بعض للنَّظَر في ذلك، فأرسلت الأعاجم في ذلك، وسأل المسلمون عن ذلك. ثم إنهم عادوا وجدّدوا تعبية، وأخذوا في أمرٍ لم يكونوا عليه في الأيَّام الثلاثة، والمسلمون على تعبيتهم، وجعل طليحة يقول: لا تَعْدَموا امرأً ضعضعكم. وخرج مسعود بن مالك الأسديّ وعاصم بن عمرو التميميّ وابن ذي البردين الهلاليّ وابن ذي السَّهْمَيْن وقيس بن هُبيرة الأسدي، وأشباههم، فطاردوا القومَ، وانبعثوا للقتال، فإذا القوم لُمّة لايشدّون، ولا يريدون غير الزّحف، فقدّموا صفًّا له أذنان، وأتبعوا آخر مثله، وآخر وآخر، حتَّى تمّت صفوفُهم ثلاثة عشر صفًّا في القلْب والمجنّبتين كذلك؛ فلما أقدم عليهم فرسان العسكر رامَوْهم فلم يعطفهم ذلك عن ركوبهم؛ ثم لحقت بالفرسان الكتائب، فأصيب ليلتئذ خالد بن يَعْمَر التميميّ، ثم العمْريّ؛ فحمل القعقاع على ناحيته الّتي رمى بها مزدلفاً، فقاموا على ساق، فقال القعقاع.

سَقَى ٱللهُ يا خَوْصاءُ قَبْرَ ابن يَعْمَرٍ … إذا ارتحل السُّفارُ لم يترحَّلِ
سقى الله أرضاً حَلَّها قبرُ خالدٍ … ذِهابَ غَوادٍ مُدْجِناتٍ تُجَلْجِلُ
فأقسمتُ لا يَنْفَكُّ سيفي يَحُسُّهم … فإن زَحَلَ الأقوامُ لم أَتَزحَّلِ

فزاحفهم والناس على راياتهم بغير إذن سعد؛ فقال سعد: اللهمّ اغفرْها له، وانصرْه قد أذنت له إذ لم يستأذني، والمسلمون على مواقفهم، إلاّ مَن تكتّب أو طاردهم وهم ثلاثة صفوف، فصفٌّ فيه الرَّجَّالة أصحاب الرماح والسيوف، وصف فيه المرامية، وصفّ فيه الخيول، وهم أمام الرَّجّالة، وكذلك الميمنة، وكذلك الميسرة. وقال سعد: إنّ الأمر الذي صنع القعقاع، فإذا كبّرتُ ثلاثاً فازحفوا، فكبر تكبيرة فتهيؤوا، ورأى النَّاس كلّهم مثل الذي رأى، والرّحى تدور على القعقاع ومَن معه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عُبَيْدِ الله بن عبد الأعلى، عن عمرو بن مرّة، قال: وقام قيس بن هبيرة المَرَاديّ فيمن يليه، ولم يشهد شيئاً من لياليها إلاّ تلك الليلة؛ فقال: إنَّ عدوّكم قد أبى إلاّ المزاحفة، والرّأي رأي أميركم، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرّجّالة، فإنّ القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوُّهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم؛ ولم يطيقوا أن يُقدِموا عليهم، فتيسّروا للحملة. فتيَّسروا وانتظروا التكبيرة وموافقة حمل الناس؛ وإنّ نُشّاب الأعاجم لتجوز صفّ المسلمين.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير بن يزيد، عمَّن حدّثه، قال: وقال دُرَيد بن كعب النَّخعيّ، وكان معه لواء النَّخع: إنَّ المسلمين تهيَّؤواللمزاحفة، فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد، فإنه لا يَسبق الليلةَ أحدٌ إلاّ كان ثوابه على قدر سَبْقه؛ نافسوهم في الشهادة، وطِيبوا بالموت نفساً؛ فإنّه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلاّ فالآخرة ما أردتم.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأجلح، قال: قال الأشْعَث بن قيس: يا معشرَ العرب؛ إنَّه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت، ولا أسخى أنفساً عن الدنيا، تنافسوا الأزواج والأولاد، ولا تجزعوا من القتل، فإنه أمانيّ الكرام؛ ومنايا الشهداء، وترجّل.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، قال: قال حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار: ترجَّلوا أيُّها الناس، وافعلوا كما نفعل، ولا تجزعوا ممَّا لا بدَّ منه، فالصبْر أنجى من الفَزَع. وفعل طُليحة وغالب وحمَّال وأهل النَّجدات من جميع القبائل مثلَ ذلك.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو والنّضر بن السريّ، قالا: ونزل ضِرار بن الخطَّاب القُرشيّ، وتتابع على التسرّع إليهم النَّاس كلّهم فيها بين تكبيرات سعد حين استبطؤوه. فلمَّا كبَّر الثانية، حمل عاصم بن عمرو حتى انضمّ إلى القعقاع، وحملت النَّخَع، وعصى الناس كلّهم سعداً، فلم ينتظر الثالثة إلاّ الرؤساء، فلمّا كبَّر الثالثة زحفوا فلحقوا بأصحابهم، وخالطوا القوم، فاستقبلوا اللَّيل استقبالا بعد ما صلَّوا العشاء.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن عبد الله بن أبي طيبة، عن أبيه، قال: حمل الناس ليلة الهرير عامَّة؛ ولم ينتظروا بالحملة سعداً، وكان أوّل مَن حمل القعقاع، فقال: اللهمّ اغفرها له وانصره. وقال: واتميماه سائرَ الليلة ثم قال: أرى الأمر ما فيه هذا، فإذا كبَّرتُ ثلاثاً فاحملوا. فكبَّر واحدة

فلحقتهم أسد، فقيل: قد حملت أسد، فقال: اللهمّ اغفرها لهم وانصرهم؛ واأسَداهْ سائرَ الليلة! ثم قيل: حملت النَّخَع، فقال: اللهمّ اغفرها لهم وانصرهم؛ وانَخعاه سائر الليلة! ثم قيل: حملت بجيلة، فقال: اللهمّ اغفرها لهم، وانصرهم؛ وابجيلتاه! ثم حملت الكنود، فقيل: حملت كندة، فقال: واكندتاه! ثم زحف الرؤساء بمن انتظر التكبيرة، فقامت حربهم على ساق حتى الصَّباح، فذلك ليلة الهرير.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب عن سيف، عن محمد بن نويرة، عن عمِّه أنس بن الحُلَيْس، قال: شهدتُ ليلة الهرير، فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتَهم حتى الصبّاح، أفرِغ عليهم الصبر إفراغاً، وبات سعد بليلة لم يَبِت بمثلها. ورأى العرب والعجم أمراً لم يروْا مثلَه قطّ، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رسْتم وسعد، وأقبل سعد على الدّعاء، حتى إذا كان وجهُ الصُّبْح، انتهى الناس فاستدلّ بذلك على أنّهم الأعلوْن، وأنّ الغلَبة لهم.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الأعْوَر بن بنان المنقِري، قال: أوّل شيء سمعه سعد ليلتئذ مما يستدلّ به على الفتح في نصف الليل الباقي صوتُ القعقاع بنِ عمرو وهو يقول:

نحن قتلْنا مَعْشَراً وزائدا ... أربعةً وخمسةً وواحِدا
نُحْسَبُ فوق اللِّبَد الأساودا ... حتَّى إذا ماتوا دعوتُ جاهِدا
اللهُ ربّي، واحترزتُ عامِداً

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الأعور ومحمد عن عمِّه، والنضر عن ابن الرُّفَيْل، قالوا: اجتلدوا تلك الليلة من أوّلها حتى الصّباح لا ينطقون، كلامُهم الهرير، فسُمِّيت ليلة الهرير.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن الرَّيَّان، عن مُصْعَب بن سعد، قال: بعث سعد في تلك الليلة بجاداً وهو غلام إلى الصفّ، إذْ لم يجد رسولاً، فقال: انظُر ما ترى من حالهم؛ فرجع فقال: ما رأيت أيْ بُنيَّ؟ قال: رأيتُهم يلعبون، فقال: أو يجِدّون!.

كتب إليَّ، السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن جرير العَبْديّ، عن عابس الجُعفيّ، عن أبيه، قال: كانت بإزاء جُعفيّ يوم عماس كتيبةٌ من كتائب العجم، عليهم السلاح التامّ، فازدلفُوا لهم، فجالدوهم بالسيوف، فرأوا أنّ السيوف لا تعمل في الحديد فارتدعوا، فقال حُمَيْضة: ما لكم؟ قالوا: لا يجوز فيهم السلاح، قال: كما أنتم حتى أرِيَكم، انظروا. فحمل على رجل منهم، فدقّ ظهره بالرّمح ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ما أراهم إلاّ يموتون دونَكم. فحملوا عليهم فأزالوهم إلى صفّهم.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: لا والله ما شهدها من كنْدة خاصّة إلاّ سبعمائة؛ وكان بإزائهم تُرْك الطَّبَرِيّ، فقال الأشعث: يا قوم ازحفوا لهم، فزحف لهم في سبعمائة؛ فأزالهم وقتل تُركاً، فقال راجزهم:

نحن تركنا تُركَهم في المَصْطَرَهْ ... مُختضِباً من بَهَران الأبْهَرَهْ

ليلة القادسيّة

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة وزياد، قالوا: وأصبحوا ليلة القادسيَّة؛ وهي صُبْحة ليلة الهرير، وهي تسمّى ليلة القادسيَّة، من بين تلك الأيام والناس حَسْرَى، لم يغمضوا ليلتهم كلَّها، فسار القعقاع في النَّاس، فقال: إن الدَّبْرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإنّ النّصر مع الصّبر. فآثروا الصّبر على الجَزَع؛ فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء، وصمدوا لرستم، حتى خالطوا الَّذين دونه مع الصُّبح.

ولما رأت ذلك القبائل قامَ فيها رجال، فقام قيس بن عبد يَغوث والأشعث بن قيس وعمرو بن معديكرب وابن ذي السَّهْمَيْن الخثعميّ وابن ذي البُرْدَيْن الهلاليّ، فقالوا: لا يكوننّ هؤلاء أجدّ في أمر الله منكم، ولا يكوننّ هؤلاء ـ لأهل فارس ـ أجرأ على الموت منكم؛ ولا أسخَى أنفسا عن الدنيا، تَنافسوها. فحملوا ممَّا يليهم حتى خالطوا الَّذين بإزائهم، وقام في ربيعة رجال، فقالوا: أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى؛ فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرْأة! فكان أوّل مَن زال حين قام قائم الظهيرة الهُرْمزان والبيرزان، فتأخّرا وثبتا حيث انتهيا، وانفرج القلْب حين قام قائم الظهيرة، وركد عليهم النَّقْع وهبَّت ريحٌ عاصف، فقلعت طيَّارة رستم عن سريره، فهوت في العتيق؛ وهي دَبُور، ومال الغبار عليهم، وانتهى القعقاع ومَن معه إلى السرير فعثروا به، وقد قام رستم عنه حين طارت الرّيح بالطيّارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال يومئذ فهي واقفة، فاستظل في ظلّ بغل وحِمْله، وضرب هلال بن عُلَّفة الحِمْل الذي رستم تحته؛ فقطع حباله، ووقع عليه أحد العِدْلين، ولا يراه هلال ولا يشعر به؛ فأزال من ظهره فَقاراً، ويضربه ضربة فنفحت مِسْكاً، ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه، واقتحمه هلال عليه؛ فتناوله وقد عام؛ وهلال قائم، فأخذ برجله، ثم خرج به إلى الجُدّ، فضرب جبينه بالسّيف، حتى قتله، ثم جاء به حتى رمى به بين أرجل البغال، وصعد السرير، ثم نادى: قتلتُ رستم وربِّ الكعبة؛ إليّ؛ فأطافوا به وما يُحِسُّون السرير ولا يرونه؛ وكبَّروا وتنادَوْا، وانبتّ قلب المشركين عندها وانهزموا، وقام الجالنوس على الرّدم، ونادى أهل فارس إلى العبور، وانسفر الغبار؛ فأما المقترنون فإنَّهم جشعوا فتهافتوا في العتيق، فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبِّر، وهم ثلاثون ألفاً، وأخذ ضرار بن الخطاب «دِرَفْش كابيان»، فعُوّض منها ثلاثين ألفا، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتي ألف، وقتلوا في المعركة عشرة آلاف سوى مَنْ قتلوا في الأيَّام قبله.

كتب إلي السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عَطيَّة، عن عمرو بن سَلمة، قال: قَتل هلال بن عُلَّفة رستم يوم القادسية.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن ابن مخراق، عن أبي كعب الطائيّ، عن أبيه، قال: أصيب من الناس قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة، وقتل ليلة الهرير ويوم القادسيّة ستة آلاف من المسلمين، فدُفنوا في الخندق بحيال مُشرِّق.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: لما انكشف أهلُ فارس؛ فلم يَبْقَ منهم بين الخَنْدق والعتيق أحد، وطبَّقت القتلى ما بين قُدَيْس والعتيق أمر سعد زُهرة باتّباعهم، فنادى

زهرة في المقدّمات، وأمر القعقاعَ بمَن سفَل، وشُرَحْبيل بمن علا، وأمر خالد بن عُرْفُطة بسَلْب القتلى وبدَفْن الشهداء، فدُفن الشهداء، شهداء ليلة الهرير ويوم القادسيَّة، حول قُديْس ألفان وخمسمائة وراءَ العتيق بحِيال مُشرِّق، ودُفن شهداء ما كان قبل ليلة الهرير على مشرِّق، وجُمعت الأسلاب والأموالُ فجُمع منها شيءٌ لم يُجمَع قبله ولا بعده مثله؛ وأرسل سعد إلى هلال، فدعَا له، فقال: أين صاحبُك؟ قال: رميتُ به تحت أبغُل؛ قال: اذهبْ فجيء به، فذهب فجاء به، فقال: جَرِّدْه إلّا ماشئتَ، فأخذ سلَبه فلم يَـدَع عليه شيئاً، ولما رجـع القعقاع وشُرحبيل قال لهذا: اغدُ فيما طلب هذا، وقال لهذا: اغد فيما طلب هذا؛ فعلا هذا، وسفَل هذا، حتى بلغا مقدار الخرّارة من القادسيَّة، وخرج زُهرة بن الحَوِيَّةِ في آثارهم، وانتهى إلى الرّدْم وقد بثقوه ليمنعوهم به من الطَّلَب، فقال زهرة: يا بُكَيْر، أقدِم، فضرب فرسه، وكان يقاتل على الإناث، فقال: ثبي أطلالُ، فتجمَّعت وقالت: وَثْباً وسورة البَقَرَة! ووثب زهرةُ ـ وكان عن حصان ـ وسائرُ الخيل فاقتحمته، وتتابع على ذلك ثلاثمائة فارس، ونادى زُهرة حيث كاعت الخيل: خذوا أيّها الناس على القنطرة، وعارضونا، فمضى ومضى الناس إلى القنطرةِ يتَّبعونه، فلحق بالقوم والجالنوس في آخرهم يحميهم، فشاوله زهرة، فاختلفا ضربتين، فقتله زهرة، وأخذ سلبَه، وقتلوا ما بين الخرّارة إلى السَّيْلَحين، إلى النَّجَف؛ وأمسوْا فرجعوا فباتوا بالقادسيَّة.

كتب إليَّ السريُّ، عن شُعيب، عن سيف، عن عبدالله بن شُبْرُمَة، عن شقيق؛ قال: اقتحمنا القادسيَّة صدرَ النهار، فتراجَعْنا وقد أتى الصلاة؛ وقد أصيب المؤذّن، فتشاحَّ النَّاس في الأذان حتى كادوا أن يجتلدوا بالسيوف، فأقرع سعد بينهم؛ فخرج سهم رجل فأذَّن.

ثم رجع الحديث. وتراجع الطلبُ الَّذين طلبوا مَنْ علاَ على القاسيَّة ومَن سفَل عنها، وقد أتى الصلاة وقد قتل المؤذن فتشاحّوا على الأذان، فأقرع بينهم سعـد، وأقامـوا بقيَّة يـومهم ذلك وليلتَهم حتى رجـع زهرة، وأصبحوا وهم جميعٌ لا ينتظرون أحداً من جنـدهم؛ وكتب سعد بـالفتح وبعـدّة مَنْ قتلوا ومن أصيب من المسلمين، وسمَّى لعُمَر مَن يعرف مع سعد بن عُمَيْلة الفزاريّ.

كتب إليَّ السَّريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر، عن ابن الرُّفَيْل! عن أبيه، قال: دعاني سعد، فأرسلني أنظر له في القتلَى، وأسمّي له رؤوسهم، فأتيته فأعلمته، ولم أرَ رستم في مكانه، فأرسل إلى رجل من التَّيْم يُدعى هلالاً، فقال: ألم تُبلغني أنَّك قتلت رستم! قال: بلى، قال: فما صنعت به؟ قال: ألقيته تحت قوائم الأبغُل، قال: فكيف قتلتَه؟ فأخبره، حتَّى قال: ضربت جبينه وأنفَه. قال: فجئنا به، فأعطاه سلَبه، وكان قد تخفَّف حين وقع إلى الماء، فباع الَّذي عليه بسبعين ألفاً، وكانت قيمة قَلَنْسُوته مائة ألف لو ظفر بها. وجاء نفر من العِباد حتى دخلوا على سعد، فقالوا: أيّها الأمير؛ رأينا جسد رستم على باب قصرك وعليه رأس غيره؛ وكان الضَّرب قد شوَّهه؛ فضحك.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: وقال الدَّيْلَم ورؤساء أهل المسالح الذين استجابوا للمسلمين، وقاتلوا معهم على غير الإسلام: إخوانُنا الَّذين دَخلوا في هذا الأمر من أوَّل الشأن أصوَبُ منَّا وخير، ولا والله لا يُفْلح أهلُ فارس بعد رستم إلا مَن دخل في هذا الأمر منهم؛ فأسلَموا؛ وخرج صبيان العسكر في القتلَى، ومعهم الأداوَى يسقُون مَن به رَمَقٌ مَن المسلمين،ويقتلون مَن به رَمق من المشركين، وانحدروا من العُذَيْب مع العشاء. قال: وخرج زهرة في طلب الجالنوس، وخرج القعقاع وأخوه

وشرحبيل في طلب مَن ارتفع وسفل، فقتلوهم في كلّ قرية وأجَمة وشاطىء نهر، ورجعوا فوافوا صلاةَ الظهر، وهنّأ الناس أميرَهم، وأثنى على كلّ حيّ خيراً، وذكره منهم.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن سعيد بن المَرْزبان، قال: خرج زهرة حتى أدرك الجالنوس؛ ملكاً من ملوكهم؛ بين الخَرّارة والسَّيْلَحين، وعليه يارقَان وقُلْبان وقُرْطان على بِرْذَوْن له قد خَضِدَ، فحمل عليه، فقتله. قال: والله إنَّ زهرة يومئذ لعلَى فرس له ما عنانها إلا من حَبْل مضفور كالمِقْودِ، وكذلك حزامها شَعْرٌ منسوج، فجاء بسبله إلى سعد، فعرف الأسارى الذين عند سعد سلَبه، فقالوا: هذا سلَب الجالنوس، فقال له سعد: هل أعانك عليه أحد؟ قال: نعم، قال: مَنْ؟ قال: الله، فنفّله سلَبه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيدة، عن إبراهيم، قال: كان سعد استكثر له سلبَه، فكتب فيه إلى عمر، فكتب إليه عمر: إنّي قد نفّلت مَنْ قتل رجلا سلَبه؛ فدفعه إليه فباعه بسبعين ألفاً.

وعن سيف، عن البرمكان، والمجالد عن الشعبيّ، قال: لحق به زهرة، فرفع له الكرة فما يخطئها بنُشَّابة، فالتقيا فضربه زهرة فجدّله ـ ولزهرة يومئذ ذُؤابة وقد سُوّد في الجاهليّة، وحسن بلاؤه في الإسلام وله سابقة، وهو يومئذ شابّ ـ فتدرّع زهرة ما كان على الجالنوس، فبلغ بضعةً وسبعين ألفاً. فلما رجع إلى سعد نزع سَلَبه، وقال: ألا انتظرتَ إذْني! وتكاتبا، فكتب عمر إلى سعد: تعمِد إلى مثل زهرة ـ وقد صلِيَ بمثل ما صلي به، وقد بقيَ عليك من حربك ما بقيَ ـ تكسر قَرْنَه، وتُفسد قلبه! أمْض له سَلَبَه، وفضّله على أصحابه عند العطاء بخمسمائة.

وعن سيف، عن عبيد، عن عصمة، قال: كتب عمر إلى سعد: أنا أعلم بزُهرة منك، وإنَّ زهرة لم يكن ليغيّب من سلبِ سلَبه شيئاً؛ فإن كان الّذي سعى به إليك كاذباً فلقّاه الله مثل زهرة، في عضدَيْه يارَقان؛ وإنّي قد نفّلت كلّ مَنْ قتل رجلا سلَبه؛ فدفعه إليه فباعه بسبعين ألفاً.

وعن سيف، عن عبيدة، عن إبراهيم وعامر، أنَّ أهل البلاء يوم القادسيَّة فُضّلوا عند العطاء بخمسمائة خمسمائة في أعطياتهم، خمسة وعشرين رجلا؛ منهم زهرة، وعِصْمة الضَّبِّيُّ، والكلَج. وأمّا أهل الأيَّام، فإنه فرِض لهم على ثلاثة آلاف فُضّلوا على أهل القادسيَّة.

وعن سيف، عن عبيدة، عن يزيد الضَّخم، قال: فقيل لعمر: لو ألحقتَ بهم أهل القادسيَّة! فقال: لم أكن لألحقَ بهم من لم يدركهم. وقيل له في أهل القادسيّة: لو فضلت مَن بعُدَتْ داره على مَنْ قاتلهم بفنائه! قال: وكيف أفضِّلهم عليهم على بعد دارهم، وهم شَجن العدّو، وما سوِّيت بينهم حتى استطبتهم؛ فهلاّ فعل المهاجرون بالأنصار إذ قاتلوا بفنائهم مثل هذا!

وعن سيف، عن المجالد، عن الشعبيّ، وسعيد بن المرزبان عن رجل من بني عبْس، قال: لمّا زال رستم عن مكانه ركب بغلاً، فلمّا دنا منه هلال نزع له نشّابة، فأصاب قدمه فشكَّها في الرِّكاب، وقال: «ببايه»، فأقبل عليه هلال. فنزل، فدخل تحت البغل، فلمّا لم يصل إليه قطع عليه المال، ثم نزل إليه ففلق هامتَه.

وعن سيف، عن عبيدة، عن شَقيق، قال: حملنا على الأعاجم يوم القادسيَّة حمْلة رجل واحد، فهزمهم الله، فلقد رأيتُني أشرتُ إلى أسوارٍ منهم فجاء إليّ وعليه السلاح التامّ، فضربت عنقه، ثم أخذت ما كان عليه.

وعن سيف، عن سعيد بن المرزبان، عن رجل من بني عَبْس، قال: أصاب أهلَ فارس يومئذ بعد ما انهزموا ما أصاب النّاس قبلهم؛ قتِلوا حتّى إن كان الرجل من المسلمين ليدعوُ الرجُلَ منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنّه ليأخذ سلاَحه فيقتله به؛ وحتى إنّه ليأمر الرّجلينْ أحدَهما بصاحبه؛ وكذلك في العِدّة.

وعن سيف، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عمَّن شهدها، قال: أبصر سَلْمان بن ربيعة الباهليّ أناساً من الأعاجم تحت راية لهم قد حفروا لها، وجلسوا تحتها، وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فحمل عليهم فقتل مَن كان تحتها وسلبهم. وكان سلمان فارس الناس يوم القادسيَّة، وكان أحد الَّذين مالوا بعد الهزيمة على مَنْ ثبت، والآخر عبد الرحمن بن ربيعة ذو النور، ومال على آخرين قد تكتَّبوا، ونصبوا للمسلمين فطحنهم بخيله.

وعن سيف، عن الغصن، عن القاسم، عن البَهيّ، أن الشعبيّ قال: كان يقال: لسَلْمان أبصرُ بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور. فكان موضع المَحبَس اليوم دارَ عبد الرحمن بن ربيعة، والتي بينها وبين دار المختار دار سَلْمان؛ وإنّ الأشعث بن قيس استقطع فناء كان قدّامها، هو اليوم في دار المختار، فأقْطعه فقال له: ما جرّأك عليّ يا أشعث؟ والله لئن حُزْتَها لأضربنّك بالجُنَثيّ ـ يعني سيفه ـ فانظر ما يبقى منك بعدُ، فصدف عنها ولم يتعرّض لها.

وعن سيف، عن المهلَّب ومحمد وطلحة وأصحابه، قالوا: وثبت بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة، استقتلوا واستحيَوْا من الفرار، فأبادهم الله، فصمَد لهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين، ولم يُتبعوا فالّة القوم، فصمد سلمان بن ربيعة لكتيبة وعبد الرحمن بن ربيعة ذو النور لأخرى؛ وصمد لكلّ كتيبة منها رأس من رؤساء المسلمين. وكان قتال أهل هذه الكتائب، من أهل فارس على وجهَينْ؛ فمنهم من كَذَب فهرب، ومنهم مَنْ ثبت حتى قتل؛ فكان ممَّن هرب من أمراء تلك الكتائب الهرْمُزان وكان بإزاء عُطارِد، وأهود وكان بإزاء حنْظَلة بن الربيع، وهو كاتب النبيّ ﷺ، وزاذُ بن بُهَيْش وكان بإزاء عاصم بن عمرو، وقارن وكان بإزاء القعقاع بن عمرو؛ وكان ممَّن استقتل شهْريار بن كنار وكان بإزاء سلمان. وابن الهرْبذ وكان بإزاء عبد الرحمن، والفرُّخان الأهْوازي وكان بإزاء بُسر بن أبي رُهْم الجهني، وخُسْرَوْشنُوم الهمَذانيّ وكان بحيال ابن الهذيْل الكاهليّ.

ثم إن سعداً أتْبَع بعد ذلك القعقاع وشُرحبيل من صوّب في هزيمته أو صعّد عن العسكر وأتبع زهرةَ بن الحَويّة الجالنوس.

ذكر حديث ابن اسحاق:

قال أبو جعفر الطبريّ رحمه الله: رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق. قال: ومات المثنَّى بن حارثة، وتزوّج سعد بن أبي وقّاص امرأته سلْمى ابنة خَصَفة وذلك في سنة أربع عشرة. وأقام تلك الحجّة للنّاس عمر بن الخطاب. ودخل أبو عبيدة بن الجراح تلك السنة دِمشق، فشتا بها، فلمّا أصافت الرّوم سار هِرَقْل في الرّوم حتى نزل أنْطاكِيَة ومعه من المستعربة لَخمٌ وجذام وبَلْقين وبَليّ وعامِلة، وتلك القبائل من قُضاعة، غَسّانَ بشر كثير؛ ومعه من أهل أرْمينية مثل ذلك، فلمّا نزلها أقامَ بها، وبعث الصَّقَلار؛ خَصِيًّا له، فسار بمائة ألف مُقاتل، معه من أهل أرمينيَة اثنا عشر ألفاً، عليهم جَرَجة، ومعه من المستعربة من غسّان وتلك القبائل من

قضاعة اثنا عشر ألفاً عليهم جَبَلَة بن الأيهم الغسَّانيُ، وسائرهم من الرّوم؛ وعلى جماعة الناس الصَّقَلار خصيّ هرقل؛، وسار إليهم المسلمون وهم أربعة وعشرون ألفاً عليهم أبو عبيدة بن الجراح، فالتقوْا باليَرْموك في رجب سنة خمس عشرة؛ فاقتتل الناس قتالا شديداً حتى دُخِل عسكر المسلمين، وقاتل نساء من نساء قريش بالسيوف حين دخِل العسكر ـ منهنّ أم حكيم بنت الحارث بن هشام ـ حتى سابَقن الرجال، وقد كان انضمّ إلى المسلمين حين ساروا إلى الرّوم ناس من لَخْم وجُذام؛ فلمّا رأوا جِدّ القتال فرّوا ونجوا إلى ما كان قُرْبهم من القُرى، وخذلوا المسلمين.

حدّثنا ابن حُميْد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة بن الزُّبير، عن أبيه، قال: قال قائل من المسلمين حين رأى من لخم وجذام ما رأى:

القومُ لَخمٌ وجُذَامٌ في الهَرَبْ ونحنُ والرّومُ بمَرْجٍ نَضطرِبْ
فإن يعودوا بَعْدَها لا نَصْطَحِبْ

حدّثنا ابنُ حَميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن وهب بن كيسان، عن عبدالله بن الزُّبير، قال: كنت مع أبي الزبير عامَ اليرموك؛ فلمّا تعبَّى المسلمون للقتال، لبس الزُّبير لأمَته، ثم جلس على فرسه، ثم قال لموليَين له: احبسا عبدَالله بن الزُّبير معكما في الرَّحْل؛ فإنه غلام صغير. قال: ثم توجَّه فدخل في الناس؛ فلمّا اقتتل النَّاس والرّوم نظرت إلى ناس وقوف على تلّ لا يقاتلون مع الناس. قال: فأخذت فرساً للزبير كان خلّفه في الرّحل فركبته، ثم ذهبت إلى أولئك الناس فوقفت معهم؛ فقلت: أنظر ما يصنع الناس؛ فإذا أبو سفيان بن حرب في مَشْيَخة من قريش من مُهاجِرة الفتح وقوفاً لا يقاتلون؛ فلمّا رأوْني رأوْا غلاماً حَدَثاً، فلم يتَّقوني. قال: فجعلوا والله إذا مال المسلمون وركِبَتْهم الحرب، للروم يقولون: إيه إيه بَلأَصْفَر! فإذا مالت الرّوم وركبهم المسلمون، قالوا: يا ويح بَلأَصْفَر! فجعلتُ أعجب من قولهم، فلمّا هزم الله الرّوم ورجع الزُّبير، جعلت أحدّثه خبرهم. قال: فجعل يضحك ويقول: قاتلهم الله، أبوْا إلّا ضِغناً! وماذا لهم إن يَظْهَرْ علينا الروم! لنحن خير لهم منهم.

ثم إنّ الله تبارك وتعالى أنزل نصرَه، فهزمت الرّوم وجموع هرقل التي جمع،فأصيب من الروم أهل إرمينيَة والمستعربة سبعون ألفاً، وقتل الله الصّقلار وباهانَ؛ وقد كان هرقل قدّمه مع الصّقَلار حين لحق به، فلمّا هزمت الروم بعث أبو عبيدة عياض بن غَنْم في طلبهم، فسلك الأعماق حتى بلغ مَلَطْيَة، فصالحه أهلها على الجزية، ثم انصرف، ولما سمع هرقل بذلك بعث إلى مقاتلتها ومَن فيها، فساقهم إليه، وأمر بمَلَطْية فحُرِقت. وقُتل من المسلمين يوم اليرموك من قريش من بني أميَّة بن عبد شمس عمرُو بن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد بن العاص؛ ومن بني مخزوم عبدالله بن سفيان بن عبد الأسد، ومن بني سهم سعيد بن الحارث بن قيس.

قال: وفي آخر سنة خمس عشرة، قتل الله رستم بالعراق؛ وشهد أهل اليرموك حين فرغوا منه يوم القادسيَّة مع سعد بن أبي وقَّاص، وذلك أنّ سعداً حين حسر عنه الشتاء، سار من شَراف يريد القادسيَّة، فسمع به رستم، فخرج إليه بنفسه؛ فلمّا سمع بذلك سعد وقف، وكتب إلى عمر يستمدُّه؛ فبعث إليه عمر المغيرة بن شعبة الثقفيّ في أربعمائة رجل مدداً من المدينة، وأمدَّه بقيس بن مكشوح المراديّ في سبعمائة، فقدموا عليه من اليرموك. وكتب إلى أبي عبيدة: أن أمدّ سعد بن أبي وقَّاص أميرَ العراق بألف رجل من عندك؛

ففعل أبو عبيدة، وأمَّر عليهم عياض بن غَنْم الفِهْريّ؛ وأقام تلك الحَجَّة للناس عمر بن الخطاب سنة خمس عشرة.

وقد كان لكسرى مُرابطة في قصر بني مقاتل، عليها النُّعمان بن قَبيصة؛ وهو ابن حيّة الطائيّ ابن عمّ قَبيصة بن إياس بن حيَّة الطائيّ صاحب الحيرة؛ فكان في منظَرة له، فلمّا سمع بسعد بن أبي وقاص سأل عنه عبدَ الله بن سنان بن جرير الأسديّ؛ ثم الصَّيْداوِيّ، فقيل له: رجل من قريش، فقال: أمَّا إذا كان قُرَشيًّا فليس بشيء؛ والله لأجاهدنَّه القتال؛ إنما قريش عبيد مَن غَلب؛ والله ما يمنعون خفيراً، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير؛ فغضب حين قال ذلك عبدُالله بن سنان الأسديّ، فأمهله حتى إذا دخل عليه وهو نائم، فوضع الرمح بين كتِفَيْه فقتله، ثم لحق بسعد فأسلم. وقال في قتله النُّعمان بن قَبيصة:

لقد غادَرَ الأقوامُ ليلَةَ أَدْلَجوا ... بقصرِ العِبادِي ذَا الفَعالِ مُجَدّلا
دَلفْتُ له تحت العَجاجِ بِطَعْنةٍ ... فأصبح منها في النّجيعِ مُرَمَّلا
أقولُ له والرمح في نُغْضِ كِتْفِهِ ... أبا عامِرٍ عنك اليمينُ تحَلَّلا
سَقَيْتُ بها النّعْمانَ كأساً رَوِيَّةً ... وعاطيْتُه بالرُّمح سمًّا مُثَمَّلا
تركتُ سباعَ الجَوِّ يعْرِفن حوله ... وقد كان عنها لابن حيَّةَ مَعْزلا
كفيتُ قريشاً إذ تَغيَّبَ جَمْعُها ... وهَدَّمتُ للنُّعمان عِزًّا مُؤثَّلا

ولَمّا لحق سعد بن أبي وقّاص المغيرة بن شعبة وقيس بن مكشوح فيمن معهما، سار إلى رستم حين سمع به حتى نزل قادِسَ ـ قرية إلى جانب العُذَيب ـ فنزل الناس بها، ونزل سعد في قصر العُذيب، وأقبل رستم في جموع فارس ستين ألفاً ممّا أحْصِيَ لنا في ديوانه، سوى التّباع والرقيق، حتى نزل القادسيَّة وبينه وبين الناس جسرُ القادسيَّة، وسعد في منزل وَجِعٌ، قد خرج به قَرْح شديد، ومعه أبو مِحْجَن بن حبيب الثقفيّ محبوس في القصر، حبسه في شرب الخمر، فلمَّا أن نزل بهم رستم بعث إليهم أن ابعثوا إليَّ رجلا منكم جليداً أكلّمْه، فبعثوا إليه المغيرة بن شعبة، فجاءه وقد فرق رأسه أربع فِرَق: فرقة من بين يديه إلى قفاه، وفرقة إلى أذنيْه، ثم عقصَ شعره، ولبس بُرْداً له، ثم أقبل حتى انتهى إلى رستم، ورستم من وراء الجسر العتيق ممَّا يلي العراق، والمسلمون من ناحيته الأخرى ممَّا يلي الحجاز فيما بين القادسيَّة والعُذَيب، فكلَّمه رستم، فقال: إنّكم معشر العرب كنتم أهل شَقاء وجهد، وكنتم تأتوننا من بين تاجر وأجير ووافد، فأكلتم من طعامنا، وشربتم من شرابنا، واستظللتم من ظِلالنا؛ فذهبتم فدعوتم أصحابكم، ثم أتيتمونا بهم، وإنما مَثَلُكم مَثَل رجل كان له حائط من عِنَب، فرأى فيه ثعلباً واحداً، فقال: ما ثعلب واحد! فانطلق الثعلب، فدعا الثعالب إلى الحائط؛ فلمّا اجتمعن فيه جاء الرجل فسدّ الجُحْر الذي دخلْن منه، ثم قتلهنّ جميعاً. وقد أعلم أن الذي حملكم على هذا معشر العرب الجَهدُ الذي قد أصابكم؛ فارجعوا عنَّا عامكم هذا، فإنَّكم قد شغلتمونا عن عِمارة بلادنا، وعن عدوّنا، ونحن نُوقِر لكم ركائبكم قمحاً وتمراً، ونأمر لكم بكُسوة، فارجعوا عنّا عافاكم الله!

فقال المغيرة بن شعبة: لا تذكُر لنا جهداً إلاّ وقد كنا في مثله أو أشدّ منه؛ أفضلُنا في أنفسنا عيشاً الذي يقتل ابنَ عمّه، ويأخذ ماله فيأكله، نأكل الميتة والدم والعظام، فلم نزل كذلك حتَّى بعث الله فينا نبيًّا، وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به، فصدّقه منّا مصدّق، وكذّبه منّا آخر، فقاتل مَن صدّقه مَن كذبه،

حتى دخلنا في دينه؛ من بين مُوقِن به، وبين مقهور؛ حتَّى استبان لنا أنه صادق، وأنه رسول من عند الله. فأمرنا أن نقاتل مَن خالفنا، وأخبرَنا أن من قُتل منّا على دينه فله الجنَّة، ومَنْ عاش ملك وظهر على من خالفه؛ فنحن ندعوك إلى أن تؤْمن بالله ورسوله، وتدخل في ديننا، فإن فعلت كانت لك بلادك، لا يدخل عليك فيها إلّا من أحببتَ، وعليك الزكاة والخُمس، وإن أبيتَ ذلك فالجزية؛ وإن أبيتَ ذلك قاتلناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

قال له رستم: ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع منكم هذا معشر العرب. لا أمسي غداً حتى أفرُغ منكم وأقتلكم كلّكم. ثمّ أمر بالعَتيق أن يُسكَر، فبات ليلته يسكر بالبراذع والتراب والقَصَب حتى أصبح، وقد تركه طريقاً مَهْيَعاً، وتعبّى له المسلمون، فجعل سعد على جماعة الناس خالد بن عُرْفُطة حليف بني أميَّة بن عبد شمس، وجعل على ميمنة الناس جرير بن عبدالله البَجَليّ، وجعل على ميسرتهم قيس بن المكشوح المُراديّ.

ثم زحف إليهم رستم، وزحف إليه المسلمون، وما عامَّةُ جُنتِهم - فيما حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سَلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر - غير براذع الرّحال، قد عرّضوا فيها الجريد، يترّسون بها عن أنفسهم، وما عامَّة ما وضعوه على رؤوسهم إلا أنساع الرّحَال، يطوي الرجل نِسْع رحْله على رأسه يتّقي به، والفُرس فيما بينهم من الحديد واليلامق؛ فاقتتلوا قتالا شديداً، وسعد في القصر ينظر، معه سلمَى بنت خَصَفة؛ وكانت قبله عند المثنّى بن حارثة، فجالت الخيل، فرعبت سلمى حين رأت الخيل جالت، فقالت: وامثنيَّاه ولا مُثنَّى لي اليوم! فغار سعد فلطم وجهها، فقالت: أغَيْرةً وجُبْناً! فلمّا رأى أبو مِحْجن ما تصنع الخيل حين جالت، وهو ينظر من قصر العُذيب وكان مع سعد فيه، قال:

كَفَى حَزَناً أن تَرْدِيَ الخيْل بالقنا ... وأُتْرَكَ مشدوداً عَليّ وثاقِيا
إذا قمْتُ عَنَّاني الحديدُ وأُغلِقَتْ ... مَصاريعُ دوني لا تُجيبُ المُناديا
وقَدْ كُنْتُ ذَا مالٍ كثيرٍ وإخوة ... فقَدْ تَركوني واحِداً لا أخاليا

فكلَّم زَبْراءَ أمَّ ولد سعد - وكان عندها محبوساً، وسعد في رأس الحصن ينظر إلى الناس - فقال: يا زَبْراءُ، أطلقيني ولك عليَّ عهد الله وميثاقه، لئن لم أقتل لأرجعنّ إليك حتى تجعلي الحديد في رجليّ، فأطلقته وحملته على فرس لسعد بلْقَاءَ وخلَّت سبيله، فجعل يشدّ على العدوّ وسعد ينظر. فجعل سعد يعرف فرسَه ويُنكرها، فلمّا أنْ فرغوا من القتال؛ وهزم الله جموع فارس، رجع أبو مِحْجن إلى زَبْراء، فأدخل رِجْله في قيده، فلمّا نزل سعد من رأس الحصن رأى فرسه تعرق، فعرف أنها قد رُكِبَتْ، فسأل عن ذلك زَبْراء، فأخبرته خبر أبي مِحْجن فخلّى سبيله.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثنا محمد بن إسحاق، قال: وقد كان عمرو بن مَعْد يكرب شهِد القادسيَّة مع المسلمين.

وحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن بن الأسْوَد النَّخعيّ، عن أبيه، قال: شهدت القادسيَّة؛ فلقد رأيت غلاماً منّا من النَّخَع يسوق ستين أو ثمانين رجلا من أبناء الأحرار. فقلت: لقد أذلّ الله أبناءَ الأحرار!

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أبي خالد، مولى بَجِيلة،

عن قيس بن أبي حازم البَجَليّ ـ وكان ممَّن شهد القادسيَّة مع المسلمين ـ قال: كان معنا يوم القادسيَّة رجل من ثَقِيف، فلحق بالفُرْس مرتدًّا، فأخبرهم أنَّ بأس الناس في الجانب الذي به بَجِيلة. قال: وكُنّا رُبع النَّاس؛ فوجَّهوا إلينا ستة عشر فيلا وإلى سائر الناس فيلَيْن، وجعلوا يُلقون تحت أرجُل خيولنا حَسك الحديد، ويرشقوننا بالنُّشَّاب، فكأنَّه المطر علينا، وقرنوا خيلهم بعضها إلى بعض لئلا يفرُّوا. قال: وكان عمرو بن معد يكرب يمرّ بنا فيقول: يا معشرَ المهاجرين، كونوا أسوداً، فإنّما الأسد من أغنَى شأنه؛ فإنّما الفارسيّ تيس إذا ألقى نيْزَكه.

قال: وكان أسوار منهم لا يكاد تسقط له نُشَّابة، فقلنا له: يا أبا ثوْر، اتَّقِ ذلك الفارسيّ فإنه لا تقع له نُشَّابة؛ فتوجَّه إليه ورماه الفارسيّ بنشَّابة فأصاب قوسه، وحمل عليه عمرو فاعتنقه فذبحه، واستلبه سوارَيْن من ذهب ومِنطقة من ذهب ويَلْمقاً من ديباج، وقتل الله رستم، وأفاء على المسلمين عسكرَه وما فيه، وإنما المسلمون ستة آلاف أو سبعة آلاف، وكان الذي قتل رستم هِلال بن علَّفة التَّيْميّ رآه فتوجَّه إليه، فرماه رستم بنشَّابة فأصاب قدمه وهو يُتبعه، فشكَّها إلى ركاب سَرْجه، ورستم يقول بالفارسية: «ببايه»، أي «كما أنت»؛ وحمل عليه هلال بن عُلَّفة فضربه فقتله، ثم احتزَّ رأسه فعلَّقه، وولَّت الفُرْس فأتبعهم المسلمون يقتلونهم؛ فلما بلغت الفرس الخَرَّارة نزلوا فشربوا من الخمر، وطعِموا من الطعام، ثم خرجوا يتعجَّبون من رَميهم، وأنّه لم يعمل في العرب. وخرج جالنوس فرفعوا له كُرَةً فهو يرميها ويشكّها بالنّشاب، ولحق بهم فرسان من المسلمين وهم هنالك، فشدّ على جالنوس زُهرة بن حَوِيَّة التميميّ فقتله، وانهزمت الفرس، فلحقوا بدير قُرَّةَ وما وراءه، ونهض سعد بالمسلمين حتى نزل بدير قُرّة على من هنالك من الفرس؛ وقد قدم عليهم وهم بدير قرّة عياض بن غَنْم في مدده من أهل الشأم، وهم ألف رجل، فأسْهَمَ له سعد ولأصحابه مع المسلمين فيما أصابوا بالقادسيَّة، وسعد وَجِعٌ من قَرْحته تلك، وقال جرير بن عبدالله:

أنـا جـريـرٌ كُنْيـتي أبـو عَـمْـرْو ... قـد نَصَـرَ ٱللّهُ وسَعْـدٌ في القَصِـرْ

وقال رجل من المسلمين أيضاً:

نُـقـاتِـلُ حتى أنْـزَلَ ٱلـلّهُ نَـصْـرَهُ ... وسَعْـدٌ ببـاب الـقـادسيّـة مُعْصِـمُ
فـأُبْـنـا وقـد آمَت نِـسـاءٌ كـثيـرةٌ ... ونِـسْـوَةُ سَـعْـدٍ ليس فـيهِـنَّ أيِّـمُ

قال: ولما بلغ ذلك من قولهما سعداً، خرج إلى الناس فاعتذر إليهم، وأراهم ما به من القَرْح في فَخِذَيْه وألْيَتَيْه، فعذره الناس، ولم يكن سعد لَعَمْري يُجَبَّن؛ فقال سعد يجيب جريراً فيما قال:

ومـا أرْجُـو بَـجـيـلةَ غَـيْـرَ أنِّـي ... أؤمِّـلُ أجْـرَهـم يـوم الـحِـسَـابِ
فـقـد لَـقِـيَتْ خُـيُـولُـهُـمُ خـيـولاً ... وقَـد وَقَـعَ الـفَـوارِسُ فـي ضـرابِ
وقـد دلَـفَـتْ بـعَـرْصتهـم فـيـولٌ ... كـأنّ زُهـاءَهـا إبـلٌ جـرابُ

ثم إنّ الفرس هربت من دير قُرّة إلى المدائن يريدون نِهاوَنْد، واحتملوا معهم الذّهب والفضة والديباج والفِرِنْد والحرير والسلاح وثياب كسرى وبناته، وخلّوا ما سوى ذلك، وأتبعهم سعد الطلبَ من المسلمين، فبعث خالد بن عُرْفُطة حليف بني أمية، ووجّه معه عِياض بن غَنْم في أصحابه، وجعل على مقدّمة النّاس هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص، وعلى ميمنتهم جرير بن عبدالله البَجَلي، وعلى ميسرتهم زُهرة بن حَوِيَّة التميميّ؛ وتخلَّف سعد لما به من الوَجَع فلمّا أفاق سعد من وجعه ذلك اتّبع النّاس بمن بقِيَ معه من المسلمين؛ حتى

أدركهم دون دِجلة على بَهُرَسِير، فلمّا وضعوا على دِجْلة العسكر والأثقال طلبوا المخاضة، فلم يهتدوا لها؛ حتى أتى سعداً عِلْج من أهل المدائن، فقال: أدُلُّكم على طريق تُدركونهم قبل أن يُمْعِنوا في السير! فخرج بهم على مخاضة بقَطْرَبُّلَ، فكان أول مَن خاض المخاضة هاشم بن عُتبة في رَجْله، فلمّا جاز اتَّبعته خيله، ثم أجاز خالد بن عُرْفُطة بخيله، ثم أجاز عياض بن غَنْم بخيله، ثم تتابع الناس فخاضوا حتى أجازوا؛ فزعموا أنه لم يُهْتَدَ لتلك المخاضة بعد. ثم ساروا حتى انتهَوْا إلى مُظْلِم سَاباط، فأشفق النَّاس أن يكون به كمين للعدو، فتردّد الناس، وجبنوا عنه؛ فكان أوّل منْ دخله بجيشه هاشم بن عُتبة، فلمّا أجاز ألاح للناس بسيفه، فعرَّف الناس أن ليس به شيء يخافونه، فأجاز بهم خالد بن عُرْفُطة، ثم لحق سعد بالناس؛ حتى انتهوا إلى جَلولاء وبها جماعة من الفرس، فكانت وقعة جلولاء بها، فهزم الله الفرس، وأصاب المسلمون بها من الفيء أفضلَ مما أصابوا بالقادسيَّة، وأصيبت ابنة لكسرى، يقال لها منجانة؛ ويقال: بل ابنة ابنه. وقال شاعر من المسلمين:

يـا رُبَّ مُـهْـرٍ حَـسَـنٍ مُـطَهَّـمْ ... يَـحْمِـلُ أثـقـالَ الغُـلامِ الـمُـسْـلِمْ
يَـنْجُـو إلى الـرَّحمن من جهـنَّـمْ ... يـومَ جَـلولاء ويـوم رُسْـتَـمْ
ويـومَ زحفِ الـكـوفـة الـمُـقـدَّمْ ... ويـوم لاقَـى ضَـيْـقَـة مُـهَـزَّمْ
وخـرَّ ديـنُ الـكـافـريـن لـلفَـمْ

ثم كتب سعد إلى عمر بما فتح الله على المسلمين؛ فكتب إليه عمر: أن قِفْ ولا تطلبوا غير ذلك. فكتب إليه سعد أيضاً: إنما هي سُرْبة أدركناها والأرض بين أيدينا، فكتب إليه عمر: أن قف مكانك ولا تُتبعهم، واتَّخذْ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً. فنزل سعد بالناس الأنبار، فاجتوَوْها وأصابتهم بها الحُمَّى، فلم توافقهم، فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك، فكتب إلى سعد أنه لا تصلح العرب إلا حيث يصلح البعير والشاة في منابت العُشب؛ فانظر فلاةً في جنب البحر فارتَدْ للمسلمين بها منزلا.

قال: فسار سعد حتى نزل كُوَيْفة عمرو بن سعد، فلم توافق النَّاس مع الذّباب والحمّى. فبعث سعد رجلا من الأنصار يقال له الحارث بن سلَمة ـ ويقال: بل عثمانَ بن حُنَيْف، أخابني عمرو بن عوف ـ فارتاد لهم موضع الكوفة اليوم، فنزلها سعد بالنَّاس، وخطّ مسجدها، وخطّ فيها الخِطَط للنّاس.

وقد كان عمر بن الخطاب خرج في تلك السنة إلى الشأم فنزل الجابِيَة، وفتِحت عليه إيلِياء؛ مدينة بيت المقدِس، وبعث فيها أبو عبيدة بن الجراح حنظلةَ بن الطُّفيل السُّلَميّ إلى حِمْص، ففتحها الله على يديه، واستعمل سعد بن أبي وقّاص على المدائن رجلا من كِنْدة، يقال له شُرَحْبيل بن السِّمط؛ وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا لَيْتَني والمَـرْءَ سعـدَ بن مـالـكٍ ... وزَبْـراءَ وابن السَمْطِ في لُجَّـة البَحْـرِ

ذكر أحوال أهل السَّواد

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الملك بن عُمَيْر، عن قَبيصة بن جابر، قال: قال رجل منّا يوم القادسيَّة مع الفتح:

نقاتل حتى أنزلَ الله نصرَهُ　　　وسعدٌ بباب القادسيّة معصِمُ
فأُبْنا وقد آمَتْ نساء كثيرةٌ　　　ونسوة سعدٍ ليسَ فيهنّ أيِّمُ

فبعث بها في الناس، فبلغت سعداً، فقال: اللهمّ إن كان كاذباً، أو قال الذي قال رياءً وسُمْعة وكَذِباً، فاقطع عنّي لسانه ويَده.

وقال قَبيصة: فوالله إنّه لواقف بين الصفَّين يومئذ؛ إذ أقبلت نُشّابة لدعوة سعد، حتى وقعت في لسانه فيبس شِقُّه؛ فما تكلَّم بكلمة حتى لحق بالله.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن المقدام بن شُرَيْح الحارِثيّ، عن أبيه، قال: قال جرير يومئذ:

أنا جريرٌ كنيتِي أبو عمْرو　　　قدْ نصرَ الله وسعد في الْقَصِرْ

فأشرف عليه سعد، فقال:

وما أرْجو بَجيلةَ غيرَ أنّي　　　أؤمّلُ أجْرَها يومَ الحِسَابِ
وقد لَقِيَتْ خُيُولُهُمُ خُيُولاً　　　وقدْ وقع الفَوارِسُ في الضِّرَابِ
فلولا جَمْعُ قَعقاع بن عَمْرٍو　　　وحمّالٍ للَجُّوا في الكِذابِ
همُ منعوا جُموعَكُم بطَعْنٍ　　　وضَرْبٍ مِثْلِ تَشْقيق الإهابِ
ولولا ذاك أُلْفِيتُمْ رَعاعاً　　　تُشَلُّ جُموعُكم مثل الذُّبابِ

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن القاسم بن سُليم بن عبد الرحمن السعديّ، عن عثمان بن رجاء السعديّ، قال: كان سعد بن مالك أجرَأ النَّاس وأشجعَهمْ؛ إنه نزل قصراً غير حصين بين الصَّفّين، فأشرف منه على النَّاس، ولو أعراه الصّفّ فُواقَ ناقة أخِذ برُمّته؛ فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن سليمان بن بشير، عن أمّ كثير؛ امرأة همّام بن الحارث النَّخَعيّ، قالت: شهدنا القادسيَّة مع سعد مع أزواجنا، فلمّا أتانا أن قد فُرِغ من الناس شددنا علينا ثيابَنا، وأخذنا الهَراوَى، ثم أتينا القتْلى؛ فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه؛ وما كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصِّبْيان نولّيهم ذلك، ونصرّفهم به.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيَّة ـ وهو ابن الحارث ـ عمَّن أدرك ذلك؛ قال: لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأةً يوم القادسيَّة من بَجيلة والنَّخَع، وكان في النَّخَع سبعمائة امرأة فارغة، وفي بَجيلة ألف، فصاهر هؤلاء ألفٌ من أحياء العرب، وهؤلاء سبعمائة، وكانت النَّخَع تُسمَّى أصهار المهاجرين، وبجيلة، وإنَّما جرّأهم على الانتقال بأثقالهم توطئةُ خالد، والمثنَّى بعد خالد، وأبي عُبيد بعد المثنَّى، وأهل الأيَّام، فلاقوْا بأساً بعد ذلك شديداً.

كتب إليّ السريُّ؛ عن شُعيب، عن سيف، عن محمَّد والمهلَّب وطلحة، قالوا: وكان بُكَيْر بن عبدالله اللَّيْثيّ وعتبة بن فَرْقَد السُّلَميّ وسِماك بن خَرَشَة الأنصاريّ ـ وليس بأبي دُجانة ـ قد خطبوا امرأة يوم القادسيَّة،

وكان مع النَّاس نساؤهم؛ وكانت مع النَّخع سبعمائة امرأة فارغة؛ وكانوا يُسمَّوْن أختانَ المهاجرين حتى كان قريباً؛؛ فتزوجهنّ المهاجرون قبل الفتح وبعد الفتح؛ حتى استوعبوهنّ، فصار إليهن سبعمائة رجل من الأفناء؛ فلمّا فرغ النَّاس خطب هؤلاء النَّفر هذه المرأة ـ وهي أرْوَى ابنة عامر الهلاليَّة ـ هلالِ النَّخع؛ وكانت أختها هُنَيْدة تحتَ القعقاع بن عمرو التميميّ،فقالت لأختها: استشيري زوجَك أيَّهم يراه لنا! ففعلت؛ وذلك بعد الوقعة وهم بالقادسيَّة؛ فقال القعقاع: سأصفهم في الشعر فانظري لأختك، وقال:

إن كنتِ حاولتِ الدّراهم فانكِحِي ... سِماكاً أخا الأنصار أوْ إبن فَرْقَدِ
وإن كنتِ حاولتِ الطِّعان فيَمِّمي ... بُكَيْراً إذا ما الخيلُ جالَتْ عن الرَّدِي
وكلُّهُمُ في ذِرْوة المجدِ نَازِلٌ ... فشأْنكُمُ إنّ البَيانَ عن الغد

وقالوا: وكانت العرب توقَّعُ وقعة العرب وأهل فارس في القادسيّة فيما بين العُذيب إلى عَدَنِ أبْيَنَ، وفيما بين الأُبلّةِ وأيلَة؛ يروْن أنّ ثبات مُلكهم وزواله بها، وكانت في كلّ بلد مُصِيخةً إليها، تنظُر ما يكون من أمرها؛ حتَّى إن كان الرجل ليريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتّى أنظر ما يكون من أمر القادسيَّة. فلمّا كانت وقعة القادسيّة سارت بها الجنّ، فأتت بها ناساً من الإنس، فسبقت أخبار الإنس إليهم؛ قالوا: فبدرت امرأة ليلا على جبل بصَنْعَاء، لا يُدرَى مَنْ هي؟ وهي تقول:

حُيِّيتِ عنّا عِكْرِمَ ابنةَ خالِدٍ ... وما خَيْرُ زادٍ بالقَليل المُصَرَّدِ
وحَيَّتْكِ عنّي الشمسُ عند طُلوعها ... وحَيّاكِ عنّي كلُّ ناجٍ مُفَرَّدٍ
وحَيَّتْكِ عنّي عُصْبَةٌ نَخعِيَّةٌ ... حِسانُ الوُجوهِ آمَنوا بِمُحَمَّدِ
أقاموا لِكِسْرَى يَضْرِبون جُنودَه ... بكلِّ رَقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ
إذَا ثَوَّبَ الدَّاعي أناخوا بكَلْكَلٍ ... مِنَ الموت تَسْوَدُّ الغَياطِلُ مُجْرَدِ

وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغنّي بهذه الأبيات:

وَجدْنا الأكْثَرين بني تميمٍ ... غَداةَ آلرَّوْع أصبَرَهُمْ رجالا
هُمُ ساروا بِأرْعَنَ مُكْفَهِرٍّ ... إلى لَجَبٍ فَزَرَّتْهُمْ رِعالا
بُحُورٌ لِلأكاسِرِ من رجالٍ ... كأُسْدِ الغابِ تحسَبُهُمْ جِبالا
تَرَكْنَ لهم بقادِسَ عِزَّ فَخْرٍ ... وبالخَيْفَيْنِ أيَّاماً طِوالا
مُقَطَّعةً أكفُّهُمُ وسُوقٌ ... بِمِرْدَى حيثُ قابلَتِ الرِّجالا

قال: وسُمِع بنحو ذلك في عامَّة بلاد العرب.

كتب إليّ السرِّي، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد والمهلَّب وطلحة، قالوا: وكتب سعد بالفتح وبعدّة مَنْ قتلوا وبعدّة مَن أصيب من المسلمين؛ وسَمَّى لعمر مَن يعرف مع سعد بن عُمَيلة الفزاريّ، وشاركهم النَّضر ابن السريّ عن ابن الرُّفيل بن مَيْسور؛ وكان كتابه: أمَّا بعد؛ فإن الله نصرَنا على أهل فارس، ومنحهم سُنَنَ مَن كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل وزَلْزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعِدّة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك، بل سَلَبُهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتّبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج؛ وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء، وفلان، وفلان، ورجال من المسلمين لا

نَعلَمُهم، اللَّهُ بهم عالِم، كانوا يُدَوون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل دَويَّ النحل، وهم آساد النَّاس؛ لا يشبِهِهم الأسود، ولم يفضُل مَن مضى منهم مَنْ بقي إلاّ بفضل الشهادة إذ لم تُكتَب لهم.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد بن سعيد، قال: لمّا أتى عمَر بن الخطاب نزولُ رستم القادسيَّة، كان يستخبِر الرّكبان عن أهل القادسيَّة من حين يُصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله ومنزله. قال: فلمّا لقيَ البشير سأله من أين؟ فأخبره، قال: يا عبدَ الله حدِّثني، قال: هزم الله العدوّ، وعمر يَخُبّ معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه؛ حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلّمون عليه بإمْرة المؤمنين، فقال: فهلاّ أخبرتَني رحمك الله، أنّك أمير المؤمنين! وجعل عمر يقول: لا عليك يا أخي!

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وزياد، قالوا: وأقام المسلمون في انتظار بلوغ البشير وأمرِ عمر، يقوِّمون أقباضهم، ويحزُرون جندَهم، ويرمُّون أمورهم. قالوا: وتتابع أهلُ العراق من أصحاب الأيَّام الذين شهدوا اليرموك ودمشق، ورجعوا مُمِدّين لأهل القادسيَّة؛فتوافوْا بالقادسيَّة من الغد ومن بعد الغد، وجاء أوّلهم يوم أغواث، وآخرهم من بعد الغد من يوم الفتح، وقدمت أمداد فيها مُراد وهَمْدان، ومن أفناء الناس، فكتبوا فيهم إلى عمر يسألونه عمّا ينبغي أن يُسار به فيهم - وهذا الكتاب الثاني بعد الفتح - مع نذير بن عمرو. ولمّا أتى عمرَ الفتح قام في النّاس فقرأ عليهم الفتح، وقال: إني حريص على ألاّ أدَعَ حاجة إلاّ سددتها ما اتَّسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنّا تآسينا في عيشنا حتى نستويَ في الكَفاف، ولوددت أنّكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولستُ معلِّمكم إلاّ بالعمل؛ إني والله ما أنا بملِك فأستعبدكم، وإنّما أنا عبدُ الله عَرَضَ عليّ الأمانة، فإن أبيتُها ورددتها عليكم واتّبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم، وترووْا سعدتُ، وإن أنا حملتها واستتبعتُها إلى بيتي شقيت؛ ففرِحتُ قليلاً، وحزِنت طويلاً، وبقيت لا أقال ولا أردّ فأستعتِب.

قالوا: وكتبوا إلى عمر مع أنس بن الحُليس: إنَّ أقواماً من أهل السَّواد ادّعوا عهوداً، ولم يُقِمْ على عهد أهل الأيام لنا، ولم يفِ به أحد علمناه إلاّ أهل بانِقيا وبَسْما وأهل ألّيْس الآخرة وادّعى أهل السَّواد أنّ فارس أكرهوهم وحشروهم؛ فلم يخالفوا إلينا؛ ولم يذهبوا في الأرض.

وكتب مع أبي الهيّاج الأسديّ - يعني ابن مالك - إنّ أهلَ السَّواد جلوا، فجاءنا مَن أمسك بعهده ولم يُجلب علينا؛ فتمّمنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم؛ وزعموا أنّ أهلَ السَّواد قد لحقوا بالمدائن، فأحدِث إلينا فيمن تمَّ وفيمن جلا وفيمن ادّعى أنه استكرِه وحشر فهرب ولم يقاتل، أو استسلم؛ فإنّا بأرض رغيبة، والأرض خلاء من أهلها، وعددنا قليل، وقد كثر أهل صُلحنا؛ وإنّ أعمرَ لنا وأوهن لعدوّنا تألُّفهم. فقام عمر في الناس فقال: إنَّه مَن يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظُّه ولا يضرّ إلا نفسه، ومَنْ يتّبع السُّنَّة وينتهِ إلى الشرائع، ويلزم السبيل النَّهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة؛ أصاب أمره، وظفِر بحظِّه، وذلك بأنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(١)، وقد ظفر أهل الأيّام والقوادس بما يليهم، وجلا أهله، وأتاهم مَنْ أقام على عهدهم، فما رأيكم فيمن زعم أنه استُكرِه وحُشر؛ وفيمن لم يدّع ذلك ولم يُقِم وجَلاَ، وفيمن أقام ولم يدّع شيئاً، ولم يَجْلُ، وفيمن استسلم. فأجمعوا على أنّ الوفاء لمن أقام وكفّ لم يزده غَلبُه إلا خيراً، وأن من ادّعى فصُدِّق أو وفي فبمنزلتهم، وإن كُذِّب نُبذ إليهم وأعادوا صلحهم؛ وأن يُجعل أمر مَنْ جلا إليهم،

---

(١) سورة الكهف: ١٤٩.

فإن شاءوا وادعوهم وكانوا لهم ذمَّة، وإن شاءوا تمّوا على منعِهم من أرضهم ولم يُعطوهم إلاّ القتال؛ وأن يخيِّروا مَن أقام واستسلم: الجِزاء، أو الجَلاء، وكذلك الفلاّح.

وكتب جواب كتاب أنس بن الحُليس: أمَّا بعْد؛ فإنَّ الله جل وعلا أنزل في كلّ شيء رُخْصة في بعض الحالات إلاّ في أمرين: العدلِ في السِّيرة والذّكر؛ فأمَّا الذّكر فلا رخصة فيه في حالة، ولم يرضَ منه إلاَّ بالكثير، وأمَّا العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدّة ولا رخاء، والعدل ـ وإن رُئِيَ لَيِّناً ـ فهو أقوى وأطفأ للجور، وأقمَع للباطل من الجوْر، وإن رُئي شديداً فهو أنكشُ للفكر؛ فمن تَمّ على عهده من أهل السَّواد، ولم يُعِنْ عليكم بشيء؛ فلهم الذمّة، وعليهم الجزْية؛ وأمَّا مَن ادّعى أنه استكرِه ممن لم يخالِفْهم إليكم أو يذهب في الأرض؛ فلا تصدّقوهم بما ادّعوْا من ذلك إلاّ أن تشاءوا؛ وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم، وأبلغوهم مأمنَهم.

وأجابهم في كتاب أبي الهيَّاج. أمَّا من أقام ولم يَجْلُ وليس له عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفِّهم عنكم إجابة، وكذلك الفلاّحون إذا فعلوا ذلك؛ وكلّ من ادّعى ذلك فصُدق فلهم الذمَّة؛ وإن كذّبوا نُبذ إليهم؛ وأمَّا مَنْ أعان وجلا؛ فذلك أمرٌ جعله الله لكم؛ فإن شئتم فادعُوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم، ولهم الذِّمَّة، وعليهم الجِزية؛ وإن كرهوا ذلك، فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم.

فلمّا قدمتْ كتُب عمر على سعد بن مالك والمسلمين عرضوا على مَن يليهم ممَّنْ جلا وتنحّى عن السواد أن يتراجعوا، ولهم الذمَّة وعليهم الجزية، فتراجعوا وصاروا ذمَّة كمن تمّ ولزم عهدَه؛ إلاَّ أن خراجهم أثقل؛ فأنزلوا من ادّعى الاستكراه وهرب منزلتَهم وعقدوا لهم، وأنزلوا مَن أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاّحين، ولم يُدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى، ولا ما كان لمن خرج معهم، ولم يُجبهم إلى واحدة من اثنتين: الإسلام، أو الجِزاء، فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه؛ فهي والصوافي الأولى ملك لمن أفاء الله عليه، وسائر السواد ذمَّة وأخذوهم بخراج كسرى، وكان خراج كسرى على رؤوس الرّجال على ما في أيديهم من الحصّة والأموال، وكان مما أفاء الله عليهم ما كان لآل كسرى، ومن صوّب معهم وعيالُ من قاتل معهم وماله، وما كان لبيوت النيران والآجام ومستنقع المياه، وما كان للسِّكك، وما كان لآل كسرى، فلم يَتأتَّ قَسْم ذلك الفيء الذي كان لآل كسرى ومن صوّب معهم؛ لأنه كان متفرّقاً في كلّ السّواد، فكان يليه لأهل الفيء مَن وَثِقُوا به، وتراضَوْا عليه؛ فهو الَّذي يَتَداعاه أهلُ الفيء لاعُظْمُ السواد؛ وكانت الولاة عند تنازعهم فيها تهاونُ بقسمه بينهم؛ فذلك الذي شبَّه على الجَهَلة أمر السَّواد، ولو أنّ الحُلماء جامعوا السُّفهاء الذين سألوا الولاةَ قسمَه لقسموه بينهم، ولكنَّ الحلماء أبوْا، فتابع الولاة الحلماء، وتُرِك قول السفهاء. كذلك صنع عليّ رحمه الله، وكلّ مَنْ طُلب إليه قسمُ ذلك فإنَّما تابع الحُلماء، وترك قولَ السُّفهاء، وقالوا: لئلاّ يضرب بعضُهم وجوهَ بعض.

كتب إليَّ السَّريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن عامر الشَّعبيّ، قال: قلت له: السّواد ما حاله؟ قال: أخِذ عَنْوَةً، وكذلك كلّ أرض إلاّ الحصون، فجلا أهلها؛ فدُعوا إلى الصّلح والذّمة، فأجابوا وتراجعوا، فصاروا ذمَّة، وعليهم الجِزاء؛ ولهم المَنعة، وذلك هو السنَّة، كذلك صنع رسول الله ﷺ بدُومة، وبقيَ ما كان لآل كسرى ومَن خرج معهم فيئاً لمن أفاءه الله عليه.

كتب إليَّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة وسفيان، عن ماهان، قالوا: فتح الله السَّوادَ عَنْوةً ـ وكذلك كلّ أرض بينها وبين نهر بلْخ ـ إلاّ حصناً، ودُعُوا إلى الصلح، فصاروا ذمَّة، وصارت لهم

أرَضوهم ولم يُدخلوا في ذلك أموال آل كسرى ومَن اتّبعهم، فصارت فيئاً لمن أفاءه الله عليه، ولا يكون شيء من الفتوح فيئاً حتى يُقَسم؛ وهو قوله ﴿مَا غِنْمتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ ممّا اقتسمتم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن بن أبي الحسن، قال: عامَّة ما أخذ المسلمون عَنْوة فدعوهم إلى الرجوع والذمَّة، وعرضوا عليهم الجزاء فقبلوه ومنعوهم.

وعن سيف، عن عمرو بن محمَّد، عن الشعبيّ، قال: قلت له: إنّ أناساً يزعُمون أنّ أهل السّواد عبيد، فقال: فعلام يؤخذ الجزاء من العبيد؟ أخِذ السّواد عَنْوة، وكلّ أرض علمتَها إلّا حصناً في جبل أو نحوه. فدُعوا إلى الرجوع فرجعوا، وقبل منهم الجزاء، وصاروا ذمَّة؛ وإنّما يُقْسَم من الغنائم ما تُغنَّم؛ فأمّا ما لم يُغْنَم وأجاب أهله إلى الجزاء من قبل أن يُتغنَّم، فلهم جرت السنَّة بذلك.

كتب إليّ السّريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي ضَمْرة، عن عبدالله بن المستورِد، عن محمد بن سيرين، قال: البلدان كلّها أخذت عَنْوة إلّا حصون قليلة، عاهدوا قبل أن يُنزَلوا. ثم دُعوا ـ يعني الذين أخذوا عَنْوة ـ إلى الرّجوع والجِزاء، فصاروا ذمَّة أهل السَّواد، والجبَل كلّه أمر لم يزل يُصنع في أهل الفيء، وإنما عمل عمر والمسلمون في هذا الجزاء والذمَّة على إجريًّا ما عمل به رسول الله ﷺ في ذلك، وقد كان بعث خالد بن الوليد من تَبُوك إلى دُومة الجَنْدل، فأخذها عَنْوة، وأخذ ملكها أكَيْدِرَ بن عبد الملك أسيراً، فدعاه إلى الذمَّة والجِزاء، وقد أخذت بلاده عَنْوة، وأخذ أسيراً؛ وكذلك فعل بابني عريض، وقد أخذا فادّعيا أنهما أودّاؤه، فعقد لهما على الجِزاء والذمَّة، وكذلك كان أمر يُحنَّه ابن رُؤية صاحب أيْلة. وليس المعمول به من الأشياء كرواية الخاصّة، مَن روى غير ما عمل به الأئمة العدول المسلمون، فقد كذب وطعن عليهم.

وعن سيف، عن حجَّاج الصوّاف، عن مسلم مولى حُذَيفة، قال: تزوّج المهاجرون والأنصار في أهل السّواد ـ يعني في أهل الكتابيْن منهم، ولو كانوا عبيداً لم يستحلّوا ذلك، ولم يحلّ لهم أن ينكحوا إماء أهل الكتاب؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً...﴾[1] الآية، ولم يقل: «فتياتهم من أهل الكتابين».

وعن سيف، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جُبَير، قال: بعث عمر بن الخطّاب إلى حُذيفة بعد ما ولّاه المدائن وكثر المسلمات: إنه بلغني أنّك تزوّجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلِّقها. فكتب إليه: لا أفعل حتَّى تخبرَني: أحلال أم حرام، وما أردت بذلك! فكتب إليه: لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خَلابة، فإن أقبلتم عليهنّ غلبنَكم على نسائكم. فقال: الآن؛ فطلَّقها.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن أشعث بن سِوَار، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: شهدت القادسيّة مع سعد، فتزوّجنا نساء أهل الكتاب، ونحن لا نجد كثير مسلمات، فلمّا قفلنا؛ فمنّا مَن طلَّق، ومنّا من أمسك.

وعن سيف،عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جُبَير، قال: أخِذَ السَّواد عَنْوة، فدُعوا إلى الرّجوع والجزاء، فأجابوا إليه، فصاروا ذمَّة، إلّا ما كان لآل كسرى، وأتباعهم، فصار فيئاً لأهله، وهو الذي

(١) سورة النساء: ٢٥.

يتحجَّى أهلَ الكوفة إلى أن جُهل ذلك؛ فحسبوه السَّواد كلَّه، وأمَّا سوادهم؛ فذلك.

وعن سيف، عن المستنير بن يزيد، عن إبراهيم بن يزيد النَّخعيّ، قال: أخِذ السَّواد عَنْوة، فدُعوا إلى الرجوع، فمنْ أجابَ فعليه الجزيـة وله الذمّة، ومَن أبى صار ماله فيئاً، فلا يحلّ بيع شيء من ذلك الفيء فيما بين الجَبل إلى العُذَيب من أرض السَّواد ولا في الجَبَل.

وعن سيف، عن محمَّد بن قيس، عن الشعبيّ، بمثله: لا يحلّ بيع شيء من ذلك الفيء فيما بين الجَبل والعُذَيب.

وعن سيف، عن عمرو بن محمَّد، عن عامر، قال: أقطع الزبير وخبّاب وابن مسعود وابن ياسر وابن هبَّار أزمانَ عثمان، فإن يكن عثمان أخطأ فالَّذين قبلوا منه الخطأ أخطأ؛ وهم الذين أخذنا عنهم ديننا. وأقطع عمر طلحة وجرير بن عبدالله والرُّبَيل بن عمرو، وأقطع أبا مُفَزِّر دار الفِيل في عدد ممَّن أخذنا عنهم، وإنما القطائع على وجه النّفْل من خُمس ما أفاء الله. وكتب عُمر إلى عُثمان بن حنيف مع جرير: أمَّا بعد؛ فأقطعْ جرير بن عبدالله قَدْر ما يقُوته لا وَكْس ولا شَطَط فكتب عثمان إلى عمر: إنّ جريراً قدِم عليّ بكتاب منك تُقْطعه ما يقوته، فكرهت أن أمضي ذلك حتى أراجعكَ فيه. فكتب إليه عمر: أن قد صدق جرير، فأنفِذ ذلك، وقد أحسنتَ في مؤامرتي وأقْطع أبا موسى. وأقطع عليٌّ رحمه الله كردوسَ بن هانىء الكردُوسيّة، وأقطع سُويد بن غفلة الجعفيّ.

وعن سيف، عن ثابت بن هُرَيْم، ! عن سُوَيد بن غفلة، قال: استقطعت عليّا رحمه الله، فقال: اكتب: هذا ما أقطع عليٌّ سُوَيدا أرضا لداذَوَيْه؛ ما بين كذا إلى كذا وما شاء الله.

وعن سيف، عن المستنير، عن إبراهيم بن يزيد، قال: قال عمر: إذا عاهدتم قوماً فأبرؤوا إليهم من معرّة الجيوش. فكانوا يكتبون في الصلح لمن عاهدوا: «ونبرأ إليكم من معرّة الجيوش».

وقال الواقديّ: كانت وقعة القادسيَّة وافتتاحها سنة ستّ عشرة، وكان بعض أهل الكوفة يقول: كانت وقعة القادسيَّة سنة خمس عشرة.

قال: والثَّبَت عندنا أنَّها كانت في سنة أربع عشرة.

وأما محمد بن إسحاق فإنه قال: كانت سنة خمس عشرة، وقد مضى ذكري الرواية عنه بذلك.

ذكر بناء البَصْرة

قال أبو جعفر: وفي سنة أربع عشرة أمر عمر بن الخطّاب رحمه الله ـ فيما زعم الواقديّ ـ النّاس بالقيام في المساجد في شهر رمضان بالمدينة، وكتب إلى الأمصار يـأمر المسلمين بذلك.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة أربع عشرة ـ وجَّه عمر بن الخطاب عُتْبة بن غَزْوان إلى البصرة، وأمره بنزولها بمَن معه، وقطع مادّة أهلِ فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم في قول المدائنيّ وروايته.

وزعم سيف أن البصرة مُصّرت في ربيع سنة ست عشرة، وأنّ عُتبة بن غَزْوان إنّما خرج إلى البصرة من

المدائن بعد فراغ سعد من جَلولاء وتَكْريت والحِصْنين؛ وجَّهه إليها سعد بأمر عمر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عنه. فحدّثني عمر بن شبّة؛ قال: حدّثنا عليّ بن محمد، عن أبي مخْنف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: قُتل مِهران سنة أربع عشرة في صفر، فقال عمر لعتبة ـ يعني ابنَ غزوان ـ: قد فتح الله جلّ وعزّ على إخوانكم الحِيرة وما حولها، وقتِل عظيم من عظمائها: ولست آمن أن يمدّهم إخوانُهم من أهل فارس؛ فإني أريد أن أوجِّهك إلى أرض الهند، لتمنَع أهلَ تلك الجيزة من إمداد إخوانهم على إخوانكم وتقاتلهم؛ لعلّ الله أن يفتح عليكم. فسرْ على بركة الله، واتّق الله ما استطعت، واحكم بالعدل، وصلّ الصلاة لوقتها، وأكثر ذكر الله. فأقبل عتبة في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وضوَى إليه قوم من الأعراب وأهل البوادي، فقدم البصرة في خمسمائة، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلا، فنزلها في شهر ربيع الأول ـ أو الآخر ـ سنة أربع عشرة، والبصرة يومئذ تدعى أرضَ الهند فيها حجارة بيض خُشُن، فنزل الخُرَيبة، وليس بها إلاّ سبع دساكر؛ بالزابُوقة والخُرَيبة ومْوضع بني تميم والأزد: ثنتان بالخُريبة، وثنتان بالأزد، وثنتان في موضع بني تميم وواحدة بالزابوقة. فكتب إلى عمر، ووصف له منزله. فكتب إليه عمر: اجمع للناس موضعاً واحداً؛ ولا تفرّقهم؛ فأقام عتبة أشهراً لا يغزو ولا يلقَى أحداً.

وأمَّا محمد بن بَشَّار؛ فإنَّه حدّثنا، قال: حدّثنا صفوان بن عيسى الزُّهريّ، قال: حدّثنا عمرو بن عيسى أبو نَعامة العَدَوِيّ، قال: سُمعت خالد بن عُمَير وشُوَيْساً أبا الرُّقاد، قالا: بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان، فقال له: انطلق أنت ومَن معك؛ حتَّى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم، فأقيموا. فأقبلوا حتى إذا كانوا بالمِرْبَد وجدوا هذا الكذّان. قالوا: ما هذه البَصْرة؟ فساروا حتى بلغوا حيال الجسْر الصغير، فإذا فيه حَلْفاء وقصبٌ نابتة، فقالوا: ها هنا أمرتم، فنزلوا دون صاحب الفُرات، فأتوه فقالوا: إنَّ ها هنا قوماً معهم راية، وهم يريدونك، فأقبل في أربعة آلاف أسوار، فقال: ما هم إلا ما أرى؛ اجعلوا في أعناقهم الحبال؛ وأتوني بهم؛ فجعل عتبة يَزْجَل، وقال: إني شهدت الحرب مع النبيّ ﷺ؛ حتى إذا زالت الشمس، قال: احملوا؛ فحملوا عليهم فقتلوهم أجمعين، فلم يبق منهم أحد إلاّ صاحب الفرات، أخذوه أسيراً، فقال عتبة بن غَزْوان: ابغوا لنا منزلا هو أنزه من هذا ـ وكان يوم عِكاك وَوَمَد ـ فرفعوا له منبراً، فقام يخطب: فقال: إنَّ الدنيا قد تصرّمت وولَّت حَذّاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء. ألا وإنَّكم منتقلون منها إلى دار القرار، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. وقد ذكر لي: لو أنّ صخرة ألقيت من شفير جهنّم هوت سبعين خريفاً، ولتُملأنّه؛ أوعجبتم! ولقد ذكر لي أنَّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنَّة مسيرة أربعين عاماً، وليأتينّ عليه يوم وهو كظيظ بزحام، ولقد رأيتُني وأنا سابع سبعة مع النبيّ ﷺ، مالنا طعام إلا ورق السَّمُر، حتى تقرّحت أشداقنا؛ والتقطت بُردة فشققتها بيني وبين سعد، فما منّا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مِصْر من الأمصار، وسيُجرِّبون الناس بعدنا.

وعن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: لما توجَّه عُتبة بن غزوان المازنيّ من بني مازن بن منصور من المدائن إلى فَرْج الهند، نزل على الشاطىء بحيال جزيرة العرب، فأقام قليلاً ثم أرز، ثم شكوا ذلك حتى أمره عمر بأن ينزل الحجَر بعد ثلاثة أوطان إذا اجتَووا الطين، فنزلوا في الرابعة البصرة ـ والبصرة كلّ أرض حجارتها جصّ ـ وأمر لهم بنهر يجرَى من دِجْلة، فساقوا إليها نهراً للشَّفة، وكان إيطان أهل البصرة البصرة اليوم وإيطانُ أهل الكوفة الكوفة اليوم في شهر واحد. فأمَّا أهل الكوفة فكان مقامهم قبل نزولها المدائن إلى أن

وطّنوها، وأمّا أهل البصرة فكان مقامهم على شاطىء دِجْلة. ثم أرزوا مرّات حتى استقرّوا وبدؤوا، فخنسوا فرسخاً وجَرُّوا معهم نهراً، ثم فرسخا ثم جرّوه ثم فرسخاً، ثم جَرُّوه ثم أتوا الحجر، ثم جرُّوه، واختُطت على نحو من خطط الكوفة، وكان على إنزال البصرة أبو الجَرباء عاصم بن الدُّلف، أحد بني غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم.

وقد كان قُطبة بن قتادة - فيما حدّثني عمر، قال: حدّثنا المدائنيّ عن النّضر بن إسحاق السُّلمي، عن قطبة بن قتادة السّدُوسيّ - يُغير بناحية الخُرَيبة من البصرة، كما كان المثنّى بن حارثة الشيبانيّ يُغير بناحية الحيرة. فكتب إلى عمر يُعلمه مكانه، وأنه لو كان معه عدد يسير ظفِر بمن قِبَله من العجم، فنفاهم من بلادهم. وكانت الأعاجم بتلك الناحية قد هابوه بعد وقعة خالد بنهر المرأة، فكتب إليه عمر: إنَّه أتاني كتابك أنَّك تغيرُ على مَنْ قِبَلك من الأعاجم، وقد أصبت ووُفِّقت؛ أقم مكانك، واحذر على مَن معك من أصحابك حتى يأتيَك أمري. فوجَّه عمر شريح بن عامر، أحد بني سعد بن بَكْر إلى البصرة، فقال له: كن ردءاً للمسلمين بهذه الجيزة، فأقبلَ إلى البصرة؛ فترك بها قطبة، ومضى إلى الأهواز حتى انتهى إلى دارس، وفيها مسلحة للأعاجم؛ فقتلوه، وبعث عمر عُتْبة بن غزوان.

حدّثنا عمر، قال: حدّثني عليّ، عن عيسى بن يزيد، عن عبد المَلِك بن حذيفة ومحمد بن الحجّاج، عن عبد الملك بن عُمَير، قال: إنّ عمر قال لعتبة بن غزوان إذ وجّهه إلى البصرة: يا عتبة، إنّي قد استعملتك على أرض الهند، وهي حوْمة من حوْمة العدوّ، وأرجو أن يكفيَك الله ما حولها، وأن يُعينك عليها. وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرميّ أن يُمدّك بعَرْفجة بن هرثمة؛ وهو ذو مجاهدة العدوّ ومكايدته، فإذا قدم عليك فاستشره وقرّبه، وادع إلى الله؛ فمن أجابك فاقبل منه، ومَنْ أبى فالجزية عن صَغَار وذلّة، وإلاّ فالسيف في غير هوادة. واتّق الله فيما وُلِّيت، وإيّاك أن تنازعك نفسك إلى كِبْر يفسد عليك إخوتك، وقد صحبتَ رسول الله ﷺ فعززتَ به بعد الذّلة، وقويتَ به بعد الضعف، حتى صرت أميراً مسلّطاً ومَلِكاً مطاعاً، تقول فيُسمع منك، وتأمر فيطاع أمرُك، فيالها نعمة؛ إن لم ترفعك فوق قدرِك وتُبطرك على مَنْ دونك! احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية؛ ولَهِيَ أخوَفُهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنّم، أعيذك بالله ونفسي من ذلك. إنّ الناس أسرعوا إلى الله حين رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا ترد الدنيا، واتّق مصارع الظالمين.

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدّثنا أبو إسماعيل الهمدانيّ وأبو مخنف، عن مجالد بن سعيد، عن الشعبيّ، قال: قدم عتبة بن غزْوان البصرة في ثلاثمائة، فلما رأى منبت القصب، وسمع نقيق الضفادع قال: إنّ أمير المؤمنين أمرني أن أنزل أقصى البَـرّ من أرض العرب، وأدنى أرض الريف من أرض العجم؛ فهذا حيث واجب علينا فيه طاعة إمامنا. فنزل الخُرَيبة وبالأبلّة خمسمائة من الأساورة يحمونها. وكانت مرفأ السفن من الصين وما دونها، فسار عُتْبة فنزل دون الإجّانة، فأقام نحوا من شهر، ثم خرج إليه أهل الأبلّة فناهضهم عُتْبة، وجعل قطبة بن قتادة السدوسيّ وقسامة بن زهير المازنيّ في عشرة فوارس، وقال لهما: كونا في ظهرنا، فتردّا المنهزم، وتمنعا مَن أرادنا من ورائنا. ثم التقَوْا فما اقتتلوا مقدار جَزْر جَزور وقسمِها؛ حتى منحهم الله أكتافهم، وولّوا منهزمين؛ حتى دخلوا المدينة، ورجع عتبة إلى عسكره. فأقاموا أياماً، وألقى الله في قلوبهم الرّعب. فخرجوا عن المدينة، وحملوا ما خفّ لهم، وعَبَروا إلى الفُرات، وخلّوا المدينة، فدخلها المسلمون

فأصابوا متاعاً وسلاحاً وسبياً وعيناً، فاقتسموا العين، فأصاب كلَّ رجل منهم درهمان، وولَّى عُتْبة نافعَ بن الحارث أقباضَ الأُبُلَّة؛ فأخرج خُمسه، ثم قسّم الباقي بين مَنْ أفاءه الله عليه؛ وكتب بذلك مع نافع بن الحارث.

وعن بشير بن عبيدالله؛ قال: قتل نافع بن الحارث يوم الأُبُلَّة تسعة، وأبو بكر ستّة.

وعن داود بن أبي هند، قال: أصاب المسلمون بالأُبُلّة من الدراهم ستمائة درهم، فأخذ كلّ رجل درهمين، ففرض عمر لأصحاب الدّرهمين ممن أخذهما من فتح الأُبُلَّة في ألفين من العطاء، وكانوا ثلاثمائة رجل، وكان فتح الأُبُلّة في رجب، أو في شعبان من هذه السنة.

وعن الشعبيّ، قال: شهد فتح الأُبُلَّة مائتان وسبعون، فيهم أبو بَكْرة، ونافع بن الحارث، وشِبْل بن معبد، والمغيرة بن شعبة، ومُجاشع بن مسعود، وأبو مريم البلَويّ، وربيعة بن كَلدة بن أبي الصَّلْت الثقفيّ، والحجّاج.

وعن عبَاية بن عبد عمرو، قال: شهدت فتح الأُبُلَّة مع عُتْبة، فبعث نافع بن الحارث إلى عمر رحمه الله بالفتح، وجمع لنا أهل دستِ مَلسان، فقال عتبة: أرى أن نسير إليهم، فسرنا فلقينا مَرْزُبان دست ميْسان، فقاتلناه، فانهزم أصحابه وأخذ أسيراً، فأخِذ قباؤه ومِنطقته، فبعث به عتبة مع أنس ابن حُجيَّة اليَشكري.

وعن أبي المَليح الهُذَليّ، قال: بعث عُتبة أنسَ بن حُجيَّة إلى عمر بمنطقة مرزبان دَسْت ميسان؛ فقال له: كيف المسلمون؟ قال: انثالت عليهم الدنيا، فهم يَهيلون الذّهب والفضّة. فرغب الناس في البصرة، فأتوْها.

وعن عليّ بن زيد، قال: لما فرغ عتبة من الأُبُلَّة، جمع له مرزبان دَسْت مَيْسان، فسار إليه عُتْبة من الأُبُلَة، فقتله، ثم سرّح مجاشع بن مسعود إلى الفرات وبها مدينة. ووفَد عتبة إلى عمر، وأمر المغيرة أن يصليَ بالناس حتى يقدَم مجاشع من الفرات، فإذا قدم فهو الأمير. فظفر مجاشع بأهل الفرات، ورجع إلى البصرة وجمع الفيلكان؛ عظيم من عظماء أَبَرْقُباذ للمسلمين، فخرج إليه المغيرة بن شعبة، فلقيه بالمَرْغاب، فظفِر به، فكتب إلى عمر بالفتح، فقال عمر لعتبة: مَن استعملت على البصرة؟ قال: مجاشع بن مسعود، قال: تستعمل رجلاً من أهل الوَبَر على أهل المدر؟ تدري ما حدث! قال: لا، فأخبره بما كان من أمر المغيرة، وأمره أن يرجع إلى عمله، فمات عُتبة في الطريق، واستعمل عمرُ المغيرةَ بن شعبة.

وعن عبد الرحمن بن جَوْشن، قال: شخص عُتْبة بعد ما قتل مرزبان دَسْت مَيْسان، ووَجَّه مجاشعاً إلى الفرات، واستخلفه على عمله، وأمر المغيرة بن شعبة بالصّلاة حتى يرجع مجاشع من الفرات، وجمع أهل مَيْسان، فلقيَهم المغيرة، وظهر عليهم قبل قدوم مجاشع من الفرات، وبعث بالفتح إلى عمر.

الطبريّ، بإسناده عن قَتادة، قال: جمع أهل مَيْسان للمسلمين، فسار إليهم المغيرة، وخلّف المغيرة الأثقال، فلقي العدوّ دون دِجْلة، فقالت أَرْدة بنت الحارث بن كَلَدة: لو لحقنا بالمسلمين فكنّا معهم! فاعتقدت لواءً من خمارها، واتّخذ النسّاءُ من خُمُرهنّ رايات، وخرجْنَ يُردْنَ المسلمين، فانتهينَ إليهم، والمشركون يقاتلونهم، فلمّا رأى المشركون الرايات مقبلة، ظنّوا أنّ مدداً أتى المسلمين فانكشفوا، وأتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدّة.

وعن حارثة بن مُضَّرب، قال: فُتحت الأُبُلَّة عنوة، فقسم بينهم عتبة ـ كَكَّة ـ يعني خبزاً أبيض. وعن محمَّد بن سيرين مثله.

قال الطَّبريّ، وكان ممَّن سُبِيَ من مَيْسان يَسار أبو الحسن البصريّ، وأرطَبان جدّ عبد الله بن عون بن أرطَبان.

وعن المثنّى بن موسى بن سلمة بن المحبَّق، عن أبيه، عن جدّه، قال: شهدت فتح الأُبلَّة، فوقع لي في سهمي قِدْر نحاس، فلَّما نظرت إذا هي ذهب فيها ثمانون ألف مثقال، فكتِب في ذلك إلى عمر، فكتب أن يُصْبَر يمين سلمة بالله لقد أخذها وهي عنده نحاس، فإن حلف سُلِّمت إليه؛ وإلاّ قسمت بين المسلمين. قال: فحلفتُ، فسُلّمت لي.

قال المثنّى: فأصول أموالنا اليوم منها.

وعن عمرة ابنة قيس، قالت: لمّا خرج الناس لقتال أهل الأُبُلَّة خرج زوجي وابني معهم، فأخذوا الدرهمين ومكُّوك زبيب، وإنَّهم مضوْا حتى إذا كانوا حيال الأبُلَّة، قالوا للعدوّ، نعبر إليكم أو تعبرون إلينا؟ قال: بل اعبرُوا إلينا، فأخذوا خشب العُشَر فأوثقوه، وعبروا إليهم، فقال المشركون: لا تأخذوا أوّلهم حتى يعْبُر آخرهم. فلمَّا صاروا على الأرض كبَّروا تكبيرة، ثم كبَّروا الثانية، فقامت دوابُّهم على أرجلهم، ثم كبَّروا الثالثة، فجعلت الدّابة تضرب بصاحبها الأرض، وجعلنا ننظر إلى رؤوسٍ تُنْدَر، ما نرى مَن يضربها؛ وفتح الله على أيديهم.

المدائنيّ، قال: كانت عند عُتبة صفيَّة بنت الحارث بن كَلَدة، وكانت أختها أزدة بنت الحارث عند شِبْل بن معبَد البَجَليّ، فلمّا ولِي عتبة البصرة انحدر معه أصهارُه: أبو بكْرة، وشِبْل بن معبد؛ وانحدر معهم زياد؛ فلمَّا فتحوا الأَبُلَّة لم يجدوا قاسماً يقسم بينهم، فكان زياد قاسَمهم؛ وهو ابن أربع عشرة سنة، له ذؤابة، فأجرَوْا عليه كلّ يوم درهمين.

وقيل: إن إمارة عتبة البصرة كانت سنة خمس عشرة، وقيل ست عشرة؛ والأول أصحّ؛ فكانت إمارته عليها ستة أشهر.

واستعمل عمر على البصرة المغيرة بن شعبة فبقيَ سنتين، ثم رُمِي بمارُمِيَ؛ واستعمل أبا موسى، وقيل استعمل بعد عُتْبة أبا موسى، وبعده المغيرة.

وفيها ـ أعني سنة أربع عشرة ـ ضرب عمر ابنَه عبيد الله وأصحابَه في شراب شربوه وأبا محْجن.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب، وكان على مكّة عَتَّاب بن أسِيد في قول، وعلى اليمن يَعلَى بن مُنْية، وعلى الكوفة سعد بن أبي وقّاص، وعلى الشأم أبو عبيدة بن الجرّاح، وعلى البحرين عثمان بن أبي العاص ـ وقيل: العلاء بن الحضرميّ ـ وعلى عُمان حُذيفة بن محِصن.

ثم دخلت سنة خمس عشرة

قال ابن جرير: قال بعضهم: فيها مصَّر سعد بن أبي وقّاص الكُوفة؛ دلّهم عليها ابن بُقَيلة؛ قال لسعد: أدلُّك على أرض ارتفعت عن البقّ، وانحدرت عن الفلاة! فدلّهم على موضع الكوفة اليوم.

ذكر الوقعة بمرْج الروم

وفي هذه السنة كانت الوقعة بمرْج الرُّوم، وكان من ذلك أنّ أبا عُبيدة خرج بخالد بن الوليد من فِحْل إلى حِمْص، وانصرف بمن أضيف إليهم من اليَرموك؛ فنزلوا جميعاً على ذي الكَلاع، وقد بلغ الخبر هرقلَ، فبعث توذرا البِطريق حتى نزل بمرْج دمشق وغربها، فبدأ أبو عبيدة بمرْج الروم وجمعِهم هذا، وقد هجم الشتاء عليهم والجراحُ فيهم فاشية، فلمّا نزل على القوم بمرْج الرّوم نازله يوم نزل عليه شنس الروميّ، في مثل خيل توذرا؛ إمداداً لتوذرا وردءاً لأهل حمص؛ فنزل في عسكر على حِدَةٍ، فلمّا كان من الليل أصبحت الأرض من توذرا بلاقع، وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شنس، وأتى خالداً الخبر أنّ توذرا قد رَحل إلى دمشق، فأجمع رأيه ورأي أبي عبيدة أن يُتبعه خالد، فأتبعه خالد من ليلته في جريدة؛ وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان الذي فعل، فاستقبله فاقتتلوا، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون؛ فأخذهم من خلفهم، فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم؛ فأناموهم ولم يفلِتْ منهم إلاّ الشريد؛ فأصاب المسلمون ما شاءوا من ظَهْرٍ وأداة وثياب، وقسم ذلك يزيد بن أبي سفيَان على أصحابه وأصحاب خالد، ثم انصرف يزيد إلى دمشق، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة، وقد قتل خالد توذرا، وقال خالد:

نحن قَتَلْنا توذَرا وشوذرا وقَبْلَه ما قد قَتلْنا حَيْدَرا
نحن أَزَرْنا الغَيْضَةَ الأُكَيْدِرا

وقد ناهد أبو عبيدة بعد خروج خالد في أثر توذرا شنس، فاقتتلوا بمرْج الرّوم، فقتلهم مقتلة عظيمة، وقتل أبو عبيدة شنس، وامتلأ المرْج من قتلاهم، فأنتنت منهم الأرض، وهرب من هرب منهم، فلم يفلتهم، وركبوا أكساءهم إلى حِمْص.

ذكر فتح حِمْص

حكي الطبريّ عن سيف، في كتابه، عن أبي عثمان، قال: ولما بلغ هرقل الخبر بمقتل أهل المرْج، أمر أمير حمص بالسَّير والمضيّ إلى حِمْص، وقال: إنّه بلغني أنّ طعامهم لحوم الإبل، وشرابهم ألبانها، وهذا الشتاء فلا تُقاتلوهم إلّا في كلّ يوم بارد، فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد، هذا جُلّ طعامه وشرابه. وارتحل من عسكره ذلك، فأتى الرُّهاء، وأخذ عامله بحُمص، وأقبل أبو عبيدة حتى نزل على حِمْص، وأقبل خالد بعده حتى ينزل عليها، فكانوا يُغادون المسلمين ويراوحونهم في كلّ يوم بارد؛ ولقي المسلمون بها برداً شديداً، والرّوم حصاراً طويلاً، فأمّا المسلمون فصبروا ورابطوا، وأفرغ الله عليهم الصَّبْر، وأعقبهم النصر، حتى اضطرب الشتاء، وإنّما تمسَّك القوم بالمدينة رجاء أن يهلكهم الشتاء.

وعن أبي الزّهراء القُشَيْريّ، عن رجل من قومه، قال: كان أهل حِمْص يتواصوْن فيما بينهم، ويقولون: تمسَّكوا فإنّهم حُفاة، فإذا أصابهم البرد تقطّعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون؛ فكانت الرّوم تَراجعُ، وقد سقطت أقدام بعضهم في خِفافهم، وإن المسلمين في النِّعال ما أصيب أصبع أحد منهم، حتى إذا انخنس الشتاء، قام فيهم شيخ لهم يدعوهم إلى مصالحة المسلمين. قالوا: كيف والملك في سلطانه وعزّه، ليس بيننا وبينهم شيء! فتركهم؛ وقام فيهم آخر فقال: ذهب الشتاء، وانقطع الرّجاء، فما تنتظرون؟ فقالوا: البِرسام، فإنما يسكن في الشتاء ويظهر في الصيف، فقال: إن هؤلاء قوم يُعانون ؛ولأنْ تأتوهم بعهد وميثاق، خير من أن تؤخذوا عَنْوة؛ أجيبوني محمودين قبل أن تجيبوني مذمومين! فقالوا: شيخ خَرِف، ولا علم له بالحرب.

وعن أشياخ من غسّانَ وبَلْقين، قالوا: أثاب الله المسلمين على صَبْرهم أيام حِمْص أن زُلزل بأهل حِمْص؛ وذلك أنّ المسلمين ناهدوهم، فكبّروا تكبيرة زلزلت معها الرّوم في المدينة، وتصدّعت الحيطان، ففزعوا إلى رؤسائهم وإلى ذوي رأيهم ممن كان يدعوهم إلى المسالمة، فلم يجيبوهم وأذلّوهم بذلك، ثم كَبَّرُوا الثانية، فتهافتت منها دور كثيرة وحيطان؛ وفزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم، فقالوا: ألا ترون إلى عذاب الله! فأجابوهم: لا يطلب الصلح غيرُكم؛ فأشرفوا فنادوا: الصلح الصلح! ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم، وعلى أن يترك المسلمون أموالَ الرّوم وبنيانَهم؛ لا ينزلونه عليهم، فتركوه لهم، فصالح بعضهم على صُلْح دمشق على دينار وطعام، على كلّ جريب أبداً أيسروا أو أعسروا. وصالح بعضُهم على قَدْر طاقته؛ إن زاد ماله زيد عليه، وإن نقص نُقِص، وكذلك كان صلْح دمشق والأردنّ؛ بعضُهم على شيء إن أيسروا وإن أعسروا، وبعضُهم على قَدْر طاقته، ووُلّوا مُعاملةَ ما جلا ملوكهم عنه.

وبعث أبو عبيدة السِّمْطَ بن الأسود في بني معاوية، والأشعثَ بن مِئناس في السَّكون، معه ابن عابِس، والمقداد في بَلِيّ، وبلالا وخالداً في الجيش، والصبّاح بن شُتَيْر وذُهيل بن عطية وذا شمِستان، فكانوا في قصبتها. وأقام في عسكره، وكتب إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع عبد الله بن مسعود، وقد وفّده. وأخبر خبر هرقل؛ وأنه عبر الماء إلى الجزيرة، فهو بالرُّهاء ينغمس أحياناً، ويطلع أحياناً. فقدم ابن مسعود على عمر، فردّه، ثم بعثه بعد ذلك إلى سعد بالكوفة، ثم كتب إلى أبي عُبَيدة: أن أقم في مدينتك وادعُ أهلَ القوّة والجلَد من عرب الشأم، فإنّي غير تارك البعثة إليك بمن يكانفك؛ إن شاء الله.

حديث قِنَّسرين

وعن أبي عثمان وجارية، قالا: وبعث أبو عبيدة بعد فتح حِمْص خالدَ بن الوليد إلى قِنَّسْرين، فلمّا نزل بالحاضر زحف إليهم الرّوم، وعليهم مِيناس، وهو رأس الرّوم وأعظمُهم فيهم بعد هرَقل، فالتقوْا بالحاضر، فقتِل مِيناس ومَن معه مقتلةً لم يُقتَلوا مثلها، فأما الرّوم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، وأمّا أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب، وأنّهم إنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربُه، فقبل منهم وتركهم. ولمّا بلغ عمَر ذلك قال: أمّر خالد نفسَه؛ يرحم الله أبا بكر؛ هو كان أعلمَ بالرّجال منّي، وقد كان عزله والمثنَّى مع قيامه، وقال: إنّي لم أعزلهما عن ريبة؛ ولكن الناس عظّموهما، فخشيت أن يوكّلوا إليهما. فلمّا كان من أمره وأمر قِنَّسرين ما كان، رجع عن رأيه، وسار خالد حتى نزل قِنّسرين، فتحصنّوا منه، فقال: إنّكم لو كنتم في السحاب لحَمَلنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا. قال: فنظروا في أمرهم، وذكروا ما لقيَ أهلُ حمص؛ فصالحوه على صُلْح حمص، فأبى إلّا على إخراب المدينة فأخربها، واتّطأت حِمْص وقنّسرين؛ فعند ذلك خنَس هرَقل؛ وإنّما كان سبب خنوسه أنّ خالداً حين قتل مِيناس ومات الرّوم على دمه، وعقد لأهل الحاضر وترك قِنسرين، طلع من قبَل الكوفة عمر بن مالك من قبل قَرْقيسيَا، وعبد الله بن المُعتّم من قِبَل المَوْصل، والوليد بن عقبة من بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة، وطووا مدائن الجزيرة من نحو هرَقل، وأهل الجزيرة في حرّان والرّقة ونَصِيبين وذواتها لم يُغرضوا غرضَهم؛ حتى يرجعوا إليهم؛ إلّا أنهم خلّفوا في الجزيرة الوليدَ لئلاّ يؤتَوْا من خلفهم؛ فأدرب خالد وعياض ممّا يلي الشأم، وأدرب عمر وعبد الله مما يلي الجزيرة؛ ولم يكونوا أدربوا قبله؛ ثم رجعوا، فهي أوّل مُدرِبة كانت في الإسلام سنة ست عشرة. فرجع خالد إلى قِنسرين فنزلها، وأتته امرأته، فلمّا عزله قال: إنّ عمر ولّاني الشأم حتى إذا صارت بثنيّةً وعَسَلا عَزلني.

قال أبو جعفر الطبريّ: ثم خرج هِرقل نحو القسطنطينية، فاختُلِف في حين شخوصه إليها وتركه بلاد الشأم؛ فقال ابن إسحاق: كان ذلك سنة خمس عشرة؛ وقال سيف: كان سنة ستّ عشرة.

ذكر خبر ارتحال هِرقل إلى القسطنطينيّة

ذكر سيف عن أبي الزّهراء القُشيريّ، عن رجل من بني قُشَير، قالوا: لما خرج هِرَقل من الرُّهاء واستتبع أهلَها، قالوا: نحن ها هنا خير منّا معك، وأبوْا أن يتبعوه، وتفرّقوا عنه وعن المسلمين؛ وكان أوّل مَن أنبح كلابها، وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة، وكان من الصحابة، وكان مع عمر بن مالك مساندَه، وكان حليفاً لبني عبد بن قُصيّ؛ وقبل ذلك ما قد خرج هرَقل حتى شِمْشاط؛ فلما نزل القوم الرّهاء أدرب فنفذ نحو القسطنطينيّة، ولحقه رجلٌ من الرّوم كان أسيراً في أيدي المسلمين، فأفلت، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أحدّثك كأنّك تنظر إليهم؛ فُرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمّتهم إلاّ بثمن، ولا يدخلون إلاّ بسلام، يقفون على مَن حاربهم حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتَني ليرثُنّ ما تحت قدَميّ هاتين.

وعن عبادة وخالد، أنّ هرَقل كان كلّما حجّ بيت المقدس فخلّف سُورية، وظعن في أرض الرّوم التفت فقال: عليكِ السّلام يا سوريَة تسليم مودِّع لم يقض ِ منك وطرَه، وهو عائد. فلمّا توجّه المسلمون نحو حِمْص عَبَر

الماء، فنزل الرّهاء، فلم يزل بها حتى طلع أهل الكوفة وفتِحت قِنّسرين وقتِل مِيناس، فخنَس عند ذلك إلى شمشاط؛ حتى إذا فصل منها نحو الرّوم علا على شرف، فالتفت ونظر نحو سوريَة، وقال: عليك السلام يا سوريَة، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك روميّ أبداً إلّا خائفاً، حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لا يولد! ما أحلَى فِعلَه، وأمرّ عاقبته على الرّوم!

وعن أبي الزّهراء وعمرو بن ميمون، قالا: لما فصَل هرقل من شمشاط داخلاً الرّوم التفت إلى سوريَة، فقال: قد كنت سلّمت عليك تسليم المسافر، فأمّا اليوم فعليك السلام يا سوريَةتسليم المفارق، ولا يعود إليك روميّ أبداً إلا خائفاً، حتى يولد المولود المشؤوم، وليته لم يولد! ومضى حتى نزل القسطنطينيّة. وأخذ أهلَ الحصون التي بين إسكندريّة وطَرسُوس معه؛ لئلاّ يسير المسلمون في عمارةٍ ما بين أنطاكيَة وبلاد الرّوم، وشعّث الحصون، فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً، وربّما كمن عندها الرّوم؛ فأصابوا غِرّة المتخلّفين، فاحتاط المسلمون لذلك.

ذكر فتح قَيْساريّة وحَصرْ غزّة

ذكر سيف، عن أبي عثمان وأبي حارثة، عن خالد وعبادة، قالا: لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حِمْص من فِحْل، نزل عمرو وشرحبيل على بَيْسان فافتتحاها، وصالحته الأُرْدُنّ، واجتمع عسكر الرّوم بأجنادين. وبَيْسان وغزّة، وكتبوا إلى عمر بتفرّقهم، فكتب إلى يزيد بأن يدفىء ظهورَهم بالرّجال، وأن يسرّح معاوية إلى قَيْسارية. وكتب إلى عمرو يأمره بصدم الأرْطَبون، وإلى علقمة بصدْم الفِيقار.

وكان كتاب عمر إلى معاوية: أما بعد، فإنّي قد ولّيتك قَيساريّة، فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول: «لا حول ولا قوّة إلا بالله، الله ربّنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير». فانتهى الرّجلان إلى ما أمِرا به، وسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيساريّة وعليهم أبنى، فهزمه وحصره في قيساريّة. ثم إنهم جعلوا يزاحفونه، وجعلوا لا يزاحفونه من مرّة إلا هزمهم وردّهم إلى حصنهم. ثم زاحفوه آخر ذلك، وخرجوا من صياصيهم، فاقتتلوا في حفيظة واستماتة، فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً، وكمّلها في هزيمتهم مائة ألف، وبعث بالفتح مع رجلين من بني الضُّبيب، ثم خاف منهما الضّعف، فبعث عبدَ الله بن علقمة الفراسيّ وزهير بن الحلاب الخثعمي، وأمرهما أن يتّبعاهما ويسبقاهما، فلحقاهما، فطوَياهما وهما نائمان. وابن علقمة يتمثّل وهي هِجِّيراه:

أرَّقَ عَيني أخَوَا جُذَامِ كَيفَ أنامُ وهُمَا أمامي!
إذْ يرحَلانِ والهَجِيرُ طامِي أخو حُشَيْم وأخو حَرامِ

وانطلق علقمة بن مُجَزِّز، فحصر الفِيقار بغزّة، وجعل يراسله، فلم يشفِه مما يريد أحد؛ فأتاه كأنّه رسول علقمة، فأمر الفِيقار رجلاً أن يقعد له بالطريق، فإذا مرّ قتله، ففطِن علقمة، فقال: إنّ معي نفراً شركائي في الرّأي، فأنطلقُ فآتيك بهم؛ فبعث إلى ذلك الرّجل: لا تعرض له. فخرج من عنده ولم يَعد، وفعل كما فعل عمرو بالأرطبون، وانتهى بريد معاوية إلى عمر بالخبر، فجمع الناس وأباتهم على الفرح ليلا، فحمد الله وقال:

لتحمدوا الله على فتح قيساريّة، وجعل معاوية قبل الفتح وبعده يحبس الأسرَى عنده، ويقول: ما صنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله، ففطمه عن العَبث بأسرَى المسلمين حتى افتتحها.

ذكر فتح بَيْسَان ووقعة أجْنادَيْن

ولمّا توجّه علقمة إلى غزّة وتوجّه معاوية إلى قَيساريّة، صمد عمرو بن العاص إلى الأرْطَبون، ومرّ بإزائه، وخرج معه شُرحبيل بن حَسَنة على مقدّمته، واستخلف على عمل الأرْدُنّ أبا الأعوَر، وولى عمرو بن العاص مجنّبتيه عبدَ الله بن عمرو وجُنادة بن تميم المالكيّ؛ مالك بن كنانة، فخرج حتى ينزل على الرّوم بأجنادَيْن، والرّوم في حصونهم وخنادقهم وعليهم الأرطَبون. وكان الأرطبون أدْهى الرُّوم وأبعدَها غَوْراً، وأنكاها فعلاً، وقد كان وضع بالرّملة جنداً عظيماً، وبإيلياء جنداً عظيماً؛ وكتب عمرو إلى عمر بالخبر؛ فلمّا جاءه كتاب عمرو، قال: قد رمينا أرطبون الرّوم بأرطبون العرب، فانظروا عمّ تتفرّج! وجعل عمر رحمه الله من لدن وجّه أمراء الشأم يمدّ كلّ أمير جند ويرميه بالأمداد؛ حتى إذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الرّوم، كتب إلى يزيد أن يبعث معاوية في خيله إلى قيساريّة، وكتب إلى معاوية بإمرته على قتال أهل قيساريّة؛ وليشغلهم عن عمرو؛ وكان عمرو قد استعمل علْقمة بن حكيم الفراسيّ ومسروق بن فلان العكّي على قتال أهل إيلياء، فصاروا بإزاء أهل إيلياء، فشغلوهم عن عمرو، وبعث أبا أيّوب المالكي إلى الرّملة، وعليها التَّذارِق، وكان بإزائها، ولما تتابعت الأمداد على عمرو، بعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق، وبعث عُمارة بن عمرو بن أميّة الضّمْريّ مدداً لأبي أيّوب، وأقام عمرو على أجنادَيْن لا يقدر من الأرطبون على سقطة، ولا تشفيه الرُّسل، فوليَه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد، وسمع كلامه، وتأمّل حصونَه حتى عرف ما أراد. وقال أرطبون في نفسه: والله إنّ هذا لعمرو، أو إنه للّذي يأخذ عمرو برأيه؛ وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظَم عليهم من قتله. ثم دعا حرَسِيّاً فسارّه بقتله، فقال: اخرج. فقم مكان كذا وكذا، فإذا مرّ بك فاقتله، وفطِن له عمرو، فقال: قد سمعتَ منّي وسمعتُ منك، فأمّا ما قلتَه فقد وقع مني موقعاً؛ وأنا واحد من عشرة؛ بعثَنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضت مثلَ الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير؛ وإن لم يروْه رددتَهم إلى مأمنهم، وكنتَ على رأس أمرك. فقال: نعم، ودعا رجلاً فسارّه، وقال: اذهب إلى فلان فردّه إليّ، فرجع إليه الرّجل وقال لعمرو: انطلق فجيء بأصحابك؛ فخرج عمرو ورأى ألّا يعود لمثلها، وعلم الرّوميّ بأنه قد خدعه، فقال: خدَعني الرّجُل؛ هذا أدهى الخلق. فبلغت عمر، فقال: غلبه عمرو، لله عمرو! وناهده عمرو، وقد عرف مأخذه وعاقبته، والتقوْا ولم يجد من ذلك بدّاً فالتقَوْا بأجنادَيْن، فاقتتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك؛ حتى كثرت القتلى بينهم.

ثم إنّ أرطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادَيْن. ولمّا أتى أرطبون إيلياء أفرج له المسلمون حتى دخلها، ثم أزالهم إلى أجنادَيْن، فانضمّ علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو وأبو أيّوب إلى عمرو بأجنادين، وكتب أرطبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري؛ أنت في قومك مثلي في قومي؛ والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادَيْن، فارجع ولا تَغر فتلقَى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة. فدعا عمرو رجلاً يتكلم بالروميّة، فأرسله إلى أرطبون، وأمره أن يُغرِب ويتنكّر، وقال: استمع ما يقول حتى تخبرَني به إذا رجعت إن شاء الله.

وكتب إليه: جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتْك خصْلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمتَ أنِّي صاحبُ فتح هذه البلاد، وأستعدي عليك فلاناً وفلاناً وفلاناً ـ لوزرائه ـ فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك.

فخرج الرسول على ما أمره به حتى أتى أرطبون فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر، فاقترأه فضحكوا وتعجّبوا، وأقبلوا على أرطبون، فقالوا: من أين علمتَ أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها رجل اسمه «عمر» ثلاثة أحرف؛ فرجع الرّسول إلى عمرو فعرف أنه عمر.

وكتب إلى عمر يستمدّه، ويقول: إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً وبلاداً ادُّخِرت لك، فرأيَك. ولما كتب عمرو إلى عمر بذلك، عرف أنّ عمراً لم يقل إلّا بعلم، فنادى في الناس، ثم خرج فيهم حتى نزل بالجابية. وجميع ما خرج عمر إلى الشأم أربعَ مرات فأما الأولى فعلى فرَس، وأما الثانية فعلى بعير، وأما الثالثة فقصّر عنها أن الطاعون مستعر، وأما الرابعة فدخلها على حمار. فاستخلف عليها، وخرج وقد كتب مخرجَه أوّلَ مرة إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ـ ليوم سمّاه لهم في المجرّدة ـ وأن يستخلفوا على أعمالهم. فلقوه حيث رفعت لهم الجابية؛ فكان أوّل مَنْ لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول؛ عليهم الدّيباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة، فرماهم بها، وقال: سَرْعَ ما لُفِتّم عن رأيكم! إيّايَ تستقبلون في هذا الزّي؛ وإنما شبعتم منذ سنتين! سَرْعَ ما ندّت بكم البِطْنة! وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إنها يلامقة، وإنّ علينا السلاح، قال: فنعم إذاً. وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشُرحْبيل بأجْنادَيْن لم يتحرّكا من مكانهما.

ذكر فتح بيت المقدس

وعن سالم بن عبدالله، قال: لما قدم عمر رحمه الله الجابيةَ، قال له رجل من يهود: يا أميرَ المؤمنين؛ لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء. فبينا عمر بن الخطاب بها؛ إذ نظر إلى كُردوس من خيل مقبل، فلمّا دنَوْا منه سلّموا السيوف، فقال عمر: هؤلاء قوم يستأمنون، فأمّنوهم؛ فأقبلوا فإذا هم أهل إيلياء، فصالحوه على الجِزْية، وفتحوها له، فلمّا فتحت عليه دعا ذلك اليهوديّ، فقيل له: إن عنده لعلماً. قال: فسأله عن الدجّال ـ وكان كثير المسألة عنه ـ فقال له اليهوديّ: وما مسألتك عنه يا أميرَ المؤمنين! فأنتم والله معشر العرب تقتلونه دون باب لُدٍّ ببضعَ عشرة ذراعاً.

وعن سالم، قال: لمّا دخل عمر الشأم تلقّاه رجل من يهود دمشق، فقال: السّلامُ عليك يا فاروق! أنت صاحب إيلياء لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء؛ وكانوا قد أشجَوا عمراً وأشجاهم؛ ولم يقدر عليها ولا على الرّملة، فبينا عمر معسكراً بالجابية، فزع الناس إلى السلاح، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا ترى الخيل والسيوف! فنظر، فإذا كُردوس يلمعون بالسيوف؛ فقال عمر: مستأمِنةٌ، ولا تُراعوا وأمِّنوهم؛ فأمّنوهم؛ وإذا هم أهل إيلياء، فأعطوْه واكتتبوا منه على إيلياء وحيِّزها، والرّملة وحيّزها؛ فصارت فلسطين نصفين: نصفٌ مع أهل إيلياء، ونصف مع أهل الرّملة؛ وهم عشر كُوَر، وفلسطين تعدِل الشأم كلّه؛ وشهد ذلك اليهوديّ الصّلح، فسأله عمر عن الدجّال؛ فقال: هو من بني بنيامين؛ وأنتم والله يا معشَرَ العرب تقتلونه على بضع عشرة ذراعاً من باب لُدّ.

وعن خالد وعبادة، قالا: كان الذي صالح فلسطين العوامّ من أهل إيلِياء والرّملة؛ وذلك أنّ أرطبون والتّذارِق لحقا بمصْر، مقدَمَ عمر الجابية، وأصيبا بعد في بعض الصوائف.

وقيل: كان سبب قدوم عمر إلى الشأم، أنّ أبا عبيدة حضر بيت المقدس، فطلب أهله منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشأم، وأن يكون المتولّي للعقد عمر بن الخطاب؛ فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة.

وعن عَدِيّ بن سهل، قال: لما استمدّ أهلُ الشأم عمر على أهل فلسطين، استخلف عليًّا، وخرج ممدًّا لهم، فقال عليّ: أين تخرج بنفسك! إنك تريد عدوًّا كَلِباً، فقال: إنّي أبادر بجهاد العدوّ موت العباس؛ إنّكم لو قد فقدتم العباس لانتقض بكم الشرّ كما ينتقض أوّلُ الحبْل.

قال: وانضمّ عمرو وشرحبيل إلى عمر بالجابية حين جرى الصلح فيما بينهم، فشهد الكتاب.

وعن خالد وعبادة، قالا: صالح عمر أهل إيلياء بالجابِية، وكتب لهم فيها الصلح لكلّ كُـورة كتابـاً واحداً، ما خلاَ أهل إيلياء.

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُالله عمر أمير المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبَريئها وسائر ملّتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارَّ أحد منهم، ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطُوا الجزية كما يُعطِي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرّوم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومَن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزْية، ومنْ أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلّي بِيَعهم وصُلُبهم فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزْية، ومن شاء سار مع الرّوم؛ ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمّة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ! ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحَضَر سنة خمس عشرة.

فأما سائر كُتبهم فعلى كتاب لُدّ. بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ ومَن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلُبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم؛ أنه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقصُ منها ولا من حيّزها ولا مِللها، ولا من صُلُبهم ولا من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم؛ ولا يضارّ أحد منهم؛ وعلى أهل لُدّ ومَن دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهلُ مدائن الشأم، وعليهم إن خرجوا مثلُ ذلك الشرط إلى آخر. ثم سرّح إليهم، وفرّق فلسطين على رجلين، فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرّملة، وعلقمة بن مُجزّز على نصفها وأنزله إيلياء؛ فنزل كلّ واحد منهما في عمله في الجنود التي معه.

وعن سالم، قال: استعمل علقمة بن مجزّز على إيلياء وعلْقمة بن حكيم على الرّملة في الجنود التي كانت مع عمرو وضمّ عمراً وشُرَحبيل إليه بالجابية، فلمّا انتهيا إلى الجابية، وافقا عمر رحمه الله راكباً، فقبّلا ركبتيه، وضم عمر كلّ واحد منهما محتضنهما.

وعن عبادة وخالد، قالا: ولما بعث عمر بأمان أهل إيلياء وسكَّنها الجند، شخص إلى بيت المقدس من الجابية، فرأى فرسه يتوجَّى، فنزل عنه، وأتيَ ببرذون فركبه، فهزّه فنزل، فضرب وجهه بردائه، ثم قال: قبح الله مَنْ علمك هذا! ثم دعا بفرسه بعد ما أجمَّه أياماً يوقِّحه فركبه، ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس.

وعن أبي صفيّة؛ شيخ من بني شيبان، قال: لما أتى عمرُ الشأم أتيَ ببرذون فركبه، فلما سار جعل يتخلّج به، فنزل عنه، وضرب وجهه، وقال: لا علّم الله مَنْ علّمك! هذا من الخَيَلاء؛ ولم يركب برذونا قبله ولا بعده: وفتحت إيلياء وأرضها كلّها على يديه، ما خلا أجنادَيْن فإنها فتِحت على يدي عمرو، وقيساريّة على يديْ معاوية.

وعن أبي عثمان وأبي حارثة، قالا: افتتِحت إيلياء وأرضها على يدي عمر. في ربيع الآخر سنة ستّ عشرة.

وعن أبي مريم مولى سلامة، قال: شهدتُ فتح إيلياء مع عمر رحمه الله، فسار من الجابية فاصلاً حتى يقدم إيلياء، ثم مضى حتى يدخل المسجد، ثم مضى نحو محراب داود؛ ونحن معه، فدخله ثم قرأ سجدة داود، فسجد وسجدنا معه.

وعن رجاء بن حيْوَة، عمّن شهد؛ قال: لما شخص عمر من الجابية إلى إيلياء، فدنا من باب المسجد، قال: ارقُبوا لي كعباً، فلمّا انفرق به الباب، قال: لبَّيْك، اللهم لبّيك، بما هو أحبُّ إليك! ثم قصد المحراب؛ محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً، فصلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذّن بالإقامة، فتقدّم فصلّى بالناس، وقرأ بهم «ص»، وسجد فيها، ثم قام، وقرأ بهم في الثانية صدْرَ «بني إسرائيل»، ثم ركع ثم انصرف، فقال: عليّ بكعب، فأتيَ به، فقال: أين ترى أن نجعل المصلّى؟ فقال: إلى الصخرة، فقال: ضاهيتَ والله اليهوديّة يا كعب، وقد رأيتك وخلعَك نعليك، فقال: أحببتُ أن أباشره بقدميّ، فقال: قد رأيتُك، بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورَها، اذهب إليك، فإنا لم نؤمر بالصّخرة، ولكنّا أمِرنا بالكعبة، فجعل قبلته صدره، ثم قام من مُصلاّه إلى كُناسة قد كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل؛ فلمّا صار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرها، وقال: يا أيها الناس، اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها، وجثا في فَرْج من فروج قبائه، وسمع التكبير من خلْفه، وكان يكره سُوء الرِّعةَ في كلّ شيء، فقال: ما هذا؟ فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره فقال: عليّ به فأتيَ به، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه قد تنبّأ على ما صنعت اليوم نبيّ منذ خمسمائة سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إنّ الرّوم أغاروا على بني إسرائيل فأدِيلوا عليهم، فدفنوه، ثم أدِيلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبَغوا على بني إسرائيل، ثم أديلت الرّوم عليهم إلى أن وَلِيتَ، فبعث الله نبياً على الكُناسة، فقال: أبشري أورى شَـلم، عليكِ الفاروق ينقّيك مما فيك. وبعث إلى القُسطنطينيّة نبيّ؛ فقام على تلّها، فقال: يا قُسطنطينيّة، ما فعل أهلك ببيتي! أخربوه وشبّهوك كعرشي؛ وتأوّلوا عليّ، فقد قضيت عليك أن أجعلك جَلْحاء يوما ما، لا يأوي إليك أحد، ولا يستظلّ فيك على أيدي بني القاذر سَبَأ وودّان؛ فما أمسوْا حتى ما بقي منه شيء.

وعن ربيعة الشاميّ بمثله؛ وزاد: أتاك الفاروق في جندي المُطيع، ويُدركون لأهلك بثأرك في الرّوم. وقال في قسطنطينيّة: أدعُك جَلْحاء بارزة للشمس، لا يأوي إليك أحد، ولا تظلّينه.

وعن أنس بن مالك، قال: شهدت إيلياء مع عمر، فبينا هو يطعِم النّاس يوماً بها أتاه راهبها وهو لا يشعُر أنّ الخمر محرّمة، فقال: هل لك في شراب نجده في كتبنا حلالا إذا حرّمت الخمر! فدعاه به فقال: من أيّ شيء هذا؟ فأخبره أنه طبخه عصيراً، حتى صار إلى ثلثه، فغرف بإصبعه، ثم حرّكه في الإناء فشطره، فقال: هذا طِلاء؛ فشبّهه بالقَطِران، وشرب منه، وأمر أمراء الأجناد بالشأم به؛ وكتب في الأمصار: إني أتِيت بشراب مما قد طُبخ من العصير حتى ذهب ثُلثاه وبقي ثُلثه كالطِّلاء، فاطبخوه وارزقوه المسلمين.

وعن أبي عثمان وأبي حارثة، قالا: ولحق أرْطبون بمصر مقدَمَ عمر الجابية، ولحق به مَن أحبّ ممّن أبى الصلح، ثم لحِق عند صُلح أهل مصر، وغلبهم بالرّوم في البحر، وبقيَ بعد ذلك؛ فكان يكون على صوائف الرّوم، والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين فيختلف هو ورجل من قيس يقال له ضُريْس؛ فقطع يد القيسيّ، وقتله القيسي، فقال:

فإن يَكُنْ أرْطَبونُ الرُّومِ أفسدَها ... فإنّ فيها بِحَمْدِ آللّهِ مُنْتَفَعا
بَنانَتانِ وجُرْموزٌ أقيمُ به ... صَدْرَ القَناةِ إذا ما آنسوا فَزَعا
وإنْ يَكُنْ أرْطَبُونُ الرُّومِ قَطَّعَها ... فقَدْ تَرَكْتُ بها أوصالَه قِطَعا

وقال زياد بن حنظلة:

تَذَكَّرتُ حربَ الرُّومِ لمّا تَطاوَلَتْ ... وإذ نَحْنُ في عامٍ كثيرٍ نزائِلُهْ
وإذ نَحْنُ في أرضِ الحجازِ وبَيْنَنا ... مَسِيرَةُ شَهْرٍ بَيْنَهُنَّ بَلابِلُهْ
وإذْ أرْطَبُونُ الرُّومِ يَحْمِي بِلادَهُ ... يُحاوِلُه قَرْمٌ هُناكَ يُساجِلُهْ
فلمَّا رأى الفاروق أزْمانَ فَتْحِها ... سَما بِجُنودِ الله كَيْما يُصاوِلُهْ
فلمَّا أحَسّوه وخافوا صِوالَهُ ... أتَوْهُ وقالوا أنْتَ مِمَّنْ نُواصِلُهْ
وألْقَتْ إلَيْهِ الشأم أفْلاذَ بَطْنِها ... وعَيْشاً خَصيباً ما تُعَدُّ مَآكِلُهْ
أباحَ لَنا ما بيْنَ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ ... مَواريث أعْقابٍ بَنَتْها قَرامِلُهْ
وكَمْ مُثْقَلٍ لَمْ يَضْطلعْ باحْتِمالِهِ ... تَحَمَّلَ عِبْئاً حينَ شالَتْ شَوائلُهْ

وقال أيضاً:

سَما عُمَرٌ لما أتَتْهُ رَسائلٌ ... كأصْيَدَ يَحْمِي صِرْمَةَ الحَيّ أغيَدَا
وقد عَضَّلتْ بالشَّأمِ أرْضٌ بأهلِها ... تريدُ من الأقوامِ مَن كان انجَدَا
فلمَّا أتاهُ ما أتاهُ أجابَهُمْ ... بِجَيْشٍ تَرَى مِنهُ الشَّبائِك سُجَّدَا
وأقبَلَتِ الشأمُ العَريضَةُ بالذي ... أراد أبو حفْص وأزكى وأزْيَدَا
فقَسَّطَ فيما بَيْنَهُمْ كلَّ جِزْيَةٍ ... وكلَّ رِفادٍ كان أهْنَا وأحْمَدا

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

وفي هذه السنة فرض عمر للمسلمين الفروض، ودون الدّواوين، وأعطى العطايا على السابقة، وأعطى صفوان بن أميّة والحارث بن هشام وسُهيل بن عمرو في أهل الفتح أقلّ ما أخذ مَن قبلهم، فامتنعوا من أخذه وقالوا: لا نعترف أن يكون أحد أكرم منّا، فقال: إنّي إنّما أعطيتكم على السابقة في الإسلام لا على الأحساب؛ قالوا: فنعم إذاً، وأخذوا، وخرج الحارث وسُهَيل بأهليهما نحو الشأم؛ فلم يزالا مجاهدين حتى أصِيبا في بعض تلك الدّروب؛ وقيل: ماتا في طاعون عَمْواس.

ولما أراد عمر وضعَ الديوان، قال له عليّ وعبد الرحمن بن عوف: ابدأ بنفسك، قال: لا، بل أبدأ بعمّ رسول الله ﷺ، ثم الأقرب فالأقرب؛ ففرض للعبّاس وبدأ به، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحُديبية أربعة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديْبُية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردّة ثلاثة آلاف؛ في ذلك مَن شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر، ومَن ولى الأيام قبل القادسية؛ كلّ هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف. ثم فرض لأهل القادسيّة وأهل الشأم ألفين ألفين؛ وفرض لأهل البَلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة، ألفين وخمسمائة، فقيل له: لو ألحقت أهلَ القادسيّة بأهل الأيّام! فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة مَن لم يدركوا، وقيل له: قد سوّيت من بَعُدتْ داره بمَن قربت داره وقاتلهم عن فنائه، فقال: مَن قربت داره أحقّ بالزيادة، لأنهم كانوا ردءاً للُحوق وشجًى للعدوّ، فهلاّ قال المهاجرون مثل قولكم حين سوّينا بين السابقين منهم والأنصار! فقد كانت نُصرة الأنصار بفنائهم؛ وهاجر إليهم المهاجرون من بعد؛ وفرض لمن بعد القادسيّة واليرموك ألفاً ألفاً، ثم فرض للروادف: المثنّى خمسمائة خمسمائة، ثم للروادف الثّليث بعدهم؛ ثلثمائة ثلثمائة؛ سوّى كلَّ طبقة في العطاء، قويَّهم وضعيفهم، عربَهم وعَجمهم، وفرض للرّوادف الرّبيع على مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم وهم أهل هَجَر والعِباد على مائتين، وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها. الحسن والحسين وأبا ذَرّ وسلمان؛ وكان فرض للعبّاس خمسة وعشرين ألفاً ـ وقيل. اثني عشر ألفاً ـ وأعطى نساء النبيّ ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف؛ إلاّ مَنْ جرى عليها الملك؛ فقال نسوة رسول الله ﷺ: ما كان رسول الله ﷺ يفضّلنا عليهنّ في القِسمة؛ فسوِّ بيننا؛ ففعل وفضَّل عائشة بألفين لمحبّة رسول الله ﷺ إيّاها فلم تأخذ؛ وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة، ونساءَ مَن بعدهم إلى الحديبيَة على أربعمائة أربعمائة؛ ونساء من بعد ذلك إلى الأيّام ثلاثمائة ثلاثمائة، ونساء أهل القادسيّة مائتين مائتين، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك؛ وجعل الصبيان سواء على مائة مائة، ثم جمع ستين مسكيناً، وأطعمهم الخبز، فأحصوا ما أكلوا، فوجدوه يخرج من جَريبتين، ففرض لكلّ إنسان منهم ولعياله جريبتين في الشهر.

وقال عمر قبل موته: لقد همَمتُ أن أجعلَ العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، ألفاً يجعلها الرجل في أهله، وألفاً يزوّدها معه، وألفاً يتجهّز بها، وألفاً يترفّق بها؛ فمات قبل أن يفعل.

قال أبو جعفر الطبريّ: كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف؛ عن محمد وطلحة والمهلّب وزياد والمجالد وعمرو، عن الشعبي؛ وإسماعيل عن الحسن، وأبي ضَمْرة عن عبد الله بن المُستورد عن محمد بن سيرين، ويحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب، والمستنير بن يزيد عن إبراهيم، وزهرة عن أبي سلمة، قالوا: فرض عمر العطاء حين فرض لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم؛ وهم أهل المدائن، فصاروا بعدُ إلى الكوفة،

انتقلوا عن المدائن إلى الكوفة والبَصْرة ودمشق وحِمْص والأردنّ وفِلسطين ومِصر، وقال: الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم، وأقام معهم ولم يفرض لغيرهم؛ ألا فبهم سُكنت المدائن والقرى، وعليهم جرى الصُّلْح؛ وإليهم أدّي الجِزاء، وبهم سُدّت الفروج ودُوّخ العدّو. ثم كتب في إعطاء أهل العطاء أعطياتِهم إعطاء واحداً سنة خَمْسَ عشرة.

وقال قائل: يا أميرَ المؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال عدّة لكون إن كان! فقال: كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرّها؛ وهي فتنة لمن بعدي؛ بل أعدّ لهم ما أمرنا الله ورسوله طاعة لله ورسوله؛ فهما عدّتنا التي بها أفضينا إلى ما ترون، فإذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد؛ قالوا: لما فتح الله على المسلمين وقُتِل رستم، وقدمت على عمر الفتوح من الشأم جمع المسلمين، فقال: ما يحلّ للوالي من هذا المال؟ فقالوا جميعاً: أمّا لخاصته فقوتُه وقوت عياله، لاوَكْسَ ولا شَطَط، وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف، ودابّتان إلى جهاده وحوائجه وحُمْلانه إلى حَجّةِ وعمرته، والقَسْم بالسّويّة، أن يعطى أهلُ البلاء على قدر بلائهم، ويرمُّ أمور الناس بعد؛ ويتعاهدهم عند الشدائد والنوازل حتى تُكشف، ويبدأ بأهل الفيء.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: جمع الناس عمر بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسيّة ودمشق، فقال: إني كنت امرأً تاجراً، يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم، فماذا ترون أنه يحلّ لي من هذا المال؟ فأكثر القوم وعليّ عليه السلام ساكت، فقال: ما تقول يا عليّ؟ فقال: ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا المال غيره، فقال القوم: القول قولُ ابن أبي طالب.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد، عن عبيد الله، عن نافع، عن أسلم، قال: قام رجلٌ إلى عمر بن الخطاب فقال: ما يحلّ لك من هذا المال؟ فقال: ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف، وحُلّة الشتاء وحلّة الصيف، وراحلة عمر للحجّ والعمرة، ودابّة في حوائجه وجهاده.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مُبَشر بن الفضيل، عن سالم بن عبد الله، قال: لّما ولِيَ عمر قعد على رزق أبي بكر الذي كانوا فرضوا له، فكان بذلك؛ فاشتدّت حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان، وعليّ وطلحة، والزبير، فقال الزّبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إيّاه في رزقه! فقال عليّ: وددنا قبل ذلك؛ فانطلِقوا بنا، فقال عثمان: إنه عمر! فهلمّوا فلنستبرىء ما عنده من وراء؛ نأتي حفصة فنسألها ونستكتمها، فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر، ولا تسمّي له أحداً، إلا أن يقبل، وخرجوا من عندها، فلقيَت عمر في ذلك، فعرفت الغضب في وجهه، وقال: مَن هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك، فقال: لو علمت مَن هم لسؤت وجوههم؛ أنت بيني وبينهم! أنشدك بالله؛ ما أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ في بيتكِ من الملبس؟ قالت: ثوبين ممشّقين كان يلبسهما للوفد، ويخطب فيهما للجُمَع؛ قال: فأيّ الطعام ناله عندكِ أرفَع؟ قالت: خبزنا خُبزة شعير، فصببنا عليها وهي حارّة أسفل عُكّة لنا، فجعلناها هشّة دسمة؛ فأكل منها وتطعّم منها استطابة لها. قال: فأيّ مُبسَط كان يبسطه عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء لنا ثخين كنا نربّعه في الصيف، فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفَه وتدثَّرنا بنصفه، قال: يا حفصة؛

فأبلغيهم عني أنّ رسول الله ﷺ قدّر فوضع الفُضول مواضعَها؛ وتبلّغ بالتَّزجية، وإنّي قدّرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها، ولأتبلّغنّ بالتزجية؛ وإنما مَثَلي ومثل صاحِبَي كثلاثة سلكوا طريقاً؛ فمضى الأوّل وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتّبعه الآخر فسلك طريقه، فأفضى إليه، ثم اتّبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحِق بهما وكان معهما؛ وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطية، عن أصحابه. والضحّاك عن ابن عباس، قال: لما افتُتحت القادسيّة وصالح مَن صالح من أهل السوّاد وافتتحت دمشق، وصالح أهل دمشق، قال عمر للناس: اجتمعوا فأحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسيّة وأهل الشأم. فاجتمع رأي عمر وعليّ على أن يأخذوا من قبل القرآن، فقالوا: ﴿ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ - يعني من الخمس - ﴿ فَلِلّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾؛ إلى الله وإلى الرسول؛ من الله الأمر وعلى الرسول القسم ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين.. ﴾ الآية، ثم فسّروا ذلك بالآية التي تليها: ﴿ لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ.. ﴾ [١] الآية، فأخذوا الأربعة أخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بُدىء به وثُنِّي وثُلِّث، وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم. ثم استشهدوا على ذلك أيضاً: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ ﴾ [٢]، فقسّم الأخماس على ذلك، واجتمع على ذلك عمر وعليّ، وعمل به المسلمون بعدَه، فبدأ بالمهاجرين، ثم بالأنصار، ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم، ثم فوض الأعطيَة من الجِزاء على مَن صالح أو دُعي إلى الصلح من جزائه، مردود عليهم بالمعروف؛ وليس في الجِزاء أخماس، والجِزاء لِمن منع الذّمة. ووفّى لهم ممّن ولي ذلك منهم؛ ولمن لحق بهم فأعانهم، إلا أن يؤاسوا بفضلةٍ من طِيب أنفس منهم مَنْ لم ينل مثل الذي نالوا.

قال الطبريّ: وفي هذه السنة - أعني سنة خمس عشرة - كانت وقعات في قول سيف بن عمر، وفي قول ابن إسحاق: كان ذلك في سنة ست عشرة، وقد ذكرنا الرواية بذلك عنه قبل؛ وكذلك ذلك في قول الواقديّ.

نذكر الآن الأخبار التي وردت بما كان بين ما ذكرت من الحروب إلى انقضاء السنة التي ذكرتُ أنهم اختلفوا فيما كان فيها من ذلك:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: عهد عمر إلى سَعْد حين أمره بالسَّيْر إلى المدائن أن يخلِّف النّساء والعيال بالعتيق، ويجعل معهم كَثْفاً من الجند، ففعل وعهد إليه أن يُشركهم في كلّ مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم. قالوا: وكان مُقام سعد بالقادسيّة بعد الفتح شهرين في مكاتبة عمر في العمل بما ينبغي، فقدّم زُهرة نحو اللسان - واللسان لسان البرّ الذي أدلعَه في الريف، وعليه الكوفة اليوم، والحيرة قبل اليوم - والنّخيرجان معسكر به، فارفضّ ولم يثبت حين سمع بمسيرهم إليه، فلحق بأصحابه. قالوا: فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم، وهم على شاطىء العتيق، أمر كان النساء يلعبن به في زَرود وذي قار؛ وتلك الأمواه حين أمِرُوا بالسير في جمادى إلى القادسيّة، وكان كلاماً أبَدْنَ فيه كالأوابد من الشعر؛ لأنه ليس بين جمادى ورجب شيء:

---

(١) سورة الحشر: ٧، ٨.

(٢) سورة الأنفال: ٤١.

الـعَـجَـبْ كُـلُّ الـعـجَـبْ بـيـن جُـمـادَى ورَجَـبْ
أمْـرٌ قَـضـاه قـد وَجَـبْ يَـخْـبُـرُه مَـن قـد شَـجَـبْ
تـحـت غـبـارٍ وَلَـجَـبْ

خبر يوم بُرس

قال: ثمّ إنّ سعداً ارتحل بعد الفراغ من أمر القادسيّة كلّه، وبعد تقديم زُهرة بن الحَوِيّة في المقدّمات إلى اللسان، ثم أتبعه عبد الله بن المعتَمّ، ثم أتبع عبد الله شُرحبيل بن السِّمط، ثم أتبعهم هاشم بن عتبة، وقد ولّاه خلافته، عملَ خالد بن عُرْفُطة، وجعل خالداً على الساقة، ثم أتبعهم وكلّ المسلمين فارس مُؤدٍ قد نقل الله إليهم ما كان في عسكر فارس من سلاح وكُراع ومال، لأيّام بقين من شَوّال، فسار زُهرة حتى ينزل الكوفة ـ والكوفة كلّ حَصباء حمراء وسهلة حمراء مختلطتين ـ ثم نزل عليه عبدُ الله وشرحبيل، وارتحل زُهرة حين نزلاَ عليه نحو المدائن، فلمّا انتهى إلى بُرْس لقيَه بها بُصْبُهرى في جمع فناوشوه فهزمهم، فهرب بُصْبُهْرى ومن معه إلى بابل وبها فالّة القادسيّة وبقايا رؤسائهم: النَّخيرجان ومِهران الرازيّ والهُرْمزان وأشباههم؛ فأقاموا واستعملوا عليهم الفيرُزان، وقدم عليهم بُصْبُهرى وقد نجا بطعنة، فمات منها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن النّضْر بن السّريّ، عن ابن الرّفيل، عن أبيه، قال: طعن زهرة بُصْبُهرى في يوم بُرْس، فوقع في النهر فمات من طعنته بعد ما لحق ببابل؛ ولما هُزم بُصْبُهرى أقبل بِسطام دِهقان بُرْس، فاعتقد من زُهرة وعقد له الجسور، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل.

يوم بابل

قالوا: ولما أتى بِسْطام زهرةَ بالخبر عن الذين اجتمعوا ببابل من فُلّال القادسيّة، أقام وكتب إلى سعد بالخبر. ولمّا نزل سعد على مَن بالكوفة مع هاشم بن عتبة، وأتاه الخبر عن زُهرة باجتماع الفُرْس ببابل على الفيرُزان، قدّم عبدَ الله، وأتبعه شُرَحبيلَ وهاشماً، ثم ارتحل بالناس، فلمّا نزل عليهم بُرْس، قدّم زهرة فأتبعه عبد الله وشُرَحبيل وهاشماً، واتّبعهم فنزلوا على الفيرُزان ببابل، وقد قالوا: نقـاتلهم دَسْتاً قبـل أن نفترق، فاقتتلوا ببابل، فهزموهم في أسرع من لَفْتِ الرّداء، فانطلقوا على وجوههم؛ ولم يكن لهم همّة إلا الافتراق، فخرج الهرمزان متوجِّهاً نحو الأهواز، فأخذها فأكلها ومِهْرجَان قَذق، وخرج الفيرُزان معه حتى طلع عـلى نَهاونْد، وبها كنوز كسرى؛ فأخذها وأكل الماهَيْن، وصمد النَّخيرجان ومِهران الرازيّ للمدائن، حتى عبرا بَهُرَسِير إلى جانب دِجْلة الآخر، ثم قطعا الجسْر، وأقام سعد ببابل أيّاماً، وبلغه أن النَّخِيرجان قد خلّف شهريار؛ دهقاناً من دهاقين الباب بِكُوثَى في جمع، فقدّم زهرةَ ثم أتبعه الجنودَ فخرج زهرة حتى ينزل على شهريار بكُوثَى بعد قتل فيومان والفَرُّخان فيما بين سُورا والدَّيْر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن النضْر بن السريّ، عن ابن الرّفيل، عن أبيه، قال: كان سعد قدّم زُهرة من القادسيّة فمضى متشعباً في حربه وجنده، ثم لم يلقَ جمعاً فهزمهم إلاّ قُدّم، فأتبعهم لا يمـرّون بـأحـد إلاّ قتلوه ممّن لحقـوا بـه منهم أو أقـام لهـم، حتى إذا قـدّمـه مـن بـابـل قـدّم زُهرة بُكَيْر بن عبدالله الليثيّ وكَثير بن شهاب السعديّ أخا الغلاّق حين عَبَر الصّـراة، فيلحقون بـأخرَيـات

القوم وفيهم فيومان والفَرّخان؛ هذا مِّيسانيّ وهذا أهوازيّ، فقتل بكير الفرُّخان، وقتل كثير فيومان بسُورا. ثمّ مضى زُهرة حتى جاوز سُورا، ثم نزل، وأقبل هاشم حتى نزل عليه، وجاء سعد حتى ينزل عليهم، ثم قدّم زُهرة، فسار تِلقاء القوم، وقد أقاموا له فيما بين الدّير وكُوثى، وقد استخلف النَّخيرجان ومِهران على جنودهما شهريار، دِهْقان الباب. ومَضَيا إلى المدائن، وأقام شهريار هنالك، فلما التقوْا بأكناف كُوثى؛ جيش شهريار وأوائل الخيل، خرج فنادى: ألا رجل، ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إليّ حتى أنكّل به! فقال زُهرة: لقد أردت أن أبارزَك؛ فأمّا إذ سمعت قولك، فإني لا أخرج إليك إلاّ عبداً؛ فإن أقمتَ له قتلك إن شاء الله ببغيك؛ وإن فررتَ منه فإنما فررت من عبد، وكايده؛ ثمّ أمر أبا نباتة نائل بن جُعشم الأعرجيّ ـ وكان من شجعان بني تميم ـ فخرج إليه، ومع كلّ واحد منهما الرمح، وكلاهما وثيق الخَلْق؛ إلاّ أنّ الشهريار مثل الجمل، فلمّا رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه، وألقى نائلٌ رمحه ليعتنقه، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا، ثم اعتنقا فخرّا عن دابّتيهما، فوقع على نائل كأنه بيت، فضغطه بفخذه، وأخذ الخنجر وأراغ حلّ أزرار درعه، فوقعت إبهامه في فم نائل، فحطم عظمها، ورأى منه فتُوراً، فثاوره فجلد به الأرض، ثم قعد على صدره، وأخذ خِنجره، فكشف درعه عن بطنه، فطعنه في بطنه وجنبه حتى مات، فأخذ فرسه وسِواريه وسلَبه، وانكشف أصحابُه، فذهبوا في البلاد، وأقام زهرة بكوثَى حتى قدم عليه سعد، فأتى به سعداً، فقال سعد: عزمت عليك يا نائل بن جعشم لما لبست سواريه وقبَاءه ودِرْعه، ولتركبنّ بِرذونه! وغنّمه ذلك كلّه. فانطلق، فتدرّع سلبه، ثم أتاه في سلاحه على دابته، فقال: اخلع سواريك إلاّ أن ترى حرباً فتلبسهما؛ فكان أوّل رجل من المسلمين سُوِّر بالعراق.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وعمرو وسعيد، قالوا: فأقام سعد بكُوثَى أياماً، وأتى المكان الذي جلس فيه إبراهيم عليه السلام بكُوثَى، فنزل جانب القوم الذين كانوا يبشّرون إبراهيم، وأتى البيت الذي كان فيه إبراهيم عليه السلام محبوساً، فنظر إليه وصلّى على رسول الله وعلى إبراهيم، وعلى أنبياء الله صلوات الله عليهم، وقرأ: ﴿ وتِلْكَ الأيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١).

حديث بَهُرسير
في ذي الحجَّة سنة خمس عشرة في قول سيف

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وعمرو وسعيد والنّضر، عن ابن الرُّفيل، قالوا: ثم إنّ سعداً قدم زهرة إلى بَهُرسير، فمضى زُهرة من كُوثَى في المقدّمات حتى ينزل بَهُرسير، وقد تلقّاه شيرزاذ بساباط بالصّلح وتأدية الجزاء، فأمضاه إلى سعد، فأقبل معه وتبعتْه المجنّبات، وخرج هاشم، وخرج سعد في أثره، وقد فلّ زهرة كتيبة كِسرى بُوران حول المظلم، وانتهى هاشم إلى مظلم ساباط، ووقف لسعد حتى لِحق به، فوافق ذلك رجوع المُقرَّط. أسد كان لكسرى قد ألِفه وتخيّره من أسود المظلِم؛ وكانت به كتائب كسرى التي تُدعى بُوران، وكانوا يحلفون بالله كلّ يوم: لا يزول مُلك فارس ما عشنا ـ، فبادر المقرّط الناس حين انتهى إليهم سعد، فنزل إليه هاشم فقتله، وسُمِّي سيفه المَتْن، فقبّل سعد رأس هاشم، وقبّل هاشم قَدَم سعد، فقدّمه سعد إلى بَهُرسير، فنزل إلى المظلم وقرأ: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

زَوَالٍ ﴾[1]، فلمّا ذهب من الليل هدأة ارتحل، فنزل على النّاس ببهُرَسير، وجعل المسلمون كلّما قدمت خيل على بُهَرسير وقفوا ثم كبّروا، فكذلك حتى نجز آخر مَنْ مع سعد، فكان مقامه بالناس على بَهُرسير شهريْن، وعبروا في الثالث.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب، وكان عامله فيها على مكة عتّاب بن أسِيد، وعلى الطائف يعلَى بن مُنْية، وعلى اليمامة والبحرين عُثْمان بن أبي العاص، وعلى عُمان حُذيفة بن محصن، وعلى كُور الشأم أبو عبيدة بن الجراح، وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقاص، وعلى قضائِها أبو قرّة؛ وعلى البصرة وأرضها المغيرة بن شعبة.

(١) سورة إبراهيم: ٤٤.

ثم دخلت سنة ستّ عشرة

قال أبو جعفر: ففيها دخل المسلمون مدينة بَهُرسير، وافتتحوا المدائن، وهرب منها يَزْدَ جَرِدْ بن شهريار.

ذكر بقيَّة خبر دخول المسلمين مدينة بَهُرَسير

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب: عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب، قالوا: لما نزل سعد على بَهُرسير بثَّ الخيول، فأغارت على ما بَيْنَ دِجْلة إلى مَن له عهد من أهل الفرات، فأصابوا مائة ألف فلّاح، فحسِبوا، فأصاب كلٌّ منهم فلاحاً؛ وذلك أنّ كلهم فارس ببهرسير. فخندق لهم، فقال له شيرزاذ دِهْقان ساباط: إنك لا تصنع بهؤلاء شيئاً؛ إنما هؤلاء علوج لأهل فارس لم يجرّوا إليك، فدعهم إليّ حتى يفرُق لكم الرأي. فكتب عليه بأسمائهم، ودفعهم إليه، فقال شيرزاذ: انصرفوا إلى قراكم.

وكتب سعد إلى عمر: إنَّا وردنا بَهُرَسير بعد الذي لقينا فيها بين القادسيَّة وبَهُرسير، فلم يأتنا أحد لقتال؛ فبثثتُ الخيول، فجمعتُ الفلاحين من القرى والآجام؛ فرَ رأيك.

فأجابه: إنّ مَن أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يُعينوا عليكم فهو أمانُهم، ومَن هرب فأدركتموه فشأنَكم به.

فلما جاء الكتاب خلَّى عنهم. وراسله الدّهاقين، فدعاهم إلى الإسلام والرجوع، أو الجزاء ولهم الذمَّة والمَنَعة، فتراجعوا على الجزاء والمنعة ولم يدخل في ذلك ما كان لآل كسرى، ومَن دخل معهم؛ فلم يبقَ في غربيّ دِجْلة إلى أرض العرب سواديّ إلاّ أمِن واغتبط بمُلك الإسلام. واستقبلوا الخراج؛ وأقاموا على بَهُرسير شهرين يرمونها بالمجانيق ويدبّون إليهم بالدّبابات، يقاتلونهم بكلّ عُدّة.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن المقدام بن شُرَيح الحارثيّ، عن أبيه، قال: نزل المسلمون على بَهُرسير، وعليها خنادقها وحَرسها وعُدّة الحرب، فرموْهم بالمجانيق والعرّادات، فاستصنع سعد شيرزاذ المجانيق، فنصب على أهل بَهُرسير عشرين مِنجنيقاً، فشغلوهم بها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن النّضْر بن السريّ، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه قال: فلما نزل سعد على بَهُرسير، كانت العرب مطيفة بها، والعجم متحصّنة فيها، وربما خرج الأعاجم يمشون على المُسَنِّيات المشرفة على دِجْلة في جماعتهم وعُدّتهم لقتال المسلمين؛ فلا يقومون لهم، فكان آخر ما خرجوا في رجَّالة وناشبة، وتجرّدوا للحرب، وتبايعوا على الصَّبْر، فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا لهم، فكذَّبوا وتولوا؛ وكانتْ على

زُهرة بن الحَوِيّة درع مفصومة، فقيل له: لو أمرتَ بهذا الفَصْم فسرِد! فقال: ولِمَ؟ قالوا: نخاف عليك منه، قال: إنّي لَكريم على الله، أن ترك سهم فارسَ الجندَ كلّه ثم أتاني من هذا الفصم، حتى يثبت فيّ! فكان أوّل رجل من المسلمين أصيب يومئذ بنُشّابة، فثبتت فيه من ذلك الفَصْم؛ فقال بعضهم: انزعوها عنه، فقال: دعوني، فإنّ نفسي معي ما دامت فيّ، لعلّي أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة، فمضى نحو العدوّ، فضرَب بسيفه شَهْرَبَراز من أهل إصطَخْر، فقتله، وأحيط به فقتل وانكشفوا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد بن ثابت، عن عَمْرة ابنة عبد الرحمن بن أسعد، عن عائشة أمّ المؤمنين، قالت: لما فتح الله عزّ وجلّ رُستم وأصحابه بالقادسيَّة وفُضّت جموعهم، اتّبعهم المسلمون حتى نزلوا المدائن، وقد ارفضّت جموعُ فارس، ولحقوا بجبالهم، وتفرّقت جماعتهم وفرسانهم، إلاّ أنّ الملك مقيم في مدينتهم، معه مَن بقيَ من أهل فارس على أمره.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سماك بن فلان الهُجيميّ، عن أبيه ومحمد بن عبد الله، عن أنس بن الحُليس، قال: بينا نحنُ محاصرو بَهُرَسِير بعد زحفِهم وهزيمتهم، أشرفَ علينا رسول فقال: إنّ الملك يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أنّ لنا ما يلينا من دِجْلة وجبلنا، ولكم ما يليكم من دِجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم! فبدَر الناسَ أبو مفزّر الأسود بن قُطْبة، وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو ولا نحن؛ فرجع الرّجل ورأيناهم يقطعون إلى المدائن، فقلنا: يا أبا مفزّر، ما قلتَ له؟ فقال: لا والذي بعث محمداً بالحقّ ما أدري ما هو؛ إلاّ أنّ عليّ سكينة، وأنا أرجو أن أكون قد أنطِقت بالذي هو خير؛ وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد؛ فجاءنا فقال: يا أبا مفزّر، ما قلت؟ فوالله إنهم لهُرّاب؛ فحدّثه بمثل حديثه إيّانا، فنادى في الناس، ثم نَهد بهم؛ وإنّ مجانيقنا لتخطر عليهم؛ فما ظهر على المدينة أحدٌ، ولا خرج إلينا إلاّ رجل نادى بالأمان فآمنّاه، فقال: إن بقِيَ فيها أحد فما يمنعكم! فتسوّرها الرّجال، وافتتحناها، فما وجدنا فيها شيئاً ولا أحداً؛ إلاّ أسارى أسرناهم خارجاً منها، فسألناهم وذلك الرجلَ: لأيّ شيء هربوا؟ فقالوا: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح، فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريذين بأترجّ كُوثى؛ فقال الملك: واويله! ألا إنّ الملائكة تكلّم على ألسنتهم، تردّ علينا وتُجيبنا عن العرب، والله لئن لم يكن كذلك؛ ما هذا إلاّ شيء ألقِيَ عليّ في هذا الرجل لننتهيَ؛ فأرَزُوا إلى المدينة القُصوى.

كتب إليّ السريّ عن سيف، عن سعيد بن المرزبان، عن مسلم بمثل حديث سماك.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: لما دخل سعد والمسلمون بَهُرَسير أنزل سعد الناس فيها، وتحوّل العسكر إليها، وحاول العُبور فوجدوهم قد ضمّوا السفنَ فيما بين البَطائح وتَكْريت. ولما دخل المسلمون بَهُرَسير ـ وذلك في جوف الليل ـ لاح لهم الأبيض، فقال ضرار بن الخطاب: الله أكبر! أبيض كسرى؛ هذا ما وعد الله ورسوله، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا. فقال محمد وطلحة: وذلك ليلةَ نزلوا على بَهُرَسير.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأعمش، عن حبيب بن صُهْبان أبي مالك، قال: دفعنا إلى المدائن ـ يعني بَهُرَسير ـ وهي المدينة الدّنيا، فحصرنا ملكهم وأصحابه، حتى أكلوا الكلاب والسنانير. قال: ثمّ لم يدخلوا حتى ناداهم منادٍ: والله ما فيها أحدٌ؛ فدخلوها وما فيها أحد.

حديث المدائن القصوى التي كان فيها منزل كسرى

قال سيف: وذلك في صفر سنة ستّ عشرة، قالوا: ولما نزل سعد بَهُرسير، وهي المدينة الدنيا؛ طلب السفن ليعبرَ بالناس إلى المدينة القُصْوى، فلم يقدر على شيء، ووجدهم قد ضمّوا السفن، فأقاموا ببَهُر سير أياماً من صَفر يريدونه على العبور فيمنعه الإبقاء على المسلمين، حتى أتاه أعلاج فدلُّوه على مخاضة تخاض إلى صُلْب الوادي، فأبى وتردّد عن ذلك، وفجئهم المدّ، فرأى رؤيا، أنّ خيول المسلمين اقتحمتهافعبرت وقد أقبلت من المدّ بأمر عظيم؛ فعزم لتأويل رؤياه على العُبور؛ وفي سنة جَوْدُ صيفِها متتابع. فجمع سعد الناس، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، فينا وشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتَوْا منه؛ فقد كفاكموهم أهلُ الأيام، وعطّلوا ثغورهَم، وأفنَوْا ذادتهم، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدوّ بنيَّاتكم قبل أن تحصركم الدّنيا. ألا إنّي قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرُّشد، فافعل. فندب سعد الناس إلى العبور، ويقول: مَن يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج؟ فانتدب له عاصم بن عمرو ذو البأس، وانتدب بعده ستّمائة من أهل النَّجَدات، فاستعمل عليهم عاصماً، فسار فيهم حتى وقف على شاطىء دِجْلة، وقال: مَن ينتدب معي لنمنع الفِراض من عدوّكم ولنحمِيَكم حتى تعبروا؟ فانتدب له ستون؛ منهم أصمُّ بني ولّاد وشُرَحبيل، في أمثالهم، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذُكورة، ليكون أساساً لعَوْم الخيل. ثم اقتحموا دجلة، واقتحم بقيّة الستمائة على أثرهم، فكان أوّل مَن فصَل من الستين أصمُّ التّيْم، والكلَج، وأبو مفزّر، وشُرَحبيل، وجَحْل العجْليّ، ومالك بن كعب الهمْدانيّ، وغلام من بني الحارث بن كعب فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا أعدّوا للخيل التي تقدمت سعداً مثلَها، فاقتحموا عليهم دِجْلة، فأعاموها إليهم، فلقوا عاصماً في السَّرَعان، وقد دنا من الفِراض، فقال عاصم: الرّماحَ الرماحَ! أشرعوها وتوخّوا العيون؛ فالتقوا فاطّعنوا، وتوخّى المسلمون عيونهم، فولّوا نحو الجُدّ، والمسلمون يشمِّصون بهم خيلَهم، ما يملك رجالها منعَ ذلك منها شيئاً. فلحقوا بهم في الجُدّ، فقتلوا عامَّتهم، ونجا مَنْ نجا منهم عُوراناً، وتزلزلت بهم خيولهم، حتى انتقضت عن الفِراض، وتلاحق الستمائة بأوائلهم الستين غيرَ متعتَعِين. ولما رأى سعد عاصماً على الفِراض قد منعها، أذن للناس في الاقتحام، وقال: قولوا نستعين بالله، ونتوكّل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم! وتلاحق عُظْم الجند، فركبوا اللجّة، وإنّ دِجْلة لترمي بالزَّبد، وإنها لُمسْوَدة، وإنّ الناس ليتحدّثون في عومهم وقد اقتربوا ما يكترثون، كما يتحدّثون في مسيرهم على الأرض، ففجئوا أهلَ فارس بأمر لم يكن في حسابهم، فأجهضوهم وأعجلوهم عن جُمهور أموالهم، ودخلها المسلمون في صفر سنة ستّ عشرة، واستولوْا على ذلك كلّه مما بقي في بيوت كسرى من الثلاثة آلاف ألف ألف، ومما جمع شيري ومن بعده. وفي ذلك يقول أبو بُجَيد نافع بن الأسود:

وأسَلْنا على المدائن خيلا ... بَحْرها مِثْل بَرِّهنَّ أريضا
فانتشَلْنا خزائنَ المرءِ كِسْرَى ... يومَ ولَّوا وحاصَ منَّا جَريضا

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن عبد الله بن أبي طيْبَة، عن أبيه، قال: لما أقام

سعد على دِجْلة أتاه عِلْج، فقال: ما يقيمك! لا يأتي عليك ثالثة حتى يذهب يَزْدَجِرد بكلّ شيء في المدائن؛ فذلك مما هيّجه على القيام بالدّعاء إلى العبور.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن رجل، عن أبي عثمان النّهديّ في قيام سعد في الناس في دعائهم إلى العُبور بمثله، وقال: طبّقنا دجلة خَيْلاً ورَجْلاً ودوابّ حتى ما يرى الماء من الشاطىء أحد، فخرجتْ بنا خيلنا إليهم تنفض أعرافها، لها صهيل. فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلْوُون على شيء، فانتهينا إلى القصر الأبيض، وفيه قوم قد تحصّنوا، فأشرف بعضهم فكلّمنا، فدعوناهم وعرضنا عليهم، فقلنا: ثلاث تختارون منهنّ أيَّتهنّ شئتم، قالوا: ما هنّ؟ قلنا: الإسلام فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فمناجزتكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم. فأجابنا مجيبُهُم: لا حاجة لنا في الأولَى ولا في الآخرة ولكن الوُسطى.

وكتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة بمثله. قال: والسفير سلمان.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن النَّضْر بن السريّ، عن ابن الرُّفيل، قال: لما هزموهم في الماء وأخرجوهم إلى الفِراض، ثم كشفوهم عن الفِراض أجْلوْهم عن الأموال، إلّا ما كانوا تقدّموا فيه ـ وكان في بيوت أموال كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ـ فبعثوا مع رستم بنصف ذلك، وأقرّوا نصفه في بيوت الأموال.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن بدْر بن عثمان، عن أبي بكر بن حفص بن عمر، قال: قال سعد يومئذ وهو واقف قبل أن يُقحم الجمهورَ، وهو ينظر إلى حُماة الناس وهم يقاتلون على الفِراض: والله أنْ لو كانت الخرساء ـ يعني الكتيبة التي كان فيها القعقاع بن عمرو وحَمَّال بن مالك والرُّبيل بن عمرو، فقاتلوا قتال هؤلاء القوم هذه الخيل ـ لكانت قد أجزأت وأغنت؛ وكتيبة عاصم هي كتيبة الأهوال؛ فشبّه كتيبة الأهوال ـ لِما رأى منهم في الماء والفراض ـ بكتيبة الخرساء. قال: ثمّ إنهم تنادوْا بعد هنَات قد اعتوروها عليهم ولهم. فخرجوا حتى لحقوا بهم، فلما استووْا على الفِراض هم وجميع كتيبة الأهوال بأسرهم، أقحم سعد الناس ـ وكان الذي يساير سعداً في الماء سلْمان الفارسيّ ـ فعامت بهم الخيل، وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل! والله لينصرنّ الله وليّه، وليظهرنّ الله دينَه، وليهزمنّ الله عدوّه؛ إن لم يكن في الجيش بَغْي أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: الإسلام جديد، ذُلِّلت لهم والله البحور كما ذُلّل لهم البرّ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخْرُجُنّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً. فطبّقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطىء، ولهم فيه أكثر حديثاً منهم في البرّ لو كانوا فيه، فخرجوا منه ـ كما قال سلمان ـ لم يفقدوا شيئاً، ولم يغرق منهم أحد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمر دِثار، عن أبي عثمان النهديّ، أنهم سلموا من عند آخرهم إلّا رجلاً من بارق يُدعى غَرْقدة، زال عن ظهر فرس له شقراء، كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عُرياً والغريقُ طاف، فثنى القعقاع بن عمرو عِنانَ فرسه إليه، فأخذ بيده فجرّه حتى عبر، فقال البارقيّ ـ وكان من أشدّ الناس: أَعْجزَ الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع! وكان للقعقاع فيهم خُؤولة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: فما ذهب لهم في الماء يومئذ إلّا قَدح كانت عِلاقته رثّة، فانقطعت، فذهب به الماء، فقال الرجل الذي كان يعاوِم صاحب القدح معيّراً له: أصابه القَدَر فطاح، فقال: والله إني لَعَلى جَدِيلةٍ ما كان الله ليسلبني قدَحِي من بين أهل

العسكر. فلما عبروا إذا رجل ممن كان يحمي الفِراض، قد سفل حتى طلع عليه أوائل الناس، وقد ضربته الرّياح والأمواج حتى وقع إلى الشاطىء، فتناوله برمحه، فجاء به إلى العسكر فعرفه، فأخذه صاحبه، وقال للذي كان يعاومه: ألم أقل لك! وصاحبه حَليف لقُريش من عَنْز، يُدعى مالك بن عامر، والذي قال: « طاح » يُدعى عامر بن مالك.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن القاسم بن الوليد، عن عُمير الصائديّ، قال: لما أقحم سعد الناس في دِجْلة اقترنوا، فكان سلمان قرينَ سعد إلى جانبه يسايره في الماء، وقال سعد: ذلك تقدير العزيز العليم؛ والماء يطمو بهم، وما يزال فرس يستوي قائماً إذا أعيا يُنْشَز له تَلْعة فيستريح عليها؛ كأنه على الأرض، فلم يكن بالمدائن أمرٌ أعجب من ذلك، وذلك يوم الماء، وكان يدعى يوم الجراثيم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد والمهلّب وطلحة وعمرو وسعيد، قالوا: كان يوم ركوب دِجْلة يدعى يوم الجراثيم، لا يعيا أحد إلا أنشِزت له جرثومة يُريح عليها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: خُضْنا دِجلة وهي تطفح، فلما كنّا في أكثرها ماء لم يزل فارس واقف ما يبلغ الماء حزامه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأعمش، عن حبيب بن صُهبان أبي مالك، قال: لما دخل سعد المدينة الدنيا، وقطع القوم الجسر، وضموا السفن، قال المسلمون: ما تنتظرون بهذه النطفة! فاقتحم رجل، فخاض الناس فما غرق منهم إنسان ولا ذهب لهم متاع، غير أنّ رجلاً من المسلمين فقد قَدَحاً له انقطعت عِلاقته، فرأيته يطفح على الماء.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد والمهلب وطلحة، قالوا: وما زالت حُماة أهل فارس يقاتلون على الفِراض حتى أتاهم آتٍ فقال: علاَم تقتلون أنفسكم! فوالله ما في المدائن أحد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وعمرو وسعيد، قالوا: لما رأى المشركون المسلمين وما يهُمُّون به بعثوا مَن يمنعهم من العبور، وتحمّلوا فخرجوا هُرّاباً، وقد أخرج يَزْدَجِرد - قبل ذلك وبعد ما فُتِحت بَهُرسير - عيالَه إلى حُلوان، فخرجَ يَزْدَجِرد بعدُ حتى ينزل حُلوان، فلحق بعياله، وخلّف مِهران الرازيّ والنّخيرجان - وكان على بيت المال - بالنّهروان، وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حُرّ متاعهم وخفيفه، وما قدروا عليه من بيت المال، وبالنساء والذّراريّ، وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يُدرَى ما قيمته، وخلّفوا ما كانوا أعدّوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة، فكان أوّل مَن دخل المدائن كتيبة الأهوال، ثم الخَرْسَاء، فأخذوا في سككها لا يلقْون فيها أحداً ولا يُحسُّونه إلاّ من كان في القصر الأبيض، فأحاطوا بهم ودعوْهم، فاستجابوا لسعد على الجِزاء والذمّة، وتراجع إليهم أهلُ المدائن على مثل عهدهم؛ ليس في ذلك ما كان لآل كسرى ومن خرج معهم، ونزل سعد القصر الأبيض، وسرّح زهرةَ في المقدّمات في آثار القوم إلى النّهروان، فخرج حتى انتهى إلى النّهروان، وسرّح مقدار ذلك في طلبهم من كلّ ناحية.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأعمش، عن حبيب بن صُهبان أبي مالك، قال: لما عَبَر المسلمون يوم المدائن دِجْلة، فنظروا إليهم يعبُرون، جعلوا يقولون بالفارسيّة: « ديوان آمد ». وقال

بعضهم لبعض: والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلّا الجنّ. فانهزموا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة بن الحارث وعطاء بن السائب، عن أبي البَختريّ، قال: كان رائدُ المسلمين سَلْمان الفارسيّ، وكان المسلمون قد جعلوه داعيةَ أهلِ فارس. قال عطية: وقد كانوا أمروه بدُعاء أهل بَهُرَسير، وأمّروه يوم القصر الأبيض، فدعاهم ثلاثاً. قال عطية وعطاء: وكان دعاؤه إيّاهم أن يقول: إني منكم في الأصل، وأنا أرِقُّ لكم، ولكم فيّ ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم: أن تُسلموافإخواننا لكم مالنا وعليكم ما علينا. وإلّا فالجزية، وإلّا نابذْناكم على سواء؛ إنّ الله لا يحب الخائنين. قال عطية: فلما كان اليوم الثالث في بَهرسير أبوْا أنْ يجيبوا إلى شيء، فقاتلهم المسلمون حين أبوْا. ولما كان اليوم الثالث في المدائن قبِل أهل القصر الأبيض وخرجوا، ونزل سعد القصر الأبيض واتّخذ الإيوان مُصلًّى، وإنّ فيه لتماثيلَ جصّ فما حرّكها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب، وشاركهم سِماك الهُجيميّ، قالوا: وقد كان الملك سرّب عيالَه حين أخِذت بَهُرسير إلى حُلوان، فلما ركب المسلمون الماء خرجوا هرّاباً، وخيلهم على الشاطىء يمنعون المسلمين وخيلهم من العبورِ، فاقتتلوا هم والمسلمون قتالاً شديداً، حتى ناداهم مناد: علامَ تقتلون أنفسكم! فوالله ما في المدائن من أحد. فانهزموا واقتحمتها الخيول عليهم، وعبر سعد في بقيّة الجيش.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب، قالوا: أدرك أوائلُ المسلمين أخرياتِ أهلِ فارس، فأدرك رجلٌ من المسلمين يدعى ثقيفاً أحدُ بني عديّ بن شريف؛ رجلاً من أهل فارس، معترضاً على طريق من طرقها يحمي أدبار أصحابه، فضرب فرسَه على الإقدام عليه، فأحجم ولم يُقدِم، ثم ضربه للهرب فتقاعس حتى لحقه المسلم، فضرب عنقه وسلبه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطية وعمرو ودثار أبي عمر، قالوا: كان فارس من فرسان العجم في المدائن يومئذ مما يلِي جازِر، فقيل له: قد دخلت العرب وهرب أهل فارس؛ فلم يلتفت إلى قولهم، وكان واثقاً بنفسه، ومضى حتى دخل بيت أعلاج له، وهم ينقلون ثياباً لهم، قال: ما لكم؟ قالوا: أخرجتْنا الزنابير، وغلبتْنا على بيوتنا، فدعا بجُلاهق وبطين، فجعل يرميهنّ حتى ألزقهنّ بالحيطان، فأفناهنّ. وانتهى إليه الفَزَع، فقام وأمر عِلْجاً فأسرج له، فانقطع حِزامه، فشدّه على عَجَل، وركب، ثم خرج فوقف. ومرّ به رجل فطعنه، وهو يقول: خذها وأنا ابن المخارق! فقتله ثم مضى ما يلتفت إليه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سعيد بن المرزبان بمثله، وإذا هو ابن المخارق بن شهاب.

قالوا: وأدرك رجل من المسلمين رجلاً منهم معه عصابة يتلاومون، ويقولون: من أيّ شيء فررنا! ثم قال قائل منهم لرجل منهم: ارفع لي كُرَة، فرماها لا يُخطىء، فلما رأى ذلك عاج وعاجوا معه وهو أمامهم؛ فانتهى إلى ذلك الرّجل، فرماه من أقرب مما كان يرمي منه الكُرَة ما يصيبه، حتى وقف عليه الرّجل، ففلق هامَته، وقال: أنا ابن مُشرّط الحجارة. وتفارّ عن الفارسيّ أصحابه.

وقالوا جميعاً؛ محمد والمهلب وطلحة وعمرو وأبو عمر وسعيد، قالوا: ولما دخل سعد المدائن، فرأى

خلوتَها، وانتهى إلى إيوان كسرى، أقبل يقرأ: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيها فَاكِهِينَ * كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِين ﴾ (١). وصلّى فيه صلاة الفتح - ولا تصلّى جماعة - فصلى ثماني ركعات لا يفصل بينهنّ، واتخذه مسجداً، وفيه تماثيل الجصّ رجال وخيل، ولم يمتنع ولا المسلمون لذلك، وتركوها على حالها. قالوا: وأتمّ سعد الصلاة يوم دخَلها، وذلك أنه أراد المُقام فيها. وكانت أوّل جمعة بالعراق جُمعت جماعةً بالمدائن، في صفر سنة ستّ عشرة.

ذكر ما جُمع من فيء أهل المدائن

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد والمهلب وعُقبة وعمرو وأبي عمر وسعيد، قالوا: نزل سعد إيوان كسرى، وقدّم زُهْرةَ، وأمره أن يبلغ النّهروان. فبعث في كلّ وجه مقدار ذلك لنفي المشركين وجمع الفُيوء، ثمّ تحوّل إلى القصر بعد ثالثة، ووكّل بالأقباض عمرو بن عمرو بن مقرّن، وأمره بجمْع ما في القصر والإيوان والدّور وإحصاء ما يأتيه به الطلب؛ وقد كان أهلُ المدائن تناهبوا عند الهزيمة غارةً، ثم طاروا في كلّ وجه، فما أفلت أحدٌ منهم بشيء لم يكن في عسر مِهْران بالنّهروان ولا بخيط. وألحّ عليهم الطلب فتنقّذوا ما في أيديهم، ورجعوا بما أصابوا من الأقباض، فضمُّوه إلى ما قد جُمع؛ وكان أوّل شيء جُمِع يومئذ ما في القصر الأبيض ومنازل كسرى وسائر دور المدائن.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأعمش، عن حبيب بن صُهبان، قال: دخلنا المدائن، فأتينا على قباب تركيّة مملوءة سِلالا مختّمة بالرصاص، فما حسبناها إلّا طعاماً، فإذا هي آنية الذّهب والفضة فقسمت بعدُ بين الناس. وقال حبيب: وقد رأيتُ الرّجل يطوف ويقول: مَن معه بيضاء بِصفراء؟ وأتينا على كافور كثير، فما حسبناه إلا ملْحاً، فجعلنا نعجن به حتى وجدنا مرارته في الخبز.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن النّضر بن السريّ، عن ابن الرُّفيل، عن أبيه الرُّفيل بن ميسور، قال: خرج زُهرة في المقدّمة يُتبعهم حتى انتهى إلى جِسْر النَّهْروان، وهم عليه، فازدحموا، فوقع بغل في الماءفعجلوا وكلَبوا عليه، فقال زهرة: إني أقسم بالله إنّ لهٰذا البغل لشأناً! ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلّا لشيء بعد ما أرادوا تركه، وإذا الذي عليه حلية كسرى؛ ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي كان فيها الجوهر، وكان يجلس فيها للمباهاة؛ وترجّل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه، فأخرجوه فجاؤوا بما عليه، حتى ردّه إلى الأقباض، ما يدرون ما عليه، وارتجز يومئذ زهرة.

فِدًى لقومي اليوم أخوالي وأعمامي ... هم كرهوا بالنهر خِذْلاني وإسلامي
هُمْ فَلَجُوا بالبغل في الخِصام ... بكلِّ قطّاعٍ شُؤونَ الهام
وصرَّعوا الفُرْسَ على الآكام ... كأنّهمْ نِعْمٌ من الأنعام

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن هُبيرة بن الأشعث، عن جدّه الكَلَج، قال: كنت فيمن خرج في الطّلب، فإذا أنا ببغّالين قد ردّا الخيل عنهما بالنّشاب، فما بقي معهما غير نشّابتين، فألظظت بهما، فاجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: ارمِه وأحميك، أو أرميه وتحميني! فحمى كلّ واحد منهما صاحبَه حتى رمَيا بها.

---

(١) سورة الدخان: ٢٥ ـ ٢٨.

ثم إني حملت عليهما فقتلتهما وجئت بالبغلين ما أدري ما عليهما، حتى أبلغتهما صاحب الأقباض، وإذا هو يكتب ما يأتيه به الرّجال وما كان في الخزائن والدّور، فقال: علَى رِسْلك حتى ننظر ما معك! فحططت عنهما، فإذا سفَطان على أحد البغلين فيهما تاج كِسْرَى مفسّخاً ـ وكان لا يحمله إلاّ أسطوانتان ـ وفيهما الجوهر، وإذا على الآخر سَفَطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذّهب المنظوم بالجوهر وغير الدّيباج منسوجاً منظوماً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب، قالوا: وخرج القَعقاع بن عمرو يومئذ في الطلب، فلحق بفارسيّ يحمي الناس؛ فاقتتلا فقتله؛ وإذا مع المقتول جنيبة عليها عَيبتان وغِلافان في أحدهما خمسة أسياف وفي الآخر ستّة أسياف؛ وإذا في العيبتين أدراع، فإذا في الأدراع درع كسرى ومِغفره وساقاه وساعداه، ودرْع هرقل، ودرْع خاقان ودرع داهر ودرع بَهرام شوبين ودرع سياوَخش ودرع النعمان؛ وكانوا استلبوا ما لم يرثوا، استلبوها أيام غزاتهم خاقانَ وهرقلَ وداهرَ؛ وأمّا النعمان وبَهْرام فحين هربا وخالفَا كسرى، وأما أحد الغلافين ففيه سيف كسرى وهرمز وقُباذو فَيروز، وإذا السيوف الأخر، سيف هرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان. فجاء به إلى سعد، فقال: اختر أحد هذه الأسياف، فاختار سيف هرقل، وأعطاه دِرْع بهرام، وأما سائرها فنفّلها في الخرْساء إلاّ سيف كسرى والنعمان ـ ليبعثوا بهما إلى عمر لتسمع بذلك العرب لمعرفتهم بهما، وحبسوهما في الأخماس ـ وحُلى كسرى وتاجه وثيابه، ثم بعثوا بذلك إلى عمر ليراه المسلمون، ولتسمع بذلك العرب، وعلى هذا الوجه سلب خالد بن سعيد عمرَو بن معد يكرب سيفَه الصَّمصامة في الرِّدّة والقوم يستحيُون من ذلك.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيدة بن مُعتّب، عن رجل من بني الحارث بن طَريف، عن عصمة بن الحارث الضبّي، قال: خرجت فيمن خرج يطلب، فأخذت طريقاً مسلوكاً وإذا عليه حمّار، فلما رآني حثّه فلحق بآخر قدّامه، فمالا، وحثّا حماريهما، فانتهيا إلى جدول قد كُسر جسره، فثبتا حتى أتيتهما، ثم تفرّقا، ورماني أحدهما فألظظت به فقتلته وأفلت الآخر، ورجعت إلى الحمارين، فأتيت بهما صاحب الأقباض، فنظر فيما على أحدهما، فإذا سَفَطان في أحدهما فرس من ذهب مسرَج بسرْج من فضة، على ثَفره ولبَبَه الياقوت، والزُّمُرّد منظوم على الفضة، ولجام كذلك، وفارس من فضّة مكلّل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضّة، عليها شَلِيل من ذهب، وبِطان من ذهب ولها شِناق ـ أو زمام ـ من ذهب، وكلّ ذلك منظوم بالياقوت؛ وإذا عليها رجلٌ من ذهب مكلّل بالجوهر، كان كسرى يضعهما إلى أسطوانتي التاج.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن هبيرة بن الأشعث، عن أبي عُبيدة العنبريّ، قال: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبَل رجل بحُقّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما أرينا مثلَ هذا قطّ، ما يعدِله ما عندنا ولا يقاربه؛ فقالوا: هل أخذتَ منه شيئاً؟ فقال: أمَا والله لولا الله ما أتيتُكم به، فعرفوا أنّ للرّجل شأناً، فقالوا: مَنْ أنتَ؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرّظوني، ولكنّي أحمَد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: قال سعد: والله إنّ الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وايم الله ـ على فضل أهل بدر ـ لقد تتبّعت

من أقوامٍ منهم هنَات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسبها ولا أسمَعُها من هؤلاء القوم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مُبشِّر بن الفُضَيل، عن جابر بن عبد الله، قال: والله الذي لا إله إلّا هو؛ ما اطّلعنا على أحد من أهل القادسيّة، أنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتّهمنا ثلاثة نفر، فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزُهدهم: طُليحة بن خُوَيلد، وعمرو بن مَعد يكرب، وقيس بن المكشوح.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مخلد بن قيس العجليّ، عن أبيه، قال: لما قُدم بسيف كسرى على عمر ومِنْطقته وزِبْرجه، قال: إنّ أقواماً أدّوْا هذا لَذَوُو أمانة! فقال عليّ: إنّك عففت فعفّت الرعيّة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو والمجالد، عن الشعبيّ، قال: قال عمر حين نظر إلى سلاح كسرى: إن أقواماً أدّوا هذا لذوو أمَانة.

ذكر صفة قسم الفيء الذي أصيب بالمدائن بين أهله وكانوا - فيما زعم سيف - ستين ألفاً

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وعمرو وسعيد والمهلّب، قالوا: ولما بعث سعد بعد نزوله المدائن في طلب الأعاجم، بلغ الطلب النّهْروان؛ ثمّ تراجعوا، ومضى المشركون نحو حُلْوان، فقسّم سعد الفيء بين الناس بعد ما خمّسه؛ فأصاب الفارس اثنا عشر ألفاً، وكلُّهم كان فارساً ليس فيهم راجل؛ وكانت الجنائب في المدائن كثيرة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد، عن الشعبيّ بمثله، وقالوا جميعاً: ونفّل من الأخماس ولم يُجْهَدَها في أهل البلاء. وقالوا جميعاً: قسم سعد دور المدائن بين الناس، وأوطنوها، والذي وليَ القبض عمرو بن عمرو المُزَنيّ، والذي ولي القسم سلْمان بن ربيعة؛ وكان فَتْح المدائن في صفر سنة ستّ عشرة. قالوا: ولما دخل سعد المدائن أتمّ الصلاة وصام، وأمر الناس بإيوان كسرى فجعل مسجداً للأعياد، ونصب فيه مِنْبَراً، فكان يصلّي فيه - وفيه التماثيل - ويُجَمّع فيه، فلما كان الفِطْر قيل: ابرزوا، فإنّ السنّة في العيدين البَراز. فقال سعد: صلّوا فيه؛ قال: فصلّي فيه، وقال: سواء في عُقْر القرية أو في بطنها.

كتب إليّ السريّ: عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: لما نزل سعد المدائن، وقسم المنازل، بعث إلى العيالات، فأنزلهم الدُّور وفيها المرافق، فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جَلولاء وتَكريت والمَوصِل، ثم تحوّلوا إلى الكوفة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد والمهلب، وشاركهم عمرو وسعيد: وجمع سعد الخُمْس، وأدخل فيه كلّ شيء أراد أن يعجب منه عمر؛ من ثياب كسرى وحُليّه وسيفه ونحو ذلك، وما كان يُعجِب العربَ أن يقع إليهم، ونفّل من الأخماس، وفضل بعد القَسْم بين الناس وإخراج الخمس القِطْف، فلم تعتدل قسمتُه، فقال للمسلمين: هل لكم في أن تطيب أنفُسُنا عن أربعة أخماسه، فنبعثَ به إلى عمر فيضعه حيث يرى، فإنا لا نراه يتفق قسمته؛ وهو بيننا قليل؛ وهو يقع من أهل المدينة موقعاً! فقالوا: نعم ها اللهِ إذاً؛ فبعث به على ذلك الوجه، وكان القِطْف ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جَريب؛ فيه طُرق كالصّور وفصوص كالأنهار؛ وخلال ذلك كالديّر، وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقِلة

بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب ونوّاره بالذهب والفضة وأشباه ذلك. فلما قدم على عمر نفّل من الخمس أناساً، وقال: إنّ الأخماس ينفَل منها مَن شهد ومن غاب من أهل البلاء فيما بين الخُمسين؛ ولا أرى القوم جهدوا الخُمس بالنفل؛ ثم قسم الخمس في مواضعه، ثمّ قال: أشيروا عليّ في هذا القِطْف! فأجمع ملؤهم على أن قالوا: قد جعلوا ذلك لك، فَرَ رأيَك، إلّا ما كان من عليّ فإنه قال: يا أمير المؤمنين، الأمر كما قالوا، ولم يبق إلا التّرويَة؛ إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد مَن يستحقّ به ما ليس له، قال: صدقتني ونصحتَني. فقطّعه بينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الملك بن عمير، قال: أصاب المسلمون يوم المدائن بَهار كسرى، ثقُل عليهم أن يذهبوا به، وكانوا يُعِدّونه للشتاء إذا ذهبت الرّياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه؛ فكأنهم في رياض بساط ستين في ستين؛ أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب؛ وكانت العرب تسمّيه القِطف، فلما قسم سعد فيئهم فضل عنهم، ولم يتّفق قسمته، فجمع سعد المسلمين، فقال: إن الله قد ملأ أيديكم، وقد عسر قسم هذا البساط، ولا يقوى على شرائه أحد، فأرى أن تطيبوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء؛ ففعلوا. فلما قدم على عمر المدينة رأى رؤيا فجمع الناس، فحمِد الله وأثنى عليه، واستشارهم في البساط، وأخبرهم خبره؛ فمن بين مُشير بقبْضه، وآخر مُفوِّض إليه، وآخر مرقّق، فقام عليّ حين رأى عمر يأبى حتّى انتهى إليه، فقال: لمَ تجعل علمك جهلاً، ويقينك شكّاً! إنه ليس لك من الدنيا إلّا ما أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت. قال: صدقَتني. فقطّعه فقسمه بين الناس، فأصاب عليّاً قطعة منه، فباعها بعشرين ألفاً؛ وما هي بأجودِ تلك القِطَع.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وعمرو وسعيد، قالوا: وكان الذي ذهب بالأخماس؛ أخماس المدائن، بشير بن الخَصاصيّة، والذي ذهب بالفتح خنيس بن فلان الأسديّ، والذي وليَ القبض عمرو، والقَسْمَ سلْمان. قالوا: ولما قُسِم البساط بين الناس أكثر الناس في فضل أهل القادسيّة، فقال عمر: أولئك أعيان العرب وغُررها، اجتمع لهم مع الأخطار الدِّين، هم أهل الأيام وأهل القوادِس. قالوا: ولما أتيَ بُحِلّي كسرى وزيّه في المباهاة وزيّه في غير ذلك ـ وكانت له عدّة أزياء لكلّ حالة زيّ ـ قال: عليَّ بمحلِّم ـ وكان أجسمَ عربيّ يومئذ بأرض المدينة ـ فألبِس تاج كسرى على عمودين من خشب، وصبّ عليه أوشحتَه وقلائده وثيابه، وأجلِس للناس؛ فنظر إليه عمر، ونظر إليه الناس، فرأوْا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها، ثم قام عن ذلك، فألبِس زِيّه الذي يليه، فنظروا إلى مثل ذلك في غير نوع، حتى أتى عليها كلها؛ ثم ألبسه سلاحه، وقلّده سيفه، فنظروا إليه في ذلك، ثم وضعه ثم قال: والله إنّ أقواماً أدّوْا هذا لذوو أمانة. ونفّل سيف كسرى محلِّماً، وقال: أحمِق بامرىء من المسلمين غرَّته الدنيا! هل يبلغنّ مغرور منها إلّا دون هذا أو مثله! وما خيرُ امرىء مسلم سبقه كسرى فيما يضرّه ولا ينفعه! إنّ كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن آخرته، فجمع لزوج امرأته أو زوج ابنته، أو امرأة ابنه، ولم يقدّم لنفسه، فقدّم امرؤ لنفسه ووضع الفضول مواضعها تحصُل له، وإلّا حصلت للثلاثة بعده؛ وأحمِق بمن جمع لهم أو لعدوّ جارِف!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن كُرَيب، عن نافع بن جُبَير، قال: قال عمر مَقْدَمَ الأخماس عليه حين نظر إلى سلاح كسرى وثيابه وحُلّيه، مع ذلك سيف النعمان بن المنذر؛ فقال لجُبير: إنّ أقواماً أدّوْا هذا لَذوو أمانة! إلى مَنْ كنتم تنسبون النعمان؟ فقال جُبير: كانت العرب تنسُبه إلى الأشلاء، أشلاء

قَنص، وكان أحد بني عجم بن قَنص، فقال: خذ سيفه فنفّله إياه، فجعل الناس « عجم »، وقالوا « لَخْم ». وقالوا جميعاً: وولّى عمر سعدَ بن مالك صلاة ما غلب عليه وحَرْبه، فولى ذلك؛ وولّى الخراجَ النعمانَ وسويداً ابني عمرو بن مقرّن؛ سويداً على ما سَقى الفرات، والنعمان على ما سقت دِجْلة، وعقدوا الجسور، ثم ولّى عملها، واستعفيا حُذيفَة بن أسِيد وجابر بن عَمرو المزنيّ، ثم ولّى عملهما بعد حذيفَة بن اليمان وعثمان بن حُنَيف.

قال: وفي هذه السنة ـ أعني سنة ستّ عشرة ـ كانت وقعة جَلُولاء، كذلك حدثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمَة، عن ابن إسحاق. وكتب إليّ السريّ يذكر أن شعيباً حدّثه عن سيف بذلك.

ذكر الخبر عن وقعة جلولاء الوقيعة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: لما أقمنا بالمدائن حين هبطناها واقتسمنا ما فيها، وبعثنا إلى عمر بالأخماس، وأوطنّاها، أتانا الخبر بأنّ مِهْران قد عسكر بَجلُولاء، وخندق عليه؛ وأنّ أهل الموصل قد عسكروا بتكريت.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن عبد الله بن أبي طيبة البَجَليّ، عن أبيه بمثله؛ وزاد فيه: فكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إلى سعد: أن سرّح هاشم بن عتبة إلى جَلُولاء في اثني عشر ألفاً، واجعل على مقدّمته القعقاع بن عمرو، وعلى ميمنته سعْر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، واجعل على ساقته عَمْرو بن مُرّة الجهنيّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وزياد، قالوا: وكتب عمر إلى سعد: إن هزم الله الجندَيْن: جند مِهران وجند الأنطاق؛ فقدّم القعقاع حتى يكون بين السواد وبين الجبل على حدّ سوادكم، وشاركهم عمرو وسعيد. قالوا: وكان من حديث أهل جَلُولاء، أنّ الأعاجم لما انتهوْا بعد الهرب من المدائن إلى جلولاء، وافترقت الطرق بأهل أذْرَبيجان والباب وبأهل الجبال وفارس، تذامروا وقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرّق بيننا، فهلمّوا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبلَيْنا عذراً. فاحتفروا الخندق، واجتمعوا فيه على مِهران الرازيّ، ونفذَ يَزدَجِرد إلى حُلوان فنزل بها، ورماهم بالرّجال؛ وخلّف فيهم الأموال، فأقاموا في خندقهم، وقد أحاطوا به الحَسَك من الخشب إلاّ طرقهم. قال عمرو، عن عامر الشعبيّ: كان أبو بكر لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردّة حتى مات، وكان عمر قد استعان بهم؛ فكان لا يؤمّر منهم أحداً إلا على النفر وما دون ذلك؛ وكان لا يعدِل أن يؤمّر الصحابة إذا وجد مَن يجزىءعنه في حربه؛ فإن لم يجد ففي التابعين بإحسان؛ ولا يُطمع من انبعث في الردّة في الرياسة؛ وكان رؤساء أهل الردّة في تلك الحروب حِشوة إلى أن ضرب الإسلام بِجرانه.

ثم اشترك عمرو ومحمد والمهلب وطلحة وسعيد، فقالوا: ففصل هاشم بن عُتْبة بالناس من المدائن في صفر سنة ستّ عشرة، في اثني عشر ألفاً؛ منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن ارتدّ وممن لم يرتدّ؛ فسار من المدائن إلى جَلُولاء أربعاً، حتى قدم عليهم، وأحاط بهم، فحاصرهم وطاولهم أهلُ فارس، وجعلوا لا يخرجون عليهم إلاّ إذا أرادوا؛ وزاحفهم المسلمون بَجلُولاء ثمانين زحفاً، كلّ ذلك يعطي الله المسلمين عليهم

الظَّفر، وغلبوا المشركين على حَسَك الخشب، فاتَّخذوا حَسَك الحديد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عُقْبة بن مكرم، عن بطان بن بِشْر، قال: لما نزل هاشم على مِهْران بجَلُولاء حصرهم في خندقهم، فكانوا يزاحفون المسلمين في زُهاء وأهاويلَ، وجعل هاشم يقوم في الناس، ويقول: إنّ هذا المنزل منزل له ما بعده؛ وجعل سعد يُمدّه بالفرسان حتى إذا كان أخيراً احتفلوا للمسلمين؛ فخرجوا عليهم، فقام هاشم في الناس، فقال: أبلُوا الله بلاء حسناً يتمّ لكم عليه الأجر والمغنَم، واعملوا لله. فالتقوا فاقتتلوا، وبعث الله عليهم ريحاً أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلا المحاجزة، فتهافت فرسانهم في الخندق؛ فلم يجدوا بُدّاً من أن يجعلوا فُرَضاً مما يليهم؛ تصعد منه خيلهم؛ فأفسدوا حصنَهم؛ وبلغ ذلك المسلمين، فنظروا إليه، فقالوا: أننهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه! فلما نَهَد المسلمون الثانية خرج القوم، فرمُوا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسَك الحديد لكيلا يقدم عليهم الخيل، وتركوا للمجال وجهاً، فخرجوا على المسلمين منه، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلُوا مثله إلا ليلة الهرير، إلا أنه كان أكمش وأعجل؛ وانتهى القعقاع بن عمرو في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خندقهم، فأخذ به، وأمر منادياً فنادى: يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبِلوا إليه؛ ولا يمنعنَّكم مَن بينكم وبينه من دخوله. وإنما أمر بذلك ليقوّي المسلمين به، فحمل المسلمون ولا يشكّون إلا أن هاشماً فيه، فلم يقم لحملتهم شيء، حتى انتهوا إلى باب الخندق، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو، وقد أخذ به؛ وأخذ المشركون في هزيمة يَمنة ويَسرة عن المجال الذي بحيال خندقهم؛ فهلكوا فيما أعدّوا للمسلمين فعُقرت دوابّهم، وعادوا رجّالة؛ وأتبعهم المسلمون، فلم يفلِتْ منهم إلا من لا يعدّ، وقتَل الله منهم يومئذ مائة ألف، فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلْفه، فسمِّيت جلولاءَ بما جللها من قتْلاهم؛ فهي جلولاء الوقيعة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيد الله بن محفّز، عن أبيه، قال: إني لفي أوائل الجمهور، مُدخلهم ساباط ومظْلِمهَا، وإني لفي أوائل الجمهور حين عَبَرُوا دجلة، ودخلوا المدائن؛ ولقد أصبت بها تمثالاً لو قسم في بكر بن وائل لسدّ منهم مسَدّاً، عليه جوهر، فأدّيته؛ فما لبثنا بالمدائن إلاّ قليلاً حتى بلغنا أنّ الأعاجم قد جمعت لنا بجلولاء جمعاً عظيماً، وقدّموا عيالاتِهم إلى الجبال، وحبسوا الأموال؛ فبعث إليهم سعد عمرَو بن مالك بن عتبة بن أهْيَب بن عبد مناف بن زهرة، وكان جُند جلولاء اثني عشر ألفاً من المسلمين، على مقدّمتهم القعقاع بن عمرو، وكان قد خرج فيهم وجوه الناس وفرسانهم؛ فلما مرُّوا ببابل مَهْروذ صالحه دِهْقانها، على أن يفرش له جريب أرض دراهم؛ ففعل وصالحه. ثم مضى حتى قدم عليهم بجَلُولاء، فوجدهم قد خندقوا وتحصنوا في خندقهم، ومعهم بيت مالهم، وتواثقوا وتعاهدوا بالنيران ألاّ يفرّوا، ونزل المسلمون قريباً منهم، وجعلت الأمداد تقدم على المشركين كلّ يوم من حُلوان، وجعل يُمدّهم بكلّ من أمدّه من أهل الجبال، واستمدّ المسلمون سعداً فأمدّهم بمائتي فارس، ثم مائتين، ثم مائتين. ولما رأى أهل فارس أمداد المسلمين بادروا بقتال المسلمين. وعلى خيل المسلمين يومئذ طليحة بن فلان، أحد بني عبد الدار، وعلى خيل الأعاجم خرّزاذ بن خرّهرمز - فاقتتلوا قتالاً شديداً، لم يقاتلوا المسلمين مثلَه في موطن من المواطن، حتى أنفدوا النبْل؛ وحتى أنفدوا النّشّاب، وقصفوا الرماح حتى صاروا إلى السيوف والطَّبَرزينات. فكانوا بذلك صدْرَ نهارهم إلى الظهر؛ ولما حضرت الصلاة صلى الناس إيماء، حتى إذا كان بين الصّلاتين خَنَست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها، فأقبل القعقاع بن عمرو على الناس، فقال: أهالتْكم هذه؟ قالوا: نعم؛ نحن مُكلّون وهم مُريحون،

والكالّ يخاف العَجْز إلا أن يُعْقِب؛ فقال: إنّا حاملون عليهم ومجادّوهم وغير كافّين ولا مقلعين حتى يحكم الله بيننا [وبينهم] فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم، ولا يكذبنّ أحد منكم. فحمل فانفرجوا، فما نُهْنِه أحد عن باب الخندق، وألبسهم الليل رواقه، فأخذوا يَمنة ويسرة؛ وجاء في الأمداد طليحة وقيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب وحُجْر بن عديّ، فوافقوهم قد تحاجزوا مع الليل، ونادى منادي القعقاع بن عمرو: أين تحاجزون وأميركم في الخندق! فتفارّ المشركون، وحمل المسلمون، فأدخُل الخندق، فآتى فسطاطاً فيه مرافق وثياب؛ وإذا فُرش على إنسان فأنبُشه، فإذا امرأة كالغزال في حسن الشمس، فأخذتُها وثيابها، فأدَّيت الثياب، وطلبت في الجارية حتى صارت إليّ فاتخذتها أمّ ولد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن حماد بن فلان البرجميّ، عن أبيه، أنّ خارجة بن الصّلت أصاب يومئذ ناقة من ذهب أو فضة موشحة بالدرّ والياقوت مثل الجَفرة إذا وُضعت على الأرض، وإذا عليها رجلٌ من ذهب موشّح كذلك، فجاء بها وبه حتّى أدّاهما.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وعمرو وسعيد والوليد بن عبد الله والمجالد وعُقْبة بن مكرَم، قالوا: وأمر هاشم القعقاع بن عمرو بالطلب، فطلبهم حتى بلغ خانِقين، ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حُلوان نحو الجبال، وقدم القعقاع حُلوان، وذلك أنّ عمر كان كتب إلى سعد: إن هزم الله الجندَيْن؛ جند مهران وجند الأنطاق، فقدّم القعقاع؛ حتى يكون بين السّواد والجبل، على حدّ سوادكم. فنزل القعقاع بحلوان في جند من الأفناء ومِن الحمْراء، فلم يزل بها إلى أن تحوّل الناس من المدائن إلى الكوفة؛ فلما خرج سعد من المدائن إلى الكوفة لحق به القعقاع؛ واستعمل على الثغر قُبَاذ ـ وكان من الحمراء، وأصله من خُراسان ـ ونفّل منها مَن شهدها، وبعض من كان بالمدائن نائياً.

وقالوا ـ واشتركوا في ذلك: وكتبوا إلى عمر بفتح جَلُولاء وبنزول القعقاع حُلوان واستأذنوه في إتباعهم، فأبى، وقال: لوددت أنّ بين السواد وبين الجبل سدّاً لا يخلُصون إلينا ولا نخلُص إليهم؛ حسبُنا من الرّيف السواد، إنّي آثرت سلامة المسلمين على الأنفال. قالوا: ولما بعث هاشم القعقاع في آثار القوم، أدرك مِهران بخانقين، فقتله وأدرك الفيرزان فنزل، وتوقّل في الظِّراب، وخلّى فرسه، وأصاب القعقاع سبايا، فبعث بهم إلى هاشم من سباياهم، واقتسموهم فيما اقتسموا من الفيء؛ فاتُّخذن، فولدن في المسلمين. وذلك السبي ينسب إلى جلولاء، فيقال: سبيّ جَلولاء، ومن ذلك السبي أم الشعبيّ، وقعت لرجل من بني عبس، فولدت فمات عنها فخلَّف عليها شراحيل، فولدت له عامراً، ونشأ في بني عبس.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب، قالوا: واقتُسم في جَلولاء على كلّ فارس تسعة آلاف، وتسعة من الدواب، ورجع هاشم بالأخماس إلى سعد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: أفاء الله على المسلمين ما كان في عسكرهم بجَلُولاء وما كان عليهم، وكلّ دابة كانت معهم إلّا اليسير لم يفلتوا بشيء من الأموال، وولِيَ قَسْم ذلك بين المسلمين سلمان بن ربيعة؛ فكانت إليه يومئذ الأقباض والأقسام، وكانت العرب تسميه لذلك سلْمان الخيل؛ وذلك أنه كان يقسم لها ويقصّر بما دونها، وكانت العِتاق عنده ثلاث طبقات، وبلغ سهم الفارس بجَلولاء مثل سهمه بالمدائن.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد وعمرو، عن الشعبيّ، قال: اقتسم الناس فيءَ جَلولاء على ثلاثين ألف ألف، وكان الخُمس ستة آلاف ألف.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة ومحمد والمهلب وسعيد، قالوا: ونفّلَ سعد من أخماس جَلولاء مَن أعظم البلاء ممّنْ شهدها ومن أعظم البلاء ممن كان نائياً بالمدائن، وبعثَ بالأخماس مع فضاعيّ بن عمرو الدُّؤليّ من الأذهاب والأوراق والآنية والثياب، وبعث بالسبي مع أبي مفزّر الأسود، فمضيا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن زُهرة ومحمد بن عمرو، قالا: بعث الأخماس مع قضاعيّ وأبي مفزّر، والحسابَ مع زياد بن أبي سفيان، وكان الذي يكتب للناس ويدوّنهم، فلما قدموا على عمر كلم زياد عمرَ فيما جاء له، ووصف له، فقال عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيبَ في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك! فقام في الناس بما أصابوا وبما صنعوا، وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد. فقال عمر: هذا الخطيب المِصقع، فقال: إنَّ جُنْدَنا أطْلَقوا بالفعَال لِساننا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن زهرة ومحمد، عن أبي سلمة، قال: لما قُدم على عمر بالأخماس من جَلولاء، قال عمر: والله لا يُجنّه سقف بيت حتى أقسمه. فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد، فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه جلابيبَه - وهي الأنطاع - فلما نظر إلى ياقوته وزبرجدِه وجوهره بكى، فقال له عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، فوالله إنّ هذا لموطن شُكر! فقال: عمر: والله ما ذاك يبكيني، وتالله ما أعطىَ الله هذا قوماً إلّا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلّا ألقِيَ بأسهم بينهم. وأشكل على عمر في أخماس القادسيّة حتى خطر عليه ما أفاء الله - يعني من الخُمس - فوضع ذلك في أهله، فأجرى خُمس جلولاء مُجرى خمس القادسيّة عن ملاءٍ وتشاور وإجماع من المسلمين، ونفّل من ذلك بعض أهل المدينة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وسعيد وعمرو، قالوا: وجمع سعد مَن وراء المدائن، وأمر بالإحصاء فوجدهم بضعة وثلاثين ومائة ألف؛ ووجدهم بضعة وثلاثين ألف أهل بيت، ووجد قِسْمتَهم ثلاثة لكلّ رجل منهم بأهلهم؛ فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن أقِرّ الفلاحين على حالهم؛ إلّا مَن حارب أو هرب منك إلى عدوّك فأدركتَه، وأجْر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم؛ وإذا كتبتُ إليك في قوم فأجْرُوا أمثالَهم مُجراهم. فكتب إليه سعد فيمن لم يكن فلاحاً فأجابه: أما مَن سوى الفلاّحين فذاك إليكم ما لم تَغنموه - يعني تقتسموه - ومَنْ ترك أرضه من أهل الحرب فخلّاها فهي لكم؛ فإن دعوتموهم وقبلتم منهم الجزاء ورددتموهم قبل قسمتها فذمّة؛ وإن لم تدعوهم ففيء لكم لمن أفاء الله ذلك عليه. وكان أحظَى بفيء الأرض أهل جَلُولاء؛ استأثروا بفيء ما وراء النّهروان، وشاركوا الناس فيما كان قبل ذلك، فأقرّوا الفلاحين ودعوا مَن لجّ، ووضعوا الخراج على الفلاحين وعلى من رجع وقبِل الذّمة، واستصفَوْا ما كان لآل كسرى ومَن لجّ معهم فيئاً لمن أفاء الله عليه، لا يُجاز بيع شيء من ذلك فيما بين الجبل إلى الجبل من أرض العرب إلّا من أهله الذين أفاء الله عليهم، ولم يجيزوا بيعَ ذلك فيما بين الناس - يعني فيمن لم يُفئه الله تعالى عليه ممن يعاملهم ممن لم يفئه الله عزّ وجلّ عليه - فأقرّه المسلمون، لم يقتسموه؛ لأن قسمته لم تتأتّ لهم؛ فمن ذلك

الآجام ومَغيض المياه وما كان لبيوت النار ولسكك البُرُد، وما كان لكسرى ومَن جامعه، وما كان لمن قُتل، والأرحاء؛ فكان بعضُ من يُرقّ يسأل الولاة قسْم ذلك؛ فيمنعهم من ذلك الجمهور، أبَوْا ذلك، فانتهوا إلى رأيهم ولم يجيبوا، وقالوا: لولا أن يضرب بعضكم وجوهَ بعض لفعلنا؛ ولو كان طلبُ ذلك منهم عن ملإٍ لقسمها بينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن ماهان، قال: لم يثبت أحد من أهل السواد على العهد فيما بينهم وبين أهل الأيام إلاّ أهل قَريات، أخذوها عنوة، كلهم نكث؛ ما خلا أولئك القريات، فلما دُعوا إلى الرّجوع صاروا ذمّة، وعليهم الجزاء، ولهم المَنْعَة، إلا ما كان لآل كسرى ومَنْ معهم، فإنه صافية فيما بين حُلوان والعراق؛ وكان عمر قد رضي بالسَّواد من الرّيف.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة، عن ماهان، قال: كتبوا إلى عمر في الصّوافي، فكتب إليهم: أن أعمَدوا إلى الصّوافي التي أصفاكموها الله، فوزّعوها على مَن أفاءها الله عليه؛ أربعة أخماس للجند، وخُمس في مواضعه إليّ، وإن أحبُّوا أن ينزلوها فهو الذي لهم. فلما جعل ذلك إليهم رأوا ألاّ يفترقوا في بلاد العجم، وأقرّوها حبيساً لهم يُولُونها مَن تراضوْا عليه، ثم يقتسمونها في كلّ عام، ولا يُولونها إلا مَن أجمعوا عليه بالرّضا، وكانوا لا يُجمعون إلاّ على الأمراء، كانوا بذلك في المدائن؛ وفي الكوفة حين تحوّلوا إلى الكوفة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن عبد الله بن أبي طيبة، عن أبيه، قال: كتب عمر: أن احتازوا فيئكم فإنكم إن لم تفعلوا فتقادُم الأمر بالحَج؛ وقد قضيت الذي عليّ. اللهمّ إنّي أشهدك عليهم فاشهد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن عبد الله، عن أبيه، قال: فكان الفلاّحون للطرق والجسور والأسواق والحرث والدّلالة مع الجزاء عن أيديهم على قَدْر طاقتهم؛ وكانت الدّهاقين للجِزية عن أيديهم والعِمارة، وعلى كلهم الإرشاد وضيافة ابنِ السبيل من المهاجرين، وكانت الضيّافة لمن أفاءها الله خاصّة ميراثاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت بنحو منه، وقالوا جميعاً: كان فتح جَلولاء في ذي القعدة سنة ستّ عشرة في أولها، بينها وبين المدائن تسعة أشهر. وقالوا جميعاً: كان صلح عمر الذي صالح عليه أهل الذمة؛ أنهم إن غشّوا المسلمين لعدوّهم برئتْ منهم الذّمة، وإن سبّوا مسلماً أن يُنهَكوا عقوبة، وإن قاتلوا مسلماً أن يُقتلوا؛ وعلى عمر مَنعتهم؛ وبرىء عمر إلى كلّ ذي عهد من معرّة الجيوش.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبد الله والمستنير، عن إبراهيم بمثله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة، عن ماهان، قال: كان أشقى أهل فارس بجلُولاء أهل الرّيّ؛ كانوا بها حُماة أهل فارس، ففنِيَ أهلُ الرّيّ يوم جَلولاء. وقالوا جميعاً: ولما رجع أهل جَلولاء إلى المدائن نزلوا قطائعَهم، وصار السواد ذمة لهم إلا ما أصفاهم الله به من مال الأكاسرة، ومَن لجّ معهم. وقالوا جميعاً: ولما بلغ أهلَ فارس قولُ عمر ورأيه في السواد وما خلْفه، قالوا: ونحن نرضى بمثل الذي رضُوا به، لا يرضى أكراد كلّ بلد أن ينالوا من ريفهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير بن يزيد وحكيم بن عُمَير، عن إبراهيم بن يزيد، قال: لا يحلّ اشتراء أرض فيما بين حُلوان والقادسيّة؛ والقادسيّة من الصوافي، لأنه لمن أفاءه الله عليه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد؛ عن الشعبيّ مثله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن المغيرة بن شِبْل، قال: اشترى جرير من أرضِ السواد صافيةً على شاطىء الفُرات، فأتى عمر فأخبره، فردّ ذلك الشراء وكرهه، ونهى عن شراء شيء لم يقتسمه أهله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، قال: قلت للشعبيّ: أخِذ السواد عنوة؟ قال: نعم، وكلّ أرض إلّا بعض القِلاع والحصون؛ فإن بعضهم صالح وبعضهم غلب، قلت: فهل لأهل السواد ذمّة اعتقدوها قبل الهرب؟ قال: لا، ولكنهم لما دُعوا ورضوا بالخراج وأخذ منهم صاروا ذمّة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد العزيز، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: ليس لأحد من أهل السواد عَقْد إلّا بني صَلوبا وأهل الحيرة وأهل كَلواذَى وقُرى من قرى الفُرات، ثم غدروا، ثم دُعوا إلى الذمّة بعد ما غدروا. وقال هاشم بن عُتبة في يوم جَلُولاء:

يومُ جَلولاءَ ويومُ رُستَمْ ... ويومُ زَحْفِ الكوفةِ المُقَدَّمْ
ويومُ عَرْضِ النَّهرِ المحرَّمْ ... من بينِ أيّامٍ خَلوْنَ صُرَّمْ
شَيَّبْنَ أصْداغي فهنَّ هُرَّمْ ... مِثْلُ ثَغامِ البَلَدِ المحرَّمْ

وقال أبو بُجيد ذلك:

ويومَ جَلُولاء الوَقيعةِ أصْبَحَتْ ... كتائبُنا تَرْدِي بأسْدٍ عَوَابِسِ
ففَضَّتْ جموعَ الفرْسِ ثمَّ أنَمْتُهم ... فَتَبّاً لأَجْسادِ المجوسِ النَّجائِسِ!
وأفَلَتهنَّ الفيْرزانُ بجرْعةٍ ... ومِهْرانَ أرْدَتْ يومَ حَزِّ القَوَانِس
أقاموا بِدارٍ لِلمنيَّة مَوْعِدٍ ... وللتُّرْبِ تحْثوها خَجوجُ الرَّوامِسِ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: وقد كان عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد: إنْ فتح الله عليكم جَلولاء فسرّح القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتى ينزل بحلوان. فيكون ردءاً للمسلمين ويحرز الله لكم سوادكم. فلما هزم الله عزّ وجلّ أهلَ جلولاء، أقام هاشم بن عتبة بَجُلولاء، وخرج القعقاع بن عمرو في آثار القوم إلى خانِقين في جند من أفْناء الناس ومن الحمراء، فأدرك سَبْياً من سبيِهم؛ وقتل مقاتِلة مَنْ أدرك، وقتل مِهْران وأفلت الفيرزان؛ فلما بلغ يَزْدجرد هزيمةُ أهل جلولاء ومصاب مِهران، خرج من حلوان سائراً نحو الرّيّ، وخلف بحُلوان خيلاً عليها خسْرَوْشُنُوم؛ وأقبل القعقاع حتى إذا كان بقصر شيرين على رأس فرسخ من حلوان خرج إليه خُسْرَوشنوم، وقدم الزّينبي دِهْقان حُلوان، فلقيه القعقاع فاقتتلوا فقتل الزينبيّ، واحتقّ فيه عميرة بن طارق وعبد الله، فجعله وسلبه بينهما، فعدّ عميرة ذلك حُقْرة وهرب خُسْرَوْشنوم، واستولى المسلمون على حُلوان وأنزلها القعقاع الحمراء، وولّى عليهم قُباذ، ولم يزل القعقاع هنالك على الثغر والجزاء بعد ما دعاهم، فتراجعوا وأقرّوا بالجزاء إلى أن تحوّل سعد من المدائن إلى

الكوفة، فلحق به، واستخلف قُبَاذ على الثغر، وكان أصلُه خراسانياً.

وكان في هذه السنة ـ أعني سنة ست عشرة في رواية سيف ـ فتحُ تَكْريت، وذلك في جُمادى منها.

ذكر الخبر عن فتحها:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة والمهلب وسعيد، وشاركهم الوليد بن عبد الله بن أبي طَيْبة، قالوا: كتب سعد في اجتماع أهل الموصل إلى الأنطاق وإقباله حتى نزل بتكْريت، وخندق فيه عليه ليحمَي أرضه، وفي اجتماع أهل جلولاء على مِهران معه؛ فكتب في جلولاء ما قد فرغنا منه، وكتب في تكْريت واجتماع أهل الموصل إلى الأنطاق بها: أن سرّح إلى الأنطاق عبد الله بن المُعتمّ، واستعمل على مقدّمته ربعيَّ بن الأفكَل العَنزيّ، وعلى ميمنته الحارثَ بن حسان الذهليّ، وعلى ميسرته فُراتَ بن حيّان العِجليّ، وعلى ساقته هانيء بن قيس،وعلى الخيل عرفجةَ بن هَرْثمة؛ ففصل عبد الله بن المعتم في خمسة آلاف من المدائن، فسار إلى تَكريت أربعا؛ حتى نزل على الأنطاق؛ ومعه الرّوم وإياد وتغلِب والنَّمِر ومعه الشهارجة وقد خندقوا بها، فحصرهم أربعين يوماً، فتزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً؛ وكانوا أهون شوْكة، وأسرعَ أمراً من أهل جَلولاء، ووكَّل عبد الله بن المعتمّ بالعرب ليدعوهم إليه وإلى نصرته على الرّوم؛ فهم لا يُخفون عليه شيئاً؛ ولما رأت الرّوم أنهم لا يخرجون خَرْجة إلاّ كانت عليهم، ويُهْزمون في كلّ ما زاحفوهم؛ تركوا أمراءهم، ونقلوا متاعَهم إلى السفن، وأقبلت العيون من تغلب وإياد والنَّمِر إلى عبد الله بن المعتمّ بالخبر، وسألوه للعرب السلم، وأخبروه أنهم قد استجابوا له؛ فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقرُّوا بما جاء به من عند الله؛ ثم أعلمونا رأيَكم. فرجعوا إليهم بذلك، فردُّوهم إليه بالإسلام؛ فردّهم إليهم، وقال: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نَهدْنا إلى الأبواب التي تلِينا لندخل عليهم منها، فخذوا بالأبواب التي تَلِي دِجْلة، وكبِّروا واقتلوا مَن قدرتم عليه؛ فانطلقوا حتى تُواطئوهم على ذلك. ونَهَد عبد الله والمسلمون لما يليهم وكَبّروا، وكبَّرت تغلِب وإياد والنَّمِر؛ وقد أخذوا بالأبواب؛ فحسب القوم أنّ المسلمين قد أتوْهم من خلفهم، فدخلوا عليهم مما يلي دِجْلة، فبادروا الأبواب التي عليها المسلمون، فأخذتهم السيوف؛ سيوف المسلمين مستقبلتهم، وسيوف الرَّبَعيِّين الذين أسلموا ليلتئذ من خلفهم؛ فلم يفلت من أهل الخندق إلاّ مَنْ أسلم من تغلب وإياد والنَّمِر. وقد كان عمر عهد إلى سعد؛ إن هم هُزموا أن يأمر عبد الله بن المعتمّ بتسريح ابن الأفكَل العَنزيّ إلى الحِصْنين؛ فسرّح عبدُ الله بن المعتمّ ابنَ الأفكل العَنَزيّ إلى الحصنيْن، فأخذ بالطريق، وقال: اسبق الخبر، وسر ما دون القيْل، وأحيِ الليل. وسرّح معه تغلِب وإياد والنِّمر، فقدمهم وعليهم عُتْبة بن الوغْل؛ أحد بني جشم بن سعد وذو القُرْط وأبو وداعة بن أبي كِرب وابن ذي السُّنيْنَة قتيل الكُلاب وابن الحجير الإياديّ وبشر بن أبي حَوْط متساندين، فسبقوا الخبر إلى الحصنين. ولما كانوا منها قريباً قدّموا عتبة بن الوعل فادّعى بالظفر والنَّفل والقَفْل، ثم ذو القُرْط، ثم ابن ذي السُّنينة، ثم ابن الحجير، ثمّ بشر؛ ووقفوا بالأبواب، وقد أخذوا بها، وأقبلت سَرَعَان الخيل مع ربعيّ بن الأفْكل حتى اقتحمت عليهم الحصنين، فكانت إيّاها، فنادوا بالإجابة إلى الصلح، فأقام من استجاب، وهرب مَن لم يستجب، إلى أن أتاهم عبد الله بن المعتمّ، فلما نزل عليهم عبد الله دعا من لجّ وذهب، ووفّى لمن أقام، فتراجع الهرّاب واغتبط المقيم، وصارت لهم جميعاً الذمة والمَنْعَة، واقتسموا في تَكْـرِيت على كـلّ سهم ألف درهم، للفارس، ثـلاثة آلاف

وللراجل ألف، وبعثوا بالأخماس مع فُرات بن حَيّان، وبالفتح مع الحارث بن حسان وولى حربَ الموصل رِبعيّ بن الأفكل، والخراجَ عَرْفجة بن هرثمة.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ست عشرة ـ كان فتح ماسَبَذان أيضاً.

ذكر الخبر عن فتحها:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة ومحمد والمهلّب وعمرو وسعيد قالوا: ولما رجع هاشم بن عُتْبة من جَلُولاء إلى المدائن، بلغ سعداً أن آذين بن الهرمزان قد جمع جمعاً، فخرج بهم إلى السهل، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: ابعث إليهم ضرار بن الخطاب في جُنْد واجعل على مقدّمته ابن الهذيل الأسديّ، وعلى مجنّبتيه عبد الله بن وهب الراسبيّ حليف بَجيلة، والمضارب بن فلان العجليّ؛ فخرج ضرار بن الخطاب، وهو أحد بني محارب بن فِهْر في الجند، وقدّم ابنَ الهذيل حتى انتهى إلى سهل ماسَبَذان، فالتقوْا بمكان يدعَى بهَنْدف، فاقتتلوا بها، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخذ ضرار آذين سَلَماً، فأسره فانهزم عنه جيشه فقدّمه فضرب عنقه. ثم خرج في الطلب حتى انتهى إلى السيرَوان فأخذ ماسَبَذان عنوة فتطاير أهلها في الجبال، فدعاهم فاستجابوا له، وأقام بها حتى تحول سعد من المدائن فأرسل إليه، فنزل الكوفة واستخلف ابن الهذيل على ماسَبَذان فكانت إحدى فروج الكوفة.

وفيها كانت وقعة قَرْقيسياء في رَجب.

ذكر الخبر عن الوقعة بها:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة ومحمد والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: ولما رجع هاشم بن عُتْبة عن جَلُولاء إلى المدائن وقد اجتمعت جموع أهل الجزيرة، فأمدّوا هِرقل على أهل حِمْص، وبعثوا جنداً إلى أهل هِيت، وكتب بذلك سعد إلى عمر، فكتب إليه عمر أن ابعث إليهم عمَرَ بن مالك بن عُتْبة بن نوفل بن عبد مناف في جند، وابعث على مقدّمته الحارثَ بن يزيد العامريّ، وعلى مجنّبتيه رِبعيَّ بن عامر ومالكَ ابن حبيب، فخرج عمر بن مالك في جنده سائراً نحو هِيت، وقدّم الحارث بن يزيد حتى نزل على مَن بهيت، وقد خندقوا عليهم. فلما رأى عمر بن مالك امتناعَ القوم بخندقهم واعتصامهم به، استطال ذلك، فترك الأخبِية على حالها وخلّف عليهم الحارث بن يزيد محاصرَهم، وخرج في نصف النّاس يعارض الطريق حتى يجيء قَرْقِيسياء في عِرّة، فأخذها عَنوة، فأجابوا إلى الجزاء، وكتب إلى الحارث بن يزيد إن هم استجابوا فخلّ عنهم فليْخرجوا، وإلّا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابُه ممّا يليك حتى أرى من رأيي. فسمحوا بالاستجابة، وانضمّ الجند إلى عمر والأعاجم إلى أهل بلادهم.

وقال الواقديّ: وفي هذه السنة غرّب عمرُ أبا مِحْجن الثقفيّ إلى باضع.

وقال: وفيها تزوّج ابن عُمر صفيّة بنت أبي عُبيدة.

قال: وفيها ماتت مارية أمّ ولد رسول الله ﷺ، أمّ إبراهيم؛ وصلّى عليها عمر، وقبرها بالبَقيع، في المحرّم.

قال: وفيها كتِب التأريخ في شهر ربيع الأول.

قال: وحدّثني ابنُ أبي سبرة، عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع، عن ابن المسيّب، قال: أوّل مَن كتب التأريخ عمر، لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لستّ عشرة من الهجرة بمشورة عليّ بن أبي طالب.

حدثني عبدُ الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: حدثنا نَعيم بن حمّاد، قال: حدّثنا الدراورديّ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع، قال: سمعت سعيد بن المسيّب يقول: جمع عمرُ بن الخطاب الناسَ، فسألهم من أيّ يوم نكتب؟ فقال عليّ: من يوم هاجر رسول الله ﷺ، وترك أرضَ الشرك. ففعله عمر.

وحدّثني عبدُ الرحمن، قال: حدّثني يعقوب بن إسحاق بن أبي عباد، قال: حدّثنا محمد بن مسلم الطائفيّ، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، قال: كان التأريخ في السنة التي قدِم فيها رسول الله ﷺ المدينة. وفيها وُلد عبد الله بن الزبير.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطّاب، واستخلف على المدينة - فيما زعم الواقديّ - زيد بن ثابت. وكان عامل عمر في هذه السنة على مكة عتّاب بن أسِيد، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن يعلَى بن أميّة، وعلى اليمامة والبحرين العَلاء بن الحضرميّ، وعلى عُمان حذيفة بن محصن، وعلى الشأم كلها أبو عبيدة بن الجرّاح، وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعلى قضائها أبو قُرّة، وعلى البصرة وأرضها المُغيرة بن شعبة، وعلى حرب الموصل ربعيّ بن الأفكل، وعلى الخراج بها عَرْفجة بن هرثمة في قول بعضهم، وفي قول آخرين عُتبة بن فَرْقد على الحرب والخراج - وقيل ذلك كلّه كان إلى عبد الله بن المعتمّ - وعلى الجزيرة عِياض بن عمرو الأشعريّ.

ثم دخلت سنة سبع عشرة

ففيها اختُطّت الكوفة، وتحوّل سعد بالناس من المدائن إليها في قول سيف بن عمر وروايته.

ذكر سبب تحوُّل مَن تحوّل من المسلمين من المدائن إلى الكوفة وسبب اختطاطهم الكوفة في رواية سيف

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وعمرو وسعيد، قالوا: لما جاء فتح جَلولاء وحُلوان ونزول القعقاع بن عمرو بحُلوان فيمن معه، وجاء فتح تكريت والحِصْنَيْن، ونزول عبدالله بن المعتمّ وابن الأفكَل الحصنيْن فيمن معه؛ وقدمت الوفود بذلك على عُمر، فلمّا رآهم عمر قال: والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها؛ ولقد قدمت وفود القادسيّة والمدائن وإنهم لكما أبدؤوا، ولقد انتكيتم فما غيَّركم؟ قالوا: وُخومة البلاد. فنظر في حوائجهم، وعجل سَراحهم؛ وكان في وفود عبدالله بن المعتمّ عُتبة بن الوعْل، وذو القُرْط، وابن ذي السُّنيْنَة، وابن الحجيْر وبشْر، فعاقدوا عمر على بني تغلِب، فعقد لهم؛ على أنّ مَن أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومَن أبى فعليه الجزاء؛ وإنما الإجبار من العرب على مَن كان في جزيرة العرب. فقالوا: إذاً يهربون وينقطعون فيصيرون عجماً؛ فأمرُ أجمَلُ الصّدقة؛ فقال: ليس إلّا الجزاء، فقالوا: تجعل جزيتهم مثل صدقة المسلم، فهو مجهودهم، ففعل على ألّا ينصِّروا وليداً ممن أسلم آباؤهم، فقالوا: لك ذلك، فهاجر هؤلاء التغلَبيّون ومَن أطاعهم من النمريّين والأياديّين إلى سعد بالمدائن وخطُّوا معه بعد بالكوفة، وأقام مَن أقام في بلاده على ما أخذوا لهم على عمر مسلمهُم وذمّيُّهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن ابن شُبرمة، عن الشعبيّ، قال: كتب حذيفة إلى عمر: إنّ العرب قد أترِفتْ بطونها، وخفّت أعضادُها، وتغيَّرت ألوانها. وحذيفة يومئذ مع سعد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأصحابهما، قالوا: كتب عمر إلى سعد: أنبئني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومَهم؟ فكتب إليه: إنّ العرب خدَّدهم وكفى ألوانهم وخُومة المدائن ودِجلة؛ فكتب إليه: إن العرب لا يوافقها إلّا ما وافق إبلَها من البلدان، فابعث سلمان رائداً وحذيفة ـ وكانا رائدي الجيش ـ فليرْتادا منزلا برّيًّا بحريًّا، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جِسر، ولم يكن بقي من أمر الجيش شيء إلا وقد أسنده إلى رجل، فبعث سعد حذيفة وسلمان، فخرج سلمان حتى يأتيَ الأنبار، فسار في غربيّ الفرات لا يرضى شيئاً، حتى أتى الكوفة. وخرج حذيفة في شرقيّ الفُرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة،

والكوفة على حَصْباء ـ وكلّ رملة حمراء يقال لها سِهْلة، وكلّ حصباء ورمل هكذا مختلطين فهو كوفة ـ فأتيا عليها، وفيها دِيرات ثلاثة: دير حُرقة، ودير أم عمرو، ودير سِلسلة، وخِصاصٌ خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة، فنزلا فصلّيا، وقال كلّ واحد منهما: اللهمّ ربّ السماء وما أظلّت، وربّ الأرض وما أقلّتْ، والريح وما ذَرَتْ، والنجوم وما هوَتْ، والبحار وما جَرَتْ، والشياطين وما أضلّت، والخِصاص وماأجنّتْ، باركْ لنا في هذه الكوفة، واجعله منزل ثبات. وكتب إلى سعد بالخبر.

حدّثني محمد بن عبدالله بن صفوان، قال: حدّثنا أميّة بن خالد، قال: حدّثنا أبو عوانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، قال: لما هزِم الناس يوم جَلُولاء، رجع سعد بالناس، فلمّا قدم عمار خرج بالناس إلى المدائن فاجتووْها؛ قال عمّار: هل تصلح بها الإبل؟ قالوا: لا؛ إنّ بها البعوض، قال: قال عمر: إنّ العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل. . قال: فخرج عمارٌ بالناس حتى نزل الكوفة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مخلَد بن قيس، عن أبيه، عن النُّسَير بن ثور، قال: ولما اجتوى المسلمون المدائن بعد ما نزلناها وآذاهم الغبار والذّباب، وكتِب إلى سعد في بعثه رُوَّاداً يرتادون منزلاً بريًّا بحريًّا، فإن العرب لا يصلحها من البلدان إلّا ما أصلح البعير والشاة؛ سأل مَن قِبَله عن هذه الصفة فيما بينهم، فأشار عليه مَن رأى العراق من وجوه العرب باللّسان ـ وظَهْر الكوفة يقال له اللسان، وهو فيما بين النهرين إلى العين، عين بني الحذاء، كانت العرب تقول: أدلع البرّ لسانَه في الريف، فما كان يلي الفرات منه فهو المِلطاط، وما كان يلي الطين منه فهو النِّجاف ـ فكتب إلى سعد يأمره به.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: ولما قدم سلمان وَحذيفة على سعد، وأخبراه عن الكوفة، وقدم كتاب عمر بالذي ذكرا له، كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو: أن خلّف على الناس بجلولاء قُباذ فيمن تبعكم إلى من كان معه من الحمراء. ففعل وجاء حتى قدم على سعد في جنده، وكتب سعد إلى عبدالله بن المعتمّ: أن خلّف على الموصل مسلَم بن عبدالله الذي كان أسِر أيام القادسيّة فيمن استجاب لكم من الأساورة، ومَن كان معكم منهم. ففعل، وجاء حتى قدم على سعد في جنده، فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرّم سنة سبع عشرة. وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران، وكان بين قيام عمر واختطاط الكوفة ثلاث سنين وثمانية أشهر؛ اختطّت سنة أربع من إمارة عمر في المحرّم سنة سبع عشرة من التأريخ، وأعطوا العطايا بالمدائن في المحرّم من هذه السنة قبل أن يرتحلوا .وفي بَهُرسير، في المحرّم سنة ستّ عشرة، واستقرّ بأهل البصرة منزلهم اليوم بعد ثلاث نزلات قبلها، كلها ارتحلوا عنها في المحرم سنة سبع عشرة، واستقرّ باقي قِرارهما اليوم في شهر واحد.

وقال الواقديّ: سمعتُ القاسم بن معن يقول: نزل الناس الكوفة في آخر سنة سبع عشرة.

قال: وحدّثني ابن أبي الزُّقاد، عن أبيه، قال: نزلوها حين دخلت سنة ثماني عشرة، في أوّل السنة.

رجْع الحديث إلى حديث سيف. قالوا: وكتب عمر إلى سعد بن مالك وإلى عُـتْبة بن غَزْوان أن يتربّعا بالناس في كلّ حين ربيع في أطيب أرضهم، وأمر لهم بمعاونهم في الربيع من كلّ سنة، وبإعطائهم في المحرّم من كلّ سنة، وبفيئهم عند طلوع الشِّعْري في كلّ سنة؛ وذلك عند إدراك الغلّات، وأخذوا قبل نزول الكوفة عطاءين.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مخلد بن قيس، عن رجل من بني أسد يدعى المغرور، قال: لما نزل سعد الكوفة، كتب إلى عمر: إنيّ قد نزلت بكوفة منزلا بين الحيرة والفُرات برّيا بحريا، يُنبت الحليّ والنِّصيّ، وخيّرتُ المسلمين بالمدائن، فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمسلحة. فبقي أقوام من الأفناء، وأكثرهم بنو عَبْس.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وعمرو وسعيد والمهلب، قالوا: ولما نزل أهل الكوفةِ الكوفة، واستقرّت بأهل البصرة الدار، عرف القوم أنفسهم، وثاب إليهم ما كانوا فقدوا. ثمّ إنّ أهلَ الكوفة استأذنوا في بنيان القصَب، واستأذن فيه أهل البصرة، فقال عمر: العسكر أجدُّ لحربكم وأذكى لكم، وما أحبّ أن أخالفَكم، وما القصب؟ قالوا: العِكْرش إذا رَوِيَ قصّب فصار قصباً، قال: فشأنكم؛ فابتنى أهل المصريْن بالقصب.

ثم إنّ الحريق وقع بالكوفة وبالبصرة، وكان أشدّهما حريقاً الكوفة، فاحترق ثمانون عريشاً، ولم يبق فيها قَصبة في شوّال، فما زال الناس يذكرون ذلك. فبعث سعد منهم نفراً إلى عُمر يستأذنون في البناء باللبِن، فقدِموا عليه بالخبر عن الحريق، وما بلغ منهم ـ وكانوا لا يَدَعون شيئاً ولا يأتونه إلاّ وآمَروه فيه ـ فقال: افعلوا؛ ولا يزيدَنّ أحدُكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاوَلوا في البنيان، والزموا السنّة تلزمكم الدولة. فرجع القوم إلى الكوفة بذلك. وكتب عمر إلى عُتبة وأهل البصرة بمثل ذلك؛ وعلى تنزيل أهل الكوفة أبو الهيّاج بن مالك، وعلى تنزيل أهل البصرة عاصم بن الدُّلَف أبو الجرباء.

قال: وعهد عمر إلى الوفد وتقدّم إلى الناس ألاّ يرفعوا بنياناً فوق القَدْر. قالوا: وما القدْر؟ قال: ما لا يقرّبكم من السَّرَف، ولا يخرجكم من القصد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: لما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة، أرسل سعد إلى أبي الهيّاج فأخبره بكتاب عمر في الطُّرُق، أنه أمر بالمناهِج أربعين ذراعاً، وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبع أذرع، ليس دون ذلك شيء، وفي القطائع ستين ذراعاً إلاّ الذي لبني ضبّة. فاجتمع أهل الرأي للتقدير؛ حتى إذا أقاموا على شيء قسّم أبو الهيّاج عليه؛ فأوّل شيء خُطّ بالكوفة وبُني حين عزموا على البناء المسجدُ، فوُضع في موضع أصحاب الصابون والتّمارين من السوق، فاختطوه، ثم قام رجل في وسطه، رامٍ شديد النّزع، فرمى عن يمينه فأمر مَنْ شاء أن يبنيَ وراء موقع ذلك السهم، ورمى به بين يديه ومن خلفه، وأمر مَن شاء أن يبنيَ وراء موقع السهمين. فترك المسجد في مربّعةٍ غلوة من كلّ جوانبه، وبنى ظُلّةً في مقدمه، ليست لها مجنّبات ولا مواخير، والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا ـ وكذلك كانت المساجد ما خلا المسجد الحرام، فكانوا لا يشبّهون به المساجد تعظيماً لحرمته، وكانت ظُلّته مائتي ذراع على أساطين رخام كانت للأكاسرة، سماؤها كأسمية الكنائس الروميّة، وأعلموا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه أحد ببنيان، وبنَوا لسعد داراً بحياله بينهما طريق منقَبُ مائتي ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال، وهي قصر الكوفة اليوم، بنى ذلك له روزبه من آجرّ بنيان الأكاسرة بالحيرة، ونهج في الودَعة من الصحن خمسة مناهج، وفي قِبْلته أربعة مناهج، وفي شرقيّه ثلاثة مناهج، وفي غربيّه ثلاثة مناهج، وعلّمها، فأنزل في وَدعة الصحن سليماً وثَقيفاً مما يلي الصحن على طريقين، وهَمْدان على طريق، وبَجِيلة على طريق آخر، وتيْم اللاّت

على آخرهمْ وتغلِب، وأنزل في قبلة الصحن بني أسد على طريق، وبين بني أسَد والنَّخع طريق، وبين النَّخع وكِندة طريق، وبين كِنْدة والأزْد طريق، وأنزل في شرقيّ الصحن الأنصار، ومُزَينة على طريق، وتميماً ومحارباً على طريق، وأسداً وعامراً على طريق، وأنزل في غربيّ الصحن بجالة وبَجْلة على طريق، وجَدِيلَة وأخلاطاً على طريق، وجُهينة وأخلاطاً على طريق، فكان هؤلاء الذين يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك. واقتُسِمت على السُّهْمان؛ فهذه مناهجها العظمى. وبنوا مناهج دونها تحاذِي هذه ثم تلاقيها، وأخَر تُتبعها، وهي دونها في الذّرْع، والمحالّ من ورائها؛ وفيما بينها، وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن، ونزل فيها الأعشار من أهل الأيَّام والقوادس، وحمى لأهل الثغور والموصل أماكنَ حتى يُوافوا إليها؛ فلما ردفتهمالروادف، البدء والثّناء، وكثروا عليهم، ضيّق الناس المحالّ فمَن كانت رادِفَتُه كثيرة شخص إليهم وترك محلّته، ومَن كانت رادِفته قليلة أنزلوهم منازلَ مَن شخص إلى رادفته لقلّته إذا كانوا جيرانهم؛ وإلّا وسعوا على روادفهم وضيّقوا على أنفسهم؛ فكان الصحن على حاله زمانَ عمر كله، لا تطمع فيه القبائل؛ ليس فيه إلا المسجد والقصر، والأسواق في غير بنيان ولا أعلام. وقال عمر: الأسواق على سنَّة المساجد، مَن سبق إلى مقْعد فهو له؛ حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه؛ وقد كانوا أعدُّوا مُناخاً لكلّ رادف؛ فكان كلّ مَن يجيء سواء فيه - وذلك المناخ اليومَ دور بني البكّاء - حتى يأتوا بالهيّاج، فيقوم في أمرهم حتى يقطع لهم حيث أحبُّوا. وقد بنى سعد في الذين خطُّوا للقصر قصراً بحيال محراب مسجد الكوفة اليوم، فشيّده، وجعل فيه بيت المال، وسكن ناحيتَه. ثم إنّ بيتَ المال نُقب عليه نقباً، وأخِذ من المال، وكتب سعد بذلك إلى عمر، ووصف له موضع الدّار وبيوت المال من الصّحن مما يلي وَدعة الدار. فكتب إليه عمر: أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جَنْب الدار، واجعَل الدّار قبلته؛ فإنّ للمسجد أهلا بالنهار وبالليل؛ وفيهم حصن لمالهم، فنقل المسجد وأراغ بنيانه، فقال له دِهقان من أهل هَمَذان؛ يقال له روزبه بن بُزُرْجُمهر: أنا أبنيه لك، وأبني لك قصراً فأصِلُهما، ويكون بنياناً واحداً. فخطّ قصر الكوفة على ما خطّ عليه، ثم أنشأه من نِقْض آجرّ قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة على مساحته اليوم، ولم يسمح به، ووضع المسجد بحيال بيوت الأموال منه إلى منتهى القصر، يَمْنَة على القبلة، ثم مدّ به عن يمين ذلك إلى منقطع رَحبَة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والرحبَة قبلته، ثم مدّ به فكانت قبلة المسجد إلى الرّحبَة وميمنة القصر، وكان بنيانه على أساطين من رُخام كانت لكسرى بكنائس بغير مجنّبات؛ فلم يزل على ذلك حتى بنيَ أزمانَ معاوية بن أبي سفيان بنيانَه اليوم؛ على يديْ زياد. ولما أراد زياد بنيانه دعا ببنّائين من بنّائي الجاهليّة، فوصف لهم موضع المسجد وقدرَه وما يشتهي من طوله في السماء، وقال: أشتهي من ذلك شيئاً لا أقع على صفته؛ فقال له بنّاء قد كان بنّاءً لكسرى: لا يجيء هذا إلا بأساطين من جبال أهواز، تُنقَر ثم تُثقَب، ثم تحشى بالرصاص وبسفافيد الحديد، فترفعه ثلاثين ذراعاً في السماء، ثم تسقّفه، وتجعل له مجنّبات ومواخير؛ فيكون أثبت له. فقال: هذه الصّفة التي كانت نفسي تنازعني إليها ولم تعبرها. وغلّق باب القصر، وكانت الأسواق تكون في موضعه بين يديه، فكانت غوغاؤهم تمنع سعداً الحديث؛ فلمّا بنى ادّعى الناس عليه ما لم يقل، وقالوا: قال سعد: سَكِّن عني الصّوَيت. وبلغ عمر ذلك، وأنّ الناس يسمُّونه قصر سعد، فدعا محمد بن مسلمة، فسرّحه إلى الكوفة، وقال: اعمِد إلى القصر حتى تحرق بابه، ثم ارجع عودَك على بدئك؛ فخرج حتى قدم الكوفة، فاشترى حطباً، ثم أتى به القصر، فأحرق الباب، وأُتيَ سعد فأخبر الخبر، فقال: هذا رسول أرسِل لهذا من الشأن، وبعث لينظر مَن هو؟ فإذا هو محمد بن مسلَمة، فأرسل إليه رسولاً بأن أدخل، فأبى

فخرج إليه سعد، فأراده على الدخول والنزول، فأبى، وعرض عليه نفقة فلم يأخذ، ودفع كتاب عمر إلى سعد: بلغني أنك بنيت قصراً اتّخذته حصناً، ويسمى قَصْر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً؛ فليس بقصرك؛ ولكنه قصر الخَبال؛ انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر باباً تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم، ليوافقوا مجلسَك ومخرجك مِنْ دارك إذا خرجت؛ فحلف له سعد ما قال الذي قالوا. ورجع محمد بن مسلَمة من فوره؛ حتى إذا دنا من المدينة فنى زادُه، فتبلّغ بلحاء من لحاء الشجَر، فقدم على عمر، وقد سَنِق فأخبره خبره كله، فقال: فهلّا قبلت من سعد! فقال: لو أردت ذلك كتبتَ لي به، أو أذنت لي فيه، فقال عمر: إنّ أكملَ الرّجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صَاحبه عمل بالحزم، أو قال به، ولم ينكل؛ وأخبره بيمين سعد وقوله، فصدّق سعداً وقال: هو أصدق ممن روى عليه ومَن أبلغني.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطاء أبي محمد، مولى إسحاق بن طلحة، قال: كنت أجلس في المسجد الأعظم قبل أن يبنيَه زياد؛ وليست له مجنّبات ولا مَواخير، فأرى منه دير هند وباب الجِسْر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن ابن شبرمة، عن الشعبيّ، قال: كان الرجل يجلس في المسجد فيرى منه باب الجسر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمر بن عياش أخي أبي بكر بن عيّاش، عن أبي كثير، أن روزبه بن بزرجُمْهر بن ساسان كان هَمَذانيًا، وكان على فَرْج من فُروج الرّوم، فأدخل عليهم سلاحاً، فأخافه الأكاسرة، فلحق بالرّوم، فلم يأمن حتى قدم سعد بن مالك، فبنى له القصرَ والمسجد. ثم كتب معه إلى عمر، وأخبره بحاله، فأسلم، وفرض له عمر وأعطاه، وصرفه إلى سعد مع أكريائه ـ والأكرياء يومئذ هم العِباد ـ حتى إذا كان بالمكان الذي يقال له قبر العِباديّ مات، فحفروا له، ثم انتظروا به من يمرّ بهم ممن يُشهدونه موته، فمرّ قوم من الأعراب، وقد حفروا له على الطريق، فأرَوْهموه ليبرؤوا من دمه، وأشهدوهم ذلك، فقالوا: قبر العِباديّ ـ وقيل قبر العباديّ لمكان الأكرياء ـ قال أبو كثير: فهو والله أبي، قال: فقلت: أفلا تخبر الناس بحاله! قال: لا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمر وسعيد وزياد، قالوا: ورَجح الأعشار بعضهم بعضاً رَجحَاناً كثيراً، فكتب سعد إلى عمر تعديلهم، فكتب إليه: أن عَدّلهم، فأرسل إلى قوم من نُسّاب العرب وذوي رَأيهم وعقلائهم منهم سعيد بن نِمْران ومشعلة بن نعيم، فعدّلوهم عن الأسباع، فجعلوهم أسباعاً، فصارت كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم، وجديلة ـ وهم بنو عمرو بن قيس عيلانَ ـ سبعاً، وصارت قضاعةَ ـ ومنهم يومئذ غسان بن شبام ـ وبجَيلة وخُثْعم وكِنْدة وحضرموت، والأزْدُ سُبعاً، وصارت مذحِج وحمير وهَمدان وحلفاؤهم سُبعاً، وصارت تميم وسائر الرِّباب وهوازن سبعاً، وصارت أسد وغطفان ومحارب والنَّمِر وضُبيعة وتغلِب سُبعاً، وصارت إياد وعكّ وعبد القيس وأهل هَجَر والحمراء سبْعاً، فلم يزالوا بذلك زمانَ عمر وعثمان وعليّ، وعامّة إمارة معاوية، حتى ربّعهم زياد.

إعادة تعريف الناس

وعرّفوهم على مائة ألف درهم، فكانت كل عِرافة من القادسيّة خاصّة ثلاثة وأربعين رجلاً وثلاثاً وأربعين امرأة وخمسين من العِيال، لهم مائة ألف درهم، وكلّ عِرافة من أهل الأيّام عشرين رجلاً على ثلاثة آلاف وعشرين

امرأة، وكلّ عيّل على مائة، على مائة ألف درهم، وكلّ عِرافة من الرّادفة الأولى ستّين رجلاً وستين امرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم، ثم على هذا من الحساب.

وقال عطيّة بن الحارث: قد أدركت مائة عريف، وعلى مثل ذلك كان أهل البصرة، كان العطاء يُدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرّايات، والرّايات على أيادي العرب، فيدفعونه إلى العُرفاء والنقباء والأمَناء، فيدفعونه إلى أهله في دُورهم.

فتوح المدائن قبل الكوفة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلّب وعمرو وسعيد، قالوا: فتوح المدائن السّواد وحُلوان وماسَبذَان وقَرْقَيسيَاء، فكانت الثُّغور ثغور الكوفة أربعةً: حُلْوان عليها القعقاع بن عمرو، وماسَبَذان عليها ضِرار بن الخطاب الفِهريّ، وقَرْقِيسِياء عليها عمر بن مالك أو عمرو بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف، والموصل عليها عبدالله بن المعتمّ، فكانوا بذلك، والناس مقيمون بالمدائن بعدما تحوّل سعد إلى تمصير الكوفة، وانضمام هؤلاء النفر إلى الكوفة واستخلافهم على الثغور مَن يمسك بها ويقوم عليها؛ فكان خليفة القعقاع على حُلوان قُباذ بن عبدالله، وخليفة عبدالله على الموصل مسلم بن عبدالله، وخليفة ضرار رافع بن عبدالله، وخليفة عمر عشنّق بن عبدالله، وكتب إليهم عمر أن يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة، ويرفعوا عنهم الجزاء، ففعلوا. فلما اختطّت الكوفة وأذِن للناس بالبناء، نقل الناس أبوابَهم من المدائن إلى الكوفة فعلّقوها على ما بنوا وأوطنوا الكوفة. وهذه ثغورهم، وليس في أيديهم من الرّيف إلا ذلك.

كتب السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد عن عامر، قال: كانت الكوفة وسوادها والفروج: حُلوان، والموصل، وماسَبَذان وقَرْقيسياء. ثم وافقهم في الحديث عمرو بن الريان، عن موسى بن عيسى الهَمْدانيّ بمثل حديثهم، ونهاهم عمّا وراء ذلك، ولم يأذن لهم في الانسياح. وقالوا جميعاً: وَلِيَ سعد بن مالك على الكوفة بعد ما اختُطَّت ثلاث سنين ونصفاً سوى ما كان بالمدائن قبلها، وعمالته ما بين الكوفة وحلوان والموصل وماسَبَذان وقَرْقيسياء إلى البصرة، ومات عتبة بن غزوان وهو على البصرة فَظِع بعمله، وسعد على الكوفة فوَلّى عمر أبا سبْرة مكان عتبة بن غزوان، ثم عزل أبا سَبْرة عن البصرة، واستعمل المغيرة، ثم عزل المغيرة، واستعمل أبا موسى الأشعريّ.

ذكر خبر حمص
حين قصد من فيها من المسلمين صاحبُ الروم

وفي هذه السنة قصدت الرّوم أبا عُبيدة بن الجرّاح ومَن معه من جند المسلمين بحمْص لحربهم؛ فكان من أمرهم وأمر المسلمين ما ذكر أبو عبيدة؛ وهو فيما كتب به إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف عن محمد وطلحة وعمرو وسعيد ـ قالوا: أوّلُ ما أذِن عمر للجند بالانسياح؛ أن الرّوم خرجوا، وقد تكاتبوا هم وأهلُ الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمْص، فضَمّ أبو عبيدة إليه مسالحه، وعسكروا بفناء مدينة حِمْص، وأقبل خالد من قِنّسرين حتى انضمّ إليهم فيمن انضمّ من أمراء المسالح، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصّن إلى مجيء الغِياث، فكان خالد يأمره أن يناجزَهم، وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصّن، ويكتب إلى عمر، فأطاعهم وعصىَ خالداً، وكتب إلى عمر يخبره بخروجهم عليه، وشغلِهم أجنادَ أهل الشأم عنه، وقد كان عمر اتّخذ في كلّ مِصْر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عُدّة لكون إن كان، فكان

بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فَرس. فلمّا وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك: أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حِمْص؛ فإنّ أبا عبيدة قد أحِيط به، وتقدّم إليهم في الجدّ والحثّ.

وكتب أيضاً إليه أن سرّح سُهيل بن عديّ إلى الجزيرة في الجند وليأتِ الرَّقة فإنّ أهل الجزيرة. هم الذين استثاروا الرّوم على أهل حمص؛ وإن أهل قرقيسياء لهم سَلَف. وسرّحْ عبدالله بن عبدالله بن عِتْبان إلى نَصِيبين، فإن أهل قَرْقيسياء لهم سلَف، ثم لينفُضا حرّان والرُّهاء. وسرّحْ الوليد بن عُقْبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ وسرِّح عياضاً؛ فإنْ كان قتال فقد جعلتَ أمرهم جميعاً إلى عياض بن غَنْم ـ وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد ممدّين لأهل الشأم، وممّن انصرف أيامَ انصرف أهل العراق ممدّين لأهل القادسيّة، وكان يُرَافد أبا عبيدة ـ فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حِمْص؛ وخرج عياض بن غَنْم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفِراض وغير الفِراض؛ وتوَجّه كلّ أمير إلى الكُورة التي أمِّر عليها. فأتى الرّقة، وخرج عمر من المدينة مغيثاً لأبي عبيدة يريد حِمْص حتى نزل الجابية. ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الرّوم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث مَن بالجزيرة منهم بأنّ الجنود قد ضربت من الكوفة، ولم يدروا: الجزيرة يريدون أم حمص! فتفرّقوا إلى بلدانهم وإخوانهم، وخلّوا الرّوم. ورأى أبو عبيدة أمراً لما انفضّوا غير الأوّل، فاستشار خالداً في الخروج، فأمره بالخروج، ففتح الله عليهم. وقدم القعقاع بن عمرو في أهل الكوفة في ثلاث من يوم الوقعة، وقدم عمر فنزل الجابِية، فكتبوا إلى عمر بالفتح وبقدوم المَدد عليهم في ثلاث، وبالحُكْم في ذلك. فكتب إليهم أن أشركوهم، وقال: جزى الله أهلَ الكوفة خيراً! يكفون حوْزتهم ويُمدّون أهل الأمصار.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن زكرياء بن سِياه، عن الشعبيّ، قال: استمدّ أبو عبيدة عمرَ، وخرجت عليه الرّوم، وتابعهم النصارى فحصروه، فخرج وكتب إلى أهل الكوفة، فنفر إليهم في غداةٍ أربعة آلاف على البِغال يجنبون الخيل، فقدِموا على أبي عبيدة في ثلاث بعد الوقعة، فكتب فيهم إلى عمر، وقد انتهى إلى الجابية، فكتب إليه: أنْ أشرِكْهم، فإنهم قد نفَروا إليكم، وتفرّق لهم عدوّكم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن طلحة، عن ماهان، قال: كان لعمر أربعة آلاف فَرس عُدّة لكون إن كان، يُشَتِّيها في قبلة قصر الكوفة وميْسرته؛ ومن أجل ذلك يسمّى ذلك المكان الآريّ إلى اليوم، ويربّعها فيما بين الفرات والأبيات من الكوفة مما يلي العاقول، فسمّته الأعاجم «آخرُ الشاهجان»، يعنونَ معْلَف الأمراء، وكانَ قيِّمه عليها سَلْمان بن ربيعة الباهليّ في نفر من أهل الكوفة، يصنِّع سوابقَها، ويُجْريها في كلّ عام، وبالبصرة نحو منها، وقيّمُه عليها جَزْء بن معاوية، وفي كلّ مصر من الأمصار الثمانية على قدرها، فإن نابتهم نائبة ركب قوم وتقدّموا إلى أن يستعدّ الناس.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن حلاّم، عن شهر بن مالك بنحو منه. فلما فرغوا رجعوا.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ افتُتحت الجزيرة في رواية سيف. وأما ابن إسحاق، فإنه ذكر أنها افتُتحت في سنة تسع عشرة من الهجرة، وذكر من سبب فتحها ما حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة عنه؛ أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص: إنّ الله قد فتح على المسلمين الشام والعراق، فابعث من عندك جنداً إلى

الجزيرة، وأمّر عليهم أحد الثلاثة: خالدَ بن عُرْفطة، أو هاشمَ بن عتبة، أو عياضَ بن غَنْم. فلما انتهى إلى سعد كتابُ عمر، قال: ما أخّر أمير المؤمنين عياضَ بن غَنْم آخر القوم إلاّ أنه له فيه هوًى أو أولِّيَه؛ وأنا موليه. فبعثه وبعث معه جيشاً، وبعث أبا موسى الأشعري، وابنه عمر بن سعد ـ وهو غلام حدَث السنّ ليس إليه من الأمر شيء ـ وعثمانَ بن أبي العاص بن بشْر الثقفيّ، وذلك في سنة تسع عشرة. فخرج عياض إلى الجزيرة، فنزل بجنده على الرُّهاء فصالحه أهلُها على الْجزية، وصالحت حرّان حين صالحت الرُّهاء، فصالحه أهلها على الجزية. ثمّ بعث أبا موسى الأشعريّ إلى نصيبين، ووجّه عمر بن سعد إلى رأس العين في خيل ردءًا للمسلمين، وسار بنفسه في بقيّة الناس إلى دارا، فنزل عليها حتى افتتحها، فافتتح أبو موسى نَصِيبين، وذلك في سنة تسع عشرة. ثمّ وجه عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة فكان عندها شيء من قتال؛ أصيب فيه صفوان بن المُعطَّل السُّلميّ شهيداً. ثمّ صالح أهلها عثمان بن أبي العاص على الجِزْية، على كلّ أهل بيت دينار. ثم كان فتح قيساريّة من فلسطين وهرب هرقل.

وأما في رواية سيف؛ فإن الخبر في ذلك، فيما كتب به إلى السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد؛ قالوا: خرج عياض بن غَنْم في أثر القَعقاع، وخرج القُوّاد ـ يعني حين كتب عمر إلى سعد بتوجيه القعقاع في أربعة آلاف من جنده مدداً لأبي عبيدة حين قصدته الروم وهو بحمْص ـ فسلكوا طريق الجزيرة على الفِراض وغيرها، فسلك سُهيل بن عديّ وجنده طريقَ الفِراض حتى انتهى إلى الرّقة، وقد ارفضّ أهلُ الجزيرة عن حِمْص إلى كُورهم حين سمعوا بمُقْبَل أهل الكوفة، فنزل عليهم، فأقام محاصرَهم حتى صالحوه؛ وذلك أنهم قالوا فيما بينهم: أنتم بين أهل العراق وأهل الشأم؛ فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء! فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل واسط من الجزيرة؛ فرأى أن يقبَل منهم؛ فبايعوه وقبل منهم؛ وكان الذي عقد لهم سُهَيل بن عديّ عن أمر عياض، لأنه أمير القتال وأجروْا ما أخذوا عَنْوة، ثم أجابوا مُجرَى أهل الذمّة، وخرج عبدالله بن عبدالله بن عِتْبان، فسلك على دِجْلة حتى انتهى إلى الموصل، فعبر إلى بَلَد حتى أتى نصيبين، فلقوه بالصّلح، وصنعوا كما صنع أهل الرَّقة، وخافوا مثل الذي خافوا؛ فكتبوا إلى عياض، فرأى أن يقبل منهم، فعقد لهم عبدالله بن عبدالله، وأجروْا ما أخذوا عَنْوة، ثم أجابوا مُجرى أهل الذمّة، وخرج الوليد بن عُقْبة حتى قدم على بني تغلِب وعرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلاّ إياد بن نزار، فإنهم ارتحلوا بقلِّيتِهِمْ، فاقتحموا أرض الرّوم، فكتب بذلك الوليد إلى عمر بن الخطاب. ولما أعطى أهل الرّقة ونَصِيبين الطاعة ضمّ عياض سهيلا وعبدالله إليه فسار بالناس إلى حَرّان، فأخذ ما دونها. فلما انتهى إليهم اتقوه بالإجابة إلى الجزية فقبل منهم، وأجرى مَن أجاب بعد غَلْبِه مُجْرى أهل الذّمة. ثم إنّ عياضاً سرّح سُهيلاً وعبدالله إلى الرُّهاء، فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية، وأجرى مَن دونهم مجراهم؛ فكانت الجزيرة أسهلَ البلدان أمراً، وأيسره فَتْحاً، فكانت تلك السهولة مهجَنة عليهم وعلى من أقام فيهم من المسلمين، وقال عياض بن غَنْم:

مَن مُبْلِغُ الأقوامِ أنَّ جُموعَنا ... حَوَتِ الجَزيرَةَ يوم ذاتِ زِحامِ
جَمعُوا الجَزيرَةَ والغِياثَ فَنَفَّسُوا ... عَمَّنْ بِحِمْصَ غَيابَةَ القُدَّامِ
إنَّ الأعِزَّةَ والأكارِمَ مَعْشَرٌ ... فَضُّوا الجزيرَةَ عن فِراخِ الهامِ
غَلَبُوا المُلوكَ على الجَزيرةِ فانتَهَوْا ... عن غَزْوِ مَنْ يأوِي بلادَ الشامِ

ولما نزل عمر الجابية، وفرغ أهلُ حمص أمدّ عياض بن غَنْم بحبيب بن مَسلمة، فقدم على عياض مدداً، وكتب أبو عبيدة إلى عمر بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضمّ إليه عياض بن غَنْم إذ ضمّ خالداً إلى المدينة، فصرفه إليه، وصرف سهيل بن عديّ وعبدالله بن عبدالله إلى الكوفة ليصرفهما إلى المشرق، واستعمل حبيب بن مَسْلمة على عجم الجزيرة وحربها، والوليد بن عُقْبة على عرب الجزيرة، فأقاما بالجزيرة على أعمالهما.

قالوا: ولما قدم الكتاب من الوليد على عمر كتب إلى ملك الروم: إنه بلغني أنّ حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك؛ فوالله لتُخرجنّه أو لننبذنّ إلى النصارى؛ ثم لنخرجنّهم إليك. فأخرجهم ملك الرّوم، فخرجوا فتمّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عديّ بن زياد، وخَنَس بقيّتهم، فتفرّقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم؛ فكلّ إياديّ في أرض العرب من أولئك الأربعة الآلاف؛ وأبَى الوليد بن عقبة أن يقبل من بني تغلِب إلّا الإسلام؛ فقالوا له: أمّا من نُقّب على قومه في صلح سعد ومَن كان قَبله فأنتم وذاك، وأمّا من لم ينقّب عليه أحد ولم يُجْرِ ذلك لمن نقب فما سبيلك عليه! فكتب فيهم إلى عمر، فأجابه عمر: إنما ذلك لجزيرة العرب لا يقبل منهم فيها إلّا الإسلام، فدعْهم على ألّا يُنصِّروا وليداً، وأقبل منهم إذا أسلموا. فقبل منهم على ألّا يُنَصّروا وليداً، ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام، فأعطَى بعضهم ذلك فأخذوا به، وأبى بعضهم إلا الجزاء، فرضيَ منهم بما رضيَ من العِبَاد وتَنُوخ.

كتب إليّ السريّ! عن شعيب، عن سيف، عن عطية، عن أبي سيف التَّغلَبيّ، قال: كان رسولُ الله ﷺ قد عاهد وَفْدَهم على ألّا يُنصِّروا وليداً، فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من وفّدهم، ولم يكن على غيرهم، فلما كان زمان عمر قال مسلموهم: لا تنفّروهم بالخراج فيذهبوا، ولكن أضعِفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء؛ فإنهم يغضبون من ذكْر الجزاء على ألّا ينصّروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم. فخرج وفدُهم في ذلك إلى عمر؛ فلما بعث الوليد إليه برؤوس النصارى وبديّانهم، قال لهم عمد: أدُّوا الجزية، فقالوا لعمر: أبلغنا مأمننا، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلنّ أرض الرّوم، والله لتفضحنا من بين العرب، فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسَكم، وخالفتم أمّتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية، وتالله لتؤدنه وأنتم صَغَرة قَمَأة، ولئن هربتم إلى الرّوم لأكتبنّ فيكم، ثمّ لأسبِينّكم. قالوا: فخذ منا شيئاً ولا تسمّه جِزاء، فقال: أمّا نحن فنسمّيه جِزاء، وسمُّوه أنتم ما شئتم. فقال له عليّ بن أبي طالب: يا أميرَ المؤمنين، ألم يُضْعِف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال: بلى، وأصغى إليه، فرضيَ به منهم جزاء، فرجعوا على ذلك، وكان في بني تغلِب عزّ وامتناع، ولا يزالون ينازعون الوليد، فهمّ بهم الوليد، وقال في ذلك:

إذا مـا عَصَبْتُ الـرأسَ مِنّي بِمشْـوَذٍ فـغَيَّـكِ مِـنّـي تَـغـلِبَ ابـنـةَ وائِـلِ

وبلغت عنه عمر، فخاف أن يحرجوه وأن يضعف صبره فيسطوَ عليهم، فعزله وأمّر عليهم فُرات بن حيّان وهند بن عمرو الجَمَليّ، وخرج الوليد واستودع إبلًا له حُريثَ بن النعمان، أحدَ بني كنانة بن تَيْم من بني تغْلِب، وكانت مائة من الإبل فاختانها بعد ما خرج الوليد.

وكان فتح الجزيرة في سنة سبع عشرة في ذي الحجة.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ خرج عمر من المدينة يريد الشام حتى بلغ سَرْغ، في قول ابن إسحاق، حدثنا بذلك ابن حميد عن سلمة عنه، وفي قول الواقديّ.

ذكر الخبر عن خروجه إليها:

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: خرج عُمر إلى الشأم غازياً في سنة سبع عشرة؛ حتى إذا كان بسرْغ لقيَه أمراء الأجناد، فأخبروه أنّ الأرض سقيمة، فرجع بالناس إلى المدينة.

وقد كان عمر ـ كما حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن ابن شهاب الزّهريّ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل، عن عبدالله بن عباس ـ خرج غازياً، وخرج معه المهاجرون والأنصار، وأوعب الناسُ معه، حتى إذا نزل بسرْغ، لقيَه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجرّاح، ويزيد بن أبي سفيان، وشُرحبيل بن حَسَنة؛ فأخبروه أنّ الأرض سقيمة، فقال عمر: اجمع إليّ المهاجرين الأولين، قال: فجمعتُهم له، فاستشارهم، فاختلفوا عليه، فمنهم القائل: خرجتَ لوجهٍ تريد فيه الله وما عنده، ولا نرى أن يصدّك عنه بلاء عرض لك. ومنهم القائل: إنه لَبلاء وفَناء ما نرى أن تقدِم عليه؛ فلما اختلفوا عليه قال: قوموا عني، ثم قال: اجمعْ لي مهاجِرة الأنصار، فجمعتُهم له، فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين، فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله. فلما اختلفوا عليه قال: قوموا عني، ثم قال: اجمعْ لِي مهاجِرة الفَتْح من قريش، فجمعتُهم له، فاستشارهم فلم يختلف عليه منهن اثنان، وقالوا: ارجع بالناس، فإنه بلاء وفناء. قال: فقال لي عمر: يابنَ عباس، اصرُخْ في الناس فقل: إنّ أمير المؤمنين يقول لكم إني مُصبح على ظَهْر، فأصبِحُوا عليه قال: فأصبح عمر على ظَهْر، وأصبح الناس عليه، فلما اجتمعوا عليه قال: أيّها الناس؛ إني راجع فارجعوا، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قَدر الله! قال: نعم فراراً من قَدَر الله إلى قَدَر الله؛ أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عُدْوتان: إحداهما خَصبَة والأخرى جَدْبة، أليس يرعى مَنْ رعَى الجدْبة بقدَر الله، ويرعَى مَن رَعى الخِصبة بقدَر الله! ثم قال: لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة! ثم خلا به بناحية دون الناس؛ فبينا الناس على ذلك إذْ أتى عبدُ الرحمن بن عوف ـ وكان متخلّفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس ـ فقال: ما شأن الناس؟ فأخبر الخبر، فقال: عندي من هذا علم، فقال عمر: فأنت عندنا الأمين المصدّق، فماذا عندك؟ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فِراراً منه»؛ ولا يخرجنَّكم إلّا ذلك، فقال عمر: فلله الحمد! انصرفوا أيها الناس، فانصرف بهم.

حدثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة عن محمد بن إسحاق، عن ابن شهاب الزهريّ، عن عبدالله بن عامر بن ربيعة وسالم بن عبدالله بن عمر؛ أنهما حدّثاه أنّ عمر إنما رجع بالناس عن حديث عبد الرحمن بن عوف؛ فلما رجع عمر رجع عمّال الأجناد إلى أعمالهم.

وأما سيف، فإنه روى في ذلك ما كتَب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان والربيع، قالوا: وقع الطاعون بالشام ومصر والعراق، واستقرّ بالشام، ومات فيه الناس الذين هم في كلّ الأمصار في المحرّم وصفر، وارتفع عن الناس وكتبوا بذلك إلى عمر ما خلا الشام، فخرج حتى إذا كان منها قريباً بلغه أنه أشدّ ما كان، فقال وقال الصحابة: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان بأرض وباء فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»، فرجع حتى ارتفع عنها؛ وكتبوا بذلك إليه وبما في أيديهم من المواريث، فجمع الناس في جمادى الأولى سنة سبع عشرة، فاستشارهم في البُلدان، فقال: إني قد بدا لي أنْ أطرف على

المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم، فأشيروا عليّ ـ وكعب الأحبار في القوم، وفي تلك السنة من إمارة عمر أسلَم ـ فقال كعب: بأيّها تريد أن تبدأ يا أمير المؤمنين؟ قال: بالعراق، قال: فلا تفعل؛ فإن الشرّ عشرة أجزاء والخير عشرة أجزاء، فجزء من الخير بالمشرق وتسعة بالمغرب، وإنّ جزءاً من الشرّ بالمغرب وتسعة بالمشرق، وبها قرن الشيطان، وكلّ داء عضال.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سعيد، عن الأصبغ، عن عليّ، قال: قام إليه عليّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، والله إنّ الكوفة للهجرة بعد الهجرة، وإنها لقبّة الإسلام، وليأتينّ عليها يوم لا يبقى مؤمن إلّا أتاها وحنّ إليها؛ والله ليُنصَرنّ بأهلها كما انتصر بالحجارة من قوم لوط.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المطرّح، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: وقال عثمان: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ المغرب أرض الشرّ، وإن الشرّ قسم مائة جزء؛ فجزء في الناس وسائر الأجزاء بها.

كتب إليّ السريّ، عن سيف، عن أبي يحيى التميميّ، عن أبي ماجد، قال: قال عمر: الكوفة رمح الله، وقبّة الإسلام، وجمجمة العرب، يكفُون ثغورَهم، ويمدّون الأمصار، فقد ضاعت مواريث أهل عَموَاس، فأبدأ بها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان وأبي حارثة والربيع بن النعمان، قالوا: قال عمر: ضاعت مواريث الناس بالشأم؛ أبدأ بها فأقسم المواريث، وأقيم لهم ما في نفسي، ثمّ أرجع فأتقلّب في البلاد، وأنبِذ إليهم أمري. فأتى عمر الشام أربعَ مرّات، مرّتين في سنة ست عشرة، ومرّتين في سنة سبع عشرة، لم يدخلها في الأولى من الآخرتين.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن بكر بن وائل، عن محمد بن مسلم، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قُسّم الحفظ عشرة أجزاء، فتسعة في التُّرك وجزء في سائر الناس، وقُسّم البخل عشرة أجزاء، فتسعة في فارس، وجزء في سائر الناس؛ وقسِّم السخاء عشرة أجزاء، فتسعة في السودان، وجزء في سائر الناس، وقُسِّم الشَّبَق عشرة أجزاء، فتسعة في الهند، وجزء في سائر الناس؛ وقسِّم الحياء عشرة أجزاء، فتسعة في النساء، وجزء في سائر الناس، وقسِّم الحسَد عشرة أجزاء، فتسعة في العرب وجزء في سائر الناس، وقُسم الكِبْر عشرة أجزاء، فتسعة في الرّوم وجزء في سائر الناس.

واختُلف في خبر طاعون عَموَاس وفي أيّ سنة كان، فقال ابن إسحاق ما حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عنه، قال: ثم دخلت سنة ثماني عشرة؛ ففيها كان طاعون عَمَواس، فتفانى فيها الناس، فتوفيَ أبو عبيدة بن الجراح؛ وهو أمير الناس، ومُعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسُهَيل بن عمرو، وعُتْبة بن سهيل، وأشرافُ الناس.

وحدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، قال: حُدِّثنا عن إسحاق بن عيسى، عن أبي مَعْشر، قال: كان طاعون عَمَواس والجابية في سنة ثمانيَ عشرة.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن شعبة بن الحجاج، عن المخارق بن عبدالله البَجَليّ، عن طارق بن شهاب البَجَليّ، قال: أتينا أبا موسى وهو في داره بالكوفة لنتحدّث عنده، فلما جلسنا قال: لا عليكم أن تخِفُّوا، فقد أصيب في الدار إنسان بهذا السقم، ولا عليكم أن تَنَزَّهوا عن هذه

القرية، فتخرجوا في فسيح بلادكم ونَزِهها حتى يُرفع هذا الوباء؛ سأخبركم بما يكرَه مما يتّقي، من ذلك أن يظن مَنْ خرج أنه لو أقام مات، ويظنّ مَن أقام فأصابه ذلك لو أنه لو خرج لم يصبه، فإذا لم يظنّ هذا المرء المسلم فلا عليه أن يخرج، وأن يتنزّه عنه؛ إني كنت مع أبي عبيدة بن الجرّاح بالشأم عام طاعون عَموَاس، فلما اشتغل الوجع، وبلغ ذلك عمرَ، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك، أمّا بعد، فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألاّ تضَعه من يدك حتى تقبل إليّ. قال: فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء، قال: يغفر الله لأمير المؤمنين! ثمّ كتب إليه: يا أميرَ المؤمنين، إن قد عرفت حاجتك إليّ، وإني في جند من المسلمين لا أجد نفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضيَ الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه؛ فحلِّلني من عزْمتك يا أمير المؤمنين، ودَعْني في جندي. فلما قرأ عمر الكتاب بكَى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أمات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأنْ قدْ. قال: ثم كتب إليه: سلام عليك، أما بعد، فإنك أنزلتَ الناس أرضاً غَمِقة، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نَزِهة. فلما أتاه كتابه دعاني فقال: يا أبَا موسى، إنّ كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى، فاخرج فارتدْ للناس منزلا حتى أتبعك بهم، فرجعتُ إلى منزلي لأرتحل، فوجدت صاحبتي قد أصيبت، فرجعت إليه، فقلت له: والله لقد كان في أهلي حَدَث، فقال: لعلّ صاحبتك أصيبت! قلت: نعم، فأمر ببعيره فرحِل له، فلما وضع رجلَه في غَرْزة طُعِن فقال: والله لقد أصِبْت. ثم سار بالناس حتى نزل الجابية، ورُفع عن الناس الوباء.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن شهر بن حوشب الأشعريّ، عن رابة ـ رجل من قومه، وكان قد خلَف على أمه بعد أبيه، كان شهد طاعون عَموَاس ـ قال: لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيباً، فقال: أيّها الناس، إنّ هذا الوجَع رحمة بكم ودعوة نبيكم محمد ﷺ، وموت الصالحين قبلَكم، وإنّ أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظَّه. فطُعِن فمات، واستُخلف على الناس مُعاذ بن جبل. قال: فقام خطيباً بعده، فقال: أيها الناس، إنّ هذا الوجع رحمة رَبكم، ودعوة نبيكم وموْت الصالحين قبلكم، وإن مُعاذاً يسأل الله أن يقسم لآل مُعاذ منه حظهم، فطُعِن ابنه عبد الرحمن بن مُعاذ، فمات. ثمّ قام فدعا به لنفسه، فطعِن في راحته؛ فلقد رأيتُه ينظر إليها ثم يقبّل ظهرَ كفه، ثم يقول: ما أحبّ أنّ لي بما فيك شيئاً من الدنيا، فلما مات استُخلف على الناس عمرو بن العاص، فقام خطيباً في الناس، فقال: أيها الناس، إنّ هذا الوجَع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتجبَّلوا منه في الجبال. فقال أبو وائلة الهُذَليّ: كذبت، والله لقد صحبتُ رسولَ الله ﷺ وأنت شرّ من حماري هذا! قال: والله ما أردّ عليك ما تقول، وايمُ الله لا نقيم عليه. ثم خرج وخرج الناس فتفرّقوا، ورفعه الله عنهم. قال: فبلغ ذلك عمرَ بن الخطاب من رأى عمرو بن العاص، فوالله ما كرهه.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن رجل، عن أبي قِلابة عبدالله بن زيد الجَرْميّ، أنه كان يقول: بلغني هذا من قول أبي عبيدة وقول مُعاذ بن جبل: إنّ هذا الوَجع رحمة بكم ودعوة نبيِّكم، وموت الصالحين قبلكم؛ فكنتُ أقول: كيف دعا به رسولُ الله ﷺ لأمّته، حتى حدّثني بعضُ من لا أتّهم عن رسول الله أنّه سمعه منه، وجاءه جبريل عليه السلام فقال: «إن فناء أمتك يكون بالطعن أو الطاعون»؛ فجعل رسول الله ﷺيقول: اللهم فنَاء الطاعون!» فعرفت أنها التي كان قال أبو عبيدة ومُعاذ.

حدثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: ولما انتهى إلى عمر مصابُ أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان، أمّر معاوية بن أبي سفيان على جُند دمشق وخراجها، وأمّرَ شُرحبيل بن حَسَنة على جُند الأردن وخراجها.

وأما سيف، فإنه زعم أن طاعون عَموَاس كان في سنة سبع عشرة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان وأبي حارثة والربيع بإسنادهم، قالوا: كان ذلك الطاعون - يعنون طاعون عَموَاس - موتاناً لم يُرَ مثله، طمع له العدوّ في المسلمين، وتخوّفت له قلوب المسلمين، كَثُر موته، وطال مكثُه، مكث أشهراً حتى تكلّم في ذلك الناس.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبدالله بن سعيد، عن أبي سعيد، قال: أصاب البصرة من ذلك موت ذريع، فأمر رجل من بني تميم غلاماً له أعجميًّا أن يحمل ابناً له صغيراً ليس له ولد غيره على حمار، ثم يسوق به إلى سفوان، حتى يلحقه. فخرج في آخر الليل ثم اتّبعه، وقد أشرف على سفَوان، ودنا من ابنه وغلامه، فرفع الغلام عَقيرته يقول:

لَنْ يُعْجِزوا الله على حِمَارِ ... ولا على ذي غُرَّةٍ مُطارِ
قد يُصْبِحُ المَوْتُ أمامَ الساري

فسكت حتى انتهى إليهم، فإذا هم هم؛ قال: ويحك، ما قلت! قال: ما أدري، قال: ارجعْ، فرجع بابنه، وعلم أنه قد أسمع آيةً وأرِيَها.

قال: وعزم رجل على الخروج إلى أرض بها الطاعون فتردد بعدما طُعن، فإذا غلام له أعجميّ يحدو به:

يأيُّها المُشْعَرُ هَمّاً لا تُهَمّ ... إنَّك إنْ تُكْتَبُ لك الحمَّى تُحَمُّ

وفي هذه السنة - أعني سنة سبع عشرة - كان خروج عمر إلى الشأم الخرْجة الأخيرة فلم يعد إليها بعد ذلك في قول سيف؛ وأما ابن إسحاق فقد مضى ذكره.

ذكر الخبر عن سيف في ذلك، والخبر عمّا ذكره عن عمر في خرجته تلك أنه أحدث في مصالح المسلمين:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان وأبي حارثة والرّبيع، قالوا: وخرج عمر وخلف عليًّا على المدينة، وخرج معه بالصحابة وأغذُّوا السير واتّخذَ أيلة طريقاً؛ حتى إذا دنا منها تنحّى عن الطريق، واتّبعه غلامه، فنزل فبال، ثم عاد فركب بعير غلامه، وعلى رَحْله فَرْو مقلوب، وأعطى غلامه مركبه، فلمّا تلقّاه أوائلُ الناس، قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم - يعني نفسه - وذهبوا هم إلى أمامهم، فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلَة فنزلها وقيل للمتلقّين: قد دخل أميرُ المؤمنين أيْلة ونزلها. فرجعوا إليه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: لما قدم عمر بن الخطاب أيْلة، ومعه المهاجرون والأنصار دفع قميصاً له كرابيس قد انجابَ مؤخّره عن قَعْدته من طول السير إلى الأُسقفّ، وقال: اغسل هذا ورقعه، فانطلق الأسقفّ بالقميص، ورقعه، وخاط له آخر مثلَه، فراح به إلى عمر، فقال: ما هذا؟ قال الأسقفّ: أمّا هذا فقميصك قد غسلتُه ورقعته، وأما هذا فكسوة لك منّي. فنظر

إليه عمر ومسحه، ثم لبس قميصه، وردّ عليه ذلك القميص، وقال: هذا أنشفُهما للعرَق.

كتب إليّ السريّ، عن سيف، عن عطيّة وهلال، عن رافع بن عمر، قال: سمعتُ العباس بالجابية يقول لعمر: أربع مَن عمِل بهنّ استوجب العدل: الأمانة في المال، والتسوية في القَسْم، والوفاء بالعِدة، والخروج من العيوب؛ نظِّف نفسَك وأهلك.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب عن سيف، عن أبي عثمان والربيع وأبي حارثة بإسنادهم، قالوا: قسم عمر الأرزاق، وسمَّى الشواتيَ والصوائف، وسدّ فروجَ الشأم ومسالِحها، وأخذ يدور بها، وسمَّى ذلك في كلّ كُورة، واستعمل عبدالله بن قيس على السواحل من كلّ كورة، وعزل شُرحبيل، واستعمل معاوية، وأمَّر أبا عبيدة وخالداً تحته، فقال له شرحبيل: أعَن سُخطة عزلتَني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، إنك لكما أحبّ، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل، قال: نعم، فاعذرْني في الناس لا تُدْركني هُجْنة، فقام في الناس، فقال: أيّها الناس، إني والله ما عزلتُ شُرحبيل عن سخطة، ولكني أردت رجلاً أقوى من رجل. وأمَّر عمرو بن عَبَسة على الأهراء، وسمى كل شيء، ثم قام في الناس بالوَدَاع.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي ضَمْرة وأبي عمرو، عن المستورِد، عن عديّ بن سُهيل، قال: لما فرغ من فروجه وأموره قسم المواريث، فورّث بَعضَ الورثة من بعض، ثم أخرجها إلى الأحياء من وَرثة كلّ امرىء منهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ: وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهل بيته، فلم يرجع منهم إلا أربعة، فقال المهاجر بن خالد بن الوليد:

مَنْ يَسْكُنِ الشأمَ يُعَرِّسْ بِه ... والشأمُ إن لم يُفِنِنا كارِبُ
أفنَى بَني رَيْطَةَ فُرسانُهُمْ ... عِشرون لم يُقْصَصْ لهم شارِبُ
ومِنْ بَني أعمامِهِمْ مِثلُهم ... لِمِثلِ هذا أعْجَبَ العاجِبُ
طعنا وطاعوناً منايَاهُمُ ... ذلك ما خطّ لنا الكاتِبُ

قال: وقَفَل عمر من الشأم إلى المدينة في ذي الحجة، وخطب حين أراد القفول، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: ألا إني قد ولِّيتُ عليكم وقضيتُ الذي عليّ في الذي ولّاني الله من أمركم، إن شاء الله قسطْنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغنا ما لديكم، فجنَّدنا لكم الجنود، وهيَّأنا لكم الفروج، وبوّأناكم ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئُكم وما قاتلتم عليه من شأمكم، وسمّينا لكم أطماعكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم، وأرزاقكم ومغانمكم فمن علم عِلمَ شيء ينبغي العمل به فبلّغنا نعملْ به إن شاء الله، ولا قوّة إلّا بالله. وحضرت الصلاة، وقال الناس: لو أمرتَ بلالا فأذّن! فأمره فأذّن، فما بقيَ أحدٌ كان أدرك رسولَ الله ﷺ وبلال يؤذّن له إلّا بكى حتى بلّ لحيته، وعمر أشدّهم بكاء، وبكى مَنْ لم يدركه ببكائهم، ولذكره ﷺ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان وأبي حارثة، قالا: فما زال خالد على قِنَّسرين حتى غزا غَزْوته التي أصاب فيها، وقسم فيها ما أصاب لنفسه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي المجالد مثله. قالوا: وبلغ عمرَ أنّ خالداً دخل

الحمام. فتدلّك بعد النورة بثخين عُصفر معجون بخمر؛ فكتب إليه: بلغني أنك تدلّكت بخمر؛ وإنّ الله قد حرّم ظاهرَ الخمر وباطنه، كما حرّم ظاهر الإثم وباطنه، وقد حرّم مسّ الخمر إلاّ أن تغسل كما حرّم شربها، فلا تُمِسّوها أجسادكم فإنّها نَجَس، وإن فعلتم فلا تعودوا.

فكتب إليه خالد: إنّا قتلناها فعادت غَسُولا غير خمر. فكتب إليه عمر: إنّي أظن آل المغيرة قد ابتُلُوا بالجفاء، فلا أماتكم الله عليه! فانتهى إليه ذلك.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ أدرب خالد بن الوليد وعياض بن غَنْم في رواية سيف عن شيوخه.

ذكر من قال ذلك:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان وأبي حارثة والمهلّب، قالوا: وأدرب سنة سبع عشرة خالد وعياض، فسارا فأصابا أموالا عظيمة، وكانا توجّها من الجابية، مرجِعَ عمر إلى المدينة، وعلى حِمْص أبو عبيدة وخالد تحت يديه على قِنّسرين، وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأردنّ معاوية، وعلى فِلَسطين علقمة بن مجزّز، وعلى الأهْراء عمرو بن عبَسة، وعلى السواحل عبدالله بن قيس، وعلى كلّ عَمَل عامل. فقامت مسالح الشأم ومصر والعراق على ذلك إلى اليوم لم تَجُزْ أمّة إلى أخرى عملَها بعدُ؛ إلاّ أن يقتحموا عليهم بعد كُفْرٍ منهم، فيقدّموا مسالحهم بعد ذلك، فاعتدل ذلك سنة سبع عشرة.

كتب إلى السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي المجالد وأبي عثمان والربيع وأبي حارثة، قالوا: ولما قَفَل خالد وبلغ الناسَ ما أصابت تلك الصّائفة انتجعه رجال، فانتجع خالداً رجالٌ من أهل الآفاق، فكان الأشعث بن قيس ممّن انتجع خالداً بقِنّسرين، فأجازه بعشرة آلاف. وكان عمر لا يَخْفَى عليه شيء في عمله، كُتب إليه من العراق بخروج مَن خرج، ومن الشأم بجائزة من أجِيز فيها ـ فدعا البريد، وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقِله بعمامته، وينزع عنه قلنسُوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث؛ أمن ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقرّ بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف. واعزله على كلّ حال، وأضمم إليك عمله. فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلَس لهم على المِنبر، فقام البريد فقال: يا خالد، أمِن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً، فقام بلال إليه، فقال: إنّ أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال: ما تقول! أمن مالك أم من إصابةٍ؟ قال: لا بل من مالي، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عمّمه بيده، ثم قال: نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخّم ونخدم موالينَا، قالوا: وأقام خالد متحيّراً لا يدري أمعزول أم غيرُ معزول؟ وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمرَ أن يقدم ظنّ الذي قد كان، فكتب إليه بالإقبال، فأتى خالد أبا عبيدة، فقال: رحمك الله، ما أردت إلى ما صنعت! كتمتَني أمراً كنت أحبّ أن أعلمه قبل اليوم! فقال أبو عبيدة: إنّي والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدًّا، وقد علمت أن ذلك يروعك. قال: فرجع خالد إلى قنّسرين، فخطب أهل عمله وودّعهم وتحمّل، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم، ثمّ خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر، فشكاه وقال: لقد شكوتك إلى المسلمين؛ وبالله إنّك في أمري غير مجمِل يا عمر، فقال عمر: من أين هذا الثَّرَاء؟ قال: من الأنفال والسُّهمان، ما زاد على الستين ألفاً فلك. فقوّم عمر عُروضه فخرجت إليه

عشرون ألفاً، فأدخلها بيت المال. ثم قال: يا خالد، والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتِبني بعد اليوم على شيء.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبدالله بن المستورِد، عن أبيه، عن عديّ بن سهيل، قال: كتب عمر إلى الأمصار: إني لم أعزل خالداً عن سُخْطة ولا خيانة، ولكنّ الناس فتِنوا به، فخفت أن يُوكّلوا إليه ويبتَلوا به، فأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع، وألّا يكونوا بعرَض فتنة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشِّر، عن سالم، قال: لما قدم خالد على عمر قال عمر متمثّلا:

صَنَعْتَ فلَمْ يصْنَعْ كصُنْعكَ صانِعٌ ومـا يَصْنَعِ الأقْـوامُ فـاللّهُ يَصْنَـعُ

فأغرمه شيئاً، ثمّ عوّضه، وكتب فيه إلى الناس بهذا الكتاب ليعذره عندهم وليبصّرَهم.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ اعتمر عمر، وبنى المسجد الحرام ـ فيما زعم الواقديّ ـ ووسّع فيه، وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على أقوام أبوْا أن يبيعوا، ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها.

قال: وكان ذلك الشهر الذي اعتمر فيه رجب، وخلّف على المدينة زيد بن ثابت.

قال الواقديّ: وفي عمرته هذه أمر بتجديد أنصاب الحرَم، فأمر بذلك مخرمة بن نوفل والأزهر بن عبد عوف وحُوَيطب بن عبد العزيّ وسعيد بن يربوع.

قال: وحدّثني كَثير بن عبد الله المزنيّ، عن أبيه، عن جدّه، قال: قدمنا مع عمر مكة في عمرته سنة سبع عشرة، فمرّ بالطريق فكلّمه أهل المياه أن يبتنوا منازل بين مكة والمدينة ـ ولم يكن قبل ذلك بناء ـ فأذن لهم، وشرط عليهم أنّ ابن السبيل أحقّ بالظلّ والماء.

قال: وفيها تزوّج عمر بن الخطاب أمّ كلثوم ابنة عليّ بن أبي طالب، وهي ابنة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ودخل بها في ذي القعدة.

قال: وفي هذه السنة ولّى عمر أبا موسى البصرة، وأمره أن يُشخِص إليه المغيرة في ربيع الأول ـ فشهد عليه ـ فيما حدّثني معمر، عن الزهريّ، عن ابن المسيَّب ـ أبو بَكْرة، وشِبْل بن معبد البَجَليّ، ونافع بن كلدَة، وزياد.

قال: وحدّثني محمد بن يعقوب بن عُتبة، عن أبيه، قال: كان يختلف إلى أمّ جميل، امرأة من بني هلال؛ وكان لها زوْج هلك قبل ذلك من ثَقيف، يقال له الحجّاج بن عُبَيد، فكان يدخل عليها، فبلغ ذلك أهلَ البصرة، فأعظموه، فخرج المغيرة يوماً من الأيام حتى دخل عليها، وقد وضعوا عليها الرّصد، فانطلق القوم الذين شهدوا جميعاً، فكشفوا الستر، وقد واقعها. فوفد أبو بَكْرة إلى عمر، فسمع صوته وبينه وبينه حجاب، فقال: أبو بكْرة؟ قال: نعم، قال: لقد جئت لشرّ، قال: إنما جاء بي المغيرة، ثم قصّ عليه القصّة، فبعث عمر أبا موسى الأشعريّ عاملاً، وأمره أن يبعث إليه المغيرة، فأهدى المغيرة لأبي موسى عقيلة، وقال: إني رضيتها لك، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر.

قال الواقديّ: وحدّثني عبدُ الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان، قال: حضرتُ عمر حين قُدِم بالمغيرة، وقد تزوّج امرأة من بني مرّة، فقال له: إنك لفارغ القلب، طويل الشَّبَق، فسمعتُ عمر يسأل عن المرأة. فقال: يقال لها الرقطاء، وزوجها من ثقيف، وهو من بني هلال.

قال أبو جعفر: وكان سبب ما كان بين أبي بكْرة والشهادة عليه ـ فيما كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد والمهلّب وطلحة وعمرو بإسنادهم، قالوا: كان الذي حدث بين أبي بَكْرة والمغيرة بن شعبة أنّ المغيرة كان يناغيه، وكان أبو بَكْرة ينافره عند كلّ ما يكون منه، وكانا بالبصرة، وكانا متجاورَيْن بينهما طريق، وكانا في مَشْربتيْن متقابلتين لهما في داريْهما في كلّ واحدة منهما كُوّة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بَكْرة نفرٌ يتحدّثون في مشربته، فهبّت ريح، ففتحت باب الكوّة، فقام أبو بكرة ليَصْفِقه، فبصُر بالمغيرة، وقد فتحت الريح باب كوّة مشربته، وهو بين رِجْلَي امرأة، فقال للنّفر: قوموا فانظروا، فقاموا فنظروا، ثم قال: اشهدوا، قالوا: مَن هذه؟ قال: أمّ جميل ابنة الأفقم ـ وكانت أمّ جميل إحدى بني عامر بن صعصعة، وكانت غاشيةً للمغيرة، وتغشى الأمراء والأشراف ـ وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها ـ فقالوا: إنما رأينا أعجازاً، ولا ندري ما الوجه؟ ثم إنهم صمّموا حين قامت، فلما خرج المغيرة إلى الصلاة حال أبو بَكْرة بينه وبين الصلاة وقال: لا تصلّ بنا. فكتبوا إلى عمر بذلك، وتكاتبوا، فبعث عمر إلى أبي موسى، فقال: يا أبا موسى، إني مستعملك؛ إني أبعثك إلى أرض قد باضَ بها الشيطان وفرّخ، فالزم ما تعرف، ولا تستبدلْ فيستبدل الله بك. فقال: يا أميرَ المؤمنين، أعنّي بعدّة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فإنّي وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلّا به. فاستعِن بمن أحببتَ. فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً: منهم أنس بن مالك وعمران بن حُصَين وهشام بن عامر. ثمّ خرج أبو موسى فيهم حتى أناخ بالمِرْبد، وبلغ المغيرة أنّ أبا موسى قد أناخ بالمِرْبد فقال: والله ما جاء أبو موسى زائراً، ولا تاجراً، ولكنّه جاء أميراً. فإنهم لفي ذلك، إذ جاء أبو موسى حتى دخل عليهم، فدفع إليه أبو موسى كتاباً من عمر، وإنه لأوجزُ كتاب كتَب به أحد من الناس؛ أربعَ كلِم عزل فيها، وعاتب، واستحثّ، وأمّر: أما بعد، فإنه بلغني نبأ عظيم، فبعثتُ أبا موسى أميراً، فسلّم إليه ما في يدك، والعجَل. وكتبَ إلى أهل البصرة: أمّا بعدُ، فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم، ليأخذ لضعيفكم من قويّكم، وليقاتل بكم عدوّكم وليدفع عن ذمّتكم، وليُحصيَ لكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم، ولينقّي لكم طرقكم.

وأهدى له المغيرة وليدةً من مولّدات الطائف تدعَى عَقيلة، وقال: إني قد رضيتُها لك ـ وكانت فارهة ـ وارتحل المغيرة وأبو بكْرة ونافع بن كلَدة وزياد وشِبْل بن معبد البَجَليّ حتى قدِموا على عمر، فجمع بينهم وبين المغيرة، فقال المغيرة: سلْ هؤلاء الأعبُد كَيف رأوْني؛ مستقبلَهم أو مستدبَرهم؟ وكيف رأوُا المرأة أو عرفوها؟ فإن كانوا مستقبليّ فكيف لم أستتر، أو مستدبريّ فبأيّ شيء استحلّوا النظر إليّ في منزلي على امرأتي! والله ما أتيت إلّا امرأتي ـ وكانت شبهَها ـ فبدأ بأبي بكْرة، فشهد عليه أنه رآه بين رجليْ أمّ جميل وهو يدخله ويخرجه كالمِيل في المكحلة، قال: كيف رأيتَهما؟ قال مستدبِرَهما، قال: فكيف استثبتّ رأسها؟ قال: تحاملت. ثم دعا بِشبْل بن معبد، فشهد بمثل ذلك، فقال: استدبرتَهما أو استقبلتَهما؟ قال: استقبلتُهما. وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكْرة، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم؛ قال: رأيته جالساً بين رجلي امرأة، فرأيت قدمين مخضوبتين تخفِقان، واستين

مكشوفتين، وسمعت حَفَزاناً شديداً. قال: هل رأيت كالميل في المكحلة؟ قال: لا، قال: فهل تعرف المرأة؟ قال: لا، ولكن أشبّهها، قال: فتنحّ، وأمر بالثلاثة فجلدوا الحدّ، وقرأ: ﴿ فإذْ لَمْ يَأْتُوا بالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُون ﴾ (١)، فقال المغيرة: اشفني من الأعبد، فقال: اسكت أسكت الله نأمتَك! أما والله لو تمّت الشهادة لرجمتك بأحجارك.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ فتِحت سوق الأهواز ومَنَاذر ونهر تيرَى في قول بعضهم، وفي قول آخرين: كان ذلك في سنة ستّ عشرة من الهجرة.

ذكر الخبر عن سبب فتح ذلك وعلى يديْ مَن جرى:

كتب إليّ السريّ، يذكر أن شعيباً حدّثه عن سيف بن عمر، عن محمد وطلحة والمهَلّب وعمرو، قالوا: كان الهُرمزان أحدَ البيوتات السبعة في أهل فارس، وكانت أمته مِهْرَجان قَذَق وكُوَر الأهواز، فهؤلاء بيوتات دون سائر أهل فارس، فلما انهزم يوم القادسيّة كان وجهُه إلى أمته، فملكهم وقاتل بهم مَن أرادهم، فكان الهُرْمزان يُغير على أهل مَيْسان ودسْتِمَيْسان من وجهين، من مَنَاذر ونهرتيرَى، فاستمدّ عُتبة بن غَزْوان سعداً، فأمدّه سعد بنعيم بن مُقَرّن ونعيم بن مسعود، وأمرهما أن يأتيا أعلى مَيْسان ودَسْتِمَيْسَان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيرَى. ووجّه عُتَبة بن غَزْوان سُلْمى بن القينْ وحَرْملة بن مُرَيطة ـ وكانا من المهاجرين مع رسول الله ﷺ، وهما من بني العَدَوّية من بني حَنْظلة ـ فنزلا على حدود أرض مَيْسان ودَسْتِمَيْسَان، بينهم وبين مَناذر، ودعَوا بني العم، فخرج إليهم غالب الوائليّ وكليب بن وائل الكليبيّ، فتركا نُعيماً ونُعيماً ونكبا عنهما، وأتيا سُلْمى وحَرْملة، وقالا: أنتما من العشيرة، وليس لكما مَتْرَك؛ فإذا كان يوم كذا وكذا فانهدا للهرْمزان، فإنّ أحدنا يثور بمَناذر والآخر بنهر تِيرى؛ فنقتل المقاتلة، ثم يكون وجهُنا إليكم، فليس دون الهُرْمزان شيء إن شاء الله. ورجعا وقد استجابا واستجاب قومهما بنو العمِ بن مالك.

قال: وكان من حديث العَمِي؛ والعَمِي مرّة بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ـ أنه تَنَخَتْ عليه وعلى العُصَيّة بن امرىء القيس أفناء معدّ فعمّاه عن الرشد مَن لم ير نصرَه فارسَ على آل أرْدَوان، فقال في ذلك كعب بن مالك أخوه ـ ويقال: صُديّ بن مالك:

لقد عَمِ عنها مُرَّةُ الخيرِ فانصمىَ ... وصَمَّ فلَمْ يَسَمعْ دُعاءَ العَشائرِ
ليتْنَخ عنَّا رَغْبةً عن بِلادِهِ ... ويَطْلبَ مُلْكاً عالِياً في الأساوِرِ

فبهذا البيت سمي العَمِ؛ فقيل بنو العمِ؛ عمّوه عن الصواب بنصره أهل فارس كقول الله تبارك وتعالى: ﴿فعَمُوا وَصَمُّوا ﴾ (٢)؛ وقال يربوع بن مالك:

لَقَدْ علِمتْ عُليا مَعَدٍّ بأنّنا ... غَداةَ التَّباهي غُرُّ ذاك التَّبادُرِ
تَنَخْنا على رَغْم العُداة ولَمْ نُنِخْ ... بحيّ تميمٍ والعَديدِ الجُماهِرِ
نَفَيْنا عَنِ الفُرْسِ النَّبيطَ فَلمْ يَزَلْ ... لَنا فيهِمُ إحْدَى الهنَاتِ البَهاتِرِ

---

(١) سورة النور: ٣٣.

(٢) سورة المائدة ٧١.

إذا العَـرَبُ العَلْيـاءُ جـاشت بحُـورُهـا فَخَـرْنـا عَلَى كـلِّ البُحـورِ آلـزواخـرِ

وقال أيّوب بن العُصيَة بن امرىء القيس:

لَنحْنُ سَبَقْنـا بـالـتُّنُـوخ الـقَبـائِـلا وَعَمْـداً تَنخْنـا حَيْثُ جـاؤوا قَنـابِـلا
وَكُنّـا مُلوكـاً قَـدْ عَـززْنـا الأوائـلا وَفي كـلِّ قَـرْن قَـدْ مَلَكْنـا الحَـلائـلا

فلما كانت تلك الليلة ليلة الموعد من سُلمى وحرملة وغالب وكُلَيب، والهُرْمزان يومئذ بين نهر تيرَى بين دُلُث، خرج سُلْمَى وحَرْملة صبيحتَها في تعبية، وأنهضا نُعيا ونُعيا فالتقوا هم والهرمزان بين دُلُث ونهر تِيرى، وسُلْمى بن القَيْن على أهل البصرة، ونُعيم بن مقرّن على أهل الكوفة. فاقتتلوا فبيناهم في ذلك أقبل المدد من قبَل غالب وكُليب، وأتى الهرمزانَ الخبرُ بأنّ مَناذر ونهر تيرَى قد أخِذتَا، فكسر الله في ذرْعه وذَرْع جنده، وهزمه وإيّاهم، فقتلوا منهم ما شاؤوا، وأصابوا منهم ما شاؤوا، وأتبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دُجَيل، وأخذوا ما دونه، وعسكروا بحيال سوق الأهواز، وقد عبر الهُرْمزان جسرَ سوق الأهواز، وأقام بها، وصار دُجَيل بين الهُرْمزان وحَرْملة وسُلْمَى ونُعيم ونُعَيم وغالب وكليب.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن المغيرة العبْديّ، عن رجل من عبد القيس يدعى صُحاراً، قال: قدمتُ على هَرِم بن حيّان ـ فيما بين الدّلوث ودُجيل ـ بجلال من تَمْر، وكان لا يصبر عنه، وكان جلّ زادِه إذا تزوّد التّمر، فإذا فنِيَ انتخب له مزاودَ من جِلال وهم ينفرون فيحملها فيأكلها ويطعمها حيثُما كان من سهل أو جبَل.

قالوا: ولما دهم القوم الهرمزان ونزلوا بحياله من الأهواز رأى ما لا طاقة له به، فطلب الصلح، فكتبوا إلى عُتْبة بذلك يستأمرونه فيه، وكاتبه الهرمزان، فأجاب عُتْبة إلى ذلك على الأهواز كلّها ومِهْرَجان قَذَق، ما خلا نهر تيرى ومَناذر، وما غلبوا عليه من سوق الأهواز، فإنه لا يُردُّ عليهم ما تنقّذْنا. وجعل سُلمى بن القيْن على مَناذر مسلحةً وأمْرَها إلى غالب، وحرملة على نهر تيرَى وأمرَها إلى كليب؛ فكانا على مسالح البصرة وقد هاجرت طوائف بني العَم، فنزلوا منازلهم من البصرة، وجعلوا يتتابعون على ذلك، وقد كتب بذلك عُتْبة إلى عمر، ووفّد وفْداً منهم سُلمى، وأمرَه أن يستخلف على عمله، وحرملةُ ـ وكانا من الصحابة ـ وغالب وكليب، ووفَد وفود من البصرة يومئذ، فأمرهم أن يرفعوا حوائجهم، فكلُّهم قال: أما العامّة فأنت صاحبها، ولم يبق إلا خواصّ أنفسنا، فطلبوا لأنفسهم، إلاّ ما كان من الأحنف بن قيس، فإنه قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنك لكما ذكروا، ولقد يعزب عنك ما يحقّ علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامّة، وإنّما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر، ويسمع بآذانهم، وإنّا لم نزل ننزل منزلاً بعد منزل حتى أرَزنا إلى البرّ، وإنّ إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حَدَقة البعير الغاسقة؛ من العيون العذاب، والجنان الخصاب، فتأتيهم ثمارهم ولم تُخْضَد، وإنّا معشَر أهل البصرة نزلنا سَبَخة هَشّاشة، زعِقة نشّاشة، طَرَف لها في الفلاة وطَرَف لها في البحر الأُجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مَرِيء النعامة. دارنا فعْمة، ووظيفتنا ضيّقة، وعددنا كثير، وأشرافنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير، ودرهمنا كبير، وقفيزنا صغير؛ وقد وسّع الله علينا، وزادنا في أرضنا، فوسِّعْ علينا يا أمير المؤمنين، وزدنا وظيفة تُوَظَّف علينا، ونعيش بها. فنظر إلى منازلهم التي كانوا بها إلى أن صاروا إلى الحَجَر فنفَّلهموه وأقطعهموه، وكان مما كان لآل كسرى، فصار فيئاً فيما بين دِجلة والحَجَر، فاقتسموه، وكان سائر ما كان لآل

كسرى في أرض البصرة على حال ما كان في أرض الكوفة يُنزلونه مَن أحبُّوا، ويقتسمونه بينهم؛ لا يستأثرون به على بدء ولا ثِنًى، بعدما يرفعون خمسة إلى الوالي. فكانت قطائع أهل البصرة نصفين: نصفها مقسوم، ونصفها متروك للعسكر وللاجتماع؛ وكان أصحاب الألفين ممّن شهد القادسيّة. ثم أتى البصرة مع عُتْبة خمسة آلاف، وكانوا بالكوفة ثلاثين ألفاً، فألحق عمر أعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الألفين حتى ساواهم بهم، ألحق جميع مَنْ شهد الأهواز. ثم قال: هذا الغلام سيّد أهل البصرة، وكتب إلى عُتْبة فيه بأن يسمع منه ويشرب برأيه، وردّ سُلمى وحَرْملة وغالباً وكليبا إلى مَناذر ونهر تِيرَى، فكانوا عُدّة فيه لكونٍ إن كان، وليميّزوا خراجها.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: بينا الناس من أهل البصرة وذمّتهم على ذلك وقع بين الهُرْمزان وبين غالب وكُليب في حدود الأرَضين اختلاف وادّعاء، فحضر ذلك سُلْمى وحَرْملة لينظرا فيما بينهم، فوجدا غالباً وكُلَيْباً محقَّيْن والهرمزان مبطلا، فحالا بينه وبينهما، فكفر الهرمزان أيضاً ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد، فكثُف جنده. وكتب سُلْمى وحرملة وغالب وكليب ببغْيِ الهُرمزان وظلْمه وكفره إلى عُتبة بن غَزْوان، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر يأمره بأمره، وأمدّهم عمر بحُرقوص بن زهير السعديّ، وكانت له صحبة من رسول الله ﷺ، وأمّره على القتال وعلى ما غلب عليه. فنهَد الهُرمزان بمَن معه وسُلْمى وحَرْملة وغالب وكليب، حتى إذا انتهوا إلى جسر سوق الأهواز أرسلوا إلى الهرمزان: إمّا أن تعبُرُوا إلينا وإمّا أن نعبُر إليكم، فقال: اعبرُوا إلينا، فعبروا من فوق الجسر، فاقتتلوا فوق الجسْر ممّا يلي سوق الأهواز، حتى هزم الهرمزان ووجّه نحو رامهرمز، فأخذ على قنطرة أربك بقرية الشّغَر حتى حلّ برامَهُرمز، وافتتح حُرقوص سوقَ الأهواز، فأقام بها ونزل الجبل، واتّسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تُسْتَر، ووضع الجزية، وكتب بالفتح والأخماس إلى عمر، ووفّد وفداً بذلك، فحمِد الله، ودعا له بالثبات والزيادة. وقال الأسود بن سَرِيع في ذلك ـ وكانت له صحبة:

لَعَمْرُكَ ما أَضاعَ بنو أبينا ... ولكن حافَظوا فيمَنْ يُطيعُ
أطاعوا رَبَّهُمْ وَعَصاهُ قَوْمٌ ... أضاعوا أمْرَهُ فيمَنْ يُضيعُ
مَجُوسٌ لا يُنَهْنِهُها كِتابٌ ... فَلاقَوْا كَبَّةً فيها قُبُوعُ
ووَلّى الهُرمُزانُ على جَوَادٍ ... سَريعِ الشَّدِّ يَثْفِنُه الجميعُ
وخَلّى سُرَّةَ الأهواز كَرْهاً ... غَداةَ الجِسْرِ إذ نَجَمَ الرَّبيعُ

وقال حُرْقوص:

غَلَبْنا الهُرْمزَانَ على بِلادٍ ... لها في كلِّ ناحِيَةٍ ذَخائرْ
سَواءٌ بَرُّهمْ والبَحْرُ فيها ... إذا صارَتْ نَواجِبُها بَواكِرْ
لها بَحْرٌ يَعِجُّ بِجَانِبَيْه ... جَعَافِرُ لا يَزَالُ لها زَواخِرْ

وفيها فتحت تُسْتَر في قول سيف وروايته ـ أعني سنة سبع عشرة ـ وقال بعضهم: فتحت سنة ستّ عشرة، وبعضهم يقول: في سنة تسع عشرة.

ذكر الخبر عن فتحها:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: لما انهزم الهرمزان

يوم سوق الأهواز، وافتتح حرقوص بن زهير سوق الأهواز، أقام بها، وبعث جَزْء بن معاوية في أثره بأمر عمر إلى سُرَّق، وقد كان عهد إليه فيه: إن فتح الله عليهم أن يُتبعه جَزْءاً، ويكون وجهه إلى سُرَّق. فخرج جَزء في أثر الهرمزان، والهُرمزان متوجِّه إلى رامهرمُز هارباً، فما زال يقتلهم حتى انتهى إلى قرية الشِّغر، وأعجزه بها الهرمزان؛ فمال جَزْء إلى دورق من قرية الشِّغر؛ وهي شاغرة برجلها ـ وَدَوْرق مدينة سُرّق فيها قوم لا يطيقون منعها ـ فأخذها صافية، وكتب إلى عمر بذلك وإلى عُتْبة، وبدعائه مَن هرب إلى الجزاء والمَنعة، وإجابتهم إلى ذلك. فكتب عمر إلى جَزْء بن معاوية وإلى حُرقوص بن زهير بلزوم ما غَلبا عليه، وبالمقام حتى يأتيهما أمره، وكتب إليه مع عُتبة بذلك، ففعلا واستأذن جَزء في عمران بلاده عمَر، فأذن له، فشقّ الأنهار، وعمر الموات. ولما نزل الهُرْمزان رامَهُرمُز وضاقت عليه الأهواز والمسلمون حُلاّلٌ فيها فيما بين يديه، طلب الصلح، وراسل حُرقوصاً وجَزءاً في ذلك، فكتب فيه حُرقوص إلى عمر، فكتب إليه عمر وإلى عُتبة، يأمره أن يقبل منه على ما لم يفتحوا منها على رامهرمز وتُستَر والسوس وجُنْدَى سابور، والبُنْيان ومِهرجا نقَذَق، فأجابهم إلى ذلك، فأقام أمراء الأهواز على ما أسند إليهم، وأقام الهرمزان على صلحة يجبَى إليهم ويمنعونه، وإن غاوره أكراد فارسٍ أعانوه وذبُّوا عنه. وكتب عمر إلى عُتْبة أن أوفد عليّ وفداً من صُلحاء جند البصرة عشرة، فوفّد إلى عمر عشرةً، فيهم الأحنف. فلما قدم على عمر قال: إنك عندي مصدَّق، وقد رأيتك رجلاً، فأخبرني أن ظُلِمت الذّمة، المظلمة نفروا أم لغير ذلك؟ فقال: لا بل لغير مظلِمة، والناس على ما تحبْ. قال: فنعم إذاً! انصرفوا إلى رحالكم. فانصرف الوفد إلى رحالهم، فنظر في ثيابهم فوجد ثوباً قد خرج طرفة من عيبةٍ فشمّه، ثم قال: لِمَنْ هذا الثوب منكم؟ قال الأحنف: لي، قال: فبكم أخذته؟ فذكر ثمناً يسيراً، ثمانية أو نحوها، ونقص ممّا كان أخذَه به ـ وكان قد أخذه باثني عشر ـ قال: فهلاّ بدون هذا، ووضعتَ فَضْلته موضعاً تغني به مسلماً! حُصُّوا وضعوا الفُضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم، ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم؛ إن نظر امرؤ لنفسه وقدّم لها يُخْلَفْ له. وكتب عمر إلى عُتبة أن أعزب الناس عن الظلم، واتّقوا واحذروا أن يُدال عليكم لغدرٍ يكون منكم أو بغْيٍ، فإنكم إنّما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدّم إليكم فيما أخذ عليكم. فأوفُوا بعهد الله، وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً.

وبلغ عمرَ أنّ حُرقوصاً نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه، والجبل كؤود يشقّ على مَن رامه. فكتب إليه: بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه إلاّ على مشقّة، فأسهِل ولا تشقّ على مسلم ولا معاهد، وقم في أمرك على رِجْل تدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا، ولا تدركنّك فترة ولا عجلة، فتكدر دنياك، وتذهب آخرتك.

ثمّ إن حرقوصاً تحرّر يوم صِفِّين وبقيَ على ذلك، وشهد النِّهروان مع الحَرُوريّة.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ غزا المسلمون أرضَ فارس من قِبَل البحرين فيما زعم سيف ورواه.

ذكر الخبر بذلك:

كتب إليّ السريّ، يقول: حدّثنا شعيب، قال: حدّثنا سيف، عن محمد والمهلّب وعمرو، قالوا: كان

المسلمون بالبصرة وأرضها ـ وأرضها يومئذ سوادها، والأهواز على ما هم عليه إلى ذلك اليوم، ما غلبوا عليه منها ففي أيديهم، وما صولحوا عليه منها ففي أيدي أهله، يؤدّون الخراج ولا يدخل عليهم، ولهم الذّمة والمَنعة ـ وعميد الصلح الهُرمزان. وقد قال عمر: حسبُنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز، وددْت أنّ بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم، كما قال لأهل الكوفة: وددت أنّ بينهم وبين الجبل جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه، ولا نصل إليهم.

وكان العلاء بن الحضرميّ على البحرين أزمانَ أبي بكر، فعزله عمر، وجعل قدامةَ بن المظعون مكانه، ثم عزَل قدامة وردّ العلاء، وكان العلاء يباري سعداً لصدع صدعه القضاء بينهما، فطار العلاء على سعد في الردّة بالفضل؛ فلما ظفر سعد بالقادسيّة، وأزاح الأكاسرة عن الدّار، وأخذ حدود ما يلي السواد، واستعلَى، وجاء بأعظم مما كان العلاء جاء به، سرّ العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم، فرجا أن يُدال كما قد كان أديل، ولم يقدّر العلاء ولم ينظر فيما بين فضل الطاعة والمعصية بجدّ، وكان أبو بكر قد استعمله، وأذن له في قتال أهل الردّة، واستعمله عمر، ونهاه عن البحر، فلم يقدّر في الطاعة والمعصية وعواقبهما، فندب أهل البحرين إلى فارس، فتسرّعوا إلى ذلك، وفرّقهم أجناداً؛ على أحدهما الجارود بن المعلّى، وعلى الآخر السوّار بن همّام، وعلى الآخر خُلَيد بن المنذر بن ساوى؛ وخُليد على جماعة الناس، فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر، وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوبه غازياً؛ يَكره التغرير بجنده استناناً بالنبيّ ﷺ وبأبي بكر، لم يغزُ فيه النبيّ ﷺ ولا أبو بكر. فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا في إصْطَخر، وبإزائهم أهلُ فارس، وعلى أهل فارس الهِرْبذ، اجتمعوا عليه، فحالوا بين المسلمين وبين سُفنهم، فقام خُليد في الناس، فقال: أمّا بعد؛ فإنّ الله إذا قضَى أمراً جرت به المقادير حتى تصيبَه، وإنّ هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوْكم إلى حربهم؛ وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفنُ والأرض لمن غلَب، فاستعينوا بالصّبر والصلاة، وإنّها لكبيرة إلّا على الخاشعين. فأجابوه إلى ذلك فصلّوا الظهر، ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً في موضع من الأرض يدعى طاوُس، وجعل السَّوار يرتجز يومئذ ويذكر قومه، ويقول:

يـا آلَ عَـبْـد الـقَـيْس لِـلْقِـرَاعِ ... قـد حَـفَـلَ الأمْـدادُ بـالـجِـراعِ
وكـلُهـمْ فـي سَـنَـنِ الـمِـصـاعِ ... يحْسِنُ ضَـرْب الـقـومِ بـالـقَـطَّاعِ

حتى قتل. وجعل الجارود يرتجز ويقول:

لـو كـان شـيـئـاً أَمـمـاً أكـلْتُـهْ ... أو كـان مـاءً سـادِمـاً جَـهَـرْتُـهْ
لـكنّ بـحـراً جـاءَنـا أنْـكَـرْتُـهْ

حتى قتل. ويومئذ وَلِيَ عبدُ الله بن السوّار والمنذر بن الجارود حياتهما إلى أن ماتا. وجعل خُليد يومئذ يرتجز ويقول:

يـالَ تـمـيـمٍ أَجْـمِـعُـوا الـنُّـزُولْ ... وكـادَ جَـيْـشُ عُـمَـرٍ يَـزُولْ
وكُـلـكـمْ يـعـلـمُ مـا أقـولْ

انزلوا، فنزلوا. فاقتتل القوم فقُتِل أهل فارس مقتلة لم يُقتَلوا مثلها قبلها. ثمّ خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم، ثمّ لم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً. ثم وجدوا شَهْرَك قد أخذ على المسلمين بالطرق؛

فعسكروا وامتنعوا في نُشُوبهم. ولما بلغ عمر الذي صنع العَلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر ألقِيَ في رُوعه نحوٌ من الذي كان. فاشتدّ غضبه على العَلاء، وكتب إليه يعزِله وتوعّده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه؛ بتأمير سعد عليه، وقال: الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن قِبلَك، فخرج بمَن معه نحو سعد. وكتب عمر إلى عُتبة بن غزوان: إنّ العلاء بن الحضرميّ حمل جنداً من المسلمين، فأقطعهم أهلُ فارس، وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك، فخشيت عليهم إلاّ يُنصروا أن يغلَبوا وينشَبوا، فاندب إليهم الناس، واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا. فندب عُتبة الناس، وأخبرهم بكتاب عمر. فانتدب عاصم بن عمرو، وعرفجة بن هَرْثمة، وحذيفة بن محصن، ومجزأة بن ثور، ونهار بن الحارث، والترجمان بن فلان، والحصين بن أبي الحرّ، والأحنف بن قيس، وسعد بن أبي العَرْجاء، وعبد الرحمن بن سهل، وصعصعة بن معاوية؛ فخرجوا في اثني عشر ألفاً على البغال يجنِبون الخيل، وعليهم أبو سَبْرة بن أبي رُهْم أحد بني مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ، والمسالح على حالها بالأهواز والذمّة، وهم رِدْء للغازي والمقيم. فسار أبو سَبْرة بالناس، وساحَلَ لا يلقاه أحد، ولا يعرض له؛ حتى التقى أبو سَبْرة وخُلَيد بحيث أخِذ عليهم بالطرق غبّ وقعة القوم بطاوس، وإنما كان وليَ قتالهم أهلُ إصطَخر وحدهم، والشذّاذ من غيرهم؛ وقد كان أهل إصطخر حيث أخذوا على المسلمين بالطرق، وأنشبوهم، استصرخوا عليهم أهلَ فارس كلّهم؛ فضربوا إليهم من كلّ وجه وكورة، فالتقوْا هم وأبو سَبْرة بعد طاوس، وقد توافتْ إلى المسلمين أمدادهم وإلى المشركين أمدادهم، وعلى المشركين شَهْرك؛ فاقتتلوا، ففتح الله على المسلمين، وقَتَل المشركين وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا ـ وهي الغزاة التي شرفت فيها نابتة البصرة؛ وكانوا أفضل نوابت الأمصار؛ فكانوا أفضل المصريْن نابتة ـ ثم انكفؤوا بما أصابوا، وقد عهد إليهم عُتبة وكتب إليهم بالحثّ وقلة العُرْجة، فانضموا إليه بالبصرة، فخرج أهلها إلى منازلهم منها، وتفرّق الذين تُنقّذوا من أهل هَجر إلى قبائلهم، والذين تُنقّذوا من عبد القيس في موضع سوق البَحْرين. ولما أحرز عُتبة الأهواز وأوطأ فارس؛ استأذن عمر في الحجّ، فأذِن له، فلمّا قضى حجّه استعفاه، فأبى أن يُعفيَه، وعزم عليه ليَرجعنّ إلى عمله؛ فدعا الله ثم انصرف؛ فمات في بطن نخلة، فدفن؛ وبلغ عمر، فمرّ به زائراً لقبره، وقال: أنا قتلتك، لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم؛ وأثنى عليه بفضله، ولم يختطّ فيمن اختطّ من المهاجرين؛ وإنما ورث ولدهُ منزلهم من فاختة ابنة غزْوان، وكانت تحت عثمان بن عفان، وكان خبّاب مولاه قد لزم سمته فلم يختطّ، ومات عتبة بن غزوان على رأس ثلاث سنين ونصف من مفارقة سعد بالمدائن، وقد استخلف على الناس أبا سَبْرة بن أبي رُهْم، وعمّاله على حالهم، ومسالحه على نهر تيرَى ومَناذِر وسوق الأهواز وسُرّق والهُرْمزان برامهرُمز مُصالَح عليها، وعلى السُّوس والبُنيان وجنديْ سابور ومِهْرَجان قَذَق؛ وذلك بعد تنقُّذ الذين كان حمل العلاء في البحر إلى فارس، ونزولهم البصرة.

وكان يقال لهم أهل طاوس، نُسِبوا إلى الوقعة. وأقرّ عمر أبا سَبْرة بن أبي رُهْم على البصرة بقيّة السنة. ثم استعمل المغيرة بن شعبة في السنة الثانية بعد وفاة عتبة، فعمل عليها بقيَّة تلك السنة والسنة التي تليها، لم ينتقض عليه أحد في عمله؛ وكان مرزوقاً السلامة؛ ولم يُحدث شيئاً إلاّ ما كان بينه وبين أبي بكْرة.

ثم استعمل عمر أبا موسى على البصرة، ثم صُرِف إلى الكوفة، ثمّ استعمل عمر بن سُراقة، ثمّ صُرِف عمر بن سراقة إلى الكوفة من البصرة، وصُرف أبو موسى إلى البصرة من الكوفة؛ فعمل عليها ثانية.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ كان فتح رَامُهُرمُز والسّوس وتُسْتَر. وفيها أسر الهُرْمزان في رواية سيف.

ذكر الخبر عن فتح ذلك من روايته:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو؛ قالوا: ولم يزل يَزْدَجِرد يُثير أهلَ فارس أسفاً على ما خرج منهم؛ فكتب يَزْدَجِرد إلى أهل فارس وهو يومئذ بمَرْوَ، يذكرهم الأحقاد ويؤنّبهم؛ أن قد رضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه، والأهواز. ثم لم يرْضَوا بذلك حتى توردوكم في بلادكم وعُقْر داركم، فتحرّكوا وتكاتبوا: أهلُ فارس وأهلُ الأهواز، وتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا على النُّصرة، وجاءت الأخبار حرقوصَ بن زُهير، وجاءت جزءاً وسُلْمى وحرْملة عن خبر غالب وكُلَيب؛ فكتب سُلْمَى وحَرْملة إلى عمر وإلى المسلمين بالبَصْرة، فسبق كتاب سُلْمى حرملة، فكتب عمر إلى سعد: أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرّن، وعجِّل وابعث سَوَيد بن مقرّن، وعبد الله بن ذي السهمين، وجَرير بن عبد الله الحميريّ، وجرير بن عبد الله البَجَليّ؛ فلْينزلوا بإزاء الهُرْمزان حتى يتبيّنوا أمره. وكتب إلى أبي موسى أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمِّرْ عليهم سهل بن عديّ ـ أخا سهيل بن عديّ ـ وابعث معه البَرَاء بن مالك، وعاصم بن عمرو، ومجزأة بن ثور، وكعب بن سور، وعَرْفجة بن هَرثمة، وحُذيفة بن مِحْصَن، وعبد الرحمن بن سهل، والحُصين بن معبد؛ وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سَبْرة بن أبي رُهْم؛ وكلّ من أتاه فمددٌ له.

وخرج النُّعمان بن مقرّن في أهل الكوفة، فأخذ وسط السواد حتى قطع دِجْلة بِحيال مَيْسان، ثم أخذ البرّ إلى الأهواز على البغال يجنبون الخيل، وانتهى إلى نهر تِيرَى فجازها، ثم جاز مَنَاذر، ثم جاز سوقَ الأهواز، وخلّف حُرقوصاً وسُلَمى وحرْملة، ثمّ سار نحو الهُرمزان ـ والهرمزان يومئذ برامَهُرمز ـ ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشَّدَّة، ورجا أن يقتطعه، وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس، وقد أقبلوا نحوه، ونزلت أوائل أمدادهم بتُسْتَر، فالتقى النعمان والهُرمزان بأربُك، فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ هزم الهُرمزان للنعمان، وأخلى رامَهُرْمز وتركها ولحق بتُستَر، وسار النعمان من أربُك حتى ينزل برامَهُرمز، ثم صعد لإيذَج، فصالحه عليها تيرويْه، فقبل منه وتركه ورجع إلى رامَهُرمز فأقام بها.

قالوا: ولما كتب عمر إلى سعد وأبي موسى، وسار النعمان وسهل، سبق النعمان في أهل الكوفة سهلاً وأهلَ البصرة، ونكّب الهُرمزان، وجاء سهل في أهل البصرة حتى نزلوا بسوق الأهواز، وهم يريدون رامَهُرمز، فأتتهم الوقعة وهمْ بسوق الأهواز، وأتاهم الخبر أنّ الهرمزان قدّ لحِق بتستَر، فمالوا من سوق الأهواز نحْوَه، فكان وجههم منها إلى تُسْتَر، ومال النعمان من رامَهرمز إليها، وخرج سُلْمَى وحَرْملة وحُرقوص وجَزْء، فنزلوا جميعاً على تُستَر والنعمان على أهل الكوفة، وأهل البصرة متساندون، وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس وأهل الجبال والأهواز في الخنادق، وكتبوا بذلك إلى عمر، واستمدّه أبو سَبْرة فأمدّهم بأبي موسى، فسار نحوهم، وعلى أهل الكوفة النعمان، وعلى أهل البصرة أبو موسى، وعلى الفريقين جميعاً أبو سَبْرة، فحاصروهم أشهراً، وأكثروا فيهم القتل. وقتل البَرَاء بن مالك فيما بين أول ذلك الحصار إلى أن فتح الله على المسلمين مائة مبارز، سوى مَن قتل في غير ذلك، وقَتَل مجزأة بن ثَوْر مثل ذلك، وقَتل كعبُ بن سُور مثلَ ذلك، وقَتل أبو تميمة مثلَ ذلك في عدّة

من أهل البصرة. وفي الكوفيين مثل ذلك؛ منهم حَبيب بن قُرّة، ورِبعيّ بن عامر، وعامر بن عبد الأسود ـ وكان من الرؤساء ـ في ذلك ما ازدادوا به إلى ما كان منهم، وزاحفهم المشركون في أيام تُسْتَر ثمانين زَحْفاً في حصارهم؛ يكون عليهم مرّة ولهم أخرى؛ حتى إذا كان في آخر زَحْفاً في حصارهم؛ يكون عليهم مرّة ولهم أخرى؛ حتى إذا كان في آخر زَحْف منها واشتدّ القتال قال المسلمون: يا بَراء، أقسِم على ربّك ليهزمنّهم لنا! فقال: اللهمّ اهزمْهم لنا، واستشهدني. . قال: فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم، ثم اقتحموها عليهم، وأرَزُوا إلى مدينتهم، وأحاطوا بها، فبيناهم على ذلك وقد ضاقت بهم المدينة، وطالت حربُهم، خرج إلى النّعمان رجل فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل يُؤتَوْن منه، ورمى في ناحية أبي موسى بسهْم [فقال]: قد وثقت بكم وأمنتكم واستأمنتكم على أن دللتكم على ما تأتون منه المدينة، ويكون منه فتحها، فآمنوه في نُشابة فرمى إليهم بآخر، وقال: انهدُوا من قبَل مخرج الماء؛ فإنكم ستفتحونها، فاستشار في ذلك وندب إليه، فانتدب له عامر بن عبد قيس، وكعب بن سُور، ومجزأة بن ثور، وحَسَكة الحبَطيّ، وبَشر كثير؛ فنهدوا لذلك المكان ليلا، وقد ندب النعمان أصحابه حين جاءه الرّجل، فانتدب له سُويد بن المثعَبة، وورقاء بن الحارث، وبشر بن ربيعة الخثعميّ، ونافع بن زيد الحميريّ، وعبد الله بن بِشر الهلاليّ، فنهدوا في بشر كثير، فالتقَوا هم وأهلُ البصرة على ذلك المخرج، وقد انسرب سويد وعبد الله بن بِشر، فأتبعهم هؤلاء وهؤلاء؛ حتى إذا اجتمعوا فيها ـ والناس على رِجْل من خارج ـ كبّروا فيها، وكبّر المسلمون من خارج، وفُتِحت الأبواب؛ فاجتلدوا فيها، فأناموا كلَّ مقاتل، وأرَز الهُرْمزان إلى القَلْعة، وأطاف به الذين دخلوا من مخرج الماء؛ فلما عاينوه وأقبلوا قِبَله قال لهم: ما شئتم! قد ترَون ضيقَ ما أنا فيه وأنتم، ومعي في جعبتي مائةُ نُشّابة؛ ووالله ما تصلِون إليّ ما دام معي منها نُشّابة؛ وما يقع لي سهم؛ وما خبر إساري إذا أصبتُ منكم مائة بين قتيل أو جريح! قالوا: فتريد ماذا؟ قال: أن أضعَ يدي في أيديكم على حُكْم عُمَر يصنع بي ما شاء، قالوا: فلك ذلك، فرمى بقوسه، وأمكنهم من نفسه، فشدّوه وثاقاً، واقتسموا ما أفاء الله عليهم؛ فكان سهم الفارس [فيها] ثلاثة آلاف، والراجل ألفاً؛ ودعا صاحب الرميّة بها، فجاء هو والرّجل الذي خرج بنفسه، فقالا: مَن لنا بالأمان الذي طلبنا؛ علينا وعلى مَن مالَ معنا؟ قالوا: ومَن مال معكم؟ قالا: مَن أغلق بابه عليه مدخلَكم. فأجازوا ذلك لهم، وقُتل من المسلمين ليلتئذ أناس كثير، وممن قَتل الهُرمزان بنفسه مجزَأة بن ثور، والبَرَاء بن مالك.

قالوا: وخرج أبو سَبْرة في أثر الفَلّ من تُستَر ـ وقد قصدوا للسُّوس ـ إلى السوس، وخرج بالنعمان وأبي موسى ومعهم الهُرْمزان؛ حتى اشتملوا على السُّوس، وأحاط المسلمون بها، وكتبوا بذلك إلى عمر. فكتب عمر إلى عمر بن سُراقة بأن يسيرَ نحو المدينة، وكتب إلى أبي موسى فردّه على البَصرة، وقد ردّ أبا موسى على البصرة ثلاث مرات بهذه، وردّ عمر عليها مرتين؛ وكتب إلى زِرّ بن عبد الله بن كليب الفُقَيميّ أن يسير إلى جُنْدَيْ سابور، فسار حتى نزل عليها، وانصرف أبو موسى إلى البصْرة بعد ما أقام إلى رجوع كتاب عمر، وأمّر عمر على جند البصرة المقترِبَ، الأسود بن ربيعة أحدَ بني ربيعة بن مالك، وكان الأسود وزِرّ من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين ـ وكان الأسود قد وفَد على رسول الله وقال: جئت لأقترب إلى الله عزّ وجلّ بصحبتك، فسمّاه المقترب؛ وكان زِرّ قد وفَد على رسول الله ﷺ، وقال: فنِيَ بطني، وكثر إخوتُنا، فادعُ الله لنا، فقال: اللهمّ أوف لزِرٍّعُمْرَه، فتحوّل إليهم العدد ـ وأوفد أبو سَبْرة وفداً؛ فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، وأرسل الهُرمزان معهم، فقدِموا مع أبي موسى البصرة، ثم خرجوا نحو المدينة؛ حتى إذا دخلوا هيّئوا الهرمزان في هيئته،

فألبسوه كُسوته من الدّيباج الذي فيه الذهب، ووضعوا على رأسه تاجاً يدعى الآذين، مكلّلاً بالياقوت، وعليه حِلْيته، كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه، فسألوا عنه، فقيل [لهم]: جلس في المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة، فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فلم يروْه، فلمّا انصرفوا مرّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقالوا لهم: ما تلدّدكم!؟ تريدون أميرَ المؤمنين؟ فإنّه نائم في ميمنة المسجد، متوسد برنسه ـ وكان عمر قد جلس لوفْد أهل الكوفة في بُرنس، فلمّا فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه، وأخلَوْه نزع بُرنسه ثم توسّده فنام ـ فانطلقوا ومعهم النظّارة، حتى إذا رأوْه جلسوا دونه، وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدِّرة في يده معلّقة، فقال: الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هوذا؛ وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه؛ وأصغى الهرمزان إلى الوفد، فقال: أين حرسُه وحجّابه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب، ولا كاتب ولا ديوان، قال: فينبغي له أن يكون نبيّاً، فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء؛ وكثر الناس؛ فاستيقظ عمر بالجلَبَة، فاستوى جالساً، ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم؛ فتأمّله، وتأمّل ما عليه، وقال: أعوذ بالله من النار، وأستعين الله! وقال: الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وأشياعه؛ يا معشر المسلمين، تمسَّكوا بهذا الدين، واهتدوا بهُدَى نبيّكم، ولا تبطرنّكم الدنيا فإنها غرّارة. فقال الوفد: هذا ملك الأهواز، فكلّمه، فقال: لا، حتى لا يبقى عليه من حِلْيته شيء، فرُمي عنه بكلّ شيء عليه إلا شيئاً يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال عمر: هِيهِ يا هرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله! فقال: يا عمر، إنا وإيّاكم في الجاهليّة كان الله قد خلّى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذْ لم يكن معنا ولا معكم، فلمّا كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهليّة باجتماعكم وتفرّقنا. ثم قال عمر: ما عُذرك وما حجّتك في انتقاضك مرّة بعد مرّة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك، قال: لا تخف ذلك. واستسقى ماء، فأُتِيَ به في قَدَح غليظ، فقال: لو متّ عطشاً لم أستطع أنْ أشرب في مثل هذا، فأتى به في إناء يرضاه، فجعلت يده ترجُف، وقال: إني أخاف أن أقتَل وأنا أشرب الماء، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشرَبه، فأكفأه، فقال عمر: أعيدوا عليه، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمِن به، فقال له عمر: إني قاتلك، قال: قد آمنتني! فقال: كذبت! فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمنته، قال: ويحك يا أنس! أنا أؤمّن قاتل مجزأة والبَراء! والله لتأتينّ بمخرج أو لأعاقبنّك! قال: قلتَ له: لا بأس عليك حتى تخبرَني، وقلتَ: لا بأس عليك حتى تشربه، وقال له مَنْ حوله مثل ذلك، فأقبل على الهرمزان، وقال: خدعتَني، والله لا أنخدع إلا لمسلم؛ فأسلم. ففرض له على ألفين، وأنزله المدينة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي سفيان طلحة بن عبد الرحمن، عن ابن عيسى، قال: كان التُّرجمان يوم الهُرمزان المغيرة بن شعبة إلى أن جاء المترجم، وكان المغيرة يفقه شيئاً من الفارسيّة، فقال عمر للمغيرة: قل له: منْ أيّ أرض أنت؟ فقال المغيرة: أزكُدام أرضي؟ فقال: مِهرجانيّ، فقال: تكلم بحجَّتك، قال: كلام حيّ أو ميت؟ قال: بل كلام حيّ، قال: قد آمنتَني، قال: خدعتَني، إنّ للمخدوع في الحرب حُكمه؛ لا والله لا أؤمنك حتى تسلِم، فأيقن أنه القتل أو الإسلام، فأسلم، ففرض له على ألفين وأنزله المدينة. وقال للمغيرة: ما أراك بها حاذقاً، ما أحسنها منكم أحد إلا خَبّ، وما خَبّ إلا دقّ. إيّاكم وإيّاها، فإنها تنقض الإعراب. وأقبل زيد فكلّمه، وأخبر عمر بقوله، والهُرمزانَ بقول عمر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وعمرو، وسفيان، عن الحسن، قال: قال

عمر للوفد: لعلّ المسلمين يفضُون إلى أهل الذمّة بأذًى وبأمور لها ما ينتقضون بكم! فقالوا: ما نعلم إلاّ وفاء وحسن ملَكة، قال: فكيف هذا؟ فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون، إلاّ ما كان من الأحنف، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرك أنّك نهيتَنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتَنا بالاقتصار على ما في أيدينا، وإن ملِك فارس حيّ بين أظهرهم؛ وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام مَلكهم فيهم؛ ولم يجتمع مَلِكان فاتفقا حتى يخرِج أحدُهما صاحبَه؛ وقد رأيتُ أنّا لم نأخذ شيئاً بعد. شيء إلاّ بانبعاثهم، وأنّ ملِكهم هو الذي يبعثهم. ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسِحْ في بلادهم حتى نزيلَه عن فارس، ونخرجه من مملكته وعزّ أمته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشاً. فقال: صدقْتني والله، وشرحت لي الأمر عن حقه. ونظر في حوائجهم وسرّحهم.

وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نِهاوند وانتهاء أهل مِهْرجا نقذَق وأهل كُوَر الأهواز إلى رأي الهُرمزان ومشيئته، فذلك كان سبب إذن عمر لهم في الإنساح.

ذكر فتح السُّوس

اختلف أهل السِّيَر في أمرها؛ فأمّا المدائنيّ فإنه ـ فيما حدثني عنه أبو زيد ـ قال: لما انتهى فلّ جَلولاء إلى يزدجرْد وهو بحُلوان، دعا بخاصّته والْمَوبَذ، فقال: إنّ القومَ لا يلقَوْن جمعاً إلاّ فلّوه، فما ترون؟ فقال الْموبَذ: نرى أن تخرج فتنزل إصطَخْر؛ فإنها بيت المملكة، وتضمّ إليك خزائنك، وتوجّه الجنود. فأخذ برأيه، وسار إلى أصبَهان دعا سياهَ، فوجّهه في ثلاثمائة، فيهم سبعون رجلاً من عُظمائهم، وأمره أن ينتخب مِن كلّ بلدة يمرّ بها مَن أحبّ، فمضى سياه وأتبعه يزدجِرْد، حتى نزلوا إصطخر وأبو موسى محاصر السُّوس، فوجّه سياه إلى السُّوس، والهرمزان إلى تُستَر، فنزل سياه الكلبانيّة، وبلغ أهلَ السّوس أمرُ جَلُولاء ونزول يزدَجِرد إصطخر منهزماً، فسألوا أبا موسى الأشعريّ الصلح، فصالحهم، وسار إلى رامَهُرمز وسياه بالكلبانيّة، وقد عظُم أمر المسلمين عنده، فلم يزل مقيماً حتى صار أبو موسى إلى تُسْتَر، فتحوّل سياه، فنزل بين رامهرمز وتُسْتَر، حتى قدم عمّار بن ياسر، فدعا سياه الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من أصبَهان؛ فقال: قد علمتم أنّا كنا نتحدّث أنّ هؤلاء القوم أهلُ الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة، وتُروث دوابّهم في إيوانات إصطَخر ومصانع الملوك، ويشدُّون خيولَهم بشجرها، وقد غلبوا على ما رأيتم، وليس يلقَوْن جنداً إلاّ فلّوه، ولا ينزلون بحصن إلاّ فتحوه، فانظروا لأنفسكم. قالوا: رأيُنا رأيك، قال: فليكْفِني كلّ رجل منكم حشمَه والمنقطعين إليه، فإني أرى أن ندخل في دينهم. ووجّهوا شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى يأخذ شروطاً على أن يدخلوا في الإسلام. فقدم شيرويه على أبي موسى، فقال: إنّا قد رغِبنا في دينكم، فنُسلِم على أن نُقاتل معكم العجم، ولا نقاتل معكم العرب؛ وإن قاتَلنا أحدٌ من العرب منعتمونا منه، وننزل حيث شئنا، ونكون فيمن شئنا منكم، وتُلحِقونا بأشراف العطاء، ويعقد لنا الأمير الذي هو فوقك بذلك. فقال أبو موسى: بل لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، قالوا: لا نرضَى.

وكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب، فكتب إلى أبي موسى: أعطِهم ما سألوك. فكتب أبو موسى لهم، فأسلموا، وشهدوا معه حصار تُسْتَر فلم يكن أبو موسى يرى منهم جدًّا ولا نِكاية، فقال لسياه: يا أعور، ما أنت وأصحابُك كما كنّا نرى! قال: لسنا مثلكم في هذا الدّين ولا بصائرنا كبصائركم، وليس لنا فيكم حُرَمٌ نحامِي

عنهم، ولِمَ تُلحقنا بأشراف العطاء ولنا سلاح وكُراع وأنتم حسّر. فكتب أبو موسى إلى عمر في ذلك، فكتب إليه عمر: أن ألحقهم على قَدْر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شيء أخذه أحد من العرب. ففرض لمائة منهم في ألفين ألفين، ولستّة منهم في ألفين، وخمسمائة لسياه وخُسْرَوْ ـ ولقبه مِقْلاص ـ وشَهْرِيار، وشَهْرَوَيه، وأفروذين. فقال الشاعر:

ولمَّـا رأى الفـاروقُ حُسْنَ بـلائِـهِمْ … وكـان بمـا يـأتي من الأمـر أبْصَـرَا
فَسَنَّ لهم ألـفيْـنِ فَـرْضـاً وقـد رأى … ثـلاثـمِئيـنَ فَـرْضَ عَـكٍّ وَحِمْـيَـرَا

قال: فحاصروا حصناً بفارس، فانسلّ سياه في آخر الليل في زِيّ العجم حتى رمى بنفسه إلى جَنْب الحِصْن، ونضحَ ثيابه بالدمّ، وأصبح أهلُ الحصن، فرأوا رجلاً في زيّهم صريعاً، فظنُّوا أنه رجل منهم أصيبوا به، ففتحوا باب الحِصْن ليدخلوه، فثار وقاتلهم حتى خلَّوْا عن باب الحصن وهربوا، ففتح الحصن وحده، ودخله المسلمون، وقوم يقولون: فعلَ هذا الفعل سياه بتُسْتر، وحاصروا حصناً، فمشى خُسْـرَوْ إلى الحصن، فأشرف عليه رجل منهم يكلِّمه، فرماه خسرَوْ بنشّابة فقتله.

وأما سيف فإنه قال في روايته ما كتب به إلى السريّ، عن شعيب، عنه، عن محمد وطلحة وعمرو ودِثار أبي عمر، عن أبي عثمان، قالوا: لما نزل أبو سَبْرة في الناس على السُّوس، وأحاط المسلمون بها، وعليهم شهريار أخو الهرمزان، ناوشوهم مرّات؛ كلّ ذلك يصيبُ أهلُ السُّوس في المسلمين، فأشرف عليهم يوماً الرُّهبـان والقسّيسون، فقالوا: يا معشر العرب، إنّ مما عهد إلينا علماؤنا وأوائلنا؛ أنه لا يفتح السُّوسَ إلاّ الدّجال أو قوم فيهم الدّجال، فإن كان الدجّال فيكم فستفتحونها، وإن لم يكن فيكم فلا تُعْنَوْا بحصارنا. وجاء صرْف أبي موسى إلى البَصْرة، وعُمِّل علَى أهل البصرة المقترب مكانَ أبي موسى بالسُّوس، واجتمع الأعـاجم بِنَهاوَنْـد والنعمان على أهل الكوفة محاصراً لأهل السوس مع أبي سَبْرة، وزِرّ محاصر أهل نِهاوند من وجهه ذلك؛ وضرب على أهل الكوفة البعث مع حُذيفة، وأمرهم بموافاته بنهاوَنْد؛ وأقبل النُّعمان على التهيّؤ للسير إلى نهاوند، ثمّ استقلّ في نفسه، فناوشهم قبل مضيّه، فعاد الرّهبان والقسِّيسون، وأشرفوا على المسلمين، وقالوا: يا معشرَ العرب، لا تُعنَوْا فإنه لا يفتحها إلاّ الدجَّال أو قوم معهم الدّجال، وصاحوا بالمسلمين وغاظوهم، وصافِ بن صيّاد يومئذ مع النعمان في خيله، وناهَدهم المسلمون جميعاً، وقالوا: نقاتلهم قبل أن نفترق؛ ولمّا يخرج أبو موسى بعدُ. وأتى صاف بابَ السوس غضبَان، فدقّه برجله، وقال: انفتح فطار فتقطّعت السلاسل، وتكسّرت الأغلاق، وتفتَّحت الأبواب، ودخل المسلمون، فألقى المشركون بأيديهم، وتنادوْا: الصّلح الصلح! وأمسكوا بأيديهم، فأجابوا إلى ذلك بعد ما دخلوها عَنْوة، واقتسموا ما أصابوا قبل الصلح؛ ثم افترقوا. فخرج النّعمان في أهل الكوفة من الأهواز حتى نزل على ماه، وسرّح أبو سَبْرة المقتربَ حتى ينزل على جندي سابور مع زِرّ، فأقام النعمان بعد دخول ماه، حتى وافاه أهلُ الكوفة، ثم نهد بهم إلى أهل نِهَاوند، فلما كان الفتح رجع صاف إلى المدينة، فأقام بها، ومات بالمدينة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة، عمّن أورد فتح السُّوس، قال: وقيل لأبي سَبْرة: هذا جسد دانيال في هذه المدينة، قال: وما لنا بذلك! فأقرّه بأيديهم ـ قال عطيّة بإسناده: إنّ دانيال كان لزم أسيافَ فارس بعد بختنصّر؛ فلمّا حضرْته الوفاة، ولم يَرَ أحداً ممن هو بين ظهرَيْهم على الإسلام؛ أكرم كتاب الله

عمّن لم يجبْه ولم يقبل منه، فأودعه ربّه، فقال لابنه: ائتِ ساحلَ البحر، فاقذفْ بهذا الكتاب فيه، فأخذه الغلام، وضنّ به، وغاب مقدارَ ما كان ذاهباً وجائياً؛ وقال: قد فعلت، قال: فما صنع البحر حين هوى فيه؟ قال: لم أره يصنع شيئاً، فغضب وقال: والله ما فعلتَ الذي أمرتُك به. فخرج من عنده، ففعل مثل فعلته الأولى، ثم أتاه فقال: قد فعلت، فقال: كيف رأيت البحر حين هوى فيه؟ قال: ماج واصطفق، فغضب أشدّ من غضبه الأوّل، وقال: والله ما فعلت الذي أمرتُك به بعد، فعزم ابنه على إلقائه في البحر الثالثة، فانطلق إلى ساحل البحر، وألقاه فيه، فانكشف البحر عن الأرض حتى بدت، وانفجرت له الأرض عن هواء من نور، فهوَى في ذلك النور، ثم انطبقت عليه الأرض، واختلَط الماء، فلما رجع إليه الثالثة سأله فأخبره الخبر، فقال: الآن صدقت، ومات دانيال بالسُّوس؛ فكان هنالك يُستَسقى بجسده، فلما افتتحها المسلمون أتُوا به فأقرُّوه في أيديهم، حتى إذا ولّى أبو سبْرة عنهم إلى جُنَديْ سابور أقام أبو موسى بالسُّوس. وكتب إلى عُمَر فيه؛ فكتب إليه يأمره بتوريته، فكفّنه ودفنه المسلمون. وكتب أبو موسى إلى عمر بأنه كان عليه خاتم وهو عندنا، فكتب إليه أن تختَّمْه، وفي فصّه نقش رجل بين أسدين.

وفيها ـ أعني سنة سبع عشرة ـ كانت مصالحة المسلمين أهْلَ جُنْدَيْ سابور.

ذكر الخبر عن أمرهم وأمرها:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي عمرو وأبي سفيان والمهلَّب، قالوا: لما فرغ أبو سَبْرة من السُّوس خرج في جنده حتى نزل على جُنْدَيْ سابور، وزرّ بن عبدالله بن كليب محاصرهم؛ فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال؛ فما زالوا مقيمين عليها حتى رُمي إليهم بالأمان عن عسكر المسلمين، وكان فَتْحها وفَتْح نهاوند في مقدار شهرين، فلم يفجأ المسلمين إلّا وأبوابها تفتح، ثمّ خرج السَّرْح، وخرجت الأسواق، وانبثّ أهلها، فأرسل المسلمون: أن مالكم؟ قالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم الجزاء على أن تمنعونا. فقالوا: ما فعلْنا، فقالوا: ما كذبْنا، فسأل المسلمون فيما بينهم؛ فإذا عبد يدعَى مُكْنِفاً كان أصله منها؛ هو الذي كتب لهم. فقالوا: إنما هو عبد، فقالوا: إنا لا نعرف حُرّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه، ولم نبدّل، فإن شئتم فاغدروا. فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إليهم: إنّ الله عظَّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تَفُوا، ما دمتم من شكّ أجيزوهم، وفُوا لهم. فوَفَوْا لهم، وانصرفوا عنهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: أذن عمر في الانسياح سنة سبع عشرة في بلاد فارس، وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف وقيس، وعرف فضله وصدقه، وفرّق الأمراء والجنود، وأمّر على أهل البصرة أمراء، وأمّر على أهل الكوفة أمراء، وأمّر هؤلاء وهؤلاء بأمره، وأذِن لهم في الانسياح سنة سبع عشرة، فساحوا في سنة ثمان عشرة، وأمر أبا موسى أن يسير من البصرة إلى منقطَع ذمّة البصرة؛ فيكون هنالك حتى يحدّث إليه؛ وبعث بألوية مَنْ ولِي مع سهيل بن عديّ حليف بني عبد الأشهل، فقدِم سهيل بالألوية، ودفع لواء خُراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء أردشيرخُرّه وسابور إلى مجاشع بن مسعود السُّلميّ، ولواء إصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفيّ، ولواء فَسَا ودارابجرد إلى سارية بن زُنَيم الكنانيّ، ولواء كَرْمان مع سهيل بن عديّ، ولواء سِجِسْتان إلى عاصم بن عمرو ـ وكان عاصم من الصحابة ـ ولواء مُكْران إلى الحكَم بن عمير التغلَبيّ. فخرجوا في سنة عشرة،

فعسكروا ليخرجوا إلى هذه الكُوَر فلم يستَتِبّ مسيرهم، حتى دخلت سنة ثمان عشرة، وأمدّهم عمر بأهل الكوفة؛ فأمدّ سهيل بن عديّ بعبد الله بن عبد الله بن عِتْبان، وأمدّ الأحنف بعلقمة بن النّضر، وبعبد الله بن أبي عَقِيل، وبِربْعيّ بن عامر، وبابن أمّ غزال. وأمدّ عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشجعيّ، وأمدّ الحكم بن عُمير بشهاب بن المخارق المازنيّ. قال بعضهم: كان فتح السُّوس ورَامهرمز وتوجيه الهرمزان إلى عمَر من تُسْتَر في سنة عشرين.

وحجّ بالناس في هذه السنة ـ أعني سنة سبع عشرة ـ عمر بن الخطاب؛ وكان عامله على مكة عتّاب بن أسِيد، وعلى اليمن يعلَى بن أميّة، وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن أبي العاص وعلى عُمان حذيفة بن مِحْصَن، وعلى الشام مَنْ قد ذكرت أسماءهم قبل، وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقّاص، وعلى قضائها أبو قُرّة، وعلى البصرة وأرضها أبو موسى الأشعريّ ـ وقد ذكرت فيما مضى الوقتَ الذي عزل فيه عنها، والوقت الذي ردّ فيه إليها أميراً. وعلى القضاء ـ فيما قيل ـ أبو مريم الحنفيّ. وقد ذكرت مَنْ كان على الجزيرة والموصل قبلُ.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة

ذكر الأحداث التي كانت في سنة ثَمان عشرة

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثمانَ عشرة ـ أصابت الناسَ مجاعةٌ شديدة ولَزْبة، وجُدوب وقحوط؛ وذلك هو العام الذي يسمَّى عام الرّمَادة.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: دخلت سنة ثمان عشرة، وفيها كان عام الرّمادة وطاعون عَمَواس، فتفانَى فيها الناس.

وحدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، قال: حُدّثت عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: كانت الرّمادة سنة ثمانَ عشرة. قال: وكان في ذلك العام طاعون عَمَواس.

كتب إليّ السريّ يقول: حدّثنا شعيب، عن سيف، عن الرّبيع وأبي المجالد وأبي عثمان وأبي حارثة، قالوا: وكتب أبو عبيدة إلى عمر: إنّ نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، منهم ضرار، وأبو جندل، فسألناهم فتأوّلوا، وقالوا: خُيِّرنا فاخترنا، قال: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون ﴾! ولم يعزم علينا. فكتب إليه عمر: فذلك بيننا وبينهم، ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون ﴾؛ يعني « فانتهوا ». وجمع الناس، فاجتمعوا على أن يضربُوا فيها ثمانين جلدة، ويضمّنوا الفسق مَن تأوّل عليها بمثل هذا، فإن أبى قتِل. فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعُهم؛ فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين. فبعث إليهم فسألهم على رؤوس الناس، فقالوا: حرام، فجلدهم ثمانين ثمانين، وحُدّ القوم، وندموا على لجاجتهم، وقال: ليحدُثنّ فيكم يا أهل الشام حادث؛ فحدثت الرّمادة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن شبرمة عن العشبيّ بمثله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، قال: لما قدم على عمر كتاب أبي عبيدة في ضرار وأبي جندل، كتب إلى أبي عبيدة في ذلك، وأمره أن يدعوَ بهم على رؤوس الناس فيسألهم: أحرام الخمر أم حلال؟ فإن قالوا: حرام، فاجلدهم ثمانين جلدة، واستَتِبْهم، وإن قالوا: حلال، فاضرب أعناقهم. فدعَا بهم فسألهم، فقالوا: بل حرام، فجلدهم، فاستحيَوا فلزموا البيوت. ووسوس أبو جندل، فكتب أبو عبيدة إلى عمر: إنّ أبا جندل قد وسوس، إلّا أن يأتيَه الله على يدْيك بفرج، فاكتب إليه وذكّره، فكتب إليه عمر وذكّره، فكتب إليه: من عمر إلى أبي جَنْدل ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾، فتبْ وارفع رأسك، وابرز ولا تقنَط، فإنّ الله عزّ وجلّ، يقول: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا

عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم ﴾. فلما قرأه عليه أبو عبيدة تطلّق وأسفِر عنه. وكتب إلى الآخرين بمثل ذلك فبرزوا، وكتب إلى الناس: عليكم أنفسكم، ومَن استوجب التّغيير فغيّروا عليه، ولا تعيّروا أحداً فيفشوَ فيكم البلاء.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن عطاء نحواً منه، إلّا أنه لم يذكر أنه كتب إلى الناس ألا يعيّروهم، وقال: قالوا: جاشت الروم، دَعُونا نغزوهم، فإن قضى الله لنا الشهادة فذلك، وإلّا عَمَدتَ للذي يريد. فاستُشهد ضرار بن الأزور في قوم، وبقيَ الآخرون فحُدّوا. وقال أبو الزّهراء القُشَيريّ في ذلك:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـدهْـرَ يَعْثُـرُ بـالفـتى ... ولَيْسَ على صَـرْفِ المَنـونِ بِقـادِرِ
صَبَرْتُ ولم أَجْزَعْ وقَدْ ماتَ إِخْوَتي ... ولَسْتُ عن الصهْبـاءِ يَـوْمـاً بِصَابِـرِ
رَمـاهـا أميـر المـؤمنين بـحَتـفِهـا ... فخُـلّانُها يَبْكـونَ حَـوْلَ المَعَـاصِـرِ

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن الرّبيع بن النعمان وأبي المجالد جراد بن عمرو وأبي عثمان يزيد بن أسيد الغسّانيّ، وأبي حارثة مُحْرِز العَبْشميّ بإسنادهم، ومحمد بن عبد الله، عن كُريب، قالوا: أصابت الناس في إمارة عمر رضي الله عنه سَنَةٌ بالمدينة وما حولها، فكانت تَسْفى إذا رِيحَت تراباً كالرماد، فسمّيَ ذلك العامُ عامَ الرّمادة، فآلى عمر ألّا يذوقَ سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيِيَ الناس من أوّل الحيا، فكان بذلك حتى أحيا الناسُ من أوّل الحيا، فقدمت السوقَ عُكّة من سمن ووطْب من لبن؛ فاشتراهما غلام لعمر بأربعين، ثم أتى عمر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قد أبرَّ الله يمينك، وعظّم أجرك، قدم السوق وطْب من لبن وعُكة من سمن فابتعتها بأربعين، فقال عمر: أغليتَ بهما، فتصدّقْ بهما، فإنّي أكره أن آكل إسرافاً، وقال عمر: كيف يعنيني شأن الرعيّة إذا لم يمَسّني ما مسّهم!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف السُّلميّ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: كانت في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثمان عشرة، وكانت الرّمادة جوعاً أصاب الناس بالمدينة وما حولها فأهلكهم حتّى جعلت الوحشُ تأوِي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قُبحها، وإنّه لمقفر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن عبد الرحمن بن كعب، قال: كان الناس بذلك وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار؛ حتى أقبل بلال بن الحارث المزنيّ، فاستأذن عليه، فقال: أنا رسولُ الله إليك؛ يقول لك رسولُ الله ﷺ: لقد عهدتُك كيّساً، وما زلت على رِجْل؛ فما شأنك! فقال: متى رأيتَ هذا؟ قال: البارحة، فخرج فنادى في الناس: الصلاة جامعة! فصلّى بهم ركعتين؛ ثم قام فقال: أيُّها الناس، أنشُدكم الله، هل تعلمون منّي أمراً غيره خيرٌ منه؟ قالوا: اللهم لا، قال: فإنّ بلال بن الحارث يزعم ذَيّة وذَيّة؛ فقالوا: صدق بلال، فاستغث بالله وبالمسلمين، فبعث إليهم ـ وكان عمر عن ذلك محصوراً ـ فقال عمر: الله أكبر! بلغ البلاءُ مدّته فانكشف؛ ما أذِن لقوم في الطلب إلّا وقد رُفِع عنهم البلاء؛ فكتب إلى أمراء الأمصار: أغيثوا أهلَ المدينة ومن حولها، فإنه قد بلغ جَهْدهم؛ وأخرج الناس إلى الاستسقاء، فخرج وخرج معه بالعباس ماشياً، فخطب فأوجز؛ ثم صلى، ثم جثا لركبتيه، وقال: اللهمّ إيّاك نعبد وإياك نستعين؛ اللهمّ

اغفرْ لنا وارحَمْنا وارضَ عنّا. ثم انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضُوا الغُدْران.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشّر بن الفضيل، عن جُبير بن صخر، عن عاصم بن عمر بن الخطاب، قال: قحط الناس زمانَ عمر عاماً، فهُزِل المال، فقال أهلُ بيت من مُزينة من أهل البادية لصاحبهم: قد بلغنا، فاذبح لنا شاة، قال: ليس فيهنّ شيء، فلم يزالوا به حتى ذبح لهم شاة، فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمّداه! فأرِيَ فيما يرى النائم أنّ رسولَ الله ﷺ أتاه، فقال: أبشِرْ بالحيا! ائت عمرَ فأقرئه مني السلام، وقل له: إنّ عهدي بك وأنت وفيّ العهد، شديد العقد، فالكَيْس الكَيْس يا عمر! فجاء حتى أتى باب عمر؛ فقال لغلامه: استأذِنْ لرسول رسول الله ﷺ، فأتى عمر فأخبره، ففزِع وقال: رأيتَ به مسًّا! قال: لا، قال: فأدخله، فدخل فأخبره الخبر، فخرج فنادى في الناس، وصعد المنبر، وقال: أنشدكم بالذي هداكم للإسلام؛ هل رأيتم مني شيئاً تكرهونه! قالوا: اللهمّ لا، قالوا: ولم ذاك؟ فأخبرهم، ففطِنوا ولم يفْطَن؛ فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء، فاستسقِ بنا، فنادى في الناس، فقام فخطب فأوجز، ثم صلى ركعتيْن فأوجز، ثم قال: اللهمّ عجزتْ عنّا أنصارنا، وعجز عنا حولُنا وقوّتُنا، وعجزتْ عنا أنفسُنا، ولا حولَ ولا قوّة إلا بك، اللّهمّ فاسقنا، وأَحْيِ العباد والبلاد!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الرّبيع بن النعمان وجراد أبي المجالد وأبي عثمان وأبي حارثة، كلّهم عن رجاء ـ وزاد أبو عثمان وأبو حارثة: عن عبادة وخالد، عن عبد الرحمن بن غَنْم ـ قالوا: كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومَن حولها، ويستمدّهم، فكان أوّل مَن قدِم عليه أبو عبيدة بن الجرّاح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولّاه قسمتَها فيمن حول المدينة، فلمّا فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم، فقال: لا حاجةَ لي فيها يا أمير المؤمنين؛ إنما أردت الله وما قبَله، فلا تدخل عليّ الدنيا، فقال: خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه، فأبى فقال: خُذْها فإنّي قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا، فقال لي مثل ما قلت لك، فقلتُ له كما قلتَ فأعطاني. فقبل أبو عبيدة وانصرف إلى عمله، وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز، وأَحْيَوْا مع أوّل الحيا.

وقالوا بإسنادهم: وجاء كتاب عمرو بن العاص جواب كتاب عمر في الاستغاثة: إن البحر الشاميّ حُفر لمبعث رسول الله ﷺ حفيراً، فصبّ في بحر العرب، فسدّه الروم والقِبْط، فإن أحببتَ أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر، حفرتُ له نهراً وبنيت له قناطر. فكتب إليه عمر: أن افعل وعجّل ذلك؛ فقال له أهل مصر: خراجك زاجٍ وأميرك راضٍ؛ وإن تمّ هذا انكسر الخراج. فكتب إلى عمر بذلك، وذكر أن فيه انكسار خراج مصر وخرابها. فكتب إليه عمر: اعمل فيه وعجّل، أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها، فعالجه عمرو وهو بالقُلْزم، فكان سعر المدينة كسعر مصر، ولم يزِدْ ذلك مصر إلّا رخاء، ولم يرَ أهل المدينة بعد الرمادة مثلها، حتى حُبس عنهم البحر مع مقتل عثمان رضي الله عنه. فذلّوا وتقاصروا وخشعوا.

قال أبو جعفر: وزعم الواقديّ أن الرّقة والرُّها وحَرّان فتحت في هذه السنة على يدي عياض بن غَنْم، وأن عين الوَرْدة فتحت فيها على يدي عُمير بن سعد. وقد ذكرتُ قول مَنْ خالفه في ذلك فيما مضى، وزعم أن عمر رضي الله عنه حوّل المقام في هذه السنة في ذي الحجة إلى موضعه اليوم، وكان مُلْصَقاً بالبيت قبل ذلك. وقال: مات في طاعون عَمَواس خمسة وعشرون ألفاً.

قال أبو جعفر: وقال بعضهم: وفي هذه السنة استقضى عمر شُرَيح بن الحارث الكِنديّ على الكوفة، وعلى البصرة كعب بن سُور الأزديّ.

قال: وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

وكانت وُلاته في هذه السنة على الأمصار الوُلاةَ الذين كانوا عليه في سنة سبع عشرة.

ثم دخلت سنة تسع عشرة

ذكر الأحداث التي كانت في سنة تسع عشرة

قال أبو جعفر: قال أبو معشر ـ فيما حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى عنه: إنّ فتح جَلُولاء كان في سنة تسع عشرة على يديْ سعد، وكذلك قال الواقديّ.

وقال ابن إسحاق: كان فتح الجزيرة والرُّهاء وحَرّان ورأس العيْن وَنصيبينَ في سنة تسع عشرة.

قال أبو جعفر: وقد ذكرنا قولَ من خالفهم في ذلك قبلُ.

وقال أبو معشر: كان فتح قَيْساريّة في هذه السنة ـ أعني سنة تسع عشرة ـ وأميرها معاوية بن أبي سفيان؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت الرازيّ، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عنه.

وكالذي قال أبو معشر في ذلك قال الواقديّ.

وأما ابنُ إسحاق فإنه قال: كان فتح قيساريّة من فِلسطين وهَربُ هرقل وفتْحُ مصر في سنة عشرين؛ حدّثنا بذلك ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمة، عنه.

وأما سيف بن عمر فإنه قال: كان فتحُها في سنة ستّ عشرة. قال: وكذلك فتح مصر.

وقد مضى الخبر عن فتح قيساريّة قبل، وأنا ذاكر خبر مصر وفتحها بعدُ في قول؛ من قال: فُتِحت سنة عشرين، وفي قول من خالف ذلك.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة ـ أعني سنة تسع عشرة ـ سالت حَرّة ليلى ناراً ـ فيما زعم الواقديّ ـ فأراد عمر الخروج إليها بالـرّجال، ثم أمرهم بالصدقة فانطفأت.

وزعم أيضاً الواقديّ أنّ المدائن وجَلُولاء فُتحتا في هذه السنة، وقد مضى ذكر من خالفه في ذلك.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

وكان عمّاله على الأمصار وقضاته فيها الولاة والقضاة الذين كانوا عليها في سنة ثمان عشرة.

ثم دخلت سنة عشرين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من مغازي المسلمين وغير ذلك من أمورهم

قال أبو جعفر: ففي هذه السنة فتِحت مصر في قول ابن إسحاق. حدّثنا ابنُ حُمَيد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: فتِحت مصر سنة عشرين.

وكذلك قال أبو معشر؛ حدّثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، أنه قال: فتِحت مصر سنة عشرين، وأميرها عمرو بن العاص.

وحدّثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: فتحت إسكندريّة سنة خمس وعشرين.

وقال الواقديّ - فيما حُدّثت عن ابن سعد عنه: فُتِحت مصر والإسكندرية في سنة عشرين.

وأما سيف فإنه زعم - فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف - أنها فُتِحت والإسكندرية في سنة ستّ عشرة.

ذكر الخبر عن فتحها وفتح الإسكندرية

قال أبو جعفر: قد ذكرنا اختلافَ أهل السِّيَر في السنة التي كان فيها فتح مصر والإسكندرية ،ونذكر الآن سبب فتحهما، وعلى يدي مَن كان؛ على ما في ذلك من اختلاف بينهم أيضاً؛ فأما ابنُ إسحاق فإنه قال في ذلك ما حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة عنه، أنّ عمر رضي الله عنه حين فرغ من الشأم كلّها كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر في جُنده؛ فخرج حتى فتح باب اليون في سنة عشرين.

قال: وقد اختُلف في فتح الإسكندرية، فبعض الناس يزعم أنها فتحت في سنة خمس وعشرين، وعلى سنتين من خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وعليها عمرو بن العاص.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمد بن إسحاق، قال: وحدّثني القاسم بن قُزْمان - رجل من أهل مصر - عن زياد بن جَزْء الزُّبيديّ، أنه حدّثه أنه كان في جند عمرو بن العاص حين افتتح مصر والإسكندرية، قال: افتتحنا الإسكندرية في خلافة عمر بن الخطاب في سنة إحدى وعشرين - أو سنة اثنتين وعشرين - قال: لما افتتحنا باب اليُون تدنّينا قُرى الرّيف فيما بيننا وبين الإسكندرية قريةً فقريةً؛ حتى انتهينا إلى بَلْهيب - قرية من قرى الريف، يقال لها قرية الريش - وقد بلغت سبايانا المدينة ومكّة واليمن.

قال: فلما انتهينا إلى بَلْهيب أرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو بن العاص: إنّي قد كنت أخرِج الجزية إلى من هو أبغض إليّ منكم معشر العرب لفارس والروم، فإن أحببتَ أن أعطيَك الجزية على أن تردّ عليّ ما أصبتم مِن سَبايا فعلتُ.

قال: فبعث إليه عمرو بن العاص: إنّ ورائي أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه، فإن شئتَ أن أمسِك عنك وتُمسِك عنّي حتى أكتب إليه بالذي عرضتَ عليّ، فإن هو قبِل ذلك منك قبلتُ، وإن أمرني بغير ذلك مضيتُ لأمره. قال: فقال: نعم. قال: فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ـ قال: وكانوا لا يُخفون علينا كتاباً كتبوا به ـ يذكر له الذي عرض عليه صاحب الإسكندرية. قال: وفي أيدينا بقايَا من سَبْيهم. ثم وقفنا ببلْهيب؛ وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا؛ فقرأه علينا عمرو وفيه: أما بعد؛ فإنه جاءني كتابك تذكر أنّ صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيَك الجزية على أن تردّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه؛ ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحبُّ إليّ من فيء يقسَم، ثم كأنّه لم يكن؛ فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيَك الجِزْية؛ على أن تُخيّروا مَنْ في أيديكم من سَبْيهم بين الإسلام وبين دين قومه؛ فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين؛ له ما لهم وعليه ما عليهم، ومَن اختار دين قومه، وُضع عليه من الجزية ما يوضَع على أهل دينه، فأما مَن تفرّق من سبيِهم بأرض العرب فبلغ مكّة والمدينة واليمن، فإنا لا نقدر على ردّهم، ولا نحبّ أن نصالحه على أمر لا نَفِي له به. قال: فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين. قال: فقال: قد فعلتُ. قال: فجمعنا ما في أيدينا من السبَايا، واجتمعت النصارى، فجعلنا نأتي بالرّجل ممن في أيدينا، ثمّ نخيّره بين الإسلام وبين النصرانيّة، فإذا اختار الإسلام كبّرنا تكبيرة هي أشدّ من تكبيرنا حين تُفتح القرية؛ قال: ثم نحوزه إلينا، وإذا اختار النصرانيّة نخرت النصارى، ثم حازوه إليهم؛ ووضعنا عليه الجِزْية، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً؛ حتى كأنّه رجل خرج منا إليهم. قال: فكان ذلك الدَّأب حتى فرغنا منهم، وقد أُتي فيمن أتينا به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن ـ قال القاسم: وقد أدركته وهو عَريف بني زُبَيد ـ قال: فوقفناه، فعرضنا عليه الإسلام والنصرانيّة ـ وأبوه وأمه وإخوته في النصارى ـ فاختار الإسلام ،فحزناه إلينا، ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا؛ حتى شققوا عليه ثيابه، ثم هو اليومَ عريفنا كما ترى. ثم فتحت لنا الإسكندرية فدخلناها، وإنّ هذه الكُناسة التي ترى يابن أبي القاسم لَكُناسة بناحية الإسكندرية حولها أحجار كما ترى، ما زادت ولا نقصت، فمن زعم غير ذلك أنّ الإسكندرية وما حولها من القرى لم يكن لها جزية ولا لأهلها عهد؛ فقد والله كذب. قال القاسم: وإنما هاج هذا الحديثَ أن ملوك بني أميّة كانوا يكتبون إلى أمراء مصر أنّ مصر إنما دخلت عَنْوة؛ وإنما هم عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا، ونضع ما شئنا.

قال أبو جعفر: وأما سيف؛ فإنه ذكر فيما كتب به إليّ السريّ، يذكر أن شعيباً حدّثه عنه، عن الربيع أبي سعيد، وعن أبي عثمان وأبي حارثة، قالوا: أقام عمر بإيلياء بعد ما صالح أهلَها، ودخلها أياماً، فأمضى عمرَو بن العاص إلى مصر وأمّره عليها، إن فتح الله عليه، وبعث في أثره الزّبير بن العوّام مدداً له، وبعث أبا عبيدة إلى الرّمادة، وأمره إن فتح الله عليه أن يرجع إلى عمله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، قال: حدثنا أبو عثمان عن خالد وعبادة، قالا: خرج عمرو بن العاص إلى مصر بعد ما رجع عمر إلى المدينة؛ حتى انتهى إلى باب اليون، وأتبعه الزبير؛ فاجتمعا، فلقيهم هنالك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأُسْقُفّ في أهل النيّات بعثه المقوقِس لمنع بلادهم. فلما نزل بهم

عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم: لا تعجّلونا لنُعذِر إليكم، وتروْن رأيكم بعدُ. فكَفُّوا أصحابهم، وأرسل إليهم عمرو: إني بارز فليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك، وآمن بعضهم بعضاً، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا، إنّ الله عزّ وجلّ بعث محمّداً ﷺ بالحقّ وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدّى إلينا كلّ الذي أمِر به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذي عليه، وتركنا على الواضحة؛ وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومَنْ لم يجبنا عرَضنا عليه الجزية، وبذلنا له المَنْعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحِمنا فيكم، وإنّ لكم إن أجبتمونا بذلك ذمّة إلى ذمّة. ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقِبْطيِّين خيراً؛ فإنّ رسولَ الله ﷺ أوصانا بالقبطيِّين خيراً، لأنّ لهم رَحِماً وذمّة، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلّا الأنبياء، معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا، وكانت من أهل مَنْف والملك فيهم، فأديل عليهم أهل عين شمس، فقتلوهم وسلبوا ملكَهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام مرحباً به وأهلا، آمنّا حتى نرجع إليك. فقال عمرو: إنّ مثلي لا يخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا ولتناظرا قومكما؛ وإلّا ناجزتكم، قالا: زدنا، فزادهم يوماً، فقالا: زدْنا، فزادهم يوماً، فرجعا إلى المقوقس فهمّ، فأبى أرطبون أن يجيبهما، وأمر بمناهدتهم، فقالا لأهل مصر: أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم، ولا نرجع إليهم، وقد بقيتْ أربعة أيام، فلا تصابون فيها بشيء إلّا رجونا أن يكون له أمان. فلم يفجأ عمراً والزبير إلّا البيات من فَرْقَب، وعمرو على عُدّة، فلقوه فقتِل ومن معه، ثم ركبوا أكساءهم، وقصد عمرو والزبير لعين شمس، وبها جمعهم، وبعث إلى الفرَما أبرهة بن الصباح، فنزل عليها، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية. فنزل عليها، فقال كلّ واحد منهما لأهل مدينته: إن تنزلوا فلكم الأمان، فقالوا: نعم، فراسلوهم، وتربّص بهم أهل عين شمس، وسبى المسلمون مَن بين ذلك. وقال عوف بن مالك: ما أحسن مدينتَكم يا أهلَ الإسكندرية! فقالوا: إنّ الإسكندر قال: إني أبني مدينة إلى الله فقيرة، وعن الناس غنيّة ـ أو لأبنينّ مدينة إلى الله فقيرة، وعن الناس غنية ـ فبقيت بهجتها.

وقال أبرهة لأهل الفَرَما: ما أخلق مدينتكم يا أهل الفَرما؟ قالوا: إنّ الفرما قال: إنّي أبني مدينة عن الله غنية، وإلى الناس فقيرة، فذهبت بهجتها.

وكان الإسكندر والفرما أخوين.

قال أبو جعفر: قال الكلبيّ: كان الإسكندر والفَرما أخوين، ثم حدّث بمثل ذلك، فنسبتا إليهما، فالفَرَما ينهدم فيها كل يوم شيء، وخَلُقت مرآتها، وبقيت جِدّة الإسكندرية.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان، قالا: لما نزل عمرو على القوم بعين شمس؛ وكان المُلْك بين القِبْط والنّوب، ونزل معه الزبير عليها. قال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قوم فلُّوا كسرى وقيصر، وغلبوهم على بلادهم! صالح القوم واعتقِدْ منهم، ولا تَعْرض لهم، ولا تعرّضنا لهم ـ وذلك في اليوم الرابع ـ فأبى، وناهدوهم فقاتلوهم، وارتقى الزبير سورها، فلما أحسّوه فتحوا الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين؛ فقبل منهم، ونزل الزُّبير عليهم عَنْوة؛ حتى خرج على عمرو من الباب معهم، فاعتقدوا بعد ما أشرفوا على الهلَكة، فأجرَوْا ما أخِذ عنوة مُجْرى ما صالح عليه؛ فصاروا ذمّة، وكان صلحُهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهلَ مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم

وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبرّهم وبحرهم؛ لا يدخلَ عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص، ولا يساكنهم النّوب. وعلى أهلِ مصر أن يُعْطُوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصُّلْح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصُوتِهم، فإن أبى أحدٌ منهم أن يجيب رفُع عنهم من الجِزاء بقدرهم، وذمّتنا ممّن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك، ومَنْ دخل في صلحهم من الرّوم والنُّوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومَنْ أبى واختار الذّهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كلّ ثلث جِباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّته وذمّة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على ألّا يُغْزَوْا ولا يمنَعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردانُ وحضر.

فدخل في ذلك أهلُ مصر كلّهم، وقبِلوا الصلح، واجتمعت الخيول فمصّر عمرو الفسطاط، ونزلـه المسلمون، وظهر أبو مريم وأبو مريام، فكلّما عمراً في السبايا التي أصيبت بعد المعركة، فقال: أوَلهم عَهْد وعقد؟ ألم نحالفكما ويُغار علينا من يومكما! وطردهما، فرجعا وهما يقولان: كلّ شيء أصبتموه إلى أن نرجعَ إليكم ففي ذمّةٍ منكم، فقال لهما: أتغيرون علينا وهم في ذمة؟ قالا: نعم، وقسم عمرو ذلـك السبْيَ على الناس، وتوزّعوه، ووقع في بُلدان العرب. وقدم البشير على عمر بعدُ بالأخماس، وبعث الوفود فسألهم عمر، فما زالوا يُخبرونه حتى مرُّوا بحديث الجاثَليق وصاحبه، فقال: ألا أراهما يبصران وأنتم تُجاهلون ولا تُبصرون! مَن قاتلكم فلا أمان له، ومَن لم يقاتلكم فأصابه منكم شيء من أهل القرى فله الأمان في الأيام الخمسـة حتى تنصرم، وبعث في الآفاق حتى رُدّ ذلك السَّبْي الذي سُبوا ممن لم يقاتل في الأيام الخمسة إلّا مَن قاتل بعدُ، فترادُّوهم إلّا ما كان من ذلك الضّرب، وحضرت القِبْط باب عمرو، وبلغ عمراً أنهم يقولون: ما أرثّ العرب وأهون عليهم أنفسهم! ما رأينا مثلنا دان لهم! فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم، فأمر بُجُزر فذبِحت، فطبخت بالماء والملح، وأمر أمراء الأجناد أن يحضُروا، وأعلموا أصحابهم، وجلس وأذّن لأهل مصر، وجيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين؛ فأكلوا أكلاً عربياً، انتشلوا وحَسَوْا وهم في العَباء ولا سلاح، فافترق أهل مصر وقد ازدادوا طمعاً وجرأة، وبعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد؛ وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ففعلوا، وأذن لأهل مصر؛ فرأوْا شيئاً غير ما رأوا بالأمس، وقام عليهم القوّام بألوان مصر، فأكلوا أكل أهل مصر، ونحوْا نحوهم، فافترقوا وقد ارتابوا، وقالوا: كدنا. وبعث إلـيهم أن تسلّحوا للعرْض غداً، وغدا على العَرْض، وأذن لهم فعرضهم عليهم. ثم قال: إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب وهَوْن تزجيتهم، فخشيت أن تهلِكوا، فأحببت أن أريَكم حالهم، وكيف كانت في أرضهم، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرْب، فظفروا بكم، وذلك عيشهم، وقد كلِبوا على بلادكم قبل أن ينالُوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني، فأحببت أن تعلَموا أنّ من رأيتم في اليوم الثالث غيرُ تارك عيشَ اليوم الثاني، وراجع إلى عيش اليوم الأول. فتفرّقوا وهم يقولون: لقد رمتكم العرب برجلهم.

وبلغ عمر، فقال لجلسائه: والله إن حربه لَليّنة ما لها سَطْوة ولا سَوْرة كسوْرات الحروب من غيره؛ إنّ عَمْراً لِعضّ. ثم أمّره عليها وقام بها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي سعيد الربيع بن النعمان، عن عمرو بن شعيب،

قال: لما التقى عمرو والمقوقس بعين شمس، واقتتلت خيلاهما، جعل المسلمون يجولون بعد البُعد. فذمّرهم عمرو، فقال: رجل من أهل اليمن: إنّا لم نخلَق من حِجارة ولا حديد! فقال: اسكت؛ فإنما أنت كَلْب، قال: فأنت أمير الكلاب، قال: فلما جعل ذلك يتواصل نادى عمرو: أين أصحابُ رسولِ الله ﷺ؟ فحضر مَن شهدها من أصحاب رسولِ الله ﷺ، فقال: تقدّموا، فبكم ينصر الله المسلمين. فتقدّموا وفيهم يومئذ أبو بُردة وأبو بَرْزة، وناهدهم الناس يتبعون الصحابة، ففتح الله على المسلمين، وظفِروا أحسن الظّفر. وافتتحت مصر في ربيع الأول سنة ستّ عشرة، وقام فيها مُلك الإسلام على رجْل، وجعل يفيض على الأمم والملوك؛ فكان أهل مصر يتدَفَّقون على الأجلّ، وأهل مُكْران على راسِل وداهر، وأهل سِجِسْتان على الشاه وذَويه، وأهل خُراسان والباب على خاقان، وخاقان ومَن دونهما من الأمم، فكفكفهم عمر إبقاء على أهل الإسلام، ولو خلّى سِر بهم لبلغوا كلّ مَنْهَل.

حدّثني عليّ بن سهل، قال: حدّثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرني ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أنّ المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نُوبة مصر، فقفل المسلمون بالجِراحات، وذهاب الحَدقَ من جُودة الرمي، فسمّوا رماة الحَدَق، فلمّا ولِّيَ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح مصر، ولاّه إياها عثمان بن عفان رضي الله عنه، صالحهم على هديَّة عدّة رؤوس منهم، يؤدّونهم إلى المسلمين في كلّ سنة، ويهدي إليهم المسلمون في كلّ سنة طعاماً مسمّى وكُسورة من نحو ذلك.

قال عليّ: قال الوليد: قال ابن لَهيعة: وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من الولاة والأمراء، وأقرّه عمر بن عبد العزيز نظراً منه للمسلمين، وإبقاء عليهم.

قال سيف: ولمّا كان ذو القعدة من سنة ستّ عشرة، وضع عمر رضي الله عنه مسالح مصر على السواحل كلها، وكان داعية ذلك أنّ هِرَقل أغزى مصر والشأم في البحر، ونَهد لأهل حِمْص بنفسه، وذلك لثلاث سنين وستة أشهر من إمارة عمر رضي الله عنه.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة ـ أعني سنة عشرين ـ غزا أرض الرّوم أبو بَحْريّة الكِنديّ عبد الله بن قيس؛ وهو أوّل مَن دخلها ـ فيما قيل. وقيل: أولُ مَن دخلها ميسرة بن مسروق العبسيّ، فسلِم وغنِم.

قال: وقال الواقديّ: وفي هذه السنة عَزَل قُدامةَ بن مظعون عن البحرين، وحَدّه في شرب الخمر.

وفيها استعمل عُمر أبا هريرة على البحرين واليمامة.

قال: وفيها تزوّج عمر فاطمةَ بنت الوليد أمّ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

قال: وفيها توفيَ بلال بن رَباح رضي الله عنه، ودُفِن في مقبرة دمشق.

وفيها عزل عمرُ سعداً عن الكوفة لشكايتهم إياه، وقالوا: لا يحسِنُ يصلّي.

وفيها قسم عمر خيبرَ بين المسلمين، وأجلَى اليهود منها؛ وبعث أبا حبِيبة إلى فَدَك فأقام لهم نصف. . . ، فأعطاهم؛ ومضى إلى وادي القرى فقسمها.

وفيها أجْلى يهودَ نَجْران إلى الكوفة ـ فيما زعم الواقديّ.

قال الواقديّ: وفي هذه السنة ـ أعني سنة عشرين ـ دوّن عمر رضي الله عنه الدواوين. قال أبو جعفر:

قد ذكرنا قول من خالفه.

وفيها بعث عمر رضي الله عنه عَلْقمة بن مَجزّز المُدلجيّ إلى الحَبشة في البحر؛ وذلك أنّ الحَبشة كانت تطرّفت - فيما ذُكر - طرَفاً من أطراف الإسلام؛ فأصيبوا، فجعل عمر على نفسه ألّا يحمل في البحر أحداً أبداً.

وأمّا أبو معشر فإنه قال - فيما حدّثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه: كانت غزوة الأساودة في البحر سنة إحدى وثلاثين.

قال الواقديّ: وفيها مات أسَيْد بن الحُضَير في شعبان.

وفيها ماتت زينب بنت جحش.

وحجّ في هذه السنة عمر رضي الله عنه.

وكانت عمالُه في هذه السنة على الأمصار عمالَهُ عليها في السنة التي قبلها، إلّا من ذكرتُ أنه عـزله واستبدل به غيرَه، وكذلك قضاته فيها كانوا القضاةَ الذين كانوا في السنة التي قبلها.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين

قال أبو جعفر: وفيها كانت وقعة نِهاوَنْد في قول ابن إسحاق؛ حدّثنا بذلك ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة. عنه

وكذلك قال أبو معشر؛ حدّثني بذلك أحمدُ بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه.

وكذلك قال الواقديّ.

وأمّا سيف بن عمر فإنه قال: كانت وقعة نِهاوَنْد في سنة ثمان عشرة في سنة ستّ من إمارة عمر؛ كتب إليّ بذلك السّريّ، عن شعيب، عن سيف.

ذكر الخبر عن وقعة المسلمين والفرس بنهاوند

وكان ابتداءُ ذلك ـ فيما حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال ـ كان من حديث نِهاوَنْد أن النعمان بن مقرّن كان عاملاً على كَسْكَر؛ فكتب إلى عمر رضي الله عنه يخبرُه أنّ سعد بن أبي وقّاص استعمله على جِباية الخراج، وقد أحببتُ الجهاد ورغبتُ فيه.

فكتب عمر إلى سعد: إنّ النعمان كتب إليّ يذكر أنّك استعملتَه على جِباية الخراج، وأنه قد كره ذلك، ورغب في الجهاد، فابعث به إلى أهمّ وجوهك؛ إلى نِهاوند.

قال: وقد اجتمعتْ بِنهاوند الأعاجم، عليهم ذو الحاجب ـ رجل من الأعاجم ـ فكتب عمر إلى النّعمان بن مقرّن:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرّن، سلامٌ عليك؛ فإنّي أحمَد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أمّا بعد؛ فإنه قد بلَغني أنّ جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نِهاوند؛ فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله؛ بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيَهم، ولا تمنعْهم حقّهم فتكفِّرَهم؛ ولا تدخلنّهم غَيْضة، فإنّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليّ من مائة ألف دينار. والسلام عليك.

فسار النعمان إليه ومعه وجوه أصحاب النبيّ ﷺ؛ منهم حُذَيفة بن اليمان، وعبد الله بن عمر بن الخطّاب، وجرير بن عبد الله البَجَليّ، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معد يكرب الزُّبيديّ، وطليحة بن خُويلد الأسديّ، وقيس بن مَكشوح المُراديّ. فلما انتهى النعمان بن مقرّن في جنده إلى نِهاوند، طرحوا له حَسَك

الحديد، فبعث عيوناً، فساروا لا يعلمون بالحسَك، فزجر بعضهم فرَسه؛ وقد دخلتْ في يده حَسكة، فلم يبرح، فنزل، فنظر في يده فإذا في حافره حَسَكة، فأقبل بها، وأخبر النعمان الخَبر، فقال النعمان للناس: ما ترون؟ فقالوا: انتقِل من منزلك هذا حتى يروْا أنك هارب منهم، فيخرجوا في طلبك؛ فانتقل النعمان من منزله ذلك، وكَنَست الأعاجم الحسك، ثم خرجوا في طلبه، وعطف عليهم النُّعمان، فضرب عسكرَه، ثم عبَّى كتائبه، وخطب الناس فقال: إن أُصِبتُ فعليكم حذيفة بن اليَمان، وإن أُصيب فعليكم جرير بن عبد الله، وإن أُصيب جرير بن عبد الله فعليكم قيس بن مكشوح؛ فوجَد المغيرة بن شعبة في نفسه إذْ لم يستخلفه، فأتاه، فقال له: ما تريد أن تصنع؟ فقال: إذا أظهرتُ قاتلتهُم، لأني رأيتُ رسولَ الله ﷺ يستحبّ ذلك؛ فقال المغيرة: لو كنتُ بمنزلتك باكرتُهم القتال، قال له النعمان: ربما باكرتَ القتال؛ ثم لم يسوّد الله وجهَك. وذلك يوم الجمعة. فقال النعمان: نصلّي إن شاء الله، ثم نلقَى عدوّناً دُبُر الصلاة، فلما تصافُّوا قال النعمان للناس: إنّي مكبّر ثلاثاً؛ فإذا كبّرت الأولى فشدّ رجل شِسْعه، وأصلح من شأنه؛ فإذا كبّرت الثانية، فشدّ رجل إزاره، وتهيّأ لوجه حملته؛ فإذا كبّرت الثالثة فاحملوا عليهم؛ فإني حامل. وخرجت الأعاجم قد شدّوا أنفسَهم بالسلاسل لئلا يفرُّوا، وحمل عليهم المسلمون فقاتلوهم، فرُمِي النعمان بنشّابة فقتِل رحمه الله، فلفّه أخوه سُوَيد بن مقرّن في ثوبه، وكتم قتلَه حتى فتح الله عليهم، ثم دفع الرّاية إلى حُذيفة بن اليمان، وقتل الله ذا الحاجب، وافتُتِحت نِهاوند، فلم يكن للأعاجم بعد ذلك جماعة.

قال أبو جعفر: وقد كان ـ فيما ذكِر لي ـ بعث عمر بن الخطّاب رضي الله عنه السائبَ بن الأقرع، مولى ثَقِيف ـ وكان رجلاً كاتباً حاسباً ـ فقال: الحقْ بهذا الجيش فكن فيهم؛ فإنْ فتَح الله عليهم فاقسم على المسلمين فيئَهم، وخذ خمس الله وخمس رسوله؛ وإنْ هذا الجيش أُصِيب، فاذهب في سواد الأرض، فبطن الأرض خيرٌ من ظهرها.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين نَهَاوند، أصابوا غنائم عظاماً، فوالله إني لأقسم بين الناس، إذ جاءني عِلْج من أهلها فقال: أتُؤْمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي؛ على أن أدلك على كُنوز النَّخيرجان ـ وهي كنوز آل كسرى ـ تكون لك ولصاحبك، لا يَشرُكك فيها أحد؟ قال: قلت: نعم، قال: فابعث معي من أدلّه عليها، فبعثت معه، فأتى بسَفَطين عظيمين ليس فيهما إلّا اللؤلؤ والزّبَرجد والياقوت؛ فلما فرغت من قسْمِي بين الناس احتملتهما معي؛ ثم قدِمت على عمر بن الخطاب؛ فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح؛ واستُشهد النعمان بن مقرّن رحمه الله. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! قال: ثم بكى فنشَج، حتى إنّي لأنظر إلى فروع مَنكِبيه من فوق كَتده. قال: فلما رأيتُ ما لقي قلت: والله يا أميرَ المؤمنين ما أصيبَ بعده من رجل يُعرف وجهه. فقال المستضعَفون من المسلمين: لكنّ أكرمهم بالشهادة يعرف وجوهَهم وأنسابَهم، وما يصنعون بمعرفة عمر بن أمّ عمر! ثم قام ليدخل، فقلت: إنّ معي مالاً عظيماً قد جئت به، ثم أخبرته خبر السَّفَطيْن، قال: أدخِلْهما بيتَ المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك. قال: فأدخلتُهما بيت المال، وخرجت سريعاً إلى الكوفة. قال: وبات تلك الليلة التي خرجت فيها؛ فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني حتى دخلتُ الكوفة، فأنخت بعيري، وأناخ بعيره على عُرقوبيْ بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين، فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلّا الآن. قال: قلت: ويْلك! ماذا ولماذا؟ قال: لا أدري والله، قال: فركبتُ معه حتى قدمتُ عليه، فلما رآني قال: مالي ولابن أمّ السائب! بل ما لابن أمّ

السائب ومالي! قال: قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ويحك! والله ما هو إلاّ أن نمت في الليلة التي خرجتَ فيها، فباتت ملائكة ربي تسحَبُني إلى ذيْنك السفَطيْن يشتعلان ناراً، يقولون: لنكوينَّك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين؛ فخذهما عنّي لا أبالك والحق بهما، فبعتهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم. قال: فخرجتُ بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، «وغشِيَني التجار، فابتاعهما منّي عمرو بن حُريث المخزوميّ بألفي ألف؛ ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم، فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثرَ أهل الكوفة مالاً بعد.

حدّثنا الرّبيع بن سليمان، قال: حدّثنا أسد بن موسى، قال: حدّثنا المبارك بن فضالة، عن زياد بن حُدير، قال: حدّثني أبي؛ أنّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، قال للهرمزان حين آمنه: لا بأس، انصح لي، قال: نعم، قال: إنّ فارس اليوم رأس وجناحان؛ قال: وأين الرأس؟ قال: بنهاوند مع بُنْدار؛ فإنّ معه أساورة كسرى وأهل أصبهان، قال: وأين الجناحان؟ فذكر مكاناً نسيته، قال: فاقطع الجناحين يَهِن الرأس. فقال عمر: كذبت يا عدوّ الله! بل أعْمد إلى الرأس فأقطعه، فإذا قطعه الله لم يعصِ عليه الجناحان. قال: فأراد أن يسير إليه بنفسه، فقالوا: نذكّرك الله يا أمير المؤمنين أن تسيرَ بنفسك إلى حَلْبة العجم؛ فإن أُصبت لم يكن للمسلمين نظام؛ ولكن ابعث الجنود؛ فبعث أهل المدينة فيهم عبد الله بن عمر بن الخطّاب، وفيهم المهاجرون والأنصار؛ وكتب إلى أبي موسى الأشعريّ أن سرْ بأهل البصرة، وكتب إلى حُذيفة بن اليمان أن سرْ بأهل الكوفة حتى تجتمعوا جميعاً بنهاوند؛ وكتب: إذا التقيتم فأميرُكم النُّعمان بن مقرّن المزنيّ؛ فلما اجتمعوا بِنهاوند، أرسل بُنْدار العِلْج إليهم: أن أرسلوا إلينا رجلا نكلّمه؛ فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة. قال أبي: كأني أنظر إليه؛ رجلاً طويلَ الشعر أعوَر؛ فأرسلوه إليه، فلمّا جاء سألناه، فقال: وجدتُه قد استشار أصحابه؛ فقال: بأيّ شيء نأذن لهذا العربيّ؟ بشارتِنا وبهجتنا ومُلْكنا، أو نتقشف له فيما قبلنا حتى يزهد؟ فقالوا: لا، بل بأفضل ما يكون من الشارة والعدّة، فتهيؤوا بها فلما أتيناهم كادت الحِراب والنيازك يُلْتَمع منها البصر، فإذا هم على رأسه مثل الشياطين، وإذا هو على سرير من ذهب على رأسه التاج. قال: فمضيت كما أنا ونكّسْت، قال: فدفِعت ونُهِنهت، فقلت: الرسل لا يفعل بهم هذا، فقالوا: إنما أنت كلْب، فقلت: معاذ الله! لأنا أشرف في قومِي من هذا في قومه؛ فانتهروني، وقالوا: اجلس؛ فأجلسوني. قال ـ وتُرجِم له قوله: إنكم معشرَ العرب أبعدُ الناس من كلّ خير، وأطول الناس جوعاً، وأشقى الناس شقاء، وأقذر الناس قَذراً، وأبعده داراً؛ وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشّاب إلاّ تنجُّساً لجيَفكم، فإنكم أرجاس؛ فإن تذهبوا نُخَلّ عنكم، وإن تأتُوا نرِكم مصارعَكم؛ قال: فحمِدْت الله، وأثنيت عليه، فقلت: والله ما أخطأتَ من صفتنا شيئاً، ولا من نعتِنا، إنْ كنا لأبعدَ الناس داراً، وأشدَّ الناس جوعاً، وأشقى الناس شقاء؛ وأبعد الناس من كلِّ خير، حتى بعث الله عزّ وجلّ إلينا رسولَه ﷺ؛ فوعدنا النصر في الدّنيا، والجنة في الآخرة؛ فوالله ما زلنا نتعرّف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتحَ والنصر، حتى أتيناكم، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبَكم على ما في أيديكم؛ أو نقتل بأرضكم. فقال: أما والله إنّ الأعور قد صَدقكم الذي في نفسه. قال: فقمتُ وقد والله أرعبتُ العِلج جَهدِي. قال: فأرسل إلينا العِلْج: إمّا أن تعبُروا إلينا بِنهاوند؛ وإمّا أن نعبُر إليكم. فقال النعمان: اعبروا، قال أبي: فلم أرَ والله مثلَ ذلك اليوم، إنهم يجيئون كأنهم جبال حديد، قد تواثقوا ألاّ يفِرّوا من العرب، وقد قرن بعضهم بعضاً؛ سبعة في قِران، وألقوا حسك الحديد خلْفهم، وقالوا: مَن فَرّ منّا عقرَه حسَك الحديد. فقال المغيرة حين رأى كثرتهم: لم أرَ كاليوم فشلاً، إنّ عدوّنا يُتركون يتأهّبون لا

يُعْجلون، أما والله لو أنّ الأمر لي لقد أعجلتهم ـ وكان النعمان بن مقرّن رجلاً ليّناً ـ فقال له: فالله عزّ وجلّ يُشهِدك أمثالها فلا يُحزنْك ولا يعيبُك موقفك، إنه والله ما منعني من أن أناجزهم إلاّ شيء شهدته من رسول الله ﷺ؛ انّ رسولَ الله كان إذا غزا فلم يقاتل أوّل النهار لم يعجِل حتى تحضر الصلاة، وتهبّ الأرواح، ويطيب القتال؛ فما منعني إلاّ ذلك. اللهم إني أسألُك أن تُقِرّ عيني اليوم بفتح يكون فيه عزّ الإسلام، وذلّ يُذَلّ به الكفّار، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة، أمّنوا يرحمكم الله! فأمّنّا وبكينا. ثم قال: إني هازٌّ لوائي فتيسّروا للسلاح، ثم هازٌّ الثانية، فكونوا متأهّبين لقتال عدوّكم، فإذا هززتُ الثالثة فليحمل كلُّ قوم على مَنْ يليهم من عدوّهم على بركة الله.

قال: وجاؤوا بحسَك الحديد. قال: فجعل يلبث حتى إذا حضرت الصلاة وهبّت الأرواح كبّر وكبّرنا، ثم قال: أرجو أن يستجيب الله لي؛ ويفتح عليّ، ثم هزّ اللواء، فتيسرنا للقتال، ثم هزّه الثانية فكنّا بإزاء العدوّ، ثم هزّه الثالثة.

قال: فكبّر وكبّر المسلمون، وقالوا: فتحاً يعزّ الله به الإسلام وأهله، ثم قال النّعمان: إنْ أُصِبت فعلى الناس حُذَيفة بن اليمان، وإن أصيب حُذَيفة ففلان؛ وإنْ أصيب فلان ففلان؛ حتى عدّ سبعة آخرهم المغيرة، ثم هزّ اللواء الثالثة، فحمل كلّ إنسان على مَن يليه من العدوّ. قال: فوالله ما علمت من المسلمين أحداً يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله، حتى يُقتل أو يظفر، فحملنا حملة واحدة، وثبتوا لنا، فما كنّا نسمع إلاّ وقعَ الحديد على الحديد، حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة، فلمّا رأوْا صبرنا وأنّا لا نبرح العرْصة انهزموا، فجعل يقع الواحد فيقع عليه سبعة؛ بعضهم على بعض في قياد، فيُقتلون جميعاً، وجعل يعقِرهم حسك الحديد الذي وضعوا خلفهم. فقال النعمان رضي الله عنه: قدّموا اللواء، فجعلنا نقدّم اللواء، ونقتلهم ونهزِمهم. فلما رأى أن الله قد استجاب له ورأى الفتح، جاءته نُشّابة فأصابت خاصرته، فقتلتْه. قال: فجاء أخوه معقل فسجّى عليه ثوباً، وأخذ اللواء فقاتل، ثم قال: تقدّموا نقتلهم ونهزمهم؛ فلما اجتمع الناس قالوا: أين أميرنا؟ قال معقِل: هذا أميركم، قد أقرّ الله عينه بالفتح؛ وختم له بالشهادة. قال: فبايع الناس حُذيفة وعمر بالمدينة يستنصر له، ويدعو له مثل الحبْلى.

قال: وكُتِب إلى عمر بالفتح مع رجل من المسلمين؛ فلما أتاه قال له: أبشِرْ يا أمير المؤمنين بفتح أعزّ الله به الإسلام وأهله، وأذلّ به الكفر وأهله. قال: فحمِد الله عزّ وجلّ، ثم قال: النّعمان بعثك؟ قال: احتسِب النّعمان يا أمير المؤمنين، قال: فبكى عمر واسترجع. قال: ومَن ويحك! قال: فلان وفلان؛ حتى عدّ له ناساً كثيراً، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم، فقال عمر وهو يبكي: لا يضرّهم ألاّ يعرفهم عمر؛ ولكنّ الله يعرفهم.

وأما سيف، فإنه قال ـ فيما كتب إليّ السريّ يذكر أن شُعيباً حدّثه عنه؛ وعن محمّد والمهلّب وطلحة وعمر وسعيد ـ إنّ الذي هاج أمر نِهاوند أنّ أهلَ البصرة لما أشجوا الهُرمزان، وأعجلوا أهلَ فارس عن مصاب جند العلاء، ووطئوا أهل فارس، كاتبوا ملكهم؛ وهم يومئذ بمَرْو، فحرّكوه، فكاتب الملك أهلَ الجبال من بين الباب والسند وخُرَاسان وحُلْوان، فتحرّكوا وتكاتبوا، وركب بعضهم إلى بعض، فأجمعوا أن يوافوا نِهاوند، ويُبرموا فيها أمورَهم، فتوافى إلى نِهاوند أوائلُهم.

وبلغ سعد الخبر عن قُباذ صاحب حُلوان، فكتب إلى عمر بذلك، فنزا بسعد أقوام، وألبّوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند، ولم يشغلْهم ما دهم المسلمين من ذلك؛ وكان ممن نهض الجرّاح بن سنان الأسديّ في نفر، فقال عمر: إنّ الدليل على ما عندكم من الشرّ نهوضُكم في هذا الأمر، وقد استعدّ لكم من استعدّوا، وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم. فبعث عمر محمدَ بن مسلمة، والناس في الاستعداد للأعاجم، والأعاجم في الاجتماع - وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمّال الذي يقتصّ آثار مَنْ شُكِيَ زمان عمر - فقدم محمد على سعد ليطوفَ به في أهل الكوفة، والبعوث تضرَب على أهل الأمصار إلى نهاوند، فطوّف به على مساجد أهل الكوفة، لا يتعرّض للمسألة عنه في السرّ، وليست المسألة في السرّ من شأنهم إذْ ذاك؛ وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلّا قالوا: لا نعلم إلّا خيراً، ولا نشتهي به بدلاً، ولا نقول فيه، ولا نعين عليه؛ إلّا مَنْ مالأ الجرّاح بن سنان وأصحابه، فإنهم كانوا يسكتون لا يقولون سوءاً، ولا يسوغ لهم، ويتعمّدون ترك الثناء، حتى انتهوْا إلى بني عبس، فقال محمد: أنشد بالله رجلًا يعلم حقًّا إلّا قال! قال أسامة بن قتادة: اللهمّ إن نشدتَنا فإنه لا يقسم بالسويّة، ولا يعدِلُ في الرعيّة، ولا يغزو في السريّة. فقال سعد: اللهمّ إن كان قالها كاذباً ورثاءً وسمعة فأعمِ بصرَه، وأكثر عيالَه، وعرّضه لمضَلّات الفتن. فعمِيَ، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسّها؛ فإذا عُثر عليه قال: دَعْوةُ سعد الرّجل المبارك. ثم أقبل على الدّعاء على النّفر، فقال: اللهمّ إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً وكذباً فاجهد بلاءهم؛ فجُهد بلاؤهم، فَقُطِّع الجرّاح بالسيوف يوم ثاوَرَ الحسنَ بنَ عليّ ليغتالَه بساباط، وشُدِخ قبيصة بالحجارة، وقُتل أربد بالوَجْء وبنعال السيوف. وقال سعد: إنّي لأوّل رجل أهرق دماً من المشركين؛ ولقد جمع لي رسولُ الله ﷺ أبويْه، وما جمعهما لأحد قبلي، ولقد رأيتُني خُمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أنّي لا أحسن أن أصلّي، وأن الصيد يُلهيني. وخرج محمد به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر، فقال: يا سعد؛ ويحك، كيف تُصَلّي! فقال: أطيل الأوليَين، وأحذف الأُخريين، فقال: هكذا الظنّ بك! ثم قال: لولا الاحتياط لكان سبيلُهم بيّناً. ثمّ قال: مَنْ خليفتُك يا سعد على الكوفة؟ قال: عبدالله بن عبدالله بن عِتْبان، فأقرّه واستعمله؛ فكان سبب نهاوند وبدء مشورتها وبعوثها في زمان سعد؛ وأما الوقعة ففي زمان عبد الله.

قالوا: وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يزْدَجِرد الملك، فتوافَوْا إلى نِهاوند، فتوافَى إليها من بين خُراسان إلى حُلوان؛ ومن بين الباب إلى حلوان، ومن بين سِجستان إلى حُلوان؛ فاجتمعت حَلْبة فارس والفَهْلوج أهل الجبال من بين الباب إلى حُلوان ثلاثون ألف مقاتل؛ ومن بين خراسان إلى حُلوان ستون ألف مقاتل، ومن بين سِجِسْتان إلى فارس وحُلوان ستون ألف مقاتل، واجتمعوا على الفيرُزان، وإليه كانوا توافَوْا وشاركهم موسى.

عن حمزة بن المغيرة بن شعبة، عن أبي طعمة الثقفيّ - وكان قد أدرك ذلك - قال: ثم إنهم قالوا: إن محمداً الذي جاء العربَ بالدين لم يغرَضْ غرَضنا، ثم ملكهم أبو بَكْر من بعده فلم يغرَض غَرَض فارس؛ إلّا في غارة تعرّض لهم فيها؛ وإلّا فيما يلي بلادَهم من السواد. ثم ملك عمر من بعده، فطال ملكه وعَرُض؛ حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز، وأوطأها، ثم لم يرضَ حتى أتى أهلَ فارس والمملكة في عُقْرِ دارهم، وهو آتيكم إن لم تأتوه؛ فقد أخرب بيت مملكتهم، واقتحم بلاد مملكتكم، وليس بمنتهٍ حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده، وتقلعوا هذين المِصْرين، ثم تشغلوه في بلاده وقراره. وتعاهدوا وتعاقدوا، وكتبوا بينهم على ذلك كتاباً، وتمالؤوا عليه.

وبلغ الخبرُ سعداً، وقد استخلف عبدَ الله بن عبد الله بن عِتْبان. ولمّا شَخَص لقي عمرَ بالخبر مشافهة، وقد كان كتب إلى عمر بذلك، وقال: إنّ أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح قبل أن يبادروهم الشدَّة ـ وقد كان عمر منعهم من الانسياح في الجبل.

وكتب إليه أيضاً عبدُ الله وغيره بأنه قد تجمّع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل؛ فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشّدّة ازدادوا جرأة وقوّة؛ وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلكم؛ وكان الرسول بذلك قَريب بن ظَفَر العبديّ.

ثم خرج سعد بعدَه فوافَى مشورة عُمَر؛ فلما قدم الرسول بالكتاب إلى عمر بالخبر فرآه قال: ما اسمك؟ قال: قَريب، قال: ابن مَن؟ قال: ابن ظَفَر، فتفاءل إلى ذلك، وقال: ظَفَر قريب إن شاء الله، ولا قوّة إلّا بالله! ونودي في الناس: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس، ووافاه سعد، فتفاءل إلى سعد بن مالك، وقام على المنبر خطيباً، فأخبره الناس الخبر، واستشارهم، وقال: هذا يوم له ما بعده من الأيام؛ ألا وإني قد هممتُ بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجِزوا، ولا تَنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم، ولا تكثروا ولا تطيلوا، فتُفْشَغ بكم الأمور، ويلتوي عليكم الرأي؛ أفمِن الرأي أن أسيرَ فيمن قبَلي ومَن قدرتُ عليه، حتى أنزل منزلاً واسطاً بين هذين المصرين، فأستنفرَهم ثم أكونَ لهم رِدْءاً حتى يفتح الله عليهم، ويقضي ما أحبّ؛ فإنّ فَتَحَ الله عليهم أن أضرّ بهم عليهم في بلادهم؛ وليتنازعوا ملكَهم. فقام عثمان بن عفّان، وطلحة بن عبيد الله، والزّبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عَوْف؛ في رجال من أهل الرّأي من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فتكلموا كلاماً، فقالوا: لا نرى ذلك؛ ولكن لا يغيبَنّ عنهم رأيُك وأثرك؛ وقالوا: بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم، ومَن قد فضّ جموعهم، وقتل ملوكهم، وباشر من حروبهم ما هو أعظمُ من هذه؛ وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك، فأذَنْ لهم، واندُب إليهم؛ وادعُ لهم. وكان الذي ينتقد له الرأيَ إذا عُرِض عليه العباس رضي الله عنه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن حمزة، عن أبي طُعْمة، قال: فقام عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: أصاب القوم يا أميرَ المؤمنين الرأيَ، وفهموا ما كتِب به إليك؛ وإنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خِذلانه لكثرة ولا قلّة؛ هو دينه الذي أظهر؛ وجنده الذي أعزّ وأيّده بالملائكة؛ حتى بلغ ما بلغ؛ فنحن على موعود من الله، والله منجزٌ وعْده، وناصر جنده؛ ومكانك منهم مكان النظام من الخَرز، يجمعه ويمسكه؛ فإن انحلّ تفرّق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهي كثير عزيز بالإسلام؛ فأقم واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم؛ ومَن لم يحفل بمن هو أجمع وأحدُّ وأجدُّ من هؤلاء فليأتهم الثلثان وليُقم الثلث؛ واكتب إلى أهل البصرة أن يمدُّوهم ببعض مَن عندهم.

فسرّ عمر بحسن رأيهم، وأعجبه ذلك منهم. وقال سعد فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ خفِّض عليك، فإنهم إنما جمِعوا لنِقْمة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي بكر الهذليّ، قال: لما أخبرهم عُمر الخبر واستشارهم، وقال: أوجِزوا في القول، ولا تُطِيلوا فتفْشغَ بكم الأمور، واعلموا أنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيّام، تكلّموا، فقام طلحة بن عبيد الله ـ وكان من خُطباء أصحاب رسول الله ﷺ ـ فتشهّد، ثمّ قال: أما بعد يا أميرَ المؤمنين، فقد أحكمتْك الأمور، وعجمتْك البلايا، واحتنكتْك التجارب، وأنت وشأنك؛ وأنت

ورأيك، لا نَنْبو في يديْك، ولا نَكِلّ عليك، إليك هذا الأمر، فمرنا نُطِع، وادْعنا نجب، واحمِلْنا نركب، ووفِّدْنا نفِد، وقُدْنا نَنقد؛ فإنّك وليّ هذا الأمر، وقد بلوتَ وجرّبت واختبرتَ؛ فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلّا عن خيار. ثم جلس. فعاد عُمر فقال: إنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام، فتكلّموا. فقام عثمان بن عفّان، فتشهّد، وقال: أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتبَ إلى أهل الشام فيسيروا من شأمهم، وتكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يَمَنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحَرمينْ إلى المصريْن: الكوفة والبصرة، فتلقَى جمع المشركين بجمع المسلمين؛ فإنك إذا سرتَ بمَن معك وعندك قلَّ في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم، وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر؛ يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية، ولا تَمْتّع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذُ منها بحريز؛ إنّ هذا اليوم له ما بعده من الأيام؛ فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغِب عنه. ثم جلس.

فعاد عمر، فقال: إنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام، فتكلموا؛ فقام علي بن أبي طالب فقال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين؛ فإنك إن أشخصتَ أهل الشأم من شأمهم سارت الرّوم إلى ذراريّهم، وإن أشخصتَ أهل اليمن من يمنِهم سارت الحبشَة إلى ذراريّهم، وإنك إنْ شخَصت من هذه الأرض انتقضتْ عليك الأرضُ من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تَدع وراءك أهمَّ إليك مما بين يديك من العَوْرات والعِيالات؛ أقرر هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرّقوا فيها ثلاث فِرَق، فلتقم فرقة لهم في حُرَمهم وذراريّهم، ولتقم فرقة في أهل عهدهم، لئلاّ ينتقضوا عليهم، ولتسِرْ فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم؛ إنّ الأعاجمَ إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير العرب، وأصل العرب؛ فكان ذلك أشدّ لكلَبهم، وألّبتَهم على نفسك. وأمّا ما ذكرت من مسير القوم فإنّ الله هو أكرَه لمسيرهم منك، وهو أقدرُ على تغيير ما يكره؛ وأمّا ما ذكرتَ من عددهم؛ فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة؛ ولكنّا كنا نقاتل بالنصر.

فقال عمر: أجل والله، لئن شخصتُ من البلدة لتنتقضَنّ عليّ الأرض من أطرافها وأكنافها، ولئن نظرتْ إليّ الأعاجم لا يفارقُنّ العرْصة، وَلَيُمدّنهم مَن لم يُمدّهم، وليقُولنّ: هذا أصل العرب؛ فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب، فأشيروا عليّ برجل أولِّه ذلك الثغر غداً. قالوا: أنتَ أفضلُ رأياً، وأحسن مقدرة، قال: أشيروا عليّ به، واجعلوه عِراقيًّا. قالوا: يا أميرَ المؤمنين، أنت أعلمُ بأهل العراق، وجندك قد وفدوا عليك ورأيتَهم وكلّمتهم، فقال: أما والله لأولينّ أمرَهم رجلاً ليكونَنّ لأوّل الأسنّة إذا لَقِيَها غداً، فقيل: مَن يا أمير المؤمنين؟ فقال: النعمان بن مقرِّن المُزنيّ. فقالوا: هو لها ـ والنعمان يومئذ بالبصرة معه قوّاد من قوّاد أهل الكوفة أمدّهم بهم عمر عند انتقاض الهُرمُزان؛ فافتتحوا رامَهُرْمُز وإيذَج، وأعانوهم على تُسْتَر وجُنْدَيْ سابور والسُّوس. فكتب إليه عمر مع زِرّ بن كُليب والمقترِب الأسود بن رَبيعة بالخبر؛ وأنيّ قد وَلَيتك حربهم، فسرْ من وجهك ذلك حتى تأتيَ ماه، فإني قد كتبتُ إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمعَ لك جنودُك فسرْ إلى الفَيْرُزان ومَن تجمّع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا الله، وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلّا بالله.

وروي عن أبي وائل في سبب توجيه عمَر النعمانَ بن مقرّن إلى نِهاوند، ما حدّثني به محمد بن عبد الله بن صَفْوان الثَّقَفِيّ، قال: حدّثنا أميّة بن خالد، قال: حدّثنا أبو عَوانة، عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: قال أبو وائل: كان النُّعمان بن مقرّن على كَسْكَر، فكتب إلى عمر: مَثلي ومَثل كَسْكر كمثل رجل شابّ وإلى جنبه مُومسة تلوّن له وتَعَطّر، فأنشُدك الله لما عزلتني عن كَسْكر، وبعثتَني إلى جيش من جيوش المسلمين!

قال: فكتب إليه عمر: أن ائتِ الناس بِنهاوند، فأنت عليهم. قال: فالتقوْا، فكَان أوّلَ قتيل، وأخذ الراية أخوه سُويد بن مقرّن، ففتح الله على المسلمين؛ ولم يكن لهم ـ يعني للفرس ـ جماعة بعد يومئذ؛ فكان أهل كلّ مصر يغزُون عدوّهم في بلادهم.

رجع الحديث إلى حديث سيف. وكتب ـ يعني عمر ـ إلى عبد الله بن عبد الله مع رِبْعيّ بن عامر، أن استنفر من أهل الكُوفة مع النُّعمان كذا وكذا، فإني قد كتبتُ إليه بالتوجُّه من الأهواز إلى ماه، فلْيوافُوه بها، وليسر بهم إلى نهاوند؛ وقد أمّرت عليهم حُذيفة بن اليَمان، حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرّن؛ وقد كتبت إلى النعمان: إن حَدَث بك حَدَث فعلَى الناس حُذَيفة بن اليَمان؛ فإن حَدَث بحُذيفة حَدث فعلَى الناس نُعيم بن مقرّن، ورُدّ قَريب بن ظَفَر وردّ معه السائب بن الأقرع أميناً. وقال: إن فتح الله عليكم فاقسم ما أفاء الله عليهم بينهم، ولا تخدعني ولا ترفع إليّ باطلا، وإن نُكِب القوم فلا تراني ولا أراك. فقدما إلى الكوفة بكتاب عمر بالاستحثاث؛ وكان أسرعَ أهل الكوفة إلى ذلك الرّوادف، ليبلُوا في الدّين، وليدرِكُوا حظّاً، وخرج حُذَيفة بن اليَمان بالناس ومعه نُعيم حتى قدِموا على النّعمان بالطّزر، وجعلوا بمرْج القلعة خيلاً عليها النُّسَيْر. وقد كتب عمر إلى سُلْمى بن القينْ وحَرْملة بن مُريطة وزرّ بن كليب والمقترِب الأسود بن ربيعة، وقوّاد فارس الذين كانوا بين فارس والأهواز، أنِ اشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمّتكم وأرضَكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيَكم أمري. وبعث مجاشع بن مسعود السُّلَمِيّ إلى الأهواز، وقال له: انصُل منها على ماه؛ فخرج حتى إذا كان بغُضَى شجَر، أمره النعمان أن يقيم مكانه، فأقام بين غُضَي شجر ومَرْج القلعة، ونَصَل سُلْمى وحَرْملة وزرّ والمقترب، فكانوا في تخُوم إصبَهان وفارس، فقطعوا بذلك عن أهل نِهاوند أمداد فارس.

ولما قدِم أهلُ الكوفة على النعمان بالطّزَر جاءه كتاب عمر مع قَريب: إنّ معك حَدَّ العرب ورجالهم في الجاهليّة، فأدخِلْهم دون مَن هو دونهم في العلم بالحرب، واستعنْ بهم، واشرب برأيهم، وسلْ طليحة وَعمْراً وعمرا ولا تُوَلِّهم شيئاً. فبعث من الطّزَر طليحة وعَمراً وعَمْراً طليعة ليأتوه بالخبر، وتقدّم إليهم ألا يَغلُوا. فخرج طُليحة بن خويلد وعَمْرو بن أبي سُلْمَى العَنَزيّ، وعمرو بن معد يكرب الزُّبيديّ، فلما ساروا يوماً إلى الليل رجع عمرو بن أبي سُلمَى، فقالوا: ما رَجعك؟ قال: كنت في أرض العجم؛ وقتلتْ أرضٌ جاهلها، وقتل أرضاً عالُمها. ومضى طليحة وعمرو حتى إذا كان من آخر الليل رجع عمرو، فقالوا: ما رجعك؟ قال: سرْنا يوماً وليلة، ولم نَر شيئاً، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق. ونفذ طليحة ولم يحفِل بهما. فقال الناس: ارتد الثانية، ومضى طُليحة حتى انتهى إلى نِهاوند، وبين الطّزَر ونهاوند بضعة وعشرون فرسخاً. فعلم علمَ القوم، واطلع على الأخبار، ثم رجع حتى إذا انتهى إلى الجمهور كبّر الناس، فقال: ما شأنُ الناس؟ فأخبروه بالذي خافوا عليه، فقال: والله لو لم يكن دينٌ إلا العربية ما كنت لأُجزر العُجْم الطماطم هذه العرب العاربة. فأتى النعمان فدخل عليه، فأخبروه الخبر، وأعلمه أنه ليس بينه وبين نِهاوند شيء يكرهه، ولا أحد. فنادى عند ذلك النعمان بالرّحيل، فأمرهم بالتّعبية. وبعث إلى مجاشع بن مسعود أنْ يسوقَ الناس، وسار النعمان على تعبيته، وعلى مقدّمته نُعيم بن مقرّن، وعلى مجنّبتيه حُذيفة بن اليَمان وسويد بن مقرّن، وعلى المجرَّدة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع؛ وقد توافى إليه أمدادُ المدينة، فيهم المغيرة وعبد الله، فانتهوْا إلى الإسبيذَهان والقوم وقوف دون أي خُرْد على تعبيتهم وأميرُهم الفيرُزان، وعلى مجنبتيه الزردُق وبَهْمن جاذَوَيْه الذي جُعِل مكان ذي

الحاجب، وقد توافى إليهم بِنهاوند كلّ مَنْ غاب عن القادسيَّة والأيام من أهل الثغور وأمرائها وأعلامٌ من أعلامهم ليسوا بدون مَن شهد الأيام والقوادس، وعلى خيولهم أنوشق. فلما رآهم النعمان كبّر وكبّر الناس معه فتزلزلت الأعاجم، فأمر النعمان وهو واقف بحطّ الأثقال وبضرب الفُسطاط، فضرِب وهو واقف، فابتدره أشرافُ أهل الكوفة [وأعيانهم، فسبق إليه يومئذ عدّة من أشراف أهل الكوفة] تسابقوا فبنوْا له فسطاطاً سابقوا أكفاءهم فسبقوهم؛ وهم أربعة عشر، منهم حذيفة بن اليمان، وعُقْبة بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وبَشير بن الخصاصيّة، وحَنظلة الكاتب بن الربيع، وابن الهوبْر، ورِبعيّ بن عامر، وعامر بن مَطَر، وجرير بن عبد الله الحميريّ، والأقرع بن عبد الله الحميريّ، وجرير بن عبد الله البَجَليّ، والأشعث بن قيس الكِنديّ، وسعيد بن قيس الهَمْدانيّ، ووائل بن حُجْر، فلم يُرَ بُنَّاءُ فسطاط بالعراق كهؤلاء. وأنشب النعمان بعدما حطّ الأثقال القتَال؛ فاقتتلوا يومَ الأربعاء ويوم الخميس، والحرْب بينهم في ذاك سِجال في سبع سنين من إمارة عُمر، في سنة تسع عشرة، وإنهم انجحروا في خنادقهم يومَ الجمعة، وحصـرَهم المسلمون، فـأقامـوا عليهم ما شـاء الله والأعاجم بالخيار؛ لا يخرجون إلّا إذا أرادوا الخروج، فاشتدّ ذلك على المسلمين، وخافوا أن يطولَ أمرُهم [وسرّهم أن يناجزهم عدوّهم]؛ حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجُمع تجمّع أهل الرأي من المسلمين، فتكلموا، وقالوا: نراهم علينا بالخيار. وأتوا النعمان في ذلك فأخبروه، فوافقوه وهو يُروِّي في الذي رَوَّوْا فيه. فقال: على رِسْلكم، لا تبرحوا! وبعث إلى مَنْ بقَي من أهل النجدَات والرّأي في الحروب، فتوافوْا إليه، فتكلّم النعمان، فقال: قد ترَوْن المشركين واعتصامهَم بالحُصون من الخنادق والمدائن؛ وأنهم لا يخرجـون إلّا إذا شاؤوا، ولا يقدر المسلمون على إنغاضهم وانبعاثهم قبل مشيئتهم؛ وقد تَرَوْن الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج؛ فما الرأي الذي به نُحمِشهم ونستخرجهم إلى المنابذة، وترك التطويل؟

فتكلم عمرو بن ثُبّي ـ وكان أكبرَ الناس يومئذ سنّاً، وكانوا إنّما يتكلمون على الأسنان ـ فقال: التحصّن عليهم أشدّ من المطاولة عليكم، فـدعهم ولا تحرِجْهم وطاولهم، وقاتلْ مَن أتاك منهم؛ فردُّوا عليه جميعاً رأيه. وقالوا: إنا على يقين منْ إنجاز ربِّنا موعدَه لنا.

وتكلّم عمرو بن معد يكرب، فقال: ناهدْهم وكاثِرْهم ولا تَخَفْهم. فردُّوا عليه جميعاً رأيه، وقالوا: إنما تناطح بنا الجُدران، والجُدران لهم أعوان علينا.

وتكلّم طُليحة فقال: قد قالا ولم يصيبا ما أرادا؛ وأمّا أنا فأرى أن تبعث خيلاً مؤدِية، فيُحدِقوا بهم، ثم يرموا ليُنشبوا القتال، ويحمِشوهم، فإذا استحمَشُوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً؛ فإنّا لم نستطرِدْ لهم في طول ما قاتلناهم، وإنّا إذا فعلنا ذلك ورأوْا ذلك منّا طمِعوا في هزيمتنا ولم يشكُّوا فيها، فخرجوا فجادّونا وجاددناهم؛ حتى يقضيَ الله فيهم وفينا ما أحبّ.

فأمر النعمان القعقاع بن عمرو ـ وكان على المجرَّدة ـ ففعل؛ وأنشب القتال بعد احتجاز من العجم، فأنغَضَهم فلمّا خرجوا نكَص، ثم نكص، ثم نكص، واغتنمها الأعاجم، ففعلوا كما ظنَّ طُليحة وقالوا: هي هي؛ فخرجوا فلم يبقَ أحدٌ إلّا من يقومُ لهم على الأبواب؛ وجعلوا يركبونهم حتى أَرَز القعقاع إلى الناس، وانقطع القومُ عن حصنهم بعض الانقطاع؛ والنعمان بـن مقرّن والمسلمون على تعبيتهم في يوم جُمعة في صدْر

النهار، وقد عهد النّعمان إلى الناس عهدَه، وأمرهم أن يلزموا الأرضَ ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم؛ ففعلوا واستتروا بالحَجَف من الرّمْي، وأقبل المشركون عليهم يرمُونهم حتى أفشَوا فيهم الجراحات، وشكا بعضُ الناس ذلك إلى بعض، ثم قالوا للنعمان: ألَا ترى ما نحن فيه! ألا ترى إلى ما لقيَ الناس، فما تنتظر بهم! ائذن للناس في قتالهم، فقال لهم النعمان: رُوَيداً رُوَيداً! قالوا له ذلك مراراً، فأجابهم بمثل ذلك مراراً: رويداً رويداً، فقال المغيرة: لو أنّ هذا الأمرَ إليّ علمتُ ما أصنع! فقال: رويداً ترى أمرَك؛ وقد كنت تلي الأمر فتُحسِن، فلا يخذلنا الله ولا إيّاك؛ ونحن نرجو في المكْث مثلَ الذي ترجو في الحثّ. وجعل النعمان ينتظر بالقتال إكمالَ ساعاتٍ كانت أحبّ إلى رسولِ الله ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدوّ؛ وذلك عند الزّوال وتفيُّؤ الأفياء ومهبّ الرياح. فلما كان قريباً من تلك الساعة تحشْحش النعمان، وسار في الناس على بِرذونٍ أحوَى قريب من الأرض، فجعل يقف على كلّ راية، ويحمَد الله ويُثني عليه، ويقول: قد علمتم ما أعزّكم الله به من هذا الدين، وما وعدكم من الظهور، وقد أنجز لكم هَوادِيَ ما وعدكم وصدورَه؛ وإنما بقيت أعجازُه وأكارعه؛ والله منجزٌ وعدَه، ومتبعٌ آخر ذلك أوّله، واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلّة، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزّة، فأنتم اليوم عباد الله حقّاً وأولياؤه، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة، والذي لهم في ظَفَركم وعزّكم؛ والذي عليهم في هزيمتكم وذلّكم، وقد ترَوْن مَن أنتم بإزائه من عدوّكم، وما أخطرتم وما أخطروا لكم؛ فأمّا ما أخطروا لكم فهذه الرِّثّة وما ترون من هذا السواد، وأمّا ما أخطرتم لهم فدِينكم وبَيْضتكم، ولا سواءٌ ما أخطرتم وما أخطروا؛ فلا يكونُنّ على دنياهم أحمَى منكم على دينكم؛ واتّقى الله عبدٌ صدق الله؛ وأبلى نفسه فأحسن البلاء؛ فإنكم بين خيريْن منتظرَيْن؛ إحدى الحسنيَيْن؛ من بين شهيد حيّ مرزوق، أو فتح قريب وظفَر يسير. فكفى كلّ رجل ما يليه، ولم يكِلْ قِرْنَه إلى أخيه؛ فيجتمع عليه قِرنه وقِرْن نفسه، وذلك من الملأمة، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه؛ فكلّ رجل منكم مسلّط على ما يليه؛ فإذا قضيت أمري فاستعدّوا فإني مكبّر ثلاثاً، فإذا كبّرت التكبيرة الأولى فليتهيّأ مَنْ لم يكن تهيّأ؛ فإذا كبّرت الثانية فليشدّ عليه سلاحه، وليتأهب للنهوض؛ فإذا كبّرت الثالثة؛ فإنّي حامل إن شاء الله فاحملوا معاً. اللهمّ أعزّ دينَك، وانصر عبادك، واجعل النعمانَ أوّل شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

فلما فرغ النعمان من التقدّم إلى أهل المواقف، وقضى إليهم أمرَه، رجع إلى موقفه، فكبّر الأولى والثانية والثالثة؛ والناس سامعون مطيعون مستعدّون للمناهضة، يُنَحّي بعضُهم بعضاً عن سَنَنِهم، وحمل النُّعمان وحمل الناس، وراية النعمان تنقضُّ نحوهم انقضاض العُقاب، والنعمان معلم ببياض القبَاء والقلنسوة، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة يوم قطّ كانت أشدّ [قتالا] منها، فقتلوا فيها من أهل فارس فيما بين الزوال والإعتام ما طبّق أرض المعركة دماً يزلَقُ الناس والدوابُّ فيه، وأصيب فُرسان من فرسان المسلمين في الزّلق في الدّماء، فزلق فرس النعمان في الدّماء فصرعه، وأصيب النّعمان حين زلق به فرسه، وصُرع. وتناولَ الرّاية نُعيم بن مقرّن قبل أن تقع، وسجّى النعمانَ بثوب، وأتى حذيفة بالرّاية فدفعها إليه، وكان اللواء مع حُذيفة، فجعل حُذيفة نُعيمَ بن مقرّن مكانه، وأتى المكان الذي كان فيه النعمان فأقام اللواء، وقال له المغيرة: اكتمُوا مصابَ أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم؛ لكيلَا يهِنَ الناس؛ واقتتلوا حتى إذا أظلّهم الليل انكشف المشركون وذهبوا، والمسلمون ملظّون بهم متلبّسون، فعُمِّيَ عليهم قصدُهم، فتركوه وأخذوا نحو اللِّهْب الذي كانوا نزلوا دونه بإسبيذهان، فوقعوا فيه، وجعلوا لا يهوِي منهم أحد إلا قال: « وايه

خُرْد »، فسمّي بذلك « وايه خُرْد » إلى اليوم، فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون، سوى مَن قتِل في المعركة منهم أعدادهم، لم يفلِت إلاّ الشَّريد، ونجا الفيرُزان بين الصّرعى في المعركة، فهرب نحو هَمَذان في ذلك الشَّريد، فأتبعه نُعيم بن مقرّن، وقدّم القعقاع قدامهُ فأدركه حين انتهى إلى ثَنِيّة هَمَذان، والثنيّة مشحونة من بغال وحمير موقَرة عسلا، فحبسه الدوابّ على أجَلِه، فقتله على الثَّنية بعد ما امتنع، وقال المسلمون: إنّ لله جنوداً من عسل، واستاقوا العسلَ وما خالطه من سائر الأحمال، فأقبل بها، وسمِّيت الثنيّة بذلك ثَنِية العسَل؛ وإنّ الفيرُزان لّما غشيه القعقاع نزل فتوقّل في الجبل إذ لم يجد مَساغاً، وتوقّل القعقاع في أثره حتى أخذه، ومضى الفُلاّل حتى انتهوْا إلى مدينة هَمَذان والخيل في آثارهم، فدخلوها، فنزل المسلمون عليهم، وحَووْا ما حولها، فلما رأى ذلك خُسْرَوْشُنُوم استأمنهم، وقبِل منهم على أن يضمن لهم هَمَذان وَدْسَتبي، وألاّ يؤتَى المسلمون منهم؛ فأجابوهم إلى ذلك وآمنوهم؛ وأمِن الناس، وأقبل كلّ مَن كان هرب، ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين يوم نِهاوند مدينة نِهاوند واحتَوَوْا ما فيها وما حولها، وجمعوا الأسلاب والرِّثاث إلى صاحب الأقباض السائب بن الأقرع.

فبيناهم كذلك على حالهم وفي عسكرهم يتوقّعون ما يأتيهم من إخوانهم بهَمذان، أقبل الهِرْبذ صاحب بيت النار على أمان؛ فأبْلغ حذَيفة، فقال: أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم؟ قال: نعم، قال: إنّ النخَيْرجان وضع عندي ذخيرة لكسرى، فأنا أخرجها لك على أماني وأمان مَنْ شئت، فأعطاه ذلك، فأخرج له ذخيرة كسرى؛ جوهراً كان أعدّه لنوائب الزّمان، فنظروا في ذلك، فأجمع رأي المسلمين على رفعه إلى عمر، فجعلوه له؛ فأخّروهُ حتى فرغوا فبعثوا به مع ما يرفع من الأخماس، وقسم حذيفة بن اليمان بين الناس غنائمهم، فكان سهم الفارس يوم نِهاوند ستة آلاف، وسهم الراجل ألفيْن، وقد نفل حذيفة من الأخماس مَن شاء من أهل البلاء يوم نِهاوند، ورفع ما بقي من الأخماس إلى السائب بن الأقرع، فقبض السائب الأخماس، فخرج بها إلى عمر وبذخيرة كسرى. وأقام حُذيفة بعد الكتاب بفتح نِهاوند بنهاوند ينتظر جواب عمر وأمره؛ وكان رسولَه بالفتح طريفُ بن سهم، أخو بني ربيعة بن مالك.

فلما بلغ الخبرُ أهلَ الماهيْن بأنّ هَمَذان قد أخِذت، ونزلها نُعيم بن مقرّن والقعقاع بن عمرو اقتدوا بخُسْرَوْشُنُوم، فراسلوا حُذَيفة، فأجابهم إلى ما طلبوا، فأجمعوا على القبول، وعزموا على إتيان حُذيفة، فخدعهم دينار ـ وهو دون أولئك الملوك، وكان ملكاً، إلاّ أن غيره منهم كان أرفع منه؛ وكان أشرفَهم قارن ـ وقال: لا تلقوْهم في جَمالكم ولكن تَقَهّلوا لهم؛ ففعلوا، وخالفهم فأتاهم في الديباج والحليّ، وأعطاهم حاجتهم واحتمل للمسلمين ما أرادوا، فعاقدوه عليهم؛ ولم يجد الآخرون بدّاً من متابعته والدخول في أمره، فقيل « ماه دينار » لذلك. فذهب حُذيفة بماه دينار؛ وقد كان النعمان عاقد بَهْراذان على مثل ذلك، فنُسِبت إلى بَهْراذان، ووكل النُّسير بن ثَوْر بقلعة قد كان لجأ إليها قوم فجاهدهم؛ فافتتحها فنُسبت إلى النُّسير، وقسم حُذيفة لمن خلّفوا بمَرْج القلعة ولمن أقام بغُضَى شَجَر ولأهل المسالح جميعاً في فيء نِهاوند مثل الذي قسم لأهل المعركة، لأنهم كانوا ردءاً للمسلمين لئلا يؤتَوْا من وجه من الوجوه. وتململ عمر تلك الليلة التي كان قدّر للقائهم، وجعل يخرج ويلتمس الخبر؛ فبينا رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه، فرجع إلى المدينة ليلاً، فمرّ به راكب في الليلة الثالثة من يوم نِهاوند يريد المدينة. فقال: يا عبدَالله، من أين أقبلتَ؟ قال: من نِهاوند، قال: ما الخبر؟ قال: الخبر خير؛ فتح الله على النعمان؛ واستُشهد، واقتسم المسلمون فيء نِهاوند، فأصاب الفارس ستة آلاف.

وطواه الرّاكب حتى انغمس في المدينة، فدخل الرجل، فبات فأصبح فتحدث بحديثه، ونَمى الخبرُ حتى بلغ عمَر؛ وهو فيما هو فيه، فأرسل إليه، فسأله فأخبره، فقال: صدق وصدقت؛ هذا عُثيم بريد الجنّ، وقد رأى بريد الإنس، فقدم عليه طَريف بالفتح بعد ذلك، فقال: الخبر! فقال: ما عندي أكثر من الفَتْح، خرجتُ والمسلمون في الطلب وهم على رِجْل؛ وكتمه إلّا ما سرّه.

ثم خرج وخرج معه أصحابه، فأمعن؛ فرُفع له راكب، فقال: قولوا، فقال عثمان بن عفّان: السائب، فقال: السائب، فلما دنا منه قال: ما وراءك؟ قال: البُشرى والفتح، قال: ما فعل النعمان؟ قال: زلِق فرسه في دماء القوم، فصرِع فاستُشهد، فانطلق راجعاً والسائب يسايره، وسأل عن عدد من قتل من المسلمين؛ فأخبره بعدد قليل؛ وأنّ النعمان أوّل مَن استُشهد يوم فتح الفتوح ـ وكذلك كان يسمِّيه أهل الكوفة والمسلمون ـ فلما دخل المسجد حطّت الأحمال فوضعت في المسجد، وأمر نفراً من أصحابه ـ منهم عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم ـ بالمبيت فيه، ودخل منزله، وأتبعه السائب بن الأقرع بذيْنك السَّفَطيْن، وأخبره خبرَهما وخبر الناس؛ فقال: يابنَ مُلَيكة؛ والله ما درَوْا هذا، ولا أنت معهم! فالنّجاء النّجاء، عودَك على بدئِك حتى تأتيَ حُذيفة فيقسمهما على مَنْ أفاءهما الله عليه؛ فأقبل راجعاً بقبَل حتّى انتهى إلى حُذيفة بماه؛ فأقامهما فباعهما، فأصاب أربعة آلاف ألف.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس الأسديّ؛ أنّ رجلاً يقال له جعفر بن راشد، قال لطليحة وهم مقيمون على نهاوند: لقد أخذتْنا خَلّة؛ فهل بقيَ من أعاجيبك شيء تنفعنا به؟ فقال: كما أنتم حتى أنظر، فأخذ كساء فتقنّع به غير كثير، ثم قال: البيان البيان، غَنَم الدّهقان، في بستان، مكان أرْوَنَان. فدخلوا البستان فوجدوا الغنم مسمنة.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن أبي معبد العبسيّ وعروة بن الوليد، عَمّن حدّثهم من قومهم، قال: بينما نحن محاصرو أهل نهاوند خرجوا علينا ذات يوم، فقاتلونا فلم نُلْبِثهم أن هزمهم الله، فتبع سماك بن عُبَيد العبسيّ ـ رجلاً منهم ـ معه نفر ثمانية على أفراس لهم فبارزهم؛ فلم يبرزْ له أحد إلّا قتله، حتى أتى عليهم. ثم حمل على الذي كانوا معه، فأسره وأخذ سلاحه، ودعا له رجلاً اسمه عبد، فوكّله به، فقال: اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض؛ وأؤدّيَ إليه الجزية، وسلْني أنت عن إسارك ما شئت، وقد مننتَ عليّ إذ لم تقتلني؛ وإنما أنا عبدك الآن؛ وإن أدخلتَني على الملك، وأصلحتَ ما بيني وبينه وجدتَ لي شكراً، وكنت لي أخاً. فخلّى سبيله وآمنه؛ وقال: مَن أنت؟ قال: أنا دينار ـ والبيت منهم يومئذ في آل قارن ـ فأتى به حذيفة، فحدّثه دينار عن نجدة سَماك وما قتل ونظرَه للمسلمين، فصالحه على الخراج، فنسبت إليه ماه، وكان يواصل سماكاً ويُهدى له، ويوافي الكوفة كلما كان عملُه إلى عامل الكوفة، فقدم الكوفة في إمارة معاوية، فقام في الناس بالكوفة، فقال: يا معشرَ أهل الكوفة؛ أنتم أوّلَ ما مررتم بنا كنتم خيارَ الناس، فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان، ثم تغيّرتم وفشت فيكم خصال أربع: بُخل، وخِبّ، وغدر، وضيق؛ ولم يكن فيكم واحدة منهنّ، فرمقتُكم، فإذا ذلك في مولّديكم، فعلمتُ من أين أتيتم، فإذا الخبّ من قبَل النَّبط، والبخل من قِبَل فارس، والغدر مَن قبَل خراسان، والضيق من قبَل الأهواز.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشَّعبيّ، قال: لما قُدِم بسْبي

نِهاوند إلى المدينة؛ جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة لا يلقَى منهم صغيراً إلّا مسح رأسَه وبكى وقال: أكلَ عمر كبدي ـ وكان نِهاونديّاً، فأسرته الرّوم أيام فارس، وأسره المسلمون بعد، فنُسِب إلى حيث سُبِيَ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشعبيّ، قال: قُتِل في اللِّهْب ممن هوى فيه ثمانون ألفاً، وفي المعركة ثلاثون ألفاً مقترين، سوى مَنْ قُتِل في الطلب؛ وكان المسلمون ثلاثين ألفاً، وافتُتِحت مدينة نِهاوند في أوّل سنة تسع عشرة، لسبع سنين من إمارة عمر، لتمام سنة ثمان عشرة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد والمهلب وطلْحة في كتاب النُّعمان بن مقرّن وحُذيفة لأهل الماهَيْن:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أعطى النعمان بن مقرّن أهلَ ماه بَهْراذان؛ أعطاهم الأمانَ على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم؛ لا يُغيَّرون على ملّة، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المنْعَة ما أدّوا الجزية في كلّ سنة إلى مَنْ وليَهم؛ على كلّ حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته؛ وما أرشدوا ابن السبيل، وأصلحوا الطرق، وقرَوْا جنودَ المسلمين ممّن مرّ بهم فأوى إليهم يوماً وليلة، ووفوْا ونصحوا، فإن غشُّوا وبدّلوا؛ فذمّتُنا منهم بريئة. شهد عبد الله بن ذي السهمْين، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله.

وكُتِب في المحرّم سنة تسع عشرة:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى حُذيفة بن اليَمان أهلَ ماه دينار؛ أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرَاضيهم، لا يغيَّرون عن ملّة، ولا يُحال بينهم وبين شرائعهم؛ ولهم المنْعة ما أدّوا الجِزية في كلّ سنة إلى من وَليهم من المسلمين؛ على كلّ حالم في ماله ونفسه على قَدْرِ طاقته، وما أرشدوا ابن السبيل، وأصلحوا الطرق، وقَرَوا جنود المسلمين، مَن مرّ بهم؛ فأوى إليهم يوماً وليلة، ونصحوا، فإن غَشُّوا وبدّلوا فذمّتنا منهم بريئة. شهد القعقاع بن عمرو، ونعيم بن مقرّن، وسُويد بن مقرّن. وكتب في المحرّم.

قالوا: وألحق عُمر مَنْ شهد نِهاوند فأبلَى من الرّوادف بلاءً فاضلاً في ألفين ألفين، ألحقهم بأهل القادسيّة.

وفي هذه السنة أمر عمر جيوشَ العراق بطلب جيوش فارس حيث كانت؛ وأمر بعض مَن كان بالبَصْرة من جنود المسلمين وحواليها بالمسير إلى أرض فارس وكَرْمان وإصبهان، وبعض مَنْ كان منهم بناحية الكوفة وماهاتها إلى أصبهان وأذْرَبيجان والرّيّ، وكان بعضهم يقول: إنما كان ذلك من فعل عمر في سنة ثمان عشرة. وهو قول سيف بن عمر.

ذكر الخبر عمّا كان في هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وعشرين ـ من أمر الجندين اللّذين ذكرتُ أن عمر أمرهما بما ذُكر أنه أمرهما به:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: لما رأى عمر أنّ يزدَجِرد يبعث عليه في كلّ عام حَرْباً، وقيل له: لا يزال هذا الدّأب حتى يخرج من مَمْلكتِه؛ أذِن للناس في الانسياح في أرض العجم؛ حتى يغلبوا يزدَجِرْد على ما كان في يديْ كسرى، فوجّه الأمراء من أهل البصرة بعد فَتْح نِهاوند، ووجّه الأمراء من أهل الكوفة بعد فتحِ نِهاوند؛ وكان بين عمل سعد بن أبي وقّاص وبين عمل

عمّار بن ياسر أميران: أحدُهما عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان ـ وفي زمانه كانت وقعة نِهاوند ـ وزياد بن حنظلة حليف بني عبد بن قصيّ ـ وفي زمانه أمِر بالانسياح ـ وعُزل عبد الله بن عبد الله، وبُعث في وجه آخر من الوجوه، ووُلّي زياد بن حنظلة ـ وكان من المهاجرين ـ فعمل قليلاً، وألحّ في الاستعفاء، فأعفي، ووولّي عمّار بن ياسر بعد زياد؛ فكان مكانه، وأمدّ أهلَ البصرة بعبد الله بن عبد الله، وأمدّ أهلَ الكوفة بأبي موسى، وجعل عمر بن سُراقة مكانه، وقدِمت الألوية من عند عمر إلى نفر بالكوفة زمان زياد بن حنظلة، فقدم لواء منها على نُعيم بن مقرّن، وقد كان أهل هَمَذان كفروا بعد الصلح؛ فأمره بالسَّيْر نحو هَمَذان؛ وقال: فإن فتح الله على يديك فإلى ما وراء ذلك، في وجهك ذلك إلى خُراسان. وبعث عتبة بن فَرقد وبُكير بن عبد الله وعقد لهما على أذَرْبيجان، وفرّقها بينهما، وأمر أحدهما أن يأخذ إليها من حُلْوان إلى ميمنتها، وأمر الآخر أن يأخذ إليها من الموصل إلى ميسرتها، فتيامن هذا عن صاحبه، وتياسر هذا عن صاحبه. وبعث إلى عبد الله بن عبد الله بلواء؛ وأمره أن يسير إلى إصبَهان، وكان شجاعاً بطلاً من أشراف الصحابة ومن وجوه الأنصار؛ حليفاً لبني الحبْلى من بني أسد؛ وأمدّه بأبي موسى من البصرة، وأمّر عمر بن سراقة على البصرة.

وكان من حديث عبد الله بن عبد الله أنّ عمر حين أتاه فتح نِهاوند بدَا لَهُ أن يأذن في الانسياح فكتب إليه: أن سِر من الكوفة حتى تنزل المدائن؛ فاندبهم ولا تنتخبهم، واكتب إليَّ بذلك؛ وعمر يريد توجيهه إلى إصبَهان. فانتدب له فيمن انتدب عبد الله بن ورقاء الرياحيّ، وعبد الله بن الحارث بن ورقاء الأسديّ. والذين لا يعلمون يرون أنّ أحدهما عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخُزاعيّ، لذكر ورقاء، وظنوا أنه نُسِب إلى جدّه، وكان عبد الله بن بُديل بن ورقاء يوم قُتِل بصفّين بن أربع وعشرين سنة، وهو أيامَ عمر صبيّ.

ولما أتى عمرَ انبعاثُ عبد الله، بعثَ زياد بن حنظلة، فلما أتاه انبعاث الجنود وانسياحهم أمّر عمّاراً بعدُ، وقرأ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَنرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّـذِين اسْتُضْعِفُوا فِي الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئمَّـةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ ﴾[1]. وقد كان زياد صُرِف في وَسَطٍ من إمارة سعد إلى قضاء الكوفة بعد إعفاء سلمان وعبد الرحمن ابني ربيعة، ليقضي إلى أن يقدم عبد الله بن مسعود من حِمْص، وقد كان عمِلَ لعمر على ما سقَى الفُرات ودِجْلة النعمانُ وسُويد ابنا مقرّن، فاستعفيا، وقالا: أعفِنا من عمل يتَغوّل ويتزيّن لنا بزينة المومسة. فأعفاهما، وجعل مكانهما حُذَيفة بن أسِيد الغفارّي وجابر بن عمرو المُزنيّ، ثم استعفيا فأعفاهما، وجعل مكانهما حُذَيفة بن اليمان وعثمان بن حُنَيف؛ حذيفة على ما سقت دِجْلة وما وراءها، وعثمانَ على ما سَقَى الفرات من السوادين جميعاً، وكتب إلى أهل الكوفة: إني بعثتُ إليكم عمّار بن ياسر أميراً، وجعلت عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وولّيت حذيفة بن اليمان ما سَقَتْ دِجلة وما وراءها، ووليت عُثمان بن حُنَيف الفرات وما سَقَى.

ذكر الخبر عن إصبَهان

قالوا: ولما قدم عَمّار إلى الكوفة أميراً، وقدم كتاب عمر إلى عبد الله: أن سرْ إلى إصبَهان وزياد على الكوفة، وعلى مقدّمتك عبد الله بن وَرْقاء الرياحيّ، وعلى مجنّبتيك عبد الله بن ورقاء الأسدي وعصمة بن عبد الله ـ وهو عصمة بن عبد الله بن عبيدة بن سيف بن عبد الحارث ـ فسار عبد الله في الناس حتى قدِم على حُذَيفة، ورجع حذيفة إلى عمله، وخرج عبد الله فيمن كان معه ومن انصرف معه من جُنْد النعمان من نِهاوند

---

(١) سورة القصص: ٥.

نحو جند قد اجتمع له من أهل إصبَهان عليهم الأُسْتَنْدار؛ وكان على مقدّمته شَهْر براز جاذَوْيه، شيخ كبير في جمع عظيم؛ فالتقى المسلمون ومقدّمة المشركين برُسْتاق من رساتيق إصبهان؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودعا الشيخ إلى البراز، فبرز له عبد الله بن وَرْقاء؛ فقتله وانهزم أهل إصبَهان، وسمّى المسلمون ذلك الرستاق رُسْتاقَ الشيخ، فهو اسمه إلى اليوم. ودعا عبد الله بن عبد الله مَنْ يليه، فسأل الأَسْتَنْدار الصّلحَ، فصالحهم؛ فهذا أوّل رُسْتاق أخِذ من إصبهان. ثم سار عبدالله من رستاق الشيخ نحو جَيّ حتى انتهى إلى جَيّ والملك بإصبهان يومئذ الفاذوسفان، ونزل بالناس على جَيّ؛ فحاصرهم، فخرجوا إليه بعد ما شاء الله من زحف؛ فلما التقوْا قال الفاذوسفان لعبدالله: لا تقتل أصحابي؛ ولا أقتل أصحابَك؛ ولكن ابرُز لي؛ فإن قتلتُك رجع أصحابك وإن قتلتَني سالمَك أصحابي؛ وإن كان أصحابي لا يقع لهم نُشّابة. فبرز له عبدالله وقال: إمّا أن تحمِل عليّ، وإما أن أحمل عليك؛ فقال: أحمِل عليك، فوقف له عبدالله، وحمل عليه الفاذوسفان، فطعنه، فأصاب قَرَبُوس سَرْجه فكسره، وقطع اللّبَب والحِزام، وزال اللّبْد والسَّرْج، وعبدالله على الفرس؛ فوقع عبدالله قائماً، ثمّ استوى على الفرس عُرْيا؛ وقال له: اثبت، فحاجزه، وقال: ما أحبّ أن أقاتلك؛ فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن أرجعُ معك إلى عسكرك فأصالحك؛ وأدفع المدينة إليك؛ على أنّ مَن شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله؛ وعلى أن تُجرى مَن أخذتم أرضه عنوةً مجراهم، ويتراجعون، ومَن أبَى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء؛ ولكم أرضه. قال: لكم ذلك.

وقدم عليه أبو موسى الأشعريّ من ناحية الأهواز، وقد صالح الفاذوسفان عبد الله فخرج القوم من جَيّ، ودخلوا في الذمّة إلّا ثلاثين رجلاً من أهل إصْبَهان خالفوا قومَهم وتجمّعوا فلحقوا بكَرمان في حاشيتهم؛ لجمع كان بها؛ ودخل عبد الله وأبو موسى جيّ - وجَيّ مدينة إصبهان - وكتب بذلك إلى عمر، واغتبط مَنْ أقام، وندم من شخص. فقدم كتاب عمر على عبد الله: أن سر حتى تقدم على سُهيل بن عدي فتجامعَه على قتال مَنْ بكَرْمان، وخلّف في جَيّ من بقي عن جيّ، واستخلف على إصبهان السائب بن الأقرع.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن نفر من أصحاب الحسن؛ منهم المبارك بن فَضالة، عن الحسن، عن أسيد بن المتشمّس بن أخي الأحنف، قال: شهدتُ مع أبي موسى فتح إصبهان، وإنما شهدَها مدداً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: كتاب صلح إصبهان:

بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من عبد الله للفاذوسفان وأهل إصبَهان وحواليها؛ إنكم آمنون ما أديتم الجِزية، وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كلّ سنة تؤدّونها إلى الذي يلي بلادكم عن كلّ حالم؛ ودِلالةُ المسلم وإصلاح طريقه وقِراه يوماً وليلة، وحُملان الرّاجل إلى مرحلةٍ، لا تسلّطوا على مسلم، وللمسلمين نصحُكم وأداء ما عليكم، ولكم الأمان ما فعلتم؛ فإذا غيّرتم شيئاً أو غَيّر مغيّرٌ منكم ولم تُسلموه فلا أمان لكم؛ ومن سبّ مسلماً بُلِغ منه؛ فإن ضربه قتلناه. وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن ورقاء، وعصمة بن عبد الله.

فلما قدم الكتاب من عمر على عبد الله، وأمِر فيه باللّحاق بسهيل بن عدِيّ بكَرْمان خرج في جريدة خيل، واستخلف السائب، ولحق بسُهيل قبل أن يصل إلى كَرْمان.

وقد روي عن معقِل بن يَسَار أنّ الذي كان أميراً على جيش المسلمين حين غزوْا إصبهان النعمان بن مقرّن .

ذكر الرواية بذلك:

حدّثنا يعقوب بن إبراهيم وعمرو بن عليّ، قالا: حدّثنا عبد الرحمن بن مهديّ، قال: حدّثنا حماد بن سلمَة، عن أبي عمران الجَوْنيّ، عن علقمة بن عبد الله المزني، عن معقل بن يَسار؛ أنّ عُمر بن الخطاب شاور الهُرْمزان، فقال: ما ترى؟ أبدأ بفارس، أم بأذْرَبيجان، أم بإصبهان؟ فقال: إنّ فارس وأذْرَبيجان الجناحان، وإصبهان الرّأس. فإن قطعت أحدَ الجناحين قام الجناح الآخر؛ فإن قطعت الرأس وقع الجناحان؛ فابدأ بالرأس. فدخل عمر المسجد والنعمان بن مقرّن يصلّي؛ فقعد إلى جنبه، فلمّا قضى صلاتَه، قال: إني أريد أن أستعملَك، قال: أمّا جابياً فلا؛ ولكن غازياً؛ قال: فأنت غاز. فوجهه إلى إصبَهان، وكتب إلى أهل الكوفة أن يُمدّوه، فأتاها وبينه وبينهم النهر، فأرسل إليهم المغيرة بن شعبة، فأتاهم، فقيل لَمِلكهم ـ وكان يقال له ذوَ الحاجبين: إنّ رسول العرب على الباب، فشاور أصحابه، فقال: ما ترون؟ أقعد له في بَهْجة الملك؟ فقالوا: نعم، فقعد على سريره، ووضع التّاج على رأسه؛ وقعد أبناء الملوك نحو السّماطين عليهم القِرَطة وأسورة الذهب وثياب الدّيباج. ثم أذن له فدخل ومعه رمحه وتُرْسه، فجعل يطعن برمحه بُسُطهم ليتطيّروا، وقد أخذ بضَبُعيه رجلان، فقام بين يديه، فكلمه ملكُهم، فقال: إنكم يا معشرَ العرب أصابكم جوع شديد فخرجتم؛ فإن شئتم أمِرْناكم ورجعتم إلى بلادكم. فتكلّم المغيرة؛ فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إنا معاشر العرب؛ كنا نأكل الجيفَ والمَيْتة، ويطؤنا الناس ولا نطؤهم؛ وإنّ الله عزّ وجلّ ابتعث منا نبياً، أوسطنا حسباً، وأصدقنا حديثاً ـ فذكر النبيّ ﷺ بما هو أهلُه ـ وإنه وعدنا أشياء فوجدناها كما قال؛ وإنه وعدنا أنا سنظهر عليكم، ونغلب على ما ها هنا. وإنّي أرى عليكم بِزّة وهيئة ما أرى مَن خلْفي يذهبون حتى يصيبوها.

قال: ثمّ قلت في نفسي: لو جمعت جرامِزِي، فوثبت وثبة، فقعدت مع العِلْج على سريره لعلّه يتطيّر! قال: فوجدت غفلة؛ فوثبت؛ فإذا أنا معه على سريره. قال: فأخذوه يتوجئونه ويطئونه بأرجلهم. قال: قلت: هكذا تفعلون بالرسل! فإنا لا نفعل هكذا، ولا نفعل برسلكم هذا. فقال الملك: إن شئتم قطعتم إلينا، وإن شئتم قطعنا إليكم. قال: فقلت: بل نقطع إليكم. قال: فقطعنا إليهم فتسلسلوا كلّ عشرَة في سلسلة، وكلّ خمسة وكلّ ثلاثة. قال: فصافقناهم، فرشقونا حتى أسرعُوا فينا؛ فقال المغيرة للنعمان: يرحمك الله! إنه قد أسرِع في الناس فاحمل، فقال: والله إنك لذو مناقب؛ لقد شهدتُ مع رسولِ الله ﷺ القتال؛ فكان إذا لم يقاتِل أوّل النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس، وتهبّ الرياح، وينزل النصر.

قال: ثمّ قال: إني هازّ لوائي ثلاث مرات؛ فأما الهَزّة الأولى فقضى رجل حاجته وتوضّأ، وأما الثانية فنظر رجل في سلاحه وفي شِسْعه فأصلحه، وأما الثالثة فاحملوا، ولا يلوِيَن أحدٌ على أحد؛ وإن قتِل النعمان فلا يَلْوِ عليه أحد؛ فإنّي أدعو الله عزّ وجلّ بدعوةٍ؛ فعزمت على كلّ امرىء منكم لَمَا أمّن عليها! اللهمّ أعطِ اليوم النعمان الشهادة في نصر المسلمين، وافتح عليهم؛ وهزّ لواءه أوّل مرة، ثم هزّ الثانية، ثم هزّ الثالثة، ثم شَلّ درعه، ثم حمل فكان أوّل صريع، فقال معقل: فأتيتُ عليه؛ فذكرت عزمتَه، فجعلت عليه عَلَماً، ثمّ ذهبت ـ وكنا إذا قتلنا رجلاً شُغِل عنا أصحابه ـ ووقع ذو الحاجبين عن بغلته فانشقّ بطنُه، فهزمهم الله؛ ثم جئتُ إلى

النعمان ومعي إداوة فيها ماء، فغسلت عن وجهه التراب، فقال: مَن أنت؟ قلت: معقِل بن يسار، قال: ما فعل الناس؟ فقلت: فتح الله عليهم، قال: الحمدُ لله؛ اكتبوا بذلك إلى عمر؛ وفاضت نفسه.

واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس، وفيهم ابن عمر وابن الزّبير، وعمرو بن معد يكرب وحُذيفة، فبعثوا إلى أمّ ولده، فقالوا: أما عهدَ إليكِ عهداً؟ فقالت: ها هنا سَفَط فيه كتاب، فأخذوه، فكان فيه: إنْ قُتل النعمان ففلان، وإن قتل فلان ففلان.

وقال الواقديّ: في هذه السنة ـ يعني سنة إحدى وعشرين ـ مات خالد بن الوليد بحمْص، وأوصى إلى عمر بن الخطاب.

قال: وفيها غزا عبدُ الله وعبد الرحمن ابنا عمرو وأبو سَرْوعة، فقدِموا مصر، فشرب عبدُ الرحمن وأبو سَرْوَعة الخمر، وكان من أمرهما ما كان.

قال: وفيها: سار عمرو بن العاص إلى أنطابُلُس ـ وهي بَرْقة ـ فافتتحها، وصالح أهل بَرْقة على ثلاثة عشر ألف دينار، وأن يبيعوا مِن أبنائهم ما أحبّوا في جِزيتهم.

قال: وفيها ولّى عمر بن الخطاب عَمّار بن ياسر على الكوفة، وابن مَسعود على بيت المال، وعثمان بن حُنَيف على مساحة الأرض؛ فشكا أهلُ الكوفة عمّاراً، فاستعفى عمار عمرَ بن الخطاب، فأصاب جُبير بن مطعم خالياً فولّاه الكوفة، فقال: لا تذكره لأحد؛ فبلغ المغيرةَ بن شعبة أنّ عُمَر خَلاَ بجُبير بن مطعِم، فرجع إلى امرأته؛ فقال: اذهبي إلى امرأة جُبَير بن مطعم، فاعرضي عليها طعام السَّفَر؛ فأتتها فعرضت عليها، فاستعجمت عليها، ثم قالت: نعم، فجِيئيني به؛ فلما استيقن المغيرة بذلك جاء إلى عمر، فقال: بارك الله لك فيمن ولّيت! قال: فمن وليت؟ فأخبره أنه ولّى جُبير بن مطعِم، فقال عمر: لا أدري ما أصنع! وولى المغيرة بن شعبة الكوفةَ؛ فلم يزل عليها حتى مات عمر.

قال: وفيها بعث عمرو بن العاص عُقْبة بن نافع الفهريّ، فافتتح زَويلة بصلح وما بين برقة وزَويلة سِلْم للمسلمين.

وحدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: كان بالشأم في سنة إحدى وعشرين غزوة الأمير معاوية بن أبي سفيان، وعمير بن سعد الأنصاريّ على دمشق والبثنِيّة وحَوْران وحِمص وقنَّسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردنّ وفلَسطين والسواحل وأنطاكيَةَ ومعرّة مَصْرين وقِلِقيّة. وعند ذلك صالح أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس على قِلقيّة وأنطاكيَة ومَعَرّة مَصْرِين.

وقيل: وفيها ولِد الحسن البصري وعامر الشعبيّ.

قال الواقديّ: وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب، وخلّف على المدينة زيد بن ثابت؛ وكان عاملَه على مكة والطائف واليمن واليمامة والبحرين والشأم ومصر والبصرة مَنْ كان عليها في سنة عشرين، وأما الكوفة فإنّ عامله عليها كان عمّار بن ياسر، وكان إليه الأحداث، وإلى عبد الله بن مسعود بيت المال، وإلى عثمان بن حُنَيف الخرَاج، وإلى شُريح ـ فيما قيل ـ القضاء.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين

قال أبو جعفر: ففيها فتِحت أذْرَبيجان، فيما حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: كانت أذْرَبيجان سنة اثنتين وعشرين، وأميرها المغيرة بن شعبة. وكذلك قال الواقديّ.

وأما سيف بن عمر، فإنه قال فيما كتب إليّ به السريّ عن شعيب عنه، قال: كان فتح أذْرَبيجان سنة ثمان عشرة من الهجرة بعد فتح هَمَذان والرّيّ وجُرجان وبعد صلح إصبَهْبَذ طبَرِسْتان المسلمين. قال: وكلّ ذلك كان في سنة ثمان عشرة.

قال: فكان سبب فتح هَمَذان ـ فيما زعم ـ أنّ محمداً والمهلب وطلحة وعمراً وسعيداً أخبروه أنّ النعمان لما صُرِف إلى الماهَيْن لاجتماع الأعاجم إلى نِهاوند، وصُرِف إليه أهلُ الكوفة وافوْه مع حُذَيفة؛ ولما فصل أهلُ الكوفة من حُلوان وأفضوْا إلى ماه هَجموا على قلعة في مَرْج فيها مسلَحة، فاستنزلوهم، وكان أوّل الفتح، وأنزلوا مكانهم خيلاً يمسكون بالقلعة، فسمَّوْا معسكرهم بالمرْج؛ مرْج القلعة؛ ثم ساروا من مَرْج القلعة نحو نِهاوند؛ حتى إذا انتهوْا إلى قلْعة ـ فيها قوم خلّفوا عليها النُّسيرَ بن ثور في عِجْل وحَنيفة؛ فنُسِبت إليه؛ وافتتحها بعد فتح نِهاوند ولم يشهد نِهاوند عِجْلي ولا حَنفِيّ ـ أقاموا مع النُّسَير على القلعة، فلما جمعوا فيءَ نهاوند والقلاع أشركوا فيها جمعاً؛ لأنّ بعضهم قوّى بعضاً. ثم وصفوا ما استقروْا فيها بين مَرْج القلعة وبين نِهاوند مما مرّوا به قبل ذلك فيما استقرُّوا من المرْج إليها بصفاتها، وازدحمت الرّكاب في ثَنِيّة من ثنايا مَاه، فسمّيت بالركاب، فقيل: ثَنيّة الرِّكاب. وأتوْا على أخرى تدور طريقها بصخرة، فسمَّوْها ملْويّة، فدرست أسماؤها الأولى، وسمّيت بصفاتها، ومرُّوا بالجبل الطويل المشرف على الجبال، فقال قائل منهم: كأنه سِنُّ سُمَيرة ـ وسُميرة امرأة من المهاجرات من بني معاوية، ضَبّية لها سنّ مشرفة على أسنانها، فسمّيَ ذلك الجبل بسنّها ـ وقد كان حذيفة أتبعَ الفالّةَ ـ فالّة نِهاوند ـ نُعيمَ بن مقرّن والقعقاعَ بن عمرو؛ فبلغا هَمذان، فصالحهم خُسْروشْنُوم، فرجعا عنهم، ثم كفر بعدُ. فلمّا قدم عهدُه في العهود من عند عمر وَدّع حُذَيفة وودّعه حُذيفة؛ هذا يريد هَمَذان، وهذا يريد الكوفة راجعاً، واستخلف على الماهيْن عمَرو بن بلال بن الحارث!

وكـان كتاب عُمر إلى نُعيم بن مقرّن: أنْ سِرْ حتى تأتي هَمَذان، وابعث على مقدّمتك سُوَيد بن مقرّن، وعلى مجنّبتيك رِبعيّ بن عامر ومهلهل بن زيد؛ هذا طائيّ، وذاك تميميّ. فخرج نُعيم بن مقرّن في تعبيته حتى نزل ثنيّة العَسَل ـ وإنما سُمّيت ثنيّة العسل بالعسل الذي أصابوا فيها غبّ وقعة نِهاوند حيث أتبعوا الفالّة ـ

فانتهى الفيرُزان إليها، وهي غاصّة بحوامل تحمل العَسَل وغير ذلك؛ فحبست الفيرُزان حتى نزل؛ فتوقَّل في الجبل وغارَ فرسُه فأدرك فأصيب. ولما نزلوا كِنْكِوَر سرقتْ دوابّ من دوابّ المسلمين، فسمِّي قصر اللصوص.

ثم انحدر نُعيم من الثَّنيّة حتى نزل على مدينة هَمَذان، وقد تحصّنوا منهم، فحصرهم فيها، وأخذ ما بين ذلك وبين جَرْميذان، واستولُوا على بلاد هَمَذان كلها. فلما رأى ذلك أهلُ المدينة سألوا الصّلح، على أن يُجريهم ومن استجاب مُجرًى واحداً، ففعل، وقبل منهم الجزاء على المنعَة، وفرّق دَسْتَبى بين نفر من أهل الكوفة، بين عصمة بن عبدالله الضبّيّ ومهلهل بن زيد الطائيّ وسِماك بن عُبَيد العبسيّ وسماك بن مخرمة الأسديّ، وسِمَاك بن خرَشة الأنصاريّ؛ فكان هؤلاء أوّل من وَلِيَ مسالح دَسْتَبى وقاتل الدّيلَم.

وأما الواقديّ فإنه قال: كان فتح هَمَذان والرّي في سنة ثلاث وعشرين. قال: ويقال افتتح الرّيّ قَرَظة بن كعب.

وحدّثني ربيعة بن عثمان أنَّ فَتْح هَمَذان كان في جُمادى الأولى، على رأس ستة أشهر من مقتل عمر بن الخطاب؛ وكان أميرها المغيرة بن شعبة.

قال: ويقال: كان فتح الرّيّ قبل وفاة عمر بسنتين، ويقال: قتل عُمر وجيوشه عليها.

رجع الحديث إلى حديث سيف. قال: فبينما نُعيم في مدينة هَمَذان في توطئتها في اثني عشر ألفاً من الجنْد تكاتب الدَّيْلم وأهل الرّي وأهل أذْرَبيجان، ثم خرج موتا في الدّيلم حتى ينزل بواج رُوذ؛ وأقبَلَ الزينبيّ أبو الفَرُّخان في أهل الرّيّ حتى انضمّ إليه، وأقبل إسْفَنْدِياذ أخو رُسْتم في أهل أذْرَبيجان؛ حتى انضمّ إليه، وتحصّن أمراء مسالح دَسْتَبى، وبعثوا إلى نعيم بالخبر، فاستخلف يزيد بن قيس، وخرج إليهم في الناس حتى نزل عليهم بواجِ الرّوذ، فاقتتلوا بها قتالا شديداً؛ وكانت وقعة عظيمة تعدِل نِهاوند؛ ولم تكن دونها، وقتل من القوم مقتلةٌ عظيمة لا يحصَوْن ولا تقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار؛ وقد كانوا كتبوا إلى عمر باجتماعهم، ففزع منها عمر، واهتمّ بحربها، وتوقع ما يأتيه عنهم، فلم يفجأه إلّا البريد بالبِشارة، فقال: أبشير! فقال: بل عروة؛ فلما ثنى عليه: أبشير؟ فطِن، فقال: بشير؛ فقال عمر: رسول نُعيم؟ قال: رسول نُعَيم، قال: الخبر؟ قال: البشرى بالفتح والنصر؛ وأخبره الخبر؛ فحمِد الله، وأمر بالكتاب فقرىء على الناس؛ فحمِدوا الله. ثم قدم سِماك بن مَخْرمة وسِماك بن عُبيد وسِماك بن خَرَشة في وفود من أهل الكوفة بالأخماس على عمر، فنسبهم، فانتسب له سِماك وسِماك وسماك، فقال: بارك الله فيكم؛ اللهمّ اسْمُكْ بهم الإسلام وأيِّدهم بالإسلام. فكانت دَسْتَبى من هَمَذان ومسالحها إلى هَمَذان، حتى رجع الرّسول إلى نعيم بن مقرّن بجواب عمر بن الخطّاب: أما بعدُ، فاستخلف على هَمَذان، وأمدّ بُكَير بن عبدالله بسماك بن خَرشة، وسرْ حتى تقدم الرّيّ، فتلقى جمعهم، ثم أقِمْ بها، فإنها أوسطُ تلك البلاد وأجمعها لما تريد. فأقرّ نُعيم يزيد بن قيس الهَمْذانيّ على هَمَذان، وسار من واج الرُّوذ بالناس إلى الريّ.

وقال نعيم في واج الرّوذ:

لـمَّـا أتـانـي أن مـوتـا ورَهْـطه ... بني بـاسِـلٍ جَـرُّوا جُنودَ الأعـاجِمِ
نَهضتُ إليهم بـالـجنـود مُـسـامياً ... لأمْنَـعَ منهم ذِمتي بـالـقَـواصِـمِ
فجئنـا إليهـم بـالحَـديـدِ كـأننـا ... جِبـالٌ تـراءى من فُـروع القَـلاسِم

فلمـا لَقِينـاهُـمْ بهـا مُسْتفيضَـةً ... وقـد جعلوا يَسْمـونَ فِعْـلَ المُساهِمِ
صَـدَمْنـاهُمُ في واجِ رُوذَ بِجمْعنـا ... غـداةَ رَمَيْناهم بـإِحـدى العـظائمِ
فمـا صبروا في حَوْمةِ المـوتِ ساعَـةً ... لِحَـدِّ الـرِّماحِ والسيوفِ الصَّـوارِمِ
كـأنهُمْ عـنـد انبِثـاثِ جُمـوعِهِمْ ... جِـدارٌ تَـشَـظَّى لَبْـنُـهُ لِلهَـوادِمِ
أصَبْنـا بهـا مـوتـا ومَنْ لفَّ جَمْعَـه ... وفيهـا نهـابٌ قَسْمُـهُ غيـرُ عـاتِـمِ
تَبِعْنـاهُمُ حـتى أوَوْا في شِعـابِهِـمْ ... نُقَتِّلُهُمْ قَتْـلَ الكِـلابِ الـجَـواحِمِ
كـأنـهُـمُ فـي واجِ رُوذَ وَجَـوِّهِ ... ضَئينٌ أصـابَتْهـا فُـروجُ المخـارِمِ

وسماك بن مَخْرمة هو صاحب مسجد سِماك.

وأعاد فيهم نعيم كتاب صلح هَمَذان، وخلّف عليها يزيد بن قيس الهَمْذانيّ، وسار بالجنود حتى لحِق بالرّيّ، وكان أوّل نسل الدّيلم من العرب، وقولهم فيه نُعيم.

فتح الرّيّ

قالوا: وخرج نُعَيم بن مقرّن من واج رُوذ في الناس ـ وقد أخرَبها ـ إلى دَسْتَبَى، ففصل منها إلى الرّيّ، وقد جمعوا له، وخرج الزينبيّ أبو الفَرُّخان، فلقيه الزينبيّ بمكان يقال له قِهَا مسالماً ومخالفاً لملك الريّ، وقد رأى من المسلمين ما رأى مع حسد سِياوَخْش وأهل بيته، فأقبل مع نُعيم والملك يومئذ بالريّ سِياوَخْش بن مهران بن بَهْرام شوبين، فاستمدّ أهل دُنْباوَنْد وَطبرسْتان وقُومِس وجُرْجان. وقال: قد علمتم أنّ هؤلاء قد حلُّوا بالرّيّ، إنه لا مقام لكم، فاحتشدوا له، فناهده سِياوَخْش، فالتقوْا في سَفْح جبل الرّيّ إلى جنب مدينتها، فاقتتلوا به، وقد كان الزينبيّ قال لنُعيم: إنّ القوم كثير، وأنت في قلّة؛ فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به، وناهِدْهم أنت، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتُوا لك. فبعث معه نُعيم خيلاً من الليل، عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبيّ المدينة، ولا يشعر القوم، وبيَّتهم نُعيم بياتاً فشغلهم عن مدينتهم، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمِعُوا التكبير من ورائهم. ثمّ إنهم انهزموا فقتِلوا مقتلةً عُدّوا بالقَصب فيها، وأفاء الله على المسلمين بالرّي نحواً من فيء المدائن، وصالحه الزينبيّ على أهل الرّيّ ومَرْزَبه عليهم نُعيم، فلم يزل شرف الريّ في أهل الزينبيّ الأكبر، ومنهم شَهْرام وفَرُّخان، وسقط آل بهرام، وأخرب نُعيم مدينتهم، وهي التي يقال لها العتيقة ـ يعني مدينة الرّي ـ وأمر الزينبيّ فبنى مدينة الرّيّ الحُدْثَى. وكتب نُعَيم إلى عمر بالذي فتح الله عليه مع المضارِب العجليّ، ووفّد بالأخماس مع عُتيبة بن النّهاس وأبي مفزّر في وجوه من وجوه أهل الكوفة، وأمدّ بكير بن عبدالله بسماك بن خَرَشة الأنصاريّ بعد ما فتح الرّي، فسار سِماك إلى أذْربيجان مدداً لبكير، وكتب نُعيم لأهل الرّي كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى نُعيم بن مقرّن الزينبيَّ بن قُوله، أعطاه الأمان على أهل الرّيّ ومَن كان معهم من غيرهم على الجزاء، طاقة كلّ حالم في كلّ سنة، وعلى أن ينصحوا ويدلُّوا ولا يُغِلُّوا ولا يُسِلّوا، وعلى أن يَقْروا المسلمين يوماً وليلة، وعلى أن يفخّموا المسلم، فمن سبّ مسلماً أو استخفّ به نُهك عقوبة، ومَنْ ضربه قُتِل، ومَن بدّل منهم فلم يسْلَم برُمّته فقد غيّر جماعتكم. وكتب وشهد.

وراسله المَصْمُغان في الصّلح على شيء يفتدى به منهم من غير أن يسأله النصر والمَنْعة، فقبل منه، وكتب

بينه وبينه كتاباً على غير نصر ولا معونة على أحد، فجرى ذلك لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من نُعَيم بن مقرّن لمَرْدَانْشاه مَصْمُغان دُنْبَاوند وأهل دُنْباوند والخُوار واللارِز والشِّرّز. إنك آمن ومَن دخل معك على الكفّ، أن تكفّ أهل أرضك، وتتقي من ولي الفرْج بمائتي ألف درهم وَزْنَ سبعة في كلّ سنة، لا يغار عليك، ولا يدخل عليك إلّا بإذن؛ ما أقمت على ذلك حتى تغيِّر، ومَنْ غيّر فلا عهد له ولا لمن لم يسلمه. وكتب وشهد.

فتح قومِس

قالوا: ولما كتب نُعيم بفتح الرّيّ مع المُضارب العجليّ، ووفّد بالأخماس كتب إليه عُمر: أن قدّم سُويد بن مقرّن إلى قومِس، وابعث على مقدمته سماك بن مَخْرَمة وعلى مجنّبتيه عُتَيبة بن النّهاس وهند بن عمرو الجمليّ، ففصلَ سُويد بن مقرّن في تعبيتِه من الرّيّ نحو قُومِس؛ فلم يقمْ له أحدٌ؛ فأخذها سِلْماً، وعسكر بها، فلمّا شربوا من نهر لهم يقال له ملاذ، فشا فيهم القَصَر؛ فقال لهم سويد: غيّروا ماءكم حتى تعودوا كـأهله؛ ففعلوا، واستمرؤوه، وكاتبه الذين لجؤوا إلى طِبرستان منهم، والذين أخذوا المفاوز، فدعاهم إلى الصلح والجِزاء، وكتب لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى سويد بن مقرّن أهلَ قومِس ومن حَشَوْا من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم، على أن يؤدُّوا الجزية عن يد؛ عن كلّ حالم بقدر طاقته؛ وعلى أن ينصحوا ولا يغشُّوا، وعلى أن يدلُّوا، وعليهم نُزْل مَنْ نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدّلوا واستخفُّوا بعهدهم فالذمّة منهم بريئة. وكتب وشهد.

فتح جُرْجان

قالوا: وعسكر سُويد بن مقرّن ببِسطام، وكاتب ملك جرجان رُزْبان صول ثم سار إليها، وكاتبه رُزْبان صول، وبادره بالصّلح على أن يؤدّيَ الجزاء، ويكفيه حرب جُرجان، فإن غلب أعانه. فقبل ذلك منه، وتلقّاه رُزْبان صُول قبل دخول سُوَيد جُرجان؛ فدخل معه، وعسكر بها حتى جبَى إليه الخراج، وسمى فروجها، فسدّها بتُرْك دِهِسْتان، فرفع الجزاء عمّن أقام يمنعها، وأخذ الخراج من سائر أهلها؛ وكتب بينهم وبينه كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من سُويد بن مقرّن لرُزْبان صُول بن رُزْبان وأهل دِهِسْتان وسائر أهل جُرْجان؛ إنّ لكم الذّمة، وعلينا المَنْعة؛ على أنّ عليكم من الجزاء في كلّ سنة على قَدْر طاقتكم؛ على كلّ حالم؛ ومن استعنّا به منكم فله جزاؤه في معونته عِوضاً من جزائه؛ ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغيَّر شيء من ذلك هو إليهم ما أدّوا وأرشدوا ابنَ السبيل ونصحوا وقَرَوا المسلمين، ولم يبد منهم سَلٌّ ولا غَلٌّ، ومَن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومَنْ خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنَه؛ وعلى أنّ من سبّ مسلماً بُلِغَ جهده، ومن ضربه حلّ دمه. شهد سواد بن قطبة، وهند بن عمرو، وسِماك بن مَخْرمة، وعتيبة بن النّهاس. وكتب في سنة ثمان عشرة.

وأما المدائنيّ، فإنه قال ـ فيما حدّثنا أبو زيد، عنه: فُتِحت جُرجان في زمن عثمان سنة ثلاثين.

فتح طَبَرِستان

قالوا: وأرسل الإصبَهبذ سُوَيداً في الصّلح، على أن يتوادعا؛ ويجعل له شيئاً على غير نصر ولا معونة على

أحد؛ فقبل ذلك منه، وجرى ذلك لهم، وكتب له كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من سُويد بن مقرّن للفرُّخَان إصبَهبذ خُراسان على طَبَرستان وجِيل جِيلان من أهل العدوّ؛ إنك آمن بأمان الله عزّ وجلّ على أن تكفّ لُصُوتَكَ وأهلَ حواشي أرضك، ولا تُؤويَ لنا بُغْية، وتتّقيَ من ولي فَرْج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك، فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يُغيِر عليك، ولا يتطرّق أرضك، ولا يدخل عليك إلاّ بإذنك؛ سبيلنا عليكم بالإذن آمنة؛ وكذلك سبيلكم، ولا تـؤون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدوّ، ولا تغلّون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم. شهد سواد بن قطبة التميميّ، وهند بن عمرو المُراديّ، وسماك بن مَخْرمة الأسـديّ، وسِماك بن عُبيد العبسيّ، وعتيبة بن النهّاس البكريّ. وكتب سنة ثمان عشرة.

فتح أذْرَبيجان

قال: ولما افتتح نُعيم همَذان ثانية، وسار إلى الريّ من واج رُوذ، كتب إليه عمر: أنْ يبعث سِماك بن خَرَشة الأنصاريّ ممُدًّا لبُكير بن عبدالله بأذْرَبيجان؛ فـأخّر ذلك حتى افتتح الريّ، ثم سرّحه من الرّيّ، فسار سماك نحو بُكير بأذْرَبيجان؛ وكان سماك بن خَرشة وعُتْبة بن فَرْقد من أغنياء العرب؛ وقدما الكوفة بالغنى؛ وقد كان بكير سار حين بَعِث إليها؛ حتى إذا طلع بحيال جَرْميذان ـ طلع عليهم إسْفَنْدياذ بن الفَرُّخْزاذ مهزوماً من واج روذ، فكان أوّل قتال لقيه بأذْرَبيجان، فاقتتلوا، فهزم الله جندَه؛ وأخذ بُكير إسفندِياذ أسيراً، فقال له إسفندياذ: الصلح أحبُّ إليك أم الحرب؟ قال: بل الصلح، قال: فأمسكني عندك؛ فإنّ أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء لم يقيموا لك، وجَلَوْا إلى الجبال التي حَوْلها من القَبْج والروم ومَن كان على التحصّن تحصّن إلى يوم ما، فأمسكه عنده، فأقام وهو في يده، وصارت البلاد إليه إلاّ ما كان من حصن. وقدم عليه سِماك بن خَرَشة مُمدًّا وإسفندياذ في إساره، وقد افتتح ما يليه، وافتتح عتبة بن فرقد ما يلِيه. وقال بُكير لسِماك مقدَمه عليه، ومازحه: ما الّذي أصنع بك وبعتبة بأغْنَيين؟.لئن أطعت ما في نفسي لأمضينّ قُدما ولأخلِّفنّكما، فإن شئت أقمتَ معي، وإن شئت أتيت عُتْبة فقد أذنت لك، فإني لا أراني إلاّ تارككما وطالباً وجهاً هو أكره من هذا. فاستعفى عمر؛ فكتب إليه بالإذن على أن يتقدّم نحو الباب؛ وأمره أن يستخلف على عمله، فاستخلف عُتبة على الذي افتتح منها، ومضى قُدما، ودفع إسفندياذ إلى عُتبة، فضمّه عُتبة إليه، وأمّر عُتْبة سِمـاك بن خَرشة ـ وليس بأبي دُجَانة ـ على عمل بُكير الذي كان افتتح، وجمع عمر أذْرَبيجان كلّها لعتبة بن فرقد.

قالوا: وقد كان بَهْرام بن الفرُّخزاذ أخذ بطَرِيق عُتبة بن فرقد، وأقام له في عسكره حتى قدم عليه عُتْبة، فاقتتلوا، فهزمه عُتْبة، وهرب بَهرام. فلما بلغ الخبر بهزيمة بَهْرام ومهربه إسفندياذ وهو في الإسار عند بُكير، قال: الآن تمّ الصّلح، وطفِئت الحرب، فصالحه، وأجاب إلى ذلك كلهم، وعادت أذْرَبيجان سِلْماً، وكتب بذلك بُكير وعُتْبة إلى عُمر، وبعثوا بما خمّسوا مما أفاء الله عليهم، ووفّدُوا الوفود بذلك؛ وكان بُكَير قد سبق عُتْبة بفتح ما ولى، وتمّ الصلح بعد ما هزم عتبة بَهْرام. وكتب عُتبة بينه وبين أهل أذْرَبيجان كتاباً حيث جُمع له عمل بكير إلى عمله:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عُتْبة بن فرقد، عامل عمـر بن الخطّاب أمـير المؤمنين أهـل أذْرَبيجان ـ سهلها وجبلها وحواشيهـا وشفارِهـا وأهل مِلَلهـا ـ كلّهم الأمان عـلى أنفسهم وأموالهم ومللهم

وشرائعهم؛ على أن يؤدّوا الجزية على قَدْر طاقتهم، ليس على صبيّ ولا امرأة ولا زمِن ليس في يديه شيء من الدنيا، ولا متعبّد متخلٍّ ليس في يديه من الدنيا شيء، لهم ذلك ولمن سكن معهم؛ وعليهم قِرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته، ومَنْ حُشِر منهم في سنة وضع عنه جِزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك، ومَنْ خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حِرْزه. وكتب جندب، وشهد بكير بن عبدالله الليثي وسماك بن خرشة الأنصاريّ. وكتب في سنة ثمان عشرة.

قالوا: وفيها، قدم عتبة على عمر بالخَبِيص الذي كان أهداه له، وذلك أنّ عمر كان يأخذ عمّاله بموافاة الموسم في كلّ سنة يحجُر عليهم بذلك الظلم، ويحجزهم به عنه.

فتح الباب

وفي هذه السنة كان فتح الباب في قول سيف وروايته، قال: وقالوا ـ يعني الذين ذكرت أسماءهم قبل: ردّ عُمر أبا موسى إلى البصرة، وردّ سُراقة بن عمرو ـ وكان يدعَى ذا النور ـ إلى الباب، وجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة ـ وكان أيضاً يدعى ذا النور ـ وجعل على إحدى المجنّبتين حُذَيفة بن أسِيد الغفاريّ، وسمّى للأخرى بكير بن عبدالله الليثيّ ـ وكان بإزاء الباب قبل قدوم سُراقة بن عمرو عليه، وكتب إليه أن يلحق به ـ وجعل على المقاسِم سَلْمان بن ربيعة. فقدّم سُراقة عبد الرحمن بن ربيعة، وخرج في الأثر، حتى إذا خرج من أذْرَبيجان نحو الباب، قدم على بُكير في أداني الباب، فاستدفَّ ببكير، ودخل بلاد الباب على ما عبّاه عمر. وأمدّه عمر بحبيب بن مسلمة، صرفه إليه من الجزيرة، وبعث زياد بن حنظلة مكانَه على الجزيرة. ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على الملك بالباب ـ والملك بها يومئذ شهربراز، رجل من أهل فارس؛ وكان على ذلك الفرْج، وكان أصله من أهل شهربراز الملك الذي أفسد بني إسرائيل، وأعرَى الشام منهم ـ فكاتبه شهربراز، واستأمنه على أن يأتيَه، ففعل فأتاه، فقال: إنّي بإزاء عدوّ كَلِب وأمم مختلفة، لا يُنْسَبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يُعِين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست من القَبْج في شيء؛ ولا من الأرمن؛ وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم، وصَغْوِي معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجِزْيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبّون، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم. فقال عبد الرحمن: فوقي رجلٌ قد أظلك فسرْ إليه، فجوّزه، فسار إلى سُراقة فلقيَه بمثل ذلك، فقال سراقة: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بدّ من الجِزاء ممّن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك، وصار سنّة فيمن كان يحارِب العدوّ من المشركين، وفيمن لم يكن عنده الجِزاء، إلاّ أن يستنفَروا فتُوضع عنهم جِزاء تلك السنة. وكتب سُراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك، فأجازه وحسّنه، وليس لتلك البلاد التي في ساحة تلك الجبال نَبَك لم يُقِم الأرمن بها إلاّ على أوْفاز؛ وإنما هم سكان ممّن حولها ومن الطرّاء استأصلت الغارات نَبَكها من أهل القرار، وأرَز أهل الجبال منهم إلى جبالهم، وجلَوْا عن قرار أرضهم، فكان لا يقيم بها إلا الجنود ومن أعانهم أو تجر إليهم؛ واكتتبوا من سُراقة بن عمرو كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهربراز وسكان أرمينية والأرْمن من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملّتهم ألاّ يضارّوا ولا ينتقَضوا، وعلى أهل أرمينية والأبواب؛ الطرّاء منهم والتُّناءومَنْ حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكلّ غارة، وينفذُوا لكلّ أمر ناب

أو لم يَنُبْ رآه الوالي صلاحاً؛ على أن توضع الجزاء عمّن أجاب إلى ذلك إلّا الحَشْر، والحَشْر عِوَضٌ من جزائهم ومن استُغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذْرَبيجان من الجِزاء والدلالة والنُّزْل يوماً كاملاً، فإن حُشِروا وضع ذلك عنهم، وإن تركوا أخِذوا به. شهد عبد الرحمن بن ربيعة، وسلْمان بن ربيعة، وبُكير بن عبد الله. وكتب مَرْضيّ بن مقرّن وشهد.

ووجّه سُراقة بعد ذلك بُكير بن عبدالله وحَبيب بن مسلمة وحُذيفة بن أسِيد وسلْمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية، فوجّه بُكيراً إلى مُوقان، ووجه حبيباً إلى تَفْلِيس وحُذيفة بن أسِيد إلى مَن بجبال اللّان، وسَلْمان بن ربيعة إلى الوجْه الآخر، وكتب سراقة بالفتح وبالذي وجّه فيه هؤلاء النفر إلى عمر بن الخطاب، فأتى عمرَ أمرٌ لم يكن يرى أنه يستتمّ له على ما خرج عليه في سَرِيح بغير مؤونة. وكان فرْجاً عظيماً به جند عظيم، إنما ينتظر أهل فارس صَنِيعهم، ثم يضعون الحرب أو يبعثونها.

فلما استوسَقوا واستحْلوا عَدْل الإسلام مات سُراقة، واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، وقد مضى أولئك القوّاد الذين بعثهم سراقة، فلم يفتح أحد منهم ما وجّه له إلا بكير فإنه فضّ مُوقان، ثم تراجعوا على الجِزية، فكتب لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى بُكير بن عبدالله أهلَ مُوقان من جبال القَبْج على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وشرائعهم على الجِزاء، دينار على كلّ حالم أو قيمته، والنصح، ودِلالة المسلم ونُزْله يومَه وليلتَه، فلهم الأمان ما أقرّوا ونصحُوا، وعلينا الوفاء؛ والله المستعان. فإن تركوا ذلك واستبان منهم غِشّ فلا أمان لهم إلا أن يسلِموا الغَشَشة برُمّتهم؛ وإلّا فهم متمالئون. شهد الشّماخ بن ضِرار والرُّسارس بن جنادب، وحَملة بن جُوَيّة. وكتب سنة إحدى وعشرين.

قالوا: ولما بلغ عمرَ موت سُراقة واستخلافُه عبد الرحمن بن ربيعة أقرّ عبد الرحمن على فَرْج الباب، وأمره بغزو التُّرك، فخرج عبدُ الرحمن بالناس حتى قطع الباب، فقال له شهربراز: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد بلَنْجر؛ قال: إنّا لنرضَى منهم أن يَدَعُونا من دون الباب. قال: لكنّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيَهُم في ديارهم؛ وتالله إنّ معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الرّدْم. قال: وماهم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنيّة، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرّمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم مَن يغلبهم، وحتى يُلْفَتُوا عن حالهم بمن غيّرهم. فغزا بَلَنْجر غزاة في زمن عمر لم تئِمْ فيها امرأة، ولم ييتَم فيها صبيّ، وبلغ خيله في غزاتها البَيْضاء على رأس مائتي فرسخ من بَلَنْجر، ثم غزا فسلِم، ثمّ غزا غزوات في زمان عثمان، وأصيب عبد الرحمن حين تبدّل أهل الكوفة في إمارة عثمان لاستعماله مَن كان ارتدّ استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك، وزادهم فساداً أن سادهم من طلب الدنيا، وعَضَّلوا بعثمان حتى جعل يتمثل:

وكْنتُ وعَمْراً كالمُسَمِّن كَلْبَهُ ... فخَدَّشَهُ أنيابُهُ وأظافِرُهْ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، عن رجل، عن سَلمان بن ربيعة، قال: لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله بين الترك والخُروج عليه، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلّا ومعه الملائكة تمنعه من الموت؛ فتحصَّنوا منه وهربوا، فرجع بالغُنْم والظَّفَر، وذلك في إمارة عمر؛ ثم إنه

غزاهم غزوات في زمن عثمان، ظفر كما كان يظفر، حتى إذا تبدّل أهلُ الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتدّ فغزاهم بعد ذلك، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض: إنهم لا يموتون، قال: انظروا، وفعلوا فاختفوْا لهم في الغياض؛ فرمَى رجلٌ منهم رجلا من المسلمين على غِرّة فقتله، وهرب عنه أصحابه، فخرجوا عليه عند ذلك، فاقتتلوا فاشتدّ قتالُهم، ونادى منادٍ من الجوّ: صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنَّة! فقاتل عبدُ الرحمن حتى قتِل، وانكشف الناس، وأخذ الرّاية سلمان بن ربيعة، فقاتل بها، ونادى المنادي من الجوّ: صبراً آل سلمان بن ربيعة! فقال سلمان: أوَ ترى جزعاً! ثمّ خرج بالناس، وخرج سلمان وأبو هُريرة الدَّوْسيّ على جِيلان، فقطعوها إلى جُرجان، واجترأ الترك بعدها ولم يمنعهم ذلك مِن اتخاذ جَسد عبد الرحمن، فهم يستسقون به حتى الآن.

وحدّث عمرو بن معد يكرب عن مطر بن ثَلْج التميميّ، قال: دخلت على عبد الرحمن بن ربيعة بالباب وشهربراز عنده، فأقبل رجل عليه شُحُوبة؛ حتى دخل على عبد الرحمن، فجلس إلى شهربَراز، وعلى مطَر قباء بُرود يمينيّة، أرضه حمراء، ووشيه أسود ـ أو وشيه أحمر ـ وأرضه سوداء، فتساءلا.

ثمّ إنّ شهربراز، قال: أيّها الأمير، أتدري مِنْ أين جاء هذا الرجل؟ هذا الرجل بعثتُه منذ سنين نحو السُّدّ لينظر ما حاله ومَنْ دونه، وزوّدتُه مالاً عظيماً، وكتبت له إلى مَن يليني، وأهديت له، وسألته أن يكتب له إلى مَنْ وراءه، وزوّدته لكلّ ملك هديّة؛ ففعل ذلك بكلّ مِلك بينه وبينه، حتى انتهى إل ه، فانتهى إلى الملك الذي السُّدّ في ظهر أرضه، فكتب له إلى عامله على ذلك البلد، فأتاه فبعث معه بازِيَاره ومعه عُقابه، فأعطاه حريرة، قال: فتشكّر لي البازيار، فلما انتهينا فإذا جبلان بينهما سُدّ مسدود، حتى ارتفع على الجبلين بعد ما استوى بهما، وإذا دون السُّد خندق أشدّ سواداً من الليل لبعده، فنظرت إلى ذلك كله، وتفرّست فيه، ثم ذهبت لأنصرف، فقال لي البازيار: على رِسْلِك أكافك! إنه لا يلي ملك بعد ملكٍ إلّا تقرب إلى الله بأفضل ما عنده من الدنيا، فيرمي به في هذا اللِّهْب، فشرّح بَضعة لحم معه، فألقاها في ذلك الهواء، وانقضّت عليها العُقاب، وقال: إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء؛ وإن لم تُدركها حتى تقع فذلك شيء؛ فخرجت علينا العُقاب باللحم في مخالبها؛ وإذا فيه ياقوته، فأعطانِيها؛ وها هي هذه. فتناولها شهربراز حمراء، فناولها عبدَ الرحمن، فنظر إليها، ثم ردّها إلى شهربراز، وقال شهربراز: لَهذه خير من هذا البلد ـ يعني الباب ـ وأيمُ الله لأنتم أحبّ إليّ ملَكة من آل كسرى؛ ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني؛ وأيمُ الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووفى ملكُكم الأكبر.

فأقبل عبدُ الرحمن على الرّسول، وقال: ما حال هذا الرَّدم وما شبهه؟ فقال: هذا الثوب الذي على هذا الرّجل، قال: فنظر إلى ثوبي، فقال مطر بن ثلج لعبد الرحمن بن ربيعة: صدق والله الرَّجُل؛ لقد نفذ ورأى، فقال: أجل، وصف صفة الحديد والصُّفْر، وقال: ﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ . . .﴾[1] إلى آخر الآية.

وقال عبد الرحمن لشهربراز: كم كانت هديَّتُك؟ قال: قيمة مائة ألف في بلادي هذه، وثلاثة آلاف ألف أو أكثر في تلك البلدان.

وزعم الواقديّ أنّ معاوية غزا الصائفة في هذه السّنة، ودخل بلاد الروم في عشرة آلاف من المسلمين.

وقال بعضهم: في هذه السنة كانت وفاة خالد بن الوليد.

---

(١) سورة الكهف: ٩٦.

وفيها ولِد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مرْوان.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب، وكان عامله على مكة عَتاب بن أسِيد، وعلى اليمن يعلَى بن أميَّة، وعلى سائر أمصار المسلمين الذين كانوا عمّاله في السنة التي قبلها، وقد ذكرناهم قبل.

وفي هذه السنة عدّل عمر فتوحَ أهل الكوفة والبصرة بينهم.

ذكر الخبر بذلك:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، وسعيد، قالوا: أقام عمّار بن ياسر عاملاً على الكوفة سنةً في إمارة عمر وبعض أخرى. وكتب عمر بن سراقة وهو يومئذ على البصرة إلى عمر بن الخطاب يذكر له كثرة أهل البصرة، وعجز خراجِهم عنهم؛ ويسأله أن يزيدهم أحد الماهيْن أو ماسَبَذان. وبلغ ذلك أهلَ الكوفة، فقالوا لعمّار: أكتبْ لنا إلى عمر أنّ رامَهُرمز وإيذَج لنا دونهم، لم يعينونا عليهما بشيء؛ ولم يلحقوا بنا حتى افتتحناهما، فقال عمّار: مالي ولما هاهنا! فقال له عطارد: فعلامَ تدعُ فيئَنا أيها العبد الأجدع! فقال: لقد سَبَبْتَ أحبّ أذنيّ إليّ. ولم يكتب في ذلك فأبغضوه؛ ولما أبى أهل الكوفة إلّا الخصومة فيهما لأهل البصرة شهد لهم أقوام على أبي موسى؛ أنه قد كان آمن أهلَ رَامَهُرمز وإيذَج؛ وأنّ أهلَ الكوفة والنعمان راسلوهم وهم في أمان. فأجاز لهم عمر ذلك، وأجراها لأهل البصرة بشهادة الشهود. وادّعى أهل البصرة في إصبَهان قرَيات افتتحها أبو موسى دون جيّ، أيام أمدّهم بهم عمر إلى عبدالله بن عبدالله بن عِتبان، فقال أهل الكوفة: أتيتمونا مدداً وقد افتتحنا البلاد، فآسيناكم في المغانم، والذّمة ذمتنا، والأرض أرضُنا؛ فقال عمر: صدقوا. ثمّ إنّ أهل الأيّام وأهل القادسيّة من أهل البصرة أخذوا في أمر آخر حتى قالوا: فلْيعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤهم فيه من سوادِهم وحواشيه. فقال لهم عمر: أترضوْن بماه؟ وقال لأهل الكوفة: أترضون أن نعطيَهم من ذلك أحد الماهَيْن؟ فقالوا: ما رأيتَ أنه ينبغي فاعمل به، فأعطاهم ماهَ دينار بنصيبهم لمن كان شهد الأيام والقادسيّة منهم إلى سَواد البصرة ومِهْرَجَانْقَذَق، وكان ذلك لمن شهد الأيّام والقادسيّة من أهل البصرة.

ولما وليَ معاوية بن أبي سفيان ـ وكان معاوية هو الذي جنّد قنّسرين من رافضة العراقين أيام عليّ، وإنما كانت قِنَّسْرين رُستاقاً من رَساتيق حِمْص حتى مصّرها معاوية وجنّدها بمن ترك الكوفة والبصرة في ذلك الزمان، وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق أذْرَبيجان والمَوْصل والباب، فضمّها فيها ضمّ، وكان أهل الجزيرة والموصل يومئذ ناقلة رُميتا بكلّ من كان ترك هجرته من أهل البلدين؛ وكانت الباب وأذربيجان والجَزيرة والمَوْصل من فتوح أهل الكوفة ـ نقل ذلك إلى من انتقل منهم إلى الشام أزمانَ عليّ؛ وإلى مَن رُميت به الجزيرة والموصل ممن كان ترك هجرته أيام عليّ، وكفر أهل أرمينيةَ زمانَ معاوية؛ وقد أمّر حبيبَ بن مسلمة على الباب ـ وحبيب يومئذ بجُرزان ـ وكاتبَ أهل تَفلِيس وتلك الجبال؛ ثم ناجزهم؛ حتى استجابوا واعتقدوا من حبيب. وكتب بينه وبينهم كتاباً بعد ما كاتبهم: بسم الله الرحمن الرحيم. من حَبيب بن مسلمة إلى أهل تَفْلِيس من جُرْزَان أرض الهُرْمز. سِلْم أنتم؛ فإني أحمَد الله إليكم الذي لا إله إلاّ هو؛ فإنه قد قدِم علينا رسولكم تفلى، فبلّغ عنكم، وأدّى الذي بعثتم. وذكر تفلى عنكم أنّا لم نكن أمّة فيها تحسبون؛ وكذلك كنا حتى هدانا الله عزّ وجلّ بمحمد ﷺ، وأعزّنا بالإسلام بعد قلة وذلة وجاهلية. وذكر تفلى أنكم أحببتم سلمنا. فما كرهت والذين آمنوا معي، وقد بعثتُ إليكم عبدَ الرحمن بن جَزْء السُّلَميّ؛ وهو من أعلمنا من أهل العلم بالله وأهل

القرآن؛ وبعثت معه بكتابي بأمانكم، فإن رضيتم دَفعه إليكم؛ وإن كرهتم آذنكم بحرب على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين:

بسم الله الرّحمن الرّحيم. هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تَفْلِيس من جُرْزان أرض الهُرْمز؛ بالأمان على أنفسكم وصوامعكم وبِيَعكم وصلواتِكم؛ على الإقرار بصغَار الجِزْية؛ على كلّ أهل بيت دينار وافٍ، ولنا نصحُكم ونصركم على عدوّ الله وعدوّنا، وقِرى المجتاز ليلةً من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم، وهداية الطريق في غير ما يُضرّ فيه بأحد منكم. فإن أسلمتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، فإخواننا في الدّين وموالينا؛ ومَن تولّى عن الله ورسله وكتبه وحِزْبه فقد آذنّاكم بحرب على سواء؛ إن الله لا يحبّ الخائنين. شهد عبد الرحمن بن خالد؛ والحجّاج، وعياض. وكتب رباح، وأشهد الله وملائكته والذين آمنوا، وكفى بالله شهيداً.

وفي هذه السنة عَزَل عمرُ بن الخطاب عمّاراً عن الكوفة؛ واستعمل أبا موسى في قول بعضهم؛ وقد ذكرت ما قال الواقديّ في ذلك قبل.

ذكر السبب في ذلك:

قد تقدّم ذكري بعضَ سبب عزله، ونذكر بقيّته. ذكر السّريّ - فيما كتب به إليّ - عن شعيب، عن سيف، عمّن تقدَّم ذكري من شيوخه، قال: قالوا: وكتب أهلُ الكوفة؛ عطاردٌ ذلك وأناس معه إلى عمر في عمّار، وقالوا: إنه ليس بأمير، ولا يحتمل ما هو فيه، ونزا به أهلُ الكوفة. فكتب عمر إلى عمّار: أن أقبِل؛ فخرج بوفد من أهل الكوفة، ووفَّد رجالا ممن يرى أنه معه، فكانوا أشدّ عليه ممن تخلّف، فجزع فقيل له: يا أبا اليَقْظان، ما هذا الجزع! فقال: والله ما أحمِد نفسي عليه؛ ولقد ابتليت به - وكان سعد بن مسعود الثقفيّ عمُّ المختار، وجرير بن عبد الله معه - فسعيا به، وأخبرا عمر بأشياء يكرهها، فعزله عمر ولم يولّه.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن جميع، عن أبي الطُّفَيل، قال: قيل لعمّار: أساءك العزل؟ فقال: والله ما سرّني حين استعمِلت، ولقد ساءني حين عُزلت.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد ومجالد، عن الشعبيّ، قال: قال عمر لأهل الكوفة: أيّ منزلَيْكم أعجبُ إليكم؟ - يعني الكوفة أو المدائن - وقال: إني لأسألكم وإني لأعرفُ فضل أحدهما على الآخر في وجوهكم، فقال جرير: أما منزلنا هذا الأدنى فإنه أدنَى محِلّةً من السواد من البرّ، وأما الآخر فوعْك البحر وغمُّه وبَعوضه. فقال عمار: كَذَبت؛ فقال عمر لعمّار: بل أنت أكذب منه، وقال: ما تعرفون من أميركم عمّار؟ فقال جرير: هو والله غير كافٍ ولا مجزٍ ولا عالم بالسياسة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن زكرياء بن سياه، عن هشام بن عبد الرحمن الثقفيّ، أن سعد بن مسعود، قال: والله ما يدري علام استعملته! فقال عمر: علام استعملتُك يا عمّار؟ قال: على الحيرة وأرضِها. فقال: قد سمعتُ بالحيرة تجاراً تختلف إليها، قال: وعلى أيّ شيء؟ قال: على بابل وأرضها، قال: قد سمعتَ بذكرها في القرآن. قال: وعلى أيّ شيء؟ قال: على المدائن وما حولها، قال: أمدائن كسرى؟ قال: نعم. قال: وعلى أيّ شيء؟ قال: على مهرجا نقذق وأرضها. قالوا: قد أخبرناك أنه لا يدرِي علامَ بعثته! فعزله عنهم، ثم دعاه بعد ذلك، فقال: أساءك حين عزلتُك؟ فقال: والله ما فرحتُ به حين بعثتَني، ولقد ساءني حين

عزلتَني. فقال: لقد علمتُ ما أنت بصاحب عمل، ولكني تأوّلت: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُم الْوَارِثِين﴾[1].

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن خُليد بن ذَفَرة النَّمَريّ، عن أبيه بمثله وزيادة، فقال: أو تُحْمِد نفسَك بمعرفة من تُعالجه منذ قدمت! وقال: والله يا عمّار لا ينتهي بك حدُّك حتى يلقيَك في هَنة، وتالله لئن أدركك عمر لترقّنّ، ولئن رقفتَ لتُبتلينّ، فسل الله الموت. ثمّ أقبل على أهل الكوفة فقال: مَن تريدون يا أهلَ الكوفة؟ فقالوا: أبا موسى. فأمّره عليهم بعد عمار، فأقام عليهم سنة، فباع غلامُه العلَفَ. وسمعه الوليد بن عبد شمس، يقول: ما صحبتُ قوماً قطّ إلا آثرتهم؛ ووالله ما منعني أن أكذّب شهودَ البصرة إلّا صحبتُهم، ولئن صحبتُكم لأمنحنّكم خيراً. فقال الوليد: ما ذهب بأرضنا غيرُك؛ ولا جرم لا تعمل علينا. فخرج وخرج معه نفر، فقالوا: لا حاجةَ لنا في أبي موسى، قال: ولِم؟ قالوا: غلام له يتّجر في حَشَرنا. فعزله عنهم وصرفه إلى البصرة، وصرف عمرَ بن سراقة إلى الجزيرة. وقال لأصحاب أبي موسى الذين شخصوا في عزله من أهل الكوفة: أقويٌّ مشدّد أحبّ إليكم أم ضعيف مؤمن؟ فلم يجد عندهم شيئاً، فتنحّى، فخلا في ناحية المسجد، فنام فأتاه المغيرة بن شعبة فكلأه حتى استيقظ، فقال: ما فعلتَ هذا يا أمير المؤمنين إلّا من عظيم؛ فهل نابك من نائب؟ قال: وأيّ نائب أعظم من مائة ألف لا يرضوْن عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير! وقال في ذلك ما شاء الله.

واختُطّت الكوفة حين اختُطّت على مائة ألف مقاتل؛ وأتاه أصحابه، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، ما شأنك؟ قال: شأني أهل الكوفة قد عَضّلوا بي. وأعاد عليهم عمر المشورة التي استشار فيها، فأجابه المغيرة فقال: أمّا الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له، وأمّا القويّ المشدّد فقوّته لك وللمسلمين، وشِداده عليه وله. فبعثه عليهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبدالله، عن سعيد بن عمرو؛ أنّ عمر قال قبل أن استعمل المغيرة: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قويّ مشدّد؟ فقال المغيرة: أما الضعيف المسلِم فإنّ إسلامَه لنفسه وضعفه عليك، وأما القوي المشدّد فإنّ شِداده لنفسه وقوّته للمسلمين. قال: فإنّا باعثوك يا مغيرة. فكان المغيرة عليها حتى مات عمر رضي الله تعالى عنه وذلك نحو من سنتين وزيادة. فلما ودّعه المغيرة للذهاب إلى الكوفة، قال له: يا مغيرة. ليأمنك الأبرار، وليخفك الفجّار. ثم أراد عمر أن يبعثَ سعداً على عَمل المغيرة فقتِل قبل أن يبعثه، فأوصى به؛ وكان من سنّة عمر وسيرته أن يأخذ عمّاله بموافاة الحجّ في كل سنة للسياسة، وليحجزهم بذلك عن الرعيّة، وليكون لشكاة الرعيّة وقتاً وغاية ينهونها فيه إليه.

وفي هذه السنة غزا الأحنف بن قيس ـ في قول بعضهم خُراسان ـ وحارب يَزْدِجرد؛ وأما في رواية سيف فإنّ خروجَ الأحنف إلى خراسان كان في سنة ثَمان عشرة من الهجرة.

---

(١) سورة القصص: ٥.

ذكر مصير يَزْدَجِرد
إلى خراسان وما كان السبب في ذلك

اختلف أهل السير في سبب ذلك وكيف كان الأمر فيه؛ فأمّا ما ذكره سيف عن أصحابه في ذلك، فإنه فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: كان يَزْدَجِرد بن شهريار بن كسرى ـ وهو يومئذ ملك فارس ـ لما انهزم أهل جَلُولاء خرج يريد الرّيّ، وقد جعِل له محمل واحد يُطبق ظهر بَعيره، فكان إذا سار نام فيه ولم يعرّس بالقوم. فانتهوْا به إلى مخاضة وهو نائم في محمله، فأنبهوه ليُعلم، ولئلا يفزع إذا خاض البعير إن هو استيقظ، فعنّفهم وقال: بئسما صنعتم! والله لو تركتموني لعلمت ما مدّة هذه الأمة، إني رأيتُ أني ومحمداً تناجينا عند الله، فقال له: أملِّكهم مائة سنة، فقال: زدْني، فقال: عشراً ومائة سنة، فقال: زدني، فقال: عشرين ومائة سنة، فقال: زدني، فقال: لك. وأنبهتموني، فلو تركتموني لعلمت ما مدّة هذه الأمة.

فلما انتهى إلى الرّيّ، وعليها آبان جاذويْه، وثب عليه فأخذه، فقال: يا آبان جاذويه، تغدِر بي! قال: لا، ولكن قد تركتَ مُلْكك، وصار في يد غيرك، فأحببت أن أكتتب على ما كان لي من شيء، وما أردتُ غير ذلك. وأخذ حاتم يَزْدَجِرد ووصل الأدُم؛ واكتتب الصّكاك وسجّل السجلات بكلّ ما أعجبه، ثم ختم عليها وردّ الخاتم. ثم أتى بعدُ سعداً فردّ عليه كلّ شيء في كتابه. ولما صنع آبان جاذويه بيزدَجِرْد ما صنع خرج يَزْدَجِرد من الرّيّ إلى إصبهان، وكره آبانَ جاذويه، فارًّا منه ولم يأمنه. ثم عزم على كَرْمان، فأتاها والنار معه، فأراد أن يضعها في كَرْمان، ثمّ عزم على خراسان، فأتى مَرْوَ، فنزلها وقد نقل النار، فبنى لها بيتاً واتّخذ بستاناً، وبنى أزَجاً فرسخين من مَرْو إلى البستان؛ فكان على رأس فرسخين من مَرْو، واطمأنّ في نفسه وأمِن أن يُؤتى؛ وكاتب من مَرْوَ مَن بقيَ من الأعاجم فيما لم يفتتحه المسلمون، فدانُوا له، حتى أثار أهلَ فارس والهُرْمزان فنكثوا، وثار أهل الجبال والفيرُزان فنكثوا، وصار ذلك داعية إلى إذن عمر للمسلمين في الانسياح، فانساح أهلُ البصرة وأهل الكوفة حتى أثخنوا في الأرض؛ فخرج الأحنف إلى خُراسان، فأخذ على مِهْرجَـا نقَذَق، ثم خرج إلى إصبهان ـ وأهل الكوفة محاصِرو جَيّ ـ فدخل خراسان من الطّبَسيْن، فافتتح هَراةَ عَنْوةً، واستخلف عليها صُحار بن فلان العبديّ. ثم سار نحو مَرْو الشاهجان، وأرسل إلى نيسابور ـ وليس دونها قتال ـ مطرّفَ بن عبدالله بن الشِّخّير والحارثَ بن حسان إلى سَرْخس؛ فلما دنا الأحنف من مَرْو الشّاهجان خرج منها يَزْدَجِرد نحو مَرْو الرّوذ حتى نزلها، ونزل الأحنف مَرْوَ الشاهجان؛وكتب يَزْدَجِرد وهو بمَرْو الرّوذ إلى خاقان يستمدّه؛ وكتب إلى ملك الصُّغْد يستمدّه؛ فخرج رسولاه نحو خاقان وملك الصُّغْد، وكتب إلى ملك الصين يستعينه، وخرج الأحنف من مَرْو الشاهجان؛ واستخلف عليها حاتم بن النعمان الباهليّ بعد ما لحقت به أمداد أهل الكوفة، على أربعة أمراء: علقمة بن النَّضْر النضْرِيّ، وربعيّ بن عامر التميميّ، وعبدالله بن أبي عَقِيل الثقفيّ، وابن أمّ غزال الهَمْدانيّ؛ وخرج سائراً نحو مَرْو الرّوذ؛ حتى إذا بلغ ذلك يَزْدَجِرد خرج إلى بَلْخ، ونزل الأحنف مَرْوَ الرّوذ؛وقدم أهل الكوفة؛ فساروا إلى بَلْخ، وأتبعهم الأحنف، فالتقى أهل الكوفة ويَزْدَجِرد ببلْخ؛ فهزم الله يزْدَجِرد، وتوجّه في أهل فارس إلى النهر فعبر، ولحق الأحنف بأهل الكوفة؛ وقد فتح الله عليهم؛ فبلْخُ من فتوح أهل الكوفة. وتتابع أهل خراسان ممن شذّ أو تحصّن على الصلح فيما بين نيسابور إلى طُخَارستان ممّن كان في مملكة كسرى؛

وعاد الأحنف إلى مَرْو الرّوذ، فنزلها واستخلف على طُخَارستان رِبعيّ بن عامر؛ وهو الذي يقول فيه النجاشيّ - ونسبه إلى أمّه؛ وكانت من أشراف العرب:

ألا رُبَّ مَن يُـدْعَى فتًى ليس بـالفَتى ... ألَا إنَّ رِبْعِيَّ ابْـنَ كـأسٍ هـو الفَـتى
طـويـلٌ قُعـودُ القـومِ في قَعْـرِ بيتِـهِ ... إذا شَبِعُـوا من ثُفْـلِ جَفْنَتِـهِ سَقـى

كتب الأحنف إلى عمر بفتح خُراسان، فقال: لوددت أني لم أكن بعثتُ إليها جنداً، ولودِدت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار؛ فقال عليّ: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنّ أهلَها سينفَضُّون منها ثلاث مرّات، فيُحتاجون في الثالثة، فكان أن يكون ذلك بأهلها أحبَّ إليّ من أن يكون بالمسلمين.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عبد الرحمن الفزاريّ، عن أبي الجَنوب اليشكريّ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: لما قدِم عمر على فتح خُراسان، قال: لودِدت أنّ بيننا وبينها بحراً من نار، فقال عليّ: وما يشتدّ عليك من فتحها! فإنّ ذلك لموضع سرور، قال: أجل ولكني. . . حتى أتى على آخر الحديث.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عيسى بن المغيرة، وعن رجل من بكر بن وائل يدعى الوازِع بن زيد بن خُلَيدة، قال: لما بلغ عمرَ غلبةُ الأحنف على المَرْوَيْن وبلْخ، قال: وهو الأحنف، وهو سيّد أهل المشرق المسمّى بغير اسمه. وكتب عمر إلى الأحنف: أما بعد، فلا تجوزَنّ النّهر واقتصِرْ على ما دونه، وقد عرفتم بأيّ شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدمْ لكم النصر؛ وإيّاكم أن تعبروا فتفضّوا.

ولّما بلغ رسولا يَزْدجِرد خاقانَ وغوزك، لم يستتبّ لهما إنجادُه حتى عبَر إليهما النهر مهزوماً، وقد استتبّ فأنجده خاقان - والملوك ترى على أنفسها إنجادَ الملوك - فأقبل في الترك، وحشر أهل فَرْغانة والصُّغْد؛ ثم خرج بهم، وخرج يَزْدَجِرد راجعاً إلى خُراسان، حتى عبر إلى بَلْخ، وعبر معه خاقان، فأرز أهلُ الكوفة إلى مَرْو الرّوذ إلى الأحنف، وخرج المشركون من بَلْخ حتى نزلوا على الأحنف بمَرْو الرّوذ. وكان الأحنف حين بلغه عُبور خاقان والصُّغد نهرَ بَلْخ غازياً له، خرج في عسكره ليلاً يتسمّع: هل يسمع برأي ينتفع به؟ فمرّ برجلين ينقّيان علفاً، إما تِبناً وإما شعيراً، وأحدهما يقول لصاحبه: لو أنّ الأميرَ أسندَنا إلى هذا الجبل، فكان النهر بيننا وبين عدوّنا خندقاً؛ وكان الجبل في ظهورنا من أن نُؤتى من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله. فرجع واجتزأ بها، وكان في ليلة مظلمة، فلما أصبح جمع الناس، ثم قال: إنّكم قليل، وإنّ عدوكم كثير، فلا يهولنّكم؛ فكم مِن فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين؛ ارتحلوا من مكانكم هذا، فاسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوّكم، وقاتلوهم من وجه واحد. ففعلوا، وقد أعدّوا ما يصلحهم، وهو في عشرة آلاف من أهل البصرة وأهل الكوفة نحو منهم. وأقبلت الترك ومَنْ أجلبت حتى نزلوا بهم، فكانوا يغادونهم ويراوحونهم ويتنحَّوْن عنهم بالليل ما شاء الله. وطلب الأحنف عِلْم مكانهم بالليل، فخرج ليلة بعد ما علم علمَهم؛ طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان فوقف، فلمّا كان في وجه الصّبح خرج فارس من الترك بطوْقه، وضرب بطبله، ثم وقف من العسكر موقفاً يقفه مثله، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتيْن، فطعنه الأحنف فقتله، وهو يرتجز ويقول:

إنَّ علَى كُلِّ رئيسٍ حَقّا ... أنْ يَخْضِبَ الصَّعْدَةَ أو تَنْدَقّا
إنَّ لنا شَيْخاً بها مُلَقّى ... سَيْفَ أبي حَفْصٍ الذي تبقّى

ثم وقف موقف التركيّ وأخذ طوقه، وخرج آخر من الترك، ففعل فعل صاحبه الأوّل، ثم وقف دونه فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز:

إنَّ الرَّئيسَ يَرتَبِي وَيَطْلُعُ ... ويَمْنَعُ الخُلاَّءَ إمّا أرْبعُوا

ثم وقف موقف التركيّ الثاني، وأخذ طوقه، ثم خرج ثالث من الترك، ففعل فعل الرّجلين، ووقف دون الثاني منهما، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتيْن، فطعنه الأحنف، فقتله وهو يرتجز:

جَرْيَ الشُّموسِ ناجِزاً بِناجِزْ ... مُحْتَفِلاً في جَرْيِهِ مُشارِزْ

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره؛ ولم يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعدّ. وكان من شيمة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم كهؤلاء؛ كلُّهم يضرب بطبله، ثم يخرجون بعد خروج الثالث، فخرجت التُّرك ليلتئذ بعد الثالث، فأتوْا على فرسانهم مقتَّلين، فتشاءم خاقان وتطيّر، فقال: قد طال مقامنا، وقد أصيبَ هؤلاء القوم بمكان لم يُصب بمثله قطّ؛ ما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرِفوا بنا؛ فكان وجوههم راجعين، وارتفع النهار للمسلمين ولا يروْن شيئاً، وأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بَلْخ. وقد كان يَزْدَجِرد بن شهريار بن كسرى تَرَكَ خاقان بمَرْو الرّوذ، وخرج إلى مَرْو الشاهجان؛ فتحصّن منه حاتم بن النعمان ومَن معه، فحصرهم واستخرج خزائنه من موضعها؛ وخاقان ببلْخ مقيم له، فقال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتبّاعهم؟ فقال: أقيموا بمكانكم ودعوهم. ولما جمع يَزْدَجِرد ما كان في يديه مما وضع بمَرْو، فأعجِل عنه؛ وأراد أن يستقلّ به منها، إذْ هو أمر عظيم من خزائن أهل فارس، وأراد اللّحاق بخاقان فقال له أهل فارس: أيّ شيء تريد أن تصنع؟ فقال: أريد اللّحاق بخاقان، فأكون معه أو بالصّين، فقالوا له: مهلاً؛ فإنّ هذا رأي سوء، إنّك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتَدَع أرضك وقومك؛ ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحَهم؛ فإنهم أوفياء وأهل دين؛ وهم يلُون بلادنا، وإنَّ عدوًّا يلينا في بلادنا أحبّ إلينا مملكة من عدُوّ يلينا في بلاده ولا دينَ لهم؛ ولا ندري ما وفاؤهم؛ فأبَى عليهموأبوْا عليه؛ فقالوا: فدَعْ خزائننا نردّها إلى بلادنا ومَن يليها، ولا تُخرجها من بلادنا إلى غيرها، فأبى؛ فقالوا: فإنّا لا نَدَعك؛ فاعتزلوا وتركوه في حاشيته، فاقتتلوا، فهزموه وأخذوا الخزائن، واستولوْا عليها ونكبوه، وكتبوا إلى الأحنف بالخبر، فاعترضَهم المسلمون والمشركون بمَرْو يثفنِونه، فقاتلوه وأصابوه في أُخَر القوم، وأعجلوه عن الأثقال؛ ومضى مُوائلا حتى قطع النهر إلى فرْغانة والترك؛ فلم يزل مقيماً زمانَ عمر رضي الله عنه كله يكاتبهم ويكاتبونه، أو من شاء الله منهم. فكفر أهلُ خراسان زمانَ عثمان. وأقبل أهلُ فارس على الأحنف فصالحوه وعاقدوه، ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال، وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة؛ فكانوا كأنما هم في مُلكهم؛ إلاّ أنالمسلمين أوفَى لهم وأعدل عليهم، فاغتبطوا وغُبِّطوا؛ وأصاب الفارسَ يوم يَزْدَجِرد كسهم الفارس يوم القادسيّة.

ولما خلع أهل خراسان زمانَ عثمان أقبل يَزْدَجِرد حتى نزل بمَرْو، فلمّا اختلف هو ومن معه وأهل خراسان. أوَى إلى طاحونة، فأتوْا عليه يأكُل من كرد حول الرّحا؛ فقتلوه ثم رموْا به في النهر.

ولما أصيب يَزْدَجِرد بمَرْوَ ـ وهو يومئذ مختبىء في طاحونة يريد أن يطلب اللحاق بكَرْمان ـ فاحتوى فيئة المسلمون والمشركون، وبلغ ذلك الأحنف، فسار من فَوْره ذلك في الناس إلى بلْخ يريد خاقان، ويتبع حاشية يَزْدَجِرد وأهله في المسلمين والمشركين من أهل فارس، وخاقـان والترك ببلْخ. فلما سمـع بما أَلْقى يَـزْدَجِرد وبخروج المسلمين مع الأحنف من مَرْو الرّوذ نحوه، ترك بلْخ وعبر النهر؛ وأقبل الأحنف حتى نزلَ بلْخ؛ ونزل أهل الكوفة في كُورها الأربع، ثم رجع إلى مَرْو الرّوذ فنزل بها؛ وكتب بفتْح خاقان ويَزْدَجِرد إلى عمر، وبعث إليه بالأخماس، ووفّد إليه الوفود. قالوا: ولما عَبَر خاقان النهر، وعبرت معه حاشية آل كسرى، أو من أخذ نحو بَلْخ منهم مع يَزْدَجِرد، لقوا رسول يزدجرد الذي كان بعث إلى ملك الصين، وأهدِي إليه معه هدايا، ومعه جواب كتابه من ملك الصين. فسألوه عمّا وراءه، فقال: لما قدمت عليه بالكتاب والهدايا كافأنا بما تروْن ـ وأراهم هديّته. وأجاب يَزْدجرد، فكتب إليه بهذا الكتاب بعد ما كان قال لي: قد عرفت أنّ حقًّا على الملوك إنجاد الملوك على مَنْ غلَبهم، فصِفْ لي صِفة هؤلاء القوم الّذين أخرجوكم من بلادكم؛ فإنّني أراك تذكر قلّةً منهم وكثرة منكم؛ ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلاّ بخيرٍ عندهم وشرّ فيكم؛ فقلت: سلني عما أحببتَ، فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟ قلت: يَدْعوننا إلى واحدة من ثلاث: إمّا دينهم فإنأجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمَنْعة، أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوَعُ قوم لمرشدهم، قال: فما يُحلّون وما يُحَرّمون؟ فأخبرته، فقال: أيحرّمون ما حُلِّل لهم، أو يحلون ما حرِّم عليهم؟ قلت لا، قال: فإنّ هؤلاء القوم لا يهلِكون أبداً حتى يُحلّوا حرامَهم ويحرّموا حلالهم. ثم قال: أخبرني عن لباسهم؛ فأخبرته، وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العِراب ـ ووصفتها ـ فقال: نعمت الحصُون هذه! ووصفتُ له الإبلَ وبروكها وانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دوابّ طوال الأعناق.

وكتب معه إلى يزدجرد كتاباً: إنه لم يمنعني أن أبعثَ إليك بجيش أوّله بمَرْو وآخره بالصّين الجهالةُ بما يحقّ عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصَف لي رسولك صفتَهم لو يحاولون الجبال لهدّوها، ولو خُلّي سَرْبهم أزالوني ما داموا على ما وصف؛ فسالْهم وارضَ منهم بالمساكنة؛ ولا تُهجهم ما لم يُهيجُوك. وأقام يَزْدَجِرد وآل كسرى بفَرْغانة، معهم عهد من خاقان. ولمّا وقع الرسول بالفتح والوفد بالخبر ومعهم الغنائم بعمر بن الخطاب من قِبَل الأحنف، جمع الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرىء عليهم، فقال في خطبته: إنّ الله تبارك وتعالىذكَر رسولَه ﷺ ومـا بعثه به من الهدى، ووعد على اتّباعه من عاجل الثواب وآجله خيرَ الدنيا والآخرة. فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]؛ فالحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر جنده. ألا إنّ الله قد أهلك ملك المجوسيّة، وفرّق شملَهم، فليسُوا يملكون من بلادهم شبراً يضرّ بمسلم. ألاَ وإنّ الله قـد أورَثكم أرضَهم وديارَهم وأمـوالَهم وأبناءَهم؛ لينـظر كيف تعملون! ألا وإنّ المصرَيْن من مسالحها اليوم كأنتم والمصرَيْن فيما مضَى من البُعد، وقد وغلوا في البلاد، والله بالغ أمرَه، ومنجز وعْده، ومتبع آخر ذلك أوّلَه، فقوموا في أمره على رجل يوفِّ لكم بعهده، ويؤتِكم وعدَه؛ولا تبدّلوا ولا تغيّروا، فيستبدل الله بكم غيركم؛ فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلاّ من قِبَلكم.

---

(١) سورة التوبة: ٣٣.

قال أبو جعفر: ثمّ إنّ أداني أهل خراسان وأقاصيه اعترضوا زمانَ عثمان بن عفان لسنتين خلتا من إمارته؛ وسنذكر بقيّة خبر انتقاضهم في موضعه إن شاء الله مع مقتل يَزْدَجِرد.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب، وكانت عمّالُه على الأمصار فيها عمّالَه الذين كانوا عليها في سنة إحدى وعشرين غير الكوفة والبَصْرة؛ فإنّ عامله على الكوفة وعلى الأحداث كان المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبا موسى الأشعريّ.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين

فكان فيها فتح إصْطَخْر في قول أبي مَعْشر؛ حدّثني.بذلك أحمد بن ثابت الرازيّ، قال: حدّثنا محدّث، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: كانت إصْطَخر الأولى وهَمَذان سنة ثلاث وعشرين. وقال الواقديّ مثل ذلك. وقال سيف: كان فتح إصْطَخر بعد توّج الآخرة.

ذكر الخبر عن فتح تَوَّج

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: خرج أهل البصرة الذين وُجّهوا إلى فارس أمراء على فارس؛ ومعهم سارية بن زُنَيم ومن بُعث معهم إلى ما وراء ذلك، وأهلُ فارس مجتمعون بتوّج؛ فلم يصمُدوا لجمعهم بجموعهم، ولكن قصد كلّ أمير كورة منهم قَصْدَ إمارته وكُورته التي أمر بها؛ وبلغ ذلك أهلَ فارس؛ فافترقوا إلى بلدانهم؛ كما افترق المسلمون ليمنعوها؛ وكانت تلك هزيمتهم وتشتّت أمورهم وتفريق جموعهم؛ فتطيّر المشركون من ذلك؛ وكأنما كانوا ينظرون إلى ما صاروا إليه؛ فقصد مجاشع بن مسعود لسابور وأردشير خُرّه فيمن معه من المسلمين، فالتقوْا بتوّج وأهل فارس، فاقتتلوا ما شاء الله. ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ هزَم أهل توّج للمسلمين، وسلّط عليهم المسلمين، فقتلوهم كلّ قِتلة، وبلغوا منهم ما شاؤوا، وغنّمهم ما في عسكرهم فحوَوْه، وهذه توّج الآخرة؛ ولم يكن لها بعدها شوْكة، والأولى التي تُنُقّذ فيها جنود العلاء أيّام طاوس، الوقعة التي اقتتلوا فيها؛ والوقْعتان الأولى والآخرة كلتاهما متساجِلتان. ثم دُعُوا إلى الجزْية والذمّة؛ فراجعوا وأقرّوا، وخَمّس مجاشع الغنائم، وبعث بها، ووفّد وفداً؛ وقد كانت البُشراء والوفود يجازون وتقضَى لهم حوائجهم، لسنّة جرت بذلك من رسول الله ﷺ.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن سوقة، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، قال: خرجْنا مع مجاشع بن مسعود غازِين توّج، فحاصرناهم، وقاتلناهم ما شاء الله، فلمّا افتتحناها وحوَيْنا نَهْبَها نهباً كثيراً، وقتلنا قتلَى عظيمة؛ وكان عليّ قميصٌ قد تخرّق؛ فأخذت إبرة وسِلْكاً وجعلت أخِيط قميصي بها. ثم إنّي نظرت إلى رجل في القتْلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء، فجعلت أضربه بين حَجَرين حتى ذهب ما فيه، فلبسته؛ فلما جمعت الرِّثَّة، قام مجاشع خطيباً، فحمِد الله، وأثنى عليه، فقال: أيها الناس لا تَغُلّوا، فإنه من غَلّ جاء بما غَلّ يوم القيامة. رُدّوا ولو المخيطَ. فلما سمعتُ ذلك نزعت القَميص فألقيته في الأخماس.

فتح إصطَخر

قال: وقصد عثمان بن أبي العاص لإصطَخر؛ فالتقى هو وأهل إصْطَخر بجُور فاقتتلوا ما شاء الله. ثم إنّ الله عزّ وجلّ فتح لهم جُور؛ وفتح المسلمون إصطَخر، فقتلوا ما شاء الله، وأصابوا ما شاؤوا، وفرّ مَن فرّ. ثمّ إنّ عثمان دعا الناس إلى الجزاء والذمّة، فراسلوه وراسلهم، فأجابه الهِرْبِذ وكلّ من هرب أو تنحى؛ فتراجعوا وباحوا بالجِزاء، وقد كان عثمان لّما هزم القوم جمع إليه ما أفاء الله عليهم، فخمّسه، وبعث بالخُمس إلى عمر، وقسّم أربعة أخماس المغنم في الناس، وعفّت الجند عن النّهاب، وأدّوا الأمانة، واستدقّوا الدنيا. فجمعهم عثمان؛ ثم قام فيهم، وقال: إنّ هذا الأمر لا يزال مقبلاً؛ ولا يزال أهله معافَيْن مما يكرهون، ما لم يَغُلّوا، فإذا غَلُّوا رأوْا ما ينكرون ولم يسدّ الكثير مسدّ القليل اليوم.

كتبَ إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي سُفيان، عن الحسن، قال: قال عُثمان بن أبي العاص يوم إصْطَخر: إنّ الله إذا أراد بقوم خيراً كفّهم، ووفّر أمانتهم، فاحفظوها؛ فإنّ أوّل ما تفقدون من دينكم الأمانة؛ فإذا فقدتموها جُدِّد لكم في كلّ يوم فقدان شيء من أموركم.

ثم إنّ شهرك خلع في آخر إمارة عمر وأوّل إمارة عثمان، ونشّط أهلَ فارس، ودعاهم إلى النقض، فوُجِّه إليه عُثمان بن أبي العاص ثانيةً، وبعث معه جنودٌ أمِدّ بهم، عليهم عُبيد الله بن مَعْمر، وشِبْل بن معبد البَجَليّ، فالتقوْا بفارس، فقال شهرك لابنه وهو في المعركة؛ وبينهم وبين قرية تدعى ريشَهْر ثلاثة فراسخ، وكان بينهم وبين قرارهم اثنا عشر فرسخاً: يا بنيّ، أين يكون غَداؤنا؟ ها هنا أو ريشهر؟ فقال: يا أبتِ إن تركونا فلا يكون غذاؤنا ها هنا ولا ريشهر، ولا يكونَنّ إلاّ في المنزل، ولكن والله ما أراهم يتركوننا. فما فرغا من كلامهما حتى أنشب المسلمون القتالَ، فاقتتلوا قتالاً شديداً، قتل فيه شهرك وابنه، وقتل الله جلّ وعزّ منهم مقتلة عظيمة وولى قتلَ شَهْرك الحكَم بن أبي العاص بن بشر بن دُهمان، أخو عثمان.

وأما أبو معشر فإنّه قال: كانت فارس الأولى وإصطخر الآخرة في سنة ثمان وعشرين. قال: وكانت فارس الآخرة وجُور سنة تسع وعشرين؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت الرازيّ، قال: حدّثني من سمع إسحاق بن عيسى، يذكر ذلك عن أبي معشر. وحدثني عبد الله بن أحمد بن شبّويه المروزيّ، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا سليمان بن صالح، قال: حدّثني عبيد الله، قال: أخبرنا عبيد الله بن سليمان، قال: كان عثمان بن أبي العاص أرسل إلى البَحْرين، فأرسل أخاه الحكَم بن أبي العاص في ألفيْن إلى توّج؛ وكان كسرى قد فرّ عن المدائن، ولحق بجُور من فارس.

قال: فحدّثني زياد مولَى الحكَم بن أبي العاص، عن الحكَم بن أبي العاص، قال: قصد إلى شهرك ـ قال عبيد: وكان كسرى أرسله ـ قال الحكم: فصعد إليّ في الجنود فهبطوا من عَقَبة، عليهم الحديد، فخشيت أن تغشوَ أبصارُ الناس، فأمرت منادياً، فنادى أنّ مَن عليه عمامة فلْيلفّها على عينيه، ومَنْ لم يكن عليه عمامة فليغمّض بصرَه؛ وناديت أن حُطّوا عن دوابّكم. فلما رأى شهرك ذلك حَطّ أيضاً. ثم ناديت: أن اركبوا، فصففنا لهم وركبوا، فجعلتُ الجارودَ العبديّ على الميمنة وأبا صُفْرة على الميسرة ـ يعني أبا المهلّب ـ فحملوا على المسلمين فهزموهم؛ حتى ما أسمع لهم صوتاً، فقال لي الجارود: أيّها الأمير؛ ذهب الجند، فقلت: إنك سترى أمرك، فما لبثنا أن رجعت خيلُهم، ليس عليها فرسانها، والمسلمون يتبعونهم يقتلونهم، فنثرت الرؤوس بين

يديّ، ومعي بعض ملوكهم ـ يقال له المُكَعْبر ـ فارقَ كسرى ولحِق بي ـ فأتيتُ برأس ضخم؛ فقال المُكَعْبر: هذا رأس الأزدهاق ـ يعني شهرك ـ فحوصروا في مدينة سابور، فصالحهم ـ وملكُهم آذَرْبيان ـ فاستعان الحَكَم بآذَرْبيان على قتال أهل إصْطَخر، ومات عُمر رضي الله عنه؛ فبعث عثمان عُبيدَ الله بن معمر مكانَه، فبلغ عبيد الله أن آذَرْبيان يريد أن يغدِر بهم، فقال له: إنِّي أحبّ أن تتخذ لأصحابي طعاماً، وتذبح لهم بقرة، وتجعل عظامها في الجَفْنة التي تليني، فإنّي أحبّ أن أتمشَّش العظام. ففعل، فجعل يأخذ العظم الذي لا يكسر إلا بالفؤوس، فكسره بيده، فيتمخّخه ـ وكان من أشدّ الناس ـ فقام الملك، فأخذ برجله، وقال: هذا مقام العائذ. فأعطاه عهداً، فأصابت عبيد الله منجنيقة، فأوصاهم، فقال: إنكم ستفتحون هذه المدينة إن شاء الله فاقتلوهم بي فيها ساعة. ففعلوا فقتلوا منهم بشراً كثيراً.

وكان عثمان بن أبي العاص لحق الحكَم، وقد هزم شهرك، فكتب إلى عمر: إنّ بيني وبين الكوفة فُرْجة أخاف أن يأتيَني العدوّ منها. وكتب صاحب الكوفة بمثل ذلك: إنّ بيني وبين كذا فُرجة. فاتفق عنده الكتابان، فبعث أبا موسى في سبعمائة، فأنزلهم البصرة.

ذكر فتح فَسا ودارا بِجَرْد

كتبَ إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: وقصد سارية بن زُنَيم، فَسا وَدارَابجرْد، حتى انتهى إلى عسكرهم، فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله. ثم إنهم استمدّوا، فتجمّعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس، فدهم المسلمين أمرٌ عظيم، وجمع كثير؛ فرأى عمر في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في ساعة من النهار، فنادى من الغد: الصّلاة جامعة! حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم؛ وكان أريَهُم والمسلمون بصحراء؛ إن أقاموا فيها أحيط بهم، وإن أرَزُوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتَوا إلاّ من وجه واحد. ثمّ قام فقال: يأيّها الناس؛ إني رأيت هذين الجمعيْن ـ وأخبر بحالهما ـ ثم قال: يا سارية، الجبلَ، الجبلَ! ثمّ أقبل عليهم، وقال: إنّ لله جنوداً، ولعل بعضها أن يبلّغهم؛ ولما كانت تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل، ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد؛ فهزمهم الله لهم؛ وكتبوا بذلك إلى عمر واستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمر دِثار بن أبي شبيب، عن أبي عثمان وأبي عمرو بن العلاء، عن رجل من بني مازن، قالا: كان عمر قد بعث سارية بن زُنيم الدؤليّ إلى فسَا ودارَابِجرْد؛ فحاصرهم. ثم إنهم تداعَوْا فأصحرُوا له، وكَثرُوه فأتوه من كلّ جانب؛ فقال عمر وهو يخطب في يوم جمعة: يا سارية بن زُنيم، الجبل، الجبل! ولما كان ذلك اليوم وإلى جنب المسلمين جبل، إن لجؤوا إليه لم يؤتوا إلاّ من وجه واحد، فلجؤوا إلى الجبل، ثم قاتلوهم فهزموهم، فأصاب مغانمهم، وأصاب في المغانم سَفَطاً فيه جوهر، فاستوهبه المسلمين لعمر، فوهبوه له، فبعث به مع رجل، وبالفتح. وكان الرّسل والوفد يُجازون وتقضَى لهم حوائجهم، فقال له سارية: استقرض ما تُبلّغ به وما تُخلّفه لأهلك على جائزتك. فقدِم الرّجل البَصْرة، ففعل، ثم خرج فقدِم على عمر، فوجده يُطعِم الناس، ومعه عصاه التي يزجرُ بها بعيرَه، فقصد له، فأقبل عليه بها، فقال: اجلس، فجلَس حتى إذا أكل القوم انصرف عمر، وقام فأتبعه، فظنّ عمر أنه رجل لم يشبع، فقال حين انتهى إلى باب داره: ادخُل ـ وقد أمر الخبّاز أن يذهب بالخِوان إلى مطبخ المسلمين ـ فلما جلس في البيت أتيَ

بغَدائه خبز وزيت وملح جَريش، فوُضع وقال: ألا تخرجين يا هذه فتأكلين؟ قالت: إني لأسمع حسَّ رجل؛ فقال: أجل، فقالت: لو أردتَ أن أبرز للرجال اشتريتَ لي غير هذه الكسوة؛ فقال: أوَما ترضَين أن يقال: أمّ كلثوم بنت عليّ وامرأة عمر! فقالت: ما أقلّ غَناء ذلك عني! ثم قال للرجل: ادنُ فكُلْ؛ فلو كانت راضيةً لكان أطيب مما تَرى، فأكلا حتى إذا فرغ قال: رسولُ سارية بن زُنيم يا أمير المؤمنين. فقال: مرحباً وأهلا، ثم أدناه حتى مسّت ركبتُه ركبَته، ثم سأله عن المسلمين، ثم سأله عن سارية بن زُنيم، فأخبره، ثم أخبره بقصّة الدُّرْج، فنظر إليه ثم صاح به، ثم قال: لا ولا كرامةَ حتى تقدم على ذلك الجند فتقسمه بينهم. فطرده، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إني قد أنضيتُ إبلي واستقرضت في جائزتي، فأعطِني ما أتبلّغ به؛ فما زال عنه حتى أبدله بعيراً ببعيره من إبل الصدقة، وأخذ بعيرَه فأدخله في إبل الصدقة، ورجع الرسول مغضوباً عليه محروماً حتى قدم البصرة، فنفذ لأمر عمر، وقد كان سأله أهل المدينة عن سارية، وعن الفتح وهل سمعوا شيئاً يوم الوقعة؟ فقال: نعم، سمعنا: «يا سارية، الجبل»، وقد كدنا نهلِك، فلجأنا إليه، ففتح الله علينا.

كتب إلى السريّ، عن شعيب عن سيف، عن المجالد، عن الشعبيّ، مثل حديث عمرو.

ذكر فتح كَرْمان

كتبَ إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو؛ قالوا: وقصد سُهَيل بن عديّ إلى كَرْمان، ولحقه عبد الله بن عبد الله بن عتْبان، وعلى مقدّمة سُهيل بن عديّ النُّسير بن عمرو العِجْليّ، وقد حشد له أهل كَرْمان، واستعانوا بالقُفْس؛ فاقتتلوا في أدنى أرضهم، ففضّهم الله، فأخذوا عليهم بالطريق، وقَتَل النُّسَيْرُ مرزبانَها، فدخل سهيل من قِبَل طريق القُرَى، اليومَ إلى جِيرَفْت، وعبد الله بن عبد الله من مَفازة شِير، فأصابوا ما شاؤوا من بعير أو شاء، فقوّموا الإبل والغنم فتحاصُّوها بالأثمان لعظَم البُخْت على العِراب، وكرهوا أن يزيدوا، وكتبوا إلى عمر؛ فكتب إليهم: إنّ البعير العربيّ إنما قُوّم بتعيير اللحم؛ وذلك مثله؛ فإذا رأيتم أنّ في البُخت فضلا فزيدوا فإنما هي من قِيمه.

وأما المدائنيّ، فإنه ذكر أنّ عليّ بن مجاهد أخبره عن حَنْبل بن أبي حريدة ـ وكان قاضي قُهِسْتان ـ عن مَرْزُبان قُهستان، قال: فتح كَرْمان عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخُزاعيّ في خلافة عمر بن الخطاب، ثم أتى الطبَسين من كَرْمان، ثم قدم على عمر، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إني افتتحت الطَّبَسَين فأقطِعْنِيهما، فأراد أن يفعل، فقيل لعمر: إنها رُستاقان عظيمان، فلم يُقطعه إيّاهما؛ وهما بابا خُراسان.

ذكر فتح سِجِسْتان

قالوا: وقصد عاصم بن عمرو لسِجِسْتان، ولحقه عبد الله بن عمير، فاستقبلوهم فالتقوْا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، فهزموهم ثم أتبعوهم، حتى حصروهم بزَرَنْج، ومخروا أرض سِجِسْتان ما شاؤوا. ثمّ إنهم طلبوا الصّلح على زَرَنْج وما احتازوا من الأرَضين؛ فأُعطوه، وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أنّ فدا فِدَاها حِمًى؛ فكان المسلمون إذا خرجوا تناذَرُوا خِشية أن يصيبوا منها شيئاً، فيُخْفِروا. فتمّ أهلُ سِجِسْتان على الخراج والمسلمون على الإعطاء؛ فكانت سِجِسْتان أعظَم من خُراسَان، وأبعد فروجاً، يقاتلون القُنْدُهار والترك وأمماً كثيرة، وكانت فيما بين السند إلى نهر بَلْخ بحياله، فلم تَزلْ أعظَم البلدين، وأصعب الفَرْجين، وأكثرهما عدداً وجُنداً؛ حتى زمان معاوية، فهرب الشاه من أخيه ـ واسم أخي الشاه يومئذ رُتْبيل ـ إلى بلد فيها يدعى

آمُل، ودانوا لِسَلْم بن زياد، وهو يومئذ على سِجستان، ففرح بذلك وعقد لهم، وأنزلهم بتلك البلاد، وكتب إلى معاوية بذلك يُري أنه قد فُتح عليه. فقال معاوية: إنّ ابن أخي ليفرح بأمر إنه ليَحزُنُني وينبغي له أن يحزنه، قالوا: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنّ آمُلُ بلدة بينها وبين زَرَنْج صُعوبة وتضايُق، وهؤلاء قوم نُكُر غُدُر، فيضطرب الحبل غداً، فأهون ما يجيء منهم أن يغلبوا على بلاد آمُل بأسرها. وتمّ لهم على عهد ابن زياد؛ فلمّا وقعت الفتنة بعد معاوية كفر الشاه، وغلَب على آمُل، وخاف رُتبيل الشاه فاعتصم منه بمكانه الذي هو به اليوم، ولم يُرْضِه ذلك حين تشاغل الناس عنه حتى طمع في زَرَنْج، فغزاها فحصرهم حتى أتتهم الأمداد من البصرة، فصار رُتبيل والذين جاؤوا معه؛ فنزلوا تلك البلاد شَجاً، لم يُنْتزَعْ إلى اليوم؛ وقد كانت تلك البلاد مذلّلة إلى أن مات معاوية.

فتح مُكران

قالوا: وقصد الحكَم بن عمرو التغلَبيّ لمُكْران؛ حتى انتهى إليها؛ ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب، فانضمّ إليه، وأمدّه سهيل بن عديّ، وعبد الله بن عبد الله بن عِتبان بأنفُسهما، فانتهوا إلى دُوَين النهر، وقد انفضّ أهل مُكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا، وعبَر إليهم راسل ملكُهم ملكَ السند، فازدلف بهم مستقبلَ المسلمين. فالتقَوْا فاقتتلوا بمكان من مُكْران من النهر على أيام، بعد ما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق أخراهم، فهزم الله راسل وسلَبه، وأباح المسلمين عسكره، وقتلوا في المعركة مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أياماً، حتى انتهوا إلى النهر. ثم رجعوا فأقاموا بمُكْران. وكتب الحكَم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع صُحار العبديّ، واستأمره في الفِيَلة، فقدم صُحار على عمر بالخبر، والمغانم، فسأله عمر عن مُكْران ـ وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه ـ فقال: يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جَبَل، وماؤها وشَل، وتمرها دَقَل، وعدوّها بطل، وخيرها قليل، وشرّها طويل، والكثير بها قليل، والقليلُ بها ضائع، وما وراءها شرّ منها. فقال: أسَجّاعٌ أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر، قال: لا، والله لا يغزوها جيش لي ما أُطِعْتُ؛ وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل ألّا يجوزَنّ مُكْران أحد من جنودكما، واقتصرا على ما دون النهر؛ وأمره ببيع الفِيَلة بأرض الإسلام، وقَسم أثمانها على مَنْ أفاءها الله عليه.

وقال الحكَم بن عمرو في ذلك:

لقد شَبِع الأرامِلُ غيرَ فَخْرٍ ... بفَيْءٍ جاءَهُم من مُكْرانِ
أتاهمْ بعد مَسْغَبَةٍ وَجَهْدٍ ... وقد صَفِرَ الشِّتاءُ من الدُّخانِ
فإنّي لا يَذُمُّ الجَيشُ فِعْلي ... ولا سَيْفي يُذَمُّ ولا سِناني
غَداةَ أُدَفِّعُ الأوْباشَ دَفْعاً ... إلى السِّندِ العَريضةِ والمَداني
ومِهْرانٌ لنا فيما أرَدْنا ... مُطيعٌ غَيرَ مُسْتَرْخى العِنان
فلَوْلا ما نهى عنه أميري ... قَطَعناه إلى البُدُدِ الزَّواني

خبر بَيْرُوذ من الأهواز

قالوا: ولما فَصلت الخيول إلى الكُوَر اجتمع ببَيْروذ جمعٌ عظيم من الأكراد وغيرهم، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى حين سارت الجنود إلى الكُوَر أن يسير حتى ينتهي إلى ذِمّة البصرة، كي لا يؤتى المسلمون من خَلْفهم،

وخشيَ أن يُسْتلحَم بعضُ جنوده أو ينقطع منهم طرَف، أو يخلّفوا في أعقابهم؛ فكان الذي حذر من اجتماع أهل بيروذ؛ وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا، فخرج أبو موسى حتى ينزل ببَيْروذ على الجمْع الذي تجمّعوا بها في رمضان؛ فالتقَوْا بين نهر تيرى ومناذر؛ وقد توافَى إليها أهلُ النَّجدات من أهل فارس والأكراد، ليكيدوا المسلمين، وليُصيبوا منهم عَوْرة؛ ولم يشكّوا في واحدة من اثنتين. فقام المهاجر بن زياد وقد تحنّط واستقتل، فقال لأبي موسى، أقسِمْ على كلّ صائم لّما رجع فأفطر. فرجع أخوه فيمن رجع لإبرار القَسَم، وإنما أراد بذلك توجيه أخيه عنه لئلا يمنعه من الاستقتال؛ وتقدّم فقاتل حتى قتِل، ووهّن الله المشركين حتى تحصّنوا في قِلّة وذلّة؛ وأقبل أخوه الربيع، فقال: هَيْيءَ يا والع الدنيا؛ واشتدّ جزعُه عليه؛ فرقّ أبو موسى للربيع للذي رآه دخله مِن مصاب أخيه، فخلّفه عليهم في جُند؛ وخرج أبو موسى حتى بلَغ إصبهان، فلقِيَ بها جنودَ أهل الكوفة محاصري جَيّ، ثم انصرف إلى البصرة؛ بعد ظفر الجنود، وقد فتح الله على الرّبيع بن زياد أهل بيروذ من نهر تيرى؛ وأخذ ما كان معهم من السَّبي، فتنقّى أبو موسى رجالاً منهم ممن كان لهم فداء ـ وقد كان الفداء أردّ على المسلمين من أعيانهم وقيمتهم فيما بينهم ـ ووفّد الوفود والأخماس؛ فقام رجل من عَنَزة فاستوفده؛ فأبى؛ فخرج فسعى به فاستجلبه عمر، وجمع بينهما فوجد أبا موسى أعذَر إلاّ في أمر خادمه، فضعّفه فردّه إلى عمله، وفجّر الآخر؛ وتقدّم إليه في ألاّ يعود لمثلها.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: لما رَجع أبو موسى عن إصبهان بعد دخول الجنود الكُور، وقد هزم الربيع أهلَ بيروذ، وجمع السَّبى والأموال؛ فغدا على ستين غلاماً من أبناء الدّهاقين تنقّاهم وعزلهم؛ وبعث بالفتح إلى عمر، ووفّد وفداً فجاءه رجلٌ من عَنَزة، فقال: اكتبني في الوفْد، فقال: قد كتبنا مَن هو أحقّ منك؛ فانطلق مغاضباً مراغماً، وكتب أبو موسى إلى عمر: إنّ رجلاً من عَنَزَة يقال له ضَبّة بن مِحْصَن، كان من أمره... وقصّ قِصّته. فلما قدِم الكتاب والوفد والفتح على عمر قدم العَنَزيّ فأتى عمر فسلم عليه، فقال: مَنْ أنت؟ فأخبره، فقال: لا مرحباً ولا أهلا! فقال: أما المَرْحب فمن الله، وأما الأهل فلا أهل؛ فاختلَف إليه ثلاثاً، يقول له هذا ويردّ عليه هذا؛ حتى إذا كان في اليوم الرابع، دخل عليه، فقال: ماذا نقِمْتَ على أميرك؟ قال: تنقَّى ستين غلاماً من أبناء الدّهاقين لنفسه؛ وله جارية تدعى عَقيلة، تُغدَّى جَفْنة وتُعشَّى جفنة، وليس منا رجلٌ يقدر على ذلك؛ وله قفيزان، وله خاتمان، وفوّض إلى زياد بن أبي سفيان ـ وكان زياد يلي أمورَ البصرة ـ وأجاز الحطيئة بألف. فكتب عمر كلّ ما قال.

فبعث إلى أبي موسى؛ فلما قدم حَجَبه أياماً، ثم دعا به، ودَعا ضبّة بن محْصن؛ ودفع إليه الكتاب، فقال: اقرأ ما كتبت، فقرأ: أخذ ستين غلاماً لنفسه. فقال أبو موسى: دُلِلتُ عليهم وكان لهم فداء ففديتُهم، فأخذته فقسمته بين المسلمين؛ فقال ضبّة: والله ما كذب ولا كذبتُ، وقال: له قفيزان؛ فقال أبو موسى: قفيز لأهلي أقوتُهم، وقفيز للمسلمين في أيديهم؛ يأخذون به أرزاقهم؛ فقال ضَبّة: والله ما كذب ولا كذبتُ؛ فلما ذكر عَقِيلة سكت أبو موسى ولم يعتذر؛ وعلم أنّ ضبّة قد صدقهَ. قال: وزياد يلي أمور الناس ولا يعرف هذا ما يلي؛ قال: وجدت له نُبْلاً ورأياً، فأسندت إليه عملي. قال: وأجاز الحطيئة بألفٍ، قال: سددتُ فَمه بمالي أن يشتمني، فقال: قد فعلت ما فعلتَ. فردّه عمر وقال: إذا قدمتَ فأرسل إليّ زياداً وَعَقِيلة، ففعل، فقدمت عقيلة قبل زياد؛ وقدم زياد فقام بالباب، فخرج عمر وزياد بالباب قائم، وعليه ثياب بياض كَتّان، فقال [له]: ما هذه الثياب؟ فأخبره، فقال: كم أثمانُها؟ فأخبره بشيء يسير، وصدّقه، فقال له: كم عطاؤك؟ قال

ألفان، قال: ما صنعت في أوّل عطاء خرج لك؟ قال: اشتريت والدتي فأعتقتها، واشتريت في الثاني رَبيبي عُبَيْداً فأعتقتُه، فقال: وفِّقْت، وسأله عن الفرائض والسنن والقرآن، فوجده فقيهاً. فردّه، وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه، وحبس عَقِيلة بالمدينة. وقال عمر: ألا إنّ ضبّة العَنَزيّ غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه، وفارقه مراغِماً أن فاته أمر من أمور الدنيا، فصدق عليه وكذب، فأفسد كذبُه صدقَه؛ فإيّاكم والكذبَ؛ فإنّ الكذب يهدي إلى النار. وكان الحطيئة قد لقيَه فأجازه في غَزاة بيروذ، وكان أبو موسى قد ابتدأ حصارهم وغزاتهم حتى فلّهم، ثم جازهم ووكّل بهم الربيع؛ ثم رجع إليهم بعد الفتح فوليَ القَسْم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمرو، عن الحسن، عن أسيد بن المتشمّس بن أخي الأحنف بن قيس، قال: شهدتُ مع أبي موسى يوم إصبَهان فتح القُرَى، وعليها عبدالله بن وَرْقاء الرّياحيّ وعبد الله بن ورقاء الأسديّ. ثم إنّ أبا موسى صُرِف إلى الكوفة، واستُعمل على البَصْرة عمر بن سراقة المخزوميّ، بدويّ.

ثم إنّ أبا موسى رُدّ على البصرة، فمات عمر وأبو موسى على البصرة على صلاتها، وكان عملها مفترقاً غير مجموع؛ وكان عمر ربما بعث إليه فأمدّ به بعض الجنود، فيكون مدَداً لبعض الجيوش.

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعيّ والأكراد

حدّثني عبد الله بن كَثير العبديّ، قال: حدّثنا جعفر بن عون، قال؛ أخبرنا أبو جَناب، قال: حدّثنا أبو المحجَّل الرّدينيّ، عن مَخْلَد البكريّ وعلقمة بن مرْثَد، عن سليمان بن بُرَيدة، أنّ أميرَ المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمّر عليهم رجلا من أهل العلم والفقه؛ فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلَمة بن قيس الأشجعي فقال: سِرْ باسم الله، قاتِلْ في سبيل الله من كفر بالله؛ فإذا لقيتم عدوَّكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة؛ وليس لهم في فيء المسلمين نصيب، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثلُ الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم؛ فإن أبَوْا فادعوهم إلى الخراج؛ فإن أقرّوا بالخراج فقاتلوا عدوّهم من ورائهم؛ وفرّغوهم لخراجهم؛ ولا تكلّفوهم فوق طاقتهم؛ فإن أبَوْا فقاتلوهم؛ فإنّ الله ناصركم عليهم؛ فإن تحصّنُوا منكم في حصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله؛ فلا تنزلوهم على حكم الله؛ فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم! وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمّة الله وذمّة رسوله فلا تعطُوهم ذمّة الله وذمّة رسوله؛ وأعطوهم ذمم أنفسكم، فإن قاتلوكم فلا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً. قال سلمة: فسرنا حتى لقِينَا عدونا من المشركين، فدعوْناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين، فأبَوْا أن يسلِموا، فدعوناهم إلى الخراج فأبَوْا أن يُقرّوا، فقاتلناهم فنصرَنا الله عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبيْنا الذريّة، وجمعنا الرِّثّة؛ فرأى سلَمة بن قيس شيئاً من حِلْية، فقال: إنّ هذا لا يبلغ فيكم شيئاً، فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين، فإنّ له بُرُداً ومؤونة؟ قالوا: نعم، قد طابت انفسنا. قال: فجعل تلك الحلية في سَفَط، ثم بعث برجل من قومه، فقال: اركب بها؛ فإذا أتيت البَصْرة فاشتر على جوائز أمير المؤمنين راحلتين؛ فأوقِرْهما زاداً لك ولغلامك، ثم سِرْ إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت، فأتيتُ أمير المؤمنين وهو يغدّي الناسَ متّكئاً على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القِصاع، يقول: يا يرفأ؛ زدْ هؤلاء لحماً، زِدْ هؤلاء خبزاً، زدْ هؤلاء مَرَقة، فلما دُفعتُ إليه، قال: اجلس؛

فجلست في أدنى النـاس؛ فإذا طعـام فيه خشـونة طعـامي، الذي معي أطيبُ منـه. فلما فرغ النـاس من قصاعهم قال: يا يرفأ، ارفع قِصاعك ثمّ أدْبِر؛ فاتّبعته فدخل داراً، ثم دخل حجرة، فاستأذنت وسلمت، فأذن لي، فدخلت عليه فإذا هو جالسٌ على مِسْح متّكىء على وسادتين من أدُم محشوّتين ليفاً؛ فنبذ إليّ بإحداهما، فجلست عليها، وإذا بَهْوٌ في صُفّة فيها بيت عليه سُتَيْر، فقال: يا أم كلثوم، غداءنا! فأخرجت إليه خُبزة بزيت في عُرْضها ملح لم يُدَقّ، فقال: يا أمّ كلثوم، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا؟ قالت: إني أسمع عندك حِسّ رجل، قال: نعم ولا أراه من أهل البلد ـ قال: فذلك حين عرفت أنه لم يعرفني ـ قالت: لو أردتَ أن أخرج إلى الرجال لكسوتَني كما كسا ابنُ جعفر امرأته، وكما كسا الزّبير امرأته، وكما كَسا طلحة امرأته! قال: أوَمَا يَكفيك أن يقال: أمّ كُلثوم بنت عليّ بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر! فقال: كلْ؛ فلو كانت راضيةً لأطعمتْك أطيبَ من هذا. قال: فأكلتُ قليلاً ـ وطعامي الذي معي أطيب منه ـ وأكل، فما رأيت أحداً أحسن أكلاً منه ما يتلبّس طعامُه بيده ولا فمه، ثم قال: اسقونا، فجاؤوا بعُسّ من سُلْت فقال: أعط الرّجل، قال: فشربت قليلاً، سويقي الذي معي أطيب منه، ثمّ أخذه فشربه حتى قَرَع القدح جبهته، وقال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا. قال: قلت: قد أكل أمير المؤمنين فشبع، وشرب فروِيَ؛ حاجتي يا أمير المؤمنين! قال: وما حاجتك؟ قال: قلت: أنا رسول سلمة بن قيس، قال: مرحباً بسلمَة بن قيس ورسولهِ، حدّثني عن المهاجرين كيف هم؟ قال: قلت: هم يا أمير المؤمنين كما تحبّ من السلامة والظّفر على عدوّهم. قال: كيف أسعارهم؟ قال: قلت: أرخص أسعار. قال: كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها؟ قال: قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا يا أميرَ المؤمنين، سرنا حتى لقينا عدونا من المشركين فدعوْناهم إلى ما أمرتَنا به من الإسلام فأبوْا، فدعوْناهم إلى الخراج فأبوْا، فقاتلناهم فنصرَنا الله عليهم، فقتلْنا المقاتلة، وسبيْنا الذّرّية، وجمعنا الرِّثّة؛ فرأى سلمة في الرثّة حِلْية، فقال للناس: إنّ هذا لا يبلغ فيكم شيئاً، فتطيب أنفسكم أنْ أبعثَ به إلى أمير المؤمنين؟ فقالوا: نعم. فاستخرجت سَفَطي، فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأصفر وأخضر، وثب ثمّ جعل يده في خاصرته، ثم قال: لا أشبع الله إذاً بطن عمر! قال: فظنّ النساء أني أريد أن أغتاله، فجئن إلى الستر، فقال: كفّ ما جئت به، يا يرفأ، جَأ عنقه. قال: فأنا أصلح سَفَطي وهو يجأ عنقي! قلت: يا أميرَ المؤمنين أبْدِعَ بي فاحملني، قال: يا يرفأ أعطه راجلتين من الصدقة، فإذا لقيتَ أفقر إليهما منك فادفعهما إليه. قلت: أفعلُ يا أمير المؤمنين، فقال: أمَا والله لئن تفـرّق المسلمون في مشاتِيهم قبل أن يقسَم هذا فيهم لأفعلنّ بك وبصاحبك الفاقرة.

قال: فارتحلتُ حتى أتيت سلمة، فقلت: ما بارك الله لي فيما اختَصصتني به، اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإيّاك فاقرة، فقسمه فيهم، والفصّ يباع بخمسة دراهم وستة دراهم؛ وهو خير من عشرين ألفاً.

وأما السّريّ فإنه ذكر ـ فيما كتب به إليّ يذكر عن شعيب، عن سيف، عن أبي جناب، عن سليمان بن بُريدة ـ قال: لقيت رسولَ سلمة بن قيس الأشجعيّ، قال: كان عمر بن الخطاب إذا اجتمعَ إليه جيشٌ من العرب. . . ثم ذكر نحو حديث عبدالله بن كثير عن جعفر بن عون؛ غير أنه قال في حديثه عن شعيب عن سيف: وأعطوهم ذِمم أنفسكم. قال: فلقينا عدوّنا من الأكراد، فدعوناهم.

وقال أيضاً: وجمعنا الرِّثّة، فوجد فيها سَلمة حُقّتين جوهراً، فجعلنا في سَفَط.

وقال أيضاً: أو مَا كفاكِ أن يقال: أمّ كُلثوم بنت عليّ بن أبي طالب امرأة عمر بن الخطاب! قالت: إنّ ذلك عني لقليل الغَناء، قال: كل.

وقال أيضاً: فجاؤوا بعُسٍّ من سُلْت، كلّما حرّكوه فارَ فوقه مما فيه؛ وإذا تركوه سكن. ثم قال: اشرب، فشربت قليلاً؛ شرابي الذي معي أطيب منه، فأخذ القَدَح فضرب به جبهته. ثم قال: إنك لضعيفُ الأكل، ضعيف الشرب.

وقال أيضاً: قلت: رسول سلمة، قال: مرحباً بسلَمة وبرسوله؛ وكأنما خرجتَ من صلبه؛ حدّثني عن المهاجرين.

وقال أيضاً: ثم قال: لا أشبع الله إذاً بطن عمر! قال: وظنّ النساء أني قد اغتلتُه، فكشفن الستر؛ وقال: يا يرفأ، جأ عنقه؛ فوجأ عنقي وأنا أصيح، وقال: النّجاء؛ وأظنّك ستبطىء. وقال: أما والله الذي لا إله غيره لئن تفرّق الناس إلى مشاتيهم... وسائر الحديث نحو حديث عبد الله بن كثير.

وحدّثنا الرّبيع بن سليمان، قال: حدّثنا أسد بن موسى، قال: حدّثنا شهاب بن خِراش الحوشبيّ، قال: حدّثنا الحجاج بن دينار، عن منصور بن المعتمر، عن شقيق بن سلمة الأسديّ، قال: حدّثنا الذي جرى بين عمر بن الخطاب وسلَمة بن قيس، قال: ندب عمر بن الخطاب الناس إلى سلمة بن قيس الأشجعيّ بالحيرة، فقال: انطلقوا باسم الله... ثم ذكر نحو حديث عبد الله بن كثير، عن جعفر.

قال أبو جعفر: وحجّ عمر بأزواج رسول الله ﷺ في هذه السنة؛ وهي آخر حَجّة حجّها بالناس؛ حدّثني بذلك الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، عن الواقديّ.

وفي هذه السنة كانت وفاته.

ذكر الخبر عن مقتله:

حدّثني سلم بن جُنادة، قال: حدّثنا سُليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، قال: حدّثنا أبي، عن عبد الله بن جعفر، عن أبيه، عن المِسْور بن مَخْرمة. ـ وكانت أمّه عاتكة بنت عوف ـ قال: خرج عمر بن الخطاب يوماً يطوف في السوق، فلقيَه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة؛ وكان نَصرانيًّا، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أعْدِني على المغيرة بن شعبة؛ فإنّ عليّ خراجاً كثيراً، قال: وكم خراجُك؟ قال: درهمان في كلّ يوم، قال: وأيَش صناعتك؟ قال: نجّار، نقّاش، حدّاد، قال: فما أرى خراجَك بكثير على ما تصنع من الأعمال؛ قد بلغني أنك تقول: لو أردتُ أن أعملَ رحاً تطحن بالريح فعلت، قال: نعم؛ قال: فاعمل لي رحاً، قال: لئن سلمتُ لأعملنّ لك رحاً يتحدّث بها مَنْ بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه؛ فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لقد توعّدني العبد آنفاً! قال: ثمّ انصرف عمر إلى منزله؛ فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين، اعهد، فإنك ميّت في ثلاثة أيام؛ قال: وما يُدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عزّ وجلّ التوراة، قال عمر: آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهمّ لا؛ ولكني أجد صفتَك وحِلْيتك، وأنه قد فنيَ أجلُك ـ قال: وعمر لا يُحسُّ وجعاً ولا ألماً ـ فلما كان من الغد جاءه كعب؛ فقال: يا أميرَ المؤمنين، ذهب يوم وبقي يومان، قال: ثمّ جاءه من غد الغد؛ فقال: ذهب يومان

وبقيَ يوم وليلة؛ وهي تلك إلى صبحتها. قال: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة؛ وكان يوكّل بالصّفوف رجالا؛ فإذا استوت جاء هو فكبّر. قال: ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خِنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ستّ ضربات، إحداهنّ تحت سُرّته؛ وهي التي قتلته؛ وقتِل معه كُليب بن أبي البُكَيْر الليثيّ - وكان خلفه - فلما وجد عمر حرّ السلاح سقط، وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، هو ذا؛ قال: تقدّم فصلّ بالناس، قال: فصلى عبدُ الرحمن بن عوف، وعمر طريح، ثم احتمِل فأدخل داره، فدعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: إني أريد أن أعهدَ إليك؛ فقال: يا أمير المؤمنين نعم؛ إن أشرت عليّ قبلت منك؛ قال: وما تريد؟ أنشدك الله؛ أتشير عليّ بذلك؟ قال: اللهم لا، قال: والله لا أدخل فيه أبداً، قال: فهبْ لي صمتاً حتى أعهد إلى النّفر الذين تُوفِّيَ رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. ادعُ لي عليًّا وعثمان والزبير وسعداً. قال: وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم؛ أنشدك الله يا عليّ إن وَليتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس؛ أنشدك الله يا عثمان إن وَليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي مُعيط على رقاب الناس؛ أنشدك الله يا سعد إن وَليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس؛ قوموا فتشاوروا ثم اقضوا أمرَكم؛ وليصلّ بالناس صُهيب.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاريّ، فقال: قم على بابهم؛ فلا تدعْ أحداً يدخل إليهم؛ وأوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان، أن يُحسن إلى محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم؛ وأوصي الخليفة من بعدي بالعرب؛ فإنها مادّة الإسلام، أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فيوضع في فقرائهم، وأوصي الخليفة من بعدي بذمّة رسول الله ﷺ أن يوفَى لهم بعهدهم، اللهم هل بلّغت! تركتُ الخليفة من بعدي على أنقَى من الراحة؛ يا عبد الله بن عمر اخرج فانظر مَنْ قتلني؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة، يا عبد الله بن عمر، اذهب إلى عائشة فسلْها أن تأذن لي أن أدفن مع النبي ﷺ وأبي بكر، يا عبدَ الله بن عمر، إن اختلف القوم فكن مع الأكثر؛ وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتّبع الحزب الذي فيه عبد الرحمن؛ يا عبد الله ائذن للناس، قال: فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه، ويقول لهم: أعن ملأ منكم كان هذا؟ فيقولون: معاذ الله! قال: ودخل في الناس كعب، فلما نظر إليه عمر أنشأ يقول:

فـأَوعَـدَنِي كعبٌ ثـلاثـاً أعُـدُّهـا ... ولا شـكَّ أن القولَ مـا قـال لي كعبُ
ومـا بي حِـذارُ المـوتِ إني لَميِّتٌ ... ولكنْ حِـذارُ الـذَّنبِ يَتْبَعُـهُ الـذَّنْبُ

قال: فقيل له: يا أميرَ المؤمنين لو دعوتَ الطبيب! قال: فدعى طبيب من بني الحارث بن كعب، فسقاه نبيذاً فخرج النبيذ مشكّلاً، قال: فاسقوه لبناً، قال: فخرج اللبن محضاً، فقيل له: يا أمير المؤمنين، اعهد، قال: قد فرغت.

قال: ثم توفي ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين. قال: فخرجوا به بكْرة يوم الأربعاء، فدفن في بيت عائشة مع النبيّ ﷺ وأبي بكر. قال: وتقدّم صُهيب فصلّى عليه، وتقدّم قبل ذلك رجُلان من أصحاب رسول الله ﷺ: عليّ وعثمان، قال: فتقدّم واحد من عند رأسه، والآخر من عند رجليه؛ فقال عبد الرحمن: لا إله إلا الله؛ ما أحرصكما على الإمرة! أما علمتما أنّ أمير المؤمنين قال: لِيُصَلّ بالناس

صهيب! فتقدّم صهيب فصلّى عليه. قال: ونزل في قبره الخمسة.

قال أبو جعفر: وقد قيل إن وفاته كانت في غرّة المحرّم سنة أربع وعشرين.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني الحارث، قال: حدثنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد، عن أبيه قال: طُعِن عمر رضي الله تعالى عنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجّة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرّم سنة أربع وعشرين؛ فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلةً، من متوفَّى أبي بكر، على رأس اثنتين وعشرين سنة وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً من الهجرة. وبويع لعثمان بن عفان يوم الاثنين لثلاث مضين من المحرّم.

قال: فذكرت ذلك لعثمان الأخنسيّ، فقال: ما أراك إلا وهِلْت؛ توفّي عمر رضي الله تعالى عنه لأربع ليال بقين من ذي الحجة، وبويع لعثمان بن عفّان لليلةٍ بقيت من ذي الحجّة، فاستقبل بخلافته المحرّم سنة أربع وعشرين.

وحدّثني أحمدُ بن ثابت الرازيّ، قال: حدّثنا محدّث، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: قتِل عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجّة تمام ثلاث وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، ثم بويع عثمان بن عفان.

قال أبو جعفر: وأما المدائنيّ، فإنه قال فيما حدّثني عمر عنه، عن شريك، عن الأعمش ـ أو عن جابر الجُعفيّ ـ عن عوف بن مالك الأشجعيّ وعامر بن أبي محمد، عن أشياخ من قومه؛ وعثمان بن عبد الرحمن، عن ابنَي شهاب الزُّهريّ، قالوا: طُعِن عمر يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة. قال: وقال غيرهم: لستّ بقين من ذي الحجة.

وأما سيف، فإنه قال فيما كتَب إليّ به السريّ يذكر أن شعيباً حدّثه عنه، عن خُليد بن ذَفَرة ومجالد، قال: استُخلف عثمان لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين، فخرج فصلّى بالناس العصر؛ وزاد: ووفّد فاستُنّ به.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: اجتمع أهلُ الشورى على عثمان؛ لثلاثٍ مضين من المحرّم؛ وقد دخل وقت العصر، وقد أذّن مؤذن صهيب، واجتمعوا بين الأذان والإقامة، فخرج فصلّى بالناس، وزاد الناس مائة؛ ووفَّد أهل الأمصار، وصنع فيهم. وهو أوّل من صنع ذلك.

وحُدّثت عن هشام بن محمد، قال: قتِل عمر لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام.

ذكر نسب عمر رضي الله عنه

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق. وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد،

عن محمد بن عمر وهشام بن محمد. وحدّثني عُمر، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، قالوا: جميعاً في نسب عمر: هو عمرُ بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزَّى بن رِياح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزاح بن عديّ بن كعب بن لؤيّ. وكنيته أبو حفص، وأمّه حَنْتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

قال أبو جعفر: وكان يقال له الفاروق.

وقد اختلف السلف فيمن سمّاه بذلك، فقال بعضهم: سماه بذلك رسول الله ﷺ.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا أبو حَزْرة يعقوب بن مجاهد، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي عمرو ذكْوان، قال: قلتُ لعائشة: من سمّى عمر الفاروق؟ قالت: النبيّ ﷺ.

وقال بعضهم: أوّل مَنْ سمّاه بهذا الأسم أهل الكتاب.

ذكر من قال ذلك:

حدّثنا الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن صالح بن كيسان، قال: قال ابن شهاب: بلغنا أنّ أهل الكتاب كانوا أوّلَ مَن قال لعمر: الفاروق؛ وكان المسلمون يأثُرون ذلك من قولهم؛ ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر من ذلك شيئاً.

ذكر صفته

حدّثنا هنّاد بن السّريّ، قال: حدّثنا وكيع، عن سفيان، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن زِرّ بن حُبيش، قال: خرج عمر في يوم عيد ـ أو في جنازة زينب ـ آدم طُوالاً أصلعَ أعسرَ يَسراً، يمشي كأنه راكب.

حدّثنا هنّاد؛ قال: حدّثنا شريك، عن عاصم، عن زِرّ، قال: رأيت عمر يأتي العيد ماشياً حافياً أعسَر أيْسَر متلبِّباً بُرْداً قَطَريًّا، مشرفاً على الناس كأنه على دابّة؛ وهو يقول: أيّها الناس؛ هاجروا ولا تهجَّروا.

وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد؛ قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا عمر بن عمران بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: رأيت عمرَ رجلاً أبيض أمْهَق، تعلوه حُمرة، طُوالاً أصلع.

وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا شُعيب بن طلحة، عن أبيه، عن القاسم بن محمد، قال: سمعتُ ابنَ عمر يصفُ عمر يقول: رجل أبيض، تعلوه حُمرة، طُوال، أشيب، أصلع.

وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: أخبرنا خالد بن أبي بكر، قال: كان عُمر يصفّر لحيتَه، ويرجّل رأسه بالحِنّاء.

ذكر مولده ومبلغ عمره

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أسامة بن زيد بن

أسلم، عن أبيه، عن جَدّه، قال: سمعتُ عمر بن الخطاب، يقول: وُلِدت قبل الفِجار الأعظم الآخر بأربع سنين.

قال أبو جعفر: واختلف السلف في مبلغ سِني عمر، فقال بعضهم: كان يوم قتِل ابنَ خمس وخمسين سنة.

ذكر بعض من قال ذلك:

حدّثني زيد بن أخزم الطائي، قال: حدّثنا أبو قتيبة، عن جرير بن حازم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قتل عمر بن الخطّاب وهو ابن خمس وخمسين سنة.

وحدّثني عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحَكم، قال: حدّثنا نُعيم بن حمّاد، قال: حدّثنا الدراوَرْديّ، عن عبيدالله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: توفي عمر وهو ابن خمس وخمسين سنة.

وحُدّثت عن عبد الرزاق، عن ابن جريج، عن ابن شهاب أنّ عمر توفي على رأس خمس وخمسين سنة.

وقال آخرون: كان يوم توفِّي ابن ثلاث وخمسين سنة وأشهر.

ذكر من قال ذلك:

حدِّثت بذلك عن هشام بن محمد بن الكلبيّ.

وقال آخرون توفِّي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا ابنُ أبي عديّ، عن داود، عن عامر، قال: مات عُمَر وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقال آخرون: تُوفّي وهو ابن إحدى وستين سنة.

ذكر من قال ذلك:

حُدّثت بذلك، عن أبي سلَمة التَّبُوذَكيّ، عن أبي هلال، عن قتَادة.

وقال آخرون: تُوُفّي وهو ابن ستّين سنة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: تُوفّيَ عمر وهو ابن ستين سنة.

قال محمد بن عمر: وهذا أثبت الأقاويل عندنا؛ وذكر عن المدائنيّ أنه قال: توفِّي عمر وهو ابن سبع وخمسين سنة.

ذكر أسماء ولده ونسائه

حدّثني أبو زيد عمر بن شبّة، عن عليّ بن محمد والحارث، عن محمد بن سعد؛ عن محمد بن عمر.

وحُدّثت عن هشام بن محمد ـ اجتمعت معاني أقوالهم، واختلفت الألفاظ بها ـ قالوا: تزوّج عُمَر في الجاهلية زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة.

وقال عليّ بن محمد: وتزوّج مليكة بنت جَرْوَل الخُزاعيّ في الجاهليّة، فولدت له عبيد الله بن عمر، ففارقها في الهُدنة، فخلف عليها بعد عمر أبو الجهم بن حُذيفة.

وأما محمّد بن عمر، فإنه قال: زيد الأصغر وعبيد الله الذي قتل يوم صِفّين مع معاوية، أمّهما أمّ كلثوم بنت جَرْول بن مالك بن المسيّب بن ربيعة بن أصرم بن ضَبِيس بن حرَام بن حَبَشيّة بن سَلُول بن كعب بن عمرو بن خُزاعة؛ وكان الإسلام فرّق بينها وبين عمر.

قال عليّ بن محمد: تزوج قُرَيبة بنت أبي أميّة المخزوميّ في الجاهليّة، ففارقها أيضاً في الهُدْنة، فتزوّجها بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

قالوا: وتزوّج أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم في الإسلام؛ فولدت له فاطمة فطلّقها. قال المدائنيّ: وقد قيل: لم يطلقها.

وتزوج جميلة أخت عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ـ واسمه قيس بن عصمة بن مالك بن ضبيعة بن زيد بن الأوس من الأنصار في الإسلام ـ فولدت له عاصماً، فطلّقها وتزوّج أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب؛ وأمّها فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأصدقها ـ فيما قيل ـ أربعين ألفاً، فولدت له زيداً ورقيّة.

وتزوّج لُهيّة، امرأة من اليمن، فولدت له عبد الرحمن. قال المدائنيّ: ولدت له عبد الرحمن الأصغر. قال: ويقال كانت أمّ ولد. قال الواقديّ: لُهيّة هذه أم ولد. وقال أيضاً: ولدت له لهيّة عبد الرحمن الأوسط. وقال عبد الرّحمن الأصغر أمه أمّ ولد.

وكانت عنده فُكَيْهة، وهي أمّ ولد وفي أقوالهم فولدت له زينب. وقال الواقديّ: هي أصغر ولد عمر.

وتزوّج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل؛ وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر؛ فلمّا مات عمر تزوّجها الزبير بن العوّام.

قال المدائنيّ: وخطب أمّ كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة، وأرسل فيها إلى عائشة، فقالت: الأمر إليكِ، فقالت أمّ كلثوم: لا حاجة لي فيه؛ فقالت لها عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين! قالت: نعم؛ إنه خشِن العيش، شديد على النساء؛ فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته، فقال: أكفيكِ؛ فأتى عمرَ فقال: يا أمير المؤمنين؛ بلَغني خبر أعيذك بالله منه؛ قال: وما هو؟ قال: خطبْتَ أمّ كلثوم بنت أبي بكر! قال: نعم؛ أفرغبتَ بي عنها، أم رغبتَ بها عني؟ قال: لا واحدة؛ ولكنها حَدَثة نشأت تحت كَنَف أمّ المؤمنين في لين ورفق؛ وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردّك عن خُلُق من أخلاقك؛ فكيف بها إن خالفتك في شيء، فسطوتَ بها! كنتَ قد خلَفت أبا بكر في ولده بغير ما يحقّ عليك. قال: فكيف بعائشة وقد كلّمتُها؟ قال: أنا لك بها؛ وأدلّك على خير منها، أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، تَعْلَقْ منها بنسَبٍ من رسول الله ﷺ.

قال المدائنيّ: وخطب أمّ أبان بنت عُتبة بن ربيعة، فكرهْته، وقالت: يُغلِق بابه، ويمنع خيرَه، ويَدخل عابساً، ويخرج عابساً.

ذكر وقت إسلامه

قال أبو جعفر: ذُكِر أنه أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني محمد بن عبد الله، عن أبيه، قال: ذكرت له حديث عمر، فقال: أخبرَني عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير، قال: أسلم عمر بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأةً.

ذكر بعض سِيَره

حدّثني أبو السائب، قال: حدّثنا ابنُ فُضَيل، عن ضرار، عن حصين المرّيّ، قال: قال عمر: وإنما مثلُ جمل أنِفٍ اتبع قائدَه، فلينظرْ قائدُه حيث يقوده، فأمّا أنا فوربِّ الكعبة لأحملنّهم على الطريق.

وحدّثني يعقوبُ بن إبراهيم، قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن يونس، عن الحسن، قال: قال عمر: إذا كنت في منزلة تسعني وتعجِز عن الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوةً للناس.

حدّثنا خلّاد بن أسلم، قال: حدّثنا النَّضْر بن شُمَيل، قال: أخبرنا قَطَن، قال: حدّثنا أبو يزيد المدينيّ، قال: حدّثنا مولًى لعثمان بن عفان، قال: كنت رديفاً لعثمان بن عفان؛ حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحرّ شديد السَّموم؛ فإذا رجل عليه إزار ورداء، قد لفّ رأسَه برداء يطرُد الإبل يُدخلها الحظيرة؛ حظيرة إبل الصدقة؛ فقال عثمان: مَنْ ترى هذا؟ قال: فانتهينا إليه؛ فإذا هو عمر بن الخطاب، فقال: هذا والله القويّ الأمين.

حدّثني جعفر بن محمد الكوفيّ وعباس بن أبي طالب؛ قالا: حدّثنا أبو زكرياء يحيى بن مصعب الكلبيّ، قال: حدّثنا عمر بن نافع، عن أبي بكر العبسيّ، قال: دخلت حيْر الصّدقة مع عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب، قال: فجلس عثمان في الظلّ يكتب، وقام علي على رأسه يملّ عليه ما يقول عمر، وعمر في الشمس قائم في يوم حارّ شديد الحرّ، عليه بُرْدان أسودان؛ متّزراً بواحد، وقد لفّ على رأسه آخر، يعدّ إبل الصدقة، يكتب ألوانها وأسنانها، فقال عليّ لعثمان ـ وسمعته يقول: نعتَ بنت شعيب في كتاب الله: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيّ الأَمِينُ ﴾[1]، ثم أشار عليّ بيده إلى عمر، فقال: هذا القويّ الأمين!

حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا إسماعيل، عن يونس، عن الحسن، قال: قال عمر: لئن عشت إنْ شاء الله لأسيرنّ في الرعيّة حَوْلاً، فإني أعلمُ أنّ للناس حوائج تقطع دوني؛ أما عمّالهم فلا يرفعونها إليّ؛ وأمّا هم فلا يصلون إليّ، فأسير إلى الشأم؛ فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين؛ والله لنعمَ الحَوْل هذا!

حدّثني محمد بن عوْف؛ قال: حدثنا أبو المغيرة عبد القدّوس بن الحجّاج، قال حدّثنا صفوان بن عمرو، قال: حدّثني أبو المخارق زهير بن سالم، أنّ كعب الأحبار، قال: نزلتُ على رجل يقال له مالك ـ وكان جاراً

---

(١) سورة القصص: ٢٦.

لعمر بن الخطاب ـ فقلت له: كيف بالدخول على أمير المؤمنين؟ فقال: ليس عليه باب ولا حجاب، يصلّي الصلاة ثم يَقْعُد فيكلّمه مَن شاء.

حدّثني يونس بن عبد الأعلى، قال: حدّثنا سفيان، عن يحيى، قال: أخبرني سالم، عن أسلم، قال: بعثني عمر بإبل من إبل الصدقة إلى الحِمَى، فوضعت جِهَازي على ناقة منها؛ فلما أردت أن أُصدِرها، قال: اعرِضْها عليّ، فعرضتُها عليه، فرأى متاعي على ناقة منها حسناء، فقال: لا أمّ لك! عَمَدت إلى ناقة تغني أهلَ بيت المسلمين! فهلاّ ابن لَبون بوّالا، أو ناقةً شَصُوصاً!

حدّثني عمر بن إسماعيل بن مجالد الهمْدانيّ، قال: حدثنا أبو معاوية عن أبي حيان، عن أبي الزّنباع، عن أبي الدهقانة، قال: قيل لعمر بن الخطاب: إن ها هنا رجلاً من أهل الأنبار له بَصر بالديوان؛ لو اتّخذتَه كاتباً! فقال عمر: لقد اتّخذتُ إذاً بِطانةً من دون المؤمنين!

حدّثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: حدّثنا عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، عن جدّه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس، فقال: والذي بعث محمداً بالحق، لو أنّ جملاً هلك ضياعاً بشطّ الفُرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب. قال أبو زيد: آل الخطاب يعني نفسَه، ما يعني غيرها.

حدّثنا ابنُ المثنّى، قال: حدّثنا ابن أبي عديّ، عن شعبة، عن أبي عمران الجونيّ، قال: كتب عمر إلى أبي موسى: إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم؛ فأكرمْ مَن قبلِك من وجوه الناس، وبحسْب المسلم الضعيف من العدل؛ أن يُنْصف في الحُكْم وفي القَسْم.

وحدّثنا أبو كريب، قال: حدّثنا ابن إدريس، قال: سمعت مطرّفاً، عن الشعبيّ، قال: أتى أعرابيّ عمر، فقال: إن ببعيري نُقَباً وَدَبَراً فاحملني؛ فقال له عمر؛ ما ببعيرك نُقَب ولا دَبر، قال: فولّى وهو يقول:

أقْسَمَ بـالله أبـو حَـفْص عُـمَـرْ ... مـا مَـسَّـهـا مِـن نُـقَـبٍ ولا دَبَـرْ

فـاغْفِرْ لـه اللهمّ إن كـان فَجَـر

فقال: اللهمّ اغفر لي! ثم دعا الأعرابيّ فحمله.

وحدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا إسماعيل، قال: أخبرنا أيّوب، عن محمد، قال: نُبِّئتُ أنّ رجلاً كان بينه وبين عمر قَرابة، فسأله فزَبره، وأخرجه فكُلِّم فيه؛ فقيل: يا أميرَ المؤمنين؛ فلان سألك فزبرتَه وأخرجتَه، فقال: إنه سألني من مال الله؛ فما معذرتي إنْ لقيتُه ملكاً خائناً! فلولا سألني من مالي! قال: فأرسل إليه بعشرة آلاف.

وكان عمر رحمه الله إذا بعث عاملاً له على عمل يقول ـ ما حدّثنا به محمد بن المثنّى، قال: حدّثنا عبد الرحمن بن مهديّ، قال: حدّثنا شعبة، عن يحيى بن حصَين، سمع طارق بن شهاب يقول: قال عمر في عمّاله: اللهمّ إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم؛ ولا ليضربوا أبشارهم؛ مَن ظلَمه أميره فلا إمْرة عليه دوني.

وحدّثنا ابنُ بشّار، قال: حدّثنا ابنُ أبي عديّ، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعْد، عن مَعْدان بن أبي طلحة؛ أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطبَ الناس يوم الجمعة، فقال: اللهمّ إني أشهدك

على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعلِّموا الناس دينَهم وسنّة نبيّهم ؛ وأن يقسموا فيهم فيئهم ، وأن يعدِلوا ؛ فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليّ .

وحدّثنا أبو كريب، قال: حدّثنا أبو بكر بن عيّاش، قال: سمعت أبا حصين، قال: كان عمر إذا استعمل العمّال خرج معهم يشيّعهم، فيقول: إنّي لم أستعملْكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم، ولا على أبشارهم؛ إنما استعملتُكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة، وتقضُوا بينهم بالحق، وتقسِموا بينهم بالعدل؛ وإنّي لم أسلّطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم؛ ولا تجلدوا العربَ فتُذِلّوها، ولا تُجمّروها فتفتِنوها، ولا تغلفوا عنها فتحرِموها؛ جرّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن محمّد ﷺ؛ وأنا شريككم. وكان يَقتصّ من عمّاله، وإذا شُكِي إليه عامل له جمع بينه وبين مَن شكاه؛ فإن صحّ عليه أمرٌ يجب أخْذُه به أخَذَه به.

وحدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم، قال: أخبرنا سعيد الجُرَيريّ، عن أبي نَضْرة، عن أبي فراس، قال: خطب عمر بن الخطاب، فقال: يأيها الناس؛ إني والله ما أرسل إليكم عمّالا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم؛ ولكني أرسلهم إليكم ليعلّموكم دينكم وسنّتكم؛ فمن فُعِل به شيء سوى ذلك فليرفعْه إليّ؛ فوالذي نفس عمر بيده لأقِصنّه منه. فوثب عمرو بن العاص، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أرأيتَك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيّة، فأدّب بعض رعيّته، إنك لتقصّه منه! قال: إي والذي نفس عمر بيده إذاً لأقِصنّه منه، وكيف لا أقصّه منه وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يُقِصّ من نفسه! ألا لا تضربوا المسلمين فتُذِلُّوهم، ولا تجمّروهم فتفتِنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتُكفروهم، ولا تنزِلُوهم الغياض فتضيّعوهم.

وكان عمر رضي الله عنه ـ فيما ذكر عنه ـ يُعسّ بنفسه، ويرتاد منازل المسلمين، ويتفقّد أحوالهم بيديه.

ذكر الخبر الوارد عنه بذلك:

حدّثنا ابنُ بشّار، قال: حدّثنا أبو عامر، قال: حدّثنا قُرّة بن خالد، عن بكر بن عبد الله المُزنيّ، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضرَبه، فجاءت المرأة ففتحته؛ ثم قالت له: لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي، فلم يدخل حتى جلست، ثم قالت: ادخل، فدخل، ثم قال: هل من شيء؟ فأتته بطعام فأكل، وعبد الرحمن قائم يصلّي، فقال له: تَجوّز أيّها الرجل؛ فسلم عبد الرحمن حينئذ، ثم أقبل عليه، فقال: ما جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟ قال: رُفقة نزلتْ في ناحية السوق خشيتُ عليهم سُرّاق المدينة، فانطلِق فلنحرسهم، فانطلقا فأتيا السوق، فقعدا على نَشَزٍ من الأرض يتحدّثان، فرفع لهما مصباح، فقال عمر: ألم أنْهَ عن المصابيح بعد النوم! فانطلقا، فإذا هم قوم على شراب لهم، فقال: انطلق فقد عرفته؛ فلما أصبح أرسل إليه فقال: يا فلان، كنتَ وأصحابك البارحة على شراب؟ قال: وما علمُك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: شيء شهدته؛ فقال: أوَ لم ينهك الله عن التجسّس! قال: فتجاوز عنه.

قال بكر بن عبد الله المُزنيّ: وإنّما نهى عمر عن المصابيح، لأن الفارة تأخذ الفتيلة فترمِي بها في سقف البيت فيحترق، وكان إذْ ذاك سقف البيت من الجريد.

وحدّثني أحمد بن حرب، قال: حدّثنا مصعب بن عبد الله الزبيريّ، قال: حدّثني أبي، عن ربيعة بن عثمان، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: خرجتُ مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حَرّة واقم، حتى إذا كنا

بِصرار؛ إذا نار تؤرّث؛ فقال يا أسلم؛ إني أرى هؤلاء ركباً قصّر بهم الليل والبرد؛ انطلق بنا؛ فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم؛ فإذا امرأة معها صِبيان لها، وقِدْر منصوبة على النار، وصِبيانها يتضاغوْن؛ فقال عمر: السّلام عليكم يا أصحابَ الضَّوء ـ وكره أن يقول: يا أصحاب النار ـ قالت: وعليك السلام؛ قال: أأدنو؟ قالت: أدنُ بخير أودَعْ؛ فدنا فقال: ما بالُكم؟ قالت: قصّر بن الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغوْن؟ قالت: الجوع، قال: وأيّ شيء في هذه القِدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر! قال: أيْ رحِمَك الله، ما يُدرِي عمرَ بكم! قالت: يتولّى أمرَنا ويغفل عنّا! فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا؛ فخرجنا نهرول؛ حتى أتينا دارَ الدقيق؛ فأخرج عِدْلاً فيه كُبّة شحم؛ فقال: احمله عليّ فقلت: أنا أحمله عنك، قال: احمله عليّ؛ مرتين أو ثلاثاً، كلّ ذلك أقول: أنا أحمله عنك؛ فقال لي في آخر ذلك: أنت تحمل عني وِزْري يوم القيامة، لا أمّ لك! فحمّلته عليه؛ فانطلق وانطلقت معه نهرول، حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذُرّي عليّ، وأنا أحرِّك لكِ؛ وجعل ينفخ تحت القِدْر ـ وكان ذا لحية عظيمة ـ فجعلتُ أنظر إلى الدخان من خَلَل لحيته حتى أنضجَ وأدَمَ القِدرُ ثم أنزلها، وقال: ابغِني شيئاً، فأتته بصحْفة فأفرغها فيها، ثمّ جعل يقول: أطعميهم، وأنا أسطّح لك؛ فلم يزل حتى شبِعوا؛ ثم خلّى عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلتْ تقول: جزاك الله خيراً! أنت أوْلى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فيقول: قولي خيراً، إنك إذا جئتِ أمير المؤمنين وجدتِني هناك إن شاء الله. ثم تنحى ناحية عنها؛ ثم استقبلها ورَبض مربَض السّبُع، فجعلت أقول له: إنّ لك شأناً غير هذا، وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدؤوا، فقام وهو يحمَد الله، ثم أقبل عليّ فقال: يا أسلَم؛ إنّ الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألّا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم.

وكان عمر إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله، وتقدّم إليهم بالوعظ لهم، والوعيد على خلافهم أمره كالذي حدّثنا أبو كُريب محمد بن العلاء، قال: حدّثنا أبو بكر بن عيّاش، قال: حدّثنا عبيد الله بن عمر بالمدينة، عن سالم، قال: كان عمر إذا صعِد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإنّ الناس ينظرون إليكم نَظَر الطير ـ يعني إلى اللحم ـ وأقسم بالله لا أجدُ أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

قال أبو جعفر: وكان رضي الله عنه شديداً على أهل الرِّيَب، وفي حقّ الله صليباً حتى يستخرجه، وليّناً سهلاً فيما يلزمه حتى يؤدّيَه، وبالضعيف رحيماً رؤوفاً. حدّثني عبيد الله بن سعيد الزُّهريّ، قال: حدّثنا عمّي، قال: حدّثنا أبي، عن الوليد بن كثير، عن محمد بن عجلان، أنّ زيد بن أسلم حدّثه عن أبيه، أنّ نفراً من المسلمين كلّموا عبد الرحمن بن عوف، فقالوا: كلّم عمر بن الخطاب؛ فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا. قال: فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر، فقال: أوَقد قالوا ذلك! فوالله لقد لِنت لهم حتى تخوّفت الله في ذلك؛ ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله في ذلك، وايم الله لأنا أشدّ منهم فَرَقاً منهم منّي.

وحدّثنا أبو كُريب، قال: حَدّثنا أبو بكر، عن عاصم، قال: استعمل عُمَر رجلاً على مصر، فبينا عمر يوماً مارٌّ في طريق من طُرق المدينة إذْ سمع رجلاً وهو يقول: الله يا عمر! تستعمل مَن يخون وتقول: ليس عليّ

شيء، وعاملك يفعل كذا! قال: فأرسل إليه، فلما جاءه أعطاه عصاً وجُبّة صوف وغنماً، فقال: ارعها ـ واسمه عياض بن غَنْم ـ فإنّ أباك كان راعياً، قال: ثم دعاه، فذكر كلاماً، فقال: إن أنا رددتك! فردّه إلى عمله، وقال: لي عليك ألّا تلبس رقيقاً، ولا تركب بِرْذَوناً!

حدّثنا أبو كريب، قال: حدّثنا أبو أسامة، عن عبد الله بن الوليد، عن عاصم، عن ابن خزيمة بن ثابت الأنصاريّ، قال: كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألّا يركب برذوناً، ولا يأكلَ نقيًّا، ولا يلبس رقيقاً، ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس.

وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: حدّثنا مسلم بن إبراهيم، عن سلّام بن مسكين، قال: حدّثنا عمران، أنّ عمر بن الخطاب كان إذا احتاج أتى صاحب بيت المال، فاستقرضه؛ قال: فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه، فيحتال له عمر، وربما خرج عطاؤه فقضاه.

وعن أبي عامر العَقَدِيّ، قال: حدّثنا عيسى بن حفص، قال: حدّثني رجل من بني سِلمة، عن ابن البَراء بن معرور أن عمر رضي الله عنه خرج يوماً حتى أتى المنبر، وقد كان اشتكى شكوى له، فنعِت له العسل، وفي بيت المال عُكّة، فقال: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلّا فهي عليّ حرام.

تسمية عمر رضي الله عنه أمير المؤمنين

قال أبو جعفر: أوّلُ مَنْ دُعِيَ أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب؛ ثم جرت بذلك السنّة، واستعمله الخلفاء إلى اليوم.

ذكر الخبر بذلك:

حدّثني أحمد بن عبد الصمد الأنصاريّ، قال: حدثتْني أم عمرو بنت حسّان الكوفيّة، عن أبيها، قال: لما ولي عمر قيل: يا خليفة خليفة رسول الله، فقال عمر رضي الله عنه: هذا أمر يطول، كلّما جاء خليفة قالوا: يا خليفة خليفة خليفة رسول الله! بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمِّي أمير المؤمنين.

قال أحمد بن عبد الصمد: سألتها كم أتى عليكِ من السنين؟ قالت: مائة وثلاث وثلاثون سنة.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا يحيى بن واضح، قال: حدّثنا أبو حمزة، عن جابر، قال: قال رجل لعمر بن الخطاب: يا خليفة الله، قال: خالف الله بك! فقال: جعلني الله فداءك! قال: إذاً يُهينَك الله!

وضعه التأريخ

قال أبو جعفر: وكان أوّل مَن وضع التأريخ وكتبه ـ فيما حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، عن محمد بن عمر ـ في سنة ستّ عشرة في شهر ربيع الأول منها، وقد مضى ذكرى سبب كتابه ذلك؛ وكيف كان الأمر فيه.

وعمر رضي الله عنه أوّل مَنْ أرّخ الكتب، وخَتَم بالطين. وهو أوّل مَنْ جمع الناس على إمام يصلّي بهم

التراويح في شهر رمضان ،وكتب بذلك إلى البلدان، وأمرهم به، وذلك ـ فيما حدّثني به الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، عن محمد بن عمر ـ في سنة أربع عشرة، وجعل للناس قارئيْنِ: قارئاً يصلّي بالرجال وقارئاً يصلّي بالنساء.

حمله الدّرّة وتدوينه الدواوين

وهو أوّل مَن حمل الدّرّة، وضرب بها؛ وهو أوّل مَن دَوّن للناس في الإسلام الدواوين، وكتب الناس على قبائلهم، وفرض لهم العطاء.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: حدّثنا محمد بن عمر، قال: حدّثني عائذ بن يحيى، عن أبي الحويرِث، عن جُبَير بن الحُوَيْرث بن نُقَيد، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار المسلمين في تدوين الدواوين، فقال له عليّ بن أبي طالب: تقسم كلّ سنة ما اجتمع إليك من مال، فلا تمسِك منه شيئاً. وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يسعُ الناس، وإن لم يحصَوا حتى تعرِف مَن أخذ ممن لم يأخذ، خشيتُ أن ينتشر الأمر. فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أميرَ المؤمنين قد جئت الشأم، فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً، وجنّدوا جنداً، فدوِّن ديواناً، وجند جنداً. فأخذ بقوله، فدعا عَقِيل بن أبي طالب ومَخْرمة بن نوفل وجُبَير بن مطعِم، وكانوا من نسّاب قريش ـ فقال: اكتبوا الناس على منازلهم؛ فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم؛ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة؛ فلما نظر فيه عمر قال: لوددت والله أنه هكذا؛ ولكن ابدؤوا بقرابة رسول الله ﷺ؛ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

حدّثني الحارث، قال: حدثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدّه، قال: رأيتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين عُرِض عليه الكتاب، وبنو تَيْم على أثر بني هاشم وبنو عديّ على أثر بني تَيْم، فأسمعُه يقول: ضعوا عمر موضعه، وابدؤوا بالأقرب فالأقرب من رسول الله، فجاءت بنو عديّ إلى عمر، فقالوا: أنت خليفة رسول الله، قال: أو خليفة أبي بكر، وأبو بكر خليفة رسول الله، قالوا: وذاك، فلو جعلتَ نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم! قال: بخٍ بخٍ بني عديّ! أردتم الأكل على ظهري؛ وأن أذهِب حسناتي لكم! لا والله حتى تأتيَكم الدعوة، وإن أطبق عليكم الدِّفتر ولو أن تُكتَبوا في آخر الناس؛ إن لي صاحبين سَلَكا طريقاً، فإن خالفتهما خولف بي، والله ما أدركْنا الفضل في الدنيا، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة من ثواب الله على ما عملنا إلاّ بمحمّد ﷺ؛ فهو شرفنا، وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب؛ إن العرب شَرُفت برسول الله، ولعلّ بعضها يلقاه إلى آباء كثيرة. وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة؛ مع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أوْلى بمحمّد منّا يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى قَرابة، وليعمل لما عند الله، فإنَّ مَنْ قصّر به عملُه لم يُسرِع به نسبه.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني حزام بن هشام الكعبيّ، عن أبيه، قال: رأيتُ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يحمل ديوان خُزاعة حتى ينزل قُدَيداً، فنأتيه بقُدَيد، فلا يغيب عنه امرأة بِكرٌولاَ ثيّب، فيعطيهنّ في أيديهنّ، ثم يروح فينزل عُسفان، فيفعل مثل ذلك

أيضاً حتى تُوُفّيَ.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني عبد الله بن جعفر الزهريّ وعبد الملك بن سليمان، عن إسماعيل بن محمد بن سعد، عن السائب بن يزيد، قال: سمعتُ عمر بن الخطاب، يقول: والله الذي لا إله إلا هو؛ ثلاثاً؛ ما من أحد إلّا له في هذا المال حقّ أعطيَه أو مُنِعَه؛ وما أحد أحقّ به من أحد إلا عبد مملوك؛ وما أنا فيه إلّا كأحدهم؛ ولكنّا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ، والرجل وبلاؤه في الإسلام، والرّجل وقَدَمه في الإسلام، والرّجل وغنَاؤه في الإسلام، والرّجل وحاجته؛ والله لئن بقيتُ ليأتينّ الراعيَ بجبَل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو مكانه.

قال إسماعيل بن محمد: فذكرت ذلك لأبي، فعرف الحديث.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني محمد بن عبد الله عن الزهريّ، عن السائب بن يزيد، قال: رأيتُ خيلاً عند عمر بن الخطاب موسومة في أفخاذها: «حبيس في سبيل الله».

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني قيس بن الربيع، عن عطاء بن السائب، عن زاذان، عن سلمان؛ أنّ عمر قال له: أملِك أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين دِرهماً أو أقلّ أو أكثر؛ ثمّ وضعتَه في غير حقه؛ فأنت ملِك غير خليفة؛ فاستعبر عمر.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أسامة بن زيد، قال: حدّثني نافع مولى آل الزبير، قال: سمعتُ أبا هريرة يقول: يرحم الله ابن حَنْتمة! لقد رأيتُه عام الرّمادة؛ وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعُكّة زيت في يده؛ وإنه ليعتقِب هو وأسلم؛ فلمّا رآني قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً؛ فأخذت أعقبه؛ فحملناه حتى انتهينا إلى صِرار؛ فإذا صِرْم نحو من عشرين بيتاً من محارب، فقال عمر: ما أقدَمكم؟ قالوا: الجهد وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويًّا كانوا يأكلونه، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يستفّونها؛ فرأيت عمر طرح رداءه، ثم اتّزر، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، فأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبّانة، ثم كساهم. وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: أخبرني موسى بن يعقوب، عن عمه، عن هشام بن خالد، قال: سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: لا تَذُرّنّ إحداكنّ الدقيق حتى يسخن الماء ثم تذرّه قليلاً قليلاً، وتسوطه بمِسْوطها، فإنه أريَع له؛ وأحْرى ألّا يتقرّد.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن مصعب القرْقسانيّ، قال: حدّثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن راشد بن سعد؛ أنّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أتِيَ بمال؛ فجعل يقسمه بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس، حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدِّرّة، وقال: إنّك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض؛ فأحببتُ أن أعلمك أنّ سلطان الله لن يهابَك.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثنا عمر بن سليمان بن أبي حَثْمة، عن أبيه، قال: قالت الشّفا ابنة عبد الله ـ ورأيت فتياناً يقصِدون في المشي، ويتكلّمون رويداً،

فقالت: ما هذا؟ قالوا: نُسّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، هو والله النّاسك حقًّا.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، قال: حدّثنا عبد الله بن عامر، قال: أعان عمر رجلا على حَمْل شيء، فدعا له الرجل، وقال: نفعك بنوك يا أميرَ المؤمنين! فقال: بل أغناني الله عنهم.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، عن عمر بن مجاشع. قال: قال عمر بن الخطاب: القوّة في العمل ألّا تؤخّر عمل اليوم لغدٍ، والأمانة ألّا تخالف سريرة علانية؛ واتّقوا الله عزّ وجلّ، فإنما التقوَى بالتّوقّي، ومَنْ يتّق الله يقِه.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن عَوانة، عن الشعبيّ ـ وغير عوانة زاد أحدهما على الآخر ـ أنّ عمر رضي الله تعالى عنه كان يطوف في الأسواق، ويقرأ القرآن، ويقضِي بين الناس حيث أدركه الخصوم.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن محمد بن صالح، أنه سمع موسى بن عُقْبة يحدّث أنّ رهطاً أتوا عمر، فقالوا: كثر العيال، واشتدّت المؤونة، فزدنا في أعطياتنا، قال: فعلتموها، جمعتم بين الضرائر، واتّخذتم الخَدَم في مال الله عزّ وجلّ! أما والله لوددت أني وإيّاكم في سفينةٍ في لجّة البحر، تذهب بنا شرقاً وغرباً، فلن يُعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم؛ فإن استقام اتّبعوه، وإن جَنَف قتلوه، فقال طلحة: وما عليك لو قلت: إن تعوّج عزلُوه! فقال: لا، القتل أنْكَلُ لمن بعده؛ احذروا فتى قريش وابن كريمها الذي لا ينام إلّا على الرضا، ويضحك عند الغضب؛ وهو يتناول مَنْ فوقه ومَنْ تحته.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن عبد الله بن داود الواسطيّ، عن زيد بن أسلم، قال: قال عمر: كنا نعدّ المقرِض بخيلاً، إنما كانت المواساة.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن ابن دأب، عن أبي معبد الأسلميّ، عن ابن عباس، أنّ عمر قال لناس من قريش: بلغني أنكم تتّخذون مجالس؛ لا يجلس اثنان معاً حتى يقال: مَن صحابة فلان؟ مَن جلساء فلان؟ حتى تُحوميت المجالس؛ وايم الله إنّ هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم؛ ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول: هذا رأي فلان، قد قسموا الإسلام أقساماً؛ أفيضوا مجالسَكم بينكم، وتجالسوا معاً؛ فإنّه أدوم لألفتكم، وأهيَب لكم في الناس. اللهمّ ملّوني ومللتهم، وأحسست من نفسي وأحسُّوا مني؛ ولا أدري بأيّنا يكون الكوْن، وقد أعلم أن لهم قبيلاً منهم؛ فاقبضني إليك.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد، عن أبيه، قال: اتّخذ عبد الله بن أبي ربيعة أفراساً بالمدينة، فمنعَه عمر بن الخطاب، فكلّموه في أن يأذن له، قال: لا آذن له، إلّا أن يجيء بعلَفها من غير المدينة. فارْتبط أفراساً، وكان يحمل إليها عَلَفاً من أرض له باليمن.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدّثنا أبو إسماعيل الهمدانيّ، عن مجالد، قال: بلغني أنّ قوماً ذكروا لعمر بن الخطاب رجلاً؛ فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ فاضِل لا يعرف من الشرّ شيئاً، قال: ذاك أوقعُ له فيه!

ذكر بعض خطبه رضي الله تعالى عنه

حدّثني عمر، قال: حدّثني عليّ، عن أبي معشر، عن ابن المُنْكدر وغيره؛ وأبي معاذ الأنصاريّ عن

الزّهريّ، ويزيد بن عياض عن عبد الله بن أبي بكر، وعليّ بن مجاهد عن ابن إسحاق، عن يزيد بن عياض، عن عبد الله بن أبي إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أنّ عمر رضي الله تعالى عنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكّر الناس بالله عزّ وجلّ واليوم الآخر، ثم قال: يا أيّها الناس؛ إني قد وُلّيت عليكم، ولولا رجاءُ أن أكونَ خيرَكم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدّكم استضلاعاً بما ينوب من مُهِمّ أموركم، ما تولّيت ذلك منكم؛ ولكفى عمر مُهِمًّا محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها، ووضعها أين أضعها؛ وبالسير فيكم كيف أسير! فربّ المستعان؛ فإنّ عمر أصبح لا يثق بقوّة ولا حيلة إن لم يتداركْه الله عزّ وجلّ برحمته وعَوْنه وتأييده.

ثم خطب فقال:

إن الله عزّ وجلّ قد ولّاني أمرَكم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم؛ وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرُسني عنده، كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قَسْمكم كالذي أمر به؛ وإنّي امرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عزّ وجلّ، ولن يغيّر الذي وَلِيتُ من خلافتكم من خُلُقي شيئاً إن شاء الله؛ إنما العظمة لله عزّ وجلّ، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولنّ أحد منكم: إنّ عمر تغيّر منذ ولي. أعقِلُ الحقّ من نفسي وأتقدم؛ وأبيّن لكم أمري؛ فأيّما رجل كانت له حاجة أو ظُلِم مظلمة، أو عتب علينا في خلق؛ فليؤذنّي، فإنّما أنا رجل منكم؛ فعليكم بتقوى الله في سرّكم وعلانيتكم، وحُرماتكم وأعراضكم؛ وأعطوا الحقّ من أنفسكم؛ ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليّ؛ فإنّه ليس بيني وبين أحد من الناس هَوادة؛ وأنا حبيب إليّ صلاحكم، عزيز عليّ عَتَبُكم. وأنتم أناس عامّتكم حضرٌ في بلاد الله؛ وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضَرْع إلّا ما جاء الله به إليه. وإنّ الله عزّ وجلّ قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه؛ ومطّلع على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله؛ لا أكله إلى أحد؛ ولا أستطيع ما بعُد منه إلّا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامّة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله.

وخطب أيضاً، فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي ﷺ:

أيها الناس، إنّ بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنىً، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وأنتم مؤجّلون في دار غرور. كنتم على عهد رسول الله ﷺ، تؤخذون بالوحي، فمن أسرّ شيئاً أخِذ بسريرته، ومن أعلن شيئاً أخذ بعلانيته؛ فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم؛ والله أعلمُ بالسرائر؛ فإنه مَن أظهر شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدّقه، ومَنْ أظهر لنا علانية حسنة ظننّا به حسناً. واعلموا أنّ بعض الشحّ شعبة من النفاق، فأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومنْ يوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون.

أيّها الناس، أطيبوا مثواكم، وأصلحوا أمورَكم؛ واتّقوا الله ربكم، ولا تُلبسوا نساءكم القَباطِيّ؛ فإنه إن لم يشفّ فإنه يصف.

أيها الناس؛ إني لوددت أن أنجوَ كَفافاً لا لي ولا عليّ، وإني لأرجو إن عُمّرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحقّ فيكم إن شاء الله، وألّا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلّا أتاه حقُّه ونصيبه من مال الله، ولا يُعمِل إليه نفسه؛ ولم ينصُب إليه يوماً. وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله؛ ولَقليل في رفق خير من كثير في عنف، والقتل حَتْف من الحتوف، يصيب البرّ والفاجر، والشهيد مَن احتسب نفسه. وإذا أراد أحدكم بعيراً

فليعمِد إلى الطويل العظيم فليضرْبه بعصاه؛ فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره.

قالوا: وخطب أيضاً فقال:

إنّ الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر، واتّخذ عليكم الحجّ فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا؛ عن غير مسألة منكم له، ولا رغبة منكم فيه إليه، فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته، وكان قادراً أن يجعلكم لأهونِ خلقه عليه، فجعل لكم عامة خلقه، ولم يجعلكم لشيء غيره، وسخّر لكم ما في السّموات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وحَمَلكم في البرّ والبحر، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون.

ثم جعل لكم سمعاً وبصراً. ومِن نعَم الله عليكم نعم عمّ بها بني آدم؛ ومنها نعَم اختصّ بها أهل دينكم؛ ثم صارت تلك النعم خواصّها وعوامّها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم؛ وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرىء خاصة إلاّ لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها، وفدحهم حقها، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله؛ فأنتم مستخلَفون في الأرض، قاهرون لأهلها، قد نصر الله دينكم، فلم تصبحْ أمة مخالفة لدينكم إلاّ أمّتان؛ أمّة مستعبدة للإسلام وأهله، يجزون لكم، يُستصفَوْن معايشهم وكدائحهم ورشْح جباههم؛ عليهم المؤونة ولكم المنفعة، وأمّة تنتظر وقائع الله وسطواته في كلّ يوم وليلة؛ قد ملأ الله قلوبهم رعباً؛ فليس لهم معقل يلجؤون إليه، ولا مهرب يتّقون به، قد دهمتهم جنود الله عزّ وجلّ ونزلت بساحتهم، مع رفاغة العيش، واستفاضة المال، وتتابع البعوث، وسدّ الثغور بإذن الله، مع العافية الجليلة العامة التي لمَ تَكُن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام؛ والله المحمود؛ مع الفتوح العظام في كلّ بلد. فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين؛ مع هذه النعم التي لا يحصى عددها، ولا يقدَر قدرها، ولا يستطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه! فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا، أن يرزقنا العمل بطاعته؛ والمسارعة إلى مرضاته.

واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم، واستتِمّوا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى، فإنّ الله عزّ وجلّ قال لموسى: ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ﴾(١). وقال لمحمد ﷺ: ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ ﴾(٢)فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خيرَ الدنيا على شعبة من الحق، تؤمنون بها، وتستريحون إليها؛ مع المعرفة بالله ودينه، وترجون بها الخير فيما بعد الموت؛ لكان ذلك؛ ولكنكم كنتم أشدّ الناس معيشة، وأثبتهم بالله جهالة. فلو كان هذا الذي استشلاكم به لم يكن معه حظّ في دنياكم؛ غير أنه ثقة لكم في آخرتكم التي إليها المعاد والمنقلب؛ وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرياء أن تشحّوا على نصيبكم منه، وأن تظهروه على غيره؛ فبلْهَ ما إنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة، ومن شاء أن يجمع له ذلك منكم؛ فأذكّركم الله الحائل بين قلوبكم إلا ما عرفتم حقّ الله فعملتم له، وقسرتم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولانتقالها، ووجلاً منها ومن تحويلها، فإنه لا

---

(١) سورة إبراهيم: ٥.

(٢) سورة الأنفال: ٢٦.

شيء أسلب للنعمة من كُفرانها، وإنّ الشكر أمنٌ للغيَر، ونماء للنعمة؛ واستيجاب للزيادة؛ هذا لله عليّ من أمركم ونهيكم واجب.

مَن ندب عمر ورثاه رضي الله عنه

ذكر بعض ما رُثِي به

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدّثنا أبو عبد الله البُرجميّ، عن هشام بن عروة، أنّ باكية بكت على عمر، فقالت: واحرّى على عمر! حرّ انتشر، فملأ البشر. وقالت أخرى: واحرّى على عمر! حرّ انتشر، حتى شاع في البشر.

حدثني عمر، قال حدثنا عليّ، قال: حدّثنا ابن دأب وسعيد بن خالد، عن صالح بن كَيْسان، عن المغيرة بن شعبة، قال: لما مات عمر رضي الله عنه بكتْه ابنة أبي حَثْمة، فقالت: واعُمَراه! أقام الأوَد، وأبرأ العَمَد، أمات الفتن، وأحيا السُّنن؛ خرج نقيّ الثوب، بريئاً من العيب.

قال: وقال المغيرة بن شعبة: لما دفن عمر أتيت عليًّا وأنا أحبّ أن أسمع منه في عمر شيئاً، فخرج ينفض رأسَه ولحيته وقد اغتسل، وهو ملتَحف بثوب، لا يشكّ أنّ الأمر يصير إليه، فقال: يرحم الله ابن الخطاب! لقد صدقت ابنة أبي حَثْمة؛ لقد ذهب بخيرِها، ونجا من شرّها، أما والله ما قالت، ولكن قُوّلت.

وقالت عاتكة ابنة زيد بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

فَجَّعَني فَيروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ ... بأَبْيَضَ تالٍ للكتاب مُنيبِ
رَؤُوفٍ على الأدنى غَليظٍ على العِدَا ... أخي ثِقَةٍ في النائباتِ مُجيبِ
مَتَى ما يَقُلْ لا يُكْذِبِ القَوْلَ فِعْلُه ... سَريعٍ إلى الخَيراتِ غَيْرِ قَطوبِ

وقالت أيضاً:

عيْنِ جُودي بعَبْرَةٍ ونَحيبِ ... لا تَمَلّي على الإمام النجيبِ
فَجَعَتْني المَنونُ بالفارِس المُعـ ... ـلِم يَوْمَ الهياجِ والتَّلْبيبِ
عِصمةِ الناس والمُعينِ على الدَّهـ ... ـرِ وَغَيْثِ المُنتابِ والمَحْروبِ
قُلْ لِأَهْلِ السَّرَاءِ والبُؤسِ موتوا ... قد سَقَتْهُ المنونُ كَأْسَ شَعوبِ

وقالت امرأة تبكيه:

سَيَبْكِيكَ نساءُ الحـ ... ـيِّ يَبْكينَ شَجِيَّاتِ
ويَخْمِشْنَ وُجوهاً كَالـدَّ ... ـنانيرِ نَقِيَّاتِ
وَيَلْبَسْنَ ثيابَ الحزْ ... نِ بَعْدَ القَصَبِيَّاتِ

شيء من سيره ممّا لم يمض ذكره

حدّثنا عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، عن ابن جُعْدبة، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن سعيد بن المسيّب، قال: حجّ عمر، فلما كان بَضْجنان قال: لا إله إلا الله العظيم العليّ، المعطي ما شاء من

شاء! كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مِدْرعةِ صوف، وكان فظًّا يُتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصّرت، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد؛ ثم تمثل:

لا شَيْء فِيما تَرَى تَبْقى بَشَاشتُهُ ... يَبْقَى الإِلهُ وَيُودى المال والوَلَدُ
لَمْ تُغْن عَن هُرْمُزٍ يَوْماً خَزائنُهُ ... والخُلْدَ قد حاوَلَتْ عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سُلَيْمانُ إذْ تجري الرِّياحُ له ... والإِنسُ والجِنُّ فيما بَينها تَرِدُ
أين الملوكُ التي كانت نوافِلُها ... مِن كلِّ أَوْبٍ إليها راكِبٌ يَفِدُ
حَوْضاً هنالك مورودًا بلا كَذِبٍ ... لا بُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يَوْماً كما وَرَدُوا

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدّثنا أبو الوليد، المكّيّ، قال: بينما عمر جالس إذ أقبل رجل أعرج يقود ناقة تظلَع؛ حتى وقف عليه، فقال:

إنَّكَ مُسْتَرْعًى وَإنّا رَعِيَّةٌ ... وَإنَّكَ مَدْعُوٌّ بسيماك يا عُمَرْ
إذا يَوْمُ شَرّ شَرُّه لِشِرَارِهِ ... فَقَدْ حَمَّلَتْك اليَوْمَ أحْسابَها مُضَرْ

فقال: لا حول ولا قوّة إلّا بالله. وشكا الرجل ظلَع ناقته، فقبض عمر الناقة وحمله على جمل أحمر وزوّده؛ وانصرف. ثم خرج عمر في عقب ذلك حاجًّا، فبينا هو يسير إذ لحق راكباً يقول:

ما ساسَنا مِثْلُك يَابْنَ الخَطَّاب ... أَبَرُّ بالأَقْصَى ولا بالأصحاب
بَعْدَ النبيِّ صاحب الكتاب

فنخسه عمر بمخصرة معه، وقال: فأين أبو بكر!

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، عن محمد بن صالح، عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق، قال: استعمل عمر عُتْبة بن أبي سفيان على كنانة، فقدم معه بمال، فقال: ما هذا يا عتبة؟ قال: مال خرجت به معي وتجرت فيه، قال: ومالَكَ تخرج المال معك في هذا الوجه! فصيّره في بيت المال. فلما قام عثمان قال لأبي سفيان: إن طلبتَ ما أخذ عمر من عُتبة رددته عليه، فقال أبو سفيان: إنك إن خالفت صاحبك قبلك ساء رأيُ الناس فيك، إيّاك أن تردّ على من كان قبلك، فيردَّ عليك مَن بعدك.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الربيع بن النعمان وأبي المجالد جراد بن عمرو وأبي عثمان وأبي حارثة وأبي عمرو مولى إبراهيم بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قالوا: إنّ هند ابنة عُتبة قامت إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فاستقرضته من بيت المال أربعة آلاف تتّجر فيها وتضمنَها، فأقرضها، فخرجت فيها إلى بلاد كَلْب، فاشترت وباعت؛ فبلغها أنّ أبا سفيان وعمرو بن أبي سفيان قد أتيا معاوية، فعدلت إليه من بلاد كَلْب، فأتت معاوية، وكان أبو سفيان قد طلّقها، قال: ما أقدَمك أي أمّه؟ قالت: النّظر إليك أي بنيّ؛ إنه عمر؛ وإنما يعمل لله، وقد أتاك أبوك فخشيت أن تُخرج إليه من كلّ شيء؛ وأهل ذلك هو؛ فلا يعلم الناس من أين أعطيته فيؤنّبونك ويؤنّبك عمر، فلا يستقيلها أبداً، فبعث إلى أبيه وإلى أخيه بمائة دينار، وكساهما وحملها، فتعظّمها عمرو؛ فقال أبو سفيان؛ لا تَعظّمها؛ فإنّ هذا عطاء لم تغب عنه هند، ومشورة قد حضرتها هند، ورجعوا جميعاً، فقال أبو سفيان لهند: أربحتِ؟ فقالت: الله أعلم، معي تجارة إلى

المدينة. فلما أتت المدينة وباعت شكت الوضيعة، فقال لها عمر: لو كان مالي لتركتُه لك، ولكنه مال المسلمين، وهذه مشورة لم يَغِب عنها أبو سفيان، فبعث إليه فحبسه حتى أوفتْه، وقال لأبي سفيان: بكم أجازك معاوية؟ فقال: بمائة دينار.

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن مسلمة بن محارب، عن خالد الحذّاء! عن عبد الله بن أبي صعصعة عن الأحنف، قال: أتى عبد الله بن عمير عمر؛ وهو يفرض للناس ـ واستشهد أبوه يوم حُنين ـ فقال: يا أمير المؤمنين، افرض لي؛ فلم يلتفت إليه، فنخسه، فقال عمر: حسٍّ! وأقبل عليه فقال: مَن أنت؟ قال: عبد الله بن عمير، قال: يا يرفأ، أعطه ستمائة، فأعطاه خمسمائة، فلم يقبلها، وقال: أمرَ لي أمير المؤمنين بستمائة، ورجع إلى عمر فأخبره، فقال عمر: يا يرفأ، أعطِه ستمائة وحُلّة، فأعطاه فلبس الحلّة التي كساه عمر، ورمى بما كان عليه، فقال له عمر: يا بُنيّ، خذ ثيابك هذه فتكون لمهنة أهلك، وهذه لزينتك.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي، قال حدّثنا أبو الوليد المكيّ، عن رجل من ولد طلحة، عن ابن عبّاس، قال: خرجت مع عمر في بعض أسفاره، فإنا لنسير ليلة، وقد دنوت منه، إذ ضرب مقدّم رحله بسوطه، وقال:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ ٱللهِ يُقْتَلُ أَحْمَدُ ... ولمّا نُطاعِن دونَه ونناضِلِ
ونُسلِمُه حتى نُصَرَّعَ حولَه ... ونَذْهَلَ عن أبنائِنا والحلائِلِ

ثم قال، أستغفر الله، ثم سارَ فلم يتكلم قليلا، ثم قال:

ومَا حَمَلَتْ مِن ناقةٍ فَوْقَ رَحْلِها ... أَبَرَّ وأوْفى ذِمَّةً من مُحَمَّدِ
وأكْسَى لِبُرْدِ الخالِ قَبْلَ ابْتِذالِهِ ... وأعْطَى لِرأسِ السابقِ المُتَجَرِّدِ

ثم قال: أستغفر الله، يابن عباس، ما منع عليًّا من الخروج معنا؟ قلت: لا أدري، قال: يابن عباس، أبوك عمّ رسول الله ﷺ، وأنت ابن عمه، فما منع قومكم منكم؟ قلت: لا أدري، قال: لكني أدري؛ يكرهون ولايتكم لهم! قلت: لم، ونحن لهم كالخير؟ قال: اللهمّ غفراً، يكرهون أن تجتمع فيكم النبوّة والخلافة، فيكون بَجحاً بجحاً، لعلكم تقولون: إن أبا بكر فعل ذلك، لا والله ولكن أبا بكر أتى أحزم ما حضره، ولو جعلها لكم ما نفعكم مع قربكم، أنشدني لشاعر الشعراء زهير قوله:

إذا ابْتَدَرَتْ قَيْسُ بنُ عَيْلانَ غايَةً ... مِنَ المَجْدِ مَنْ يَسْبِقْ إليْها يُسَوَّدُ

فأنشدته وطلع الفجر، فقال: اقرأ «الواقعة»، فقرأتها، ثم نزل فصلى، وقرأ بالواقعة.

حدّثني ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق. عن رجل، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض أصحابه يتذاكرون الشعر، فقال بعضهم: فلان أشعر؛ وقال بعضهم: بل فلان أشعر، قال: فأقبلت، فقال عمر: قد جاءكم أعلم الناس بها، فقال عمر: مَنْ شاعر الشعراء يابن عباس؟ قال: فقلت: زهير بن أبي سُلمى، فقال عمر: هلمّ مِنْ شعره ما نستدلّ به على ما ذكرت؛ فقلت: امتدح قوماً من بني عبد الله بن غَطَفان، فقال:

لو كان يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرمٍ ... قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أو مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
قَوْمٌ أبوهُمْ سِنانٌ حين تَنْسُبُهُمْ ... طابوا وطابَ مِنَ الأَوْلادِ ما وَلَدُوا

إنْسٌ إذا أمِنــوا، جِـنٌّ إذا فـزعــوا   مُـرَزَّؤونَ بـهــا لـيــلٌ إذا حــشــدُوا
محَسَّــدون على مــا كــانَ من نِـعَـمٍ   لا يَـنْـزِعُ اللهُ مِنْهُمْ مــالَــه حُسِــدوا

فقال عمر: أحسن؛ وما أعلم أحداً أولَى بهذا الشعر من هذا الحيّ من بني هاشم! لفضل رسول الله ﷺ وقرابتهم منه، فقلت: وفِّقت يا أمير المؤمنين، ولم تزل موفّقاً، فقال: يابن عباس، أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمد؟ فكرهتُ أن أجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يُدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة، فتبجحوا على قومكم بَجَحاً بجَحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووُفِّقتْ. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إن تأذن لي في الكلام، وتُمِطْ عني الغضب تكلمتُ. فقال: تكلم يابن عباس،فقلت: أمّا قولك يا أميرَ المؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فلو أنّ قريشاً اختارت لأنفسهـا حيث اختار الله عزّ وجلّ لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. وأما قولك: إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوّة والخلافة، فإنّ الله عزّ وجلّ وصف قوماً بالكراهية فقال: ﴿ذَلِكَ بأنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أنْزَلَ اللهُ فَأحْبَطَ أعْمَالَهُمْ﴾(١) . فقال عمر: هيهات والله يابن عباس! قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفُرّك عنها، فتزيل منزلتك مني؛ فقلت: وما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقًّا فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلا فمثلي أماط الباطل عن نفسه، فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنا حسداً وظلماً!فقلت: أمّا قولـك يا أمير المؤمنـين؛ ظلماً؛ فقد تبـيّن للجاهـل والحليم، وأما قـولك: حسـداً، فإنّ إبليس حسـد آدم؛ فنحن ولده المحسودون؛ فقال عمر: هيهات! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسداً ما يحول، وضِغْناً وغشًّا ما يزول. فقلت: مهلا يا أمير المؤمنين؛ لا تصِف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بالحسد والغشّ، فإنّ قلب رسول الله ﷺ من قلوب بني هاشم. فقال عمر: إليك عني يابن عباس، فقلت: أفعل؛ فلما ذهبت لأقوم استحيا منّي فقال: يابن عباس، مكانَك، فوالله إني لراعٍ لحقّك، محبّ لما سرّك؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ لي عليك حقًّا وعلى كلّ مسلم، فمن حفظه فحظَّه أصاب، ومن أضاعه فحظَّه أخطأ. ثم قام فمضى.

حدّثني أحمد بن عمرو، قال: حـدّثنا يعقوب بن إسحاق الحضرميّ، قال: حدّثنا عِكْرمة بن عمّار، عن إياس بن سلَمة، عن أبيه، قال: مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدّرّة، فخفقني بها خفقة، فأصاب طرف ثوبي، فقال: أمِطْ عن الطريق، فلما كان في العام المقبل لقيَني فقال: يا سلمة، تريد الحجّ؟ فقلت: نعم، فأخذ بيدي، فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم، وقال: استعن بها على حجّك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك؛ قلت: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها! قال: وأنا ما نسيتُها.

حدثني عبد الحميد بن بيان، قال: أخبرنا محمد بن يزيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سلمة بن كُهَيل، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أيّها الرعيّة: إن لنا عليكم حقّا. النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير؛ إنه ليس من حلم أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعاً من حلم إمام ورفقه. أيها الرعيّة؛ إنه ليس من جهل أبغض إلى الله ولا أعمّ شرًّا من جهل إمام وخُرْقه. أيها الرعيّة، إنه مَنْ يأخذ بالعافية لمن بين ظهرانَيْه، يؤتِي الله العافية من فوقه.

حدّثني محمد بن إسحاق، قال: حدّثنا يحيى بن معين، قال: حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا

---

(١) سورة محمد: ٩.

عيسى بن يزيد بن دأب؛ عن عبد الرحمن بن أبي زيد، عن عمران بن سواده، قال: صليت الصبح مع عمر، فقرأ: «سبحان» وسورة معها، ثم انصرف وقمت معه، فقال: أحاجة؟ قلت: حاجة، قال: فالحقْ، قال: فلحقت؛ فلما دخل أذن لي؛ فإذا هو على سرير ليس فوقه شيء، فقلت: نصيحة، فقال: مرحباً بالناصح غدوّاً وعشيّاً؛ قلت: عابت أمتك منك أربعاً، قال: فوضع رأس دِرّته في ذقنه، ووضع أسفلها على فخذه، ثم قال: هاتِ؛ قلت: ذكروا أنك حرّمت العُمْرة في أشهر الحجّ، ولم يفعل ذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه؛ وهي حلال، قال: هي حلال، لو أنهم اعتمرُوا في أشهر الحجّ رأوها مجزيةً من حجِّهم؛ فكانت قائبةَ قُوبٍ عامها، فَقَرِع حجُّهم، وهو بَهاء من بهاء الله، وقد أصبتَ. قلت: وذكروا أنك حرّمت مُتْعة النساء وقد كانت رُخصة من الله نستمتع بقُبْضة ونفارق عن ثلاث. قال: إنّ رسولَ الله ﷺ أحلّها في زمان ضرورة، ثمّ رجع الناس إلى السَّعة، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عمل بها ولا عاد إليها، فالآن مَنْ شاء نكح بقُبضة وفارق عن ثلاث بطلاق، وقد أصبت. قال: قلت: وأعتقتَ الأمَة أن وضعتْ ذا بطنها بغير عتاقة سيّدها، قال: ألحقتُ حرمة بحرمة، وما أردت إلّا الخير، وأستغفر الله. قلت: وتشكَّوْا منك نَهْر الرعيّة وعُنْف السيَاق. قال: فشرع الدّرة، ثم مسحها حتى أتى على آخرها، ثم قال: أنا زميل محمد ـ وكان زَاملَه في غزوة قرقرة الكُدْر ـ فوالله إنّي لأرتع فأشبع، وأسقي فأروِي، وأنهز اللَّفوت، وأزجر العَروض، وأذبّ قدْرِي، وأسوق خَطْوي، وأضمّ العَنود، وألحِق القَطوف، وأكثِر الزّجر، وأقِلّ الضرب، وأشهِر العصا؛ وأدفع باليد؛ لولا ذلك لأغدَرت. قال: فبلغ ذلك معاوية، فقال: كان والله عالماً برعيّتهم.

حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا ابن عُلَيّة، عن ابن عون، عن محمد، قال: نُبِّئت أن عثمان قال: إنّ عمر كان يمنع أهله وأقرباءه ابتغاء وجه الله، وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله، ولن يُلقَى مثل عمر ثلاثة.

وحدّثني عليّ بن سهل، قال: حدّثنا ضَمْرة بن ربيعة، عن عبد الله بن أبي سليمان، عن أبيه، قال: قدمت المدينة، فدخلت داراً من دُورِها، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليه إزار قِطْريّ، يدهُن إبلَ الصدقة بالقَطِران.

وحدّثنا ابنُ بشار، قال: حدّثنا عبد الرحمن، قال: حدّثنا سُفيان، عن حبيب، عن أبي وائل، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، لأخذت فضولَ أموال الأغنياء، فقسمتها على فقراء المهاجرين.

وحدّثنا ابن بشار، قال: حدّثنا عبدُ الرحمن بن مهديّ، قال: حدّثنا منصور بن أبي الأسود، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود بن يزيد، قال: كان الوفد إذا قدِموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم، فيقولون خيراً، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم؛ فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم، فيقول: كيف صنيعه بالضّعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عَزله.

وحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدثنا الحكم بن بشير، قال: حدّثنا عمرو، قال: كان عمر بن الخطاب يقول: أربع من أمر الإسلام لست مضيِّعهنّ ولا تاركهنّ لشيء أبداً: القوّة في مال الله وجمعه حتّى إذا جمعناه وضعناه حيث أمر الله، وقعدنا آلَ عمر ليس في أيدينا ولا عندنا منه شيء. والمهاجرون الذين تحت ظلال السيوف؛ ألّا

يحبَسوا ولا يجمَّروا، وأن يوفَّر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم، وأكون أنا للعيال حتى يقدَموا. والأنصار الذين أعطوا الله عزّ وجلّ نصيباً، وقاتلوا الناس كافة؛ أن يقبَل من محسنهم، ويُتجاوَز عن مسيئهم؛ وأن يُشاوروا في الأمر. والأعراب الذين هم أصل العرب ومادة الإسلام؛ أن تؤخذ منهم صدقتهم على وجهها؛ ، ولا يؤخذ منهم دينار ولا درهم، وأن يردّ على فقرائهم ومساكينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن ابن جُرَيج، عن نافع، عن عبد الله بن عمر، قال: قال عمر: إنّي لأعلم أنّ الناس لا يعدلون بهذَين الرّجلين اللذَيْن كان رسول الله ﷺ يكون نجيّاً بينهما وبين جبريل يتبلَّغ عنه ويُملّ عليهما.

قصة الشورى

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، عن وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم ومحمد بن عبد الله الأنصاريّ، عن ابن أبي عَروبة، عن قتادة، عن شهر بن حَوْشب وأبي مخنف، عن يوسف بن يزيد، عن عباس بن سهل ومبارك بن فَضالة، عن عبيد الله بن عمر ويونس بن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأوديّ؛ أنّ عمر بن الخطاب لما طُعِن قيل له: يا أميرَ المؤمنين؛ لو استخلفت! قال: مَنْ أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجرّاح حيًّا استخلفته؛ فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيّك يقول: «إنه أمين هذه الأمّة»، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا استخلفته، فإن سألني ربّي قلت: سمعت نبيّك يقول: «إنّ سالماً شديد الحبّ لله». فقال له رجل: أدلّك عليه؟ عبدالله بن عمر، فقال: قاتلك الله؛ والله ما أردتَ الله بهذا، ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته! لا أرَبَ لنا في أموركم، ما حمِدتُها فأرغَب فيها لأحد من أهل بيتي؛ إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شرًّا فشرعُنا آلَ عمر؛ بحسب آل عمر أن يحاسَب منهم رجل واحد؛ ويُسأل عن امر أمة محمد؛ أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي؛ وإن نجوتُ كَفافا لا وِزْر ولا أجر إني لسعيد؛ وأنظر فإن استخلفتُ فقد استخلف مَن هو خير منّي، وإن أترك فقد ترك مَنْ هو خير مني، ولن يضيّع الله دينه. فخرجوا ثم راحوا، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين؛ لو عهدتَ عهداً! فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولِّيَ رجلاً أمرَكم؛ هو أحراكم أن يحملكم على الحقّ - وأشار إلى عليّ - ورهِقتْني غَشية، فرأيت رجلاً دخل جنة قد غرسها، فجعل يقطف كل غضّة ويانعة فيضمّه إليه ويصيّره تحته؛ فعلمتُ أنّ الله غالب أمره، ومتوفٍّ عمر؛ فما أريد أن أتحمّلها حيًّا وميتاً؛ عليكم هؤلاء الرّهط الذين قال رسول الله ﷺ: «إنهم من أهل الجنة»؛ سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل منهم؛ ولست مدخله؛ ولكن الستّة: عليّ وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ، والزُّبير بن العوّام حواريّ رسول الله ﷺ وابن عمته، وطلحة الخير بن عبيدالله؛ فلْيختاروا منهم رجلاً؛ فإذا ولَّوا والياً فأحسِنوا مؤازرته وأعينوه، إن ائتمن أحداً منكم فليؤدّ إليه أمانته وخرجوا، فقال العباس لعليّ: لا تدخل معهم، قال: أكره الخلاف، قال: إذاً ترى ما تكره! فلما أصبح عمر دعا عليًّا وعثمان وسعداً وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوّام، فقال: إنّي نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم؛ ولا يكون هذا الأمر إلّا فيكم؛ وقد قبِض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ؛ إنّي لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم؛ ولكنّي أخافُ عليكم اختلافَكم فيما بينكم، فيختلف الناس، فانهضوا إلى حُجْرة عائشة بإذنٍ منها، فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم. ثم قال: لا تدخلوا حجرة عائشة؛ ولكن كونوا قريباً، ووضع رأسه وقد نَزَفه الدم.

فدخلوا فتناجوْا، ثم ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله! إنّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد؛ فأسمعَه فانتبه فقال: ألا أعرضوا عن هذا أجمعون؛ فإذا متُّ فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصلّ بالناس صهيب، ولا يأتينّ اليوم الرابع إلّا وعليكم أمير منكم؛ ويحضر عبدُ الله بن عمر مشيراً، ولا شيء له من الأمر؛ وطلحة شريككم في الأمر؛ فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم؛ وإن مَضت الأيّام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، ومَنْ لي بطلحة؟ فقال سعد بن أبي وقاص: أنا لك به؛ ولا يخالف إن شاء الله. فقال عمر: أرجو ألّا يخالف إن شاء الله؛ وما أظنّ أن يليَ إلّا أحدُ هذين الرجلين: عليّ أو عثمان؛ فإن وليَ عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي عليّ ففيه دُعابة، وأحْرِ به أن يحملَهم على طريق الحقّ؛ وإن تولوا سعداً فأهلها هو؛ وإلّا فليستعن به الوالي؛ فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف؛ ونِعْم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف! مسدّد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنصاريّ: يا أبا طلحة، إنّ الله عزّ وجلّ طالما أعزّ الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار؛ فاستحِثّ هؤلاء الرّهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حُفْرتي فاجمع هؤلاء الرّهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم، وقال لصُهيب: صلّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل عليّاً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم؛ وأحضِر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر؛ وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضُوا رجلاً وأبى واحد فاشدَخْ رأسه ـ أو اضرب رأسه بالسيف ـ وإن اتّفق أربعة فرضُوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، فإن رضيَ ثلاثةٌ رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم، فحكّموا عبدَ الله بن عمر؛ فأيّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم؛ فإن لم يرضْوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس.

فخرجوا، فقال عليّ لقوم كانوا معه من بني هاشم: إن أطيع فيكم قومُكم لم تؤمّروا أبداً. وتلقّاه العباس، فقال: عدلَتْ عَنّا! فقال: وما علمك؟ قال: قرِن بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإنرضيَ رجلان رجلاً، ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف؛ فسعد لا يخالف ابنَ عمّه عبد الرحمن؛ وعبد الرحمن صهر عثمان؛ لا يختلفون، فيولّيها عبدُ الرحمن عثمانَ، أو يوليها عثمانُ عبد الرحمن؛ فلو كان الآخرَان معي لم ينفعاني؛ بلْه إني لا أرجو إلّا أحدهما. فقال له العباس: لم أرفعْك في شيء إلّا رجعت إليّ مستأخراً بما أكره؛ أشرتُ عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أنْ تسألَه فيمن هذا الأمر؛ فأبيتَ، وأشرتُ عليك بعد وفاته أن تعاجلَ الأمر فأبيت، وأشرتُ عليك حين سمّاك عمر في الشورى ألّا تدخل معهم فأبيتَ؛ احفظ عنّي واحدة؛ كلّما عرض عليك القوم، فقل: لا، إلّا أن يولّوك؛ واحذر هؤلاء الرّهط، فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا، وايمُ الله لا يناله إلا بشرٌ لا ينفع معه خير. فقال عليّ: أما لئن بقي عثمان لأذكّرنه ما أتى ولئن مات ليَتداولنّها بينهم، ولئن فعلوا ليجدنّي حيث يكرهون؛ ثم تمثل:

حَلَفْتُ بِرَبِّ الراقِصاتِ عشيَّةً ... غَدَوْنَ خِفافاً فابْتَدَرْنَ المُحَصَّبا
لَيَختَلِيَنْ رَهْطُ ابْنِ يَعْمَرَ مارِئاً ... نَجِيعاً بنو الشُّدَّاخِ وِرْداً مُصلَّبا

والتفت فرأى أبا طلحة فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لم تُرَعْ أبا الحسن. فلمّا مات عمر وأخرجت جنازته، تصدّى عليّ وعثمان: أيُهما يصلي عليه، فقال عبد الرحمن: كلاكما يحبُّ الإمْرة، لستما من هذا في شيء؛

هذا إلى صهيب، استخلفه عمر، يصلّي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام. فصلّى عليه صُهيب، فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشُّورى في بيت المِسْوَر بن مخرَمة ـ ويقال في بيت المال، ويقال في حجرة عائشة بإذنها ـ وهم خمسة، معهم ابنُ عمر، وطلحة غائب؛ وأمروا أبا طلحة أن يحجُبَهم، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما، وقال: تريدان أن تقولا: حضرنا وكنّا في أهل الشورى! فتنافس القوم في الأمر؛ وكثر بينهم الكلام؛ فقال أبو طلحة: أنا كنت لأنْ تدفعوها أخوفَ منّي لأن تَنافسوها! لا والذي ذهب بنفس عمر؛ لا أزيدكم على الأيّام الثلاثة التي أمِرتم، ثم أجلس في بيتي؛ فأنظر ما تصنعـون! فقال عبد الرحمن: أيُّكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلَكم؟ فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها؛ فقال عثمان: أنا أوّل من رضي، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أمين في الأرض أمين في السماء»، فقال القوم: قد رضينا ـ وعليّ ساكت ـ فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: أعطِني موثقاً لتؤثرنّ الحقّ ولا تتّبع الهوى، ولا تخصّ ذا رحم، ولا تألوا الأمة! فقال: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على مَنْ بدّل وغيّر، وأن ترضوا من اخترت لكم، عليّ ميثاق الله ألاّ أخصّ ذارِحِم لرحمه، ولا آلو المسلمين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعليّ، إنك تقول: إني أحقُّ من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدّين ولم تبعد؛ ولكن أرأيت لو صرِف هذا الأمر عنك فلم تحضر، مَن كنت ترى من هؤلاء الرّهط أحقّ بالأمر؟ قال: عثمان. وخلا بعثمان؛ فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف؛ وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه، لي سابقة وفَضْل ـ لم تبعد ـ فلن يصرف هذا الأمر عني، ولكن لو لم تحضر فأيّ هؤلاء الرهط تراه أحقّ به؟ قال: عليّ. ثم خلا بالزّبير، فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان؛ فقال: عثمان ثم خَلا بسعد، فكلمه، فقال: عثمان. فلقي عليّ سعداً، فقال: ﴿واتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنّ الله كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً﴾، أسألك برحِم ابني هذا من رسول الله ﷺ، وبرحِم عمّي حمزة منك ألاّ تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً عليّ؛ فإني أدْلي بما لا يُدْلي به عثمان. ودار عبد الرحمن لياليه يلقي أصحاب رسول الله ﷺ ومَن وافَى المدينة من أمـراء الأجناد وأشـراف الناس، يشاورهم، ولا يخلُو برجل إلا أمره بعثمان؛ حتى إذا كانت الليلة التي يُستكمل في صبيحتها الأجلُ، أتى منزل المِسْوَر بن مخرمة بعد ابهيرار من الليل؛ فأيقظه فقال: ألا أراك نائماً ولم أذق في هذه الليلة كثير غُمْض! انطلق فادعُ الزبير وسعداً.

فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصُّفَّة التي تلي دارَ مروان، فقال له: خلّ ابنَيْ عبد مناف وهذا الأمر، قال: نصيبي لعليّ، وقال لِسعد: أنا وأنت كَلالة، فاجعل نصيبك لي فأختار، قال: إن اخترتَ نفسك فنعم، وإن اخترتَ عثمان فعليّ أحبّ إليّ؛ أيها الرجل بايع لنفسك وأرحْنا، وارفع رؤوسنا، قـال: يا أبـا إسحاق؛ إني قد خلعتُ نفسي منها علي أن أختار، ولو لم أفعل وجُعل الخيار إليّ لم أرِدْها، إني أرِيت كروضة خضراء كثيرة العُشْب، فدخل فحلٌ فلم أر فحلا قطّ أكرمَ منه، فمرّ كأنه سهم لا يلتفت إلى شيء مما في الرّوْضة حتى قطعها، لم يعرّج. ودخل بعير يتلوه فاتبّع أثره حتى خرج من الروضة، ثم دخل فحل عبقريٌّ يجرّ خِطامه، يلتفت يميناً وشمالاً ويمضي قَصْد الأولين حتى خرج، ثمّ دخل بعير رابع فرتَع في الرّوْضة؛ ولا والله لا أكون الرابع؛ ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحدٌ فيرضى الناس عنه. قال سعد: فإني أخافُ أن يكون الضّعف قد أدركك، فامضِ لرأيك؛ فقد عرفت عهد عمر.

---

(١) سورة النساء: ١.

وانصرف الزبير وسعد؛ وأرسل المِسْور بن مخرمة إلى عليّ، فناجاه طويلاً؛ وهو لا يشكّ أنه صاحب الأمر، ثم نهض؛ وأرسل المسوَر إلى عثمان. فكان في نجيّهما؛ حتى فرّق بينهما أذان الصبح. فقال عمرو بن ميمون: قال لي عبد الله بن عمر: يا عمرو، مَنْ أخبرك أنه يعلم ما كلّم به عبد الرحمن بن عوف عليّاً وعثمان فقد قال بغير علم؛ فوقع قضاء ربّك على عثمان. فلما صلوا الصبح جمع الرهط، وبعث إلى مَن حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى التجّ المسجد بأهله، فقال: أيُّها الناس، إنّ الناس قد أحبّوا أن يلحق أهلُ الأمصار بأمصارهم وقد علموا مَن أميرُهم. فقال سعيد بن زيد: إنّا نراك لها أهلاً، فقال: أشيروا عليّ بغير هذا، فقال عمّار: إن أردت ألّا يختلف المسلمون فبايع عليّاً. فقال المقداد بن الأسود: صَدق عمّار؛ إن بايعت عليّاً قلنا: سمعنا وأطعنا، قال ابنُ أبي سرح: إن أردت ألّا تختلف قريش فبايع عثمان. فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صَدق؛ إن بايعتَ عثمان قلنا: سمعنا وأطعنا. فشتم عمّار ابن أبي سَرْح، وقال: متى كنت تنصح المسلمين!

فتكلم بنو هاشم وبنو أميّة، فقال عمار: أيُّها الناس؛ إنّ الله عزّ وجلّ أكرمنا بنبيّه، وأعزّنا بدينه، فأنّى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم! فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوتَ طورَك يابن سميّة؛ وما أنت وتأمير قريش لأنفسها! فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن، افرغ قبل أن يفتتن الناس، فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلُنّ أيها الرهط على أنفسكم سبيلا. ودعا عليًّا، فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعْمَلنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي؛ ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعليّ، قال: نعم، فبايعه، فقال عليّ: حبوتَه حَبْوَ دهر؛ ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا؛ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون؛ والله ما ولّيتَ عثمان إلا ليردّ الأمر إليك؛ والله كلّ يوم هو في شأن؛ فقال عبد الرحمن: يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً؛ فإني قد نظرت وشاورتُ الناس؛ فإذا هم لا يعدلون بعثمان. فخرج عليّ وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله. فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركتَه من الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون. فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدتُ للمسلمين؛ قال: إن كنتَ أردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين. فقال المقداد: ما رأيتُ مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم. إني لأعجب من قريش أنّهم تركوا رجلاً ما أقول إنّ أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل؛ أما والله لو أجد عليه أعواناً! فقال عبد الرحمن: يا مقداد؛ اتّق الله؛ فإني خائف عليك الفتنة، فقال رجل للمقداد: رحمك الله! مَن أهل هذا البيت ومَن هذا الرجل؟ قال: أهل البيت بنو عبد المطلب، والرجل عليّ بن أبي طالب. فقال عليّ: إنّ الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: إن وُلّيَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم. وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان، فقيل له: بايع عثمان، فقال: أكلّ قريش راضٍ به؟ قال: نعم، فأتى عثمانَ فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك، إن أبيتَ رددتُها، قال: أتردّها؟ قال: نعم؛ قال: أكلّ الناس بايعوك؟ قال: نعم، قال: قد رضيتُ؛ لا أرغب عمّا قد أجمعوا عليه، وبايعه.

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن: يا أبا محمد، قد أصبتَ إذ بايعتَ عثمان! وقال لعثمان: لو بايع عبد الرحمن غيرَك ما رضينا، فقال عبد الرحمن: كذبت يا أعور؛ لو بايعتُ غيره لبايعتَه، ولقلتَ هذه المقالة.

وقال الفرزدق؛

صلَّى صُهَيْبٌ ثـلاثـاً ثـمَّ أرْسَلَهـا ... على ابنِ عَفَّـانَ مُلْكاً غيـر مقصـور
خـلافـةً من أبي بكـر لصـاحبِـهِ ... كـانـوا أخِـلَّاءَ مَـهْـدِيٍّ ومـأمـورِ

وكان المِسْوَر بن مخرَمة يقول: ما رأيت رجلاً بذّ قوماً فيما دخلوا فيه بأشدّ مما بذّهم عبد الرحمن بن عوف.

قال أبو جعفر: وأما المِسْوَر بن مخرمة، فإنّ الرواية عندنا عنه ما حدّثني سلْم بن جُنادة أبو السائب، قال: حدّثنا سُليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، قال: حدّثنا أبي، عن عبد الله بن جعفر، عن أبيه، عن المِسْوَر بن مخرمة ـ وكانت أمه عاتكة ابنة عوف ـ في الخبر الذي قد مضى ذكرى أولَه في مقتل عمر بن الخطّاب؛ قال: ونزل في قبره ـ يعني في قبر عمر ـ الخمسة، يعني أهل الشورى. قال: ثم خرجوا يريدون بيوتهم؛ فناداهم عبد الرحمن: إلى أين؟ هلمّوا! فتبعوه، وخرج حتى دخل بيت فاطمة ابنة قيس الفهريّة، أخت الضحّاك بن قيس الفهريّ ـ قال بعض أهل العلم: بل كـانت زوجتُه؛ وكـانت نَجوداً، يريد ذات رأي ـ قال: فبدأعبد الرحمن بالكلام، فقال: يا هؤلاء؛ إنّ عندي رأياً؛ وإنّ لكم نظراً؛ فاسمعوا تعلّموا، وأجيبوا تفقهوا؛ فإنّ حابياً خير من زاهق؛ وإن جُرعةً من شَرُوب بارد أنفع من عذب مُوبٍ؛ أنتم أئمة يهتدى بكم؛ وعلماء يصدَر إليكم؛ فلا تفلّوا المُدَى بالاختلاف بينكم، ولا تُغمِدوا السيـوف عن أعدائكم؛ فتُوتِروا ثأركم، وتؤلتوا أعمالكم؛ لكلّ أجل كتاب؛ ولكل بيت إمـام بأمـره يقومــون، وبنهيه يَرعون. قلّدوا أمركم واحداً منكم تمشوا الهوينى وتلحقوا الطلب؛ لولا فتنة عمياء، وضلالة حيراء؛ يقول أهلها ما يرون، وتحلّهم الحَبَوْكَرَى. ما عدَتْ نيّاتكم معرفتكم، ولا أعمالكم نياتكم. احذروا نصيحة الهوى، ولسان الفُرْقة؛ فإنّ الحيلة في المنطق أبلغُ من السيوف في الكلْم؛ علِّقوا أمركم رَحْبَ الذراع فيما حلّ، مأمونَ الغيب فيما نزل، رضاً منكم وكلكم رضاً، ومقترَعاً منكم وكلّكم منتهىً، لا تطيعوا مفسداً ينتصح؛ ولا تخالفوا مرشداً ينتصر؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلّم عثمان بن عفان، فقال: الحمدُ لله الذي اتّخذ محمّداً نبيّاً، وبعثه رسولاً، صدقه وعده، ووهب له نصره على كلّ مَن بَعُد نسباً، أو قرب رَحِماً؛ ﷺ؛ جعلنا الله له تابعين وبأمره مهتدين؛ فهو لنا نور؛ ونحن بأمره نقوم، عند تفرّق الأهواء؛ ومجادلة الأعداء؛ جعلنا الله بفضله أئمة وبطاعته أمراء، لا يخرج أمرنا منّا، ولا يدخل علينا غيرنا إلا من سفِهَ الحقّ؛ ونكَل عن القصد، وأحْرِبها يابن عوف أن تترَك، وأحْذِر بها أن تكون إن خولف أمرك وترك دعاؤك؛ فأنا أوّل مجيب لك، وداعٍ إليك، وكفيل بما أقول زعيم؛ وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلّم الزبير بن العوام بعده، فقال: أمّا بعد؛ فإنّ داعيَ الله لا يجهل، ومجيبه لا يخذَل، عند تفرّق الأهواء وليّ الأعناق؛ ولن يقصّر عمّا قلت إلا غويّ، ولن يترك ما دعوت إليه إلاّ شقيّ، لولا حدود لله فرضت؛ وفرائض لله حُدّت؛ تراح على أهلها؛ وتحيا لا تموت؛ لكان الموت من الإمارة نجاة، والفرار من الولاية عصمة؛ ولكن لله علينا إجابة الدعوة، وإظهار السنّة؛ لئلا نموت مِيتة عِمِّيَّة؛ ولا نَعْمَى عمى جاهليّة؛ فأنا مجيبك إلى ما دعوت، ومعينك على ما أمرت، ولا حوْل ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلّم سعد بن أبي وقّاص، فقال: الحمد لله بديئاً كان، وآخراً يعود، أحمده لما نجّاني من الضلالة، وبصّرني من الغواية، فبهدي الله فاز مَن نجا، وبرحمته أفلح من زكا، وبمحمد بن عبد الله ﷺ أنارت الطرق،

واستقامت السبل، وظهر كلّ حق، ومات كلّ باطل؛ إياكم أيها النّفر وقولَ الزور، وأمنيّة أهل الغرور، فقد سلبت الأمانيُّ قوماً قبلكم ورثوا ما ورثتم، ونالوا ما نلتم؛ فاتّخذهم الله عدوّاً، ولعنهم لعناً كبيراً. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُد وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١). إنّي نكبت قَرَني فأخذت سهمي الفالج، وأخذتُ لطلحة بن عبيد الله ما ارتضيت لنفسي؛ فأنا به كفيل، وبما أعطيتُ عنه زعيم، والأمر إليك يا بن عوف؛ بجهد النفس، وقصد النُّصْح، وعلى الله قصد السبيل، وإليه الرّجوع، وأستغفر الله لي ولكم؛ وأعوذ بالله مِن مخالفتكم.

ثم تكلّم عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه؛ فقال: الحمدُ لله الذي بعث محمداً منّا نبيّاً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوّة، ومعدن الحكمة؛ وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حقّ إن نعطَه نأخذه؛ وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ولو طال السُّرَى؛ لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده؛ ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت. لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصِلة رحم، ولا حول ولا قوة إلا بالله اسمعوا كلامي، وعوا منطقي؛ عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا المجمع تُنتضَى فيه السيوف، وتُخان فيه العهود؛ حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة ،وشيعةً لأهل الجهالة، ثم أنشأ يقول:

فـإن تـكُ جـاسـمُ هَلَكَتْ فـإنّـي ... بـمـا فعـلتْ بنـو عبـدِ بنِ ضـخْمِ
مُـطيـعٌ فـي الـهـواجـرِ كـلّ عَـيٍّ ... بَـصيـرٌ بـالـنَّـوَى مـن كـلِّ نَـجْـم

فقال عبد الرحمن: أيكم يطيب نفساً أن يخرج نفسه من هذا الأمر ويولّيه غيرَه؟ قال: فأمسكوا عنه، قال: فإني أخرج نفسي وابنَ عمّي، فقلده القوم الأمر، وأحلفهم عند المنبر؛ فحلفوا ليبايعُنّ مَن بايع، وإن بايع بإحدى يديه الأخرى. فأقام ثلاثاً في داره التي عند المسجد التي يقال لها اليوم رحبة القضاء ـ وبذلك سمّيت رَحْبة القضاء ـ فأقام ثلاثاً يصلّي بالناس صهيب.

قال: وبعث عبد الرحمن إلى عليّ، فقال له: إن لم أبايعك فـأشر عليّ؛ فقـال: عثمان، ثم بعث إلى عثمان، فقال: إن لم أبايعك، فمن تشير عليّ؟ قال: عليّ، ثم قال لهما: انصرفا. فدعا الزبير، فقال: إن لم أبايعك؛ فمن تشير عليّ، قال: عثمان، ثم دعا سعداً، فقال: مَنْ تشير عليّ؟ فأمّا أنا وأنت فلا نريدها، فمن تشير عليّ؟ قال: عثمان. فلمّا كانت الليلة الثالثة، قال: يا مِسْوَر، قلت: لبّيك، قال: إنك لنائم؛ والله ما اكتحلت بغِماض منذ ثلاث. اذهب فادعُ لي عليّاً وعثمان؛ قال: قلت: يا خال، بأيّهما أبدأ؟ قال: بأيّهما شئت، قال: فخرجت فأتيت علياً ـ وكان هواي فيه ـ فقلت: أجب خالي، فقال: بعثك معي إلى غيري؟ قلت: نعم؛ قال: إلى من؟ قلت: إلى عثمان، قال: فأيّنا أمرك أن تبدأ به؟ قلت: قد سألته فقال: بأيّهما شئت، فبدأت بك، وكان هواي فيك. قال: فخرج معي حتى أتينا المقاعد، فجلس عليها عليّ، ودخلت على عثمان فوجدته يوتر مع الفجر، فقلت: أجب خالي، فقال: بعثك معي إلى غيري؟ قلت: نعم، إلى عليّ، قال: بأيّنا أمرك أن تبدأ؟ قلت: سألته فقال: بأيّهما شئت؛ وهذا عليّ على المقاعد، فخرج معي حتى دخلنا جميعاً على خالي وهو في القبلة قائم يصلّي، فانصرف لمّا رآنا، ثم التفت إلى عليّ وعثمان، فقال: إنّي قد سألت عنكما وعن

(١) سورة المائدة: ٧٨، ٧٩.

غيركما، فلم أجد الناس يعدلون بكما؛ هل أنت يا عليّ مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال: اللهمّ لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي. فالتفت إلى عثمان، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهمّ نعم، فأشار بيده إلى كتفيه، وقال: إذا شئتما! فنهضنا حتى دخلنا المسجد، وصاح صائح: الصلاة جامعة ـ قال عثمان: فتأخّرت والله حياء لما رأيت من إسراعه إلى عليّ؛ فكنت في آخر المسجد ـ قال: وخرج عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التي عمّمه بها رسول الله ﷺ، متقلّداً سيفه؛ حتى ركِب المنبر؛ فوقف وقوفاً طويلاً، ثم دعا بما لم يسمعه الناس.

ثم تكلّم، فقال: أيّها الناس؛ إني قد سألتكم سرّاً وجهراً عن إمامكم؛ فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين: إما عليّ وإما عثمان؛ فقم إليّ يا عليّ، فقام إليه عليّ، فوق تحت المنبر؛ فأخذ عبد الرحمن بيده، فقال: هل أنتَ مبايعي على كتاب الله وسنة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا؛ ولكن على جَهدي من ذلك وطاقتي، قال: فأرسل يده ثم نادى: قم إليّ يا عثمان؛ فأخذ بيده ـ وهو في موقف عليّ الذي كان فيه ـ فقال: هل أنت مبايعِي على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهمّ نعم؛ قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، ثم قال: اللهمّ اسمع واشهد؛ اللهمّ إنِّي قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان. قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غَشُوه عند المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ من المنبر، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية، فجعل الناس يبايعونه، وتلكّأ عليّ، فقال عبد الرحمن: ﴿ فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَاعَاهَدَ عَلَيْـهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١)؛ فرجع عليّ يشقّ الناس؛ حتى بايع وهو يقول: خدعة وأيّما خدعة!

قال عبد العزيز: وإنما سبب قول عليّ: «خدعة»؛ أن عمرو بن العاص كان قد لقي عليّاً في ليالي الشورى، فقال: إنّ عبد الرحمن رجل مجتهد، وإنّه متى أعطيتَه العزيمة كان أزهدَ له فيك؛ ولكن الجهد والطاقة؛ فإنه أرغبُ له فيك. قال: ثم لقي عثمان، فقال: إنّ عبد الرحمن رجل مجتهد؛ وليس والله يبايعك إلّا بالعزيمة، فاقبَل؛ فلذلك قال عليّ: «خَدعة».

قال: ثم انصرف بعثمان إلى بيت فاطمة ابنة قيس، فجلس والناس معه، فقام المغيرة بن شعبة خطيباً، فقال: يا أبا محمد، الحمد لله الذي وفّقك؛ والله ما كان لها غير عثمان ـ وعليّ جالس ـ فقال عبد الرحمن: يا بن الدّباغ؛ ما أنت وذاك! والله ما كنت أبايع أحداً إلّا قلتَ فيه هذه المقالة!

قال: ثم جلس عثمان في جانب المسجد؛ ودعا بعبيد الله بن عمر ـ وكان محبوساً في دار سعد بن أبي وقاص، وهو الذي نزع السيف من يده بعد قتله جُفينة والهُرمزان وابنة أبي لؤلؤة، وكان يقول: والله لأقتلنّ رجالاً ممن شرك في دم أبي ـ يعرّض بالمهاجرين والأنصار ـ فقام إليه سعد، فنزع السيف من يده؛ وجذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض، وحبسه في داره حتى أخرجه عثمان إليه؛ فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا عليّ في هذا الذي فتَق في الإسلام ما فتَق، فقال عليّ: أرى أن تقتله، فقال بعض المهاجرين: قتِل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم! فقال عمرو بن العاص: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ الله قد أعفاك أن يكون هذا الحَدَث كان ولك على المسلمين سلطان؛ إنما كان هذا الحدَث ولا سلطان لك؛ قال عثمان: أنا وليّهم، وقد

(١) سورة الفتح: ١٠.

جعلتها ديةً، واحتملتها في مالي.

قال: وكان رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد البيّاضيّ إذا رأى عبيد الله بن عمر، قال:

ألا يا عبيدَ الله مالك مهربٌ ولا مَلْجَأٌ مَنْ ابْنِ أَرْوَى ولا خَفَرْ
أصبْتَ دماً والله في غير حِلّه حراماً وقتلُ الهُرْمُزانِ له خَطَرْ
على غير شيءٍ غيرَ أن قال قائلٌ أَتَتّهِمُونَ الهُرمزَان على عمرْ
فقال سفَيهٌ ـ والحوادث جَمَّة نَعم اِتَّهِمْه قد أشار وقد أمر
وكان سلاحُ العبدِ في جوف بيتِه يُقَلّبها والأمرُ بالأمرِ يُعتَبر

قال: فشكا عبيد الله بن عمر إلى عثمان زياد بن لَبِيد وشعره، فدعا عثمان زياد بن لَبِيد، فنهاه. قال: فأنشأ زياد يقول في عثمان:

أبا عمروٍ عبيدُ الله رَهْنٌ فلا تَشْكُكْ بقَتْلِ الهُرمزَان
فإنك إنْ غَفَرْتَ الجرْمَ عنه وأسبابُ الخطا فَرَسا رِهانِ
أتَعْفُو إذ عَفَوتَ بغير حَقّ فما لك بالذي تَحْكى يدان!

فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشذّ به.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب، أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طُعِن عمر: مررت على أبي لؤلؤةعشيّ أمس؛ ومعه جُفَينة والهرمزان، وهم نجيّ، فلما رهِقْتهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسان، نصابُه في وسطه؛ فانظروا بأيّ شيء قتل؛ وقد تخلّل أهل المسجد، وخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميميّ، وقد كان ألظَّ بأبي لؤلؤة منصرفَه عن عمر، حتى أخذه فقتله؛ وجاء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر، فسمع بذلك عُبيد الله بن عمر؛ فأمسك حتى مات عمر؛ ثمّ اشتمل على السيف؛ فأتى الهرمزان فقتله؛ فلما عضّه السيف قال: «لا إله إلا الله». ثمّ مضى حتى أتى جُفينة ـ وكان نصرانيّاً من أهل الحيرة ظئراً لسعد بن مالك، أقدمه إلى المدينة للصلح الذي بينه وبينهم، وليعلّم بالمدينة الكتابة ـ فلما علاه بالسيف صلّب بين عينيه. وبلغ ذلك صهيباً؛ فبعث إليه عمرو بن العاص، فلم يزل به وعنه، ويقول: السيف بأبي وأمي! حتى ناوله إياه، وثاوره سعدٌ فأخذ بشعره، وجاؤوا إلى صهيب.

عمّال عمر رضي الله عنه على الأمصار

وكان عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ في السنة التي قُتل فيها؛ وهي سنة ثلاث وعشرين ـ على مكّة نافع بن عبد الحارث الخُزاعيّ، وعلى الطائف سُفيان بن عبد الله الثَّقفيّ، وعلى صنعاء يعلَى بن مُنْية؛ حليف بني نوفل بن عبد مناف، وعلى الجَنَد عبد الله بن أبي ربيعة، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة؛ وعلى البصرة أبو موسى الأشعريّ، وعلى مصر عمرو بن العاص؛ وعلى حِمْص عُمير بن سعد، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان؛ وعلى البحرين وما والاهما عثمان بن أبي العاص الثقفيّ.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث وعشرين ـ توفي، فيما زعم الواقديّ ـ قتادة بن النّعمان الظَّفَرِيّ، وصلى عليه عمر بن الخطّاب.

وفيها غزا معاوية الصائفة حتى بلغ عمّورية؛ ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ عُبادة بن الصامت وأبو أيّوب خالد بن زيد وأبو ذرّ وشدّاد بن أوْس.

وفيها فتح معاوية عَسْقلان على صلح.

وقيل: كان على قضاء الكوفة في السنة التي توفي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه شُريح، وعلى البصرة كعب بن سُور؛ وأما مصعب بن عبد الله فإنه ذكر أنّ مالك بن أنس روى عن ابن شهاب؛ أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكن لهما قاض.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين

ذكر ما كان فيها من الأحداث المشهورة

ففيها بويع لعثمان بن عفان بالخلافة، واختلف في الوقت الذي بويع له فيه؛ فقال بعضهم ما حدّثني به الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص، عن عثمان بن محمّد الأخنسيّ. قال: وأخبرنا محمد بن عمر قال: حدّثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة، عن يعقوب بن زيد عن أبيه، قالا: بويع عثمان بن عفّان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، فاستقبل بخلافته المحرّم سنة أربع وعشرين.

وقال آخرون: ما حدّثني بـه أحمد بن ثـابت الرازيّ، عمّن ذكـره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: بويع لعثمان عام الرُّعاف سنة أربع وعشرين، قيل: إنما قيل لهذه السنة عام الرّعاف؛ لأنه كثر الرُّعاف فيها في الناس.

وقال آخرون ـ فيما كتب به إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن خُلَيد بن ذَفرة ومجالد؛ قالا: استُخلف عثمان لثلاث مضينْ من المحرّم سنة أربع وعشرين، فخرج فصلّى بالناس العصر، وزاد: ووفّد فاستُنّ به.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمر، عن الشعبيّ، قال: اجتمع أهل الشورى على عثمان لثلاث مضينْ من المحرّم، وقد دخل وقت العصر، وقـد أذّن مؤذّن صُهيب، واجتمعوا بـين الأذان والإقامة، فخرج فصلى بالناس، وزاد الناس مائة، ووفّد أهل الأمصار؛ وهو أوّل مَن صنع ذلك.

وقال آخرون ـ فيما ذكر ابن سعد، عن الواقديّ، عن ابن جُريج عن ابن مُلَيكة، قال: بويع لعثمان لعشر مضينْ من المحرّم، بعد مقتل عمر بثلاث ليال.

خطبة عثمان
رضي الله عنه وقتل عبيدِ الله بن عمر الهرمزان

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن بدر بن عثمان، عن عمّه، قال: لما بايع أهلُ الشورى عثمان، خرج وهو أشدّهم كآبة، فأتى مِنبر رسولِ الله ﷺ، فخطب الناس، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلى على النبيّ ﷺ، وقال: إنكم في دار قُلْعة، وفي بقيّة أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه؛ فلقد أتيتم، صبِّحتم أو مسِّيتم؛ ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تَغـرُّنكم الحياة الدنيا، ولا يغرّنّكم بالله الغرور.

اعتبروا بمن مضى، ثم جِدُّوا ولا تغفلوا، فإنه لا يُغْفَل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعَمَرُوها، ومُتِّعوا بها طويلاً؛ ألم تلفِظْهم! ارموا بالدنيا حيث رمَى الله بها، واطلبوا الآخرة؛ فإنّ الله قد ضرب لها مثلاً؛ وللّذي هو خير، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ - إلى قوله - ﴿أَمَلاً﴾(١)، وأقبل الناس يبايعونه.

وكتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي منصور، قال: سمعت القماذبان يحدّث عن قتل أبيه، قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضُها إلى بعض، فمرّ فيروز بأبي، ومعه خِنجر له رأسان، فتناوله منه، وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: آنَسُ به؛ فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيتُ هذا مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز. فأقبل عُبيد الله فقتَله؛ فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بنيّ، هذا قاتل أبيك؛ وأنت أوْلى به منا، فاذهب فاقتله؛ فخرجت به وما في الأرض أحد إلاّ معي؛ إلاّ أنهم يطلبون إليّ فيه. فقلت لهم: ألي قتلُه؟ قالوا: نعم - وسبُّوا عبيدَ الله - فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبُّوه فتركته لله ولهم. فاحتملوني؛ فوالله ما بلغتُ المنزل إلاّ على رؤوس الرّجال وأكفّهم.

ولاية سعد بن أبي وقّاص الكوفة

وفي هذه السنة عزَل عثمانُ المغيرةَ بن شعبة عن الكوفة، وولاّها سعد بن أبي وقاص - فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد، عن الشعبيّ، قال: كان عمر قال: أوصي الخليفةَ من بعدي أن يستعمل سعد بن أبي وقّاص، فإنّي لم أعزِلْه عن سوء، وقد خشيتُ أن يلحقه من ذلك. وكان أوّل عامل بعث به عثمان سعد بن أبي وقاص على الكوفة، وعزل المغيرة بن شعبة، والمغيرة يومئذ بالمدينة، فعمِل عليها سعد سنة وبعض أخرى، وأقرّ أبا موسى سنوات.

وأمّا الواقديّ فإنه ذكر أنّ أسامة بن زيد بن أسلم حدّثه، عن أبيه؛ أن عمرَ أوصى أن يُقَرّ عمّاله سنة؛ فلما ولِيَ عثمان أقرّ المغيرةَ بن شعبة على الكوفة سنة، ثم عزله، واستعمل سعد بن أبي وقاص ثم عزله، واستعمل الوليد بن عُقْبة. فإن كان صحيحاً ما رواه الواقديّ من ذلك، فولاية سعد الكوفة من قبَل عثمان كانت سنة خمس وعشرين.

كتب عثمان رضي الله عنه إلى عمّاله وولاته والعامّة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة بإسنادهما، قالا: لما وَلِيَ عثمان بعث عبدالله بن عامر إلى كابُل - وهي عُمالة سِجِسْتان - فبلغ كابُل حتى استفرغَها، فكانت عُمالة سجستان أعظمَ من خُراسان؛ حتى مات معاوية، وامتنع أهل كابُل.

قالوا: وكان أوّل كتاب كتبه عثمان إلى عمّاله: أمّا بعدُ؛ فإن الله أمَر الأئمة أن يكونوا رُعاة، ولم يتقدّم إليهم أن يكونوا جُباةً؛ وإنّ صَدْر هذه الأمة خُلِقوا رُعاة، لم يُخلَقوا جُباة، ولَيوشِكنّ أئمتكم أن يصيرُوا جُباة ولا يكونوا رعاة؛ فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألاَ وإنّ أعدل السِّيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمّة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي

---

(١) سورة الكهف: ٥٤.

عليهم. ثم العدوّ الذي تنتابون؛ فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

قالوا: وكان أوّل كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج: أمّا بعد، فإنكم حُماة المسلمين وذادتهم؛ وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنّا، بل كان عن ملإٍ منّا،ولا يبلغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغيِّرَ الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم؛ فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النَّظر فيه، والقيام عليه.

قالوا: وكان أوّل كتاب كتبه إلى عمّال الخراج: أمّا بعد، فإن الله خلَق الخلْق بالحقّ؛ فلا يقبل إلا الحقّ، خذوا الحقّ وأعطوا الحقّ به. والأمانة الأمانة؛ قوموا عليها، ولا تكونوا أوّل مَن يسلبها، فتكونوا شركاء مَن بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاء الوفاء؛ لا تظلموا اليتيم ولا المعاهِد؛ فإن الله خصمٌ لمن ظلمهم.

قالوا: وكان كتابه إلى العامّة: أمّا بعد، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتّباع؛ فلا تَلْفتنَّكم الدنيا عن أمركم؛ فإنّ أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن؛ فإنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الكفر في العُجمة»؛ فإذا استعجم عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا.

وكتب إليّ السريّ! عن شعيب، عن سيف، عن عاصم بن سليمان، عن عامر الشعبيّ، قال: أوّل خليفة زاد الناس في أعطياتهم مائة عثمان؛ فجرت. وكان عمر يجعل لكلّ نفس منفوسة من أهل الفيء في رمضان درهماً في كلّ يوم، وفرض لأزواج رسولِ الله ﷺ درهمين درهمين؛ فقيل له: لو صنعت لهم طعاماً فجمعتَهم عليه! فقال: أشبع الناس في بيوتهم. فأقرّ عثمان الذي كان صنع عمر؛ وزاد فوضع طعام رمضان، فقال: للمتعبد الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل والمعترّين بالناس في رمضان.

غزوة أذربيجان وأرمينية

وفي هذه السنة ـ أعني سنة أربع وعشرين ـ غزا الوليد بن عقبة أذْرَبيجان وأرمينيةَ، لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهلَ الإسلام أيّام عمر في رواية أبي مِخْنف؛ وأمّا في رواية غيره فإن ذلك كان في سنة ستّ وعشرين.

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من أمر المسلمين وأمرهم في هذه الغزوة:

ذكر هشام بن محمد، أنّ أبا مخنف حدّثه عن فروة بن لقيط الأزديّ، ثمّ الغامديّ؛ أنّ مغازيَ أهل الكوفة كانت الريّ وأذْربيجان، وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة؛ ستة آلاف بأذْربيجان وأربعة آلاف بالرّيّ، وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل؛ وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف في كلّ سنة؛ فكان الرجل يصيبه في كلّ أربع سنين غزوة؛ فغزا الوليد بن عقبة في إمارته على الكوفة في سلطان عثمان أذْرَبيجان وأرمينيَة، فدعا سلمانَ بن ربيعة الباهليّ فبعثه أمامه مقدّمة له، وخرج الوليد في جماعة الناس؛ وهو يريد أن يمعِنَ في أرض أرمينيَة، فمضى في الناس حتى دخل أذْربِيجان، فبعث عبدالله بن شُبيل بن عوف الأحمسيّ في أربعة آلاف، فأغار على أهلِ موقان والبَبْر والطَّيْلسان؛ فأصاب من أموالهم وغنِم، وتحرّز القوم منه، وسبَى منهم سبياً يسيراً، فأقبل إلى الوليد بن عُقْبة.

ثم إن الوليد صالح أهل أذْرَبيجان على ثمانمائة ألف درهم؛ وذلك هو الصلح الذي كانوا صالحوا عليه حُذيفة بن اليمان سنة اثنتين وعشرين بعد وقعة نِهاوند بسنة. ثم إنهم حبسوها عند وفاة عمر، فلما ولي

عثمان ووليَ الوليد بن عقبة الكوفة، سار حتى وطِئهم بالجيش؛ فلما رأوا ذلك انقادوا له، وطلبوا إليه أن يتمّ لهم على ذلك الصلح، ففعل؛ فقبض منهم المال، وبثّ فيمن حولهم من أعداء المسلمين الغاراتِ؛ فلما رجع إليه عبدالله بن شُبيل الأحمسيّ من غارته تلك ـ وقد سلم وغنم ـ بعث سلمان بن ربيعة الباهليّ إلى أرمينِيَة في اثني عشر ألفاً، سنة أربع وعشرين. فسار في أرض أرمينِيَة فقتل وسبى وغنم. ثم إنه انصرف وقد ملأ يديه حتى الوليدَ. فانصرف الوليد وقد ظفِر وأصاب حاجته.

إجلاب الروم على المسلمين واستمداد المسلمين من بالكوفة

وفي هذه السنة ـ في رواية أبي مِخْنف ـ جاشت الرُّوم، حتّى استمدّ مَن بالشأم من جيوش المسلمين من عثمان مدداً.

ذكر الخبر عن ذلك:

قال هشام: حدّثني أبو مخْنف، قال: حدّثني فروة بن لَقيط الأزديّ، قال: لما أصاب الوليد حاجتَه من أرمينيَة في الغزوة التي ذكرتها في سنة أربع وعشرين من تاريخه، ودخل الموصل فنزل الحَديثة، أتاه كتاب من عثمان رضي الله عنه:

أمّا بعد؛ فإنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أنّ الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة؛ فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي؛ والسلام.

فقام الوليد في الناس، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد أيّها الناس؛ فإنّ الله قد أبلَى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسناً؛ ردّ عليهم بلادهم التي كفرت؛ وفتَح بلاداً لم تكن افتُتِحت، وردّهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين. وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندُب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تُمدّون إخوانكم من أهل الشأم، فإنهم قد جاشت عليهم الرّوم؛ وفي ذلك الأجر العظيم، والفضْل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهليّ. قال: فانتدب الناس، فلم يمضِ ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشأم إلى أرض الرّوم؛ وعلى جند أهل الشأم حبيب بن مسلمة بن خالد الفهريّ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة [الباهليّ]؛ فشنّوا الغاراتِ على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاؤوا من سبي، وملؤوا أيديَهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة.

وزعم الواقديّ أنّ الذي أمدّ حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص، وقال: كان سبب ذلك أنّ عثمان كتب إلى معاوية يأمره أن يُغزِيَ حبيبَ بن مسلمة في أهل الشأم أرمينيَة، فوجّهه إليها، فبلغ حبيباً أن الموريان الروميّ قد توجّه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم والتُّرك، فكتب بذلك حبيب إلى معاوية، فكتب معاوية به إلى عثمان، فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص يأمره بإمداد حبيب بن مسلمة، فأمدّه بسلمان بن ربيعة في ستة آلاف، وكان حبيب صاحبَ كَيْد، فأجمع على أن يبيّت المَوْريان، فسمعتْه امرأته أمّ عبدالله بنت يزيد الكلْبية يذكر ذلك، فقالت له: فأين موعدك؟ قال: سرادق المَوْريان أو الجنّة، ثم بيّتهم، فقتل مَن أشرف له، وأتى السُّرادق فوجد امرأته قد سبقت؛ وكانت أوّل امرأة من العرب ضُرِب عليها سرادق،

ومات عنها حبيب، فخلفَ عليها الضَّحّاك بن قيس الفهريّ، فهي أمّ ولده.

واختُلف فيمن حجّ بالناس في هذه السنة، فقال بعضهم: حجّ بالناس في هذه السنة عبد الرحمن بن عوف بأمر عثمان؛ كذلك قال أبو معشر والواقديّ.

وقال آخرون: بل حجّ في هذه السنة عثمان بن عفان.

وأما الاختلاف في الفتوح التي نسبها بعض الناس إلى أنها كانت في عهد عمر، وبعضهم إلى أنها كانت في إمارة عثمان، فقد ذكرتُ قبلُ فيما مضى من كتابنا هذا ذكر اختلاف المختلفين في تاريخ كلّ فتح كان من ذلك.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين

ذكر الأحداث المشهورة التي كانت فيها

فقال أبو معشر، فيما حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، قال: حدّثني محدّث، عن إسحاق بن عيسى عنه: كان فتح الإسكندريّة سنة خمس وعشرين.

وقال الواقديّ: وفي هذه السنة نقضت الإسكندرية عهدها، فغزاهم عمرو بن العاص فقتلهم؛ وقد ذكرنا خبرها قبل فيما مضى، ومَن خالف أبا معشر الواقديّ في تأريخ ذلك.

وفيها كان أيضاً ـ في قول الواقديّ ـ توجيهُ عبدالله بن سعد بن أبي سرْح الخيلَ إلى المغرب.

قال: وكان عمرو بن العاص قد بعث بعثاً قبل ذلك إلى المغرب، فأصابوا غنائم، فكتب عبدالله يستأذنه في الغزو إلى إفريقيا، فأذن له.

قال: وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان، واستخلف على المدينة.

قال: وفيها فتح الحصون وأميرهم معاوية بن أبي سفيان.

قال: وفيها وُلد يزيد بن معاوية.

قال: وفيها كانت سابور الأولى [فتِحت].

ثم دخلت سنة ست وعشرين

ذكر ما كان فيها من الأحداث المشهورة

فكان فيها ـ في قول أبي معشر والواقديّ ـ فتح سابور؛ وقد مضى ذكر الخبر عنها في قول من خالفهما في ذلك.

وقال الواقديّ: فيها أمر عثمان بتجديد أنصاب الحرَم.

وقال: فيها زاد عثمان في المسجد الحرام، ووسّعه وابتاع من قوم وأبى آخرون؛ فهدم عليهم؛ ووضع الأثمان في بيت المال؛ فصيّحوا بعثمان، فأمر بهم بالحبس، وقال: أتدرون ما جرّأكم عليّ! ما جرّأكم عليَّ إلا حلمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيِّحوا به. ثم كلّمه فيهم عبدالله بن خالد بن أسِيد، فأخرجوا.

قال: وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان بن عفان.

وفي هذه السنة عزل عثمان سعداً عن الكوفة، وولّاها الوليد بن عقبة في قول الواقديّ؛ وأمّا في قول سيف فإنه عزله في سنة خمس وعشرين.

وفيها وَلِيَ الوليدَ عليها، وذلك أنه زعم أنه عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة حين مات عمر، ووجّه سعداً إليها عاملاً، فعمل له عليها سنة وأشهراً.

ذكر سبب عزل عثمان عن الكوفة سعداً واستعماله عليها الوليد

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: كان أوّل ما نُزِع به بين أهل الكوفَة ـ وهو أوّل مصرٍ نزغ الشيطان بينهم في الإسلام ـ أنّ سعد بن أبي وقاص استقرض من عبدالله بن مسعود من بيت المال مالاً، فأقرضه، فلمّا تقاضاه لم يتيسر عليه، فارتفع بينهما الكلام حتى استعان عبدالله بأناس من الناس على استخراج المال، واستعان سعد بأناس من الناس على استنظاره، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً، يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبدالله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: كنت جالساً عند سعد، وعنده ابن أخيه هاشم بن عتبة، فأتى ابن مسعود سعداً، فقال له: أدّ المال الذي قِبَلك، فقال له سعد: ما أراك إلا ستلقى شرًّا! هل أنت إلا ابن مسعود، عبد من هُذَيل! فقال: أجل؛ والله إني لابنُ مسعود، وإنك لابن حُمَيْنة، فقال هاشم: أجل والله إنّكما لصاحبا رسول الله ﷺ، يُنْظَر إليكما. فطرح سعد

عوداً كان في يده ـ وكان رجلاً فيه جِدّة ـ ورفع يديه، وقال: اللهمّ ربّ السموات والأرض. . . فقال عبدالله: ويلكَ! قل خيراً، ولا تلعنْ، فقال سعد عند ذلك: أما والله ولولا اتّقاء الله لدعوت عليك دعوةً لا تخطئك. فولى عبدالله سريعاً حتى خرج.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن القاسم بن الوليد، عن المسيّب بن عبد خير، عن عبدالله بن عُكَيم، قال: لما وقع بين ابن مسعود وسعد الكلام في قَرْض أقرضه عبدالله إياه؛ فلم يتيسر على سعد قضاؤه؛ غضب عليهما عثمان، وانتزعها من سعد، وعزله وغضب على عبدالله وأقرّه، واستعمل الوليد بن عُقْبة ـ وكان عاملاً لعمر على ربيعة بالجزيرة ـ فقدم الكوفة فلم يتّخذ لداره باباً حتى خرج من الكوفة.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما بلغ عثمان الذي كان بين عبدالله وسعد فيما كان، غضب عليهما وهمّ بهما، ثم ترك ذلك، وعزل سعداً، وأخذ ما عليه، وأقرّ عبدالله، وتقدّم إليه، وأمّر مكان سعد الوليد بن عُقْبة ـ وكان على عرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب ـ فقدم الوليد في السنة الثانية من إمارة عثمان، وقد كان سعد عمل عليها سنة وبعض أخرى، فقدم الكوفة، وكان أحبّ الناس في الناس وأرفقهم بهم؛ فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين

ذكر الأحداث المشهورة التي كانت فيها

فمما كان فيها من ذلك فتح إفريقيَة على يد عبدالله بن سعد بن أبي سرْح، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، قال: حدّثنا محدّث، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر؛ وهو قول الواقديّ أيضاً.

ذكر الخبر عن فتحها، وعن سبب ولاية عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح مصر، وعزل عثمان عمرو بن العاص عنها:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: مات عمر وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى قضائها خارجة بن حذافة السهميّ، فولي عثمان، فأقرّهما سنتين من إمارته ثم عزل عمراً، واستعمل عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح.

وكتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان؛ قالا: لما ولي عثمان أقرّ عمرو بن العاص على عمله، وكان لا يعزل أحداً إلّا عن شَكاة أو استعفاء من غير شَكاة؛ وكان عبدالله بن سعد من جُنْد مصر، فأمّر عبدالله بن سعد على جنده، ورماه بالرّجال، وسرّحه إلى إفريقيَة وسرّح معه عبدالله بن نافع بن عبد القيس وعبدالله بن نافع بن الْحُصَين الفهريين، وقال لعبد الله بن سعد: إنْ فتح الله عزّ وجلّ عليك غداً إفريقيَة، فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نَفْلا. وأمّر العبدَيْن على الجند، ورماهما بالرجال،وسرّحهما إلى الأندلس؛ وأمرهما وعبدالله بن سعد بالاجتماع على الأجلّ، ثم يقيم عبدالله بن سعد في عمله ويسيران إلى عملهما.

فخرجوا حتى قطعوا مصر، فلمّا وغلوا في أرض إفريقيَة فأمعنوا انتهوا إلى الأجلّ، ومعه الأفناء، فاقتتلوا، فقتِل الأجلّ، قتله عبدالله بن سعد وفتح إفريقيَة سهلَها وجبلها. ثم اجتمعوا على الإسلام، وحسنت طاعتهم، وقسم عبدالله ما أفاء الله عليهم على الجند؛ وأخذ خُمس الخمس، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع ابن وَثيمة النَّصريّ، وضرب فسطاطاً في موضع القيروان، ووفّد وفداً، فشكوا عبدالله فيما أخذ، فقال لهم: إنا نفّلته ـ وكذلك كان يصنع ـ وقد أمرتُ له بذلك؛ وذاك إليكم الآن؛ فإن رضيتم فقد جاز، وإن سخِطتم فهو ردّ. قالوا: فإنا نسخطه، قال: فهو ردّ، وكتب إلى عبد الله بردّ ذلك واستصلاحهم، قالوا: فاعزله عنّا، فإنا لا نريد أن يتأمّر علينا، وقد وقع ما وقع؛ فكتب إليه أن استخلِف على إفريقيَة رجلاً ممن ترضى ويرضوْن واقسم الخمس الذي كنت نفّلتك في سبيل الله؛ فإنهم قد سخِطوا النّفل. ففعل، ورجع عبدالله بن سعد إلى مصر وقد فتح

إفريقيَة، وقتل الأجلَّ. فما زالوا من أسمع أهل البلدان وأطوَعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك؛ أحسن أمة سلاماً وطاعةً؛ حتى دبّ إليهم دعاة أهل العراق فلما دبّ إليهم دعاة أهل العراق واستثاروهم، شقّوا عصاهم، وفرّقوا بينهم إلى اليوم. وكان من سبب تفريقهم أنهم ردّوا على أهل الأهواء، فقالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجني العمّال، ولا نحمل ذلك عليهم؛ فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورَهم؛ فخرج ميسرة في بضعة عشر انساناً حتى يقدم على هشام، فطلبوا الإذن، فصعب عليهم، فأتوا الأبرش، فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أنّ أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نفَّلهم دوننا وقال: هم أحقّ به؛ فقلنا: هو أخلص لجهادنا، لأنا لا نأخذ منه شيئاً، إن كان لنا فهم منه في حلّ؛ وإن لم يكن لنا لم نُرده. وقالوا: إذا حاصرنا مدينةً قال: تقدّموا وأخّر جنده، فقلنا: تقدّموا، فإنه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم. ثم إنهم عمَدوا إلى ماشيتنا، فجعلوا يبقرونها على السِّخال يطلبون الفِراء البيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين! فاحتملنا ذلك، وخلّيناهم وذلك. ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كلّ جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنّة، ونحن مسلمون؛ فأحببنا أن نعلم: أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟ قال: نفعل؛ فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم، كتبوا أسماءهم في رِقاع، ورفعوها إلى الوزراء، وقالوا: هذه أسماؤنا وأنسابنا؛ فإن سألكم أمير المؤمنين عنّا فأخبروه، ثم كان وجههم إلى إفريقيَة، فخرجوا على عامل هاشم فقتلوه، واستولوا على إفريقيَة؛ وبلغ هشاماً الخبر، وسأل عن النّفر، فرفعت إليه أسماؤهم، فإذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا.

وكتب إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وأرسل عثمان عبدالله بن نافع بن الحصين وعبدالله بن نافع بن عبد القيس من فورهما ذلك من إفريقيَة إلى الأندلس، فأتياها من قِبَل البحر. وكتب عثمان إلى من انتدب من أهل الأندلس: أما بعد، فإنّ القسطنطينيّة إنما تفتح من قِبَل الأندلس؛ وإنكم إن افتتحتموها كنتم شركاء مَن يفتحها في الأجر، والسلام. وقال كعب الأحبار: يعبُر البحرَ إلى الأندلس أقوام يفتتحونها، يعرَفون بنورهم يوم القيامة.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: فخرجوا ومعهم البرْبر! فأتوها من برّها؛ ففتحها الله على المسلمين وإفرنجة؛ وازدادوا في سلطان المسلمين مثل إفريقيَة؛ فلما عزل عثمان عبدَالله بن سعد بن أبي سَرْح صرف إلى عمله عبدالله بن نافع بن عبد القيس؛ وكان عليها، ورجع عبدالله بن سعد إلى مصر؛ ولم يزل أمرُ الأندلس كأمر إفريقيَة حتى كان زمان هشام، فمنع البربر أرضهم؛ وبقِيَ مَن في الأندلس على حاله.

وأما الواقديّ فإنه ذكر أنّ ابن أبي سُبرة حدّثه عن محمد بن أبي حرْملة، عن كُريب، قال: لما نزع عثمان عمرو بن العاص عن مصر غضِب عمرو غضباً شديداً، وحقَد على عثمان، فوجّه عبدالله بن سعد، وأمره أن يمضيَ إلى إفريقيَة؛ وندب عثمان الناس إلى إفريقيَة، فخرج إليها عشرة آلاف من قُريش والأنصار والمهاجرين.

قال الواقديّ: وحدّثني أسامة بن زيد الليثيّ، عن ابن كعب، قال: لما وجّه عثمان عبدَالله بن سعد إلى إفريقيَة، كان الذي صالحهم عليه بطريق إفريقية جُرْجير ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، فبعث ملك الروم رسولا، وأمره أن يأخذ منهم ثلثمائة قنطار؛ كما أخذ منهم عبدالله بن سعد؛ فجمع

رؤساء إفريقيَة، فقال: إن الملك قد أمرني أن آخذ منكم ثلثمائة قنطار ذهب مثل ما أخذ منكم عبدالله بن سعد؛ فقالوا: ما عندنا مال نعطيه؛ فأمّا ما كان بأيدينا فقد افتدينا به أنفسَنا، وأمّا الملك فإنه سيّدنا فليأخذْ ما كان له عندنا من جائزة كما كنا نعطيه كلّ سنة. فلمّا رأى ذلك أمر بحبسهم، فبعثوا إلى قوم من أصحابهم، فقدِموا عليه، فكسروا السجن فخرجوا، وكان الذي صالحهم عليه عبدالله بن سعد ثلثمائة قنطار ذهب، فأمر عثمان لآل الحكَم. قلت: أو لمروان؟ قال: لا أدري.

قال ابنُ عمر: وحدّثني أسامة بن زيد، عن يزيد بن أبي حبيب، قال: نزع عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عبدالله بن سَعْد على الخَراج، فتباغيا، فكتَب عبدالله بن سعد إلى عثمان يقول: إنّ عمراً كسر الخراج. وكتب عمرو: إنّ عبدالله كسر عليّ حيلة الحرب، فكتب عثمان إلى عمرو: انصرف؛ وولّى عبدالله بن سعد الخراج والجند، فقدم عمرو مغضَباً، فدخل على عثمان وعليه جُبّة يمانية محشوّة قطناً، فقال له عثمان: ما حشو جُبّتِك؟ قال: عمرو، قال عثمان: قد علمتُ أن حشوَها عمرو ولم أرد هذا، إنما سألت: أقطن هو أم غيره؟

قال الواقديّ: وحدّثني أسامة بن زيد، عن يزيد بن أبي حَبيب، قال: بعث عبدالله بن سعد إلى عثمان بمال من مصر، قد حشد فيه، فدخل عمرو على عثمان؛ فقال عثمان: يا عمرو، هل تعلم أنّ تلك اللقاح درّت بعدك! فقال عمرو: إنّ فصالها هلكت.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقال الواقديّ: وفي هذه السنة كان فتح إصطَخْر الثاني على يد عثمان بن أبي العاص.

قال: وفيها غزا معاوية قِنَّسْرِين.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث المشهورة

فمما ذُكِر أنه كان فيها فتح قُبرس، على يد معاوية، غزاها بأمر عثمان إيّاه؛ وذلك في قول الواقديّ.

فأمّا أبو معشر فإنه قال: كانت قُبْرس سنة ثلاث وثلاثين، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عنه.

وقال بعضهم: كانت قبرس سنة سبع وعشرين، غزاها ـ فيما ذكر ـ جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم أبو ذَرّ وعبادة بن الصامت؛ ومعه زوجته أمّ حرام والمقداد وأبو الدّرداء، وشدّاد بن أوس.

ذكر الخبر عن غزوة معاوية إيّاها:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الربيع بن النّعمان النَّصريّ وأبي المجالد جراد بن عمرو، عن رجاء بن حَيْوة وأبي حارثة وأبي عثمان، عن رجاء وعبادة وخالد: قالوا: ألحّ معاوية في زمانه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غزْو البحر وقرْب الروم من حِمْص؛ وقال: إن قريةً من قُرى حِمص ليسمع أهلها نُبَاح كلابهم وصياح دجاجهم؛ حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر؛ فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صِفْ لي البحر وراكبه؛ فإنّ نفسي تنازعني إليه.

وقال عبادة وخالد: لما أخبره ما للمسلمين في ذلك وما على المشركين، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خَلْقاً كبيراً يركبه خلْق صغير؛ إنَ ركُن خرّق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول؛ يزداد فيه اليقين قِلّة، والشكّ كثرة، هم فيه كدودٍ على عود؛ إن مال غرِق، وإن نجا برِقَ.

فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن سعيد، عن عبادة بن نُمَيّ، عن جُنادة بن أبي أميّة الأزديّ، قال: كان معاوية كتب إلى عمر كتاباً في غزو البحر يرغبه فيه، ويقول: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ بالشأم قرية يسمع أهلها نُبَاح كلاب الرّوم وصياح ديوكِهم؛ وهم تِلْقاء ساحل من سواحل حِمْص؛ فاتّهمه عمر لأنه المشير؛ فكتب إلى عمرو: أن صِفْ لي البحر؛ ثم اكتب إليّ بخبره: فكتب إليه: يا أمير المؤمنين، إني رأيتُ خلقاً عظيماً، يركبه خلق صغير؛ ليس إلا السّماء والماء؛ وإنما هم كدودٍ على عود، إن مال غرِق، وإن نجا برِق.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عثمان وأبي حارثة، عن عبادة، عن جُنادة بن أبي أميّة والربيع وأبي المُجالد، قالوا: كتب عمر إلى معاوية: إنا سمعنا أن بحر الشأم يشرِف على أطول شيء على

الأرض؛ يستأذن الله في كلّ يوم وليلة في أن يُـفِيض على الأرض فيغرّقها؛ فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب؛ وتالله لمسلمٌ أحبّ إليّ مما حوت الروم؛ فإيّاك أن تَعرَّض لي؛ وقد تقدّمت إليك، وقد علمت ما لقيَ العلاء منّي، ولم أتقدّم إليه في مثل ذلك.

وقالوا: ترك ملك الروم الغزو، وكاتب عمرَ وقاربه، وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله، فكتب إليه: أحِبّ للناس ما تحبّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لها، تجتمع لك الحكمة كلّها. واعتبر الناس بما يليك، تجتمع لك المعرفة كلها.

وكتب اليه ملك الروم ـ وبعث إليه بقارورة: أن املأ لي هذه القارورة من كلّ شيء، فملأها ماء، وكتب إليه: إنّ هذا كلّ شيء من الدنيا.

وكتب إليه ملك الروم: مـا بين الحق والباطل؟ فكتب إليه: أربع أصابع الحق، فيما يرى عياناً، والباطل كثيراً يستمَع به فيما لم يعايَن.

وكتب إليه ملك الروم يسأله عمّا بين السماء والأرض وبين المشرق والمغرب، فكتب إليه: مسيرة خمسمائة عام للمسافر؛ لو كان طريقاً مبسوطاً.

قال: وبعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى مَلِكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء، ودسّته إلى البريد، فأبلغه لها، وأخِذ منه. وجاءت امرأة هرقل، وجمعت نساءها، وقالت: هذه هديّة امرأة ملك العرب، وبنت نبيّهم، وكاتبتها وكافأتها، وأهدت لها؛ وفيها أهدت لها عِقْد فاخر. فلما انتهى به البريد إليه أمره بإمساكه، ودعا: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصلّى بهم ركعتين، وقال: إنه لا خير في أمر أبرِم عن غير شورى من أموري؛ قولوا في هديّة أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم؛ فأهدت لها امرأة ملك الروم، فقال قائلون: هو لها بالذي لها، وليست امرأة الملك بذمّة فتصانِع به، ولا تحت يدك فتتّقيك.

وقال آخرون: قد كنّا نُهدي الثياب لنستثيب، ونبعث بها لتباع، ولنصيب ثمناً. فقال: ولكنّ الرسول رسول المسلمين، والبريد بريدهم، والمسلمون عظّموها في صدرها. فأمر بردّها إلى بيت المال، وردّ عليها بقدر نَفَقتها.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة، عن خالد بن مَعْدان، قال: أوّل مَن غزا في البحر معاوية بن أبي سفيان زمانَ عثمان بن عفان، وقد كان استأذن عمر فيه فلم يأذن له، فلما وليَ عثمان لم يزل به معاوية حتى عزم عثمان على ذلك بأخرة، وقال: لا تنتخب الناس، ولا تُقْرِع بينهم؛ خيِّرهم؛ فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعِنْه، ففعل واستعمل على البحر عبدالله بن قيس الجاسيّ حليف بني فَزارة، فغزا خمسين غَزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب؛ وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألّا يبتليَه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتى إذا أراد الله أن يصيبَه وحدَه؛ خرج في قارب طليعةً، فانتهى إلى المَرْقَى من أرض الروم؛ وعليه سُؤّال يعترّون بذلك المكان، فتصدّق عليهم، فرجعت امرأة من السؤّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقَى، قالوا: أي عدوّة الله! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبّختْهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد. فثاروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه

وقاتلهم، فأصيب وحده؛ وأفلت الملاّح حتى أتى أصحابه، فجاؤوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزديّ، فخرج فقاتلهم، فضجِر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت:

الــغَـمــرات ثــم يــنــجــليــنــا

فترك ما كان يقول، ولزم: «الغمرات ثم ينجلينا». وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسيّ؛ وقيل لتلك المرأة بعد: بأيّ شيء عرفتيه؟ قالت: بصدَقته؛ أعطى كما يُعطى الملوك؛ ولم يقبِض قبضَ التجّار.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان، قالا: قيل لتلك المرأة التي استثارت الرّوم على عبد الله بن قيس: كيف عرفتِهِ؟ قالت: كان كالتاجر، فلمّا سألته أعطاني كالملك؛ فعرفت أنه عبد الله بن قيس.

وكتب إلى معاوية والعمّال: أمّا بعد، فقوموا على ما فارقتم عليه عمر، ولا تبدّلوا، ومهما أشكل عليكم، فردّوه إلينا نجمع عليه الأمة، ثمّ نرده عليكم؛ وإيّاكم أن تغيِّروا، فإنّي لست قابلا منكم إلا ما كان عمر يقبل. وقد كانت تنتقض فيما بين صُلح عمر وولاية عثمان تلك الناحية فيبعث إليها الرجل فيفتحها الله على يديه، فيُحسب له ذلك، وأما الفتوح فلأوّل مَن وليَها.

قال أبو جعفر: ولما غزا معاوية قُبرُس؛ صالح أهلها - فيما حدّثني عليّ بن سهل، قال: حدّثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرني سُليمان بن أبي كريمة والليث بن سعد وغيرهما من مشيخة ساحل دمشق؛ أنّ صلح قبرس وقَع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدّونها إلى المسلمين في كلّ سنة، ويؤدُّون إلى الروم مثلها، ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على ألاّ يغزوهم ولا يقاتلوا مَن وراءهم ممن أرادهم من خلفهم، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوّهم من الروم إليهم؛ وعلى أن يبطرِق إمام المسلمين عليهم منهم.

وقال الواقديّ: غزا معاوية في سنة ثمان وعشرين قُبرس، وغزاها أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرّح، حتى لقوا معاوية، فكان على الناس.

قال: وحدّثني ثَوْر بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن جُبَير بن نفير، قال: لما سبيناهم نظرت إلى أبي الدّرداء يبكي، فقلت له: ما يبكيك في يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله، وأذلّ فيه الكفر وأهله؟ قال: فضرب بيده على منكبي، وقال: ثكلتْك أمّك يا جبير! ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره! بينا هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم المُلك؛ إذ تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى، فسلَّط عليهم السِّباء، وإذا سُلِّط السِّباء على قوم فليس لله فيهم حاجة.

قال الواقديّ: وحدّثني أبو سعيد، أنّ معاوية بن أبي سفيان صالح أهل قبرس في ولاية عثمان؛ وهو أوّل مَنْ غزا الروم؛ وفي العهد الذي بينه وبينهم ألاّ يتزوّجوا في عدوّنا من الرّوم إلاّ بإذننا.

قال الواقديّ: وفي هذه السنة غزا حبيب بن مَسْلمة سوريَة من أرض الرّوم.

وفيها تزوّج عثمان نائلة ابنة الفَرافصة الكلبيّة وكانت نصرانية، فتحنّت قبل أن يدخل بها.

قال: وفيها بنى داره بالمدينة، الزّوراء، وفرغ منها.

قال: وفيها كان فتح فارس الأول، وإصطخر الآخر وأميرها هشام بن عامر.

قال: وحجّ بالناس عثمان في هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين

ذكر ما كان فيها من الأحداث المشهورة

ففيها عزَل عثمان أبا موسى الأشعريّ عن البصرة، وكان عاملَه عليها ستّ سنين، وولّاها عبدَ الله بن عامر بن كُريز، وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، فقدِمها. وقد قيل: إنّ أبا موسى إنما عمِل لعثمان على البصرة ثلاث سنين.

وذكر عليّ بن محمد أن محارباً أخبره، عن عوْف الأعرابيّ، قال: خرج غَيْلان بن خَرشة الضبيّ إلى عثمان بن عفان، ، فقال: أما لكم صغير فتستشبّوه فتولّوه البصرة! حتى متى يلي هذا الشيخ البصرة! يعني أبا موسى؛ وكان وليَها بعد موت عمر ستّ سنين.

قال: فعزله عثمان عنها، وبعث عبد الله بن عامر بن كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمه دجّاجة ابنة أسماء السُّلَميّ؛ وهو ابن خال عثمان بن عفان. قال مسلمة: فقدم البصرة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، سنة تسع وعشرين.

ذكر الخبر عن سبب عزل عثمان أبا موسى عن البصرة

كتب إليّ السريّ، يذكر أنّ شعيباً حدّثه، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما ولي عثمان أقرّ أبا موسى على البصرة ثلاث سنين، وعزله في الرابعة، وأمّر على خراسان عُمير بن عثمان بن سعد، وعلى سِجِسْتان عبد الله بن عمير الليثيّ ـ وهو من كنانة ـ فأثخن فيها إلى كابُل، وأثخن عمير في خُراسان حتى بلغ فَرْغانة، فلم يدع دُونها كورة إلا أصلحها؛ وبعث إلى مُكْران عبيد الله بن معمر التيميّ، فأثخن فيها حتى بلغ النّهر. وبعث على كَرْمان عبد الرحمن بن غُبَيس؛ وبعث إلى فارس والأهواز نفراً، وضمّ سَواد البصرة إلى الحصين بن أبي الحُرّ، ثم عزل عبد الله بن عُمَير، واستعمل عبدَ الله بن عامر فأقرّه عليها سنة ثم عزله، واستعمل عاصم بن عمرو، وعزل عبد الرحمن بن غُبَيس، وأعاد عديّ بن سُهيل بن عديّ.

ولما كان في السنة الثالثة كفر أهل إيذج والأكراد، فنادَى أبو موسى في الناس، وحضّهم وندَبهم؛ وذكر من فضل الجهاد في الرُّجلة؛ حتى حمل نفر على دوابّهم، وأجمعوا على أن يخرجوا رُجّالاً. وقال آخرون: لا والله لا نعجل بشيء حتى ننظر ما صنيعه؟ فإن أشبه قولُه فعلَه فعلنا كما فعل أصحابنا.

فلمّا كان يومَ خرج أخرج ثَقَله من قصره على أربعين بغلاً، فتعلقوا بعنانه، وقالوا: احملنا على بعض هذه الفضول،وارغب من الرُّجلة فيما رغبتنا فيه، فقنّع القوم حتى تركوا دابّته ومضى، فأتوا عثمان، فاستعفوْه منه،

وقالوا: ما كلّ ما نعلم نحبّ أن نقوله، فأبْدِ لنا به، فقال: مَن تحبّون؟ فقال غَيْلان بن خَرَشة: في كلّ أحد عوَض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا، وأحيا أمر الجاهلية فينا، فلا ننفك من أشعريّ كان يعظّم مُلكه عن الأشعرين؛ ويستصغر ملك البصرة، وإذا أمّرت علينا صغيراً كان فيه عِوَض منه، أو مهتَراً كان فيه عوَض منه؛ ومَن بين ذلك من جميع الناس خير منه.

فدعا عبدَ الله بن عامر وأمّره على البصرة،وصرفُ عُبيد الله بن معمر إلى فارس، واستعمل على عمله عُمير بن عثمان بن سعد. فاستعمل على خراسان في سنة أربع أُمَين بن أحمر اليَشْكريّ، واستعمل على سِجِسْتان في سنة أربع عمران بن الفَصِيل البرجميّ، وعلى كَرْمان عاصم بن عمرو، فمات بها. فجاشت فارس، وانتقضت بعُبيد الله بن معمر، فاجتمعوا له بإصطخر، فالتقوْا على باب إصطخر، فقتِل عبيد الله وهزِم جنده؛ وبلغ الخبر عبدالله بن عامر، فاستنفر أهلَ البصرة؛ وخرج معه الناس، وعلى مقدّمته عثمان بن أبي العاص، فالتقوا هم وهم بإصطخر، وقتل منهم مقتلة عظيمة لم يزالوا منها في ذلّ؛ وكتب بذلك إلى عثمان؛ فكتب إليه بإمْرة هرم بن حسان اليشكريّ، وهَرِم بن حيّان العبديّ من عبد القيس، والخِرّيت بن راشد من بني سامة، والمِنْجَاب بن راشد، والتَرْجُمان الهُجَيميّ، على كُورَفاس، وفرّق خراسان بين نفر ستة: الأحنف على المَرْوَين، وحبيب بن قرّة اليربوعيّ على بَلْخ ـ وكانت مما افتتح أهل الكوفة ـ وخالد بن عبدالله بن زهير على هَراة،وأُمَيْن، بن أحمد اليشكريّ على طُوس، وقيس بن الهيثم السُلَميّ على نيسابور ـ وهو أول من خرج ـ وعبدالله بن خازم، وهو ابن عمه. ثمّ إن عثمان جمعها له قبل موته؛ فمات وقيس على خُراسان، واستعمل أمَين بن أحمر على سِجستان، ثم جعل عليها عبد الرحمن بن سَمُرة ـ وهو من آل حبيب بن عبد شمس؛ فمات عثمان وهو عليها؛ ومات وعمران على كِرْمان ـ وعمير بن عثمان بن سعد على فارس، وابن كِنْدير القشيريّ على مُكْران.

وقال عليّ بن محمد: أخبرنا عليّ بن مجاهد، عن أشياخه، قال: قال غَيْلان بن خَرشة لعثمان بن عفان: أمَا منكم خسيس فترفعوه! أما منكم فقير فتجيروه! يا معشر قريش، حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعريّ هذه البلاد! فانتبَه لها الشيخ؛ فولاّها عبد الله بن عامر.

قال عليّ بن محمد: أخبرنا أبو بكر الهذليّ؛ قال: ولّى عثمان ابنَ عامر البصرة؛ فقال الحسن: قال أبو موسى: يأتيكم غلام خرّاج ولاّج كريم الجدّات والخالات والعمات؛ يُجمع له الجندان. قال: قال الحسن: فقدم ابن عامر، فجمِع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفيّ؛ وكان عثمان بن أبي العاص فيمن عَبَر من عُمان والبحرين.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وفَد قيس بن هيثم عبدَ الله بن خازم إلى عبد الله بن عامر في زمان عثمان؛ وكان عبد الله بن خازم على عبد الله بن عامر كريماً، ؛ فقال له: اكتب لي على خراسان عهداً إن خرج منها قيس بن الهيثم. ففعل، فرجع إلى خراسان؛ فلما قتِل عثمان وبلغ الناس الخبرُ، وجاش العدوّ لذلك، قال قيس: ما ترى يا عبد الله؟ قال: أرى أن تُخَلّفني ولا تَخلّف عن المُضِيّ حتى تنظر فيما تنظر. ففعل واستخلفه، فأخرج عبد الله عهدَ خلافته، وثبت على خُراسان إلى أن قام عليّ رضي الله تعالى عنه؛ وكانت أمّ عبد الله عَجْلى، فقال قيس: أنا كنت أحقّ أن أكون ابن عَجْلى من عبد الله؛ وغضب مما صنع به الآخر.

وفي هذه السنة افتتح عبد الله بن عامر فارسَ في قول الواقديّ وفي قول أبي معشر؛ حدّثني بقول أبي معشر أحمد بن ثابت، عمّن حدثه، عن إسحاق بن عيسى، عنه. وأما قول سيف فقد ذكرناه قبل.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة تسع وعشرين ـ زاد عثمان في مسجد رسول الله ﷺ ووسّعه وابتدأ في بنائه في شهر ربيع الأول؛ وكانت القَصّة تحمَل إلى عثمان من بطن نَخْل؛ وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عُمُده من حجارة فيها رصاص، وسقْفه ساجاً، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه مائة وخمسين ذراعاً، وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر، ستّة أبواب.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان، فضرب بمنىً فسطاطاً، فكان أوّل فسطاط ضربه عثمان بمنىً، وأتمّ الصلاة بها وبعرَفة.

فذكر الواقديّ، عن عمر بن صالح بن نافع، عن صالح مولى التوءمة، قال: سمعتُ ابن عباس يقول: إن أوّل ما تكلم الناس في عثمان ظاهراً أنه صلّى بالناس بمِنًى في ولايته ركعتين؛ حتى إذا كانت السنة السادسة أتمّها، فعاب ذلك غير واحد من أصحاب النبيّ ﷺ؛ وتكلم في ذلك مَنْ يريد أن يكثِّر عليه؛ حتى جاءه عليّ فيمن جاءه، فقال: والله ما حدَث أمرٌ ولا قدُم عهد؛ ولقد عهدت نبيّك ﷺ يصلّي ركعتين. ثمّ أبا بكر، ثم عمر، وأنت صدراً من ولايتك، فما أدري ما ترجع إليه! فقال: رأيٌ رأيتُه.

قال الواقديّ: وحدّثني داود بن خالد، عن عبد الملك بن عمرو بن أبي سفيان الثقفيّ، عن عمّه، قال: صلّى عثمان بالناس بمنىً أربعاً، فأتى آتٍ عبدَ الرحمن بن عوف، فقال: هل لك في أخيك؟ قد صلّى بالناس أربعاً! فصلّى عبد الرحمن بأصحابه ركعتين؛ ثم خرج حتى دخل على عثمان، فقال له: ألم تصلّ في هذا المكان مع رسول الله ﷺ ركعتين؟ قال: بلَى، قال: أفلم تصلّ مع أبي بكر ركعتين؟ قال: بلى، قال: أفلم تصلّ مع عمر ركعتين؟ قال: بلى، قال: ألم تصلّ صدراً من خلافتك ركعتين؟ قال: بلى، قال: فاسمع منّي يا أبا محمد، إني أخبِرتُ أنّ بعض من حجّ من أهل اليمن وجُفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي: إنّ الصلاة للمقيم ركعتان، هذا إمامكم عثمان يصلّي ركعتين، وقد اتّخذتُ بمكة أهلا، فرأيت أن أصلّيَ أربعاً لخوفِ ما أخاف على الناس؛ وأخرى قد اتّخذتُ بها زوجة، ولِي بالطائف مال؛ فربما اطّلعتهُ فأقمتُ فيه بعد الصَّدَر. فقال عبد الرحمن ابن عَوْف: ما من هذا شيء لك فيه عُذْر؛ أما قولك: اتخذت أهلاً، فزوجتُك بالمدينة تخرج بها إذا شئتَ وتقدم بها إذا شئتَ؛ إنما تسكن بسكناك. وأما قولك: ولي مال بالطائف؛ فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف. وأمّا قولك: يرجع من حجّ من أهل اليمن وغيرهم فيقولون: هذا إمامكم عثمان يصلّي ركعتين وهو مقيم؛ فقد كان رسولُ الله ﷺ ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلامُ فيهم قليل؛ ثم أبو بكر مثل ذلك، ثم عمَر، فضرب الإسلامُ بجِرانه، فصلّى بهم عمر حتى مات ركعتين، فقال عثمان: هذا رأيٌ رأيتُه.

قال: فخرج عبدُ الرحمن فلقيَ ابنَ مسعود، فقال: أبا محمّد، غيرُ ما يُعلم؟ قال: لا، قال: فما أصنع؟ قال: اعمل أنت بما تعلم؛ فقال ابن مسعود: الخلاف شرّ؛ قد بلغني أنه صلّى أربعاً فصلّيت بأصحابي أربعاً، فقال عبد الرحمن بن عوف: قد بلغني أنه صلّى أربعاً، فصلّيت بأصحابي ركعتين، وأما الآن فسوف يكون الذي تقول ـ يعني نصلّي معه أربعاً.

ثم دخلت سنة ثلاثين

ذكر ما كان فيها من الأحداث المشهورة

فممّا كان فيها غزوة سعيد بن العاص طَبرِستان في قول أبي معشر، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عنه. وفي قول الواقديّ وقول عليّ بن محمد المدائنيّ: حدّثني بذلك عمر بن شبّة عنه. وأما سيف بن عمر، فإنه ذكر أن إصْبَهْبَذها صالَح سويد بن مقرّن على ألّا يغزوهَا؛ على مال بذله له. قد مضى ذكرى الخبر عن ذلك قبلُ في أيام عمر رضي الله عنه.

وأما عليّ بن محمد المدائني، فإنه قال ـ فيما حدّثني به عنه عمر: لم يغزُها أحدٌ حتى قام عثمان بن عفان رضي الله عنه، فغزاها سعيد بن العاص سنة ثلاثين.

ذكر الخبر عنه عن غزو سعيد بن العاص طَبَرِستان

حدّثني عمر بن شَبّة، قال: حدّثني عليّ بن محمد، عن عليّ بن مجاهد، عن حنَش بن مالك، قال: غزا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خُراسان، ومعه حُذَيفة بن اليمان وناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير؛ وخرج عبد الله بن عامر من البصرة يريد خُراسان، فسبق سعيداً ونزلَ أبْرَشَهر، وبلغ نزوله أبْرَشَهر سعيداً. فنزل سعيد قومِسَ؛ وهي صلْح، صالحهم حذيفة بعد نهاوند؛ فأتى جُرجان، فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى طَمِيسة، وهي كلها من طَبَرِستان جُرجان، وهي مدينة على ساحل البحر، وهي في تُخوم جُرجان، فقاتَله أهلها حتى صلّى صلاة الخوف، فقال لحُذيفة: كيف صلّى رسولُ الله ﷺ؟ فأخبره، فصلّى بها سعيد صلاة الخوف، وهم يقتتلون، وضرب يومئذ سعيد رجلاً من المشركين على حبل عاتقه، فخرج السّيْف من تحت مِرْفقه؛ وحاصرهم، فسألوا الأمان؛ فأعطاهم على ألّا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً؛ وحوى ما كان في الحصن، فأصاب رجل من بني نَهد سَفَطاً عليه قُفل، فظنّ فيه جوهراً؛ وبلغ سعيداً، فبعث إلى النهديّ، فأتاه بالسَّفَط، فكسروا قُفله؛ فوجدوا فيه سَفَطاً، ففتحوه، فإذا فيه خرقة سوداء مُدرجة فنشروها، فوجدوا خِرقة حمراء فنشروها، فإذا خرقة صفراء؛ وفيها أيْران: كُميت ووَرْد، فقال شاعر يهجو بني نهد:

آبَ الكِرامُ بالسَّبايا غنيمةً ... وفاز بنو نَهْدٍ بأيْرَيْنِ في سَفَطْ
كُمَيْتٍ ووَرْدٍ وافِرَيْنِ كِلاهُما ... فظَنُّوهُما غُنْماً فناهيك من غلطْ!

وفتح سعيد بن العاص نامية، وليست بمدينة، هي صحارى.

وحدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، قال: أخبرني عليّ بن مجاهد، عن حَنَش بن مالك التغلَبي، قال: غزا سعيد سنة ثلاثين، فأتى جُرجان وطَبَرِستان؛ معه عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وابن الزّبير وعبد الله بن عمرو بن العاص؛ فحدثني عِلْج كان يخدُمهم قال: كنت أتيتهم بالسُّفرة، فإذا أكلوا أمروني فنفضتها وعلّقتها، فإذا أمسوْا أعطوني باقيَة. قال: وهلك مع سعيد بن العاص محمد بن الحكم بن أبي عَقيل الثقفي، جدّ يوسف بن عمر، فقال يوسف لقحذَم: يا قحذَم، أتدري أين مات محمد بن الحكم؟ قال: نعم، استُشهد مع سعيد بن العاص بطَبرِستان، قال: لا، مات بها وهو مع سعيد، ثم قفل سعيد إلى الكُوفة، فمدحه كعب بن جُعيل، فقال:

فنِعْمَ الفَتَى إذ جـال جيـلانُ دونَـه ... وإذ هَبَـطوا من دَسْتَبَى ثمَّ أبْهَـرا
تَعلّمْ سَعيدَ الخَيْرِ أنّ مَطِيّتي ... إذا هَبَطَتْ أشْفقْتُ مِن أن تُعْقَّرا
كأنّكَ يَوْمَ الشِّعْبِ لَيثُ خفيَّةٍ ... تحَرَّدَ مِن لَيْثِ العَرِينِ وأصْحَرا
تَسوسُ الَّذي ماساس قبْلك واحدٌ ... ثمانينَ ألْفاً دارعينَ وحُسَّرا

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن كليب بن خلف وغيره؛ أنّ سعيد بن العاص صالح أهل جُرجان، ثم امتنعوا وكفروا، فلم يأت جُرجان بعد سعيد أحد، ومنعوا ذلك الطريق؛ فلم يكن أحد يسلك طريق خُراسان من ناحية قُومس إلاّ على وجَل وخوف من أهل جُرجان، وكان الطريق إلى خراسان من فارس إلى كَرْمان، فأوّل من صيّر الطريق من قُومِس قتيبة بن مسلم حين ولي خراسان.

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن كليب بن خلف العَمّيَ، عن طفيل بن مرداس العَميّ وإدريس بن حنظلة العَميّ؛ أن سعيد بن العاص صالح أهل جُرجان؛ وكانوا يَجبون أحياناً مائة ألف ويقولون: هذا صلحنا، وأحياناً مائتي ألف، وأحياناً ثلاثمائة ألف؛ وكانوا ربما أعطوا ذلك وربما منعوه؛ ثم امتنعوا وكفروا، فلم يُعطوا خراجاً حتى أتاهم يزيد بن المهلب، فلم يعازّه أحد حين قدمها؛ فلما صالح صُولا وفتح البُحيرة ودِهِستان صالح أهل جُرجان على صلح سعيد بن العاص.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاثين ـ عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة، وولاها سعيد بن العاص في قول سيف بن عمر.

ذكر السبب في عزل عثمان الوليد عن الكوفة وتوليته سعيداً عليها

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما بلغ عثمانَ الذي كان بين عبد الله وسعد غضب عليهما وهمّ بهما، ثم ترك ذلك وعزل سعداً، وأخذ ما عليه، وأقرّ عبد الله، وتقدّم إليه، وأمّر مكان سعد الوليد بن عُقْبة ـ وكا على عرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب ـ فقدم الوليد في السنة الثانية من إمارة عثمان؛ وقد كان سعد عمل عليها سنة وبعض أخرى؛ فقدم الكوفة، وكان أحبَّ الناس في الناس وأرفقهم بهم؛ فكان كذلك خمس سنين، وليس على داره باب. ثمّ إنّ شباباً من شباب أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسُمان الخُزاعيّ، وكاثروه، فنذِر بهم، فخرج عليهم بالسيف، فلما رأى كثرَتهم استصرخ، فقالوا له:

اسكت، فإنما هي ضربة حتى نريحك من رَوعة هذه الليلة ـ وأبو شُريح الخزاعيّ مشرف عليهم ـ فصاح بهم وضربوه فقتلوه، وأحاط الناس بهم فأخذوهم؛ وفيهم زهير بن جُندب الأزديّ ومورِّع بن أبي مورِّع الأسديّ، وشُبيل بن أُبيّ الأزديّ، في عدّة. فشهد عليهم أبو شُريح وابنه أنهم دخلوا عليه، فمنع بعضهم بعضاً من الناس، فقتله بعضهم، فكتب فيهم إلى عثمان، فكتب إليه في قتلهم، فقتلهم على باب القصر في الرَّحبَة، وقال في ذلك عمرو بن عاصم التميميّ:

لا تَـأكُلوا أبـداً جيـرانَكمْ سَـرَفـاً ... أهْـلَ الـزّعـارةِ في مُلكِ ابْنِ عَفّـانِ

وقال أيضاً:

إنَّ ابْـنَ عَـفَّـانَ الـذي جَـرَّبْـتُـم ... فَـطَمَ اللصـوصَ بمُحْكَم الفُـرْقـانِ
مـا زال يَعْمَـلُ بـالكِتـابِ مُهَيمِنـاً ... فـي كُـلِّ عُـنْـقٍ مِـنْـهُـمُ وَبَـنَـانِ

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد، عن أبي سعيد، قال: كان أبو شُريح الخزاعيّ من أصحاب رسولِ الله ﷺ، فتحوّل من المدينة إلى الكوفة ليدنوَ من الغزو؛ فبينا هو ليلة على السطح، إذ استغاث جاره، فأشرف فإذا هو بشباب من أهل الكوفة قد بيّتوا جاره؛ وجعلوا يقولون له: لا تَصِحْ، فإنما هي ضرْبة حتى نريحَك؛ فقتلوه. فارتحل إلى عثمان، ورجع إلى المدينة ونقل أهله، ولهذا الحديث حين كثُر أحدِثت القسامة؛ وأخِذ بقول وليّ المقتول: ليُفطَم الناس عن القتل عن ملإٍ من الناس يومئذ.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن كُريب، عن نافع بن جبير، قال: قال عثمان: القَسامة على المدَّعَى عليه وعلى أوليائه؛ يحلِف منهم خمسون رجلاً إذا لم تكن بيّنَة؛ فإن نقصت قَسامتهم، أو إن نكَل رجل واحدٌ ردّت قسامتهم ووليَها المدّعُون؛ وأحلِفوا، فإن حلف منهم خمسون استحقُّوا.

وكتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغُصْن بن القاسم، عن عَوْن بن عبد الله، قال: كان مما أحدث عثمان بالكوفة إلى ما كان من الخبر أنه بلغه أنّ أبا سمّال الأسدي في نفر من أهل الكوفة، ينادي منادٍ لهم إذا قدم المُيّار: مَن كان ها هنا من كلب أو بني فلان ليس لقومهم بها منزل فمنزله على أبي سمّال. فاتّخذ موضع دار عَقِيل دار الضِّيفان ودار ابن هبّار؛ وكان منزل عبد الله بن مسعود في هُذيل في موضع الرّمادة، فنزل موضع داره، وترك داره دار الضيافة، وكان الأضياف ينزلون داره في هذيل إذا ضاق عليهم ما حول المسجد.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المغيرة بن مقسَم، عمّن أدرك من علماء أهل الكوفة، أنّ أبا سمّال كان ينادي مناديه في السوق والكُناسة: مَن كان ها هنا من بني فلان وفلان ـ لمن ليست له بها خُطّة ـ فمنزله على أبي سَمّال؛ فاتّخذ عثمان للأضياف منازل.

وكتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مولى لآل طلحة، عن موسى بن طلحة مثلَه.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كان عمر بن الخطاب قد استعمل الوليد بن عُقبة على عرب الجزيرة، فنزل في بني تغلِب. وكان أبو زُبَيد في الجاهليّة والإسلام في بني تغلِب حتى أسلم؛ وكانت بنو تغلِب أخوالَه؛ فاضطهده أخواله ديْناً له؛ فأخذ له الوليد بحقّه، فشكرها له أبو زُبيد، وانقطع إليه، وغشيَه بالمدينة؛ فلما ولي الوليد الكوفة أتاه مسلّماً معظّماً على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة،

فنزل دار الضّيفان، وآخر قَدْمةٍ قدِمها أبو زبيد على الوليد؛ وقد كان ينتجعه ويرجع، وكان نصرانيّاً قبل ذلك، فلم يزل الوليد به وعنه حتى أسلم في آخر إمارة الوليد، وحسن إسلامه، فاستدخله الوليد، وكان عربيّاً شاعراً حين قام على الإسلام؛ فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورِّع وجُندباً، وهم يحقدون له مذ قَتَل أبناءهم، ويضعُون له العيون، فقالّ لهم: هل لكم في الوليد يشارب أبا زُبيد؟ فثاروا في ذلك، فقال أبو زينب وأبو مورّع وجندب لأناس من وجوه أهل الكوفة: هذا أميرُكم وأبو زُبَيد خيرته، وهما عاكفان على الخمر، فقاموا معهم ـ ومنزل الوليد في الرّحبَة مع عُمارة بن عقبة، وليس عليه باب ـ فاقتحموا عليه من المسجد وبابه إلى المسجد، فلم يُفْجَأ الوليد إلا بهم، فنحّى شيئاً، فأدخله تحت السرير، فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره؛ فإذا طبق عليه تفاريقُ عنب ـ وإنما نحّاه استحياء أن يروْا طبقَه ليس عليه إلاّ تفاريق عنب ـ فقاموا فخرجوا على الناس، فأقبل بعضهم على بعض يتلاوَمون، وسمع الناس بذلك، فأقبل الناس عليهم يسبّونهم ويلعنونهم؛ ويقولون: أقوام غضب الله لعمله، وبعضهم أرغمه الكتاب؛ فدعاهم ذلك إلى التحسُّس والبحث؛ فستر عليهم الوليد ذلك، وطواه عن عثمان، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء، وكره أن يُفسد بينهم، فسكت عن ذلك وصبر.

وكتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الفيض بن محمد، قال: رأيت الشعبيّ جلس إلى محمد بن عمرو بن الوليد ـ يعني ابن عقبة ـ وهو خليفة محمد بن عبد الملك؛ فذكر محمّد غزوَ مسلمة، فقال: كيف لو أدركتم الوليد؛ غَزْوَه وإمارته! إن كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا، ما قصّر ولا انتقض عليه أحدٌ حتى عزِل عن عمله؛ وعلى الباب يومئذ عبدُ الرحمن بن ربيعة الباهليّ؛ وإن كان مما زاد عثمان بن عفان الناس على يده أن ردّ على كلّ مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة في كلّ شهر؛ يتّسعون بها من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، عن عون بن عبد الله، قال: جاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود، فقالوا: الوليد يعتكف على الخمر؛ وأذاعوا ذلك حتى طرِح على ألسن الناس، فقال ابن مسعود: من استتر عنّا بشيء لم نتتبع عورته، ولم نهتك ستره؛ فأرسل إلى ابن مسعود فأتاه فعاتبه في ذلك، وقال: أيُرْضَى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت عليّ! أيّ شيء أستتر به! إنما يقال هذا للمريب، فتلاحيا وافترقا على تغاضُب، لم يكن بينهما أكثر من ذلك.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وأتِي الوليد بساحر؛ فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حدّه، فقال: وما يُدريك أنه ساحر! قال: زعم هؤلاء النّفر ـ لنفر جاؤوا به ـ أنه ساحر، قال: وما يُدرِيكم أنه ساحر؟ قال: أساحر أنت؟ قال: نعم، قال: وتدرِي ما السحر؟ قال: نعم، وثار إلى حمار، فجعل يركبه من قبَل ذَنبه، ويُريهم أنه يخرج من فمه واستِه. فقال ابن مسعود: فاقتله. فانطلق الوليد، فنادوا في المسجد أنّ رجلاً يلعب بالسحر عند الوليد، فأقبلوا، وأقبل جُندَب ـ واغتنمها ـ يقول: أين هو؟ أين هو؟ حتى أريَه! فضربه، فاجتمع عبد الله والوليد على حبسِه؛ حتى كتب إلى عثمان، فأجابهم عثمان أن استحلفوه بالله ما علم برأيكم فيه. وإنه لصادق بقوله فيما ظنّ من تعطيل حدّه. وعزّروه، وخلّوْا سبيله. وتقدم إلى الناس في ألاّ يعملوا بالظنون، وألاّ يقيموا الحدود دون السلطان، فإنا نقيد المخطىء، ونؤدّب المصيب. ففعل ذلك به، وتُرِك لأنه أصاب حداً، وغضب لجُندب أصحابُه، فخرجوا إلى المدينة، فيهم أبو خُشّة الغِفاريّ

وجَثّامة بن الصّعب بن جَثّامة ومعهم جُندب، فاستعفوْه من الوليد، فقال لهم عثمان: تعملون بالظنون، وتخطئون في الإسلام، وتخرجون بغير إذن؛ ارجعوا. فردّهم، فلما رجعوا إلى الكوفة، لم يبق موتورٌ في نفسه إلا أتاهم، فاجتمعوا على رأي فأصدروه، ثم تغفّلوا الوليد ـ وكان ليس عليه حجاب ـ فدخل عليه أبو زينب الأزديّ وأبو مورِّع الأسديّ، فسلاّ خاتمَه، ثم خرجا إلى عثمان، فشهدا عليه؛ ومعهما نفر ممن يعرف من أعوانهم. فبعث إليه عثمان، فلما قدم أمر به سعيدَ بن العاص، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنشدك الله! فوالله إنهما لخصمان موتوران. فقال: لا يضرّك ذلك؛ إنما نعمل بما ينتهي إلينا، فمن ظلَم فالله وليّ انتقامه، ومن ظُلِم فالله وليّ جزائه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي غَسّان سكَن ابن عبد الرحمن بن حُبَيش، قال: اجتمع نفرٌ من أهل الكوفة، فعمِلوا في عزل الوليد، فانتدب أبو زينب بن عوف وأبو مورّع بن فلان الأسديّ للشهادة عليه، فغشُوا الوليد، وأكبُّوا عليه؛ فبينا هم معه يوماً في البيت وله امرأتان في المخدَع؛ بينها وبين القوم سِتر؛ إحداهما بنت ذي الخِمار والأخرى بنت أبي عَقيل، فنام الوليد، وتفرّق القوم عنه؛ وثبت أبو زينب وأبو مورِّع، فتناول أحدهما خاتمه، ثم خرجا، فاستيقظ الوليد وامرأتاه عند رأسه؛ فلم ير خاتمه، فسألهما عنه فلم يجد عندهما منه علماً، قال: فأيّ القوم تخلّف عنهم؟ قالتا: رجلان لا نعرفهما، ما غشياك إلا منذ قريب. قال: حَلياهما، فقالتا: على أحدهما خَميصة، وعلى الآخر مُطرَف، وصاحب المُطْرَف أبعدهما منك، فقال: الطُّوال؟ قالتا: نعم؛ وصاحب الخميصة أقربهما إليك، فقال: القصير؟ قالتا: نعم؛ وقد رأينا يده على يدك. قال: ذاك أبو زينب، والآخر أبو مورّع؛ وكان وجْهُهما إلى المدينة، فقدما على عثمان؛ ومعهما نفرٌ ممن يعرف عثمان، ممن قد عزَل الوليد عن الأعمال، فقالوا له، فقال: مَنْ يشهد؟ قالوا: أبو زينب وأبو مورِّع، وكاع الآخران، فقال: كيف رأيتما؟ قالا: كنّا من غاشيته؛ فدخلنا عليه وهو يَقِيء الخمر، فقال: ما يقيء الخمر إلاّ شاربها. فبعث إليه، فلما دخل على عثمان رآهما، فقال متمثّلاً:

مـا إنْ خشيتُ على أمْـرٍ خَلْوتُ بـه ... فـلم أَخَفْـك عـلى أمثـالـهـا حـار

فحلف له الوليد وأخبره خبرهم، فقال: نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنّار؛ فاصبر يا أُخيَّ! فأمر سعيد بن العاص فجلده، فأورث ذلك عداوةً بين ولديهما حتى اليوم؛ وكانت على الوليد خَمِيصة يوم أمر به أن يجلد، فنزعها عنه عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عُبَيد الطنافسيّ، عن أبي عبيدة الإياديّ، قال: خرج أبو زينب وأبو مورِّع حتى دخلا على الوليد بيته، وعنده امرأتان: بنت ذي الخِمار وبنت أبي عَقِيل وهو نائم، قالت إحداهما: فأكبّ عليه أحدهما فأخذ خاتمَه، فسألهما حين استيقظ، فقالتا: ما أخذناه، قال: مَنْ بقي آخر القوم؟ قالتا: رجلان؛ رجل قصير عليه خَميصة، ورجل طويل عليه مُطرف، ورأينا صاحب الخميصة أكبّ عليك، قال: ذاك أبو زينب. فخرج يطلبهما، فإذا هو وجهُهما عن ملإ من أصحاب لهما؛ ولا يدري الوليد ما أرادا من ذلك. فقدِما على عثمان، فأخبراه الخبر على رؤوس الناس، فأرسل إلى الوليد، فقدِم، فإذا هو بهما. ودعا بهما عثمان، فقال: بم تشهدان؟ أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب الخمر؟ فقالا: لا، وخافا، قال: فكيف؟ قالا: اعتصرناها من لحيته وهو يقيء الخمر. فأمر سعيدَ بن العاص فجلَده، فأورث ذلك عداوةً بين أهليْهما.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة، عن أبي العريف ويزيد الفقعسيّ، قالا: كان

الناس في الوليد فرْقتين: العامّة معه والخاصّة عليه؛ فما زال عليهم من ذلك خشُوع حتى كانت صِفِّين، فولى معاوية، فجعلوا يقولون: عيِّب عثمانُ بالباطل، فقال لهم عليّ عليه السلام: إنكم وما تعيِّرُون به عثمان كالطاعن نفسَه ليقتل رِدْفه، ما ذنب عثمان في رجل قد ضربه بفعله، وعزله عن عمله! وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا!

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن كريب، عن نافع بن جُبَير، قال: قال عثمان رضي الله عنه: إذا جُلِد الرّجل الحدّ ثم ظهرت توبتُه جازت شهادته.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي كِبْران، عن مولاة لهم ـ وأثنى عليها خيراً ـ قالت: كان الوليد أدخل على الناس خيراً، حتى جعل يقسِّم للولائد والعبيد، ولقد تفجّع عليه الأحرار والمماليك، كان يسمع الولائد وعليهنّ الحداد يقلنَ:

يـا وَيْـلَتـا قـد عُـزلَ الـوَلـيـدُ وجـاءنـا مُـجـوِّعـاً سَـعـيـدُ
يَـنْـقُصُ فـي الـصّـاع ولا يـزيـدُ فـجُـوِّعَ الإمـاءُ والـعَـبـيـدُ

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، قال: كان الناس يقولون حين عزِل الوليد وأمِّر سعيد:

لا يَـبْعَـدِ الـمُلكُ إذ وَلَّـتْ شَمـائلهُ ولا الـريـاسـةُ لـمـا رَاسَ كُـتّـابُ

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة بإسنادهما، قالا: قدِم سعيد بن العاص في سنة سبع من إمارة عثمان، وكان سعيد بن العاص بقيّة العاص بن أميّة، وكان أهله كثيراً تتابعوا، فلما فتح الله الشأم قدمها، فأقام مع معاوية، وكان يتيماً نشأ في حِجْر عثمان، فتذكّر عمر قريشاً، وسأل عنه فيما يتفقّد من أمور الناس، فقيل: يا أمير المؤمنين، هو بدمشق، عهدُ العاهد به وهو مأموم بالموت. فأرسل إلى معاوية: أن ابعث إليّ سعيد بن العاص في منقل، فبعث به إليه وهو دنِف، فما بلغ المدينة حتى أفاق، فقال: يابنَ أخي؛ قد بلغني عنك بلاء وصلاح، فازدد يزدْكَ الله خيراً. وقال: هل لك من زوجة؟ قال: لا؛ قال: يا أبا عمرو، ما منعك من هذا الغلام أن تكون زوّجتَه؟ قال: قد عرضْتُ عليه فأبى، فخرج يسير في البرّ، فانتهى إلى ماء، فلقيَ عليه أربع نسوة، فقمنَ له، فقال: مالكنّ؟ ومَن أنتنّ؟ فقلنَ: بنات سفيان بن عويف ـ ومعهن أمهنّ ـ فقالت: أمّهنّ: هلك رجالنا، وإذا هلك الرجـال ضاع النسـاء، فضعهنّ في أكفائهنّ، فـزوّج سعيداً إحداهنّ وعبد الرحمن بن عوف الأخرى، والوليدَ بن عُقْبة الثالثة؛ وأتاه بنات مسعود بن نعيم النَّهشليّ، فقلن: قد هلك رجالنا، وبقيَ الصّبيان، فضعْنا في أكفائنا، فزوج سعيداً إحداهنّ، وجُبـير بن مطعِم إحداهنّ، فشارك سعيد هؤلاء وهؤلاء، وقد كان عمومته ذوِي بلاء في الإسلام، وسابقة حسنة، وقُدْمة مع رسول الله ﷺ؛ فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس.

فقدم سعيد الكوفة في خلافة عثمان أميراً، وخرج معه من مكة ـ أو المدينة ـ الأشتر وأبو خُشّة الغِفاريّ وجندَب بن عبد الله وأبو مُصعب بن جثّامة ـ وكانوا فيمن شخص مع الوليد يعيبونه، فرجعوا مع هذا ـ فصعِد سعيد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: والله لقد بُعثت إليكم وإني لكاره؛ ولكنّي لم أجد بدًّا إذ أمِرت أن

أُمِّرَ. ألاَ إنّ الفتنة قد أطلعتْ خَطْمها وعينَيْها؛ ووالله لأضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تُعييني؛ وإني لَرائد نفسي اليوم. ونزل. وسأل عن أهل الكوفة، فأقيم على حال أهلها.

فكتب إلى عثمان بالذي انتهى إليه: إنّ أهلَ الكوفة قد اضطرب أمرُهم، وغُلب أهل الشرف منهم والبُيُوتات والسابقة والقُدمة؛ والغالب على تلك البلاد روادف ردفت، وأعراب لحقت؛ حتى ما يُنظر إلى ذي شرف ولا بلاء مِن نازلتها ولا نابتتها.

فكتب إليه عثمان: أمّا بعد؛ ففضِّل أهل السابقة والقُدْمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن مَن نزلها بسببهم تبعاً لهم؛ إلاّ أن يكونوا تثاقلُوا عن الحقّ، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكلٍّ منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحقّ، فإنّ المعرفة بالناس بها يصاب العدْل.

فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيّام والقادسيّة، فقال: أنتم وجوه مَن وراءكم، والوجه ينبىء عن الجسد؛ فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخَلّة ذي الخَلّة. وأدخل معهم مَن يحتمل من اللواحق والرّوادف؛ وخلَص بالقرّاء والمتسمِّتين في سَمره، فكأنما كانت الكوفة يبْساً شملته نار؛ فانقطع إلى ذلك الضرب ضربُهم، وفشت القالة والإذاعة.

فكتب سعيد إلى عثمان بذلك، فنادى منادي عثمان: الصلاة جامعة! فاجتمعوا، فأخبرهم بالذي كتب به إلى سعيد، وبالذي كتب به إليه فيهم؛ وبالذي جاءه من القالَة والإذاعة، فقالوا: أصبتَ فلا تُسعفهم في ذلك؛ ولا تُطعمهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا نهض في الأمور مَن ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها.

فقال عثمان: يا أهلَ المدينة استعدّوا واستمسكوا، فقد دبّت إليكم الفتن.

ونزل. فأوى إلى منزله، وتمثّل مثَله ومثَل هذا الضرْب الذين شرعوا في الخلاف:

أبني عُبَيْدٍ قد أتى أشياعَكمْ ... عنكم مَقالَتُكُمْ وشِعْرُ الشاعرِ
فإذا أتتكم هذه فتلبَّسُوا ... إنَّ الرِّماحَ بَصيرةٌ بالحاسِرِ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، قال: كان عثمان أروَى الناس للبيت والبيتين والثلاثة إلى الخمسة.

كتب إليَّ السريّ،عن شعيب، عن سيف، عن سعيد بن عبد الله الجُمحيّ، عن عبيد الله بن عمر، قال: سمعته وهو يقول لأبي: إنّ عثمان جمع أهل المدينة، فقال: يا أهلَ المدينة؛ إنّ الناس يتمخّضون بالفتنة، وإني والله لأتخلّصنّ لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك؛ فهل ترونْه حتى يأتيَ من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه؛ فيُقيم معه في بلاده؟ فقام أولئك، وقالوا: كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين؟ فقال: نبيعها ممّن شاء بما كان له بالحجاز. ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم؛ فافترقوا وقد فرّجها الله عنهم به. وكان طلحة بن عبيد الله قد استجمع له عامّة سُهمان خيبر إلى ما كان له سوى ذلك، فاشترى طلحة منه مِن نصيب مَنْ شهد القادسيّة والمدائن من أهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر إلى العراق النَّشاسْتَج بما كان له بخيبر وغيرها من تلك الأموال، واشترى منه ببئر أَرِيس شيئاً كان لعثمان بالعراق، واشترى منه مرْوان بن الحكَم بمال كان له أعطاه إيّاه عثمان نهر مَرْوان ـ وهو يومئذ أجَمة ـ واشترى منه رجال من القبائل

بالعراق بأموال كانت لهم في جزيرة العرب من أهل المدينة ومكّة والطائف واليمن وحضرموت؛ فكان ممّا اشترى منه الأشعث بمالٍ كان له في حضرموت ما كان له بطيزناباذ. وكتب عثمان إلى أهل الآفاق في ذلك وبعدّة جُرْبان الفيء، والفيء الذي يتداعاه أهلُ الأمصار، فهو ما كان للملوك نحو كسرى وقيصر ومَن تابعهم من أهل بلادهم. فأجلى عنه، فأتاهم شيء عرفوه. وأخذ بقدر عدّة من شهدها من أهل المدينة، وبقدر نصيبهم، وضمّ ذلك إليهم، فباعوه بما يليهم من الأموال بالحجاز ومكّة واليمن وحضرموت، يردّ على أهلها الذين شهدوا الفتوح من بين أهل المدينة.

وكتب إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة مثل ذلك، إلّا أنهما قالا: اشترى هذا الضَّرْب رجال من كلّ قبيلة ممن كان له هنالك شيء؛ فأراد أن يستبدل به فيما يليه، فأخذوا، وجاز لهم عن تراضٍ منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق؛ إلّا أنّ الذين لا سابقة لهم ولا قُدمةً لا يبلغون مبلغَ أهل السابقة والقُدمة في المجالس والرياسة والحظوة، ثم كانوا يعيبون التفضيل، ويجعلونه جفوةً، وهم في ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه، لأنه لا حجّة لهم والناس عليهم، فكان إذا لحق بهم لاحِق من ناشيء أو أعرابيّ أو محرَّر استحلى كلامهم؛ فكانوا في زيادة، وكان الناس في نقصان حتى غلَب الشرّ.

وكتب إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: صُرف حذيفة عن غزو الرّيّ إلى غزو الباب مَدَداً لعبد الرحمن بن ربيعة، وخرج معه سعيد بن العاص، فبلغ معه أذْربيجان ـ وكذلك كانوا يصنعون، يجعلون للناس ردْءاً ـ فأقام حتى قفل حذيفة ثم رجعا.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاثين ـ سقط خاتم رسول الله ﷺ من يد عثمان في بئر أرِيس وهي على ميلين من المدينة، وكانت من أقلّ الآبار ماء، فما أدرِك حتى الساعة قعرها.

ذكر الخبر عن سبب سقوط الخاتم من يد عثمان في بئر أريس

حدّثني محمد بن موسى الحَرَشيّ، قال: حدّثنا أبو خلف عبدالله بن عيسى الخزّاز، قال: وكان شريك يونس بن عبيد قال: حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنّ رسولَ الله ﷺ أراد أن يكتب إلى الأعاجم كتباً يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ؛ فقال له رجل: يا رسول الله؛ إنهم لا يقبلون كتاباً إلّا مَختوماً، فأمر رسول الله ﷺ أن يُعمل له خاتم من حديد، فجعله في إصبعه، فأتاه جبريل، فقال له: انبذه من إصبعك، فنبذه رسول الله ﷺ من إصبعه، وأمر بخاتم آخر يُعمل له، فعمل له خاتم من نُحاس، فجعله في إصبعه، فقال له جبريل عليه السلام: انبذه من إصبعك، فنبذه رسول الله ﷺ من إصبعه، وأمر رسول الله ﷺ بخاتم من وَرِق، فصنع له خاتم من وَرق فجعله في إصبعه، فأقرّه جبريل، وأمر أن ينقش عليه: «محمد رسول الله»، فجعل يتختّم به، ويكتب إلى من أراد أن يكتب إليه من الأعاجم، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر. فكتب كتاباً إلى كسرى بن هرمز، فبعثه مع عمر بن الخطاب، فأتى به عمر كسرى فقرىء الكتاب، فلم يلتفت إلى كتابه، فقال عمر: يا رسول الله، جعلني الله فداءك! أنت على سرير مرمول باللِّيف، وكسرى بن هرمز على سرير من ذهب، وعليه الدّيباج! فقال رسول الله ﷺ: «اما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة!». فقال: جعلني الله فداءك! قد رضيت.

وكتب كتاباً آخر، فبعث به مع دِحْية بن خليفة الكلبيّ إلى هرقل ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، فقرأه

وضمّه إليه، ووضعه عنده؛ فكان الخاتم في إصبع رسول الله ﷺ يتختّم به حتى قبضه الله عزّ وجلّ، ثم وليَ عمر بن الخطاب بعد فجعل يتختّم به حتى قبضه الله، ثم وليَ من بعده عثمان بن عفان، فتختمّ به ستّ سنين، فحفر بئراً بالمدينة شِرْباً للمسلمين، فقعد على رأس البئر، فجعل يعبث بالخاتم، ويُديره بإصبعه، فانسلّ الخاتم من إصبعه فوقع في البئر، فطلبوه في البئر، ونزحوا ما فيها من الماء، فلم يقدروا عليه، فجعل فيه مالاً عظيماً لمن جاء به، واغتمّ لذلك غمّاً شديداً، فلما يئس من الخاتم أمر فصنِع له خاتم آخر مثله، خلقه من فضّة، على مثاله وشبهِه، ونقش عليه: «محمد رسول الله»؛ فجعله في إصبعه حتى هلَك؛ فلما قتِل ذهب الخاتم من يده فلم يُدْرَ مَن أخذه.

أخبار أبي ذرّ رحمه الله تعالى

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاثين ـ كان ما ذكر من أمر أبي ذرّ ومعاوية، وإشخاص معاوية إيّاه من الشام إلى المدينة، وقد ذكر في سبب إشخاصه إيّاه منها إليها أمور كثيرة، كرهت ذكر أكثرها.

فأما العاذرون معاوية في ذلك، فإنهم ذكروا في ذلك قصّةً كتب إليّ بها السَّريّ، يذكر أن شعيباً حدّثه عن سيف، عن عطية، عن يزيد الفقعسيّ، قال: لما ورد ابنُ السوداء الشأم لقيَ أبا ذرّ، فقال: يا أبا ذرّ، ألا تعجب إلى معاوية، يقول: المال مال الله! ألا إنّ كلّ شيء لله كأنه يريد أن يحتجِنه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين. فأتاه أبو ذرّ، فقال: ما يدعوك إلى أن تسمّي مالَ المسلمين مال الله! قال: يرحمك الله يا أبا ذرّ؛ ألسنا عبادَ الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره! قال: فلا تقله، قال: فإني لا أقول: إنه ليس لله، ولكن سأقول: مال المسلمين.

قال: وأتى ابن السوداء أبا الدّرداء، فقال له: مَنْ أنت؟ أظنّك والله يهوديّاً! فأتى عُبادة بن الصامت فتعلّق به، فأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذرّ؛ وقام أبو ذرّ بالشأم وجعل يقول: يا معشرَ الأغنياء، واسوا الفقراء. بُشِّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوَى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولِع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقوْن من الناس.

فكتب معاوية إلى عثمان: إنّ أبا ذرّ قد أعضَل بي، وقد كان من أمره كَيْت وكَيْت. فكتب إليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خَطمها وعينيها فلم يبقَ إلا أن تثب، فلا تنكأ القَرْح، وجهّز أبا ذر إليّ، وابعث معه دليلا وزوّده، وارفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت؛ فإنك تُمسَك ما استمسكت. فبعث بأبي ذرّ ومعه دليل؛ فلمّا قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سَلْع، قال: بشّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مِذْكار.

ودخل على عثمان فقال: يا أبا ذرّ، ما لأهل الشام يشكون ذَرَبك! فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال: مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا. فقال: يا أبا ذرّ؛ عليّ أن أقضيَ ما عليّ، وآخذ ما على الرعيّة، ولا أجبرهم على الزّهد، وأن أدعوَهم إلى الاجتهاد والاقتصاد.

قال: فتأذن لي في الخروج، فإنّ المدينة ليست لي بدار؟ فقال: أوَ تستبدل بها إلا شرًّا منها! قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أخرُج منها إذا بلغ البناء سَلْعاً؛ قال: فانفُذ لما أمرك به. قال: فخرج حتى نزل الرّبَذة، فخطّ

بها مسجداً، وأقطعه عثمان صِرْمة من الإبل وأعطاه مملوكين، وأرسل إليه، أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً؛ ففعل.

وكتب إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عون، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أبو ذرّ يختلف من الرَّبَذة إلى المدينة مخافة الأعرابيّة، وكان يحبّ الوحدة والخلْوة. فدخل على عثمان، وعنده كعب الأحبار، فقال لعثمان: لا ترضوْا من الناس بكفّ الأذى حتى يبذلوا المعروف؛ وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ألّا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان، ويصل القرابات. فقال كعب: مَنْ أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه. فرفع أبو ذرّ مِحْجَنه فضربه فشجّه، فاستوهبه عثمان، فوهبه له، وقال: يا أبا ذرّ، اتّق الله واكفف يدك ولسانك، وقد كان قال له: يا بنَ اليهودية، ما أنت وما ها هنا! والله لتسمعنّ مني أو لأدخِل عليك.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الأشعث بن سِوّار، عن محمد بن سيرين، قال: خرج أبو ذرّ إلى الرّبذة من قِبَل نفسه لما رأى عثمان لا ينزع له، وأخرج معاوية أهله من بعده، فخرجوا إليه ومعهم جِراب يثقِل يدَ الرجل، فقال: انظروا إلى هذا الذي يُزهّد في الدنيا ما عنده! فقالت امرأته: أما والله ما فيه دينار ولا درهم، ولكنها فلوس كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوساً لحوائجنا.

ولما نزل أبو ذرّ الربَذة أقيمت الصلاة، وعليها رجل يلي الصدقة، فقال: تقدّم يا أبا ذرّ، فقال: لا، تقدّم أنت، فإنَّ رسول الله ﷺ قال لي: «اسمع وأطِع، وإن كان عليك عبد مجدّع»، فأنت عبد ولست بأجدع - وكان من رقيق الصدقة؛ وكان أسود يقال له مجاشع.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشِّر بن الفُضيل، عن جابر، قال: أجرى عثمان على أبي ذرّ كلّ يوم عظماً، وعلى رافع بن خَدِيج مثله، وكانا قد تنحّيا عن المدينة لشيء سمعاه لم يفسَّر لهما، وأبصرا وقد أخطئا.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن سُوقة، عن عاصم بن كُلَيب، عن سلَمة بن نَباتة، قال: خرجنا معتمِرين، فأتينا الرَّبَذة، فطلبنا أبا ذرّ في منزله، فلم نجده، وقالوا: ذهب إلى الماء. فتنحّينا، ونزلنا قريباً من منزله، فمرّ ومعه عَظْم جَزُور يحمله معه غلام، فسلّم ثم مضى حتى أتى منزلَه، فلم يمكث إلّا قليلاً حتى جاء، فجلس إلينا وقال: إنّ رسولَ الله ﷺ قال لي: «اسمع وأطِع وإن كان عليك حبشيّ مجدّع»، فنزلت هذا الماء وعليه رقيق من رقيق مال الله، وعليهم حبشيّ - وليس بأجدع، وهو ما علمْت، وأثنى عليه - ولهم في كلّ يوم جَزور؛ ولي منها عظم آكله أنا وعيالي. قلت: مَالَك من المال؟ قال: صِرمة من الغنم وقطيع من الإبل، في أحدهما غلامي وفي الآخر أمَتي، وغلامي حُرّ إلى رأس السنة. قلت: إنّ أصحابك قِبَلنا أكثر الناس مالاً، قال: أمَا إنهم ليس لهم في مال الله حق إلّا ولي مثله.

وأمّا الآخرون، فإنهم رَوْوا في سبب ذلك أشياء كثيرة، وأموراً شنيعة، كرهت ذكرها.

وفي هذه السنة، هرب يَزْدَجِرْد بن شهريار في قول بعضهم من فارس إلى خراسان.

ذكر من قال ذلك وما قال فيه:

ذكر عليّ بن محمد أنّ مسلمة أخبره عن داود، قال: قدِم ابنُ عامر البَصرة، ثمّ خرج إلى فارس فافتتحها،

وهرب يَزْدَجِرد من جُوز - وهي أردشير خُرّه - في سنة ثلاثين. فوجّه ابنُ عامر في أثره مجاشعَ بن مسعود السُّلَمي، فأتبعه إلى كَرْمان، فنزل مجاشع السِّيرَجان بالعسكر، وهرب يَزْدَجرد إلى خُراسان. قال: وعبدُ القيس تقول: وجّه ابنُ عامر هرمَ بن حيّان العبديّ، وبكر بن وائل تقول: وجّه ابنَ حسان اليشكريّ. قال: وأصحّه عندنا مجاشع.

قال عليّ: وأخبرَنا سلَمة بن عثمان - وكان فاضلا - عن شيخ من أهل كَرْمان والفضلِ الكَرمانيّ، عن أبيه، قال: اتّبع مجاشع يَزْدَجِردَ فخرج من السِّيرَجان، فلما كان عند القصر في بِيمَند - وهو الذي يقال له قصر مجاشع - أصابهم الثلج والدّمَق، فوقع الثلج، واشتدّ البرد، وصار الثلج قامة رُمْح، فهلك الجند، وسلم مجاشع ورجل كانت معه جارية، فشقّ بطن بعير، فأدخلها فيه وهرب؛ فلمّا كان من الغد، جاء فوجدها حيّة فحملها، فسُمّيَ ذلك القصر قصر مجاشع؛ لأن جيشه هلكوا فيه؛ وهو على خمسة فراسخ أو ستّة من السّيرَجان.

قال عليّ: أخبرنا أبو المقدام، عن بعض مشيخته، قال: خرج مجاشع على وفدِ أهل البصرة من تُسْتَر - وفيهم الأحنف - وأخذ في غداة واحدة على لجام واحد خمسين ألفاً، سبق على الصّفراء ابنة الغرّاء ابنة الغَبْراء، فأخذها منه عمر حين قاسم عمّاله الأموال.

قال عليّ: فقلت للنضر بن إسحاق: إنّ أبا المقدام ذكر هذا الحديث! فقال: صدقَ، سمعته من عدّة من الحيّ وغيرهم، وفرسُه الصفراء ابنة الغرّاء ابنة الغبراء. وهو مجاشع بن مسعود بن ثعلبة بن عائذ بن وهب بن ربيعة بن يَربوع بن سَمّال بن عوف بن امرىء القيس بن بُهْثة بن سُلَيم. ويكنَّى أبا سليمان.

قال: وفي هذه السنة زاد عثمان النّداء الثالث على الزّوراء، وصلّى بمِنىً أربعاً.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين

ذكر ما كان فيها من الأحداث المشهورة

فممّا كان فيها من ذلك غزوة المسلمين الرّوم التي يقال لها :

غزوة الصواري

في قول الواقديّ . فأمّا أبو معشر فإنه قال فيما حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عنه : كانت غزوة الصّواري سنة أربع وثلاثين ، وقال : كانت في سنة إحدى وثلاثين الأساودة في البحر ووقائع كسرى .

وقال الواقديّ : غزوة الصواري والأساودة كلتاهما كانتا في سنة إحدى وثلاثين .

ذكر الخبر عن هاتين الغزوتين :

ذكر الواقديّ أن محمد بن صالح حدّثه ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، أنّ أهل الشام خرجوا ؛ عليهم معاوية بن أبي سفيان ، وكانت الشام قد جُمع جمعها لمعاوية بن أبي سفيان .

ذكر السبب في جمعها له :

كتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن عبد الملك والربيع وأبي مجالد وأبي عثمان وأبي حارثة ، قالوا : لما حُضِر أبو عبيدة استخلَف على عَمله عياض بن غَنْم ـ وهو خاله وابن عمّه ـ وقد كان وليَ بالجزيرة عملاً ، فعزله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ فلحق بأبي عبيدة بالشام ؛ وكان معه ؛ وكان جواداً مشهوراً بالجود ، لا يَلِيق شيئاً ، ولا يمنع أحداً . فكلّم عمر في ذلك ، فقيل له : عزلت خالداً وعتبتَ عليه العطاء ، وعياض أجود العرب وأعطاهم ؛ لا يمنع شيئاً يُسأله ؛ فقال عمر : متى سِيمَه عياض في ماله حتى يخلص إلى مالنا ! وإني مع ذلك لم أكن مغيِّراً أمراً قضاه أبو عبيدة . ومات عياض بن غَنْم بعد أبي عبيدة ، فأمّر عمر على عمله سعيد بن حِذْيَم الجُمَحيّ ، ومات سعيد بعدُ ؛ فأمّر عمر مكانه عُمير بن سعد الأنصاريّ ؛ ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردُن ، وعمير بن سعد على حِمْص وقِنَّسْرين ؛ وإنما مصّر قِنَّسرين معاوية بن أبي سفيان لمن لحق به من أهل العراقين ومات يزيد بن أبي سفيان ، فجعل عمر مكانه معاوية ونعاه لأبي سفيان ، فقال : مَنْ جعلتَ على عمله يا أمير المؤمنين؟ فقال : معاوية ، فقال : وصلتك رَحم ؛ فاجتمعت لمعاوية الأردنَ ودمشق ؛ ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردنّ وعمير بن سعد على حمْص وقِنَّسرين ، وعلقمة بن مجزّز على فلسطين وعمرو بن العاص على مصر .

وكتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن مبشِّر ، عن سالم ، قال : كان أوّل عامل استعمله عثمان بن عفان سعد بن أبي وقّاص عن وصيّة عمر . ثمّ إنّ عمير بن سعد طُعِن فأضنى منها ، فاستعفى عثمان

واستأذنه في الرجوع إلى أهله؛ فأذن له؛ وضمّ حِمْص وقنَّسرين إلى معاوية.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان، عن خالد بن مَعْدان؛ قال: لمّا ولِّي عثمان أقرّ عمال عمر على الشام؛ فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكنانيّ ـ وكان على فلسطين ـ ضمّ عمله إلى معاوية، ومرض عُمَير بن سعد في إمارة عثمان مرضاً طال به، فاستعفاه واستأذنه فأذن له، وضمّ عمله إلى معاوية؛ فاجتمع الشام على معاوية لسنتين من إمارة عثمان. وكان عمرو بن العاص على مصر زمانَ عمر، مجتمعةً له، فأقرّه عثمان صَدراً من إمارته.

رجع الحديث إلى حديث الواقديّ عن خبر الغزوتين اللّتين ذكرتهما:

إنّ أهل الشام خرجوا، عليهم معاوية بن أبي سفيان؛ وعلى أهل البَحْر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح. وقال: وخرج عامئذ قسطنطين بن هِرَقل لما أصاب المسلمون منهم بإفريقيَة، فخرجوا في جَمْعٍ لم يجتمع للرّوم مثله قطّ منذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركَب؛ فالتقوْا هم وعبد الله بن سعد، فأمّن بعضهم بعضاً حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك بين صواريها.

قال ابن عمر: حدّثني عيسى بن علقمة، عن عبد الله بن أبي سفيان، عن أبيه، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان، قال: كنت معهم، فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلَها قطّ؛ وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوْا قريباً منا؛ وسكنت الرّيح عنّا، فقلنا: الأمن بيننا وبينكم. قالوا: ذلك لكم ولنا منكم، ثم قلنا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنْكم؛ وإن شئتم فالبحر. قال: فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: الماء؛ فدنونا منهم؛ فربطنا السفنَ بعضها إلى بعض حتى كنّا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم، فقاتلنا أشدّ القتال، ووثبت الرّجال يضطربون بالسيوف على السفن، ويتواجؤون بالخناجر، حتى رجعت الدّماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً.

قال ابن عمر: فحدّثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عمّن حضر ذلك اليوم، قال: رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج، ؛ وإنّ عليه لمثلَ الظَّرِب العظيم من جثث الرجال، وإنّ الدم لغالب على الماء، ولقد قتل يومئذ من المسلمين بشر كثير، وقتِل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قطّ [مثله]. ثم أنزل الله نصرَه على أهل الإسلام، وانهزم القسطنطين مدبراً، فما انكشف إلاّ لما أصابه من القتل والجراح؛ ولقد أصابه يومئذ جراحات مكث منها حيناً جريحاً.

قال ابن عمر: حدّثني مولى أمّ محمد، عن خالد بن أبي عمران، عن حَنَش بن عبد الله الصنعانيّ، قال: كان أوّل ما سُمع من محمد بن أبي حُذيفة حين ركب الناس البحر سنة إحدى وثلاثين، لمّا صلى عبد الله بن سعد بن أبي سرْح بالناس العصر، كَبّر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً ورفع صوته حتى فرغ الإمام عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، فلما انصرف سأل: ما هذا؟ فقيل له: هذا محمد بن أبي حذيفة يكبّر، فدعاه عبد الله بن سعد، فقال له: ما هذه البدعة والحدَث؟ فقال له: ما هذه بدعة ولا حدَث؛ وما بالتّكبير بأس، قال: لا تعودنّ.

قال: فأسكَت محمد بن أبي حذيفة، فلمّا صلّى المغرب عبد الله بن سعد كبّر محمد بن أبي حُذيفة تكبيراً أرفع من الأوّل، فأرسل إليه: إنّك غلام أحمق؛ أما والله لولا أني لا أدري ما يُوافق أمير المؤمنين لقاربتُ بين

خَطْوك. فقال محمد بن أبي حذيفة: والله ما لَكَ إلى ذلك سبيل؛ ولو هممتَ به ما قدرتَ عليه. قال: فكُفَّ خيرٌ لك؛ والله لا تركب معنا، قال: فأركبُ مع المسلمين؟ قال: اركبْ حيث شئتَ. قال: فركب في مركب وحدَه ما معه إلا القِبط؛ حتى بلغوا ذات الصواري؛ فلقُوا جموع الرّوم في خمسمائة مركب أو ستمائة فيها القسطنطين بن هرقل، فقال: أشيروا عليّ، قالوا: ننظر الليلة، فباتوا يضربون بالنّواقيس، وبات المسلمون يصلّون ويدعون الله.

ثم أصبحوا وقد أجمع القسطنطين أن يقاتل، فقرّبوا سفنَهم، وقرّب المسلمون فربطوا بعضها إلى بعض، وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن، ويأمرهم بالصبر، ووثبت الرّوم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها؛ فكانوا يقاتلون على غير صفوف. قال: فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم إنّ الله نصر المؤمنين، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينجُ من الرّوم إلاّ الشريد.

قال: وأقام عبد الله بذات الصوارِي أيّاماً بعد هزيمة القوم؛ ثم أقبل راجعاً؛ وجعل محمد بن أبي حُذيفة يقول للرجل: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقًّا، فيقول الرجل: وأيّ جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا، وفعل كذا وكذا حتى أفسد الناس. فقدموا بلدَهم وقد أفسدهم، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون بـه.

قال محمد بن عمر: فحدّثني معمر بن راشد، عن الزُّهريّ، قال: خرج محمد بن أبي حُذيفة ومحمد بن أبي بكر عامَ خرج عبدالله بن سعد، فأظهرا عيب عثمان وما غيّر وما خالف به أبا بكر وعمر؛ وأنّ دم عثمان حلال. ويقولان: استعملَ عبدَ الله بن سعد؛ رجلاً كان رسول الله ﷺ أباح دمه ونزل القرآن بكفره، وأخرج رسولُ الله ﷺ قوماً وأدخلهم، ونزع أصحابَ رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر. فبلغ ذلك عبدَ الله بن سعد، فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين، ولقُوا العدوّ؛ وكانا أكلّ المسلمين قتالا، فقيل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكّمه! عبد الله بن سعد استعمله عثمان، وعثمان فعل وفعل؛ فأفسدا أهلَ تلك الغزاة، وعابا عثمان أشدّ العيب. فأرسل عبدُ الله بن سعد إليهما ينهاهما أشدّ النّهي، وقال: والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما.

قال الواقديّ: وفي هذه السنة تُوُفِّيَ أبو سفيان بن حَرْب وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وثلاثين ـ فتحت في قول الواقديّ أرمينيَة على يديْ حبيب بن مسلمة الفهريّ.

وفي هذه السنة قتِل يزدجرد ملك فارس.

ذكر الخبر عن سبب مقتله:

اختُلف في سبب مقتله؛ وكيف كان ذلك؛ فقال عليّ بن محمد: أخبرنا غياث بن إبراهيم، عن ابن إسحاق، قال: هرب يزدَجرد من كَرْمان في جماعة يسيرة إلى مَرْو، فسأل مرزبانها مالاً فمنعه، فخافوا على أنفسهم، فأرسلوا إلى الترك يستنصرونهم عليه، فأتوه فبيّتوه، فقتلوا أصحابه، وهرب يَزْدَجر حتى أتى منزلَ

رجل ينقر الأرحاء على شطّ المَرْغاب، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله.

قال عليّ: وأخبرنا الهذليّ، قال: أتى يَزْدَجرد مَرْوَ هارباً من كَرْمان، فسأل مرزبانها وأهلها مالاً، فمنعوه وخافوه، فبيّتوه ولم يستجيشوا عليه الترك، فقتلوا أصحابَه، وخرج هارباً على رجليه، معه منطقته وسيفه وتاجه؛ حتى انتهى إلى منزل نقّار على شطّ المَرغاب، فلما غفل يزدجرد قتله النّقار، وأخذ متاعه وألقى جسده في المَرْغاب، وأصبح أهل مَرْو فاتّبعوا أثره، حتى خِفيَ عليهم عند منزل النقّار، فأخذوه، فأقرّ لهم بقتله وأخرج متاعه؛ فقتلوا النّقار وأهل بيته، وأخذوا متاعه ومتاع يزدجرد، وأخرجوه من المَرْغاب فجعلوه في تابوت من خشب.

قال: فزعم بعضهم أنهم حملوه إلى إصطَخْر فدفن بها في أول سنة إحدى وثلاثين، وسمِّيت مَرْو « خذاه دُشْمَن »، وقد كان يَزْدَجرد وطيء امرأة بها فولدت له غلاماً ذاهب الشقّ ـ وذلك بعد ما قتِل يَزْدَجرد ـ فسمى المُخدَج، فوُلِد له أولاد بخراسان، فوجد قُتيبة حين افتتح الصُّغد أو غيرها جاريتيْن فقيل له: إنّهما من وَلَد المخدَج، فبعث بهما ـ أو بإحداهما ـ إلى الحجَّاج بن يوسف، فبعَث بها إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت للوليد يزيد بن الوليد الناقصَ.

قال عليّ: وأخبرنا رَوْح بن عبد الله، عن خُرْدَاذبه الرازيّ؛ أنّ يَزْدَجرد أتى خُراسان ومعه خُرَّزاذمهر، أخو رستَم، فقال لماهويه مرزبان مَرْوَ: إني قد سَلّمت إليك الملك. ثم انصرف إلى العراق وأقام يَزْدَجرد بمَرْو، وهمّ بعزل ماهويه، فكتب ماهويه إلى الترك يخبرهم بانهزام يَزْدَجرد وبقدومه عليه، وعاهدهم على مؤازرتهم عليه، وخلّى لهم الطريق.

قال: وأقبل الترك إلى مَرْوَ، وخرج إليهم يَزْدَجرد فيمن معه من أصحابه، فقاتلهم ومعه ماهويه في أساوِرة مَرْو، فأثخن يَزْدَجرد في الترك، فخشي ماهويه أن ينهزم الترك، فتحوّل إليهم في أساورة مَرْو، فانهزم جندُ يَزْدَجرد وقتِلوا، وعُقر فرس يَزْدَجرد عند المساء، فمضى ماشياً هارباً حتى انتهى إلى بيت فيه رحاً على شطّ المرغاب، فمكث فيه ليلتين، فطلبه ماهويه فلم يقدر عليه، فلما أصبح اليوم الثاني دخل صاحب الرّحا بيتَه، فلما رأى هيئة يَزْدَجرد قال: ما أنت؟ إنسيّ أوجنيّ! قال: إنسيّ؛ فهل عندك طعام؟ قال: نعم، فأتاه به، فقال: إني مُزمزِم فأتني بما أزمزم به، فذهب الطحان إلى إسوار من الأساورة، فطلب منه ما يزمزم به، قال: وما تصنع به؟ قال: عندي رجل لم أرَ مثله قطّ؛ وقد طلب هذا مني. فأدخله على ماهويه، فقال: هذا يَزْدَجرد، اذهبوا فجيئُوني برأسه، فقال له المؤبَذ: ليس ذلك لك، قد علمتَ أنّ الدِّين والمُلْك مقترنان لا يستقيم أحدهما إلاّ بالآخر، ومتى فعلتَ انتهكت الحُرْمة التي لا بعدها. وتكلم الناس وأعظموا ذلك، فشَتمهم ماهويه، وقال للأساورة: مَن تكلم فاقتلوه. وأمر عِدّة فذهبوا مع الطّحان، وأمرهم أن يقتلوا يَزْدَجرد، فانطلقوا فلما رأوه كرهوا قَتْله، وتدافعوا ذلك وقالوا للطحان، ادخل فاقتله، فدخل عليه وهو نائم ومعه حجر فشدخ به رأسَه، ثم احتزّ رأسه، فدفعه إليهم، وألقى جسده في المَرْغاب. فخرج قوم من أهل مَرْوَ، فقتلوا الطّحان، وهدموا رحاه، وخرج أسقُف مَرْو، فأخرج جسد يَزْدَجرد من المرغاب، فجعله في تابوت، وحَمَله إلى إصطخر، فوضعه في ناووس.

وقال آخرون في ذلك ما ذكر هشام بن محمد؛ أنه ذُكِر له أن يَزْدَجرد هرب بعد وقعة نِهاوند، وكانت آخر

وقعاتهم حتى سقط إلى أرض أصبهان، وبها رجل يقال له مطيار من دَهاقينها ـ وهو المنتدب كان لقتال العرب حين نَكَلت الأعاجم عنها ـ فدعاهم إلى نفسه، فقال: إن ولِّيتُ أمورَكم وسرت بكم إليهم ما تجعلون لي؟ فقالوا: نُقرّ لك بفضلك. فسار بهم، فأصاب من العرب شيئاً يسيراً، فحظِيَ به عندهم، ونال بـه أفضلَ الدرجات فيهم. فلما رأى يَزْدَجرد أمرَ أصبَهان ونزلها، أتاه مطيار ذات يوم زائراً، فحجبه بوابه، وقال له: قف حتى أستأذن لك عليه، فوثب عليه فشجّه أَنَفةً وحمِيّة لحجبْه إيّاه، ودخل البواب على يَزْدَجرد مدمًّى، فلمّا نظر إليه أفظعه ذلك، وركب من ساعته مرتحلاً عن أصبهان، وأشير عليه أن يأتيَ أقصى مملكته فيكون بها،لاشتغال العرب عنه بما هم فيهِ إلى يوم. فسار متوجّهاًإلى ناحية الرّيّ، فلما قدمها خرج إليه صاحب طَبَرِستان، وعرض عليه بلادَه، وأخبره بحصانتها، وقال له: إن أنت لم تجبني يومك هذا ثم أتيتني بعد ذلك لم أقبلك ولم آوِك؛ فأبى عليه يَزْدَجرد، وكتب له بالأصبَهبذيّة، وكان له فيما خلا عليه درجة أوضع منها.

وقال بعضهم: إنّ يَزْدَجرد مضى من فوره ذلك إلى سجسْتان، ثمّ سار منها إلى مَرْوَ في ألف رجل من الأساورة.

وقال: بعضهم: إنّ يَزْدَجرد وقع إلى أرض فارس، فأقام بها أربع سنين، ثم أتى أرض كرْمان، فأقام بها سنتين أو ثلاث سنين؛ فطلب إليه دِهقان كَرْمان أن يقيم عنده، فلم يفعل؛ وطلب من الدّهقان أن يعطيه رهينة، فلم يعطه دِهقان كَرْمان شيئاً، فلم يعطه ما طلب، فأخذ برجله فسحبه وطرده عن بلاده؛ فوقع منها إلى سجسْتان، فأقام بها نحواً من خمس سنين. ثمّ أجمع أن ينزل خُراسان فيجمع الجموع فيها ويسير بهم إلى من غَلَبه على مملكته، فسار بمَنْ معه إلى مَرْو، ومعه الرُّهن من أولاد الدّهاقين، ومعه من رُؤسائهم فرُّخزاذ، فلما قدم مَرْو استغاث منهم بالملوك، وكتب إليهم يستمدّهم، وإلى صاحب الصين وملك فَرْغانة وملك كابُل وملك الخزَر والدّهقان يومئذ بمَرْو ماهويه بن مافناه بن فيد أبو بَراز. ووكّل ماهويه ابنه براز مدينة مَرْو ـ وكانت إليه ـ وأراد يَزْدَجِرد دخول المدينة لينظر إليها وإلى قُهَنْدزها ـ وكان ماهويه قد تقدّم إلى ابنه ألاّ يفتحها له إن رام دخولها تخوّفاً لمكره وغدره ـ فركب يَزْدَجِرد في اليوم الذي أراد دخولها، فأطاف بالمدينة، فلما انتهى إلى باب من أبوابها، وأراد دخولها منه صاح أبو بَراز ببَراز: أن افتح ـ وهو في ذلك يشدّ مِنطقته، ويومِىء إليه ألاّ يفعل ـ وفطن لذلك رجل من أصحاب يَزْدَجِرد، فأعلمه ذلك، واستأذنه في ضَرْب عنق ماهويه، وقال: إن فعلت صفتْ لك الأمور بهذه الناحية؛ فأبى عليه.

وقال بعضهم: بل كان يَزْدَجِرد ولّى مَرْو فَرّخزاذ، وأمر بَراز أن يدفع القُهَندز والمدينة إليه، فأبى أهل المدينة ذلك؛ لأن ماهويه أبا براز تقدّم إليهم بذلك، وقال لهم: ليس هذا لكم بملك، فقد جاءكم مفلولاً مجروحاً، ومَرْو لا تحتمل ما يحتمل غيرها من الكُوَر، فإذا جئتكم غداً فلا تفتحوا الباب. فلما أتاهم فعلوا ذلك، وانصرف فرّخزاذ، فجثا بين يدي يَزْدَجِرد، وقال: استصعبتْ عليكَ مَرْو؛ وهذه العرب قد أتتك. قال: فما الرأي؟ قال: الرأي أن نلحق ببلاد الترك ونقيم بها، حتى يتبيّنَ لنا أمر العرب؛ فإنهم لا يَدَعـون بلدة إلاّ دخلوها. قال: لست أفعل؛ ولكني أرجع عَوْدِي على بدئي؛ فعصاه ولم يقبل رأيه، وسار يَزْدَجِرد، فأتى بَراز دِهقان مَرْو، وأجمع على صرف الدَّهقنة إلى سِنْجان ابن أخيه، فبلغ ذلك ماهويه أبا براز، فعمِل في هلاك يَزْدَجرد وكتب إلى نَيْزك طَرْخان يخبره أنّ يَزْدَجِرد وقع إليه مفلولا، ودعاه إلى القُدوم عليه لتكون أيديهما معاً في أخذه، والاستيثاق منه، فيقتلوه أو يصالحوا عليه العرب، وجعل له إن هو أراحه منه أن يفيَ له كلّ يوم بألف

درهم، وسأله أن يكتب إلى يَزْدَجِرد مماكراً له لينحِّيَ عنه عامّة جنده، ويحصل في طائفة من عسكره وخواصّه، فيكون أضعف لرُكنه، وأهْون لشوكته، وقال: تُعْلِمه في كتابه إليه الذي عزمتَ عليه؛ من مناصحته ومعونته على عدوّه من العرب، حتى يقهرهم، وتطلب إليه أن يشتقّ لك اسماً من أسماء أهل الدّرجات بكتاب مختوم بالذهب، وتُعْلِمه أنك لستَ قادماً عليه حتى يُنَحِّيَ عنه فرّخزاذ.

فكتب نَيْزَك بذلك إلى يَزْدَجِرد، فلمّا ورد عليه كتابه بعث إلى عظماء مَرْو فاستشارهم، فقال له سَنْجان: لست أرى أن تنحِّيَ عنك جندك وفَرّخزاذ لشيء، وقال أبو براز: بل أرى أن تتألّف نيزك وتجيبه إلى ما سأل. فقبِل رأيه، وفرّق عنه جنده، وأمر فَرّخزاذ أن يأتي أجَمة سَرَخسْ، فصاح فَرّخزاذ، وشقّ جيبه، وتناول عموداً بين يديه يريد ضرب أبي براز به، وقال: يا قتَلة الملوك، قتلتم ملِكيْن، وأظنكم قاتلي هذا! ولم يبرح فَرّخزاذ حتى كتب له يَزْدَجِرد بخطّ يده كتاباً: هذا كتاب لفرّخزاذ؛ إنك قد سلّمت يزدجِرْد وأهله وولده وحاشيَته وما معه إلى ماهويه دِهْقان مَرْو. وأشهد عليه بذلك.

فأقبل نيزك إلى موضع بين المرْويْن، يقال له حلسدان؛ فلما أجمع يزدجرد على لقائه والمسير إليه، أشار عليه أبو براز ألّا يلقاه في السلاح فيرتاب به، وينفُر عنه؛ ولكن يلقاه بالمزامير والملاهي؛ ففعل فسار فيمن أشار عليه ماهويه، وسمّى له، وتقاعس عنه أبو براز، وكَرْدَس نيزك أصحابَه كراديس. فلمّا تدانيا استقبَله نيزك ماشياً، ويَزْدَجِرد على فرس له، فأمر لنيزك بجنيبة من جنائبه فركبها؛ فلما توسط عسكره تواقفا، فقال له نيزك فيما يقول: زوّجني إحدى بناتك وأناصحك، وأقاتل معك عدوك. فقال له يَزْدَجِرد: وعليَّ تجترىء أيّها الكلب! فعلاه نيزك بمخْفقته، وصاح يَزْدَجِرد: غَدَر الغادر! وركض منهزماً، ووضع أصحاب نيزك سيوفهم فيهم، فأكثروا فيهم القتل.

وانتهى يَزْدَجِرد من هَزيمته إلى مكان من أرض مَرْو، فنزل عن فرسه، ودخل بيت طحّان فمكث فيه ثلاثة أيام؛ فقال له الطحّان: أيّها الشقيّ، اخرج فاطعَم شيئاً، فإنك قد جعت منذ ثلاث، قال: لستُ أصِل إلى ذلك إلا بزمزمة وكان رجل من زمازمة مَرْو أخرج حنطة له ليطحنها، فكلمه الطّحان أن يزمزم عنده ليأكل، ففعل ذلك؛ فلما انصرف سمع أبا براز يذكرّ يَزْدَجِرد، فسألهم عن حِلْيته؛ فوصفوه له، فأخبرهم أنه رآه في بيت طَحّان، وهو رجل جَعْد مقرون حسن الثنايا، مقرّط مسوَّر. فوجّه إليه عند ذلك رجلاً من الأساورة، وأمره إنْ هو ظفر به أن يخنقه بوَتر، ثم يطرحه في نهر مَرْو؛ فلقوا الطحّان، فضربوه ليدلّ عليه فلم يفعل، وجحدهم أن يكون يعرف أين توجّه. فلما أرادوا الانصراف عنه قال لهم رجل منهم: إنّي أجدُ ريح المسك؛ ونظر إلى طرف ثوبه من ديباج في الماء، فاجتذبه إليه؛ فإذا هو يَزْدَجِرد، فسأله ألّا يقتله ولا يدلّ عليه، ويجعله له خاتمه وسواره ومنطقته؛ قال الآخر: أعطني أربعة دراهم وأخلِّ عنك؛ قال يَزْدَجِرد: ويحك خاتمي لك، وثمنه لا يحصى! فأبى عليه؛ قال يَزْدَجِرد: قد كنت أخبَر أني سأحتاج إلى أربعة دراهم؛ وأضطر إلى أن يكون أكلي أكل الهرّ، فقد عاينتُ، وجاءني بحقيقته؛ وانتزع أحد قُرْطيه فأعطاه الطحان مكافأة له لكتمانه عليه، ودنا منه كأنه يكلمه بشيء، فوصف له موضعه، وأنذر الرَّجل أصحابه، فأتوْه، فطلب إليهم يَزْدَجِرد ألّا يقتلوه وقال: ويحكم! إنّا نجد في كتبنا أنّ مَنْ اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا؛ مع ما هو قادم عليه، فلا تقتلوني وآتوني الدّهقان أو سرّحوني إلى العرب؛ فإنهم يستحيون مثلي من الملوك؛ فأخذوا ما كان عليه من الحَلْي، فجعلوه في جراب، وختموا عليه؛ ثم خنقوه بوَتَر، وطرحوه في نهر مَرْو، فجرى به الماء حتى انتهى إلى فُوّهة الرّزيق، فتعلّق

بعُود، فأتاه أسقفّ مَرْو، فحمله ولفّه في طيلسان ممسَّك، وجعله في تابوت، وحمله إلى بائي بابان أسفل ماجان، فوضعه في عَقْد كان يكون مجلس الأسقفّ فيه وردمه، وسأل أبو براز عن أحد القُرْطين حين افتقده، فأخذ الذي دلّ عليه فضربه حتى أتى على نفسه، وبعث بما أصيب له إلى الخليفة يومئذ، فأغرَم الخليفة الدّهقان قيمة القُرْط المفقود.

وقال آخرون: بل سار يَزْدَجرد من كَرْمان قبل ورود العرب إياها، فأخذ على طريق الطَّبَسَين وقُهستان، حتى شارف مَرْو في زهاء أربعة آلاف رجل، ليجمع من أهل خُراسان جموعاً، ويكرّ إلى العرب ويقاتلهم، فتلقّاه قائدان متباغضان متحاسدان كانا بمَرْو؛ يقال لأحدهما براز والآخر سَنْجان؛ ومَنَحاه الطاعة، وأقام بمَرْو، وخصّ براز فحسده ذلك سَنجان؛ وجعل براز يبغي سَنْجان الغوائل، ويوغِل صدر يَزْدَجرد عليه، وسعى بسَنْجان حتى عزم على قتله؛ وأفشى ما كان عزم عليه من ذلك إلى امرأة من نسائه كان براز واطأها؛ فأرسلت إلى بَراز بنسوة زعمت بإجماع يَزْدَجِرد على قتل سَنْجان، وفشا ما كان عزم عليه يَزْدَجِرد من ذلك. فنذر سَنْجان، وأخذ حذْره، وجمع جمعاً كنحو أصحاب براز، ومن كان مع يَزْدَجِرد من الجند، وتوجّه نحو القصر الذي كان يَزْدَجرد نازلَه. وبلغ ذلك براز، فنكص عن سَنجان لكثرة جُموعه، ورَعَب جمع سنجان يَزْدَجِرد وأخافه، فخرج من قصره متنكّراً، ومضى على وجهه راجلاً لينجوَ بنفسه، فمشى نحواً من فرسخين حتى وقع إلى رحاً ما، فدخل بيت الرّحا، فجلس فيه كالاًّ لغباً، فرآه صاحب الرّحا ذا هَيئة وطُرّة وبزّة كريمة، ففرش له، فجلس وأتاه بطعام فطعِم، ومكث عنده يوماً وليلة، فسأله صاحب الرّحا أن يأمر له بشيء، فبذل له منطقة مكلَّلة بجوهر كانت عليه؛ فأبى صاحب الرّحا أن يقبلها، وقال: إنما كان يرضيني من هذه المنطقة أربعة دراهمَ كنت أطعم بها وأشرب، فأخبره أنه لا ورق معه، فتملّقه صاحب الرحا؛ حتى إذا غفا قام إليه بفأس له فضرب بها هامته فقتله، واحتزّ رأسه؛ وأخذ ما كان عليه من ثياب ومنطقة، وألقى جيفته في النهر الذي كان تدور بمائه رحاه؛ وبقَر بطنه، وأدخل فيه أصولاً من أصول طرْفاء كانت نابتة في ذلك النهر لتحبس جُثّته في الموضع الذي ألقاه فيه، فلا يسفل فيعرف ويطلب قاتله وما أخذ من سلَبه، وهرب على وجهه. وبلغ قتلُ يَزْدَجِرد رجلاً من أهل الأهواز كان مُطراناً على مَرْو؛ يقال له إيلياء، فجمع مَن كان قِبَله من النصارى، وقال لهم: إنّ ملِك الفرس قد قتِل، وهو ابن شهريار بن كسرى؛ وإنما شهريار ولدُ المؤمنة التي قد عرفتم حقَّها وإحسانها إلى أهلِ ملّتها من غير وجه؛ ولهذا الملك عنصر في النصرانيّة مع ما نال النصارى في مُلْك جدّه كسرى من الشرَف؛ وقبل ذلك في مملكة ملوك من أسلافه من الخير؛ حتى بَنَى لهم بعض البِيَع، وسدّد لهم بعض مِلّتهم؛ فينبغي لنا أن نحزَن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه وجَدّته شيرين، كان إلى النصارى؛ وقد رأيت أن أبنيَ له ناوُوساً، وأحمل جُثّته في كرامة حتى أواريَهَا فيه.

فقال النصارى: أمرنا لأمرك أيّها المطران تَبع؛ ونحن لك على رأيك هذا مواطئون. فأمر المطران فبنى في جوف بستان المطارنة بمَرْو ناووساً؛ ومضى بنفسه ومعه نصارى مَرْو حتى استخرج جُثّة يَزْدَجِرد من النهر وكَفّنها، وجعلها في تابوت، وحمله مَن كان معه من النصارى على عواتقهم حتى أتوْا به الناووس الذي أمر ببنائه له وواروه فيه، وردموا بابه؛ فكان مُلْك يَزْدَجِرد عشرين سنة، منها أربع سنين في دَعَة وستّ عشرة سنة في تعب من محاربة العرب إيّاه وغلظتهم عليه.

وكان آخر مِلِك مَلَك من آل أردشير بن بابك؛ وصفا الملك بعده للعرب.

وفي هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وثلاثين ـ شخص عبد الله بن عامر إلى خَراسان ففتح أبْرَشهر وطوس وبِيورد ونَسا حتى بلغ سَرَخْس، وصالح فيها أهل مَرْو.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذُكر أن ابن عامر لما فتح فارس قام إليه أوس بن حبيب التميميّ، فقال: أصلح الله الأمير! إنّ الأرض بين يديك، ولم تفتتح من ذلك إلّا القليل، فسرْ فإنّ الله ناصرُك؛ قال: أوَ لم نأمر بالمسير! وكره أن يُظهر أنه قبِل رأيه؛ فذكر عليّ بن محمدأن مَسلمة بن مُحارب أخبره عن السَّكن بن قتادة العُرَينيّ، قال: فتح ابن عامر فارسَ ورجع إلى البصرة، واستعمل على إصطخر شريكَ بن الأعور الحارثيّ، فبنى شريك مسجد إصطخر، فدخل على ابنِ عامر رجل من بني تميم، قال: كنّا نقول: إنه الأحنف ـ ويقال: أوْس بن جابر الجُشميّ جُشَم تميم ـ فقال له: إنّ عدوّك منك هارب؛ وهو لك هائب، والبلاد واسعة؛ فسرْ فإنّ الله ناصرك، ومعزّ دينه.

فتجهّز ابن عامر، وأمر الناس بالجَهاز للمسير، واستخلف على البصرة زياداً، وسار إلى كَرْمان؛ ثم أخذ إلى خراسان، فقوم يقولون: أخذ طريق أصبهان؛ ثم سار إلى خُراسان.

قال عليّ: أخبرنا المفضّل الكَرْمانيّ، عن أبيه، قال: كان أشياخ كَرْمان يذكرون أنّ ابن عامر نزل المعسكر بالسِّيرجان، ثمّ سار إلى خراسان، واستعمل على كَرْمان مجاشع بن مسعود السُّلَميّ، وأخذ ابن عامر على مفازة رابرَ؛ وهي ثمانون فرسخاً، ثم سار إلى الطَّبَسَين يريد أبْرَشهر؛ وهي مدينة نيسابور، وعلى مقدّمته الأحنف بن قيس، فأخذ إلى قُهستان، وخرج إلى أبْرَشهر فلقيه الهياطلة؛ وهم أهلُ هَراة؛ فقاتلهم الأحنف فهزمهم؛ ثم أتى ابن عامر نيسابور.

قال عليّ: وأخبرنا أبو مخنف، عن نُمَيْر بن وَعْلة، عن الشعبيّ، قال: أخذ ابن عامر على مَفازة خَبيص؛ ثم على خُواست ـ ويقال: على يَزْد ـ ثمّ على قُهستان؛ فقدّم الأحنف فلقيه الهياطلة، فقاتلهم فهزمهم؛ ثم أتى أبْرشهر، فنزلها ابنُ عامر؛ وكان سعيد بن العاص في جُند أهل الكوفة، فأتى جُرجان وهو يريد خراسان؛ فلمّا بلغه نزول ابن عامر أبْرَشهر، رجع إلى الكوفة.

قال عليّ: أخبرنا عليّ بن مجاهد، قال: نزل ابن عامر على أبْرَشهر فغلب على نصفها عَنْوة، وكان النّصف الآخر في يد كنارَى، ونصف نَساوطوس؛ فلم يقدر ابنُ عامر أن يجوزَ إلى مَرْو، فصالح كنارَى، فأعطاه ابنه أبا الصلت بن كنارى وابن أخيه سليماً رَهْناً، ووجّه عبد اللهبن خازم إلى هَراة وحاتم بن النعمان إلى مَرْو، فأخذ ابن عامر ابْنيْ كنارى، فصارا إلى النعمان بن الأفقم النَّصْريّ فأعتقهما.

قال عليّ: وأخبرنا أبو حفص الأزديّ، عن إدريس بن حنظلة العَميّ، قال: فتح ابن عامر مدينة أبْرَشهر عَنْوة؛ وفتح ما حولها طوس وبِيوَرْد ونَسا وحُمْران، وذلك سنة إحدى وثلاثين.

قال عليّ: أخبرنا أبو السّريّ المروزيّ، عن أبيه، قال: سمعتُ موسى بن عبد اللهبن خازم يقول: أبي صالح أهلَ سَرَخْس، بعثه إليهم عبد الله بن عامر من أبْرشهر وصالح ابن عامر أهل أبْرشهر صلْحاً، فأعطوْه جاريتين من آل كسرى بابونج وطهميج ـ أو طمهيج ـ فأقبل بهما معه، وبعث أُمَيْن بن أحمر اليَشكريّ، ففتح ما حول أبْرشهر: طُوس وبِيوَرْد ونَسا وحُمران، حتى انتهى إلى سَرخس.

قال عليّ: وأخبرنا الصَّلت بن دينار، عن ابن سيرين، قال: بعث ابن عامر عبدَ الله بن خازم إلى سَرَخْس؛ ففتحها وأصاب ابن عامر جاريتينْ من آل كسرى، فأعطى إحداهما النّوشجان؛ وماتت بابونج.

قال عليّ: وأخبرنا أبو الذَّيال زُهير بن هُنَيد العَدَوِيّ، عن أشياخ من أهل خُراسان، أنّ ابن عامر سرّح الأسودَ بن كُلثوم العَدَوِيّ - عديّ الرِّباب - إلى بَيْهق؛ وهو من أبرشهر، بينها وبين مدينة أبرشهر ستة عشر فرسخاً، ففتحها وقتِل الأسود بن كلثوم. قال: وكان فاضلاً في دينه، كان من أصحاب عامر بن عبد الله العنبريّ وكان عامر يقول بعد ما أخرِج من البصرة: ما آسى من العراق على شيء إلّا على ظماء الهَواجر، وتجاوب المؤذّنين، وإخوان مثل الأسود بن كلثوم.

قال عليّ: وأخبرنا زهير بن هُنَيد، عن بعض عمومته، قال: غلب ابن عامر على نيسابور، وخرج إلى سَرَخْس، فأرسل إلى أهل مَرْو يَطلب الصّلح؛ فبعث إليهم ابن عامر حاتم بن النُّعمان الباهليّ، فصالح براز مرزبان مَرْو على ألفيْ الف ومائتي ألف.

قال: فأخبرنا مصعب بن حيّان عن أخيه مقاتل بن حيّان، قال: صالحهم على ستة آلاف ومائتي ألف.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين

ذكر ما كان فيها من الأحداث المذكورة

فمن ذلك غزوة معاوية بن أبي سفيان المَضيق، مضيق القسطنطينيّة؛ ومعه زوجته عاتكة ابنة قرظة بن عبد عمرو بن نوْفل بن عبد مناف.

وقيل: فاختة؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق، عن أبي معشر، وهو قول الواقديّ.

وفي هذه السنة استعمل سعيد بن العاص سلمانَ بن ربيعة على فَرْج بَلَنْجَر، وأمدّ الجيش الذي كان به مقيماً مع حُذَيفة بأهل الشام؛ عليهم حبيب بن مسلَمة الفهريّ ـ في قول سيف ـ فوقع الاختلاف بين سلْمان وحبيب في الأمر، وتنازع في ذلك أهل الشام وأهل الكوفة.

ذكر الخبر بذلك:

فمما كتب به إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة قالا: كتب عثمان إلى سعيد: أن أغْزِ سلمان الباب؛ وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب: إنّ الرعيّة قد أبطر كثيراً منهم البِطنة، فقصِّر، ولا تقتحم بالمسلمين؛ فإني خاشٍ أن يُبتَلوا، فلم يزجر ذلك عبد الرحمن عن غايته، وكان لا يقصِّر عن بَلَنْجر، فغزا سنة تسع من إمارة عثمان حتى إذا بلغ بلنْجر؛ حصروها ونصبوا عليها المجانيق والعرّادات، فجعل لا يدنو منها أحد إلا أعنتُوه أو قتلوه؛ فأسرعوا في الناس؛ وقتِل مِعْضَد في تلك الأيام.

ثم إنّ الترك اتّعدوا يوماً، فخرج أهلُ بَلَنْجَر؛ وتوافت إليهم الترك فاقتتلوا؛ فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة ـ وكان يقال له ذو النور ـ وانهزم المسلمون فتفرّقوا، فأمّا من أخذ طريق سلمان بن ربيعة فحماه حتى خرج من الباب، وأمّا مَن أخذ طريق الخَزر، وبلادها، فإنه خرج على جِيلان وجُرجان وفيهم سلْمان الفارسيّ وأبو هريرة، وأخذ القوم جسد عبد الرحمن فجعلوه في سَفَط، فبقيَ في أيديهم، فهم يستسقون به إلى اليوم ويستنصرون به.

كتب إليَّ السريُّ عن شعيب، عن سيف، عن داود بن يزيد، عن الشعبيّ، قال: والله لَسلمانُ بن ربيعة كان أبصَر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجَزور.

كتب إليّ السري، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، عن رجل من بني كنانة، قال: لما تتابعت الغزوات على الخَزَر، وتذامروا وتعايروا وقالوا: كنّا أمة لا يُقرِن لنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة،

فصرنا لا نقوم لها. فقال بعضهم لبعض: إنّ هؤلاء لا يموتون؛ ولو كانوا يموتون لما اقتحموا علينا. وما أصيب في غزواتها أحد إلّا في آخر غزوة عبد الرحمن، فقالوا: أفلا تجرّبون! فكمنوا في الغياض، فمرّ بأولئك الكمين مُرّار من الجند، فرموهم منها؛ فقتلوهم، فواعدوا رؤوسهم، ثمّ تداعوْا إلى حربهم؛ ثم اتّعدوا يوماً؛ فاقتتلوا، فقتِل عبد الرحمن، وأسرع في الناس فافترقوا فِرْقين؛ فِرْق نحو الباب فحماهم سلمان حتى أخرجهم، وفِرْق أخذوا نحو الخزر؛ فطلعوا على جِيلان وجرجان، فيهم سلمان الفارسيّ وأبو هريرة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير بن يزيد، عن أخيه قيس، عن أبيه: قال كان يزيد بن معاوية وعَلقمة بن قيس ومِعْضَد الشيبانيّ وأبو مفزّر التميميّ في خِباء، وعمرو بن عتبة وخالد بن ربيعة والحَلحال بن ذُرّيّ والقَرْثَع في خِباء، وكانوا متجاورين في عسكر بَلَنْجَر؛ وكان القَرْثَع يقول: ما أحسن لَمع الدماء على الثياب! وكان عمرو بن عتبة يقول لقَباء عليه أبيض: ما أحسن حُمرة الدماء في بياضك!

وغزا أهل الكوفة بَلَنْجر سنين من إمارة عثمان لم تَئِمْ فيهنّ امرأة، ولم يَيْتم فيهنّ صبيّ من قَتْلٍ، حتى كان سنة تسع؛ فلمّا كان سنة تسع قبل المزاحفة بيومين رأى يزيد بن معاوية أنّ غزالا جيء به إلى خبائه، لم يرَ غزالا أحسن منه حتى لُفّ في ملحفته، ثم أُتِيَ به قبر عليه أربعة نفر لم ير قبراً أشدّ استواء منه ولا أحسن منه، حتى دفن فيه؛ فلمّا تغادى الناس على الترك رُمي يزيد بحجر، فهشم رأسه، فكأنما زُيِّن ثوبه بالدماء زينة، وليس يتلطّخ؛ فكان ذلك الغزال الذي رأى، وكان بذلك الدم على ذلك القَباء الحسن. فلما كان قبل المزاحفة بيوم تَغادوْا، فقال مِعْضَد لعلقمة: أعِرْني بُرْدَك أعصّب به رأسي؛ ففعل، فأتى البُرْج الذي أصيب فيه يزيد؛ فرماهم فقتل منهم، ورُمي بحجر في عرّادة، ففضخ هامته، واجترّه أصحابُه فدفنوه إلى جنب يزيد، وأصاب عمرو بن عتبة جِراحة؛ فرأى قباءه كما اشتهى. وقتل؛ فلما كان يوم المزاحفة قاتل القَرثَع حتى خُرِّق بالحراب، فكأنما كان قباؤه ثوباً أرضُه ووشيُه أحمر، وما زال الناس ثبوتاً حتى أصيب، وكانت هزيمة الناس مع مقتله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن داود بن يزيد، قال: كان يزيد بن معاوية النَّخعيّ رضي الله عنه وعمرو بن عتبة ومِعْضد أصيبوا يوم بَلَنْجر؛ فأمّا معْضد فإنه اعتجر ببُرد لعلقمة، فأتاه شَظيّة من حجر منجنيق فأمّه، فاستصغره، ووضع يده عليه فمات فغسل دمه علقمة، فلم يخرج؛ وكان يحضر فيه الجمعة، وقال يحرّضني عليه: إنّ فيه دمَ معضد. فأما عمرو فلبس قباء أبيض، وقال: ما أحسن الدم على هذا! فأتاه حجر فقتله، وملأه دماً، وأما يزيد فدلّي عليه شيء فقلته، وقد كانوا حفروا قبراً فأعدُّوه؛ فنظر إليه يزيد، فقال: ما أحسنه! وأرِيَ فيما يرى النائم أنّ غزالاً لم يُر غزالٌ أحسنُ منه، جيء به حتى دفن فيه؛ فكان هو ذلك الغزال. وكان يزيد رقيقاً جميلاً رحمه الله، وبلغ ذلك عثمان، فقال: إنّا لله وإنا إليه راجعون! انتكث أهل الكوفة. اللهمّ تُبْ عليهم وأقْبِلْ بهم.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: استعمل سعيد على ذلك الفَرْج سلمان بن ربيعة، واستعمل على الغَزْو بأهل الكوفة حُذيفة بن اليَمان؛ وكان على ذلك الفَرْج قبل ذلك عبد الرحمن بن ربيعة؛ وأمدّهم عثمان في سنة عشر بأهل الشأم؛ عليهم حبيب بن مسلمة القرشيّ، فتأمّر عليه سلمان، وأبى عليه حبيب؛ حتى قال أهل الشأم: لقد هممنا بضرب سلمان، فقال في ذلك الناس: إذاً والله نضرب حبيباً ونحبسه؛ وإن أبيتم كثرت القتلى فيكم وفينا.

وقال أوس بن مغراء في ذلك:

إن تَصْـرِبـوا سَلْمَـان نَصْـرِبْ حَبيبكُمْ وإن تَـرْحَلوا نَحْـوَ آبْنِ عَفَّـانَ نَـرْحَـلُ
وإن تُقْسِـطوا فـالثّغْـرُ ثَغْـرُ أميـرنـا وهـذا أميـرٌ في الـكَتَـائِب مقْبِـلُ
ونَـحنُ وُلاةُ الثَّغْـرِ كُـنَّـا حُـمـاتَـه لَـيـاليَ نَـرْمـي كُـلَّ ثَغْـرٍ ونُـنْكِـلُ

فأراد حبيب أن يتأمرّ على صاحب الباب كما كان يتأمّر أمير الجيش إذا جاء من الكوفة؛ فلمّا أحسّ حذيفة أقرّ وأقرّوا؛ فغزاها حذيفة بن اليَمان ثلاث غزوات؛ فقتل عثمان في الثالثة؛ ولقيَهم مقتل عثمان، فقال: اللهمّ العن قتلَة عثمان وغُزاة عثمان وشنَأة عثمان . اللهمّ إنا كنّا نعاتبه ويعاتبنا، متى ما كان مَن قبله يعاتبنا ونعاتبه! فاتّخذوا ذلك سُلّماً إلى الفتنة؛ اللهم لا تُمِتْهم إلّا بالسيوف.

وفي هذه السنة ماتَ عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه؛ زعم الواقديّ أنّ عبد الله بن جعفر حدّثه بذلك عن يعقوب بن عُتْبة؛ وأنه يوم مات كان ابنَ خمسٍ وسبعين سنة.

قال: وفيها مات العبّاس بن عبد المطلب؛ وهو يومئذ ابن ثمان وثمانين سنة؛ وكان أسنّ من رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

قال: وفيها مات عبد الله بن زيد بن عبد ربه رحمه الله؛ الذي أُرِيَ الأذان.

قال: وفيها توفّيَ عبد الله بن مسعود بالمدينة، فدفن بالبَقيع رحمه الله فقال قائل: صلّى عليه عمّار، وقال قائل: صلّى عليه عثمان.

وفيها مات أبو طلحة رحمه الله.

قال: وفيها مات أبو ذَرّ رضي الله عنه في رواية سيف.

ذكر الخبر عن وفاته:

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة عن يزيد الفقعسيّ، قال: لما حضرت أبا ذرّ الوفاة؛ وذلك في سنة ثمان في ذي الحِجّة من إمارة عثمان، نزل بأبي ذَرّ؛ فلما أشرف قال لابنته: استشرِفي يا بنيّة فانظرِي هل ترين أحداً! قالت: لا، قال: فما جاءت ساعتي بعدُ؛ ثم أمرها فذبحت شاة، ثم طبختها، ثمّ قال: إذا جاءك الذين يدفنونني فقولي لهم: إنّ أبا ذرّ يقسم عليكم ألّا تركبوا حتى تأكلوا؛ فلمّا نضِجت قدرُها قال لها: انظري هل ترين أحداً؟ قالت: نعم؛ هؤلاء ركْب مقبلون، قال: استقبلي بي الكعبة. ففعلت، وقال: بسم الله، وبالله، وعلى ملّة رسولِ الله ﷺ. ثم خرجت ابنته فتلقّتهم وقالت: رحمكم الله! اشهدوا أبا ذرّ - قالوا: وأين هو؟ فأشارت لهم إليه وقد مات - فادفنوه، قالوا: نعم ونعمةَ عيْن! لقد أكرمَنا الله بذلك؛ وإذا ركبٌ من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود، فمالوا إليه وابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسولُ الله ﷺ: «يموت وحدَه، ويُبعث وحده»؛ فغسلوه وصلّوا عليه ودفنوه، فلما أرادوا أن يرتحلوا قالت لهم: إنّ أبا ذرّ يقرأ عليكم السلام، وأقسم عليكم ألّا تركبوا حتى تأكلوا، ففعلوا، وحملوهم حتى أقدموهم مكّة، ونعوْه إلى عثمان، فضمّ ابنته إلى عياله، وقال: يرحمُ الله أبا ذرّ، ويغفر لرافع بن خَدِيج سكونَه.

كتب إليّ السـريّ، عن شعيب، عن سيف ، عن القعقـاع بن الصلت، عن رجـل، عن كُليب بن الحَلْحال، عن الحلحال بن ذُرّيّ ، قال: خرجنا مع ابن مسعود سنة إحدى وثلاثين ونحن أربعة عشر راكباً حتى

أتينا على الرَّبَذة فإذا امرأة قد تلقّتنا، فقالت: اشهدوا أبا ذرّ ـ وما شعرنا بأمره ولا بلغنا ـ فقلنا: وأين أبو ذرّ؟ فأشارت إلى خِباء، فقلنا: مَالَه؟ قالت: فارق المدينة لأمر قد بلغه فيها، ففارقها. قال: ابن مسعود: ما دعاه إلى الإعراب؟ فقالت: أما إن أمير المؤمنين قد كره ذلك؛ ولكنه كان يقول: هي بَعَدٌ، وهي مدينة. فمال ابن مسعود إليه وهو يبكي، فغسلناه وكفّناه؛ وإذا خباء منضوخ بمِسْك،فقلنا للمرأة: ما هذا؟ فقالت: كانت مِسْكة، فلما حُضِر قال: إن الميّت يَحضُره شهود يجدون الرِّيح؛ ولا يأكلون، فَدُوفي تلك المسكة بماء، ثم رشّي بها الخِباء فاقريهم ريحها، واطبخي هذا اللحم؛ فإنه سيشهدني قوم صالحون يلون دفْني، فاقريهم؛ فلما دفنّاه دعتنا إلى الطعام فأكلنا ، وأردنا احتمالها، فقال ابن مسعود: أمير المؤمنين قريب، نستأمره؛ فقدمنا مكة فأخبرناه الخبر، فقال: يرحم الله أبا ذرّ، ويغفر له نزولَه الرَّبذة!

ولما صدَر خرج فأخذ طريق الرَّبَذة، فضمّ عياله إلى عياله، وتوجّه نحو المدينة، وتوجّهنا نحو العراق؛ وعِدّتنا: ابن مسعود وأبو مفزر التميميّ، وبكر بن عبد الله التميميّ، والأسود بن يزيد النَّخعيّ، وعلقمة بن قيس النَّخعيّ، والحلحال بن ذرى الضبيّ، والحارث بن سويد التميميّ، وعمرو بن عتبة بن فرقد السُّلَميّ، وابن ربيعة السُّلَميّ، وأبو رافع المُزَنيّ، وسويد بن مثعبة التميميّ، وزياد بن معاوية النخعيّ، وأخو القَرثع الضبيّ؛ وأخو مِعْضد الشيبانيّ.

وفي سنة اثنتين وثلاثين فتح ابن عامر مَرْو روذ والطالَقان والفارِياب والجُوزَجان وطُخَارِستان.

ذكر الخبر عن ذلك:

قال عليّ: أخبرَنا سلمة بن عثمان وغيره، عن إسماعيل بن مسلم، عن ابن سيرين، قال: بعث ابنُ عامر الأحنفَ بن قيس إلى مَرْوروذ، فحصر أهلَها، فخرجوا إليهم فقاتلوهم، فهزمهم المسلمون حتى اضطروهم إلى حصنهم، فأشرفوا عليهم، فقالوا: يا معشرَ العرب، ما كنتم عندنا كما نرى؛ ولو علمنا أنّكم كما نرى لكانت لنا ولكم حال غير هذه؛ فأمهلونا ننظرْ يومنا، وارجعوا إلى عسكركم. فرجع الأحنف، فلما أصبح غاداهم وقد أعدُّوا له الحرب؛ فخرج رجلٌ من العجم معه كتاب من المدينة، فقال: إنّي رسول فأمّنوني، فأمّنوه، فإذا رسول من مرزبان مَرْو بن أخيه وترجمانه، وإذا كتاب المرزُبان إلى الأحنف، فقرأ الكتاب؛ قال: فإذا هو: إلى أمير الجيش؛ إنا نحمَد الله الذي بيده الدّوَل، يغيّر ما شاء من الملك، ويرفع من شاء بعد الذّلة، ويضع مَنْ شاء بعد الرفعة. إنه دعاني إلى مصالحتك وموادعتك ما كان من إسلام جدّي، وما كان رأي مَنْ صاحَبَكم من الكرامة والمنزلة؛ فمرحباً بكم وأبشروا؛ وأنا أدعوكم إلى الصّلح فيما بينكم وبيننا؛ على أن أؤدّيَ إليكم خَراجا ستين ألف درهم؛ وأن تُقرّوا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جدّ أبي حيث قتل الحيّة التي أكلت الناس، وقطعت السُّبل من الأرَضين والقُرى بما فيها من الرّجال، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتي شيئاً من الخراج، ولا تخرج المَرْزبة من أهل بيتي إلى غيركم، فإن جعلتَ ذلك لي خرجتُ إليك؛ وقد بعثت إليك ابنَ أخي ماهَك ليستوثق منك بما سألت.

قال: فكتب إليه الأحنف: بسم الله الرحمن الرحيم، من صَخْر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مرزبان مَرْوروذ ومَن معه من الأساورة والأعاجم. سلام على من اتّبع الهدى، وآمن واتّقى. أما بعد؛ فإن ابن أخيك ماهَك قدم عليّ، فنصح لك جهده، وأبلغ عنك؛ وقد عرضت ذلك على مَن معي من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء؛ وقد أجبناك إلى ما سألتَ وعرضت على أن تؤدّيَ عن أكَرَتِك وفلّاحيك والأرضين ستّين ألف درْهم إليّ

وإلى الوالي من بعدي من أمراء المسلمين؛ إلّا ما كان من الأَرَضين التي ذكرتَ أنّ كسرى الظالم لنفسه أقطع جدّ أبيك لِمَا كان من قتله الحيّة التي أفسدت الأرض وقطعت السُّبل. والأرضُ لله ولرسوله يُورثها مَنْ يشاء مِنْ عباده، وإنّ عليك نُصرة المسلمين وقتال عدوّهم بمن معك من الأساورة؛ إنْ أحبَّ المسلمون ذلك وأرادوه؛ وإنّ لك على ذلك نصرة المسلمين على مَن يقاتل من وراءك من أهل ملّتك، جارٍ لك بذلك منّي كتاب يكون لك بعدي، ولا خراجَ عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوي الأرحام؛ وإن أنت أسلمت واتّبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق وأنت أخوهم؛ ولك بذلك ذمتي وذمة أبي وذمم المسلمين وذمم آبائهم. شهد على ما في هذا الكتاب جزء بن معاوية ـ أو معاوية بن جزء السعديّ ـ وحمزة بن الهِرْماس وحُميد بن الخيار المازنيّان، وعياض بن ورقاء الأسيديّ. وكتب كَيْسان مولى بني ثعلبة يوم الأحد من شهر الله المحرّم. وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس. ونقش خاتم الأحنف: « نعبد الله ».

قال عليّ: أخبرنا مصعَب بن حيّان، عن أخيه مقاتل بن حيّان، قال: صالح ابنُ عامر أهلَ مَرْو، وبعث الأحنف في أربعة آلاف إلى طُخارستان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مَـرْوروذ، وجمع لـه أهل طُخَارستان، وأهل الجوزَجان والطالَقان والفارياب؛ فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفاً. وأتى الأحنفَ خبرُهم وما جمعوا له، فاستشار الناس فاختلفوا؛ فبين قائل: نرجع إلى مرْو، وقائل: نرجع إلى أبْرَشهر، وقائلٍ: نقيم نستمدّ، وقائل: نلقاهم فنناجزهم.

قال: فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر، ويستمع حديثَ الناس، فمرّ بأهل خِباء ورجل يوقد تحت خزيرة أو يعجن؛ وهم يتحدّثون ويذكرون العدوّ؛ فقال بعضهم: الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح؛ حتى يلقى القوم حيث لقيهم ـ فإنه أرعب لهم ـ فيناجزهم. فقال صاحبُ الخزيرة أو العجين: إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم؛ أتأمرونه أن يلقى حدّ العدوّ مصحِراً في بلادهم، فيلقى جمعاً كثيراً بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلمونا! ولكنّ الرأي له أن ينزل بين المَرْغاب والجبل، فيجعل المَرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقاه من عدوّه وإن كثروا إلا عدد أصحابه. فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال؛ فضرب عسكره، وأقام فأرسل إليه أهل مَروْ يعرضون عليه أن يقاتلوا معه؛ فقال: إنّي أكره أن أستنصر بالمشركين، فأقيموا على ما أعطيناكم؛ وجعلنا بيننا وبينكم؛ فإن ظفرنا فنحن على ما جعلنا لكم؛ وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم.

قال: فوافق المسلمين صلاةُ العصر؛ فعاجلهم المشركون فناهضوهم فقاتلوهم؛ وصبر الفريقان حتى أمسَوْا والأحنف يتمثّل بشعر ابن جُؤيّة الأعرجيّ:

أحَقُّ من لم يَكْرَهِ المَنِيَّهْ ... حَزَوّرٌ ليست له ذُرِّيهْ

قال عليّ: أخبرنا أبو الأشهب السعديّ، عن أبيه، قال: لقي الأحنفُ أهلَ مَرْوروذ والطالَقان والفارِياب والجوزَجان في المسلمين ليلاً، فقاتلهم حتى ذهب عامّة الليل، ثم هزمهم الله، فقتلهم المسلمون حتى انتهوا إلى رَسْكن ـ وهي على اثنين عشر فرسخاً من قصر الأحنف ـ وكان مرْزُبان مَرْوروذ، قد تربّص بحمل ما كانوا صالحوه عليه؛ لينظر ما يكون من أمرهم.

قال: فلمّا ظفر الأحنف سرّح رجُلين إلى المرزُبان، وأمرهما ألّا يكلّماه حتى يقبضاه. ففعلا. فعلم أنهم لم يصنعوا ذاك به إلّا وقد ظفروا، فحمل ما كان عليه.

قال عليّ: وأخبرنا المفضّل الضبيّ، عن أبيه، قال: سار الأقرع بن حابس إلى الجوزَجان؛ بعثه الأحنف في جَريدة خيل إلى بقية كانت بقيت من الزّحوف الذين هزمهم الأحنف، فقاتلهم، فجال المسلمون جَوْلة، فقُتل فرسان من فرسانهم؛ ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم، فقال كُثَيِّرٌ النهشليّ:

سَقَى مُزن السحابِ إذا اسْتَهَلّتْ مَصارعَ فِتيَةٍ بالجُوزَجانِ
إلى القصْرين من رُسْتاقِ خُوطٍ أقادَهُم هُناكَ الأقرعانِ

وهي طويلة.

وفي هذه السنة، جرى صلح بين الأحنف وبين أهل بلخ.

ذكر الخبر بذلك:

قال عليّ: أخبرنا زُهير بن الهُنَيد، عن إياس بن المهلّب، قال: سار الأحنف من مَرْو الرّوذ إلى بلْخ فحاصرهم، فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، فرضيَ منهم بذلك، واستعمل ابن عمّه، وهو أسَيد بن المتَشمّس ليأخذ منهم ما صالحوه عليه، ومضى إلى خارِزْم، فأقام حتى هجم عليه الشتاء، فقال لأصحابه: ما ترون؟ قال له حصين: قد قال لك عمرو بن معديكرب، قال: وما قال؟ قال: قال:

إذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أمراً فَدعْه وجاوزْهُ إلى ما تَستطيعُ

قال: فأمر الأحنف بالرّحيل، ثمّ انصرف إلى بَلْخ، وقد قبض ابن عمّه ما صالحهم عليه، وكان وافق وهو يجبيهم المِهْرجان، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضّة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب، فقال ابنُ عمّ الأحنف: هذا ما صالحناكم عليه؟ قالوا: لا؛ ولكنّ هذا شيء نصنعه في هذا اليوم بمَن ولِيَنا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ قالوا: المِهْرجان، قال: ما أدري ما هذا؟ وإنّي لأكره أن أردّه؛ ولعله من حقّي، ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر [فيه]؛ فقبضه، وقدم الأحنف فأخبره، فسألهم عنه فقالوا [له] مثل ما قالوا لابن عمه، فقال: آتي به الأمير؛ فحمله إلى ابن عامر، فأخبره عنه، فقال: اقبِضه يا أبا بحر؛ فهو لك؟ قال: لا حاجة لي فيه، فقال ابنُ عامر: ضمّه إليك يا مسمار، قال: قال الحسن: فضمّه القرشيّ وكان مِضمًّا.

قال عليّ: وأخبرنا عمرو بن محمد المرّيّ، عن أشياخ من بني مرّة، أنّ الأحنف استعمل علَى بلْخ بشرَ بن المتشمّس.

قال عليّ: وأخبرنا صدَقة بن حُميد، عن أبيه، قال: بعث ابنُ عامر ـ حين صالح أهلَ مَرْو، وصالح الأحنفُ أهلَ بلْخ ـ خُلَيْدَ بن عبد الله الحنفيَّ إلى هَراة وباذَغيس؛ فافتتحها، ثم كفروا بعدُ فكانوا مع قارِن.

قال عليّ: وأخبرنامسلمة، عن داود، قال: ولما رجع الأحنفُ إلى ابن عامر قال الناسُ لابن عامر: ما فتِح على أحد ما قد فتِح عليك؛ فارس وكَرمان وسِجسْتان وعامّة خُراسان! قال: لا جَرَم، لأجعلنّ شكري لله على ذلك أن أخرج محرِماً معتمراً من موقفي هذا. فأحرَم بعُمْرة من نيسابور؛ فلما قدِم على عثمان لامه على إحرامه من خُراسان، وقال: ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يحرِم منه الناس!

قال عليّ: أخبرنا مَسلمة، عن السّكن بن قُتادة العُرينيّ، قال: استخلف ابنُ عامر على خُراسان قيسَ بن الهيثم، وخرج ابنُ عامر منها في سنة اثنتين وثلاثين. قال: فجمع قارن جمعاً كثيراً من ناحية الطَّبَسين وأهل

باذَغيس وهَراة وقُهستان، فأقبل في أربعين ألفاً، فقال لعبد الله بن خازم: ما ترى؟ قال: أرَى أن تُخليَ البلاد فإني أميرها؛ ومعي عهدٌ من ابن عامر؛ إذا كانت حرب بخُراسان فأنا أميرها ـ وأخرج كتاباً قد افتعله عمداً ـ فكره قيس مشاغبَته، وخلّاه والبلاد؛ وأقبل إلى ابن عامر، فلامه ابن عامر، وقال: تركتَ البلاد حرباً وأقبلت! قال: جاءني بعهد منك. فقالت له أمّه قد نهيتك أن تَدَعها في بلد، فإنه يشغَب عليه.

قال: فسار ابنُ خازم إلى قارِن في أربعة آلاف، وأمر الناس فحملوا الوَدَك؛ فلما قرب من عسكره أمرَ الناس، فقال: ليدرِجْ كلُّ رجل منكم على زُجّ رمحه ما كان معه من خِرْقة أو قطن أو صوف؛ ثم أوسِعوه من الوَدَك من سمن أو دهن أو زيت أو إهالة. ثم سار حتى إذا أمسى قدّم مقدّمته ستمائة، ثم اتّبعهم، وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرّماح؛ وجعل يقتبس بعضهم من بعض. قال: وانتهت مقدّمته إلى عسكر قارن، فأتوْهم نصفَ الليل؛ ولهم حرس، فناوشوهم، وهاج الناس على دَهش، وكانوا آمنين في أنفسهم من البيات، ودنا ابنُ خازم منهم، فرأوا النيران يَمنة وَيسرة، وتتقدّم وتتأخّر، وتنخفض وترتفع؛ فلا يروْن أحداً. فهالهم ذلك، ومقدّمة ابن خازم يقاتلونهم؛ ثم غشيَهم ابنُ خازم بالمسلمين، فقتِل قارن، وانهزم العدوّ فأتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤوا، وأصابوا سبياً كثيراً؛ فزعم شيخ من بني تميم، قال: كانت أمّ الصلت بن حُريث من سَبْي قارن، وأمّ زياد بن الربيع منهم؛ وأمّ عون أبي عبدالله بن عون الفقيه منهم.

قال عليّ: حدّثنا مسلمة، قال: أخذ ابن خازم عسكر قارن بما كان فيه، وكتب بالفتح إلى ابن عامر؛ فرضيَ وأقرّه على خراسان، فلَبث عليها حتى انقضى أمرُ الجمل، فأقبل إلى البَصْرة، فشهد وقعةَ ابن الحضرميّ، وكان معه في دار سبيل.

قال عليّ: وأخبرنا الحسن بن رشيد، عن سليمان بن كثير [العميّ] الخزاعيّ، قال: جمع قارن للمسلمين جمعاً كثيراً، فضاق المسلمون بأمرهم، فقال قيس بن الهيثم لعبد الله بن خازم: ما ترى؟ قال: أرى أنك لا تطيق كثرة مَن قد أتانا، فاخرج بنفسك إلى ابن عامر فتخبره بكثرة مَن قد جمعوا لنا، ونقيم نحن في هذه الحصون ونطاولهم حتى تقدم ويأتينا مددكم.

قال: فخرج قيس بن الهيثم، فلما أمعن أظهر ابن خازم عهداً، وقال: قد ولّاني ابنُ عامر خراسان؛ فسار إلى قارن، فظفر به، وكتب بالفتح إلى ابن عامر، فأقرّه ابنُ عامر على خُراسان؛ فلم يزل أهل البصرة يغزْون مَن لم يكن صالح من أهل خراسان، فإذا رجعوا خلّفوا أربعة آلاف للعقبة، فكانوا على ذلك حتى كانت الفتنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين

ففيها كانت غزوة معاوية حِصْن المرأة من أرض الرّوم من ناحية مَلَطْيَة في قول الواقديّ.

وفيها كانت غزوة عبدالله بن سعد بن أبي سرْح إفريقيَة الثانية حين نقض أهلها العهد.

وفيها قدّم عبدالله بن عامر الأحنف بن قيس إلى خراسان وقد انتقض أهلُها، ففتح المَرْوَيْن: مَرْو الشاهجان صلحاً، ومَرْو الرّوذ بعد قتال شديد، وتبِعه عبدالله بن عامر، فنزل أبْرشَهْر، ففتحها صلحاً في قول الواقديّ.

وأمّا أبو معشر فإنه قال ـ فيما حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عنه، قال: كانت قبرُس سنة ثلاث وثلاثين، وقد ذكرنا قول مَنْ خالفه في ذلك، والخبرَ عن قُبْرس.

وفيها: كان تسيير عثمان بن عفان مَنْ سيَّر من أهل العراق إلى الشام.

ذكر تسيير مَن سيّر من أهل الكوفة إليها

اختلف أهلُ السير في ذلك، فأما سيف فإنّه ذكر فيما كتب به إليّ السريّ عن شعيب عنه، عن محمد وطلحة، قالا: كان سعيد بن العاص لا يغشاه إلاّ نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الأيام وأهل القادسيّة وقرّاء أهل البصرة والمتسمِّتُون، وكان هؤلاء دَخْلته إذا خلا، فأما إذا جلس الناس فإنه يدخل عليه كلّ أحد، فجلس الناس يوماً، فدخلوا عليه؛ فبيناهم جلوس يتحدّثون قال خُنَيس بن فلان: ما أجود طَلحة بن عبيدالله! فقال سعيد بن العاص: إنّ من له مثل النّشاسْتَج لحقيق أن يكون جواداً؛ والله لو أنّ لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً. فقال عبد الرحمن بن خُنَيس ـ وهو حَدث: والله لوددتُ أنّ هذا المِلْطاط لك ـ يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلِي الكوفة ـ قالوا: فضّ الله فاك! والله لقد هممنا بك، فقال: خُنيس غلام فلا تجازوه، فقالوا: يتمنى له من سوادنا! قال: ويتمنّى لكم أضعافه، قالوا: لا يتمنى لنا ولا له، قال: ما هذا بكم! قالوا: أنت والله أمرتَه بها، فثار إليه الأشتر وابن ذي الحَبَكة وجندَب وصَعْصعة وابن الكوّاء وكُميل بن زياد وعُمير بن ضابىء؛ فأخذوه فذهب أبوه ليمنع منه فضربوهما حتى غُشي عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويأبَوْن، حتى قضوا منهما وطَراً، فسمعت بذلك بنو أسد، فجاؤوا وفيهم طليحة فأحاطوا بالقَصْر، وركبت القبائل، فعاذوا بسعيد، وقالوا: أفلِتنا وخلِّصنا.

فخرج سعيد إلى الناس، فقال: أيّها الناس، قوم تنازعوا وتهاوَوا، وقد رزق الله العافية. ثم قعدوا

وعادوا في حديثهم، وتراجعوا فساءهم وردّهم، وأفاق الرّجلان؛ فقال: أبكما حياة؟ قالا: قتلتْنا غاشيتك، قال: لا يغشوني والله أبداً، فاحفظا عليّ ألسنتكما ولا تجرّئا عليّ الناس. ففعلا. ولما انقطع رجاء أولئك النفر من ذلك قعدوا في بيوتهم، وأقبلوا على الإذاعة حتى لامه أهل الكوفة في أمرهم؛ فقال: هذا أميركم وقد نهاني أن أحرّك شيئاً، فمن أراد منكم أن يحرّك شيئاً فليحرّكه.

فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم، فكتب: إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية. فأخرَجوهم، فذلّوا وانقادوا حتى أتوْه ـ وهم بضعةَ عشر ـ فكتبوا بذلك إلى عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية: إنّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خُلِقوا للفتنة، فرُعْهم وقُمْ عليهم؛ فإن آنست منهم رَشَداً فاقبل منهم؛ وإن أعيَوْك فارددهم عليهم. فلما قدموا على معاوية رحّب بهم وأنزلهم كنيسة تسمّى مريم، وأجري عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدّى ويتعشّى معهم، فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتُم مراتبَهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً؛ وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلّة كما كنتم، إنّ أئمتكم لكم إلى اليوم جُنّة فلا تَشِذُّوا عن جُنّتكم؛ وإنّ أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجَوْر، ويحتملون منكم المؤونة؛ والله لتنتهُنّ أو ليبتلينّكم الله بمن يسومكم؛ ثم لا يحمدكم على الصبر، ثمّ تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعيّة في حياتكم وبعد موتكم.

فقال رجل من القوم: أمّا ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثرَ العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتُخوّفَنا؛ وأما ما ذكرت من الجُنّة فإنّ الجُنّة إذا اخترقتْ خُلِص إلينا.

فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمتُ أنّ الذي أغراكم على هذا قِلّة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً، أُعْظِم عليك أمر الإسلام، وأذكرك به، وتذكّرني الجاهلية! وقد وعظتُك. وتزعم لما يجنُّك أنه يُخترق، ولا ينسب ما يخترَق إلى الجُنّة؛ أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم! افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أنّ قريشاً لم تُعَزّ في جاهلية ولا إسلام إلّا بالله عزّ وجلّ، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدّهم؛ ولكنهم كانوا أكرمَهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً؛ وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلّا بالله الذي لا يُستذل مَنْ أعزّ، ولا يوضَع مَنْ رفع؛ فبوّأهم حرماً آمناً يُتَخطّف الناس من حَوْلهم! هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً إلّا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدوْلة؛ إلّا ما كان من قريش؛ فإنه لم يردْهم أحدٌ من الناس بكيد إلّا جعل الله خدّه الأسفل، حتى أراد الله أن يَتَنقَّذ مَن أكرم واتّبع دينه من هوانِ الدّنيا وسوء مَردّ الآخرة، فارتضى لذلك خيرَ خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارُهم قريشاً، ثم بنى هذا المُلك عليهم، وجعل هذه الخلافة عليهم؛ ولا يصلح ذلك إلّا عليهم؛ فكان الله يحوطهم في الجاهليّة وهم على كفرهم بالله؛ أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يَدينونكم! أفٍّ لك ولأصحابك! ولو أنّ متكلماً غيرَك تكلّم؛ ولكنك ابتدأت. فأمّا أنت يا صعصعة فإن قَرْيتك شرّ قرىً عربيّة؛ أنتنُها نبتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشرّ، وألأمها جيراناً، لم يسكنها شريف قطّ ولا وضيع إلّا سُبّ بها؛ وكانت عليه هُجنة، ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألأمه أصهاراً، نزّاع الأمم؛ وأنتم جيران الخَطّ وفَعَلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبيّ ﷺ ونكبتْك دعوته؛ وأنت نزِيع شَطِير في عُمان، لم تسكن

البَحْرين فتشركَهم في دعوة النبيّ ﷺ، فأنت شرّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلَطك بالناس، وحملك على الأمم التي كانت عليك؛ أقبلتَ تبغي دينَ الله عِوَجاً؛ وتنزع إلى اللآمة والذلّة. ولا يضع ذلك قريشاً، ولن يضرّهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم؛ إنّ الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشرّ من بين أمّتكم، فأغرى بكم الناس؛ وهو صارعكم. لقد علم أنه لا يستطيع أن يردّ بكم قضاءً قضاه الله، ولا أمراً أراده الله، ولا تدركون بالشرّ أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شرًّا منه وأخزى.

ثم قام وتركهم؛ فتذامروا. فتقاصرت إليهم أنفسهم، فلمّا كان بعد ذلك أتاهم فقال: إني قد أذِنت لكم فاذهبوا حيث شئتم؛ لا والله لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضرّه؛ ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرّة؛ ولكنكم رجال نكير. وبعد، فإنْ أردتم النجاة فالزموا جماعتكم؛ وليسعكم ما وسع الدَّهْماء، ولا يبطرنّكم الإنعام؛ فإن البَطر لا يعتري الخيار؛ اذهبوا حيث شئتم، فإني كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

فلمّا خرجوا دعاهم فقال: إني معيد عليكم. إنّ رسول الله ﷺ كان معصوماً فولّاني، وأدخلني في أمره، ثم استُخلف أبو بكر رضي الله عنه فولّاني؛ ثمّ استُخلف عمر فولّاني، ثم استُخلِف عثمان فولّاني، فلم آلُ لأحد منهم ولم يولِّني إلا وهو راضٍ عني؛ وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهلَ الجزاء عن المسلمين والغَناء؛ ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها؛ وإن الله ذو سطَوات ونقِمات يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون؛ فإنّ الله غير تارككم حتى يختبرَكم ويبديَ للناس سرائركم؛ وقد قال عزّ وجلّ: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(١).

وكتب معاوية إلى عثمان: إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الإسلام، وأضجرهم العدْل؛ لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلّمون بحجّة؛ إنما همّهم الفتنة وأموال أهل الذّمة؛ والله مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم؛ وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم، فانه سعيداً ومَن قِبَله عنهم؛ فإنهم ليسوا الأكثر من شغَب أو نكير.

وخرج القوم من دمشق فقالوا: لا ترجعوا إلى الكُوفة، فإنهم يشمَتون بكم، وميلوا بنا إلى الجزيرة، ودعوا العراق والشام. فأوَوا إلى الجزيرة، وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ـ وكان معاوية قد ولّاه حِمْص وولى عامل الجزيرة حَرّان والرّقة ـ فدعا بهم، فقال: يا آلة الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أهلاً! قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ نِشاط؛ خَسّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدّبكم حتى يحسركم. يا معشر مَن لا أدري أعرب أم عجم، لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية؛ أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقىء الرِّدّة، والله لئن بلغني يا صعصعة ابن ذلّ أنّ أحداً ممن معي دقّ أنفك ثم أمصّك لأطيرنّ بك طَيْرة بعيدة المهوَى. فأقامهم أشهراً كلّما ركب أمشاهم، فإذا مرّ به [صعصعة] قال: يا ابن الحطيئة، أعلمت أنّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشرّ! مَالَك لا تقول كما كان يبلغني أنّك تقول لسعيد ومعاوية! فيقول ويقولون: نتوب إلى الله، أقلنا أقالك الله! فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم.

وسرّح الأشترَ إلى عثمان، وقال لهم: ما شئتم، إن شئتم فاخرجوا، وإن شئتم فأقيموا. وخرج الأشتر، فأتى عثمانَ بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن أصحابه، فقال: سلّمكم الله. وقدم سعيد بن العاص، فقال

(١) سورة العنكبوت: ١، ٢.

عثمان للأشتر: احلل حيث شئت، فقال: مع عبد الرحمن بن خالد؟ وذكر من فضله، فقال: ذاك إليكم، فرجع إلى عبد الرحمن.

وأمّا محمد بن عمر؛ فإنه ذكر أنّ أبا بكر بن إسماعيل حدّثه عن أبيه، عن عامر بن سعد، أنّ عثمان بعث سعيد بن العاص إلى الكوفة أميراً عليها، حين شهد على الوليد بن عُقبة بشرب الخمر من شهد عليه، وأمره أن يبعث إليه الوليد بن عقبة. قال: قَدِم سعيد بن العاص الكوفَة، فأرسل إلى الوليد: إنّ أمير المؤمنين يأمرك أن تلحق به. قال: فتضجّع أياماً، فقال له: انطلق إلى أخيك؛ فإنه قد أمرني أن أبعثَك إليه، قال: وما صعِد منبرَ الكوفة حتى أمر به أن يُغْسَل، فناشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معه من بني أميّة، وقالوا: إنّ هذا قبيح؛ والله لو أراد هذا غيرُك لكان حقًّا أن تذبّ عنه؛ يلزمه عارُ هذا أبداً. قال: فأبى إلّا أن يفعل، فغسله وأرسل إلى الوليد أن يتحوّل من دار الإمارة، فتحوّل منها، ونزل دار عُمارة بن عُقْبة، فقدم الوليد على عثمان، فجمع بينه وبين خصمائه، فرأى أن يجلده، فجلده الحدّ.

قال محمّد بن عمر: حدثني شيبان، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: قدِم سعيد بن العاص الكوفَة، فجعل يختار وجوهَ يدخلون عليه ويسمُرون عنده؛ وإنه سمر عنده ليلةً وجوه أهل الكوفة، منهم مالك بن كعب الأرحبيّ، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النّخَعيّان، وفيهم مالك الأشتر في رجال، فقال سعيد: إنما هذا السواد بستان لقريش؛ فقال الأشتر: أتزعم أنّ السّواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك! واللَّهُ ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا، وتكلم معه القوم.

قال: فقال عبد الرحمن الأسديّ ـ وكان على شُرْطة سعيد: أتردّون على الأمير مقالَته! وأغلظ لهم، فقال الأشتر: مَن ها هنا! لا يفوتنّكم الرجل؛ فوثبوا عليه فوطئوه وطأ شديداً، حتى غُشي عليه، ثم جُرّ برجله فألقِيَ، فنضِح بماء فأفاق، فقال له سعيد: أبك حياة؟ فقال: قتلني مَن انتخبت ـ زعمت ـ للإسلام، فقال: والله لا يسمُر منهم عندي أحد أبداً، فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيداً؛ واجتمع الناس إليهم؛ حتى كثر من يختلف إليهم. فكتب سعَيد إلى عثمان يخبره بذلك، ويقول: إنّ رهطاً من أهل الكوفة ـ سمّاهم له عشرة ـ يؤلّبون ويجتمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا؛ فكتب عثمان إلى سعيد: أن سيرهم إلى معاوية ـ ومعاوية يومئذ على الشام ـ فسيّرهم ـ وهم تسعة نفر ـ إلى معاوية؛ فيهم مالك الأشتر، وثابت بن قيس بن مُنْقَع، وكُمَيل بن زياد النخعيّ، وصعصعة بن صُوحان.

ثم ذكر نحو حديث السريّ، عن شعيب؛ إلّا أنه قال: فقال صعصعة: فإن اختُرقت الجُنَّة، أفليس يُخْلَص إلينا؟ فقال معاوية: إنّ الجُنة لا تخترَق، فضعْ أمر قريش على أحسنِ ما يحضرك.

وزاد فيه أيضاً: إنّ معاوية لما عاد إليهم من القابلة وذكّرهم، قال فيما يقول: وإني والله ما آمركم بشيء إلّا قدبدأتُ فيه بنفسي وأهل بيتي وخاصّتي؛ وقد عرفتْ قريش أن أبا سفيان كان أكرمَها وابن أكرمِها، إلّا ما جعل الله لنبيّه نبيّ الرحمة ﷺ؛ فإن الله انتخبه وأكرمه، فلم يخلق في أحد من الأخلاق الصالحة شيئاً إلاأصفاه الله بأكرمها وأحسنها؛ ولم يخلق من الأخلاق السيئة شيئاً في أحد إلا أكرمه الله عنه ونزّهه؛ وإني لأظن أنّ أبا سفيان لو ولد الناسَ لم يلد إلا حازماً. قال صعصعة: كذبتَ! قد ولدَهم خير من أبي سفيان؛ مَن خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحِه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البرّ والفاجر، والأحمق والكيّس. فخرج تلك الليلة من

عندهم، ثم أتاهم القابلة، فتحدّث عندهم طويلا، ثم قال: أيُّها القوم، ردّوا عليّ خيراً أو اسكتوا وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين؛ فاطلبوه تعيشوا ونعِشْ بكم. فقال صعصعة: لستَ بأهلِ ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله. فقال: أوَليس ما ابتدأتُكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرّقوا! قالوا: بل أمرتَ بالفرقة وخلاف ما جاء به النبيّ ﷺ. قال: فإني آمركم الآن، إن كنت فعلتُ فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه ﷺ ولزوم الجماعة، وكراهة الفُرقة، وأن توقّروا أئمتكم وتدلُّوا على كلّ حسن ما قدرتم، وتعِظوهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم. فقال صعصعة: فإنّا نأمُرك أن تعتزل عملك؛ فإنّ في المسلمين من هو أحقّ به منك، قال: مَن هو؟ قال: مَن كان أبوه أحسن قدماً من أبيك، وهو بنفسه أحسنُ قدماً منك في الإسلام، فقال: والله إنّ لي في الإسلام قَدماً؛ ولَغيري كان أحسنُ قدماً مني؛ ولكنه ليس في زماني أحدٌ أقوى على ما أنا فيه منّي؛ ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري أقوَى مني لم يكن لي عند عمر هَوادة ولا لغيري، ولم أحدِث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزِل عملي؛ ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب إليّ بخطّ يده فاعتزلت عملَه؛ ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوتُ ألا يعزم له على ذلك إلا وهو خير؛ فمهلا فإنّ في ذلك وأشباهه ما يتمنّى الشيطان ويأمر؛ ولَعمري لو كانت الأمور تقضَى على رأيكم وأمانيّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبّرها؛ وهو بالغ أمره؛ فعاودوا الخير وقولوه.

فقالوا: لست لذلك أهلاً، فقال: أما والله إن لله لسطَوات ونقمات، وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تُحِلَّكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دارَ الهوان من نَقْم الله في عاجل الأمر، والخزي الدائم في الآجل.

فوثبوا عليه؛ فأخذوا برأسه ولحيته، فقال: مَهْ؛ إنّ هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشأم ما صنعتم بي وأنا أمامهم ما ملكتُ أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم. فلَعمرِي إنّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً، ثمّ أقام من عندهم، فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت.

ثم كتب إلى عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد يا أميرَ المؤمنين، فإنك بعثت إليّ أقواماً يتكلّمون بألسنة الشياطين وما يُمْلون عليهم، ويأتون الناس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن، فيشبّهون على الناس، وليس كلّ الناس يعلم ما يريدون؛ وإنما يريدون فُرْقة؛ ويقرّبون فتنة؛ قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكّنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانَيْهم من أهل الكوفة؛ ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغرّوهم بسحْرهم وفجورهم؛ فارْدُدهم إلى مصرهم، فلتكنْ دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم؛ والسلام.

فكتب إليه عثمان يأمره أن يردّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردّهم إليه، فلم يكونوا إلاّ أطلق ألسنَةً منهم حين رجعوا.

وكتب سعيد إلى عثمان يضجّ منهم؛ فكتب عثمان إلى سعيد أن سيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد؛ وكان أميراً على حمص.

وكتب إلى الأشتر وأصحابه: أمّا بعد؛ فإني قد سيّرتكم إلى حِمْص، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها؛

فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شرًّا. والسلام.

فلما قرأ الأشتر الكتاب، قال: اللهمّ أسوأنا نظراً للرعيّة وأعملنا فيهم بالمعصية؛ فعجِّل له النقمة.

فكتب بذلك سعيد إلى عثمان، وسار الأشتر وأصحابه إلى حِمْص؛ فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد الساحل، وأجرى عليهم رزقاً.

قال محمد بن عمر: حدّثني عيسى بن عبد الرحمن، عن أبي إسحاق الهَمْدانيّ، قال: اجتمع نفر بالكوفة - يطعنون على عثمان - من أشراف أهل العراق: مالك بن الحارث الأشتر، وثابت بن قيس النَّخعيّ، وكُميل بن زياد النَّخَعيّ، وزيد بن صُوحان العبديّ، وجندَب بن زهير الغامِديّ، وجندَب بن كعب الأزديّ، وعُروة بن الجَعْد، وعمرو بن الحَمِق الخُزاعيّ.

فكتب سعيد بن العاص إلى عثمان يخبره بأمرهم، فكتب إليه أن سيِّرهم إلى الشام وألزمهم الدّروب.

ذكر الخبر

عن تسيير عثمان مَنْ سيَّر من أهل البصرة إلى الشام

مما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة، عن يزيد الفَقْعسيّ؛ قال: لما مضى من إمارة ابن عامر ثلاثُ سنين، بلغه أن في عبد القيس رجلاً نازلاً على حُكَيم بن جَبَلة، وكان حُكيم بن جبلة رجلاً لصّاً، إذا قفل الجيوش خَنَس عنهم، فسعى في أرض فارس، فيُغِير على أهل الذّمة، ويتنكّر لهم، ويفسد في الأرض، ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمّة وأهل القِبْلة إلى عثمان. فكتب إلى عبد الله بن عامر: أن احبسه، ومَن كان مثله فلا يخرجنّ من البصرة حتى تأنسوا منه رُشْداً؛ فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرُج منها. فلما قدم ابنُ السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر فطرَح لهم ابنُ السوداء ولم يصرِّح، فقبلوا منه، واستعظموه، وأرسل إليه ابنُ عامر، فسأله: ما أنت؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب، رغِب في الإسلام، ورغِب في جوارك؛ فقال: ما يبلغني ذلك، اخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرِج منها فاستقرّ بمصر، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه، ويختلف الرجال بينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: إن حُمران بن أبان تزوّج امرأة في عِدّتها، فنكّل به عثمان، وفرّق بينهما، وسيّره إلى البصرة، فلزم ابن عامر، فتذاكروا يوماً الركوب والمرور بعامر بن عبد قيس - وكان منقبضاً عن الناس - فقال حُمران: ألاَ أسبقكم فأخبره! فخرج فدخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فقال: الأمير أراد أن يمرّ بك فأحببت أن أخبرك، فلم يقطع قراءته ولم يُقبل عليه، فقام من عنده خارجاً. فلما انتهى إلى الباب لقيَه ابنُ عامر، فقال: جئتك من عند امرىء لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلاً؛ واستأذن ابن عامر، فدخل عليه، وجلس إليه، فأطبق عامرٌ المصحف، وحدّثه ساعة، فقال له ابنُ عامر، ألا تغشانا؟ فقال: سعد بن أبي العرجاء يحبّ الشرف، فقال: ألا نستعملك؟ فقال: حصين بن أبي الحرّ يحب العمل، فقال: ألا نزوّجك! فقال: ربيعة بن عِسْل يعجبه النساء، قال: إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلا، فتصفّح المصحف؛ فكان أوّل ما وقع عليه وافتتح منه: ﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العالَمِينَ ﴾[1]، فلما رُدّ حُمران تتبّع ذلك منه، فسعى به، وشهد له أقوام فسيّره

(١) سورة آل عمران: ٣٣.

إلى الشام، فلما علموا علمه أذنوا له فأبى ولزم الشام.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، أنّ عثمان سيّر حُمران بن أبان؛ أن تزوَّج امرأة في عِدّتها، وفرق بينهما، وضربه وسيّره إلى البصرة؛ فلما أتى عليه ما شاء الله، وأتاه عنه الذي يحبّ، أذن له. فقدِم عليه المدينة، وقدم معه قوم سعَوْا بعامر بن عبد قيس؛ أنه لا يرى التزويج، ولا يأكل اللحم؛ ولا يشهد الجمعة - وكان مع عامر انقباض؛ وكان عمله كلّه خفية - فكتب إلى عبد الله بن عامر بذلك، فألحقه بمعاوية؛ فلما قدم عليه وافقه وعنده ثَريدة فأكل أكلًا غريباً؛ فعرف أنّ الرجل مكذوب عليه، فقال: يا هذا، هل تدري فيمَ أخرِجت؟؟ قال: لا، قال: أبلغَ الخليفة أنك لا تأكل اللحم، ورأيتُك وعرفت أن قد كُذب عليك، وأنك لا ترى التزويج، ولا تشهد الجمعة، قال: أمّا الجمعة فإني أشهدها في مؤخّر المسجد ثم أرجع في أوائل الناس؛ وأمّا التزويج فإني خرجت وأنا يُخْطَب عليّ؛ وأما اللحم فقد رأيتَ، ولكنّي كنت امرأ لا آكل ذبائح القصّابين منذ رأيت قَصّاباً يجرّ شاةً إلى مذبحها، ثم وضع السكين على مذبحها، فما زال يقول: النَّفاق النَّفاق، حتى وجبت. قال: فارجع، قال: لا أرجع إلى بلد استحلّ أهله منّي ما استحلوا ولكنّي أقيم بهذا البلد الذي اختاره الله لي. وكان يكون في السواحل؛ وكان يلقى معاوية، فيُكثر معاويةُ أن يقول: حاجتك؟ فيقول: لا حاجة لي، فلما أكثر عليه، قال: تردّ عليّ من حَرّ البصرة لعلّ الصوم أن يشتدّ عليّ شيئاً، فإنه يخِفّ عليّ في بلادكم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان، قالا: لما قدم مسيَّرة أهل الكوفة على معاوية، أنزلهم داراً، ثم خلا بهم، فقال لهم وقالوا له: فلما فرغوا قال: لم تُؤْتَوْا إلا من الحمْق، والله ما أرى منطقاً سديداً، ولا عذراً مبيناً، ولا حلماً ولا قوّة؛ وإنّك يا صعصعة لأحمقهم؛ اصنعوا وقولوا ما شئتم ما لم تَدَعوا شيئاً من أمر الله؛ فإنّ كل شيء يحتمَل لكم إلا معصيته، فأما فيما بيننا وبينكم فأنتم أمراء أنفسكم. فرآهم بعدُ وهم يشهدون الصلاة، ويقفون مع قاصّ الجماعة، فدخل عليهم يوماً وبعضهم يقرىء بعضاً، فقال: إنّ لَخَلفاً مما قدِمتم به عليّ من النِّزاع إلى أمر الجاهلية، اذهبوا حيث شئتم، واعلموا أنكم إن لزمتم جماعتكم سعدتم بذلك دونهم؛ وإن لم تلزموها شقيتم بذلك دونهم؛ ولم تضرُّوا أحداً، فجزَوْه خيراً، وأثنَوْا عليه، فقال: يابن الكوّاء، أيّ رجل أنا؟ قال: بعيد الثرى، كثير المرعى، طيّب البديهة، بعيد الغَوْر، الغالب عليك الحلم، ركن من أركان الإسلام، سُدّت بك فُرجة مخوفة. قال: فأخْبِرني عن أهل الإحداث من أهل الأمصار فإنك أعقل أصحابك؛ قال: كاتبتُهم وكاتبوني، وأنكروني وعرفتهم؛ فأما أهلُ الإحداث من أهل المدينة فهم أحرصُ الأمّة على الشرّ، وأعجزه عنه. وأما أهلُ الإحداث من أهل الكوفة فإنّهم أنظر الناس في صغير، وأركبه لكبير. وأمّا أهلُ الاحداث من أهل البصرة، فإنهم يَرِدُون جميعاً، ويصدرُون شتّى، وأما أهل الإحداث من أهل مصر فهم أوْفى الناس بشرّ، وأسرعه ندامة؛ وأما أهل الإحداث من أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم، وأعصاه لمغويهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان.

وزعم أبو مشعر أنّ فتح قُبرس كان في هذه السنة، وقد ذكرت مَن خالفه في ذلك.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين

ذكر ما كان فيها من الأحداث المذكورة

فزعم أبو معشر أن غزوة الصواري كانت فيها، حدّثني بذلك أحمد، عمّن حدّثه، عن إسحاق، عنه. وقد مضى الخبر عن هذه الغزوة وذكر من خالف أبا معشر في وقتها.

وفيها كان ردّ أهل الكوفة سعيدَ بن العاص عن الكوفة.

وفي هذه السنة تكاتب المنحرفون عن عثمان بن عفان للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نقموا عليه.

ذكر الخبر عن صفة اجتماعهم لذلك وخبر الجَرَعة:

مما كتب إليّ به السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير بن يزيد، عن قيس بن يزيد النَّخَعِيّ، قال: لما رجع معاوية المسيَّرين، قالوا: إنّ العراق والشام ليسا لنا بدار؛ فعليكم بالجزيرة. فأتوْها اختياراً. فغدا عليهم عبد الرحمن بن خالد، فسامهم الشدّة، فضرِعوا له وتابعوه. وسرّح الأشتر إلى عثمان، فدعا به، وقال: اذهب حيث شئت، فقال: أرجعُ إلى عبد الرحمن، فرجع. ووفَد سعيدُ بن العاص إلى عثمان في سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان. وقبْل مخرج سعيد بن العاص إلى عثمان في سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان. وقبْل مخرج سعيد بن العاص من الكوفة بسنة وبعض أخرى بعث الأشعثَ بن قيس على أذْرَبيجان، وسعيدَ بن قيس على الرّيّ؛ وكان سعيد بن قيس على هَمذان، فعُزل وجعل عليها النُّسَير العجليّ، وعلى إصبهان السائب بن الأقرع، وعلى ماهَ مالك بن حَبيب اليربوعيّ، وعلى الموصِل حكيم بن سلامة الحِزاميّ، وجرير بن عبد الله على قَرْقِيسياء، وسلْمان بن ربيعة على الباب؛ وعلى الحرب القعقاع بن عمرو، وعلى حُلوان عُتَيبة بن النّهاس؛ وخَلَت الكوفة من الرؤساء إلّا منزعاً أو مفتوناً. فخرج يزيد بن قيس وهو يريد خَلْع عثمان، فدخل المسجد، فجلس فيه، وثاب إليه الذين كان فيه ابن السوداء يكاتبهم؛ فانقضّ عليه القعقاع، فأخذ يزيدَ بن قيس، فقال: إنما نستعفي من سعيد، قال: هذا ما لا يعرَض لكم فيه، لا تجلس لهذا ولا يجتمعُنّ إليك، واطلب حاجتك، فلعمري لتُعطيَنّها. فرجع إلى بيته واستأجر رجلاً، وأعطاه دراهم وبغلاً على أن يأتيَ المسيَّرين. وكتب إليهم: لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا، فإنّ أهل المصر قد جامعونا. فانطلق الرّجل، فأتى عليهم وقد رجع الأشتر؛ فدفع إليهم الكتاب، فقالوا: ما اسمك؟ قال: بُغْثُر؛ قالوا: ممن؟ قال: من كَلْب، قالوا: سُبع ذليل يبغثر النفوس؛ لا حاجة لنا بك. وخالفهم الأشتر، ورجع عاصياً، فلما خرج قال أصحابه: أخرَجنا أخرجه الله؛ لا نجد بدًّا مما صنع؛ إن علِم بنا عبد الرحمن لم يصدّقنا ولم يستقلّها، فاتَّبعوه فلم يلحقوه؛ وبلغ عبد

الرحمن أنّهم قد رحلوا فطلبهم في السواد، فسار الأشتر سبعاً والقوم عشراً، فلم يفاجأ الناس في يوم جمعة إلّا والأشتر على باب المسجد يقول: أيّها الناس؛ إني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان، وتركت سعيدا يريده على نقصان نسائكم إلى مائة درهم. وردّ أهل البلاء منكم إلى ألفين، ويقول: ما بالُ أشراف النساء؛ وهذه العلاوة بين هذين العِدْلين! ويزعم أنّ فيئكم بستان قريش؛ وقد سايرته مرحلةً، فما زال يزجر بذلك حتى فارقته؛ يقول:

ويْــلٌ لأشْــرافِ الــنِّســاءِ مِــنِّــي صَـمَـحْـمَـحٌ كـأنَّـنـي مِـن جِـنِّ

فاستخفّ الناس، وجعل أهلُ الحِجى ينهوْنه فلا يُسمع منهم، وكانت نفْجة، فخرج يزيد، وأمر منادياً ينادي: مَن شاء أن يلحق بيزيدَ بن قيس لرد سعيد وطلب أمير غيره فليفعل. وبقيَ حُلماء الناس وأشرافُهم ووجوهُهم في المسجد، وذهب مَن سواهم، وعَمرو بن حُرَيث يومئذ الخليفة، فصعِد المنبرَ فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، بعد أن كنتم على شَفَا حُفرة من النار فأنقذَكم منها، فلا تعودوا في شرّ قد استنقذكم الله عزّ وجلّ منه. أبَعْد الإسلام وهَدْيه وسنّته لا تَعرفون حقّاً، ولا تصيبون بابَه! فقال القَعقاع بنُ عمرو: أتردّ السيلَ عن عُبابه! فارددِ الفراتَ عن أدراجه، هيهات! لا والله لا تُسكّن الغَوغاء إلّا المَشرَفيّة ويوشك أن تُنتضَى، ثم يَعِجّون عجيجَ العِتْدان ويتمنّون ما هم فيه فلا يردّه الله عليهم أبداً. فاصبر؛ فقال: أصبر، وتحوّل إلى منزله، وخرج يزيد بن قيس حتى نزل الجَرَعة؛ ومعه الأشتر، وقد كان سعيد تَلبّث في الطريق، فطلع عليهم سعيد وهم مقيمون له معسكرون، فقالوا: لا حاجة لنا بك. فقال: فما اختلفتم الآن؛ إنما كان يكفيكم أن تَبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وتضعوا إليّ رجلاً. وهل يخرج الألف لهم عقولٌ إلى رجل! ثم انصرَف عنهم وتحسَّوْا بمولًى له على بعير قد حُسِر، فقال: والله ما كان ينبغي لسعيد أن يَرجع. فضرب الأشترُ عنقَه، ومضى سعيد حتى قَدِم على عثمانَ، فأخبَره الخبر، فقال: ما يريدون؟ أخَلَعوا يداً من طاعة؟ قال: أظهَروا أنهم يريدون البدَل. قال: فمن يريدون؟ قال: أبا موسى؛ قال: قد أثبتْنا أبا موسى عليهم، ووالله لا نجعل لأحد عُـذراً، ولا نترك لهم حجّة، ولنَصبرنّ كما أمِرنا حتى نَبلغ ما يريدون. ورجع مَن قرب عملُه من الكوفة، ورجع جرير من قَرْقيسياء وعُتيبة من حُلوان. وقام أبو موسى فتكلّم بالكُوفة فقال: أيُّها الناس، لا تنفِروا في مثل هذا، ولا تعودوا لمثله، الزَموا جماعتكم والطاعة؛ وإيَّاكم والعجلة، اصبروا، فكأنّكم بأمير. قالوا: فصلّ بنا، قال لا، إلا على السمع والطاعة لعثمانَ بن عفان؛ قالوا: على السمع والطاعة لعثمان.

حدّثني جعفر بنُ عبد الله المحمديّ، قال: حدّثنا عمرو بن حمّاد بن طلحة وعليّ بن حسين بن عيسى، قالا: حدّثنا حسين بن عيسى، عن أبيه، عن هارون بن سعد، عن العَلاء بن عبد الله بن زيد العنبريّ، أنّه قال: اجتمع ناسٌ من المسلمين، فتذاكروا أعمالَ عثمان وما صنع، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلّمه، ويخبره بإحداثه، فأرسلوا إليه عامرَ بن عبد الله التميميّ ثم العنبريّ ـ وهو الذي يُدعى عامرَ بن عبد قيس ـ فأتاه، فدخل عليه، فقال له: إنّ ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبتَ أموراً عظاماً؛ فاتّق الله عزّ وجلّ وتُب إليـه، وانزع عنهـا. قال لـه عثمان: انـظر إلى هذا، فـإنّ الناس يزعمون أنه قارىء، ثم هو يجيء فيكلّمني في المحقرات، فوالله ما يدري أين الله! قال عامر: أنا لا أدري أين الله! قال: نعم، والله ما تدري أين الله؛ قال عامر: بلى واللهِ إنّي لأدري أنّ الله بالمرصاد لك.

فأرسل عثمان إلى معاويةَ بن أبي سُفيان، وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح وإلى سعيد بن العاص، وإلى عمرو بن العاص بن وائل السهميّ، وإلى عبدِ الله بنِ عامر؛ فجمعَهم ليشاورَهم في أمره وما طُلب إليه، وما بلغه عنهم، فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إنّ لكلّ امرىء وزراءَ ونُصَحاء، وإنّكم وزرائي ونُصَحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناسُ ما قد رأيتم، وطلبوا إليّ أن أعزل عمّالي، وأن أرجعَ عن جميع ما يَكروهون إلى ما يحبّون، فاجتهدوا رأيكم، وأشيروا عليّ.

فقال له عبدُ الله بنُ عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرَهم بجهاد يَشغَلهم عنك، وأن تُجمّرهم في المَغازي حتى يذِلُّوا لك فلا يكونَ همّة أحدهم إلاّ نفسَه، وما هو فيه من دَبَرة دابته، وقَمْل فَرْوه. ثم أقبل عثمانُ على سعيد بنِ العاص فقال له: ما رأيك؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن كنتَ ترى رأينا فاحسم عنك الدّاء، واقطَعْ عنك الذي تَخاف، واعمل برأيي تُصِب؛ قال: وما هو؟ قال: إنّ لكل قوم قادةً متى تَهلِكْ يتفرّقوا، ولا يجتمعْ لهم أمر، فقال عثمان: إنّ هذا الرأيُ لولا ما فيه. ثم أقبل معاوية فقال: ما رأيك؟ قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تردّ عمّالك على الكفاية لما قِبَلهم، وأنا ضامن لك قِبَلي.

ثم أقبل على عبدِ الله بن سعد، فقال: ما رأيُك؟ قال: أرى يا أميرَ المؤمنين أنّ الناسَ أهل طَمَع، فأعطهم من هذا المال تَعطفْ عليك قلوبهم. ثم أقبل على عمرو بن العاص فقال له: ما رأيُك؟ قال: أرى أنك قد ركبتَ الناس بما يكرهون؛ فاعتزِم أن تعتدل، فإن أبيتَ فاعتزمْ أن تعتزل، فإن أبيْتَ فاعتزِمْ عزماً، وامض قُدُماً؛ فقال عثمان: ما لَك قَمِل فَرْوُك؟ أهذا الجدّ منك! فأسكت عنه دهراً، حتى إذا تفرّق القوم قال عَمرو: لا واللّهِ يا أمير المؤمنين، لأنت أعزُّ عليّ من ذلك، ولكن قد علمتُ أن سيبلغ الناسَ قولُ كلّ رجل منا، فأردتُ أن يبلغهم قولي فيَثِقوا بي، فأقودَ إليك خيراً، أو أدفعَ عنك شرًّا.

حدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو بن حمّاد وعليّ بنُ حسين، قالا: حدّثنا حسين، عن أبيه، عن عمرو بن أبي المِقْدام، عن عبد الملك بن عُمير الزُّهريّ، أنه قال: جمع عثمانُ أمراءَ الأجناد: معاويةَ بن أبي سفيان، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ اللهبن عامر، وعبدَ اللهبن سعد بن أبي سَرْح، وعمرَو بن العاص، فقال: أشيروا عليّ، فإنّ الناس قد تنمّروا لي، فقال له معاوية: أشيرُ عليك أن تأمر أمراءَ أجنادِك فيكفيك كلّ رجل منهم ما قبَله، وأكفيك أنا أهلَ الشام؛ فقال له عبد اللهبنُ عامر: أرى لك أن تجمّرهم في هذه البعوث حتى يهمّ كلّ رجل منهم دَبَرُ دابّته، وتشغلهم عن الإرجاف بك، فقال عبد اللهبنُ سعد: أشير عليك أن تنظر ما أسخَطهم فتُرضيَهم، ثم تُخرج لهم هذا المال فيُقسَم بينهم.

ثم قام عمرو بن العاص فقال: يا عثمان؛ إنك قد ركبتَ الناس بمثل بني أميّة، فقلتَ وقالوا: وزِغْتَ وزاغوا، فاعتدلْ أو اعتزِلْ، فإن أبَيْتَ فاعتزم عَزْماً، وامضِ قُدُماً؛ فقال له عثمان: مَالَك قَمِل فَرْوُك! أهذا الجدّ منك! فأسْكَتَ عمرو حتى إذا تفرّقوا قال: لا واللهِ يا أميرَ المؤمنين، لأنت أكرمُ عليَّ من ذلك، ولكني قد علمتُ أنّ بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنُشير عليك، فأحببتُ أن يبلغهم قولي، فأقودَ لك خيراً، أو أدفعَ عنك شرًّا. فردّ عثمانُ عمّالَه على أعمالهم، وأمرَهم بالتضييق على مَن قِبَلهم، وأمرهم بتجمير الناس في البُعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه، ويحتاجوا إليه، وردّ سعيدَ بن العاص أميراً على الكوفة، فخرج أهلُ الكوفة عليه بالسلاح، فتلقَّوْه فردّوه، وقالوا: لا والله لا يلي علينا حُكْماً ما حمَلْنا سيوفَنا.

حدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو وعليّ بنُ حسين، عن أبيه، عن هارونَ بن سعد، عن أبي يحيى عمير بن سعد النخعيّ، أنه قال: كأنّي أنظر إلى الأشتر مالك بن الحارث النَّخَعيّ على وجهه الغبار، وهو متقلد السيف، وهو يقول: والله لا يدخلها علينا ما حملنا سيوفَنا ـ يعني سعيداً، وذلك يوم الجَرَعة، والجَرَعة مكانٌ مُشرف قُرْبَ القادسيّة ـ وهناك تلقاه أهلُ الكوفة.

حدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو وعليّ، قالا: حدّثنا حسين، عن أبيه، عن هارون بن سعد، عن عمرو بن مرّة الجَمَليّ، عن أبي البَخْتريّ الطائيّ، عن أبي ثَوْر الحَدائيّ ـ وحَدَاء حيٌّ من مُراد ـ أنه قال: دفعتُ إلى حذيفةَ بنِ اليَمان وأبي مسعود عُقْبة بن عمرو الأنصاريّ وهما في مسجد الكوفة يومَ الجَرَعة، حيث صَنع الناسُ بسعيد بن العاص ما صنعوا، وأبو مسعود يُعظِم ذلك، ويقول: ما أرى أن تُرَدّ على عَقبيها حتى يكونَ فيها دماء، فقال حذيفة: والله لتُرَدّنّ على عَقبيها، ولا يكون فيها مَحْجَمة من دم، وما أعلم منها اليوم شيئاً إلّا وقد علمتُه ومحمد ﷺ حيّ؛ وإنّ الرجل ليُصبح على الإسلام ثم يُمْسي وما معه منه شيء، ثم يقاتل أهل القِبْلة ويقتله الله غداً، فينكص قلبُه، فتعلوه أسْتُه. فقلت لأبي ثَوْر: فلعلّه قد كان، قال: لا والله ما كان. فلما رجع سعيد بن العاص إلى عثمانَ مطروداً، أرسل أبا موسى أميراً على الكُوفة، فأقرُّوه عليها.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن يحيى بن مسلم، عن واقد بن عبدالله، عن عبدالله بن عُمير الأشجَعيّ، قال: قام في المسجد في الفتنة فقال: أيّها الناس، اسكتُوا، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من خرج وعلى الناس إمام ـ واللهِ ما قال: عادل ـ ليَشُقّ عصاهم، ويفرّق جماعتَهم، فاقتلوه كائناً مَن كان».

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما استَعْوى يزيد بن قيس الناسَ على سعيد بن العاص، خرج منه ذِكْرٌ لعثمان، فأقبَلَ إليه القَعْقاع بنُعمرو حتى أخذه، فقال: ما تُريد؟ ألك علينا في أن نَستعفيَ سبيل؟ قال: لا، فهل إلّا ذلك؟ قال: لا، قال: فاستعفِ. واستَجلَبَ يزيد أصحابَه من حيث كانوا، فردّوا سعيداً، وطلبوا أبا موسى، فكتب إليهم عثمان:

بِسم الله الرّحمن الرحيم. أمّا بعد، فقد أمَّرتُ عليكم من اخترتم، وأعفَيْتكم من سعيد، والله لأفْرُشنّكم عِرْضي، ولأبذُلنّ لكم صبري، ولأستصلحنّكم بجهدي، فلا تَدَعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصَى الله فيه إلّا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصَى الله فيه إلّا استعفيتم منه؛ أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم عليّ حجّة.

وكتب بمثل ذلك في الأمصار، فقدمت إمارة أبي موسى وغزو حُذيفة وتأمّر أبو موسى، ورجع العمَّال إلى أعمالهم، ومضى حُذيفة إلى الباب.

وأما الواقديّ فإنه زعم أنه عبدَ الله بن محمد حدّثه، عن أبيه، قال: لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب أصحابُ رسول الله ﷺ بعضُهم إلى بعض: أنِ اقدموا، فإن كنتم تريدون الجهادَ فعندنا الجهاد. وكثّر الناسُ على عثمان، ونالوا منه أقبحَ ما نِيلَ من أحَد، وأصحابُ رسول الله ﷺ يَرون ويَسمعون؛ ليس فيهم أحد ينهى ولا يذبّ إلّا نُفَير؛ [منهم] زيد بن ثابت، وأبو أسَيْد الساعديّ، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت. فاجتمع الناس، وكلّموا عليّ بنَ أبي طالب؛ فدخل عليّ عثمان، فقال: الناس ورائي، وقد كلّموني فيك، واللهِ ما أدري

ما أقولُ لك، وما أعرف شيئاً تَجهلُه، ولا أدلّك على أمر لا تَعرفه؛ إنك لَتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنُخبرَك عنه، ولا خلوْنا بشيء فنُبلغَكه، وما خُصِصنا بأمر دونك، وقد رأيتَ وسمعتَ، وصحبتَ رسولَ الله ﷺ ونلتَ صهرَه، وما ابن أبي قُحافة بأوْلى بعمل الحقّ منك، ولا ابنُ الخَطاب بأوْلى بشيء من الخير منك، وإنك أقربُ إلى رسول الله ﷺ رَحِماً، ولقد نلتَ من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينـالا، ولا سَبَقاك إلى شيء. فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تُبصرُ من عمىً، ولا تُعلَّم من جَهْل، وإنّ الطريق لواضح بيّن، وإنّ أعلامَ الدين لقائمة. تَعلَّمْ يا عثمانُ أنّ أفضل عباد الله عند الله إمامٌ عادل، هُدِيَ وَهَدَى، فأقام سنّةً معلومة، وأمات بدْعةً متروكة، فوالله إنّ كُلًّا لَبيِّن، وإن السُّنَن لقائمة لها أعلام، وإن البدَع لقائمةٌ لها أعلام، وإن شرّ الناس عند الله إمامٌ جائر، ضَلَّ وضُلَّ به، فأماتَ سنَّة معلومة، وأحيا بدعةً متروكة، وإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: « يؤتَى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصيرٌ ولا عاذر، فيُلقَى في جهنم، فيدور في جهنم كما تدور الرَّحَا، ثم يَرتطم في غَمرةِ جهنم ». وإني أحذّرك الله، وأحذّرك سطوتَه ونقماته؛ فإنّ عذابَه شديد أليم. وأحذّرك أن تكون إمامَ هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: يُقتَل في هذه الأمة إمام، فيُفتح عليها القتلُ والقتالُ إلى يوم القيامة، وتُلبِّس أمورُها عليها، ويتركهم شِيَعاً، فلا يُبصرون الحقّ لعلوّ الباطل؛ يموجون فيها مَوْجاً؛ ويَمْرَجون فيها مَرجاً.

فقال عثمان: قد واللهِ علمت، ليَقولنّ الذي قلتَ، أما واللهِ لو كنتَ مكاني ما عنّفتك، ولا أسلَمتك، ولا عبتُ عليك، ولا جئتُ مُنْكراً أن وصلتَ رحِماً، وسدَدْتَ خَلّة، وآويتَ ضائعاً، وولّيتَ شبيهاً بمن كان عُمر يولّي. أنشُدُكَ اللهَ يا عليّ، هل تَعلم أنّ المغيرة بن شُعْبة ليس هناك! قال: نعم؛ قال: فتعلم أنّ عمر ولّاه؟ قال: نعم، قال: فلمَ تلومُني أن ولّيتُ ابنَ عامر في رَحِمه وقَرابته؟ قال عليّ: سأخبرك، إنّ عمر بن الخطاب كان كلُّ مَن ولّى فإنما يطأ على صِماخه، إنْ بَلَغه عنه حرفٌ جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية؛ وأنت لا تفعل، ضعفتَ ورفقتَ على أقربائك. قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً. فقال عليّ: لَعَمري إنّ رَحِمهم منّي لقريبة، ولكنّ الفضلَ في غيرهم؛ قال عثمان: هل تعلم أنّ عمرَ ولّى معاويةَ خلافتَه كلَّها؟ فقد ولّيتُه. فقال عليّ: أنْشُدك الله هل تعلم أنّ معاوية كان أخَوفَ من عمرَ من يَرْفأ غلام عمو منه؟ قال: نعم. قال عليّ: فإنّ معاوية يقتطع الأمورَ دونَك وأنت تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغيّر على معاوية. ثم خرج عليّ من عنده، وخرج عثمانُ على أثره، فجلس على المنبر، فقال: أمّا بعد، فإنّ لكلّ شيء آفة، ولكلّ أمر عاهة، وإنّ آفة هذه الأمة، وعاهةَ هذه النعمة، عَيّابون طعّانون، يُرونكم ما تحبّون ويُسرون ما تَكرهون؛ يقولون لكم وتقولون، أمثالُ النـعام يتبعون أوّل ناعق؛ أحبُّ مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلّا نَغَضاً ولا يَردون إلّا عَكَراً، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيَتْهم الأمور، وتعذّرت عليهم المكاسب. ألا فقد والله عبتم عليَّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله؛ ولكنّه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنْتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم، وأوطأت لكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ. أمَا والله لأنا أعزّ نفراً، وأقربُ ناصراً وأكثرُ عدداً، وأقمن إن قلتُ هلمّ أُتِيَ إليّ، ولقد أعددتُ لكم أقرانكم، وأفضلتُ عليكم فضولاً، وكشَرتُ لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلُقاً لمن أكن أحسِنه، ومَنطقاً لم أنطقْ به، فكُفّوا عليكم ألسنَتكم، وطَعْنكم وعيبكم على وُلاتكم، فإنّي قد كففت عنكم مَنْ لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطِقي هذا. ألا فما تفقِدون مِن حقكم؟ واللهِ ما قصّرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ومَن لم تكونوا تختلفون عليه. فَضَل فَضْلٌ من مال، فما لي لا أصنع في الفَضل

ما أريد! فلمَ كُنتُ إماماً!

فقام مروان بن الحَكَم، فقال: إن شئتم حَكّمنا واللهِ بيننا وبينكم السيفَ، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر:

فَــرَشْنــا لَكُمْ أعْــراضَنــا فَنَبَتْ بكُــمْ   مَعــارسُكُم تَبْنُــونَ في دِمَــنِ الثَّــرَى

فقال عثمان: اسكت لاسكتَّ، دعني وأصحابي، ما منطقُك في هذا! ألم أتقدّم إليك ألّا تنطق! فسكَت مرْوان، ونزل عثمان.

وفي هذه السنة مات أبو عَبْس بن جَبْر بالمدينة، وهو بدريّ. ومات أيضاً مِسْطح بن أثاثة، وعاقل بن أبي البُكَير من بني سعد بن ليث، حليف لبني عديّ، وهما بدريّان.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمانُ بن عفان رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك نزول أهل مصرَ ذا خُشُب، حدّثني بذلك أحمد بنُ ثابت، عمن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: كان ذو خُشُب سنةَ خمس وثلاثين، وكذلك قال الواقديّ.

ذكر مسير من سار إلى ذي خُشُب من أهل مصرَ وسبب مسير مَنْ سار إلى ذي المرْوة من أهل العراق

فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطية، عن يزيدَ الفَقْعسيّ، قال: كان عبد الله بن سَبَأ يهوديّاً من أهل صَنْعاء، أمّه سوداء، فأسلم زمانَ عثمان، ثم تنقّل في بُلدان المسلمين، يحاول ضلالَتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البَصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشأم، فأخرجوه حتى أتى مصرَ، فاعتَمر فيهم، فقال لهم فيما يقول: لَعجبٌ ممن يزعم أنّ عيسى يرجع، ويكذّب بأنّ محمداً يرجع، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (١). فمحمد أحقّ بالرجوع من عيسى. قال: فقبِل ذلك عنه، ووضع لهم الرّجعة، فتكلموا فيها. ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نبيّ، ولكلّ نبيّ وصيّ، وكان عليّ وصيَّ محمد؛ ثم قال: محمد خاتم الأنبياء، وعليّ خاتمُ الأوصياء، ثم قال بعد ذلك: مَن أظلمُ ممن لم يُجز وصيّة رسول الله ﷺ، ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ، وتناول أمرَ الأمّة! ثم قال لهم بعد ذلك: إنّ عثمان أخذها بغير حقّ، وهذا وصيّ رسولِ الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهيَ عن المنكر؛ تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.

فبثّ دعاته، وكاتَب من كان استَفسَد في الأمصار وكاتَبوه، ودعَوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عُيوب وُلاتِهم، ويكاتبهم إخوانُهم بمثل ذلك، ويكتب أهلُ كلّ مصرٍ منهم إلى مصرٍ آخَر بما يصنعون؛ فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسَعُوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غيرَ ما يُظهرون، ويُسرّون غيرَ ما يُبدون، فيقول أهلُ كلّ مصر: إنّا لفي عافية مما ابتُلِيَ به هؤلاء، إلاّ أهلَ المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس، وجامعه محمد وطلحة من هذا المكان، قالوا: فأتَوْا عثمان، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ قال: لا والله، ما جاءني إلاّ السلامة، قالوا: فإنا قد أتانا.. وأخبَروه بالذي أسقطوا إليهم؛ قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ؛ قالوا: نُشير عليك

(١) سورة القصص: ٨٥.

أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم. فدعا محمّد بنَ مسْلمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البَصرة، وأرسل عمّار بن ياسر إلى مصرَ، وأرسل عبدَ الله بن عمر إلى الشام، وفرّق رجالاً سواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمّار، فقالوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعلامُ المسلمين ولا عوامُّهم؛ وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، إلاّ أنّ أمراءهم يُقسِطون بينهم، ويقومون عليهم. واستبطأ الناس عَمّارا حتى ظنوا أنه قد اغتِيل، فلم يفاجئهم إلاّ كتابٌ من عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح يخبرهم أنّ عمّاراً قد استماله قومٌ بمصر، وقد انقطعوا إليه؛ منهم عبدُ الله بن السوداء، وخالد بن مُلجَم، وسُودان بن حُمْران، وكنانة بن بِشْر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيْف، عن محمد وطلحة وعطيّة، قالوا: كتب عثمانُ إلى أهل الأمصار: أمّا بعد، فإني آخذ العمال بموافاتي في كلّ موسم، وقد سلّطت الأمة منذ وَليتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع عليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلاّ أعطيتُه، وليس لي ولعيالي حقّ قبل الرعيّة إلاّ متروك لهم، وقد رفع إليّ أهلُ المدينة أنّ أقواماً يُشتَمون، وآخرون يُضرَبون. فيا من ضُرب سَرّاً، وشتم سرّاً، من ادّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسمَ فليأخذ بحقّه حيث كان؛ منّي أو من عمالي، أو تصدّقوا فإن الله يَجزي المتصدّقين. فلما قرىء في الأمصار أبْكَى الناس، ودعَوا لعثمان وقالوا: إنّ الأمة لتَمخَّض بشرّ. وبعث إلى عمال الأمصار فقَدِموا عليه: عبد الله بن عامر، ومعاوية، وعبد الله بن سعد؛ وأدخل معهم في المَشورة سعيداً وعَمْراً، فقال: ويْحكم! ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يُعصَب هذا إلاّ بي؛ فقالوا له: ألم تبعث! ألم نرجع إليك الخبرَ عن القوم! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحدٌ بشيء! لا والله ما صَدَقوا ولا برّوا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا، وما كنتَ لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء؛ وما هي إلا إذاعة لا يحلّ الأخذُ بها، ولا الانتهاء إليها.

قال: فأشيروا عليّ؛ فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يُصنع في السرّ، فيُلْقى به غيرذي المعرفة، فيُخبَر به، فيُتحدَّث به في مجالسهم، قال: فما دواءُ ذلك؟ قال: طلَب هؤلاء القوم، ثم قتلُ هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبد الله بنُ سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتَهم الذي لهم؛ فإنه خير من أن تدَعَهم. قال معاوية: قد ولّيتني فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرّجلان أعلَم بناحيتيهما؛ قال: فما الرأي؟ قال: حسنُ الأدب، قال: فما ترى يا عَمرو؟ قال: أرى أنك قد لِنتَ لهم، وتراخَيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيْك، فتشتدّ في موضع الشدّة، وتلينَ في موضع اللين. إن الشدّة تنبغي لمن لا يألو الناس شرّاً، واللين لمن يخلف الناسَ بالنصح، وقد فرشْتَهما جميعاً اللين.

وقام عثمان فحمِد الله وأثنى عليه وقال: كلّ ما أشرتم به عليّ قد سمعتُ، ولكلّ أمر بابٌ يؤتَى منه؛ إنّ هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن، وإنّ بابه الذي يُغلَق عليه فيُكفكفَ به اللين والمؤاتاة والمتابَعة، إلاّ في حدود الله تعالى ذكرُه، التي لا يستطيع أحد أن يباديَ بعيب أحدها، فإن سدّه شيء فرفْق، فذاك والله ليُفتَحنّ، وليست لأحد عليَّ حجة حقّ، وقد علم الله أنّي لم آلُ الناس خيراً، ولا نفسي. ووالله إنَّ رَحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها. كفكفوا الناس، وهبُوا لهم حقوقَهم، واغتفروا لهم، وإذا تُعوطيتْ حقوق

الله فلا تُدْهِنوا فيها.

فلما نفر عثمان أشخص معاوية وعبد الله بن سعد إلى المدينة، ورجع ابن عامر وسعيد معه. ولما استقلّ عثمان رَجَزَ الحادي:

قد عَلِمتْ ضَوامرُ المَطِيِّ وضَامِراتُ عَوَجِ القِسِيِّ
أنَّ الأميرَ بعدَه عَلِيُّ وفي الزُّبَيْر خلفَ رَضِيُّ
وطلحةُ الحامي لها وَلِيُّ

فقال كعب وهو يسير خلفَ عثمان: الأميرُ والله بعدَه صاحبُ البغلة ـ وأشار إلى معاوية.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن بدر بن الخليل بن عثمان بن قطبة الأسَديّ، عن رجل من بني أسد، قال: ما زال معاويةُ يطمع فيها بعد مَقدَمه على عثمان حين جمعهم، فاجتمَعوا إليه بالموسم، ثم ارتحل، فحدَا به الرّاجز:

إن الأميرَ بعده عليُّ وفي الزبير خَلَفٌ رضيُّ

قال كعب: كَذبتَ! صاحب الشَّهْباء بعده ـ يعني معاوية ـ فأخبِر معاوية، فسأله عن الذي بلغه، قال: نعم، أنت الأمير بعده، ولكنّها والله لا تصل إليك حتى تُكذّب بحديثي هذا. فوقعت في نفس معاوية.

وشارَكَهم في هذا المكان أبو حارثة وأبو عثمان، عن رَجاء بن حَيْوة وغيره. قالوا: فلما وردَ عثمانُ المدينة ردّ الأمراءَ إلى أعمالهم، فمضَوا جميعاً، وأقام سعيد بعدَهم، فلما ودّع معاويةُ عثمانَ خرج من عنده وعليه ثياب السفر متقلِّداً سيفَه، متنكّباً قَوسَه، فإذا هو بنفر من المهاجرين، فيهم طلحة والزبير وعليّ، فقام عليهم، فتوكّأ على قوسه بعد ما سلّم عليهم، ثم قال: إنّكم قد علمتم أنّ هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون إلى رجال، فلم يكن منكم أحد إلّا وفي فصيلته من يَرْئِسه، ويستبدّ عليه، ويَقطع الأمرَ دونَه، ولا يُشهِده، ولا يؤامرُه، حتى بعث الله جلّ وعزّ نبيَّه ﷺ، وأكَرم به من اتبعه؛ فكانوا يُرَئّسون من جاء من بعده، وأمرهم شورى بينهم، يتفاضلون بالسابقة والقُدْمة والاجتهاد؛ فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم، والناس تبعٌ لهم، وإن أصغَوا إلى الدّنيا وطلبوها بالتغالُب سُلِبوا ذلك، وردّه الله إلى من كان يرئسُهم. وإلّا فليَحذروا الغِيَرَ، فإنّ الله على البَدَل قادر، وله المشيئة في ملكه وأمره. إنّي قد خلّفت فيكم شيخاً فاستوصُوا به خيراً، وكانفوه تكونوا أسعدَ منه بذلك. ثم ودّعهم ومضى؛ فقال عليّ: ما كنتُ أرى أنّ في هذا خيراً؛ فقال الزبير: لا والله، ما كان قطّ أعظمَ في صدرك وصدورنا منه الغَداة.

حدّثني عبد الله بن أحمد بن شَبُّوَيْه، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني عبد الله، عن إسحاق بن يحيى، عن موسى بن طلحة، قال: أرسل عثمان إلى طلحة يدعوه؛ فخرجتُ معه حتى دخل عليّ عثمان، وإذ عليٌّ وسعد والزبير وعثمان ومعاوية، فحمِد الله معاويةُ وأثنَى عليه بما هو أهله، ثم قال: أنتم أصحاب رسول الله ﷺ، وخيرتُه في الأرض، وولاة أمر هذه الأمة، لا يطمع في ذلك أحد غيركم، اخترتم صاحبَكم عن غير غَلَبة ولا طمع، وقد كبرتْ سنُّه، وولّى عمرُه، ولو انتظرتم به الهَرَم كان قريباً؛ مع أني أرجو أن يكون أكرَم على الله أن يبلغ به ذلك، وقد فشتْ قالةٌ خفتُها عليكم، فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به، ولا تُطمعوا الناس في

أمركم، فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم فيها أبداً إلا إدباراً. قال عليّ: ومَالَك وذلك! وما أدراك لا أمَّ لك! قال: دع أمّي مكانها، ليست بشرّ أمّهاتكم، قد أسلمتْ وبايَعت النبيّ ﷺ وسلم، وأجِبْني فيما أقول لك. فقال عثمان: صدق ابن أخي، إنّي أخبركم عنّي وعمّا وليتُ، إنّ صاحبَيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً، وإنّ رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عَيْلة، وقلّة معَاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال، لمكانِ ما أقوم به فيه، ورأيت أنّ ذلك لي، فإن رأيتم ذلك خطأ فردّوه، فأمري لأمركم تَبَع. قالوا: أصبتَ وأحسنتَ؛ قالوا: أعطيتَ عبد الله بن خالد بن أسِيد ومروان ـ وكانوا يزعمون أنه أعطي مروان خمسة عشر ألفاً، وابن أسِيد خمسين ألفاً ـ فردّوا منهما ذلك، فرضُوا وقبِلوا، وخرجوا راضِين.

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن شيوخه:

وكان معاوية قد قال لعثمان غداة ودّعه وخرج: يا أميرَ المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أنَ يهجم عليك مَن لا قِبَل لك به، فإنّ أهل الشأم على الأمر لم يزالوا. فقال: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء؛ وإن كان فيه قَطع خَيْطِ عنقي. قال: فأبعثُ إليك جنداً منهم يقيم بين ظَهرانيْ أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينةَ أو إياك. قال: أنا أقَتّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجندٍ تساكنهم، وأضيّق على أهل دار الهجرة والنصرة! قال: والله يا أمير المؤمنين، لتُغتالَنَّ أو لتُغزيَنّ؛ قال: حسبيَ الله ونعم الوكيل. وقال معاوية: يا أيسار الجَزُور، وأين أيسار الجَزورِ! ثم خرج حتى وقف على النفر، ثم مضى. وقد كان أهل مصر كاتبوا أشياعَهم من أهل الكوفة وأهل البصرة وجميعَ من أجابهم أن يثوروا خلاف أمرائهم. واتّعدوا يوماً حيث شخص أمراؤهم، فلم يستقم ذلك لأحد منهم، ولم ينهض إلا أهل الكوفة، فإنّ يزيد بن قيس الأرحبيّ ثار فيها، واجتمع إليه أصحابُه، وعلى الحرب يومئذ القَعقاع بنُ عمرو، فأتاه فأحاط النّاس بهم وناشَدوهم؛ فقال يزيد للقَعقاع: ما سبيلك عليّ وعلى هؤلاء! فوالله إني لسامع مطيع، وإني للازم لجماعتي إلا أنّي أستعفي ومَن ترى من إمارة سعيد، فقال: استعفَى الخاصةُ من أمر قد رضيتْه العامة؟ قال: فذاك إلى أمير المؤمنين. فتركهم والاستعفاء، ولم يستطيعوا أن يُظهروا غيرَ ذلك، فاستقبلوا سعيداً، فردّوه من الجَرَعة، واجتمع النّاسُ على أبي موسى، وأقرّه عثمان رضي الله تعالى عنه. ولما رجع الأمراء لم يكن للسّبئيّة سبيل إلى الخروج إلى الأمصار، وكاتبوا أشياعَهم من أهل الأمصار أن يتوافَوْا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهَروا أنهم يأمرون بالمعروف، ويسألون عثمان عن أشياءَ لتطير في الناس، ولتُحقّق عليه؛ فتوافَوا بالمدينة، وأرسل عثمان رجلين: مخزومياً وزُهْرياً، فقال: انْظُرا ما يريدون، واعلَما علمَهم ـ وكانا ممن قد ناله من عثمان أدب، فاصطَبَرا للحقّ، ولم يضطغنا ـ فلما رأوهما باثُوهما وأخبَروهما بما يريدون، فقالا: مَن معكم على هذا من أهل المدينة؟ قالوا: ثلاثة نَفَر، فقالا: هل إلاّ؟ قالوا لا! قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ قالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعْناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قرّرناه بها، فلم يخرج منها ولم يتب، ثم نخرج كأنا حجّاج حتى نقدم فنحيطَ به فنخلَعه، فإنْ أبى قتلناه. وكانت إيّاها، فرجعا إلى عثمان بالخبر، فضحك وقال: اللهمّ سلّم هؤلاء، فإنك إن لم تُسلّمهم شقُوا.

أمَّا عمَّار فحَمل على عباس بن عتبة بن أبي لهب وعَرَكه. وأما محمّد بن أبي بكر فإنه أُعجب حتى رأى أنّ الحقوق لا تلزمه، وأمّا ابن سهلة فإنه يتعرّض للبلاء. فأرسل إلى الكوفيين والبصريّين، ونادى: الصلاة جامعة! وهم عنده في أصل المنبر، فأقبلَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ حتى أحاطوا بهم، فحمِد الله وأثنى عليه،

وأخبرَهم خبَر القوم، وقام الرجلان، فقالوا جميعاً: اقتُلهم، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنةُ الله فاقتلوه». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أحلّ لكم إلاّ ما قتلتموه وأنا شريكُكم.

فقال عثمان: بل نعفو ونقبل ونبصِّرهم بجهدنا، ولا نُحادّ أحداً حتى يركب حدّاً، أو يبديَ كُفراً. إنّ هؤلاء ذَكروا أموراً قد علموا منها مثلَ الذي علمتم، إلاّ أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليُوجبوها عليَّ عند مَن لا يعلم.

وقالوا: أتمّ الصلاة في السفر، وكانت لا تُتَمّ، ألا وإنّي قدمت بلداً فيه أهلي، فأتممت لهذين الأمرين؛ أوَ كذلك؟ قالوا: اللهمّ نعم.

وقالوا: وحميتَ حمىً؛ وإني والله ما حَميتُ، حُمِيَ قبلي، والله ما حموا شيئاً لأحد ما حموا إلاّ غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رِعْية أحداً، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحَّوْا منها أحداً إلاّ من ساق درهماً؛ ومَالي مِن بعير غيرُ راحلتين، ومَالي ثاغية ولا راغية، وإنّي قد وُلِّيتُ، وإنّي أكثر العرب بعيراً وشاءً، فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرَين لحجّي، أكذلك؟ قالوا: اللهمّ نعم.

وقالوا: كان القرآن كُتُباً، فتركتَها إلاّ واحداً. ألا وإنّ القرآن واحد، جاء من عندِ واحد؛ وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء؛ أكذلك؟ قالوا: نعم، وسألوه أن يقيلهم.

وقالوا: إنّي رددتُ الحَكَم وقد سيّره رسولُ الله ﷺ. والحَكَم مَكّيّ، سيّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم ردّه رسول الله ﷺ؛ فرسول الله ﷺ سيَّره، ورسولُ الله ﷺ ردّه؛ أكذلك؟ قالوا: اللهمّ نعم.

وقالوا: استعملتَ الأحداث، فلم أستعمل إلاّ مجتمِعاً محتمِلاً مرضيّاً، وهؤلاء أهلُ عملهم، فسَلوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده، ولقد ولّى مَن قبلي أحدثَ منهم، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشدُّ مما قيل لي في استعماله أسامة؛ أكذاك؟ قالوا: اللهمّ نعم، يعيبون للناس ما لا يفسّرون.

وقالوا: إنِّي أعطيتُ ابن أبي سَرْح ما أفاء الله عليه. وإني إنما نفَلتُه خُمسَ ما أفاء الله عليه من الخمس، فكان مائة ألف، وقد أنفذ مثلَ ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فزعم الجُند أنهم يَكرهون ذلك، فرددتُه عليهم وليس ذاك لهم، أكذاك؟ قالوا: نعم.

وقالوا: إني أحبّ أهل بيتي وأعطيهم؛ فأما حبّي فإنه لم يمِلْ معهم على جوْر، بل أحمل الحقوق عليهم، وأمّا إعطاؤهم فإني ما أعطيهم من مالي، ولا أستحلّ أموال المسلمين لنفسي؛ ولا لأحد من الناس؛ ولقد كنت أعطي العطيّة الكبيرة الرغيبة من صُلْب مالي أزمانَ رسولِ الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحينَ أتيت على أسنان أهل بيتي، وفَنِيَ عمري، وودّعت الذي لي في أهلي، قال الملحدون ما قالوا! وإني والله ما حملت على مصرٍ من الأمصار فضلاً فيجوزَ ذلك لمن قاله؛ ولقد رددتُه عليهم، وما قدم عليّ إلا الأخماس، ولا يحلّ لي منها شيء؛ فوليَ المسلمون وضْعها في أهلها دوني؛ ولا يُتَلفَّت من مال الله بفلْس فما فوقه؛ وما أتبلّغ منه ما آكل إلاّ مالي.

وقالوا: أعطيت الأرض رجالاً؛ وإنّ هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتُتِحت؛

فمَن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله، ومَن رجع إلى أهله لم يُذهب ذلك ما حوى الله له؛ **فنظرت في** الذي يُصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعثتُه لهم بأمرهم من رجال أهل عقارٍ ببلاد العرب فنقلتُ إليهم نصيبهم، **فهو** في أيديهم دوني.

وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أميّة، وجعل ولده كبعض مَن يعطى، فبدأ ببني أبي العاص، فأعطى آل الحكَم رجالَهم عشرة آلاف، عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بني عثمان مثلَ ذلك، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب، ولانتْ حاشية عثمان لأولئك الطوائف، وأبى المسلمون إلّا قتلَهم، وأبَى إلّا تركهم؛ فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوه مع الحجّاج كالحجّاج؛ فتكاتبوا وقالوا: موعدُكم ضواحي المدينة في شوّال؛ حتى إذا دخل شوّال من سنة اثنتي عشرة، ضربوا كالحُجّاج فنزلوا قرب المدينة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، **قالوا**: لما كان في شوال سنة خمس وثلاثين خرج أهلُ مصر في أربع رِفاق على أربعة أمراء؛ المقلّل يقول: ستمائة، والمكثِّريقول: ألف. على الرِّفاق عبد الرحمن بن عُدَيس البلويّ، وكنانة بن بشر التُّجيبيّ، وعروة بن شييم الليثيّ، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعيّ وسواد بن رومان الأصبحيّ، وزرع بن يشكر اليافعيّ، وسودان بن حُمران السَّكونيّ، وقُتيرة بن فلان السَّكُونيّ، وعلى القوم جميعاً الغافقيّ بن حرب العَكّيّ، ولم يجترئوا أن يُعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب، وإنما أخرجوا كالحُجّاج، ومعهم ابن السوداء، وخرج أهل الكوفة في أربع رِفاق، وعلى الرِّفاق زيد بن صُوحان العبْديّ والأشتر النخعيّ، وزياد بن النضْر الحارثي، وعبد الله بن الأصمّ، أحد بني عامر بن صعصعة؛ وعددهم كعدد أهل مصر؛ وعليهم جميعاً عمرو بن الأصمّ. وخرج أهلُ البصرة في أربع رفاق، وعلى الرِّفاق حُكَيْم بن جبلة العبديّ، وذَريح بن عبّاد العبديّ، وبشر بن شُرَيح الحُطَم بن ضُبيعة القيسيّ وابن المحَرِّش بن عبد بن عمرو الحنفيّ وعددهم كعدد أهل مصر، وأميرهم جميعاً حُرقوص بن زهير السعديّ، سوى مَن تلاحق بهم من الناس. فأمّا أهلُ مصر فإنهم كانوا يشتهون عليّاً، وأمّا أهلُ البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير.

فخرجوا وهم على الخروج جميع. وفي الناس شتى، لا تشكّ كلّ فرقة إلّا أنّ الفُلْج معها، وأنّ أمرَها سيتمّ دون الأُخْرَيَيْن؛ فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث تقدّم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خُشُب، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوَص، وجاءهم ناس من أهل مصر، وتركوا عامّتهم بذي المرْوَة. ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النّضْر وعبد الله بن الأصمّ، وقالا: لا تَعجلوا ولا تُعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد؛ فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا؛ فوالله إن كان أهلُ المدينة قد خافونا واستحلّوا قتالنا ولم يعلموا علمنا فهم إذا علموا علْمنا أشدّ؛ وإنّ أمرنا هذا لبَاطل؛ وإن لم يستحلّوا قتالَنا ووجدنا الذي بلغنا باطلاً لنَرجعنَّ إليكم بالخبر.

قالوا: اذهبا، فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي ﷺ وعليّاً وطلحة والزبير، وقالا: «إنما نأتمّ هذا البيت، ونستعفي هذا الواليَ من بعض عمّالنا، ما جئنا إلّا لذلك، واستأذناهم للناس بالدخول، فكلّهم أبَى، ونهى وقال: بَيْض ما يُفْرِخَنَّ، فرجعا إليهم فاجتمع من أهل مصر نفرٌ فأتوْا عليّاً ومن أهل البصرة نفرٌ فأتوا

طلحة، ومن أهل الكوفة نفر فأتوْا الزبير؛ وقال كلّ فريق منهم: إن بايعوا صاحبنا وإلّا كدناهم وفرّقنا جماعتهم؛ ثم كررنا حتى نبغتَهم؛ فأتى المصريون عليّاً وهو في عسكر عند أحجار الزّيت؛ عليه حلّة أفوافٍ معتمّ بشقيقة حمراء يمانية، متقلّد السيف، ليس عليه قميص، وقد سرّح الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه. فالحسنُ جالس عند عثمان، وعليّ عند أحجار الزيت، فسلم عليه المصريون وعرّضوا له؛ فصاح بهم واطّردهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيَش ذي المرْوة وذي خُشب ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لا صحِبكم الله! قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب عليّ؛ وقد أرسل ابنيه إلى عثمان، فسلّم البصريّون عليه وعرّضوا له، فصاح بهم واطّردهم، وقال: لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المرْوة وذي خُشب والأعوَص ملعونون على لسان محمّد ﷺ.

وأتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة أخرى؛ وقد سرّح ابنه عبد الله إلى عثمان، فسلموا عليه وعرّضوا له، فصاح بهم واطّردهم، وقال: لقد عمل المسلمون أن جَيْش ذي المَروة وذي خُشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ، فخرج القوم وأرَوْهم أنهم يرجعون؛ فانفشّوا عن ذي خشُب والأعوص، حتى انتهوا إلى عساكرهم؛ وهي ثلاث مراحل؛ كي يفترق أهلُ المدينة، ثم يكرُّوا راجعين. فافترق أهل المدينة لخروجهم.

فلما بلغ القوم عساكرَهم كرُّوا بهم، فبغتوهم، فلم يفاجأ أهلَ المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة، فنزلوا في مواضع عساكرهم، وأحاطوا بعثمان، وقالوا: مَن كفّ يده فهو آمن.

وصلّى عثمان بالناس أياماً؛ ولزم الناس بيوتهم، ولم يمنعوا أحداً من كلام، فأتاهم الناس فكلّموهم، وفيهم عليّ، فقال: ما ردّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا: أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا، وأتاهم طلحة فقال البصريون مثل ذلك، وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك، وقال الكوفيون والبصريون: فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً؛ كأنما كانوا على ميعاد. فقال لهم عليّ: كيف علمتم يا أهلَ الكوفة ويا أهل البصرة بما لقيَ أهل مصر؛ وقد سرتم مراحل؛ ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمرٌ أبرِم بالمدينة! قالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في الرّجل، ليعتزلنا. وهو في ذلك يصلي بهم، وهم يصلّون خلفه، ويغشى من شاء عثمان وهم في عينه أدقّ من التراب؛ وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام، وكانوا زُمَراً بالمدينة، يمنعون الناس من الاجتماع.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدّهم: بسم الله الرحمن الرحيم؛ أمّا بعدُ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، فبلّغَ عن الله ما أمره به، ثم مضى وقد قضى الذي عليه؛ وخلّف فينا كتابه، فيه حلالُه وحرامه، وبيان الأمور التي قدّر، فأمضاها على ما أحبّ العباد وكرهوا، فكان الخليفةُ أبو بكر رضي الله عنه وعمرُ رضي الله عنه، ثم أدخِلتُ في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملإ من الأمة، ثم أجمع أهل الشورى عن ملإٍ منهم ومن الناس عليّ، على غير طلَب مني ولا محبّة؛ فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون، تابعاً غير مستتبع، متّبعاً غير مبتدِع، مقتدياً غير متكلف. فلما انتهت الأمورُ، وانتكث الشرُّ بأهله، بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترةٍ فيما مضى إلّا إمضاء الكتاب؛ فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجّة ولا عذر، فعابوا عليّ أشياء مما كانوا يرضَوْن، وأشياء عن ملإٍ من أهل المدينة لا يصلح غيرها؛ فصبرتُ لهم نفسي وكففْتها عنهم

منذ سنين وأنا أرى وأسمع ؛ فازدادوا على الله عزّ وجلّ جُرأة، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحَرمه وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب؛ فهم كالأحزاب أيّام الأحزاب أو مَنْ غزانا بأحُد إلّا ما يُظهرون؛ فمن قدر على اللحاق بنا فلْيَلْحَق.

فأتى الكتاب أهلَ الأمصار، فخرجوا على الصّعبة والذلّول؛ فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهريّ، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حُديج السَّكونيّ، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو.

وكان المحضّضين بالكوفة على إعانة أهل المدينة عُقْبةُ بن عمرو وعبد الله بن أبي أوفَى وحنظلة بن الربيع التميميّ، في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ. وكان المحضضّين بالكوفة من التابعين أصحابُ عبد الله مسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، وشُريح بن الحارث، وعبد الله بن عُكَيم؛ في أمثالهم؛ يسيرون فيها ويطوفون على مجالسها؛ يقولون: يا أيُّها الناس؛ إنّ الكلام اليوم وليس به غداً؛ وإنّ النظر يحسن اليوم ويقبح غداً، وإنّ القتال يحلّ اليوم ويحرُم غداً، انهضوا إلى خليفتكم، وعصْمة أمرِكم.

وقام بالبصرة عمران بن حصين وأنس بن مالك، وهشام بن عامر في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ يقولون مثل ذلك، ومن التابعين كعب بن سُور وهرِم بن حَيّان العبديّ، وأشباه لهما يقولون ذلك! وقام بالشأم عبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأبو أمامة في أمثالهم من أصحاب النبيّ ﷺ يقولون مثل ذلك؛ ومن التابعين شريك بن خُباشة النُّميريّ، وأبو مسلم الخوْلانيّ، وعبد الرحمن بن غَنْم بمثل ذلك، وقام بمصر خارجة في أشباه له؛ وقد كان بعض المحضّضين قد شهد قدومهم، فلمّا رأوا حالهم انصرفوا إلى أمصارهم بذلك وقاموا فيهم.

ولما جاءت الجمعة التي على أثر نزول المصريين مسجدَ رسول الله ﷺ خرج عثمان فصلّى بالناس ثم قام على المنبر فقال: يا هؤلاء العدَى، اللهَ الله! فوالله؛ إنّ أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ؛ فامحوا الخطايا بالصواب؛ فإن الله عزّ وجلّ لا يمحو السيِّء إلّا بالحسن.

فقام محمد بن مسلمة، فقال: أنا أشهدُ بذلك، فأخذه حُكَيم بن جبلة فأقعده، فقام زيد بن ثابت فقال: ابغِني الكتاب، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قُتَيرة فأقعده؛ وقال فأفظَع؛ وثار القوم بأجمعهم، فحصَبُوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صُرِع عن المنبر مغشيّاً عليه، فاحتُمل فأدخل داره، وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدَهم إلّا في ثلاثة نفر؛ فإنهم كانوا يراسلونهم: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حُذيفة، وعمّار بن ياسر؛ وشمّر أناس من الناس فاستقتلوا؛ منهم سعد بن مالك، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، والحسن بن عليّ؛ فبعث إليهم عثمان بعزْمه لَمّا انصرفوا. فانصرفوا، وأقبل عليٌّ عليه السلام حتى دخل على عثمان، وأقبل طلحة حتى دخل عليه، وأقبل الزّبير حتى دخل عليه؛ يعودُونه من صرعته؛ ويشكُون بثّهم، ثم رجعوا إلى منازلهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عمرو، عن الحسن، قال: قلت له: هل شهدت حَصْر عثمان؟ قال: نعم؛ وأنا يومئذ غلام في أتراب لي في المسجد، فإذا كثُر اللغط جثوتُ على ركبتيّ أو قمت؛ فأقبل القوم حين أقبلوا حتى نزلوا المسجد وما حوله؛ فاجتمع إليهم أناس من أهل المدينة، يُعظمون ما صنعوا. وأقبلوا على أهل المدينة يتوعّدونهم؛ فبينا هم كذلك في لَغطهم حَوْل الباب، فطلع عثمان؛ فكأنما كانت نارٌ طَفِئت، فعمَد إلى المنبر فصعده فحمد الله وأثنى عليه، فثار رجل، فأقعده رجل، وقام آخر فأقعده آخر، ثم ثار

القوم فحصَبوا عثمان حتى صُرع، فاحتُمِل فأُدخِل، فصلى بهم عشرين يوماً، ثم منعوه من الصلاة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: صلّى عثمان بالناس بعد ما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوماً، ثم إنهم منعوه الصلاة، فصلّى بالناس أميرهم الغافقيّ، دان له المصريون والكوفيّون والبصريون، وتفرّق أهلُ المدينة في حيطانهم، ولزموا بيوتهم، لا يخرج أحدٌ ولا يجلس إلّا وعليه سيفه يمتنع به من رَهق القوم وكان الحصار أربعين يوماً، وفيهنّ كان القتل، ومنْ تعرّض لهم وضعوا فيه السلاح، وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفّون.

وأما غيرُ سيف فإنّ منهم من قال: كانت مناظرة القوم عثمان وسبب حصارهم إيّاه ما حدّثني به يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا معتمر بن سليمان التيميّ، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا أبو نَضْرة، عن أبي سعيد مولى أبي أسَيد الأنصاريّ. قال: سمع عثمان أنّ وفد أهل مصر قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم، وكان في قرية له خارجة من المدينة ـ أو كما قال ـ فلمّا سمعوا به، أقبلوا نحوه إلى المكان الذي هو فيه ـ قال: وكره أن يقدموا عليه المدينة أو نحواً من ذلك ـ قال: فأتوْه، فقالوا له: ادعُ بالمصحف، قال: فدعا بالمصحف، قال: فقالوا له: افتح التاسعة ـ قال: وكانوا يسمون سورة يونس التاسعة ـ قال: فقرأها حتى أتى على هذه الآية: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [1]. قال: قالوا له: قف، فقالوا له: أرأيت ما حَمَيْتَ من الحمى؟ آلله أذن لك أم على الله تفتري! قال: فقال: امضِه؛ نزلت في كذا وكذا. قال: وأما الحِمَى فإنّ عمر حَمَى الحمى قبلي لإبل الصّدَقة، فلما وليت زادت إبلُ الصدقة فزدت في الحِمَى لما زاد في إبل الصدقة، امضِه. قال: فجعلوا يأخذونه بالآية، فيقول: امضِه، نزلت في كذا وكذا ـ قال: والذي يتولى كِلام عثمان يومئذ في سنّك، قال: يقول أبو نضرة، يقول ذاك لي أبو سعيد، قال أبو نُضرة: وأنا في سنك يومئذ، قال: ولم يخرج وجهي يومئذ، لا أدري، ولعله قد قال مرة أخرى: وأنا يومئذ ابن ثلاثين سنة ـ ثم أخذوه بأشياء لم يكن عنده منها مخرَج. قال: فعرفها، فقال: أستغفر الله وأتوب إليه. قال: فقال لهم: ما تريدون؟ قال: فأخذوا ميثاقه ـ قال: وأحسبه قال: وكتبوا عليه شرطاً ـ قال: وأخذ عليهم ألّا يشقوا عَصاً، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم ـ أو كما أخذوا عليه ـ قال: فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد ألّا يأخذ أهل المدينة عطاء، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ. قال: فرضوا بذلك، وأقبلوا معه إلى المدينة راضين.

قال: فقام فخطب، فقال: إنّي ما رأيت والله وفداً في الأرض هم خير لحَوْباتي من هذا الوفد الذين قدموا عليّ. وقد قال مرّة أخرى: خشيت من هذا الوفد من أهل مصر، ألاَ من كان له زرع فليلحق بزرعه، ومن كان له ضَرْع فليحتلب؛ ألاَ إنه لا مال لكم عندنا، إنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ. قال: فغضِب الناس، وقالوا: هذا مكر بني أميّة.

قال: ثم رجع الوفد المصريون راضين؛ فبينا هم في الطريق إذا هم براكب يتعرّض لهم ثم يفارقهم ثم يرجع إليهم، ثمّ يفارقهم ويتبيَّنُهم. قال: قالوا له: مَالَك؟ إن لك لأمراً! ما شأنك؟ قال: فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر؛ ففتّشوه؛ فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه إلى عامله بمصر أن يصلّبهم أو

(١) سورة يونس: ٥٩.

يقتلهم أو يقطّع أيديهم وأرجلَهم من خلاف. قال: فأقبلوا حتى قدِموا المدينة، قال: فأتوْا عليًّا، فقالوا: ألم تر إلى عدوّ الله! إنه كتب فينا بكذا وكذا؛ وإنّ الله قد أحلّ دمه، قم معنا إليه، قال: والله لا أقوم معكم؛ إلى أن قالوا: فلمَ كتبتَ إلينا؟ فقال: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً قطّ؛ قال: فنظر بعضُهم إلى بعض، ثم قال بعضهم لبعض: ألهذا تقاتلون، أو لهذا تغضبون!

قال: فانطلق عليّ، فخرج من المدينة إلى قرية. قال: فانطلقوا حتى دخلوا على عثمان، فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا! قال: فقال: إنما هما اثنتان: أن تقيموا عليّ رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلّا هو ما كتبتُ ولا أملَلْت ولا علمت. قال: وقد تعلمون أنّ الكتاب يكتَب على لسان الرّجل، وقد ينقَش الخاتم على الخاتم. قال: فقالوا: فقد والله أحلّ الله دَمك، ونقضت العهد والميثاق. قال: فحاصروه.

وأمّا الواقديّ فإنه ذكر في سبب مسيرِ المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خُشُب أموراً كثيرة، منها ما قد تقدّم ذِكْريه؛ ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته. ومنها ما ذكر أنّ عبد الله بن جعفر حدّثه عن أبي عون مولى المِسْور، قال: كان عمرو بن العاص على مصر عاملاً لعثمان؛ فعزله عن الخراج، واستعمله على الصّلاة، واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج؛ ثم جمعها لعبد الله بن سعد، فلما قدم عمرو بن العاص المدينة جعل يطعن على عثمان، فأرسل إليه يوماً عثمان خالياً به، فقال: يا بن النابغة، ما أسرع ما قمِل جُرُبّان جُبّتك! إنما عهدك بالعمل عاماً أوّل. أتطعن عليّ وتأتيني بوجه وتذهب عنّي بآخر! والله لولا أُكْلَةٌ ما فعلتَ ذلك. قال: فقال عمرو: إنّ كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل؛ فاتّق الله يا أميرَ المؤمنين في رعيتك! فقال عثمان: والله لقد استعملتك على ظلَعِك، وكثرة القالة فيك. فقال عمرو: قد كنتُ عاملاً لعمر بن الخطاب، ففارقني وهو عنّي راض. قال: فقال عثمان: وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمتَ؛ ولكني لنت عليك فاجترأتَ عليّ، أما والله لأنا أعزُّ منك نفراً في الجاهليّة؛ وقبل أن أليَ هذا السلطان. فقال عمرو: دع عنك هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وهدانا به؛ قد رأيت العاصيَ بن وائل ورأيت أباك عفان، فوالله للعاصُ كانَ أشرفَ من أبيك. قال: فانكسر عثمان، وقال: ما لنا ولذكر الجاهليّة!

قال: وخرج عمرو ودخل مَرْوان، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ وقد بلغتَ مبلغاً يذكر عمرو بن العاص أباك! فقال عثمان: دَعْ هذا عنك، مَن ذكر آباء الرجال ذكروا أباه.

قال: فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقِد عليه، يأتي عليًّا مرّة فيؤلّبه على عثمان، ويأتي الزّبير مرة فيؤلّبه على عثمان، ويأتي طلحة مرة فيؤلّبه على عثمان، ويعترض الحاجّ فيخبرهم بما أحدث عثمان، فلمّا كان حَصْر عثمان الأوّل؛ خرج من المدينة، حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين يقال لها السبْع؛ فنزل في قصر له يقال له العجلان؛ وهو يقول: العجب ما يأتينا عن ابن عفان!

قال: فبينا هو جالس في قَصْره ذلك، ومعه ابناه محمد وعبد الله؛ وسلامة بن رَوْح الجُذاميّ، إذْ مرّ بهم راكب، فناداه عمرو: من أين قدم الرجل؟ فقال: من المدينة، قال: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان، قال: تركته محصوراً شديد الحصار. قال عمرو: أنا أبو عبد الله؛ قد يضرط العَيْر والمِكواة في النار. فلم يبرح مجلسه ذلك حتى مرّ به راكب آخر، فناداه عمرو: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان، قال: قتِل، قال: أنا أبو عبد الله؛ إذا حكَكْتُ قَرْحةً نكأتها، إن كُنت لأحرّض عليه؛ حتى إني لأحرّض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل. فقال له

سلامة بن روح: يا معشرَ قريش؛ إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه، فما حملكم على ذلك؟ فقال: أردنا أن نُخرج الحقّ من حافرة الباطل، وأن يكون الناس في الحقّ شَرَعاً سواء. وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمِّه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، ففارقها حين عزله.

قال محمد بن عمر: وحدّثني عبد اللهبن محمد، عن أبيه، قال: كان محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة بمصر يحرّضان على عثمان، فقدم محمد بن أبي بكر وأقام محمد بن أبي حُذَيفة بمصر؛ فلما خرج المصريون خرج عبد الرحمن بن عُدَيْس البلَويّ في خمسمائة، وأظهروا أنهم يريدون العُمْرة، وخرجوا في رَجَب، وبعث عبد الله بن سعد رسولاً سار إحدى عشرة ليلة يخبر عثمان أنّ ابن عُدَيس وأصحابه قد وُجّهوا نحوه، وأنّ محمد بن أبي حذيفة شيَّعهم إلى عجرود، ثم رجع وأظهر محمد أن قال: خرج القوم عُمّاراً، وقال في السرّ: خرج القوم إلى إمامهم فإن نزع وإلّا قتلوه؛ وسار القوم المنازل لم يعدوها حتى نزلوا ذا خُشُب. وقال عثمان قبل قدومهم حين جاءه رسول عبد الله بن سعد: هؤلاء قوم من أهل مصر يريدون ـ بزعمهم ـ العُمْرة، والله ما أراهم يريدونها؛ ولكن الناس قد دُخل بهم؛ وأسرعوا إلى الفتنة، وطال عليهم عمري؛ أما والله لئن فارقتُهم ليتمنّوْن أنّ عمري كان طال عليهم مكان كلّ يوم بسنة مما يرون من الدماء المسفوكة، والإِحَن والأثَرة الظاهرة، والأحكام المغيَّرة.

قال: فلما نزلَ القوم ذا خُشب جاء الخبر أنّ القوم يريدون قتل عثمانَ إن لم ينزع، وأتى رسولهم إلى عليّ ليلًا، وإلى طلحة، وإلى عمّار بن ياسر. وكتب محمد بن أبي حذيفة معهم إلى عليّ كتاباً، فجاؤوا بالكتاب إلى عليّ، فلم يَظْهَرْ على ما فيه، فلما رأى عثمان ما رأى جاء عليًّا فدخل عليه بيته، فقال: يابنَ عمّ، إنه ليس لي مترَك؛ وإن قرابتي قريبة؛ ولي حقٌّ عظيم عليك، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وهم مصبِّحيَّ؛ وأنا أعلم أنّ لك عند الناس قدراً، وأنهم يسمعون منك، فأنا أحبّ أن تركب إليهم فتردّهم عنّي، فإني لا أحبّ أن يدخلوا عليّ؛ فإن ذلك جرأة منهم عليّ، وليسمع بذلك غيرُهم. فقال عليّ: عَلامَ أردّهم؟ قال: على أن أصير إلى ما أشرتَ به عليّ ورأيتَه لي؛ ولست أخرج من يديك؛ فقال عليّ: إني قد كنت كلمتك مرّة بعد مرّة، فكلّ ذلك نخرج فتُكلِّم، ونقول وتقول؛ وذلك كله فعل مرْوان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية؛ أطعتَهم وعصيتَني. قال عثمان: فإني أعصيهم وأطيعك.

قال: فأمر الناس، فركبوا معه: المهاجرون والأنصار. قال: وأرسل عثمان إلى عمّار بن ياسر، يُكلمه أن يركب مع عليّ فأبى، فأرسل عثمان إلى سعد بن أبي وقاص، فكلّمه أن يأتيَ عمّاراً فيكلمه أن يركب مع عليّ؛ قال: فخرج سعد حتى دخل على عمّار، فقال: يا أبا اليقظان، ألا تخرج فيمن يخرج! وهذا عليّ يخرج فاخرج معه، واردد هؤلاء القوم عن إمامك، فإنّي لأحسب أنك لم تركب مركباً هو خيرٌ لك منه.

قال: وأرسل عثمان إلى كَثِير بن الصَّلْت الكِنديّ ـ وكان من أعوان عثمان ـ فقال: انطلق في إثر سعد فاسمع ما يقول سعد لعمّار، وما يردّ عمّار على سعد، ثم ائتني سريعاً.

قال: فخرج كَثير حتى يجد سعداً عند عمّار مُخلِياً به، فألقم عينَه جُحْر الباب، فقام إليه عمّار ولا يعرفه، وفي يده قضيب، فأدخل القضيب الجُحْر الذي ألقمه كَثير عينَه، فأخرج كثير عينه من الجُحْر، وولّى مدبراً متقنّعاً. فخرج عمار فعرف أثره، ونادى: يا قليل ابن أمّ قليل! أعليَّ تطلّع وتستمع حديثي! والله لو دريتُ

أنّك هو لفقأتُ عينك بالقضيب؛ فإنّ رسول الله ﷺ قد أحلّ ذلك. ثم رجع عمار إلى سعد، فكلمه سعد وجعل يفتله بكلّ وجه؛ فكان آخر ذلك أن قال عمّار: والله لا أردّهم عنه أبداً. فرجع سعد إلى عثمان، فأخبره بقول عمار، فاتّهم عثمان سعداً أن يكون لم يناصحه، فأقسم له سعد بالله؛ لقد حرّض. فقبل منه عثمان. قال: وركب عليّ عليه السلام إلى أهل مصر، فردهم عنه، فانصرفوا راجعين.

قال محمد بن عمر: حدّثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر، عن محمد بن لَبيد، قال: لما نزلوا ذا خُشب، كلم عثمان عليّاً وأصحاب رسول الله ﷺ أن يردّوهم عنه، فركب عليّ وركب معه نفر من المهاجرين، فيهم سعِيد بن زيد، وأبو جَهْم العدويّ، وجُبير بنُ مطعِم، وحكيم بن حِزام، ومَرْوان بن الحكَم، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن عَتَّاب بن أسِيد؛ وخرج من الأنصار أبو أسَيْد الساعديّ وأبو حُميد الساعديّ، وزيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومعهم من العرب نِيار بن مِكْرم وغيرهم ثلاثون رجلاً؛ وكلّمهم عليّ ومحمد بن مسلمة ـ وهما اللذان قدِما ـ فسمعوا مقالتهما، ورجعوا. قال محمود: فأخبرني محمد بن مسلمة، قال: ما برِحنا من ذي خُشُب حتى رحلوا راجعين إلى مصر، وجعلوا يسلّمون عليّ، فما أنسى قول عبد الرحمن بن عُدَيس: أتوصينا يا أبا عبد الرحمن بحاجة؟ قال: قلت: تتّقي الله وحدَه لا شريك له، وتردّ مَن قِبَلك عن إمامه، فإنه قد وَعَدنا أن يرجع وينزع. قال ابنُ عُديس: أفعلُ إن شاء الله. قال: فرجع القوم إلى المدينة

قال محمَّد بن عمر: فحدّثني عبد الله بن محمد، عن أبيه، قال: رجع عليّ عليه السلام إلى عثمان رضي الله عنه، أخبره أنهم قد رجعوا، وكلّمه عليّ كلاماً في نفسه، قال له: اعلم أني قائل فيك أكثر مما قلت. قال: ثمّ خرج إلى بيته، قال: فمكث عثمان ذلك اليوم؛ حتى إذا كان الغد جاءه مَرْوان، فقال له: تكلّم وأعلِم الناس أنّ أهل مصر قد رجعوا، وأنّ ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً، فإنّ خطبتك تسير في البلاد قبل أن يتحلّب الناس عليك من أمصارهم؛ فيأتيك مَن لا تستطيع دفعه. قال: فأبى عثمان أن يخرج. قال: فلم يزل به مروان حتى خرج فجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعدُ، فإن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر؛ فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم. قال: فناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد: اتّق الله يا عثمان؛ فإنك قد ركبت نهابِير وركبناها معك؛ فتب إلى الله نتب. قال: فناداه عثمان؛ وإنك هناك يا بن النابغة! قمِلَتْ والله جُبّتك منذ تركتُك من العمل. قال: فنودي من ناحية أخرى:تب إلى الله وأظهر التوبة يكفّ الناس عنك. قال: فرفع عثمان يديه مدًّا واستقبل القبلة، فقال: اللهمّ إني أوّل تائب تاب إليك. ورجع إلى منزله، وخرج عمرو بن العاص حتى نزل منزله بفلسطين، فكان يقول: والله إن كنت لألقى الراعِيَ فأحرّضه عليه.

قال محمد بن عمر: فحدّثني عليّ بن عمر، عن أبيه، قال: ثمّ إن عليًّا جاء عثمان بعد انصراف المصريين، فقال له: تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليه، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة؛ فإن البلاد قد تمخّضتْ عليك؛ فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة، فتقول: يا عليّ، اركب إليهم؛ ولا أقدر أن أركب إليهم؛ ولا أسمع عذراً. ويقدم ركب آخرون من البصرة، فتقول: يا عليّ اركبْ إليهم؛ فإن لم أفعل رأيتَني قد قطعت رحِمك، واستخففتُ بحقك.

قال: فخرج عثمان فخطب الخُطبة التي نزع فيها، وأعطى الناس من نفسه التوبة، فقام فحمِد الله، وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: أما بعد أيها الناس؛ فوالله ما عاب مَن عابَ منكم شيئاً أجهلُه، وما جئت شيئاً إلّا وأنا أعرفه؛ ولكنّي مَنّتْني نفسي وكذبتني، وضلّ عني رشدي؛ ولقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن زلّ فليتب، ومَن أخطأ فليتب؛ ولا يتماد في الهلكة؛ إنّ مَن تمادى في الجوْر كان أبعد من الطريق»، فأنا أوّل من اتّعظ؛ أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نَزع وتاب؛ فإذا نزلت فليأتني أشرافُكم فليُروني رأيهم؛ فوالله لئن ردّني الحق عبداً لأستنّ بسنّة العبد، ولأذِلّنّ ذلّ العبد، ولأكونَنّ كالمرقوق؛ إن مُلِك صبر، وإن عتِق شكر؛ وما عن الله مذهَب إلّا إليه؛ فلا يعجزنّ عنكم خياركم أن يدنوا إليّ، لئن أبت يميني لتتابعنِّي شمالي.

قال: فرقّ الناس له يومئذ، وبكى مَن بكى منهم، وقام إليه سعيد بن زيد، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ليس بواصل لك مَن ليس معك؛ الله اللهَ في نفسك! فأتمم عليَ ما قلتَ. فلما نزل عثمان وجد في منزله مَرْوان وسعيداً ونفراً من بني أميَّة؛ ولم يكونوا شهدوا الخطبة؛ فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين، أتكلّم أم أصمت؟ فقالت نائلة ابنة الفَرافصة، امرأة عثمان الكلبيّة: لا بل اصمت، فإنهم والله قاتلوه ومؤثّموه؛ إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها. فأقبل عليها مروان، فقال: ما أنت وذاك! فوالله لقد مات أبوك وما يُحسن يتوضّأ، فقالت له: مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء، تُخبر عن أبي وهو غائب تكذب عليه! وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه؛ أما والله لولا أنه عَمّه، وأنه يناله غمّه، أخبرتُك عنه ما لن أكذب عليه.

قال: فأعرض عنها مروان، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتكلّم أم أصمت؟ قال: بل تكلّم، فقال مروان: بأبي أنت وأمّي! والله لوددتُ أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أوّلَ من رضيَ بها، وأعان عليها؛ ولكنك قلت ما قلتَ حين بلغَ الحِزام الطُّبْيَيْن، وخلف السَّيْلُ الزُّبى، وحين أعطى الخطّة الذليلةَ الذليلُ؛ والله لإقامةٌ على خطيئة تستغفِر الله منها أجملُ من توبة تُخوّف عليها؛ وإنك إن شئت تقرّبت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة؛ وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس. فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلّمهم، فإني استحي أن أكلمهم. قال: فخرج مروان إلى الباب والناسُ يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهبٍ! شاهت الوجوه! كلّ إنسان آخذ بأذُن صاحبه. ألا من أريدَ! جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم منّا أمر لا يسرّكم؛ ولا تحمدوا غبّ رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم؛ فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا.

قال: فرجع الناس وخرج بعضهم حتى أتى عليًا فأخبره الخبر، فجاء عليّ عليه السلام مغضَباً، حتى دخل على عثمان، فقال: أما رضيتَ من مروان ولا رضي منك إلا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به؛ والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه؛ وأيم الله إني لأراه سيورِدك ثم لا يصدرك؛ وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبتَ شرفك، وغلِبت على أمرك. فلما خرج عليّ دخلت عليه نائلة ابنة الفَرافصة امرأته، فقالت: أتكلّم أو أسكت؟ فقال: تكلّمي؛ فقالت: قد سمعت قول عليّ لك؛ وإنه ليس يعاودك، وقد أطعتَ مرْوان يقودك حيث شاء. قال: فما أصنع؟ قالت: تتّقي الله وحدَه لا شريك له، وتتّبع سنة صاحبيك من قَبْلك، فإنك متى أطعت مَروان قتلك؛ ومروان ليس له عنْد الناس قدْر ولا هيْبة ولا محبّة؛ وإنما تركَك الناس لمكان مروان؛ فأرسِل إلى عليّ فاستصلحه، فإن له قرابةً منك، وهو لا يُعصَى. قال: فأرسل عثمان إلى عليّ، فأبى أن يأتيَه، وقال: قد أعلمتُه أنّي لست بعائد.

قال: فبلغ مروان مقالةَ نائلة فيه، قال: فجاء إلى عثمان فجلس بين يديه، فقال: أتكلم أو أسكت؟ فقال: تكلم، فقال: إن بنت الفَرافصة. . . فقال عثمان: لا تذكُرنّها بحرف فأسوّيء لك وجهك، فهي والله أنصح لي منك. قال: فكفّ مروان.

قال محمد بن عمر: وحدّثني شُرحبيل بن أبي عون، عن أبيه، قال: سمعتُ عبدَ الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث يذكر مروان بن الحكم، قال: قبّح الله مروان! خرج عثمان إلى الناس فأعطاهم الرّضا، وبكى على المنبر وبكى الناس حتى نظرت إلى لحية عثمان مُخْضَلّة من الدّموع، وهو يقول: اللهمّ إنِّي أتوب إليك؛ اللهم إني أتوب إليك؛ اللهم إنيّ أتوب إليك! والله لئن ردّني الحق إلى أن أكون عبداً قنًّا لأرضينّ به؛ إذا دخلتُ منزلي فادخلوا عليّ؛ فوالله لا أحتجب منكم، ولأعطينّكم الرضا، ولأزيدنّكم على الرّضا، ولأنحّينّ مروان وذوِيه. قال: فلما دخل أمر بالباب ففتِح، ودخل بيته، ودخل عليه مَرْوان، فلم يزل يفتِله في الذّرْوة والغارِب حتى فَتله عن رأيه؛ وأزاله عمّا كان يريد؛ فلقد مكث عثمان ثلاثة أيام ما خرج استحياءً من الناس؛ وخرج مروان إلى الناس، فقال: شاهت الوجوه! ألا من أريد! ارجعوا إلى منازلكم؛ فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه، وإلاّ قرّ في بيته. قال عبد الرحمن: فجئت إلى عليّ فأجده بين القبر والمنبر، وأجد عنده عمّار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر وهما يقولان: صنَع مروان بالناس وصَنع. قال: فأقبل عليّ عليٌّ، فقال: أحضرت خطبة عثمان؟ قلت: نعم، قال: أفحضرت مقالة مروان للناس؟ قلت: نعم، قال عليّ: عياذ الله، يا للمسلمين! إنّي إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي؛ وإني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعبْ به مَرْوان، فصار سيّقةً له يسوقُه حيث شاء بعد كبَر السنّ وصحبة رسول الله ﷺ. قال عبد الرحمن بن الأسود: فلم يزل حتى جاء رسول عثمان: ائتني، فقال عليّ بصوت مرتفع عالٍ مغضَب: قل له: ما أنا بداخل عليك ولا عائد. قال: فانصرف الرسول. قال: فلقيتُ عثمان بعد ذلك بليلتين خائباً، فسألت ناتلا غلامه: من أين جاء أمير المؤمنين؟ فقال: كان عند عليّ، فقال: عبد الرحمن بن الأسود: فغدوتُ فجلست مع عليّ عليه السلام؛ فقال لي: جاءني عثمان البارحة، فجعل يقول: إني غير عائد؛ وإني فاعل؛ قال: فقلت له: بعد ما تكلمت بهِ على منبر رسول الله ﷺ وأعطيتَ من نفسك، ثم دخلتَ بيتك، وخرج مروان إلى الناس فشتمهم على بابك ويؤذيهم! قال: فرجع وهو يقول: قطعتَ رحِمي وخذلتَني، وجرّأت الناس عليّ. فقلت: والله إني لأذبّ الناس عنك، ولكني كلّما جئتك بهَنَة أظنّها لك رضاً جاء بأخرى؛ فسمعتَ قولَ مروان عليّ، واستدخلت مروان. قال: ثمّ انصرف إلى بيته. قال عبد الرحمن بن الأسود: فلم أزل أرى عليًّا منكِّباً عنه لا يفعل ما كان يفعل؛ إلاّ أني أعلم أنه قد كلم طلحة حين حصِر في أن يُدخَل عليه الرَّوايا، وغضب في ذلك غضباً شديداً، حتى دخلت الرّوايا على عثمان.

قال محمد بن عمر: وحدّثني عبد الله بن جعفر، عن إسماعيل بن محمد، أنّ عثمان صعد يوم الجمعة المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، فقام رجل، فقال: أقِمْ كتاب الله، فقال عثمان: اجلس، فجلس حتى قام ثلاثاً، فأمر به عثمان فجلس، فتحاثَوْا بالحصباء حتى ما تُرى السماء؛ وسقط عن المنبر، وحُمِل فأدخل داره مغشيًّا عليه، فخرج رجل من حجّاب عثمان، ومعه مصحف في يده وهو ينادي: ﴿ إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ إنَّمَا أمْرُهُمْ إلَى الله ﴾[1] ودخل عليّ بن أبي طالب على عثمان رضي الله عنهما وهو مغشيٌّ

(١) سورة الأنعام: ١٥٩.

عليه، وبنو أميَّة حوله، فقال: مالك يا أمير المؤمنين؟ فأقبلتْ بنو أميَّة بمنطق واحد، فقالوا: يا عليُّ أهلكتَنا وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين! أما والله لئن بلغتَ الذي تريد لتُمَرَّنَّ عليك الدّنيا. فقام عليّ مغضباً.

وفي هذه السنة قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ذكر الخبر عن قتله وكيف قتل:

قال أبو جعفر رحمه الله: قد ذكرنا كثيراً من الأسباب التي ذكر قاتلوه أنهم جعلوها ذريعةً إلى قتله، فأعرضنا عن ذكر كثير منها لعللٍ دعت إلى الإعراض عنها؛ ونذكر الآن كيف قُتِل، وما كان بدء ذلك وافتتاحه، ومَن كان المبتدىء به والمفتتحَ للجرأة عليه قبل قتله.

ذكر محمد بن عمر أنّ عبد الله بن جعفر حدّثه عن أم بكر بنت المِسْوَر بن مَخرَمة، عن أبيها، قال: قدمت إبل من إبل الصدقة على عثمان، فوهبها لبعض بني الحكَم، فبلغ ذلك عبدَ الرحمن بن عوف، فأرسل إلى المسوَر بن مَخرَمة وإلى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فأخذاها، فقَسمها عبد الرحمن في الناس وعثمان في الدار.

قال محمد بن عمر: وحدّثني محمد بن صالح، عن عبيد الله بن رافع بن نقاخة، عن عثمان بن الشَّريد، قال: مرّ عثمان على جَبلة بن عمرو الساعديّ وهو بفناء داره، ومعه جامعة، فقال: يا نعثل؛ والله لأقتلنّك، ولأحملنّك على قَلوص جرباء، ولأخرجنَّك إلى حَرّة النار. ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله عنه.

حدثني محمد، قال: حدّثني أبو بكر بن إسماعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، قال: كان أوّل من اجترأ على عثمان بالمنطق السيِّيء جبَلة بن عمرو الساعديّ، مرّ به عثمان وهو جالس في نديّ قومه، وفي يد جبلة بن عمرو جامعة، فلما مرَّ عثمان سلَّم، فردّ القوم، فقال جبلة: لم تردون على رجل فعل كذا وكذا! قال: ثم أقبل علَى عثمان، فقال: والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عُنقك أو لتتركنّ بطانتك هذه. قال عثمان: أيّ بطانة! فوالله إني لأتخيّر الناس؛ فقال: مروان تخيَّرته! ومعاوية تخيّرتَه! وعبد الله بن عامر بن كُرَيز تخيّرتَه! وعبد الله بن سعد تخيّرتَه! منهم من نزل القرآن بدمِه، وأباح رسول الله ﷺ دمَه.

قال: فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم.

قال محمد بن عمر: وحدّثني ابن أبي الزّناد، عن موسى بن عُقْبة، عن أبي حَبيبة، قال: خطب عثمان الناس في بعض أيامه، فقال عمرو بن العاص: يا أميرَ المؤمنين، إنك قد ركبت نَهابير وركبناها معك، فتب نتب. فاستقبل عثمان القبلة وشهرَ يديه ـ قال أبو حبيبة: فلم أرَ يوماً أكثر باكياً ولا باكية من يومئذ ـ ثم لما كان بعد ذلك خطب الناس، فقام إليه جَهْجَاهُ الغِفاريّ؛ فصاح: يا عثمان، ألا إن هذه شارف قد جئنا بها، عليها عباءة وجامعة؛ فانزل فلندرّعك العَباءة، ولنطرحك في الجامعة؛ ولنحملك على الشارِف؛ ثم نطرحك في جبل الدخان. فقال عثمان: قبحك الله وقبح ما جئت به! قال أبو حبيبة: ولم يكن ذلك منه إلاّ عن ملإٍ من الناس؛ وقام إلى عثمان خيرته وشيعته من بني أميّة فحملوه فأدخلوه الدار.

قال أبو حبيبة: فكان آخر ما رأيته فيه.

قال محمد: وحدّثني أسامة بن زيد الليثيّ، عن يحيى بن عبد الرحمن بن خاطب، عن أبيه، قال: أنا

أنظر إلى عثمان يخطب على عصَا النبيّ ﷺ التي كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال له جَهْجاه: قم يا نعثَل؛ فانزل عن هذا المنبر، وأخذ العصا فكسرها على ركبته اليمنى، فدخلت شظيةٌ منها فيها؛ فبقي الجرح حتى أصابته الأكلَة، فرأيتها تدود، فنزل عثمان وحملوه وأمر بالعصا فشدّوها، فكانت مضبّبة، فما خرج بعد ذلك اليوم إلاّ خَرْجة أو خرجتيْن حتى حُصِر فقتل.

حدثني أحمد بن إبراهيم؛ قال: حدّثنا عبد الله بن دريس، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، أنّ جَهْجاهاً الغِفاريّ، أخذ عصاً كانت في يد عثمان، فكسرها على ركبته، فرمى في ذلك المكان بأكله.

حدّثني جعفر بن عبد الله المحمديّ، قال: حدّثنا عمرو، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدنيّ، عن عمّه عبد الرحمن بن يسار، أنه قال: لمّا رأى الناس ما صنع عثمان كتب مَن بالمدينة من أصحاب النبي ﷺ إلى مَن بالآفاق منهم ـ وكانوا قد تفرّقوا في الثغور: إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عزّ وجلّ، تطلبون دينَ محمد ﷺ؛ فإنّ دين محمد قد أُفسِد من خلفكم وتُرِك، فهلمّوا فأقيموا دينَ محمد ﷺ. فأقبلوا مِن كلّ أفق حتى قتلوه. وكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرْح عامله على مصر ـ حين تراجع الناس عنه، وزعم أنه تائب ـ بكتاب في الذين شخصوا من مصر، وكانوا أشدّ أهل الأمصار عليه: أمّا بعد؛ فانظر فلاناً وفلاناً فاضرب أعناقَهم إذا قدموا عليك؛ فانظر فلاناً وفلاناً فعاقبهم بكذا وكذا ـ منهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم قوم من التّابعين ـ فكان رسوله في ذلك أبو الأعور بن سفيان السُّلميّ، حمله عثمان على جَمل له، ثم أمره أن يقبِل حتى يدخل مصر قبل أن يدخلها القوم، فلحقهم أبو الأعور ببعض الطريق، فسألوه: أين يريد؟ قال: أريد مصر؛ ومعه رجل من أهل الشأم من خَوْلان؛ فلما رأوه على جمل عثمان، قالوا له: هل معك كتاب؟ قال: لا، قالوا: فيمَ أُرسِلتَ؟ قال: لا علم لي، قالوا: ليس معك كتاب ولا علم لك بما أرسِلت! إن أمرَك لمريب! ففتّشوه، فوجدوا معه كتاباً في إداوة يابسة، فنظروا في الكتاب، فإذا فيه قتْل بعضهم وعقوبة بعضهم في أنفسهم وأموالهم. فلما رأوا ذلك رجعوا إلى المدينة، فبلغ الناسَ رجوعُهم، والذي كان من أمرهم فتراجعوا من الآفاق كلها، وثار أهل المدينة.

حدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو وعليّ، قالا: حدّثنا حسين، عن أبيه عن محمد بن السائب الكلبيّ، قال: قال: إنما ردّ أهلَ مصر إلى عثمان بعد انصرافهم عنه أنه أدركهم غلام لعثمان على جَمل له بصحيفة إلى أمير مصر أن يقتل بعضهم، وأن يصلب بعضهم. فلما أتوا عثمان، قالوا: هذا غلامك، قال: غلامي انطلق بغير علمي، قالوا: جملك، قال: أخذه من الدار بغير أمري، قلت خاتَمك، قال: نقش عليه، فقال عبد الرحمن بن عُدَيس التُّجيبيّ حين أقبل أهل مصر:

أقْبلْنَ مِنْ بِلْبِيسَ والصَّعيدِ ... خُوصاً كأمثال القِسِيِّ قودِ
مسْتحْقِباتٍ حَلَقَ الحَديدِ ... يطْلُبْنَ حَقَّ آللهِ في الوَليدِ
وعِندَ عثمانَ وَفي سَعيد ... يا رَبِّ فارْجعنا بما نريدُ

فلما رأى عثمان ما قد نزل به، وما قد انبعث عليه من النّاس، كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام: بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد؛ فإنّ أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة؛ ونكثوا البيعة، فابعث إليّ مَن قِبلكَ من مقاتِلة أهل الشام على كلّ صعب وَذلول.

فلما جاء معاويةَ الكتاب تربّص به، وكره إظهارَ مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ؛ وقد علم اجتماعهم؛ فلما أبطأ أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كُرْز، وإلى أهل الشام يستنفرهم ويُعظّم حقّه عليهم، ويذكر الخلفاء وما أمر الله عزّ وجلّ به من طاعتهم ومناصحتهم، ووعدِهم أن ينجدَهم جندٌ أو بطانةٌ دون الناس، وذكّرهم بلاءه عندهم، وصنيعه إليهم؛ فإن كان عندكم غياث فالعجَل العجَل؛ فإن القوم مُعاجليّ.

فلما قرىء كتابه عليهم قام يزيد بن أسد بن كُرْز البَجَليّ ثم القسْريّ؛ فحمِد الله وأثنى عليه، ثم ذكر عثمان، فعظّم حقه، وحضّهم على نصره، وأمرهم بالمسير إليه. فتابعه ناس كثير، وساروا معه حتى إذا كانوا بوادِي القُرى، بلغهم قتلُ عثمان رضي الله عنه، فرجعوا.

وكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر؛ أن اندُب إليّ أهلَ البصرة؛ نسخة كتابه إلى أهل الشام.

فجمع عبد الله بن عامر الناس؛ فقرأ كتابه عليهم؛ فقامت خطباء من أهل البصرة يحضّونه على نصر عثمان والمسير إليه؛ فيهم مجاشع بن مسعود السُّلَميّ؛ وكان أوّلَ مَن تكلّم؛ وهو يومئذ سيّد قيس بالبصرة. وقام أيضاً قيس بن الهيثم السلَميّ، فخطب وحضّ الناس على نصر عثمان؛ فسارع الناس إلى ذلك؛ فاستعمل عليهم عبدُ الله بن عامر مجاشعَ بن مسعود فسار بهم؛ حتى إذا نزل الناس الرَّبَذة، ونزلت مقدّمته عند صِرار ـ ناحية من المدينة ـ أتاهم قتلُ عثمان.

حدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو وعليّ، قالا: حدّثنا حسين، عن أبيه، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدنيّ، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: كتب أهلُ مصر بالسُّقيا ـ أو بذي خُشُب ـ إلى عثمان بكتاب؛ فجاء به رجل منهم حتى دخل به عليه، فلم يردّ عليه شيئاً، فأمر به فأُخرِج من الدار؛ وكان أهلُ مصر الذين ساروا إلى عثمان ستمائة رجل على أربعة ألوِية لها رؤوس أربعة، مع كلّ رجل منهم لواء؛ وكان جِماع أمرهم جميعاً إلى عمرو بن بُدَيل بن ورقاء الخُزاعيّ ـ وكان من أصحاب النبيّ ﷺ ـ وإلى عبد الرحمن بن عُدَيس التُّجيبيّ؛ فكان فيما كتبوا إليه: بسم الله الرحمن الرحيم؛ أمّا بعد، فاعلم أنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم؛ فالله الله! ثم الله الله! فإنك على دُنيا فاستتِمَّ إليها معها آخرة، ولا تلْبِس نصيبك من الآخرة؛ فلا تسوغ لك الدنيا. واعلم أنّا والله لله نغضب، وفي الله نرضَى؛ وإنا لن نضع سيوفَنا عن عواتقنا حتى تأتيَنا منك توْبة مصرّحة، أو ضلالة مجلّحة مُبْلِجة؛ فهذه مقالتنا لك، وقضيّتنا إليك، والله عذيرنا منك. والسلام.

وكتب أهلُ المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة، ويحتجّون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه، أو يعطيهم ما يلزمه من حقّ الله.

فلما خاف القتلَ شاور نصحاءه وأهل بيته، فقال لهم: قد صنع القوم ما قد رأيتم، فما المخرَج؟ فأشاروا عليه أن يرسل إلى عليّ بن أبي طالب فيطلب إليه أن يردّهم عنه، ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولَهم حتى يأتيَه أمداد؛ فقال: إنّ القوم لن يقبلوا التعليل، وهم محمِّليّ عهداً؛ وقد كان منّي في قَدْمتهم الأولى ما كان؛ فمتى أعطِهم ذلك يسألوني الوفاء به! فقال مروان بن الحكم: يا أميرَ المؤمنين، مقاربَتُهم حتى تقوى أمثلُ من مكاثرتهم على القُرْب، فأعطهم ما سألوك، وطاوِلْهم ما طاولوك؛ فإنما هم بغوْا عليك، فلا عهد لهم.

فأرسل إلى عليّ فدعاه، فلما جاءه قال: يا أبا حسن؛ إنه قد كان من الناس ما قد رأيت، وكان مني ما قد

علمت؛ ولست آمنهُم على قتل، فارددْهم عني؛ فإن لهم الله عزّ وجلّ أن أعتِبَهم من كل ما يكرهون؛ وأن أعطيَهم الحقّ من نفسي ومن غيري؛ وأن كان في ذلك سفكُ دمي. فقال له عليٌّ: الناس إلى عدلك أحوجُ منهم إلى قتلك؛ وإني لأرى قوماً لا يرضوْن إلا بالرضا، وقد كنتَ أعطيتَهم في قَدْمتهم الأولى عهداً من الله: لترجعنّ عن جميع ما نقَموا؛ فرددتُم عنك، ثم لم تف لهم بشيء من ذلك، فلا تغرّني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحقّ. قال: نعم، فأعطهم، فوالله لأفينّ لهم. فخرج عليٌّ إلى الناس، فقال: أيّها الناس؛ إنكم إنما طلبتم الحقّ فقد أعطِيتموه؛ إنّ عثمان قد زعم أنه منصفُكم من نفسه ومن غيره؛ وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه ووكِّدوا عليه. قال الناس: قد قبلنا فاستوثق منه لنا، فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل. فقال لهم عليّ: ذلك لكم. ثم دخل عليه فأخبره الخبرَ، فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة، فإني لا أقدر على ردّ ما كرهوا في يوم واحد، قال له عليّ: ما حضر بالمدينة فلا أجلَ فيه، وما غاب فأجلُه وصول أمرك، قال: نعم؛ ولكن أجّلني فيها بالمدينة ثلاثة أيام. قال عليٌّ: نعم، فخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً، علَى أن يَرُدَّ كلّ مَظلِمة، ويعزل كلّ عامل كرهوه؛ ثم أخذ عليه في الكتاب أعظمَ ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق، وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار، فكفّ المسلمون عنه ورجعوا إلى أن يفِيَ لهم بما أعطاهم من نفسه؛ فجعل يتأهّب للقتال، ويستعدّ بالسلاح - وقد كان اتّخذ جنداً عظيماً من رقيق الخُمْس - فلما مضت الأيام الثلاثة - وهو على حالِه لم يغيّر شيئاً مما كرهوه، ولم يعزل عاملاً - ثار به الناس. وخرج عمرو بن حزم الأنصاريّ حتى أتى المصريين وهم بذي خُشُب، فأخبرهم الخبر، وسار معهم حتى قدِموا المدينة، فأرسلوا إلى عثمان: ألم نفارِقْك على أنك زعِمت أنك تائب من إحداثك، وراجعٌ عما كرهنا منك؛ وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه! قال: بلى، أنا على ذلك، قالوا: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك؛ وكتبت به إلى عاملك؟ قال: ما فعلتُ ولا لي علم بما تقولون. قالوا: بَريدك على جملك، وكتاب كاتبك عليه خاتَمُك؛ قال: أمّا الجمل فمسروق، وقد يشبه الخطّ الخطّ؛ وأما الخاتم فانتُقِش عليه، قالوا: فإنا لا نعجّل عليك؛ وإن كنا قد اتّهمناك، اعزل عنّا عمّالك الفسّاق، واستعمل علينا من لا يُتّهم على دمائنا وأموالنا، واردد علينا مظالمنا. قال عثمان: ما أراني إذاً في شيء إن كنت أستعمل مَن هويتم، وأعزل مَن كرهتم، الأمر إذاً أمركم! قالوا: والله لتفعلنّ أو لتُعزَلَنّ أو لتُقتَلنّ؛ فانظر لنفسك أو دَعْ. فأبى عليهم وقال: لم أكن لأخلَع سربالاً سَرْبَلنِيه الله، فحصروه أربعين ليلة، وطَلْحة يصلّي بالناس.

حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ابن عون، قال: حدّثنا الحسن، قال: أنبأني وثّاب - قال: وكان فيمن أدركه عِتْقُ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، قال: ورأيت بحلْقه أثَر طعنتيْن، كأنهما كتبان طُعنهما يومئذ يوم الدار- قال: بعثني عثمان، فدعوت له الأشتر، فجاء - قال ابن عون: فأظنّه قال: فطرحت لأمير المؤمنين وسادة وله وسادة - فقال: يا أشتر؛ ما يريد الناس مني؟ قال: ثلاثاً ليس من إحداهن بدٌّ؛ قال: ما هنّ؟ قال: يخيّرونك بين أن تخلع لهم أمرَهم فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له مَنْ شئتم، وبين أن تُقِصّ من نفسك؛ فإن أبيت هاتيْن فإنّ القوم قاتلوك. فقال: أما من إحداهن بدٌّ! قال: ما مِن إحداهنّ بدٌّ، فقال: أمّا أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سربالاً سربلَنيه الله عزّ وجلّ - قال: وقال غيرُه: والله لأن أقدَّم فتضرَب عنقي أحبُّ إليّ من أن أخلعَ قميصاً قمّصَنيه الله وأترك أمّة محمد ﷺ يعدُو بعضها على بعض. قال ابن عون: وهذا أشبه بكلامه - وأمّا أن أقِصّ من نفسي؛ فوالله لقد علمت أنْ صاحبيّ بين يديّ قد كانا

يعاقِبان وما يقوم بدني بالقِصاص، وأما أن تقتلوني، فوالله لئن قتلتموني لا تتحابّون بعدي أبداً، ولا تصلّون جميعاً بعدي أبداً، ولا تقاتلون بعدي عدوًّا جميعاً أبداً. قال: فقام الأشتر فانطلق؛ فمكثنا أياماً. قال: ثم جاء رُوَيجل كأنه ذئب، فاطّلع من باب، ثم رجع وجاء محمد بن أبي بكر وثلاثة عشر حتى انتهى إلى عثمان، فأخذ بلحيته، فقال بها حتى سمعت وَقْع أضراسه، وقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك! قال: أرسِل يا ابنَ أخي، أرسل لحيتي. قال: وأنا رأيتُه استعدى رجلاً من القوم بعينه، فقام إليه بمشقص حتى وجأ به في رأسه. قلت: ثم مه؛ قال: تغاووْا عليه حتى قتلوه.

وذكر الواقديّ أنّ يحيى بن عبد العزيز حدّثه عن جعفر بن محمود، عن محمد بن مسلمة، قال: خرجت في نفر من قومي إلى المصريين وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عُدَيس البلَويّ، وسودان بن حُمران المراديّ، وعمرو بن الحَمِق الخزاعيّ ـ وقد كان هذا الاسم غلَب حتى كان يقال: حَبيس بن الحمِق ـ وابن النّباع. قال: فدخلت عليهم وهم في خِباء لهم أربعتهم، ورأيت الناس لهم تبعاً، قال: فعظّمت حقّ عثمان وما في رقابهم من البيعة، وخوّفتهم بالفتنة، وأعلمتهم أنّ في قتله اختلافاً وأمراً عظيماً؛ فلا تكونوا أوّل من فتحه، وأنه ينزع عن هذه الخصال التي نَقَمتم منها عليه، وأنا ضامن لذلك. قال القوم: فإنْ لم ينزع؟ قال: قلت: فأمركم إليكم. قال: فانصرف القوم وهم راضون، فرجعت إلى عثمان، فقلت: أخلِني فأخلاني، فقلت: الله الله يا عثمان في نفسك! إنّ هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دَمك، وأنت ترى خذلان أصحابك لك؛ لا بل هم يقوّون عدوّك عليك. قال: فأعطاني الرّضا، وجزاني خيراً. قال: ثمّ خرجتُ من عنده، فأقمت ما شاء الله أن أقيم.

قال: وقد تكلّم عثمان برجوع المصريين، وذكر أنهم جاؤوا لأمر، فبلغهم غيرُه فانصرفوا، فأردت أن آتيَه فأعنِّفَه بها، ثم سَكتّ فإذا قائل يقول: قد قدم المصريون وهم بالسُّويداء، قال: قلت: أحقٌّ ما تقول؟ قال: نعم، قال: فأرسل إليّ عثمان.

قال: وإذا الخبر قد جاءه، وقد نزل القوم من ساعتهم ذا خُشب، فقال: يا أبا عبد الرّحمن، هؤلاء القوم قد رجعوا، فما الرأي فيهم؟ قال: قلت: والله ما أدري؛ إلاّ أني أظن أنهم لم يرجعوا لخير. قال: فارجع إليهم فارددهم، قال: قلت: لا والله ما أنا بفاعل، قال: ولم؟ قال: لأنّي ضمنتُ لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها. قال: فقال: الله المستعان.

قال: وخرجتُ وقدم القوم وحلُّوا بالأسواف، وحصروا عثمان.

قال: وجاءني عبدُ الرحمن بن عُدَيس ومعه سُودان بن حُمران وصاحباه، فقالوا: يا أبا عبد الرّحمن، ألم تعْلم أنّك كلّمتَنا ورددتنا وزعمت أنّ صاحبنا نازعٌ عمّا نكره؟ فقلت: بلى، قال: فإذا هم يُخرِجون إليّ صحيفة صغيرة. قال: وإذا قصبة من رصاص؛ فإذا هم يقولون: وجدنا جملاً من إبل الصدقة عليه غلام عثمان، فأخذنا متاعه ففتّشناه، فوجدنا فيه هذا الكتاب؛ فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد؛ فإذا قدم عليك عبدُ الرحمن بن عُدَيس فاجْلِدْه مائة جلدة، واحلِق رأسه ولحيته، وأطِل حبْسَه حتى يأتيَك أمري؛ وعمرو بن الحمِق فافعل به مثلَ ذلك، وسُودان بن حمران مثلَ ذلك؛ وعروة بن النِّباع الليثيّ مثلَ ذلك. قال: فقلت: وما يدريكم أنّ عثمان كتب بهذا؟ قالوا: فيفتات مروان على عثمان بهذا! فهذا شرّ؛ فيخرج نفسه من هذا الأمر.

ثم قالوا: انطلق معنا إليه، فقد كلمنا عليًّا، ووعدنا أن يكلّمه إذا صلَّى الظهر. وجئنا سعد بن أبي وقّاص، فقال: لا أدخل في أمركم. وجئنا سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل فقال مثل هذا؛ فقال محمد: فأين وَعَدكم عليّ؟ قالوا: وعَدنا إذا صلى الظهر أن يدخل عليه.

قال محمد: فصليت مع عليّ، قال: ثم دخلت أنا وعليّ عليه، فقلنا: إن هؤلاء المصريين بالباب، فأذن لهم ـ قال: ومروان عنده جالس ـ قال: فقال مروان: دعني جعلت فداك أكلّمهم! قال: فقال عثمان: فضّ الله فاك! اخرج عني؛ وما كلامك في هذا الأمر! قال: فخرج مروان، قال: وأقبل عليّ عليه ـ قال: وقد أنهى المصريُّون إليه مثل الذي أنهوْا إليّ ـ قال: فجعل عليّ يخبره ما وجدوا في كتابهم. قال: فجعل يقسم بالله ما كتب ولا علم ولا شُووِر فيه. قال: فقال محمد بن مسلمة: والله إنه لصادق؛ ولكن هذا عمل مرْوان، فقال عليّ: فأدخلهم عليك، فليسمعوا عذرك، قال: ثم أقبل عثمان على عليّ، فقال: إنّ لي قرابة ورِحماً؛ والله لو كنتَ في هذه الحلْقة لحللتها عنك؛ فاخرج إليهم، فكلِّمهم؛ فإنهم يسمعون منك. قال عليّ: والله ما أنا بفاعل؛ ولكن أدخِلْهم حتى تعتذر إليهم؛ قال: فادخلوا.

قال محمد بن مسلمة: فدخلوا يومئذ، فما سلّموا عليه بالخلافة، فعرفتُ أنه الشرّ بعينه؛ قالوا: سلام عليكم، فقلنا: وعليكم السلام، قال: فتكلَّم القوم وقد قدّموا في كلامهم ابنَ عُدَيس، فذكر ما صنع ابنُ سعد بمصر، وذكر تحاملاً منه على المسلمين وأهل الذمّة، وذكر استئثاراً منه في غنائم المسلمين؛ فإذا قيل له في ذلك، قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ، ثم ذكروا أشياء مما أحدث بالمدينة، وما خالف به صاحبيه. قال: فرحلنا من مصر ونحن لا نريد إلا دمَك أو تنزعَ؛ فردّنا عليّ ومحمد بن مسلمة، وضمِن لنا محمد النزوع عن كلّ ما تكلمنا فيه ـ ثم أقبلوا على محمد بن مسلمة، فقالوا: هل قلت ذاك لنا؟ قال محمد: فقلت: نعم ـ ثم رجعنا إلى بلادنا نستظهر بالله عزّ وجلّ عليك ويكون حجة لنا بعد حجّة حتى إذا كنا بالبُوَيْب أخذنا غلامك فأخذنا كتابَك وخاتَمك إلى عبدالله بن سعد، تأمره فيه بجلد ظهورنا، والمَثْل بنا في أشعارنا، وطول الحبس لنا؛ وهذا كتابك.

قال: فحمد الله عثمانُ وأثنى عليه، ثم قال: والله ما كتبتُ ولا أمرتُ، ولا شوورت ولا علمتُ. قال: فقلت وعليّ جميعاً: قد صدق. قال: فاستراح إليها عثمان، فقال المصريون: فمن كتبه؟ قال: لا أدري، قال: أفيجترَأ عليك فيُبعثَ غلامُك وجملٌ من صدقات المسلمين، وينقَش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم! قال: نعم، قالوا: فليس مثلك يلِي، اخلَعْ نفسك من هذا الأمر كما خلَعك الله منه. قال: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عزّ وجلّ. قال: وكثرت الأصوات واللغط، فما كنتُ أظنّ أنهم يخرجون حتى يواثبوه. قال: وقام عليّ فخرج، قال: فلمّا قام عليّ قمت، قال: وقال للمصريين، اخرجوا، فخرجوا. قال: ورجعت إلى منزلي ورجع عليّ إلى منزله، فما برحوا محاصريه حتى قتلوه.

قال محمّد بن عمر: وحدّثني عبد الله بن الحارث بن الفُضيل، عن أبيه، عن سفيان بن أبي العوْجاء، قال: قدم المصريّون القَدْمة الأولى، فكلّم عثمانُ محمد بنَ مسلمة، فخرج في خمسين راكباً من الأنصار، فأتوهم بذي خُشُب فردّهم، ورجع القوم حتى إذا كانوا بالبُويب، وجدوا غلاماً لعثمان معه كتاب إلى عبد الله بن سعد، فكرّوا، فانتهوْا إلى المدينة، وقد تخلّف بها من الناس الأشتر وحُكَيم بن جَبَلة، فأتوا بالكتاب، فأنكر

عثمان أن يكون كتبه، وقال: هذا مفتعَل، قالوا: فالكتاب كتابُ كاتبِك! قال: أجل، ولكنّه كتبه بغير أمري، قالوا: فإنّ الرسول الذي وجدنا معه الكتابَ غلامُك، قال: أجل؛ ولكنه خرج بغير إذني، قالوا: فالجمل جملُك، قال: أجل؛ ولكنه أخذ بغير علمي، قالوا: ما أنت إلّا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققتَ الخلع لَما أمرت به من سفكِ دمائنا بغير حقها، وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلَع لضعفِك وغفلتك وخبثِ بطانتك؛ لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا مَنْ يُقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته. وقالوا له: إنّك ضربت رجالاً من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم حين يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحقّ عندما يستنكرون من أعمالك؛ **فأقِدْ** مِن نفسك مَن ضربته وأنت له ظالم، فقال: الإمام يخطىء ويصيب؛ فلا أُقيد من نفسي؛ لأني لو أقدت كلّ من أصبته بخطإ آتي على نفسي؛ قالوا: إنك قد أحدثت أحداثاً عظاماً فاستحققت بها الخلْع؛ فإذا كُلّمتَ فيها أعطيتَ التوبة ثم عدت إليها وإلى مثلها، ثم قدمنا عليك فأعطيتَنا التوبة والرجوع إلى الحق؛ ولامنا فيك محمد بن مسلمة، وضمِن لنا ما حدث من أمر، فأخفرته فتبرّأ منك، وقال: لا أدخل في أمره؛ فرجعنا أوّل مرة لنقطع حجّتك ونبلغ أقصى الإعذار إليك؛ نستظهر بالله عزّ وجلّ عليك؛ فلحقَنا كتاب منك إلى عاملك علينا تأمره فينا بالقتل والقطع والصلب. وزعمتَ أنه كُتب بغير علمك وهو مع غلامك وعلى جملِك وبخطّ كاتبك وعليه خاتَمُك، فقد وقعتْ عليك بذلك التُّهمة القبيحة، مع ما بلوْنا منك قبل ذلك من الجوْر في الحُكْم والأَثَرة في القَسْم والعقوبة للأمر بالتبسُّط من الناس، والإظهار للتوبة، ثمّ الرجوع إلى الخطيئة، ولقد رجعنا عنك وما كان لنا أن نرجِع حتى نخلعَك ونستبدلَ بك من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يُحدِث مثل ما جرّبنا منك، ولم يقع عليه من الهُمة ما وقع عليك؛ فاردد خلافتَنا؛ واعتزل أمرنا؛ فإنّ ذلك أسلم لنا منك، وأسلم لك منا.

فقال عثمان: فرغتم من جميع ما تريدون؟ قالوا: نعم، قال: الحمد لله، أحمَده وأستعينُه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله؛ أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون. أمّا بعد، فإنكم لم تعدِلوا في المنطق، ولم تنصِفوا في القضاء؛ أما قولكم: تخلع نفسك، فلا أنزع قميصاً قمّصنيه الله عزّ وجلّ وأكرمني به، وخصّني به على غيري؛ ولكني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون؛ فإني والله الفقير إلى الله الخائف منه. قالوا: إنّ هذا لو كان أوّل حدَث أحدثته ثم تبت منه ولم تقم عليه؛ لكان علينا أن نقبل منك، وأن ننصرف عنك؛ ولكنه قد كان منك من الإحداث قبل هذا ما قد علمت، ولقد انصرفنا عنك في المرة الأولى، وما نخشى أن تكتب فينا، ولا من اعتللت به بما وجدنا في كتابك مع غلامك. وكيف نقبل توْبتك وقد بلونا منك أنك لا تعطي من نفسك التوبة من ذنب إلّا عدتَ إليه؛ فلسنا منصرِفين حتى نعزلَك ونستبدلَ بك، فإن حالَ مَن معك من قومك وذوي رحِمِك وأهل الانقطاع إليك دونك بقتال قاتلناهم؛ حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحُنا بالله. فقال عثمان: أمّا أن أتبرّأ من الإمارة؛ فإن تصلبوني أحبّ إليّ من أن أتبرّأ من أمر الله عزّ وجلّ وخلافته. وأما قولكم: تقاتلون مَن قاتل دوني؛ فإنّي لا آمر أحداً بقتالكم؛ فمن قاتل دوني فإنما قاتل بغير أمري، ولعمري لو كنتُ أريد قتالكم، لقد كنت كتبتُ إلى الأجناد فقادوا الجنود، وبعثوا الرّجال، أولحقت ببعض أطرافي بمصر أو عراق؛ فاللهَ اللهَ في أنفسكم أبقوا عليها إن لم تُبقوا عليّ؛ فإنكم مجتلبون بهذا الأمر ـ إن قتلتموني ـ دماً. قال: ثمّ انصرفوا عنه وآذنوه بالحرب، وأرسل إلى محمد بن مسلمة فكلّمه أن يردّهم، فقال: والله لا أكذب الله في سنة مرتين.

قال محمد بن عمر: حدّثني محمد بن مسلم، عن موسى بن عُقْبة، عن أبي حبيبة، قال: نظرت إلى سعد بن أبي وقاص يوم قُتل عثمان؛ دخل عليه ثم خرج من عنده وهو يسترجع مما يرى على الباب؛ فقال له مرْوان: الآن تندم! أنت أشعرته. فأسمع سعداً يقول: أستغفر الله، لم أكن أظنّ الناس يجترئون هذه الجرأة، ولا يطلبون دمه، وقد دخلت عليه الآن فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك، فنزع عن كلّ ما كُره منه، وأعطى التوبة، وقال: لا أتمادى في الهلكة؛ إنّ مَن تمادَى في الجَوْر كان أبعد من الطريق؛ فأنا أتوب وأنزع. فقال مروان: إن كنتَ تريد أن تذبّ عنه؛ فعليك بابن أبي طالب، فإنه متستّر، وهو لا يُجبه؛ فخرج سعد حتى أتى عليًّا وهو بين القبر والمنبر، فقال: يا أبا حسَن؛ قم فِداك أبي وأمّي! جئتك والله بخير ما جاء به أحد قطّ إلى أحدٍ، تصل رحِمَ ابن عمّك، وتأخذ بالفضل عليه، وتحقِن دمه، ويرجع الأمر على ما نحبّ، قد أعطى خليفتُك من نفسه الرّضا. فقال عليّ: تقبّل الله منه يا أبا إسحاق! والله ما زلتُ أذبّ عنه حتى إني لأستحي؛ ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص هم صنعوا به ما ترى؛ فإذا نصحتُه وأمرته أن ينحِّيَهم استغشّني حتى جاء ما ترى. قال: فبينا هم كذلك جاء محمد بن أبي بكر، فسارَّ عليًّا؛ فأخذ عليٌّ بيدي، ونهض عليٌّ وهو يقول: وأيّ خير توبتُه هذه! فوالله ما بلغت داري حتى سمعت الهائعة؛ أن عثمان قد قتل؛ فلم نزل والله في شرّ إلى يومنا هذا.

قال محمد بن عمر: وحدّثني شُرحبيل بن أبي عوْن، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، قال: لما خرج المصريّون إلى عثمان رضي الله عنه، بعث عبدالله بن سعد رسولاً أسرع السير يعلِم عثمان بمخرجهم، ويخبره أنهم يُظهرون أنهم يريدون العمرة. فقدِم الرّسول على عثمان بن عفان، يخبرهم فتكلم عثمان، وبعث إلى أهل مكة يحذّر مَن هناك هؤلاء المصريين، ويخبِّرهم أنهم قد طعنوا على إمامهم. ثمّ إن عبدالله بن سعد خرج إلى عثمان في آثار المصريين ـ وقد كان كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له ـ فقدم ابن سعد، حتى إذا كان بأيْلة بلغه أنّ المصريين قد رجعوا إلى عثمان، وأنهم قد حصروه، ومحمد بن أبي حُذيفة بمصر؛ فلما بلغ محمداً حَصْرُ عثمان وخروجُ عبدالله بن سعد عنه غلب على مصر، فاستجابوا له، فأقبل عبدالله بن سعد يريد مصر، فمنعه ابنُ أبي حُذيفة، فوجّه إلى فلسطين، فأقام بها حتى قُتِل عثمان رضي الله عنه، وأقبل المصريون حتى نزلوا بالأسواف، فحصروا عثمان، وقدم حُكَيم بن جبلة من البصرة في ركب، وقدم الأشتر في أهل الكوفة، فتوافَوْا بالمدينة، فاعتزل الأشتر؛ فاعتزل حُكَيم بن جبلة، وكان ابن عُديس وأصحابه هم الذين يحصرون عثمانَ، فكانوا خمسمائة، فأقاموا على حصاره تسعة وأربعين يوماً، حتى قُتِل يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة مضت من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين.

قال محمد: وحدّثني إبراهيم بن سالم، عن أبيه عن بُسر بن سعيد، قال: وحدّثني عبد الله بن عيّاش بن أبي ربيعة، قال: دخلتُ على عثمان رضي الله عنه، فتحدّثت عنده ساعة، فقال: يا ابن عياش، تعالَ. فأخذ بيدي، فأسمعني كلام من على باب عثمان، فسمعنا كلاماً؛ منهم من يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم من يقول: انظروا عسى أن يراجع، فبينا أنا وهو واقفان إذ مرّ طلحة بن عبيد الله؛ فوقف فقال: أين ابن عُديس؟ فقيل: ها هو ذا، قال: فجاءه ابن عُدَيس، فناجاه بشيء، ثم رجع ابن عُدَيس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل؛ ولا يخرج من عنده. قال: فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله. ثم قال عثمان: اللهمّ اكفني طلحةَ بن عبيد الله، فإنه حمل عليّ هؤلاء وألّبهم؛ والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً،

وأن يُسفَك دمه، إنه انتهك مني ما لا يحلّ له، سمعت رسول الله ﷺيقول: «لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه فيقتل، أو رجل زنى بعد إحصانه فيرجَم، أو رجل قتل نفساً بغير نفس»، ففيم أقتل! قال: ثم رجع عثمان. قال ابن عياش: فأردت أن أخرج فمنعوني حتى مرّ بي محمد بن أبي بكر فقال: خلّوه، فخلّوني.

قال محمد: حدثني يعقوب بن عبد الله الأشعريّ، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزَى، عن أبيه، قال: رأيتُ اليوم الذي دُخل فيه على عثمان، فدخلوا من دار عمرو بن حزم خَوخة هناك حتى دخلوا الدار، فناوشوهم شيئاً من مناوشة ودخلوا، فوالله ما نسينا أن خرج سُودان بن حمران، فأسمعه يقول: أين طلحة بن عبيد الله؟ قد قَتلْنا ابن عفان!

قال محمد بن عمر: وحدّثني شُرَحبيل بن أبي عون، عن أبيه، عن أبي حفصة اليمانيّ، قال: كنت لرجل من أهل البادية من العرب، فأعجبته - يعني مروان - فاشتراني واشترى امرأتي وولدي فأعتقنا جميعاً؛ وكنت أكون معه، فلما حُصِر عثمان رضي الله عنه، شمّرتْ معه بنو أمية، ودخل معه مرْوان الدار. قال: فكنتُ معه في الدار، قال: فأنا والله أنشبت القتال بين الناس؛ رميت من فوق الدار رجلا من أسلَم فقتلته؛ وهو نِيار الأسلميّ، فنشِب القتال، ثم نزلت، فاقتتل الناس على الباب، وقاتل مروان حتى سقط فاحتملته، فأدخلته بيت عجوز، وأغلقت عليه، وألقى الناس النيران في أبواب دار عثمان، فاحترق بعضها، فقال عثمان: ما احترق الباب إلّا لما هو أعظم منه، لا يحرّكنّ رجل منكم يده؛ فوالله لو كنت أقصاكم لتخطّوكم حتى يقتلوني، ولو كنت أدناكم ما جاوزوني إلى غيري، وإني لصابر كما عهد إليّ رسول الله ﷺ، لأُصرعنّ مصرعي الذي كتب الله عزّ وجلّ. فقال مروان: والله لا تقتَل وأنا أسمع الصوت، ثم خرج بالسيف على الباب يتمثّل بهذا الشعر:

قد عَلِمَتْ ذاتُ القُرونِ المِيلِ والكَفِّ والأنامِلِ الطُّفولِ
أنّي أرُوعُ أوّلَ الرَّعيلِ بفارِهٍ مِثْلِ قَطَا الشَّليلِ

قال محمد: وحدّثني عبد الله بن الحارث بن الفضيل، عن أبيه، عن أبي حفصة، قال: لما كان يوم الخميس دلّيت حجراً من فوق الدار، فقتلت رجلًا من أسلم يقال له نِيار، فأرسلوا إلى عثمان: أن أمكِنّا من قاتله. قال: والله ما أعرف له قاتلا، فباتوا ينحرفون علينا ليلة الجمعة بمثل النيران، فلما أصبحوا غدْواً، فأوّل مَن طلع علينا كنانة بن عتّاب، في يده شعلة من نار على ظهر سطوحنا، قد فتح له من دار آل حزم، ثم دخلت الشُّعَل على أثره تُنضَح بالنِّفْط؛ فقاتلناهم ساعة على الخشب، وقد اضطرم الخشب، واحترقت الأبواب، ومَن كانت لي عليه طاعة فليمسك دارَه؛ فإنما يريدني القوم، وسيندمون على قتلي؛ والله لو تركوني لظننت أني لا أحبّ الحياة؛ ولقد تغيّرت حالي، وسقط أسناني، ورقّ عظمِي.

قال: ثم قال لمروان: اجلس فلا تخرج، فعصاه مروان، فقال: والله لا تُقتل، ولا يُخلص إليك، وأنا أسمع الصوت، ثم خرج إلى الناس. فقلت: ما لمولاي مُترك! فخرجت معه أذبّ عنه، ونحن قليل، فأسمع مروان يتمثّل:

قد علمتْ ذاتُ القرون المِيلِ والكفِّ والأنامِلِ الطُّفُولِ

ثم صاح: مَنْ يبارز؟ وقد رفع أسفل درعه؛ فجعله في منطقته. قال: فيثب إليه ابن النِّبّاع فضربه ضربة

على رقبته من خلْفه فأثبته؛ حتى سقط، فما ينبض منه عرق، فأدخلتُه بيتَ فاطمة ابنة أوْس جدّة إبراهيم بن العَدِيّ. قال: فكان عبد الملك وبنو أميّة يعرفون ذلك لآل العَديّ.

حدّثني أحمد بن عثمان بن حَكيم، قال: حدّثنا عبدُ الرحمن بن شريك، قال: حدّثني أبي، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة بن الأخنس، عن ابن الحارث بن أبي بكر، عن أبيه أبي بكر بن الحارث بن هشام، قال: كأني أنظر إلى عبد الرحمن بن عُدَيس البلَويّ وهو مسنِد ظهره إلى مسجد نبيّ الله ﷺ وعثمان بن عفان رضي الله عنه محصور، فخرج مرْوان بن الحكم، فقال: مَن يبارز؟ فقال عبد الرحمن بن عُديس لفلان بن عُروة: قم إلى هذا الرجل، فقام إليه غلام شابّ طُوال؛ فأخذ رَفرف الدرع فغرزه في منطقته، فأعور له عن ساقه، فأهوى له مروان وضربه ابن عروة على عُنقه، فكأني أنظر إليه حين استدار. وقام إليه عبيد بن رفاعة الزُّرَقيّ ليدفف عليه، قال: فوثبت عليه فاطمة ابنة أوس جدّة إبراهيم بن عديّ ـ قال: وكانت أرضعت مروان وأرضعت له ـ فقالت: إن كنت إنما تريد قتل الرجل فقد قتِل؛ وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح. قال: فكفّ عنه؛ فما زالوا يشكرونها لها، فاستعملوا ابنها إبراهيم بعد.

وقال ابن إسحاق: قال عبد الرحمن بن عُدَيس البلَويّ حين سار إلى المدينة من مصر:

أَقْبلْنَ مِنْ بِلْبيسَ والصَّعيدِ ... مُستَحْقباتٍ حَلَقَ الحَديدِ
يَطْلُبْنَ حَقَّ الله في سَعيدِ ... حتى رَجَعْنَ بالذي نريدُ

حدّثني جعفر بن عبد الله المحمديّ، قال: حدّثنا عمرو بن حماد عليّ بن حسين، قالا: حدّثنا حسين بن عيسى، عن أبيه، قال: لما مضت أيام التشريق أطافوا بدار عثمان رضي الله عنه، وأبى إلاّ الإقامة على أمره، وأرسل إلى حشمه وخاصّته فجمعهم، فقام رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له نِيار بن عياض ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فنادى: يا عثمان؛ فأشرف عليه من أعلى داره؛ فناشده الله، وذكّره لَمّا اعتزلهم! فبينا هو يراجعه الكلام إذ رَماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم، وزعموا أنّ الذي رماه كَثِير بن الصَّلْت الكِنديّ؛ فقالوا لعثمان عند ذلك: ادفع إلينا قاتل نِيار بن عياض فلنقتله به، فقال: لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي؛ فلمّا رأوا ذلك ثاروا إلى بابه فأحرقوه؛ وخرج عليهم مرْوان بن الحكم من دار عثمان في عصابة، وخرج سعيد بن العاص في عِصابة، وخرج المغيرة بن الأخنس بن شَريق الثقفيّ حليف بني زُهرة في عصابة؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ وكان الذي حادهم على القتال أنه بلغهم أن مَدداً من أهل البصرة قد نزلوا صِراراً ـ وهي من المدينة على ليلة ـ وأن أهل الشام قد توجّهوا مقبلين، فقاتلوهم قتالاً شديداً على باب الدّار، فحمل المغيرة بن الأخنس الثقفيّ على القوم وهو يقول مرتجزاً:

قَدْ عَلِمَتْ جارِيةٌ عُطْبولُ ... لها وِشاحٌ وَلها حُجولُ
أنّي بنَصْلِ السَّيْفِ خَنْشَليلُ

فحمل عليه عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخُزاعيّ، وهو يقول:

إنْ تَكُ بالسّيْفِ كما تَقُولُ ... فاثبتْ لِقِرْنٍ ماجِدٍ يَصولُ
بمشْرَفِيٍّ حدُّهُ مَصْقولُ

فضربه عبد الله فقتله، وحمل رفاعة بن رافع الأنصاريّ ثم الزُّرَقيّ على مروان بن الحكم، فضربه فصرعه، فنزل عنه وهو يرى أنه قتله؛ وجرح عبد الله بن الزبير جراحات، وانهزم القوم حتى لجؤوا إلى القصر، فاعتصموا ببابه، فاقتتلوا عليه قتالا شديداً، فقتِلَ في المعركة على الباب زياد بن نُعَيْم الفِهريّ في ناس من أصحاب عثمان، فلم يزل الناس يقتتلون حتى فتح عمرو بن حزم الأنصاريّ باب داره وهو إلى جنب دار عثمان بن عفان، ثمّ نادى الناس فأقبلوا عليه من داره، فقاتلوهم في جَوْف الدار حتى انهزموا، وخلّى لهم عن باب الدار؛ فخرجوا هُرّاباً في طرق المدينة، وبقيَ عثمان في أناس من أهل بيته وأصحابه فقتِلوا معه؛ وقُتِل عثمان رضي الله عنه.

حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا معتمِر بن سليمان التيميّ، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا أبو نَضْرة، عن أبي سعيد مولى أبي أَسَيْد الأنصاريّ، قال: أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه ذات يوم، فقال: السلام عليكم، قال. فما سمع أحداً من الناس ردّ عليه إلاّ أن يردّ رجل في نفسه، فقال: أنشدُكم بالله هل علمتم أني اشتريت رومة من مالِي يستعذَب بها، فجعلت رشائي منها كرِشاء رجل من المسلمين! قال: قيل: نعم. قال: فما يمنعني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر! قال: أنشدكم الله هل علمتم أنّي اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته في المسجد؟ قيل: نعم، قال: فهل علمتم أحداً من الناس مُنع أن يصلّي فيه قبلي! قال: أنشدكم الله، هل سمعتم نبيّ الله ﷺ يذكر كذا وكذا؛ أشياء بشأنه، وذكَرَ الله أياه أيضاً في كتابه المفصّل. قال: ففشا النهي.

قال: فجعل الناس يقولون: مهلا عن أمير المؤمنين، قال: وفشا النهي. قال: وقام الأشتر ـ قال: ولا أدري يومئذ أو في يوم آخر ـ فقال: لعله قد مكر به وبكم! قال: فوطئه الناس، حتى لقي كذا وكذا، قال: فرأيته أشرف عليهم مرّة أخرى، فوعظهم وذكَّرهم، فلم تأخذ فيهم الموعظة. وكان الناس تأخذ فيهم الموعظة أوّلَ ما يسمعونها؛ فإذا أعيدت عليهم لم تأخذ فيهم. قال: ثم إنه فتح الباب ووضع المصحف بين يديه. قال: وذاك أنه رأى من الليل أنّ نبيّ الله ﷺ يقول: «أفطر عندنا الليلة».

قال أبو المعتمر: فحدّثنا الحسن: أنّ محمد بن أبي بكر دخل عليه فأخذ بلحيته. قال: فقال له: قد أخذت منّا مأخذاً، وقعدت مني مقعداً ما كان أبو بكر ليقعده أو ليأخذه. قال: فخرج وتركه. قال: ودخل عليه رجل يقال له الموت الأسود. قال: فخنقه ثم خفَقه. قال: ثم خرج فقال: والله ما رأيت شيئاً قطّ ألينَ من حلقه؛ والله لقد خنقته حتى رأيت نَفَسه يتردّد في جسده كنفس الجانّ. قال: فخرج.

قال في حديث أبي سعيد: دخل على عثمان رجل، فقال: بيني وبينك كتاب الله ـ قال: والمصحف بين يديه ـ قال: فيُهوي له بالسيف، فاتّقاه بيده، فقطعها، فقال: لا أدري أبانها أم قطعها ولم يُبنها. قال: فقال: أما والله إنها لأوّل كفّ خطّت المفصل. وقال في غير حديث أبي سعيد: فدخل عليه التُّجيبيّ، فأشعره مِشْقَصاً فانتضح الدّم على هذه الآية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[1]. قال: فإنها في المصحف ما حُكّت.

قال وأخذت ابنة الفَرافصة ـ في حديث أبي سعيد ـ حَليَها فوضعته في حجرها، وذلك قبل أن يقتَل، قال: فلما أُشْعِرَ ـ أو قال: قتل ـ ناحت عليه. قال: فقال بعضهم: قاتلها الله! ما أعظم عجيزتها قال: فعلمت

(١) سورة البقرة: ١٣٧.

أن عدوّ الله لم يرد إلّا الدنيا.

وأما سيف، فإنه قال ـ فيما كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عنه: ذُكِر عن بدر بن عثمان، عن عمّه، قال: آخر خطبة خطبها عثمان رضي الله عنه في جماعة: إنّ الله عزّ وجلّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إنّ الدنيا تفنَى، والآخرة تبقى؛ فلا تبطرنّكم الفانية، ولا تشغلنّكم عن الباقية؛ فآثروا ما يبقَى على ما يفنى؛ فإن الدنيا منقطعة؛ وإنّ المصير إلى الله. اتقوا الله جلّ وعزّ، فإنّ تقواه جُنّة من بأسه، ووسيلة عنده؛ واحذَروا من الله الغيَر، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْواناً﴾(١).

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: لما قضى عثمان في ذلك المجلس حاجاتِه وعزم له المسلمون على الصبر والامتناع عليهم بسلطان الله، قال: أخرجوا رحمكم الله فكونوا بالباب، وليجامعكم هؤلاء الذين حُبِسوا عني. وأرسل إلى طلحة والزبير وعليّ وعدّة: أن ادنُوا. فاجتمعوا فأشرف عليهم، فقال: يا أيُّها الناس؛ اجلسوا، فجلسوا جميعاً؛ المحارب الطارىء والمسلم المقيم، فقال: يا أهلَ المدينة؛ إني أستودعكم الله، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي؛ وإنّي والله لا أدخل على أحدٍ بعد يومي هذا حتى يقضي الله فيّ قضاءه؛ ولأدعَنّ هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتّخذونه عليكم دَخَلا في دين الله أو دنيا حتى يكون الله عزّ وجلّ الصانع في ذلك ما أحبّ. وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلّا الحسن ومحمداً وابن الزبير وأشباهاً لهم؛ فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم؛ وثاب إليهم ناس كثير، ولزم عثمان الدار.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان ومحمد وطلحة، قالوا: كان الحصر أربعين ليلة والنزول سبعين، فلما مضت من الأربعين ثمان عشرة، قدِم ركبان من الوجوه فأخبروا خبر من قد تهيّأ إليهم من الآفاق: حبيب من الشام، ومعاوية من مصر، والقعقاع من الكوفة، ومجاشع من البصرة؛ فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان؛ ومنعوه كلّ شيء حتى الماء؛ وقد كان يدخل عليّ بالشيء مما يريد. وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علّة، فعثروا في داره بالحجارة ليُرْمَوْا؛ فيقولوا: قوتلنا ـ وذلك ليلاً ـ فناداهم: ألا تتّقون الله! ألا تعلمون أنّ في الدار غيري! قالوا: لا والله ما رميناك. قال: فمن رمانا؟ قالوا: الله، قال: كذبتم؛ إنّ الله عزّ وجلّ لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا. وأشرف عثمان على آل حَزْم وهم جيرانه؛ فسرّح ابناً لعمرو إلى عليّ بأنهم قد منعونا الماء، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا. وإلى طلحة وإلى الزبير، وإلى عائشة رضي الله عنها وأزواج النبيّ ﷺ؛ فكان أوّلهم إنجاداً له عليّ وأمّ حبيبة؛ جاء عليّ في الغلَس، فقال: يأيّها الناس؛ إنّ الذي تصنعون لا يشبه أمرَ المؤمنين ولا أمر الكافرين؛ لا تقطعوا عن هذا الرجل المادّة؛ فإن الرّوم وفارس لتأسِرُ فتطعِم وتسقِي؛ وما تعرّض لكم هذا الرّجل؛ فبم تستحلّونَ حصره وقتله! قالوا: لا والله ولا نعمة عين؛ لا نتركه يأكل ولا يشرب؛ فرمى بعمامته في الدار بأنّي قد نهضت فيما أنهضتني؛ فرجع. وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملةً على إداوة، فقيل: أم المؤمنين أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إنّ وصايا بني أميّة إلى هذا الرجل، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلِك أموال أيتام وأرامل. قالوا: كاذبة،

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

وأهوَوْا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندّت بأمّ حبيبة، فتلقّاها الناس، وقد مالت رِحالتها، فتعلّقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل، فذهبوا بها إلى بيتها. وتجهزّت عائشة خارجة إلى الحجّ هاربة، واستتبعت أخاها، فأبَى؛ فقالت: أما والله لئن استطعتُ أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلنّ.

وجاء حنظلة الكاتب حتى قام على محمد بن أبي بكر، فقال: يا محمد، تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعُها، وتدعوك ذؤبان العرب إلى ما لا يحلّ فتتبعهم! فقال: ما أنت وذاك يابن التميميّة! فقال: يابن الخثعميّة؛ إن هذا الأمر إن صار إلى التغالُب غلبتْك عليه بنو عبد مناف، وانصرف وهو يقول:

عَجِبْتُ لِمـا يَخـوضُ النـاسُ فيـهِ ... يُـرومـونَ الـخِـلافَـةَ أن تـزولا
ولَـوْ زالَـتْ لـزال الـخَـيْـرُ عَـنْـهُـمْ ... وَلاقَـوْا بَـعْـدَهـا ذُلاًّ ذَلـيـلا
وكـانـوا كـالـيَهـودِ أو الـنَّـصـارَى ... سَـواءٌ كُـلُّـهُـمْ ضَـلُّوا الـسـبـيـلا

ولحق بالكوفة. وخرجت عائشة وهي ممتلئة غيظاً على أهل مصر، وجاءها مَرْوان بن الحكم فقال: يا أمَّ المؤمنين؛ لو أقمتِ كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجلَ، فقالت: أتريد أن يُصنع بي كما صُنع بأمّ حبيبة، ثم لا أجد مَن يمنعني! لا والله ولا أعيَّر ولا أدري إلام يسْلم أمر هؤلاء! وبلغ طلحةَ والزبيرَ ما لقي عليّ وأم حبيبة، فلزموا بيوتهم، وبقيَ عثمان يسقيه آل حزم في الغَفلات، عليهم الرّقباء، فأشرف عثمان على الناس، فقال: يا عبد الله بن عباس ـ فدعى له ـ فقال: اذهب فأنت على الموسم ـ وكان ممّن لزم الباب ـ فقال: والله يا أميرَ المؤمنين لجهَاد هؤلاء أحبّ إليّ من الحج؛ فأقسم عليه لينطلقنّ. فانطلق ابنُ عباس على الموسم تلك السنة؛ ورمى عثمان إلى الزبير بوصيّته، فانصرف بها ـ وفي الزبير اختلاف: أأدرك مقتله أو خرج قبله ـ وقال عثمان: ﴿ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ . . . ﴾ (١) الآية، اللهم حُل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فُعل بأشياعهم من قبل.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، قال: بعثتْ ليلى ابنة عُمَيس إلى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، فقالت: إنّ المصباح يأكلُ نفسه، ويضيء للناس؛ فلا تأثما في أمرٍ تسوقانه إلى مَن لا يأثم فيكما؛ فإنّ هذا الأمر الذي تحاولون اليوم لغيركم غداً، فاتّقوا أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم؛ فلجَّا وخرجا مغضَبين يقولان: لا ننسى ما صنع بنا عثمان؛ وتقول: ما صنع بكما! ألاّ ألزمكما الله! فلقيهما سعيد بن العاص، وقد كان بين محمد بن أبي بكر وبينه شيء، فأنكره حين لقيه خارجاً من عند ليلى، فتمثل له في تلك الحال بيتاً:

اسْـتـبْـقِ وُدَّك لـلصَّـديـق ولا تَـكُـنْ ... فَـيْـئـاً يَـعَـضُّ بـخـاذِلٍ مِـلْـجـاجـا

فأجابه سعيد متمثلاً:

تَرَوْنَ إذاً ضَرْباً صميماً مِنَ الذي ... لـه جـانبٌ نـاءٍ عَن الجُـرْمِ مُعْـوِرُ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: فلمّا بويع الناس جاء السابق فقَدِم بالسلامة، فأخبرهم من الموسم أنهم يريدون جميعاً المصريين وأشياعهم، وأنهم يريدون

(١) سورة هود: ٨٩.

أن يجمعوا ذلك إلى حجّهم؛ فلمّا أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار؛ أعلقهم الشيطان، وقالوا: لا يخرِجُنا مما وقعنا فيه إلّا قتلُ هذا الرجل؛ فيشتغل بذلك الناس عنّا، ولم يبق خَصْلة يرجون بها النجاة إلا قتلُه. فراموا الباب؛ فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومَن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، واجتلدوا، فناداهم عثمان: اللهَ اللهَ! أنتم في حِلٍّ من نصرتي فأبوا، ففتح الباب، وخرج ومعه التّرس والسيف لينهنَهُم؛ فلما رأوْه أدبر المصريون، وركبهم هؤلاء، ونهنهُم فتراجعوا وعظم على الفريقين، وأقسم على الصحابة ليدخلُنّ، فأبوا أن ينصرفوا، فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين ـ وقد كان المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حجّ، ثم تعجّل في نفر حجّوا معه، فأدرك عثمان قبل أن يقتَل وشهد المناوشة، ودخل الدار فيمن دخل وجلس على الباب من داخل؛ وقال: ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألّا ندعهم حتى نموت! فاتّخذ عثمان تلك الأيام القرآن نَحْباً، يصلّي وعنده المصحف؛ فإذا أعيا جلس فقرأ فيه ـ وكانوا يروْن القراءة في المصحف من العبادة ـ وكان القوم الذين كفكفهم بينه وبين الباب؛ فلما بقي المصريون لا يمنعهم أحد من الباب ولا يقدرون على الدخول جاءوا بنار، فأحرقوا الباب والسقيفة، فتأجّجَ الباب والسقيفة؛ حتى إذا احترق الخشب خرّت السقيفة على الباب، فثار أهل الدار وعثمان يصلّي؛ حتى منعوهم الدخول؛ وكان أول مَنْ برز لهم المغيرة بن الأخنس، وهو يرتجز:

قد عَلِمَتْ جارِيَةٌ عُطبولُ ... ذاتُ وِشاحٍ وَلها جديلُ
أنّي بِنَصْلِ السَّيْفِ خَنْشَليلُ ... لأمْنَعَنَّ مِنْكُمْ خَليلي
بصارِمٍ ليس بذي فُلولِ

وخرج الحسن بن عليّ وهو يقول:

لا دينُهُمْ دِيني ولا أنا مِنهُمُ ... حتى أسيرَ إلى طَمارِ شَمامِ

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول:

أنا ابنُ مَن حامى عليه بأُحُدْ ... ورَدّ أحْزاباً على رغْمِ مَعَدْ

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول:

صَبَرْنَا غَداةَ الدارِ والمَوْتُ واقِبُ ... بأسْيافنا دون ابْنِ أرْوَى نُضارِبُ
وكنّا غَداةَ الرَّوْعِ في الدار نُصْرَةً ... نُشافِهُهُمْ بالضَّرْبِ والموْتُ ثاقِبُ

فكان آخر مَن خرج عبد الله بن الزبير؛ وأمره عثمان أن يصير إلى أبيه في وصّية بما أراد، وأمره أن يأتيَ أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم؛ فخرج عبد الله بن الزبير آخرَهم؛ فما زال يدّعي بها، ويحدّث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: وأحرقوا الباب وعثمان في الصّلاة، وقد افتتح ﴿ طٰهٰ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (١) ـ وكان سريع القراءة، فما كرثه ما سمع، وما يخطىء وما يتتعتع حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه ـ ثم عاد فجلس إلى عند المصحف وقرأ:

(١) سورة طه: ١ ـ ٢.

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[1] .

وارتجز المغيرة بن الأخنس وهو دون الدار في أصحابه :

قد عَلِمَتْ ذاتُ القرونِ الميلِ والحَلْي والأناملِ الطُّفولِ
لتصْدُقَنَّ بَيْعتي خليلي بصارمٍ ذي رَوْنَقٍ مَصْقولِ
لا أسْتَقيلُ إنْ أقلْتُ قيلي

وأقبل أبو هريرة، والناس محجمون عن الدّار إلا أولئك العُصبة، فدسروا فاستقتلوا، فقام معهم، وقال: أنا إسوتكم؛ وقال هذا يوم طابَ امْضَرب -يعني أنه حَلّ القتال وطاب، وهذه لغة حِمير- ونادى: يا قوم، مَالِي أدعُوكُم إلى النَّجَاةِ وتَدْعُونَني إلَى النَّارِ! وبادر مروان يومئذ ونادى: رجل رجل، فبرز له رجل من بني لَيْث يدعَى النِّبَاع؛ فاختلفا، فضربه مروان أسفل رجليه، وضربه الآخر على أصل العُنق فقلبه، فانكبّ مروان، واستلقى، فاجترّ هذا أصحابه، واجترّ الآخر أصحابه؛ فقال المصريون: أما والله لولا أن تكونوا حجة علينا في الأمة لقد قتلناكم بعد تحذير، فقال المغيرة: مَن يبارز؟ فبرز له رجل فاجتلد، وهو يقول:

أَضْرِبُهُمْ باليابِس ضَرْبَ غلامٍ بائس
من الحياةِ آيِسِ

فأجابه صاحبه . . . وقال الناس: قتل المغيرة بن الأخنس، فقال الذي قتله: إنا لله! فقال له عبد الرحمن بن عُديس: مَالَك؟ قال: إني أُتيت فيما يرى النائم، فقيل لي: بشّر قاتلَ المغيرة بن الأخنس بالنار؛ فابتُليت به، وقَتل قَباث الكِنانيّ نِيار بن عبد الله الأسلميّ، واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملؤوها ولا يشعر الذين بالباب، وأقبلت القبائل على أبنائهم؛ فذهبوا بهم إذ غُلبوا على أميرهم، وندبوا رجلاً لقتله، فانتدَب له رجل، فدخل عليه البيت، فقال: اخلعها وندَعك، فقال: ويحك! والله ما كشفتُ امرأةً في جاهليّة ولا إسلام، ولا تغنّيت ولا تمنّيت، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ؛ ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عزّ وجلّ، وأنا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة، ويهين أهل الشقاء.

فخرج وقالوا: ما صنعت؟ فقال: عِلقنا والله؛ والله ما ينجينا من الناس إلا قتله، وما يحلّ لنا قتله؛ فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث، فقال: ممن الرجل؟ فقال: ليثيّ؛ فقال: لستَ بصاحبي، قال: وكيف؟ فقال: ألست الذي دعا لك النبيّ ﷺ في نفر أن تُحفَظُوا يوم كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فلن تضيع؛ فرجع وفارق القوم، فأدخلوا عليه رجلاً من قريش، فقال: يا عثمان؛ إني قاتلُك، قال: كلاّ يا فلان، لا تقتلني، قال: وكيف؟ قال: إنّ رسول الله ﷺ استغفر لك يوم كذا وكذا؛ فلن تقارف دماً حراماً. فاستغفر ورجع، وفارق أصحابه فأقبل عبد الله بن سلاَم حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله، وقال: يا قومِ لا تسلّوا سيفَ الله عليكم؛ فوالله إن سللتموه لا تغمدوه، ويلكم! إنّ سلطانكم اليوم يقوم بالدِّرّة؛ فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف. ويلكم! إنّ مدينتكم محفوفة بملائكة الله؛ والله لئن قتلتموه لتتركنّها؛ فقالوا: يا بنَ اليهودية؛ وما أنت وهذا! فرجع عنهم.

(١) سورة آل عمران ١٧٣.

قالوا: وكان آخر مَن دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان: ويلك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جُرْم إلّا حقَّه أخذتُه منك! فنكل ورجع.

قالوا: فلما خرج محمد بن أبي بكر وعرفوا انكساره، ثار قُتَيْرَةُ وسُودان بن حمران السَّكونيّان والغافقيّ؛ فضربه الغافقي بحديدة معه، وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف، فاستقرّ بين يديه؛ وسالت عليه الدماء؛ وجاء سُودان بن حمران ليضربه، فانكبّت عليه نائلة ابنة الفَرافصة، واتّقت السيف بيدها، فتعمّدها، ونفح أصابعها، فأطنَّ أصابع يدِها وولّت؛ فغمز أوراكها، وقال: إنها لكبيرة العجيزة، وضرب عثمان فقتله، ودخل غِلمة لعثمان مع القوم لينصروه ـ وقد كان عثمان أعتق مَن كَفَّ منهم ـ فلمّا رأوا سودان قد ضربه، أهوى له بعضهم فضرب عنقه فقتله، ووثب قتيرة على الغلام فقتله، وانتهبوا ما في البيت؛ وأخرجوا مَن فيه، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى. فلما خرجوا إلى الدار، وثبَ غلام لعثمان آخر على قُتيرة فقتله، ودار القوم فأخذوا ما وجدوا؛ حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ رجل ملاءة نائلة ـ والرجل يدعى كلثوم بن تُجيب ـ فتنحّت نائلة، فقال: ويح أمِّكِ من عَجيزة ما أتمَّكِ! وبصُر به غلام لعثمان فقتله وقتِل، وتَنادَى القوم: أبصر رجل مَنْ صاحبه، وتنادَوْا في الدار: أدركوا بيت المال لا تُسبَقوا إليه؛ وسمع أصحاب بيت المال أصواتهم؛ وليس فيه إلّا غِرارتان، فقالوا: النَّجاء؛ فإن القوم إنَّما يحاولون الدنيا، فهربوا وأتوْا بيت المال فانتهبوه، وماج الناس فيه، فالتّانىء يسترجع ويبكي، والطارىء يفرح. وندم القوم، وكان الزبير قد خرج من المدينة، فأقام على طريق مكة لئلّا يشهد مقتله، فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو، قال: إنا لله وإنا اليه راجعون! رحم الله عثمان. وانتصر له؛ وقيل: إنّ القوم نادمون؛ فقال: دبَّروا دبَّروا، ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ . . ﴾ (١) الآية. وأتى الخبرُ طلحةَ، فقال: رحم الله عثمان! وانتصر له وللإسلام؛ وقيل له: إن القوم نادمون، فقال تبّاً لهم! وقرأ: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢). وأتى عليٌّ فقيل: قُتِل عثمان، فقال رحم الله عثمان، وخلَف علينا بخير! وقيل: ندم القوم، فقرأ: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ. . . ﴾ (٣)، الآية. وطُلِب سعد، فإذا هو في حائطه وقد قال: لا أشهد قتلَه، فلما جاءه قتلُه قال: فررنا إلى المَدينة تُدْنِينا؛ وقرأ: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾(٤). اللهمّ أندِمْهم ثم خذهم.

كتب إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد، عن الشعبيّ، عن المغيرة بن شعبة، قلت لعليّ: إنّ هذا الرجل مقتول؛ وإنّه إن قتِل وأنت بالمدينة اتّخذوا فيك، فاخرج فكن بمكان كذا وكذا؛ فإنك إن فعلت وكنت في غارٍ باليمن طلبك الناس؛ فأبى وحُصِر عثمان اثنتين وعشرين يوماً؛ ثم أحرقوا الباب؛ وفي الدار أناس كثير؛ فيهم عبدُ الله بن الزُّبير ومروان، فقالوا: ائذن لنا؛ فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ عهد إليّ عهداً، فأنا صابر عليه؛ وإنّ القوم لم يحرقوا باب الدّار إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه؛ فأحرِّجُ على رجل يستقبِل ويقاتل؛ وخرج الناس كلهم؛ ودعا بالمصحف يقرأ فيه والحسن عنده، فقال: إنّ أباك الآن لفي أمر عظيم؛

(١) سورة سبأ: ٥٤.
(٢) سورة يس: ٥٠.
(٣) سورة الحشر: ١٦.
(٤) سورة الكهف: ١٠٤.

فأقسمتُ عليك لما خرجت! وأمر عثمان أبا كَرِب ـ رجلا من هَمْدان ـ وآخر من الأنصار أن يقوما على باب بيت المال؛ وليس فيه إلا غِرارتان من ورِق؛ فلما أطفِئت النار بعد ما ناوشهم ابنُ الزبير ومروان، وتوعّد محمد بن أبي بكر ابنَ الزبير ومروان؛ فلما دخل على عثمان هربا. ودخل محمد بن أبي بكر على عثمان؛ فأخذ بلحيته، فقال: أرسِل لحيتي؛ فلم يكن أبوك ليتناولها. فأرسلها؛ ودخلوا عليه؛ فمنهم من يَجَؤه بنعل سيفه، وآخر يلكُزه؛ وجاءه رجل بمشاقِص معه، فوجأه في تَرْقُوته، فسال الدّم على المصحف وهم في ذلك يهابون في قتله؛ وكان كبيراً؛ وغُشي عليه. ودخل آخرون فلما رأوه مغشيّاً عليه جرُّوا برجله؛ فصاحت نائلة وبناته؛ وجاء التجْيبيّ مخترطاً سيفه ليضعه في بطنه، فوقّتْه نائلة، فقطع يدها، واتّكأ بالسيف عليه في صدره. وقتِل عثمان رضي الله عنه قبل غروب الشمس، ونادى منادٍ: ما يحلّ دمُه ويحرَجُ ماله؛ فانتهبوا كلّ شيء، ثم تبادروا بيت المال، فألقى الرّجلان المفاتيح ونجوْا، وقالوا: الهرب الهرب! هذا ما طلب القوم.

وذكر محمد بن عمر، أنّ عبد الرحمن بن عبد العزيز حدّثه عن عبد الرحمن بن محمد، أنّ محمد بن أبي بكر تسوّر على عثمان من دار عمرو بن حزم، ومعه كنانة بن بِشْر بن عتّاب، وسُودان بن حُمران، وعمرو بن الحمِق؛ فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف في سورة البقرة، فتقدّمهم محمد بن أبي بكر؛ فأخذ بلحية عثمان، فقال: قد أخزاك الله يا نعثل! فقال عثمان: لستُ بنعثل؛ ولكني عبدُ الله وأمير المؤمنين. قال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان! فقال عثمان: يابن أخي، دَعْ عنك لحيتي؛ فما كان أبوك ليقبِض على ما قبضتَ عليه. فقال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك؛ وما أريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك؛ قال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعين به. ثم طعن جبينه بمشْقَص في يده. ورفع كنانة بن بشر مشاقصَ كانت في يده، فوجأ بها في أصْلِ أُذن عثمان، فمضت حتى دخلت في حَلْقه، ثمّ علاه بالسيف حتى قتله؛ فقال عبد الرحمن: سمعت أبا عون يقول: ضَرب كنانة بن بشر جبينَه ومقدّم رأسه بعمود حديد، فخرّ لجبينه، فضَربه سودان بن حُمران المراديّ بعد ما خرّ لجبينه فقتله.

قال محمد بن عمر: حدّثني عبد الرحمن بن أبي الزّناد، عن عبد الرحمن بن الحارث، قال: الذي قتَله كنانة بن بشر بن عتّاب التُّجِيبيّ. وكانت امرأة منظور بن سيار الفزاريّ تقول: خرجنا إلى الحجّ؛ وما علمنا لعثمان بقتل؛ حتى إذا كنّا بالعَرْج سمعنا رجلاً يتغنّى تحت الليل:

ألا إنَّ خيْـر النـاس بـعـد ثـلاثـةٍ — قَتيلُ التُّجيبيّ الـذي جـاء من مِصْرِ

قال: وأما عمرو بن الحمِق فوثب على عثمان، فجلس على صدره وبه رمَق، فطعنه تسعَ طعنات. قال عمرو: فأما ثلاث منهنّ فإني طعنتهنّ إيّاه لله؛ وأما ستّ فإني طعنتهن إيّاه لما كان في صدري عليه.

قال محمد: وحدّثني إسحاق بن يحيى، عن موسى بن طلحة، قال: رأيت عُروة بن شُيَيْم ضرب مروان يوم الدّار بالسيف على رقبته، فقطع إحدَى عِلْباويه، فعاش مروان أوْقصَ؛ ومروان الذي يقول:

مـا قُلتُ يـومَ الـدارِ للقَـوْمِ حـاجـزوا — رُوَيْـداً ولا اسْتبْقوا الحيـاةَ على القَتلِ
ولكنّني قـد قلتُ للقـوم مـاصِـعُـوا — بـأسيافِكُمْ كَيْمـا يَصِلْنَ إلى الكَهْـلِ

قال محمد الواقديّ: وحدّثني يوسف بن يعقوب، عن عثمان بن محمد الأخنسيّ، قال: كان حصر عثمان

قبل قدوم أهل مصر، فقدم أهل مصر يوم الجمعة، وقتلوه في الجمعة الأخرى.

وحدّثني عبد الله بن أحمد المروزيّ، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان، قال: حدّثني عبد الله، عن حَرْملة بن عمران، قال: حدّثني يزيد بن أبي حبيب، قال: ولِيَ قتلَ عثمان نهران الأصبَحيّ، وكان قاتِلَ عبد الله بن بُسرة؛ وهو رجل من بني عبد الدّار.

قال محمد بن عمر: وحدّثني الحكم بن القاسم، عن أبي عَوْن مولى المِسْوَر بن مخرمة، قال: ما زال المصريون كافّين عن دمه وعن القتال؛ حتى قدمت أمدادُ العِراق من البصرة ومن الكوفة ومن الشأم؛ فلما جاؤوا شجعوا القوم؛ وبلغهم أنّ البعوث قد فصلت من العراق ومن مصر من عند ابن سعد؛ ولم يكن ابن سعد بمصر قبل ذلك؛ كان هارباً قد خرج إلى الشأم، فقالوا: نعاجله قبل أن تقدم الأمداد.

قال محمد: وحدّثني الزّبير بن عبد الله، عن يوسف بن عبد الله بن سلام، قال: أشرف عثمان عليهم وهو محصور؛ وقد أحاطوا بالدّار من كلّ ناحية، فقال: أنشدكم بالله جلّ وعزّ؛ هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يخيرَ لكم، وأن يجمَعكم على خيركم! فما ظنُّكم بالله! أتقولونه: لم يستجب لكم، وهُنْتم على الله سبحانه، وأنتم يومئذ أهل حقّه من خلقه، وجميع أموركم لم تتفرق! أم تقولون: هان على الله دينُه فلم يبالِ مَنْ ولاّه، والدّين يومئذ يُعبد به الله ولم يتفرّق أهله؛ فتوكّلوا أو تخذُلوا، وتُعاقَبوا! أم تقولون: لم يكن أخذٌ عن مشورة؛ وإنما كابرتم مكابرة، فوكّل الله الأمة إذا عصته لم تشاوروا في الإمام، ولم تجتهدوا في موضع كراهته! أم تقولون: لم يَدْرِ الله ما عاقبة أمري؛ فكنتُ في بعض أمري محسناً، ولأهل الدين رضاً، فما أحدثتُ بعدُ في أمري ما يسْخَط الله، وتَسْخَطون مما لم يعلم الله سبحانه يومَ اختارني وسربلني سربال كرامته! وأنشدكم بالله، هل تعلمون لي مِن سابقة خير وسلف خير قدّمه الله لي، وأشهدنيه من حقه! وجهادُ عدوّه حقٌّ على كلّ مَن جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلَها. فمَهلاً، لا تقتلوني؛ فإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانِه، أو كَفَر بعد إسلامه، أو قتل نفساً بغير نفس فيقتل بها؛ فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم؛ ثم لم يرفعه الله عزّ وجلّ عنكم إلى يوم القيامة. ولا تقتلوني فإنكم إن قتلتموني لم تُصلُّوا من بعدي جميعاً أبداً، ولم تقتسموا بعدي فيئاً جميعاً أبداً، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً.

قالوا له: أمّا ما ذكرت من استخارةِ الله عزّ وجلّ الناس بعد عمر رضي الله عنه فيمن يولّون عليهم، ثم ولّوْك بعد استخارة الله؛ فإنّ كلّ ما صنع الله الخِيَرة؛ ولكن الله سبحانه جعل أمرك بليّةً ابتلى بها عباده. وأما ما ذكرت من قِدمك وسبْقك مع رسول الله ﷺ، فإنك قد كنت ذا قِدَمٍ وسلَف، وكنت أهلاً للولاية؛ ولكن بدّلْت بعد ذلك، وأحدثت ما قد علمت. وأما ما ذكرت مما يصيبنا إن نحن قتلناك من البلاء؛ فإنه لا ينبغي تركُ إقامة الحقّ عليك مخافة الفتنة عاماً قابلا. وأما قولك: إنه لا يحلّ إلاّ قتل ثلاثة؛ فإنا نجد في كتاب الله قتلَ غير الثلاثة الذين سمّيتَ؛ قَتْل مَن سعى في الأرض فساداً، وقَتْل مَنْ بغَى ثم قاتل على بغيه، وقتل مَن حال دون شيء من الحق ومنعه ثم قاتل دونه وكابر عليه؛ وقد بغيتَ، ومنعتَ الحقّ، وحُلت دونه؛ وكابرتَ عليه؛ تأبى أن تُقيدَ من نفسك مَن ظلمت عمداً، وتمسّكت بالإمارة علينا وقد جُرْت في حكمك وقَسْمك! فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليه، وأنّ الذين قاموا دونك ومنعوك منّا إنما يقاتلون بغير أمرك؛ فإنما يقاتلون لتمسّكك بالإمارة؛ فلو أنّك

خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال دونك.

ذكر بعض سِيرَ عثمان بن عفان رضي الله عنه

حدّثني زياد بن أيوّب، قال: حدّثنا هُشيم، قال: زعم أبو المقدام، عن الحسن بن أبي الحسن، قال: دخلت المسجد؛ فإذا أنا بعثمان بن عفان متّكِئاً على ردائه، فأتاه سقّاءان يختصمان، فقضى بينهما.

وفيما كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمارة بن القعقاع، عن الحسن البصريّ، قال: كان عمرُ بن الخطاب قد حجَر على أعلام قُريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلّا بإذن وأجلٍ، فشكوه فبلغه، فقام فقال: ألا إنّي قد سننت الإسلام سَنَّ البعير؛ يبدأ فيكون جَذَعاً، ثم ثَنِيّاً، ثم رَبَاعِياً، ثم سَدِيساً، ثم بازِلا، ألا فهل يُنتصر بالبازل إلا النقصان! ألا فإنّ الإسلام قد بَـزَل. ألا وإنّ قريشاً يريدون أن يتّخذوا مال الله معوناتٍ دون عبادة، ألا فأما وابنُ الخطاب حيّ فلا؛ إني قائم دون شِعب الحرّة، آخذ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتوا في النار.

وكتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: فلما وليَ عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر، فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا، ورآهم الناس، انقطعَ إليهم من لم يكن له طَوْل ولا مَزيّة في الإسلام؛ فكان مغموماً في الناس، وصاروا أوزاعاً إليهم وأمّلوهم، وتقدّموا في ذلك فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدّمنا في التقرّب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أوّل وهَنٍ دخل على الإسلام؛ وأوّل فتنة كانت في العامة، ليس إلّا ذلك.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: لم يمت عُمر رضي الله عنه حتى ملّته قريش، وقد كان حصرهم بالمدينة، فامتنع عليهم، وقال: إنّ أخوفَ ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد؛ فإن كان الرجل ليَستأذنه مني الغزو ـ وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين؛ ولم يكن فعل ذلك بِغيرهم من أهل مكة ـ فيقول: قد كان في غزوِك مع رسول الله ﷺ ما يبلّغك؛ وخير لك من الغزو اليوم ألّا ترى الدنيا ولا تراك، فلما وليَ عثمان خلّى عنهم، فاضطربوا في البلاد، وانقطع إليهم الناس، فكان أحبَّ إليهم من عمر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشر بن الفُضَيل، عن سالم بن عبد الله، قال: لما وليَ عثمان حجّ سنواته كلها إلا آخر حجّة، وحجّ بأزواج رسول الله ﷺ كما كان يصنع عمر؛ فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه؛ وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد؛ هذا في مؤخّر القطار، وهذا في مقدّمه، وأمِن الناس؛ وكتب في الأمصار أن يوافِيَه العمّال في كلّ موسم ومَن يشكونهم. وكتب إلى الناس إلى الأمصار؛ أن ائتمروا بالمعروف، وتناهَوا عن المنكر، ولا يُذِلّ المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القويّ ما دام مظلوماً إن شاء الله. فكان الناس بذلك، فجرى ذلك إلى أن اتّخذه أقوامٌ وسيلةً إلى تفريق الأمة.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لم تمضِ سنة من إمارة عثمان حتى اتّخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار، وانقطع إليهم الناس، وثبتوا سبع سنين، كلّ قوم يحبّون أن يَليَ صاحبهم. ثم إنّ ابن السوداء أسلم، وتكلّم وقد فاضت الدنيا، وطلعت الأحداث على يديه، فاستطالوا عُمْرَ عثمانَ رضي الله عنه.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عثمان بن حَكيم بن عبّاد بن حُنَيف، عن أبيه، قال: أوّل منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدّنيا، وانتهى وُسْع الناس طَيَران الحمام والرّمي على الجُلاهِقات، فاستعمل عليها عثمان رجلا من بني ليث سنة ثمانٍ، فدقصّها وكسر الجُلاهقات.

وكتب إليّ السرى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن عمرو بن شعيب، قال: أوّلَ مَن منع الحمام الطيّارة والجُلاهقات عثمان؛ ظهرت بالمدينة فأمرّ عليها رجلاً، فمنعهم منها.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، عن أبيه نحواً منه؛ وزاد: وحدث بين الناس النَّشْو. قال: فأرسل عثمان طائفاً يطوف عليهم بالعصا، فمنعهم من ذلك، ثم اشتدّ ذلك فأفشى الحدود، ونبّأ ذلك عثمان، وشكاه إلى الناس، فاجتمعوا على أن يجلَدوا في النبيذ، فأخِذ نفرٌ منهم فجلِدوا.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن شيف، عن مبشّر بن الفضيل، عن سالم بن عبد الله، قال: لما حَدثت الأحداث بالمدينة خرج منها رجال إلى الأمصار مجاهدين، وليدنوا من العرب؛ فمنهم مَن أتى البصرة، ومنهم مَنْ أتى الكوفة، ومنهم مَن أتى الشام، فهجموا جميعاً من أبناء المهاجرين بالأمصار على مثل ما حدث في أبناء المدينة إلاّ ما كان من أبناء الشام، فرجعوا جميعاً إلى المدينة إلاّ مَن كان بالشام، فأخبروا عثمان بخبرهم؛ فقام عثمان في الناس خطيباً، فقال: يا أهلَ المدينة؛ أنتم أصلُ الإسلام؛ وإنّما يفسُد الناس بفسادكم، ويصلحون بصلاحكم؛ والله والله والله لا يبلغني عن أحدٍ منكم حدث أحدثه إلاّ سيّرته؛ ألا فلا أعرفنّ أحداً عرض دون أولئك بكلام ولا طلب، فإنّ من كان قبلكم كانت تقطَع أعضاؤهم دونَ أن يتكلم أحدٌ منهم بما عليه ولا له. وجعل عثمان لا يأخذ أحداً منهم على شرّ أو شَهْر سلاح: عصاً فما فوقها إلاّ سيّره؛ فضجّ آباؤهم من ذلك حتى بلغه أنهم يقولون: ما أحدث التسيير إلاّ أنّ رسولَ الله ﷺ سيّر الحكمَ بن أبي العاص، فقال: إنّ الحكمَ كان مكّيّاً، فسيّره رسول الله ﷺ منها إلى الطائف، ثم ردّه إلى بلده؛ فرسول الله ﷺ سيّره بذنبه، ورسول الله ﷺ ردّه بعفوه. وقد سيّر الخليفة من بعده؛ وعمر رضي الله عنه من بعد الخليفة، وأيمُ الله لآخذنّ العفو من أخلاقكم، ولأبذلنّه لكم من خلقي؛ وقد دنت أمور، ولا أحبّ أن تحلّ بنا وبكم؛ وأنا على وجَلٍ وحذَر، فاحذروا واعتبروا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد بن ثابت ويحيى بن سعيد، قالا: سأل سائل سعيد بن المسيّب عن محمد بن أبي حُذيفة: ما دعاه إلى الخروج على عثمان؟ فقال: كان يتيماً في حِجْر عثمان، فكان عثمان والي أيتام أهل بيته، ومحتمِل كَلِّهم؛ فسأل عثمانَ العملَ حين وُلِّيَ؛ فقال: يا بنيّ، لو كنت رضاً ثم سألتَني العمل لاستعملتُك، ولكن لستَ هناك! قال: فأذن لي فلأخرجْ فلأطلبْ ما يقوتني، قال: اذهب حيث شئتَ؛ وجهّزه من عنده، وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر فيمن تغيّر عليه أن منعه الولاية. قيل: فعمّار بن ياسر؟ قال: كان بينه وبين عباس بن عُتْبة بن أبي لَهَب كلامٌ، فضربهما عثمان، فأورث ذاك بين آل عمّار وآل عُتبة شرّاً حتى اليوم، وكَنَى عمّا ضُربا عليه وفيه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد بن ثابت، قال: فسألت ابن سليمان بن أبي حَثْمة، فأخبرني أنه تقاذُف.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشّر، قال: سألت سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر: ما دعاه إلى ركوب عثمان؟ فقال: الغضب والطمع، قلت: ما الغضب والطمع؟ قال: كان من الإسلام بالمكان الذي هو به، وغرّه أقوام فطمع. وكانت له دالّة فلزمه حقّ، فأخذه عثمان من ظهره، ولم يُدهن؛ فاجتمع هذا إلى هذا، فصار مذمّماً بعد أن كان محمّداً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشّر، عن سالم بن عبد الله، قال: لماوُلِّيَ عثمان لان لهم، فانتزع الحقوق انتزاعاً، ولم يعطّل حقّاً، فأحبُّوه على لينه، فأسلمهم ذلك إلى أمر الله عزّ وجلّ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل، عن القاسم، قال: كان مما أحدَث عثمان فرُضيَ به منه أنه ضرب رجلاً في منازعة استخفّ فيها بالعباس بن عبد المطلب، فقيل له، فقال: نعم، أيفخّم رسولُ الله ﷺ عمّه، وأرخّص في الاستخفاف به! لقد خالف رسول الله ﷺ مَن فعل ذلك، ومَن رضيَ به منه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن رُزيق بن عبد الله الرازيّ، عن علْقمة بن مرثَد، عن حُمران بن أبان؛ قال: أرسلني عثمان إلى العباس بعد ما بويع، فدعوته إليه، فقال: مَالَكَ تعبّدتَني! قال: لم أكن قطّ أحوجَ إليك مني اليوم، قال: الزم خمساً؛ لا. تنازعك الأمة خزائمَها ما لزمتَها، قال: وما هنّ؟ قال: الصبر عن القتل، والتحبّب، والصفح، والمداراة، وكتمان السرّ.

وذكر محمد بن عمر، قال: حدّثني ابنُ أبي سبرة، عن عمرو بن أميّة الضّمريّ، قال: إن قريشاً كان مَن أسنّ منهم مولعاً بأكل الخزيرة؛ وإني كنت أتعشّى مع عثمان خَزيراً من طبْخ من أجود ما رأيت قطّ، فيها بطون الغنم، وأدمها اللبن والسمن، فقال عثمان: كيف ترى هذا الطعام؟ فقلت: هذا أطيب ما أكلتُ قطّ، فقال: يرحم الله ابنَ الخطّاب! أكلتَ معه هذه الخزيرة قطّ؟ قلت: نعم؛ فكادت اللقمة تَفرثُ في يدِي حين أهوِي بها إلى فمِي؛ وليس فيها لحم؛ وكان أدْمها السمن ولا لبنَ فيها. فقال عثمان: صدقت، إنّ عمرَ رضي الله عنه أتعب والله مَن تبع أثره؛ وإنه كان يطلب بثَنْيه عن هذه الأمور ظَلفاً. أما والله ما آكله من مال المسلمين؛ ولكني آكُله من مالي؛ أنت تعلم أني كنت أكثرَ قريش مالا، وأجدّهم في التجارة؛ ولم أزل آكل من الطعام ما لان منه؛ وقد بلغت سنّاً فأحبُّ الطعام إليّ ألينُه؛ ولا أعلم لأحد عليّ في ذلك تَبِعةً.

قال محمد: وحدّثني ابنُ أبي سَبْرة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر، قال: كنت أفطِر مع عثمان في شهر رمضان؛ فكان يأتينا بطعام هو ألينَ من طعام عمر، قد رأيت على مائدة عثمان الدَّرْمَك الجيّد وصغار الضأن كلّ ليلة؛ وما رأيت عمر قطّ أكل من الدقيق منخولا، ولا أكل من الغنم إلّا مَسانّها، فقلت لعثمان في ذلك، فقال: يرحم الله عمر! ومن يُطيق ما كان عمر يطيق!

قال محمد: وحدّثني عبدُ الملك بن يزيد بن السائب، عن عبد الله بن السائب، قال: أخبرني أبي، قال: أوّل فسطاط رأيته بمنىً فسطاط لعثمان، وآخر لعبد الله بن عامر بن كُريز، وأوّل مَن زاد النداء الثالث يوم الجمعة على الزَّوراء عثمان، وأوّل مَنْ نُخل له الدقيق من الولاة عثمان رضي الله عنه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: بلغ عثمان أنّ ابن ذِي الحبَكة النَّهديّ يعالج نيرنْجاً ـ قال محمد بن سلمة: إنما هو نيرج ـ فأرسل إلى الوليد بن عُقبة ليسأله عن ذلك؛ فإن أقرّ به فأوجِعْه، فدعا به فسأله، فقال: إنما هو رِفْق وأمرٌ يعجَب منه؛ فأمر به فعزِّر، وأخبر الناسَ خبره، وقرأ

عليهم كتاب عثمان: إنه قد جُدَّ بكم، فعليكم بالجدّ؛ وإياكم والهُزّال؛ فكان الناس عليه؛ وتعجّبوا من وقوف عثمان على مثل خبره، فغضب، فنفر في الذين نفروا، فضرب معهم، فكتِب إلى عثمان فيه، فلما سيِّر إلى الشام مَنْ سيّر، سيّر كعب بن ذي الحبَكة ومالك بن عبد الله ـ وكان دينه كدينه ـ إلى دُنباوَند؛ لأنها أرضُ سَحِرة، فقال في ذلك كعب بن ذي الحبَكة للوليد:

لَعَمْـري لئن طـردتَني مـا إلى التي ... طمِعْتَ بهـا من سَقْـطَتِي لَسَبيـلُ
رَجَوْتُ رُجوعي يابنَ أروَى وَرجْعَتِي ... إلى الحقّ دَهْـراً غـال ذلـك غُـولُ
وإنّ اغتـرابي في البـلاد وجَفـوَتي ... وشَـتـمِـيَ في ذات الإلـه قـليـلُ
وإنّ دُعـائـي كـلَّ يـومٍ ولـيـلةٍ ... عـليـك بِـدُنْـبـاوَنْـدِكُـمْ لَـطَويـلُ

فلما وليَ سعيد أقفَله، وأحسن إليه واستصلحه، فكفره، فلم يزدد إلا فساداً. واستعار ضابىء بن الحارث البرجميّ في زمان الوليد بن عقبة من قوم من الأنصار كلباً يدعى قَرْحان، يصيد الظباء، فحبسه عنهم، فنافره الأنصاريون، واستغاثوا عليه بقومه فكاثروه، فانتزعوه منه وردّوه على الأنصار، فهجاهم وقال في ذلك:

تَجَشَّـمَ دوني وَفْـدُ قـرحـانَ خـطـةً ... تَضِـلُّ لهـا الـوَجْنـاءُ وهْيَ حَسيـرُ
فبـاتـوا شِبـاعـاً نـاعِمين كـأنمـا ... حَبـاهُمْ ببيَتِ الـمَـرزُبـان أميـرُ
فـكلبُـكُمْ لاَ تَـتْـرُكـوا فَـهـوَ أُمُّـكُـمْ ... فـإنّ عـقـوقَ الأُمَّـهـاتِ كـبـيـرُ

فاستعدَوْا عليه عثمان، فأرسل إليه، فعزّره وحبسه كما كان يصنع بالمسلمين، فاستثقل ذلك، فما زال في الحبس حتى مات فيه. وقال في الفتك يعتذر إلى أصحابه:

هَمَمتُ ولم أَفـعَـلْ وكِـدتُ ولَيـتَـني ... فَـعَـلتُ ووَلَّـيـتُ الـبُـكـاءَ حَـلائـلَهْ
وقـائِلةٍ قـد مـاتَ في السجنِ ضـابِىءٌ ... ألا مَن لخَصْمٍ لم يجِدْ مَن يُجادِلُـهْ!
وقـائـلـةٍ لا يُـبـعِـدِ اللهُ ضـابـئـاً ... فَـنْعـمَ الفَـتى تـخلُو بـه وتُـحـاوِلُـهْ

فلذلك صار عمير بن ضابىء سَبئياً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المستنير، عن أخيه، قال: والله ما علمت ولا سمعتُ بأحد غزا عثمانَ رضي الله عنه، ولا ركب إليه إلّا قتِل؛ لقد اجتمع بالكوفة نفرٌ، فيهم الأشتر وزيد بن صُوحان وكعب بن ذي الحبَكة وأبو زينب وأبو مورِّع وكُمَيل بن زياد وعمير بن ضابىء؛ فقالوا: لا والله لا يُرفَع رأسٌ ما دام عثمان على الناس؛ فقال عمير بن ضابىء وكُمَيل بن زياد: نحن نقتله. فركبا إلى المدينة؛ فأما عمير فإنه نكل عنه، وأما كُمَيل بن زياد فإنه جسر وثاوره؛ وكان جالساً يرصده حتى أتى عليه عثمان، فوجأ عثمان وجهه، فوقع على أسته، وقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين! قال: أوَ لَستَ بفاتك! قال: لا والله الذي لا إله إلّا هو؛ فحلف وقد اجتمع عليه الناس، فقالوا نفتّشه يا أميرَ المؤمنين، فقال: لا، قد رزق الله العافية، ولا أشتهي أن أطّلع منه على غير ما قال. وقال: إن كان كما قلتَ يا كميل فافتقدْ منّي ـ وجثا ـ فوالله ما حسبتك إلّا تريدني، وقال: إن كنتَ صادقاً فأجزل الله، وإن كنتَ كاذباً فأذلّ الله. وقعد له على قدميه وقال: دونك! قال: قد تركتُ. فبقيا حتى أكثر الناس في نجائهما، فلمّا قدم الحَجّاج قال: مَن كان من بعْث المهلّب فليوافِ مكتبه؛ ولا يجعل على نفسه سبيلاً. فقام إليه عمير، وقال: إني شيخ ضعيف، ولي ابنان قويّان، فأخرجْ أحدهما مكاني أو

كليهما، فقال: من أنت؟ قال: أنا عمير بن ضابيء، فقال: والله لقد عصيتَ الله عزّ وجلّ منذ أربعين سنة؛ ووالله لأنكِّلنّ بك المسلمين، غضبْت لسارق الكلب ظالماً، إنّ أباك إذْ غُلّ لَهمَّ؛ وإنّك هممت ونكلت، وإني أهُمّ ثم لا أنكل. فضربت عنقه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، قال: حدّثنا رجل من بني أسد، قال: كان من حديثه أنه كان قد غزا عثمان رضي الله عنه فيمن غزاه؛ فلما قدم الحَجّاج ونادى بما نادى به، عرض رجل عليه ما عِوَض نفسه، فقبل منه، فلما قال أسماء بن خارجة: لقد كان شأن عمير مما يهمّني، قال: ومَن عمير؟ قال: هذا الشيخ، قال:

ذكّـرتني الـطعن وكنـت نـاسيـاً

أليس فيمن خرج إلى عثمان؟ قال: بلى، قال: فهل بالكوفة أحد غيره؟ قال: نعم، كُمَيل، قال: عليّ بعُمير، فضرب عنقه، ودعا بكُميل فهرب؛ فأخذ النّخع به، فقال له الأسود بن الهيثم: ما تريد من شيخ قد كفاكه الكِبَر! فقال: أما والله لتحبسنّ عني لسانك أو لأحُسَّنّ رأسك بالسيف. قال: افعل. فلما رأى كُميل ما لقيَ قومه من الخوف وهم ألفا مقاتل، قال: الموت خير من الخوف إذا أُخيف ألفان من سَبَبِي وحرِموا. فخرج حتى أتى الحجّاج، فقال له الحجّاج: أنت الذي أردت ثم لم يكشفك أمير المؤمنين، ولم نـرضَ حتى قعدتـه للقصاص إذْ دفعك عن نفسه؟ فقال: على أيّ ذلك تقتلني! تقتلني على عفوه أو على عافيتي؟ قال: يا أدهم بن المحرِز، اقتله؛ قال: والأجر بيني وبينك؟ قال: نعم، قال أدهم: بل الأجر لك؛ وما كان من إثم فعليّ. وقال مالك بن عبد الله ـ وكان من المسيّرين:

مَضَتْ لابنِ أروَى في كُمَيلٍ ظُلامَةٌ ... عفـاهـا لـه والمُستقِيـدُ يُـلامُ
وقـال لـه لا أُقبِـحُ اليـومَ مُـثْلَةً ... عَـلَيـكَ أبـا عَـمْـرو وأنـت إمـامُ
رُوَيـدَكَ رأسي والـذي نَسَكَتْ لـه ... قُـرَيشٌ بِنـا على الكَبيـر حـرامُ
ولِلعَفْـوِ أمنٌ يَعـرِفُ النـاسُ فَضلَهُ ... ولَيسَ عَلَينـا في القِصـاصِ أثـامُ
ولـو عَلِمَ الفاروق مـا أنت صـانِـعٌ ... نَهى عَنـكَ نَهيـاً ليس فيـه كـلامُ

حـدّثني عمر بن شبّـة، قال: حـدّثنا علـيّ بن محمد، عن سُحَيم بن حَفْص، قـال: كان ربيعـة بن الحارث بن عبد المطلب شريكَ عثمان في الجاهليّة، فقال العباس بن ربيعة لعثمان: اكتب لي إلى ابن عامر يُسلِفني مائة ألف؛ فكتب، فأعطاه مائة ألف وصلَه بها، وأقطعه دارَه؛ دار العباس بن ربيعة اليوم.

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن إسحاق بن يحيى، عن موسى بن طلحة، قال: كان لعثمان على طلحة خمسون ألفاً، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيّأ مالُكَ فاقبضه، قال: هو لك يا أبا محمد معونةً لك على مروءتك.

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، عن عبد ربّه، عن نافع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حَكِيم بن جابر، قال: قال عليّ لطلحة: أنشدك الله إلاّ رددتَ الناس عن عثمان! قال: لا والله حتى تُعطِيَ بنو أمية الحقّ من أنفسها.

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدثنا أبو بكر البكريّ، عن هشام بن حسان، عن الحسن؛ أنّ طلحة بن عبيد الله باع أرضاً له من عثمان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فقال طلحة: إنّ رجلا تتّسق هذه عنده وفي بيته لا يدري ما يطرُقه من أمر الله عزّ وجلّ لغريرٌ بالله سبحانه! فبات ورسوله يختلف بها في سِكك المدينة يقسِمها حتى أصبح، فأصبح وما عنده منها درهم. قال الحسن: وجاء ها هنا يطلب الدينار والدرهم ـ أو قال: الصفراء والبيضاء.

وحجّ بالناس في هذه السنة ـ أعني سنة خمس وثلاثين ـ عبد الله بن عباس بأمر عثمان إياه بذلك؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت الرازيّ، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله أمر عثمان رضي الله عنه عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن يحجّ بالناس في هذه السنة

ذكر محمد بن عمر الواقديّ أنّ أسامة بن زيد حدّثه عن داود بن الحصين، عن عِكرمة، عن ابن عباس، قال: لما حُصِر عثمان الحصْر الآخِر، قال عكرمة: فقلت لابن عبّاس: أوَكانا حَصْرين؟ فقال ابن عباس: نعم، الحصْر الأوّل، حُصر اثنتي عشرة ـ وقدم المصريون فلقيَهم عليٌّ بذي خُشب؛ فردّهم عنه؛ وقد كان والله عليّ له صاحبَ صدق، حتى أوغر نفسَ عليّ عليه؛ جعل مروان وسعيد وذووهما يحملونه على عليّ فيتحمّل؛ ويقولون: لو شاء ما كلّمك أحد؛ وذلك أن عليًّا كان يكلمه وينصحه ويُغلِظ عليه في المنطق في مرْوان وذوِيه، فيقولون لعثمان: هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسِلْفه وابن عمّه وابن عمته؛ فما ظنّك بما غاب عنك منه، فلم يزالوا بعليّ حتى أجمع ألاّ يقوم دونه؛ فدخلتُ عليه اليوم الذي خرجتُ فيه إلى مكة، فذكرت له أنّ عثمان دعاني إلى الخروج فقال لي: ما يريد عثمان أن ينصحه أحدٌ؛ اتّخذ بطانة أهل غِشّ ليس منهم أحد إلاّ قد تسبّب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذلّ أهلها؛ فقلت: له: إنّ له رِحماً وحقًّا؛ فإن رأيت أن تقوم دونه فعلتَ؛ فإنك لا تُعذِر إلا بذلك.

قال ابن عباس: فالله يعلم أنّي رأيت فيه الانكسار والرّقة لعثمان؛ ثم إني لأراه يؤتَى إليه عظيم. ثم قال عكرمة: وسمعت ابنَ عباس يقول: قال لي عثمان: يابنَ عباس، اذهب إلى خالد بن العاص وهو بمكة، فقال له: يقرأ عليك أمير المؤمنين السلام، ويقول لك: إني محصور منذ كذا وكذا يوماً، لا أشرب إلاّ من الأَجاج من داري، وقد مُنعتُ بئراً اشتريتها من صُلْب مالي، رُومةَ، فإنما يشربها الناس ولا أشرب منها شيئاً، ولا آكل إلاّ مما في بيتي، منِعت أن آكل مما في السوق شيئاً وأنا محصور كما ترى؛ فَأْمُرْهُ وقل له: فليحجّ بالناس؛ وليس بفاعِل؛ فإنْ أبى فاحجُج أنت بالناس.

فقدمت الحجّ في العَشْر، فجئت خالد بن العاص، فقلت له ما قال لي عثمان، فقال لي: هل طاقة بعداوة مَن ترى؟ فأبى أن يحجّ وقال: فحُجّ أنت بالناس: فأنت ابن عمّ الرجل؛ وهذا الأمر لا يُفضِي إلاّ إليه ـ يعني عليًّا ـ وأنت أحقّ أن تحمل له ذلك، فحججت بالناس، ثم قفلت في آخر الشهر، فقدمت المدينة وإذا عثمان قد قتل؛ وإذا الناس يتواثبون على رقبة علي بن أبي طالب. فلما رآني عليّ ترك الناس، وأقبل عليَّ فانتجاني، فقال: ما ترى فيما وقع؟ فإنه قد وقع أمر عظيم كما ترى لا طاقة لأحد به؛ فقلت: أرى أنه لا بدّ للناس منك اليوم؛ فأرى أنه لا يبايَع اليوم أحدٌ إلاّ اتُّهم بدم هذا الرجل، فأبى إلاّ أن يبايَع فاتُّهم بدمه.

قال محمد: فحدثني ابنُ أبي سَبْرة، عن عبد المجيد بن سهيل، عن عكرمة، قال: قال: ابنُ عباس: قال لي عثمان رضي الله عنه: إني قد استعملتُ خالد بن العاص بن هشام على مكة؛ وقد بلغ أهلَ مكة ما صنع الناس؛ فأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى، فيقاتلهم في حرَم الله جلّ وعزّ وأمنه. وإن قوماً جاؤوا من كلّ فجّ عميق، ليشهدوا منافع لهم؛ فرأيت أن أولِّيك أمر الموسم. وكتب معه إلى أهل الموسم بكتاب يسألهم أن يأخذوا له بالحقّ ممن حصره. فخرج ابنُ عباس، فمرّ بعائشة في الصُّلصُل؛ فقالت: يابنَ عباس؛ أنشدك الله ـ فإنك قد أعطِيت لساناً إزعيلا ـ أن تخذّل عن هذا الرجل، وأن تشكّك فيه الناس؛ فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت، ورفعت لهم المنار، وتحلّبوا من البلدان لأمر قد حُمّ؛ وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيحَ، فإن يَلِ يَسِرْ بسيرة ابن عمه أبي بكر، قال: قلتُ يا أمّهْ لو حدث بالرّجل حدث ما فزع الناس إلّا إلى صاحبنا. فقالت: إيهاً عنك! إني لست أريدُ مكابرتك ولا مجادلتك.

قال ابن أبي سَبْرة: فأخبرني عبد المجيد بن سهيل؛ أنه انتسخ رسالة عثمان التي كتب بها من عكرمة، فإذا فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين؛ سلام عليكم، فإنّي أحمَد الله إليكم الذي لا إله إلا هو؛ أمّا بعد؛ فإنّي أذكّركم بالله جلّ وعزّ الذي أنعم عليكم وعلّمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر، وأراكم البيّنات، وأوسع عليكم من الرزق، ونصركم على العدوّ، وأسبغ عليكم نعمته؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول وقوله الحق: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا إِن الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار ﴾(١). وقال عزّ وجلّ: ﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا آللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ﴾ إلى قوله: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢). وقال وقوله الحقّ: ﴿ واذْكُرُوا نِعْمَةَ آللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وأَطَعْنَا ﴾(٣). وقال وقوله الحقّ: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَضْلاً مِنَ آللهِ وَنِعْمَةً وَآللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٤). وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ آللهِ وأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ إلى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٥). وقال وقوله الحق: ﴿ فَاتَّقُوا آللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إلى ﴿ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾(٦). وقال وقوله الحقّ: ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٧). وقال وقوله الحق: ﴿ أَطِيعُوا آللهَ وأَطِيعوا الرَّسُولَ وأولِي الأَمْر مِنْكُمْ ﴾ إلى ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾(٨). وقال وقوله الحق: ﴿ وَعَدَ آللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٩). وقال وقوله الحق: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ آللهَ ﴾ إلى ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾(١٠).

أما بعد، فإنّ الله عزّ وجلّ رضي لكم السمع والطاعة والجماعة، وحذّركم المعصية والفُرقة والاختلاف، ونبّأتكم ما قد فعله الذين من قبلكم، وتقدّم إليكم فيه ليكون له الحُجّةُ عليكم إن عصيتموه،

(١) سورة إبراهيم: ٣٤.
(٢) سورة آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥.
(٣) سورة المائدة ٧.
(٤) سورة الحجرات: ٦ ـ ٨.
(٥) سورة آل عمران: ٧٧.
(٦) سورة التغابن: ١٦.
(٧) سورة النحل: ٩١ ـ ٩٦.
(٨) سورة النساء: ٥٩.
(٩) سورة النور: ٥٥.
(١٠) سورة الفتح: ١.

فاقبلوا نصيحة الله عزّ وجلّ واحذروا عذابه؛ فإنكم لن تجدوا أمةً هلكت من بعد أن تختلف؛ إلا أن يكون لها رأس بجمعها، ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعاً، وسُلِّط عليكم عدوّكم، ويستحلّ بعضكم حَرَم بعض؛ ومتى يفعل ذلك لا يقم لله سبحانه دين، وتكونوا شيعاً، وقد قال الله جلّ وعزّ لرسوله ﷺ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إلى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾(١). وإني أوصيكم بما أوصاكم الله، وأحذّركم عذابه؛ فإن شعيباً ﷺ قال لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾(٢).

أما بعد؛ فإنّ أقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث، أظهروا للناس أنّما يدعون إلى كتاب الله عزّ وجلّ والحقّ، ولا يُريدون الدّنيا ولا منازعةً فيها؛ فلما عرِض عليهم الحقّ إذا الناس في ذلك شتى؛ منهم آخذ للحقّ، ونازع عنه حين يعطاه؛ ومنهم تارك للحقّ ونازلٌ عنه في الأمر، يريد أن يبتزّه بغير الحقّ؛ طال عليهم عمري، وراثَ عليهم. أمَلُهم الإمْرة؛ فاستعجلوا القَدَر؛ وقد كتبوا إليكم أنهم قد رجعوا بالذي أعطيتهم؛ ولا أعلم أنّي تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً؛ كانوا زعموا أنهم يطلبون الحُدود، فقلت: أقيموها على مَن علمتم تعدّاها في أحَد، أقيموها على مَن ظلمكم من قريب أو بعيد. قالوا: كتاب الله يُتْلى، فقلت: فَلْيَتْلُه مَنْ تلاه غير غال فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب. وقالوا: المحروم يرزق، والمال يوفّى لِيُسْتَنّ فيه السنّة الحسنة، ولا يُعتدى في الخُمس ولا في الصدقة، ويؤمَّر ذو القوّة والأمانة، وتردُّ مظالم الناس إلى أهلها؛ فرضيت بذلك واصطبرت له؛ وجئت نسوة النبيّ ﷺ حتى كلّمتهنّ، فقلت: ما تأمرني؟ فقلن: تُؤَمِّر عمرو بن العاص وعبد الله بن قَيْس وتَدَع معاوية؛ فإنما أمّره أمير قبلك، فإنه مصلح لأرضه، راضٍ به جنده؛ واردد عمراً؛ فإنّ جنده راضون به، وأمِّرْه فليصلح أرضه؛ فكلّ ذلك فعلت. وإنه اعتُديَ عليّ بعد ذلك وعُدِي على الحقّ.

كتبت إليكم وأصحابي الذين زعموا في الأمر؛ استعجلوا القَدَر، ومنعوا مني الصلاة، وحالوا بيني وبين المسجد، وابتزّوا ما قدروا عليه بالمدينة.

كتبت إليكم كتابي هذا؛ وهم يخيّرونني إحدى ثلاث: إما يُقيدونَني بكلّ رجل أصبته أو خطأ أو صواباً، غير متروك منه شيء؛ وإمّا أعتزل الأمر فيؤمِّرون آخرَ غيري، وإمّا يُرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرّؤون من الذي جعل الله سبحانه لي عليهم من السمع والطاعة. فقلت لهم: أمّا إقادتي من نفسي فقد كان من قبلي خلفاء تخطىء وتصيب؛ فلم يُسْتَقد من أحد منهم؛ وقد علمت أنما يريدون نفسي؛ وأمّا أن أتبرأ من الإمارة فأنْ يكْلُبوني أحبّ إليَّ من أن أتبرّأ من عمل الله عز وجل وخلافته. وأما قولكم: يرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرؤون من طاعتي؛ فلست عليكم بوكيل؛ ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة؛ ولكن أتوها طائعين، يبتغون مرضاةَ الله عزّ وجلّ وإصلاح ذات البين؛ ومن يكن منكم إنما يبتغي الدنيا فليس بنائل منها إلّا ما كتب الله عزّ وجلّ له، ومن يكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ والسنّة الحسنة التي استنّ بها رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده رضي الله عنهما؛ فإنما يجزي بذلكم الله؛ وليس بيدِي جزاؤكم؛ ولو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن في ذلك ثمن لدينكم؛ ولم يُغْنِ عنكم شيئاً، فاتقوا

(١) سورة الأنعام: ١٥٩.
(٢) سورة هود: ٨٩، ٩٠.

الله واحتسبوا ما عنده؛ فمن يرضَ بالنَّكْث منكم فإني لا أرضاه له، ولا يرضى الله سبحانه أن تنكُثوا عهده. وأما الذي يخيّرونني فإنما كله النزع والتأمير. فملَكْت نفسي ومَنْ معي؛ ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه، وكرهت سنَّة السوء وشِقاق الأمّة وسفك الدماء؛ فإني أنشدكم بالله والإسلام ألّا تأخذوا إلّا الحق وتعطُوه مني وترك البغي على أهله، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عزّ وجلّ، فإني أنشدكم الله سبحانه الذي جعل عليكم العهد والموازرة في أمر الله؛ فإنّ الله سبحانه قال وقوله الحق: ﴿ وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾(١)، فإنّ هذه معذرة إلى الله ولعلكم تذكّرون.

أما بعد، فإني لا أبرىء نفسي، ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَة بالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٢)، وإن عاقبت أقواماً فلما أبتغي بذلك إلّا الخير، وإني أتوب إلى الله عزّ وجلّ كلّ عملٍ عملته، وأستغفره إنه لا يغفر الذنوب إلّا هو، إنّ رحمة ربي وسعت كلّ شيء، إنه لا يقنط من رحمة الله إلّا القومُ الضَّالون، وإنه يقبلُ التَّوبَة عَنْ عباده ويعفو عن السّيّئات ويعلم ما يفعَلُون. وأنا أسأل الله عزّ وجلّ أن يغفر لي ولكم، وأن يؤلّفَ قلوبَ هذه الأمة على الخير، ويكرّه إليها الفسق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أيها المؤمنون والمسلمون.

قال ابن عباس: فقرأت هذا الكتاب عليهم قبل التَّروِية بمكة بيوم.

قال: وحدّثني ابن أبي سَبْرة، عن عبد المجيد بن سهيل، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة، عن ابن عباس، قال: دعاني عثمان، فاستعملني على الحجّ. قال: فخرجت إلى مكة، فأقمتُ للنّاس الحجّ، وقرأت عليهم كتاب عثمان إليهم؛ ثم قدمت المدينة وقد بويع لعليّ.

ذكر الخبر عن الموضع الذي دفن فيه عثمان رضي الله عنه ومن صلّى عليه وولِيَ أمره بعد ما قتل إلى أن فُرِغ من أمره ودفنه

حدّثني جعفر بن عبد الله المحمديّ، قال: حدّثنا عمرو بن حمّاد وعليّ بن حسين، قالا: حدّثنا حسين بن عيسى، عن أبيه، عن أبي ميمونة، عن أبي بشير العابديّ، قال: نبِذ عثمان رضي الله عنه ثلاثة أيام لا يُدفن؛ ثم إن حَكم بن حزام القرشيّ ثم أحد بني أسد بن عبد العزّي، وجُبير بن مطعِم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف، كلّما عليًّا في دفنه، وطلبا إليه أن يأذن لأهله في ذلك، ففعل، وأذِن لهم عليّ، فلما سُمِع بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسيرٌ من أهله؛ وهم يريدون به حائطاً بالمدينة، يقال له: حَشّ كَوْكب، كانت اليهود تدفن فيه موتاهم؛ فلما خرِج به على الناس رجموا سريرَه، وهمّوا بطرحه، فبلغ ذلك عليًّا، فأرسل إليهم يعزم عليهم لَيكفّنّ عنه، ففعلوا، فانطلق حتى دفن رضي الله عنه في حَشّ كوكب؛ فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان على الناس أمر بهدْم ذلك الحائط حتى أفضى به إلى البَقيع؛ فأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حَوْل قبره حتى اتّصل ذلك بمقابر المسلمين.

وحدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو وعليّ: قالا: حدثنا حُسَين، عن أبيه، عن المجالد بن سعيد الهَمْدانيّ، عن يسار بن أبي كرب، عن أبيه. ـ وكان أبو كَرب عاملاً على بيت مال عثمان ـ قال: دفن عثمان رضي الله عنه بين المغرب والعَتَمة؛ ولم يشهد جنازته إلّا مرْوان بن الحكم وثلاثة من مواليه وابنته الخامسة،

(١) سورة الإسراء: ٣٤.
(٢) سورة يوسف: ٥٣.

فناحت ابنته ورفعت صوتها تندبه، وأخذ الناس الحجارة، وقالوا: نعثَل! وكادت ترجَم؛ فقالوا: الحائط الحائط؛ فدفن في حائط خارجاً.

وأما الواقديّ فإنه ذكر أنّ سعد بن راشد حدّثه عن صالح بن كيسان أنه قال: لما قتل عثمان رضي الله عنه قال رجل: يدفن بدير سَلْع مقبرة اليهود، فقال حَكِيم بن حزام: والله لا يكونُ هذا أبداً وأحدٌ من ولد قصيّ حيٌّ؛ حتى كاد الشرّ يلتحم، فقال ابنُ عُدَيس البَلَويّ: أيّها الشيخ، وما يضرّك أين يدفن! فقال حكيم بن حزام: لا يدفن إلا ببقيع الغَرقَد حيث دفن سَلَفُه وفَرَطُه؛ فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً، وفيهم الزّبير، فصلّى عليه حكيم بن حزام. قال الواقديّ: الثَّبَت عندنا أنه صلّى عليه جُبير بن مطعِم.

قال محمد بن عمر: وحدّثني الضّحاك بن عثمان، عن مخرَمة بن سليمان الوالبيّ، قال: قتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة ضَحْوةً، فلم يقدروا على دفنه، وأرسلت نائلة ابنة الفَرافِصة إلى حُوَيطب بن عبد العُزّى وجُبير بن مطعِم وأبي جهم بن حُذَيفة وحكيم بن حزام ونِيار الأسلميّ، فقالوا: إنّا لا نقدر أن نخرج به نهاراً، وهؤلاء المصريُّون على الباب، فأمهلوا حتى كان بين المغرب والعشاء، فدخل القوم، فحِيل بينهم وبينه، فقال أبو جهم: والله لا يحولُ بيني وبينه أحد إلا مِتّ دونه؛ احملوه، فحمِل إلى البقيع؛ قال: وتبعتهم نائلة بسراج استسرجته بالبَقيع وغلام لعثمان، حتى انتهوْا إلى نَخَلات عليها حائط؛ فدقّوا الجدار، ثم قبروه في تلك النَّخَلات، وصلّى عليه جبير بن مطعم، فذهبت نائلة تريد أن تتكلم، فزبرها القوم، وقالوا: إنا نخاف عليه من هؤلاء الغوغاء أن يَنْبِشوه، فرجعت نائلة إلى منزلها.

قال محمد: وحدّثني عبدالله بن يزيد الهذليّ، عن عبد الله بن ساعدة، قال: لبِث عثمان بعد ما قتل ليلتين لا يستطيعون دفنَه، ثم حمله أربعة: حكِيم بن حزام، وجُبير بن مطعِم، ونِيار بن مكرم، وأبو جهم بن حذيفة؛ فلما وُضِع ليصلَّى عليه، جاء نفر من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه، فيهم أسلم بن أوس بن بجرة الساعديّ، وأبو حيّة المازنيّ، في عدّة؛ ومنعوهم أن يدفن بالبقيع؛ فقال أبو جهم: ادفنوه، فقد صلى الله عليه وملائكته، فقالوا: لا والله، لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً، فدفنوه في حَشّ كوكب. فلما ملَكت بنو أميّة أدخلوا ذلك الحَشّ في البَقيع، فهو اليوم مقبرة بني أميّة.

قال محمد: وحدّثني عبد الله بن موسى المخزوميّ، قال: لما قتِل عثمان رضي الله عنه أرادوا حزَّ رأسه، فوقعت عليه نائلة وأمّ البنين، فمنعنَهم، وصِحْنَ وضربن الوجوه، وخرقن ثيابهنّ، فقال ابن عُدَيس: اتركوه؛ فأخْرِج عثمان ولم يُغسل إلى البقيع، وأرادُوا أن يصلّوا عليه في موضع الجنائز؛ فأبت الأنصار، وأقبل عُمير بن ضابىءوعثمانُ موضوعٌ على باب، فَنَزا عليه، فكسر ضِلعاً من أضلاعه، وقال: سجنتَ ضابئاً حتى مات في السجن.

وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: حدّثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي أويس، قال: حدّثني عمّ جدّي الرّبيع بن مالك بن أبي عامر، عن أبيه، قال: كنت أحد حَملة عثمان رضي الله عنه حين قتِل: حملناه على باب، وإن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به؛ وإن بنا من الخوف لأمراً عظيماً حتى واريناه في قبره في حَشّ كَوكب.

وأما سيف، فإنه روى فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عنه، عن أبي حارثة وأبي عثمان ومحمد

وطلحة؛ أنّ عثمان لما قتِل أرسلت نائلة إلى عبد الرحمن بن عُدَيس، فقالت له: إنك أمسّ القوم رَحِماً، وأولاهم بأن تقوم بأمري؛ أغرِبْ عنّي هؤلاء الأموات. قال: فشتمها وزجرها؛ حتى إذا كان في جوف الليل خرج مروان حتى أتى دار عثمان، فأتاه زيد بن ثابت وطلحة بن عبيد الله وعليّ والحسن وكعب بن مالك وعامّة مَن ثَمَّ من صحابه، فتوافَى إلى موضع الجنائز صبيان ونساء؛ فأخرجوا عثمان فصلّى عليه مروان، ثمّ خرجوا به حتى انتهوْا إلى البقيع، فدفنوه فيه مما يلي حَشّ كوكب؛ حتى إذا أصبحوا أتوا أعبُد عثمان الذين قتلوا معه فأخرجوهم فرأوْهم فمنعوهم من أن يدفنوا، فأدخلوهم حَشّ كَوكب؛ فلما أمسوْا خرجوا بعبدين منهم فدفنوهما إلى جنب عثمان، ومع كلّ واحد منهما خمسة نفر وامرأة؛ فاطمة أم إبراهيم بن عديّ، ثم رجعوا فأتوا كنانة بن بشر، فقالوا: إنك أمسّ القوم بنا رَحِماً، فأمُرْ بهاتين الجيفتين اللّتين في الدار أن تُخرَجا، فكلّمهم في ذلك، فأبوْا، فقال: أنا جار لآل عثمان من أهل مصر ومَن لفّ لَفّهم، فأخرِجوهما فارموا بهما؛ فجُرّا بأرجلهما فرمى بهما على البلاط، فأكلتْها الكلاب؛ وكان العبدان اللذان قتلا يوم الدار يقال لهما نُجيح وصُبيح؛ فكان اسماهما الغالب على الرقيق لفضلهما وبلائهما؛ ولم يحفظ الناس اسم الثالث، ولم يغسَل عثمان، وكُفّن في ثيابه ودمائه ولا غُسِل غلاماه.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: دفن عثمان رضي الله عنه من اللّيل، وصلّى عليه مَرْوان بن الحكم، وخرجت ابنتُه تبكي في أثره، ونائلة ابنة الفَرافصة، رحمهم الله.

ذكر الخبر عن الوقت الذي قتل فيه عثمان رضي الله عنه

اختُلف في ذلك بعد إجماع جميعهم على أنه قتل في ذي الحجّة، فقال بعضهم: قتل لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين من الهجرة، فقال الجمهور منهم: قتل لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين.

ذكر الرواية بذلك عن بعض من قال إنه قتل في سنة ست وثلاثين:

حدّثني الحارث بن محمد، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن عثمان بن محمد الأخنسيّ، قال الحارث: وحدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة، عن يعقوب بن زيد، عن أبيه، قال: قتِل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين بعد العصر، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة غير اثني عشر يوماً؛ وهو ابن اثنتين وثمانين سنة.

وقال أبو بكر: أخبرنا مُصعب بن عبد الله، قال: قتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين بعد العصر.

وقال آخرون: قتل في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين لثماني عشرة ليلة خلت منه.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني جعفر بن عبد الله، قال: حدّثنا عمرو بن حماد وعلي، قالا: حدّثنا حسين، عن أبيه، عن المجالد بن سعيد الهمْدانيّ، عن عامر الشعبيّ، أنه قال: حُصِر عثمان بن عفان رضي الله عنه في الدّار اثنتين

وعشرين ليلة، وقتِل صُبْحَة ثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجّة سنة خمس وعشرين من وفاة رسول الله ﷺ.

وحدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، قال: قتِل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة لثمانيَ عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلّا اثني عشر يوماً.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: قتِل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضتْ من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر رضي الله عنه.

وحُدّثت عن زكرياء بن عديّ، قال: حدّثنا عبيد الله بن عمرو، عن ابن عَقِيل، قال: قتل عثمان رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين.

وكتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان ومحمد وطلحة، قالوا: قتِل عثمان رضي الله عنه لثمانيَ عشرة ليلة خلَتْ من ذي الحجّة يوم الجمعة في آخر ساعة.

وقال آخرون: قتل يوم الجمعة ضحوةً.

ذكر من قال ذلك:

ذُكر عن هشام بن الكلبيّ، أنه قال: قتل عثمان رضي الله عنه صبيحةَ الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، فكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا ثمانية أيام.

حدّثنا الحارث، عن ابن سعد، عن محمد بن عمر، قال: حدّثني الضّحاك بن عثمان، عن مخرمة بن سليمان الوالبيّ، قال: قتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة ضحوةً لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين.

وقال آخرون: قتِل في أيام التّشريق.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا أبي أبو خيثمة، قال: حدّثنا وهب بن جرير، قال: سمعت أبي قال: سمِعت يونس بن يزيد الأيْليّ، عن الزُّهريّ، قال: قتِل عثمان رضي الله عنه، فزعم بعض الناس أنه قتل في أيام التّشريق.

وقال بعضهم: قتِل يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة.

ذكر الخبر عن قدر مدّة حياته

اختلف السلف قبلنا في ذلك، فقال بعضهم: كانت مدّة ذلك اثنتين وثمانين سنة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، أنّ عثمان رضي الله عنه قتِل وهو

ابن اثنتين وثمانين سنة.

قال محمد بن عمر: وحدّثني الضحاك بن عثمان، عن مخرمة بن سليمان الوالبيّ، قال: قتِل عثمان رضي الله عنه وهو ابن اثنتين وثمانين سنة.

قال محمد: وحدثني سعد بن راشد عن صالح بن كيسان، قال: قتِل عثمان رضي الله عنه وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وأشهر.

وقال آخرون: قتِل وهو ابن تسعين أو ثمان وثمانين.

ذكر من قال ذلك:

حُدّثت عن الحسن بن موسى الأشيب، قال: حدّثنا أبو هلال؛ عن قتادة: أنّ عثمان رضي الله عنه قتِل وهو ابن تسعين أو ثمان وثمانين سنة.

وقال آخرون: قتل وهو ابن خمس وسبعين سنة؛ وذلك قولٌ ذكر عن هشام بن محمد.

وقال بعضهم: قتل وهو ابن ثلاث وستين، وهذا قول نسبه سيف بن عمر إلى جماعة. كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف؛ أن أبا حارثة وأبا عثمان ومحمداً وطلحة، قالوا: قُتِل عثمان رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقال آخرون: قتِل وهو ابن ستّ وثمانين.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني محمد بن موسى الحَرَشيّ، قال: حدّثنا معاذ بن هشام، قال: حدّثني أبي، عن قتادة، قال: قتِل عثمان رضي الله عنه وهو ابن ستّ وثمانين.

ذكر الخبر عن صفة عثمان

حدّثني زياد بن أيُوب، قال: حدّثنا هُشيم، قال: زعم أبو المقدام، عن الحسن بن أبي الحسن، قال: دخلت المسجد؛ فإذا أنا بعثمان رضي الله عنه متّكِئاً على ردائه، فنظرت إليه؛ فإذا رجلٌ حسن الوجه، وإذا بوجهه نُكُتَات من جُدَرِيّ؛ وإذا شعره قد كسا ذراعيه.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: حدّثنا محمد بن عمر، قال: سألت عمرو بن عبد الله بن عَنْبسة وعروة بن خالد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وعبد الرحمن بن أبي الزّناد عن صفة عثمان، فلم أرَ بينهم اختلافاً، قالوا: كان رجلا ليس بالقصير ولا بالطويل، حسنَ الوجه، رقيق البشَرَة، كثّ اللحية عظيمها؛ أسمر اللون، عظيم الكراديس؛ عظيمَ ما بين المنكِبين، كثير شعر الرأس، يصفّر لحيته.

وحدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا وهب بن جرير بن حازم، قال: سمعت أبي يقول: سمعت يونس بن زيد الأيْليّ، عن الزُّهريّ، قال: كان عثمان رجلاً مربوعاً، حسن الشعر، حسن الوجه، أصلع، أرْوَح الرِّجلين.

ذكر الخبر عن وقت إسلامه وهجرته

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: كان إسلام عثمان قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. قال: وكان ممن هاجر من مكة إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى والهجرة الثانية، ومعه فيهما جميعاً امرأته رُقيّة بنت رسول الله ﷺ.

ذكر الخبر عما كان يكنّى به عثمان بن عفان رضي الله عنه

حدّثني الحارث بن محمد، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر أنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يكنّى في الجاهلية أبا عمرو، فلما كان في الإسلام ولد له من رقيّة بنت رسول الله ﷺ غلامٌ فسماه عبد الله، واكتنى به، فكنّاه المسلمون أبا عبد الله؛ فبلغ عبد الله ستّ سنين، فنقره ديكٌ على عينه، فمرض فمات في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، فصلّى عليه رسولُ الله ﷺ، ونزل في حُفرته عثمان رضي الله عنه.

وقال هشام بن محمد: كان يكنّى أبا عمرو.

ذكر نسبه

هو عثمان بن عفّان بن العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ. وأمه أرْوَى ابنة كُريز بن ربيعة بن حَبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ، وأمّها أم حَكِيم بنت عبد المطّلب.

ذكر أولاده وأزواجه

رقيّة وأم كلثوم ابنتا رسول الله ﷺ؛ ولدت له رقيّة عبدَ الله.

وفاختة ابنة غَزْوان بن جابر بن نُسَيْب بن وُهَيب بن زيد بن مالك بن عبد بن عوف بن الحارث بن مازن بن منصور بن عِكْرمة بن خَصَفة بن قيْس بن عَيْلان بن مُضَر. ولدت له ابناً فسماه عبد الله؛ وهو عبد الله الأصغر، هَلَك.

وأمّ عمرو بنت جُنْدب بن عمرو بن حُمَمة بن الحارث بن رفاعة بن سَعْد بن ثعلبة بن لؤيّ بن عامر بن غَنْم بن دُهْمان بن مُنْهِب بن دَوْس، من الأزد؛ ولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم.

وفاطمة ابنة الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ولدت له الوليد وسعيداً وأمّ سعيد، بني عثمان.

وأمّ البنين بنت عُيينة بن حِصْن بن حُذيفة بن بدر الفزاريّ؛ ولدت له عبد الملك بن عثمان، هلك.

ورملة ابنة شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ؛ ولدت له عائشة وأمّ أبان وأمّ عمرو، بنات عثمان.

ونائلة ابنة الفَرافصة بن الأحْوَص بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن حِصْن بن ضَمْضم بن عديّ بن جناب بن كلب؛ ولدت له مريم ابنة عثمان.

وقال هشام بن الكلبيّ: ولدت أمّ البنين بنت عيَينة بن حصن لعثمان عبد الملك وعتبة. وقال أيضاً: ولدت نائلة عنبسةَ.

وزعم الواقديّ أن لعثمان ابنة تدعَى أمّ البنين بنت عثمان من نائلة، قال: وهي التي كانت عند عبد الله بن يزيد بن أبي سفيان.

وقتل عثمان رضي الله عنه وعنده رملة ابنة شيبة ونائلة وأمّ البنين بنت عيينة وفاختة ابنة غَزْوان؛ غير أنه ـ فيما زعم عليّ بن محمد ـ طلّق أمّ البنين وهو محصور.

فهؤلاء أزواجه اللّواتي كنّ له في الجاهليّة والإسلام، وأولاده: رجالهم ونساؤهم.

ذكر أسماء عمّال عثمان رضي الله عنه في هذه السنة على البلدان

قال محمد بن عمر: قتِل عثمان رضي الله عنه وعمّاله على الأمصار ـ فيما حدّثني عبد الرحمن بن أبي الزّناد ـ على مكة عبد الله بن الحضرميّ، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثَّقِفيّ، وعلى صنعاء يعلَى بن مُنْية، وعلى الجَنَد عبد الله بن أبي ربيعة، وعلى البصرة عبد الله بن عامر بن كُريز ـ خرج منها فلم يولِّ عليها عثمان أحداً ـ وعلى الكوفة سعيد بن العاص ـ أخرِج منها فلم يُترك يدخلها ـ وعلى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرْح ـ قدم على عثمان، وغلب محمد بن أبي حذيفة عليها. وكان عبد الله بن سعد استخلف على مصر السائب ابن هشام بن عمرو العامريّ، فأخرجه محمد بن أبي حذيفة ـ وعلى الشأم معاوية بن أبي سفيان.

وفيما كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان، قالا: مات عثمان رضي الله عنه وعلى الشام معاوية، وعامل معاوية على حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى قِنّسرين حبيب بن مسلمة، وعلى الأردن أبو الأعور بن سفيان، وعلى فلسطين علقمة بن حَكيم الكنانيّ، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاريّ. وعلى القضاء أبو الدّرداء.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة، قال: مات عثمان رضي الله عنه وعلى الكوفة، على صلاتها أبو موسى، وعلى خراج السَّواد جابر بن عمرو المزنيّ ـ وهو صاحب المسنّاة إلى جانب الكوفة ـ وسماك الأنصاريّ. وعلى حربها القعقاع بن عمرو، وعلى قَرْقيسياء جرير بن عبد الله، وعلى أذْرَبيجان الأشعث بن قيس، وعلى حُلْوان عُتَيبة بن النَّهّاس، وعلى ماه مالك بن حبيب، وعلى هَمَذان النُّسير، وعلى الرّيّ سعيد بن قيس، وعلى إصبهَان السائب بن الأقرع، وعلى ما سَبَذان حُبَيش، وعلى بيت المال عُقبة بن عمرو. وكان على قضاء عثمان يومئذ زيد بن ثابت.

ذكر بعض خطب عثمان رضي الله عنه

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن القاسم بن محمد، عن عون بن عبد الله بن عُتبة، قال: خطب عثمان الناس بعد ما بويع، فقال:

أمّا بعد؛ فإني قد حُمِّلت وقد قبلت؛ ألاَ وإني متّبع ولست بمبتدع؛ ألا وإنّ لكم عليّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتّباع مَن كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنُّ سنة أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ، والكفّ عنكم إلاّ فيما استوجبتم. ألا وإن الدنيا خَضِرة قد شُهّيتْ إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا مَن تركها.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن بدر بن عثمان، عن عمّه، قال: آخر خطبة خطبها

عثمان رضي الله عنه في جماعة:

إن الله عزّ وجلّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها؛ إن الدنيا تفنَى والآخرة تبقى، فلا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلَنَّكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنَى؛ فإنّ الدنيا منقطعة؛ وإنّ المصير إلى الله. اتّقوا الله جلّ وعزّ؛ فإن تقواه جُنّةٌ من بأسه، ووسيلة عنده؛ واحذروا من الله الغيَر، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً، ﴿ وَاذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ (١). إلى آخر القصّة.

ذكر الخبر عمَّن كان يصلّي بالناس في مسجد رسول الله ﷺ حين حصرِ عثمان

قال محمد بن عمر: حدّثني ربيعة بن عثمان: جاء المؤذن، سعدُ القَرَظ إلى عليّ بن أبي طالب في ذلك اليوم، فقال: مَن يصلّي بالناس؟ فقال عليّ: ناد خالد بن زيد، فنادىَ خالد بن زيد، فصلّى بالناس ـ فإنه لأوّل يوم عرِف أن أبا أيُّوب خالد بن زيد ـ فكان يصلّي بهم أياماً، ثم صلى عليّ بعد ذلك بالناس.

قال محمد: وحدّثني عبد الرحمن بن عبد العزيز، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، قال: جاء المؤذّن إلى عثمان فآذنه بالصّلاة، فقال: لا أنزل أصلّي؛ اذهب إلى مَنْ يصلي. فجاء المؤذن إلى عليّ، فأمر سهل بن حُنَيف، فصلّى اليوم الذي حُصِر فيه عثمان الحصْرَ الآخِر؛ وهو ليلةَ رُئِيَ هلال ذي الحجّة، فصلّى بهم؛ حتى إذا كان يوم العيد صلّى عليّ العيد، ثمصلّى بهم حتى قتل رضي الله عنه.

قال: وحدّثني عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر، قال: لما حُصِر عثمان صلى بالناس أبو أيُّوب أياماً، ثمصلّى بهم عليّ الجمعة والعيد، حتى قتل رضي الله عنه.

ذكر ما رُثِيَ به من الأشعار

وتقاول الشعراء بعد مقتله فيه؛ فمن مادحٍ وهاجٍ، ومن نائحٍ باكٍ، ومن سارّ فَرِح؛ فكان ممّن يمدحه حسّان بن ثابت وكعب بن مالك الأنصاريّان وتميم بن أبيّ بن مقبل في آخرين غيرهم. مما مدحه به وبكاه حسان وهجا به قاتله:

أتركتُمُ غَزْوَ الدُّروبِ وراءكُمْ ... وغَزَوتُمونا عند قبرِ محمَّدِ!
فلبئسَ هَدْيُ المسلمين هَدَيْتُمُ ... ولبئسَ أمرُ الفاجرِ المُتَعَمِّدِ!
إن تُقْدِموا نجعلْ قِرَى سَرَواتِكمْ ... حَوْلَ المدينةِ كلَّ لَيْنٍ مِذْوَدِ
أو تُدْبِروا فلبئسَ ما سافَرتُمُ ... وَلِمثْلُ أمرِ أميركم لم يُرْشَدِ
وكأنَّ أصحابَ النَّبيِّ عَشِيَّةً ... بُدْنٌ تُذَبَّحُ عِندَ بابِ المسجدِ
أبكي أبا عَمْرٍو لحُسْنِ بلائِه ... أمْسَى مُقِيماً في بَقيعِ الغَرْقَدِ

وقال أيضاً:

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

إنْ تُمْسِ دارُ ابْن أرْوَى مِنْه خاوِيَةً ... بابٌ صَريعٌ وبابٌ مُحْرَق خرِبُ
فقد يُصادِفُ باغي الخَيْرِ حاجتَهُ ... فيها ويهوي إليها الذِّكرُ والحَسَبُ
يأيُّها الناسُ أبْدوا ذاتَ أنْفُسِكُمْ ... لا يَسْتَوي الصِّدْقُ عند الله والكذِبُ
قوموا بِحَقِّ مليكِ الناسِ تَعْتَرِفوا ... بِغارةٍ عُصَبٍ مِنْ خَلفِها عُصَبُ
فيهم حبيبٌ شِهابُ المَوْتِ يَقْدُمُهُمْ ... مُسْتَلْئِماً قد بدَا في وَجْهِه الغضَبُ

وله فيه أشعار كثيرة. وقال كعب بن مالك الأنصاريّ:

يالِلرِّجالِ لِلُبِّكَ المخْطوفِ ... ولِدمْعِك المُتَرَقْرِقِ المنزوفِ
وَيْحٌ لأمرٍ قد أتاني رائعٍ ... هَدَّ الجبالَ فأنقضَتْ بِرُجوفِ
قَتْلُ الخليفةِ كان أمراً مُفْظِعاً ... قامَتْ لِذاك بَليَّةُ التخْويفِ
قَتْلُ الإمامِ له النجومُ خَواضِعٌ ... والشمسُ بازغةٌ له بكُسوفِ
يا لَهْفَ نفسي إذ تَوَلَّوْا غُدْوَةً ... بالنعش فوقَ عَواتقٍ وكُتوفِ!
وَلَّوْا ودَلَّوْا في الضَّريحِ أخاهُمُ ... ماذا أجَنَّ ضَريحُهُ المَسْقوفِ!
مِن نائلٍ أو سُؤدَدٍ وحَمالَةٍ ... سَبَقَتْ له في الناسِ أو معروفِ
كم مِنْ يَتيمٍ كانَ يَجْبُرُ عَظمَهُ ... أمْسى بمنزِلِهِ الضَّياع يطوفِ
ما زال يَقْبَلُهُمْ ويَرْأبُ ظُلمَهمْ ... حتى سمعْتُ بِرَنَّةِ التَّلهيفِ
أمْسَى مُقيماً بالبَقيعِ وأصبحوا ... مُتَفرِّقين قد آجمعوا بخفُوفِ
النارُ موعِدُهُمْ بقتلِ إمامِهِمْ ... عثمانَ ظَهْراً في البلادِ عَفيفِ
جَمعَ الحَمالةَ بعدَ حِلْمٍ راجحٍ ... والخيْرُ فيه مُبَيَّنٌ معروف
يا كعبُ لا تَنْفكّ تَبْكي مالكاً ... ما دُمْتَ حيّاً في البلاد تطوفِ
فآبكي أبا عمرو عَتيقاً واصلاً ... ولِواءهم إذ كان غيْرَ سَخيفِ
وليَبْكِهِ عِنْدَ الحفاظِ لِمُعْظِمٍ ... والخيْلُ بين مَقانبٍ وصُفوفِ
قَتلوك يا عثمانُ غيْرَ مُدنَّسٍ ... قَتْلاً لَعَمْرُكَ واقِفاً بِسقيفِ

وقال حسّان:

من سَرَّهُ الموتُ صِرْفاً لا مِزاجَ له ... فليأتِ مأسَدَةً في دارِ عُثْمانا
مُستشْعِري حَلَقِ الماذِيِّ قد شُفِعَتْ ... قبلَ المخاطمِ بَيْضٌ زانَ أبْدانا
صبْراً فِدًى لَكُمُ أمّي وما وَلَدتْ ... قد ينفعُ الصَّبْرُ في المَكْروهِ أحيانا
فقد رَضينا بأهلِ الشام نافِرةً ... وبالأميرِ وبالإخْوانِ إخْوانا
إنِّي لَمِنْهُمْ وإن غابوا وإن شَهِدُوا ... ما دُمْتُ حيًّا وما سُمّيتُ حَسَّانا
لَتَسْمعَنَّ وشيكاً في دِيارِهِمُ ... اللّهُ أكبرُ يا ثاراتِ عثمانا
يا ليتَ شعري وليتَ الطيْرَ تُخبِرُني ... ما كان شأنُ عَليٍّ وابْنِ عَفّانا!

وقال الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط يُحرّض عُمارة بن عُقبة:

ألا إنَّ خيْـر النـاسِ بـعـد ثـلاثـةٍ قتيلُ التُّجيبيّ الـذي جـاء من مِصْرِ
فـإن يـكُ ظَنّي بـابْنِ أمِّيَ صـادقـاً عُمـارةَ لا يَطْلُبْ بِـذَحْـلٍ ولا وِتْـرِ
يَبيتُ وأوتـارُ ابْـنِ عفّـانَ عِنْـدَهُ مـخيّـمـةٌ بيـن الخـورْنَـقِ والقَصْـرِ

فأجابه الفضل بن عباس:

أتـطلُبُ ثـأراً لـستَ مِنْـهُ ولا لَـهُ وأيْنَ ابْنُ ذَكوان الصَّفوريّ من عمرو!
كمـا اتَّصلَتْ بِنْتُ الحِمَـارِ بـأُمِّهـا وتَنسَى أبـاهـا إذ تُسامى أولى الفَخْرِ
ألا إنَّ خـيْرَ النـاسِ بـعـد محـمَّـدٍ وصيّ النَّبيّ المصطفى عِنْدَ ذي الذِّكرِ
وأوَّلُ مَـنْ صـلّى وصِـنْـوُ نَـبِـيّـه وأوّلُ مـن أردى الـغُـواةَ لَـدَى بَـدْرِ
فلوْ رَأتِ الأنصـارُ ظُـلْمَ ابنِ عـمِّكُـمْ لَكـانوا لـه من ظلمِهِ حـاضري النَّصْـرِ
كـفَى ذاكَ عَـيْبـاً أن يـشيـروا بـقَتْـلِه وأن يُسْلِمُـوهُ لِلأحـابيشِ من مِصرِ

وقال الحُباب بن يزيد المجاشعيّ، عمّ الفرزدق:

لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ فـلا تَـجْـزَعَـنْ لـقـد ذهـبَ الـخـيْـرُ إلّا قـلـيـلا
لـقـد سَـفِـهَ الـنـاسُ فـي ديـنـهـم وخَـلّى ابـنُ عَـفّـانَ شَـرّاً طـويـلا
أعـاذِلَ كُـلُّ امـرىءٍ هـالـكٌ فـسِـيـري إلـى اللهِ سَـيْـراً جـمـيـلا

خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب

وفي هذه السنة بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة بالخلافة.

ذكرُ الخبر عن بيعة من بايعه، والوقت الذي بويع فيه

اختلف السلف من أهل السِّيَر في ذلك، فقال بعضُهم: سأل عليّاً أصحابُ رسول الله ﷺ أن يتقلّد لهم وللمسلمين، فأبى عليهم؛ فلما أبَوْا عليه، وطلبوا إليه، تقلّد ذلك لهم.

ذكر الرواية بذلك عمّن رواه:

حدّثني جعفر بن عبد الله المحمّديّ، قال: حدّثنا عمرو بن حمّاد وعليّ بن حسين، قالا: حدّثنا حسين عن أبيه، عن عبد الملك بن أبي سليمان الفَزاريّ، عن سالم بن أبي الجَعْد الأشجعيّ، عن محمّد بن الحنفيّة، قال: كنتُ مع أبي حين قُتل عثمان رضي الله عنه، فقام فدخل منزلَه، فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: إنّ هذا الرّجل قد قُتل، ولا بدّ للناس من إمام، ولا نجد اليومَ أحداً أحقَّ بهذا الأمر منك؛ لا أقدمَ سابقةً، ولا أقربَ من رسول الله ﷺ. فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً؛ فقالوا: لا، والله ما نحن بفاعلين حتى نُبايعَك؛ قال: ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خَفِيّاً، ولا تكون إلّا عن رضا المسلمين. قال سالم بن أبي الجَعْد: فقال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتيَ المسجد مخافة أن يُشْغَب عليه؛ وأبى هو إلا المسجد، فلمّا دخل دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس.

وحدّثني جعفر، قال: حدّثنا عمرو وعليّ، قالا: حدّثنا حسين، عن أبيه، عن أبي ميمونة، عن أبي بشير العابديّ، قال: كنت بالمدينة حين قتِل عثمان رضي الله عنه، واجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة

والزُّبير، فأتوا علياً فقالوا: يا أبا حسن؛ هلمَّ نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمْركم، أنا معكم فمن اخْتَرْتم فقد رضيتُ به، فاختاروا والله فقالوا: ما نَخْتار غيرَك؛ قال: فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان رضي الله عنه مِراراً، ثمّ أتوْه في آخر ذلك، فقالوا له: إنه لا يَصْلح الناس إلاّ بإمْرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إليّ وأتيتم، وإنّي قائل لكم قولاً إن قبِلْتمُوه قبلت أمْركم، وإلاّ فلا حاجة لي فيه. قالوا: ما قلتَ من شيء قبلناه إن شاء الله. فجاء فصعد المنبرَ، فاجتمع الناس إليه، فقال: إني كنت كارِهاً لأمركم، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم؛ ألا وإنه ليس لي أمرٌ دونكم، إلاّ أنّ مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذَ منه درهماً دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهمّ اشهد عليهم، ثمّ بايعهم على ذلك.

قال أبو بشير: وأنا يومئذ عند منبر رسول الله ﷺ قائم أسمع ما يقول.

وحدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، قال: أخبرنا أبو بكر الهُذَليّ، عن أبي الملَيح، قال: لما قتِل عثمان رضي الله عنه، خرج عليّ إلى السوق، وذلك يوم السبت لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، فاتّبعه الناس وبهشوا في وجهه، فدخل حائطَ بني عمرو بن مبذول، وقال لأبي عمرة بن عمرو بنِ محْصَن: أغلق الباب، فجاء الناس فقرعوا الباب، فدخلوا، فيهم طلحة والزّبير، فقالا: يا عليّ ابسُط يَدك: فبايعه طلحة والزّبير، فنظر حبيب بن ذُؤَيْب إلى طلحة حين بايع، فقال: أوّل من بدأ بالبَيْعة يدٌ شلاّء؛ لا يتمّ هذا الأمر! وخرج عليٌّ إلى المسجد فصعِد المنبر وعليه إزارٌ وطاقٌ وعمامة خزّ، ونعلاه في يده، متوكئاً على قوس؛ فبايعه الناس. وجاؤوا بسَعْد، فقال عليّ: بايع، قال: لا أبايعُ حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس؛ قال: خلّوا سبيله. وجاؤوا بابن عمر، فقال: بايع، قال: لا أبايع حتى يبايع الناس، قال: ائتني بحمِيل، قال: لا أرَى حميلاً، قال الأشتر: خلِّ عنّي أضربْ عنقه، قال عليّ: دعوه، أنا حميلُه، إنك ـ ما علمت ـ لسيِّء الخلق صغيراً وكبيراً.

وحدّثني محمد بن سنان القزّاز، قال: حدّثنا إسحاق بن إدريس، قال: حدّثنا هشيم، قال: أخبرنا حميد، عن الحسن، قال: رأيت الزبير بن العوّام بايع عليا في حَشّ من حِشّان المدينة.

وحدّثني أحمد بن زُهير، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا وهب بن جرير، قال: سمعتُ أبي، قال: سمعت يونس بن يزيد الأيْليّ، عن الزُّهريّ، قال: بايع الناس عليّ بن أبي طالب، فأرسل إلى الزّبير وطلحة فدعاهما إلى البيعة، فتلكّأ طلحة، فقام مالك الأشتر وسلّ سيفه وقال: والله لتبايعنّ أو لأضربنّ به ما بين عينيك، فقال طلحة: وأين المهرب عنه! فبايعه، وبايعه الزّبير والناس. وسأل طلحة والزّبير أن يؤمّرهما على الكوفَة والبصرة، فقال: تكونان عندي فأتحمَّل بكما، فإني وَحْشٌ لفراقكما. قال الزّهريّ: وقد بلغنا أنه قال لهما: إنْ أحببتما أن تُبايعا لي وإن أحببتما بايعتكما، فقالا: بل نبايعك؛ وقالا بعد ذلك: إنما صنعنا ذلك خشيةً على أنفسنا، وقد عرفنا أنه لم يكن ليُبايعَنا. فظهرا إلى مكة بعد قَتْل عثمان بأربعة أشهر.

وحدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مِخْنف، عن عبد الملك بن أبي سُليمان، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن محمد بن الحنفيّة، قال: كنت أُمْسي مع أبي حين قُتِل عثمان رضي الله عنه حتى دخل بيتَه، فأتاه ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: إنّ هذا الرجل قد قُتِل، ولا بدّ من إمام للناس، قال: أوَ تكون شورى؟ قالوا: أنت لنا رضاً، قال: فالمسجد إذاً يكون عن رضاً من الناس. فخرج إلى المسجد فبايعه مَن

بايعه؛ وبايعت الأنصار عليّاً إلاّ نُفَيراً يسيراً، فقال طلحة: ما لنا من هذا الأمر إلا كحِسَّة أنف الكلب.

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: أخبرنا شيخٌ من بني هاشم، عن عبد الله بن الحسن، قال: لما قتِل عثمان رضي الله عنه بايعت الأنصار عليّاً إلاّ نُفَيراً يسيراً، منهم حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلَّد، وأبو سعيد الخُدْريّ، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خَديج، وفَضالة بن عُبَيد، وكعب بن عُجْرة، كانوا عثمانيّة. فقال رجل لعبد الله بن حسن: كيف أبَي هؤلاء بيعة عليّ! وكانوا عثمانية. قال: أما حسّان فكان شاعراً لا يُبالي ما يصنع؛ وأما زيد بن ثابت فولاّه عثمان الديوانَ وبيتَ المال، فلما حُصِر عثمان، قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصاراً لله. . . مرّتين، فقال أبو أيُّوب: ما تنصره إلا أنه أكثر لك من العِضْدان. فأما كعب بن مالك فاستعمله على صَدَقة مُزَيْنة وترك ما أخذ منهم له.

قال: وحدّثني مَنْ سمع الزّهريّ يقول: هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليّاً، ولم يبايعه قُدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلاّم، والمغيرة بن شعبة. وقال آخرون: إنما بايع طلحة والزبير عليّاً كَرهاً:

وقال بعضهم: لم يُبايِعْه الزّبير.

ذِكْرُ من قال ذلك:

حدّثني عبد الله بن أحمد المروزيّ، قال: حدثني أبي، قال: حدّثني سليمان، قال: حدّثني عبد الله، عن جرير بن حَازم، قال: حدّثني هشام بن أبي هشام مولى عثمان بن عفان، عن شيخ من أهل الكوفة، يحدّثه عن شيخ آخر، قال: حُصِر عثمان وعليّ بخَيْبر، فلما قدِم أرسل إليه عثمان يدعوه، فانطلق، فقلت: لأنطلقنّ معه ولأسمعنّ مقالتهما، فلما دخل عليه كلّمه عثمان، فحمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّ لي عليك حقوقاً؛ حقّ الإسلام، وحقّ الإخاء ـ وقد علمتَ أن رسولَ الله ﷺ حين آخَى بين الصّحابة آخى بيني وبينك ـ وحقّ القرابة والصِّهْر، وما جعلتَ لي في عنقك من العهد والميثاق، فوالله لو لم يكن من هذا شيء ثم كنّا إنما نحن في جاهليّة، لكان مُبَطَّأ على بني عبد مناف أن يبتزّهم أخو بني تَيْم مُلْكَهم.

فتكلم عليٌّ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فكلّ ما ذكرتَ من حقّك عليَّ على ما ذكرتَ، أمّا قولك: لو كنا في جاهليّة لكان مبطّأ على بني عبد مناف أن يبتزّهم أخو بني تَيْم ملكَهم فصدقتَ، وسيأتيك الخبر. ثمّ خرج فدخل المسجدَ فرأى أسامَة جالساً، فدعاه، فاعتمد على يده، فخرج يمشي إلى طلحة وتبعتُه، فدخلنا دار طلحة بن عبيد الله وهي دِحَاس من الناس، فقام إليه، فقال: يا طلحة، ما هذا الأمر الّذي وقعتَ فيه؟ فقال: يا أبا حسن، بعد ما مسّ الحزام الطُّبيين! فانصرف عليّ ولم يُحِرْ إليه شيئاً حتى أتى بيتَ المال، فقال: افتحوا هذا الباب، فلم يقدر على المفاتيح، فقال: اكسروه؛ فكُسر باب بيت المال، فقال: أخرجوا المال، فجعل يُعْطي الناس فبلغ الذين في دار طلحة الذي صنع عليّ، فجعلوا يتسللون إليه حتى تُرِك طلحة وحده. وبلغ الخبرُ عثمانَ، فسُرّ بذلك، ثمّ أقبل طلحة يمشي عائداً إلى دار عثمان، فقلت: والله لأنظرنّ ما يقول هذا؛ فتبعتُه، فاستأذن على عثمان، فلمّا دخل عليه قال: يا أميرَ المؤمنين، أستغفر الله وأتوب إليه، أردتُ أمراً فحال الله بيني وبينه، فقال عثمان: إنك والله ما جئت تائباً، ولكنك جئت مغلوباً، الله حسيبك يا طلحة!

وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص، عن أبيه، عن سعد، قال: قال طلحة: بايعتُ والسيف فوق رأسي - فقال سعد: لا أدري والسيف على رأسه أم لا، إلّا أني أعلم أنه بايع كارهاً - قال: وبايع الناس عليّاً بالمدينة، وتربّص سبعة نفر فلم يبايعوه؛ منهم: سعد بن أبي وقّاص، ومنهم ابن عمر، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وسلَمة بن وقْش، وأسامة بن زيد، ولم يتخلّف أحدٌ من الأنصار إلّا بايع فيما نعلم.

وحدّثنا الزّبير بن بكّار، قال: حدّثني عمي مصعب بن عبد الله، قال: حدّثني أبي عبد الله بن مصعب، عن موسى بن عقبة، عن أبي حبيبة مولى الزّبير، قال: لما قَتل الناس عثمانَ رضي الله عنه وبايعوا عليّاً، جاء عليٌّ إلى الزّبير فاستأذن عليه، فأعلمته به، فسلّ السيفَ ووضعه تحت فراشه، ثم قال: ائذن له، فأذنت له، فدخل فسلّم على الزّبير وهو واقفٌ بنحره، ثمّ خرج. فقال الزبير: لقد دخَلَ المرءَ ما أقْصاه، قُمْ في مقامه فانظر هل ترى من السيف شيئاً؟ فقمتُ في مقامه فرأيت ذباب السيف، فأخبرته فقال: ذاك أعجلَ الرّجلَ. فلما خرج عليّ سأله الناس، فقال: وجدتُ أبرَّ ابن أخْتٍ وأوصلَه. فظنّ الناس خيراً، فقال عليّ: إنه بايعه.

ومما كتب به إليّ السريّ عن شعيب، عن سَيْف بن عمر، قال: حدّثنا محمد بن عبد الله بن سواد بن نُوَيرة، وطلحة بن الأعلم، وأبو حارثة، وأبو عثمان، قالوا: بقِيت المدينة بعد قَتْل عثمان رضي الله عنه خمسة أيام، وأميرها الغافقيّ بن حرب يلتمسون من يُجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، يأتي المصريّون عليّاً فيختبىء منهم ويلوذُ بحيطان المدينة، فإذا لَقوْه باعدهم وتبرّأ منهم ومن مقالتهم مرّة بعد مرّة؛ ويطلب الكوفيون الزّبير فلا يجدونه، فأرسلوا إليه حيث هو رسُلاً، فباعدهم وتبرّأ من مقالتهم؛ ويطلب البصريون طلحَة فإذا لقيهم باعَدهم وتبرّأ من مقالتهم مرّة بعد مرّة؛ وكانوا مجتمعين على قَتْل عثمان مختلفين فيمن يهوَوْن، فلما لم يجدوا ممالِئاً ولا مُجيباً جمعهم الشرّ على أوّل من أجابهم، وقالوا: لا نولّي أحداً من هؤلاء الثلاثة، فبعثوا إلى سعد بن أبي وقّاص وقالوا: إنك من أهل الشورى فَرَأيُنا فيك مجتمع، فاقدَم نبايعك، فبعث إليهم: إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال؛ وتمثّل:

لا تَخلطَنَّ خبيثاتٍ بِطَيِّبَةٍ واخلع ثيابَك منها وانجُ عُريانا

ثمّ إنهم أتوْا ابنَ عمر عبد الله، فقالوا: أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر، فقال: إنّ لهذا الأمر انتقاماً واللهِ لا أتعرّض له، فالتمسوا غيري. فبقُوا حيارَى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم.

وكتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: كانوا إذا لقوا طلحةَ أبَى وقال:

ومن عَجَبِ الأيامِ والدَّهرِ أنني بقيتُ وحيداً لا أمِرُّ ولا أُحلِي

فيقولون: إنّك لتوعدنا. فيقومون فيتركونه، فإذا لَقُوا الزّبير وأرادوه أبى وقال:

متى أنت عن دارٍ بفَيْحان راحلٌ وباحتها تَخْنُو عليك الكتائبُ

فيقولون: إنك لتوعدنا! فإذا لقوا عليّاً وأرادوه أبي، وقال:

لو أنَّ قومي طاوَعَتني سَراتُهُمْ أمَرْتُهُمُ أمراً يُديخ الأعاديا

فيقولن: إنك لتوعدنا! فيقومون ويتركونه.

وحدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن المدائنيّ، قال: أخبرنا مسلمة بن محارب، عن داود بن أبي هند، عن الشعبيّ، قال: لما قتِل عثمان رضي الله عنه أتى الناسُ عليّاً وهو في سوق المدينة، وقالوا له: ابسُط يدك نبايعْك، قال: لا تعجلوا فإنّ عمر كان رجلًا مباركاً، وقد أوصى بها شورى، فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون. فارتدّ الناس عن عليّ؛ ثم قال بعضهم: إن رجع الناس إلى أمصارهم بقَتْل عثمان ولم يَقم بعده قائمٌ بهذا الأمر لم نأمن اختلافَ الناس وفساد الأمة، فعادوا إلى عليّ، فأخذ الأشْتَرُ بيده فقبضها عليّ، فقال: أبعد ثلاثة! أمَا والله لئن تركتَها لتقصرنّ عَنْيَتك عليها حيناً، فبايعته العامَّة. وأهل الكوفة يقولون: إنّ أوّل من بايعه الأشْتر.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان، قالا: لما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان رضي الله عنه، جمعوا أهل المدينة فوجدوا سعداً والزّبير خارجيْن، ووجدوا طلحة في حائط له، ووجدوا بني أميَّة قد هربوا إلّا من لم يُطِق الهرب، وهرب الوليد وسعيد إلى مكة في أوّل من خرج، وتبعهم مروان، وتتابع على ذلك مَنْ تتابع، فلما اجتمع لهم أهلُ المدينة قال لهم أهل مصر: أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامةَ، وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلًا تنصبونه، ونحن لكم تبَع. فقال الجمهور: عليّ بن أبي طالب نحن به راضون.

وأخبرنا عليّ بن مسلم، قال: حدّثنا حَبّان بن هلال، قال: حدّثنا جعفر بن سليمان، عن عوف، قال: أما أنا فأشهد أني سمعتُ محمد بن سيرين يقول: إنّ عليّاً جاء فقال لطلحة: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك، فقال طلحة: أنت أحقّ، وأنت أمير المؤمنين، فابسط يدَك، قال: فبسط عليّ يده فبايَعه.

وكتب إليّ السريّ عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: فقالوا لهم: دونكم يا أهل المدينة فقد أجّلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرُغوا لنقتلنّ غداًعليًّا وطلحة والزّبير وأناساً كثيراً. فغشى الناس عليّاً فقالوا: نُبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام؛ وما ابتُلينا به من ذوي القُربى، فقال عليّ: دعوني والتَمِسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدُك الله ألا ترى ما نرى! ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم؛ وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلّا أني أسمعكم وأطوَعكم لمن ولّيتموه أمركم. ثمّ افترقوا على ذلك واتّعدوا الغد. وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت. فبعث البصريّون إلى الزّبير بصريّاً، وقالوا: احذر لاتحادّه ـ وكان رسولهم حُكَيْم بن جبَلة العبديّ في نفر ـ فجاؤوا به يحدّونه بالسيف. وإلى طلحة كوفيّاً وقالوا له: احذر لاتحاده، فبعثوا الأشتر في نَفَر فجاؤوا به يحدّونه بالسيف. وأهلُ الكوفة وأهل البصرة شامتون بصاحبهم، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهلُ المدينة، وقد خشّع أهلَ الكوفة وأهل البصرة أن صاروا أتباعاً لأهل مصر وحِشْوة فيهم، وازدادوا بذلك على طلحة والزّبير، غيظاً، فلما أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد، وجاء عليّ حتى صعد المنبر، فقال: يا أيُّها الناس ـ عن ملاءٍ وإذن ـ إنّ هذا أمرُكم ليس لأحد فيهِ حقّ إلّا من أمرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلّا فلا أجِد على أحد. فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس. وجاء القوم بطلحة فقالوا: بايع، فقال: إني إنّما أبايع كرهاً، فبايع ـ وكان به شلل ـ أوّل

الناس، وفي الناس رجل يعتاف، فنظر من بعيد، فلما رأى طلحة أوّل من بايع قال: إن لله وإنا إليه راجعون! أوّل يد بايعت أمير المؤمنين يدٌ شلّاء، لا يتمّ هذا الأمر! ثم جيء بالزّبير فقال مثل ذلك وبايع - وفي الزبير اختلاف - ثم جِيء بقوم كانوا قد تخلّفوا فقالوا: نُبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد، والعزيز والذّليل، فبايعهم؛ ثمّ قام العامّة فبايعوا.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن أبي زُهير الأزديّ، عن عبد الرحمن بن جندَب، عن أبيه، قال: لما قتل عثمان رضي الله عنه واجتمع الناس على عليّ، ذهب الأشْتَر فجاء بطلحة، فقال له: دعني أنظر ما يصنع الناس، فلم يَدعَه وجاء به يتُلّه تَلّاً عنيفاً، وصعد المنبر فبايع.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن الحارث الوالبيّ، قال: جاء حُكَيم بن جبلة بالزّبير حتى بايع؛ فكان الزّبير يقول: جاءني لصٌّ من لُصوص عبد القيس فبايعت واللُّجّ على عنقي.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وبايع النّاس كلهم.

قال أبو جعفر: وسمح بعد هؤلاء الذين اشترطوا الذين جيء بهم، وصار الأمر أمر أهل المدينة،وكانوا كما كانوا فيه، وتفرّقوا إلى منازلهم لولا مكان النُّزّاع والغوغاء فيهم.

اتّساق الأمر في البيعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام

وبويع عليّ يوم الجمعة لخمس بقِين من ذي الحجّة - والناس يحسُبون من يوم قتِل عثمان رضي الله عنه - فأوّل خطبة خطبها عليّ حين استُخلف - فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سليمان بن أبي المغيرة، عن عليّ بن الحسين - حمد الله وأثنى عليه، فقال:

إنّ الله عزّ وجلّ أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشرّ، فخذوا بالخير ودعوا الشرّ. الفرائضَ أدّوها إلى الله سبحانه يؤدّكم إلى الجنّة إنّ الله حرّم حُرَماً غير مجهولة، وفضّل حُرْمة المسلم على الحُرَم كلّها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين. والمسلم مَن سلم النّاس من لسانه ويده إلا بالحقّ، لا يحلّ أذى المسلم إلّا بما يجب. بادروا أمر العامة، وخاصّة أحدكم الموتُ، فإنّ الناس أمامكم، وإنّ ما من خلفكم الساعةُ تحدوكم. تخفّفوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم. اتّقوا الله عبادَه في عباده وبلاده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عزّ وجلّ ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشرّ فدعوه، ﴿ واذْكُرُوا إذْ أنْتُمْ قَليلٌ مُسْتَضْعَفُون فِي الأرْضِ ﴾[1].

ولما فرغ عليّ من خطبته وهو على المنبر قال المصريون:

خُـذْهـا . . . واحْـذَراً أبـا حَـسَـنْ ‏ ‏ ‏ ‏ إنّـا نـمِـرُّ الأمْـرَ إمْـرارَ الـرَّسَـنْ

وإنما الشعر:

خـذهـا إليـكَ واحـذراً أبـا حَسَنْ

---

(١) سورة الأنفال: ٤١.

فقال عليٌّ مجيباً: -

إني عَجَزتُ عَجزَةً ما أعْتَذرْ سَوْفَ أكيسُ بعْدَها وأسْتَمِرّ

وكتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: ولما أراد عليّ الذهاب إلى بيته قالت السّبئيّة:

خذها إليك واحذراً أبا حسنْ إنّا نُمِرُّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ
صَوْلَةَ أقْوامٍ كأسْدادِ السُّفُنْ بِمشْرَفيّاتٍ كَغُدْرانِ اللّبَنْ
وَنطعن المُلكَ بِلَيْنٍ كالشَّطَنْ حتى يُمَرَّنَّ على غَيرِ عَنَنْ

فقال عليّ وذكر تركهم العسكر والكينونة على عِدَة ما مُنُّوا حين غمزوهم ورجعوا إليهم، فلم يستطيعوا أن يمتنعوا حتى . . .

إنّي عجزتُ عجزةً لا أعتذِرْ سوف أكِيسُ بعدها وأستمرْ
أرْفَعُ مِنْ ذَيلِيَ ما كنْتُ أجُرّ وأجْمَعُ الأمْرَ الشَّتيتَ المُنْتَشِرْ
إن لم يُشاغِبْني العَجُولُ المُنْتَصرْ أو يَتْرُكوني والسِّلاحُ يُبْتَدَرْ

واجتمع إلى عليّ بعد ما دخل طلحة والزّبير في عدّة من الصّحابة، فقالوا: يا عليّ، إنّا قد اشترطنا إقامةَ الحدُود، وإنّ هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرّجل وأحلّوا بأنفسهم. فقال لهم: يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! ها هُمْ هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانُكم، وثابت إليهم أعرابُكم، وهم خِلالَكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترَوْن موضعاً لقُدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلّا رأياً ترونه إن شاء الله؛ إنّ هذا الأمر أمرُ جاهليّة، وإنّ لهؤلاء القوم مادّة؛ وذلك أن الشيطان لم يشرَع شريعة قطّ فيبرحِ الأرضَ من أخذ بها أبداً. إنّ الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على أمور: فرْقة ترى ما تروْن، وفرْقة ترى مَا لَا تَرون ، وفِرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوبُ مواقعَها وتُؤخَذ الحقوق، فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم، ثمّ عودوا.

واشتدّ على قريش؛ وحالَ بينهم وبين الخروج على حالٍ، وإنما هَيّجه على ذلك هربُ بني أميّة. وتفرّق القوم؛ وبعضهم يقول: والله لئن ازداد الأمرُ لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار؛ لَتَرْكُ هذا إلى ما قال عليّ أمثل. وبعضهم يقول: نقضي الّذي علينا ولا نؤخّره، ووالله إنّ عليّا لمستغنٍ برأيه وأمره عنا، ولا نراه إلّا سيكون على قُريش أشدّ من غيره. فذُكر ذلك لعليّ فقام فحمد الله وأثنى عليه وذكر فَضْلهم وحاجته إليهم ونظرَه لهم وقيامه دونهم، وأنه ليس له من سلطانهم إلّا ذلك، والأجر من الله عزّ وجلّ عليه، ونادى: برئت الذّمة من عبدٍ لم يرجع إلى مواليه. فتذامَرت السّبئيّة والأعراب، وقالوا: لنا غداً مثلها، ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء.

وكتب يّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: خرج عليٌّ في اليوم الثالث على الناس، يا أيُّها الناس، أخرجوا عنكم الأعْراب. وقال: يا معشر الأعراب، الحقوا بمياهكم. فأبت السّبئيَّة وأطاعهم الأعراب. ودخل عليٌّ بيته ودخل عليه طلحة والزّبير وعدّة من أصحاب النبيّ ﷺ، فقال: دونكم ثأركم فاقتلوه، فقالوا: عَشوْا عن ذلك، قال: هم والله بعد اليوم أعْشى وآبى. وقال:

لـو أنَّ قـومي طـاوعَتْني سَـرَاتُـهُم   أمَـرْتُـهُـمُ أمْـراً يُـديـخُ الأعـاديـا

وقال طلحة: دعني فلآت البصرة فلا يفْجئك إلّا وأنا في خيل، فقال: حتى أنظر في ذلك. وقال الزّبير: دعني آتِ الكوفة فلا يفجئك إلّا وأنا في خيل، فقال: حتى أنظر في ذلك؛ وسمع المغيرة بذلك المجلس فجاء حتى دخل عليه، فقال: إنّ لك حقّ الطاعة والنصيحة، وإنّ الرّأي اليوم تُحرز به ما في غد، وإنّ الضَّيَاع اليومَ تضيِّع به ما في غد؛ أقْرِرْ معاوية على عَمله، وأقرر ابنَ عامر على عمله، وأقرر العمّال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعةُ الجنود استَبْدَلْت أو تركت. قال: حتى أنظر.

فخرج من عنده وعاد إليه من الغد، فقال: إني أشرت عليك بالأمس برَأي، وإنّ الرأي أن تعاجلهم بالنزوع، فيعرف السامع من غيره ويستقبل أمرك؛ ثمّ خرج وتلقّاه ابن عباس خارجاً وهو داخل، فلما انتهى إلى عليّ قال: رأيت المغيرَة خرج من عندك ففيم جاءك؟ قال: جاءني أمس بذَيَّةَ وَذَيَّةَ، وجاءني اليوم بذَيَّة وذَيَّة، فقال: أمّا أمس فقد نَصَحك، وأما اليوم فقد غشّك. قال: فما الرّأي؟ قال: كان الرّأي أن تخرج حين قُتِل الرّجل أو قبل ذلك، فتأتيَ مكة فتدخل دارك وتغلق عليك بابَك، فإن كانت العـربُ جائلة مضطربة في أثرك لا تجد غيرك؛ فأمّا اليوم فإنّ في بني أميّة من يستَحْسنون الطلب بأن يلزموك شعبةً من هذا الأمر، ويشبّهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهلُ المدينة، ولا تقدر على ما يريدون ولا يقدرون عليه، ولو صارت الأمور إليهم حتى يصيروا في ذلك أمْوَت لحقوقهم؛ واترك لها إلا ما يعجّلون من الشبهة. وقال المغيرة: نصحتُه والله، فلما لم يقبل غشَشْتُه. وخرج المغيرة حتى لحق بمكة.

حدّثني الحارث، عن ابن سعد، عن الواقديّ، قال: حدّثني ابن أبي سَبْرة، عن عبد المجيد بن سهيل، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة، عن ابن عباس، قال: دعاني عثمان فاستَعْلمني على الحجّ، فخرجت إلى مكة فأقمت للناس الحجّ، وقرأتُ عليهم كتابَ عثمان إليهم، ثمّ قدِمْت المدينة وقد بويع لعليّ؛ فأتيتُه في داره فوجدتُ المغيرة بن شُعبة مستَخْلياً به، فحبسني حتى خرج من عنده، فقلت: ماذا قال لك هذا؟ فقال: قال لي قبل مَرّته هذه: أرْسِلْ إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمّال عثمان بعهُودهم تُقرّهم على أعمالهم ويبايعون لك الناس، فإنّهم يهدّئون البلاد ويسكّنون الناس؛ فأبيتُ ذلك عليه يومئذ وقلتُ: والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدتُ فيها رأيي، ولا ولّيتُ هؤلاء ولا مثلُهم يُولّى.

قال: ثمّ انصرف من عندي وأنا أعرفُ فيه أنه يرى أني مخطىء؛ ثمّ عاد إليَّ الآن فقال: إنّي أشرتُ عليك أوّل مرّة بالذي أشرتُ عليك وخالَفتني فيه، ثمّ رأيتُ بعد ذلك رأياً، وأنا أرى أن تصنع الذي رأيتَ فتنزعهم وتستعين بمن تَثِق به، فقد كفى الله، وهم أهْون شوكةً مما كان. قال ابن عباس: فقلتُ لعليّ: أما المرّة الأولى فقد نصحك، وأما المرّة الآخرة فقد غشّك؛ قال له عليّ: ولِمَ نصحني؟ قال ابن عباس: لأنّك تعلم أن مُعاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تُثْبِتهم لا يبالوا بمن ولِّيَ هذا الأمر، ومتى تعـزلْهم يقولوا: أخَذَ هذا الأمْرَ بغير شورى، وهو قتلَ صاحبنا؛ ويؤلِّبون عليك فينتقض عليك أهـلُ الشام وأهـلُ العراق، مع أني لا آمن طلحة والزّبير أن يكرّا عليك. فقال عليّ: أمّا ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشكّ أنّ ذلك خيرٌ في عاجل الدّنيا لإصلاحها، وأما الذي يلزمني من الحقّ والمعرفة بعمّال عثمان فوالله لا أولّي منهم أحداً أبداً؛ فإن أقبلوا فذلك خيرٌ لهم: وإن أدْبروا بذلت لهم السيف. قال ابن عباس: فأطِعْني وادخل دارَك، والحق بمالِك بيَنْبُع، وأغلق بابك عليك؛ فإنّ العرب تجول جولةً وتضطربُ ولا تجد غيرَك، فإنك والله لئن نَهضْت مع

هؤلاء اليوم ليُحَمّلَنَّك الناس دمَ عثمان غداً. فأبى عليّ، فقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد ولّيتُكها؛ فقال ابن عباس: ما هذا برأي؛ معاويةُ رجلٌ من بني أميّة وهو ابنُ عمّ عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عُنُقي لعثمان، أو أدْنى ما هو صانعٌ أن يحبسني فيتحكّم عليّ. فقال له عليّ: ولِمَ؟ قال: لقرابة ما بيني وبينك، وإنّ كلّ ما حمِل عليك حمِل عليّ، ولكن اكتب إلى معاوية فمنّه وعِده. فأبى عليّ وقال: والله لا كان هذا أبداً.

قال محمّد: وحدّثني هشام بن سعد، عن أبي هلال، قال: قال ابن عبّاس: قدِمْت المدينة من مكة بعد قتل عثمان رضي الله عنه بخمسة أيام، فجئْتُ عليًّا أدخل عليه، فقيل لي: عنده المغيرةُ بن شعبة؛ فجلستُ بالباب ساعةً، فخرج المغيرة فسلّم عليّ فقال: متَى قدِمت؟ فقلت: الساعةَ. فدخلتُ على عليّ فسلّمتُ عليه، فقال لي: لقيتَ الزّبير وطلحة؟ قال: قلت: لقيتهما بالنَّواصف. قال: مَن معهما؟ قالت: أبو سعيد بن الحارث بن هشام في فِئة من قُريش. فقال عليّ: أما إنهم لن يَدَعوا أن يخرجوا يقولون: نطلب بدم عثمان؛ والله نعلم أنهم قتلة عثمان. قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، أخبِرْني عن شأن المغيرة، ولِمَ خلا بك؟ قال: جاءني بعد مَقْتل عثمان بيومين، فقال لي: أخْلِني، ففعلت؛ فقال: إنّ النّصح رخيص وأنت بقيّة الناس، وإني لك ناصح، وإني أشير عليك بردّ عمال عثمان عامَك هذا؛ فاكتب إليهم بإثْباتهم على أعمالهم، فإذا بايَعوا لك واطمأنّ الأمْرُ لك عزَلْت من أحْببت وأقرَرْت من أحبَبْت. فقلتُ: والله لا أدهِن في ديني ولا أعطي الدّنيّ في أمري. قال: فإن كنت قد أبَيْتَ عليّ فانزع من شئت واترك معاوية، فإنّ لمعاوية جُرْأة، وهو في أهل الشام يُسمع منه، ولك حُجّة في إثباته؛ كان عمر بن الخطاب قد ولّاه الشام كلها، فقلتُ: لا والله، لا أستعمل معاويةَ يومين أبداً. فخرج من عندي على ما أشار به، ثمّ عاد فقال لي: إنّي أشرتُ عليك بما أشرتُ به فأبيتَ عَلَيَّ، ثم نظرتُ في الأمر فإذا أنتَ مصيبٌ، لا ينبغي لك أن تأخُذ أمرك بخَدْعة، ولا يكون في أمرك دُلْسة. قال: فقال ابن عباس: فقلت لعليّ: أمّا أوّل ما أشار به عليك فقد نصَحك، وأما الآخِر فغَشّك؛ وأنا أشيرُ عليك بأن تُثْبِت معاوية، فإن بايع لك فعليّ أن أقلِعَهُ من منزله. قال عليٌّ: لا والله، لا أعطيه إلاّ السيف. قال: ثم تمثّل بهذا البيت:

مـا ميتـة إن مُتُّهـا غيْـرَ عـاجـزٍ ... بِعـارٍ إذا مـا غـالَتِ النفسَ غـولُهـا

فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أنت رجلٌ شجاع لست بأرِب بالحرْب، أمَا سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «الحرب خُدعة»! فقال عليّ: بلى، فقال ابن عباس: أما والله لئن أطَعْتَني لأصدُرَنّ بهم بعدوِرْدٍ، ولأتركنّهم ينظرون في دُبُر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها، في غير نُقصانٍ عليك ولا إثم لك. فقال: يا بن عباس، لستُ من هُنيئاتك وهنيئات معاويةَ في شيء، تُشير عليّ وأرى، فإذا عصيتُك فأطعني. قال: فقلت: أفْعل، إنّ أيسر مَا لَكَ عندي الطاعة.

مسيرُ قُسْطنطين ملك الرُّوم يُريد المسلمين

وفي هذه السنة ـ أعني سنة خمس وثلاثين ـ سار قسطنطين بن هِرَقل ـ فيما ذكر محمد بن عمر الواقديّ عن هشام بن الغاز، عن عبادة بن نُسيّ ـ في ألف مَركب يُريد أرضَ المسلمين، فسلّط الله عليهم قاصِفاً من الرّيح فغرّقهم، ونجا قسطنطين بن هِرَقل، فأتى صِقِلّيّة، فصنعوا له حمّاماً فدخله فقتلوه فيه: وقالوا: قتلتَ رجالَنا.

فهرس موضوعات المجلد الثاني